تفسير الخازن

المسمّى

لباب التأويل في معاني التنزيل

للإمام علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي
الشهير بالخازن
المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

ومعه

تفسير البغوي

المسمّى

معالم التنزيل

للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود
الفرّاء البغوي الشافعي
المتوفى سنة ٥١٦ هـ

ضبطه وصححه

عبد السلام محمد علي شاهين

الجزء الثاني

المحتوى

أول سورة النساء - آخر سورة الأعراف

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠

تفسير سورة النساء

مدنية وهي مائة وخمس وسبعون آية وثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة وستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفاً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب للكافة فهو كقوله يا بني آدم ﴿اتقوا ربكم﴾ أي احذروا أمر ربكم أن تخالفوه فيما أمركم به أو نهاكم عنه ثم وصف نفسه بكمال القدرة فقال تعالى ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ يعني من أصل واحد وهو آدم أبو البشر عليه السلام وإنما أنث الوصف على لفظ النفس وإن كان المراد به الذكر فهو كما قال بعضهم:

أبوك خليفة ولدته أخرى ... وأنت خليفة ذاك الكمال

فإنما قال ولدته أخرى لتأنيث ﴿وخلق منها زوجها﴾ يعني حواء وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ألقى عليه النوم ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو قصير. فلما استيقظ رآها جالسة عند رأسه فقال لها: من أنت؟ قالت: امرأة قال: لماذا خلقت قالت خلقت لتسكن إليّ فمال إليها وألفها لأنها خلقت منه واختلفوا في أي وقت خلقت حواء. فقال كعب الأحبار ووهب وابن إسحاق خلقت قبل دخوله الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس إنما خلقت في الجنة بعد دخوله إياها ﴿وبث منهما﴾ يعني نشر وأظهر من آدم وحواء ﴿رجالاً كثيراً ونساء﴾ إنما وصف الرجال بالكثرة دون النساء لأن حال الرجال أتم وأكمل وهذا كالتنبيه عن أن اللائق بحال الرجال الظهور والاستشهار وبحال النساء الاختفاء والخمول ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به﴾ إنما كرر التقوى للتأكيد وأنه أهل أن يتقى والتساؤل بالله هو كقولك أسألك بالله واحلف عليك بالله واستشفع إليك بالله ﴿والأرحام﴾ قرىء بفتح الميم ومعناه واتقوا الأرحام أن تقطعوها وقرىء بكسر الميم فهو كقولك سألتك بالله وبالرحم وناشدتك بالله وبالرحم لأن العرب كان من عادتهم أن يقولوا ذلك والرحم القرابة. وإنما استعير اسم الرحم للقرابة لأنهم خرجوا من رحم واحدة وقيل هو مشتق من الرحمة لأن القرابة يتراحمون ويعطف بعضهم على بعض. وفي الآية دليل على تعظيم

سُوْرَةُ النِّساءِ

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناسُ اتقُوا ربَّكم الذي خلقكمْ مِنْ نفسٍ واحدةٍ ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ﴿ وخلق منها زوجَها ﴾، يعني: حوّاء، ﴿ وبثَّ منهما ﴾، نشر وأظهر، ﴿ رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا اللَّهَ الذي تَساءَلُونَ بِهِ ﴾، أي: تتساءلون به، قرأ أهل الكوفة بتخفيف السين على حذف إحدى التاءين، كقوله تعالى: ﴿ ولا

حق الرحم والنهي عن قطعها ويدل على ذلك أيضاً الأحاديث الواردة في ذلك (ق) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله (ق) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال من سره أن يبسط عليه من رزقه وينسأ في أنزه فليصل رحمه قوله وينسأ في أثره أي يؤخر له في أجله. (ق) عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال «لا يدخل الجنة قاطع» قال سفيان في روايته يعني قاطع رحم وعن الحسن قال من سألك بالله فأعطه ومن سألك بالرجم فأعطه وعن ابن عباس قال: الرحم معلقة بالعرش فإذا أتاها الواصل بشت به وكلمته وإذا أتاها القاطع احتجبت عنه ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ يعني حافظاً والرقيب في صفة الله تعالى هو الذي لا يغفل عما خلق فليحقه نقص ويدخل عليه خلل وقيل هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء من أمر خلقه فبيّن بقوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ إنه يعلم السر وأخفى، وإذا كان كذلك فهو جدير بأن يخاف ويتقى. قوله عز وجل: .

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾

﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم كان في حجره فلما بلغ اليتيم طلب المال الذي له فمنعه عمه فترافعا إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال: «أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ودفع إلى اليتيم ماله فقال النبي ﷺ: من يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا. فإنه يحل داره يعني جنته فلما قبض الصبي أنفقه في سبيل الله فقال النبي ﷺ: ثبت الأجر وبقي الوزر فقالوا كيف ثبت الأجر وبقي الوزر؟ قال ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على أبيه. والخطاب في قوله تعالى ﴿وآتوا﴾ للأولياء والأوصياء واليتامى جمع يتيم وهو الصبي الذي مات أبوه واليتيم في اللغة الانفراد ومن الدرة اليتيمة لانفرادها واسم اليتيم يقع على الصغير والكبير لغة لبقاء معنى الانفراد عن الآباء لكن في العرف اختص اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال. فإذا بلغ الصبي وصار يستغني بنفسه عن غيره زال عنه اسم اليتم وسئل ابن عباس اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتم؟ قال إذا أونس منه الرشد وإنما سماهم يتامى بعد البلوغ على مقتضى اللغة أو لقرب عهدهم باليتم وإن كان قد زال عنهم بالبلوغ وقيل المراد باليتامى الصغار الذين لم يبلغوا والمعنى ﴿وآتوا اليتامى

تَعاوَنوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿ والأرْحامَ ﴾، قراءة العامّة بالنصب، أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرأ حمزة بالخفض، أي: به وبالأرحام كما يقال: سألتُك بالله و الأرحام، والقراءة الأولى أفصح لأن العربَ لا تكاد تنسّق بظاهر على مُكنّى إلّا بعد أن تعيد الخافض فتقول: مررتُ به وبزيد، إلّا أنه جائز مع قلّته، ﴿ إنّ اللّهَ كان عليكم رقيباً ﴾، أي: حافظاً.

قوله تعالى: ﴿ وآتُوا اليتامَى أموالَهم ﴾، قال مقاتل والكلبي: نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ يتيم، فلمّا بلغَ اليتيمُ طلبَ المالَ فمنعه عمّه فترافَعا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية، فلما سمع العمُّ قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذُ بالله من الحَوْبِ الكبير، فدفع إليه ماله فقال النبي ﷺ: «مَن يُوقَ شُحَّ نفسه ويُطِعْ ربَّه هكذا فإنه يَحِلُّ دارَه»، يعني: جنته، فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «ثبت الأجر وبقيَ الوزرُ» فقالوا: كيف بقي الوزرُ؟ فقال: «ثبت الأجر للغلام وبقي الوزرَ على والده»، وقوله: ﴿ وآتُوا ﴾ خطاب للأولياء والأوصياء، واليتامى: جمع يتيم، واليتيم: اسم لصغيرٍ لا أبَ له ولا جدّ، وإنما يدفع المال إليهم بعد

أموالهم﴾ بعد البلوغ وتحقق الرشد وقيل معناه وآتوا اليتامى الصغار ما يحتجون إليه من نفقة وكسوة والقول الأول هو الصحيح إذا المراد باليتامى البالغون لأنه لا يجوز دفع المال إلى اليتيم إلا بعد البلوغ وتحقق الرشد ﴿ولا تتبدلوا﴾ أي ولا تستبدلوا ﴿الخبيث بالطيب﴾ يعني الخبيث الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم واختلفوا في هذا التبديل فقال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء، فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة ويجعل مكانها الهزيلة ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزيف ويقول شاة بشاة ودرهم بدرهم فذلك تبديلهم فنهوا عنه وقال عطاء هو الربح في مال اليتيم وهو صغير لا علم له بذلك. وقيل إنه ليس بإبدال حقيقة. وإنما هو أخذه مستهلكاً وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء والصغار وإنما كان يأخذ الميراث الأكابر من الرجال وقيل هو أكل مال اليتيم عوضاً عن أكل أموالهم فنهوا عن ذلك ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ يعني مع أموالكم وقيل معناه ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم في الإنفاق واعلم أن الله تعالى نهى عن أكل مال اليتيم وأراد به جميع التصرفات المهلكة للمال وإنما ذكر الأكل لأنه معظم المقصود ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ يعني أن أكل مال اليتيم من غير حق إثم عظيم والحوب الإثم. قوله عز وجل: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ يعني وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن فانكحوا غيرهن من الغرائب (ق) عن عروة أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنهما عن قوله تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء - إلى قوله - أو ما ملكت أيمانكم﴾ قالت يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن ينتقص صداقها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة رضي الله عنها فاستفتى الناس رسول الله ﷺ بعد ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ويستفتونك في النساء - إلى - وترغبون أن تنكحوهن﴾ فبيّن الله لهم هذه الآية أن اليتيمة إذا

البلوغ، وسمّاهم يتامى ههنا على معنى أنهم كانوا يتامى، ﴿ولا تتبدّلوا﴾، لا تستبدلوا، ﴿ الخبيثَ بالطيب ﴾، أي: مالهُم الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم، واختلفوا في هذا التبديل، قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي: كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلـون مكانه الرديء، فربّما كان أحد يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدرهمَ الجيد ويجعل مكانه الزيف، ويقول: درهمٌ بدرهم، فنُهوا عن ذلك، وقيل: كان أهل الجاهلية لا يُورِّثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبرُ الميراثَ، فنصيبه من الميراث طيب، وهذا الذي يأخذه من نصيب غيره خبيث، وقال مجاهد: لا تتعجّلِ الرزقَ الحرام قبل أن يأتيك الحلال. ﴿ ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالِكم ﴾، أي: مع أموالكم، كقوله تعالى: ﴿ مَن أنصاري إلى الله ﴾ [آل عمران: ٥٢، الصَّف: ١٤] أي: مع الله، ﴿ إنه كان حَوْباً كبيراً ﴾، إثماً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿ وإن خفتم ألاّ تُقسطوا في اليتامَى فانكِحُوا مَا طَابَ لكم مِنَ النساءِ مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ ﴾، اختلفوا في تأويلهم، فقال بعضهم: معناه إن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهنّ إذا نكحتموهنّ فانكِحُوا غيرَهنّ من الغرائب مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري قال: كان عروة بن الزبير يحدّث أنه سأل عائشة رضي الله عنها ﴿ وإن خفتم ألاّ تُقسِطُوا في اليتامى فانِكحُوا ما طابَ لكم مِنَ النساء ﴾ قالت هي اليتيمة تكون في حجر وليّها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن يتزوجَها بأدنى من سنة نسائها، فنُهوا عن نكاحهنّ إلاّ أن يقسطوا لهنّ في إكمال الصداق، وأُمروا بنكاح مَن سواهنّ من النساء، قالت عائشة رضي الله عنها: ثم استفتى الناسُ رسولَ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ ويستفتونك في النساء قل اللّهُ يُفتيكم فيهنّ ﴾ إلى قوله تعالى:

كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها في إكمال الصداق وإن كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء قال فكلما يتركونها حين يرغبونها عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى من الصداق. وقال الحسن كان الرجل من أهل المدينة تكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لأجل مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يدخل غريب فيشاركه في مالها ثم يسيء صحبتها ويتربص بها إلى أن تموت فيورثها فعاب الله ذلك عليهم وأنزل هذه الآية. وقال عكرمة في روايته عن ابن عباس كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء أو أكثر فإذا صار معدماً من نساء مال إلى مال يتيمته التي في حجره فأنفقه فقيل لهم: لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ مال اليتامى وقيل كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء فيتزوجون ما شاؤوا فربما عدلوا وربما لم يعدلوا فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾ أنزل هذه الآية ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى**﴾ يقول فكلما خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء ألا تعدلوا فيهن فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن، لأن النساء في الضعف كاليتامى. وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي: ثم رخص الله تعالى في نكاح أربع فقال تعالى: ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء**﴾ يعني ما حل لكم من النساء واستدلت الظاهرية بهذه الآية على وجوب النكاح قالوا لأن قوله فانكحوا أمر والأمر للوجوب. وأجيب عنه بأن قوله تعالى فانكحوا إنما هو بيان لما يحل من العدد في النكاح وتمسك الشافعي في بيان أن النكاح ليس بواجب بقوله ﴿**ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح**﴾ إلى قوله ﴿**ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم**﴾ الآية فحكم في هذه السورة بأن ترك النكاح خير من فعله وذلك يدل على أنه ليس بواجب ولا مندوب وقوله تعالى: ﴿**مثنى وثلاث ورباع**﴾ معناه اثنين اثنين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً وهو غير منصرف لأنه اجتمع فيه أمران: العدل والوصف والواو بمعنى أو في

﴿ وترغَبُونَ أنْ تنكحوهنّ ﴾ [النساء: ١٢٧] فبيّن الله تعالى في هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال أو مال، رَغِبُوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلّة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلّا أن يُقسطوا لها الأوْفَى من الصداق ويُعطوها حقَّها، قال الحسن: كان الرجل من أهل الجاهلية تكون عنده الأيتام وفيهنّ مَن يحلّ له نكاحها فيتزوجها لأجْلِ مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يُدخل غريبٌ فيشاركه في مالها، ثم يسيء صحبتها ويتربص أن تموت ويرثها، فعاب الله تعالى ذلك، وأنزل الله هذه الآية، وقال عكرمة: كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر فإذا صار معدماً من مؤمنِ نسائه مالَ إلى مالِ يتيمته التي في حجره فأنفقه، فقيل لهم: لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ أموال اليتامى، وهذه رواية طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال بعضهم: كانوا يتحرّجون عن أموال اليتامى ويترخصون في النساء، فيتزوجون ما شاؤوا وربما عدلوا وربما لم يعدلوا، فلما أنزل الله تعالى في أموال اليتامى ﴿ وآتُوا اليتامى أموالَهم ﴾ أنزل هذه الآية ﴿ وإن خِفتُم ألاّ تُقسطوا في اليتامى ﴾، يقول كما خفتم أن لا تُقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهنّ فلا تتزوجوا أكثر مما يُمكنكم القيام بحقوقهنّ، لأن النساء في الضعف كاليتامى، وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي، ثم رُخّص في نكاح أربع فقال: ﴿ فانكِحُوا ما طابَ لكم من النساء مثنى وثُلاثَ ورُباعَ فإن خِفتُم ألاّ تعدِلُوا فواحدةً ﴾، وقال مجاهد: معناه إن تحرّجتم منْ وِلاية اليتامَى وأموالِهم إيماناً فكذلك تحرّجوا من الزنا فانكحوا النساء الحلال نكاحاً طيباً ثم بيّن لهم عدداً، وكانوا يتزوجون ما شاؤوا من غير عدد، فنزل قوله تعالى: ﴿ فانكِحُوا ما طابَ لكم منَ النساءِ ﴾ أي: مَنْ طَابَ كقوله تعالى: ﴿ والسماء وما بناها ﴾ [الشمس: ٥]،

هذا الفصل لأنه لما كانت أو بمنزلة واو النسق جاز أن تكون الواو بمنزلة أو. وقيل إن الواو أفادت أنه يجوز لكل أحد أن يختار لنفسه قسماً من هذه الأقسام بحسب حاله فإن قدر على نكاح اثنتين فاثنتان. وإن قدر على ثلاث فثلاث وإن قدر على أربع فأربع إلا أنه يضم عدداً وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة وأن الزيادة على أربع من خصائص رسول الله ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة ويدل على أن الزيادة على أربع غير جائزة وأنها حرام ما روي عن الحارث بن قيس أو قيس بن الحارث قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال اختر منهن أربعاً. أخرجه أبو داود. عن ابن عمران غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه فأمره رسول الله ﷺ أن يختار منهن أربعاً. أخرجه الترمذي قال العلماء: فيجوز للحر أن يجمع بين أربع نسوة حرائر ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين وهو قول أكثر العلماء لأنه خطاب لمن ولي وملك وذلك للأحرار دون العبيد. وقال مالك في إحدى الروايتين عنه وربيعة: يجوز للعبد أن يتزوج بأربع نسوة واستدل بهذه الآية وأجاب الشافعي بأن هذه الآية مختصة بالأحرار ويدل عليه آخر الآية وهو قوله: **﴿فإن خفتم﴾** ألّا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم أو العبد لا يملك شيئاً فثبت بذلك أن المراد من حكم الآية الأحرار دون العبيد. وقوله تعالى: **﴿فإن خفتم﴾** يعني فإن خشيتم وقيل فإن علمتم **﴿ألا تعدلوا﴾** يعني بين الأزواج الأربع **﴿فواحدة﴾** يعني فانكحوا واحدة **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾** يعني وما ملكتم من السراري لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق مثل ما يلزم في الحرائر ولا قسم لهن **﴿ذلك أدنى﴾** أي أقرب **﴿أن لا تعولوا﴾** معناه أقرب من أن لا تعولوا فحذف لفظة من لدلالة الكلام عليه ومعنى أن لا تعولوا أي لا تميلوا ولا تجوروا وهو قول أكثر المفسرين لأن أصل العول الميل يقال: عال الميزان إذا مال وقيل معناه لا تجاوزوا ما فرض الله عليكم ومنه عول الفرائض إذا جاوزت سهامها وقيل معناه ذلك أدنى أن لا تضلوا. وقال الشافعي رحمه الله تعالى معناه أن لا تكثر عيالكم وقد أنكر على الشافعي من ليس له إحاطة بلغة العرب. فقال إنما يقال من كثرة العيال أعال الرجل يعيل إعالة إذا كثر عياله. قال وهذا من خطأ الشافعي لأنه انفرد به ولم يوافقه عليه أحد وإنما قال هذه المقالة من أنكر على الشافعي وخطأه من

وقوله تعالى: ﴿ قال فرعونُ ومَا ربُّ العالمين ﴾ [الشعراء: ٢٣] والعرب تضع (من) و(ما) كل واحدة موضع الأخرى، كقوله تعالى: ﴿ فمنهم مَن يمشي على بطنه ومنهم مَن يمشي على رجلين ﴾ [النور: ٤٥]، وطابَ أي: حلّ لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، معدولات عن اثنين وثلاث وأربع، ولذلك لا يصرفنَ، وإن الواو بمعنى أو، للتخيير، كقوله تعالى: ﴿ أن تقُومُوا لله مثنى وفُرادى ﴾ [سبأ: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿ أُولي أجنحة مثنَى وثُلاثَ ورُباع ﴾ [فاطر: ١] وهذا إجماع أن أحداً من الأمة لا يجوز له أن يزيد على أربع نسوة، وكانت الزيادة من خصائص النبي ﷺ لا مشاركة معه لأحد من الأمة فيها، ورُوِيَ أن قيس بن الحارث كان تحته ثمان نسوة فلما نزلت هذه الآية قال له رسول الله ﷺ: «طلّق أربعاً وأمسك أربعاً» فجعل يقول للمرأة التي لم تلد يا فلانة أدبري والتي قد ولدت يا فلانة أقبلي. ورُوِيَ أن غَيلان بن سلمة الثقفي أسلم وعنده عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: «أمسك أربعاً وفارق سائرهنّ». وإذا جمع الحرُّ بينَ أربع نسوة حرائر فإنه يجوز، فأمّا العبد فلا يجوز له أن ينكح أكثر من امرأتين عند أكثر أهل العلم لِما أخبرنا عبد الوهاب بن أحمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن محمد بن عبد الرحمن مولى أبي طلحة عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عتبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ينكح العبد امرأتين ويطلق طلقتين وتعتدّ الأمة بحيضتين، فإن لم تكنِ تحيض فبشهرين أو شهر ونصف. وقال ربيعة: يجوز للعبد أن ينكح أربع نسوة كالحرّ. ﴿ فإن خِفتُم ﴾، خشيتُم، وقيل: علمتم، ﴿ ألّا تعدِلُوا ﴾، بين الأزواج الأربع، ﴿ فواحدةً ﴾ أي: فانكِحُوا واحدةً. وقرأ أبو جعفر

غير علم له بلغة العرب فقد روى الأزهري في كتابه تهذيب اللغة عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في قوله الفصحاء ألا تعولوا أي لا تكثر عيالكم. وروى الأزهري عن الكسائي قال عال الرجل إذا افتقر وأعال إذا كثر عياله قال ومن العرب الفصحاء من يقول عال يعول إذا كثر عياله قال الأزهري وهذا يقوي قول الشافعي لأن الكسائي لا يحكي عن العرب إلا ما حفظه وضبطه وقول الشافعي نفسه حجة لأنه عربي فصيح والذي اعترض عليه وخطأه عجل ولم يتثبت فيما قال ولا ينبغي للحضري أن يعجل إلى إنكار ما لا يحفظه من لغات العرب هذا آخر كلام الأزهري. وبسط الإمام فخرالدين الرازي في هذا الموضع من تفسيره ورد على أبي بكر الرازي ثم قال الطعن لا يصدر إلا عن كثرة الغباوة وقلة المعرفة. وحكى البغوي عن أبي حاتم قال كان الشافعي أعلم بلسان العرب منا ولعله لغة ويقال هي لغة حمير وقرأ طلحة بن مصرف ألا تعيلوا بضم التاء وهو حجة للشافعي.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

﴿وآتوا النساء صدقاتهن﴾ قال الكلبي وجماعة هذا خطاب للأولياء قال أبو صالح كان الرجل إذا تزوج أيمة أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك. وقيل إن ولي المرأة كان إذا زوجها فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان زوجها غريباً حملوها إليه على بعير ولا يعطيها من مهرها غير ذلك فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله. وقال الحضرمي كان أولياء النساء يعطي هذا أخته على أن يعطيه الآخر أخته ولا مهر بينهما وهذا هو الشغار فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بتسمية المهر في العقد (ق) عن ابن عمر أن النبي ﷺ نهى عن الشغار في العقد والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الرجل ابنته وليس بينهما صداق. وقيل الخطاب للأزواج وهذا أصح وهو قول الأكثرين لأن الخطاب فيما قبل مع الناكحين وهم الأزواج أمرهم الله تعالى بإيتان نسائهم الصداق والصداق المهور واحدها صدقة بفتح الصاد وضم الدال ﴿نحلة﴾ يعني فريضة مسماة وقيل عطية وهبة. وقيل نحلة يعني عن طيب نفس وأصل النحلة العطية على سبيل التبرع وهي أخص من الهبة

﴿ فواحدة ﴾ بالرفع، ﴿ أو ما ملكتْ أيمانُكم ﴾، يعني: السراري لأنه لا يلزم فيهنّ من الحقوق ما يلزم في الحرائر، ولا قَسْم لهنّ ولا وقف في عددهنّ، وذكر الأَيْمَان بيانٌ تقديره: أو ما ملكتم، وقال بعض أهل المعاني: أو ما ملكت أيمانُكم، أي: ما ينفذ فيه أقسامكم، جعله من يمين الحلف، لا يمين الجارحة، ﴿ ذلك أدْنَى ﴾، أقرب، ﴿ أَنْ لا تَعُولُوا ﴾ أي: لَا تَجُورُوا ولا تميلوا، يقال: ميزان عائل، أي: جائر مائل، هذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد: أَنْ لا تضلّوا، وقال الفرّاء: أَنْ لا تجاوزوا ما فرض الله عليكم، وأصل العول: المجاوزة، ومنه عَوْلُ الفرائض، وقال الشافعيُ رحمه الله: أَنْ لا تَكْثُر عيالُكم، وما قاله أحد، إنما يقال: أعالَ يعيل إعالة إذا كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعي رضي الله عنه أعلم بلسان العرب منّا فله بُلْغَةٌ، ويقال: هي لغة حمير، وقرأ طلحة بن مصرف (أَنْ لا تعيـلو) وهي حجة لقول الشافعي رضوان الله عليه.

﴿ وآتوا النّساءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾، قال الكلبي ومجاهد: هذا الخطاب للأولياء، وذلك أنّ وَلِيّ المرأة كان إذا تزوجها فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلاً ولا كثيراً، وإن كان زوجها غريباً حملوها إليه على بعير ولم يعطوها من مهرها غير ذلك، فنهاهم عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله. قال الحضرمي: وكان أولياء النساء يُعطي هذا أُختَه على أن يعطيه الآخرُ أختَه، ولا مهر بينهما، فنُهوا عن ذلك وأُمروا بتسميةِ المهر في العقد. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك بن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «نهى عنِ الشّغَار»، والشغار: أن يُزوّج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، وليس بينهما صداق، وقال الآخرون: الخطاب للأزواج أُمروا بإيتاء نسائهم الصداق، وهذا أصحّ، لأن

وسمي الصداق نحلة من حيث إنه لا يجب في مقابلته غير التمتع دون عرض مالي (ق) عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحق الشروط أن توفوا بها ما استحللتم به الفروج». وقوله تعالى: ﴿فإن طبن﴾ يعني النساء المتزوجات ﴿لكم﴾ يعني للأزواج ﴿عن شيء منه﴾ يعني من الصداق ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض لأنها لو وهبت المرأة لزوجها جميع صداقها جاز ﴿نفساً﴾ نصب على التمييز والمعنى فإن طابت نفوسهن عن شيء من ذلك الصداق المبين فوهبن ذلك لكم فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسراً فلذلك وحد النفس وقيل لفظه واحد ومعناه الجمع ﴿فكلوه﴾ يعني ما وهبنه لكم ﴿هنيئاً مريئاً﴾ يعني طيباً سائغاً وقيل الهنيء الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء والمريء المحمود العاقبة وفي الآية دليل على إباحة هبة المرأة صداقها وأنها تملكه ولا حق للولي فيه. قوله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ اختلفوا في هؤلاء السفهاء من هم فقيل هم النساء نهى الله الرجال أن يؤتوا النساء أموالهم سواء كن أزواجاً أو بنات أو أمهات وقيل هم الأولاد خاصة يقول لا تعط ولدك السفيه مالك الذي هو قيامك فيفسده عليك وقيل امرأتك وابنك السفيه. قال ابن عباس لا تعمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وابنك فيكونوا هم الذين يقومون عليك ثم تنظر إلى ما بين أيديهم أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم في رزقهم ومؤنتهم. وقال الكلبي: إذا علم الرجل إن امرأته سفيهة مفسدة وإن ولده سفيه مفسد لا ينبغي له أن يسلط واحداً منهما على ماله فيفسده. وقال سعيد بن جبير هو مال اليتيم يكون عندك يقول لا تؤته إياه وأنفق عليه منه حتى يبلغ وإنما أضاف المال إلى الأولياء لأنهم قوامها ومدبروها. وأصل السفه الخفة واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل في الأمور الدنيوية والدينية والسفيه المستحق الحجر هو الذي يكون مبذراً

الخطاب فيما قبلُ مع الناكحين، والصَّدُقات: المهور، واحدها صدقة، نحلةً قال قتادة: فريضةً، وقال ابن جريج: فريضة مسمّاة، قال أبو عبيدة: ولا تكون النحلة إلّا مسماةً معلومة، وقال الكلبي: عطية وهبة، وقال أبو عبيدة: عن طيب نفس، وقال الزجّاج: تديّناً، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن يوسف أخبرنا الليث حدّثني يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحقُّ الشروطِ أن تُوفوا به ما اسْتحللتمْ به الفروج»، ﴿ فإنْ طِبْنَ لكم عنْ شيءٍ منهُ نَفْساً ﴾، يعني: فإن طابت نفوسُهنّ بشيء من ذلك فوهبنَ منكم، فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسّرة، فلذلك وحّد النفس، كما قال الله تعالى: ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ [هود: ٧٧، العنكبوت: ٣٣] وقُرِىء: ﴿ عيناً ﴾ وقيل: لفظها واحد ومعناها جمع، ﴿ فكُلُوه هنِيئاً مَرِيئاً ﴾، سائغاً طيباً، يقال هنأني الطعام يهنئني بفتح النون في الماضي وكسرها في الغابر، وقيل: الهنيء: الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء، والمريء: المحمود العاقبة التامّ الهضم الذي لا يضرّ، قرأ أبو جعفر « هنيّاً مريّاً » بتشديد الياء فيهما من غير همزة، وكذلك « بري » « بريون » « وبرياً » « وكهية » والآخرون يهمزونها.

قوله تعالى: ﴿ ولا تُؤْتوا السُّفهاءَ أموالَكُمُ التي جعلَ اللَّهُ لكم قياماً ﴾، اختلفوا في هؤلاء السفهاء فقال قوم: هم النساء، وقال الضحاك: النساء من أسفه السفهاء، وقال مجاهد: نهى الرجال أن يُؤتوا النساء أموالهم وهنّ سفهاء سواءٌ كنّ أزواجاً أو بناتٍ أو أُمهات، وقال الآخرون: هم الأولاد، قال الزهري: يقول لا تعطِ ولدكَ السفيه مالك الذي هو قيامك بعد الله تعالى فيفسده، وقال بعضهم: هم النساء والصبيان، وقال الحسن: هي امرأتك السفيهة وابنتك السفيهة، وقال ابن عباس: لا تعمد إلى مالك الذي خوّلك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك

في ماله ومفسداً في دينه فلا يجوز لوليه أن يدفع إليه ماله. وقيل إن السفه المذكور في هذه الآية ليس هو صفة ذم لهؤلاء وإنما سموا سفهاء لخفة عقولهم ونقصان تمييزهم وضعفهم عن القيام بحفظ المال فقوله تعالى: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء**﴾ يعني الجهال بموضع الحق أموالكم ﴿**التي جعل الله لكم قياماً**﴾ يعني قوام معايشكم يقول المال هو قوام الناس وقوام معايشهم كن أنت قيم أهلك أنفق عليهم ولا تؤت مالك امرأتك وولدك فيكونوا هم الذين يقومون عليك. ولما كان المال سبباً للقيام بالمعاش سمي به إطلاقاً لاسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة لأنه به يقام الحج والجهاد وأعمال البر وفكاك الرقاب من النار ﴿**وارزقوهم فيها**﴾ أي أطعموهم ﴿**واكسوهم**﴾ يعني لمن يجب عليكم رزقه وكسوته لما نهى الله عن إيتاء المال للسفيه أمر أن يجري رزقه وكسوته وإنما قال: وارزقوهم فيها ولم يقل منها لأنه أراد اجعلوا لهم فيها رزقاً والرزق من الله تعالى هو العطية من غير حد ولا قطع ومعنى الرزق من العباد هو الأجر الموظف المعلوم لوقت معلوم محدود ﴿**وقولوا لهم قولاً معروفاً**﴾ يعني قولاً جميلاً لأن القول الجميل يؤثر في القلب ويزيل السفه وقيل معناه عدوهم عدة جميلة من البر والصلة. قال عطاء يقول: إذا ربحت أعطيتك وإن غنمت قسمت لك حظاً وقيل معناه الدعاء أي ادعوا لهم. قال ابن زيد إن لم يكن ممن تجب عليك نفقته فقل له عافانا الله وإياك بارك الله فيك. وقيل معناه قولوا لهم قولاً تطيب به أنفسهم وهو أن يقول الولي لليتيم السفيه: مالك عندي وأنا أمين عليه فإذا بلغت ورشدت أعطيتك مالك. وقال الزجاج معناه علموهم مع إطعامكم وكسوتكم إياهم أمر دينهم مما يتعلق بالعلم والعمل. قوله عز وجل:

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

﴿**وابتلوا اليتامى**﴾ الآية نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمه وذلك أن رفاعة مات وترك ابنه ثابتاً وهو صغير

وبنيك فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنتَ الذي تُنفق عليهم في رزقهم ومُؤنتهم، قال الكلبي: إذا علم الرجل أنّ امرأته سفيهة مفسدة وأن ولده سفيه مفسد فلا ينبغي له أن يُسلّط واحداً منهما على ماله فيفسده. وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو مال اليتيم يكون عندك، يقول: لا تؤته إيّاه وأنفقه عليه حتى يبلغ، وإنّما أضاف إلى الأولياء فقال: ﴿ **أموالكم** ﴾ لأنهم قوامها ومدبّروها، والسفيه الذي لا يجوز لوليّه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحِجْرَ عليه، وهو أن يكون مبذّراً في ماله أو مفسداً في دينه، فقال جلّ ذكره: ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء** ﴾، أي: الجهّال بموضع الحق أموالكم التي جعل الله لكم قياماً، قرأ نافع وابن عامر (قِيَماً) بلا ألف، وقرأ الآخرون ﴿ **قياماً** ﴾ وأصله: قواماً، فانقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وهو ملاك الأمر وما يقوم به الأمر. وأراد ههنا قِوام عيشكم الذي تعيشون به. قال الضحاك: به يُقام الحج والجهاد وأعمال البرّ وبه فكاك الرقاب من النار. ﴿ **وارْزُقوهم فيها** ﴾ أي: أطعموهم، ﴿ **واكسوهم** ﴾، لِمَن يجب عليكم رزقه ومؤنته، وإنما قال: ﴿ **فيها** ﴾ ولم يقل: منها، لأنه أراد أنهم جعلوا لهم فيها رزقاً فإن الرزق من الله العطيةُ من غيِ حدٍّ، ومن العباد أجرٌ موقتٌ محدود. ﴿ **وقُولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾ عدّة جميلة، وقال عطاء: إذا ربحتُ أعطيتُك وإن غنمتُ فلك فيه حظّ، وقيل: هو الدعاء، وقال ابن زيد: إن لم يكن ممّن يجب عليك نفقته، فقلْ له: عافانا الله وإيّاك بارك الله فيك، وقيل: قولاً تطيبُ به أنفسُهم.

قوله تعالى: ﴿ **وابْتَلُوا اليتامَى** ﴾، الآية نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمّه، وذلك أن رفاعة توفي وترك ابنه

فجاء عمه إلى النبي ﷺ وقال له إن ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من ماله ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وابتلوا اليتامى﴾ يعني اختبروهم في عقولهم وأديانهم وحقوق أموالهم ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ أي مبلغ الرجال والنساء ﴿فإن آنستم﴾ أي أبصرتم وعرفتم ﴿منهم رشداً﴾ يعني عقلاً وصلاحاً في الدين وحفظاً للمال وعلماً بما يصلحه.

فصل في أحكام تتعلق بالحجر وفيه مسائل

المسألة الأولى: الابتلاء يختلف باختلاف أحوال اليتامى فإن كان ممن يتصرف بالبيع والشراء في الأسواق يدفع إليه شيئاً يسيراً من المال، وينظر في تصرفه وإن كان ممن لا يتصرف في الأسواق فيختبر بنفقته على أهله وعبيده وإجرائه وتصرفه في أموال داره، وتختبر المرأة في أمر بيتها وحفظ متاعها وغزلها واستغزالها فإذا رأى حسن تدبير اليتيم وحسن تصرفه في الأمور مرار أو غلب على الظن رشده دفع إليه ماله بعد بلوغه ولا يدفع إليه ماله وإن كان شيخاً يغلب عليه السفه حتى يؤنس منه الرشد.

المسألة الثانية: قال الإمام أبو حنيفة: تصرفات الصبي العاقل المميز بإذن الولي صحيحة. وقال الشافعي هي غير صحيحة. واحتج أبو حنيفة على قوله بهذه الآية وذلك لأن قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح يقتضي أن هذا الابتلاء إنما يحصل قبل البلوغ والمراد من هذا الابتلاء اختبار حاله في جميع تصرفاته فثبت أن قوله وابتلوا اليتامى أمر للأولياء بالإذن لهم في البيع والشراء قبل البلوغ أجاب الشافعي بأن قال ليس المراد وابتلوا اليتامى الإذن لهم في التصرف حال الصغر بدليل قوله فإن آنستم منهم رشداً ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ وإنما تدفع إليهم أموالهم بعد البلوغ وإيناس الرشد فثبت بموجب هذه الآية أنه لا يدفع إليه ماله حال الصغر فوجب أن لا يصح تصرفه حال الصغر وإنما المراد من الابتلاء هو اختبار عقله واستكشاف حاله في معرفة المصالح والمفاسد.

المسألة الثالثة: في بيان البلوغ وذلك بأربعة أشياء اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء. واثنان يختصان بالنساء أما اللذان يشترك فيهما الرجال والنساء فأحدهما بالسن فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنة. حكم ببلوغه غلاماً

ثابتاً وهو صغير، فجاء عمّه إلى النبي ﷺ وقال: إن ابن أخي يتيم في حجري، فما يحلّ لي من ماله ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وابْتَلُوا اليتامَى ﴾ أي: اختبروهم في عقولهم وأديانِهم وحفظِهم أموالَهم، ﴿ حتى إذا بلَغُوا النكاحَ ﴾، أي: مبلغ الرجالِ والنساء، ﴿ فإن أنستم ﴾، أبصرتم، ﴿ منهم رُشداً ﴾، فقال المفسرون يعني: عقلاً وصلاحاً في الدين وحفظاً للمال وعلماً بما يصلحه. وقال سعيد بن جبير ومجاهد والشعبي: لا يدفع إليه ماله وإن كان شيخاً حتى يؤنس منه رشده، والابتلاء يختلف باختلاف أحوالهم فإن كان ممّن يتصرّف في السوق فيدفع الولي إليه شيئاً يسيراً من المال وينظر في تصرفه وإن كان ممّن لا يتصرف في السوق فيختبره في نفقة داره، والإنفاق على عبيده وأُجرائه، وتُختبر المرأةُ في أمر بيتها وحفظ متاعها وغزلها واستغزالها، فإذا رأى حُسنَ تدبير، وتصرفُه في الأمور مراراً يغلب على القلب رشده، دفعَ المالَ إليه. واعلمْ أن الله تعالى علّق زوال الحَجْرِ عن الصغير وجواز دفع المال إليه بشيئين: بالبلوغ والرُّشد، والبلوغ يكون بأحد أشياء أربعة، اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء، واثنان مختصّان بالنساء، أحدهما السن، والثاني الاحتلام، أمّا السن فقد استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلاماً كان أو جارية، لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أخبرنا سفيان عن عُيينة عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عُرضتُ على رسول الله ﷺ عام أُحُد وأنا ابنُ أربعةَ عشرة سنة، فردّني، ثم عُرضتُ عليه عام الخندق

كان أو جارية. ويدل عليه ما روى عن ابن عمر قال: عرضت على رسول الله ﷺ عام أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردني. ثم عرضت عليه عام الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني. أخرجاه في الصحيحين وهذا قول أكثر أهل العلم. وقال أبو حنيفة بلوغ الجارية باستكمال سبع عشرة سنة وبلوغ الغلام باستكمال ثماني عشرة سنة والثاني الاحتلام وهو إنزال المني الدافق سواء أنزل باحتلام أو جماع فإذا وجد ذلك من الصبي أو الجارية حكم ببلوغه لقوله تعالى ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ ولقوله ﷺ لمعاذ: خذ من كل حالم ديناراً أما نبات الشعر الخشن حول الفرج فهو يدل على البلوغ في أولاد المشركين لما روى عن عطية القرظي قال: كنت من سبي قريظة فكانوا ينظرون فمن أنبت الشعر قتل ومن لم ينبت لم يقتل. فكنت ممن لم ينبت وهل يكون ذلك علامة عن البلوغ في أولاد المسلمين؟ فيه قولان: أحدهما أنه يكون بلوغاً كما في أولاد المشركين والثاني لا يكون ذلك بلوغاً في حق أولاد المسلمين لأنه يمكن الوقوف على مواليد أولاد المسلمين والرجوع إلى قول آبائهم بخلاف الكفار فإنه لا يوقف على مواليدهم ولا يقبل في ذلك قول آبائهم لكفرهم فجعل الإنبات الذي هو أمارة البلوغ بلوغاً في حقهم. وأما الذي يختص بالنساء فهو الحيض والحبل فإذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين حكم ببلوغها وكذلك إذا ولدت حكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقل مدة الحمل.

المسألة الرابعة: في بيان الرشد وهو أن يكون مصلحاً في دينه وماله فالصلاح في الدين هو اجتناب الفواحش والمعاصي التي تسقط بها العدالة والصلاح في المال هو أن لا يكون مبذراً والتبذير أن ينفق ماله فيما لا يكون فيه محمدة دنيوية ولا مثوبة أخروية أو لا يحسن التصرف فيغبن في البيع والشراء. فإذا بلغ الصبي وهو مفسد لماله ودينه لم ينفك عنه الحجر ولا ينفذ تصرفه في ماله. وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة إذا كان مصلحاً لماله زال عنه الحجر وإن كان مفسداً لدينه وإذا كان لما له مفسداً لا يدفع إليه المال حتى يبلغ خمسة وعشرين سنة غير أنه ينفذ تصرفه قبله والقرآن حجة الشافعي في استدامة الحجر عليه لأن الله تعالى قال ﴿**فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم**﴾ أمر بدفع المال بعد البلوغ وإيناس الرشد والفاسق لا يكون رشيداً وبعد بلوغه خمساً وعشرين سنة وهو مفسد لماله بالإنفاق غير رشيد فوجب أن لا يجوز دفع المال إليه كما قبل بلوغ هذا السن.

وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني، قال نافع: فحدّثتُ بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز، فقال: هذا فرق ما بين المقاتلة والذريّة، وكتب أن يفرض لابن خمس عشرة سنة المقاتلة، ومَن لم يبلغها في الذرية. وهذا قول أكثر أهل العلم. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: بلوغ الجارية باستكمال سبعَ عشرة، وبلوغ الغلام باستكمال ثمان عشرة سنة، وأمّا الاحتلام فنعني به نزول المني سواء كان بالاحتلام أو بالجماع، أو غيرهما، فإذا وجدت ذلك بعد استكمال تسع سنين من أيّهما كان حُكم ببلوغه، لقوله تعالى: ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذِنُوا ﴾ [النور: ٥٩] وقال النبي ﷺ لمعاذٍ في الجزية حين بعثه إلى اليمن: «خُذْ من كل حالم ديناراً» وإما الإنبات، وهو نبات الشعر الخشن حول الفرج، فهو بلوغ في أولاد المشركين، لِمَا رُوِيَ عن عطية القرظي قال: كنتُ من سبي قريظة، فكانوا ينظرون فمَن أنبت الشعر قُتل، ومَن لم ينبت لم يقتل، فكنت ممّن لم ينبت، وهل يكون لذلك بلوغاً في أولاد المسلمين؟ فيه قولان، أحدهما: يكون بلوغاً كما في أولاد الكفّار، والثاني: لا يكون بلوغاً لأنه يمكن الوقوف على مواليد المسلمين بالرجوع إلى آبائهم، وفي الكفّار لا يوقف على مواليدهم، ولا يقبل قول آبائهم فيه لكفرهم، فجعل الإنبات فيه لكفرهم، فجعل الإنبات الذي هو أمارة البلوغ بلوغاً في حقهم، أما ما يختص بالنساء فالحيض والحبل، فإذا حاضت المرأة بعد استكمال تسع سنين يُحكم ببلوغها، وكذلك إذا ولدت يحكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقلّ مدة الحمل، وأمّا الرشد: فهو أن يكون مصلحاً في دينه وماله، والصلاح في الدين

المسألة الخامسة: إذا بلغ الصبي أو الجارية وأونس منه الرشد زال عنه الحجر ودفع إليه ماله سواء تزوج أو لم يتزوج وقال مالك إن كانت امرأة لا يدفع إليها المال ما لم تتزوج فإذا تزوجت دفع إليها مالها ولا ينفذ تصرفها إلا بإذن الزوج ما لم تكبر وتجرب.

المسألة السادسة: إذا بلغ الصبي رشيداً زال عنه الحجر فلو عاد سفيهاً ينظر فإن كان مبذراً لماله حجر عليه وإن كان مفسداً في دينه فعلى وجهين: إحدهما أن يعاد عليه الحجر كما يستدام إذا بلغ وهو بهذه الصفة. والثاني لا يحجر عليه لأن حكم الدوام أقوى من حكم الابتداء. وعند أبي حنيفة لا حجر على الحر العاقل البالغ بحال والدليل على إثبات الحجر من اتفاق الصحابة ما روي عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبدالله بن جعفر ابتاع أرضاً سبخة بستين ألف درهم فقال علي: لآتين عثمان ولأحجرن عليك فأتى ابن جعفر الزبير فأعلمه بذلك فقال الزبير أنا شريكك في بيعك فأتى علي عثمان فقال احجر على هذا فقال الزبير أنا شريكه فقال عثمان كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير فكان اتفاقاً منهم على جواز الحجر حتى حتى احتال الزبير لدفعه وقوله تعالى: **﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾** الخطاب للأولياء يعني يا معشر الأولياء لا تأكلوا أموال اليتامى بغير حق **﴿وبداراً أن يكبروا﴾** يعني لا تبادروا كبرهم ورشدهم فتفرطوا في إنفاقها وتقولون ننفق كما نشتهي قبل أن يكبروا فيلزمكم تسليمها إليهم. ثم بيّن تعالى حال الأولياء وقسمهم قسمين فقال تعالى: **﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾** أي فليمتنع من أكل مال اليتيم

هو أن يكون مجتنباً عن الفواحش والمعاصي التي تسقط العدالة، والصلاح في المال هو أن لا يكون مبذّراً، والتبذير: هو أن ينفق ماله فيما لا يكون فيه محمدة دنيويّة ولا مثوبة أُخرويّة، أو لا يُحسن التصرفَ فيها، فيغبن في البيوع فإذا بلغ الصبي وهو مفسد في دينه وغير مصلح لماله، دام الحَجْر عليه، ولا يدفع إليه المال ولا ينفذ تصرّفه، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه إذا كان مصلحاً لماله زال الحجر عنه وإن كان مفسداً في دينه، وإذا كان مفسداً لمالِه قال: لا يدفع إليه المال حتى يبلغ خمساً وعشرين سنة، غير أن تصرّفه يكون نافذاً قبله، والقرآن حجّة لمَن استدام الحجر عليه، لأنّ الله تعالى قال: **﴿ حتى إذا بلغُوا النكاحَ فإن آنستم منهم رشداً فادْفَعُوا إليهم أموالهم ﴾**، أمر بدفع المال إليهم بعد البلوغ وإيناس الرشد، والفاسق لا يكون رشيداً وبعد بلوغه خمساً وعشرين سنة وهو مفسد لماله بالاتفاق غير رشيد، فوجب أن لا يجوز دفع المال إليه كما قبل بلوغ هذا السن، وإذا بلغ وأُونس منه الرشدُ زال الحجر عنه، ودفع إليه المال رجلاً كان أو امرأة تزوج أو لم يتزوج، وعند مالك رحمه الله تعالى: إنِ كانت امرأة لا يدفع المال إليها ما لم تتزوج، فإذا تزوجت دفع إليها، ولكن لا ينفذ تصرفها إلّا بإذن الزوج، ما لم تكبر وتُجرَّب، وإذا بلغ الصبي رشيداً وزال الحجر عنه ثم عاد سفيهاً نُظر فإن عاد مبذّراً لماله حُجِرَ عليه، وإن عاد مفسداً في دينه فعلى وجهين، أحدهما: يُعاد الحِجْرُ عليه كما يستدام الحجر عليه إذا بلغ بهذه الصفة، والثاني: لا يُعاد لأن حكم الدوام أقوى من حكم الابتداء، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لا حجر على الحرِّ العاقل البالغ بحال، والدليل على إثبات الحجر من اتفاق الصحابة رضي الله عنهم، ما رُوِيَ عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الله بن جعفر ابتاع أرضاً سبخة بستّين ألف درهم، فقال عليٌّ: لآتينّ عثمان فلأحجرنّ عليك فأتى ابنُ جعفر الزبيرَ فأعلمه بذلك، فقال الزبير: أنا شريكه، فقال عثمان: كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير، فكان ذلك اتفاقاً منهم على جواز الحجر حتى احتال الزبير في دفعه. قوله تعالى: **﴿ ولا تأكُلوها ﴾**، يا معشر الأولياء **﴿ إسْرافاً ﴾**، بغير حق، **﴿ وبِدَاراً ﴾** أي: مبادرة، **﴿ أنْ يَكْبَرُوا ﴾** و**﴿ أن ﴾** في محل النصب، يعني: لا تبادروا كِبَرهم ورُشدَهم حذراً من أن يبلغوا فيلزمكم تسليمها إليهم، ثم بيّن ما يحلّ لهم من مالهم فقال: **﴿ ومَنْ كانَ غنيّاً فليستعففْ ﴾**، أي: ليمتنع من مال اليتيم فلا يرزؤه قليلاً ولا كثيراً، والعفّة الامتناع مما لا يحلّ، **﴿ ومَن كان فقيراً ﴾** محتاجاً إلى مال اليتيم

ولا يرزأه قليلاً ولا كثيراً ﴿ومن كان فقيراً﴾ يعني محتاجاً إلى مال اليتيم وهو يحفظه ﴿فليأكل بالمعروف﴾ روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني فقير وليس لي ولي يتيم فقال كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل. واختلف العلماء في حكم هذه الآية فروي عن عمر وابن عباس وابن جبير وأبي العالية وعبيدة السلماني وأبي وائل ومجاهد ومقاتل أنه يأخذ من مال اليتيم على وجه القرض. واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء فذهب قوم إلى أنه يلزمه القضاء إذا أيسر وهو المراد من قوله تعالى فليأكل بالمعروف والمعروف القرض أي يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه، فإذا أيسر قضاه وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير قال عمر بن الخطاب: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة مال اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف فإذا أيسرت قضيت. وقال قوم لا ضمان عليه ولا قضاء بل يكون ما يأكله كالأجرة له على عمله وهو قول الحسن والشعبي والنخعي وقتادة قال الشعبي لا يأكله إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة ثم القائلون بجواز الأكل من مال اليتيم اختلفوا في قوله فليأكل بالمعروف. فقال عطاء وعكرمة يأكل بأطراف أصابعه ولا يسرف ولا يكتسي منه ولا يلبس الكتان ولا الحلل لكن يأكل ما يسد به الجوع ويلبس ما يستر به العورة. وقال الحسن يأكل من تمر نخله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه فأما الذهب والفضة فلا يأخذ منه شيئاً فإن أخذ وجب عليه رده. وقال الكلبي المعروف هو ركوب الدابة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل من ماله شيئاً وروي أن رجلاً قال لابن عباس إن لي يتيماً وإن له إبلاً أفأشرب من لبن إبله فقال ابن عباس إن كنت تبغي ضالة إبل وتهنأ جرباها وتليط حوضها وتسقيها يوم ورودها فاشرب غير مضر نسل ولا ناهك في الحلب وقال قوم المعروف أن يأخذ من ماله بقدر قيامه وأجرة عمله ولا قضاء عليه وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم وقوله تعالى: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ هذا أمر إرشاد وليس بواجب أمر الله تعالى الولي بالإشهاد على دفع المال

وهو يحفظه ويتعهده، ﴿ فلْيأكلْ بالمعروف ﴾، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر السنجري أخبرنا الإمام أبو سليمان الخطابي أخبرنا أبو بكر داسة التمار أخبرنا أبو داود السجستاني أخبرنا حميد بن مسعدة أن خالد بن الحارث حدّثهم أخبرنا حسين يعني المعلّم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه رضي الله عنهم أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني فقير وليس لي شيء ولي يتيم، فقال: «كُلْ من مال يتيمك غير مسرفٍ ولا مبذرٍ ولا متأثل». واختلفوا في أنه هل يلزمه القضاء، فذهب بعضهم إلى أن يقضي إذا أيسر وهو المراد من قوله: ﴿ فليأكُلْ بالمعروف ﴾، فالمعروف القرض، أي: يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه، فإذا أيسر قضاه، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة مال اليتيم: إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرتُ قضيت. وقال الشعبي: لا يأكله إلّا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة، وقال قوم: لا قضاء عليه، ثم اختلفوا في كيفية هذا الأكل بالمعروف، فقال عطاء وعكرمة: يأكل بأطراف أصابعه، ولا يسرف ولا يكتسي منه، وقال النخعي: لا يلبس الكتّان ولا الحُلل، ولكن ما سدّ الجوعةَ ووَارَى العورةَ، وقال الحسن وجماعة: يأكل من تمرِ نخيله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة فلا؛ فإن أخذ شيئاً منه فعليه ردُّه، وقال الكلبي: المعروف ركوب الدابّة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل من ماله شيئاً، أخبرنا أبو إسحق السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي، أنا أبو مصعب عن مالك عن يحيىٰ بن سعيد أنه قال سمعت القاسم بن محمد يقول: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ لي يتيماً وإن له إبلاً أفأشرب من لبن إبله؟ فقال: إن كنت تبغي ضالّة إبله وتهنا جَرْبَاها وتليطُ حوضَها وتسقيها يوم وُرودِها فاشرب غير مُضرٍّ بنسلٍ ولا نَاهِكَ في الحَلْب، وقال بعضهم: والمعروف أن يأخذ ماله بقدر قيامه وأجرة

إلى اليتيم بعد البلوغ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة لأنه إذا كانت عليه بينة كان أبعد من أن يدعى عدم القبض وتظهر بذلك أمانة الوصي وتسقط عنه اليمين عند إنكار اليتيم القبض ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ يعني محاسباً ومجازياً وشاهداً به قوله تعالى: .

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ نزلت هذه الآية في أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأته ويقال لها أم كحة وثلاث بنات منها فقام رجلان هما ابن عم الميت ووصياه يقال لهما سويد وعرفجة فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً من ماله. وذلك أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير من الذكور وإنما كانوا يورثون الرجال يقولون لا يعطى الإرث إلّا من قاتل وحاز الغنيمة وحمى الحوزة فجاءت أم كحة امرأة أوس إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله مات أوس بن ثابت وترك ثلاثة بنات وأنا امرأته وليس عندي ما أنفق عليهن وقد ترك أبوهن مالاً حسناً وهو عند سويد وعرفجة ولم يعطياني ولا بناته منه شيئاً وهن في حجري ولا يطعمن ولا يسقين فدعاهما رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله إن ولدها لا يركبن فرساً ولا يحملن كلاً ولا ينكبن عدواً فأنزل الله هذه الآية وبين أن الإرث ليس مختصاً بالرجال بل هو أمر يشترك فيه الرجال والنساء. فقال تعالى للرجال يعني الذكور من أولاد الميت وعصبته نصيب أي حظ مما ترك الوالدان والأقربون يعني من لميراث ﴿وللنساء نصيب﴾ يعني وللإناث من أولاد الميت حظ ﴿مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر﴾ يعني من المال المخلف عن الميت ﴿نصيباً مفروضاً﴾ يعني معلوماً والفرض ما فرضه الله تعالى وهو آكد من الواجب فلما نزلت هذه الآية مجملة ولم يبين كم هو النصيب أرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة لا تفرقا من المال شيئاً فإن الله تعالى قد جعل لبناته نصيباً مما ترك ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهن فأنزل الله تعالى: ﴿يوصيكم الله في

عمله، ولا قضاء عليه، وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم. ﴿ فإذا دفعتُم إليهم أموالَهم فأشْهِدُوا عليهم ﴾، هذا أمرٌ وإرشاد، وليس بواجب، أمر الولي بالإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعدما بلغ لتزول عنه التهمة وتنقطع الخصومة، ﴿ وكفَى باللّهِ حَسِيباً ﴾ محاسباً ومجازياً وشاهداً.

قوله تعالى: ﴿ للرِّجَالِ نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ الآية، نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأةً يقال لها أمّ كُجّة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عمّ الميت ووَصِيّاه، سويدٌ وعُرْفُجة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يُورِّثون النساء ولا الصغير، وإن كان الصغير ذكراً وإنّما كانوا يورِّثون الرجال، ويقولون: لا نعطي إلّا من قـاتل وحـاز الغنيمة، فجـاءت أمّ كُجّة فقـالت: يا رسـول الله إن أوس بن ثابت مات وترك عليّ ثلاث بنات وأنا امرأته، وليس عندي ما أُنفق عليهنّ، وقد ترك أبوهنّ مالاً حسناً، وهو عند سويد وعرفجة، ولم يعطياني ولا بناتي شيئاً وهنّ في حِجْري، لا يطعِمنَ ولا يسقِين، فدعاهما رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاً ولا يَنْكَأُ عدوّاً، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ للرجال ﴾ يعني: للذكور من أولاد الميت وأقربائه ﴿ نصيب ﴾ حظٌ ﴿ مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ من الميراث، ﴿ وللنساء ﴾، وللإناث منهم، ﴿ نصيبٌ مما تركَ الوالدان والأقربُون ممّا قَلَّ منه ﴾، أي: من المال، ﴿ أو كَثُرَ ﴾ منه ﴿ نصيباً مفروضاً ﴾، نصب على القطع، وقيل: جعل ذلك نصيب فأثبت لهنّ الميراث، ولم يبيّن كم هو، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سُويد وعُرفجة: لا تفرقا من مال أوس بن ثابت شيئاً فإن الله تعالى جعل لبناته نصيباً مما ترك، ولم يُبيّن

أولادكم﴾ الآية فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة أن ادفعا إلى أم كحة الثمن مما ترك وإلى بناته الثلثين ولكما باقي المال. قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

﴿**وإذا حضر القسمة**﴾ يعني قسمة الميراث فعلى هذا القول يكون الخطاب للوارثين ﴿**أولو القربى**﴾ يعني القرابة الذين لا يرثون ﴿**واليتامى والمساكين**﴾ إنما قدم اليتامى لشدة ضعفهم وحاجتهم ﴿**فارزقوهم منه**﴾ أي فارضخوا لهم من المال قبل القسمة. واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هذه الآية منسوخة بآية المواريث وهذا قبل نزول آية المواريث فلما نزلت آية المواريث جعلت لأهلها ونسخت هذه الآية وهي رواية مجاهد عن ابن عباس وقول سعيد بن المسيب وعكرمة والضحاك وقتادة وقال قوم هي محكمة غير منسوخة. وهي الرواية الأخرى عن ابن عباس وهو قول أبي موسى الأشعري والحسن وأبي العالية والشعبي وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير ومجاهد والنخعي والزهري ثم اختلف العلماء بعد القول بأنها محكمة هل هذا الأمر أمر وجوب أو ندب على قولين: أحدهما أنه واجب فقيل إن كان لوارث كبيراً وجب عليه أن يرضخ لمن حضر القسمة شيئاً من المال بقدر تطيب به نفسه وإن الوارث صغيراً وجب على الولي أن يعتذر إليهم ويقول إني لا أملك هذا المال وهو لهؤلاء الضعفاء. قال ابن عباس إن كان الورثة كباراً رضخوا لهم وإن كان الورثة صغاراً اعتذر إليهم فيقول الولي أو الوصي إني لا أملك هذا المال وإنما هو للصغار ولو كان لي منه شيء لأعطيتكم وإن يكبروا فسيعرفوا حقكم هذا هو القول المعروف وقال بعضهم: هذا حق واجب في مال الصغار والكبار فإن كان الورثة كباراً تولوا إعطاءهم بأنفسهم وإن كانوا صغاراً أعطى وليهم. وروى محمد بن سيرين أن عبيدة السلماني قسم أموال أيتام فأمر بشاة فذبحت وصنعت طعاماً لأجل هذه الآية وقال لولا هذه الآية لكان هذا من مالي، وقال الحسن والنخعي هذا الرضخ

كم هو حتى أنظر ما ينزل فيهنّ، فأنزل الله تعالى: ﴿يُوصيكُمُ اللَّهُ في أولادِكم﴾ [النساء: ١١]. فلمّا نزلت أرسل رسول الله إلى سُويد وعُرفجة «أنِ ادفعا إلى أمِّ كُجّة الثُّمن وإلى بناته الثلثين، ولكما باقي المال».

قوله تعالى: ﴿**وإذا حضرَ القسمةَ**﴾، يعني: قِسمةَ المواريث، ﴿**أولوا القُربَى**﴾، الذين لا يرِثُون، ﴿**واليتامى والمساكين فارْزُقُوهُمْ مِنْهُ**﴾، أي: فارضخوا لهم من المال قبل القسمة، ﴿**وقُولوا لهم قولاً معروفاً**﴾، اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة، وقال سعيد بن جبير والضحاك: كانت هذه قبل آية الميراث، فجعلت المواريث لأهلها، ونسخت هذه الآية، وقال الآخرون: هي محكمة، وهو قول ابن عباس والشعبي والنخعي والزهري، وقال مجاهد: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم، وقال الحسن: كانوا يعطون التابوت والأواني ورثّ الثياب والمتاع والشيء الذي يستحيا من قسمته، وإن كان بعض الورثة طفلاً فقد اختلفوا فيه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: إن كانت الورثة كباراً رضخوا لهم، وإن كانت صغاراً اعتذروا إليهم، فيقول الولي والوصي: إني لا أملك هذا المال إنما هو للصغار، ولو كان لي منه شيء لأعطيتُكم، وإن يكبروا فسيعرفون حقوقكم، هذا هو القول بالمعروف، وقال بعضهم ذلك حق واجب في أموال الصغار والكبار، فإن كانوا كباراً تولّوا إعطاءَهم، وإن كانوا صغاراً أعطَى وليّهم. روى محمد بن سيرين أن عبيدة السلماني قسم أموال أيتام فأمر بشاة فذبحت فصنع طعاماً لأجل هذه الآية، وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي. وقال قتادة عن يحيى بن معمر: ثلاث آيات محكمات مدنيات تركهنّ الناس، هذه الآية وآية الاستئذان: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ [النور: ٥٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ

مختص بقسمة الأعيان فإذا آل الأمر إلى قسمة الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك فقولوا لهم قولاً معروفاً وقيل كانوا يعطون التابوت والأواني ورث الثياب والمتاع الذي يستحي من قسمته والقول الثاني إن هذا الأمر ندب واستحباب لا على سبيل الفرض والإيجاب وهذا القول هو الأصح الذي عليه العمل اليوم واحتجوا لهذا القول بأنه لو كان لهؤلاء حق معين لبينه الله تعالى كما بين سائر الحقوق فحيث لم يبين علمنا أن ذلك غير واجب وقيل في معنى الآية أن المراد بالقسمة الوصية فإذا حضر الوصية من لا يرث من الأقرباء واليتامى والمساكين أمر الله الوصي أن يجعل لهم نصيباً من تلك الوصية ويقول لهم مع ذلك قولاً معروفاً وقوله: ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ هو أن لا يتبع العطية بالمن والأذى. قوله تعالى:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً﴾ يعني أولاداً صغاراً ﴿خافوا عليهم﴾ يعني الفقر قيل هذا خطاب للذين يجلسون عند المريض وقد حضره الموت فيقول له انظر لنفسك فإن أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئاً قدم لنفسك أعتق وتصدق وأعط فلا يزالون به حتى يأتي على عامة ماله فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بأن يأمروه بالنظر لولده ولا يزيد على الثلث في وصيته ولا يجحف. والمعنى كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم في الضعف والجوع من غير مال فاخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الصغار من ماله وحاصل هذا الكلام كما أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك فلا ترضه لأخيك المسلم. وكما أنه لو كان هذا القائل هو الموصي لسره أن يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ولا يدعهم عالة يتكففون الناس مع ضعفهم وعجزهم. وقيل هو الرجل يحضره الموت ويريد أن يوصي بشيء فيقول له من حضره من الرجال اتق الله وامسك أموالك لولدك فيمنعونه من الوصية لأقاربه المحتاجين وقيل الآية يحتمل أن تكون خطاباً لمن حضر أجله ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية لئلا تبقى ورثته فقراء ضعافاً ضائعين بعد موته. ثم إن كانت هذه الآية نزلت قبل تقدير الثلث كان المراد منها أن لا يجعل الوصية مستغرقة للتركة وإن كانت قد نزلت بعد تقدير الثلث كان المراد منها أن يوصي بالثلث أو بأقل منه إذا خاف على ورثته كما روى عن كثير من الصحابة أنهم أوصوا بالقليل لأجل ذلك وكانوا يقولون الخمس في الوصية أفضل من الربع والربع أفضل من الثلث. وقد ورد في الصحيح الثلث والثلث كثير لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس يعني يسألونهم بأكفهم وقيل هو خطاب لأولياء اليتامى والمعنى وليخش من خاف على ولده من بعد موته أن يضيع مال اليتيم الضعيف الذي هو ذرية غيره إذا كان في

وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، وقال بعضهم: وهو أولى الأقاويل: إن هذا على الندب والاستحباب، لا على الحتم والإيجاب.

قوله تعالى: ﴿وليخشَ الذينَ لو تَركُوا مِنْ خلْفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافاً﴾، أولاداً صغاراً، ﴿خافوا عليهم﴾، الفقر، هذا في الرجل يحضره الموت، فيقول مَن بحضرته: انظر لنفسك فإن أولادك وورثتك لا يغنون عنك شيئاً، قدّم لنفسك، اعتقْ وتصدقْ وأعطِ فلاناً كذا وفلاناً كذا، حتى يأتي على عامّة ماله، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد في وصيته على الثلث، ولا يُجحف بورثته كما أنه لو كان هذا القائل هو الموصي لسرّه أن يحثّه مَن بحضرته على حفظ ماله لولده، ولا يدعهم عالةً مع ضعفهم وعجزهم. وقال الكلبي: هذا الخطاب لوُلاة اليتامى يقول: مَن كان في حجره يتيم فليحسنْ إليه وليأتِ في حقه ما يجب أن يفعل بذريته من بعده،

حجره والمقصود من الآية أن من كان في حجره يتيم فليحسن إليه وليه أو وصيه وليفعل به ما يحب أن يفعل بأولاده من بعده ﴿فليتقوا الله﴾ يعني في الأمر الذي تقدم ذكره ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ يعني عدلاً وصواباً فالقول السديد من الجالسين عند المريض هو أن يأمروه أن يتصدق بدون الثلث ويترك الباقي لولده ورثته وأن لا يحيف في وصيته. والقول السديد من الأوصياء وأولياء اليتامى أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم ولا يؤذوهم بقول ولا فعل قوله عز وجل: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ قال مقاتل وابن حبان نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي مال يتيم وكان اليتيم ابن أخيه فأكله فأنزل الله هذه الآية ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ يعني حراماً بغير حق ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ يعني سيأكلون يوم القيامة فسمي الذين يأكلون ناراً بما يؤول إليه أمرهم يوم القيامة. قال السدي يبعث آكل مال اليتيم ظلماً يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه يعرفه من رآه بآكل مال اليتيم. وفي حديث أبي سعيد الخدري قال حدثني النبي ﷺ عن ليلة أسري به قال نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم قلت يا جبريل من هؤلاء قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً. وقيل إنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع في الكلام والمراد أن أكل مال اليتيم ظلماً يفضي به إلى النار وإنما خص الأكل بالذكر وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل بكل ذلك لليتيم. فعبر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود وإنما ذكر البطون للتأكيد فهو كقولك رأيت بعيني وسمعت بأذني ﴿وسيصلون سعيراً﴾ يعني بأكلهم أموال اليتامى ظلماً والسعير النار الموقدة المسعرة. ولما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس واحترزوا من مخالطة اليتامى وأموالهم بالكلية فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى: ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ وقد توهم بعضهم أن قوله وإن تخالطوهم ناسخ لهذه الآية وهذا غلط ممن توهمه لأن هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلماً وهذا لا يصير منسوخاً لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله: وإن تخالطوهم فإخوانكم وارد على سبيل الإصلاح في أموال اليتامى والأحسان إليهم وهو من أعظم القرب. قوله تعالى: .

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ

قوله تعالى: ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وليقُولُوا قَولاً سَديداً ﴾، أي: عدلاً، والسديد: العدل، والصواب من القول، وهو أن يأمره بأن يتصدق بما دون الثُّلث ويخلِّف الباقي لورثته.

قوله تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ يأكلون أموالَ اليتامَى ظُلماً ﴾، قال مقاتل بن حيان: نزلت في رجل من بني غطفان، يقال له مرثد بن زيد وَلي مالَ ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله تعالى فيه ﴿ إن الذينَ يأكُلونَ أموالَ اليتامَى ظلماً ﴾ أي: حراماً بغير حق، ﴿ إنّما يأكُلون في بطونهم ناراً ﴾، أخبر عن ماله، أي عاقبته تكون كذلك، ﴿ وسَيَصْلَونَ سعيراً ﴾، قراءة العامّة بفتح الياء، أي: يدخلونه، يقال: صَلَى النار يصلوها صلياً وصلاءً، قال الله تعالى: ﴿ إلاّ مَنْ هوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصّافّات: ١٦٣]، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بضمّ الياء، أي: يدخلون النار ويحرقون، نظيره قوله تعالى: ﴿ فسوف نُصلِيْهِ ناراً ﴾ [النساء: ٣٠] ﴿ سأصليه سقر ﴾ [المدّثر: ٢٦] وفي الحديث قال النبي ﷺ: «رأيتُ ليلة أُسري بي قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل، إحداهما قالصة على مِنخَريه والأخرى على بطنه، وخَزَنَة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها، فقلت: يا جبريل مَن هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموالَ اليتامَى ظلماً».

﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية فروي عن جابر قال مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر وهما يمشيان فوجداني أغمي عليّ فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب وضوءه عليّ فأفقت فإذا النبي ﷺ جالس فقلت يا رسول الله كيف أصنع في مالي كيف أقضي في مالي فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث، وفي رواية فقلت لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض وفي رواية أخرى فنزلت: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وفي رواية أخرى فلم يرد على شيئاً حتى نزلت آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم أخرجه البخاري ومسلم وقال مقاتل والكلبي: نزلت في أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته. وقال عطاء نزلت في سعد بن الربيع النقيب استشهد يوم أحد وترك بنتين وامرأة وأخاً (ق) عن جابر رضي الله عنه قال جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً وأن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا ينكحان إلا ولهما مال قال: يقضي الله في ذلك فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال أعطِ ابنتي سعد الثلثين وأعطِ أمهما الثمن وما بقي فهو لك أخرجه الترمذي. وقال السدي: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري ولا الضعفاء من الغلماء لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال فمات عبدالرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة وخمس بنات فجاء الورثة وأخذوا ماله فشكت امرأته إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة وقبل الشروع في تفسير هذه الآية الكريمة. نقدم فصولاً تتضمن أحكام الفرائض وأصول قواعدها.

فصل في الحث على تعليم الفرائض

اعلم أن الفرائض من أعظم العلوم قدراً وأشرفها ذخراً وأفضلها ذكراً وهي ركن من أركان الشريعة وفرع من

قوله تعالى: ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ في أولادكم للذكر مثلُ حظِّ الأُنثيين** ﴾ الآية، اعلم أن الوراثة كانت في الجاهلية بالذكورة والقوة فكانوا يُورِّثون الرجال دون النساء والصبيان، فأبطل اللَّهُ ذلك بقوله: ﴿ **للرجال نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ الآية، وكانت أيضاً في الجاهلية وابتداء الإسلام بالمحالفة، قال الله تعالى: ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتُوهم نصيبَهم ﴾ [النساء: ٣٣] ثم صارت الوراثة بالهجرة، قال الله تعالى: ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجُروا ما لكم منْ وِلايتهمْ من شيء حتى يُهاجروا ﴾ [الأنفال: ٧٢] فنسخ ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة بالنسب والنكاح أو الولاء، والمعنيُّ بالنسب أن القرابة يرث بعضهم من بعض، لقوله تعالى: ﴿ وأُولوا الأرحامِ بعضُهم أولى ببعضٍ في كتابِ الله ﴾ [الأنفال: ٧٥]، والمعنيّ بالنكاح: أن أحد الزوجين يرث صاحبه، وبالولاء: أن المُعْتِقَ وعصباتُه يرثون المُعْتَقَ، فنذكر بعون الله تعالى فصلاً وجيزاً في بيان مَن يرث من الأقارب.
وكيفية توريث الورثة فنقول: إذا مات ميّتٌ وله مال فيُبدأ بتجهيزه ثم بقضاءِ ديونه ثم بإنفاذ وصاياه فما فَضُلَ يُقسم بين الورثة على ثلاثة أقسام منهم، مَن يرث بالفرض مَن يرث بالتعصيب، ومنهم مَن يرث بهما جميعاً، فمَن يرث بالنكاح لا يرث إلّا بالفرض، ومَن يرث بالولاء لا يرث إلّا بالتعصيب، فأمّا مَن يرث بالقرابة فمنهم مَن يرث بالفرض كالبنات والأخوات والأمهات والجدّات، وأولاد الأم، ومنهم مَن يرث بالتعصيب كالبنين والإخوة وبني الأعمام،

فروعها في الحقيقة اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا في فروعها وأصولها ويكفي في فضلها أن الله عز وجل تولى قسمتها بنفسه وأنزلها في كتابه مبينة من محل قدسه وقد حث رسول الله ﷺ على تعليمها فيما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فإني مقبوض» أخرجه الترمذي وقال فيه اضطراب وأخرجه أحمد بن حنبل وزاد فيه فإني امرؤ مقبوض والعلم مرفوع ويوشك أن يختلف اثنان في الفريضة فلا يجدان أحداً يخبرهما. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموها فإنه نصف العلم» وهو أول علم ينسى وهو أول شيء ينزع من أمتي أخرجه ابن ماجه والدارقطني.

فصل في بيان أحكام الفرائض

إذا مات الميت وله مال يبدأ بتجهيزه من ماله ثم تقضي ديونه إن كان عليه دين ثم تنفذ وصاياه وما فضل بعد ذلك من ماله يقسم بين ورثته والوارثون من الرجال عشرة: الابن وابن الابن وإن سفل الأب والجد وإن علا والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم وابن الأخ للأب والأم أو للأب وإن سفل والعم للأب والأم أو للأب وابناهما وإن سفلوا والزوج والمعتق. والوارثات من النساء سبع: البنت وبنت الابن وإن سفلت. والأم والجدة وإن علت. والأخت من كل الجهات. والزوجة والمعتقة وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير وهم: الأبوان والوالدان والزوجان لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة ثم الورثة ثلاثة أصناف: صنف يرث بالفرض المجرد وهم الزوجان والبنات والأخوات والأمهات والجدات وأولاد الأم وصنف يرث بالتعصيب وهم: البنون والإخوة وبنوهم والأعمام وبنوهم وصنف يرث بالتعصيب تارة وبالفرض أخرى وهما: الأب والجد فيرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد فإن كان له ابن ورث الأب بالفرض السدس وإن كانت بنت ورث السدس بالفرض وأخذ الباقي بالتعصيب والعصبة اسم لمن يأخذ جميع المال إذا انفرد ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفرائض.

وبنيهم ومَن يرث بهما كالأب يرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد، فإن كان للميت ولد ابن فيرث الأب بالفرض السدس، وإن كان للميت بنت فيرث الأب السدس بالفرض ويأخذ الباقي بعد نصيب البنت بالتعصيب، وكذلك الجدّ، وصاحب التعصيب مَن يأخذ جميع المال عن الانفراد ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفرائض، وجملة الوَرَثة سبعة عشر: عشرة من الرجال وسبع من النساء، فمن الرجال الابن وابن الابن وإن سفل والأب والجدّ أبو الأب وإن علا، والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم، وابن الأخ للأم أو للأب وإن سفل والعمّ للأب والأم أو للأب وأبناؤهما وإن سفلوا، والزوج ومولى العتاق، ومن النساء البنت وبنت الابن وإن سفلت، والجدّة أم الأم وأم الأب، والأخت سواء كانت لأب وأم أو لأب أو لأم، والزوجة ومولاة العتاق، وستّة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير: الأبوان والولدان، والزوجان، لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة، والأسباب التي توجب حرمان الميراث أربعة: اختلاف الدين والرقّ والقتل وعمي الموت، ونعني باختلاف الدين أن الكافر لا يرث المسلم والمسلم لا يرث الكافر، لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الشافعي أنا ابن عيينة عن الزهري عن علي بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرث المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ». فأما الكافر فيرث بعضهم من بعض مع اختلافِ مِلَلهم، لأن الكفر كله ملّة واحدة، لقوله تعالى: ﴿ والذين كفروا بعضُهم أولياءُ بعض ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وذهب بعضهم إلى أن اختلاف المِلَل في الكفر يمنع التوارث حتى لا يرث اليهودي النصراني ولا النصراني المجوسي، وإليه ذهب الزهري والأوزاعي وأحمد وإسحق لقول النبي ﷺ: «لا يتوارث أهل ملّتين شتّى»، وتأوّله

فصل

وأسباب الإرث ثلاثة: نسب ونكاح وولاء فالنسب القرابة يرث بعضهم بعضاً والنكاح هو أن يرث أحد الزوجين من صاحبه بسبب النكاح والولاء هو أن المعتق وعصباته يرثون المعتق والأسباب التي تمنع الميراث أربعة: اختلاف الدين فالكافر لا يرث المسلم ولا المسلم يرث الكافر لما روي من أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم. أخرجاه في الصحيحين. فأما الكفار فيرث بعضهم بعضاً مع اختلاف مللهم وأديانهم لأن الكفر كله ملة واحدة وذهب بعضهم إلى أن اختلاف الملل والكفر يمنع التوارث أيضاً حتى لا يرث اليهودي من النصراني ولا النصراني من المجوسي وإلى هذا ذهب الزهري والأوزاعي وأحمد وإسحاق لما روي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لا توارث بين أهل ملتين أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» أخرجه أبو داود وحمله الآخرون على الإسلام والكفر لأن الكفر عندهم ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين ملتين شتى والرق يمنع الإرث لأن الرقيق ملك ولا ملك له فلا يرث ولا يورث والقتل يمنع الإرث عمداً كان القتل أو خطأ لما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «القاتل لا يرث» أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث لا يصح والذي عليه العمل عند أهل العلم أن القاتل لا يرث سواء كان القتل عمداً أو خطأ. وقال بعضهم إذا كان القتل خطأ فإنه يرث وهو قول مالك وعمى الموت وهو أن يخفى موت المتوارثين وذلك بأن غرقاً أو انهدم عليهما بناء فلم يدر أيهما سبق موته فلا يرث أحدهما الآخر بل يكون إرث كل واحد منهما لما كانت حياته يقيناً بعد موته من ورثته.

فصل: السهام المحدودة

والسهام المحدودة في الفرائض المذكورة في كتاب الله عز وجل ستة: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس فالنصف فرض خمسة: فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصلب أو بنت الابن عند عدم

الآخرون على الإسلام مع الكفر، وأمّا الكفر فكله ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين أهل ملّتين شتّى، والرقيق لا يرث أحداً ولا يرثه أحد لأنه لا ملك له، لا فرق فيه بين القِن والمدبَّر والمكاتَب وأمّ الولد، والقتل يمنع الميراث عمداً كان أو خطأً لِما رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «القاتل لا يرث»، ونعني بعمَى الموت أن المتوارِثَين إذا عمى موتهما بأن غرقا في ماء أو انهدم عليهما بناء فلم يدرِ أيّهما سبق موته فلا يورث أحدهما من الآخر بل ميراث كل واحد منهما لمَن كان حياته يقيناً بعد موته من ورثته. والسهام المحدودة في الفرائض ستّة: النصف والربع والثُمن والثلثان والثلث والسدس، فالنصف فرض ثلاثة: فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصّلب أو لبنت الابن عند عدم ولد الصلب، وفرض الأخت الواحدة للأب والأم أو للأب إذا لم يكن لولد لأب وأُم، والربع فرض اثنين: فرض الزوج إذا كان للميت ولد وفرض الزوجة إذا لم يكن للميت ولد، والثمن: فرض الزوجة إذا كان للميت ولد، والثلثان فرض البنتين للصلب فصاعداً ولبنتي الابن فصاعداً عند عدم ولد الصلب، وفرض الأختين لأب وأم أو للأب فصاعداً، والثلث فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد، والاثنان من الأخوة والأخوات، إلّا في مسألتين: أحدهما زوجٍ وأبوان، والثانية زوجة وأبوان، فإن للأم فيهما ثلث ما بقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة، وفرض الاثنين فصاعداً من أولاد الأم، ذكَرُهُم وأُنثاهم فيه سواء، وفرض الجدّ مع الإخوة إذ لم يكن في المسْألة صاحب فرض، وكان الثلث خيراً للجدّ من المقاسمة مع الإخوة. وأمّا السدس ففرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد، وفرض الأُم إذا كان للميت ولد، واثنان من

بنت الصلب وفرض الأخت الواحدة للأب والأم وفرض الأخت الواحدة للأب والأم وفرض الأخت الواحدة للأب إذا لم يكن ولد لأب وأم والربع فرض الزوج من الولد وفرض الزوجة مع عدم الولد والثمن فرض الزوجة مع الولد والثلثان فرض البنتين فصاعداً أو بنات الابن عند عدم بنات الصلب وفرض الأختين فصاعداً للأب والأم أو للأب والثلث فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد ولا اثنان من الإخوة والأخوات إلّا في مسألتين: إحداهما زوج وأبوان والأخرى زوجة وأبوان فإن للأم فيهما ثلث الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة وفرض الاثنين فصاعداً من أولاد الأم ذكرهم وأنثاهم فيه سواء وفرض الجد مع الإخوة إذا لم يكن في المسألة صاحب فرض وكان الثلث للجد خيراً من المقاسمة مع الإخوة والسدس فرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد وفرض الأم إذا كان للميت ولد أو ولد ابن أو اثنان من الإخوة والأخوات وفرض الجد إذا كان للميت ولد ومع الإخوة إذا كان في المسألة صاحب فرض وكان السدس خير للجد من المقاسمة مع الإخوة وفرض الجدة والجدات، وفرض الواحد من أولاد الأم ذكراً كان أو أنثى وفرض بنات الابن مع بنت الصلب تكملة الثلثين وفرض الأخوات للأب مع الأخت للأب والأم تكملة الثلثين (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر (خ) عن ابن عباس قال كان المال للولد والوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث وجعل للمرأة الثمن والربع وللزوج الشطر والربع اهـ.

فصل

روي عن زيد بن ثابت قال: ولد الأبناء بمنزلة الأبناء إذا لم يكن دونهن ابن ذكرهم كذكرهم وأنثاهم كأنثاهم يرثون ويحجبون كما يحجبون ولا يرث ولد ابن مع ابن ذكر فإن ترك ابنة وابن ابن ذكر كان للبنت النصف ولابن الابن ما بقي لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» ففي هذا الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض والحجب حجبان: حجب نقصان وحجب حرمان. أما الأول وهو حجب النقصان فهو أن الولد وولد الابن يحجب الزوج من النصف إلى الربع والزوجة من الربع إلى الثمن والأم من الثلث إلى السدس وكذلك الاثنان من الإخوة والأخوات يحجبون الأم من الثلث إلى السدس. وأما الثاني وهو حجب

الإخوة والأخوات، وفرض الجدّ إذا كان للميت ولد ومع الإخوة والأخوات إذا كان في المسألة صاحب فرض، وكان السدس خيراً للجدّ من المقاسمة مع الأخوة، وفرض الجدّة والجدّات وفرض الواحد من أولاد الأم ذكراً كان أو أنثى، وفرض بنات الابن إذا كان للميت بنت واحدة للصلب تكملة للثلثين، وفرض الأخوات للأب إذا كان للميت أخت واحدة لأب وأم تكملة للثلثين. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا مسلم بن إبراهيم أنا وهيب بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأوْلَى رجلٍ ذكر»، وفي الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض، والحجب نوعان حجب نقصان وحجب حرمان، فأما حجب النقصان فهو أن الولد أو ولد الابن يحجب الزوج من النصف إلى الربع والزوجة من الربع إلى الثمن، والأم من الثلث إلى السدس، وكذلك الاثنان فصاعداً من الإخوة يحجبون الأم من الثلث إلى السدس. وحجب الحرمان هو أن الأم تُسقط الجدّات كلهنّ وأولاد الأم وهم الأخوة والأخوات للأم يسقطون بأربعة: بالأب والجدّ وإن علا، وبالولد وولد الابن وإن سفل، وأولاد الأب والأم يسقطون بثلاثة بالأب والابن وابن الابن وإن سفلوا، ولا يسقطون بالجدّ على مذهب زيد بن ثابت، وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي وأحمد

الحرمان فهو أن الأم تسقط الجدات وأولاد الأم وهم الإخوة للأم يسقطون بأربعة بالأب والجد وإن علا وبالولد وولد الابن وأولاد الأب والأم وهم الإخوة للأب والأم يسقطون بثلاثة بالأب والابن وابن الابن وإن سفلوا ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت. وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وبه قال مالك والأوزاعي والشافعي وأحمد وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالأخ للأب والأم وذهب قوم إلى أن الإخوة يسقطون جميعاً بالجد كما يسقطون بالأب. وهو قول أبي بكر الصديق وابن عباس ومعاذ وأبي الدرداء وعائشة. وبه قال الحسن وعطاء وطاوس وأبو حنيفة والأقرب من العصبات يسقط الأبعد منهم فأقربهم الابن ثم ابن الابن وإن سفل ثم الأب ثم الجد وإن علا فإن كان مع الجد أحد من الإخوة والأخوات للأب والأم أو للأب يشتركان في الميراث فإن لم يكن جد فالأخ للأب والأم ثم الأخ للأب ثم بنو الإخوة يقدم أقربهم سواء كان لأب وأم أو لأب فإن استويا في الدرجة فالذي هو لأب وأم ثم العم لأب وأم ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة ثم عم الأب ثم عم الجد على الترتيب فإن لم يكن أحد من عصابات النسب وعلى الميت، ولا فالميراث للمعتق فإن لم يكن حياً فلعصبات المعتق وأربعة من الذكور يعصبون الإناث: الابن وابن الابن والأخ للأب والأم والأخ للأب فلو مات عن ابن وبنت أو عن أخ وأخت لأب وأم أو لأب يكون المال. بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين ولا يفرض للبنت والأخت، وكذلك ابن الابن يعصب من في درجته من الإناث ومن فوقه إذا لم يأخذ من الثلثين شيئاً حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن فللبنتين الثلثان ولا شيء لبنت الابن فإن كان في درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقي بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين والأخت للأب والأم أو للأب تكون مع البنت عصبة حتى لو مات عن بنت وأخت كان للبنت النصف والباقي وهو النصف للأخت ولو مات عن بنتين وأخت كان للبنتين الثلثان والباقي للأخت ويدل على ذلك ما روي عن هزيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى عن ابنة وابنة ابن أخت فقال: للابنة النصف وللأخت النصف وائت ابن مسعود. فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى فقال ابن مسعود: لقد ضللت وما أنا من المهتدين ثم قال اقضي فيها بقضاء رسول الله ﷺ للابنة النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت فأخبر أبو موسى بقول ابن مسعود فقال لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم أخرجه البخاري. وأما تفسير فقوله تعالى

وإسحق رحمهم الله. وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالأخ للأب والأم، وذهب قوم إلى أن الإخوة جميعاً يسقطون بالجدّ كما يسقطون بالأب، وهو قول أبي بكر الصدّيق وابن عباس ومعاذ وأبي الدرداء وعائشة رضي الله عنهم، وبه قال الحسن وعطاء وطاوس وأبو حنيفة رحمهم الله، وأقرب العصبات يسقط الأبعد من العصوبة، وأقربهم الابن ثم ابن الابن وإن سفل، ثم الأب ثم الجدّ أو الأب وإن علا، فإن كان مع الجدّ أحد من الإخوة والأخوات للأب والأم أو للأب فيشتركان في الميراث، فإن لم يكن جدّ فالأخ للأب والأم ثم الأخ للأب ثم بنو الإخوة يقدّم أقربهم سواء كان لأب وأم أو لأب، فإن استويا في الدرجة فالذي هو لأب وأم أولى ثم العمّ للأب والأم ثم العمّ للأب ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة، ثم عمّ الأب ثم عمّ الجدّ على هذا الترتيب، فإن لم يكن أحد من عصبات النسب وعلى الميت ولاء فالميراث للمعتق، فإن لم يكن حيّاً فلعصبات المعتق وأربعة من الذكور يعصبون الإناث، الابن وابن الابن والأخ للأب والأم والأخ للأب حتى لو ماتت عن ابن وبنت أو عن أخ وأخت لأب وأم أو لأب فإنه يكون المال بينهما للذكر مثل حظّ الأنثيين، ولا يفرض للبنت والأخت وكذلك ابن الابن يعصب مَن في درجته من الإناث، ومن فوقه إذا لم تأخذ من الثلثين شيئاً حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن فللبنتين الثلثان ولا شيء لبنت الابن، فإن كان في درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقي بينهما للذكر مثل حظّ الأنثيين، والأخت للأب والأم أو للأب تكون عصبة مع البنت حتى لو مات عن بنت وأخت كان النصف للبنت والباقي للأخت،

يوصيكم الله أي يعهد إليكم ويفرض عليكم في أولادكم يعني في أمر من أولادكم إذا متم والوصية من الله إيجاب وإنما بدأ الله تعالى يذكر ميراث الأولاد لأن تعلق قلب الإنسان بولده أشد من تعلقه بغيره فلهذا قدم الله ذكر ميراثهم للذكر مثل حظ الأنثيين يعني أن الولد الذكر له من الميراث ضعفا سهام الأنثى فللذكر سهمان وللأنثى سهم فلو حصل مع الأولاد غيرهم من الورثة من أهل الفروض كالأبوين أخذوا فروضهم وما بقي بعد ذلك كان بين الأولاد للذكر مثل حظ الانثيين ﴿فإن كن﴾ يعني المتروكات من الأولاد ﴿نساء فوق اثنتين﴾ يعني بنتين فصاعداً ﴿فلهن ثلثاً ما ترك﴾ وأجمعت الأمة على أن للبنتين الثلثين إلاّ ما روي عن ابن عباس أنه ذهب إلى ظاهر الآية وقال: الثلثان فرض الثلاث من البنات لأن الله تعالى قال: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ فجعل الثلثين للنساء إذا زدن على الثنتين. وعنده أن فرض الثنتين النصف كفرض الواحدة وأجيب عنه بوجوده فيها حجة لمذهب الجمهور أيضاً: الوجه الأول أن الله تعالى قال: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف فجعل للواحدة﴾ وذلك ينفي حصول النصف نصيباً للبنتين. الوجه الثاني في الآية تقديماً وتأخيراً والتقدير: فإن كن نساء اثنتين فما فوقهما فلهن الثلثان. الوجه الثالث أن لفظة فوق ها هنا صلة والتقدير فإن كن نساء اثنتين فهو كقوله: «فاضربوا فوق الأعناق» يعني فاضربوا الأعناق وإنما سمى الاثنتين نساء بلفظ الجمع، لأن العرب تطلق على الاثنين جماعة بدليل قوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾. الوجه الرابع قال علماء الجمهور: وإنما أعطينا البنتين الثلثين بتأويل القرآن لأن الله تعالى جعل للبنت الواحدة النصف بقوله تعالى: ﴿وإن كانت فلها النصف﴾ وجعل للأخت الواحدة النصف بقوله: «إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك» ثم جعل للأختين الثلثين بقوله: «فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان» فلما جعل للأختين الثلثين علمنا أن للبنتين الثلثين قياساً على الأختين. الوجه الخامس أن النبي ﷺ قضى بالثلثين لابنتي سعد بن الربيع وهذا نص واضح في المسألة.

قوله تعالى: ﴿وإن كانت واحدة﴾ يعني البنت واحدة ﴿فلها النصف﴾ يعني فرضاً لها ﴿ولأبويه﴾ يعني أبوي الميت كناية عن غير مذكور وهما والداه ﴿لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد﴾ يعني أن للأب والأم مع وجود الولد أو ولد الابن لكل واحد منهما سدس الميراث. واعلم أن اسم الولد يقع على الذكر والأنثى فإذا

فلو مات عن بنتين وأخت فللبنتين الثلثان والباقي للأخت، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة أنا أبو قيس قال: سمعت هزيل بن شرحبيل قال: سُئِلَ أبو موسى عن ابنة وبنت ابن وأخت فقال: للبنت النصف وللأخت النصف، وائتِ ابنَ مسعود فسيتابعني فسُئِلَ ابن مسعود وأُخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين أقضي فيها بما قضى به رسول الله ﷺ: للبنت النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحَبر فيكم، رجعنا إلى تفسير الآية. فاختلفوا في سبب نزولها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو الوليد أنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصبّ عليّ من وضوئه فعقلت، فقلت: يا رسول الله لِمَنِ الميراث إنّما يرثني كلالة؟ فنزلت آية الفرائض. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في أم كُجّة امرأة أوس بن ثابت وبناته، وقال عطاء: استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أُحُد وترك امرأة وبنتين وأخاً، فأخذ الأخ المال فأتت امرأة سعد إلى رسول الله ﷺ بابنتي سعد فقالت: يا رسول الله إن هاتين ابنتا سعد وإنّ سعداً قُتل يوم أُحُد شهيداً، وإن عمّهما أخذ مالهما ولا تنكحان إلاّ ولهما مال، فقال رسول الله ﷺ: «ارجعي فلعلّ الله سيقضي في ذلك»، فنزل ﴿ يوصيكم الله ﴾ إلى آخرها، فدعا رسول الله ﷺ عمّهما فقال له: «أعطِ ابنتي سعد

مات الميت وترك أبوين وولداً ذكراً واحداً كان أو أكثر أو ترك بنات فإن للأم السدس بالفرض وللأب السدس مع الولد الذكر بالفرض ومع البنات له السدس بالتعصيب وهو الباقي من التركة وله مع البنت الواحدة السدس بالفرض والباقي بالتعصيب ﴿فإن لم يكن له ولد﴾ يعني للميت ﴿وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ يعني أن الميت إذا مات عن أبوين وليس له وارث سواهما فإن الأم تأخذ الثلث بالفرض ويأخذ الأب باقي المال بالفرض والتعصيب. فيكون المال بينهما أثلاثاً للذكر مثل حظ الانثيين فإن كان مع الأبوين أحد الزوجين فيفرض للأم ثلث الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة ﴿فإن كان له﴾ يعني للميت ﴿إخوة﴾ يعني ذكوراً أو إناثاً ﴿فلأمه السدس﴾ يعني لأم الميت سدس للتركة إذا كان معها أب وأجمع العلماء على أن الثلاثة يحجبون الأم من الثلث إلى السدس وأن الأخ الواحد والأخت الواحدة لا تحجب الأم من الثلث إلى السدس. واختلفوا في الأخوين فالأكثرون من الصحابة يقولون الأخوين يحجبان الأم من الثلث إلى السدس وهذا قول عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت والجمهور. وقال ابن عباس: لا تحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلّا أن يكونوا ثلاثة. قال ابن عباس لعثمان: لم صار الأخوان يردان الأم من الثلث إلى السدس، وإنما قال الله تعالى: ﴿فإن كان له إخوة﴾ والأخوان في لسان قومك ليسا بأخوة فقال عثمان: يا بني إن قومك حجبوها بأخوين ولا أستطيع نقد أمر قد كان قبلي وإنما نشأ هذا الاختلاف لأنهم اختلفوا في أقل الجمع وفيه قولان: أحدهما أن أقل الجمع اثنان وهو قول أبي بكر الباقلاني. وحجة هذا القول أنك إذا جمعت واحد إلى واحداً فهما جماعة لأن أصل الجمع ضم شيء. وقال ابن الأنباري: التثنية عند العرب أول الجمع ومشهور في كلامهم إيقاع الجمع على التثنية فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ وهما داود وسليمان عليهما السلام ومنه قوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ يريد قلباكما. والقول الثاني أن أقل الجمع ثلاثة وهو قول الجمهور العلماء وهو الأصح. إنما حجب العلماء الأم بالأخوين لدليل اتفقوا عليه وهو أن لفظ الاخوة يطلق على الأخوين فما زاد وذلك جائز في اللغة كما تقدم ثم إن الإخوة إذا حجبوا الأم من الثلث إلى السدس فإنهم لا يرثون شيئاً البتة بل يأخذ الأب الباقي كرجل مات عن أبوين وأخوين فإن للأم السدس والباقي وهو خمسة أسداس للأب سدس بالفريضة والباقي بالتعصيب قال قتادة: وإنما حجب الأخوة الأم من غير أن يرثوا مع الأب شيئاً معونة للأب لأنه يقوم بشأنهم وينفق عليهم دون الأم ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ يعني أن هذه الأنصباء والسهام إنما تقسيم بعد قضاء الدين وإنفاذ وصية الميت في ثلثه وذكر الوصية مقدم على الدين في اللفظ

الثلثين وأُمهما الثُّمن وما بقي فهو لك»، فهو أول ميراث قُسِّم في الإسلام. قوله عزّ وجلّ: ﴿ يُوصيكمُ اللَّهُ في أولادكم ﴾ أي: يعهد إليكم ويفرض عليكم في أولادكم، أي: في أمر أولادكم إذا متّم، للذكر مثلُ حظّ الأنثيين. ﴿ فإنْ كنّ ﴾، يعني: المتروكات من الأولاد، ﴿ نساءً فوقَ اثنتين ﴾، أي: اثنتين فصاعداً ﴿ فوق ﴾ صلة، كقوله تعالى: ﴿ فاضربُوا فوق الأعناق ﴾ [الأنفال: ١٢]، ﴿ فلهنّ ثُلثَا ما تركَ وإن كانت ﴾، يعني: البنت، ﴿ واحدةً ﴾، قراءة العامّة على خبر كان، رفعَها أهل المدينة على معنى إن وقعت واحدة، ﴿ فلها النصفُ ولأبويه ﴾، يعني لأبوي الميت كناية عن غير مذكور، ﴿ لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ﴾، أراد أن الأب والأم يكون لكل واحد منهما سدس الميراث عند وجود الولد أو ولد الابن، والأب يكون صاحب فرض ﴿ فإنْ لم يكنْ له ولدٌ ووَرِثَه أبواه فلأمّه الثُلثُ ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ فلإمه ﴾ بكسر الهمزة استقلالاً للضمة بعد الكسرة، وقرأ الآخرون بالضمّ على الأصل ﴿ فإن كانَ له إخوةٌ ﴾، اثنان أو أكثر ذكوراً وإناثاً ﴿ فلأمّه السدس ﴾، والباقي يكون للأب إن كان معها أب، والإخوة لا ميراثَ لهم مع الأب، ولكنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلّا أن يكونوا

لا في الحكم لأن لفظه أو لا توجب الترتيب. وإنما هي لأحد الشيئين كأنه قال من بعد أحد هذين مفرداً أو مضموماً إلى الآخر قال علي رضي الله عنه: إنكم تقرؤون الوصية قبل الدين. وبدأ رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية وهذا إجماع على أن الدين مقدم على الوصية والإرث مؤخر عنهما لأن الدين حق على الميت والوصية حق له وهما يتقدمان على حق الورثة.

قوله تعالى: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ قيل هذا كلام معترض بين ذكر الوارثين وأنصبائهم وبين قوله فريضة من الله ولا تعلق لمعناه بمعنى الآية ومعنى هذا الكلام في قول ابن عباس: إن الله عز وجل يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فأطوعكم لله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة، فإن كان الوالد أرفع درجة من ولده رفع الله درجة ولده إليه وإن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله إليه لتقر بذلك أعينهم فقال تعالى: ﴿لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ لأن أحدهما لا يعرف منفعة صاحبه له في الجنة وسبقه إلى منزلة عالية تكون سبباً لرفعته إليها، وقيل إن هذا الكلام ليس معترضاً بينهما ومعناه متعلق بمعنى الآية يقول آباؤكم وأبناؤكم يعني الذين يرثونكم أيهم أقرب لكم نفعاً أي لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا. فمنكم من يظن أن الأب أنفع له فيكون الابن أنفع له ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له ولكن الله هو الذي دبر أمركم على ما فيه المصلحة لكم فاتبعوه ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم فتعطون من لا يستحق ما لا يستحق من الميراث وتمنعون منم يستحق الميراث ﴿فريضة من الله﴾ يعني ما قدر من المواريث لأهلها فريضة واجبة ﴿إن الله كان علیماً حكيماً﴾ يعني كان عليماً بالأشياء قبل خلقها حكيماً فيما قدر من الفرائض وفرض من الأحكام، وقيل معناه عليماً بخلقه قبل أن يخلقهم حكيماً حيث فرض للصغار مع الكبار ولم يخص الكبار بالميراث كما كانت العرب تفعل وفي معنى لفظة كان ثلاثة أقوال: أحدها أن الله تعالى كان عليماً بالأشياء قبل خلقها ولم يزل كذلك، الثاني حكى الزّجاج عن سيبويه أنه قال: إن القوم لما شاهدوا علماً وحكمة ومغفرة وفضلاً قيل لهم إن الله كان

ثلاثة لأن الله تعالى قال: ﴿ فإن كان له إخوة فلأمه السدس ﴾، ولا يقال للاثنين إخوة، فنقول اسم الجمع قد يقع على التثنية لأن الجمع ضمّ شيء إلى شيء فهو موجود في الاثنين كما قال الله تعالى: ﴿ فقدْ صغتْ قلوبُكما ﴾ [التحريم: ٤] ذكر القلب بلفظ الجمع، وأضافه إلى اثنين، قوله تعالى: ﴿ مِنْ بعدِ وصيةٍ يُوصي بها أو دين ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر ﴿ يوصي ﴾ بفتح الصاد على ما لم يسمّ فاعله، وكذلك الثانية ووافق حفص في الثانية، وقرأ الآخرون بكسر الصاد لأنه جرى ذكر الميت من قبل، بدليل قوله تعالى: ﴿ يُوصين ﴾، و﴿ توصون ﴾ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنكم تقرؤون الوصية قبل الدَّين، وبدأ رسول الله ﷺ بالدَّين قبل الوصية، وهذا إجماعٌ أن الدين مُقدّم على الوصية. ومعنى الآية الجمع لا الترتيب، وبيان أن الميراث مؤخّر عن الدين والوصية جميعاً، من بعد وصية إن كانت أو دين إن كان، والإرث مؤخّر عن كل واحد منهما، ﴿ آباؤكم وأبناؤكم ﴾، يعني: الذين يرثونكم آباؤكم وأبناؤكم، ﴿ لا تدرُونَ أيُّهم أقربُ لكم نفعاً ﴾، أي: لا تعلمون أنهم أنفع لكم في الدين والدنيا فمنكم مَن يظن أن الأب أنفع له، فيكون الابن أنفع له، ومنكم مَن يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له، وأنا العالمُ بمَن هو أنفع لكم، وقد دبَّر أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أطوعكم لله عزّ وجلّ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، والله تعالى يُشفّع المؤمنين بعضهم في بعض، فإن كان الوالد أرفع درجة يوم القيامة في الجنة رفع إليه ولده وإن كان الولد أرفع درجة رفع إليه والده لتقرّ بذلك أعينهم، ﴿ فريضةً مِنَ اللهِ ﴾، أي: ما قدّر الله من المواريث، ﴿ إنّ اللّهَ كانَ عليماً ﴾، بأمور العباد، ﴿ حكيماً ﴾، بنصب الأحكام.

كذلك ولم يزل الله على ما شاهدتم. الثالث قال الخليل الخبر عن الله عزّ وجلّ بمثل هذه الأشياء كالخبر بالحال والاستقبال لأن صفات الله تعالى لا يجوز عليها الزوال والتقلب. قوله عز وجل:

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ هذا ميراث الأزواج من الزوجات. وقال تعالى في ميراث الزوجات من الأزواج **﴿ولهن﴾** يعني للزوجات **﴿الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾** لما جعل الله في الموجب النسبي حظ الرجل مثل حظ الأنثيين جعل الله في الموجب السبي للرجل مثل حظ الأنثيين واعلم أن الواحدة من النساء لها الربع أو الثمن وكذلك لو كن أربع زوجات فإنهن يشتركن في الربع أو الثمن واسم الولد يطلق على الذكر والأنثى. ولا فرق بين الولد وولد الابن وولد البنت في ذلك وسواء كان الولد للرجل من الزوجة أو من غيرها.

قوله تعالى: **﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة﴾** تقدير الآية وإن كان رجل أو امرأة يورث كلالة واختلفوا في الكلالة فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة من لا ولد له ولا والد روى الشعبي قال: سئل أبو بكر الصديق عن الكلالة فقال: سأقول فيها قولاً برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان أراه ما خلا الوالد والولد فلما استخلف عمر قال: إني لا أستحيي من الله أن أرد شيئاً قاله أبو بكر وهذا قول علي وابن مسعود وزيد بن ثابت وإحدى الروايتين عن عمر وابن عباس وهذا القول هو الصحيح المختار ويدل على صحته أن اشتقاق الكلالة من كلت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة بينهم فسميت القرابة البعيدة كلالة من هذا الوجه، وقيل

قوله تعالى: **﴿ ولكم نصفُ ما ترك أزواجُكم إن لم يكنْ لهنّ ولدٌ فإن كان لهنّ ولدٌ فلكم الرُّبعُ مما تركنَ من بعدِ وصيةٍ يُوصِينَ بها أو دَيْنٍ ﴾**، هـذا ميراث الأزواج، **﴿ ولهنَّ الرُّبعُ ﴾**، يعني: الزوجات الرّبع، **﴿ مما تركتم إنْ لم يكنْ لكم ولدٌ فإن كان لكم ولدٌ فلهنّ الثُّمن مما تركتُم مِنْ بعدِ وصيةٍ تُوصُونَ بها أو دَيْنٍ ﴾**، هذا ميراث الزوجات وإذا كان للرجل أربع نسوة فهنّ يشتركنَ في الرّبع والثّمن. قوله تعالى: **﴿ وإن كان رجلٌ يُورثُ كلالةً أو امرأةٌ ﴾** تُورث كلالة، ونظم الآية: وإن كان رجل أو امرأة يُورث كلالةً وهو نصب على المصدر، وقيل: على خبر ما لم يُسمَّ فاعلُه، وتقديره: وإن كان رجل يورث ماله كلالة، واختلفوا في الكلالة فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة مَنْ لاَ وَلَد له ولاَ وَالِدَ له. ورُوِيَ عن الشعبي قال: سُئِلَ أبو بكر رضي الله عنه عن الكلالة فقال: إني سأقول فيها برأيي فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأً فمنّي ومن الشيطان، أراه ما خلا الوالد والولد، فلما استخلف عمر رضي الله عنهما قال: إني لأستحيي من الله أن أردَّ شيئاً قاله أبو بكر رضي الله عنه، وذهب طاوس إلى أن الكلالة مَنْ لا ولد له، وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما، وآخر القولين عن عمر رضي الله عنه، واحتجّ

إن الكلالة في أصل اللغة عبارة عن الإحاطة ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس. فمن عد الوالد والولد من القرابة إنما سموا كلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان أما نسبة الولادة فليست كذلك لأن فيها تنوع البعض عن البعض وتولد البعض من البعض فهو كالشيء الواحد الذي يتزايد على نسق واحد. فأما القرابة المغايرة لقرابة الولادة وهم الإخوة والأخوات والأعمام والعمات وغيرهم فإنما محصل نسبهم اتصال إحاطة بالمنسوب إليه فثبت بذلك أن الكلالة عبارة عمن عدا الوالد والولد والرواية الأخرى عن عمر وابن عباس أن الكلالة من لا ولد له. وبه قال طاوس واحتج لهذا القول بقوله تعالى: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ وبيانه عند عامة العلماء مأخوذ من حديث جابر بن عبدالله لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن لأن أباه قتل يوم أحد وآية الكلالة نزلت في آخر عمر النبي ﷺ فصار شأن جابر بياناً لمراد الآية التي نزلت في آخر السورة لنزولها فيه واختلفوا في أن الكلالة اسم لمن؟ فمنهم من قال هو اسم للميت، وهو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس لأنه مات عن ذهاب طرفيه فكل عمود نسبه وقيل هو اسم للحي من الورثة وهو قول أبي بكر الصديق. وعليه جمهور العلماء الذين قالوا: إن الكلالة من دون الوالد والولد ويدل عليه حديث لجابر إنما يرثني كلالة أي يرثني ورثة ليسوا بولد ولا والد فإن كان المراد بالكلالة الميت الموروث فالمراد يرثه غير الوالد والولد. وإن كان المراد الوارثين فهم غير الوالد والولد وقال ابن زيد: الكلالة الذي لا ولد له ولا والد والحي والميت كلهم كلالة هذا يرث بالكلالة وهذا يورث بالكلالة. وقال أبو الخير: سأل رجل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا يسألني عن الكلالة وما أعضل بأصحاب النبي ﷺ شيء ما أعضلت بهم الكلالة (ق) عن عمر قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهد انتهى إليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا وهذا طرف حديث ذكر في الخمر (ق) عن معدان بن أبي طلحة قال خطب عمر بن الخطاب: فقال إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ في الكلالة حتى طعن بأصبعيه في صدري وقال: يا عمر ألا يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء وإني إن أعش أقض فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن. لفظ مسلم قوله: ألا يكفيك آية الصيف أراد أن الله عز وجل أنزل في الكلالة آيتين: إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النساء والآية الأخرى في الصيف وهي التي في آخر السورة وفيها من البيان ما ليس في آية الشتاء فلذلك أحاله عليها.

وقوله تعالى: ﴿**وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس**﴾ أراد به الأخ والأخت للأم باتفاق العلماء وقرأ سعد بن أبي وقاص وله أخ أو أخت من أم. فأن قلت إن الله تعالى قال وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ثم قال

مَن ذهب إلى هذا بقول الله تعالى: ﴿ قلِ اللَّهُ يُفتيكم في الكَلَالَةِ إنِ امرؤ هَلَكَ ليسَ له ولدٌ ﴾ [النساء: ١٧٦]، وبيانه عند العامّة مأخوذٌ من حديث جابر بن عبد الله، لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن، لأن أباه عبد الله بن حزام قُتل يوم أُحد، وآية الكلالة نزلتْ في آخر عمر النبي ﷺ، فصار شأن جابر بياناً لمراد الآية لنزولها فيه، واختلفوا في أن الكَلالة اسم لمَن؟ فمنهم مَن قال: اسم للميت، وهو قول علي وابن مسعود رضي الله عنهما، لأنه مات عن ذهاب طرفيه، فكلَّ عمود نسبه، ومنه مَن قال: اسم للورثة، وهو قول سعيد بنُ جبير، لأنهم يتكللون الميت من جوانبه، وليس في عمود نسبه أحدٌ، كالإكليل يحيط بالرأس ووسط الرأس منه خالٍ، وعليه يدلّ حديث جابر رضي الله عنه حيث قال: إنما يرثني كلالة، أي: يرثني ورثة ليسوا بولدٍ ولا والدٍ، وقال النضر بن شميل: الكلالة اسم للمال، وقال أبو الخير: سأل رجل عُقبة عن الكلالة فقال: ألا تعجبون من هذا يسألني عن الكلالة، وما أعضل بأصحاب النبي ﷺ ما أعضلت بهم الكلالة، وقال عمر رضي الله عنه: ثلاث لا يكون النبي ﷺ بينهنّ لنا

تعالى وله أخ فذكر الرجل ولم يذكر المرأة فما السبب فيه. قلت هذا على عادة العرب فإنهم إذا ذكروا اسمين ثم أخبروا عنهما وكان في الحكم سواء ربما أضافوا أحدهما إلى الآخر وربما أضافوا إليهما فهو كقوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة، ثم قال تعالى وإنها لكبيرة وقال الفراء إذا جاء حرفان بمعنى واحد جاز إسناد التفسير إلى أيهما أريد ويجوز إسناده إليهما أيضاً ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ وهذا إجماع العلماء أن أولاد الأم إذا كانوا اثنين فصاعداً يشتركون في الثلث ذكرهم وأنثاهم فيه سواء قال أبو بكر الصديق في خطبته: إلاّ أن الآية التي أنزل الله في أول سورة النساء من شأن الفرائض أنزلها في الولد والوالد والأم والآية الثانية في الزوج والزوجة والإخوة من الأم والآية الثالثة التي ختم الله بها سورة النساء في الإخوة والأخوات من الأب والأم والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها الله في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.

وقوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ تقدم تفسيره وبقي شيء من الأحكام يذكر هنا وذلك أن ظاهر الآية يدل على جواز الوصية بكل المال وببعضه وفي معنى الآية ما روي عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي به» وفي رواية له شيء يريد أن يوصى به أن يبيت ليلتين وفي رواية ثلاث ليال إلاّ ووصيته مكتوبة عنده. قال نافع: سمعت عبدالله بن عمر يقول ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلاّ وعندي وصيتي مكتوبة أخرجاه في الصحيحين، ففي ظاهر الآية والحديث ما يدل على إطلاق الوصية لكن ورد في السنة ما يدل على تقييد هذا المطلق وتخصيصه وهو قوله ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص قال: الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء أخير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس أخرجاه في الصحيحين. ففي هذا الحديث دليل على أن الوصية لا تجوز بأكثر من الثلث وأن النقصان عن الثلث جائز ولا تجوز الوصية لوارث ويدل عليه ما روي عن عمرو بن خارجة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزّ وجلّ أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث والولد للفراش وللعاهر الحجر» أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث أخرجه أبو داود.

وقوله تعالى: ﴿غير مضار﴾ يعني غير مدخل الضرر على الورثة بمجاوزة الثلث في الوصية وهو أن يوصي بأكثر من الثلث وقيل هو أن يوصي بدين ليس عليه أو يقر بماله أو أكثر ماله لأجنبي ويترك ورثته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار، ثم قرأ أبو هريرة من بعد وصية يوصي بها أو دين إلى قوله وذلك هو الفوز العظيم أخرجه أبو داود والترمذي. وقال قتادة: كره الله تعالى الضّرار في الحياة وعند الموت فنهى عنه وقدم فيه وقيل: إن الإضرار في

أحبّ إلينا من الدنيا وما فيها: الكلالة والخلاقة وأبواب الزنا، وقال معد بن طلحة: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة، ما راجعتُ رسول الله ﷺ في شيء ما راجعتُه في الكلالة، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي في الكلالة، حتى طعن بأصبعه في صدري فقال: يا عمر ألاَ تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء، وإني إن أعشْ أقضِ بقضية يقضي بها مَن يقرأ القرآن ومَن لا يقرأ، وقوله: ألاَ تكفيكَ آيةُ الصيف؟ أراد: أن الله عزّ وجلّ أنزل في الكلالة آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النساء والأخرى في الصيف، وهي التي في آخرها، وفيها من البيان ما ليس في آية الشتاء، فلذلك أحاله عليها، قوله تعالى: ﴿ وله أخٌ أو أختٌ فلكلِّ واحدٍ منهما السُّدسُ ﴾، أراد به الأخَ والأختَ من الأم بالاتفاق، قرأ سعد بن أبي وقاص (ولـه أخ أو أخـت من أم) ولم يقلْ لهما مع ذكر الرجل والمرأة من قبل، على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما، وكانا في الحكم سواءً ربّما أضافت إلى أحدهما، وربّما أضافت إليهما، كقوله تعالى:

الوصية من الكبائر لأن مخالفة أمر الله عز وجل كبيرة وقد نهى الله عن الإضرار في الوصية فدل على أن ذلك من الكبائر، واعلم أن الأولى بالإنسان أن ينظر عند الموت في قدر ما يخلف من المال ومن يخلف من الورثة ثم يجعل وصيته بحسب ذلك فإن كان ماله قليلاً، وفي الورثة كثرة فالأولى به أن لا يوصي بشيء لقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» وإن كان في المال كثرة أوصى بحسب المال وبحسب الورثة وحاجتهم بعده في القلة والكثرة.

وقوله تعالى: ﴿وصية من الله﴾ أي فريضة من الله وقيل عهداً من الله إليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم ﴿والله عليم﴾ يعني أنه عالم بمصالح عباده ومضارهم وبما يفرض عليهم من الأحكام وقيل عليم بمن يجور في وصيته وبمن لا يجور ﴿حليم﴾ يعني أنه تعالى ذو حلم وذو أناة في ترك العقوبة عمن جار في وصيته وقال أبو سليمان الخطابي: الحليم ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل والحليم هو الصفوح مع القدرة المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة. قوله عز وجل: .

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿تلك حدود الله﴾ يعني الأحكام التي تقدم ذكرها في هذه السورة من مال اليتامى والوصايا والأنكحة والمواريث وإنما سماها حدوداً لأن الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين فلا يجوز لهم أن يتجاوزوها وقال ابن عباس يريد ما حد الله من فرائضه ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ يعني في شأن المواريث ورضي بما قسم الله له وحكم عليه ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله﴾ يعني في شأن

﴿ واستعينُوا بالصبرِ والصلاةِ وإنّها لكبيرة ﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿ فإن كانُوا أكثرَ من ذلك فهم شركاءُ في الثُلث ﴾، فيه إجماع أن الأم إذا كانوا اثنين فصاعداً يشتركون في الثلث ذكرُهم وأُنثاهم، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: ألاَ إن الآية التي أنزل الله تعالى في أول سورة النساء في بيان الفرائض أنزلها في الولد والوالد والأم، والآية الثانية في الزوج والزوجة والإخوة والأخوات من الأُم، والآية التي ختم بها سورة النساء في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله، ﴿ مِنْ بعدِ وَصِيةٍ يُوصي بها أو دَيْنٍ غيْرَ مُضارٍّ ﴾ أي: غير مُدخلِ الضررَ على الورثة بمجاوزة الثلث في الوصية، فإن الحسن هو أن يوصي بدين ليس عليه، ﴿ وصيةً مِنَ اللهِ واللّهُ عليمٌ حليم ﴾، قال قتادة: كره الله الضرارَ في الحياة وعند الموت، ونهى عنه وقدّم فيه.

﴿ تلكَ حُدودُ اللّهِ ﴾، يعني: ما ذكر من الفرائض المحدودة، ﴿ ومَنْ يُطعِ اللّهَ ورسولَه يُدْخِلْهُ جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار خالدين فيها وذلكَ الفوزُ العظيم ﴾.

﴿ ومَنْ يَعصِ اللّهَ ورسولَه ويَتعدَّ حدودَهُ يُدخله ناراً خالداً فيها وله عذابٌ مُهين ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر « نُدخله جنّات، ونُدخله ناراً »، وفي قوله تعالى: ﴿ ندخله ﴾ [الفتح: ١٧] و﴿ نعذّبه ﴾ [الفتح: ١٧] وفي

المواريث ولم يرض بقسمة الله ورسوله ﴿ويتعد حدوده﴾ يعني ويتجاوز ما أمر الله تعالى به ﴿يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾ فإن قلت كيف قطع للعاصي بالخلود في النار في هذه الآية وهل فيها دليل للمعتزلة على قولهم إن العصاة والفساق من أهل الإيمان يخلدون في النار. قلت قال الضحاك المعصية هنا الشرك وروى عكرمة عن ابن عباس في معنى الآية من لم يرض بقسمة الله ويتعد ما قال الله يدخله ناراً وقال الكلبي: يكفر بقسمة المواريث ويتعد حدود الله استحلالاً إذا ثبت ذلك فمن رد حكم الله ولم يرض بقسمته كفر بذلك وإذا كفر كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار إذا لم يتب قبل وفاته إذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلداً في النار بكفره فلا دليل في الآية للمعتزلة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿واللاتي﴾ هو جمع التي وهي كلمة يخبر بها عن المؤنثة خاصة ﴿يأتين الفاحشة﴾ يعني يفعلن الفاحشة يقال أتيت أمراً قبيحاً إذا فعلته والفاحشة في اللغة الفعلة القبيحة، وقيل الفاحشة عبارة عن كل فعل أو قول يعظم قبحه في النفوس ويقبح ذكره في الألسنة حتى يبلغ الغاية في جنسه وذلك مخصوص بشهوة الفرج الحرام ولذلك أجمعوا على أن الفاحشة ها هنا هي الزنا وإنما سمي الزنى فاحشة لزيادة قبحه ﴿من نسائكم﴾ قيل هن الزوجات وقيل المراد بهن جنس النساء ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ يعني من المسلمين وهذا خطاب للأزواج أي اطلبوا أربعة من الشهود ليشهدوا عليهن وقيل هو خطاب للحكام أي استمعوا شهادة أربع عليهن. ويشترط في هذه الشهادة العدالة والذكورة قال عمر بن الخطاب: إنما جعل الله الشهود أربعة ستراً يستركم به دون فواحشكم ﴿فإن شهدوا﴾ يعني الشهود بالزنا ﴿فأمسكوهن في البيوت﴾ أي فاحبسوهن في البيوت والحكمة في حبسهن أن المرأة إنما تقع في الزنى عند الخروج والبروز للرجال فإذا حبست في البيت لم تقدر على الزنى ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ يعني تتوفاهن ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ وهذا الحكم كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت ثم نسخ الحبس بالحدود وجعل الله لهن سبيلاً (م) عن عبادة بن الصامت قال: «كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه حكم كرب لذلك وتربد وجهه فأنزل الله عليه ذات يوم فبقي كذلك فلما سري عنه قال: خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

فصل

اتفق العلماء على أن هذه الآية منسوخة ثم اختلفوا في ناسخها فذهب بعضهم إلى أن ناسخها هو حديث عبادة بن الصامت المتقدم وهذا على مذهب من يرى نسخ القرآن بالسنة وذهب بعضهم إلى أن الآية الحد التي في

قوله تعالى؛ ﴿ نكفّر ﴾ [التغابن: ٩] و﴿ ندخله ﴾ [التغابن: ٩] وفي قوله تعالى: ﴿ ندخله ﴾ [الطلاق: ١١] بالنون فيهنّ، وقرأ الآخرون بالياء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ واللاتي يأتينَ الفاحشةَ ﴾، يعني: الزنا، **﴿ من نسائِكم فاستشهدُوا عليهنّ أربعةً منكم ﴾**، يعني: من المسلمين، وهذا خطاب للحكّام، أي: فاطلبوا عليهنّ أربعةً من الشهود، فيه بيان أن الزنا لا يثبت إلّا بأربعة من الشهود. **﴿ فإنْ شهدُوا فأمسكُوهنّ ﴾**، فاحبسوهنّ، **﴿ في البيوتِ حتى يتوفّاهُنّ الموتُ أو يجعلَ اللّهُ لهنّ سبيلاً ﴾**، وهذا كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود، وكان المرأة إذا زنت حُبست في البيوت حتى تموت، ثم نسخ ذلك في حق البكر بالجلد والتنريب، وفي حق الثيّب بالجلد والرجم. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أخبرنا الشافعي رضي الله عنه أخبرنا عبد الوهاب عن يونس عن الحسن عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خُذوا عنّي خُذوا عنّي:

سورة النور وقيل إن هذه الآية منسوخة الصامت المتقدم وهذا على مذهب من يرى نسخ القرآن بالسنة بالحديث والحديث منسوخ بآية الجلد وقال أبو سلمان الخطابي: لم يحصل النسخ في هذه الآية ولا في الحديث وذلك لأن قوله تعالى: ﴿فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ يدل على إمساكهن في البيوت ممدوداً إلى غاية أن يجعل الله لهن سبيلاً وأن ذلك السبيل كان مجملاً فلما قال ﷺ: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً» الحديث صار هذا الحديث بياناً لتلك الآية المجملة لا ناسخاً لها. وأجمع العلماء على جلد البكر الزاني مائة ورجم المحصن وهو الذي اجتمع فيه أربعة أوصاف البلوغ والعقل والحرية والإصابة في نكاح صحيح وهو الثيب واختلفوا في جلد الثيب ورجمه فذهب طائفة إلى أنه يجب الجمع بينهما وبه قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والحسن وإسحاق بن راهويه وداود وأهل الظاهر وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة. وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ. وقال جماهير العلماء الواجب على المحصن الزاني الرجم وحده لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية ولم يجلدهما. وأما تغريب البكر والزاني ونفيه سنة فمذهب الشافعي وجماهير العلماء وجوب ذلك وقال أبو حنيفة وحماد لا يقضى بالنفي أحد إلاّ أن يراه الحاكم تعزيراً، وقال مالك والأوزاعي: لا نفي على النساء ويروى مثله عن علي قال لأن المرأة عورة وفي نفيها تضييع لها وتعريض للفتنة وحجة الشافعي وجماهير العلماء ظاهر حديث عبادة بن الصامت وهو قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة» وروى نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ضرب وغرب وأن أبا بكر ضرب وغرب وأن عمر ضرب وغرب وإن كان الزاني عبداً فعليه جلد خمسين وفي تغريبه قولين. فإن قلنا إنه يغرب ففيه قولان أصحهما أنه يغرب نصف سنة قياساً على حده وإن كان الزاني مجنوناً أو أنه يغرب ففيه قولان: أصحهما أنه يغرب نصف سنة قياساً على حده وإن كان الزاني مجنوناً أو غير بالغ فلا جلد عليه.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿واللذان﴾ هو تثنية الذي ﴿يأتيانها﴾ يعني يأتيان الفاحشة ﴿منكم﴾ يعني من رجالكم

قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكرُ بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيِّب بالثيِّب جلد مائة والرجم»، قال الشافعي رضي الله عنه: وقد حدَّثني الثقة أن الحسن كان يدخل بينه وبين عبادة حطان الرقاشي، فلا أدري أدخله عبد الوهاب فنزل عن كتابي أمْ لاَ. قال شيخنا الإمام: الحديث صحيح رواه مسلم بن الحجّاج عن محمد بن المثنى عن عبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن حطّان بن عبد الله عن عبادة، ثم نُسخ الجلد في حق الثيِّب وبقي الرجم عند أكثر أهل العلم، وذهب طائفة إلى أنه يجمع بينهما. رُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه: أنه جَلَدَ شراحةَ الهمدانية يوم الخميس مائة ثم رجمها يوم الجمعة، وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسُنّة رسول الله ﷺ. وعامّة العلماء على أن الثيِّب لا يجلد مع الرجم لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية ولم يجلدهما. وعند أبي حنيفة رضي الله عنه: التغريب أيضاً منسوخ في حق البكر، وأكثر أهل العلم على أنه ثابت، روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ ضَرَبَ وغرّبَ، وأن أبا بكر رضي الله عنه ضَربَ وغَرّبَ، وأن عمر رضي الله عنه ضَرَب وغرّبَ، واختلفوا في أن الإمساك في البيت كان حدّاً فنسخ أم كان حبساً ليظهر الحدّ، على قولين.

قوله تعالى: ﴿ واللذانِ يأتيانِها منكم ﴾، يعني الرجل والمرأة، والهاء راجعة إلى الفاحشة، قرأ ابن كثير

ونسائكم وقيل هما البكران اللذان لم يحصنا وهما غير المعنيين بالآية الأولى وقيل المراد بمن ذكر في الأولى النساء وهذه للرجال لأن الله تعالى حكم في الآية الأولى بالحبس في البيت على النساء وهو اللائق بحالهن لأن المرأة إنما تفعل الفاحشة عند الخروج فإذا حبست في البيت انقطعت مادة المعصية، وأما الرجل فلا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فجعلت عقوبة الرجل الزاني الأذية بالقول والفعل ﴿فآذوهما﴾ يعني عيروهما بالقول باللسان وهو أن يقال له أما خفت الله أما استحيت من الله حين زنيت وقال ابن عباس: سبوهما واشتموهما وفي رواية عنه قال: هو باللسان واليد يؤذي بالتعيير ويضرب بالنعال ﴿فإن تابا﴾ يعني من الفاحشة ﴿وأصلحا﴾ يعني العمل فيما يأتي ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي اتركوهما ولا تؤذوهما ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾ يعني أنه تعالى يعود على عبده بفضله ومغفرته ورحمته إذا تاب إليه وهذا الحكم كان في ابتداء الإسلام كان حد الزاني الأذى بالتوبيخ والتعيير بالقول باللسان فلما نزلت الحدود وثبتت الأحكام نسخ ذلك

« اللذان، واللذين، وهاتان، وهذان » مشدّدة النون التأكيد، ووافقه أهل البصرة في (فذانك) والآخرون بالتخفيف، قال أبو عبيدة: خصّ أبو عمرو (فذانك) بالتشديد لقلّة الحروف في الاسم ﴿ فآذوهما ﴾ قال عطاء وقتادة: يعني فعيّروهما باللسان: أَمَا خِفْتَ اللَّهَ؟ أما استحيتَ من الله حيث زنيت؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُبوهُمَا واشتموهما، قال ابن عباس، هو باللسان واليد يُؤذي بالتعيير وضرب النعال، فإن قيل: ذَكَرَ الحبسَ في الآية الأولى وذَكر في هذه الآية الإيذاءَ، فكيف وجه الجمع؟ قيل: الآية الأولى في النساء وهذه في الرجال، وهو قول مجاهد، وقيل: الآية الأولى في الثيّب وهذه في البكر، ﴿ فإنْ تَابَا ﴾، من الفاحشة ﴿ وأَصْلَحَا ﴾، العمل فيما بعد، ﴿ فأعرِضُوا عنهما ﴾، فلا تُؤذُوهما، ﴿ إن الله كان توّاباً رحيماً ﴾، وهذا كله كان قبل نزول الحدود، فنُسخت بالجلد والرجم، والجلد في القرآن قال الله تعالى: ﴿ الزانيةُ والزاني فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلدة ﴾ [النور: ٢] والرجم في السنة. أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما أخبراه أنّ رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: اقضِ يا رسول الله بيننا بكتابِ الله، وقال الآخر وكان أفقههما: أجلْ يا رسول الله فاقضِ بيننا بكتابِ الله، وائذن لي أن أتكلم، قال: «تكلم»، قال: إن ابني كان عسيفاً، أي: أجيراً على هذا، فزنى بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم، فافتديتُ منه بمائة شاة وبجارية لي، ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله، أمّا غَنَمُك وجاريتُك فردٌّ عليك، وأمّا ابنُك فعليه جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا، أي: أمر أنيساً الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت فارجمها»، فغدَا عليها فاعترفتْ، فرجمها. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدّثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عن عبيد بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله تعالى آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، وأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: واللَّهِ ما نجدُ آيةَ الرجم في كتاب الله تعالى، فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى في كتابه، والرجم في كتاب الله تعالى حق على مَن زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البيّنة أو كان الحبل أو الاعتراف. وجملة حدّ الزنا أن الزاني إذا كان محصناً وهو الذي اجتمعت فيه أربعة أوصاف: العقل والبلوغ والحرية

الأذى بالآية التي في سورة النور وهي قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ الآية فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله ﷺ فقد أصح أن رسول الله ﷺ رجم ماعزاً وكان قد أحصن وسواء في هذا الحكم المسلم واليهودي لأنه ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا وقال أبو حنيفة: لا رجم على اليهودي لأن المشرك ليس بمحصن وأجيب عنه بأن المراد بهذا الإحصان إحصان العفاف لا إحصان الفرج. قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾

﴿إنما التوبة على الله﴾ يعني التوبة التي يقبلها الله تعالى فيكون على بمعنى عند وقيل على بمعنى من أي من الله وقال أهل المعاني إن الله تعالى وعد قبول التوبة من المؤمنين في قوله كتب ربكم على نفسه الرحمة وإذا وعد الله شيئاً أنجز ميعاده وصدق فيه فمعنى قوله على الله أوجب على نفسه من إيجاب أحد عليه لأنه تعالى يفعل ما يريد ﴿للذين يعلمون السوء﴾ يعني الذنوب والمعاصي سميت سوءاً لسوء عاقبتها إذا لم يتب منها ﴿بجهالة﴾ قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيرهن وكل من عصى الله فهو جاهل. وقال ابن عباس: من عمل السوء فهو جاهل من جهالته عمل السوء فكل من عصى الله سمي جاهلاً وسمي فعله جهالة وإنما سمي من عصى الله جاهلاً لأنه لم يستعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب وإذا لم يستعمل ذلك سمي جاهلاً بهذا الاعتبار وقيل معنى الجهالة أن يأتي الإنسان بالذنب مع العلم بأنه ذنب لكنه يجهل عقوبته وقيل معنى الجهالة هو اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ يعني يتوبون بعد الإقلاع عن الذنب بزمان قريب لئلا يعد في زمرة المصرين وقيل القريب أن يتوب في صحته قبل مرض موته وقيل قبل موته وقيل قبل معاينة ملك الموت ومعاينة أهوال الموت وإنما سميت هذه المدة قريبة لأن كل ما هو آت قريب وفيه تنبيه

والإصابة بالنكاح الصحيح، فحدّه الرجم مسلماً كان أو ذمياً وهو المراد من الثيّب المذكور في الحديث، وذهب أصحاب الرأي إلى أن الإسلام من شرائط الإحصان، ولا يرجم الذمّي، وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه رجم يهوديين زنيا، وكانا قد أحصنا، وإن كان الزاني غير محصن بأن لم تجتمع فيه هذه الأوصاف نظر إن كان غير بالغ أو كان مجنوناً فلا حدّ عليه، وإن كان حرّاً عاقلاً بالغاً غير أنه لم يُحصن بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام، وإن كان عبداً فعليه جلد خمسين وفي تغريبه قولان، إن قلنا يغرب فيه قولان، أصحّهما نصف سنة كما يجلد خمسين على نصف حدِّ الحُرِّ.

قوله تعالى: ﴿ إنما التوبةُ على اللّهِ ﴾ قال الحسن: يعني التوبة التي يقبلها، فيكون على بمعنى عند، وقيل: من الله، ﴿ للذينَ يعملُون السوءَ بجهالةٍ ﴾، قال قتادة: جمع أصحاب رسول الله ﷺ على أنّ كل ما عُصي به اللّهُ فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكلّ مَن عَصَى اللّهَ فهو جاهلٌ. وقال مجاهد: المراد من الآية: العمد، قال الكلبي: لم يجهل أنه ذنب لكنه جهل عقوبته، وقيل: معنى الجهالة: اختيارُهم اللذّة الفانية على اللذّة الباقية. ﴿ ثم يَتُوبُون مِنْ قريبٍ ﴾، قيل: معناه قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها، وقال السدي والكلبي: القريب أن يتوب في صحته قبل مرض موته، وقال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل مُعاينة مَلَكِ الموت، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نغير عن

على أن عمر الإنسان وإن طال فهو قليل وأن الإنسان يتوقع في كل ساعة ولحظة نزول الموت به عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر أخرجه الترمذي. الغرغرة أن يجعل المشروب في فم المريض فيردده في الحلق ولا يصل إليه ولا يقدر على بلعه وذلك عند بلوغ الروح إلى الحلقوم. وروى البغوي بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم» فقال الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاعي في مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني وقيل في معنى الآية إن القريب هو أن يتوب الإنسان قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها ﴿**فأولئك يتوب الله عليهم**﴾ يعني يقبل توبتهم ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾ قال ابن عباس: علم ما في قلوب عباده المؤمنين من التصديق واليقين فحكم بالتوبة قبل الموت ولو بقدر فواق ناقة وقيل في معنى الآية علم أنه إنما أتى بتلك المعصية باستيلاء الشهوة والجهالة عليه فحكم بالتوبة لمن تاب عنها وأناب عن قريب. قوله عز وجل: .

وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

﴿**وليست التوبة للذين يعملون السيئات**﴾ قال ابن عباس: يريد الشرك وقال أبو العالية وسعيد بن جبير: هم المنافقون وقال سفيان الثوري هم المسلمون ألا ترى أنه قال ولا الذين يموتوا وهم كفار ﴿**حتى إذا حضر أحدهم الموت**﴾ يعني وقع في النزاع وعاين ملائكة الموت وهو حالة السوق حين تساق الروح للخروج من جسده ﴿**قال إني تبت الآن**﴾ قال المحققون قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة بل المانع من قبولها مشاهدة الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال ولذلك لم تقبل توبة فرعون ولا إيمانه وهو قوله تعالى: حتى إذا أدركه الغرق. قال: آمنت أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ فإن قلت قد تعلقت الوعيدية بهذه الآية

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغرْغر**» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر بن محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا أبو الأسود أنا ابن لهيعة عن درَّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الشيطان قال: وعزّتك يا ربّ لا أبرح أُغوي عبادك ما دامتْ أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». قوله تعالى: ﴿ **فأولئك يتوبُ اللّهُ عليهم وكانَ الله عليماً حكيماً** ﴾.

﴿ **وليستِ التوبةُ للذينَ يعملون السيئاتِ**﴾، يعني: المعاصي ﴿ **حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ** ﴾، ووقع في النزع، ﴿ **قال إني تُبتُ الآن** ﴾، وهي حالة السَّوق حتى يُساق بروحه، لا يُقبل من كافر إيمانٌ ولا من عاصٍ توبة، قال الله تعالى: ﴿ فلم يكُ ينفعهم إيمانُهم لمّا رأوا بأسَنا ﴾ [غافر: ٨٥]، ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق. ﴿ **ولا الذينَ يموتُون وهم كفّارٌ أولئك أعتدنا** ﴾، أي: هيّأنا وأعددنا، ﴿ **لهم عذاباً أليماً** ﴾.

﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا لا يحلُّ لكم أن ترثُوا النِّساءَ كَرْهاً** ﴾، نزلت في أهل المدينة كانوا في الجاهلية وفي أول

وقالوا أخبر الله تعالى إن عصاة المؤمنين إذا أهملوا أمرهم إلى انقضاء آجالهم حصلوا على عذاب الآخرة مع الكفار لأن الله تعالى جمعهم في قوله أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً، وأيضاً أنه تعالى أخبر أنه لا توبة لهم عند معاينة الموت وأسبابه. قلت ليس الأمر على ما زعموا فقد روي عن ابن عباس في قوله وليست التوبة للذين يعملون السيئات يريد الشرك وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية الأولى في المؤمنين يعني قوله: إنما التوبة على الله والوسطى في المنافقين يعني قوله وليست التوبة والأخرى في الكافرين يعني قوله ولا الذين يموتون وهم كفار وإذا كانت الآية نازلة في المنافقين والكفار فلا وجه لحملها على المؤمنين وعلى تقدير أن تكون الآية نازلة في عصاة المؤمنين فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: وليست التوبة للذين يعملون السيئات الآية، ثم أنزل الله تعالى بعد ذلك إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فحرم الله المغفرة على من مات وهو كافر وارجأ أهل التوحيد إلى مشيئته ولم يؤيسهم من المغفرة فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة في حق المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿**ولا الذين يموتون وهم كفار**﴾ معناه لا توبة للكفار إذا ماتوا على كفرهم وإنما لم تقبل توبتهم في الآخرة لرفع التكليف في الآخرة ومعاينة ما وعدوا به من العقاب ﴿**أولئك أعتدنا لهم**﴾ أي هيأنا لهم ﴿**عذاباً أليماً**﴾ قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرهاً**﴾ نزلت في أهل المدينة وذلك أنهم كانوا في الجاهلية في أول الإسلام إذا مات الرجل وخلف امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبة من ذوي عصبته، فألقى ثوبه على تلك المرأة أو على خبائها فصار أحق بها من نفسها ومن غيره فإن شاء تزوجها بغير صداق إلاّ الصداق الأول الذي أصدقها الميت وإن شاء زوجها غيره وأخذ هو صداقها وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارها بذلك لتفتدي منه بما ورثت من الميت أو تموت هي فيرثها فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقي عليها ولي زوجها ثوبه كانت أحق بنفسها وكانوا على ذلك حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية فقام ابن له من غيرها يقال له حصن، وقيل اسمه قيس بن أبي قيس فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم ينفق عليها يضارها بذلك لتفتدي منه فأتت كبيشة رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن أبا قيس توفي وورث نكاحي ابنه فلا هو ينفق عليّ ولا هو يدخل بي ولا يخلي سبيلي، فقال اقعدي في بيتك حتى يأتي أمر الله فيك فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً**﴾ يعني ميراث نكاح النساء وقيل في معناه أن ترثوا أموالهن كرهاً يعني وهن كارهات ﴿**ولا تعضلوهن**﴾ أي ولا تمنعوهن من الأزواج وأصل العضل المنع ﴿**لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن**﴾ يعني لتضجر فتفتدي ببعض مالها قيل هو خطاب للأزواج قال ابن عباس: هذا في الرجل تكون له امرأة وهو كاره لها ولصحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدي منه وترد إليه ما

الإسلام، إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من ذوي عصبته فألقى ثوبَه علىٰ تلك المرأة أو على خبائها فصار أحقّ بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء تزوّجها بغير صداق إلاّ الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارّها لتفتدي منه بما ورثته من الميت أو تموت هي فيرثها فإن ذهبت المرأة قبل أن يلقي عليها وليّ زوجها ثوبَه فهي أحقّ بنفسها، فكانوا على هذا حتى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأتَه كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له حصن، وقال مقاتل بن حيان: اسمه قيس بن أبي قيس، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارّها لتفتدي منه، فأتت كبيشةُ رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا قيس توفي ووَرِثَ نكاحي ابنه فلا ينفق عليّ ولا يدخل بي ولا يخلي سبيلي، فقال: «اقعدي في بيتك حتى يأتيَ فيك أمرُ الله»، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا لا يحلُّ لكم أن ترثُوا النساءَ كَرْهاً** ﴾، قرأ حمزة والكسائي بالضم، لغتان، قال الفرّاء: الكَره

ساق إليها من المهر فنهى الله عن ذلك وقيل كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها ثم يطلقها يضارها بذلك فنهوا عن ذلك وهو خطاب لأولياء الميت فنهاهم الله عن عضل المرأة ثم قال تعالى: ﴿إلاّ أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ يعني فحينئذٍ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم واختلفوا في الفاحشة المبينة فقيل هي النشوز وسوء الخلق وإيذاء الزوج وأهله، وقيل الفاحشة هي الزنى يعني أن المرأة إذا نشزت أو زنت حلّ للزوج أن يسألها الخلع وقيل كانت المرأة إذا أصابت فاحشة أخذ منها زوجها ما ساق إليها وأخرجها فنسخ الله ذلك بالحدود ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ قيل هو راجع للكلام الذي قبله والمعنى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف هو الإجمال في القول والمبيت والنفقة وقيل هو أن تصنع لها كما تحب أن تصنع لك ﴿فإن كرهتموهن﴾ يعني فإن كرهتم عشرتهن وصحبتهن وآثرتم فراقهن ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ قال ابن عباس: ربما رزق منها ولداً صالحاً فجعل الله في ولدها خيراً كثيراً فتنقلب تلك الكراهة محبة والنفرة رغبة، وقيل في الآية ندب إلى إمساك المرأة مع والكراهية لها لأنه إذا كره صحبتها وتحمل ذلك المكروه طلباً للثواب وأنفق عليها وأحسن هو صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى وقيل في معنى الآية إنكم إن كرهتموهن ورغبتم في فراقهن فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيراً كثيراً وذلك بأن تخلص من هذا الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيراً منه. قوله عز وجل: .

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ الخطاب للرجال وأراد بالزوج الزوجة قال المفسرون: لما ذكر الله في الآية الأولى مضارة الزوجات إذا أتين بفاحشة وهي إما النشوز أو الزنا بيّن في هذه الآية تحريم المضارة إن لم

بالفتح ما أكره عليه، وبالضم ما كان من قِبَلِ نفسه من المشقّة، ﴿ ولا تَعْضُلُوهنّ لتذهبُوا ببعضِ ما آتيتمُوهنّ ﴾، أي: لا تمنعوهنّ من الأزواج ليضجرن فيفتدين ببعض مالهنّ، قيل: هذا خطاب لأولياء الميت، والصحيح أنه خطاب للأزواج، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيُضارّها لتفتدي وتردّ إليه ما ساق إليها من المهر، فنهى اللّهُ تعالى عن ذلك، ثم قال: ﴿ إلاّ أنْ يأتين بفاحشة مُبَيِّنَةٍ ﴾ فحينئذٍ يحلّ لكم إضرارهنّ ليفتدين منكم، واختلفوا في الفاحشة، قال ابن مسعود وقتادة: هي النشوز، وقال بعضهم وهو قول الحسن: هي الزنا، يعني: المرأة إذا نشزَتْ، أو زَنَتْ حلَّ للزوج أن يسألها الخلع، وقال عطاء: كان الرجل إذا أصابتْ امرأتُه فاحشةً أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها، فنُسخ في ذلك في الحدود، وقرأ ابن كثير وأبو بكر «مبينـة، ومبينات» بفتح الياء، ووافق أهل المدينة والبصرة في «مبيّنات» والباقون بكسرها، ﴿ وعاشِرُوهنّ بالمعروف ﴾، قال الحسن: راجع إلى أول الكلام، يعني: ﴿ وآتوا النساء صَدُقَاتِهِنّ نِحلةً ﴾ [النساء: ٤] ﴿ وعاشروهنّ بالمعروف ﴾، والمعاشرة بالمعروف: هي الإجمال في القول والمبيت والنفقة، وقيل: هي أن يصنع لها كما تصنع له، ﴿ فإنْ كرِهتُموهنّ فعسَى أن تكرهُوا شيئاً ويجعلَ اللّهُ فيه خيراً كثيراً ﴾، قيل: هو ولد صالح، أو يعطفه الله عليها.

﴿ وإنْ أردتُم استبدَالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ ﴾، أراد بالزوج الزوجة إذا لم يكن من قِبَلِها نشوزٌ ولا فاحشة،

يكن من قبلها نشوز ولا زنى ونهى عن بخس الرجل حق المرأة إذا أراد طلاقها واستبدال غيرها ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ يعني وكان ذلك الصداق مالاً كثيراً، وفي الآية دليل على جواز المغالاة في المهور روي أن عمر قال على المنبر: ألا لا تغالوا في مهور نسائكم فقامت امرأة فقالت يا ابن الخطاب الله يعطينا وأنت تمنعنا وتلت الآية. فقال كل الناس أفقه منك يا عمر وفي رواية امرأة أصابت وأمير أخطأ ورجع عن كراهة المغالاة وقد تغالى الناس في صدقات النساء حتى بلغوا الألوف وقيل إن خير المهور أيسرها وأسهلها ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ يعني من القنطار الذي آتيتموهن لو جعلتم ذلك القدر لهن صداقاً فلا تأخذوا منه شيئاً وذلك أن بسوء العشرة إما أن يكون من قبل الزوج أو من قبل الزوجة فإن كان من قبل الزوج وأراد طلاق المرأة فلا يحل له أن يأخذ شيئاً من صداقها وإن كان النشوز من قبل المرأة جاز له ذلك ﴿أتأخذونه﴾ استفهام بمعنى التوبيخ ﴿بهتاناً﴾ يعني ظلماً وقيل باطلاً ﴿وإثماً مبيناً﴾ يعني أتأخذونه مباهتين آثمين فلا تفعلوا مثل هذا الفعل مع ظهور قبحه في الشرع والعقل ثم قال تعالى: ﴿وكيف تأخذونه﴾ كلمة تعجب والمعنى لأي وجه تفعلون مثل هذا الفعل وكيف يليق بالعاقل أن يسترد شيئاً بذله لزوجته عن طيب نفس وقيل هو استفهام معناه التوبيخ والتعظيم لأخذ المهر بغير حقه ثم ذكر السبب في ذلك فقال تعالى ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أصل الإفضاء في اللغة الوصول يقال أفضى إليه أي وصل إليه ثم للمفسرين في معنى الإفضاء في هذه الآية قولان: أحدهما أنه كناية عن الجماع وهو قول ابن عباس ومجاهد والسدي واختيار الزجاج وابن قتيبة ومذهب الشافعي لأن عنده أن الزوج إذا طلق قبل المسيس فله أن يرجع بنصف المهر وإن خلا بها والقول الثاني في معنى الإفضاء هو أن يخلو بها وإن لم يجامعها وقال الكلبي الإفضاء أن يكون معها في لحاف واحد جامعها أو لم يجامعها وهذا القول هو اختيار الفراء ومذهب أبي حنيفة أن الخلوة الصحيحة عنده تقرر المهر ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ قيل هو قول العاقد عند العقد زوجتكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان وقيل هي كلمة النكاح المعقودة على الصداق وهي الكلمة التي تستحل بها فروج النساء ويدل على ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ قال المفسرون كان أهل الجاهلية يتزوجون أزواج

﴿ وآتيتُم إحداهنّ قنطاراً ﴾، وهو المال الكثير صداقاً، ﴿ فلا تأخُذوا منه ﴾، من القنطار، ﴿ شيئاً أتأخذونَه ﴾، استفهام بمعنى التوبيخ، ﴿ بهتاناً وإثماً مُبيناً ﴾، انتصابهما من وجهين أحدهما بنزع الخافض، والثاني بالإضمار تقديره: تصيبون في أخذه بهتاناً وإثماً ثم قال:

﴿ وكيفَ تأخذُونَه ﴾، على طريق الاستعظام، ﴿ وقد أفضَى بعضُكم إلى بعض ﴾، أراد به المجامعة، ولكن الله حييٌ يُكنّي، وأصل الإفضاء: الوصول إلى الشيء من غير واسطة، ﴿ وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً ﴾، قال الحسن وابن سيرين والضحاك وقتادة: وهو قول الوَلي عند العقد: زوّجتُكَها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقال الشعبي وعكرمة: هو ما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله تعالى واستحللتُم فروجهنّ بكلمة الله تعالى»، قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النّساء ﴾، كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم، قال الأشعث بن سوار: تُوفّي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني اتخذتُكَ ولداً وأنت من صالحي قومك، ولكني آتي رسول الله ﷺ أستأمره، فأتته فأخبرته، فأنزل الله تعالى:

﴿ ولا تنكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤكم منَ النّساء إلاّ ما قدْ سَلَفَ ﴾، قيل: بعد ما سلف، وقيل: معناه لكن ما سلف،

آبائهم فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية روي أنه لما توفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إني اتخذتك ولداً وأنت من صالحي قومك ولكني آتي رسول الله ﷺ وأستأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلّا ما قد سلف﴾ يعني إلّا ما مضى في الجاهلية قبل نزول التحريم فإنه معفو عنه ﴿إنه كان فاحشة﴾ إنما سماه فاحشة لأن زوجة الأب في منزلة الأم ونكاح الأمهات حرام فلما كان ذلك كذلك سماه الله فاحشة لأنه من أقبح المعاصي ﴿ومقتاً﴾ يعني أنه يورث المقت من الله وهو أشد الغضب وغاية الخزي والخسارة ﴿وساء سبيلاً﴾ أي وبئس طريقاً لأنه يؤدي إلى مقت الله والعرب تسمي ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتاً وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية روى البغوى بسنده عن البراء بن عازب قال: مر بي خالي ومعه لواء فقلت أين تذهب؟ قال: بعثني النبي ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه.

قوله عز وجل: .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ بيّن الله عزّ وجلّ في هذه الآية المحرمات من النساء بسبب الوصلة إما بسبب أو نسب (خ) عن ابن عباس قال حرم من النساء سبع ومن الصهر سبع، ثم قرأ حرمت عليكم أمهاتكم الآية فجملة المحرمات من النساء بنص الكتاب أربعة عشر صنفاً، فأما المحرمات بالنسب فقوله حرمت عليكم أمهاتكم جمع أم وأصل أمهات أمات وإنما زيدت الهاء للتوكيد والأم هي الوالدة القريبة ويدخل في حكمها كل امرأة رجع النسب إليها من جهة الأب أو من جهة الأم بدرجة أو بدرجات وهي جميع الجدات وإن علون فيحرم الأم وجميع الجدات ﴿وبناتكم﴾ والبنت عبارة عن كل أنثى رجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أودرجات بإناث كبنت البنت وإن سفلت

أي: ما مضى في الجاهلية فهو معفو عنه، ﴿ إنه كانَ فاحشةً ﴾ أي: إنه فاحشة، ﴿ وكان ﴾ فيه صلة، و﴿ الفاحشة ﴾ أقبح المعاصي، ﴿ ومَقْتاً ﴾ أي: يُورث مقتَ اللّهِ، والمقت: أشدّ البُغض، ﴿ وسَاءَ سبيلاً ﴾، وبئس ذلك طريقاً وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه (مقيت) وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن أبي عمرو بن أميّة، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو سهل محمد بن عمرو السجزي أنا الإمام أبو سليمان الخطابي أنا أحمد بن هشام الحضرمي أنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن حفص بن غياث عن أشعث بن سوار عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: مرّ بي خالي ومعه لواء فقلت: أين تذهب؟ قال: بعثني النبيّ ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه.

قوله تعالى: ﴿ حُرِّمتْ عليكم أُمهاتُكم ﴾ الآية، بيّن الله تعالى في هذه الآية المحرّمات بسبب الوصلة، وجملةُ المحرّمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبعٌ بالنسب، وسبعٌ بالسبب، فأما السبع بالسبب فمنها اثنتان بالرضاع وأربع بالصهرية والسابعة المحصنات، وهنّ ذوات الأزواج، وأما السبع بالنسب فقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أُمهاتُكم ﴾ وهي جمع أمّ ويدخل فيه الجدّات وإن علونَ مِنْ قِبَل الأم ومنْ قِبَل الأب، ﴿ وبناتُكم ﴾، وهي

وكذا بنت الابن ﴿وأخواتكم﴾ جمع أخت وهي عبارة عن كل امرأة شاركتك في أصلك فتدخل فيه الأخوات من الأب والأم والأخوات من الأب والأخوات من الأم ﴿وعماتكم﴾ جمع عمة وهي كل امرأة شاركت أباك في أصله وهن جميع أخوات الأب وأخوات آبائه وإن علَون وقد تكون العمة من جهة الأم أيضاً وهي أخت أبي الأم ﴿وخالاتكم﴾ جمع خالة وهي كل امرأة شاركت الأم في أصلها فيدخل فيه جميع أخوات الأم وأخوات أمهاتها، وقد تكون الخالة من جهة الأب أيضاً وهي أخت أم الأب ﴿وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ وهي عبارة عن كل امرأة لأخيك أو لأختك عليها ولادة يرجع نسبها إلى الأخ أو الأخت فيدخل فيهن جميع بنات أولاد الأخ والأخت وإن سفلن فهذه الأصناف السبعة محرمة بسبب النسب بنص الكتاب وجملته أنه يحرم على الرجل أصوله وفصوله وفصول أول أصوله، وأول فصل من كل أصل بعده أصل فالأصول هن الأمهات والجدات، والفصول هن البنات وبنات الأولاد وفصول أول أصوله هن الأخوات وبنات الإخوة والأخوات وأول فصل من كل أصل بعده أصل هن العمات والخالات وإن علون. قال العلماء: كل امرأة حرم الله نكاحها بالنسب والرحم فحرمتها مؤبدة لا تحل يوجه من الوجوه. الصنف الثاني المحرمات بالسبب وهن سبع الأول والثاني المحرمات بالرضاع وذلك في قوله تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ كل أنثى انتسبت باللبن إليها فهي أمك وبنتها أختك وإنما نص الله على ذكر الأم والأخت ليدل بذلك على جميع الأصول والفروع فنبه بذلك أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب ويدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة» أخرجاه في الصحيحين (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «في بنت حمزة إنها لا تحل لي يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» وإنها ابنة أخي من الرضاعة فكل من حرمت بسبب النسب حرم نظيرها بسبب الرضاعة، وإنما سمى الله تعالى المرضعات أمهات لأجل الحرمة فيحرم عليه نكاحها ويحل له النظر إليها والخلوة بها والسفر معها ولا يترتب عليه جميع أحكام الأمومة من كل وجه فلا يتوارثان ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر وغير ذلك من الأحكام، وإنما ثبتت حرمة الرضاع بشرطين: أحدهما أن يكون إرضاع

جمع: البنت، ويدخل فيهنّ بنات الأولاد وإن سَفُلْنَ، ﴿ وأخواتُكم ﴾، جمع الأُخت سواء كانت من قبل الأب والأم أو من قِبَل أحدهما، ﴿ وعمّاتُكم ﴾ جمع العمّة، ويدخل فيهنّ جميع أخوات آبائك وأجدادك وإن علوا، ﴿ وخالاتُكم ﴾ جمع خالة، ويدخل فيهنّ أخوات أُمهاتك وجدّاتك، ﴿ وبناتُ الأخِ وبناتُ الأُخت ﴾، ويدخل فيهنّ بنات أولاد الأخ والأُخت وإن سَفُلنَ، وجملته: أنه يحرّم على الرجل أصوله وفصوله وفصول أول أصوله وأول فصلٍ من كل أصل بعده، والأصول هي الأمهات والجدّات، والفصول البنات وبنات الأولاد، وفصول أول أصوله هي الأخوات وبنات الإخوة والأخوات، وأول فصل من كل أصل بعده هنّ العمّات والخالات وإن علون، وأما المحرّمات بالرضاع فقوله تعالى: ﴿ وأمهاتُكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾، وجملته: أنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يحرمُ مِنَ الرَّضاعة ما يحرمُ من الوِلادة» أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي قال: أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها أخبرتها أن رسول الله ﷺ كان عندها وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، فقالت عائشة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله هذا رجل يستأذن في بيتك، فقال رسول الله ﷺ أراه فلاناً لعمٍّ حفصة من الرضاعة، فقلت: يا رسول الله لو كان فلاناً حيّاً لعمّها من الرضاعة أيدخل عليّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إنّ

الصبي في حال الصغر وذلك إلى انتهاء سنتين من ولادته لقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ وقوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾ عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحرم من الرضاع إلّا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام» أخرجه الترمذي عن ابن مسعود قال: لا رضاعة إلّا ما كان في الحولين أخرجه مالك في الموطأ بأطول من هذا وأخرجه أبو داود مختصراً قال: قال عبدالله بن مسعود لا رضاع إلّا ما شد اللحم. وقال أبو حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهراً لقوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وحمله الجمهور على أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لأن مدة الحمل داخلة فيه وأقله ستة أشهر. الشرط الثاني أن يوجد خمس رضعات متفرقات. روي ذلك عن عائشة وبه قال عبدالله بن الزبير، وإليه ذهب الشافعي ويدل على ذلك ما روي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم المصة ولا المصتان» أخرجه مسلم (م) عن أم الفضل أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجتان» وفي رواية: «أن رجلاً من بني عامر بن صعصعة قال يا نبي الله هل تحرم الرضعة الواحدة قال لا» (م) عن عائشة قالت كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن قولها فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن يحتمل أنه لم يبلغها نسخ ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى فهو مما نسخ تلاوته وبقي حكمه، وذهب جمهور العلماء إلى أن قليل الإرضاع وكثيره يحرم وهو قول ابن عباس وابن عمر وبه قال سعيد بن المسيب وإليه ذهب الثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وأبو حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين عنه والرواية الأخرى كمذهب الشافعي واحتج مذهب الجمهور بمطلق الآية لأنه عمل بعموم القرآن وظاهره ولم يذكر عدداً وأجاب الشافعي ومن وافقه في هذه المسألة بأن السنة مبينة للقرآن مفسرة له.

وقوله تعالى: ﴿وأمهات نسائكم﴾ يعني إذا تزوج الرجل بامرأة حرمت عليه أمها الأصلية وجميع جداتها من قبل الأب والأم كما في النسب والرضاع أيضاً ومذهب أكثر الصحابة وجميع التابعين وكل العلماء أن من تزوج امرأة حرمت عليه أمها بنفس العقد سواء دخل بها أو لم يدخل بها وذهب جمع من الصحابة إلى أن أم المرأة إنما تحرم بالدخول بابنتها وهو قول علي وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وجابر وأظهر الروايات عن ابن عباس

الرضاعـة تحرّم ما يحرم من الولادة»، وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين أحدهما أن يكون قبل استكمال المولود حولين، لقوله تعالى ﴿ والوالدات يُرضعنَ أولادهنّ حولين كاملين ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ورُوِيَ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ: «لا يحرّمُ من الرضاع إلّا ما فتقَ الأمعاء» وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا رضاعَ إلّا ما أنشر العظم وأنبت اللحم»، وإنما يكون هذا في حال الصغر، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه مدة الرضاع ثلاثون شهراً، لقوله تعالى: ﴿ وحملُه وفصالُه ثلاثونَ شهراً ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وهو عند الأكثرين لأقل مدة الحمل، وأكثر مدّة الرضاع، وأقل مدّة الحمل ستّة أشهر، والشرط الثاني أن يوجد خمس رضعات متفرقات، يُروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وبه قال عبد الله بن الزبير وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالى وذهب أكثر أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره محرم، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال سعيد بن المسيب وإليه ذهب سفيان الثّوري، ومالك والأوزاعي وعبد الله بن المبارك وأصحاب الرأي، واحتجّ مَن ذهب إلى أن القليل لا يحرم بما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن عبد الله بن الحكم أنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير يحدّث أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصّةُ من الرضاع والمصّتان» هكذا روى بعضُهم هذا الحديث، ورواه عبد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ، وهو الصحيح. أخبرنا أبو الحسن

والعمل اليوم على القول الأول هو مذهب الجمهور ويدل على ذلك ما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها. وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها وأيما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح امرأة دخل بها أو لم يدخل أخرجه الترمذي وقوله تعالى: **﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾** الربائب جمع ربيبة وهي بنت المرأة من رجل آخر سميت ربيبة لتربيتها في حجر الرجل، وقوله دخلتم بهن كناية عن الجماع لا نفس العقد فيحرم على الرجل بنات امرأته وبنات أولادها وإن سفلن من النسب والرضاع بعد الدخول بالزوجة. فلو فارق زوجته قبل الدخول بها أو ماتت قبل دخوله بها جاز أن يتزوج بنتها ولا يجوز له أن يتزوج أمها لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات، وعلق تحريم البنات بالدخول بالأم وقوله تعالى: **﴿وحلائل أبنائكم﴾** يعني أزواج أبنائكم واحدتها حليلة والرجل حليل سميا بذلك لأن كل واحد منهما يحل لصاحبه وقيل لأن كل واحد منهما يحل حيث يحل صاحبه في إزار واحد وقيل لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه من الحل بفتح الحاء وجملته أنه يحرم على الرجل أزواج أبنائه وأبناء أولاده وإن سفلوا من النسب والرضاع وذلك بنفس العقد **﴿الذين من أصلابكم﴾** إنما قال من أصلابكم احترازاً من التبني ليعلم أن زوجة المتبنى لا تحرم على الرجل الذي تبناه لأنه كان في صدر الإسلام بمنزلة الابن فنسخ الله ذلك وقال تعالى: **﴿ادعوهم لآبائهم﴾** وتزوّج رسول الله ﷺ زوجة زيد بن حارثة وكان قد تبناه فقال المشركون تزوج زوجة ابنه فأنزل الله تعالى وما جعل أدعياءكم ابناءكم وقال تعالى لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم وقوله تعالى: **﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾** يعني لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين في نكاح واحد سواء كانت الأخوة بينهما أخوة نسب أو رضاع والجمع بين الأختين يقع على ثلاثة أوجه: أحدهما أن يجمع بينهما بعقد واحد فهذا العقد فاسد لا يصح فلو تزوّج إحدى الأختين ثم تزوّج الأخرى بعدها فها هنا يحكم ببطلان نكاح الثانية فلو طلق الأولى طلاقاً بائناً جاز له نكاح أختها، الوجه الثاني من صور الجمع بين الأختين هو أن يجمع بينهما بملك اليمين فلا يجوز له أن يجمع بينهما في الوطء فإذا وطىء إحداهما حرمت عليه الثانية حتى يحرم الأولى ببيع أو هبة أو عتق أو كتابة، الوجه الثالث من صور الجمع بين الأختين هو أن يتزوج

السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر محمد بن عمر بن حزم عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أُنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفّي رسول الله ﷺ وهنّ فيما يُقرأ مِنَ القرآن. وأما المحرّمات بالصهرية فقوله: **﴿ وأمهاتُ نسائِكم ﴾**، وجملته أن كلّ مَن عقد النكاح على امرأة فتحرم على الناكح أمّهات المنكوحة وجدّاتها وإن علون من الرضاعة والنسب بنفس العقد، **﴿ وربائبكم اللاّتي في حُجُورِكم من نسائِكم اللاّتي دخلتُم بهنّ ﴾**، الربائب: جمع ربيبة، وهي بنت المرأة، سُمّيت ربيبة لتربيته إيّاها، وقوله: **﴿ في حُجُورِكم ﴾** أي: في تربيتكم، يقال: فلان في حُجر فلان إذا كان في تربيته، **﴿ دخلتُم بهنّ ﴾** أي: جامعتموهنّ، ويحرم عليه أيضاً بناتُ المنكوحة وبنات أولادها، وإن سَفُلنَ من الرضاع والنسب بعد الدخول بالمنكوحة، حتى لو فارق المنكوحة قبل الدخول بها أو مَاتَتْ جازَ له أن ينكح بنتها، ولا يجوز له أن ينكح أمَّها لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات وقال في تحريم الربائب: **﴿ فإنْ لم تكونُوا دخلتُم بهنّ فلا جُناحَ عليكم ﴾**، يعني: في نكاح بناتهنّ إذا فارقتُموهنّ أو مِتنَ، وقال عليّ رضي الله عنه: أم المرأة لا تحرم إلاّ بالدخول بالبنت كالربيبة، **﴿ وحلائِلُ أبنائِكُم الذينَ من أصلابكم ﴾**، يعني: أزواج أبنائكم، واحدتُها: حَليلة، والذكر حَلِيل، سُمّيا بذلك لأن كلّ واحد منها حلالٌ لصاحبه، وقيل: سُمّيا بذلك لأن كل واحد منهما يَحِلّ حيث يحلُّ صاحبَه من الحلول وهو النزول، وقيل: إن

إحداهما ويشتري الأخرى فيملكها بملك اليمين فذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما لأن ظاهر هذه الآية يقتضي تحريم الجمع مطلقاً فوجب أن يحرم الجمع بينهما على جميع الوجوه وذهب بعضهم إلى جوازه والقول الأول أصح، وأولى لما روى قبيصة بن ذؤيب أن رجلاً سأل عثمان عن أختين مملوكتين لرجل هل يجمع بينهما فقال عثمان: أحلتهما آية وحرمتهما آية فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك فخرج من عنده فلقي رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فسأله عنه فقال أما أنا فلو كان لي من الأمر شيء لم أجد أحد فعل ذلك إلّا جعلته نكالاً قال ابن شهاب: أراه علي بن أبي طالب قال مالك أنه بلغه عن الزبير بن العوام مثل ذلك أخرجه مالك في الموطأ وقوله تعالى: ﴿**إلّا ما قد سلف**﴾ يعني لكن ما قد مضى فإنه معفو عنه بدليل قوله تعالى: ﴿**إن الله كان غفوراً رحيماً**﴾ وقيل إن فائدة هذا الاستثناء أن أنكحة الكفار صحيحة فلو أسلم عن أختين قيل له اختر أيتهما شئت. ويدل على ذلك ما روي عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال قلت يا رسول الله إني أسلمت وتحتي أختان قال طلق أيتهما شئت أخرجه أبو داود.

فروع تتعلق بحكم الآية. الأول: لا يجوز الجمع بين المرأة ولا بين المرأة وخالتها ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها» أخرجه في الصحيحين قال بعض العلماء في حد ما يحرم الجمع كل امرأتين بينهما قرابة أو لبن لو كان ذلك بينك وبين المرأة لم يجز لك نكاحها لم يجز لك الجمع بينهما.

الفرع الثاني: المحرمات بالنسب سبعة أصناف ذكرت في الآية نسقاً والمحرمات بالسبب صنفان: صنف يحرم بالرضاع وهن الأمهات والأخوات على ما تقدم ذكره وصنف يحرم بالمصاهرة وهي أم المرأة وحليلة الابن وزوجة الأب وقد تقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء**﴾ الآية والربائب على التفصيل المذكور والجمع بين الأختين.

الفرع الثالث: التحريم الحاصل بسبب المصاهرة إنما حصل بنكاح صحيح فلو زنى بامرأة لم تحرم عليه أمها

كلٌ واحدٍ منهما يحلّ إزارَ صاحبه من الحَلّ وهو ضدّ العَقْل، وجملته: أنه يحرم على الرجل حلائل أبنائه وأبناء أولاده وإنْ سَفُلُوا، من الرضاع والنسب بنفس العقد، وإنما قال: ﴿ **من أصلابكم** ﴾ ليعلم أن حليلة المتبنّي لا تحرّم على الرجل الذي تبنّاه، فإن النبي ﷺ تزوج امرأة زيد بن حارثة، وكان زيدٌ قد تبنّاه رسول الله ﷺ، والرابع من المحرّمات بالصهرية حليلةُ الأب والجدّ وإن علا، فيحرم على الولد ووَلَدِ الولد بنفس العقد سواء كان الأب من الرضاع أو من النسب، لقوله تعالى: ﴿ولا تَنكِحُوا ما نكح آباؤكم منَ النساء﴾ [النساء: ٢٢]، وقد سبق ذكره، وكلّ امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين، والوطء بشبهة النكاح حتى لو وطىء امرأة بالشبهة أو جارية بملك اليمين فتحرم على الواطىء أُمّ الموطوءة وابنتها وتحرم الموطوءة على أب الواطىء وعلى ابنه، ولو زنى بامرأة فقد اختلف فيه أهل العلم فذهبت جماعة إلى أنه لا تحرم على الزاني أُمّ المَزنيّ بها وابنتها، وتحرم الزانيةُ على أب الزاني وابنه، وهو قول علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال سعيد بن المسيب وعُروة والزهري، وإليه ذهب مالك والشافعي رحمهم الله تعالى، وذهب قومٌ إلى التحريم، يُروَى ذلك عن عِمرانَ بن حصين وأبي هريرة رضي الله عنهما، وبه قال جابر بن زيد والحسن وهو قول أصحاب الرأي. ولو مسّ امرأةً بشهوة أو قبّلها فهل يُجعل ذلك كالدخول في إثبات حُرمة المصاهرة وكذلك لو مسّ امرأة بشهوة فهل يُجعل كالوطء في تحريم الربيبة؟ فيه قولان، أصحّهما وهو قول أكثر أهل العلم أنه تثبت به الحرمة، والثاني لا تثبت كما لا تثبت بالنظر بالشهوة. قوله

ولا بنتها لو أراد أن يتزوج بهن وكذلك لا تحرم المزني بها على آباء الزاني ولا أبنائه إنما تتعلق الحرمة بنكاح صحيح أو بنكاح فاسد يجب لها به الصداق وتجب عليها العدة ويلحق به الولد. وهذا قول علي وابن عباس وبه قال سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهري وإليه ذهب مالك والشافعي وفقهاء الحجاز. وذهب قوم إلى أن الزنى يتعلق به تحريم المصاهرة يروى ذلك عن عمران بن حصين وأبي هريرة وبه قال جابر بن زيد والحسن وأهل العراق. ولو لمس امرأة أجنبية بشهوة أو قبّلها بشهوة هل يجعل ذلك كالدخول في إثبات تحريم المصاهرة وكذلك لو لمس امرأة بشهوة هل يجعل ذلك كالوطء في تحريم الربيبة؟ فيه قولان: أصحهما أنه تثبت به حرمة المصاهرة وهو قول أكثر أهل العلم والثاني لا تثبيت به كما لا تثبت بالنظرة بشهوة. قوله تعالى:.

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

﴿والمحصنات﴾ يعني حرمت المحصنات ﴿من النساء﴾ وأصل الإحصان في اللغة المنع والحصان بالفتح المرأة العفيفة ويطلق الإحصان على المرأة ذات الزوج والحرة والعفيفة والمرأة المسلمة والمراد من الإحصان في قوله والمحصنات ذوات الأزواج من النساء فلا يحل لأحد نكاحهن قبل مفارقة أزواجهن وهذه هي السابعة من النساء التي حرمن بالسبب. قال أبو سعيد الخدري: نزلت هذه الآية في نساءكن هاجرن إلى رسول الله ﷺ ولهن أزواج فتزوجن ببعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهي الله المسلمين عن نكاحهن ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إلا ملكت أيمانكم﴾ يعني السبايا اللاتي سبين ولهن أزواج في دار الحرب، فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء لأن السبي يرتفع به النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدري: بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى أوطاس فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين فكرهوا غشيانهن فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود: أراد أنه إذا باع

تعالى: ﴿ وأن تجمعُوا بينَ الأُختَينِ ﴾، لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين في النكاح سواء كانت الأخوة بينهما بالنسب أو بالرضاع، فإذا نكح امرأة ثم طلّقها بائناً جاز له نكاح أختها، وكذلك لو ملك أختين بملك اليمين لم يجز له أن يجمع بينهما في الوطء، فإذا وطىء إحداهما لم يحلّ له وطء الأخرى حتى يُحرّم الأولى على نفسه، وكذلك لا يجوز أن يجمع بين المرأة وعمّتها ولا بين المرأة وخالتها. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُجمع بين المرأة وعمّتها، ولا بين المرأة وخالتها» قوله تعالى: ﴿ إلّا ما قدْ سَلَفَ ﴾، يعني: لكن ما مضى فهو معفو عنه، لأنهم كانوا يفعلونه قبل الإسلام، وقال عطاء والسدي: إلّا ما كان من يعقوب عليه السلام فإنه يجمع بين ليّا أم يهوذا وراحيل أم يوسف، وكانتا أختين. ﴿ إنّ اللّهَ كان غفوراً رحيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ والمحصناتُ مِنَ النِّساءِ إلّا مَا مَلَكَتْ أيمانُكم ﴾، يعني: ذوات الأزواج، لا يحلّ للغير نكاحُهنّ قبل مفارقة الأزواج، وهذه السابعة من النساء اللاتي حَرُمْنَ بالسبب، قال أبو سعيد الخدري: نزلت في نساءكُنّ هاجرنَ إلى رسول ﷺ ولهنّ أزواج فتزوجهنّ بعض المسلمين، ثم قَدِمَ أزواجهنّ مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهنّ، ثم استثنى فقال: ﴿إلّا ما ملكتْ أيمانُكم﴾، يعني: السبايا اللواتي سُبين ولهنّ أزواج في دار الحرب فيحلُّ لِمَالِكِهنّ وطؤهنّ بعد الاستبراء، لأن بالسبي يرتفع النكاح بينهما وبين زوجها، قال أبو سعيد الخدري:

الجارية المزوجة فتقع الفرقة بينها وبين زوجها ويكون بيعها طلاقاً فيحل للمشتري وطؤها. وقال عطاء: أراد بقوله إلا ما ملكت أيمانكم أن تكون أمته في نكاح عبده فيجوز له أن ينتزعها منه وقيل أراد بالمحصنات من النساء الحرائر ومعناه أن ما فوق الأربع منهن فإنه عليكم حرام إلا ما ملكت أيمانكم فإنه لا عدد عليكم في الجواري ولا حصر ﴿**كتاب الله عليكم**﴾ يعني حرمت عليكم أمهاتكم وكتب عليكم هذا كتاباً وقيل معناه الزموا كتاب الله وقيل معناه كتاباً من الله عليكم بمعنى كتب الله تحريم ما حرم عليكم من ذلك وتحليل ما حلل كتاباً ﴿**وأحل لكم ما وراء ذلكم**﴾ يعني وأحل الله لكم ما سوى ذلكم الذي ذكر من المحرمات. وظاهر هذه الآية يقتضي حل ما سوى المذكورين من الأصناف المحرمات، لكن قد دل الدليل من السنة بتحريم أصناف أخر سوى ما ذكر فمن ذلك أنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ومن ذلك المطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجاً غيره ومن ذلك نكاح المعتدة فلا تحل للأزواج حتى تنقضي عدتها ومن ذلك أن من كان في نكاحه حرة لم يجز له أن يتزوج بأمة والقادر على طول الحرة لم يجز له أن يتزوج بالأمة ومن ذلك أن من كان عنده أربع نسوة حرم عليه أن يتزوج بخامسة ومن ذلك الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن بالتأبيد فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر في الآية فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿**وأحل لكم ما وراء ذلكم**﴾ ورد بلفظ العموم لكن العموم دخله التخصيص فيكون عاماً مخصوصاً. وقوله تعالى: ﴿**أن تبتغوا بأموالكم**﴾ فيه إضمار تقديره وأحل لكم أن تبتغوا أي تطلبوا بأموالكم أن تنكحوا بصداق أو تشتروا بثمن. وفي الآية دليل على أن الصداق لا يتقدر بشيء فيجوز على القليل والكثير لإطلاق قوله تعالى: أن تبتغوا بأموالكم ﴿**محصنين**﴾ يعني متزوجين وقيل متعففين ﴿**غير مسافحين**﴾ يعني غير زانين والسفاح الفجور وأصله من السفح وهو الصب وإنما سمي الزنى سفاحاً لأن الزاني لا غرض له إلا صب النطفة فقط. قوله تعالى: ﴿**فما استمتعتم به منهن**﴾ اختلفوا في معناه فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح لأن أصل الاستمتاع في اللغة الانتفاع وكل ما انتفع به فهو متاع ﴿**فآتوهن أجورهن**﴾ يعني مهورهن وإنما سمي المهر أجراً لأنه بدل المنافع ليس بدل الأعيان كما سمي بدل منافع الدار والدابة أجراً. وقال قوم المراد من حكم الآية هو نكاح المتعة وهو أن ينكح امرأة إلى مدة معلومة بشيء معلوم فإذا انقضت تلك المدة بانت منه بغير طلاق ويستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث وكان هذا في ابتداء الإسلام ثم نهى رسول الله ﷺ عن المتعة فحرمها(م) عن سبرة بن معبد الجهني أنه كان مع رسول الله ﷺ: «فقال يا أيها الناس إني

بعث رسول الله ﷺ يوم حُنين جيشاً إلى أوطاسٍ فأصابوا سبايا لهنّ أزواج من المشركين، فكرهوا غشيانهنّ، **فأنزل الله تعالى هذه الآية**، وقال عطاء: أراد بقوله: ﴿ **إلّا ما ملكتْ أيمانُكم** ﴾ أن تكون أمة في نكاح عبدِهِ فيجوز أن ينزعَها منه، وقال ابن مسعود: أراد أن يبيع الجارية المزوّجة فتقع الفرقة بينهما وبين زوجها، ويكون بيعها طلاقاً فيحلّ للمشتري وطؤها، وقيل: أراد بالمحصنات الحرائر ومعناه أن ما فوق الأربع حرام منهنّ إلّا ما ملكت أيمانُكم فإنه لا عددَ عليكم في الجواري. قوله تعالى: ﴿ **كتابَ اللّهِ عليكُم** ﴾، نصب على المصدر، أي: كتب الله عليكم، وقيل: نصب على الإغراء، أي: الزموا ما كتب الله عليكم، أي: فرض الله تعالى، ﴿ **وأُحِلَّ لكم ما وراء ذلِكُم** ﴾، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وحفص ﴿ **أُحِلَّ** ﴾ بضم الأول وكسر الحاء، لقوله: ﴿ **حُرمتْ عليكم** ﴾، وقرأ الآخرون بالنصب، أي: أحلَّ اللّهُ لكم ما وراء ذلكم، أي: ما سوى ذلكم الذي ذكرتُ من المحرّمات، ﴿ **أن تَبْتَغُوا** ﴾، تطلبُوا، ﴿ **بأموالِكم** ﴾، أن تنكِحُوا بصداقٍ أو تشترُوا بثمنٍ، ﴿ **محصنين** ﴾، أي: متزوجين أو مُتعفِّفين، ﴿ **غير مُسافِحين** ﴾، أي: غير زانين، مأخوذٌ من سَفْحِ الماءِ وصبِّه وهو المني، ﴿ **فما استمتعتُم به منهُنّ** ﴾، اختلفوا في معناه، فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذّذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح،

كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أي أن نكاح المتعة حرام والآية منسوخة واختلفوا في ناسخها فقيل نسخت بالسنة وهو ما تقدم من حديث سبرة الجهني (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية» وهذا على مذهب من يقول إن السنة تنسخ القرآن ومذهب الشافعي أن السنّة لا تنسخ القرآن فعلى هذا يقول: إن ناسخ هذه الآية قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ والمنكوحة في المتعة ليست بزوجة ولا ملك يمين واختلفت الروايات عن ابن عباس في المتعة فروي عنه أن الآية محكمة وكان يرخص في المتعة. قال عمارة سألت ابن عباس عن المتعة أسفاح هي أم نكاح؟ فقال لا سفاح ولا نكاح. قلت: فما هي؟ قال متعة؟ قال الله تعالى فما به منهن قلت هل لها عدة قال نعم؟ حيضة قلت هل يتوارثان؟ قال لا وروي أن الناس لما ذكروا الأشعار في فتيا ابن عباس بالمتعة قال: قاتلهم الله أنا ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق لكن قلت إنما تحل للمضطر كما تحل الميتة له وروي أنه رجع عنه. وقال بتحريمها وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله فما استمتعتم به منهن إنها صارت منسوخة بقوله: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ وروى سالم بن عبدالله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام ينكحون هذه المتعة وقد نهى رسول الله ﷺ عنها لا أجد رجلاً نكحها إلا رجمته بالحجارة وقال هدم المتعة: النكاح والطلاق والعدة والميراث قال الشافعي: لا أعلم في الإسلام شيئاً أحل ثم حرم ثم أحل ثم حرم غير المتعة. وقال أبو عبيد: المسلمون اليوم مجمعون على أن متعة النساء قد نسخت بالتحريم نسخها الكتاب والسنّة هذا قول أهل العلم جميعاً من أهل: الحجاز والشام والعراق من أصحاب الأثر والرأي وأنه لا رخصة فيها لمضطر ولا لغيره قال ابن الجوزي في تفسيره: وقد تكلف قوم من مفسري القرآن فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة ثم نسخت بما روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء وهذا تكلف لا يحتاج إليه لأن النبي ﷺ أجاز المتعة ثم منع منها فحرمها فكان قوله منسوخاً بقوله وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة لأنه تعالى قال فيها إن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فدل ذلك على النكاح الصحيح. قال الزّجاج

﴿ فآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾، أي: مهورهنّ، وقال آخرون: هو نكاح المتعة وهو أن تنكح امرأة إلى مدّة فإذا انقضت تلك المُدّة بانَتْ منه بلَا طلاق، ويستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث، وكان ذلك مُباحاً في ابتداء الإسلام، ثم نَهى عنه رسول الله ﷺ أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا محمد بن عبد الله بن نمير أنا أبي أنا عبد العزيز بن عمر حدّثني الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدّثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنّي كُنتُ أذِنْتُ لكم في الاستمتاع من النساء، وإنّ الله تعالى قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة، فمَن كان عنده منهنّ شيء فليُخلِ سبيلَه ولا تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبد الله والحسن ابني محمد بن علي عن أبيهما عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ نهى عن مِتعةِ النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية. وإلى هذا ذهب عامّة أهل العلم أن نكاح المتعة حرام، والآية منسوخة. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يذهب إلى أن الآية محكمة، وترخّصَ في نكاح المتعة. رُوِيَ عن أبي نضرة قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن المتعة، فقال: أمَا تقرأ في سورة النساء: ﴿ فما استمتعتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إلى أجلٍ مُسمّى ﴾؟ قلت: لا أقرأها هكذا، قال ابن عباس: هكذا أنزل الله،

ومعنى قوله فما استمتعتم به منهن فما نكحتموه على الشرائط التي جرت وهو قوله محصنين غير مسافحين أي عاقدين التزويج. وقال ابن جرير الطبري: أولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل من تأوله فما نكحتموه منهن فجامعتموهن فآتوهن أجورهن لقيام الحجة بتحريم الله تعالى متعة النساء على لسان رسول الله ﷺ فقوله تعالى: ﴿**فآتوهن أجورهن**﴾ يعني مهورهن ﴿**فريضة**﴾ يعني لازمة وواجبة ﴿**ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة**﴾ اختلفوا فيه فمن حمل ما قبله على نكاح المتعة قال: أراد إنهما إذا عقد عقداً إلى أجل على مال فإذا تم الأجل فإن شاءت المرأة زادت في الأجل وزاد الرجل في الأجر، وإن لم يتراضيا فارقها وقد تقدم أن ذلك كان جائزاً ثم نسخ وحرم ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح. قال المراد بقوله ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به يعني من الإبراء من المهر والافتداء والاعتياض. وقال الزّجاج معناه لا جناح عليكم أن تهب المرأة للزوج مهرها وأن يهب الرجل للمرأة التي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب عليه ﴿**إن الله كان عليماً**﴾ يعني بما يصلحكم أيها الناس في مناكحكم وغيرها من سائر أموركم ﴿**حكيماً**﴾ يعني فيما دبر لكم من التدبير وفيما يأمركم به وينهاكم عنه ولا يدخل حكمه خلل ولا زلل.

فصل في قدر الصداق وما يستحب منه

اعلم أنه لا تقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ والمستحب أن لا يغالى فيه قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ألا لا تغالوا في صدقة النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبي الله ﷺ ما علمت رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية أخرجه الترمذي ولأبي داود نحوه (م) عن أبي سلمة قال: سألت عائشة زوج النبي ﷺ كم كان صداق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشر أوقية ونشا قالت: أتدري ما النش؟

ثلاث مرات. وقيل: إنّ ابن عباس رضي الله عنهما رجع عن ذلك، وروَى سالم عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ما بال رجال ينكحون هذه المتعة؟ وقد نهى رسول الله ﷺ عنها، لا أجدُ رجلاً نكحها إلّا رجمتُه بالحجارة، وقال: هدمَ المتعةَ النكاحُ والطلاقُ والعِدّةُ والميراثُ. قال الربيع بن سليمان: سمعتُ الشافعي رضي الله عنه يقول: لا أعلم في الإسلام شيئاً أُحلّ ثم حُرّم ثم أُحلّ ثم حُرّم غيرُ المتعة. قوله تعالى: ﴿ فآتُوهنَّ أُجورَهنَّ ﴾ أي: مُهورَهنّ، ﴿ فريضةً ولا جُناحَ عليكم فيما تراضيتُم بهِ مِنْ بعدِ الفَريضةَ ﴾، فمَن حلّ ما قبله على نكاح المتعة أرادوا أنهما إذا عَقَدَ إلى أجلٍ بمالٍ فإذا تمَّ الأجل فإن شاءت المرأة زادتْ في الأجل وزاد الرجل في المال، وإن لم يتراضيا فارقها، ومَن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح. قال المراد بقوله: ﴿ ولا جُناحَ عليكم فيما تراضيتُم به ﴾ من الإبراء عن المهر والافتداء والاعتياض، ﴿ إنَّ اللّهَ كان عليماً حكيماً ﴾.

فصل في قدر الصداق وفيما يُستحبّ منه

اعلم أنه لا تقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى: ﴿ وآتيتم إحداهُنّ قِنْطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ [النساء: ٢٠] والمستحب أن لا يُغالى فيه، قال عمر بن الخطاب: ألا لا تغالوا في صدقة النساء فإنها لو كانت مُكْرمةً في الدنيا وتقوىً عند الله لكان أولاكم بها نبيُّ الله ﷺ ما علمتُ رسولَ الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أُوقية. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا جعفر بن محمد المفلس أنا هارون بن إسحق أنا يحيىٰ بن محمد الحارثي أنا عبد العزيز بن محمد عن يزيد بن عبد الله بن الهادي عن

قلت: لا قالت: نصف أوقية فذلك خمسمائة درهم واختلف العلماء في أقل الصداق فذهب جماعة إلى أنه لا تقدير لأقله بل كل ما جاز أن يكون مبيعاً أو ثمناً جاز أن يكون صداقاً وهو قول ربيعة وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وقال قوم يتقدر الصداق بنصاب السرقة وهو قول مالك وأبي حنيفة. غير أن نصاب السرقة عند مالك ثلاث دراهم وعند أبي حنيفة عشرة دراهم والدليل على أن الصداق لا يتقدر ما روي عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله قد وهبت نفسي لك فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست فقام رجل من أصحابه فقال يا رسول الله إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها فقال فهل عندك من شيء؟ فقال لا والله يا رسول الله فقال اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً؟ فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئاً فقال رسول الله ﷺ: «انظر ولو خاتماً من حديد» فذهب ثم رجع فقال لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ولكن إزاري هذا. قال سهل ما له رداء فلها نصفه فقال رسول الله ﷺ: «ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء» فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه النبي ﷺ مولياً فأمر به فدعا له فلما جاء قال ماذا معك من القرآن قال معي سورة كذا وسورة كذا عددها قال تقرأهن عن ظهر قلب قال نعم قال: اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن وفي رواية فقد زوجتكها تعلمها من القرآن وفي رواية فقد أنكحناكها بما معك من القرآن. أخرجاه في الصحيحين وهذا لفظ الحميدي. ففي هذا الحديث دليل على أنه لا تقدير لأقل الصداق لأنه هل تجد شيئاً فهذا يدل على جواز أي شيء كان من المال ثم قال ولو خاتماً من حديد ولا قيمة له إلا القليل التافه وفيه دليل على أنه يجوز أن يجعل تعليم القرآن صداقاً وهو قول الشافعي ومنعه أصحاب الرأي عن أن رسول الله ﷺ قال: من

محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها كم كان صداق النبي ﷺ لأزواجه؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أُوقية ونش، قالت: أتدري ما النش؟ قلت: لا، قالت: نصف أُوقية، فتلك خمسمائة درهم، هذا صداق النبي ﷺ لأزواجه. أمّا أقلّ الصداق فقد اختلفوا فيه، فذهب جماعة إلى أنه لا تقدير لأقلّه بل ما جاز أن يكون مبيعاً أو ثمناً جاز أن يكون صداقاً، وهو قول ربيعة وسفيان الثّوري والشافعي وأحمد وإسحق، قال عمر بن الخطاب: ثلاث قبضات زبيب مهر، وقال سعيد بن المسيب: لو أصدقها سوطاً جاز، وقال قوم: يتقدّر بنصاب السرقة، وهو قول مالك وأبي حنيفة، غير أن نصاب السرقة عند مالك ثلاثة دراهم وعند أبي حنيفة عشرة دراهم، والدليل على أنه لا يتقدّر ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي قال: أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إنّي وهبت نفسي لك، فقامت طويلاً فقام رجل فقال: يا رسول الله زوّجنيْها إن لم تكن لك فيها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندكَ من شيءٍ تصدقُها»؟ قال: ما عندي إلاّ إزاري هذا، قال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها إيّاه جلست لا إزار لك، فالتمسْ شيئاً»، فقال: ما أجده، فقال: «فالتمسْ ولو خَاتماً من حديد»، فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «هلْ معك من القرآن شيء»؟ قال: نعم سورة كذا وسورة كذا، فقال النبي ﷺ: «قد زوّجتُها بما معك من القرآن» وفيه دليل على أن لا تقدير لأقل الصداق، لأنه قال: «التمس شيئاً» وهذا يدلّ على جواز أيّ شيءٍ كانَ من المال، وقال: «ولو خاتماً من حديد»، ولا قيمة لخاتم الحديد إلاّ القليل التافه، وفي الحديث دليل على أنه يجوز تعليم القرآن صداقاً وهو قول الشافعي رحمه الله، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز وهو قول أصحاب الرأي، وكل عمل جاز الاستئجار عليه من البناء والخياطة وغير ذلك من الأعمال جاز أن يجعل صداقاً، ولم يُجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه أن يجعل منفعة الحرّ صداقاً، والحديث حجّة

أعطى في صداق امرأة ملء كفيه سويقاً أو تمراً فقد استحل. أخرجه أبو داود عن عبدالله بن عامر عن أبيه أن امرأة من بني فزارة تزوجت على نعلين فقال لها رسول الله ﷺ أرضيت من نفسك ومالك بنعلين قالت نعم فأجازه أخرجه الترمذي وقال عمر بن الخطاب: ثلاث قبضات من زبيب مهر. قوله عز وجل: .

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ يعني فضلاً وسعة وإنما سمي الغني طولاً لأنه ينال به من المراد ما لا ينال مع الفقر والطول هنا كناية عما يصرف إلى المهر والنفقة ﴿أن ينكح المحصنات﴾ يعني الحرائر ﴿المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم﴾ يعني جارية أخيك المؤمن فإن الإنسان لا يجوز له أن يتزوج بجارية نفسه ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ المعنى من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة فليتزوج الأمة المؤمنة والفتيات الجواري المملوكات جمع فتاة يقال للأمة فتاة والعبد فتى. وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين: أحدهما أن لا يجد مهر حرة لأنه جرت العادة في الإماء بتخفيف مهورهن ونفقتهن وسبب ذلك اشتغالهن بخدمة ساداتهن. والشرط الثاني وهو خوف العنت على نفسه وهو قوله تعالى ذلك لمن خشي العنت منكم. قال ابن عباس: هو الزنا وهذا قول جابر وابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ومسروق ومكحول وعمرو بن دينار وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد. وروي عن علي والحسن البصري وابن المسيب ومجاهد والزهري أنه يجوز للحر أن ينكح الأمة وإن كان موسراً وهو مذهب أبي حنيفة إلا أن يكون في نكاح حرة والسبب في منع الحر من نكاح الأمة إلا عند خوف العنة إن الولد يتبع الأم في الرق والحرية، وإذا كانت الأم رقيقة كان الولد رقيقاً وذلك نقص في حق الحر وفي حق ولده ولأن حق السيد أعظم من حق الزوج فربما احتاج الزوج إليها فلا يجد إليها سبيلاً لأن للسيد حبسها لخدمته ولأن مهرها ملك السيد فلا تقدر على هبته من زوجها ولا أن تبرئه منه بخلاف الحرة فلهذا السبب منع الله من نكاح الأمة

لِمَن جوّزه بعدما أخبر الله تعالى عن شعيب عليه السلام حيث زوّج ابنته من موسى عليه السلام على العمل، فقال: ﴿ إنّي أريد أن أُنكِحَكَ إحدَى ابنتيَّ هاتينِ على أن تَأجُرَني ثمانيَ حِجَجٍ ﴾ [القصص: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ ومَنْ لمْ يستطعْ منكم طَوْلاً ﴾، أي: فضلاً وسعةً، ﴿ أنْ ينكِحَ المحصناتِ ﴾، الحرائر ﴿ المؤمناتِ ﴾، قرأ الكسائي ﴿ المحصنات ﴾ بكسر الصاد حيث كان، إلاّ قوله في هذه السورة والمحصنات من النساء، وقرأ الآخرون بفتح جميعها، ﴿ فمما ملكتْ أيمانُكم منْ فتياتِكم ﴾، إمائِكم، ﴿ المؤمناتِ ﴾، أي: مَن لم يقدر على مهر الحرّة المؤمنة، فليتزوج الأمةَ المؤمنة، وفيه دليل على أنه لا يجوز للحرّ نكاح الأمة إلاّ بشرطين، أحدهما: أن لا يجدَ مهرَ حرّةٍ، والثاني أن يكون خائفاً على نفسه من العنت، وهو الزنا، لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ ذلك لِمَن خشيَ العنتَ منكم ﴾، وهو قول جابر رضي الله عنه، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار، وإليه ذهب مالك والشافعي وجوّز أصحاب الرأي للحرّ نكاح الأمة إلاّ أن تكون في نكاحه حرّة، أمّا العبد فيجوز له نكاح الأمة وإن كان في نكاحه حرّة أو أمة، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يجوز إذا كانتْ تحته حرّة، كما يقول في الحرّ،

إلا على سبيل الرخصة والاضطرار ويجوز للعبد نكاح الأمة وإن كان في نكاحه حرة. وعند أبي حنيفة لا يجوز له إذا كانت تحته حرة كما يقول في الحر وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للمسلم حراً كان أو عبداً نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ يفيد جواز نكاح الأمة المؤمنة دون الكتابية لأن فيها نوعين من النقص وهما: الرق والكفر بخلاف الأمة المؤمنة لأن فيها نقصاً واحداً وهو الرق وهذا قول مجاهد والحسن وإليه ذهب مالك والشافعي وقال أبو حنيفة: يجوز التزويج بالأمة الكتابية وبالاتفاق يجوز وطء الأمة الكتابية بملك اليمين وقوله تعالى: ﴿والله أعلم بأيمانكم﴾ قال الزّجاج أي اعملوا على الظاهر في الإيمان فإنكم متعبدون بما ظهر والله يتولى السرائر والحقائق وقيل معناه لا تتعرضوا للباطن في الإيمان وخذوا بالظاهر فإن الله أعلم بإيمانكم ﴿بعضكم من بعض﴾ يعني أنكم كلكم من نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاح الإماء عند الضرورة وإنما قيل لهم ذلك لأن العرب كانت تفتخر بالأنساب والأحساب ويسمون ابن الأمة الهجين فأعلم الله تعالى أن ذلك أمر لا يلتفت إليه فلا يتداخلنكم شموخ وأنفة من التزويج بالإماء، فإنكم متساوون في النسب إلى آدم وقيل إن معناه إن دينكم واحد وهو الإيمان وأنتم مشتركون فيه فمتى وقع لأحدكم الضرورة جاز له أن يتزوج بالأمة عند خوف العنت. وقال ابن عباس: يريد أن المؤمنين بعضهم أكفاء بعض ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ يعني اخطبوا الإماء إلى ساداتهن واتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأمة ﴿وآتوهن أجورهن﴾ يعني مهورهن ﴿بالمعروف﴾ يعني من غير مطل ولا ضرار. وقيل معناه وآتوهن مهور أمثالهن وأجمعوا على أن المهر للسيد لأنه ملكه وإنما أضيف إيتاء المهر إلى الإماء لأنه ثمن بضعهن ﴿محصنات﴾ يعني عفائف ﴿غير مسافحات﴾ يعني غير زانيات ﴿ولا متخذات أخدان﴾ جمع خدن وهو الصاحب الذي يكون معك في كل أمر ظاهر وباطن وأكثر ما يستعمل فيمن يصاحب بشهوة يقال خدن المرأة وخدينها يعني حبها الذي يزني بها في السر. قال الحسن: المسافحة هي التي كل من دعاها تبعته وذات الأخدان هي التي تختص بواحد ولا تزني مع غيره وكانت العرب في الجاهلية تحرم الأولى وتجوز الثانية فلما كان الفرق معتبراً عندهم لا جرم أن الله تعالى أفرد كل واحد من هذين القسمين بالذكر ونص على تحريمهما معاً ﴿فإذا أحصن﴾ قرىء بفتح الألف والصاد ومعناه حفظن فروجهن، وقيل معناه أسلمن وقرأ حفص بضم الألف وكسر الصاد ومعناه زوجن ﴿فإن أتين بفاحشة﴾ يعني بزنى ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ يعني فعلى الإماء اللاتي زنين نصف ما على الحرائر الأبكار إذا زنين من الجلد ويجلد العبد للزنا إذا زنا خمسين جلدة ولا فرق بين المملوك

وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لأنه قال: ﴿ فمما ملكتْ أيمانُكم من فتياتِكم المؤمنات ﴾، جوّز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة، وقال في موضع آخر: ﴿ وطعامُ الذين أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتُوا الكتاب ﴾ [المائدة: ٥] أي: الحرائر جوّز نكاح الكتابية، بشرط أن تكون حرّة، وجوّز أصحاب الرأي للمسلم نكاح الأمة الكتابية، وبالاتفاق يجوز وطؤها بملك اليمين ﴿ واللَّهُ أعلمُ بإيمانِكم ﴾، أي: لا تتعرضوا للباطن في الإيمان وخُذوا بالظاهر فإنّ اللَّهَ أعلمُ بإيمانكم، ﴿ بعضُكم من بعض ﴾، قيل: بعضكم إخوة لبعض، وقيل: كلكم من نفس واحدة فلا تستنكِفُوا من نكاح الإماء، ﴿ فانْكِحُوهنَّ ﴾، يعني: الإماء ﴿ بإذنِ أهلِهِنّ ﴾، أي: مواليهنّ، ﴿ وآتُوهنّ أجورَهُنّ ﴾، مهورهنّ، ﴿ بالمعرُوفِ ﴾ من غير مُطل وضرار، ﴿ مُحصنات ﴾، عفائف بالنكاح، ﴿ غيرَ مسافحات ﴾، أي: غيرِ زَانيات، ﴿ ولا مُتّخِذَاتِ أخْدَانٍ ﴾، أي: أحباب تزنون بهنّ في السرّ، قال الحسن: المسافحة هي أن كل مَن دعاها تبعتْه، وذات خدن أي: تختصّ بواحد لا تزني إلاّ معه، والعرب كانت تحرّم الأولى وتجوّز الثانية، ﴿ فإذا أُحْصِنَّ ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الألف والصاد، أي: حفِظنَ فروجهنّ، وقال ابن مسعود: أسلمنَ، وقرأ الآخرون:

المتزوج وغير المتزوج فإنه يجلد خمسين ولا رجم عليه هذا قول أكثر العلماء ويروى عن ابن عباس وقال طاوس: أنه لا حد على من لم يتزوج من المماليك إذا زنى لأن الله تعالى قال فإذا أحصن والذي لم يتزوج ليس بمحصن وأجيب عنه بأن معنى الإحصان عند الأكثرين الإسلام، وإن كان المراد منه التزويج فليس المراد منه أن التزويج شرط لوجوب الحد عليه بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصناً فلا رجم عليه إنما حده الجلد، بخلاف الحر فحد الأمة ثابت بهذه الآية وبيان أنه بالجلد لا بالرجم ثابت بالحديث وهو ما روي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر» أخرجاه في الصحيحين قوله ولا يثرب عليها أي لا يعيرها والتثريب التأبين والتعيير والاستقصاء في اللوم قال الشيخ محيي الدين النواوي: وهذا البيع المأمور به في الحديث مستحب وليس بواجب عندنا وعند الجمهور وقال داود وأهل الظاهر هو واجب وفيه جواز بيع الشيء الثمين بالثمن الحقير وهذا البيع المأمور به يلزم صاحبه أن يبين حالها للمشتري لأنه عيب والإخبار بالعيب واجب. فإن قيل كيف يكره شيئاً ويرتضيه لأخيه المسلم. فالجواب لعلها تستعف عند المشتري بأن يعفها بنفسه أو يصونها بهيبته أو بالإحسان إليها أو يزوجها أو غير ذلك والله أعلم. ﴿**ذلك**﴾ إشار إلى نكاح الأمة ﴿**لمن خشي العنت منكم**﴾ يعني الزنى والمعنى ذلك لمن خاف أن تحمله شدة الشبق والغلمة وشدة الشهوة على الزنى وإنما سمي الزنى بالعنت لما يعقبه من المشقة وهي شدة العزوبة فأباح الله تعالى نكاح الأمة بثلاثة شروط: عدم القدرة على نكاح الحرة وخوف العنت وكون الأمة مؤمنة ﴿**وأن تصبروا**﴾ يعني عن نكاح الإماء متعففين ﴿**خير لكم**﴾ يعني كيلا يكون الولد عبداً رقيقاً ﴿**والله غفور رحيم**﴾ وهذا كالتوليد لما تقدم يعني أنه تعالى غفر لكم ورحمكم حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه قوله تعالى: .

﴿ **أحصنّ** ﴾ بضم الألف وكسر الصاد، أي: تزويجهنّ، ﴿ **فإن أتينَ بفاحشةٍ** ﴾، يعني: الزنا، ﴿ **فعليهنّ نصفُ ما على المحصنات** ﴾، أي: ما على الحرائر الأبكار إذا زنين، ﴿ **من العذاب** ﴾، يعني: الحدّ فيُجلد الرقيق إذا زنى خمسين جلدة، وهل يُغرّب؟ فيه قولان، فإن قلنا يُغرّب فيغرّب نصف سنة على القول الأصح ولا رجم على العبد، رُوِيَ عن عبد الله بن عباس بــن أبي ربيعة قال: أمرني عمر بن الخطاب رضي الله عنه في فئة من قريش فجلدنا وَلَائِدَ الإماء خمسين في الزنا، ولا فرق في حدّ المملوك بين مَن تزوج أو لم يتزوج عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى أنه لا حدّ على مَن يتزوج من المماليك إذا زنى، لأن الله تعالى قال: ﴿ **فإذا أُحصنّ فإن آتينَ بفاحشةٍ فعليهنّ نصفُ ما على المحصناتِ من العذاب** ﴾، ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال طاوس، ومعنى الإحصان عند الآخرين الإسلام، وإن كان المراد منه التزويج فليس المراد منه أن التزويج شرط لوجوب الحدّ عليه، بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصناً بالتزويج فلا رَجْمَ عليه، إنّما حدّه الجلد بخلاف الحرّ، فحدّ الأمة ثابت بهذه الآية، وبيان أنها تجلد في الحدّ هو ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدّثني الليث عن سعيد يعني المقبري عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا زنت أمةُ أحدِكم فتبينَ زناها فيجلدْها الحدّ ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحدّ ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبيّن زناها فليبعْها ولو بحبلٍ من شعر». قوله تعالى: ﴿ **ذلك** ﴾، يعني: نكاح الأمة عند عدم الطَّول، ﴿ **لِمَنْ خَشيَ العَنتَ منكم** ﴾، يعني: الزنا، يريد المشقةَ بغلبة الشهوة، ﴿ **وأنْ تصبرُوا** ﴾، عن نكاح الإماء متعففين، ﴿ **خيرٌ لكم** ﴾، لئلا يُخلق الولد رقيقاً ﴿ **واللَّهُ غفورٌ رحيم** ﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿**يريد الله ليبين لكم**﴾ اللام في قوله ليبين معناه أن يبين وقيل معناه يريد إنزال هذه الآيات من أجل أن يبين لكم ديتكم ويوضح لكم شرعكم ومصالح أموركم وقيل يبين لكم ما يقربكم منه وقيل يبين أن الصبر على نكاح الإماء خير لكم ﴿**ويهديكم**﴾ أي ويرشدكم ﴿**سنن الذين من قبلكم**﴾ أي شرائع من قبلكم في تحريم الأمهات والبنات والأخوات فإنها كانت محرمة على من قبلكم وقيل معناه يرشدكم إلى ما لكم فيه مصلحة كما بينه لمن كان قبلكم، وقيل معناه ويهديكم إلى الملة الحنيفية وهي ملة إبراهيم عليه السلام و﴿**يتوب عليكم**﴾ يعني ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم ويرجع بكم عن المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، وقيل لما بين لنا أمر الشرائع والمصالح وأرشدنا إلى طاعته فربما وقع منا تقصير وتفريط فيما أمر به وبينه فلا جرم أنه تعالى قال ويتوب عليكم ﴿**والله عليم**﴾ يعني بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ﴿**حكيم**﴾ يعني فيما دبر من أمورهم. ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾ قال ابن عباس معناه يريد أن يخرجكم من كل ما يكره إلى ما يحب ويرضى. وقيل معناه يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم التي يغفر لكم بها ما سلف من ذنوبكم وقيل معناه إن وقع منكم تقصير في دينه فيتوب عليكم ويغفر لكم ﴿**ويريد الذين يتبعون الشهوات**﴾ قيل هم اليهود والنصارى وقيل هم اليهود خاصة لأنهم يقولون إن نكاح بنت الأخت من الأب حلال. وقيل هم المجوس لأنهم يستحلون نكاح الأخوات وبنات الإخوة فلما حرمهن الله قالوا إنكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة والخالة والعمة عليكم فانكحوا بنات الأخ والأخت فنزلت هذه الآية. وقيل هم الزناة يريدون أن تكونوا مثلهم ﴿**أن تميلوا**﴾ يعني عن الحق وقصد السبيل بالمعصية ﴿**ميلاً عظيماً**﴾ يعني بإتيانكم ما حرم الله عليكم ﴿**يريد الله أن يخفف عنكم**﴾ يعني ليسهل عليكم أحكام الشرائع فهو عام في كل أحكام الشرع وجميع ما يسره لنا وسهله علينا إحساناً منه إلينا وتفضلاً ولطفاً علينا، ولم يثقل التكاليف علينا كما ثقلها

قوله تعالى: ﴿ **يُريدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لكم** ﴾، أي: أن يبيّن لكم، كقوله تعالى: ﴿ وأُمرتُ لأعدلَ بينكم ﴾ [الشورى: ١٥] أي: أن أعدل، وقوله: ﴿ وأُمرنا لِنُسلِمَ لربِّ العالمين ﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال في موضع آخر ﴿ وأُمرتُ أن أسلم ﴾ [غافر: ٦٦]، ومعنى الآية: يريد الله أن يبيّن لكم، أي: يوضح لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم، قال عطاء: يبيّن لكم ما يقرّبكم منه، قال الكلبي: يبيّن لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم، ﴿ **ويَهْدِيَكم** ﴾، ويرشدكم، ﴿ **سُنَنَ** ﴾، شرائع، ﴿ **الذينَ من قبلكم** ﴾، في تحريم الأمهات والبنات والأخوات، فإنها كانت محرمة على مَن قبلكم، وقيل: ويهديكم الملّة الحنيفية وهي ملّة إبراهيم عليه السلام، ﴿ **ويتوبَ عليكم** ﴾، ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبيّن لكم، وقيل: يرجع بكم من المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، وقيل: يوفّقكم التوبة ﴿ **واللَّهُ عليم** ﴾ بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم، ﴿ **حكيم** ﴾، فيما دبّر من أمورهم.

﴿ **والله يُريد أن يتوبَ عليكم** ﴾، إن وقع منكم تقصير في أمر دينكم ﴿ **ويُريدُ الذينَ يتبعُون الشهواتِ أن تميلوا** ﴾، عن الحق، ﴿ **ميلاً عظيماً** ﴾ بإتيانكم ما حرّم عليكم، واختلفوا في الموصوفين باتّباع الشهوات، فقال السدي: هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم: هم المجوس لأنهم يُحلّون نكاح الأخوات وبنات الأخ والأخت،

على بني إسرائيل فهو كقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقوله تعالى: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ وكما روي عن النبي ﷺ أنه قال بعثت بالحنيفية السهلة السمحة. وقوله تعالى: ﴿**وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ يعني في قلة الصبر عن النساء فلا صبر له عنهن وقيل إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى وقيل هو ضعيف في أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين. قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ يعني بالحرام الذي لا يحل في الشرع كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة ونحو ذلك. وإنما خص الأكل بالذكر ونهى عنه تنبيهاً على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل لأن معظم المقصود من المال الأكل، وقيل يدخل فيه أكل ماله نفسه بالباطل ومال غيره أما أكل ماله بالباطل فهو إنفاقه في المعاصي، وأما أكل مال غيره فقد تقدم معناه وقيل يدخل في أكل المال الباطل جميع العقود الفاسدة. وقوله تعالى: ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾ هذا الاستثناء منقطع لأن التجارة عن تراض ليست من جنس أكل المال بالباطل فكان إلا ها هنا بمعنى لكن يحل أكله بالتجارة عن تراض يعني بطيبة نفس كل واحد منكم. وقيل هو أن يخير كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع فيلزم وإلّا فلهما الخيار ما لم يتفرقا لما روي عن ابن عمران أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا وكانا جميعاً أو يخير أحدهما الآخر فإن خير أحدهما الآخر فتبايعا على ذلك فقد وجب البيع وإن تفرقا بعد أن تبايعا ولم يترك واحد منهما البيع فقد وجب البيع**» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً وإنما قال أنفسكم لأنهم أهل دين واحد فهم كنفس واحدة وصح عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع «**ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» وقيل إن هذا نهي للإنسان عن قتل نفسه (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً**» قوله يتردى التردي هو

وقال مجاهد: هم الزناة يريدون أن تميلوا عن الحق فتزنون كما يزنون، وقيل: هم كما يزنون، وقيل: هم جميع أهل الباطل.

﴿ **يريدُ اللَّهُ أن يُخفّف عنكم** ﴾، يسهلَ عليكم في أحكام الشرع، وقد سهل كما قال جلّ ذكره: ﴿ **ويضع عنهم إصرهم** ﴾ وقال النبي ﷺ: «بعثتُ بالدين الحنيفية السمحة السهلة»، ﴿ **وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً** ﴾، قال طاووس والكلبي وغيرهما في أمر النساء: لا يصبر عنهنّ، وقال ابن كيسان: ﴿ **خلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ يستميله هواه وشهوته، وقال الحسن: هو أنه خلق من ماء مهين، بيانه قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الذي خلقكمْ مِنْ ضَعفٍ** ﴾ [الروم: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تأكلُوا أموالَكُمْ بينكم بالباطِل** ﴾، بالحرام، يعني: بالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة ونحوها، وقيل: هو العقود الفاسدة ﴿ **إلّا أنْ تكونَ تجارةً** ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ **تجارةً** ﴾ نصب على خبر كان، أيّ إلّا أن تكون الأموال تجارة، وقرأ الآخرون بالرفع، أي: إلّا أن تقع تجارة، ﴿ **عن تَراضٍ منكم** ﴾، أي بطيبة نفس كل واحد منكم، وقيل: هو أن يجيز كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع، فيلزم وإلّا فلهما الخيار ما لم يتفرقا لِمَا أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المتبايعان كلُّ واحد منهما بالخيار على صاحبه، ما لم يتفرقا إلّا بيع الخيار»، ﴿ **ولا تقتلُوا أنفسَكم** ﴾، قال أبو عبيدة: أي لا تُهلكوها، كما قال: ﴿ ولا

الوقوع من موضع عال إلى أسفل قوله يتوجأ يقال وجأته بالسكين إذا ضربته بها وهو يتوجأ أي يضرب بها نفسه (ق) عن جندب عن رسول الله ﷺ قال كان برجل جراح فقتل نفسه فقال الله تبارك وتعالى: بدرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة. وفي رواية قال: كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزبها يده فما رقأ الدم حتى مات فقال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة وقيل في معنى قتل الإنسان نفسه أن لا يفعل شيئاً يستحق به القتل مثل أن يقتل فيقتل به فيكون هو الذي تسبب في قتل نفسه، وقيل معناه ولا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل وقيل معناه ولا تهلكوا أنفسكم بأن تعملوا عملاً ربما أدى إلى قتلها ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ يعني أنه تعالى من رحمته بكم نهاكم عن كل شيء تستوجبون به مشقة أو محنة وقيل إنه تعالى أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم ليكون ذلك توبة لهم وكان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الشاقة الصعبة.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

﴿ومن يفعل ذلك﴾ يعني ما سبق ذكره من قتل النفس المحرمة لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورات وقيل: إنه يعود إلى قتل النفس وأكل المال بالباطل لأنهما مذكوران في آية واحدة وقيل إنه يعود إلى كل ما نهى الله عنه من أول السورة إلى هنا ﴿عدواناً وظلماً﴾ يعني يتجاوز الحد فيضع الشيء في غير موضعه فلذلك قيده بالعدوان والظلم لأنه قد يكون القتل بحق، وهو القصاص وكذلك قد يكون أخذ المال بحق فلهذا السبب قيده بالوعيد وما كان على وجه العدوان والظلم وهو قوله تعالى: ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ أي ندخله في الآخرة ناراً يصلى فيها ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي هيناً لأنه تعالى قادراً على ما يريد. قوله عز وجل: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ اجتناب الشيء المباعدة عنه وتركه جانباً والكبيرة ما كبر وعظم من الذنوب وعظمت عقوبته وقبل ذكر التفسير نذكر

تُلقوا بأيديكم إلى التَّهلُكَة ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقيل: لا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل، وقيل: أرادَ به قتل المسلم نفسه، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا ابن عيينة عن أيوب عن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قتلَ نفسه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم القيامة»، حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أخبرنا أبو معاذ عبد الرحمن المزني أنا أبو إسحق إبراهيم بن حمّاد القاضي أنا أبو موسى الزمن أنا وهب بن جرير أخبرنا أبي قال سمعتُ الحسن: أخبرنا جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جُرِحَ رجلٌ فيمن كان قبلكم فألِمَ ألماً شديداً ولم يبرأ فجزع منه، فأخذ سكّيناً فحَزَّ بها يده فما رقأ الدمُ حتى مات، فقال اللّهُ عزّ وجلّ: بادرني عبدي بنفسِه حرمتُ عليه الجنة». وقال الحسن: ﴿ لا تقتلوا أنفسَكم ﴾ يعني: إخوانَكم، أي: لا يقتل بعضُكم بعضاً، ﴿ إن اللّهَ كانَ بكمْ رَحيماً ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سليمان بن حرب أنا شعبة عن علي بن مدرك قال: سمعت أبا زرعة بن عمر بن جرير عن جدّه قال: قال لي رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «استنصتِ الناسَ» ثم قال: «لا ترجعنَّ بعدي كفّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض».

﴿ ومَن يفعلْ ذلِك ﴾، يعني: ما سبق ذكره من المحرّمات، ﴿ عُدْوَاناً وظُلماً ﴾، فالعدوان مجاوزة الحدّ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، ﴿ فسوفَ نُصليهِ ﴾، نُدخله في الآخرة، ﴿ ناراً ﴾، يُصلى فيها، ﴿ وكانَ ذلكَ على اللّهِ يسيراً ﴾، هيِّناً.

قوله تعالى: ﴿ إنْ تجتنبُوا كبائِرَ ما تُنهونَ عنه ﴾، اختلفوا في الكبائر التي جعل الله اجتنابَها تكفيراً للصغائر،

الأحاديث الواردة في الكبائر فمن ذلك ما روي عن أبي بكرة قال كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً قلنا بلى يا رسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين ألا وشهادة الزور وقول الزور وكان متكئاً فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» أخرجاه في الصحيحين (ق) عن أنس بن مالك قال: «ذكر لنا رسول الله ﷺ الكبائر فقال: الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور أو قال شهادة الزور» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق وأكل مال اليتيم والزنى والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» (خ) عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت إن ذلك لعظيم ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال تزاني بحيلة جارك» (ق) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس» وفي رواية أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله قال ثم ماذا قال اليمين الغموس قلت وما اليمين الغموس قال الذي يقتطع مال امرىء مسلم بيمين هو فيها كاذب» (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال نعم: يسب الرجل أبا الرجل أو أمه: فيسب أباه أو أمه» وفي رواية من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه وذكر

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن مقاتل أنا النضر أخبرنا شعبة أنا فراس قال: سمعت الشعبي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس، واليمينُ الغَمُوس»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا بشر بن الفضل أنا الجريري عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراكُ بالله عزّ وجلّ، وعقوقُ الوالدين، وجلسَ وكان متّكئاً فقال: ألا وقولُ الزُور، فما زال يُكرِّرُها حتى قلنا ليتَه سكت»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أنا أحمد بن عيسى البرني أنا محمد بن كثير أنا سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور، وواصل الأحدب عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله رضي الله عنهما قال: قلتُ يا رسول الله أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوَ للَّهِ نِدّاً وهو خلقك»، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «أن تقتل ولدكَ خشيةَ أن يطعم معك»، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك»، فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿ والذينَ لا يدعونَ مع الله إلَهاً آخرَ ولا يقتلُونَ النفسَ التي حرَّمَ اللَّهُ إلاّ بالحقِّ ولا يزنون ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدّثني سليمان عن ثور بن زيد عن أبي الغيث أنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السّبع المُوبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: «الشركُ بالله والسِّحرُ وقتلُ النفس التي حرَّم الله إلاّ بالحق، وأكل الرِّبا وأكل مال اليتيم، والتولّي يومَ الزحف، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات»، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أكبر الكبائر: الإشراكُ بالله والأمنُ من مكر الله والقنوطُ من رحمة الله واليأسُ من رَوح الله. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة عن سعيد بن إبراهيم قال: سمعتُ حميد بن عبد الرحمن يحدّث عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر أن يسبَّ الرجلُ والديه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يسبّ الرجل والديه؟ قال: «نعم يسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فيسبُّ أباه ويسبُّ أمه». وعن سعيد بن

الحديث. وقال عبدالله بن مسعود: أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وعند سعيد بن جبير أن رجلاً سأل ابن عباس عن الكبائر أسبع هي قال هي إلى السبعمائة أقرب وفي رواية إلى السبعين أقرب إلا أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار وقال كل شيء عصي الله به فهو كبيرة فمن عمل شيئاً منها فليستغفر الله فإن الله لا يخلد في النار من هذه الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام أو جاحداً فريضة أو مكذباً بقدر وقال علي بن أبي طالب: كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب فهو كبيرة. وقال سفيان الثوري: الكبائر ما كان فيه المظالم فيما بينك وبين العباد والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى لأن الله تعالى كريم يغفر ويعفو واحتج لذلك بما روي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادي مناد من بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد إن الله قد عفا عنكم جميعاً المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم وأدخلوا الجنة برحمتي» وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع والسيئات ذنوب أهل السنة، وقيل الكبائر ذنوب العمد والسيئات الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة وقال السّدي: الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب والسيئات مقدماتها وتوابعها للتي يقع فيها الصالح والفاسق مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباه ذلك (ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطأ والقلب يهوى ويتمنى

جبير: أن رجلاً سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن الكبائر: أسبع هي؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب إلاّ أنه لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا صغيرةَ مع الإصرار، وقال: كل شيء عُصيَ اللَّهُ به فهو كبيرة، فمَن عمل شيئاً منها فليستغفرْ فإنّ الله لا يُخلّد في النار من هذه الأمة إلاّ راجعاً عن الإسلام أو جاحداً فريضة أو مكذّباً بقدر. وقال عبد الله بن مسعود: ما نهى الله تعالى عنه في هذه السورة إلى قوله: ﴿ إنْ تجتنبُوا كبائِرَ ما تُنهَونَ عنه ﴾، فهو كبيرة، وقال عليّ بن أبي طالب: هي كل ذنب ختمه الله بنارٍ أو غضبٍ أو لعنةٍ أو عذابٍ. وقال الضحاك: ما أوعد الله عليه حدّاً في الدنيا أو عذاباً في الآخرة. وقال الحسن بن الفضل: ما سمّاه الله في القرآن كبيراً أو عظيماً نحو قوله تعالى: ﴿ إنه كان حَوْباً كبيراً ﴾ [النساء: ٢]، ﴿ إنّ قتلَهم كان خطئاً كبيراً ﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿ إنّ الشّركَ لظلمٌ عظيم ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿ إنّ كيدَكُنّ عظيم ﴾ [يوسف: ٢٨]، ﴿ سُبحانَكَ هذا بهتانٌ عظيم ﴾ [النور: ١٦]، ﴿ إنّ ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قال سفيان الثّوري: الكبائر ما كان فيه المظالم بينك وبين عباد الله تعالى، والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى، لأنّ الله كريمٌ يعفو، واحتجّ بما أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي الكرماني أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعيد أنا الحسن بن داود البلخي أنا يزيد بن هارون أنا حميد الطويل عن أنس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادي منادي من بطنان العرش يوم القيامة: يا أمّة محمد إنّ الله عزّ وجلّ قد عفَا عنكم جميعاً المؤمنين والمؤمنات، تواهبُوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتي»، وقال مالك بن مغول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السُّنّة، وقيل: الكبائر ذنوب العمد والسيئات الخطأ والنسيان وما أكره عليه، وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة، وقيل: الكبائر ذنوب المستحلّين مثل ذنب إبليس والصغائر ذنوب المستغفرين مثل ذنب آدم عليه السلام، وقال السدي: الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبائر، والسيئات مقدِّمَاتُها وتوابعها مما يجمع فيه الصالح والفاسق، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها. قال النبيّ ﷺ: «العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، ويُصدّقُ ذلك الفرجُ أو يكذبه»، وقيل: الكبائر ما يستحقره العباد، والصغائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته، كما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الوليد أنا مهدي بن ميمون بن غيلان عن

ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه لفظ مسلم، وقيل الكبائر الشرك وما يؤدي إليه وما دونه فهو من السيئات فقد ثبت بما تقدم من الأدلة أن من الذنوب كبائر وصغائر وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف. وثبت بدلائل الكتاب والسنة وإذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر فقوله تعالى: إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه هي كل ذنب عظم قبحه وعظمت عقوبته إما في الدنيا بالحدود وإما في الآخرة بالعذاب عليه ﴿**نكفر عنكم سيئاتكم**﴾ يعني نسترها عليكم حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل لأن أصل التكفير الستر والتغطية فصغار الذنوب تكفر بالحسنات ولا تكفر كبارها إلا بالتوبة والإقلاع عنها كما ورد في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن» زاد في رواية ما لم تغش الكبائر وزاد في رواية أخرى ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر أخرجه مسلم. وقوله تعالى: ﴿**وندخلكم مدخلاً كريماً**﴾ يعني حسناً شريفاً وهو الجنة والمعنى إذا اجتنبتم الكبائر وأتيتم الطاعات ندخلكم مدخلاً تكرمون فيه. قوله عز وجل: .

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض**﴾ أصل التمني إرادة الشيء وتشهي حصول ذلك الأمر المرغوب فيه ومنه حديث النفس بما يكون وبما لا يكون وقيل التمني تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها وذلك قد يكون عن تخمين وظن، وقد يكون عن رؤية وأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له وقيل التمني عبارة عن إرادة ما يعلم أو يظن أنه لا يكون، عن مجاهد عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله يغزوا الرجال ولا تغزوا النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض قال مجاهد: وأنزل إن المسلمين والمسلمات وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة أخرجه الترمذي. وقال هذا حديث مرسل وقيل لما جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين من الميراث قالت النساء نحن أحق وأحوج إلى الزيادة من الرجال لأنا ضعيفات وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش منا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما نزل قوله للذكر مثل حظ الأنثيين قالت للرجال إنا لنرجو أن نفضل على النساء في الحسنات في الآخرة فيكون لنا أجرنا على ضعف أجر النساء كما فضلنا

أنس قال: إنّكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشعر، إنْ كنّا نعدّهم على عهد الله رسول الله ﷺ من الموبقات، وقيل: الكبائر الشرك، وما يؤدّي إليه، وما دون الشرك فهو من السيئات، قال الله تعالى: ﴿ إنّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يُشركَ به ويغفرَ ما دُونَ ذلكَ لمَنْ يشاء ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]. ﴿ **نُكفِّرْ عنكم سيئاتِكم** ﴾ أي: من الصلاةِ إلى الصلاة ومنَ الجمعة إلى الجمعة ومن رَمضان إلى رمضان. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج حدّثني هارون بن سعيد الأيلي أنا ابن وهب عن أبي صخر أن عمر بن إسحق مولى زائدة حدّثه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يقول: «الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضان، مُكفّراتٌ لِمَا بينهم ما اجتُنب الكبائر». قوله تعالى: ﴿ **ونُدْخِلْكُمْ مُدْخلاً كريماً** ﴾، أي: حسناً وهو الجنة، قرأ أهل المدينة (مَدخلاً) بفتح الميم ههنا وفي الحج، وهو موضع الدخول، وقرأ الباقون بالضم على المصدر بمعنى الإدخال.

قوله تعالى: ﴿ **ولا تَتمنَّوا ما فضلَ اللَّهُ به بعضَكم على بعض** ﴾ الآية، قال مجاهد: قالتْ أُم سلمة: يا رسول الله إنّ الرجال يغزون ولا نغزوا ولهم ضِعفُ ما لنا مِنَ الميراث، فلو كنّا رجالاً غزونا كما غزوا وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا. فنزلت هذه الآية. وقيل: لمّا جعل الله عزّ وجلّ للذّكر مثلُ حظ الأُنثيين في الميراث، قالت النساء:

عليهن في الميراث، وقالت النساء إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال كما لنا في الميراث النصف من نصيبهم. فنزلت هذه الآية والتمني على قسمين: أحدهما أن يتمنى الإنسان أن يحصل له مال غيره مع زوال تلك النعمة عن ذلك الغير فهذا القسم هو الحسد وهو مذموم لأن الله تعالى يفيض نعمه على من يشاء من عباده وهذا الحاسد يعترض على الله تعالى فيما فعل وربما اعتقد في نفسه أنه أحق بتلك النعمة من ذلك الإنسان أيضاً فهذا اعتراض على الله أيضاً وهو مذموم. القسم الثاني أن يتمنى مثل مال غيره ولا يحب أن يزول ذلك المال عن الغير وهذا هو الغبطة وهذا ليس بمذموم. ومن الناس من منع منه أيضاً قال لأن تلك النعمة ربما كانت مفسدة في حقه في الدين والدنيا. قال الحسن: لا تتمنى مال فلان ولا تدري لعل هلاكك في ذلك المال فيعلم العبد أن الله عزّ وجلّ أعلم بمصالح عباده فليرضَ بقضائه ولتكن أمنيته الزيادة من عمل الآخرة وليقل: اللّهم اعطني ما يكون صلاحاً في ديني ودنياي ومعادي. وقوله تعالى: ﴿**للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن**﴾ قال ابن عباس: يعني مما ترك الوالدان والأقربون من الميراث يقول للذكر مثل حظ الأنثيين وقيل هذا الاكتساب في الآخرة يعني أن الرجال والنساء في الأجر في الآخرة سواء لأن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها يستوي في ذلك الرجال والنساء وإن فضل الرجال في الدنيا على النساء وقيل للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد وللنساء نصيب مما اكتسبن يعني من طاعة الأزواج وحفظ الفروج ﴿**واسألوا الله من فضله**﴾ قال ابن عباس: يعني من رزقه وقيل من عبادته وهو سؤال التوفيق للعبادة وقيل لم يأمر الله عباده بالمسألة إلا ليعطيهم وفيه تنبيه على أن العبد لا يعين شيئاً في الدعاء والطلب لكن يطلب من فضل الله ما يكون سبباً لصلاح دينه ودنياه وآخرته وقيل لما تمنى النساء أن يكن رجالاً وأن يكون لهن مثل ما للرجال نهاهن الله عن ذلك وأمرهن أن يسألوه من فضله فإنه أعلم بمصالح عباده ﴿**إن الله كان بكل شيء عليماً**﴾ يعني أنه تعالى عليم بما يكون صلاحاً للسائلين فليقتصر السائل على المجمل في الطلب فإن الله تعالى عليم بما يصلحه فلا يتمنى غير الذي قدر له. قوله تعالى:.

نحنْ أحقُّ وأحوج إلى الزيادة من الرجال، لأنّا ضعيفات وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش، فأنزل الله تعالى: ﴿ **ولا تَتَمنّوا ما فضّلَ اللّهُ به بعضَكم على بعضٍ** ﴾، وقال قتادة والسدي لمّا أنزل الله قوله: ﴿ **للذكر مثلُ حظ الأنثيين** ﴾ [النساء: ١١] قال الرجل إنّا لنرجو أن نُفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة فيكون أجرُنا على الضِعف من أجر النساء كما فُضّلنا عليهنّ في الميراث فقال الله تعالى: ﴿ **للرجال نصيبٌ مما اكتسبُوا** ﴾ من الأجر ﴿ **وللنّساء نصيبٌ مما اكتسبن** ﴾ معناه: أن الرجال والنساء في الأجْر في الآخرة سواء، وذلك أن الحسنة تكون بعشرة أمثالها يستوي فيها الرجال والنساء، وإنّ فضّل الرجال في الدنيا على النساء، وقيل: معناه للرجال نصيب مما اكتسبُوا من أمر الجهاد وللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج وحفظ الفروج. قوله تعالى: ﴿ **واسألُوا اللّهَ مِنْ فضله** ﴾، قرأ ابن كثير والكسائي «وسلوا، وسل، وفسل» إذا كان قبل السين واو أو فاء بغير همز، ونقل حركة الهمزة إلى السين، والباقون بسكون السين مهموزاً. فنهى الله تعالى عن التمنّي لِما فيه من دواعي الحسد، والحسد أن يتمنى الرجل زوالَ النعمة عن صاحبه سواء تمنّاها لنفسه أمْ لا، وهو حرام، والغِبطة، أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز. قال الكلبي: لا يتمنى الرجلُ مالَ أخيه ولا امرأته ولا خادمه، ولكن ليقل اللّهمّ ارزقني مثله، وهو كذلك في التوراة وذلك في القرآن. وقوله: ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ أي: من رزقه، قال سعيد بن جبير: من عبادته، فهو سؤال التوفيق للعبادة، قال سفيان بن عيينة: لم يأمرْ بالمسألة إلّا ليُعطي. ﴿ **إنّ اللّهَ كان بكل شيءٍ عليماً** ﴾.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿ولكل﴾ يعني من الرجال والنساء ﴿جعلنا موالي﴾ يعني ورثة من بني عم وإخوة سائر العصبات ﴿مما ترك﴾ يعني يرثون مما ترك ﴿الوالدان والأقربون﴾ من ميراثهم فعلى هذا الوالدان والأقربون هم المورثون وقيل معناه ولكل جعلنا موالي أي ورثة مما ترك وتكون ما بمعنى يعني من من تركهم الميت ثم فسر الموالي فقال الوالدان والأقربون هم الوارثون. والمعنى ولكل شخص جعلنا ورثة ممن تركهم وهم والداه وأقربوه والقول الأول أصح لأنه مروي عن ابن عباس وغيره ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ وقرىء عقدت بغير ألف مع التخفيف والمعاقدة المحالفة والمعاهدة والأيمان جمع يمين يحتمل أن يراد بها القسم أو اليد أو هما جميعاً وذلك أنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كل واحد منهم بيد صاحبه وتحالفوا على الوفاء بالعهد والتمسك بذلك العقد. وكان الرجل يحالف الرجل في الجاهلية ويعاقده فيقول دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك وحربي حربك، وسلمي سلمك ترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتعقل عني وأعقل عنك فيكون لكل واحد من الحليفين السدس في مال الآخر وكان الحكم ثابتاً في الجاهلية وابتداء الإسلام فذلك قوله تعالى:

﴿فآتوهم نصيبهم﴾ يعني أعطوهم حظهم من الميراث ثم نسخ الله هذا الحكم بقوله وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار لما قدموا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون النسب والرحم، فلما نزلت ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان نسختها ثم قال والذين عاقدت أيمانكم من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصي له وفي رواية أخرى عنه. قال والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما كالآخر فنسخ ذلك بسورة الأنفال فقال ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وقال سعيد بن المسيب: كانوا يتوارثون بالتبني بهذه الآية ثم نسخ ذلك وذهب قوم إلى أن الآية ليست بمنسوخة بل حكمها باقٍ والمراد بقوله والذين عاقدت أيمانكم الحلفاء والمراد من قوله فآتوهم نصيبهم يعني من النصرة والنصيحة والموافاة والمصافاة ونحو ذلك فعلى هذا لا تكون منسوخة وقيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن داود بن الحصين قال: كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع وكانت يتيمة في حجر أبي بكر الصديق، فقرأت والذين عاقدت

﴿ ولكلٍّ جعلنا مَوالِيَ ﴾ أي: ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا موالي، أي: عصبة يُعطون ﴿ ممّا ترك الوالدانِ والأقربُون ﴾، الوالدان والأقربون هم المورثـون، وقيل: معناه ولكلٍّ جعلنا موالي أي: ورثة ممّا ترك أي: مِن الذين تركوهم ويكون ﴿ ما ﴾ بمعنى (من)، ثم فسّر (الموالي) فقال: الوالدانِ والأقربون، أي: هم الوالدان والأقربون، فعلى هذا القول: الوالدان والأقربون هم الوارثون، ﴿ والذينَ عَقدَتْ أيمانُكم ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ عقدت ﴾ بلا ألف، أي: عقدت لهم أيمانكم، وقرأ الآخرون « عاقدت أيمانكم » والمعاقدة: المحالفة والمعاهدة، والأيمان جمع يمين، من اليد والقسم، وذلك أنهم كانوا عند المخالفة يأخذ بعضُهم بيد بعض على الوفاء والتمسّك بالعهد. ومحالفتُهم أن الرجل كان في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك وثأري ثأرك وحربي حربك وسِلْمِي سِلْمُك وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك وتَعْقِلُ عنّي وأعقل عَنْك فيكون للحليف السدس من مال الحليف، وكان ذلك في ابتداء الإسلام فذلك قوله تعالى: ﴿ فآتوهم نصيبَهم ﴾ أي: أعطوهم حظَّهم من الميراث، ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿ وأُولُوا الأرحام بعضُهم أوْلَى ببعضٍ في كتابِ الله ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال

أيمانكم فقالت: لا تقرأ والذين عقدت أيمانكم إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى الإسلام فحلف أبو بكر أن لا يورثه فلما أسلم أمره الله أن يؤتيه نصيبه أخرجه أبو داود على هذا فلا نسخ أيضاً فمن قال إن حكم الآية باق قال: إنما كانت المعاقدة في الجاهلية على النصرة لا غير والإسلام لم يغير ذلك ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة» أخرجه مسلم. وقوله تعالى: ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ قال عطاء: يريد أنه لم يغب عنه علم ما خلق وبرأ فعلى هذا الشهيد بمعنى الشاهد والمراد منه علمه بجميع الأشياء وقيل الشهيد على الخلق يوم القيامة بكل ما عملوه فعلى هذا الشاهد بمعنى المخبر وفيه وعد للطائعين ووعيد للعصاة المخالفين. قوله عز وجل:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿الرجال قوامون على النساء﴾ نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، ويقال امرأته بنت محمد بن مسلمة وذلك أنها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتص من زوجها فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي ﷺ ارجعوا هذا جبريل أتاني فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال النبي ﷺ أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير ورفع القصاص فقوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي متسلطون على تأديب النساء والأخذ على أيديهن قال ابن عباس: أمروا عليهن فعلى المرأة أن تطيع زوجها في طاعة الله والقوام هو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب فالرجل يقوم بأمر المرأة ويجتهد في حفظها ولما أثبت القيام للرجال على النساء بيّن السبب في ذلك فقال تعالى: ﴿بما فضل الله

إبراهيم ومجاهد: أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث لهم، وعلى هذا تكون هذه الآية غير منسوخة لقوله تعالى: ﴿أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ١] وقال رسول الله ﷺ في خطبة يوم فتح مكة: «لا تحدثون حِلْفاً في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فتمسّكوا فيه فإنّه لم يزدْه الإسلام إلّا شِدّة». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار حين قَدِمُوا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون الرحم، فلمّا نزلت ﴿ولكلٍّ جعلنا موالِيَ﴾ نسخت، ثم قال: ﴿والذين عَقَدَتْ أيمانُكم فآتوهم نصيبَهم﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث فيوصي له. وقال سعيد بن المسيب: كانوا يتوارثون بالتبنّي وهذه الآية فيه ثم نُسخ. ﴿إنّ اللّهَ كان على كل شيءٍ شهيداً﴾.

﴿الرِّجالُ قوّامُونَ على النّساء﴾، الآية نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، قاله مقاتل، وقال الكلبي: امرأته حبيبة بنت محمد بن مسلمة وذلك أنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي ﷺ فقال: أفرشتُه كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتصّ من زوجها»، فانصرفت مع أبيها لتقتصّ منه فجاء جبريل عليه السلام فقال النبيّ ﷺ: «ارجعوا هذا جبريل أتاني بشيء»، فأنزل الله هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير»، ورفع القِصَاص. قوله تعالى: ﴿الرّجالُ قوّامُون على النساء﴾ أي: مُسلّطون على تأديبهنّ، والقوّام والقيّم بمعنى واحد، والقوّام أبلغ وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب، ﴿بما فضّلَ اللّهُ بعضهم على بعضٍ﴾، يعني: فضّل الرجال على النساء بزيادة العقل والدين

بعضهم على بعض﴾ يعني أن الله تعالى فضل الرجال على النساء بأمور منها زيادة العقل والدين والولاية والشهادة والجهاد والجمعة والجماعات وبالإمامة لأن منهم الأنبياء والخلفاء والأئمة ومنها أن الرجل يتزوج بأربع نسوة ولا يجوز للمرأة غير زوج واحد ومنها زيادة النصيب في الميراث والتعصيب في الميراث وبيده الطلاق والنكاح والرجعة وإليه الانتساب فكل هذا يدل على فضل الرجل على النساء ثم قال تعالى: **﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾** يعني وبما أعطوا من مهور النساء والنفقة عليهن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» أخرجه الترمذي **﴿فالصالحات﴾** يعني المحسنات العاملات بالخير **﴿قانتات﴾** أي مطيعات لأزواجهن وقيل مطيعات لله **﴿حافظات للغيب﴾** لفروجهن في غيبة أزواجهن لئلا يلحق الزوج العار بسبب زناها ويلحق به الولد الذي هو من غيره وقيل معناه حفظ سر زوجها وحفظ ماله وما يجب على المرأة من حفظ متاع البيت في غيبة زوجها عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله أي النساء خير قال التي تسره إذا نظر إليها وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره أخرجه النسائي ورواه البغوي بسند الثعلبي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها» ثم تلا: **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** الآية. وقوله تعالى: **﴿بما حفظ الله﴾** يعني بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج وأمرهم بأداء المهر والنفقة إليهن (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء» وقيل في معنى الآية بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب وقيل بما حفظ الله من حقوقهن على أزواجهن حيث أمرهم بعدل فيهن وإمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان **﴿واللاتي تخافون﴾** أي تعلمون وقيل تظنون **﴿نشوزهن﴾** أي شرورهن وأصل النشوز الارتفاع ونشوز المرأة هو بغضها لزوجها ورفع نفسها عن طاعته والتكبر عليه وقيل دلالات النشوز قد تكون بالقول والفعل. فالقول مثل إن كانت تلبيه إذا دعاها وتخضع له خاطبها والفعل مثل إن كانت تقوم له إذا دخل عليها وتسرع إلى أمره إذا أمرها فإذا خالفت هذه الأحوال بأن رفعت صوتها عليه أو لم تجبه إذا دعاها ولم تبادر إلى أمره إذا أمرها دل ذلك على نشوزها على زوجها **﴿فعظوهن﴾** يعني إذا ظهر منهن أمارات النشوز فعظوهن بالتخويف بالقول وهو أن يقول لها اتقي الله وخافيه فإن لي عليك حقاً وارجعي عما أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك فإن أصرت على ذلك هجرها في المضجع وهو قوله تعالى: **﴿واهجروهن في المضاجع﴾** يعني إن لم ينزعن عن ذلك بالقول فاهجروهن في المضاجع. قال ابن عباس: هو أن يوليها ظهره في الفراش ولا يكلمها وقيل هو أن يعتزل عنها إلى فراش آخر **﴿واضربوهن﴾** يعني إن لم ينزعن بالهجران فاضربوهن يعني ضرباً غير مبرح ولا شائن

والولاية، وقيل: بالشهادة لقوله تعالى: ﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقيل: **بالجهاد**، وقيل: بالعبادات من الجمعة والجماعة، وقيل: هو أنّ الرجل ينكح أربعاً ولا يحلّ للمرأة إلّا زوج واحد، وقيل: بأن **الطلاق بيده**، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدِّيَة، وقيل: بالنبوّة، ﴿ **وبما أنفقوا منْ أموالِهم** ﴾، يعني: إعطاء المهر والنفقة، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرني أنا أبو حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان عن معاذ بن جبل رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها» قوله تعالى: ﴿ **فالصالحاتُ قانتاتٌ** ﴾، أي: مطيعات ﴿ **حافظاتٌ للغيب** ﴾، أي: حافظات للفروج في غيبة الأزواج، وقيل: حافظات لسرّهم ﴿ **بما حفظ الله** ﴾، قرأ أبو جعفر ﴿ **بما حفظ الله** ﴾ بالنصب، أي: يحفظن الله في الطاعة، وقراءة العامّة بالرفع، أي: بما حفظهنّ الله بإيصاء الأزواج بحقهنّ وأمرهم بأداء المهر والنفقة.

قيل هو أن يضربها بالسواك ونحوه. وقال الشافعي: الضرب مباح وتركه أفضل عن عمرو بن الأحوص أنه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ فذكر في الحديث قصة فقال: «ألا فاستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن تأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً» أخرجه الترمذي بزيادة فيه قوله عوان جمع عانية أي أسيرة شبه المرأة ودخولها تحت حكم زوجها بالأسير والضرب المبرح الشديد الشاق. وقوله: ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً**﴾ أي لا تطلبوا عليهن طريقة تحتجون بها عليهن إذا قمن بواجب حقكم عن حكيم بن معاوية عن أبيه. قال: قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه قال: «أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسبت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت» أخرجه أبو داود قوله ولا تقبح أي لا تقل قبحك الله (ق) عن عبدالله بن زمعة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم لعله يجامعها أو قال يضاجعها من آخر اليوم» عن إياس بن عبدالله بن أبي ذئاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا النساء» فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: «زبرت النساء على أزواجهن» فرخص في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثيرون يشكون أزواجهن فقال رسول الله ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم» أخرجه أبو داود. إياس بن عبدالله هذا قد اختلف في صحبته وقال البخاري لا يعرف له صحبة قوله زبرت يقال زبرت المرأة على زوجها نشزت واجترأت عليه وأطاف بالشيء أحاط به. ففي هذه الأحاديث دليل على أن الأولى ترك الضرب للنساء فإن احتاج إلى ضربها لتأديب فلا يضربها ضرباً شديداً وليكن ذلك مفرقاً ولا يوالي بالضرب على موضع واحد من بدنها وليتق الوجه لأنه يجمع المحاسن ولا يبلغ بالضرب عشرة أسواط وقيل ينبغي أن يكون الضرب بالمنديل واليد ولا يضرب بالسوط والعصا وبالجملة فالتخفيف بأبلغ شيء أولى في هذا الباب واختلف العلماء فقال بعضهم حكم الآية مشروع على الترتيب فإن ظاهر اللفظ وإن دل على الجمع إلا أن مجرى الآية يدل على الترتيب قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: يعظها بلسانه فإن انتهت فلا سبيل له عليها، فإن أبت هجر مضجعها فإن أبت ضربها فإن لم تتعظ بالضرب بعث الحكم. وقال الآخرون هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز أما عند تحقق النشوز فلا بأس بالجمع بين الكل وقيل له أن يعظها عند خوف النشوز وهل له أن يهجرها فيه احتمال ذلك وله عند ظهور النشوز أن يعظها وأن يهجرها أو يضربها عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يُسأل الرجل فيم ضرب امرأته» أخرجه أبو داود (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح» وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيدهَ ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلاّ كان الذي في السماء

وقيل: حافظات للغيب بحفظ الله، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبدالله بن فنجويه أخبرنا عمر بن الخطاب أنا محمد بن إسحق المسوحي أنا الحارث بن عبد الله أنا أبو معشر عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ النساءِ امرأةٌ إنْ نظرتَ إليها سرّتْكَ وإنْ أمرتَها أطاعتْكَ وإذا غِبْت عنها حفظتْكَ في مالها ونفسِها»، ثم تلا: ﴿ **الرِّجال قوّامونَ على النساء** ﴾ الآية. ﴿ **واللاتي تخافُون نُشوزَهنّ** ﴾، عصيانهنّ، وأصل النشوز: التكبّر والارتفاع، ومنه النشز للموضع المرتفع، ﴿ **فعِظُوهُنّ** ﴾، بالتخويف من الله والوعظ بالقول، ﴿ **واهْجُرُوهُنّ** ﴾، يعني: إن لم ينزِعْنَ عن ذلك بالقول فاهْجُروهنّ ﴿ **في المَضاجِعِ** ﴾، قال ابن عباس: يوليهـا ظهره في الفراش ولا يكلّمها، وقال غيره: يعتزل عنها إلى فراش آخر، ﴿ **واضْرِبُوهُـنّ** ﴾ يعني: إنْ لم ينزِعْنَ من الهجرانِ فاضربُوهنّ ضرباً غير مُبَرّح ولا شائن، وقال عطاء: ضرباً بالسِواك وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «حقُّ المرأةِ أن تُطعمَها إذا طَعِمتَ وتكسوَها إذا اكتسيتَ ولا تضربِ الوجهَ ولا تُقبّحْ ولا تهجرْ إلاّ

ساخطاً عليها حتى يرضى عنها» وفي رواية: «إذا باتت مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح وفي أخرى» حتى ترجع عن طلق بن علي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى حاجته فلتأته وإن كانت على التنور» أخرجه الترمذي وله عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا» وله عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة» وقوله تعالى: ﴿**فإن أطعنكم**﴾ يعني فإن رجعن عن النشوز إلى طاعتكم عند هذا التأديب فلا تبغوا عليهن سبيلاً يعني فلا تطلبوا عليهن الضرب والهجران على سبيل التعنت والإيذاء، وقيل معناه أزيلوا عنهن التعرض بالأذى والتوبيخ ولا تجنوا عليهن الذنوب وقيل معناه لا تكلفوهن محبتكم فإن القلب ليس بأيديهن ﴿**إن الله كان علياً كبيراً**﴾ العلي الكبير في صفة الله تعالى معناه الرفيع الذي يعلو عن وصف الواصفين ومعرفة العارفين العلي بالإطلاق الذي يستحق جميع صفات المدح والتكبير هو المستغني عن غيره وذلك هو الله تعالى الموصوف بالجلال والعظمة والكبرياء وكبر الشأن الذي يصغر كل أحد لكبريائه وعظمته تعالى، والمعنى إن الله متعال من أن يكلف عباده ما لا يطيقونه. وقيل إن النساء وإن ضعفن عن دفع ظلم الرجال عنهن فإن الله علي كبير قادر على أن ينتصف لهن ممن ظلمهن من الرجال وقيل معناه أن الله مع علوه وكبريائه يقبل توبة العاصي إذا تاب ويغفر له فإذا تابت المرأة من نشوزها، فالأولى بكم أن تقبلوا توبتها وتتركوا معاتبتها واعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم فأنتم أحق بالعفو عمن جنى عليكم. قوله تعالى: .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

﴿**وإن خفتم**﴾ يعني وإن علمتم وتيقنتم وقيل معناه الظن أي ظننتم ﴿**شقاق بينهما**﴾ يعني بين الزوجين وأصل الشقاق المخالفة وكون كل واحد من المتخالفين في شق غير شق صاحبه أو يكون أصله من شق العصا وهو أن يقول كل واحد من الزوجين ما يشق على صاحبه سماعه، وذلك أنه إذا ظهر بين الزوجين شقاق ومخالفة واشتبه حالهما ولم يفعل الزوج الصلح ولا الصفح ولا الفرقة وكذلك الزوجة لا تؤدي الحق ولا الفدية وخرجا إلى ما لا

في البيت». ﴿ **فإنْ أطعنكم فلا تَبْغُوا عليهِنّ سبيلاً** ﴾، أي: لا تجنُوا عليهنّ الذنوبَ، وقال ابن عُيينة: لا تكلّفوهنّ محبّتكم فإنّ القلبَ ليس بأيديهنّ. ﴿ **إنّ اللّهَ كانَ عليّاً كبيراً** ﴾، متعالياً من أن يُكلِّفَ العبادَ ما لا يُطيقونه، وظاهر الآية يدلّ على أنّ الزوجَ يجمع عليها بين الوعظ والهجران والضرب، فذهب بعضهم إلى ظاهرها وقال: إذا ظهر النشوز جمع بين هذه الأفعال، وحمل الخوف في قوله: ﴿ **واللاّتي تخافونَ نُشوزهنّ** ﴾، على العلم كقوله تعالى: ﴿ **فمنْ خافَ من مُوصٍ جنفاً** ﴾ [البقرة: ١٨٢] أي: علم، ومنهم منْ حملَ الخوفَ على الخشية لا على حقيقة العلم، كقوله تعالى: ﴿ **وإمّا تَخافنّ من قومٍ خيانةً** ﴾ [الانفال: ٥٨]، وقال: هذه الأفعال على ترتيب الجرائم، فإن خافَ نُشوزَها بأن ظهرتْ أمارتُه منها مِنَ المُخاشنةِ وسُوءِ الخُلق وَعَظَها، فإن أبدتِ النشوزَ هجرَها، فإن أصرّتْ على ذلك ضَرَبها.

قوله تعالى: ﴿ **وإنْ خِفتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا** ﴾، يعني: خلافاً بين الزوجين، والخوفُ بمعنى اليقين، وقيل: هو بمعنى الظنّ يعني: إن ظننتم شقاقَ بينهما، وجملتُه أنه إذا ظهر بين الزوجين شقاقٌ واشتبه حالهما فلم يفعل الزوج الصفح ولا الفرقة ولا المرأة تأدية الحق ولا الفدية وخرجا إلى مَا لاَ يحلّ قولاً وفعلاً بعث الإمام حكماً من أهله إليه

يحل قولاً وفعلاً. قوله تعالى: ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ اختلفوا في المخاطبين بهذا ومن المأمور ببعثة الحكمين، فقيل المخاطب بذلك هو الإمام أو نائبه لأن تنفيذ الأحكام الشرعية إليه وقيل المخاطب بذلك كل أحد من صالحي الأمة لأن قوله تعالى فابعثوا خطاب الجمع وليس حمله على البعض أولى من حمله على البعض أولى من حمله على البقية فوجب حمله على الكل فعلى هذا يجب أن يكون أمراً لآحاد الأمة سواء وجد الإمام أو لم يوجد. فللصالحين أن يبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، وأيضاً فهذا يجري مجرى دفع الضرر فلكل واحد أن يقول به وقيل وهو خطاب للزوجين فإذا حصل بينهما شقاق بعثا حكمين حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴿إن يريدا إصلاحاً﴾ يعني الحكمين وقيل الزوجين ﴿يوفق الله بينهما﴾ يعني بالصلاح والألفة روى الشافعي بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه جاءه رجل وامرأة ومع كل واحد منهما فئام من الناس فقال: علام شأن هذين؟ قالوا: وقع بينهما شقاق قال علي فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ثم قال للحكمين تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما فقالت المرأة رضيت بكتاب الله بما علي فيه ولي وقال الرجل أما الفرقة فلا قال علي كذبت والله حتى تقر بمثل ما أقرت به. قال الشافعي: والمستحب أن يبعث الحاكم عدلين ويجعلهما حكمين والأولى أن يكون واحد من أهله وواحد من أهلها لأن أقاربهما أعرف بحالهما من الأجانب وأشد طلباً للإصلاح فإن كانا أجنبيين جاز وفائدة الحكمين أن كل واحد منهما يخلو بصاحبه ويستكشف حقيقة الحال ليعرف أن رغبته في الإقامة على النكاح أو في المفارقة ثم يجتمعان فيفعلان ما هو الصواب من اتفاق أو طلاق أو خلع والحكمان وكيلان للزوجين وهل يجوز تنفيذ أمر يلزم الزوجين دون رضاهما وإذنهما في ذلك مثل أن يطلق حكم الرجل أو يفتدي حكم المرأة بشيء من مالها، فللشافعي في ذلك قولان: أحدهما أنه لا يجوز إلا برضاهما وليس الحكم الزوج أن يطلق إلا بإذنه ولا لحكم المرأة أن يختلع بشيء من مالها إلا بإذنها وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد لأن علياً توقف حين لم يرضَ الزوج وذلك حين قال أما الفرقة فلا فقال له علي كذبت حتى تقر بمثل ما أقرت به فثبت أن تنفيذ الأمر موقوف على إقراره ورضاها ومعنى قول علي للزوج كذبت أي لست بمنصف في دعواك حيث لم تقر بمثل ما أقرت به من الرضا بحكم كتاب الله لها وعليها والقول الثاني إنه يجوز بعث الحكمين دون رضاهما ويجوز لحكم الزوج أن يطلق دون رضاه ولحكم

وحكماً من أهلها إليها رجلين حرّين عدلين ليستطلع كلُّ واحد من الحكمين رأي مَن بُعث إليه إن كانت رغبتُه في الصلح أو في الفُرقة ثم يجتمع الحكمان فينفذان ما يجتمع عليه رأيهما من الصلاح، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ فابْعَثُوا حكماً من أهله وحكماً من أهلهـا إنْ يُريـدا إصلاحـاً ﴾، يعني: الحكمين، ﴿ يُوفِّقِ اللَّهُ بينهمـا ﴾، يعني: بين الزوجين، وقيل: بين الحكمين، ﴿ إنّ اللَّهَ كان عليماً خبيراً ﴾. أخبرنا عبد الوهاب محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا الثقفي عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة أنه قال في هذه الآية ﴿ وإنْ خِفْتُم شِقَاقَ بَيْنِهما فابعثُوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾، قال: جاء رجل وامرأة إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ومع كل واحد منهما قومٌ من الناس، فأمرهم عليّ رضي الله عنه فبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ثم قال للحكمين: تدريَان ما عليكما؟ إنْ رأيتما أن تجمعا جمعتُما وإن رأيتم أن تُفرِّقَا فرّقتُما، قالتِ المرأة رضيتُ بكتاب الله بما عليّ فيه ولي، فقال الرجل: أمّا الفُرقة فَلَا، فقال عليٌّ رضي الله عنه: كذبتَ والله حتى تُقرَّ بمثل الذي أقرّتْ به. واختلف القول في جواز بعث الحكمين من غير رضا الزوجين، وأصحّ القولين أنه لا يجوز إلّا برضاهما، وليس لِحَكَمِ الزوج أن يُطلّق إلّا بإذنه، ولا لِحَكَمِ المرأة أن يخلع على ما لها إلّا بإذنها، وهو قول أصحاب الرأي لأنّ عليّاً رضي الله عنه، حين قال الرجل: أمّا الفُرقة فَلَا، قال: كذبتَ حتى

الزوجة أن يختلع دون رضاها إذا رأيا الصلاح في ذلك كالحاكم يحكم بين الخصمين وإن لم يكن على وفق مرادهما وبه قال مالك: ومن قال بهذا القول قال ليس المراد من قول علي للزوج حتى تقر أن رضاه شرط بل معناه أن المرأة لما رضيت بما في كتاب الله تعالى. فقال الرجل أما الفرقة فلا يعني ليست الفرقة في كتاب الله فقال له علي: كذبت حتى أنكرت أن تكون الفرقة في كتاب الله، بل هي في كتاب الله فإن قوله تعالى يوفق الله بينهما يشتمل على الفراق وعلى غيره لأن التوفيق أن يخرج كل واحد منهما من الإثم والوزر ويكون تارة ذلك بالفراق وتارة بصلاح حاليهما في الوصلة. وقوله تعالى: ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ يعني أن الله تعالى يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المتفرقين وفيه وعيد شديد للزوجين والحكمين إن سلكوا غير طريق الحق. قوله عز وجل: .

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿واعبدوا الله﴾ يعني وحدوه وأطيعوه وعبادة الله تعالى عبارة عن كل فعل يأتي به العبد لمجرد الله تعالى ويدخل فيه جميع أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿ولا تشركوا به شيئاً﴾ يعني وأخلصوا له في العبادة ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكاً لأن من عبد مع الله غيره أو أراد بعمله غير الله فقد أشرك به ولا يكون مخلصاً (ق) عن معاذ بن جبل قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار يقال له عفير أو اسمه يعفور فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً فقلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا» قوله هل تدري ما حق الله على عباده معناه ما يستحقه مما أوجبه وجعله متحتماً عليهم ثم فسر

تُقرّ بمثل الذي أقرّتْ به. فثبت أن تنفيذ الأمر موقوف على إقراره ورضاها. والقول الثاني: يجوز بعث الحكمين دون رضاهما، فيجوز لِحَكَمِ الزوج أن يُطلّق دُون رضاه ولِحَكَمِ المرأة أن يختلع دون رضاها، إذا رأيا الصلاح، كالحاكم يحكم بين الخصمين وإن لم يكن على وِفْق مُرادِهما، وبه قال مالك، ومَن قال بهذا قال: ليس المراد من قول عليّ رضي الله عنه للرجل حتى تُقرّ، أنّ رضاه شرط بل معناه أن المرأة لمّا رضيتْ بما في كتاب الله فقال الرجل: أمّا الفُرقة فلا، يعني: الفرقة ليست في كتاب الله، فقال عليّ: كذبتَ، حيث أنكرتَ أنّ الفرقة في كتاب الله، بل هي في كتـــاب الله، فإن قوله تعالى: ﴿ يُوفِّقِ اللَّهُ بينهما ﴾ يشتمل على الفُراق وغيره لأن التوفيق أن يخرج كل واحد منهما من الوِزْرِ وذلك تارةً يكون بالفُراق وتارةً بصلاح حالهما في الوصلة.

قوله تعالى: ﴿ واعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي: وحّدوه وأطيعوه، ﴿ ولا تُشْرِكُوا بهِ شَيْئاً ﴾ أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا علي أبو إسماعيل محمد بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون الأزدي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «هل تدري يا معاذ ما حقُّ الله على الناس»؟ قال: قلت: اللَّهُ ورسولُه أعلم، قال: «حقُّه عليهم أن يعبدوه ولا يُشركُوا به شيئاً، أتدري يا معاذ ما حقُّ الناس على الله إذا فعلُوا ذلك»؟ قلتُ: اللَّهُ ورسولُه أعلم، قال: «فإنّ حقَّ الناس على الله أن لا يعذّبهم»، قال: قلتُ: يا رسول الله أفلا

ذلك الحق بقوله أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وقوله وما حق العباد على الله إنما قال حقهم على سبيل المقابلة لحقه عليهم لا لأنهم يستحقون عليه شيئاً ويجوز أن يكون من قول الرجل لصاحبه حقك عليّ واجب أي متأكد قيامي به. وقوله أفلا أبشر الناس إلخ إنما قال لا تبشرهم فيتكلوا. لأنه ﷺ رأى ذلك أصلح لهم وأحرى أن لا يتكلوا على هذه البشارة ويتركوا العمل الذي ترفع لهم به الدرجات في الجنة. وقوله تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحساناً يعني برّاً بهما واعطفا عليهما وإنما قرن بر الوالدين بعبادته وتوحيده لتأكد حقهما على الولد. واعلم أن الإحسان بالوالدين هو أن يقوم بخدمتها ولا يرفع صوته عليهما ويسعى في تحصيل مرادهما والإنفاق عليهما بقدر القدرة (ق) عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك قال ثم من؟ قال ثم أمك؟ قال ثم من؟ قال ثم أمك؟ قال ثم من؟ قال ثم أبوك» وفي رواية قال: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك قوله ثم أباك فيه حذف تقديره ثم بر أباك» (م) عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يا رسول الله؟ قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة». قوله تعالى: ﴿**وبذي القربى**﴾ أي وأحسنوا إلى ذي القرابة وهو ذوو رحمه من قبل أبيه وأمه (ق) عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» قوله ينسأ له في أثره يعني يؤخر له في أجله وعمره. وقوله تعالى: ﴿**واليتامى والمساكين**﴾ أي وأحسنوا إلى اليتامى وإنما أمر بالإحسان إليهم لأن اليتيم مخصوص بنوعين من العجز والصغر وعدم المشفق والمسكين هو الذي ركبه ذل الفاقة والفقر فتمسكن لذلك (خ) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة» هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «قال الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وأحسبه قال وكالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر» وقوله تعالى: ﴿**والجار ذي القربى والجار الجنب**﴾ أي وأحسنوا إلى الجار ذي القربى

أبشّر الناسَ؟ قال: «دعهم يعملون». قوله تعالى: ﴿ **وبالوالدين إحساناً** ﴾، برّاً بهما وعطفاً عليهما، ﴿ **وبذي القُرْبَى** ﴾ أي: أحسنُوا بذي القربى، ﴿ **واليتامَى والمساكينِ** ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن زرارة أنا عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنّةِ هكـذا، وأشار بالسَّبابة والوُسْطَى وفرّج بينهما شيئاً». أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن مبارك عن يحيـىٰ بن أيوب عن عبد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَسَحَ رأسَ يتيم لم يمسحه إلاّ للَّهِ كان له بكل شَعْرَةٍ تَمرُّ عليها يَدُهُ حسنات، ومَن أحسن إلى يتيمة أو يتيمٍ عنده كنت أنا وهو في الجنة كَهاتين وَقَرَنَ أُصبعيه». قوله تعالى: ﴿ **والجارِ ذِي القُربَى** ﴾ أي: ذِي القَرابة، ﴿ **والجارِ الجُنُبِ** ﴾، أي: البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أنا عبد الله بن الجعد أنا شعبة عن أبي عمران الجوني قال: سمعت طلحة قال: قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيّهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً». أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق أنا يزيد بن سنان أخبرنا عثمان بن عمر أخبرنا أبو عامر الخراز عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرنّ منَ المعروفِ شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ، وإذا طَبَخْتَ مرقةً فأكثرْ ماءَها

وهو الذي قرب جواره منك والجار الجنب هو الذي بعد جواره عنك وقيل الجار ذو القربى هو القريب والجار الجنب هو الأجنبي الذي ليس بينك وبينه قرابة: (ق) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» وعن عائشة مثله (خ) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي قال إلى أقربهما باباً منك» (م) عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك» وفي رواية قال أوصاني خليلي ﷺ: «قال إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل البيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف» (ق) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل من يا رسول الله؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه» ولمسلم «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» البوائق الغوائل والشرور (ق) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» معناه ولو أن تهدي إليها فرسن شاة وهو الظلف وأراد به الشيء الحقير (ق) عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». وقوله تعالى: ﴿**والصاحب بالجنب**﴾ قال ابن عباس هو الرفيق في السفر وقيل هي المرأة تكون معك إلى جنبك وقيل هو الذي يصحبك رجاء نفعك. عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وقوله تعالى: ﴿**وابن السبيل**﴾ يعني المسافر المجتاز بك الذي قد انقطع به وقال الأكثرون المراد بابن السبيل الضيف يمر بك فتكرمه وتحسن إليه (ق) عن أبي شريح خويلد بن عمرو العدوي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قالوا وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه» وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» زاد في رواية ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه. قال: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟ قال يقيم عنده ولا شيء عنده يقريه به» قوله جائزته يومه وليلته الجائزة العطية أي يقري الضيف ثلاثة أيام ثم يعطيه ما يجوز به من منهل إلى منهل وقيل هو أن يكرم الضيف فإذا

واغرفْ لجيرانِكَ منها»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن منهال أنا يزيد بن زريع أنا عمرو بن محمد عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زالَ جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سَيُوَرِّثُه». قوله تعالى: ﴿ **والصَّاحِبِ بِالجَنْبِ** ﴾ يعني: الرفيق في السفر، قال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعةٌ وعكرمة وقتادة، وقال عليٌّ وعبد الله والنخعي: هو المرأة تكون معه إلى جنبه، وقال ابن جريج وابن زيد: هو الذي يصحبك رجاء نَفْعِكَ، ﴿ **وابنِ السبيلِ** ﴾، قيل: هو المسافر لأنه مُلازمٌ السبيل، والأكثرون: على أنه الضيف، أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق أنا شُعيب عمرو الدمشقي أخبرنا سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع نافعَ بن جُبير عن أبي شُريح الخزاعي أنّ النبي ﷺ قال: «مَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُحسنْ إلى جاره، ومَن كانَ يُؤمنُ باللَّهِ واليومِ الآخرِ فليُكرمْ ضيفَه، ومَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَقُلْ خيراً أو ليصمتْ»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا مصعب عن مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كانَ يُؤمنُ باللَّهِ واليومِ الآخر فليُكرمْ جاره، ومَنْ كانَ يؤمنُ باللَّهِ واليومِ الآخرِ فليقلْ خيراً أو ليصمتْ، ومَن كَانَ يؤمنُ باللَّهِ واليومِ الآخر فليُكرمْ ضيفَهُ، جائزتُه يومٌ وليلة، والضيافة ثلاثةُ أيام، وما كان بعد ذلك فهو

سافر أعطاه ما يكفيه يوماً وليلة حتى يصل إلى موضع آخر وقوله أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه أي يوقعه في الإثم لأنه إذا أقام عنده ولم يقرِه أثم بذلك. وقوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ يعني المماليك فأحسنوا إليهم والإحسان إليهم أن لا يكلفهم ما لا يطيقون ولا يؤذيهم بالكلام الخشن وأن يعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة سيىء الملكة» أخرجه الترمذي عن رافع بن مكيث أن النبي ﷺ قال: «حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم» أخرجه أبو داود وله عن علي بن أبي طالب قال كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» (ق) عن المعرور بن سويد قال رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فذكر أنه سابّ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فعيره بأمه فأتى الرجل النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال له النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية قلت على ساعتي هذه من كبر السن قال نعم هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه». وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ المختال المتكبر العظيم في نفسه الذي لا يقوم بحقوق الناس (فخوراً) الفخور هو الذي يفتخر على الناس ويعدد مناقبه تكبراً وتطاولاً على من دونه، وقيل هو الذي يفتخر على عباد الله بما أعطاه الله من نعمه ولا يشكره عليها وإنما ختم الله هذه الآية بهذين الوصفين المذمومين لأن المختال الفخور يأنف من أقاربه الفقراء ومن جيرانه الضعفاء فلا يحسن إليهم ولا يلوي بنظره عليهم ولأن المختال هو المتكبر ومن كان متكبراً فلا يقوم بحقوق الناس (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله تعالى يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه

صدقة، ولا يحلُّ أن يثوي ـ أي: أن يقيم ـ عنده حتى يُحْرِجَه». قوله تعالى: ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾. أي: المماليك أحسنوا إليهم، أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو العباس الطحان أنا أبو أحمد محمد بن قريش أنا علي بن عبد العزيز المكّي أنا أبو عبيدة القاسم بن سلام أنا يزيد عن همّام عن قتادة عن صالح أبي الخليل عن سُفينة عن أُم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه كان يقول في مرض موته: «الصلاةَ ومَا مَلَكَتْ أيمانُكم»، فجعل يتكلم وما يفيض بها لسانه. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص أنا أبي أنا الأعمش عن المعرور عن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأيت أبا ذرٍّ وعليه بُرْدٌ وعلى غلامه بُرْدٌ، فقلتُ: لو أخذت هذا فلبسته كانا حُلّةً وأعطيته ثوباً آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنِلْتُ منها فذكرني إلى النبي ﷺ، فقال لي ساببتَ فلاناً؟ قلتُ: نعم، قال: أفنلت أمه؟ قلت: نعم، قال: إنّك امرؤٌ فيكَ جاهلية، قلتُ على ساعتي: هذه من كبر السن، قال: نعم هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمَن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمْهُ ممّا يأكل وليلبِسْهُ مما يلبس ولا يُكلّفْهُ من العمل ما يغلبه، فإن كلّفه ما يُغلبه فليُعِنْهُ عليه). أخبرنا الإمام أبو علي الحسن بن محمد القاضي أنا أبو طاهر الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد بن عمرو بن حفص التاجر أنا سهل بن عمّار أنا يزيد بن هارون أخبرنا صدقة بن موسى عن فرقد السنجي عن مرّة الطيب عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنّة سَيىءُ المَلَكَةِ».
﴿ إنّ اللّهَ لا يُحبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً ﴾، المختال: المتكبّر، والفَخُور: الذي يفخر على الناس بغير الحق تكبّراً، ذكر هذا بَعدَمَا ذكر من الحقوق، لأن المتكبّر يمنع الحق تكبّراً، أخبرنا حسّان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسن القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبّه أنا أبو

مرجل جمته يختال في مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة» (خ) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة (ق)» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم الفدادون هم الفلاحون والحراثون وأصحاب الإبل والبقر المستكبرون منهما المتكبرون على الناس بهما» قوله عز وجل: .

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ نزلت في اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ فكتموها وعلى هذا يكون المراد بالبخل كتمان العلم وقال ابن عباس نزلت في كردم بن زيد ويحيى بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع ويحيى بن عمر وكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويخاطبونهم يقولون لهم لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقيل يحتمل أن يكون المراد بالبخل كتمان العلم ومنع المال لأن البخل في كلام العرب منع السائل من فضل ما لديه وإمساك المقتنيات وفي الشرع البخل عبارة عن إمساك الواجب ومنعه، وإذا كان ذلك أمكن حمله على منع المال ومنع العلم ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ يعني اليهود كتموا صفة محمد ﷺ وما عندهم من العلم وقيل هم الأغنياء الذين كتموا الغنى وأظهروا الفقر وبخلوا بالمال ﴿وأعتدنا للكافرين﴾ يعني الجاحدين نعمة الله عليهم ﴿عذاباً مهيناً﴾ يعني في الآخرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله عز وجل: .

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بُردَين وقد أعجبتُه نفسُه خَسَفَ اللَّهُ به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مُصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جرَّ ثوبَه خُيلاءَ لا ينظرُ اللَّهُ إليه يومَ القيامة».

﴿ الذينَ يبخلُون ﴾، البخل في كلام العرب: منع السائل من فضل ما لديه، وفي الشرع: منع الواجب، ﴿ ويأمُرونَ الناسَ بالبخلِ ﴾، قرأ حمزة والكسائي ﴿ بالبخل ﴾ بفتح الباء والخاء، وكذلك في سورة الحديد، وقرأ الآخرون بضم الباء وسكون الخاء، نزلتْ في اليهود بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ وكتموها، وقال سعيد بن جبير: هذا في كتمان العلم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن زيد: نزلت في كردم بن زيد وحيي بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأُسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحر بن عمرو كانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويخالطونهم فيقولون لا تنفقوا أموالكم فإنّا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ ويكتمُون ما آتاهم اللَّهُ منْ فضْلِهِ ﴾، يعني: المال، وقيل: يبخلون بالصدقة ﴿ وأعْتَدْنا للكافرينَ عذاباً مُهيناً ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾

﴿**والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس**﴾ يعني للفخار والسمعة وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا يريدون بما أنفقوا وجه الله تعالى (م) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» نزلت هذه الآية في اليهود وقيل في المنافقين لأن الرياء ضرب من النفاق، وقيل نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿**ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**﴾ يعني ولا يصدقون بتوحيد الله ولا بالمعاد الذي فيه جزاء الأعمال أنه كائن ﴿**ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً**﴾ يعني من يكن الشيطان صاحبه وخليله فبئس الصاحب وبئس الخليل الشيطان، وإنما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان تقريعاً لهم على طاعة الشيطان. والمعنى من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله وقيل هذا في الآخرة يجعل الله الشياطين قرناءهم في النار يقرن مع كل كافر شيطان في سلسلة من النار ثم وبخهم الله تعالى وعيرهم على ترك الإيمان فقال تعالى: ﴿**وماذا عليهم**﴾ يعني وأي شيء عليهم وأي وبال وتبعة تلحقهم ﴿**لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله**﴾ أي أي وبال عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿**وكان الله بهم عليماً**﴾ يعني لا يخفى عليه شيء من أعمال هؤلاء الذين ينفقون أموالهم لأجل الرياء والسمعة ففيه وعيد وتهديد لهم. قوله عز وجل: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة**﴾ نظم الكلام وماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا فإن الله لا يظلم ولا يبخس ولا ينقص أحداً من ثواب عمله مثقال ذرة يعني وزن ذرة. وقال ابن عباس: الذرة رأس نملة حمراء وقيل الذرة كل جزء من أجزاء الهباء الذي يكون في الكوة إذا كان فيها ضوء الشمس لا وزن لها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء والمعنى أن الله تعالى لا يظلم أحداً شيئاً من قليل ولا كثير فخرج الكلام على أصغر شيء يعرفه الناس ﴿**وإن تك حسنة يضاعفها**﴾ يعني الحسنة بعشر أمثالها وقيل هذا عند الحساب فمن بقي له من الحسنات مثقال ذرة ضاعفها الله له إلى سبعمائة وإلى أجر عظيم. قال قتادة: لأن

﴿ **والذينَ يُنفِقُونَ أموالَهم رئاءَ الناسِ ولا يُؤمنونَ باللَّهِ ولا باليومِ الآخرِ** ﴾، محل ﴿ **الذين** ﴾ نصب على عطف على الذين الأول، وقيل: خفض عطف على قوله: و﴿ **أعتدنا للكافرين** ﴾ نزلتْ في اليهود، وقال السدي: في المنافقين، وقيل: مشركي مكة المنفقين على عَدَاوَةِ الرسول ﷺ. ﴿ **وَمَنْ يكنِ الشيطانُ له قريناً** ﴾، صاحباً وخليلاً ﴿ **فساءَ قريناً** ﴾، أي: فبئس الشيطان قريناً وهو نصب على التفسير، وقيل: على القطع بإلغاء الألف واللام كما تقول: نعم رجلا عبد الله، وكما قال تعالى: ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿ وساءَ مثلاً ﴾ [الأعراف: ١٧٧].

﴿ **وماذا عليهم** ﴾، أي: ما الذي عليهم وأيّ شيء عليهم؟ ﴿ **لو آمنو باللَّهِ واليومِ الآخر وأنفقوا ممّا رزقهمُ اللَّهُ وكانَ اللَّهُ بهم عليماً** ﴾.

﴿ **إنّ اللَّهَ لا يظلمُ مِثقالَ ذَرّةٍ** ﴾، ونظمه: وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا فإن الله لا يظلمَ أي: لا يبخس ولا ينقص أحداً من ثوابِ عملِهِ مِثقالَ ذرّة، والذرّة: هي النملة الحمراء الصغيرة، وقيل: الذرّ أجزاء الهباء في الكونِ وكل جزء منها ذرّة ولا يكون لها وزن، وهذا مثل يريد أن الله لا يظلم شيئاً كما قاله في آية أُخرى إن الله لا يظلم الناس شيئاً. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني أنا أبو بكر محمد بن عبد الله الحفيد أنا الحسين بن الفضيل البجلي أنا عفّان أنا همّام أنا قتادة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ اللَّهَ لا يظلمُ مُؤمناً حسنةً يُعطَى بها في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرة»، قال: «وأمّا الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا

تفضل حسناتي على سيئاتي بمثقال ذرة أحب إليّ من الدنيا وما فيها (م) عن أنس بن مالك في قوله تعالى: إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة: «وأما الكافر فيعطى بحسنات قد عمل بها في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها» عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر؟ فيقول لا يا رب فيقول تعالى: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال فإنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء» أخرجه الترمذي (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلّم سلّم قيل يا رسول الله وما الجسر قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوش في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار» وفي رواية فما أنتم بأشد مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلّون ويحجّون. فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في

حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُعطَى بها خيراً». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو الطيب الربيع بن محمد بن أحمد بن حاتم البزار الطوسي أنا أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن يحيىٰ حدّثهم، أخبرنا عبد الرزّاق ح وأخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدّي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافيري أخبرنا إسحق بن إبراهيم الدبري أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن يزيد بن أسلم عن عطاءِ بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خَلَصَ المؤمنون مِنَ النار وأمِنُوا فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربِّهم في إخوانهم الذين أُدخلوا النار، قال: يقولون ربَّنا إخواننا كانوا يُصلّون معنا ويَصُومون معنا ويحجُّون معنا فأدخلتَهُمُ النارَ، قال: فيقول اللّهُ لهم: اذهبُوا فأخرجُوا مَنْ عَرَفْتُم منهم فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم لا تأكل النارُ صورَهم فمنهم مَن أخذتْهُ النارُ إلى أنصافِ ساقيه ومنهم مَن أخذتْه إلى كعبيهِ فيُخرجونهم، فيقولون: ربّنا قد أخرجنا مَن أمرتنا، قال: ثم يقول: ثم أخرجوا مَن كان في قلبه وَزْنُ دينار من الإيمان، ثم مَنْ كان في قلبه وزنُ نصفِ دينار، حتى يقول: مَن كان في قلبه مثقالَ ذرّةٍ مِنْ خير»، قال أبو سعيد رضي الله عنه: مَن لم يُصدّق هذا فليقرأْ هذه الآية: ﴿ إنّ اللّهَ لا يظلمُ مِثْقَالَ ذَرّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤتِ مِنْ لدُنْهُ أجراً عظيماً ﴾، قال: فيقولون ربَّنا أخْرجْنَا مَنْ أمرتنا فلمْ يبقَ في النار أحدٌ فيه خير، ثم يقول الله عزّ وجلّ: شُفعتِ الملائكةُ، وشُفعَ النبيّون، وشُفع المؤمنون، وبقي أرحمُ الراحمين، قال: فيقبض قبضةً من النار، أو قال: قبضتين من النار فيُخرج منها قوماً لم يعملوا لله خيراً قطُّ قدِ احْترقُوا حتى صاروا حُمماً فيُؤتَى بهم إلى ماءِ الحياة فيُصبّ عليهم فينبتُون كما تنبتُ الحبَّةُ في حَميلِ السيل، قال: فتخرج

قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً فيقول الله تبارك وتعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه. ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً لفظ مسلم وهو بعض حديث. وقال بعضهم هذه الآية واردة في الخصوم ويدل عليه ما روي عن عبدالله بن مسعود قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد من عند الله إلا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه منه وإن كان صغيراً ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ ويؤتى بالعبد وينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين هذا فلان ابن فلان من كان له عليه حق فليأت إلى حقه ثم يقال له آت هؤلاء حقوقهم فيقول أي رب من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته انظروا في أعماله الصالحات فأعطوهم منها فإن بقي مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة يا ربنا وهو أعلم بذلك أعطينا كل ذي حق حقه وبقي له مثقال ذرة من حسنة فيقول للملائكة ضعفوها لعبدي وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة

أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم مكتوب فيه: هؤلاء عُتقاءُ الله فيُقال لهم: ادْخُلوا الجنَّةَ فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم، قال: فيقولون: ربَّنا أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من العالمين، قال: فيقول: فإن عندي لكم أفضل منه، فيقولون: ربَّنا وما أفضل من ذلك؟ فيقول: «رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن الحرث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله بن الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن ليث بن سعد حدّثني عامر بن يحيىٰ عن أبي عبد الرحمن المعافري ثم الجيلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ يستخلص رجلاً من أُمتي على رُؤوس الخلائق يوم القيامة فينشرُ عليه تسعةً وتسعين سجلاً كل سجل مثل مدِّ البصر، ثم يقول الله: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظَلَمَكَ كتبتي الحافظُون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أَفَلَكَ عذرٌ أو حسنةٌ؟ فبُهتَ الرجل، قال: لا يا ربِّ، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج له بِطاقةٌ فيها أشهد أن لا إلَه إلاّ الله وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه، فيقول: أحضرْ وَزْنَكَ، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقول: إنّك لا تظلم، قال: فتُوضع السجلاتُ في كفةٍ والبطاقةُ في كفّةٍ فطاشَتِ السجلاتُ وثَقُلتِ البطاقةُ، قال: فلا يثقل مع اسم الله شيء». وقال قومٌ: هذا في الخصوم. ورُوِيَ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين ثم نادى مُنادٍ ألا مَن كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه، فيفرح المرء أن يكون له الحقّ على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه، فليأخذ منه وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ فإذا نُفخ في الصور فلا أنسابَ بينهمْ يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾

ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ أي الجنة وإن كان عبداً شقياً قالت الملائكة إلهنا فنيت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول الله تبارك وتعالى: «**خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ثم اكتبوا له كتاباً إلى النار**» أخرجه البغوي بغير سند عن ابن مسعود موقوفاً عليه. وأسنده ابن جرير الطبري عن ابن مسعود فمعنى الآية على هذا التأويل إن الله لا يظلم مثقال ذرة للخصم على خصمه بل يأخذها له منه ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له بل يثيبه عليها ويضاعفها له فذلك قوله تعالى: ﴿**وإن تك حسنة يضاعفها**﴾ أي يجعلها أضعافاً كثيرة ﴿**ويؤت من لدنه**﴾ يعني من عنده ﴿**أجراً عظيماً**﴾ يعني الجنة والمعنى ويعطى من عنده أجراً عظيماً يعني عوضاً من حسنة وذلك العوض هو الجنة وقال أبو هريرة: إذا قال الله عزّ وجلّ أجراً عظيماً فمن يقدر قدره قوله تعالى: .

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد**﴾ يعني فكيف يكون حال هؤلاء المشركين والمنافقين يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة بشهيد. قال ابن عباس: يريد بنبيها والمعنى أنه يؤتى بنبي كل أمة يشهد عليها ولها ﴿**وجئنا بك**﴾ يا محمد ﴿**على هؤلاء شهيداً**﴾ يعني تشهد على هؤلاء الذين سمعوا القرآن وخوطبوا به بما عملوا (ق) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ على القرآن» فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال إني أحب أن أسمعه من غيري قال فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على

[المؤمنون: ١٠١]، ويُؤتَى بالعبدِ فينادي مُنادٍ على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان ابن فلان فمَن كان له عليه حق فليأتِ إلى حقِّه فيأخذه، ويُقال آتِ هؤلاء حقُوقَهم، فيقول: يا ربِّ من أين وقد ذهبت الدنيا، فيقول الله عزّ وجلّ لملائكته انظروا في أعماله الصالحة فأعطوهم منها فإنْ بقي مثقال ذرّة من حسنة قالت الملائكة: يا ربَّنا بقي له مثقال ذرّة من حسنة، فيقول: ضعِّفوها لعبدي وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة. ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ **إن الله لا يظلمُ مثقالَ ذرّة، وإنْ تَكُ حَسَنَةً يضاعفْها** ﴾، وإن كان عبداً شقياً قالتِ الملائكة: إلٰهنا فنيت حسناتُه وبقي طالبون، فيقولُ الله عزّ وجلّ: خُذوا من سيئاتِهم فأضيفُوها إلى سيآته، ثم صُكُّوا له صكّاً إلى النار. فمعنى الآية على هذا التأويل: أن الله لا يظلم مثقال ذرّة للخصم على الخصم بل أخذ له منه ولا يظلم مثقال ذرّة تبقى له بل يثيبه عليها ويُضَعِّفها له، فذاك قوله تعالى: ﴿ **وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها** ﴾، قرأ أهل الحجاز ﴿ **حسنة** ﴾ بالرفع، أي: وإنْ تُوجد حسنةٌ، وقرأ الآخرون بالنصب على معنى: وإنْ تَكُ زِنَةُ الذرّةِ حَسَنةً يُضاعِفْها، أي: يجعلها أضعافاً كثيرة. ﴿ **ويُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْراً عظيماً** ﴾، قال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا قال الله تعالى أجراً عظيماً فمَن يقدر قدره؟.

قوله تعالى: ﴿ **فكيفَ إذا جِئْنَا مِنْ كلِّ أُمةٍ بشهيدٍ** ﴾، أي: فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمّة بشهيد، يعني: بنبيِّها يشهد عليهم بما عملوا، ﴿ **وجِئْنَا بِكَ** ﴾، يا محمد، ﴿ **على هؤلاء شهيداً** ﴾ شاهداً يشهد على جميع الأمة على مَن رآه ومَن لم يره. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن يوسف أنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إقرأْ عليّ»، قلتُ: يا رسول الله أأقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزل؟ قال: نعم، فقرأتُ سورةَ النساء حتى إذا أتيتُ هذه الآية ﴿ **فكيفَ إذا جئنا مِنْ كلِّ أُمّةٍ بِشهيدٍ وجِئْنَا بِكَ على هؤلاءِ**

هؤلاء شهيداً قال حسبك الآن قال فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان زاد مسلم شهيداً مادمت فيهم أو قال ما كنت فيهم شك أحد رواته. وقوله تعالى: ﴿**يومئذ**﴾ يعني يوم القيامة ﴿**يود**﴾ أي يتمنى ﴿**الذين كفروا**﴾ يعني جحدوا وحدانية الله تعالى ﴿**وعصوا الرسول**﴾ يعني فيما أمرهم به من توحيد الله عز وجل ﴿**لو تسوى بهم الأرض**﴾ يعني لو صاروا فيها وسويت عليهم وقيل إنهم ودوا أن لن يبعثوا لأنهم إنما كانوا في الأرض وهي مستوية عليهم. وقال الكلبي: يقول الله تعالى للبهائم والوحوش والطيور والسباع كوني تراباً فتسوى بهن الأرض فعند ذلك يتمنى الكافر أن لو يكون تراباً ﴿**ولا يكتمون الله حديثاً**﴾ قال ابن عباس: في رواية عطاء ودوا لو تسوى بهم الأرض وأنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد ﷺ ولا كفروا به ولا نافقوه فعلى هذا القول يكون الكتمان ما كتموا في الدنيا من صفة محمد ﷺ ونعته وهو كلام متصل بما قبله وقيل هو كلام مستأنف قال سعيد بن جبير سأل رجل ابن عباس فقال إني أجد في

شهيداً ﴾ قال: «حَسْبُكَ الآن» فالتفتُ إليه فإذا عيناه تذرفان.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾**، يوم القيامة، **﴿ يَوَدُّ الذينَ كفرُوا وعَصَوُا الرّسولَ لَو تُسَوّى بهمُ الأرضُ ﴾**، قرأ أهل المدينة وابن عامر **﴿ تسوى ﴾** بفتح التاء وتشديد السين على معنى تتسوّى، فأُدغمت التاء الثانية في السين، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين على حذف تاء التفعّل كقوله تعالى: ﴿ لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلّا بإذنه ﴾ [هود: ١٠٥]، وقرأ الآخرون بضم التاء وتخفيف السين على المجهول، أي: لو سُوّيتْ بهمُ الأرضُ وصاروا هم والأرض شيئاً واحداً. قال قتادة وأبو عبيدة: يعني لو تخرقت الأرض فساخوا فيها وعادوا إليها كما خرجوا عنها ثم تسوّى بهم، أي: عليهم الأرض، وقيل: وَدُّوا لو أنهم لم يُبعثوا لأنهم إنما نُقلوا من التراب، وكانت الأرض مستويةً عليهم، وقال الكلبي: يقول الله عزّ وجلّ للبهائم والوحوش والطيور والسِّباع: كُونُوا تُراباً فتسوّى بهم الأرض، فعند ذلك يتمنّى الكافر أن لو كان تراباً كما قال الله تعالى: ﴿ ويقولُ الكافرُ يا ليتني كنتُ تُراباً ﴾ [النبأ: ٤٠]. **﴿ ولا يكتُمونَ اللَّهَ حديثاً ﴾** قال عطاء: وَدُّوا لو تُسوّى بهم الأرضُ وأنهم لم يكونُوا كَتَمُوا أمرَ محمدٍ ﷺ ولا نَعْتِه. وقال الآخرون: بل هو كلامٌ مستأنف، يعني: ولا يكتمون اللَّه حديثاً لأن ما عملوه لا يخفَى على الله ولا يقدرون على كتمانه. وقال الكلبي وجماعة: **﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾** لأن جوارحَهم تشهدُ عليهم. وقال سعيد بن جُبير: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني أجد في القرآن أشياء تختلفُ عليَّ، قال: هاتِ ما اختلفَ عليك، قال: ﴿ فَلَا أنسابَ بينهمْ يومئذٍ ولا يتساءَلُون ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿ وأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءَلُون ﴾ [الصّافّات: ٢٧، الطور: ٢٥]، ﴿ ولا يكتُمونَ اللَّهَ حديثاً ﴾، وقال: ﴿ واللَّهِ ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كَتَمُوا، وقال ﴿ أَمِ السماءُ بناها ﴾ [النازعات: ٢٧]، إلى قوله تعالى: ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات: ٣٠]، وذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال: ﴿ إنّكم لتكفُرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾، إلى قوله: ﴿ طائعين ﴾ [فصّلت: ٩ ـ ١١] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، وقال: ﴿ وكانَ اللَّهُ غفوراً رحيماً ﴾ [الفتح: ١٤، النساء: ١٠٠، الأحزاب: ٥ و٥٠ و٥٩ و٧٣] ﴿ وكانَ اللَّهُ عزيزاً حكيماً ﴾ [النساء: ١٥٨ و١٦٥، الفتح: ٧ و١٩] فكأنه كان ثم مضى؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فلا أنساب في النفخة الأولى قال الله تعالى: ﴿ ونُفخَ في الصورِ فَصَعِقَ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ إلّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]، فلا أنسابَ عند ذلك ولا يتساءَلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءَلُون، وأمّا قوله: ﴿ ما كنّا مشركين ولا يكتُمونَ اللَّهَ حديثاً ﴾ [النساء: ٤٢]، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذُنوبَهم، فيقول المشركون: تعالوا نَقُلْ لم نكن مشركين، فيَخْتِمُ على أفواههم وتنطق أيديهم فعند ذلك عُرف أن اللَّهَ لا يُكتم

القرآن أشياء تختلف علي قال: هات ما يختلف عليك قال منها قوله تعالى ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ ومنها قوله تعالى ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فقد كتموا فقال يغفر الله تعالى لأهل الإسلام ذنوبهم ويدخلهم الجنة فيقول المشركون تعالوا نقول ما كنا مشركين فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين رجاء أن يغفر لهم، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتم حديثاً وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله. وقال الحسن: إنها مواطن، ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همساً وفي موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ وما كنا نعمل من سوء في موطن يعترفون على أنفسهم وهو قوله تعالى فاعترفوا بذنبهم وفي موطن لا يتساءلون وفي موطن يسألون الرجعة وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم فهو قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثاً. قوله عز وجل: .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ جمع سكران ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ سبب نزول هذه الآية ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال صنع لنا ابن عوف طعاماً فدعانا فأكلنا وسقانا خمراً قبل تحريم الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: قل يا أيّها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون قال فخلطت فنزلت ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرجه أبو داود ولفظه أن رجلاً من الأنصار دعاه وعبدالرحمن بن عوف فسقاهما قبل أن تحرم الخمر فحضرت الصلاة فأمّهم علي في المغرب فقرأ قل يا أيها الكافرون فخلط فيها فنزلت الآية: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس أن رجالاً كانوا يأتون الصلاة

حديثاً، وعنده ﴿ يَوَدُّ الذينَ كفرُوا وعَصَوُا الرّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأرضُ ﴾، و﴿ خلقَ الأرضَ في يومين ﴾ [فصّلت: ٩]، ثم خلقَ السماءَ ثمّ استوى إلى السماءِ فسوّاهنّ في يومين آخرَين، ودحوُها: أنْ أخرجَ منها الماءَ والمرعَى وخَلقَ الجِبالَ الآكَامَ وما بينهما في يومَين آخرَين، ثم دَحا الأرضَ في يومَين فخُلقتِ الأرضُ وما فيها من شيءٍ في أربعة أيام، وخُلقتِ السمواتُ في يومَين، ﴿ وكانَ اللّهُ غفوراً رحيماً ﴾ [الفتح: ١٤، النساء: ١٠٠، الأحزاب: ٥ و٥٠ و٥٩ و٧٣]، أي: لم يزلْ كذلك، فلا يختلفُ عليكَ القرآنُ فإن كلاًّ منْ عند الله. وقال الحسن: إنها مواطن، ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلاّ همساً، وفي موضع يتكلمون ويكْذِبُون ويقولون ما كنّا مشركين وما كنّا نعمل في سوءٍ، وفي موطن يعترفُون على أنفسهم وهو قوله: ﴿ فاعترفُوا بذنبِهم ﴾ [الملك: ١١] وفي موطن لا يتساءَلُون، وفي موطن يتساءَلُون الرجعة، وآخرُ تلك المواطن أن يُختم على أفواهِهم وتتكلّم جوارِحُهم، وهو قوله تعالى: ﴿ ولا يكتمون اللّهَ حديثاً ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لا تَقْرَبُوا الصّلاةَ وأنتُم سُكارَى ﴾ الآية، والمراد من السُّكْرِ: السُّكرُ من الخمر عند الأكثرين، وذلك أنّ عبدَ الرحمن بنَ عوف رضي الله عنه صنَع طَعاماً ودَعَا ناساً من أصحاب النبي ﷺ وأتاهم بخمر فشربوها قبل تحريم الخمر وسَكِرُوا فحضرتْ صلاة المغرب فقدّمُوا رجلاً ليصلّي بهم فقرأ ﴿ قلْ يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون: ١] أعبد ما تعبدون، بحذف ﴿ لا ﴾ هكذا إلى آخر السورة، فأنزل الله تعالى هذه

وهم سكارى قبل أن تحرم الخمر فقال الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾ الآية فعلى هذا ففي المراد بالصلاة قولان: أحدهما أنه نفس الصلاة ذات الركوع والسجود وهو قول الأكثرين المعنى لا تصلّوا وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون. والقول الثاني إن المراد بالصلاة موضع الصلاة وهو المسجد وإطلاق لفظ الصلاة على المسجد محتمل فيكون من باب حذف المضاف. والمعنى لا تقربوا مواضع الصلاة وأنتم سكارى وحذف المضاف جائز سائغ. ويدل عليه قوله تعالى لهدمت صوامع وبيع وصلوات والمراد بالصلوات موضاعها فثبت أن إطلاق لفظ الصلاة والمراد موضعها جائز. واعلم أن هذا النهي عن قربان الصلاة في حالة السكر إنما كان قبل تحريم الخمر فكانوا يشربونها في غير أوقات الصلاة ثم نزل تحريم الخمر بعد ذلك ونسخت هذه الآية وقال الضحاك المراد بالسكر سكر النوم يعني لا تقربوا الصلاة عند غلبة النوم ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلّى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿**ولا جنباً**﴾ يعني ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب والجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب وأصل الجنابة البعد سمي الذي أصابته الجنابة جنباً لأنه يتجنب الصلاة والمسجد وقيل لمجانبته الناس حتى يغتسل ﴿**إلّا عابري سبيل**﴾ العابر هاهنا فاعل من العبور وهو قطع الطريق من هذا الجانب إلى الجانب الآخر واختلف العلماء في معنى قوله إلا عابري سبيل على قولين: أحدهما إن المراد بالعبور هو العبور في المسجد وذلك أن قوماً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ولا ممر لهم إلّا في المسجد فرخص لهم العبور فيه فعلى هذا القول يكون المراد بالصلاة موضع الصلاة والمعنى لا تقربوا المسجد وأنتم جنب إلا مجتازين فيه للخروج منه أو للدخول فيه مثل أن يكون قد نام في المسجد فأجنب فيجب الخروج منه أو يكون الماء في المسجد فيدخل إليه أو يكون طريقه عليه فيمر فيه من غير إقامة وهذا قول ابن مسعود وأنس بن مالك والحسن وسعيد بن المسيب وعكرمة وعطاء الخرساني والنخعي والزهري وإليه ذهب الشافعي وأحمد. القول الثاني أن المراد من قوله إلّا عابري سبيل المسافرون والمعنى لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا أن تكونوا مسافرين

الآية، وكانوا بعد نزول هذه الآية يجتنبون السكر أوقات الصلاة حتى نزل تحريم الخمر. وقال الضحّاك بنُ مزاحم: أراد به سكر النوم، نهى عن الصلاة عند غلبة النوم، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو القاسم جعفر بن محمد بن المفلس أنا هارون بن إسحاق الهمذاني أخبرنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قال رسول الله ﷺ: «إذا نَعِسَ أحدُكم وهو يصلّي فليرقُدْ حتى يذهب عنه النومُ فإنّ أحدَكم إذا صلّى وهو ينعسُ لعلّه يذهبُ يستغفرُ فيسبُّ نفسَه». قوله تعالى: ﴿ **حتى تعلمُوا ما تقولُونَ ولا جُنُباً** ﴾، نصبٌ على الحال، يعني: ولا تقربُوا الصلاةَ جُنُبٌ، يقال: رجلٌ جنبٌ وامرأةٌ جنبٌ، ورجالٌ جنبٌ ونساءٌ جنبٌ، وأصلُ الجُنُبِ: البُعْد، وسُمّي جنباً لأنه يتجنّب موضعَ الصلاة، أو لمجانبتِه الناسَ وبُعدِهِ منهم، حتّى يغتسلَ. قوله تعالى: ﴿ **إلّا عابري سبيلٍ حتّى تَغْتَسِلُوا** ﴾، اختلفوا في معناه فقالوا: إلّا أن تكونوا مسافرين ولا تجدون الماء فتيمّموا، منعَ الجنب من الصلاة حتى يغتسل إلّا أن يكون في سفر ولا يجد ماء فيصلّي بالتيمّم، وهذا قول علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد رضي الله عنهم، وقال الآخرون: بل المراد من الصلاة موضع الصلاة، كقوله تعالى: ﴿ وبِيَعٌ وصَلَوات ﴾ [الحج: ٤٠] ومعناه: لا تقربُوا المسجدَ وأنتم جُنبٌ إلّا مجتازين فيه للخروج منه، مثل أن ينام في المسجد فيجنب أو يصيبه جنابة والماء في المسجد أو يكون طريقه عليه، فيمرّ به ولا يقيم وهذا قول عبد الله بن مسعود وسعيد بن المسيب والضحاك والحسن وعكرمة والنخعي والزهري، وذلك أنّ قوماً من الأنصار

ولم تجدوا الماء فتيمموا فمنع الجنب من الصلاة حتى يغتسل إلا أن يكون في سفر ولا ماء معه فيتيمم ويصلّي إلى أن يجد الماء فيغتسل وهذا قول علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة فمن جعل عابري السبيل المسافرين منه الجنب من العبور في المسجد وهو مذهب أبي حنيفة. وصحح ابن جرير الطبري الواحدي القول الأول ويدل على صحته وجهان: أحدهما أن المسافر الجنب لا تصح صلاته بدون التيمم ولم يذكر التيمم هاهنا فيحتاج إلى إضمار شيئين: عدم الماء وذكر التيمم وعلى القول الأول لا يحتاج إلى إضمار شيء. الوجه الثاني أن الله تعالى ذكر حكم السفر وعدم الماء وجواز التيمم بعد هذا فلا يحل هذا على حكم معاد في الآية ويدل على أن جميع القراء استحسنوا الوقف على قوله: ﴿حتى تغتسلوا﴾ يعني إلى أن تغتسلوا وفيه دليل على أن حكم الجنابة باقٍ على الجنب إلى غاية هي الاغتسال.

فصل في أحكام تتعلق بالآية

اختلف العلماء في العبور في المسجد فأباحه قوم على الإطلاق وهو قول الحسن وبه قال مالك والشافعي ومنعه بعضهم على الإطلاق وهو قول أصحاب الرأي. وقال قوم يتيمم للعبور في المسجد واختلف العلماء في المكث في المسجد أيضاً للجنب فمنعه أكثر أهل العلم وقالوا لا يجوز للجنب المكث في المسجد بحال لما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاء رسول الله ﷺ ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد فقال: وجهوا هذه البيوت عن المسجد ثم دخل رسول الله ﷺ ولم يصنع القوم شيئاً رجاء أن تنزل لهم رخصة فخرج إليهم بعد. فقال وجهوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أحل لحائض ولا جنب أخرجه أبو داود وجوز أحمد المكث في المسجد بشرط الوضوء به. قال المزني من أصحاب الشافعي وأجاب أحمد عن حديث عائشة بأنه في رواته مجهول. وقال عبد الحق لا يثبت من قبل إسناده وأستدل أحمد لمذهبه بما روي عن عطاء بن يسار قال رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضؤوا وضوء الصلاة أخرجه سعيد بن منصور في مسنده واحتج لمذهب الجمهور بعموم الآية وبما روي عن أم سلمة قالت دخل رسول الله ﷺ صرحة هذا المسجد فنادى بأعلى صوته أن المسجد لا يحل لجنب ولا حائض أخرجه ابن ماجه ويحرم على الجنب أيضاً الطواف وقراءة القرآن كما يحرم عليه فعل الصلاة ويدل على ذلك أيضاً ما روي عن علي بن أبي طالب قال كان رسول الله ﷺ يقضي حاجته ثم يخرج فيقرأ القرآن ويأكل معنا اللحم ولا يحجبه وربما قال ولا يحجزه من القرآن

كانت أبوابُهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولَا مَاءَ عندهم ولا ممرَّ لهم إلّا في المسجد، فرُخّص لهم في العُبور، واختلف أهل العلم فيه فأباح بعضهم المرورَ فيه على الإطلاق، وهو قول الحسن وبه قال مالك والشافعي رحمهم الله، ومنع بعضهم على الإطلاق وهو قول أصحاب الرأي، وقال بعضهم: يتيمّم للمرور فيه، أما المُكث فلا يجوز عند أكثرِ أهلِ العلم لِمَا روينا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «وجِّهُوا هذه البيوت عن المسجد فإنّي لا أُحِلُّ المسجدَ لحائضٍ ولا جنب»، وجوّز أحمد المكث فيه وضعّف الحديث لأنّ راويه مجهول، وبه قال المزني، ولا يجوز للجنب الطوافُ كما لا يجوز له الصلاةُ ولا يجوز له قراءةُ القرآن، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شُريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا شعبة أخبرني عمر بن مرّة قال سمعت عبد الله بنَ سلمة يقول: دخلتُ على عليّ رضي الله عنه فقال: كان رسول الله ﷺ يقضي الحاجةَ ويأكلُ معنا اللّحم ويقرأُ القرآنَ وكان لا يَحْجُبُه أو لا يحجزه عن القرآن شيء إلّا الجنابة. وغسل الجنابة يجب بأحد الأمرين إما بنزول المني أو بالتقاء الختانين وهو تغييب الحشفة في الفرج وإن لم ينزل، وكان الحكم في الابتداء أنّ

شيء ليس الجنابة أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي ولفظه كان يقرأ القرآن على كل حال ما لم يكن جنباً وقال حديث حسن صحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «لا يقرأ الجنب ولا الحائض ولا النفساء من القرآن شيئاً» أخرجه الدارقطني ويجب الغسل بأحد شيئين: بإنزال المني وهو الماء الدافق أو بإيلاج الحشفة في الفرج وإن لم ينزل ويدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً قال يغتسل وعن الوجه يرى أنه احتلم ولا يجد بللاً. قال لا غسل عليه قالت أم سلمة والمرأة ترى ذلك أعليها غسل؟ قال نعم؟ أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل» زاد في رواية وإن لم ينزل.

وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ جمع مريض وأراد به المرض الذي يضر معه إمساس الماء مثل الجدري وإحراق النار ونحو ذلك وإن كان على بعض مع وجود الماء وإن كان بعض أعضائه من استعمال الماء التلف أو زيادة الوجع فإنه يتيمم ويصلي مع وجود الماء وإن كان بعض أعضائه صحيحاً وبعضها جريحاً غسل الصحيح وتيمم للجريح في الوجه واليدين لما روي عن جابر قال: خرجنا في سفرنا فأصاب رجلاً منا حجراً فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال: قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو قال يعصب شك الراوي على جرحه خرقة ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده أخرجه أبو داود والدارقطني ولم يجوز أصحاب الرأي الجمع بين الغسل والتيمم قالوا إذا كان أكثر أعضائه أو بدنه صحيحاً غسل الصحيح ولا يتيمم عليه وإن كان الأكثر جريحاً اقتصر على التيمم والحديث حجة لمن أوجب الجمع بين الغسل والتيمم.

قوله تعالى: ﴿أو على سفر﴾ يعني أو كنتم مسافرين وأراد به السفر الطويل والقصير وعدم الماء فإنه يتيمم ويصلي ولا إعادة عليه لما روي عن أبي ذر قال: «اجتمعت غنيمة عند رسول الله ﷺ فقال أبا ذر ابد فيها فبدوت إلى الربذة فكانت تصيبني الجنابة فأمكث الخمس والست فأتيت رسول الله ﷺ فقال أبو ذر فسكت فقال ثكلتك أمك يا أبا ذر لأمك الويل فدعا بجارية سوداء فجاءت بعس فيه ماء فسترتني بثوب واستترت بالراحلة فاغتسلت، فكأني ألقيت عني جبلاً. فقال الصعيد الطيب: وضوء المسلم ولو إلى عشر سنين فإذا وجدت الماء فأمسه جلدك

مَن جامع امرأته فأكسل لا يجب عليه الغسل ثم صار منسوخاً ـ أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أنا أبو موسى الأشعري سأل عائشة رضي الله عنها عن التقاء الختانين فقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى الختانان، أو مَسّ الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل». قوله تعالى: ﴿ وإنْ كنْتُمْ مرضَى ﴾، جمع مريض، وأراد به مرضاً يضرّه إمساسُ الماء مثل الجدري ونحوه، أو كان على موضعِ الطهارة جراحة يخاف من استعمال الماء فيها التَّلفَ أو زيادةَ الوجع، فإنه يصلّي بالتيمّم وإن كان الماء موجوداً وإن كان بعض أعضاء طهارته صحيحاً والبعض جريحاً غسل الصحيح منها وتيمّم للجريحِ، لِما أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز الغاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر واللؤلؤي أنا داود سليمان بن الأشعث السجستاني أنا موسى بن عبد الرحمن الأنطاكي أنا محمد بن سلمة عن الزبير بن حزيق عن جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منّا حجرٌ فشجّه في رأسه، فاحتلم فسأل أصحابه: هلْ تجدون لي رخصة في اليتيم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلمّا قَدِمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك قال: «قتلوه قتلهم الله، ألا

فإن ذلك خير أخرجه أبو داود العس قدح من فخار يجعل فيه الماء للوضوء والاغتسال. أما إذا لم يكن الرجل مريضاً ولا على سفر وعدم الماء في موضع لا يعدم فيه غالباً فإنه يتيمم ويصلي ثم يعيد إذا وجد الماء وقدر عليه وبه قال الشافعي وقال مالك والأوزاعي لا إعادة عليه وقال أبو حنيفة يؤخر الصلاة حتى يجد الماء.

وقوله تعالى: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ الغائط المكان المطمئن من الأرض وجمعه الغيطان وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكنوا به عن الحدث وذلك أن الرجل منهم كان إذا أراد قضاء الحاجة طلب غائطاً من الأرض يعني مكاناً منخفضاً من الأرض يحجبه عن أعين الناس فسمي الحدث بهذا الاسم فهو من باب تسمية الشيء باسم مكانه. وقوله تعالى ﴿أو لامستم النساء﴾ قرىء هنا وفي سورة المائدة لامستم النساء ولمستم بغير ألف واختلف العلماء في معنى الملامسة على قولين أحدهما أنه الجماع وهو قول علي وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ووجه هذا القول أن الله تعالى كنى باللمس عن الجماع لأن اللمس يوصل إليه. قال ابن عباس إن الله حيي كريم يكني عن الجماع بالملامسة، والقول الثاني إن المراد باللمس هنا التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو بغير جماع وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي ووجه هذا القول إن اللمس حقيقة في اللمس باليد فأما حمله على الجماع فمجاز والأصل حمل الكلام على الحقيقة لا على المجاز. وأما قراءة من قرأ أو لامستم فالملامسة مفاعلة والأصل حمل الكلام على الحقيقية لا على الإطلاق لأنه قد ورد في الحديث النهي عن بيع الملامسة قال أبو عبيدة في معناها هي أن يقول: إذا لمست ثوبي أو لمست ثوبك فقد وجب البيع فالملامسة في الحديث بمعنى اللمس باليد وإذا كانت مستعملة في غير المجامعة لم يدل قوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ على صريح الجماع بل حمل على الأصل الموضوع له وهو اللمس باليد.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى: إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى شيء من بدن المرأة ولا حائل بينهما انتقض وضوءهما وهو قول ابن مسعود وابن عمر وبه قال الزهري والأوزاعي والشافعي لما روي الشافعي بسنده عن ابن عمر أنه قال

سألوا إذا لم يعلموا فإنّما شفاء العِيّ السؤال إنّما كان يكفيه أن يتيمّم ويعصر أو يعصب ـ شك الراوي ـ على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده» ولم يجوّز أصحاب الرأي الجمع بين التيمّم والغسل، وقالوا: إن كان أكثر أعضائه صحيحاً غسل الصحيح ولا يتيمّم عليه، وإنْ كان الأكثر جريحاً اقتصر على التيمّم. والحديث حجّة لمَن أوجب الجمعَ بينهما. قوله تعالى: ﴿ أو علَى سَفَرٍ ﴾، أراد أنه إذا كان في سفر طويلاً كان أو قصيراً، وعُدم الماءُ فإنه يصلّي بالتيمّم ولا إعادة عليه، لِمَا رُوِيَ عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «إنّ الصّعيدَ الطّيبَ وضوءُ المسلم وإنْ لم يجدِ الماءَ عَشْرَ سنين، فإذا وَجَدَ الماءَ فليمسّه بَشَرَهُ فإن ذلك خير»، أمّا إذا لم يكن الرجل مريضاً ولا في سفر لكنّه عُدِمَ الماءَ في موضع لا يُعدم فيه الماءُ غالباً بأن كان في قرية انقطع ماؤُها فإنه يصلّي بالتيمّم ثم يُعيد إذا قدر على الماء عند الشافعي وعند مالك والأوزاعي لا إعادة عليه، وعند أبي حنيفة رضي الله عنهما يؤخّر الصلاة حتى يجد الماء. قوله تعالى: ﴿ أو جَاءَ أحدُ مِنْكُمْ مِنَ الغائط ﴾، أراد به إذا أحدث، والغائط اسم للمطمئن من الأرض، وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكُنّي عن الحدث بالغائط، ﴿ أوْ لاَمَسْتُمُ النّساءَ ﴾، قرأ حمزة والكسائي « لَمَسْتُم » ههنا وفي المائدة، وقرأ الباقون ﴿ لاَمَسْتُمُ النِّساء ﴾ واختلفوا في معنى اللّمس والمُلاَمسة، فقال قوم: هو المجامعة، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وكنّي باللّمس عن الجماع لأنّ الجماع لا يحصل إلّا باللّمس، وقال قوم: هما التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو غير جماع، وهو قول ابن مسعود وابن عمرو الشعبي والنخعي، واختلف الفقهاء في حكم هذه الآية، فذهب جماعة إلى أنه إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى

قبلة الرجل امرأته وجسها بيده من الملامسة فمن قبّل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء أخرجه مالك في الموطأ قال الشافعي: وبلغنا عن ابن المسعود مثله وقال مالك والليث بن سعد وأحمد وإسحاق إذا كان اللمس بشهوة انتقض الوضوء وإن لم يكن بشهوة فلا ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله تعال عنها: «أن رسول الله ﷺ قبل امرأة من نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ» قال عروة ومن هي إلاّ لا أنت فضحكت أخرجه أبو داود وأجيب عن هذا الحديث بأنه ليس بثابت قال الترمذي إنه لا يصلح إسناده بحال وسمعت محمد بن إسماعيل يضعف هذا الحديث وقال حبيب بن ثابت لم يسمع من عروة وضعف يحيى بن سعيد القطان هذا الحديث وقال هو شبه لا شيء وفيه ضعف من وجه آخر وهو أن عروة هذا ليس بعروة بن الزبير ابن أخت عائشة إنما هو شيخ مجهول قال البيهقي يعرف بعروة المزني وإنما المحفوظ عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان يقبل وهو صائم» كذا رواه الثقات عن عائشة وقال أبو حنيفة لا ينتقض الوضوء باللمس إلاّ أن يحدث الانتشار وقال قوم لا ينتقض بحال وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن والثوري واحتج من لم يوجب الوضوء باللمس بما روي عن عائشة أنها قالت: «كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتهما والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح» أخرجاه في الصحيحين وأجاب من أوجب الوضوء باللمس عن هذا الحديث بأنه يحتمل أن يكون غمزه لها على حائل.

المسألة الثانية: اختلف قول الشافعي في لمس المحرم كالأم والبنت والأخت أو أجنبية صغيرة فأصح القولين عنه أنه لا ينتقض الوضوء به والثاني أنه ينتقض الوضوء به ومأخذ القولين عند أصحاب الشافعي التردد بين التعلق بعموم الآية في قوله: «أو لامستم النساء» أو النظر إلى المعنى في النقض باللمس وهو تحرك الشهوة فإن أخذنا بعموم الآية فينتقض الوضوء بلمس المحارم وإن أخذنا بالمعنى فلا ينتقض وفي الملموس قولان والملموس هو الذي لا فعل منه في المباشرة رجلاً كان أو امرأة واللامس هو الفاعل اللمس وإن لم يقصد المباشرة فأحد القولين إنه ينتقض وضوء اللامس والملموس لعموم الآية لأنه لمس وقع بين الرجل والمرأة فينتقض وضوءهما معاً والقول الثاني إنه ينتقض وضوء اللامس دون الملموس لما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «فقدت

شيء من بدن المرأة ولا حائل بينهما، ينتقض وضوءهما، وهو قول ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما، وبه قال الزهري والأوزاعي والشافعي رضي الله عنهم، وقال مالك والليثُ بن سعد وأحمد وإسحق: إن كان اللّمس بشهوة نقض الطهر، وإن لم يكن بشهوة فلا ينتقض، وقال قوم: لا ينتقض الوضوءُ باللّمس بحال، وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن والثّوري، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا ينتقض إلاّ إذا حدثَ الانتشارُ، واحتجّ مَن لم يوجب الوضوءَ باللّمس بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبد الله عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنّها قالت: كنتُ أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قِبلته فإذا سجد غمزني فقبضتُ رجلي وإذا قام بسطتُهما، قالت والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن يحيىٰ بن مسعود عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كنتُ نائمةً إلى جنب رسول الله ﷺ ففقدته من الليل فلمستُه بيدي فوقعتْ يدي على قدميه وهو ساجد وهو يقول: «أعوذُ برضاكَ من سخطك وبمعافاتِك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». واختلف قول الشافعي رضي الله عنه فيما لو لمس امرأة من محارمه كالأم والبنت والأُخت أو لمس أجنبية صغيرة، أصحّ القولين أنه لا ينتقض الوضوء لأنها ليست بمحل الشهوة كما لو لمس رجلاً، واختلف في

رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوضعت يدي على أخمص قدميه وهو ساجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللّهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» أخرجه مسلم فلو انتقض وضوءه ﷺ لقطع الصلاة ولو لمس شعر امرأة أو سنها أو ظفرها فلا وضوء عليه.

المسألة الثالثة في الحدث: وهو الخارج من السبيلين عيناً كالبول والغائط أو أثراً كالريح ونحوها فإذا حصل شيء من ذلك فلا تصح صلاته ما لم يتوضأ أو يتيمم عند عدم الماء لما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» فقال رجل من أهل حضرموت ما الحدث يا أبا هريرة؟ قال فساء أو ضراط أخرجاه في الصحيحين أما خروج النجاسة من غير السبيلين كالفصد والحجامة والرعاف والقيء ونحوها فذهب قوم إلى أنه لا وضوء من خروج هذه الأشياء يروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وبه قال عطاء وطاوس والحسن وابن المسيب وإليه ذهب مالك والشافعي لما روي عن أنس قال: «احتجم رسول الله ﷺ فصلى ولم يتوضأ ولم يزد على غسل محاجمه» أخرجه الدارقطني وذهب قوم إلى إيجاب الوضوء من ذلك منهم سفيان الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق واتفق هؤلاء على أن خروج القليل منه لا ينقض الوضوء ويدل على انتقاض الوضوء بخروج هذه الأشياء ما روي عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء: «أن النبي ﷺ قاء فتوضأ قال معدان فلقيت ثوبان في مسجد دمشق فذكرت له ذلك فقال صدق أنا صببت له وضوءه» أخرجه الترمذي وقال هو أصح شيء في هذا الباب.

المسألة الرابعة: من نواقض الوضوء زوال العقل بجنون أو إغماء أو نوم لما روي عن علي قال قال رسول الله ﷺ: «العين وكاء السه فمن نام فليتوضأ» أخرجه أبو داود وابن ماجه ويستثنى من ذلك النوم اليسير قاعداً

قوله في انتقاض وضوء الملموس على قولين، أحدهما: ينتقض لاشتراكهما في الالتذاذ كما يجب الغسل عليهما بالجماع، والثاني: لا ينتقض لحديث عائشة رضي الله عنها حيث قالت: فوقعتْ يدي على قدميه وهو ساجد، ولو لمس شعر امرأةٍ أو سِنّها أو ظفرها لم ينتقض وضوءه عنده، واعلم أن المُحدِثَ لا تصحّ صلاتُه ما لم يتوضأ إذا وجد الماء أو يتيمّم إذا لم يجد الماء. أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أخبرنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همّام بن منبه أنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقبل صلاةُ أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»، والحدَثُ هو خروج الخارج من أحد الفرجين عَيْناً كان أو أثراً، أو الغلبة على العقل بجنون أو إغماء على أي حال كان، وأمّا النوم فمذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يوجب الوضوء إلاّ أن ينام قاعداً متمكّناً فلا وضوء عليه، لِمَا أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أنا الشافعي أنا الثقة عن حميد الطويل عن أنس رضي الله عنهما قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العِشَاءَ فينامُون، أحسبُه قال قعوداً حتى تَخْفِقَ رؤُوسُهم ثم يُصلّون ولا يتوضئون، وذهب قوم إلى أن النوم يُوجب الوضوءَ بكل حال وهو قول أبي هريرة رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها، وبه قال الحسن وإسحق والمُزَني، وذهب قوم إلى أنه لو نام قائماً أو قاعداً أو ساجداً فلا وضوء عليه حتى ينام مضطجعاً وبه قال الثّوري وابن المبارك وأصحاب الرأي واختلفوا في مسّ الفرج من نفسه أو من غيره فذهب جماعة إلى أنه يُوجبُ الوضوءَ وهو قول عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة رضي الله عنها، وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي، وأحمد وإسحق، وكذلك المرأة تَمُسُّ فرجَها، غير أن الشافعي رضي الله عنه يقول لا ينتقض إلا أن تلمس ببطن الكفّ أو

مفضياً بمحل الحدث إلى الأرض ويدل على ذلك ما روي عن أنس. قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرون العشاء الأخيرة حتى تخفق رؤوسهم ثم يصلون ولا يتوضؤون أخرجه أبو داود وذهب قوم إلى أن النوم لا ينقض الوضوء بكل حال وهو قول أبي هريرة وعائشة وبه قال الحسن وإسحاق والمزني وذهب قوم إلى أنه لو نام قائماً أو قاعداً أو ساجداً وهو في الصلاة فلا وضوء عليه حتى يضطجع وبه قال سفيان الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي لما روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ليس على من نام ساجداً وضوء حتى يضطجع فإذا اضطجع استرخت مفاصله» أخرجه أحمد بن حنبل وضعف بعضهم هذا الحديث.

المسألة الخامسة: من نواقض الوضوء مس الفرج من نفسه أو غيره فذهب قوم إلى أنه يوجب الوضوء وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق غير أن الشافعي قال: ينتقض الوضوء إذا لمس ببطن الكف والرجل والمرأة في ذلك سواء ويدل على ذلك ما روي عن بسرة بنت صفوان أن رسول الله ﷺ قال: «من مس ذكره فلا يصلِّ حتى يتوضأ» أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح ولأبي داود والنسائي نحوه وعن أم حبيبة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مس فرجه فليتوضأ» أخرجه ابن ماجه وصححه أحمد وأبو زرعة وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من أفضى بيده إلى ذكره وليس دونه ستر فقد وجب عليه الوضوء» أخرجه أحمد بن حنبل وذهب قوم إلى أن مس الذكر لا يوجب الوضوء وهو قول علي وابن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة وبه قال الحسن وإليه ذهب الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي واحتجوا بما روي عن طلق بن علي قال قدمنا على رسول الله ﷺ فجاءه رجل كأنه بدوي فقال: «يا نبي الله ما ترى في مس الرجل ذكره بعدما توضأ قال هل هو إلاّ مضغة أو قال بضعة منه؟» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي نحوه بمعناه وأجاب من أوجب الوضوء على من مس الذكر عن

بطون الأصابع، واحتجّوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم أنه سمع عروة بن الزبير يقول: دخلتُ على مروان بن الحكم فذكرنا ما يكون منه الوضوء، فقال مروان: مِنْ مَسِّ الذكر الوضوء، فقال عروة: ما علمتُ ذلك، فقال مروان: أخبرتني بُسرةُ بنت صفوان أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا مسّ أحدكم ذكره فليتوضأ»، وذهب جماعة إلى أنه لا يُوجب الوضوء، رُوِيَ ذلك عن علي وابن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة وبه قال الحسن وإليه ذهب الثّوري وابن المبارك وأصحاب الرأي، واحتجّوا بما رُوِيَ عن طلق بن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئِلَ عن مسِّ الرجلِ ذكرَه، فقال: «هلْ هو إلاّ بضعةٌ منك»؟ ويُروى «هل هو إلا بضعة أو مضغة منه»، ومَن أوجب الوضوء منه قال: هذا منسوخ بحديث بُسرة لأن أبا هريرة يروي أيضاً: أنّ الوضوء من مسِّ الذكر، وهو متأخر الإسلام، وكان قدوم طلق بن عليّ على رسول الله ﷺ أول زمن الهجرة حين كان يبني المسجد. واختلفوا في خروج النجاسة من غير الفرجين بالفصد والحجامة وغيرهما من القيء ونحوه، فذهب جماعة إلى أنه لا يُوجب الوضوءَ، رُوِيَ ذلك عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، وبه قال عطاء وطاوس والحسن وسعيد بن المسيب وإليه ذهب مالك والشافعي وذهبت جماعة إلى إيجاب الوضوء بالقيء والرعاف والفَصْد والحِجَامة منهم سفيان الثّوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وأحمد وإسحاق، واتفقوا على أن القليل منه وخروج الريح من غير السبيلين لا يُوجبُ الوضوءَ، ولو أوجبَ الوضوءَ كثيرُهُ لأوجب قليلُه الوضوءَ كالفرج، ﴿ فلم تجدُوا ماءً فتيمّمُوا ﴾، اعلم أن التيمّم من خصائص هذه الأمة، روَى حُذيفةُ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنا على الناس بثلاثٍ: جُعلتْ صفوفُنا كصُفوف الملائكة، وجُعلتْ لنا الأرض كلها مسجداً وجُعلتْ تُربتُها لنا طهوراً إذا لم نجدِ الماء»، وكان بدء التيمّم ما أخبرنا أبو الحسن

حديث طلق بن علي بأن قدومه على رسول الله ﷺ كان في أول الهجرة وهو يبني المسجد وأبو هريرة من آخرهم إسلاماً. وقد روي انتقاض الوضوء بمس الذكر فصار حديث أبي هريرة ناسخاً لحديث طلق بن علي وأيضاً فإن حديث طلق يرويه عنه ابنه قيس بن طلق وهو ليس بالقوي عند أهل الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ اعلم أن التيمم من خصائص هذه الأمة خصها الله تعالى به ليسهل عليهم أسباب العبادة ويدل على ذلك ما روي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» أخرجه مسلم وكان سبب بدء التيمم ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت برسول الله ﷺ وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت عائشة فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلاّ مكان رسول الله ﷺ على فخذي فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله عز وجل آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر قالت عائشة فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته» أخرجاه في الصحيحين قولها بالبيداء البيداء: المفازة والقفر وكل صحراء فهي بيداء وجمعها بيد وذات الجيش اسم لموضع وهو على بريد من المدينة وقولها فبعثنا البعير أي أثرناه قوله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ هو معطوف على ما قبله والمعنى أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فطلبتم الماء لتطهروا به فلم تجدوه يعني فأعوزكم فلم تجدوه بثمن ولا بغير ثمن لأن المحدث مأمور بالتطهر بالماء فإذا أعوزه الماء عدل عنه إلى التيمم بعد طلب الماء. قال الشافعي: إذا دخل وقت الصلاة طلب الماء فإن لم يجده تيمم وصلى ثم إذا دخل وقت الصلاة الثانية وجب

محمد بن محمد السرخسي أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنّا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على الْتِمَاسِه وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى النَّاسُ أبا بكر رضي الله عنه فقالوا ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس ومعه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر رضي الله عنه ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: أحبستِ رسولَ الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماء وليس معهم ماء، قالت: فعاتبني أبو بكر رضي الله عنه وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرّك إلاّ مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله تعالى آية التيمّم ﴿ فتيمّموا ﴾ فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هي بأول بركتكم يا آلَ أبا بكر، قالت عائشة رضي الله عنها، فبعثنا البعيرَ الذي كنت عليه فوجدنا العقدَ تحتَهُ. وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبيد بن إسماعيل أنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: أنها استعارتْ من أسماءَ قِلادةً فهلكت، فأرسل رسول الله ﷺ ناساً من أصحابه في طلبها فأدركتْهم الصلاةُ فصلّوا بغير وضوء، فلما أتوا النبي ﷺ شكوا ذلك إليه فنزلت آية التيمّم. فقال أُسيد بن حضير: جزاكَ اللَّهُ خيراً فوالله ما نزل بك أمر قطّ إلاّ جعل الله لك منه مخرجاً وجعل للمسلمين فيه بركة،

عليه الطلب مرة أخرى. وقال أبو حنيفة: لا يجب عليه الطلب للصلاة الثانية حجة الشافعي قوله تعالى فلم تجدوا ماء فعدم الوجدان مشعر بسبق الطلب فلا بد في كل مرة من سبق الطلب وأجمعوا على أنه لو وجد الماء لكنه يحتاج إليه لعطشه أو عطش حيوان محترم فإنه يجوز له التيمم مع وجدان ذلك الماء وقوله تعالى: ﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ أصل التيمم في اللغة القصد يقال تيممت فلاناً إذا قصدته وهو في الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة عند عدم الماء لتأدية الصلاة واختلفوا في الصعيد الطيب فقال قتادة الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابن زيد الصعيد: المستوي من الأرض وكذلك قال الليث: الصعيد الأرض المستوية التي لا شيء فيها. وقال الفراء: الصعيد هو التراب وكذلك قال أبو عبيد في قوله ﷺ: «إياكم والقعود بالصعدات» قال الصعدات الطرق مأخوذ من الصعيد وهوالتراب وقيل الصعيد وجه الأرض البارز وهو اختيار الزجاج قال: الصعيد وجه الأرض ولا تبال أكان في الموضع تراب أو لا لأن الصعيد ليس هو التراب إنما هو وجه الأرض ونقل الربيع عن الشافعي في تفسير الصعيد قال: لا يقع اسم الصعيد إلّا على تراب ذي غبار فأما البطحاء الغليظة والرقيقة فلا يقع عليها اسم الصعيد فإن خالطه تراب أو مدر يكون له غبار كالذي خالطه هوالصعيد قال ولا يتيمم بنورة ولا كحل ولا زرنيخ كل هذا حجارة هذا كلام الشافعي في تفسير الصعيد وهو القدوة في اللغة وقوله في ذلك حجة وقد وافقه على ذلك الفراء وأبو عبيدة في أنه التراب وجميع الأقوال في الصعيد صحيحه في اللغة لكن المراد به هنا التراب وقد قال ابن عباس في قوله صعيداً هو التراب. واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمم فذهب الشافعي إلى أنه يختص بما وقع عليه اسم التراب مما له غبار يعلق بالوجه واليدين لأن النبي ﷺ قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً» فخص التراب بالطهور ولأن الله تعالى وصف الصعيد بالطيب والطيب من الأرض هو الذي ينبت فيها بدليل قوله والبلد الطيب يخرج نباته فعلى هذا ما لا ينبت ليس بطيب ولنا أيضاً قوله تعالى في سورة المائدة فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه وكلمة من للتبعيض هنا ولا يتأتى ذلك في الصخر الذي لا تراب عليه وأيضاً فإنه يقال للغبار صعيد لأنه مأخوذ من الصعود وهو الارتفاع ولا يكون ذلك في الصخر وما أشبهه. وذهب أبو حنيفة ومالك

﴿ فتيمَّمُوا ﴾، أي: اقْصُدُوا، ﴿ صعيداً طيباً ﴾، أي: تراباً طيباً طاهراً نظيفاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصعيدُ هو التراب، واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمّم، فذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى أنه يختصّ بما يقع عليه اسم التراب مما يعلق باليد منه غبار، لأن النبي ﷺ قال: «وجُعلتْ تُربتُها لنا طهوراً»، وجوّز أصحاب الرأي التيمّم بالزرنيخ والجصّ والنُّورة وغيرها من طبقات الأرض، حتى قالوا: لو ضرب يديه على صخرة لا غبار عليها أو على التراب ثم نفخ فيه حتى زال التراب كله فمسح به وجهه ويديه صحّ تيمُّمُه، وقالوا: الصعيد وجهُ الأرض، لِما رُوِي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» وهذا مجمل، وحديث حذيفة في تخصيص التراب مفسَّر والمفسَّر من الحديث يقضي على المُجمل، وجوّز بعضهم بكل ما هو متصل بالأرض من شجر ونبات، ونحوهما وقال: إن الصعيد اسم لِما تصاعد على وجه الأرض، والقصد إلى التراب، شرطٌ لصحة التيمّم، لأنّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿ فتيمَّمُوا ﴾، والتيمّم: القصد، حتى لو وقف في مهبّ الريح فأصابَ الغبارُ وجهَهُ ونوَى لم يصحّ. قوله تعالى: ﴿ فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وأيْدِيكُمْ إنّ اللَّهَ كانَ عفوّاً غفوراً ﴾، اعلم أن مسح الوجه واليدين واجب في التيمّم، واختلفوا في كيفيته فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يمسح الوجه واليدين مع المِرفقين، بضربتين يضرب كفّيه على التراب فيمسح بهما جميع وجهه، ولا يجب إيصال التراب إلى ما تحت الشعور، ثم يضرب ضربةً أخرى فيمسح يديه إلى المِرفقين، لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن أبي الحُويرث عن

إلى أنه يجوز التيمم بكل ما هو من جنس الأرض كالرمل والجص والنورة والزرنيخ ونحو ذلك حتى لو ضرب يده على صخرة ملساء لا غبار عليها صح تيممه عندهم واحتج أبو حنيفة ومن وافقه بظاهر الآية قالوا لأن التيمم هو القصد والصعيد اسم لما تصاعد من الأرض فقوله تعالى فتيمموا صعيداً طيباً أي اقصدوا أرضاً فوجب أن يكون هذا القدر كافياً وأجيب عنه بما تقدم من الدليل في قوله منه وإن لفظة من تكون للتبعيض قالوا ولما روي عن جابر أن النبي ﷺ قال: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» وأجيب عنه بأن هذا مجمل يفسره ما تقدم من حديث حذيفة في تخصيص التراب والمفسر يقضي على المجمل وجوز بعضهم التيمم بكل ما هو متصل بالأرض من شجر ونبات ومدر ونحو ذلك قالوا لأن اسم الصعيد يقع على ما تصاعد على الأرض وأجيب عنه بما تقدم من الأدلة.

وقوله تعالى: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ الوجه المسموح في التيمم هو المجدود في الوضوء واختلف العلماء فيما يجب مسحه من اليد فذهب أكثر أهل العلم منهم ابن عمر وابنه سالم والحسن وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي أنه يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين وصورة ذلك أن يضرب كفيه على التراب ويمسح بهما وجهه ولا يجب إيصال التراب إلى منابت الشعور ثم يضرب ضربة أخرى ويفرق أصابعه فيمسح يديه إلى المرفقين ويدل على ذلك ما روي عن جابر عن النبي ﷺ: «التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين» رواه البيهقي ولم يضعفه وروي الشافعي عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن الأعرج عن ابن الصمة قال مررت على النبي ﷺ وهو يبول فسلمت عليه فلم يرد عليّ حتى قام إلى الجدار فحته بعصا كانت معه ثم وضع يده على الجدار فمسح وجهه وذراعيه ثم رد على هذا حديث منقطع لأن الأعرج وهو عبدالرحمن بن هرمز لم يسمع هذا من ابن الصمة وإنما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة وكذا هو مخرج في الصحيحين عن عمير مولى ابن عباس قال دخلنا على أبي جهيم بن الحارث فقال أبو جهيم أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد النبي ﷺ حتى أقبل على الجدار فوضع يده على الحائط فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام. ولأبي داود عن نافع قال انطلقت مع ابن عمر في حاجة إلى ابن عباس فلما أن قضى حاجته فكان من حديثه يومئذٍ أن قال مر رجل في سكة من سكك المدينة فلقي رسول الله ﷺ قد خرج من غائط أو بول فسلم عليه الرجل فلم يرد عليه حتى إذا كاد الرجل أن يتوارى في السكة ضرب رسول الله ﷺ بيده على حائط ومسح بها وجهه ثم ضرب

الأعرج عن أبي الصمّة قال: مررتُ على النبي ﷺ وهو يبول فسلّمت عليه فلم يرد عليّ حتى قام إلى جدار فحتّه بعصاً كانت معه، ثم وضع يديه على الجدار فمسح وجهه وذراعيه ثم ردّ عليّ السلام. ففيه دليلٌ على وجوب مسح اليدين إلى المِرفقين كما يجب غسلهما في الوضوء إلى المرفقين، ودليلٌ على أن التيمّم لا يصحّ ما لم يعلق باليد غبار التراب، لأن النبي ﷺ حتَّ الجدارَ بالعصا، ولو كان مجرد الضرب كافياً لما كان حَتّه، وذهب الزهري إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين، لِما رُوِيَ عن عمّار أنه قال: تَيمّمْنَا إلى المناكب. وذلك حكاية فعله لم ينقله عن النبي ﷺ، كما رُوِيَ أنه قال: أجنبتُ فتمكّعتُ في التراب، فلمّا سأل النبيَّ ﷺ أمره بالوجه والكفّين. وذهب جماعة إلى أن التيمّم ضربة واحدة للوجه والكفّين وهو قول علي وابن عباس رضي الله عنهم، وبه قال الشعبي وعطاء بن أبي رباح ومكحول، وإليه ذهب الأوزاعي وأحمد وإسحق، واحتجّوا بما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة أخبرنا الحكم عن ذر عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه قال جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني أجنبتُ فلم أصب الماء، فقال عمّار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أمـا تذكر أنّا كنّا في سفر أنا وأنتَ فأمّا أنتَ فلم تصلِ وأمّا أنا فتمكّعتُ فصليتُ فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «إنّما كان يكفيك هكذا، فضرب النبي ﷺ بكفّيه الأرضَ

ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد عليه السلام وقال: لم يمنعني إن أرد عليك أولاً إلاّ أني لم أكن على طهر وفي رواية فمسح ذراعيه إلى المرفقين فهذا أجود ما في هذا الباب. فإن البيهقي أشار إلى صحة إسناده وفيه دليل على الحكمين يعني مسح الوجه واليدين بضربتين وإيصال المسح إلى المرفقين وفيه دليل على أن التيمم لا يصح ما لم يعلق بالوجه واليدين غبار التراب لأن النبي ﷺ حت الجدار بالعصى ولو كان مجرد الضرب كافياً لما كان حته. ذهب الزهري أنه يمسح اليد إلى المنكبين ويدل على ذلك ما روي عن عمار بن ياسر قال تمسحوا وهم مع رسول الله ﷺ بالصعيد لصلاة الفجر بأكفهم الصعيد ثم مسحوا بوجوههم مسحة واحدة ثم عادوا فضربوا بأكفهم الصعيد مرة أخرى فمسحوا بأيديهم. كلها إلى المناكب والإباط ثم بطون أيديهم أخرجه أبو داود وذهب جماعة إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين وهو قول علي وابن عباس وبه قال الشعبي وعطاء ومكحول وإليه ذهب الأوزاعي ومالك وأحمد وداود الظاهري واحتجوا بما روي عن عمار بن ياسر قال: بعثني النبي ﷺ في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ثم ضرب بيديه الأرض واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه، وباطنهما ووجهه وفي رواية أن تقول هكذا وضرب بيديه الأرض فنفض يديه فمسح وجهه وكفيه أخرجاه في الصحيحين وجملته أن اليد اسم لهذه الجارحة وحدها عند بعض أهل اللغة من أطراف الأنامل إلى الكوع وهذا هو المقطوع في حد السرقة. وقال أبو إسحاق الزّجاج: حدها من أطراف الأنامل إلى الكتف فمن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم هو الكف. قال إن حد اليد هو المقطوع في حد السرقة ومن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم إلى المناكب والأباط نظر إلى أن مسمى اليد يطلق على جميعها ومن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم إلى المرفقين قال إن التيمم بدل عن الوضوء واليد المغسولة في الوضوء هي الممسوحة في التيمم فيحمل المطلق الذي في قوله تعالى فامسحوا بوجوهكم وأيديكم على المقيد الذي في قوله تعالى في آية الوضوء فأغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأجاب من ذهب إلى هذا عن حديث عمار بأن المراد منه بيان صورة الضرب وليس المراد منه جميع ما يحصل به التيمم.

ونفخَ فيهما، ثم مسحَ وجهَهُ وكفّيه»، وقال محمد بن إسماعيل أنا محمد بن كثير عن شعبة بإسناده: فقال عمّار لعمر رضي الله عنه: تمكعتُ فأتيتُ النبيَّ ﷺ فقال: «يكفيك الوجه والكفّان»، وفي الحديث دليل على أن الجنب إذا لم يجد الماء يصلي بالتيمّم، وكذا الحائض والنفساء إذا طَهُرَتَا وعُدِمَتا الماء. وذهب عمر وابن مسعود رضي الله عنهما إلى أن الجنب لا يصلّي بالتيمّم بل يؤخر الصلاة إلى أن يجد الماء فيغتسل، وحملا قوله تعالى: ﴿أو لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ على اللمس باليد دون الجماع، وحديث عمّار رضي الله عنه حجّة، وكان عمر نسي ما ذَكَرَ له عمّارٌ فلم يقنع بقوله. ورُوِيَ أن ابن مسعود رضي الله عنه رجع عن قوله وجوّز التيمّم للجنب والدليل عليه أيضاً ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد بن عياد بن منصور عن أبي رجاء العطاردي عن عمران بن حصين رضي الله عنهم أن النبي ﷺ أمر رجلًا كان جنباً أن يتيمّم ثم يصلّي فإذا وجدَ الماءَ اغتسلَ. وأخبرنا عمر بن عبد العزيز أنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود السجستاني أنا مسدد أنا خالد الواسطي عن خالد الحذاء عن أبي عمرو عن بجدان عن أبي ذر رضي الله عنهم قال: اجتمعت غنيمةٌ من الصدقة عند رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذر ابدأ» فيها فبدوت إلى الربذة وكانت تصيبني الجنابة فأمكث الخمس والستّ، فأتيت رسولَ الله ﷺ فقال: «أبا ذر»، فسكتُّ، فقال: «ثكلتك أُمك يا أبا ذر لأمك الويل»، فدعا بجارية سوداء فجاءت بعس فيه ماء فسترتني بثوب واستترت بالراحلة فاغتسلتُ فكأني ألقيت عني جبلًا، فقال: «الصعيدُ الطيبُ وضوءُ المسلم ولو إلى عشر سنين، فإذا وجدت

فصل

وأركان التيمم خمسة: الأول تراب طاهر خالص له غبار يعلق بالوجه واليدين ويجوز بالرمل إذا كان عليه غبار. الثاني قصد الصعيد فلو تعرض لمهب الريح لم يكفه ولو يممه غيره بإذنه مع عجزه جاز وإن كان قادراً فوجهان. الثالث نقل التراب إلى الوجه واليدين. الرابع نية استباحة الصلاة فلو نوى رفع الحدث لم يصح وأكمله أن ينوي استباحة الفرض والنفل. الخامس مسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين والترتيب ولا يصح التيمم لصلاة إلّا بعد دخول وقتها ولا يجوز الجمع بين صلاتي فرض بتيمم واحد وهو قول علي وابن عباس وابن عمر وبه قال الشعبي والنخعي وقتادة وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وذهب جماعة إلى أن التيمم كالوضوء فيجوز تقديمه إلى الوقت ويجوز أن يصلي به ما شاء من الفرائض ما لم يحدث وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والزهري والثوري وأصحاب الرأي واتفقوا على أنه يجوز أن يصلي بتيمم واحد ما شاء من النوافل قبل الفرض وبعده إلى أن يدخل وقت الصلاة الأخرى، وأن يقرأ القرآن إن كان جنباً ويشترط طلب الماء في السفر بأن يطلبه في رحله وعند رفقائه وإن كان في صحراء ولا حائل دون نظره حواليه، وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار أو نحوه عدل عنه لأن الله تعالى قال فلم تجدوا ماء فتيمموا ولا يقال لم يجد إلّا لمن طلب ولا يشترط طلب عند أبي حنيفة فإن رأى الماء ولا يقدر عليه لمانع من عدو أو سبع يمنعه من الذهاب إليه أو كان الماء في بئر وليس معه آلة الاستقاء فهو كالعادم فيتيمم ويصلي ولا إعادة عليه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إن الله كان عفواً﴾ يعني يتجاوز عن ذنوب عباده ويعفو ويصفح عنهم ﴿غفوراً﴾ ستوراً على عباده يغفر الذنوب ويسترها وفيه تنبيه على أن الله تعالى رخص لعباده أمر العبادة ويسرها عليهم لأن من كانت عادته أن يغفر الذنوب ويعفو عنها كان أولى بأن يرخص للعاجزين أمر العبادة قوله عز وجل: .

الماء فأمسّه جلدك فإنّ ذلك خير»، ومسحَ الوجهَ واليدينِ في التيمم، تارة يكون بدلاً عن غسل بعض أعضاء الطهارة بأن يكونَ على بعض أعضاء طهارته جراحةٌ لا يمكنه غسلِ محلها فعليه أن يتيمّم بدلاً عن غسله، ولا يصحّ التيمّم لصلاة الوقت إلّا بعد دخول الوقت، ولا يجوز أن يجمع بين فريضتين بتيمّم واحد لأن الله تعالى قال: ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة: ٦] إلى أن قال: ﴿ فلم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا ﴾، ظاهر الآية يدلّ على وجوب الوضوء أو التيمّم إذا لم يجد الماء عند كل صلاة، إلّا أن الدليل قدْ قامَ في الوضوءِ فإن النبيّ ﷺ صلّى يوم فتح مكة الصلواتِ بوضوءٍ واحد، فبقي التيمّم على ظاهره، وهذا قول عليّ وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، وبه قال الشعبيّ والنخعي وقتادة وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحق، وذهب جماعة إلى أن التيمّم كالطهارة بالماء يجوز تقديمه على وقت الصلاة، ويجوز أن يصلّي به ما شاء من الفرائض ما لم يُحدث، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والزهري والثّوري وأصحاب الرأي، واتفقوا على أنه يجوز أن يصلّي بتيمّم واحد مع الفريضة ما شاء من النوافل قبل الفريضة وبعدها، وأن يقرأ القرآن إن كان جنباً، وإن كان تيمّمه بعذر السفر وعدم الماء فيشترط طلب الماءَ وهو أن يطلبه في رحله ومن رفقائه، وإن كان في صحراء ولا حائل دون نظر ينظر حَوَالَيْه، وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار عدل عنه لأن الله تعالى قال: ﴿ فلم تجدُوا ماءً فتيمَّمُوا ﴾، ولا يُقال: لم يجد إلّا لمَن طلب، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه طلب الماء ليس بشرط فإن رأى الماءَ ولكنه بينه وبين الماء حائل من عدو أو سبع يمنعه من الذهاب إليه أو كان الماء في البئر وليست معه آلة الاستقاء، فهو كالمعدوم يصلّي بالتيمم ولا إعادة عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ نزلت في يهود المدينة وقال ابن عباس نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم اليهوديين كانا إذا تكلم رسول الله ﷺ لويا ألسنتهما وعاباه فأنزل الله تعالى ألم تر يعني ألم ينته علمك يا محمد إلى هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يعني أعطوا حظاً من علم التوراة وذلك أنهم عرفوا نبوة موسى من التوراة وأنكروا نبوة محمد ﷺ منها فلذلك أتى بمن التي هي للتبعيض وقيل إنهم علموا التوراة ولم يؤتوا العمل بها ﴿يشترون الضلالة﴾ يؤثرون تكذيب محمد ﷺ ليأخذوا بذلك الرشا وتحصل لهم الرياسة وإنما ذكر بلفظ الشراء لأنه استبدال شيء بشيء وقيل فيه إضمار يعني يستبدلون الضلالة بالهدى ﴿ويريدون﴾ يعني اليهود ﴿أن تضلوا السبيل﴾ يعني عن السبيل والمعنى أنهم يتوصلون إلى إضلال المؤمنين والتلبيس عليهم لكي يجتنبوا الإسلام.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى أعلم بكنه ما في قلوب اليهود من العداوة والبغضاء لكم يا معشر المؤمنين فلا تنصحوهم فإنهم أعداؤكم ﴿وكفى بالله ولياً﴾ يعني متولياً أمركم والقائم به ومن كان الله تعالى وليه لم يضره أحد ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ يعني ينصركم عليهم فثقوا بولايته ونصره.

وقوله تعالى: ﴿من الذين هادوا﴾ قيل هو بيان للذين أوتوا نصيباً من الكتاب والتقدير ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا وقيل هو متعلق بما قبله والتقدير وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا وقيل هو ابتداء الكلام وفيه حذف تقديره من الذين هادوا قوم ﴿يحرفون الكلم﴾ أي يزيلونه ويغيرونه ويبدلونه ﴿عن مواضعه﴾ يعني يغيرون صفة محمد ﷺ من التوراة وقال ابن عباس: كانت اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيسألونه عن الأمر فيخبرهم به فيرى أنهم يأخذون بقوله فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه، وقيل المراد بالتحريف إلقاء الشبهة

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نصيباً مِنَ الكتابِ ﴾، يعني: يهود المدينة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم، كانا إذا تكلّم رسول الله ﷺ لَوَيَا لسانَهُمَا وعابَاهُ فأنزل الله تعالى هذه الآية، ﴿ يَشْتَرُون ﴾، يستبدلون، ﴿ الضَّلاَلَة ﴾، يعني: بالهدى، ﴿ ويُريدُون أَنْ تَضِلّوا السبيلَ ﴾ أي: عن السبيل يا معشر المؤمنين.

﴿ واللَّهُ أعلم بأعدائِكُم ﴾، منكم، فلا تستنصِحُوهم فإنهم أعداؤكم، ﴿ وكفَى بالله وليّاً وكفَى بالله نصيراً ﴾، قال الزجّاج: اكتفُوا بالله وليّاً واكتفُوا بالله نصيراً.

﴿ مِنَ الذين هَادُوا ﴾، قيل: هي متصلة بقوله: ﴿ ألم ترَ إلى الذينَ أُوتُوا نصيباً مِنَ الكتاب ﴾ ﴿ مِنَ الذين

الباطلة والتأويلات الفاسدة وهو تحريف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى الباطل ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ يعني سمعنا قولك وعصينا أمرك وذلك أنهم كانوا إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر قالوا في الظاهر سمعنا وقالوا في الباطن: عصينا وقيل إنهم كانوا يظهرون ذلك القول عناداً واستخفافاً ﴿واسمع غير مسمع﴾ هذه كلمة تحتمل المدح والذم فأما معناها في المدح اسمع غير مسمع مكروهاً. وأما معناها في الذم فإنهم كانوا يقولون اسمع منا ولا نسمع منك. وقيل إنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ اسمع ثم يقولون في أنفسهم لا سمعت وقيل معناه غير مقبول منك ما تدعو إليه وقيل معناه غير مسمع جواباً يوافقك ولا كلاماً ترتضيه ﴿وراعنا﴾ أي ويقولون راعنا يريدون بذلك نسبته إلى الرعونة وقيل معناه أرعنا سمعك أي اصرف سمعك إلى كلامنا وأنصت إلى قولنا ومثل هذا لا يخاطب به الأنبياء بل إنما يخاطبون بالإجلال والتعظيم والتبجيل والتفخيم ﴿لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾ أصله لويا لأنه من لويت الشيء إذا فتلته والمعنى أنهم يفتلون الحق فيجعلونه باطلاً لأن راعنا من المراعاة فيجعلونه من الرعونة. وكانوا يقولون لأصحابهم إنما نشتمه ولا يعرف ولو كان نبياً لعرف ذلك فأظهره الله تعالى على خبث ضمائرهم وما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ثم قال تعالى: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا﴾ يعني ولو أنهم قالوا بدل سمعنا وعصينا سمعنا وأطعنا ﴿واسمع﴾ يعني بدل قولهم لا سمعت ﴿وانظرنا﴾ يعني بدل قولهم راعنا أي انظر إلينا ﴿لكان خيراً لهم﴾ يعني عبدالله ﴿وأقوم﴾ يعني أعدل وأصوب ﴿ولكن لعنهم الله﴾ يعني طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿بكفرهم﴾ يعني بمحمد ﷺ: ﴿فلا يؤمنون إلاّ قليلاً﴾ يعني فلا يؤمن من اليهود إلاّ نفر قليل مثل عبدالله بن سلام وأصحابه وقيل أراد بذلك القليل هو اعترافهم بأن الله خلقهم ورزقهم.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ خطاب لليهود ﴿آمنوا بما نزلنا﴾ يعني القرآن ﴿مصدقاً لما معكم﴾ يعني التوراة وذلك أن النبي ﷺ كلم أحبار اليهود عبدالله بن صوريا وكعب بن الأشرف فقال يا معشر «اليهود اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق» قالوا ما نعرف ذلك وأصروا على الكفر فأنزل الله هذه الآية وأمرهم بالإيمان وقرن بهذا الأمر الوعيد الشديد فقال تعالى: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ أصل الطمس إزالة الأثر بالمحو وذكروا في المراد بالطمس ها هنا وجهين: أحدهما أن يحمل على حقيقته والثاني أن يحمل على مجازه أما من حمله على الحقيقة فقال هو محو تخطيط صور الوجوه قال ابن عباس يجعلها كخف البعير وقيل نعيمها فيكون المراد بالوجه العين ﴿فنردها على أدبارها﴾ يعني نجعلها على هيئة أدبارها وهي الاقفاء

هادوا ﴾ وقيل: هي مستأنفة، معناه: من الذين هادُوا مَنْ يُحرِّفون، كقوله تعالى: ﴿ وما منّا إلاّ له مقامٌ معلوم ﴾ [الصّافّات: ١٦٤] أي: مَنْ له منزلة معلومة، يُريدُ فريقٌ، ﴿ يُحرِّفُون الكَلِمَ ﴾، يُغيِّرُونَ الكَلِمَ ﴿ عَنْ مَوَاضِعِه ﴾، يعني: صفة محمد ﷺ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت اليهود يأتون رسولَ الله ﷺ ويسألونه عن الأمر فيُخبرهم فيرى أنهم يأخذون بقوله فإذا انصرفُوا من عنده حرَّفُوا كـلامَه، ﴿ ويقـولونَ سمعنَـا ﴾، قولَـكَ، ﴿ وعصينا ﴾، أمركَ، ﴿ واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي: اسمعْ منّا ولا نسمع منك، ﴿ غير مسمعٍ ﴾ أي: غير مقبول منك، وقيل: كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسمعْ، ثم يقولونَ في أنفسهم: لا سمعت، ﴿ وراعِنَا ﴾ أي: ويقولون راعِنَا يُريدُونَ به النسبة إلى الرُّعونة، ﴿ لَيّاً بألسنتهمْ ﴾، تحريفاً، ﴿ وطعْناً ﴾، قدحاً ﴿ في الدين ﴾، لأن قولهم: راعِنَا مِنَ المُراعاة، وهم يُحرِّفونه، يُريدون به الرُّعونة، ﴿ ولو أنهم قالُوا سمعنَا وأطعنَا واسْمَعْ وانْظُرْنَا ﴾، أي: انظر إلينا مكان قولهم رَاعِنا، ﴿ لكانَ خيراً لهم وأقوم ﴾، أي أعدل وأصوب، ﴿ ولكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بكفرِهم فلا يُؤمنُون إلاّ قليلاً ﴾ إلاّ نفراً قليلاً منهم وهو عبد الله بن سلام ومَن أسلم معه منهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين أُوتُوا الكتابَ ﴾، يُخاطب اليهود، ﴿ آمِنُوا بما نزّلنا ﴾، يعني: القرآن،

وقيل نديرها فنجعل الوجوه إلى خلف والأقفاء إلى قدام وإنما جعل الله هذا عقوبة لهم لما فيه من تشويه الخلقة والمثلة والفضيحة، وعند هذا يحصل لهم الغم وتكثر الحسرات فعلى هذا يكون هذا الوعيد مختصاً بيوم القيامة. وأما من حمل الطمس على المجاز فقال المراد به نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها يعني على ضلالتها وقيل المراد بالطمس طمس القلب والبصيرة فنردها على أدبارها يعني بتغيير أحوالهم فنلبسهم الصغار والذلة بعد العز وقيل المراد بالطمس محو آثارهم من المدينة وردهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام من حيث جاؤوا وهو إجلاء بني النضير فإن قلت قد أوعدهم وهددهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا ولم يؤمنوا فلم يفعل بهم ذلك قلت هذا الإشكال إنما يرد على من فسر الطمس بتغيير الوجوه ومحو تخطيطها وحمله على الحقيقة والجواب عنه إن هذا مشروط بعدم الإيمان وقد آمن منهم ناس فرفع عن الباقين. وروي أن عبدالله بن سلام لما سمع هذه الآية جاء إلى النبي ﷺ قبل أن يأتي أهله فأسلم وقال: يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يحول وجهي إلى قفاي وكذلك روي عن كعب الأحبار أنه لما سمع هذه الآية في خلافة عمر بن الخطاب أسلم. وقال يا رب أسلمت مخافة أن يصيبني وعيد هذه الآية فكان هذا الوعيد مشروطاً بأن لا يؤمن أحد منهم وهذا الشرط لم يوجد لأنه آمن منهم جمع كثير في زمن النبي ﷺ كعبدالله بن سلام وأصحابه ففات الشرط لفوات المشروط وقيل إن الطمس باق في اليهود فيكون فيهم طمس ومسخ قبل يوم القيامة وقيل إنه تعالى جعل الوعيد بأحد شيئين إما بالطمس أو باللعنة وهو قوله تعالى: ﴿**أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت**﴾ أي نجعلهم قردة كما فعلنا بأوائلهم وفي المراد من لعنهم الطرد والإبعاد من الرحمة والكناية في نلعنهم تعود إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين أوتوا الكتاب**﴾ وهذا على طريقة الالتفات كما في قوله تعالى: ﴿**حتى إذا كنتم في الفلك**﴾ وجرين بهم بريح طيبة وقد يحتمل أن يكون معناه من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها ونلعن أصحاب الوجوه فنجعل الكناية في قوله أو نلعنهم عن ذكر أصحاب الوجوه إذا كان في الكلام دلالة عليهم.

﴿ **مُصدِّقاً لِمَا معكم** ﴾، يعني: التوراة، وذلك أنّ النبيّ ﷺ كلّم أحبار اليهود عبد الله بن صوريا وكعب بن الأشرف، فقال: «يا معشر اليهود اتقُوا اللّهَ وأسلموا فوالله إنّكم لتعلمون أنّ الذي جِئتُكم به لحق»، قالوا: ما نعرف ذلك، وأصرّوا على الكفر، وأُنزلت هذه الآية: ﴿ **مِنْ قَبلِ أَنْ نَطمِسَ وُجُوهاً** ﴾، قال ابن عباس: نجعلها كخفّ البعير، وقال قتادة والضحاك: نُعميها، والمراد بالوجه العين، ﴿ **فَنَرُدَّها على أَدْبارِهَا** ﴾، أي: نطمسُ الوجوه فنردّها على القفا، وقيل: نجعل الوجوه منابت الشعر كوجوه القردة، لأن منابت شعور الآدميين في أدبارهم دون وجوههم، وقيل: معناه نمحو آثارها وما فيها من أنف وعين وفم وحاجب ونجعلها كالأقفاء، وقيل: نجعل عينيه على القفا فيمشي قهقرى، رُوِيَ أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه لمّا سَمِعَ هذه الآية جاء إلى النبي ﷺ قبل أن يأتي أهله ويده على وجهه، وأسلم وقال: يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحوّل وجهي في قفاي، وكذلك كعب الأحبار لمّا سمع هذه الآية أسلم في زمن عمر رضي الله عنه، فقال: يا رب آمنتُ، يا رب أسلمتُ مخافة أن يصيبَهُ وَعِيدُ هذه الآية. فإن قيل: قد أوعدهم الله بالطمس إن لم يُؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يُفعل بهم ذلك؟ قيل: هذا الوعيد باقٍ، ويكون طمس ومسخ في اليهودية قبل قيام الساعة، وقيل: هذا كان وعيد بشرط فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه دفع ذلك عن الباقين، وقيل: أراد به في القيامة، وقال مجاهد أراد بقوله: ﴿ **نَطْمِسُ وُجُوهاً** ﴾ أي: نتركهم في الضلالة فيكون المراد طمس وجه القلب، والردّ عن بصائر الهدى على أدبارها في الكفر والضلالة، وأصل الطمس: المحو والإفساد والتحويل، وقال ابن زيد: نمحُو آثارَهم من وجوههم ونواصيهم التي هم بها فنردّها على أدبارها حتى يعودوا إلى حيث جاؤوا منه وهو الشام، وقال: قد مضى ذلك وتأوله في إجلاء بني النضير إلى

وقوله تعالى: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ يعني لا بد وأن يقع بهم ذلك إن لم يؤمنوا فلا راد لحكمه ولا ناقض لأمره على معنى أنه لا يمتنع عليه شيء يريد أن يفعله وقيل معناه وكان مأمور الله مفعولاً والأمر هنا في موضع المأمور سمي أمراً لأنه عن أمره كان. قوله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ قال ابن جرير الطبري معناه يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فعلى هذا يكون في الآية دلالة على أن اليهودي يسمى مشركاً في عرف الشرع وقيل إن الآية نزلت في وحشي وأصحابه، وذلك لما قتل حمزة رضي الله عنه ورجع إلي مكة ندم هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنا ندمنا على ما صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلاّ أنا سمعناك بمكة تقول والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر إلى آخر الآيات وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزلت ﴿إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ الآيتين فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم فلما قرؤوهما كتبوا إليه إن هذا شرط شديد ونخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً فنزلت إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فبعث إليهم فبعثوا إنا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم ثم قال لوحشي أخبرني كيف قتلت حمزة؟ فلما أخبره قال ويحك غيب وجهك عني فلحق بالشام فكان به إلى أن مات وقيل لما نزلت ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية قام رجل فقال: يا رسول الله والشرك؟ فسكت ثم قام إليه مرتين أو ثلاثاً فنزلت هذه الآية ومعنى الآية أن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء يعني ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء من أصحاب الذنوب والآثام. ففي الآية دليل على أن صاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة فإنه في خطر المشيئة إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بمنه وكرمه

أذرعاتٍ وأريحاء من الشام ﴿ أو نَلْعَنَهم كما لَعَنَّا أصحابَ السَّبْتِ ﴾، فنجعلهم قردة وخنازير، ﴿ وكانَ أمرُ اللَّهِ مفعولاً ﴾.

﴿ إنّ اللّهَ لا يَغفِرُ أنْ يُشرَكَ بِهِ ﴾، قال الكلبي: نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه وذلك أنه لمّا قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أنْ يُعتق فلم يُوفَ له بذلك، فلما قَدِمَ مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ أنّا قد نَدِمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلاّ أنا سمعناك تقول وأنت بمكة ﴿ والذينَ لا يدعُون معَ اللّهِ إلَهاً آخر ﴾ [الفرقان: ٦٨]، الآيات وقد دعونا مع الله إلَهاً آخر وقتلنا النفس التي حرّم الله وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتّبعناك، فنزلت: ﴿ إلاّ مَنْ تابَ وآمنَ وعملَ عملاً صالحاً ﴾ [الفرقان: ٧٠] الآيتين، فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم فلمّا قرؤوا كتبُوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل صالحاً، فنزل: ﴿ إنّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ ﴾ ﴿ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمَنْ يشاءُ ﴾، فبعث بها إليهم فبعثوا إليه: إنّا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت: ﴿ قلْ يا عباديَ الذينَ أسرَفُوا على أنفسهم لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحمةِ الله ﴾ [الزّمر: ٥٣]، فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتلتَ حمزة؟ فلمّا أخبره قال: «ويحك غيِّب وجهك عنّي»، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات، وقال أبو مجلز عن ابن عمر رضي الله عنه لمّا نزل: ﴿ قلْ يا عباديَ الذين أسرَفُوا على أنفسهم ﴾ [الزمر: ٥٣]، الآية قام رجل فقال: والشرك يا رسول الله، فسكتَ ثم قام إليه مرتين أو ثلاثاً فنزلت ﴿ إنّ اللّهَ لا يغفرُ أن يُشرَكَ به ﴾ وقال مُطرف بن عبد الله بن الشخير: قال ابن

وإن شاء عذبه بالنار ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه لأن الله تعالى وعد المغفرة لما دون الشرك فإن مات على الشرك فهو مخلد في النار لقوله إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وفي الآية رد على المعتزلة والقدرية حيث قالوا: لا يجوز في الحكمة أن يغفر لصاحب كبيرة وعند أهل السنة أن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له ولا حجر عليه ويدل على ذلك أيضاً ما روي عن ابن عمر قال كنا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ فأمسكنا عن الشهادة. وقال ابن عباس لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين الرجل يعمل من الصالحات لم يدع من الخير شيئاً إلّا عمله غير أنه مشرك قال عمر هو في النار فقال ابن عباس الرجل لم يدع شيئاً من الشر إلّا عمله غير أنه لم يشرك بالله شيئاً فقال عمر: الله أعلم قال ابن عباس: إني لأرجو له كما أنه لا ينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع التوحيد ذنب فسكت عمر. عن علي بن أبي طالب قال: ما في القرآن أحب إلي من هذه الآية إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (م) عن جابر قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك به دخل النار.

وقوله تعالى: ﴿**ومن يشرك بالله**﴾ يعني يجعل معه شريكاً غيره ﴿**فقد افترى**﴾ أي اختلق ﴿**إثماً عظيماً**﴾ يعني ذنباً عظيماً غير مغفور إن مات عليه. قوله عز وجل:.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

﴿**ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم**﴾ نزلت في رجال من اليهود أتوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء من ذنب؟ قال: لا قالوا: ما نحن إلّا كهيئتهم ما عملناه بالنهار يكفر عنا بالليل وما عملناه

عمر رضي الله عنه: كنّا على عهد محمد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يغفرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويغفرُ ما دُونَ ذلكَ لِمَنْ يشاء** ﴾ فأمسكنا عن الشهادات. حُكي عن علي رضي الله عنه أن أرجى آية في القرآن قوله: ﴿ **ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاء** ﴾. ﴿ **ومَنْ يُشرِكْ باللَّهِ فقَدِ افْتَرى** ﴾، اختلق، ﴿ **إثماً عظيماً** ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: «مَنْ ماتَ لا يُشركُ باللَّهِ شيئاً دخل الجنة، ومَنْ ماتَ يشركُ باللَّهِ شيئاً دخل النار» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو معمر أنا عبد الوارث عن حسين يعني المعلم عن عبد الله بن بريدة عن يحيىٰ بن يَعْمُر حدّثه أن أبا الأسود الديلي حدّثه أن أبا ذر حدّثه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيض وهو نائم ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما مِنْ عبدٍ قال: لا إله إلّا الله، ثم مات على ذلك إلّا دخل الجنة» قلتُ: وإنْ زنى وإنْ سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق»، قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق»، قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإنْ زنى وإنْ سرق على رَغْمِ أنفِ أبي ذر»، وكان أبو ذر إذا حدّث بهذا قال: وإنْ رغم أنف أبي ذر.

قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يُزَكُّونَ أنفسَهم** ﴾ الآية، قال الكلبي: نزلت في رجال من اليهود منهم

بالليل يكفر عنا بالنهار فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقولهم لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى والتزكية هنا عبارة عن مدح الإنسان نفسه الصلاح والدين منه تزكية الشاهد حتى يصير عدلاً قال الله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ وذلك لأن التزكية متعلقة بالتقوى وهي صفة في الباطن فلا يعلم حقيقتها إلاّ الله تعالى فلا تصلح التزكية إلاّ من عند الله تعالى فلهذا قال الله تعالى: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ ويدخل في هذا المعنى كل من ذكر نفسه بصلاح أو وصفها بزكاء العمل أو بزيادة الطاعة والتقوى أو بزيادة الزلفى عند الله تعالى فهذه الأشياء لا يعلمها إلاّ الله تعالى فلهذا قال: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ ومعنى يزكون أنفسهم يزعمون أنهم أزكياء لأنهم برؤوا أنفسهم من الذنوب قال تعالى رداً عليهم: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ فيجعله زاكياً ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ يعني أن الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تلك التزكية من غير ظلم وقيل معناه إن الذين زكاهم الله لا ينقصون من ثواب طاعتهم شيئاً والفتيل المفتول وسمي ما يكون في شق النواة فتيلاً لكونه على هيئته وقيل الفتيل هو ما تفتله بين أصابعك من وسخ وغيره ويضرب به المثل في الشيء الحقير الذي لا قيمة له ﴿انظر﴾ الخطاب للنبي ﷺ انظر يا محمد إلى هؤلاء اليهود ﴿كيف يفترون على الله الكذب﴾ يعني قولهم أنهم لا ذنوب لهم وتزكيتهم أنفسهم ﴿وكفى به﴾ أي بذلك الكذب ﴿إثماً مبيناً﴾ قوله عز وجل:.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ نزلت في كعب بن الأشرف وسبعين راكباً من اليهود قدموا مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على النبي ﷺ وينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزل كعب بن الأشرف على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزل باقي اليهود على قريش في دورهم أهل

بحري بن عمر والنعمان بن أوفى ومرحب بن زيد، أتوا بأطفالهم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال: «لا»، قالوا: وما نحن إلا كهيئتهم، ما عَمِلْنَا بالنهار يُكفَّر عنّا بالليل، وما عملنا بالليل يكفَّر عنّا بالنهار، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مجاهد وعكرمة: كانوا يُقدِّمون أطفالهم في الصلاة يزعمون أنهم لا ذنوب لهم فتلك التزكية، وقال الحسن والضحاك وقتادة ومقاتل: نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا: نحن أنصار الله وأحباؤه، ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ مَن كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هو تزكية بعضهم لبعض، رُوِيَ عن طارق بن شهاب عن ابن مسعود قال: إن الرجل ليغدو من بيته ومعه دِينُه فيأتي الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضرّاً ولا نفعاً فيقول: والله إنك كيتَ وكيتَ!! ويرجع إلى بيته وما معه من دِينِهِ شيء، ثم قرأ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يُزكُّون أنفسَهم ﴾، الآية. قوله تعالى: ﴿ بلِ اللَّهُ يُزكِّي ﴾ أي: يُطهِّر ويُبرِّىء من الذنوب ويُصلح، ﴿ مَنْ يشاءُ ولا يُظلمون فتيلا ﴾ وهو اسمٌ لِمَا في شِقّ النَّواة، والقطمير اسم للقشرة التي على النَّواة، والنقير اسم للنقرة التي على ظهر النَّواة، وقيل: الفتيل من الفتل وهو ما يجعل بين الأصبعين من الوسخ عند الفتل.

قوله تعالى: ﴿ انظرْ ﴾، يا محمد، ﴿ كيفَ يفترُونَ على الله ﴾، يختلقون على الله، ﴿ الكذبَ ﴾، في تغييرهم كتابه، ﴿ وكفَى بِهِ ﴾، بالكذب ﴿ إثماً مبيناً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصِيْباً مِنَ الكتابِ يُؤمنونَ بالجِبْتِ والطَّاغوتِ ﴾، اختلفوا فيهما فقال

مكة أنتم فقال لهم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا إلى هذين الصنمين ففعلوا ذلك فذلك قوله تعالى: ﴿**يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾ ثم قال كعب بن الأشرف لأهل مكة ليجيء منكم ثلاثون رجلاً ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب هذا البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ثم قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدي سبيلاً نحن أم محمد؟ قال كعب اعرض علي دينكم فقال أبو سفيان نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقري الضيف ونفك العاني ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال كعب أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد فأنزل الله تعالى ألم تر يعني يا محمد إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يعني كعب بن الأشرف وأصحابه اليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت يعني سجودهم للصنمين واختلف العلماء فيهما الجبت والطاغوت كل معبود دون الله تعالى، وقيل هما صنمان كانا لقريش وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش وقيل الجبت اسم للأصنام والطاغوت شياطين الأصنام ولكل صنم شيطان يعبر فيها ويكلم الناس فيغترون بذلك وقيل الجبت الكاهن والطاغوت الساحر عن قطن بن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت» أخرجه أبو داود وقال الطرق الزجر والعيافة الخط وقيل العيافة هي زجر الطير وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا خرج لأمر زجر طيراً فإذا أخذ ذات اليمين مضى في حاجته وإذا أخذ ذات الشمال رجع فنهوا عن ذلك والطرق هو ضرب الحجارة والحصا على طريق الكهانة فنهوا عنه والطيرة هو أن يتطير بالشيء فيرى الشؤم فيه

عكرمة: هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله، وقال أبو عبيدة: هما كل معبودٍ يُعبد من دون الله. قال الله تعالى: ﴿ أنِ اعْبُدوا اللّهَ واجتنبوا الطّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال عمر: الجِبْتُ: السحر، والطاغُوت: الشيطان. وهو قول الشعبي ومجاهد. وقيل: الجبتُ: الأوثان، والطاغوت: شياطين الأوثان. ولكل صنمٍ شيطان، يُعبِّر عنه، فيغترُّ به الناس. وقال محمد بن سيرين ومكحول: الجبتُ: الكاهن، والطاغوتُ: الساحر. وقال سعيد بن جبير وأبو العالية: الجبتُ: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوتُ: الكاهن. ورُوِيَ عن عكرمة: الجبتُ بلسان الحبشة: شيطان. وقال الضحاك: الجبتُ: حُيَيُّ بن أخطب، والطاغوتُ: كعب بن الأشرف. دليله قوله تعالى: ﴿ يُريدُون أن يتحاكمُوا إلى الطاغُوت ﴾ [النساء: ٦٠] أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن عوف العبدي عن حيّان عن قطن بن قَبيصة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «العِيَافَةُ والطَّرْقُ والطِّيَرةُ مِنَ الجِبْتِ». وقيل: الجبتُ كلُّ ما حرّم الله، والطاغوتُ كلُّ ما يُطغي الإنسان. ﴿ **ويقولونَ للذينَ كفرُوا هؤلاء أهدَى مِنَ الذين آمنُوا سَبيلاً** ﴾، قال المفسرون: خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحُد لِيُحالفُوا قريشاً على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دُور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأْمَنُ أن يكون هذا مكراً منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿ **يُؤمنونَ بالجِبْتِ والطّاغُوت** ﴾ ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون ومنّا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهِدُ ربَّ هذا البيت لنجهدنّ على قتال محمد ففعلوا، ثم قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤٌ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أُمّيُّون لا نعلم، فأيّنا أهدَى طريقة، نحنُ أم محمد؟ قال كعب: اعرضُوا عليَّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقري الضيف ونفكّ العاني ونصل الرحم ونُعمّر بيتَ ربِّنا ونطوف به ونحن أهل الحرم. ومحمد

والشر منه وقيل هو من التطير وهو زجر الطائر والخط هو ضرب الرمل لاستخراج الضمير وقيل الجبت كل ما حرم الله تعالى والطاغوت كل ما يطغى الإنسان وقيل الجبت هو حيي بن أخطب والطاغوت كعب بن الأشرف اليهوديان وكانا طاغية اليهود ﴿ويقولون﴾ يعني كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿للذين كفروا﴾ يعني لكفار قريش ﴿هؤلاء﴾ يعني أنتم يا هؤلاء ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ يعني طريقاً.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ يعني كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿ومن يلعن الله﴾ يعني يطرده من رحمته ﴿فلن تجد له نصيراً﴾ يعني ينصره.

قوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ هذا استفهام انكار يعني ليس لهم من الملك شيء البتة وذلك أن اليهود كانوا يقولون نحن أولى بالملك والنبوة فكيف نتبع العرب فأكذبهم الله تعالى وأبطل دعواهم ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ هذا جواب وجزاء لمضمر تقديره ولئن كان لهم نصيب وحظ من الملك فلا يؤتون الناس منه نقيراً وصفهم بالبخل في هذه الآية ووصفهم بالجهل في الآية المتقدمة ووصفهم بالحسد في الآية الآتية. وهذه الخصال كلها مذمومة فكيف يدعون الملك وهي حاصلة فيهم والنقير التي تكون على ظهر النواة ومنها تنبت النخلة ويضرب به المثل في الشيء الحقير التافه الذي لا قيمة له.

قوله عز وجل: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ أصل الحسد تمني زوال النعمة عمن هو مستحق لها وربما يكون ذلك مع سعي في زوالها وصف الله اليهود بشر خصلة وهي الحسد والمراد بالناس محمد ﷺ وحده وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد لأنه ﷺ اجتمع فيه من خصال الخير والبركة ما لا يجتمع مثله في جماعة ومن هذا القبيل يقال فلان أمة وحده يعني أن يقوم مقام أمة، وقيل المراد بالناس النبي ﷺ وأصحابه لأن لفظ الناس جمع وحمله على الجمع أولى والمراد بالفضل النبوة لأنها أعظم المناصب وأشرف

فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، وديننا القديم ودينُ محمد الحديث، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد وأصحابه، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصِيباً مِنَ الكتابِ ﴾، يعني: كعباً وأصحابه ﴿ يُؤمنون بالجِبْتِ والطاغوتِ ﴾، يعني: الصنمين ﴿ ويقولون للذين كفروا ﴾: أبي سفيان وأصحابه ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا ﴾ بمحمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم سبيلاً وديناً.

﴿ أولئكَ الذينَ لعَنَهُم اللَّهُ ومَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فلنْ تجد له نصيراً ﴾.

﴿ أمْ لَهُمْ ﴾ يعني ألهم والميم صلة ﴿ نَصِيبٌ ﴾ حظ ﴿ مِنَ المُلْكِ ﴾ وهذا على جهة الإنكار، يعني: ليس لهم من الملك شيء، ولو كان لهم من الملك شيء، ﴿ فإذاً لا يُؤْتُونَ الناسَ نقيراً ﴾، لحسدهم وبخلهم، النقير: النقطة التي تكون في ظهر النَّواة ومنها تنبت النخلة، وقال أبو العالية: هو نقر الرجل الشيءَ بطرف أصبعه كما ينقر الدرهم.

المراتب، وقيل حسدوه على ما أحلّ الله له من النساء وكان له يومئذٍ تسع نسوة. فقالت اليهود لو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن الاهتمام بأمر النساء فأكذبهم الله تعالى ورد عليهم بقوله ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾ يعني أنه قد حصل في أولاد إبراهيم ﷺ جماعة كثيرون جمعوا بين الملك والنبوة مثل داود وسليمان عليهما السلام فلم يشغلهم الملك عن أمر النبوة والمعنى كيف يحسدون محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضله وقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأنتم لا تحسدونهم. والمراد بالكتاب التوراة وبالحكمة النبوة ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ يعني فلم يشغلهم عن النبوة فمن فسر الفضل بكثرة النساء فسر الملك العظيم في حق داود وسليمان بكثرة النساء فإنه كان لداود مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة ثلاثمائة حرة وسبعمائة سرية ولم يكن لرسول الله ﷺ يومئذٍ إلاّ تسع نسوة ولما لم يكن ذلك مستبعداً في حقهم ولا نقصاً في نبوتهم فلا يكون مستبعداً في حق محمد ﷺ ولا نقصاً في نبوته ﴿فمنهم﴾ يعني من اليهود ﴿من آمن به﴾ أي بالنبي ﷺ وما أنزل الله إليه كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ومنهم من صد عنه﴾ أي أعرض عنه ولم يؤمن به ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ يعني وكفى في عذاب من لم يؤمن بالنبي ﷺ سعيراً.

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً﴾ هذا وعيد من الله عزّ وجلّ للذين أقاموا على كفرهم وتكذيبهم بما أنزل الله عز وجل على محمد ﷺ من اليهود وغيرهم من سائر الكفار والمعنى إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد من آياتي الدالة على توحيدي وصدق رسولي محمد ﷺ سوف نصليهم ناراً أي ندخلهم ناراً نشويهم فيها: ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ يعني احترقت ﴿بدلناهم جلوداً غيرها﴾ يعني غير الجلود

﴿ أَمْ يحسدُون النّاسَ ﴾، يعني: اليهود، ويحسدون الناس قال قتادة: المراد بالناس العرب حسدهم اليهود على النُّبوّة، وما أكرمهم الله تعالى بمحمد ﷺ. وقيل: أراد محمداً ﷺ وأصحابه، وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وجماعة: المراد بالناس رسول الله ﷺ وحده، حسدوه على ما أحلَّ الله له من النِّساء، وقالوا: ما له هَمٌّ إلاّ النكاح، وهو المراد من قوله: ﴿ على مَا آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾، وقيل: حسدوه على النُّبوّة وهو المراد من الفضل المذكور في الآية: ﴿ فقدْ آتينَا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحِكْمةَ ﴾، أراد بآل إبراهيم داود وسليمان وبالكتاب ما أنزل الله إليهم وبالحكمة النُّبوّة ﴿ وآتيناهمْ مُلكاً عظيماً ﴾ فمَنْ فسّر الفضلَ بكثرة النساء فسّر المُلكَ العظيم في حق داود وسليمان عليهما السلام بكثرة النساء، فإنه كان لسليمان ألف امرأة ثلاثمائة حرّة وسبعمائة سَرِيّة، وكان لداود مائة امرأة، ولم يكن يومئذ لرسول الله ﷺ إلاّ تسع نسوة، فلما قال لهم ذلك سكتوا.

قال الله تعالى: ﴿ فمنهم مَنْ آمنَ بِهِ ﴾، يعني: بمحمدٍ ﷺ، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿ ومنهمْ مَنْ صَدَّ عنه ﴾، أعرضَ عنه ولم يُؤمن به، ﴿ وكفى بجهنّم سَعِيراً ﴾، وُقوداً، وقيل: المُلك العظيم: مُلك سليمان. وقال السدي: الهاء في قوله: (مَـن آمن به وصدّ عنـه) راجعة إلى إبراهيم، وذلك أن إبراهيم زرع ذات سنة، وزرعَ الناسُ فهلكَ زرعُ الناس وزكا زرع إبراهيم عليه السلام، فاحتاج إليه الناس فكان يقول: مَن آمن بي أعطيته فمَن آمن به أعطاه، ومَن لم يؤمن به منعه.

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين كفرُوا بآياتِنا سوفَ نُصليهمْ ناراً ﴾، نُدخلهم ناراً، ﴿ كلّما نَضِجَتْ ﴾، احترقت، ﴿ جلودُهم بدّلنَاهم جلوداً غيرَها ﴾، غير الجلود المحترقة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُبدَّلون جلوداً بيضاً كأمثال القراطيس. ورُوِيَ أنّ هذه الآية قُرِئتْ عند عمر رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه للقارىء: أعدها فأعادها، وكان عنده معاذ بن جبل، فقال معاذ: عندي تفسيرها تُبدّل في كل ساعة مائة مرة، فقال عمر رضي الله

المحترقة قال ابن عباس: يبدلون جلوداً بيضاء كأمثال القراطيس. وروي أن هذه الآية قرئت عند عمر بن الخطاب فقال عمر للقارىء: أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ: عندي تفسيرها تبدل في كل ساعة مائة مرة فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ ذكره البغوي بغير سند وقال الحسن تأكلهم النار في كل يوم سبعين ألف مرة (ق) عن أبي هريرة يرفعه ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع (م) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر أو قال ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام». فإن قلت كيف تعذب جلود لم تكن في الدنيا ولم تعص؟ قلت يعاد الجلد الأول في كل مرة وإنما قال جلوداً غيرها لتبديل صفتها كما تقول صغت من خاتمي خاتماً غيره، فالثاني هو الأول غير أن الصناعة بدلت الصفة وقيل إن العذاب للجملة الحساسة وهي النفس التي عصت فإن كان كذلك فغير مستحيل إن الله يخلق للكافر في كل ساعة من الجلود ما لا يحصى لتحترق ويصل ألمها وقيل المراد بالجلود السرابيل وهو قوله: ﴿سرابيلهم من قطران﴾ والمعنى كلما نضجت سرابيلهم واحترقت بدلناهم سرابيل من قطران غيرها لأن الجلود لو احترقت لفنيت وفي فنائها راحتها وقد أخبر الله عنهم أنهم لا يموتون فيها ولا يخفف عنهم من عذابها ولأن الجلد أحد أجزاء الجسم فثبت أن التبديل إنما هو للسرابيل وقيل يبدل الجلد من نفس الكافر فيخرج من لحمه جلداً وقيل إن الله تعالى يلبس أهل النار جلوداً لا تألم لتكون زيادة في عذابهم كلما احترق جلد بدلهم جلداً غيره.

وقوله تعالى: ﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي إنما فعلنا بهم ذلك ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته وإنما أتى بلفظ الذوق مع ما ينالهم من عظم العذاب الذي نالوه إخباراً بأن إحساسهم به في كل حال فإحساس الذائق في تجديد وجدان الذوق من غير نقصان في الإحساس ﴿إن الله كان عزيزاً﴾ يعني في انتقامه ممن ينتقم من خلقه لا يغلبه شيء ولا يمتنع عليه أحد ﴿حكيماً﴾ يعني في تدبيره وقضائه وأنه لا يفعل إلاّ ما هو الصواب.

عنه: هكذا سمعت رسول الله ﷺ؟ قال الحسن: تأكلهم النار كلّ يوم سبعين ألف مرة كلّما أكلتهم قيل لهم عُودُوا فيعودون كما كانوا. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن أسيد أنا الفضل بن موسى أنا الفضيل عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما بين مَنْكِبَي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا شُريح بن يُونس أنا حُميد بن عبد الرحمن عن الحسن بن صالح عن هارون بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافر أو نابُ الكافر مثل أُحُد، وغِلَظُ جلده مسيرة ثلاثة أيام». فإن قيل: كيف تُعذّب جلود لم تكن في الدنيا ولم تعصه؟ قيل: يُعاد الجلد الأول في كلّ مرّة. وإنما قال: ﴿ جلوداً غيرَها ﴾ لتبديل صفتها، كما تقول: صنعتُ من خاتمي خاتماً غيره، فالخاتم الثاني هو الأول إلاّ أن الصناعة والصفة تبدّلت، وكمَن يترك أخاه صحيحاً ثم بعد مرة يراه مريضاً دَنِفاً فيقول: أنا غيرُ الذي عهدتَ، وهو عين الأول، إلاّ أن صفته تغيّرت. وقال السدي: يُبدّل الجلدُ جلداً عيره من لحم الكافر ثم يُسادُ الجلد لحماً ثم يُخرج من اللحم جلداً آخر. وقيل: يُعذّب الشخص في الجلد لا الجلد، بدليل أنه قال: ﴿ لِيَذُوقُوا العذابَ ﴾ ولم يقل: لتذوق. وقال عبد العزيز بن يحيىٰ: إنّ الله عزّ وجلّ يُلبس أهلَ النار جلوداً لا تألم، فيكون زيادةُ عذابٍ عليهم، كلّما احترق جلدٌ بدّلهم جلداً غيره، كما قال: ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فالسرابيل تُؤلمهم وهي لا تألم. قوله تعالى: ﴿ لِيَذُوقُوا العذابَ إنّ اللّهَ كانَ عزيزاً حكيماً ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٥٨﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم﴾ يعني سوف ندخلهم يوم القيامة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ يعني باقين فيها ﴿أبداً﴾ يعني ذلك الخلود بغير نهاية ولا انقطاع ﴿لهم فيها﴾ يعني في الجنات ﴿أزواج مطهرة﴾ يعني مطهرات من الحيض والنفاس وسائر أقذار الدنيا ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ كنيناً ذلك الظل لا تنسخه الشمس ولا يؤذيهم فيه حر ولا برد وذلك الظل هو ظل الجنة. فإن قلت إذا لم يكن في الجنة شمس يؤذي حرها فما فائدة وصفها بالظل الظليل؟ قلت إنما خاطبهم بما يعقلون ويعرفون وذلك لأن بلاد العرب في غاية الحرارة فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة واللذة فهو كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً.

قوله عز وجل: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ قال البغوي نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار وكان سادن الكعبة فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله ﷺ المفتاح فقيل له: إنه مع عثمان فطلب منه رسول الله المفتاح فأبى وقال لو علمت إنه رسول الله لم أمنعه المفتاح فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب ودخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وأن يجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه ففعل ذلك فقال له عثمان: أكرهت ثم جئت ترفق فقال علي لقد أنزل الله عز وجل في شأنك قرآناً وقرأ عليه الآية فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله فأسلم فكان المفتاح معه إلى أن مات فدفعه إلى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. قلت وفيما ذكره البغوي رحمه الله من إسلام عثمان بن طلحة يوم الفتح ومنعه المفتاح وقوله لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح نظر والصحيح ما حكاه أبو عمر بن عبدالبر وابن منده وابن الأثير أن عثمان بن طلحة هاجر إلى المدينة في هدنة الحديبية سنة ثمان مع خالد بن الوليد ولقيهما عمرو بن العاص مقبلاً من عند النجاشي فرافقهما وهاجر معهما فلما رآهم النبي ﷺ: قال رمتكم مكة بأفلاذ كبدها يعني أنهم وجوه أهل مكة فأسلموا وسلم عثمان بن طلحة المفتاح للنبي ﷺ يوم الفتح فرده النبي ﷺ إليه وقال خذوها يا بني طلحة خالدة مخلدة لا ينزعها منكم إلاّ ظالم ولم يذكروا سؤال العباس السدانة والله أعلم. وثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر أقبل النبي ﷺ عام الفتح وهو مردف أسامة على القصواء ومعه بلال وعثمان حتى أناخ عند البيت ثم قال لعثمان ائتنا بالمفتاح فجاءه بالمفتاح ففتح الباب. وذكر الحديث وذكر ابن الجوزي في تفسير هذه الآية من رواية أبي صالح عن

﴿ والذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ سَنُدْخِلُهُم جنّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِها الأنهار خَالِدِينَ فيها أبداً لهمْ فيها أزواجٌ مُطَهَّرةٌ ونُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظليلاً ﴾، كنيناً لا تنسخه الشمس ولا يُؤذيهم حرٌّ ولا بردٌ.

قوله تعالى: ﴿ إنّ اللّهَ يأمرُكم أنْ تُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها ﴾، نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار، وكان سَادِنَ الكعبة، فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان بابَ البيت وصَعَدَ السطح فطلبَ رسولُ الله ﷺ المفتاحَ، فقيل: إنه مع عثمان فطلبه منه رسول الله ﷺ فأبى، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنع المفتاح فَلَوَى عليٌّ رضي الله عنه يَدَهُ فأخذ منه المفتاحَ وفتحَ البابَ فدخلَ رسول الله ﷺ البيتَ وصلّى فيه ركعتين،

ابن عباس قال: إن النبي ﷺ لما فتح مكة طلب مفتاح البيت من عثمان بن طلحة فذهب ليعطيه إياه فقال العباس بأبي أنت وأمي اجمعه إلي مع السقاية فكف عثمان يده مخافة أن يعطيه العباس فقال النبي ﷺ: هات المفتاح فأعاد العباس قوله وكف عثمان يده فقال النبي ﷺ هات المفتاح أن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فقال هاكه يا رسول الله بأمانة الله فأخذ المفتاح الباب ونزل جبريل بهذه الآية فدعا عثمان ودفعه إليه ففي هذه الرواية أيضاً ما يدل على تقدم إسلام عثمان بن طلحة على فتح مكة. لأن قوله ﷺ لعثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر يدل على ذلك فعلى هذا القول يكون الخطاب في قوله إن الله يأمركم للنبي ﷺ وهو أن الله أمره أن يرد مفتاح البيت إلى عثمان بن طلحة. وقيل الخطاب في قوله إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها لولاة أمور المسلمين من الأمراء والحكام وغيرهم ويدل على ذلك سياق الآية وهو قوله وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ومعنى الآية إن الله يأمركم يا ولاة الأمور أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من أمور رعيتكم وأن توفوهم حقوقهم وأن تعدلوا بينهم. وقيل إن الآية عامة في جميع الأمانات ولا يمتنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل في ذلك جميع الأمانات التي حملها الإنسان ويقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول رعاية الأمانة في عبادة الله عز وجل وهو فعل المأمورات وترك المنهيات قال ابن مسعود الأمانة لازمة في كل شيء حتى في الوضوء والغسل من الجنابة والصلاة والزكاة والصوم وسائر أنواع العبادات. القسم الثاني هو رعاية الأمانة مع نفسه وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه فأمانة اللسان حفظه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك وأمانة العين غضها عن المحارم وأمانة السمع أن لا يشغله بسماع شيء من اللهو والفحش والأكاذيب ونحوه ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك. القسم الثالث هو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى فيجب عليه رد الودائع والعواري إلى أربابها الذين ائتمنوه عليها ولا يخونهم فيها عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب ويدخل في ذلك وفاء الكيل والميزان فلا يطفف فيهما ويدخل في ذلك أيضاً عدل الأمراء والملوك في الرعية ونصح العلماء للعامة فكل هذه الأشياء من الأمانة التي أمر الله عز وجل بأدائها إلى أهلها وروى البغوي بسنده عن أنس قال قلما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له».

وقوله تعالى: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ يعني وإن الله يأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل فيجب على الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه لمن وجب له وأصل العدل هو المساواة في الأشياء فكل ما خرج عن الظلم والاعتداء سمي عدلاً قال بعض العلماء ينبغي للقاضي أن يسوي بين الخصمين في خمسة أشياء في

فلمّا خرج سأله العباس المفتاح أن يعطيه ويجمع له بين السِّقاية والسِّدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ أن يردَّ المفتاحَ إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك عليٌّ رضي الله عنه، فقال له عثمان: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآناً، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله، وكان المفتاح معه فلمّا مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. وقيل: المراد من الآية جميع الأمانات. أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي الزاد أنا أبو بكر محمد بن إدريس الجرجاني وأبو أحمد بن محمد بن أحمد المعلم الهروي قال: أنا أبو الحسن علي بن عيسى المساليني أنا الحسن بن سفيان النسوي أنا شيبان بن أبي شيبة أخبرنا أبو هلال عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: فلمّا خطَبَنا رسولُ الله ﷺ قال: «ألاَ لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له ولا دينَ لِمَنْ لا عهدَ له». قوله تعالى: ﴿ وإذا حكمتُم بينَ الناسِ أنْ تحكمُوا بالعدلِ ﴾، أي: بالقسط، ﴿ إنّ اللّهَ نِعِمّا ﴾ أي: نعم الشيء الذي ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ إنّ اللّهَ كانَ سميعاً بصيراً ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن

الدخول عليه والجلوس بين يديه والإقبال عليهما والاستماع منهما والحكم بالحق فيما لهما وعليهما وحاصل الأمر فيه أن يكون مقصود الحاكم بحكمه إيصال الحق إلى مستحقه وأن لا يمتزج ذلك بغرض آخر (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم عنده مجلساً إمام عادل وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر» أخرجه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ يعني أنه تعالى سميع لما تقولون وبصير بما تفعلون فإذا حكمتم فهو يسمع حكمكم وإذا أديتم الأمانة فهو يبصر فعلكم. قوله عز وجل: :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (ق) عن ابن عباس قال لما نزل قوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول الله وأولي الأمر منكم» الآية قال نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية وقال السدي نزلت في خالد بن الوليد وذلك أنه بعثه رسول الله ﷺ على سرية وفيها عمار بن ياسر فلما قربوا من القوم هربوا منهم وجاء رجل إلى عمار قد أسلم فأمنه عمار فرجع الرجل فجاء خالد فأخذ مال الرجل فقال عمار إني قد أمنته وقد أسلم فقال خالد أتجير علي وأنا الأمير فتنازعا وقدما على رسول الله ﷺ فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير فأنزل الله تعالى أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وأصل الطاعة الانقياد وهو امتثال الأمر فطاعة الله عز وجل امتثال أمره فيما أمر والانقياد لذلك الأمر وطاعة الله

أحمد بن عبد الجبّار الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا ابن عبّاد بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «المُقسطون عند الله على منابرَ من نُور على يمين الرحمن، وكِلتَا يديهِ يمين، هم الذين يَعْدِلُون في حكمهم وأهليهم ومَا وُلّوا» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي أنا علي بن الجعد أنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحبَّ الناسِ إلى اللّهِ يومَ القيامةِ وأقربُهم منه مجلساً إمامٌ عادلٌ، وإنّ أبغضَ الناسِ إلى اللّهِ يومَ القيامةِ وأشدَّهم عذاباً إمامٌ جائرٌ».

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأطيعُوا الرّسُولَ وأولي الأمرِ مِنْكُم ﴾، اختلفوا في ﴿ أُولي الأمر ﴾، قال ابن عباس وجابر رضي الله عنهم: هم الفقهاء والعلماء الذين يعلّمون الناس معالِمَ دينهم، وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد، ودليلُه قوله تعالى: ﴿ ولو رَدُّوهُ إلى الرسولِ وإلى أُولي الأمر منهم لَعَلِمَهُ الذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ منهم ﴾ [النساء: ٨٣] وقال أبو هريرة: هم الأمراء والولاة، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدّي الأمانة فإذا فعل ذلك فحقٌّ على الرعيّة أن يسمعوا ويُطيعوا. أخبرنا أبو علي حسّان بن سعد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه أنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

واجبة على كافة الخلق. وكذا طاعة رسوله ﷺ واجبة أيضاً لقوله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فأوجب طاعة رسوله ﷺ على الخلق واختلف العلماء في أولي الأمر الذين أوجب طاعتهم بقوله وأولي الأمر منكم. يعني وأطيعوا أولي الأمر منكم قال ابن عباس وجابرهم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون معالم الناس دينهم وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد وقال أبو هريرة الأمراء والولاة. وهي رواية عن ابن عباس أيضاً قال علي بن أبي طالب حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني» (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلّا إن يؤمر بمعصية الله فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (خ) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله» وقال ميمون بن مهران هم أمراء السرايا والبعوث وهي رواية عن ابن العباس أيضاً ووجه هذا القول أن الآية نازلة فيهم. وقال عكرمة: أراد بأولي الأمر. أبا بكر وعمر لما روي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» أخرجه الترمذي وقيل هم جميع الصحابة لما روي عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» أخرجه رزين في كتابه وروى البغوي بسنده عن

الله ﷺ: «مَن أطاعني فقد أطاعَ الله، ومَن عصاني فقد عصى الله، ومَن يطعِ الأميرَ فقد أطاعني، ومَنْ يعصِ الأميرَ فقد عصاني» أخـبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيىٰ بن سعيد عن عبيد الله حدّثني نافع عن عبد الله رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «السمعُ والطاعةُ على المرءِ المسلم فيما أحبَّ وكَرِه، ما لم يُؤمَرْ بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن محمد الراودي أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد أخبرنا عبادة بن الوليد بن عبادة أن أباه أخبره عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمعِ والطاعةِ في العُسر واليُسرِ والمَنْشَطِ والمَكْرَه، وعلى أَثَرَةٍ علينا وعلى أنْ لا نُنازِعَ الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنّا لا نخاف في اللّهِ لَوْمَةَ لائم». أخبرنا أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبيد الله بن أحمد القفّال أنا أبو منصور أحمد بن الفضل البروجردي أنا أبو بكر بن محمد بن همدان الصيرفي أنا محمد بن يوسف الكديمي قال: أخبرنا أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي التياح عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي ذر: «اسمعْ وأطعْ ولو لعبدٍ حبشي كان رأسه زبيبة». أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي أنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس أنا محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا موسى بن عبد الرحمن الكندي أنا زيد بن الحباب أنا معاوية بن صالح حدّثني سليم بن عامر قال: سمعتُ أبا أمامة رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب في حَجّةِ الوَدَاع فقال: «اتقُوا اللّهَ وصِلُوا رحمَكم وصُومُوا شهرَكم وأدُّوا زكاةَ أموالكم وأطيعوا إذا أمركم تدخلُوا جنّةَ ربِّكُم».

وقيل: المراد أمراء السرايا، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا صدقة بن الفضل أنا حجّاج بن محمد عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ أطيعُوا اللّهَ والرسولَ وأُولي الأمر منكم ﴾، قال: نزلتْ في عُبيد الله بن حُذافة بن قيس بن عدي إذْ بعثه النبي ﷺ في سرية. وقال عكرمة: أراد بأُولي الأمر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. حدّثنا أبو المظفر محمد بن أحمد التهمي أنا أبو محمد عبد الرحمن عثمان بن القاسم أخبرنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسي

الحسن قال إن رسول الله ﷺ قال: «مثل أصحابي في أمتي كالملح في الطعام لا يصلح الطعام إلّا بالملح» قال الحسن قد ذهب ملحنا فكيف نصلح قال الطبري وأولى الأقوال بالصواب قول من قال هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله عز وجل طاعة وللمسلمين مصلحة وقال الزّجاج: وجملة أولي الأمر من يقوم بشأن المسلمين في أمر دينهم وجميع ما أدى إليه صلاحهم قال العلماء طاعة الإمام واجبة على الرعية ما دام على الطاعة فإذا زال عن الكتاب والسنة فلا طاعة له وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق.

وقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ يعني اختلفتم في شيء من أمر دينكم والتنازع اختلاف الآراء وأصله من انتزاع الحجة وهو أن كل واحد من المتنازعين ينزع الحجة لنفسه ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ أي ردوا ذلك الأمر الذي تنازعتم فيه إلى كتاب الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ ما دام حياً وبعد وفاته فردوه إلى سنته والرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجب إن وجد ذلك الحكم في كتاب الله أخذ به فإن لم يوجد في كتاب الله ففي سنة رسوله ﷺ فإن لم يوجد في السنة فسبيله الاجتهاد وقيل الرد إلى الله ورسوله أن يقول لما لا يعلم الله ورسوله أعلم ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ يعني افعلوا ذلك الذي أمرتكم به إن كنتم تؤمنون بالله وإن طاعته واجبة عليكم وتؤمنون بالميعاد الذي فيه جزاء الأعمال قال العلماء في الآية دليل على أن من لا يعتقد وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ومتابعة السنة والحكم بالأحاديث الواردة عن النبي ﷺ لا يكون مؤمناً بالله وباليوم الآخر ﴿ذلك خير﴾ يعني رد الحكم إلى الله ورسوله خير ﴿وأحسن تأويلاً﴾ يعني وأحمد عاقبة وقيل معناه ذلك أي ردكم ما اختلفتم فيه إلى الله ورسوله أحسن تأويلاً منكم له وأعظم أجراً. قوله عز وجل: .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (٦٠)

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت

أنا عمرو بن أبي غرزة بالكوفة أخبرنا ثابت بن موسى العابد عن سفيان بن عُيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقْتَدُوا باللّذينَ مِن بعدي أبي بكرٍ وعمر»، رضي الله عنهما، وقال عطاء: هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان بدليل قوله تعالى: ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي قال: أخبرنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن إسماعيل المكّي عن الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: قال رسُول الله ﷺ: «مثلُ أصحابي في أمتي كالملحِ في الطعامِ لا يَصْلُح الطعامُ إلّا بالملح». قال الحسن: قد ذهب مِلْحُنَا فكيف نصلح. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فإنْ تَنَازَعْتُم ﴾، أي: اختلفتم، ﴿ في شيء ﴾ في أمر دينكم، والتنازع: اختلاف الآراء وأصله من النزع فكان المتنازعان يتجاذبان ويتمانعان، ﴿ فَرُدُّوهُ إلى اللّهِ والرَّسُولِ ﴾، أي: إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حيّاً وبعد وفاته إلى سُنّته، والردّ إلى الكتاب والسُّنّة واجبٌ إن وُجد فيهما، فإن لم يُوجد فسبيله الاجتهاد. وقيل: الردُّ إلى الله تعالى والرسول أن يقول لِمَا لَا يعلم: اللّهُ ورسولُه أعلم. ﴿ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللّهِ واليومِ الآخر ذلك ﴾، أي: الردُّ إلى الله والرسول، ﴿ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾، أي: أحسنُ مآلاً وعاقبة.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يزعمُون أنهم آمنُوا بما أُنزل إليك وما أُنزلَ مِنْ قبلكَ يُريدونَ أن يَتحاكَمُوا

وقد أمروا أن يكفروا به﴾ قال ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي نتطلق إلى محمد وقال المنافق بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف وهو الذي سماه الله الطاغوت فأبى اليهودي أن يخاصمه إلاّ إلى رسول الله ﷺ فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي. فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا إلى عمر فأتيا عمر فقال اليهودي اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصمي إليك فقال عمر للمنافق أكذلك قال؟ قال نعم فقال لهما عمر: رويداً حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت هذه الآية وقال جبريل إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق. وقال السدي كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم وكانت قريظة والنضير في الجاهلية وكانت قريظة حلفاء الخزرج والنضير حلفاء الأوس وكان إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قتل به أو أخذت ديته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقاً فلما جاء الإسلام وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فاختصموا في ذلك فقال بنو النضير كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منا وديتنا مائة وسق وديتكم ستون وسقاً فنحن نعطيكم ذلك فقالت الخزرج هذا شيء كنتم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك، فاليوم نحن إخوة في الدين فلا فضل لكم علينا فقال المنافقون منهم ننطلق إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي وقال المسلمون من الفريقين بل ننطلق إلى النبي ﷺ فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة الكاهن ليحكم بينهم فقال أطعموا اللقمة يعني الخطر فقالوا لك عشرة أوسق فقال لا بل مائة وسق ديتي فأبوا أن يعطوه إلاّ عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم

إلى الطَّاغُوتِ﴾ الآية قال: الشعبي: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد لأنه عُرف أنه لا يأخذ الرشوة ولا يميل في الحكم، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ويميلون في الحكم، فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت هذه الآية. قال جابر: كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها واحداً في جُهينة وواحداً في أسلم، وفي كل حيّ واحد كهان، وقال الكلبي عن أبي صالح وابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي سمّاه الله الطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلاّ إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال: انطلق بنا إلى عمر رضي الله عنه فأتيا عمر فقال اليهودي: اختصمتُ أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرضَ بقضائه وزعم أنه يخاصم إليك، فقال عمر رضي الله عنه للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، قال لهما: رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين مَن لم يرضَ بقضاءِ اللَّهِ وقضاءِ رسولِهِ. فنزلت هذه الآية. وقال جبريل: إن عمر رضي الله عنه فرّق بين الحق والباطل، فسُمّيَ الفاروق. وقال السدي: كان ناس من اليهود أسلموا ونافق بعضُهم وكانت قريظة والنضير في الجاهلية إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قتل به أو أخذ ديّته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجلٌ من بني النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به وأُعطي ديّته ستّين وسقاً، وكانت النضير وهم حلفاء الأوس أشرف وأكثر من قريظة وهم حلفاء الخزرج، فلما جاء الله بالإسلام وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فاختصموا في ذلك، فقالت بنو النضير: كنّا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلون منّا، وديتكم ستّون وِسْقاً وديّتُنا مائة وِسْق، فنحن نعطيكم ذلك، فقالت الخزرج: هذا

فأنزل الله عز وجل آيتي القصاص وأنزل هذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ الزعم والزعم بضم الزاي وفتحها لغتان وأكثر ما يستعمل الزعم بمعنى القول الذي لا يتحقق. وقيل هو حكاية قول يكون مظنة للكذب ولذلك قيل زعم مطية الكذب والمراد به في هذه الآية الكذب لأن الآية نازلة في المنافقين وظاهر الآية يدل على أنها نازلة في الذين نافقوا من مؤمني أهل الكتاب ويدل عليه قوله آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يرون أن يتحاكموا إلى الطاغوت يعني كعب بن الأشرف في قول ابن عباس سماه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله ﷺ. وقيل هو أبو بردة الكاهن في قول السدي وقد أمروا أن يكفروا به يعني بالطاغوت لأن الكفر بالطاغوت إيمانن بالله عز وجل: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم﴾ يعني عن طريق الهدى والحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿وإذا قيل لهم﴾ يعني للمنافقين ﴿تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ يعني هلموا إلى حكم الله الذي أنزله في كتابه وإلى الرسول ليحكم بينكم به ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾ يعني يعرضون عنك وعن حكمك إعراضاً وأي إعراض وإنما أعرض المنافقون عن حكم رسول الله ﷺ لأنهم علموا أنه ﷺ كان يحكم بينهم بالحق الصريح ولا يقبل الرشا.

قوله عز وجل: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة﴾ يعني فكيف حال هؤلاء المنافقين وكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة يعجزون عنها ﴿بما قدمت أيديهم﴾ يعني تصيبهم عقوبة بسبب ما قدمت أيديهم وهو التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ وهذا وعيد لهم على سوء صنيعهم ورضاهم بحكم الطاغوت دون حكم رسول الله ﷺ وقيل المصيبة

شيء كنتم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقِلّتنا فقهرتُمونا، ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا ودينكم واحد فلا فضل لكم علينا، فقال المنافقون منهم: انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي، وقال المسلمون من الفريقين: لا بلْ إلى النبي ﷺ وأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة ليحكم بينهم، فقال: أعظموا اللقمة، يعني: الخطر، فقالوا: لك عشرة أوسق، قال: لا بل مائة وِسق ديتي، فأبوا أن يعطوه إلّا عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله تعالى آيتي القصاص، وهذه الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يزعمُون أنهم آمنوا بما أُنزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ من قبلكَ يُريدونَ أن يتحاكمُوا إلى الطاغُوتِ ﴾ يعني إلى: أبي بردة الكاهن أو كعب بن الأشرف، ﴿ وقد أُمروا أن يكفرُوا به، ويُريدُ الشيطانُ أنْ يضلّهم ضلالاً بعيداً ﴾.

﴿ وإذا قيلَ لهمْ تعالَوا إلى ما أنزَلَ اللَّهُ وإلى الرسولِ رأيتَ المنافقينَ يصدُّون عنك صُدُوداً ﴾ أي: يُعرضون عنكَ إعراضاً.

﴿ فكيفَ إذا أصابَتْهم مُصيبةٌ ﴾، هذا وعيد، أي: فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة، ﴿ بما قَدّمَتْ أيديهمْ ﴾، يعني: عقوبةَ صدودِهم، وقيل: هي كل مُصيبة تُصيب جميع المنافقين في الدنيا والآخرة، وتمّ الكلام هُنا، ثم عاد الكلام إلى ما سبق، يُخبر عن فعلهم فقال: ﴿ ثم جاؤُوكَ ﴾، يعني: يتحاكمون إلى الطاغوت، ﴿ ثم جاؤوك ﴾ أي: يجيئونك يحلفون، وقيل: أراد بالمصيبة قتل عمر رضي الله عنه المنافق، ثم جاؤوا يطلبون دِيَته،

هي قتل عمر لذلك المنافق وقيل هي كل مصيبة تصيب في الدنيا والآخرة ﴿ثم جاؤوك﴾ يعني المنافقين حين تصيبهم المصائب يعتذرون إليك ﴿يحلفون بالله إن أردنا﴾ أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إلاّ إحساناً﴾ يعني في التحاكم إلى غيرك لا إساءة ﴿وتوفيقاً﴾ يعني بين الخصمين لا مخالفة لك في حكمك وقيل جاء أولياء المنافق الذي قتله عمر يطلبون ديته وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلاّ أن يحسن إلى صاحبنا في حكمه ويوفق بينه وبين خصمه، وما خطر ببالنا أنه يحكم بما حكم به من قتل صاحبنا في حكمه ويوفق بينه وبين خصمه وما خطر ببالنا أنه يحكم بما حكم به من قتل صاحبنا فأهدر الله ذلك المنافق.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ يعني من النفاق ﴿فأعرض عنهم﴾ يعني عن عقوبتهم وقيل عن قبول عذرهم ﴿وعظهم﴾ يعني باللسان والمراد زجرهم بالوعظ عن النفاق والكفر والكذب وتخويفهم بعذاب الآخرة ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ يعني بليغاً يؤثر في قلوبهم موقعه وهو التخويف بالله عز وجل وقيل هو أن يوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا من النفاق. وقيل هو أن يقول إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قتلتم لأن هذا القول يبلغ في نفوسهم كل مبلغ وقيل معناه فأعرض عنهم في الملأ وقل لهم في أنفسهم إذا خلوت بهم قولاً بليغاً أي أغلظ لهم في القول خالياً بهم ليس معهم غيرهم مساراً لهم بالنصيحة لأنها في السر أنجع. وقيل هذا الإعراض منسوخ بآية القتال وقد تكلم العلماء في حد البلاغة فقال بعضهم البلاغة إيصال المعنى إلى الفهم في أحسن صورة من اللفظ وقيل البلاغة حسن العبارة مع صحة المعنى وقيل البلاغة سرعة الإيجاز مع الإفهام وحسن التصرف من غير إدجار. وقيل أحسن الكلام ما قلت ألفاظه وكثرت معانيه وقيل خير الكلام ما شوق أوله إلى سماع آخره وقيل لا يستحق الكلام اسم البلاغة إلاّ إذا طابق لفظه معناه ومعناه لفظه ولم يكن لفظه إلى السمع أسبق من معناه إلى القلب. وقيل المراد بالقول البليغ في الآية أن يكون حسن الألفاظ حسن المعاني مشتملاً على الترغيب والترهيب

﴿ يَحْلِفُون بالله إنْ أَرَدْنَا ﴾، ما أردنا بالعُدول عنه في المحاكمة أو بالترافع إلى عمر، ﴿ إلاّ إحْسَاناً وتوفيقاً ﴾، قال الكلبي: إلاّ إحساناً في القول، وتوفيقاً: صواباً، وقال ابن كيسان: حقاً وعدلاً، نظيره: ﴿ لَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنَا إلاّ الحُسنى ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وقيل: هو إحسان بعضهم إلى بعض، وقيل: هو تقريب الأمر من الحق، لا القضاء على أمر الحكم، والتوفيق: هو موافقة الحق، وقيل: هو التأليف والجمع بين الخصمين.

﴿ أولئك الذينَ يعلمُ اللّهُ ما في قلوبِهِمْ ﴾، مِنَ النفاق، أي: علم أنّ ما في قلوبهم خلاف ما في ألسنتِهم، ﴿فأعرضْ عنهم﴾، أي: عن عُقوبتهم. وقيل: هو التخويف بالله، وقيل: أن يُوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا، قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قُتلتم لأنه يبلغ من نفوسكم كل مبلغ، وقال الضحاك: ﴿ فأعرضْ عنهم وعِظْهم ﴾ في الملأ ﴿ وقلْ لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ في السرّ والخلاء، وقال: قيل هذا منسوخ بآية القتال.

والإعذار والإنظار والوعد والوعيد بالثواب والعقاب، فإن الكلام إذا كان كذلك عظم وقعه في القلوب وأثر في النفوس.

قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول**﴾ قال الزجاج لفظه من هنا صلة مؤكدة والمعنى وما أرسلنا رسولاً ﴿**إلا ليطاع بإذن الله**﴾ يعني بأمر الله والمعنى إنما وجبت طاعة الرسول بأمر الله لأن الله أذن في ذلك وأمر به وقيل معناه بعلم الله وقضائه أي طاعته تكون بإذن الله لأنه أذن فيه فتكون طاعة الرسول طاعة الله ومعصيته معصية الله والمعنى وما أرسلنا من رسول إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليهم وأنت يا محمد من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلوا إليهم ففيه توبيخ وتقريع للمنافقين الذين تركوا حكم رسول الله ﷺ ورضوا بحكم الطاغوت ﴿**ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم**﴾ يعني الذين تحاكموا إلى الطاغوت ظلموا أنفسهم بالتحاكم إليه ﴿**جاؤوك**﴾ يعني جاؤوك تائبين من النفاق والتحاكم إلى الطاغوت متنصلين مما ارتكبوا من المخالفة ﴿**فاستغفروا الله**﴾ يعني من ذلك الذنب بالإخلاص وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك برد حكمك والتحاكم إلى غيرك ﴿**واستغفر لهم الرسول**﴾ يعني من مخالفته والتحاكم إلى غيره وإنما قال واستغفر لهم الرسول ولم يقل واستغفرت لهم إجلالاً لرسول الله ﷺ وتفخيماً له وتعظيماً لاستغفاره وأنهم إذا جاؤوه فقد جاؤوا من خصه الله برسالته وجعله سفيراً بينه وبين خلقه ومن كان كذلك فإن الله تعالى لا يرد شفاعته فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات من لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة ﴿**لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾ يعني لو أنهم تابوا من ذنوبهم ونفاقهم واستغفرت لهم لعلموا أن الله يتوب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم. قوله عز وجل: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم**﴾ نزلت هذه الآية في الزبير بن العوام ورجل من الأنصار (ق) عن عروة بن الزبير عن أبيه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الأنصاري: سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك» فغضب الأنصاري ثم قال يا رسول الله إن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال للزبير اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر. فقال الزبير والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم**﴾ زاد البخاري فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذٍ للزبير حقه وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد أشار على الزبير رأياً أي أراد سعة له وللأنصاري فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم قال الزبير والله ما أحسب

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وما أرسلْنَا مِنْ رسولٍ إلاّ لِيُطاعَ بإذنِ الله ﴾، أي: بأمر الله لأنّ طاعة الرسول وجبت بأمر الله، قال الزجّاج: ليطاع بإذن الله لأنّ الله قد أذن فيه وأمر به، وقيل: إلاّ لِيُطاع كلام تام كافٍ، بإذن الله تعالى أي: بعلم الله وقضائه، أي: وقوعُ طاعته يكون بإذن الله، ﴿ ولو أنهم إذْ ظَلَمُوا أنفسَهم ﴾، لتحاكمهم إلى الطّاغوت ﴿ جاؤُوكَ فاستغفرُوا اللّهَ واستغفرَ لهمُ الرسولُ لَوَجَدُوا اللّهَ توّاباً رحيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا وربِّكَ لا يُؤمنُونَ حتى يُحكِّمُوك ﴾، الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير: أنّ الزبير رضي الله عنه كان يحدّث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً إلى رسول الله ﷺ في شراج مِنَ الحرّة كانا يسقيان به، كلاهما فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسقِ يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصاري، ثم قال: يا رسول الله أن كان ابن عمّتك؟ فتلوّن وجهُ رسول الله ﷺ، ثم قال للزبير: «اسقِ ثم احبسِ الماءَ حتى يرجع إلى الجدر»، فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقَّه، وكان رسول الله ﷺ أشار على الزبير رأياً، أي: أراد سعة له وللأنصار، فلمّا أَحْفَظَ الأنصاريُ رسولَ الله ﷺ استوعى للزبير حقّه في صريح الحكم. قال

هذه الآية نزلت إلا في ذلك. قوله في شراج الحرة الشراج مسايل الماء التي تكون من الجبل وتنزل إلى السهل الواحدة شرجة بسكون الراء والحرة الأرض الحمراء المتلبسة بالحجارة السود وقوله فتلون وجه رسول الله ﷺ يعني تغير وقوله فلما أحفظ أي أغضب رسول الله ﷺ وقوله حتى يرجع إلى الجدر هو بفتح الجيم يعني أصل الجدار وقوله فاستدعى له أي استوفى له حقه في صريح الحكم. وهو أن من كان أرضه أقرب إلى فم الوادي فهو أولى بأول الوادي وحقه تمام السقي فرسول الله ﷺ أذن للزبير في السقي على وجه المسامحة فلما أبى خصمه ذلك ولم يعترف بما أشار به رسول الله ﷺ من المسامحة لأجله أمر الزبير باستيفاء حقه على التمام وحمل خصمه على مر الحق. فعلى هذا القول تكون الآية مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها قال البغوي: وروي أنهما لما خرجا مرا على المقداد فقال لمن كان القضاء قال الأنصاري لابن عمته ولوى شدقه ففطن له يهودي كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه في قضاء يقضي بينهم وايم الله لقد أذنبنا ذنباً مرة في حياة موسى فدعا موسى إلى التوبة منه فقال فاقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا. فقال ثابت بن قيس بن شماس: أما والله إن الله ليعلم مني الصدق ولو أمرني محمد أن أقتل نفسي لفعلت. وقال مجاهد والشعبي نزلت هذه الآية في بشر المنافق واليهودي اللذين اختصما إلى الطاغوت. وعلى هذا القول تكون الآية متصلة بما قبلها فلا وربك معناه فوربك فعلى هذا تكون لا مزيدة لتأكيد معنى القسم. وقيل إن لا رد لكلام سبق كأنه قال ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك ثم استأنف القسم فقال تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم يعني فيما اختلفوا فيه من الأمور وأشكل عليهم حكمه وقيل فيما التبس عليهم يقال شاجره في الأمر إذا نازعه فيه وأصله التداخل والاختلاط وشجر الكلام إذا دخل بعضه في بعض واختلط ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ يعني ضيقاً مما قضيت وقيل شكاً فيما قضيت بل يرضوا بقضائك ﴿ويسلموا تسليماً﴾ يعني وينقادوا لأمرك انقياداً أو لا يعارضونك في شيء من أمرك وقيل معناه يسلموا ما تنازعوا فيه لحكمك قوله عز وجل: .

عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية إلّا نزلت في ذلك ﴿ فَلَا وربِّك لا يُؤمنونَ حتّى يحكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ﴾ الآية. ورُوِيَ أن الأنصاري الذي خاصم الزبير كان اسمه حاطب بن أبي بلتعة فلما خَرَجَا مرَّ على المقداد فقال: لِمَن كان القضاء، فقال الأنصاري: قضى لابن عمّته ولَوَى شدقيه ففطن له يهودي كان مع المقداد، فقال: قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتّهمونه في قضاءٍ يقضي بينهم، وأيْمُ الله لقد أذنبنا ذنباً مرّة في حياة موسى عليه السلام فدعاني موسى إلى التوبة منه، فقال: اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنّا، فقال ثابت بن قيس بن شماس: أمَا والله إنّ الله ليعلم منّي الصدقَ ولو أمرني محمد أن أقتل نفسي لفعلت، فأنزل الله في شأن حاطب بن أبي بلتعة: ﴿ فلَا وربِّكَ لا يُؤمنونَ حتى يُحكِّمُوكَ ﴾، وقال مجاهد والشعبي: نزلت في بِشْر المنافق واليهودي اللّـذين اختصما إلى عمر رضي الله عنه. قوله تعالى: ﴿ فلا ﴾ أي: ليس الأمر كما يزعمون أنهم مؤمنون ثمّ لا يرضون بحكمك، ثم استأنف القَسَم ﴿ وربِّك لا يُؤمنُون ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ لا ﴾ في قوله: ﴿ فلا ﴾ صلة، كما في قوله: ﴿ فلا أقسم ﴾ [الواقعة: ٧٥، الحاقة: ٣٨، المعارج: ٤٠، التكوير: ١٥، الانشقاق: ١٦]، ﴿حتى يُحكِّمُوكَ﴾: أي يجعلوك حكماً، ﴿فيمَا شَجَرَ بينهمْ﴾، أي: اختلف واختلط من أمورهم والْتَبَس عليهم حُكمه، ومنه الشجر لالْتِفَافِ أغصانه بعضها ببعض، ﴿ ثم لا يجدُوا في أنفسِهم حرجاً ﴾، قال مجاهد: شكّاً، وقال غيره: ضِيقاً، ﴿ ممّا قَضَيتَ ﴾، قال الضحاك: إثْماً، أي: يأثمون بإنكارهم ما قضيت، ﴿ ويُسلِّمُوا تسليماً ﴾ أي: ينقادوا لأمرك انقياداً.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

﴿ولو أنا كتبنا عليهم﴾ أي فرضنا وأوجبنا عليهم الضمير في عليهم يعود على المنافقين وقيل يعود الضمير على الكافة فيدخل فيه المنافق وغيره ﴿أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ يعني كما كتبنا على بني إسرائيل القتل والخروج من مصر ﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ معناه لم يفعله إلا القليل منهم نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أن رجلاً من اليهود قال: والله لقد كتب الله علينا القتل والخروج ففعلنا فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا ذلك لفعلنا وهو من القليل الذي استثنى الله وقيل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله ﷺ وهم القليل الذين ذكرهم الله والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن من أمتي لرجالاً الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي» ومن قال إن الضمير في عليهم يعود إلى المنافقين قال معنى ما فعلوه إلا قليل منهم يعني رياء وسمعة والمعنى إن ما كتبنا عليهم إلا طاعة رسول الله ﷺ والرضا بحكمه ولو أنا كتبنا عليهم القتل والخروج من الدور والوطن ما كان فعله إلا نفر يسير منهم وقرىء ﴿إلا قليلاً منهم﴾ بالنصب وتقديره إلا أن يكون قليلاً منهم ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ يعني ولو أنهم فعلوا ما كلفوا به من طاعة الرسول الله ﷺ والرضا بحكمه ﴿لكان خيراً لهم﴾ يعني في الدنيا والآخرة وإنما سمي ذلك التكليف وعظاً لأن أوامر الله تعالى وتكاليفه مقرونة بالوعد والوعيد والثواب والعقاب وما كان كذلك يسمى وعظاً ﴿وأشد تثبيتاً﴾ يعني تحقيقاً وتصديقاً لإيمانهم، والمعنى أن ذلك أقرب إلى إثبات إيمانهم وتصديقهم ﴿وإذاً لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيماً﴾ يعني ثواباً وافراً جزيلاً وإذا جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ماذا يكون من هذا الخير والتثبيت قال هو أن نؤتيهم من لدنا أجراً عظيماً ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ قال ابن عباس معناه ولأرشدناهم إلى دين مستقيم يعني دين الإسلام وقيل معناه ولهديناهم إلى الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى المستقيم وهو

قوله تعالى: ﴿ ولو أنّا كتبْنَا ﴾ أي: فرضنا وأوجبنا، ﴿ عليهم أنِ اقتلُوا أنفسَكم ﴾، كما أمرنا بني إسرائيل ﴿ أوِ اخرُجُوا مِنْ دِيَارِكم ﴾، كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر، ﴿ ما فعلوه ﴾، معناه: ما كتبنا عليهم إلّا طاعة الرسول والرضَى بحكمه، ولو كتبْنَا عليهم القتلَ والخروجَ عن الدُّور ما كان يفعله، ﴿ إلا قليل منهم ﴾، نزلت في ثابت بن قيس وهو من القليل الذي استثنى الله. قال الحسن ومقاتل لمّا نزلت هذه الآية قال عمر وعمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وناس منَ أصحاب النبي ﷺ وهم القليل: والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إنّ من أُمتي لرجالاً الإيمانُ في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي»، قرأ ابن عامر وأهل الشام (إلّا قليـلاً) بالنصب على الاستثناء، وكذلك هو في مصحف أهل الشام، وقيل: فيه إضمار، تقديره: إلّا أن يكون قليلاً منهم، وقرأ الآخرون قليل بالرفع على الضمير الفاعل في قوله: ﴿ فعلوه ﴾ تقديره: إلّا نفر قليل فعلوه، ﴿ ولو أنّهم فعلُوا ما يُوعَظُون بهِ ﴾، يُؤمرون به من طاعة الرسول والرضى بحكمه، ﴿ لكانَ خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً ﴾، تحقيقاً أو تصديقاً لإيمانهم.

﴿ وإذاً لأتيناهمْ مِنْ لدنّا أجراً عظيماً ﴾، ثواباً وَافِراً.

﴿ وَلَهديناهُمْ صِرَاطاً مُستقيماً ﴾، أي: إلى الصراط المستقيم.

الصراط الذي يمر عليه المؤمنون إلى الجنة لأن الله تعالى ذكر الأجر العظيم أولاً ثم ذكر الصراط المستقيم بعده لأنه هو المؤدي إلى الجنة. قوله عز وجل: .

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: ما غير لونك فقال يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك. ثم إني إذا ذكرت الآخرة أخاف أن لا أراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين وإني أخاف إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً فنزلت هذه الآية وقيل إن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: كيف يكون الحال وأنت يا رسول الله في الدرجات العلى ونحن أسفل منك فكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ ومن يطع الله﴾ يعني في أداء الفرائض واجتناب النواهي ﴿والرسول﴾ أي ويطع الرسول في السنن التي سنها فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم يعني بالهداية والتوفيق في الدنيا وبدخول الجنة في الآخرة ﴿من النبيين)﴾يعني أن المطيعين مع النبيين في الجنة لا تفوتهم رؤية الأنبياء في الجنة ومجالستهم لأنهم يكونون في درجتهم في الجنة لأن ذلك يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول ﴿والصديقين﴾ الصدّيق الكثير الصدق فعيل من الصدق والصديقون هم أتباع الرسل الذين اتبعوهم على مناهجهم بعدهم حتى لحقوا بهم وقيل الصديق هو الذي صدق بكل الدين حتى لا يخالطه فيه شك والمراد بالصديقين في هذه الآية أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ كأبي بكر فإنه هو الذي سمي بالصديق من هذه الأمة وهو أفضل أتباع الرسل ﴿والشهداء﴾ هم الذين استشهدوا في سبيل الله وقيل هم الذين استشهدوا يوم أُحد ﴿والصالحين﴾ جمع صالح وهو الذي استوت سريرته وعلانيته في الخير. وقيل الصالح من اعتقاده صواب وعمله في سنة وطاعة وقيل المراد بالنبيين هنا محمد ﷺ

قوله تعالى: ﴿ ومَنْ يُطعِ اللَّهَ والرسولَ فأولئكَ معَ الذينَ أنعمَ اللَّهُ عليهمْ مِنَ النَّبيِّين ﴾ الآية، نزلتْ في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم قد تغيّر لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «ما غيّر لونك»؟ فقال: يا رسول الله ما بي مرض ولا وجع غير أني إن لم أرَكَ اسْتَوْحَشْتُ وحشةً شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة فأخاف أن لا أراك لأنَّك تُرفع مع النبيِّين، وإنِّي إن دخلت الجنة كنتُ في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية. وقال قتادة: قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنتَ في الدرجات العُلى ونحن أسفل منك؟ وكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ ومَنْ يُطعِ اللَّهَ ﴾ في أداء الفرائض، ﴿ والرسول ﴾ في السُّنن ﴿ فأولئك مع الذينَ أنعمَ اللَّهُ عليهم من النبيين ﴾ أي لا تفوتهم رؤية الأنبياء ومجالستهم لأنهم يرفعون إلى درجة الأنبياء، ﴿ والصدِّيقين ﴾، وهم أفاضل أصحاب النبي ﷺ، والصدِّيق المبالغ في الصدق، ﴿ والشهداء ﴾، قيل: هم الذين استشهدوا في يوم أُحُد، وقيل: الذين استشهدوا في سبيل الله، وقال عكرمة: النبيُّون ههنا محمد ﷺ، والصدِّيق أبو بكر، والشهداء عمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم، ﴿ والصالحين ﴾، سائر الصحابة رضي الله عنهم، ﴿ وحَسُنَ أولئكَ رَفِيقاً ﴾، يعني: رفقاء الجنة، والعرب تضع الواحد موضع الجمع، كقوله تعالى: ﴿ ثم نُخرجُكم طِفْلاً ﴾ [الحج: ٥] أي: أطفالاً ﴿ ويُولّون الدُّبر ﴾ [القمر: ٤٥] أي: الأدبار. أخبرنا عبد الواحد بن

وبالصديقين أبو بكر وبالشهداء عمر وعثمان وعلي وبالصالحين سائر الصحابة ﴿وحسن أولئك﴾ يعني المشار إليهم وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وفيه معنى التعجب كأنه قال وما أحسن أولئك ﴿رفيقاً﴾ يعني في الجنة والرفيق الصاحب سمي رفيقاً لارتفاقك به وبصحبته وإنما وحد الرفيق وهو صفة الجمع لأن العرب تعبر به عن الواحد والجمع وقيل معناه وحسن كل واحد من أولئك رفيقاً (ق) عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة: فقال متى الساعة قال: «وما أعددت لها قال لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله فقال أنت مع من أحببت» قال أنس فما فرحنا بشيء أشد فرحاً بقول النبي ﷺ أنت مع من أحببت قال أنس: فأنا أحب النبي وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بأعمالهم. وقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من وصف الثواب ﴿الفضل من الله﴾ يعني الذي أعطى الله المطيعين من الأجر العظيم ﴿وكفى بالله عليماً﴾ يعني بجزاء من أطاعه وقيل معناه وكفى بالله عليماً بعباده فهو يوفقهم لطاعته وفيه دليل على أنهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم بل إنما نالوها بفضل الله تعالى ورحمته ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة» لفظ البخاري ولمسلم نحوه. قوله عز وجل: .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ الحذر احتراز من مخوف والمعنى احذروا واحترزوا من عدوكم. ولا تمكنوه من أنفسكم وقيل المراد بالحذر هنا السلاح يعني خذوا سلاحكم وعدتكم لقتال عدوكم وإنما سمي السلاح

أحمد المليحي أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو العباس السراج أنا قتيبة بن سعد أنا حمّاد بن زيد عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يحبّ قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال النبي ﷺ: «المرءُ مع مَنْ أحبَّ». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي وأبو عمرو ومحمد بن عبد الرحمن النسوي قالا: أخبرنا أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو عباس الأصم أنا أبو يحيىٰ زكريا بن يحيىٰ المروزي أنا سفيان بن عُيينة عن الزهري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ومَا أعددت لها»؟ قال: لا شيء إلاّ أني أحبّ اللّهَ ورسولَه قال: «فأنت مع مَن أحببت».

﴿ ذلكَ الفضلُ من اللّهِ وكفَى باللّهِ عليماً ﴾ أي: بثواب الآخرة، وقيل: مَن أطاع رسول الله وأحبَّه، وفيه بيان أنهم لن ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، وإنّما نالُوها بفضل الله عزّ وجلّ. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يعلى بن عبيد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قارِبُوا وسَدِّدُوا واعلمُوا أنه لا ينجو أحدٌ منكم بعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ اللّهُ بفضلٍ منه ورحمة».

قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمنوا خُذُوا حِذْرَكم ﴾، من عدوِّكم، أي: من عِدَّتِكم وآلتِكم من السلاح،

حذراً لأن به يتقى ويحذر. وقيل معناه احذروا عدوكم ولقائل أن يقول إذا كان المقدور كائناً فما يمنع الحذر فالجواب عنه بأنه لما كان الكل بقضاء الله وقدره كان الأمر بأخذ الحذر من قضاء الله وقدره ﴿فانفروا ثبات﴾ أي اخرجوا سرايا متفرقين سرية بعد سرية ﴿أو انفروا جميعاً﴾ يعني أو اخرجوا جميعاً كلكم مع نبيكم ﷺ إلى جهاد عدوكم ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ نزلت في المنافقين. وإنما قال منكم لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية والنسب وإظهار كلمة الإسلام لا في حقيقة الإيمان والمعنى وإن منكم لمن ليتأخرن وليتثاقلن عن الجهاد وهو عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق وكان رأس المنافقين ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ أي قتل وهزيمة ﴿قال﴾ يعني هذا المنافق ﴿قد أنعم الله علي﴾ يعني بالقعود ﴿إذا لم أكن معهم﴾ يعني مع المؤمنين ﴿شهيداً﴾ يعني حاضر الوقعة فيصيبني ما أصابهم ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي فتح وغنيمة ﴿ليقولن﴾ يعني هذا المنافق ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ أي معرفة ومودة في الدين والمعنى كأنه ليس من أهل دينكم وذلك أن المنافقين كانوا يوادّون المؤمنين في الظاهر ﴿يا ليتني كنت معهم﴾ في تلك الغزوة التي غنم فيها المؤمنون ﴿فأفوز فوزاً عظيماً﴾ أي فآخذ نصيباً وافراً من الغنيمة.

قوله عز وجل: ﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ هذا خطاب للمنافق أي فليخلص الإيمان وليقاتل في سبيل الله وقيل هو خطاب للمؤمنين المخلصين أي فليقاتل المؤمنون في سبيل الله ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي يبيعون يقال شريت بمعنى بعت لأنه استبدال عوض بعوض. والمعنى فليقاتل المؤمنون الكافرين الذين يبيعون حياتهم في

والحَذَرُ والحِذْرُ واحد كالمَثَلِ والمِثْلِ والشَّبَهِ والشِّبْهِ، ﴿ فانْفِرُوا ﴾ اخْرُجُوا **﴿ ثُبَاتٍ ﴾** أي: سرايا متفرقين سريّة **بعد سريّة، والثبات جماعات في تفرقة واحدتها ثبة، ﴿ أوِ انْفِرُوا جميعاً ﴾** أي: مجتمعين كلكم مع النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ وإنْ مِنكُم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾، نزلت في المنافقين، وإنما قال: **﴿ منكم ﴾** لاجتماعهم مع أهل **الإيمان في الجنسيةِ والنسبِ وإظهارِ الإسلام، لا في** حقيقة الإيمان، **﴿ ليُبطِّئَنَّ ﴾** أي: ليتأخرنّ، وليتثاقلنّ عن **الجهاد، وهو عبد الله بن أُبي المنافق، واللام في ﴿ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾** لام القسم، والتبطئة: التأخر عن الأمر، يقال: ما أبطأ **بك؟ أي: ما أخّرك عنّا؟** ويقال: إبطاء وبطأ يبطيء تبطئة. **﴿ فإنْ أصابَتْكُم مُصيبةٌ ﴾** أي: قتلٌ وهزيمة، **﴿ قالَ قدْ أنعمَ اللّهُ عليّ ﴾** بالقُعود، **﴿ إذْ لم أكن معهم شهيداً ﴾،** أي: حاضراً في تلك الغزاة فيصيبني ما أصابهم.

﴿ ولَئِنْ أصابَكُم فَضْلٌ مِنَ الله ﴾، فتحٌ وغنيمة، **﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾** هذا المنافق، وفيه تقديم وتأخير، وقوله: **﴿ كأنْ لم تكن بينَكُم وبينَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ متّصل بقوله: ﴿ فإنْ أصابَتْكم مصيبةٌ ﴾** تقديره: فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً، **﴿ كأنْ لمْ تكنْ بينَكُمْ وبينَهُ مَوَدَّةٌ ﴾** أي: معرفة، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب **﴿ تكن ﴾** بالتاء، والباقون بالياء، أي: ولئن أصابكم فضلٌ من الله لَيَقُولَنّ: **﴿ يا ليتني كنتُ معهمْ ﴾ في تلك الغزاة، ﴿ فأفوزَ فوزاً عظيماً ﴾، أي:** آخذ نصيباً وافراً من الغنيمة، وقوله: **﴿ فأفوز ﴾** نصب على جواب التمنّي **بالفاء، كما تقول:** وددت أن أقوم فيتبعني الناس.

قوله تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ في سبيلِ اللّهِ الّذِينَ يَشْرُونَ الحياةَ الدّنيا بالآخِرة ﴾، قيل: نزلت في المنافقين، **ومعنى يشرون أي:** يشترون، يعني الذين يختارون الدنيا على الآخرة، معناه: آمنوا ثم قاتلوا، وقيل: نزلت في **المؤمنين المخلصين،** معناه فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون أي: يبيعُون الحياة الدنيا بالآخرة ويختارُون الآخرة **﴿ ومَنْ يُقاتِلْ في سبيلِ الله فَيُقْتَلْ ﴾،** يعني يستشهد، **﴿ أو يَغْلِبْ ﴾،** يظفر، **﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾،** في كِلا الوجهين **﴿ أجْراً عظيماً ﴾،** ويدغم أبو عمرو والكسائي الباء في الفاء حيث كَانْ أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد

الدنيا بثواب الآخرة وما وعد الله فيها لأهل الإيمان والطاعة وقيل معناه فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الذين يبيعون الحياة الدنيا ويختارون الآخرة وثوابها على الدنيا الفانية ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل﴾ أي فيستشهد ﴿أو يغلب﴾ يعني يظفر بعدوه من الكفار ﴿فسوف نؤتيه﴾ يعني في كلا الحالتين الشهادة أو الظفر نؤتيه فيهما ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني ثواباً وافراً (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ» لفظ مسلم. قوله عز وجل:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ قال المفسرون: هذا حض من الله على الجهاد في سبيله لاستنقاذ المؤمنين المستضعفين من أيدي الكفار وفيه دليل على أن الجهاد واجب والمعنى لا عذر لكم في ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى ﴿والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ قال ابن عباس يريد أن قوماً من المؤمنين استضعفوا فحبسوا وعذبوا وقيل كان هؤلاء بمكة يلقون من المشركين أذى شديداً. وكان أهل مكة قد اجتهدوا أن يفتنوا قوماً من المؤمنين عن دينهم بالأذى لهم وكانوا مستضعفين في أيديهم ولم يكن لهم بمكة قوة يمتنعون بها من المشركين فعلى هذا يكون معنى الآية: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين. وقال ابن عباس معناه وعن المستضعفين لأن المراد صرف الأذى عنهم (خ) عن ابن عباس في قوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾ الآية. قال كنت أنا وأمي من المستضعفين وفي رواية ابن أبي مليكة قال تلا ابن عباس ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ قال كنت أنا وأمي ممن عذر الله أنا من الولدان وأمي من النساء فعلى هذه الرواية الثانية من حديث ابن عباس يكون معنى والمستضعفين إلا المستضعفين

السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «تكفلَ اللَّهُ لمنْ جاهدَ في سبيلِ اللَّهِ لا يُخرجُهُ من بيتِهِ إلَّا الجهادُ في سبيلٍ وتصديقِ كلمتِهِ أن يُدخلَه الجنَّة أو يرجعَه إلى مسكنِهِ الذي خرجَ منه معَ ما نالَ من أجرٍ أو غنيمة» أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مثلُ المجاهدِ في سبيلِ اللَّهِ كمثلِ القانتِ الصائمِ الذي لا يفترُ من صلاةٍ ولا صيامٍ حتى يُرجعَه اللَّهُ إلى أهلِهِ بما يرجعُه من غنيمةٍ وأجرٍ، أو يتوفَّاه فيُدخله الجنة».

قوله تعالى: ﴿ وما لكم لا تقاتلون ﴾ لا تجاهدون ﴿ في سبيل الله ﴾، في طاعة الله، يعاتبهم على ترك الجهاد، ﴿ والمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ أي: عن المستضعفين، وقال ابن شهاب: في سبيل المستضعفين لتخليصهم، وقيل: في تخليص المستضعفين من أيدي المشركين، وكان بمكة جماعة، ﴿ مِنَ الرجالِ والنِّساءِ والوِلْدَانِ ﴾، يلقون من المشركين أذىً كثيراً، ﴿ الذينَ ﴾ يَدْعُون و﴿ يقُولُون ربَّنا أخرِجْنَا مِنْ هذهِ القريةِ الظَّالِمِ أهْلُها ﴾، يعني: مكة، الظالم أي: المشرك، أهلها يعني القرية التي من صفتها أن أهلها مشركين، وإنما خفض ﴿ الظالم ﴾ لأنه نعتٌ للأهل، فلما عاد الأهل إلى القرية صار الفعل لها، كما يقال مررت برجل حسنة عينه. ﴿ واجعلْ لنا مِنْ لَدُنْكَ

من الرجال والنساء والولدان فإنهم ممن عذر الله في ترك القتال والولدان جمع وليد وهو الصبي الصغير ﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾ يعني مكة ﴿الظالم أهلها﴾ يعني الظالم أهلها أنفسهم بالشرك لقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وذلك أن المستضعفين لما منعهم المشركون من الهجرة من مكة إلى المدينة دعوا الله عز وجل فقالوا ربنا أخرجنا من هذه القرية يعني مكة الظالم أهلها بالشرك ﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾ يعني ولياً يلي أمرنا ﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ يعني يبصرنا ويمنعنا من العدو فاستجاب الله دعاءهم وجعل لهم من لدنه خير ولي وخير ناصر وهو محمد رسول الله ﷺ فتولى أمرهم ونصرهم واستنقذهم من أيدي المشركين يوم فتح مكة واستعمل عليهم عتاب بن أسيد وكان ابن ثمان عشرة سنة فكان ينصر المظلومين على الظالمين ويأخذ للضعيف من القوي.

قوله عز وجل: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ يعني في طاعة الله وإعلاء كلمته وابتغاء مرضاته ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ يعني في طاعة الشيطان ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ أي فقاتلوا أيها المؤمنون حزب الشيطان وجنوده وهم الكفار ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ الكيد السعي في الفساد على جهة الاحتيال ويعني بكيده ما كاد المؤمنين به من تخويفه أولياءه الكفار يوم بدر وكونه ضعيفاً لأنه خذل أولياءه الكفار لما رأى الملائكة قد نزلت يوم بدر وكان النصر لأولياء الله وحزبه على أولياء الشيطان وإدخال كان في قوله ضعيفاً لتأكيد ضعف كيد الشيطان. قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ قال الكلبي نزلت في عبد الرحمن بن عوف الزهري والمقداد بن الأسود الكندي وقدامة بن مظعون الجمحي وسعد بن أبي وقاص وجماعة من أصحاب

﴿ وَلِيّاً ﴾، أي: مَن يلي أمرنا لَدُنك، ﴿ واجعلْ لنا مِنْ لَدُنْكَ نصيراً ﴾، أي: مَن يمنع العدوَّ عنّا، فاستجاب الله دعوتهم، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ولّى عليهم عتاب بن أسيد وجعله الله لهم نصيراً ينصف المؤمنين المظلومين من الظالمين.

قوله تعالى: ﴿ الّذينَ آمنوا يُقاتِلُونَ في سبيلِ اللّهِ ﴾، أي: في طاعته، ﴿ والّذِينَ كفرُوا يُقاتِلُون في سبيلِ الطّاغُوت ﴾ أي: في طاعة الشيطان، ﴿ فَقاتِلُوا ﴾ أيّها المؤمنون ﴿ أوْلِيَاءَ الشّيطان ﴾ أي: حِزبَه وجنودَه الكفّار، ﴿ إنّ كَيْدَ الشّيطان ﴾، مَكْرَه، ﴿ كانَ ضعيفاً ﴾، كما فعل يوم بدر لمّا رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخذلهم.

قوله تعالى: ﴿ ألَمْ تَرَ إلى الّذينَ قِيلَ لَهمْ كُفُّوا أيْدِيَكُم ﴾، الآية، قال الكلبي: نزلت في عبد الرحمن بن عوف الزهري، والمقداد بن الأسود الكندي، وقدامة بن مظعون الجمحي، وسعد بن أبي وقاص، وجماعة كانوا

النبي ﷺ كانوا يلقون من المشركين أذى كثيراً بمكة قبل أن يهاجروا فكانوا يقولون يا رسول الله ائذن لنا في قتالهم فإنهم قد آذونا فيقول لهم رسول الله ﷺ: «كفوا أيديكم فإني لم أومر بقتالهم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» يعني قيل لهم كفوا أيديكم عن قتالهم وأدوا ما افترض عليكم من الصلاة والزكاة وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة كان قبل فرض الجهاد ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ أي فرض عليهم جهاد المشركين وأمروا بالخروج إلى بدر ﴿إذا فريق منهم﴾ يعني إذا جماعة من الذين سألوا أن يفرض عليهم الجهاد ﴿يخشون الناس﴾ يعني يخافون مشركي مكة ﴿كخشية الله أو أشد خشية﴾ أو بمعنى الواو يعني وأشد خشية ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ يعني لمَ فرضت علينا الجهاد ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ يعني هلاّ تركتنا ولم تفرض علينا القتال حتى نموت بآجالنا والقائلون لهذا القول هم المنافقون لأن هذا القول لا يليق بالمؤمنين وقيل قاله بعض المؤمنين وإنما قالوا ذلك خوفاً وجبناً لا اعتقاداً ثم إنهم تابوا من هذا القول ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿متاع الدنيا قليل﴾ يعني أن منفعتها والاستمتاع بالدنيا قليل لأنه فان زائل ﴿والآخرة﴾ يعني وثواب الآخرة ﴿خير لمن اتقى﴾ يعني اتقى الشرك ومعصية الرسول ﷺ ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾ أي ولا تنقصون من أجوركم قدر فتيل (م) عن المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه وأشار يعني بالسبابة في اليم فلينظر بم ترجع».

قوله عز وجل: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ نزلت في المنافقين الذين قالوا في قتلى أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فرد الله عليهم بهذه الآية وقيل نزلت في الذين قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ يعني ينزل بكم الموت فبيّن تعالى أنه لا خلاص لهم من الموت وإذا كان

يلقون من المشركين بمكة أذىً كثيراً قبل أن يهاجروا، ويقولون: يا رسول الله إئذنْ لنا في قتالهم فإنهم قد آذُونا، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «﴿ كُفوا أيديكم ﴾ فإني لم أؤمر بقتالهم»، ﴿ وأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ ﴾، فلمّا هاجرُوا إلى المدينة وأمرهم الله بقتال المشركين شقّ ذلك على بعضهم، قال الله تعالى: ﴿ فلمَّا كُتِبَ ﴾ فُرِضَ، ﴿ عليهمُ القتالُ إذا فريقٌ مِنهم يَخْشَونَ الناسَ ﴾، يعني: يخشون مشركي مكة، ﴿ كَخَشْيَةِ الله ﴾ أي: كخشيتهم من الله، ﴿ أو أشدَّ ﴾ أكبر، ﴿ خَشْيَةً ﴾، وقيل: معناه وأشدّ خشية، ﴿ وقالُوا ربَّنا لِمَ كَتَبْتَ علينا القتالَ ﴾، الجهادَ، ﴿ لَوْلَا ﴾، هلاّ، ﴿ أخرتَنا إلى أجلٍ قريبٍ ﴾، يعني: الموت، أي: هلاّ تركتَنا حتى نموت بآجالنا؟ واختلفُوا في هؤلاء الذين قالوا ذلك، فقيل: قاله قوم من المنافقين لأن قوله: ﴿ لِمَ كَتَبْتَ علينا القتالَ ﴾، لا يليق بالمؤمنين، وقيل: قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه خوفاً وجبناً لا اعتقاداً ثم تابُوا، وأهل الإيمان يتفاضلون في الإيمان، وقيل: هم قوم كانوا مؤمنين فلمّا فرض عليهم القتال نافقوا من الجبن وتخلّفوا عن الجهاد، ﴿ قلْ ﴾: يا محمد، ﴿ متاعُ الدنيا ﴾ أي: منفعتها والاستمتاع بها ﴿ قليلٌ والآخرةُ ﴾، أفضل، ﴿ لمَنِ اتقَى ﴾، الشركَ ومعصيةَ الرسول، ﴿ ولا تُظْلَمُونَ فتيلاً ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وحمزة والكسائي بالياء والباقون تظلمون بالتاء. أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن معاوية الصيدلاني أخبرنا الأصم أنا عبد الله بن محمد بن شاكر أنا محمد بن بشر العبدي أنا مُسْعَرُ بن كِدَام عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم حدّثني المستورد بن شدّاد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ فلينظر بِمَ يرجع».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أَيْنما تكونُوا يُدْرِكْكُم الموتُ ﴾ أي: ينزل بكم الموت، نزلت في المنافقين الذين قالوا في قتلى أُحُد: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فردَّ اللَّهُ عليهم بقوله: ﴿ أينما تكونُوا يُدْرِكُّكُم الموت ﴾ ﴿ ولو كنتُم في بُروجٍ مُشَيَّدةٍ ﴾، والبروج: الحصون والقلاع، والمشيّدة: المرفوعة المطوّلة، قال قتادة: معناه في قصورٍ محصنة،

لا بد لهم من الموت كان القتل في القتال في سبيل الله وجهاد أعدائه أفضل من الموت على الفراش لأن الجهاد موت تحصل به سعادة الآخرة ثم بيّن تعالى أنه لا بد لهم من الموت وأنه لا ينجي منه شيء بقوله: ﴿**ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ البروج في كلام العرب الحصون والقلاع والمشيدة المرفوعة المطولة وقيل هي المطلية بالشيد وهو الجص ﴿**إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله**﴾ نزلت في المنافقين واليهود وذلك أن المدينة كانت ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم النبي ﷺ فلما ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك فقال المنافقون واليهود ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه. فقال الله تعالى وإن تصبهم يعني المنافقين واليهود حسنة أي خصب في الثمار ورخص في السعر يقولوا هذه من عند الله يعني من قبل الله ﴿**وإن تصبهم سيئة**﴾ أي جدب في الثمار وغلاء في السعر ﴿**يقولوا هذه من عندك**﴾ يعني من شؤم محمد وأصحابه وقيل المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أُحد ومعنى من عندك أنت الذي حملتنا عليه يا محمد فعلى هذا القول يكون هذا إخباراً عن المنافقين خاصة ﴿**قل**﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿**كلّ من عند الله**﴾ يعني الحسنة والسيئة والخصب والجدب والغنيمة والهزيمة والظفر والقتل فأما الحسنة فإنعام من الله وأما السيئة فابتلاء منه ﴿**فمال هؤلاء القوم**﴾ أي فما شأن هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا ﴿**لا يكادون يفقهون حديثاً**﴾ يعني لا يفقهون معاني القرآن وأن الأشياء كلها من الله عز وجل خيرها وشرها. قوله تعالى: .

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾

﴿**ما أصابك من حسنة**﴾ يعني من خير ونعمة ﴿**فمن الله**﴾ يعني من فضل الله عليك يتفضل به إحساناً منه إليك ﴿**وما أصابك من سيئة**﴾ يعني من شدة ومكروه ومشقة وأذى ﴿**فمن نفسك**﴾ يعني فمن قبل نفسك وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به وفي المخاطب بهذا الكلام قولان: أحدهما أنه عام وتقديره ما أصابك أيها الإنسان والثاني أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد به من غيره من الأمة والنبي ﷺ بريء لأن الله عز وجل قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقد عصمه من حين البعثة فهو معصوم فيما يستقبل حتى يموت ويدل على أن المراد بهذا الخطاب

وقال عكرمة: مُجَصَّصة، والشّيد: الجص، ﴿ **وإنْ تُصبهم حسنةٌ** ﴾، نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم قالوا لمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة: ما زِلْنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قَدِمَ علينا هذا الرجل وأصحابه، قال الله تعالى: ﴿ **وإن تُصبهم** ﴾ يعني: اليهود حسنة أي خصب ورخص في السعر، ﴿ **يقولُوا هذهِ منْ عندِ الله** ﴾، لنا، ﴿ **وإنْ تصبهم سيئةٌ** ﴾ يعني: الجدب وغلاء الأسعار ﴿ **يقولُوا هذهِ من عندك** ﴾ أي: من شؤم محمد وأصحابه، وقيل: المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر، وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أُحُد، يقولون هذه من عندك أي: أنت الذي حملتنا عليه يا محمد، فعلى هذا يكون هذا من قول المنافقين، ﴿ **قلْ** ﴾، لهم يا محمد، ﴿ **كلٌّ من عند الله** ﴾، أي: الحسنة والسيئة كلها من عند الله، ثم عيّرهم بالجهل فقال: ﴿ **فمالِ هؤلاءِ القَوْمِ** ﴾ يعني: المنافقين واليهود، ﴿ **لَا يكادُونَ يفقهُون حديثاً** ﴾ أي: لا يفقهون قولاً، وقيل: الحديث ههنا هو القرآن أي: لا يفقهون معاني القرآن، قوله: ﴿ **فمالِ هؤلاء** ﴾ قال الفرّاء: كثرت في الكلام هذه الكلمة حتى توهّمُوا أنّ اللاّم متصلة بها وأنّهما حرف واحد، ففصلوا اللاّم بما بعدها في بعضه، ووصلوها في بعضه، والقراءة الاتصال، ولا يجوز الوقف على اللام لأنها لام خافضة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ما أصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ** ﴾، خير ونعمة ﴿ **فمِنَ اللّهِ وما أصابَكَ منْ سيئةٍ** ﴾، بليّةٍ أو أمر تكرهه، ﴿ **فمِنْ نَفْسِك** ﴾، أي: بذنوبك، والخطاب للنبي ﷺ المراد غيره، نظيره قوله تعالى: ﴿ وما أصابكُم منْ

غيره قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ خاطبه وحده ثم جمع الكل بقوله إذا طلقتم النساء فمعنى قوله فمن نفسك أي عقوبة لذنبك يا ابن آدم كذا قاله قتادة. وقال الكلبي: ما أصابك من خير فالله هداك له وأعانك فيه وما أصابك من أمر تكرهه فبذنبك عقوبة لذلك الذنب وقد تعلق بظاهر هذه الآية القدرية وقالوا نفى الله السيئة عن نفسه ونسبها إلى الإنسان بقوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا متعلق لهم بها لأنه ليس المراد من الآية حسنة الكسب من الطاعات ولا السيئة المكتسبة من فعل المعاصي بل المراد من الحسنة والسيئة في هذه الآية ما يصيب الإنسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعل العبد لأنه لا يقال في الطاعة والمعصية أصابني وإنما يقال أصبتها. ويقال في النعم والمحن أصابني بدليل أنه لم يذكر عليه ثواباً ولا عقاباً فهو كقوله تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ ولما ذكر الله حسنات الكسب وسيئاته وعد عليها بالثواب والعقاب فقال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ فبطل بهذا قول القدرية وقال بعضهم لو كانت الآية على ما يقول أهل القدر لقال ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة ولم يقل ما أصابك لأن العادة جرت بقول الإنسان أصابني خير أو مكروه وأصبت حسنة أو سيئة وقيل في معنى الآية ما أصابك من حسنة أي النصر والظفر يوم بدر فمن الله أي من فضل الله، وما أصابك من سيئة أي من قتل وهزيمة يوم أُحد فمن نفسك يعنى فبذنوب أصحابك وهو مخالفتهم إياك. فإن قلت كيف وجه الجمع بين قوله تعالى قل كل من عند الله وبين قوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فأضاف السيئة إلى فعل العبد في هذه الآية. قلت أما إضافة الأشياء كلها إلى الله تعالى في قوله: ﴿قل كل من عند الله﴾ فعلى الحقيقة لأن الله تعالى وهو خالقها وموجدها وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد فعلى المجاز تقديره وما أصابك من سيئة فمن الله بذنب نفسك عقوبة لك وقيل السيئة إلى فعل العبد على سبيل الأدب فهو كقوله تعالى: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ فأضاف المرض إلى نفسه على طريق الأدب ولا يشك عاقل أن المرض هو الله تعالى وقيل هذه متصلة بما قبلها وفيه إضمار وتقديم وتأخير تقديره فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ويقولون ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك قل كل من عند الله وقال ابن الأنباري في معنى الآية ما أصابك الله به من حسنة وما أصابك به من سيئة فالفعلان

مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكم ﴾ [الشورى: ٣٠] وتعلّق أهل القدر بظاهر هذه الآية، فقالوا: نفى اللّهُ تعالى السيئةَ عن نفسه ونسبها إلى العبد، فقال: ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾، ولا متعلّق لهم فيه، لأنه ليس المراد من الآية حسنات الكسب ولا سيئاته من الطاعات والمعاصي، بل المراد منهم ما يُصيبهم من النِّعم والمِحن، وذلك ليس من فعلهم بدليل أنه نسبها إلى غيرهم ولم ينسبها إليهم، فقال: ﴿ ما أصابك ﴾ ولا يقال في الطاعة والمعصية أصابني، إنّما يقال: أصبتها، ويقال في المِحَن: أصابني، بدليل أنه لم يذكر عليه ثواباً ولا عقاباً، فهو كقوله تعالى: ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومَن معه ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فلما ذكر حسنات الكسب وسيئاته نسبها إليه، ووعد عليها الثواب والعقاب، فقال: ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنةِ فَلَهُ عَشْرُ أمثالِها ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فلا يُجزَى إلاّ مثلَها ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقيل: معنى الآية: ما أصابك من حسنة من النصر والظفر يوم بدر فمن الله، أي: من فضل الله، وما أصابك من سيئة من القتل والهزيمة يوم أُحُد فمن نفسك، أي: يعني فبذنوب أصحابك، وهو مخالفتهم لك، فإن قيل: كيف وَجْهُ الجمع بين قوله: ﴿ قلْ كلٌّ من عند الله ﴾ وبين قوله: ﴿ فمن نفسك ﴾؟ قيل: قوله: ﴿ قلْ كلٌّ من عند الله ﴾ أي: الخصبُ والجَدْبُ والنصرُ والهزيمةُ كلُّها من عند الله، وقوله: ﴿ فمنْ نفسِك ﴾ أي: وما أصابك من سيئة من الله فبذنبِ نفسِكَ عقوبةً لك، كما قال الله تعالى: ﴿ وما أَصَابَكُم مِنْ مُصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أيديكم ﴾ [الشورى: ٣٠]، يدلّ عليها ما روَى مجاهد عن ابن عباس رضي

راجعان إلى الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ يعني وأرسلناك يا محمد إلى كافة الناس رسولاً لتبلغهم رسالتي وما أرسلتك به ولست رسولاً إلى العرب خاصة كما قال بعض اليهود بل أنا رسول إلى الخلق كافة العرب وغيرهم ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ يعني على إرسالك للناس كافة فما ينبغي لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك، وقيل معناه وكفى بالله شهيداً على تبليغك ما أرسلت به إلى الناس وقيل معناه وكفى بالله شهيداً على أن الحسنة والسيئة من الله قوله عز وجل:.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أحبني فقد أحب الله» فقال بعض المنافقين ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً فأنزل الله هذه من يطع الرسول يعني فيما أمر به ونهى عنه فقد أطاع الله يعني أن طاعة الرسول ﷺ طاعة الله تعالى لأنه هو أمر بها. وقال الحسن جعل الله طاعة رسوله ﷺ طاعته وقامت به الحجة على المسلمين. وقال الشافعي: إن كل فريضة فرضها الله في كتابه كالحج والصلاة والزكاة لولا بيان رسول الله ﷺ لها ما كنا نعرف كيف نأتيها ولا كان يمكننا أداء شيء من العبادات وإذا كان الرسول ﷺ بهذه المنزلة الشريفة كانت طاعته على الحقيقة طاعة الله ﴿ومن تولى﴾ أي أعرض عن طاعته ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ يعني حافظاً تحفظ أعمالهم عليهم بل كل أمرهم إلى الله قال المفسرون وكان هذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ ذلك بآية القتال قوله تعالى: ﴿ويقولون طاعة﴾ نزلت في المنافقين وذلك أن المنافقين كانوا يقولون باللسان لرسول الله ﷺ آمنا بك وصدقناك فمرنا فأمرك طاعة أي أمرنا وشأننا طاعة ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي خرجوا من عندك ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ التبييت كل أمر يفعل بالليل يقال هذا أمر مبيت إذا دبر بليل وقضي بليل فقد بيت والمعنى أنهم قالوا وقدروا أمرا بالليل غير الذي أعطوك بالنهار من الطاعة وقيل معنى بيت غير وبدل طائفة منهم غير الذي تقول يعني غير الذي

الله عنهما: أنه قرأ ﴿ وما أصابَكَ من سيئةٍ فمنْ نفسِك ﴾ وأنا كتبتُها عليك. وقال بعضهم: هذه الآية متصلة بما قبلها، والقول فيه مضمر تقديره: فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾، قـلْ كلٌ من عنـد الله. ﴿ وأرسَلناكَ ﴾، يا محمد، ﴿ للنّاسِ رسولاً وكفَى باللّهِ شهيداً ﴾، على إرسالك وصدقك، وقيل: كفَى بالله شهيداً على أن الحسنة والسيئة كلها من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ مَنْ يُطعِ الرسولَ فقدْ أطاعَ الله ﴾، وذلك أن النبي ﷺ كان يقول: «مَنْ أطاعني فقدْ أطاعَ اللّهَ ومَن أحبّني فقدْ أحبَّ الله» فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلّا أن نتخذه ربّاً كما اتخذتِ النصارى عيسى ابن مريم ربّاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَنْ يُطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾ أي: مَن يُطعِ الرسول فيما أمر به فقد أطاع الله، ﴿ ومَنْ تولّى ﴾، عن طاعته، ﴿ فما أرسلناك ﴾، يا محمد، ﴿ عليهم حفيظاً ﴾، أي: حافظاً ورقيباً على كل أمورهم، وقيل: نسخ الله عزّ وجلّ هذا بآية السيف، وأمره بقتال مَن خالف الله ورسوله.

﴿ ويقولُونَ طاعةٌ ﴾، يعني: المنافقين يقول باللسان للرسول ﷺ: إنّا آمنّا بك فمرنا فأمرك طاعة، قال النحويون: أي أمرُنا وشأنُنا أن نطيعك، ﴿ فإذا بَرَزُوا ﴾، خرجُوا، ﴿ من عندك بيت طائفة منهم غيرَ الذي

عهدت إليهم فعلى هذا يكون التبييت بمعنى التبديل وإنما خص طائفة من المنافقين بالتبييت في قوله منهم. وكلمة من للتبعيض لأنه تعالى علم أن منهم من يبقى على كفره ونفاقه ومنهم من يرجع عنه ويتوب فخص من يصر على النفاق والذكر وقيل إن طائفة منهم اجتمعوا في الليل وبيتوا ذلك القول فخصهم بالذكر ﴿والله يكتب﴾ أي يثبت ويحفظ عليهم ﴿ما يبيتون﴾ يعني ما يزورون ويغيرون ويقدرون وقال ابن عباس يكتب ما يسرون من النفاق ﴿فأعرض عنهم﴾ أي لا تعاقبهم يا محمد ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم وخلهم في ضلالتهم فأنا منتقم منهم وقيل لا تغتر بإسلامهم ﴿وتوكل على الله﴾ أي فوض أمرك إلى الله في شأنهم فإن الله يكفيك أمرهم وينتقم لك منهم ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يعني ناصراً لك عليهم قوله عز وجل:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ أصل التدبر النظر في عواقب الأمور والتفكر في أدبارها ثم استعمل في كل تفكر وتأمل. يقال تدبرت الشيء أي نظرت في عاقبته ومعنى تدبر القرآن تأمل معانيه وتفكر في حكمه وتبصر ما فيه من الآيات. قال ابن عباس: أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه فيرون تصديق بعضه لبعض وما فيه من المواعظ والذكر والأمر والنهي وأن أحداً من الخلق لا يقدر عليه قال العلماء إن الله تعالى احتج بالقرآن والتدبر فيه على صحة نبوة محمد ﷺ والحجة في ذلك من ثلاثة أوجه أحدها فصاحته التي عجز الخلائق عن الإتيان بمثلها في أسلوبه. الثاني إخباره عن الغيوب وهو ما يطلع الله تعالى نبيه ﷺ على أحوال المنافقين وما يخفونه من مكرهم وكيدهم فيفضحهم بذلك وغير ذلك من الاخبار عن أحوال الأولين وأخبارهم وما يأتي في المستقبل من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى. الثالث سلامته من الاختلاف والتناقض وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ قال ابن عباس يعني تفاوتاً وتناقضاً وفي رواية عنه لو كان من عند مخلوق لكان فيه كذب واختلاف وقيل معناه لوجدوا في إخباره عن الغيب بما يكون وبما قد كان اختلافاً كثيراً لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى. وإذا كان كذلك ثبت أنه من عند الله وأنه ليس فيه اختلاف ولا تناقض وقيل لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً من حيث البلاغة والفصاحة والمعنى لو كان من عند مخلوق لكان على قياس الكلام المخلوق بعضه فصيح بليغ حسن وبعضه مردود ركيك فاسد فلما كان القرآن جميعه على منهاج واحد في الفصاحة والبلاغة ثبت أنه

تقول ﴾، قال قتادة والكلبي: بيّت أي: غيّر وبدّل الذي عَهِدَ إليهم النبي ﷺ، ويكون التبييت بمعنى التبديل، وقال أبو عبيدة والقتيبي: معناه قالوا وقدرُوا ليلاً غير ما أعطوك نهاراً وكل ما قدر بليل فهو مبيت، وقال أبو الحسن الأخفش: تقول العرب للشيء إذا قُدِّرَ: بُيِّتَ، يُشبّهونه بتقدير بيوت الشعر، ﴿ واللَّهُ يَكْتُبُ ﴾ أي: يُثبتُ ويحفظ، ﴿ ما يُبيِّتون ﴾، ما يُزوّرون ويُغيّرون ويُقدّرون، وقال الضحاك عن ابن عباس: يعني ما يُسرّون من النفاق، ﴿ فأعرضْ عنهم ﴾، يا محمد ولا تعاقبهم، وقيل: لا تُخبرْ بأسمائهم، مُنع الرسول ﷺ من الأخبار بأسماء المنافقين، ﴿ وتوكّلْ على اللَّهِ وكفَى باللَّهِ وكيلاً ﴾، أي: اتخذوه وكيلاً وكفى بالله وكيلاً وناصراً.

قوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبَّرُونَ القرآنَ ﴾، يعني: أفلا يتفكّرون في القرآن، والتدبّر هو النظر في آخر الأمر، ودُبر كلِّ شيءٍ آخره. ﴿ ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللَّهِ لوجدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً ﴾، أي تفاوتاً وتناقضاً كثيراً، قاله ابن

من عند الله والمعنى أفلا يتفكرون في القرآن فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر به عن الغيوب أنه كلام الله عزّ وجلّ وأن ما يكون من عند غير الله لا يخلو عن تناقض واختلاف فلما كان القرآن ليس فيه تناقض واختلاف علم أنه من عند قادر على ما لا يقدر غيره عالم بما لا يعلمه سواه.

قوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ وذلك أن النبي ﷺ كان يبعث البعوث والسرايا فإذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم ثم يشيعونه ويتحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله ﷺ فيضعفون به قلوب المؤمنين فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وإذا جاءهم﴾ يعني المنافقين أمر من الأمن يعني جاءهم خبر بفتح وغنيمة أو الخوف يعني القتل والهزيمة أذاعوا به أي أفشوا ذلك الخبر وأشاعوه بين الناس يقال أذاع السر وأذاع به إذا أشاعه وأظهره قال الشاعر:

أذاع بـــه فـــي النـــاس حتـــى كـــأنـــه بعليـــاء نـــار أوقـــدت بثقـــوب

﴿ولو ردوه﴾ يعني الأمر الذي تحدثوا به ﴿إلى الرسول﴾ يعني أنهم لم يتحدثوا به حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يتحدث به ويظهره ﴿وإلى أولي الأمر منهم﴾ يعني ذوي العقول والرأي والبصيرة بالأمور منهم وهم كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وقيل هم أمراء السرايا والبعوث وإنما قال منهم على حسب الظاهر ولأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان فلذا قال وإلى أولي الأمر منهم ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي يستخرجون تدبيره بذكائهم وفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب وما ينبغي لها ومكايدها وهم العلماء الذين علموا ما ينبغي أن يكتم من الأمور وما ينبغي أن يذاع منها والنبط الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر واستنباطه استخراجه فاستعير لما يخرجه الرجل بفضل ذكائه وصفاء ذهنه وفطنته من المعاني والتدبير فيما يعضل ويهم. ويقال استنبط الفقيه المسألة إذا استخرجها باجتهاده وفهمه وفي الآية دليل على جواز القياس وأن من العلم ما يدرك بالنص وهو الكتاب والسنة ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس عليهما ومعنى الآية ولو أن هؤلاء المنافقين والمذيعين ردوا الأمر من الأمن والخوف إلى رسول الله ﷺ وإلى أولي الأمر وطلبوا معرفة الحال فيه من جهتهم لعلموا حقيقة ذلك منهم وإنهم أولي بالبحث عنه فإنهم أعلم بما ينبغي أن يشاع أو يكتم. قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ يعني ولولا فضل الله عليكم ببعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن ورحمته بالتوفيق والهداية

عباس، وقيل: لو وجدوا فيه أي: في الإخبار عن الغيب بماكان وبما يكون اختلافاً كثيراً، أفلا يتفكّرون فيه فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر أنه كلام الله تعالى لأن ما لا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقض واختلاف.

قوله تعالى: ﴿ وإذا جاءَهُمْ أمرٌ مِنَ الأمنِ أو الخَوْفِ أذاعُوا بهِ ﴾، وذلك أنّ النبي ﷺ كان يبعث السرايا فإذا غلَبُوا أو غُلبُوا بادَرَ المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيُفشون ويُحدِّثون به قبل أن يُحدِّث به رسول الله ﷺ فيُضعفون به قلوبَ المؤمنين فأنزل الله تعالى ﴿ وإذا جاءَهم ﴾ يعني: المنافقين ﴿ أمرٌ منَ الأمن ﴾ أي: الفتح والغنيمة أو الخوف والقتل والهزيمة ﴿ أذاعُوا به ﴾ أشاعوه وأفشوه، ﴿ ولو رَدُّوهُ إلى الرّسولِ ﴾ إلى رأيه ولم يحدّثوا به حتى يكونَ النبي ﷺ هو الذي يحدّث به، ﴿ وإلى أولي الأمرِ منهمْ ﴾، أي: ذوي الرأي من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمانَ وعلي رضي الله عنهم، ﴿ لَعَلِمَهُ الذينَ يستنبطُونَهُ منهمْ ﴾، أي: يستخرجونه وهم العلماء، أي: عَلِمُوا ما ينبغي أن يُكتم وما ينبغي أن يُفشى، والاستنباط: الاستخراج، يقال: استنبط الماءَ إذا استخرجه، وقال عكرمة: يستنبطونه أي: يحرصون عليه ويسألون عنه، وقال الضحاك: يتّبعونه، يريد الذين سمعوا تلك الأخبار من المؤمنين والمنافقين، لو ردّوه إلى الرسول ﷺ وإلى ذوي الرأي والعلم، لَعلمَه الذين يستنبطونه منهم، أي: يحبون

﴿لاتبعتم الشيطان﴾ يعني لبقيتم على الكفر والضلالة ﴿إلا قليلاً﴾ اختلف العلماء في هذا الاستثناء وإلى ماذا يرجع فقيل هو راجع إلى الإذاعة وهو قول ابن عباس والتقدير وإذا جاءهم أمر من الأمن أوالخوف أذاعوا به إلا قليلاً فأخرج بعض المنافقين والمؤمنين عن هذه الإذاعة لأنهم لم يذيعوا ما علموا من أمر السرايا. وهذا القول اختيار الفراء وابن جرير الطبري وقيل هو راجع إلى المستنبطين وهو قول الحسن وقتادة واختاره ابن قتيبة وتقديره لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلاً فعلى هذين القولين في الآية تقديم وتأخير وقيل إنه راجع إلى اتباع الشيطان وهو قول الضحاك. واختاره الزجاج ومعلوم أن صرف الاستثناء إلى ما يليه ويتصل به أولى من صرفه إلى الشيء البعيد وتقديره ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً منكم وهم قوم آمنوا واهتدوا قبل مبعث النبي ﷺ وإنزال القرآن مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الايادي. قوله تعالى: .

﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ نزلت في مواعدة رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وذلك أن رسول الله ﷺ واعده موسم بدر الصغرى بعد حرب أحد وذلك في ذي القعدة فلما بلغ الميعاد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية فقاتل في سبيل الله يعني لا تدع جهاد العدو والانتصار للمستضعفين من المؤمنين لا تكلف إلا نفسك يعني لا تكلف فرض غيرك بل جاهد في سبيل الله ولو وحدك فإن الله ناصرك لا الجنود وقد وعدك النصر عليهم وهو لا يخلف الميعاد فخرج رسول الله ﷺ في سبعين راكباً إلى بدر الصغرى فكفاهم الله القتال ورجعوا سالمين وعاتب الله من تخلف عن رسول الله ﷺ بهذه الآية على ترك الجهاد والخروج معه. وفي الآية دليل على أن النبي ﷺ كان أشجع الناس وأعلمهم بأمور القتال ومكايده لأن الله تعالى أمره بالقتال وحده ولو لم يكن أشجع الناس لما أمره بذلك، ولقد اقتدى به أبو بكر الصديق في قتال أهل الردة من

أن يعلموه على حقيقته كما هو، ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه لاتبعتُمُ الشيطانَ ﴾، كلكم، ﴿ إلّا قليلاً ﴾، فإن قيل: كيف استثنى القليل ولولا فضله لاتّبع الكل الشيطان؟ قيل: هو راجع إلى ما قبله، قيل: معناه أذاعوا به إلّا قليلاً لم يفشه، وعني بالقليل المؤمنين، وهذا قول الكلبي واختيار الفرّاء، وقال: لأنّ عِلْمَ السرَّ إذا ظهرَ عَلِمَهُ المستنبطُ وغيرُه. والإذاعة قد تكون في بعضٍ دون بعض، وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلّا قليلاً، ثم قوله: ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه لاتّبعتم الشّيطان ﴾ كلام تام، وقيل: فضلُ الله الإسلامُ، ورحمتُه القرآن، يقول لولا ذلك لاتّبعتم الشيطان إلّا قليلاً وهم قوم اهتدوا قبل مجيء الرسول ﷺ ونزول القرآن، مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وجماعة سواهما، وفي الآية دليل على جواز القياس، فإن من العلم ما يُدرك بالتلاوة والرواية وهو النَّص، ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس على المعاني المودعة في النصوص.

قوله تعالى: ﴿ فقاتلْ في سبيلِ اللّهِ لا تُكلّفُ إلّا نَفْسَك ﴾، وذلك أن النبي ﷺ وَاعَدَ أبا سفيان بعد حرب أُحُد بموسم بدر الصغرى في ذي القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ فقاتلْ في سبيلِ الله لا تُكلّفُ إلّا نفسَك ﴾ أي: لَا تدع جهاد العدو والاستنصار للمستضعفين من المؤمنين ولو وحدك، فإن الله قد وعدك النصرة وعاقبهم على ترك القتال، والفاء في قوله تعالى: ﴿ فقاتلْ ﴾ جواب عن قوله: ﴿ ومَن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نُؤتيه أجراً عظيماً ﴾ [النساء: ٧٤] فقاتِلْ، ﴿ وحرِّضِ

بني حنيفة الذين منعوا الزكاة فعزم على الخروج إلى قتالهم ولو وحده ﴿وحرض المؤمنين﴾ يعني حضهم على الجهاد ورغبهم في الثواب وليس عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب لا التعنيف بهم ﴿عسى الله﴾ أي لعل الله ﴿أن يكف بأس الذين كفروا﴾ يعني لعل الله أن يمنع بأس الكفار وشدتهم وقد فعل وذلك أن أبا سفيان بداله عن القتال فلم يخرج إلى الموعد ﴿والله أشد بأساً﴾ أي أعظم صولة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ يعني وأشد عذاباً وعقوبة من غيره قوله عزّ وجلّ: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفع وهو أن يصير الإنسان بنفسه شفيعاً لصاحب الحاجة حتى يجتمع معه على المسألة إلى المشفوع إليه فعلى هذا قيل إن المراد بالشفاعة المذكورة في الآية هي شفاعة الإنسان لغيره ليجلب له بشفاعته نفعاً أو يخلصه من بلاء نزل به. وقيل هي الإصلاح بين الناس وقيل معنى الآية من يصر شفعاً لوتر أصحابك يا محمد فيشفعهم في جهاد عدوهم يكن له نصيب منها أي حظ وافر من أجر شفاعته وهو ثواب الله وكرامته ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾ قيل هي النميمة ونقل الحديث لإيقاع العداوة بين الناس وقيل أراد بالشفاعة السيئة دعاء اليهود على المسلمين وقيل معناه من يشفع كفره بقتال المؤمنين ﴿يكن له كفل﴾ أي ضعف وقيل نصيب ﴿منها﴾ أي من وزرها ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ قال ابن عباس يعني مقتدراً أو مجازياً وأقات على الشيء قدر عليه قال الشاعر:

وذي ضغـــن كففـــت الشـــر عنـــه وكنـــت علـــى إســـاءتـــه مقيتـــا

يعني قادراً على الإساءة إليه وقيل معناه شاهداً أو حفيظاً على الأشياء (ق) عن أبي موسى قال كان رسول الله ﷺ جالساً فجاء رجل يسأل فأقبل علينا بوجهه وقال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء» وفي رواية كان إذا جاءه طالب حاجة أقبل على جلسائه وقال: «اشفعوا تؤجروا» وذكره. قوله عز وجل: .

المؤمنين ﴾، على القتال أي حضّهم على الجهاد ورغّبهم في الثواب، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين راكباً فكفاهم الله القتال، فقال جلّ ذكره: ﴿ عسى اللَّهُ ﴾ أي: لعلّ الله، ﴿ أنْ يَكُفَّ بأسَ الذينَ كفرُوا ﴾، أي: قتال المشركين و﴿ عسى ﴾ من الله واجب، ﴿ واللَّهُ أشدُّ بأساً ﴾ أي: أشدّ صولة وأعظم سلطاناً، ﴿ وأشدُّ تنكيلاً ﴾ أي: عقوبة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ مَنْ يشفعْ شفاعةً حسنةً يكنْ له نصيبٌ منها، ومَنْ يشفعْ شفاعةً سيئةً يكنْ له كِفْلٌ منها ﴾، أي: نصيب منها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس، وقيل: الشفاعة الحسنة هي حُسنُ القول في الناس ينال به الثوابَ والخير، والسيئة هي: الغيبة وإساءة القول في الناس ينال به الشر، وقوله: ﴿ كِفْلٌ منها ﴾ أي: من وزرها، وقال مجاهد: على شفاعة الناس بعضهم لبعض، ويُؤجر الشفيع على شفاعته وإن لم يُشفّع. أخبرنا أحمد بن عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سفيان الثّوري عن أبي بردة أخبرني جدّي أبو بردة عن أبيه أبي موسى رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا جاءه رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل علينا بوجههِ، فقال: «اشفعُوا تُؤجروا ويقضي اللَّهُ على لسان رسوله ما شاء». قوله تعالى: ﴿ وكانَ اللَّهُ على كل شيءٍ مُقِيتاً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: مقتدراً أو مجازياً قال الشاعر:

وذِي ضغنٍ كـفـفـتُ الـنـفسَ عنـهُ وكنتُ على إساءتِـه مُقيتـاً

وقال مجاهد: شاهداً: وقال قتادة: حافظاً، وقيل: معناه على كل حيوان مقيتاً أي: يوصل القوت إليه، وجاء في الحديث «كفى بالمرءِ إثماً أن يضيّع مَن يَقوتُ ويقِيتُ».

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها﴾ التحية تفعلة من حيا وأصلها من الحياة ثم جعل السلام تحية لكونه خارجاً عن حصول الحياة وسبب الحياة في الدنيا أو في الآخرة والتحية أن يقال حياك الله أي جعل لك حياة وذلك أخبار ثم يجعل دعاء وهذه اللفظة كانت العرب تقولها فلما جاء الإسلام بدل ذلك بالسلام وهو المراد به في الآية يعني إذا سلم عليكم المسلم فأجيبوه بأحسن مما سلم عليكم به وإنما اختير لفظ السلام على لفظة حياك الله لأنه أتم وأحسن وأكمل لأن معنى السلام السلامة من الآفات فإذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة كانت حياته مذمومة منغصة. وإذا كان في حياته سليماً كان أتم وأكمل فلهذا السبب اختير لفظ السلام ﴿أو ردوها﴾ يعني أو ردوا عليه كما سلم عليكم ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ يعني محاسباً ومجازياً والمعنى أنه تعالى على كل شيء من رد السلام بمثله أو بأحسن منه مجاز.

فصل في فضل السلام والحث عليه

(ق) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: «أي الإسلام خير قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» قوله أي الإسلام خير معناه أي خصال الإسلام خير (م) عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم» عن عبدالله بن سلام قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلّوا الأرحام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح عن أبي أمامة قال: أمرنا نبينا ﷺ أن نفشي السلام، أخرجه ابن ماجه.

فصل في أحكام تتعلق بالسلام وفيه مسائل

المسألة الأولى في كيفية السلام: (ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا عليك السلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله قال العلماء يستحب لمن يبتدىء بالسلام أن يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيأتي بضمير الجمع وإن كان المسلم عليه واحد ويقول المجيب وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فيأتي بواو العطف في قوله وعليكم عن عمران بن حصين قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال رسول الله ﷺ: «عشر ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد عليه فجلس فقال عشرون فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس فقال ثلاثون» أخرجه الترمذي: وأبو داود وقال الترمذي حديث حسن وقيل إذا قال المسلم السلام عليكم فيقول المجيب وعليكم السلام ورحمة الله فيزيده ورحمة الله وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله فيقول وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال

قوله تعالى: ﴿ وإذا حُيّيتُم بتحيةٍ فَحَيُّوا بأحْسَنَ منها أو رُدُّوها ﴾، التحية: دعاءٌ بطول الحياة، والمراد بالتحية هنا السلام، يقول: إذا سلّم عليكم مُسلِّم فأجيبُوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها كما سلّم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلامُ ورحمةُ الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ مثله، رُوِيَ أنّ رجلاً سلّم على ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيرد عليه السلام بمثله ولا يزيد عليه وروي أن رجلاً سلم على ابن عباس فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم زاد شيئاً فقال ابن عباس أن السلام انتهى إلى البركة ويستحب للمسلم أن يرفع صوته بالسلام ليسمع المسلم عليه فيجيبه ويشترط أن يكون الرد على الفور فإن أخره ثم رد لم يعد جواباً وكان آثماً بترك الرد.

المسألة الثانية في حكم السلام: الابتداء بالسلام سنة مستحبة ليس بواجب وهو سنة على الكفاية فإن كانوا جماعة فسلم واحد منهم كفى عن جميعهم ولو سلم كلهم كان أفضل وأكمل قال القاضي حسين: من أصحاب الشافعي ليس لنا سنة على الكفاية إلّا هذا وفيه نظر لأن تشميت العاطس سنة على الكفاية أيضاً كالسلام. ولو دخل على جماعة في بيت أو مجلس أو مسجد وجب عليه أن يسلم على الحاضرين لقوله ﷺ: «أفشوا السلام» والأمر للوجوب أو يكون ذلك سنة متأكدة لأن السلام من شعار أهل الإسلام فيجب إظهاره أو يتأكد استحبابه أما الرد على المسلم فقد أجمع العلماء على وجوبه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾ والأمر للوجوب لأن في ترك الرد إهانة للمسلم فيجب ترك الإهانة فإن كان المسلم عليه واحداً وجب عليه الرد وإذا كانوا جماعة كان رد السلام في حقهم فرض كفاية فلو رد واحد منهم سقط فرض الرد عن الباقين وإن تركوه كلهم أثموا. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجزي عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزي عن الجلوس أن يرد أحدهم» أخرجه أبو داود.

المسألة الثالثة في آداب السلام: السنة أن يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير» وفي رواية للبخاري قال: «يسلّم الصغير على الكبير، والمار على القاعد والقليل على الكثير» وإذا تلاقى رجلان فالمبتدىء بالسلام هو الأفضل لما روي عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بالله عز وجل من بدأهم بالسلام» أخرجه أبو داود والترمذي ولفظه قال قيل يا رسول الله الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام قال: «أولاهما بالله» قال الترمذي حديث حسن ويستحب أن يبدأ بالسلام قبل الكلام والحاجة والسنة إذا مر بجماعة صبيان صغار أن يسلم عليهم لما روي عن أنس أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال كان رسول الله ﷺ يفعله أخرجاه في الصحيحين وفي رواية لأبي داود أن النبي ﷺ مر على غلمان يلعبون فسلم عليهم وأما السلام على النساء فإن كن جمعاً جالسات في مسجد أو موضع فيستحب أن يسلّم عليهن إذا لم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئاً، فقال ابن عباس: إنّ السلام ينتهي إلى البركة. ورُوِيَ عن عمران بن حُصين: أنّ رجلاً جاءَ إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردّ عليه، ثمّ جلس، فقال النبي ﷺ: «عَشْرٌ» ثمّ جاء آخرُ فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليه فجلس، فقال: «عشرُون» ثم جاء آخرُ فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه فجلس، فقال: «ثلاثون»، واعلمْ أنّ السلام سُنّة وردُّ السلام فريضة، وهو فرض على الكفاية فإذا سلّم واحدٌ من جماعة كان كافياً في السُّنّة، وإذا سلّم واحدٌ على جماعة وردَّ واحدٌ سقط الغرض عن جميعهم، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر أنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكر الكوفي أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تَدْخُلُوا الجنَّةَ حتى تُؤمنُوا ولا تُؤمنُوا حتى تحابّوا، أوَلاَ أدلّكم على شيء إذا فعلتمُوه تحاببتم؟ أفشُوا السلام بينكم»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قتيبة أنا

يخف على نفسه أو عليهن فتنة لما روي عن أسماء بنت يزيد قالت مر علينا رسول الله ﷺ في نسوة فسلّم علينا أخرجه أبو داود وفي رواية الترمذي أن رسول الله ﷺ مر في المسجد يوماً وعصبة من النساء قعود فألوى بيده للتسليم قال الترمذي حديث حسن وإذا مر على امرأة مفردة أجنبية فإن كانت جميلة فلا يسلم عليها ولو سلم فلا ترد هي عليه لأنه لم يستحق الرد وإن كانت عجوزاً لا يخاف عليه ولا عليها الفتنة سلم عليها وترد هي عليه وحكم النساء مع النساء كحكم الرجال مع الرجال في السلام فيسلم بعضهن على بعض.

المسألة الرابعة في الأحوال التي يكره السلام فيها: فمن ذلك الذي يبول أو يتغوط أو يجامع ونحو ذلك لا يسلم عليه فلو سلم فلا يستحق المسلّم جواباً لما روي عن ابن عمر: «أن رجلاً مر ورسول الله ﷺ يبول فسلم عليه فلم يرد عليه» أخرجه مسلم قال الترمذي إنما يكره إذا كان على الغائط أو البول ويكره التسليم على من في الحمام وقيل إن كانوا متزرين بالمآزر سلم عليهم وإلاّ فلا، ويكره التسليم على النائم والناعس والمصلي والمؤذن والتالي في حال الصلاة والأذان والتلاوة ويكره الابتداء بالسلام في حال الخطبة لأن الجالسين مأمورون بالإنصات للخطبة ويكره أن يبدأ المبتدع بالتسليم عليه وكذلك المعلن بفسق وكذلك الظلمة ونحوهم فلا يسلم على هؤلاء.

المسألة الخامسة في حكم السلام على أهل الذمة: اليهود والنصارى: اختلف العلماء فيه فذهب أكثرهم إلى أنه لا يجوز ابتداؤهم بالسلام. وقال بعضهم إنه ليس بحرام بل هو مكروه كراهة تنزيه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» أخرجه مسلم وإذا سلم يهودي أو نصراني على مسلم فيرد عليه ويقول عليك بغير واو العطف، لما روي عن أنس أن يهودياً أتى على رسول الله ﷺ وأصحابه فقال السلام عليكم فرد عليه القول فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما قال؟ قالوا الله ورسوله أعلم سلم يا نبي الله قال لا ولكنه قال كذا وكذا ردوه على فردوه فقال: قلت السلام عليكم قال: نعم يا نبي الله فقال ﷺ عند ذلك إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك أي عليك ما قلت» أخرجه الترمذي فلو أتى بواو العطف وميم الجمع فقال عليكم جاز لأنا نجاب عليهم في الدعاء ولا يجابون علينا ويدل على ذلك ما روي عن جابر أن رسول الله ﷺ مر عليه ناس من اليهود، فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت ألم تسمع ما قالوا؟ قال بلى قد سمعت فرددت عليهم وأنا نجاب عليهم ولا يجيبون علينا أخرجه مسلم وإذا مر المسلم على جماعة فيهم مسلمون ويهود ونصارى يسلم عليهم ويقصد بتسليمه المسلمين لما روي عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلم عليهم أخرجه الترمذي.

قوله عز وجل: ﴿**الله لا إله إلاّ هو ليجمعنكم**﴾ هذه لام القسم تقديره والله الذي لا إله إلاّ هو ليجمعنكم الله

الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله بن عمر أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «أنْ تُطعمَ الطعامَ وتقرأ السلامَ على مَنْ عرفتَ ومَنْ لم تعرفْ». ومعنى قوله: أيُّ الإسلام خير، يريد أيُّ خصال الإسلام خير، وقيل: ﴿ **فحيُّوا بأحسنَ منها** ﴾، معناه أي إذا كان الذي سلّم مسلماً، ﴿ **أو رُدُّوها** ﴾ بمثلها إذا لم يكن مسلماً. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن يسار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلّم عليكم اليهودُ فإنما يقول أحدهم: السّامُ عليك، فقلْ وعليك»، قوله تعالى: ﴿ **إن الله كانَ على كل شيءٍ حسيباً** ﴾ أي: على كل شيءٍ من رَدِّ السلام بمثله أو بأحسن منه، حسيباً أي: محاسباً مجازياً، وقال مجاهد: حفيظاً، وقال أبو عبيدة: كافياً، يقال: حسبي هذا أي كفاني.

في الموت وفي القبور ﴿إلى يوم القيامة﴾ يعني إلى يوم الحشر والبعث سميت القيامة لقيام الناس من قبورهم بعد الموت وقيل لقيامهم للحساب نزلت هذه الآية في منكري البعث ﴿لا ريب فيه﴾ يعني لا شك في ذلك اليوم أنه كائن ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ يعني لا أحد أصدق من الله فإنه لا يخلف الميعاد ولا يجوز عليه الكذب والمعنى أن القيامة كائنة لا شك فيها ولا ريب. قوله عز وجل:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت في الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجعوا قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ لرسول الله ﷺ أقتلهم يا رسول الله فإنهم منافقون وقال بعضهم أعف عنهم فإنهم قد تكلموا بكلمة الإسلام (ق) عن زيد بن ثابت قال لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد رجع ناس ممن خرج معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فئتين قالت فرقة نقتلهم وقالت فرقة لا نقتلهم فنزلت فما لكم في المنافقين فئتين فقال رسول الله ﷺ إنها طيبة تنفي الرجال كما ينفي الكير خبث الحديد وقيل نزلت في قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة فاختلف المسلمون فيهم فقائل يقول هم منافقون وقائل يقول هم مؤمنون وقيل نزلت في ناس من قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم ندموا على ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين فلما بعدوا عن المدينة كتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنا على الذي فارقناك عليه من الإيمان ولكنا اجتوينا المدينة واشتقنا إلى أرضنا ثم إنهم خرجوا في تجارة إلى الشأم فبلغ ذلك المسلمين فقال بعضهم تخرج إليهم ونقتلهم ونأخذ ما معهم لأنهم رغبوا في ديننا وقالت طائفة منهم كيف تقتلون قوماً على دينكم وإن لم يذروا ديارهم. وكان هذا بعين رسول الله ﷺ وهو ساكت لا ينهي أحد الفريقين فنزلت هذه الآية وقيل نزلت في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين وقيل نزلت

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إلاّ هو لَيَجْمَعَنَّكُم ﴾، اللام، لامُ القسم تقديره: واللهِ ليجمعنّكم في الموت وفي القبور، ﴿ إلى يومِ القيامةِ ﴾، وسُمّيت القيامةُ قيامةً لأنّ الناس يقومُون من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿ يوم يخرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً ﴾ [المعارج: ٤٣] وقيل: لقيامهم إلى الحساب، قال الله تعالى: ﴿ يومَ يقومُ النّاسُ لربِّ العالمين ﴾ [المطفّفين: ٦]، ﴿ لاَ رَيْبَ فيهِ، ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ أي: قولاً ووَعْداً، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ أَصْدَق ﴾، وكلُّ صَادٍ سَاكنة بعدها دالٌ بإشمام الزاي.

﴿ فَمَا لَكُم في المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ اختلفوا في سبب نُزُولها فقال قوم: نزلت في الذين تخلّفُوا يوم أُحُد من المنافقين، فلمّا رجعُوا قال بعضُ الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ: اقتلهم فإنّهم منافقون، وقال بعضهم: اعف عنهم فإنهم تكلّموا بالإسلام. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو الوليد أنا شعبة عن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد يحدّث عن زيد بن ثابت قال: لمّا خرج النبيّ ﷺ إلى أُحُد رجع ناسٌ ممّن خرج معه وكان أصحاب النبيّ ﷺ فرقتين فرقة تقول نقاتلهم وفرقة تقول لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين واللَّهُ أرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾، وقال: «إنها طِيبةُ تَنفي الذنوبَ كما تنفي النّارُ خَبَثَ الفِضّة». وقال مجاهد: قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم ارتدّوا واستأذَنوا رسول الله ﷺ إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتّجِرُون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة، فاختلف المسلمون فيهم، فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون، وقال بعضهم: نزلت في ناسٍ من قريش قَدِمُوا المدينة وأسلموا ثم نَدِمُوا على

في عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق لما تكلم في حديث الإفك. ومعنى الآية فما لكم يا معشر المؤمنين في المنافقين فئتين أي صرتم في أمرهم فرقتين فرقة تذب عنهم وفرقة تباينهم وتعاديهم فنهى الله الفرقة الذين يذبون عنهم وأمر المؤمنين جميعاً أن يكونوا على منهاج واحد في التباين لهم والتبرىء منهم ثم أخبر عن كفرهم بقوله ﴿والله أركسهم﴾ يعني نكسهم في كفرهم وارتدادهم وردهم إلى أحكام الكفار ﴿بما كسبوا﴾ أي بسبب ما اكتسبوا من أعمالهم الخبيثة وقيل بما أظهروا من الأرتداد بعدما كانوا على النفاق ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله﴾ هذا خطاب للفئة التي دافعت عن المنافقين والمعنى أتبتغون أيها المؤمنون هداية هؤلاء المنافقين الذين أصلهم الله عن الهدى ﴿ومن يضلل الله﴾ يعني عن الهدى ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ يعني فلن تجد له طريقاً تهديه فيها إلى الحق والهدى. قوله تعالى: .

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

﴿ودوا﴾ يعني تمنى أولئك الذين رجعوا عن الإيمان إلى الإرتداد والكفر ﴿لو تكفرون﴾ يعني تكفرون أنتم يا معشر المؤمنين ﴿كما كفروا فتكونون سواء﴾ في الكفر ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ يعني من الكفار منع المؤمنين من موالاتهم ﴿حتى يهاجروا﴾ يعني يسلموا أو يهاجروا ﴿في سبيل الله﴾ معكم وهي هجرة أخرى والهجرة على ثلاثة أوجه: الأولى هجرة المؤمنين في أول الإسلام من مكة إلى المدينة. الثانية هجرة المؤمنين وهي الخروج مع رسول الله ﷺ في سبيل الله مخلصين صابرين محتبسين كما حكي الله عنهم وفي هذه الآية منع المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يهاجروا والهجرة الثالثة هجرة المؤمنين ما نهي الله عنه بقوله ﴿فإن تولوا﴾ يعني فإن أعرضوا عن ا

ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين حتى تباعدوا من المدينة فكتبُوا إلى رسول الله ﷺ: إنّا على الذي فارقناك عليه من الإيمان ولكنّا اجْتَوَيْنا المدينة واشتقنا إلى أرضنا، ثم إنهم خرجوا في تجارة لهم نحو الشام فبلغ ذلك المسلمين، فقال بعضهم: نخرج إليهم فنقتلهم ونأخذ ما معهم لأنهم رغِبُوا عن ديننا، وقالت طائفة: كيف تقتلون قوماً على دينكم إن لم يذَرُوا دِيَارَهم، وكان هذا بعين النبي ﷺ وهو سَاكِتٌ لا ينهَى واحداً من الفريقين، فنزلت هذه الآية، وقال بعضهم: هم قوم أسلموا بمكة ثم لم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين، فنزلت: ﴿ فما لكم ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿ في المنافقين فئتين ﴾ أي: صرتم فيهم فئتين، أي: فرقتين، ﴿ واللَّهُ أَرْكَسَهُمْ ﴾ أي: نكَّسهم وردَّهم إلى الكفر، ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ بأعمالهم غير الزاكية ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا ﴾، أي: أنْ تُرشِدُوا ﴿ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾، وقيل: معناه أتقولُون أنّ هؤلاء مهتدون وقد أضلَّهم الله، ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أي: وكما كفرُوا يُضْلِلِ اللَّهُ عن الهدى، ﴿ فلنْ تَجِدَ لَهُ سبيلاً ﴾ أي: طريقاً إلى الحق.

قوله تعالى: ﴿ وَدُّوا ﴾، تمنُّوا، يعني أولئك الذين رجعوا عن الدين تمنّوا ﴿ لو تَكْفُرُونَ كما كَفَرُوا فتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾، في الكفر، وقوله: ﴿ فتكونون ﴾ لم يُرِدْ به جواب التمنّي لأن جواب التمنّي بالفاء منصوب، إنّما أراد النسق، أي: وَدُّوا لو تكفرونَ ووَدُّوا لو تكونونَ سواءً، مثل قوله: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فيُدْهِنُون ﴾ [القلم: ٩] أي: وَدُّوا لو تُدْهِنُ وَوَدُّوا لَوْ تُدهنون، ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا منهم أولياءَ ﴾، منعَ عن موالاتهم، ﴿ حتى يُهاجِرُوا في سبيلِ اللَّهِ ﴾،

لإسلام والهجرة واختاروا الإقامة على الكفر ﴿فخذوهم﴾ الخطاب للمؤمنين أي خذوهم أيها المؤمنون ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ يعني إن وجدتموهم في الحل والحرم ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً﴾ يعني في هذه الحالة ﴿ولا نصيراً﴾ يعني ينصركم على أعدائكم لأنهم أعداء ثم استثنى الله عز وجل طائفة منهم فقال تعالى: ﴿إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ هذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال ومعنى يصلون ينتسبون إليهم أو ينتمون إليهم أو يدخلون معهم بالحلف والجوار. وقال ابن عباس يريد يلجؤون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أي عهد وهم الأسلميون وذلك أن رسول الله ﷺ وادع هلال بن عويمر الأسلمي عند خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم ولجأ إليه فلهم الجوار مثل ما لهلال. وفي رواية عن ابن عباس قال: أراد بالقوم الذي بينكم وبينهم ميثاق بني بكر بن مناة كانوا في الصلح والهدنة. وقيل هم خزاعة والمعنى أن من دخل في عهد من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم ﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على الذين وتقديره إلاّ الذين يتصلون بالمعاهدين أو يتصلون بالذين حصرت صدورهم فلا تقتلوهم وقيل يحتمل أن يكون عطفاً على صفة قوم تقديره إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم عهد أو يصلون إلى قوم حصرت صدورهم فلا تقتلوهم ومعنى حصرت أي ضاقت صدورهم عن المقاتلة فلا يريدون قتالكم لأنكم مسلمون ولا يريدون قتالهم لأنهم أقاربهم وهم بنو مدلج وكانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوهم ﴿أن يقاتلوكم﴾ يعني ضاقت صدورهم عن قتالكم للعهد الذي بينكم وبينهم ﴿أو يقاتلوا قومهم﴾ يعني من آمن منهم وقيل معناه أنهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم فقد ضاقت صدورهم لذلك عن قتالكم والقتال معكم وهم قوم هلال الأسلميون وبنو بكر نهى الله عن قتال هؤلاء المرتدين إذا اتصلوا بأهل عهد المسلمين لأن من انضم إلى قوم ذوي عهد فله حكمهم في حقن الدم وذلك

معكم، قال عكرمة: هي هجرة أُخرى والهجرة على ثلاثة أوجه هجرة المؤمنين في أوّل الإسلام، وهي قوله تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ [الحشر: ٨] وقوله: ﴿ ومَنْ يخرجْ من بيته مُهاجراً إلى الله ورسوله ﴾ [النساء: ١٠٠]، ونحوهما من الآيات، وهجرة المؤمنين: وهي الخروج في سبيل الله مع رسول الله ﷺ صابرين محتبسين، كما حُكِي ههنا، وفي هذه الآية مَنَع موالاة المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يُهاجروا في سبيل الله، وهجرة سائر المؤمنين ما نهى الله عنه وهي ما قال النبي ﷺ: «المهاجرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللَّهُ عنه». قوله تعالى: ﴿ فإنْ تَوَلَّوا ﴾، أعرضوا عن التوحيد والهجرة، ﴿ فخُذوهم ﴾، أي: خذوهم أسارى، ومنه يقال للأسير أخِيذ، ﴿ واقْتُلُوهُمْ حيثُ وَجَدْتُموهمْ ﴾ في الحِلّ والحَرَمِ، ﴿ ولا تَتَّخِذُوا منهمْ وَلِيّاً ولا نصيراً ﴾، ثم استثنى طائفةً منهم فقال:

﴿ إلاّ الذينَ يَصِلُون إلى قومٍ ﴾ وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة، لأنّ موالاة الكفّار والمنافقين لا تجوز بحال، ومعنى ﴿ يَصِلُون ﴾ أي: ينتسبون إليهم ويتصلون بهم ويدخلون فيهم بالحِلْفِ والجوار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما يريدون ويلجأون إلى قوم، ﴿ بينَكُمْ وبينهُمْ مِيثاقٌ ﴾ أي: عهد، وهم الأسلميون، وذلك أن رسول الله ﷺ وَادَعَ هلالَ بن عويمر الأسلمي قبل خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يُعين عليه، ومَن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم ولجأ إليه فلهم من الجوار مثل ما لهلال، وقال الضّحاك عن ابن عباس: أراد بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق بني بكر بن زيد بن مَناة كانوا في الصلح والهدنة، وقال مقاتل: هم خُزاعة، وقوله: ﴿ أو جاءُوكم ﴾ أي: يتصلون بقوم جاؤوكم، ﴿ حَصِرَت صُدُورُهم ﴾ أي: ضاقتْ صدورُهم، قرأ الحسن ويعقوب «حصرةً» منصوبة منوّنة أي: ضيقة صدورهم، يعني القومَ الذين جاؤوكم وهم بنو مدلج، كانوا عاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوهم، حَصِرتْ: ضاقت صدورهم، ﴿ أن يُقاتِلُوكم ﴾ أي: عن قتالكم

أن الله تعالى أوجب قتال الكفار إلّا من كان معاهداً أو لجأ إلى معاهد أو ترك القتال لأنه لا يجوز قتل هؤلاء وعلى هذا القول فالقول بالنسخ لازم لأن الكافر وإن ترك القتال فقتاله جائز وقال جماعة من المفسرين معاهدة المشركين وموادعتهم في هذه الآية منسوخة بآية السيف وذلك لأن الله تعالى لما أعز الإسلام وأهله أمر أن لا يقبل من مشركي العرب إلّا الإسلام أو القتل ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ يذكر الله تعالى منته على المسلمين بكف بأس المعاهدين وذلك لما ألقى الله الرعب في قلوبهم وكفهم عن قتالكم ومعنى التسليط هنا تقوية قلوبهم على قتال المسلمين ولكن قذف الله الرعب في قلوبهم وكفهم عن المسلمين ﴿فإن اعتزلوكم﴾ يعني فإن اعتزلوكم عن قتالكم ﴿فلم يقاتلوكم﴾: ويقال فلم يقاتلوكم يوم فتح مكة مع قومهم ﴿وألقوا إليكم السلم﴾ يعني الانقياد والصلح فانقادوا واستسلموا ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ يعني بالقتل والقتال قال بعض المفسرين هذا منسوخ بآية القتال وهي قوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وقال بعضهم هي غير منسوخة لأنا إذا حملناها على المعاهدين فكيف يمكن أن يقال إنها منسوخة. قوله عز وجل: .

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

﴿ستجدون آخرين﴾ قال ابن عباس: هم أسد وغطفان كانوا من حاضري المدينة فتكلموا بكلمة الإسلام رياء وهم غير مسلمين وكان الرجل منهم يقول له قومه بماذا آمنت يقول آمنت بهذا القرد والعقوب والخنفساء وإذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لهم إنا على دينكم يريدون بذلك الأمن من الفريقين وفي رواية أخرى عن ابن عباس إنها نزلت في بني عبد الدار وكانوا بهذه الصفة ﴿يريدون أن يأمنوكم﴾ يعني يريدون بإظهار الإيمان أن يأمنوكم فلا

للعهد الذي بينكم، ﴿ أو يقاتِلُوا قومَهم ﴾، يعني: مَن أمِنَ منهم، ويجوز أن يكون معناه أنهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم، يعني قريشاً قد ضاقت صُدُورُهم لذلك، وقال بعضهم: أو بمعنى الواو، كأنه يقول: إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤوكم حَصِرَتْ صدورُهم، أي: حصرت صدورهم عن قتالهم والقتال معكم، وهم قوم هلال الأسلميون وبنو بكر، نهَى اللَّهُ سبحانه عن قتال هؤلاء المرتدّين إذا اتصلوا بأهل عهدٍ للمسلمين، لأنّ مَن انضمّ إلى قوم ذوي عهدٍ فله حكمهم في حقن الدماء. قوله تعالى: ﴿ ولو شَاءَ اللَّهُ لسلَّطَهُمْ عليكم فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾، يذكر مِنّتَهُ على المسلمين بكفِّ بأسِ المعاهدين، يقول: إن ضيق صدورهم عن قتالكم لمّا ألقى الله في قلوبهم من الرعب وكفّهم عن قتالكم، ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فَلَقَاتلوكم مع قومهم، ﴿ فإنِ اعْتَزَلُوكم ﴾ أي: اعتزلوا قتالَكم، ﴿ فلم يُقاتِلُوكم ﴾، ومَن اتصل بهم، ويقال: يوم فتح مكة يقاتلوكم مع قومهم، ﴿ وألقوا إليكُمُ السَّلَم ﴾، أي: الصلح فانقادُوا واستسلموا ﴿ فما جعلَ اللَّهُ لكم عليهم سبيلاً ﴾ أي: طريقاً بالقتل والقتال.

قوله تعالى: ﴿ سَتَجِدُون آخَرِين ﴾ قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: هم أسد وغَطَفَان كانوا حاضري المدينة تكلموا بالإسلام رياءً وهم غير مسلمين، وكان الرجل منهم يقول له قومه: بماذا أسلمت؟ فيقول: آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء، وإذا لقوا أصحاب النبي ﷺ قالوا: إنّا على دينكم، يريدون بذلك الأمنَ في الفريقين، وقال الضحاك عن ابن عباس: هم بنو عبد الدار كانوا بهذه الصفة، ﴿ يُرِيدُون

تعرضوا لهم ﴿ويأمنوا قومهم﴾ يعني بإظهار الكفر لهم فلا يتعرضوا لهم ﴿كلما ردوا إلى الفتنة﴾ يعني كلما دعوا إلى الشرك ﴿أركسوا فيها﴾ رجعوا إلى الشرك وقادوا إليه منكوسين على رؤوسهم فيه ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ يعني فإن لم يكفوا عن قتالكم حتى يسيروا إلى مكة ﴿ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم﴾ أي ولم يلقوا الصلح ولم يكفوا عن قتالكم ﴿فخذوهم﴾ يعني أسرى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتوهم﴾ يعني حيث أدركتموهم ﴿وأولئكم﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ يعني حجة ظاهرة بالقتل والقتال وقيل الحجة الواضحة هي ظهور عداوتهم وانكشاف حالهم بالكفر والعداوة. قوله تعالى: .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأ﴾ الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يظهر إسلامه لأهله فخرج هارباً إلى المدينة وتحصن في أطم من أطامها والأطم الحصن فجزعت أمه لذلك جزعاً شديداً، وقالت لابنها الحارث وأبي جهل ابني هشام وهما أخوا عياش بن أبي ربيعة لأمه والله لا يظلني سقف ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتيان به فخرجا في طلبه وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة فأتوا عياشاً وهو في الأطم فقالوا: أنزل فإن أمك لم يؤوها سقف بعدك وقد حلفت لا تأكل ولا تشرب حتى ترجع إليها ولك عهد الله علينا أن لا نكرهك على شيء يحول بينك وبين دينك. فلما ذكروا له جزع أمه وأوثقوه بنسعة وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ثم قدموا به على أمه فلما أتاها قالت لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به ثم تركوه موثقاً في الشمس ما شاء الله فأعطاهم الذي أرادوا فأتاه الحارث بن زيد فقال: يا عياش أهذا الذي كنت عليه لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقالته وقال والله لألقاك خالياً إلّا قتلتك ثم إن عياشاً أسلم بعد ذلك وهاجر وأسلم الحارث بن زيد من بعده وهاجر إلى رسول الله ﷺ وليس عياش حاضراً يومئذٍ ولم يشعر بإسلامه فبينا عياش

﴿ أنْ يأمنُوكم ﴾، فلا تتعرضوا لهم، ﴿ ويأمَنُوا قومَهم ﴾، فلا يتعرضوا لهم، ﴿ كلما رُدُّوا إلى الفِتْنَةِ ﴾ أي: دُعُوا إلى الشرك، ﴿ أُرْكِسُوا فيها ﴾، أي: رجعوا وعادوا إلى الشرك، ﴿ فإنْ لم يعْتزِلُوكم ﴾ أي: فإن لم يكفُّوا عن قتالكم حتى تسيروا إلى مكة، ﴿ ويُلْقُوا إليكم السَّلَم ﴾ أي: المفادة والصلح، ﴿ ويَكُفُّوا أيديَهُمْ ﴾، ولم يقبضوا أيديهم عن قتالكم، ﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾، أسراء، ﴿ واقْتُلوهم حيثُ ثَقِفْتُمُوهم ﴾ أي: وجدتموهم، ﴿ وأولئِكُمْ ﴾ أي: أهل هذه الصفة، ﴿ جَعلْنَا لكُمْ عليهم سُلْطاناً مُبيناً ﴾ أي: حُجَّةً بيِّنةً ظاهرة بالقتل والقتال.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كانَ لمؤمنٍ أن يَقْتُلَ مؤمناً ﴾، الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يُظهر إسلامَه لأهله فخرج هارباً إلى المدينة، وتحصّن في أطم من آطامها، فجزعت أمه لذلك جزعاً شديداً وقالت لابنها الحارث وأبي جهل بن هشام وهما أخواه لأمه: والله لا يظِلّني سقف ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتوني به، فخرجا في طلبه وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة، فأتوا عياشاً وهو في الأطم، قالا له: إنزل فإنّ أمّك لم يُؤوها سقفَ بيت بعدك، وقد حلفت

يسير بظهر قباء إذ لقي الحارث فقتله فقال لهم ناس: ويحك يا عياش أي شيء صنعت إنه قد أسلم فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله إنه كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت وإني لم أشعر بإسلامه حتى قتلته فنزل وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومعنى الآية وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً ألبته وما كان له سبب جواز قتله وقيل معناه ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه وعهد إليه ففيه تحريم قتل المؤمن من كل وجه وقوله تعالى إلّا خطأ استثناء منقطع معناه لكن إن وقع خطأ فتحرير رقبة. وقيل معناه ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً البتة إلّا أن يخطىء المؤمن فكفارة خطئه ما ذكر من بعد والخطأ فعل الشيء من غير قصد وتعمد ﴿**ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة**﴾ يعني فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة ﴿**ودية مسلمة إلى أهله**﴾ أي وعليه دية كاملة مسلمة إلى أهل القتيل الذين يرثونه ﴿**إلّا أن يصدقوا**﴾ يعني إلّا أن يتصدق أهل القتيل على القاتل بالدية ويعفو عنه ﴿**فإن كان**﴾ يعني المقتول ﴿**من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة**﴾ أراد أنه إذا كان رجل مسلم في دار الحرب وهو منفرد مع قوم كفار فقتله من لم يعلم بإسلامه فلا دية عليه الكفارة وقيل المراد منه إنه إذا كان المقتول مسلماً في دار الإسلام وهو من نسب قوم كفار وأهله الذين يرثونه في دار الحرب وهم حرب للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله وكان الحارث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين فكان فيه الكفارة تحرير رقبة مؤمنة دون الدية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهد ﴿**وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾ أي عهد ﴿**فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة**﴾ يعني أنه إذا كان المقتول كافراً معاهداً أو ذمياً فتجب فيه الدية والكفارة ﴿**فمن لم يجد الرقبة**﴾ فصيام شهرين متتابعين أي فعليه صيام شهرين متتابعين بدلاً عن الرقبة ﴿**توبة من الله**﴾ يعني جعل الله ذلك توبة لقاتل الخطأ ﴿**وكان الله عليماً**﴾ يعني بمن قتل خطأ ﴿**حكيماً**﴾ يعني فيما حكم به عليه من الدية والكفارة.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى: في بيان صفة القتل: قال الشافعي: القتل على ثلاثة أقسام: عمد وشبه عمد وخطأ، أما العمد المحض فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقتل به غالباً فقتل به ففيه القصاص عند وجود التكافؤ أو دية حالة

ألّا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً حتى ترجع إليها ولك عهد الله علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دينك، فلما ذكروا له جزع أُمه وأوثقوا له بالله نزل إليهم فأخرجوه من المدينة ثم أوثقوه بنسعةٍ فجلده كل واحد منهم مائة جلدة، ثم قَدِمُوا به على أمّه فلما أتاها قالت: والله لا أُحِلّكَ من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، ثم تركوه موثقاً مطروحاً في الشمس ما شاء الله فأعطاهم الذي أرادوا فأتاهم الحارث بن زيد فقال: يا عياش أهذا الذي كنت عليه فوالله لئن كان هُدىً لقد تركت الهدى، ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقالته، وقال: والله لا ألقاك خالياً أبداً إلّا قتلتك، ثم إن عياشاً أسلم بعد ذلك وهاجر ثم أسلم الحارث بن زيد بعده وهاجر إلى رسول الله ﷺ وليس عياش حاضراً يومئذ ولم يشعر بإسلامه فبينما عياش يسير بظهر قباء إذْ لقي الحارثَ فقتله، فقال الناس: ويحك أيّ شيء قد صنعت؟! إنه قد أسلم، فرجع عياش لرسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله قد كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت، وإني لم أشعر بإسلامه حتى قتلته، فنزل: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤمِنٍ أَنْ يَقتلَ مؤمناً إلّا خطأً**﴾، وهذا نهيٌ عن قتل المؤمن، كقوله تعالى: ﴿ وما كان لكم أن تُؤذُوا رسولَ الله ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿ **إلّا خطأً** ﴾، استثناء منقطع معناه: لكنْ إنْ وقعَ خطأ، ﴿ **وَمَنْ قَتَلَ مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبةٍ مُؤمنةٍ** ﴾ أي: فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفّارة، ﴿ **ودِيَةٌ مُسلّمة** ﴾، كاملة، ﴿ **إلى أهْلِهِ** ﴾ أي: إلى أهل القتيل الذين يرثونه، ﴿ **إلّا أنْ يَصَّدَّقُوا** ﴾ أي: يتصدقوا بالدية فيعفوا ويتركوا الدية، ﴿ **فإنْ كانَ مِنْ قومٍ عدوٍّ لكُمْ وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مُؤْمنةٍ** ﴾، أراد به

مغلظة في مال القاتل. وأما شبه العمد فهو أن يقصد ضرب إنسان بما لا يقتل بمثله غالباً مثل أن ضربه بعصا خفيفة أو رماه بحجر صغير فمات فلا قصاص عليه وتجب عليه دية مغلظة على عائلته مؤجلة إلى ثلاث سنين. وأما الخطأ المحض فهو أن لا يقصد قتله بل قصد شيئاً آخر فأصابه فمات منه فلا قصاص عليه وتجب فيه دية مخففة على عاقلته مؤجلاً إلى ثلاث سنين ومن صور قتل الخطأ أن يقصد رمي مشرك أو كافر فيصيب مسلماً أو يقصد قتل إنسان يظنه مشركاً بأن كان عليه لباس المشركين أو شعارهم فالصورة الأولى خطأ في الفعل والثانية خطأ في القصد.

المسألة الثانية: في حكم الديات: فدية الحر المسلم مئة من الإبل فإذا عدمت الإبل فتجب قيمتها من الدراهم أو الدنانير في قول وفي قول بدل مقدر وهو ألف دينار أو أثنا ألف درهم ويدل على ذلك ما روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص. قال كانت الدية على عهد رسول الله ﷺ ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم قال وكانت دية أهل الكتاب يومئذٍ على النصف من دية المسلم فكانت كذلك حتى استخلف عمر فقام خطيباً فقال إن الإبل قد غلت ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم وعلى أهل البقر مائتي بقرة وعلى أهل الشاء ألفي شاة وعلى أهل الحلل مائتي حلة قال: وترك دية أهل الكتاب فلم يرفعها فيما رفع من الدية أخرجه أبو داود فذهب قوم إلى أن الواجب في الدية مائة من الإبل وألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو قول عروة بن الزبير والحسن البصري وبه قال والشافعي وذهب قوم إلى أنها من الإبل أو ألف دينار أو عشرة آلاف درهم وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي ودية المرأة نصف دية الذكر الحر ودية أهل الذمة والعهد ثلث دية المسلم إن كان كتابياً وإن كان مجوسياً فخمس الثلث ثمانمائة درهم وهو قول سعيد بن المسيب. وإليه ذهب

إذا كان الرجل مسلماً في دار الحرب منفرداً مع الكفّار فقتله مَن لم يعلم بإسلامه فلا دية عليه، وعليه الكفّارة، وقيل: المراد منه إذا كان المقتول مسلماً في دار الإسلام وهو من نَسَبِ قوم كفّار، وقرابتُهُ فِي دار الحرب حربٌ للمسلمين ففيه الكفّارة ولا دية لأهله، وكان الحارث بن زيد من قوم كفّار حرب للمسلمين وكان فيه تحرير رقبة ولم يكن فيه دية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهد. قوله تعالى: ﴿ **وإنْ كانَ مِنْ قومٍ بينكم وبينَهمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلّمَةٌ إلى أهلِهِ وتحريرُ رقبةٍ مُؤمنةٍ** ﴾ أراد به إذا كان المقتول كافراً ذميّاً أو معاهداً فيجب فيه الدية والكفّارة، والكفّارة تكون بإعتاق رقبة مؤمنة سواء كان المقتول مسلماً أو معاهداً رجلاً كان أو امرأةً حرّاً كان أو عبداً وتكون في مال القاتل، ﴿ **فَمَنْ لم يجدْ فصيامُ شهرينِ متتابعين** ﴾، والقاتل إن كان واجداً للرقبة أو قادراً على تحصيلها بوجود ثمنها فاضـلاً عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الإعتاق، ولا يجوز أن ينتقل إلى الصوم فإن عجز عن تحصيلها فعليه صومُ شهرين متتابعين، فإن أفطر يوماً متعمّداً في خلال الشهرين أو نسي النيّة ونوى صوماً آخر وجب عليه استئناف الشهرين، وإن فَصَلَ يوماً بعُذرِ مرضٍ أو سفر فهل ينقطع التتابع؟ اختلف أهل العلم فيه، فمنهم مَن قال: ينقطع وعليه استئناف الشهرين، وهو قول النخعي وأظهر قولِ الشافعي رضي الله عنه لأنه أفطر مختاراً، ومنهم مَن قال: لا ينقطع وعليه أن يبني، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبي، ولو حاضت المرأة في خلال الشهرين أفطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع، فإذا طَهُرتْ بَنَتْ على ما أصابت، لأنه أمرٌ مكتوب على النساء لا يمكنهنّ الاحتراز عنه، فإن عجز عن الصوم فهل يخرج عنه بإطعام ستّين مسكيناً، فيه قولان، أحدهما: يخرج كما في كفّارة الظهار، والثاني لا يخرج لأن الشرع لم يذكر له بدلاً فقال: ﴿ **فصيام شهرين متتابعين** ﴾. ﴿ **تَوبةً مِنَ اللّهِ** ﴾ أي: جعل الله ذلك توبة القاتل الخطأ ﴿ **وكانَ اللّهُ عليماً** ﴾، بمَن قتل خطأً ﴿ **حكيماً** ﴾ فيما حكم به عليكم، أمّا الكلام في بيان الدية فاعلم أن القتل على ثلاثة أنواع: عمد محض وشبه عمد وخطأ محض،

الشافعي وذهب قوم إلى أن دية الذمي والمعاهد مثل دية المسلم روي ذلك عن ابن مسعود وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي وقال قوم دية الذمي نصف دية المسلم وهو قول عمر بن عبدالعزيز وبه قال مالك وأحمد والأصل في ذلك ما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: دية المعاهد نصف دية الحر أخرجه أبو داود وعنه أن النبي ﷺ قال عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين وهم اليهود والنصارى أخرجه النسائي فمن ذهب إلى أن دية أهل الذمة ثلث دية المسلم أجاب عن هذا الحديث بأن الأصل في ذلك كان النصف ثم رفعت زمن عمر دية المسلم، ولم ترفع دية الذمي فبقيت على أصلها وهو قدر الثلث من دية المسلمين والدية في قتل العمد وشبه العمد مغلظة فتجب ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون في بطونها أولادها. وهذا قول عمر وزيد بن ثابت وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعي لما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال من قتل متعمداً دفع إلى أولياء المقتول فإن شاؤوا قتلوا وإن شاؤوا أخذوا الدية وهي وثلاثون حقه ثلاثون جذعة وأربعون خلفة وما صولحوا عليه فهو لهم وذلك لتشديد العقل. أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وعن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال خطب النبي ﷺ يوم الفتح فقال: «ألا وإن قتيل العمد بالسوط والعصا والحجر مائة من الإبل أربعون ثنية إلى بازل عامها كلهن خلفة» وفي رواية أخرى ألا إن كل قتيل خطأ العمد أو شبه العمد قتيل السوط والعصا مائة من الإبل فيها أربعون في بطونها أولادها أخرجه النسائي وذهب قوم إلى أن الدية المغلظة أرباع خمس وعشرون بنت مخاض وخمس وعشرون بنت لبون وخمس عشرون حقة وخمس وعشرون جذعة وهذا قول الزهري وربيعة وإليه ذهب مالك وأحمد وأصحاب الرأي. وأما دية الخطأ فمخففة وهي أخماس بالاتفاق غير أنهم اختلفوا في تقسيمها فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون

أما المحض فهو: أن يقصد قتل إنسان بما يقصد به القتل غالباً فقتله ففيه القصاص عند وجود التكافؤ، أو دِيةٌ مغلّظة في مال القاتل حالة، وشبه العمد أن يقصد ضربه بما لا يموت مثله من ذلك الضرب غالباً، بأن ضربه بعصاً خفيفةً، أو حجرٍ صغير ضربةً أو ضربتين، فمات فلا قصاص فيه، بل يجب فيه دِيةٌ مغلّظة على عاقلته مؤجّلةً إلى ثلاث سنين، والخطأ المحض هو: أن لا قصد قتله بل يقصد شيئاً آخر فأصابه فمات منه فلا قصاص فيه، بل تجب ديةٌ مخفّضة على عاقلته مؤجّلة إلى ثلاث سنين وتجب الكفّارة في ماله في الأنواع كلها، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه قتل العمل لا يوجب الكفّارة لأنه كبيرة كسائر الكبائر، ودِيَةُ الحرّ المسلم مائة من الإبل فإذا عُدِمَت الإبل وجبت قيمتها من الدراهم أو الدنانير في قول، وفي قول يجب بدل مقدّر منها وهو ألف دينار، أو اثني عشر ألف درهم، لِما رُوِيَ عن عمر رضي الله عنه فرض الدية على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم، وذهب قوم إلى أن الواجب في الدية مائة من الإبل، أو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم، وهو قول عروة بن الزبير والحسن البصري رضي الله عنهما، وبه قال مالك وذهب قوم إلى أنها مائة من الإبل أو ألف دينار، أو عشرة آلاف درهم، وهو قول سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، ودية المرأة نصف دية الرجل، ودية أهل الذمّة والعهد ثُلثُ دِيَةِ المسلم إن كان كتابياً وإن كان مجوسياً فخُمْسُ الدِّيَةِ، ورُوِيَ عن عمر رضي الله عنه أنه قال: دِيَةُ اليهودي والنصراني أربعة آلاف درهم، ودية المجوسي ثمانمائة درهم، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، وذهب قوم إلى أن دِيَة الذمّي والمعاهد مثل دِيَةِ المسلم، رُوِيَ ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو قول سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وقال قوم: دِيَةُ الذميّ نصف دية المسلم وهو قول عمر بن عبد العزيز، وبه قال مالك وأحمد رحمهما الله، والدية في العمد المحض وشبه العمد مغلّظة بالسِّن فيجب ثلاثون حُقّة وثلاثون جَذَعة وأربعون خَلِفَة في بطونها أولادها، وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما،

وعشرون ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة وهذا قول عمر بن عبدالعزيز وسليمان بن يسار والزهري وربيعة وبه قال مالك والشافعي وأبدل قوم أبناء اللبون ببنات المخاض يرون ذلك عن ابن مسعود وبه قال أحمد وأصحاب الرأي والدية في قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة وهم العصبات من الذكور ولا يجب على الجاني منها شيء لأن النبي ﷺ أوجبها على العاقلة ودية الأعضاء والأطراف حكمها مبين في كتب الفقه ودية أعضاء المرأة على النصف من دية أعضاء الرجل والله أعلم.

المسألة الثالثة: في حكم الكفارة: الكفارة إعتاق رقبة مؤمنة وتجب في مال القاتل سواء كان المقتول مسلماً أو معاهداً رجلاً كان أو امرأة حراً كان أو عبداً فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين فالقاتل إن كان واجداً للرقبة أو قادراً على تحصيلها بوجود الثمن فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الإعتاق. ولا يجوز له أن ينتقل إلى الصوم فمن عجز عن الرقبة أو عن تحصيل ثمنها فعليه صوم شهرين متتابعين فإن أفطر يوماً متعمداً في خلال الشهرين أو نسي النية أو نوى صوماً آخر وجب عليه استئناف الشهرين وإن أفطر يوماً بعذر مرض أو سفر هل ينقطع التابع؟ اختلف العلماء فيه فمنهم من قال ينقطع التتابع وعليه استئناف الشهرين وهو قول النخعي وأظهر قولي الشافعي لأنه أفطر مختاراً. ومنهم من قال لا ينقطع التتابع وعليه أن يبني وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبي ولو حاضت المرأة في خلال الشهرين فطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع فإذا طهرت بنت لأنه أمر كتبه الله على النساء ولا يمكن الاحتراز عنه فإن عجز عن الصوم فهل ينتقل عنه إلى الإطعام فيطعم ستين مسكيناً ففيه قولان: أحدهما أنه ينتقل إلى الإطعام كما في كفارة الظهار. والثاني لا ينتقل لأن الله تعالى لم يذكر له بدلاً فقال فصيام شهرين متتابعين توبة من الله فنص على الصوم وجعل ذلك عقوبة لقتل الخطأ والله أعلم.

قوله عز وجل: .

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ نزلت في مقيس بن صبابة الكناني وكان قد أسلم هو وأخوه هشام

وبه قال عطاء: وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي رضي الله عنه أنا ابن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان عن القاسم بن ربيعة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألاَ إنّ في قتل العمد الخطأ بالسُّوط والعصا مائة من الإبلِ مُغلّظة، منها أربعون خَلِفَة في بطونها أولادها»، وذهب قوم إلى أن الدِّية المغلّظة أرباعٌ: خمسٌ وعشرون بنت مخاض، وخمسٌ وعشرون بنت لبون، وخمسٌ وعشرون حُقّة، وخمسٌ وعشرون جَذَعة، وهو قول الزهري وربيعة وبه قال مالك وأحمد وأصحاب الرأي، وأمّا دِيَةُ الخطأ فمخفّفة، وهي أخماسٌ بالاتفاق، غير أنهم اختلفوا في تقسيمها، فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لَبُون، وعشرون ابن لَبون، وعشرون حُقّة، وعشرون جَذَعة، وهو قول عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار والزهري وربيعة، وبه قال مالك والشافعي رحمهم الله، وأبدل قوم بني اللّبون ببنات المخاض، يُروى عن ابن مسعود رضي الله عنه وبه قال أحمد وأصحاب الرأي ودية الأطراف على هذا التقدير، ودية المرأة فيها على النصف من دية الرجل والدية في قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة وهم عصبات القاتل من الذكور ولا يجب على الجاني منها شيء لأن النبي ﷺ أَوْجَبَها على العاقلة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يقتلْ مؤمناً متعمداً ﴾ الآية، نزلت في مقيس بن صبابة الكندي، وكان قد أسلم هو وأخوه

فوجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأرسل رسول الله ﷺ رجلاً من بني فهر إلى بني النجار أن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى أخيه مقيس فيتقص منه وأنت لم تعلموه ادفعوا إليه ديته فبلغهم الفهري ذلك فقالوا سمعاً وطاعة لله ولرسوله ما نعلم له قاتلاً ولكن نؤدي إليه ديته فأعطوه مائة من الإبل فانصرفا راجعين نحو المدينة فأتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه فقال له: تقبل دية أخيك لتكون عليك سبة أقتل الفهري الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية فتغفل الفهري فرماه بصخرة فقتله ثم ركب بعيراً من الإبل وساق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً وقال في ذلك:

قتلت بـه فهـراً وحملـت عقلـه ... سـراة بنـي النجـار أربـاب قـارع

وأدركـت ثـأري واضطجعـت مـوسـداً ... وكنيـت إلـى الأصنـام أول راجـع

فنزلت فيه ومن يقتل مؤمناً متعمداً يعني قاصداً لقتله فجزاؤه جهنم ﴿خالداً فيها﴾ يعني بكفره وارتداده وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة عمن أمنه من أهلها فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة ﴿وغضب الله عليه﴾ يعني لأجل كفره وقتله المؤمن متعمداً ﴿ولعنه﴾ يعني وطرده عن رحمته ﴿وأعد له عذاباً عظيماً﴾ اختلف العلماء في حكم هذه الآية هل هي منسوخة أم لا؟ وهل لمن قتل مؤمناً متعمداً توبة؟ أم لا فروي عن سعيد بن جبير قال قالت لابن عباس ألمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة قال لا؟ فتاوت عليه الآية التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر: «ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلاّ بالحق» إلى آخر الآية قال هذه آية مكية نسختها آية مدنية، ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم وفي رواية قال اختلف أهل الكوفة في قتل المؤمن فرحلت إلى ابن عباس قال نزلت في آخر ما نزل ولم ينسخها شيء وفي رواية أخرى. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر إلى قوله مهاناً فقال المشركون وما يعني عنا الإسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنا النفس التي حرم الله وأتينا الفواحش فأنزل الله تعال: ﴿إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ إلى آخر الآية زاد في رواية فأما من دخل في الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له أخرجاه في الصحيحين. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه ناظر ابن عباس في هذه الآية فقال من أين لك أنها محكمة؟ فقال ابن عباس تكاثف الوعيد فيها وقال ابن مسعود

هشام فوجد أخاه هشام قتيلاً في بني النجار فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأرسل له رسول الله ﷺ معه رجلاً من بني فِهر إلى بني النجار أن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى مقيس فيقتصّ منه وإن لم تعلموا أن تدفعوا إليه دِيَتَه، فأبلغهم الفهري ذلك فقالوا: سمعاً وطاعةً لله ولرسوله، والله ما نعلم له قاتلاً ولكنّا نُؤدّي ديته فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة فيأتي الشيطان مقيساً فوسوس إليه، فقال: تقبل دية أخيك فتكون عليك مسبّة، قتل الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية، فتغفل الفهري فرماه بصخرة فقتله، ثم ركب بعيراً وساق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً فنزل فيه: ﴿ ومَنْ يَقتُلْ مؤمناً متعمداً ﴾ ﴿ فجزاؤُهُ جهنَّمُ خالداً فيها ﴾، بكفرِهِ وارتدادِهِ، هو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة، عمّن أمَّنَهُ فقُتل وهو متعلق بأستار الكعبة، قوله تعالى: ﴿ وغَضِبَ اللَّهُ عليهِ ولَعَنَهُ ﴾ أي: طرده عن الرحمة، ﴿ وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾، اختلفوا في حكم هذه الآية فحُكِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قاتل المؤمن عمداً لا توبةَ له، فقيل له: أليس قد قال الله في سورة الفرقان: ﴿ ولا تقتلُوا النفسَ التي حرَّمَ اللَّهُ إلاّ بالحقّ ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى أن قال: ﴿ ومَنْ يفعلْ ذلك يلقَ أثاماً يُضاعفْ له العذابُ يومَ القيامة ويَخْلُدْ فيه مُهاناً إلاّ مَنْ تابَ ﴾ [الفرقان: ٦٩ و٧٠]، فقال: كانت هذه في الجاهلية وذلك أن أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزَنُوا فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنّ الذي تدعو إليه لَحَسَنٌ، ويخبرنا أن لمّا عملنا كفّارة، فنزلت ﴿ والذينَ لا يدعُونَ معَ اللهِ إلَهاً آخر ﴾ إلى قوله: ﴿ إلاّ مَنْ تابَ وآمن ﴾

إنها محكمة وما تزداد إلاّ شدة وعن خارجة بن زيد قال سمعت زبيد بن ثابت يقول أنزلت هذه الآية ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها بعد التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله بالحق بستة أشهر. أخرجه أبو داود والنسائي وزاد النسائي في رواية أشهر بثمانية أشهر. وقال زيد بن ثابت لما نزلت هذه الآية التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة وأراد بالغليظة هذه الآية التي في سورة النساء وباللينة آية الفرقان. وذهب الأكثرون من علماء السلف والخلف إلى أن هذه الآية منسوخة واختلفوا في ناسخها. فقال بعضهم نسختها التي في الفرقان وليس هذا القول بالقوي لأن آية الفرقان نزلت قبل آية النساء والمتقدم لا ينسخ المتأخر وذهب جمهور من قال بالنسخ إلى أن ناسخها الآية التي في النساء أيضاً وهي قوله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** وأجاب من ذهب إلى أنها منسوخة عن حديث ابن عباس المتقدم المخرج في الصحيحين بأن هذه الآية خبر عن وقوع العذاب بمن فعل ذلك الأمر المذكور في الآية والنسخ لا يدخل الإخبار ولئن سلمنا أنه يدخلها النسخ لكن الجمع بين الآيتين ممكن، بحيث لا يكون بينهما تعارض، وذلك بأن يحمل مطلق آية النساء على تقييد آية الفرقان فيكون المعنى فجزاؤه جهنم إلاّ من تاب وقال بعضهم ما ورد عن ابن عباس إنما هو على سبيل التشديد والمبالغة في الزجر عن القتل فهو كما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال إن لم يقتل يقال له لا توبة لك وإن قتل ثم ندم وجاء تائباً يقال له لك توبة وقيل إنه قد روي عن ابن عباس مثله وروي عنه أيضاً أن توبته تقبل وهو قول أهل السنة ويدل عليه الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى: **﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾** ثم اهتدى وقوله إن الله يغفر الذنوب جميعاً وأما السنة فما روي عن جابر بن عبدالله قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك به شيئاً دخل النار» أخرجه مسلم (ق) عن عبادة بن الصامت قال كنا مع رسول الله ﷺ فقال تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق وفي رواية ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه فبايعناه على ذلك.

[الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، فهذه لأولئك وأمّا التي في النساء فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل مسلماً معتمداً فجزاؤه جهنم، وقال زيد بن ثابت: لمّا نزلت التي في الفرقان ﴿والذينَ لا يدعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخر﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد اللّينة فنسخت اللّينة، وأراد بالغليظة الآية، وباللّينة آية الفرقان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تلك آية مكية وهذه مدنية ولم ينسخها شيء، والذي عليه الأكثرون، وهو مذهب أهل السُّنّة أن قاتل المسلم عمداً توبته مقبولة لقوله تعالى: ﴿ وإني لغفّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعمِلَ صالحاً ﴾ [طه: ٨٢] وقال: ﴿ إنّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذلكَ لِمَنْ يشاء ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، وما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو تشديد ومبالغة في الزجر عن القتل، كما رُوِيَ عن سفيان بن عُيينة أنه قال: إنْ لم يَقْتُلْ يُقال له: لا توبةَ لك، وإنْ قَتَلَ ثم جاء يُقال لك توبة. ويُروَى مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وليس في الآية متعلّق لمَن يقول بالتخليد في النار بارتكاب الكبائر، لأن الآية نزلت في قاتل وهو كافر، وهو مقيس بن صبابة، وقيل: إنه وعيد لمَن قتل مؤمناً مُستحلاً لقتله بسبب إيمانه، ومَن استحلّ قتل أهل الإيمان لإيمانهم كان كافراً مخلداً في النار، وقيل: قوله تعالى: ﴿ فجزاؤُه جهنّمُ خالداً فيها ﴾ معناه هي جزاؤه إن جازاه، ولكنه إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له بكرمه، فإنه وَعَدَ أنْ يغفر لمَن يشاء، حكي أن عمرو بن عبيد جاء إلى

فصل

وقد تعلقت المعتزلة والوعيدية بهذه الآية لصحة مذهبهم على أن الفاسق يخلد في النار وأجاب علماء بأن الآية نزلت في كافر قتل مسلماً وهو مقيس بن صبابة فتكون الآية على هذا مخصوصة. وقيل هذا الوعيد لمن قتل مسلماً مستحلاً لقتله ومن استحل قتل مسلم كان كافراً وهو مخلد في النار بسبب كفره وعن أبي مجلز في قوله تعالى ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم. قال: هي جزاؤه فإن شاء الله أن يتجاوز عن جزائه فعل أخرجه أبو داود. وقيل إن الخلود لا يقتضي التأبيد بل معناه دوام الحالة التي هو عليها ويدل عليه قول العرب للأيام خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها وإذا ذكر الخلود في حق الكفار قرنه بذكر التأبيد كقوله خالدين فيها أبداً فإذا قرن الخلود بهذه اللفظة علم أن المراد منه الدوام الذي لا ينقطع إذا ثبت هذا كان معنى الخلود المذكور في الآية أن الله تعالى يعذب قاتل المؤمن عمداً في النار إلى حيث يشاء الله ثم يخرجه منها بفضل رحمته كرمه. فإنه قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحيحة إخراج جميع الموحدين من النار وقيل إن قاتل المؤمن عمداً عدوانا إذا تاب قبلت توبته بدليل قوله تعالى: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ولأن الكفر أعظم من هذا القتل وتوبة الكافر من كفره مقبولة بدليل قوله: قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإذا كانت التوبة من الكفر مقبولة فلأن تقبل من القاتل أولى والله أعلم. قوله عز وجل: .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ الآية قال ابن عباس: نزلت في رجل من بني مرة بن عوف يقال له مرداس بن نهيك وكان من أهل فدك لم يسلم من قومه غيره فسمعوا بسرية لرسول الله ﷺ تريدهم

أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يُخلف اللّهُ وعدَه؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى ﴿ ومَنْ يقتلْ مؤمناً متعمِداً فجزاؤه جهنَمُ خالداً فيها ﴾ فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجم أتيت يا أبا عثمان إن العرب لا تعدّ الإخلاف في الوعيد خلفاً وذمّاً وإنما تعدّ إخلاف الوعد خلفاً وذمّاً وأنشد:

وإني وإنْ وعدتُه أو وعدتُه لمخلفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

والدليل على أن غيرَ الشرك لا يوجب التخليد في النار ما روينا أن النبي ﷺ قال: «مَن مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة»، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمن أنا شعيب عن الزهري قال أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد يوم بدر وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تُشرِكُوا بالله شيئاً ولا تسرِقُوا ولا تزنُوا ولا تقتلُوا أولادَكم ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونَهُ بينَ أيديكُم وأرجلِكم ولا تعصُوا في معْروفٍ فمَنْ وفَى منكم فأجرُه على الله، ومَن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقِبَ في الدنيا فهو كفّارة له، ومَن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله عليه، فهو إلى الله إن شاءَ عفا عنه وإن شاء عاقبه»، فبايعناه على ذلك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا إذا ضربتُـمْ في سبيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ الآية، قال الكلبي عن أبي صالح

وكان على السرية رجل يقال له غالب بن فضالة الليثي فهربوا منه، وأقام ذلك الرجل المسلم فلما رأى الخيل خاف أن لا يكونوا مسلمين فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد هو الجبل، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون فعرف أنهم من رسول الله ﷺ فكبر ونزل وهو يقول لا إله إلاّ الله محمد ﷺ السلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه الخبر فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً، وكان قد سبقهم الخبر فقال رسول الله ﷺ أقتلتموه إرادة ما معه؟ ثم قرأ رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد هذه الآية فقال أسامة استغفر لي يا رسول الله فقال كيف أنت بلا إله إلاّ الله؟ يقولها ثلاث مرات قال أسامة فما زال رسول الله ﷺ يكررها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلاّ يومئذٍ ثم استغفر له رسول الله ﷺ وقال: أعتق رقبة وروى أبو ظبيان عن أسامة قال: قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح فقال أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً أم لا؟ وفي رواية عن ابن عباس قال مر رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم فسلم عليهم، فقالوا إنما سلم عليكم ليتعوذ منكم فقاموا إليه فقتلوه وأخذوا غنمه فأتوا بها رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾ يعني إذا سافرتم إلى الجهاد فتبينوا من البيان يقال تبينت الأمر إذا تأملته قبل الإقدام عليه وقرىء فتثبتوا من التثبت وهو خلاف العجلة والمعنى فقفوا وتثبتوا حتى تعرفوا المؤمن من الكافر وتعرفوا حقيقة الأمر الذي تقدمون عليه ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام﴾ يعني التحية يعني لا تقوموا لمن حياكم بهذه التحية أنه إنما قالها تعوذا فتقدموا عليه بالسيف لتأخذوا ماله ولكن كفوا عنه وأقبلوا منه ما أظهره لكم وقرىء السلم بفتح السين من غير ألف ومعناه الاستسلام والانقياد أي استسلم وانقاد لكم وقال لا إله إلاّ الله محمد رسول الله وقيل السلام والسلم بمعنى واحد أي لا تقولوا لمن سلم عليكم ﴿لست مؤمناً﴾ يعني لست من أهل الإيمان فتقتلوه بذلك قال العلماء: إذا رأى الغزاة في بلد أو قرية أو حي من العرب شعار الإسلام يجب أن يكفوا عنهم ولا يغيروا عليهم لما روي عن عصام المزني قال كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً أو

عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في رجل من بني مرّة بن عوف يقال له مرادس بن نهيك، وكان من أهل فدك مسلماً لم يُسلم من قومه غيره، فسمعُوا بسريةٍ لرسول الله ﷺ تريدهم، وكان على السريّة رجل يُقالُ له غالب بن فُضالة الليثي، فهربُوا وأقام الرجل لأنه كان على دين المسلمين، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي ﷺ فألجأ غنمه إلى عاقُول من الجبل، وصعد هو إلى الجبل فلما تلاحقتِ الخيلُ سمعهم يكبّرون، فلمّا سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب النبي ﷺ فكبّر ونزل وهو يقول لا إله إلاّ الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وَجْداً شديداً وكان قدْ سبقهم قبل ذلك الخبر، قال رسول الله ﷺ: «أقتلتموه إرادةَ مَا مَعَهُ»؟ ثم قرأ هذه الآية على أُسامة بن زيد، فقال: يا رسول الله استغفر لي فقال فكيف بلا إله إلاّ الله؟ قالها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أسامة: فما زال رسول الله ﷺ يعيدها حتى وَدِدْتُ أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم إن رسول الله ﷺ استغفرَ لي بعد ثلاث مرّات، وقال: «اعتقْ رقبةً»، وروَى أبو ظبيان عن أسامة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إنّما قال خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفاً أم لا»؟ وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رجلٌ من بني سليم على نفر من أصحاب النبي ﷺ ومعه غنم له فسلّم عليهم، قالوا: ما سلّم عليكم إلاّ ليتعوّذ منكم فقاموا وقتلُوه وأخذوا غنمه فأتوا بها إلى رسول الله ﷺ فأنزل اللّهُ تعالى هذه الآية: ﴿ يا أيّها الذين آمنُوا إذا ضَرَبْتُم في سبيلِ اللّهِ ﴾، يعني إذا سافرتم في سبيل الله، يعني: الجهاد، ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ قرأ حمزة والكسائي ههنا في موضعين وفي سورة الحجرات بالتاء والثاء من التثبيت، أي: قفوا حتى تعرفوا المؤمنَ من

سرية يقول لهم إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذناً فلا تقتلوا أحداً أخرجه أبو داود والترمذي: وقال أكثر الفقهاء لو قال اليهودي أو النصراني أنا مؤمن لا يحكم بأيمانه لأنه يدعي أن الذي هو عليه إيمان ولو قال لا إله إلاّ الله محمد رسول الله فعند بعض العلماء لا يحكم حتى يتبرأ من دينه الذي كان عليه ويعترف أنه دين باطل وذلك لأن بعض اليهود يزعم أن محمداً رسول إلى العرب خاصة لا أنه رسول إلى كافة الخلق؛ فإذا اعترف أنه رسول إلى كافة الخلق وأن كان عليه من التهود أو التنصر باطل صح إسلامه وحكم بصحته وقوله تعالى: ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ يعني تطلبون الغنيمة التي هي من حطام الدنيا سريعة النفاد والذهاب وعرض الدنيا منافعها ومتاعها ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ أي غنائم كثيرة من رزقه يغنمكوها يغنيكم بها عن قتل من يظهر الإسلام ويتعوذ به. وقيل معناه فعند الله ثواب كثير لمن اتقي قتل المؤمن ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ يعني كما كان هذا الذي ألقى إليكم السلام فقلتم له لست مؤمناً فقتلتموه كنتم أنتم من قبل يعني من قبل أن يعز الله دينه كنتم تستخفون أنتم بدينكم كما استخفى هذا الذي قتلتموه بدينه من قومه حذراً على نفسه منهم، وقيل معناه كذلك كنتم تأمنون في قومكم بهذه الكلمة فلا تحقروا من قالها ولا تقتلوه وقيل معناه كذلك كنتم من قبل مشركين ﴿فمن الله عليكم﴾ يعني بالإسلام والهداية فلا تقتلوا من قال لا إله إلاّ الله وقيل معناه من عليكم بإعلان الإسلام بعد الإختفاء، وقيل من عليكم بالتوبة ﴿فتبينوا﴾ أي ولا تعجلوا بقتل مؤمن وهو تأكيد للأمر بالتبين ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ يعني فلا تتهاونوا في القتل وكونوا متحرزين من ذلك محتاطين فيه. قوله عز وجل: .

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ الآية (خ)

الكافر، وقرأ الآخرون بالياء والنون من التبيّن، يقال: تبينتُ الأمرَ إذا تأملته، ﴿ ولا تقولُوا لِمَنْ ألقَى إليكُمُ السَّلامَ ﴾ هكذا قرأ أهل المدينة وابن عامر وحمزة، أي: المعاذة وهو قول «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله»، وقرأ الآخرون السلام وهو السلام الذي هو تحية المسلمين لأنه كان قد سلّم عليهم، وقيل: السلْم والسلام واحد، أي: لا تقولوا لمَن سلّم عليكم لستَ مؤمناً، فذلك قوله تعالى: ﴿ لستَ مؤمناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحياةِ الدنيا ﴾، يعني: تطلبون الغَنم والغنيمة، و﴿ عرضَ الحياة الدنيا ﴾ منافعها ومتاعها، ﴿ فعندَ اللّهِ مغانِمُ ﴾، أي غنائم، ﴿ كثيرةٌ ﴾، وقيل: ثوابٌ كثير لمَن اتّقَى قتلَ المؤمن، ﴿ كذلك كنتمْ مِنْ قَبْلُ ﴾، قال سعيد بن جبير: كذلك كنتم تكتُمُون إيمانكم من المشركين ﴿ فَمَنَّ اللّهُ عليكم ﴾، بإظهار الإسلام، وقال قتادة: كنتم ضلاّلاً من قبل فمنَّ الله عليكم بالهداية، وقيل معناه: كذلك كنتم من قبل تأمَنون في قومكم بلا إله إلاّ الله قبل الهجرة فلا تخيفوا مَن قالها فمنَّ الله عليكم بالهجرة، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أنْ تقتلوا مؤمناً، ﴿ إنّ اللّهَ كان بما تعملونَ خبيراً ﴾، قلتُ: إذا رأى الغزاةُ في بلد أو قرية شعارَ الإسلام فعليهم أن يكفُّوا عنهم، فإنّ النبي ﷺ كان إذا غزا قوماً فإن سمع أذاناً كفّ عنهم، وإن لم يسمع أغار عليهم. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن ابن عصام عن أبيه أنّ النبي ﷺ كان إذا بعثَ سريةً قال: «إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم أذاناً فلا تقتلُوا أحداً».

قوله تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي القاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ ﴾ الآية، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن

عن زيد بن ثابت قال: «أملى عليّ النبي ﷺ»: **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾** فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ فقال: والله يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله عز وجل غير أولى الضرر (ق) عن البراء بن عازب: «لما نزلت لا يستوى القاعدون من المؤمنين» دعا رسول الله ﷺ زيداً فجاء بكتف فكتبها وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر» وفي رواية أخرى: «لما نزلت لا يستوى القاعدون من المؤمنين قال النبي ﷺ ادعوا فلاناً فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله هذه الرواية الثانية أخرجها ابن الأثير في كتابه جامع الأصول، وأضافها إلى البخاري ومسلم ولم أجدها في كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي. وفي هذه الآية فضل الجهاد في سبيل الله والحث عليه فقوله تعالى: **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾** يعني لا يعدل المختلفون عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين المجاهدين في سبيل الله غير أولى الضرر يعني أولى الزمانة والضعف في البدن والبصر فإنهم يساوون المجاهدين لأن العذر أقعدهم عن الجهاد(م) عن جابر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقال رسول الله ﷺ إن بالمدينة رجالاً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلاّ كانوا معكم حبسهم المرض» (خ) عن أنس قال: «رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلاّ وهم معنا حبسهم العذر» (خ) عن ابن عباس قال لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إليها.

وقوله تعالى: **﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾** يعني فضيلة في الآخرة قال

عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد العزيز بن عبد الله ثنا إبراهيم بن سعد الزهري حدّثني صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال: رأيتُ مروان بن الحكم جالساً في المسجد فأقبلتُ حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ أملَى عليه **﴿ لَا يستوي القاعدونَ مِنَ المؤمنينَ والمجاهدون في سبيلِ الله ﴾**، قال: فجاء ابنُ أم مكتوم وهو يُمْلِيها عليَّ، فقال: يا رسول الله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ، وكان رجلاً أعمى، فأنزل الله تعالى عليه وفخذُهُ على فخذي، فثقلتْ عليَّ حتى خفتُ أن ترضَّ فخذي، ثم سرَى عنه فأنزل الله **﴿غيرُ أُولي الضَّـرَرِ﴾** فهذه الآيـة في فضل الجهاد والحثِّ عليه، فقال: **﴿ لا يستوي القاعدونَ مِنَ المؤمِنينَ ﴾** عن الجهاد **﴿ غيرُ أُولِي الضَّررِ ﴾**، قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب الراء، أي: إلاّ أُولي الضَّرر، وقرأ الآخرون برفع الراء على نعتِ **﴿ القاعدين ﴾** يُريدُ: لا يستوي القاعدون الذين هم غيرُ أُولي الضرر، أي: غير أُولي الزَّمَانَةِ والضَّعف في البدن والبصر، **﴿ والمجاهدُون في سبيلِ اللهِ بأموالِهم وأنفسهم ﴾**، أي: ليس المؤمنون القاعدون عن الجهاد من غير عذر والمؤمنون والمجاهدون سواء، غير أُولي الضرر فإنهم يساوون المجاهدين، لأن العذر أقعدهم. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون أخبرنا حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ لمّا رجع من غزوة تبوك، فَدَنَا من المدينة فقال: «إنّ في المدينة لأقواماً ما سِرْتُم من مسيرٍ ولا قطعتم من وَادٍ إلاّ كانوا معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر»، وروَى القاسم عن ابن عباس قال: **﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ﴾** عن بدر والخارجون إلى بدر، قوله تعالى: **﴿ فَضَّلَ اللَّهُ المجاهدينَ بأموالِهِمْ وأنفسهِمْ على**

ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولي الضرر فضل الله المجاهدين على أولي الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولو الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد فنزلوا عن المجاهدين درجة ﴿وكلاً﴾ يعني كلاً من المجاهدين والقاعدين ﴿وعد الله الحسنى﴾ يعني الجنة بإيمانهم ﴿وفضل الله المجاهدين﴾ يعني في سبيل الله ﴿على القاعدين﴾ يعني الذين لا عذر لهم ولا ضرر ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني ثواباً جزيلاً. ثم فسر ذلك الأجر العظيم فقال تعالى: .

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

﴿درجات منه﴾ قال قتادة: كان يقال للإسلام درجة والهجرة في الإسلام درجة الجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة، وقال ابن زيد الدرجات هي سبع وهي التي ذكرها الله في سورة براءة حين قال: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله﴾ إلى قوله: ﴿ولا يقطعون وادياً إلّا كتب الله لهم﴾ وقال ابن محيريز الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة فتعجب لها أبو سعيد فقال أعدها علي يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وما هي يا رسول الله؟ قال الجهاد في سبيل الله» (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج كان حقاً على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا أولاً نبشر الناس بقولك؟ فقال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» فإن قلت قد ذكر الله عز وجل في الآية الأولى درجة واحدة وذكر في هذه الآية درجات فما وجه الحكمة في ذلك؟ قلت أما الدرجة الأولى فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر. وأما الثانية فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير

القاعدينَ دَرَجَةً ﴾، أي: فضيلةً، وقيل: أراد بالقاعد هاهنا أولي الضرر، فضّل اللّهُ المجاهدين عليهم درجةً لأن المجاهد باشر الجهاد مع النيَّة وأولي الضَّرر كانتْ لهم نيةٌ ولكنّهم لم يباشروا، فنزلوا عنهم بدرجة، **﴿ وكلاً وَعَدَ اللّهُ الحُسْنَى ﴾**، يعني: الجنة بإيمانهم، وقال مقاتل: يعني المجاهد والقاعد المعذُور، **﴿ وفَضَّلَ اللّهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عظيماً ﴾** يعني: على القاعدين من غير عذر.

﴿ درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً وكانَ اللّهُ غفوراً رحيماً ﴾، قال ابن محيريز في الآية: هي سبعون درجةً ما بين كل درجتين عَدْوُ الفرس الجواد المضمر، وسبعون خريفاً، وقيل: الدرجات هي الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة فازَ بها المجاهدون، أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد شريك الشافعي أنا عبد الله بن مسلم أبو بكر الجورندي أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب حدّثني أبو هانيء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد مَنْ رضيَ بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيّاً وجبتْ له الجنة» قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدْهَا عليّ يا رسولَ الله، فأعادَها عليه، ثم قال: «وأُخرَى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله ثلاثاً». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن علي التياه أنا أبي أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن صالح المطرز

ضرر ولا عذر فضلوا عليهم بدرجات كثيرة وقيل يحتمل أن تكون الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم والدرجات درجات الجنة ومنازلها كما في الحديث والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ومغفرة﴾ يعني لذنوبهم يسترها ويصفح عنها ﴿ورحمة﴾ يعني رأفة بهم ﴿وكان الله غفوراً﴾ يعني لذنوب عباده المؤمنين رحيماً يعني بهم يتفضل عليهم برحمته ومغفرته عن ابن عمر عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: قال: «أيما عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وإن قبضته غفرت له ورحمته» أخرجه النسائي.

فصل

اعلم أن الجهاد ينقسم إلى: فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين أن يدخل العدو دار قوم من المؤمنين وبلادهم فيجب على كل مكلف من الرجال ممن لا عذر له ولا ضرر به من أهل تلك البلدة الخروج إلى عدوهم دفعاً عن أنفسهم وعن أهليهم وجيرانهم وسواء في ذلك الحر والعبد والغني والفقير فيجب على الكافة وهو في حق من بعد عنهم من المسلمين فرض كفاية فإن لم تقع الكفاية بمن نزل بهم العدو فتجب مساعدتهم على من قرب منهم من المسلمين أو بعد عنهم، وإن وقعت الكفاية بالمنزول بهم فلا فرض على الأبعدين إلا على طريق الاختبار ولا يدخل في هذا الفرض يعني فرض الكفاية الفقراء والعبيد، وإذا كان الكفار قادرين في بلادهم فعلى الإمام أن لا يخلي كل سنة من غزاة يغزوهم فيها إما بنفسه أو سراياه حتى لا يبطل الجهاد والاختبار. والمطيق الجهاد مع وقوع الكفاية بغيره لا يقعد عنه ولكن لا يفرض عليه لأن الله تعالى وعد المجاهدين والقاعدين الثواب بقوله: ﴿وكلاًّ وعد الله الحسنى﴾ ولو كان فرضاً على الكافة لاستحق القاعدون عن الجهاد العقاب لا الثواب والله أعلم. قوله تعالى: .

أنا محمد بن يحيىٰ أنا شريح بن النعمان أنا فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ باللَّهِ ورسولِهِ وأقامَ الصلاةَ وصامَ رمضانَ كانَ حقّاً على اللَّهِ عزّ وجلّ أن يُدخلَهُ الجنّةَ جاهدَ في سبيل الله أو جلسَ في أرضه التي وُلد فيها»، قالوا: يا رسول الله أفلا نُنذر الناسَ بذلك؟ قال: «إن في الجنّة مائة درجة أعدّها اللَّهُ للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتُمُ اللَّهَ فاسألوه الفِرْدَوسَ فإنه أوسط الجنّةِ وأعلى الجنّةِ وفوق عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة»، واعلمْ أن الجهاد في الجملة فرضٌ غيرَ أنه ينقسم إلى فرض العين وفرض الكفاية، ففرض العين أن يدخل الكفّار دارَ قوم من المؤمنين فيجب على كل مكلّف من الرجال ممّن لا عذر له من أهل تلك البلدة الخروجَ إلى عدوّهم حرّاً كان أو عبداً غنيّاً كان أو فقيراً، دفعاً عن أنفسهم وعن جيرانهم، وهو في حق من بعد منهم من المسلمين فرض على الكفاية، فإن لم يقع الكفاية بمَن نزل بهم يجب على مَن بعد منهم من المسلمين عونُهم، وإن وقعت الكفاية بالنازلين بهم فلا فرض على الأبعدين إلّا على طريق الاختيار، ولا يدخل في هذا القسم العبيد والفقراء، ومن هذا القبيل أن يكون الكفّار قادرين في بلادهم، فعلى الإمام أن لا يخلي كلّ سنة عن غزوة يغزوها بنفسه أو بسراياه حتى لا يكون الجهاد معطّلاً، والاختيار للمطيق الاجتهاد مع وقوع الكفاية بغيره أنْ لا يقعد عن الجهاد، ولكنْ لا يُفترض لأنّ الله تعالى وعد المجاهدين والقاعدين الثوابَ في هذه الآية فقال: ﴿ وكلًّا وعد الله الحسنى ﴾ [النساء: ٩٥]، فلو كان فرضاً على الكافّة لاستحقَّ القاعد العقابَ لا الثواب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآية نزلت في أناس تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ يعني ملك الموت وأعوانه وهم ستة: ثلاثة منهم يلون قبض أرواح المؤمنين وثلاثة يلون قبض أرواح الكفار. وقيل أراد به ملك الموت وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كما يخاطب الواحد بلفظ الجمع وفي التوفي هنا قولان: أحدهما أنه قبض أرواحهم. الثاني حشرهم إلى النار فعلى القول الثاني يكون المراد بالملائكة الزبانية الذين يلون تعذيب الكفار «ظالمي أنفسهم» يعني بالشرك وقيل بالمقام في دار الشرك وذلك لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبي ﷺ حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة بقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» أخرجاه في الصحيحين وقيل ظالمي أنفسهم بخروجهم مع المشركين يوم بدر وتكثير سوادهم حتى قتلوا معهم فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ﴿قالوا فيم كنتم﴾ سؤال توبيخ وتقريع يعني قالت الملائكة: لهؤلاء الذين قتلوا في أي الفريقين كنتم أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين فاعتذروا بالضعف عن مقاومة المشركين وهو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قالوا كنا مستضعفين﴾ يعني عاجزين ﴿في الأرض﴾ يعني في أرض مكة ﴿قالوا﴾ يعني قال لهم الملائكة ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ يعني إلى المدينة وتخرجوا من بين أظهر المشركين فأكذبهم الله في قولهم كنا مستضعفين وأعلمنا بكذبهم ﴿فأولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿مأواهم﴾ يعني منزلهم ﴿جهنم وساءت مصيراً﴾ يعني بئس المصير مصيرهم إلى جهنم ثم استثنى أهل الهذر ومن علم ضعفه منهم فقال تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة﴾ يعني لا يقدرون على حيلة ولا نفقة ولا قوة

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهِمْ ﴾ الآية، نزلت في ناس من أهل مكة تكلَّمُوا بالإسلام ولم يهاجروا، منهم: قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفّار فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين توفّاهم الملائكةُ ﴾، أراد به ملك الموت وأعوانه أو أراد ملك الموت وحده، كما قال تعالى: ﴿ قلْ يتوفّاكُمْ مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بكم ﴾ [السجدة: ١١]، والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾، بالشرك، وهو نصب على الحال أي: في حال ظلمهم، قيل: أي المقام في دار الشرك لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلّا بالهجرة، ثم نسخ بعد فتح مكة فقال النبيّ ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»، وهؤلاء قُتلوا يومَ بدرٍ وضربتِ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارهم، وقالوا لهم: فيما كنتم؟ فذلك قوله تعالى: ﴿ قالوا فِيمَ كنتم ﴾ أي: في ماذا كنتم أو في أي الفريقين كنتم؟ أفي المسلمين؟ أم في المشركين؟ سؤال توبيخ وتعيير فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهلِ الشرك، ﴿ قالُوا كنّا مُسْتَضْعَفِينَ ﴾، عاجزين: ﴿ في الأرض ﴾، يعني أرض مكة، ﴿ قالوا ألمْ تكنْ أرضُ اللّهِ واسعةً فتُهاجِرُوا فيها ﴾؟ يعني إلى المدينة وتخرجوا من مكة من بينِ أهل الشرك؟ فأكذبهم الله تعالى وأعلمنا بكذبهم، وقال: ﴿ فأولئك مَأْوَاهُمْ ﴾، منزلهم ﴿ جهنّمُ وساءتْ مصيراً ﴾، أي: بئس المصير إلى جهنم، ثم استثنى أهل العذر منهم، فقال: ﴿ إلّا المستضعفينَ مِنَ الرجالِ والنساءِ والولدانِ لا يستطيعونَ حِيلَةً ﴾ لا يقدرون على حيلة ولا على

لهم على الخروج من مكة ﴿ولا يهتدون سبيلاً﴾ يعني ولا يعرفون طريقاً يسلكونه من مكة إلى المدينة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿فأولئك﴾ يعني المستضعفين وأهل الأعذار ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ يعني يتجاوز عنهم بفضله وإحسانه وعسى من الله واجب لأنه إطماع وترج والله تعالى إذا أطمع عبداً وصله ﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾ قال ابن عباس كنت أنا وأمي ممن عذر الله يعني من المستضعفين؛ وكان رسول الله ﷺ يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصلاة (ق) عن أبي هريرة قال لما رفع رسول الله ﷺ رأسه من الركعة الثانية قال: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. قوله عز وجل: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾ قال الزجاج معنى مراغماً مهاجراً يعني يجد في الأرض مهاجراً يعني أن المهاجر لقومه والمراغم لها بمنزلة واحدة. وإن اختلف اللفظان وهو مأخوذ من الرغام وهو التراب يقال رغم أنفه إذا التصق بالتراب وذلك لأن الأنف عضو شريف والتراب ذليل حقير فجعلوا قولهم رغم أنفه كناية عن حصول الذل له ويقال راغمت فلاناً بمعنى هجرته وعاديته ولم أبال به رغم أنفه ويقوي ذلك قول بعض أهل اللغة هو الخروج من بلاد العدو برغم أنفه. وقيل معناه أن الرجل إذا خرج عن قومه خرج مراغماً لهم أي مغاضباً لهم ومقاطعاً وقال الفراء المراغم المضطرب والمذهب في الأرض وأنشد الزجاج في المعنى:

إلى بلد غير داني المحل ... بعيد المراغم والمضطرب

فعلى هذا يكون معنى الآية يجد مذهباً يذهب إليه إذا رأى ما يكرهه هذا قول أهل اللغة في معنى المراغمة. وقال ابن عباس: يجد متحولاً يتحول إليه من أرض إلى أرض، وقال مجاهد يجد متزحزحاً عما يكره وقيل يجد منقلباً ينقلب إليه وقيل المراغمة والمهاجرة واحدة يقال: راغمت قومي أي هاجرتهم وسميت المهاجرة مراغمة لأنه

نفقة ولا على قوة الخروج منها، ﴿ ولا يهتدونَ سبيلاً ﴾، أي: لا يعرفون طريقاً إلى الخروج. وقال مجاهد: لا يعرفون طريق المدينة.

﴿ فأولئكَ عَسَى اللَّهُ أنْ يعفوَ عنهمْ ﴾، يتجاوز عنهم، وعَسَى منَ اللَّهِ واجبٌ، لأنه للاطماع، والله تعالى إذا أطمع عبداً وصله إليه، **﴿ وكانَ اللَّهُ عَفُوّاً غفوراً ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنتُ أنا وأُمي ممّن عذر الله، يعني المستضعفين، وكان رسول الله ﷺ يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصلاة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن فضالة أنا هشام عن يحيىٰ هو ابن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه «أنَّ النبي ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحدٍ قَنَتَ بعد الركوع، فربما قال: سمع الله لمَنْ حمده ربّنا لك الحمد في الركعة الآخرة من صلاة العشاء: اللّهمَّ أنجِ عياشَ بن أبي ربيعة اللّهمَّ أنجِ الوليدَ اللّهمَّ أنجِ سلمةَ بن هشام اللّهمَّ أنجِ المستضعفين من المؤمنين، اللّهمَّ اشْدُدْ وطأتَكَ على مضر، اللّهمَّ اجعلها سنين كسني يوسف، يجهر بذلك».

يهاجر قومه برغمهم. وقوله وسعة يعني في الرزق. وقيل يجد سعة من الضلالة إلى الهدى وقيل يجد سعة في الأرض التي يهاجر إليها قال ابن عباس: لما نزلت الآية التي قبل هذه سمعها رجل من بني ليث شيخ كبير مريض يقال له جندع بن ضمرة فقال: والله ما أنا ممن استثنى الله عز وجل وإني لأجد حيلة ولي من المال ما يبلغني إلى المدينة وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة أخرجوني فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به النعيم فأدركه الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك رسولك ثم مات فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا لو وافى المدينة لكان أتم وأوفى أجراً وضحك المشركون وقالوا ما أدرك ما طلب فأنزل الله عز وجل: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت﴾ يعني قبل بلوغه إلى مهاجره ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ يعني فقد وجب أجر هجرته على الله بإيجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم لا وجوب استحقاق وتحتم قال بعض العلماء ويدخل في حكم الآية من قصد فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن إتمامها كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملاً وقال بعضهم إنما يكتب له أجر ذلك القدر الذي عمل وأتى به، أما تمام الأجر فلا والقول الأول أصح لأن الآية إنما نزلت في معرض الترغيب في الهجرة وأن من قصدها ولم يبلغها بل مات دونها فقد حصل له ثواب الهجرة كاملاً فكذلك كل من قصد فعل طاعة ولم يقدر على إتمامها كتب الله له ثوابها كاملاً ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يعني ويغفر الله له ما كان منه من القعود قبل الهجرة إلى أن خرج مهاجراً. قوله عز وجل: .

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ يعني إذا سافرتم فيها ﴿فليس عليكم جناح﴾ أي حرج وإثم ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ يعني من أربع ركعات إلى ركعتين وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء، وأصل القصر في اللغة التضييق وقيل هو ضم الشيء إلى أصله. وفسر ابن الجوزي القصر بالنقص ولم أره لأحد من أهل التفسير واللغة وقيل

قوله تعالى: ﴿ ومَنْ يُهاجرْ في سبيلِ اللَّهِ يَجِدْ في الأرضِ مُراغَماً كثيراً وسَعَةً ﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ مُراغَماً ﴾ أي: مُتَحوَّلاً يتحوّل إليه، وقال مجاهد: متزحزحاً عمَّا يكره، وقال أبو عبيدة: المُراغم: المُهاجر، يُقال: راغمت قومي وهاجرتهم، وهو المُضْطَرَبُ والمَذْهَبُ، قيل: سُمِّيت المهاجرة مراغمة لأن مَن يهاجر يراغم قومه وسَعَة أي: في الرزق، وقيل: سعة من الضلالة إلى الهُدَى، ورُوِي أنه لما نزلت هذه الآية سمعها رجل من بني ليث شيخ كبير مريض يقال له جندع بن ضمرة، فقال: والله ما أنا ممَّن استثنى الله عزّ وجلّ وإني لأجد حيلة، ولي من المال ما يبلغني المدينة وأبعد منها، والله لا أبيت الليلة بمكة، أخرجوني فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فأدركه الموت، فصفَّقَ بيمينه على شماله ثم قال: اللَّهمَّ هذه لك وهذه لرسولك أُبايعك على ما بايعك عليه رسولك، فمات فبلغ خبرُه أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: لو وَافَى المدينة لكان أتمّ وأوفَى أجراً، وضحك المشركون وقالوا: ما أدراك هذا ما طلب، فأنزل الله: ﴿ ومَنْ يَخْرُجُ مِنْ بيته مُهاجراً إلى اللَّهِ ورَسُولهِ ثمّ يُدرِكْهُ الموتُ ﴾ أي: قبل بلوغه إلى مهاجره، ﴿ فقدْ وَقَعَ ﴾ أي: وجب ﴿ أجره على اللَّهِ ﴾، بإيجابه على نفسه فضْلاً منه. ﴿ وكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا ضَرَبْتُمْ في الأرضِ ﴾ أي: سافرتم، ﴿ فليسَ عليكم جُناحٌ ﴾، أي: حرج وإثم ﴿ أن تَقْصُرُوا مِنَ الصّلاةِ ﴾، يعني من أربعة ركعات إلى ركعتين، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء، ﴿ إنْ خِفْتُمْ

معنى قصر الصلاة جعلها قصيرة بترك بعض ركعاتها أو بعض أركانها ترخيصاً ولهذا السبب ذكروا في تفسير قصر الصلاة المذكورة في الآية قولين: أحدهما أنه في عدد الركعات وهو رد الصلاة الرباعية إلى ركعتين والقول الثاني أن المراد بالقصر إدخال التخفيف في أدائها وهو أن يكتفي بالإيماء والإشارة عن الركوع والسجود. والقول الأول أصح ويدل عليه لفظة من في قوله أن تقصروا من الصلاة ولفظة من هنا للتبعيض وذلك يوجب جواز الاقتصار على بعض الصلاة فثبت بهذا أن تفسير القصر بإسقاط بعض ركعات الصلاة أولى ﴿إن خفتم أن يفتنكم﴾ يعني يغتالكم ويقتلكم في الصلاة ﴿الذين كفروا﴾ ذهب داود الظاهري إلى أن جواز القصر مخصوص بحال الخوف واستدل على صحة مذهبه بقوله تعالى: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ ولأن عدم الشرط يقتضي عدم المشروط فعلى هذا لا يجوز القصر عند الأمن ولا يجوز رفع هذا الشرط بخبر الآحاد لأنه يقتضي نسخ القرآن بخبر واحد، وذهب جمهور أهل العلم إلى أن القصر في حال الأمن في السفر جائز ويدل عليه ما روي عن يعلى بن أمية. قال: قلت لعمر بن الخطاب ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقد أمن الناس فقال عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» أخرجه مسلم وعن عبدالله بن خالد بن أسيد أنه قال لابن عمر كيف تقصرون الصلاة وإنما قال الله تعالى ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقال ابن عمر يا ابن أخي: «إن رسول الله ﷺ أتانا ونحن في ضلال فعلمنا فكان فيما علمنا أن أمرنا أن نصلي ركعتين في السفر». أخرجه النسائي وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين فصلى ركعتين أخرجه الترمذي والنسائي وأجاب الجمهور عن قوله تعالى إن خفتم أن كلمة إن تفيد حصول الشرط ولا يلزم عند عدم الشرط عدم المشروط فقوله تعالى: ﴿إن خفتم﴾ يقتضي أن عند عدم الخوف لا تحصل رخصة القصر. وإذا كان كذلك كانت الآية ساكتة عن حال الأمن فإثبات الرخصة حال الأمن بخبر الواحد يكون إثباتاً لحكم سكت عنه القرآن وذلك غير ممتنع إنما الممتنع إثبات الحكم بخبر الواحد على خلاف ما دل عليه القرآن. فإن قلت إذا كان هذا الحكم ثابتاً في حال الأمن والخوف؛ فما فائدة تقييده بحال الخوف؟ قلت إنما نزلت الآية على غالب أسفار النبي ﷺ وأكثرها لم يخل عن خوف العدو فذكر الله عز وجل هذا الشرط من حيث إنه الأغلب في الوقوع. وقوله تعالى: ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ أي ظاهر العداوة فلعلمي بهذا رخصت لكم في قصر الصلاة لئلا يجدوا إلى قتلكم واغتيالكم سبيلاً وإنما قال عدواً ولم يقل أعداء لأنه يستوي فيه الواحد والجمع.

أن يفتنكم ﴾ أي: يغتالكم ويقتلكم ﴿ الذينَ كَفَرُوا ﴾، في الصلاة، نظيره قوله تعالى: ﴿ على خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وملئِهِمْ أن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس: ٨٣]، أي: يقتلهم. ﴿ إنّ الكافرين كانُوا لكم عدوّاً مُبيناً ﴾ أي: ظاهر العداوة، اعلم أن قصر الصلاة في السفر جائز بإجماع الأمة، واختلفوا في جواز الإتمام فذهب أكثرهم إلى أن القصر واجب، وهو قول عمر وعلي وابن عمر وجابر وابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وأصحاب الرأي، لِمَا رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالتْ: فرضَ اللّهُ الصلاةَ حينَ فرضَها ركعتين في الحضر والسفر، فأُقرّتْ صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر. وذهب قوم إلى جواز الإتمام، رُوِيَ ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وبه قال الشافعي رضي الله عنه، إنْ شاءَ أتمَّ هو وإن شاءَ قصرَ، والقصرُ أفضل، أخبرنا الإمام عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها قالتْ: كل ذلك قد فعل رسول الله ﷺ قصرَ الصلاةَ وأتمَّ، وظاهر القرآن يدلّ على ذلك لأنّ الله تعالى قال:

فصل في أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

المسألة الأولى: في حكم القصر قصر الصلاة في حالة السفر جائز بإجماع الأمة وإنما اختلفوا في جواز الإتمام في حال السفر فذهب أكثر العلماء إلى أن القصر واجب في السفر وهو قول عمر وعلي وابن عمر وجابر وابن عباس وبه قال الحسن وعمر بن عبدالعزيز وقتادة وهو قول مالك وأبي حنيفة ويدل عليه ما روي عن عائشة قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ثم أتمها في الحضر وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى. وفي رواية أخرى قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر أخرجاه في الصحيحين وذهب قوم إلى جواز الإتمام في السفر، ولكن القصر أفضل يروى ذلك عن عثمان وسعد بن أبي وقاص وإليه ذهب الشافعي وأحمد وهو رواية عن مالك أيضاً. ويدل على ذلك ما روى البغوي بسند الشافعي عن عائشة قالت: كل ذلك قد فعل رسول الله ﷺ قصر وأتم وعن عائشة أنها اعتمرت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قالت يا رسول الله بأبي أنت وأمي قصرت وأتممت وصمت وأفطرت؟ قال أحسنت يا عائشة وما عاب عليّ أخرجه النسائي وظاهر القرآن يدل على ذلك لأن الله تعالى قال فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ولفظة ولا جناح إنما تستعمل في الرخصة لا فيما يكون حتماً، وأجيب عن حديث عائشة فرض الله الصلاة ركعتين بأن معناه فرضت ركعتين أولاً وزيد في صلاة الحضر ركعتان على سبيل التحتم وأقرت صلاة السفر على جواز الاقتصار عليها وثبت جواز الإتمام بدليل آخر فوجب المصير إليه ليمكن الجمع بين الأحاديث ودلائل الشرع.

المسألة الثانية: اختلف في صلاة المسافر إذا صلى ركعتين ركعتين هل هي مقصورة أم غير مقصورة فذهب قوم إلى أنها غير مقصورة وإنما فرض صلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر يروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبدالله وإليه ذهب سعيد بن جبير والسدي وأبو حنيفة فعلى هذا يكون معنى القصر المذكور في الآية هو تخفيف ركوعها وسجودها. وقد تقدم الجواب عنه وذهب قوم إلى أنها مقصورة وليست بأصل، وهو قول مجاهد وطاوس، وإليه ذهب الشافعي وأحمد.

المسألة الثالثة: ذهب الشافعي ومالك وأحمد والجمهور، إلى أنه يجوز القصر في كل سفر مباح وشرط

﴿ **فليسَ عليكم جُناحٌ أن تَقْصُروا مِنَ الصلاة** ﴾، ولفظ ﴿ **لا جُناح** ﴾ إنّما يُستعمل في الرخص لا فيما يكون حتْماً، فظاهر الآية يُوجب أن القصر لا يجوز إلّا عند الخوف، وليس الأمر على ذلك، إنّما نزلت الآية على غالب أسفار النبي ﷺ، وأكثرها لم يخلُ عن خوف العدو، والقصر جائز في السفر في حال الأمن عند عامّة أهل العلم، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مسلم بن خالد وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود عن ابن جريج أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمّار عن عبد الله بن باباه عن يعلى بن أُميّة، قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّما قال الله تعالى: ﴿ **أنْ تقْصُروا مِنَ الصلاة إنْ خِفْتُمْ أن يفتنكُم الذين كفَرُوا** ﴾، وقد أمِنَ الناس، فقال عمر رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ فقال: «صدقة تصدّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا عبد الوهاب عن أيوب السختياني عن محمد بن سيرين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سافر رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة آمناً لا يخاف الله، فصلّى ركعتين. وذهب قوم إلى أنّ ركعتي المسافر ليستا بقصر إنّما القصر أن يصلّي

بعضهم كونه سفر حج أو عمرة أو جهاد أو سفر طاعة، ولا يجوز القصر في سفر المعصية، وقال أبو حنيفة والثوري يجوز ذلك.

المسألة الرابعة: اختلف العلماء في مسافة القصر فقال داود وأهل الظاهر يجوز القصر في قصير السفر وطويله وروي ذلك عن أنس أيضاً وقال عمرو بن دينار قال لي جابر بن زيد أقصر بعرفة. وأما عامة أهل العلم فإنهم لا يجوزون القصر في السفر القصير واختلفوا في حد الطويل الذي يجوز فيه القصر. فقال الأوزاعي مسيرة يوم وكان ابن عمرو وابن عباس يقصران ويفطران في مسيرة أربعة برد هي ستة عشر فرسخاً وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحاق وقول الحسن والزهري قريب من ذلك فإنهما قالا مسيرة يومين، وإليه ذهب الشافعي فقال مسيرة ليلتين قاصدتين ستة عشر فرسخاً كل فرسخ ثلاثة أميال فتكون ثمانية وأربعين ميلاً بالهاشمي والميل ستة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعاً معترضة معتدلة والأصبع ست شعيرات معترضات معتدلات، وقال الثوري وأبو حنيفة وأهل الكوفة لا قصر في أقل من ثلاثة أيام.

فصل

قيل قوله تعالى: ﴿**إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾ كلام متصل بما بعده منفصل عما قبله وتقديره وإن خفتم روي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال نزل قوله تعالى: ﴿**فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة**﴾ هذا القدر ثم بعد حول سألوا رسول الله ﷺ عن صلاة الخوف فنزل: ﴿**إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً وإذا كنت فيهم**﴾ الآية ومثل هذا في القرآن كثير يجيء الخبر بتمامه ثم ينسق عليه خبر آخر هو في الظاهر كالمتصل به وهو منفصل عنه. قوله عز وجل:.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟

ركعة واحدة في الخوف، يُروى ذلك عن جابر رضي الله عنه وهو قول عطاء وطاوس والحسن ومجاهد، وجعلوا شرط الخوف المذكور في الآية باقياً وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الاقتصار على ركعة واحدة لا يجوز خائفاً كان أو آمناً، واختلف أهل العلم في مسافة القصر، فقالت طائفة: يجوز القصر في السفر الطويل والقصير، رُوِيَ ذلك عن أنس رضي الله عنه، وقال عمرو بن دينار: قال لي جابر بن زيد أقصرْ بعَرَفَة، أمّا عامّة الفقهاء فلا يُجوّزون القصر في السفر القصير، واختلف في حدّ ما يجوز به القصر، فقال الأوزاعي: مسيرة يوم، وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم يقصران ويفطران في أربعة بُـرُدٍ، وهي ستّة عشر فرسخاً، وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحق وهو قول الحسن والزهري قريب من ذلك، فإنّهما قالا: مسيرة يومين، وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: مسيرة ليلتين قاصدتين، وقال في موضع: ستّة وأربعون ميلاً بالهاشمي، وقال سفيان الثّوري وأصحاب الرأي: مسيرة ثلاثة أيام، وقيل: قوله: ﴿ إنْ خِفْتُمْ أن يَفْتِنَكُم الذينَ كفرُوا ﴾ [النساء: ١٠١] متصل بما بعده من صلاة الخوف منفصل عمّا قبله، رُوِيَ عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: نزل قوله: ﴿ فليسَ عليكم جُناحٌ أنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصلاة ﴾ [النساء: ١٠١] هذا القدر، ثم بعد حَوْلٍ سألُوا رسولَ الله ﷺ عن صلاة الخوف فنزل: ﴿ إنْ خِفْتُم أن يَفْتِنَكُمْ الذينَ كفرُوا، إنّ الكافرينَ كانُوا لكم عدوّاً مبيناً ﴾ [النساء: ١٠١] ﴿ وإذا كُنْتَ فيهم ﴾ الآية. ومثله في القرآن كثير أن يجيء الخبر بتمامه ثم يُنسّق عليه خبرٌ آخر، وهو في الظاهر كالمتصل به، وهو منفصل عنه، كقوله تعالى: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ أنَا رَاوَدْتُهُ عنْ نفسِه وإنّه لَمِنَ الصّادقين ﴾ [يوسف: ٥١]، وهذه حكاية عن امرأة العزيز، وقوله: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ [يوسف: ٥٢] إخبار عن يوسف عليه السلام.

﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ الآية روي عن ابن عباس وجابر أن المشركين لما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى الظهر يصلون جميعاً ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقال بعضهم لبعض دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم يعني صلاة العصر فإذا قاموا إليها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد إنها صلاة الخوف وإن الله عز وجل يقول وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فعلمه صلاة الخوف وروي عن أبي عياش الزرقي في سبب نزول هذه الآية. قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلّينا الظهر فقال المشركون لقد أصبنا غرة وفي رواية غفلة ولو حملنا عليهم وهم في الصلاة فنزلت الآية بين الظهر والعصر قوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم﴾ هذا الخطاب للنبي ﷺ يعني وإذا كنت يا محمد في أصحابك وشهدت معهم القتال فأقمت لهم الصلاة ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ يعني إذا حان وقت الصلاة وأقمتها لأصحابك فاجعلهم فرقتين فلتقف فرقة منهم معك فتصلّي بهم ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ اختلفوا في هؤلاء الذين أمرهم الله بأخذ السلاح فقيل أراد بهم الذين قاموا معه إلى الصلاة فإنهم يأخذون أسلحتهم في الصلاة، فعلى هذا القول إنما يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة ولا يؤذى به من إلى جنبه كالسيف والخنجر وذلك لأنه أقرب إلى الاحتياط وأمنع للعدو من الإقدام عليهم فإن كان السلاح يشغل بحركته وثقله عن الصلاة كالترس الكبير أو يؤذي مَن إلى جنبه كالرمح فلا يأخذه. وقيل أراد بهم الطائفة الذين بقوا في وجه العدو فإنهم يأخذون

قوله تعالى: ﴿ وإذا كُنْتَ فيهم فأقمْتَ لَهُم الصلاةَ ﴾ روَى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهم أن المشركين لمّا رأوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه قامُوا إلى الظهر يُصلّون جميعاً ندموا إلّا كانوا أكبُّوا عليهم، فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم يعني صلاة العصر، فإذا قاموا فيها فشدُّوا عليهم فاقتلوهم، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنها صلاة الخوف وإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ ﴾ فعلّمه صلاة الخوف، وجملته أن العدو إذا كانوا في معسكرهم في غير ناحية القِبلة فيجعل الإمام القومِ فرقتين فتقف طائفة وِجاهَ العدو تحرسُهم، ويشرع الإمام مع طائفة في الصلاة، فإذا صلّى بهم ركعة قام وثبت قائماً حتى أتمّوا صلاتهم، وذهبوا إلى وِجاهَ العدوِ ثم أتت الطائفة الثانية فصلّى بهم الركعة الثانية، وثبت جالساً حتى أتمّوا لأنفسهم الصلاة، ثم يُسلّم بهم، وهذه رواية سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلّى كذلك بذات الرِّقاع، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحق. أنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن رومان عن صالح بن خوات عمّن صلّى مع النبي ﷺ يوم ذات الرّقاع صلاة الخوف: أنّ طائفة صفّت معه صفّت طائفة وِجاهَ العدو فصلّى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتمّوا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفّوا وِجاهَ العدو وجاءتِ الطائفةُ الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً وأتمّوا لأنفسهم ثم سلّم بهم. قال مالك: وذلك أحسن ما سمعت في صلاة الخوف، وأخبرنا عبد الواحد المليجي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسداد أنا

أسلحتهم للحراسة وقيل يحتمل أن يكون أمراً للفريقين بحمل السلاح لأن ذلك أقرب إلى الاحتياط ﴿**فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم**﴾ يعني إذا صلّى الذين معك وفرغوا من الصلاة فليكونوا من ورائكم يعني فلينصرفوا إلى المكان الذي هو في وجه العدو وللحراسة ﴿**ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا**﴾ يعني ولتأت الطائفة التي كان في وجه العدو ﴿**فليصلّوا معك**﴾ الركعة الثانية التي بقيت عليك ويتموا بقية صلاتهم ﴿**وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم**﴾ يعني أن الله تعالى جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازي في دفع العدو فلذلك جعله مأخوذاً مع السلاح. فإن قلت لم ذكر في أول الآية الأسلحة فقط وذكر هنا الحذر والأسلحة. قلت لأن العدو قلما يتنبه للمسلمين في أول الصلاة بل يظنون كونهم قائمين في المحاربة والمقاتلة فإذا قاموا على الركعة الثانية ظهر للكفار أن المسلمين في الصلاة فحينئذٍ ينتهزون الفرصة في الإقدام على المسلمين فلا جرم أن الله تعالى أمرهم في هذا الموضع بزيادة الحذر من الكفار مع أخذ الأسلحة ﴿**ود الذين كفروا**﴾ يعني تمنى الكفار ﴿**لو تغفلون**﴾ يعني لو وجدوكم غافلين ﴿**عن أسلحتكم وأمتعتكم**﴾ يعني حوائجكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها ﴿**فيميلون عليكم ميلة واحدة**﴾ يعني فيقصدونكم ويحملون عليكم حملة واحدة وأنتم مشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم فيصيبون منكم غرة فيقتلونكم.

فصل في أحكام تتعلق بالآية وصفة صلاة الخوف وفيه مسائل

المسألة الأولى: قال أبو يوسف والحسن بن زياد من أصحاب أبي حنيفة صلاة الخوف كانت خاصة بالنبي ﷺ فلا يجوز لغيره بعده فعلها، وقال المزني من أصحاب الشافعي كانت ثابتة ثم نسخت واحتجوا لصحة هذا القول بأن الله تعالى خاطب نبيّه ﷺ فقال تعالى: ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة**﴾ وظاهر هذا يدل على أن إقامة الصلاة مشروطة بكون النبي ﷺ فيهم فدل على تخصيصه بها ولأن كلمة إذا تفيد الشرط وذهب جمهور العلماء والفقهاء إلى أن هذا الحكم لما ثبت في حق النبي ﷺ بحكم هذه الآية وجب أن يثبت في حق غيره من أمته

يحيىٰ عن شعبة عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن صالح بن خوات عن سهل بن أبي حَثْمة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ بهذا. وذهب قوم إلى أن الإمام إذا قام إلى الركعة الثانية تذهب الطائفة الأولى في خلال الصلاة إلى وِجَاهَ العدو وتأتي الطائفة الثانية فيُصلّي بهم الركعة الثانية ويسلّم وهم لا يسلّمون بل يذهبون إلى وجاه العدو، وتعود الطائفة الأولى فتتمُّ صلاتَها، ثم تعود الطائفة الثانية فتتمُّ صلاتَها، وهذه رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كذلك. وهو قول أصحاب الرأي، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب أنا يزيد بن زريع أنا معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه أن النبي ﷺ صلّى صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا فقاموا في مقام أولئك وجاء أولئك فصلّى بهم ركعة أُخرى ثم سلّم بهم، فقام هؤلاء فصلّوا ركعتهم. وكلتا الروايتين صحيحة فذهب قوم إلى أن هذا مع الاختلاف المُباح، وذهب الشافعي رضي الله عنه إلى حديث سهل بن أبي حَثْمة لأنه أشدّ موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاة وأبلغ في حراسة العدو، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ **فإذا سجدوا فليكونُوا من ورائكم** ﴾ أي: إذا صلّوا، ثم قال: ﴿ **ولتَأْتِ طائفةٌ أُخرى لم يُصلُّوا** ﴾، وهذا يدلّ على أن الطائفة الأولى قد صلّوا، وقال: ﴿ **فليُصلّوا معكَ** ﴾، ومقتضاه أن يصلّوا تمام الصلاة، فظاهره يدلّ أن كل طـائفة تفـارق الإمام بعد تمام الصلاة، والاحتياط لأمر الصلاة من حيث أنه لا يكثر فيها العمل والذهاب والمجيء، والاحتياط لأمر الحرب من حيث إنهم إذ لم يكونوا في الصلاة

لقوله تعالى: ﴿فاتبعوه﴾ ولقوله ﷺ: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي» ولأن ذلك إجماع الصحابة على فعلها وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه صلّى صلاة الخوف بأصحابه ليلة الهرير وكذلك أبو موسى صلّى بأصحابه بطبرستان وليس لهؤلاء مخالف من الصحابة وأجيب عن قوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ بأن هذا وإن كان قد خوطب به النبي ﷺ فإن سائر أمته داخلون في هذا الحكم فهو كقوله: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ إلا أن يرد نص بتخصيصه ﷺ بحكم دون أمته كقوله تعالى: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ ونظير قوله ﴿وإذا كنت فيهم﴾ قوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ وإذا كان هو المخاطب بها وقد ثبت حكم أخذ الزكاة لمن بعده من الأئمة كان كذلك قوله وإذا كنت فيهم وأجيب عن لفظة إذا: بأن مقتضاه الثبوت عند الثبوت وأما العدم عند العدم فغير مسلم.

المسألة الثانية: قال الخطابي: صلاة الخوف أنواع صلاها النبي ﷺ في أيام مختلفة وأشكال متباينة يتحرى في ذلك كله ما هو الأحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة فهي مع اختلاف صورها متفقة المعنى فمن أنواع صلاة الخوف ما إذا كان العدو في غير جهة القبلة. فرق الإمام أصحابه فرقتين فتقف طائفة وجاه العدو فتحرس ويصلّي بالطائفة الأخرى ركعة فإذا قام إلى الثانية أتموا لأنفسهم وذهبوا إلى وجاه العدو فيحرسون وتأتي الطائفة الثانية التي كانت تحرس فيصلّي بهم الركعة الثانية ويثبت جالساً في التشهد حتى يتموا لأنفسهم الصلاة ثم يسلم بهم ويدل على ذلك ما روي عن يزيد بن رومان عن صالح بن خوان عمن صلّى مع النبي ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صفت معه وجاه العدو فصلّى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا وجاه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالساً فأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم أخرجاه في الصحيحين الذي صلى مع النبي ﷺ هو سهل بن أبي حثمة وقد أخرجاه من رواية أخرى عنه أن النبي ﷺ صلّى بأصحابه وذكر نحوه وهذا هو مختار الشافعي لأنه أشد موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاة وأبلغ في حراسة العدو، وأما كونه أشد موافقة لظاهر القرآن فإن قوله ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك يدل على أن

كان أمكن للحرب والضرب والهرب إن احتاجوا إليه، ولو صلّى الإمام أربع ركعات بكل طائفة ركعتين جاز. أنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق الحافظ قال أنا الضاغاني أنا عفّان بن مسلم ثنا أبان العطّار عن يحيىٰ بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنّا بذات الرِّقاع وكنّا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلّق بشجرة فأخذ سيفَ نبي الله ﷺ فاخترطه فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا». قال: فمَن يمنعك منّي؟ قال: «الله يمنعني منك»، قال: فتهدّده أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فأغمد السيف وعلّقه فنُودي بالصلاة، قال: فصلّى بطائفة ركعتين ثم تأخروا فصلّى بالطائفة الأخرى ركعتين، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان، أخبرنا عبد الوهاب بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أخبرني الثقة بن علية أو غيره عن يونس عن الحسن عن جابر رضي الله عنهم أن النبي ﷺ كان يصلّي بالناس صلاة الظهر صلاة الخوف ببطن نخل، فصلّى بطائفة ركعتين ثم سلّم، ثم جاءت طائفة أخرى فصلّى بهم ركعتين ثم سلّم. ورُوِيَ عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في صلاة الخوف أنه صلّى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا، ورواه زيد بن ثابت وقال: كانت للقوم ركعة واحدة وللنبي ﷺ ركعتان، وتأوّله قوم على صلاة شدّة الخوف، وقالوا: الفرض في هذه الحالة ركعة واحدة، وأكثر أهل العلم على أن الخوف لا ينقص عدد الركعات وإن كان العدو في ناحية القبلة في مستوى إن حملوا عليهم

الطائفة الأولى قد صلّت قوله فليصلّوا معك ظاهره يدل على أن جميع صلاة الطائفة الثانية حصلت مع الإمام وكونها أحوط لأمر الصلاة من حيث إنه لا يكثر فيها العمل من المجيء والذهاب وكونها أحوط لأمر الحرب والحراسة من حيث إنه إذا لم يكونوا في الصلاة كان أمكن للحراسة والكر والفر والهرب إن احتاجوا إليه وذهب قوم إلى أن الطائفة الأولى تصلي مع الإمام ركعة ثم تذهب إلى وجه العدو فتحرس وهم في صلاتهم ثم تأتي الطائفة الثانية فتصلي مع الإمام الركعة الثانية ويسلم الإمام ولا يسلمون هم بل يذهبون إلى وجه العدو، وترجع الطائفة الأولى إلى موضع الإمام فتقضي بقية صلاتها ثم تذهب ثم تأتي الطائفة الثانية إلى موضع الإمام فتقضي بقية صلاتها يروى ذلك عن ابن مسعود وهو مذهب أبي حنيفة ويدل على ذلك ما روي عن ابن عمر قال ﷺ صلاة الخوف قال فكبّر فصلّى خلفه طائفة منا وطائفة مواجهة للعدو فركع بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجد سجدتين ثم انصرفوا ولم يسلموا وأقبلوا على العدو فصفوا مكانهم وجاءت الطائفة الأخرى فصفوا خلف رسول الله ﷺ فصلّى بهم ركعة وسجدتين ثم سلّم رسول الله ﷺ وقد تم ركعتين وأربع سجدات ثم قامت الطائفتان فصلّى كل إنسان منهم لنفسه ركعة وسجدتين. أخرجه النسائي قال أبو بكر السني سمع الزهري من ابن عمر ولم يسمع هذا منه والذي أخرجاه في الصحيحين عن ابن عمر قال: صلّى النبي ﷺ صلاة الخوف بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة العدو ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو وجاء أولئك فصلّى بهم رسول الله ﷺ ركعة ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة وفي رواية أخرى قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف في بعض أيامه فقامت طائفة معه وطائفة بإزاء العدو فصلّى بالذين معه ركعة. وجاء الآخرون فصلى بهم ركعة وقضت الطائفتان ركعة ركعة وبهذه الرواية المخرجة في الصحيحين أخذ الأوزاعي وأشهب المالكي وهو جائز عند الشافعي أيضاً ثم قيل إن الطائفتين قضوا ركعتهم الباقية معاً وقيل متفرقين وهو الصحيح والفرق بين الروايتين أن الطائفة الأولى أدركت أول الصلاة وهي في حكم من خلف الإمام. وأما الطائفة الثانية فلم تدرك أول الصلاة والمسبوق فيما يقضي كالمنفرد في حكم صلاته.

رأوهم صلّى الإمام بهم جميعاً وحرسوا في السجود، كما أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو نعيم الإسفرايني أنا أبو عوانة الحافظ أنا عمّار أنا يزيد بن هارون أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عن جابر رضي الله عنهما قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصففنا خلفه صفّين، والعدو بيننا وبين القبلة فكبّر النبي ﷺ وكبّرنا جميعاً ثم ركع وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصفّ الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، فقام الصفّ المؤخّر في نحو العدو فلما قضى رسول الله ﷺ السجود والصفّ الذي يليه انحدر الصفّ المؤخّر بالسجود، ثم قاموا ثم تقدّم الصفّ المؤخر، وتأخر المقدّم ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصفّ الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصفّ المؤخّر في نحر العدو، فلما قضى رسول الله ﷺ السجود والصفّ الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلّم النبي ﷺ وسلّمنا جميعاً قال جابر رضي الله عنه: كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائكم. واعلم أنّ صلاة الخوف جائزة بعد الرسول ﷺ. عند عامّة أهل العلم. ويُحكى عن بعضهم عدم الجواز ولا وجه له، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: كلّ حديث رُوِيَ في أبواب صلاة الخوف فالعمل به جائز، رُوِيَ فيها ستّة أوجه أو سبعة أوجه، وقال مجاهد في سبب نزول هذه الآية عن ابن عياش الزرقي قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلّينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غرّة لو حملنا عليهم وهم في الصلاة فنزلت الآية بعد الظهر والعصر، قوله تعالى: ﴿ وإذا كنتَ فيهم ﴾ أي:

المسألة الثالثة: فيما إذا كان العدو في ناحية القبلة وصورة هذا الصلاة ما روي عن جابر بن عبدالله قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصففنا صفين خلف رسول الله ﷺ والعدو بيننا وبين القبلة فكبّر النبي ﷺ وكبّرنا جميعاً ثم ركع وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه وقام الصف المؤخر في نحو العدو فلما قضى رسول الله ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى فقام الصف المؤخر في نحر العدو فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ثم سلم النبي ﷺ وسلّمنا جميعاً قال جابر كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائهم أخرجه مسلم بتمامه وأخرجه البخاري طرفاً منه أنه صلّى صلاة الخوف مع النبي ﷺ في الغزوة السابقة غزوة ذات الرقاع. وبهذا الحديث أخذ الشافعي ومن وافقه فيما إذا كان العدو في جهة القبلة.

المسألة الرابعة: إذا اشتد الحرب والتحم القتال صلّوا رجالاً وركباناً يؤمنون بالركوع والسجود إلى أي جهة كانت هذا مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة أنهم لا يصلّون في هذه الحالة فإذا أمنوا قضوا ما فاتهم من الصلاة ولصلاة الخوف صور أخر مذكورة في كتب الفقه وليس هذا موضعها والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**ولا جناح عليكم**﴾ أي ولا إثم ولا حرج عليكم ﴿**إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم**﴾ قال ابن عباس: رخص الله لهم في وضع السلاح في حال المطر وحال المرض لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين ﴿**وخذوا حذركم**﴾ يعني راقبوا عدوكم ولا تغفلوا عنه أمرهم الله بالتحفظ والتحرز والاحتياط لئلا يتجرأ العدو عليهم قال ابن عباس: نزلت في النبي ﷺ وذلك أنه غزا بني محارب وبني أنمار فنزلوا ولا يرون من العدو أحداً فوضع الناس السلاح فخرج رسول الله ﷺ لحاجة حتى قطع الوادي والسماء ترش بالمطر فسال الوادي فحال السيل بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه فجلس تحت شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربي

شهيداً معهم فأقمت لهم الصلاة، ﴿ **فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهمْ معكَ** ﴾، أي: فلتقف، كقوله تعالى: ﴿ **وإذا أظلَمَ عليهمْ قامُوا** ﴾ [البقرة: ٢٠] أي: وقفُوا، ﴿ **وليأخذوا أسلحتَهمْ** ﴾، واختلفوا في الذين يأخذون أسلحتهم، فقال بعضهم: أراد هؤلاء الذينَ وقفوا مع الإمام يُصلّون ويأخذون الأسلحة والصلاة، فعلى هذا إنما يأخذه إذا كان لا يشغله عن الصلاة، فلا يُؤذي مَنْ يجنبه، فإذا شغلته حركته وثقّلتْهُ عن الصلاة كالجعبة والترس الكبير أو كان يؤذي من جنبه، كالرمح فلا يأخذه، وقيل: وليأخذوا أسلحتهم أي: الباقون الذين قاموا في وجه العدو، ﴿ **فإذا سجدُوا** ﴾، أي: صلّوا، ﴿ **فليكونُوا مِنْ وَرائِكمْ** ﴾، يُريد مكان الذين هم وِجَاهَ العدو، ﴿ **ولتَأْتِ طائفةٌ أخرى لم يُصلّوا** ﴾، وهم الذين كانوا في وجه العدو، ﴿ **فَلْيُصلّوا معكَ وليأخذُوا حِذْرَهم وأسلحتهم** ﴾، قيل: هؤلاء الذين أُتوا، وقيل: هم الذين صلّوا، ﴿ **وَدَّ الذينَ كفرُوا** ﴾، يتمنّى الكفّار، ﴿ **لو تَغْفُلُونَ** ﴾ أي: لو وجدُوكم غافلين، ﴿ **عنْ أسلحتِكُم وأمتعتِكم فَيَمِيلُونَ عليكُمْ مَيْلَةً واحدةً** ﴾، فيقصدونكم ويحملون عليكم حملةً واحدة، ﴿ **ولا جُناحَ عليكم إنْ كانَ بكم أذىً مِنْ مَطَرٍ أو كنْتُمْ مَرْضَى أنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُم** ﴾، رخّص في وضع السلاح في حال المطر والمرض، لأن السلاح يثقل حمله في هاتين الحالتين، ﴿ **وخُذُوا حِذْرَكم** ﴾، أي: رَاقِبُوا العدو كيلا يتغفلوكم، والحذر ما يُتّقى به من العدو، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رسول الله ﷺ، وذلك أنه غزا محارباً وبنى أنماراً فنزلوا ولا يرون من العدو أحداً فوضع الناس أسلحتهم، وخرج رسول الله ﷺ لحاجة له قد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترشّ، فَحَالَ الوادي بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه فجلس رسول الله ﷺ في

فقال: قتلني الله إن لم أقتله ثم انحدر من الجبل ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله ﷺ إلا وهو قائم على رأسه وقد سل السيف من غمده وقال يا محمد من يمنعك مني الآن؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله عز وجل» ثم قال اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت فاهوى غورث بالسيف ليضرب رسول الله ﷺ به فأكب لوجهه من زلخة زلخها فندر السيف من يده فقام رسول الله ﷺ فأخذ السيف ثم قال يا غورث من يمنعك مني الآن؟ فقال لا أحد فقال أتشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيك سيفك فقال: لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك عدواً فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فقال غورث لأنت خير مني فقال النبي ﷺ أجل أنا أحق بذلك منك فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا له: ويلك يا غورث ما منعك منه فقال والله لقد أهويت إليه بالسيف لأضربه به فوالله ما أدري من زلخني بين كتفي فخررت لوجهي وذكر حاله لهم مع رسول الله ﷺ قال: وسكن الوادي فقطع رسول الله ﷺ الوادي إلى أصحابه وأخبرهم الخبر وقرأ هذه الآية: ﴿**ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى**﴾ قال ابن عباس: كان عبدالرحمن بن عوف جريحاً فنزلت فيه أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم يعني من عدوكم ﴿**إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ يعني يهانون به. قوله عز وجل: .

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿**فإذا قضيتم الصلاة**﴾ يعني فإذا فرغتم من صلاة الخوف ﴿**فاذكروا الله**﴾ يعني بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وأثنوا على الله في جميع أحوالكم ﴿**قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾ فإن ما أنتم عليه من الخوف جدير بالمواظبة على ذكر الله عز وجل والتضرع إليه (ق) عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يذكر الله في كل أحيانه وقيل المراد بالذكر الصلاة يعني فصلّوا لله قياماً يعني في حال الصحة وقعوداً في حال المرض وعلى جنوبكم يعني في

ظل شجرة فبصرَ بهِ غورث بن الحارث المحاربي فقال: قتلني الله إن لم أقتله، ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله ﷺ إلّا وهو قائم على رأسه ومعه السيف قد سَلّه من غِمْدِهِ فقال: يا محمد مَن يعصمك منّي الآن؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله، ثم قال: اللّهمَّ اكفني غورث بن الحارث بما شئتَ»، ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله ﷺ ليضربه فانكبَّ لوجهِهِ مِن زَلْخةٍ زُلخَها بين كتفيه، وندر سيفه فقام رسول الله ﷺ فأخذه ثم قال: «يا غورث مَن يمنعك منّي الآن»؟ قال: لا أحد، قال: «تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأُعطيكَ سيفكَ»؟ قال: لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أُعين عليك عدوّاً فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فقال غورث: والله لأنت خير منّي، فقال النبي ﷺ: «أجلْ أنا أحقّ بذلك منك»، فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا: ويلك ما منعك منه؟ قال: لقد أهويتُ إليه بالسيف لأضربه فوالله ما أدري مَن زلخني بين كتفي فخررت لوجهي، وذكر حاله قال: وسكن الوادي فقطع رسول الله ﷺ الوادي أصحابه فأخبرهم الخبر وقرأ عليهم هذه الآية: ﴿ **ولا جُنَاحَ عليكم إنْ كانَ بكم أذىً مِن مطر أو كنتُمْ مرضَى أن تضعُوا أسلحتَكم وخذُوا حِذرَكم** ﴾ أي: من عدوِّكم، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية كان عبد الرحمن بن عوف جريحاً: ﴿ **إنّ الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾، يُهانُون فيه، والجُنَاح: الإثم، من جنحت إذا عدلت عن القصد.

﴿ **فإذا قَضَيْتُمُ الصلاةَ** ﴾، يعني: صلاة الخوف، أي: فرغتم منها، ﴿ **فاذكرُوا الله** ﴾ أي صلُّوا للّهِ ﴿ **قياماً** ﴾ في حال الصحة، ﴿ **وقعُوداً** ﴾، في حال المرض، ﴿ **وعلى جُنُوبِكم** ﴾، عند الجرح والزمانة، وقيل: اذكرُوا اللّهَ بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد، على كل حال، أخبرنا عمرو بن عبد العزيز الكاشاني أنا القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي أنا أبو داود السجستاني أنا محمد بن العلاء أنا ابن أبي زائدة عن أبيه

حال الزمانة والجراح ﴿فإذا اطمأننتم﴾ يعني فإذا أمنتم وسكنت قلوبكم. وأصل الطمأنينة سكون القلب ﴿فأقيموا الصلاة﴾ يعني فأتموها أربعاً فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة ترك السفر والمعنى فإذا صرتم مقيمين في أوطانكم فأقيموا الصلاة تامة أربعاً من غير قصر. وقيل معناه فأقيموا الصلاة بإتمام ركوعها وسجودها فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة سكون القلب عن الاضطراب والأمن بعد الخوف ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ يعني فرضاً موقتاً والكتاب هنا بمعنى المكتوب يعني مكتوبة موقتة في أوقات محدودة فلا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أي حال كان من خوف أو أمن وقيل معناه فرضاً واجباً مقدراً في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتين.

قوله تعالى: .

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا يوم أحد بعث النبي ﷺ

عن خالد بن سلمة عن الزهري عن عُروة عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: كان رسول الله ﷺ يذكرُ اللَّهَ على كل أحيانه. ﴿ فإذا اطمَأننْتُمْ ﴾ أي: سكنتم وأمنتم، ﴿ فأَقِيمُوا الصلاةَ ﴾ أي: أتمّوها أربعاً بأركانها، ﴿ إنّ الصلاةَ كانَتْ على المؤمنينَ كتاباً مَوْقُوتاً ﴾، قيل: واجباً مفروضاً مقدّراً في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتان، وقال مجاهد: أي فرضاً مؤقتاً وقّته اللَّهُ عليهم، وقد جاء بيان أوقات الصلاة في الحديث، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا أبو بكر عبد الله بن هاشم حدّثنا وكيع أنا سفيان عن عبد الرحمن بن الحارث عن عياش بن أبي ربيعة الزرقي عن حكم بن أبي حكيم عن عبادِ بن حنيف عن نافع بن أبي جبير بن مطعم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمّني جبريلُ عليه السلام عند باب البيتِ مرتين فصلّى بي الظهر حين زالتِ الشمسُ وكانتْ بقدرِ الشِّراك، وصلّى بي العصر حين صار ظلُّ كلِّ شيء مثله، وصلّي بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلّى بي العشاءَ حينَ غابَ الشّفقُ، وصلّى بي الفجرَ حين حَرُمَ الطعامُ والشرابُ على الصائم، فلمّا كانَ الغدُ صلّي بي الظهرَ حين كان ظِلُّ كلِّ شيءٍ مثله، وصلّى بي العصرَ حين كان ظِلّ كلّ شيء مثليه، وصلّي بي المغربَ حينَ أفطرَ الصائم، وصلّي بي العشاء حين ذهبَ ثلث الليل الأول، وصلّي بي الفجرَ حين أسفر، ثم التفتَ إليّ وقال: يا محمد هذا وقتُ الأنبياء من قبلك، والوقتُ ما بين هذين الوقتين» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر بن الحسن الحيري أنا وكيع أنا حاجب بن أحمد ثنا عبد الله بن هشام ثنا وكيع ثنا بدر بن عثمان ثنا أبو بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن سائلاً أتاه فسأله عن مواقيت الصلاة، قال: فلم يردّ عليه شيئاً ثم أمر بلالاً فأذّن ثم أمره فأقام الصلاةَ حين انشقّ الفجرُ فصلّى، ثم أمره فأقام الظهرَ، والقائل يقول: قد زالت الشمس أو لم تزل، وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام العصرَ والشمسُ مرتفعةٌ بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغربَ حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين سقط الشفق، قال: وصلّى الفجرَ من الغد، والقائل يقول: طلعتِ الشمسُ أو لم تطلع، وصلّى الظهر قريباً من وقت العصر بالأمس وصلّى العصر والقائل يقول قد احمرّتِ الشمسُ وصلّى المغربَ قبلَ أن يغيبَ الشفقُ، وصلّى العشاء بعدما ذهب ثلث الليل الأول، ثم قال: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال الرجل: أنا يا رسولَ الله، قال: «ما بين هذين الوقتين وقت».

قوله تعالى: ﴿ ولا تَهِنُوا في ابْتِغَاءِ القَومِ ﴾ الآية، سبب نزولها أن أبا سفيان رضي الله عنه وأصحابه لمّا

في آثارهم فشكوا من ألم الجراحات فقال الله تعالى ولا تهنوا يعني ولا تضعفوا، ولا تتوانوا في ابتغاء القوم يعني في طلب أبي سفيان وأصحابه ثم أورد عليهم الحجة في ذلك وألزمهم بها فقال تعالى: ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾ يعني أن حصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم وليس ما تكابدون من الوجع وألم الجراح مختصاً لكم بل هم كذلك فإذا لم يكن الألم مانعاً لهم عن قتالكم فكيف يكون مانعاً لكم عن قتالهم وكيف لا تصبرون مثل صبرهم مع أنكم أولى بالصبر منهم لأنكم مقرون بالحشر والنشر والثواب والعقاب والمشركون لا يقرون بذلك كله فأنتم أيها المؤمنون أولى بالجهاد منهم وهو قوله تعالى: ﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ يعني وتأملون من الله من الثواب في الآخرة ما لا يرجعون وقيل ترجون النصر والظفر في الدنيا وإظهار دينكم على الأديان كلها ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ يعني أنه تعالى لا يأمركم بشيء إلا وهو يعلم أنه مصلحة لكم. قوله عز وجل: .

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ قال ابن عباس نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة بن إبيرق من بني ظفر بن الحارث سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى داره ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه فقال اليهودي: دفعها إلي طعمة بن أبيرق زاد في الكشاف وشهد له جماعة من اليهود. قال البغوي: وجاء بنو ظفر قوم طعمة إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة فهم رسول الله ﷺ أن يعاقب اليهودي وأن يقطع يده فأنزل الله هذه الآية وقيل إن زيد بن السمين أودع الدرع عند طعمة فجحده طعمة الله فأنزل هذه الآية: ﴿إنا أنزلنا إليك﴾ يعني يا محمد الكتاب يعني القرآن بالحق يعني بالصدق وبالأمر والنهي والفصل ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ يعني بما علمك الله وأوحى إليك وإنما سمي العلم اليقيني رؤية لأنه جرى مجرى الرؤية في قوة الظهور روي عن عمر أنه قال لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ ولكن ليجهد رأيه لأن الرأي من رسول الله ﷺ كان مصيباً، لأن الله تعالى كان يريه إياه وإن رأي أحدنا يكون ظناً ولا يكون علماً قال المحققون دلت هذه الآية على أن

رجعوا يوم أُحُد بعث رسول الله ﷺ طائفة في آثارهم فشكوا ألمَ الجراحات، فقال الله تعالى: ﴿ ولا تَهِنُوا في ابْتِغاءِ القوم ﴾ أي: تضعفُوا في ابتغاء القوم في طلب القوم أبي سفيان وأصحابه، ﴿ إنْ تَكُونُوا تألَمُونَ ﴾، تتوجّعُون مِنَ الجراح، ﴿ فإنّهم يألَمُون ﴾، أي: يتوجّعُون، يعني الكفّار، ﴿ كما تألَمُون وتَرْجُونَ مِنَ الله مَا لَا يرجُون ﴾، أي: وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة والنصر في الدنيا ما لا يرجون، وقال بعض المفسّرين: المراد بالرجاء الخوف، لأن كل راجٍ خائف أن لا يدركه مأموله، ومعنى الآية: ترجون من الله أي: وتخافون من الله أي: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون، قال الفرّاء رحمه الله: ولا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلّا مع الجدّ، كقوله تعالى: ﴿ قلْ للذين آمنوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أيامَ الله ﴾ [الجاثية: ١٤] أي: لا يخافونه، وقال تعالى: ﴿ ما لَكُم لَا تَرْجُونَ للَّهِ وَقَاراً ﴾ [نوح: ١٣] أي: لَا تَخافُونَ للَّهِ عظمتَه، ولا يجوز رجوتُك بمعنى: خفتُكَ ولا خفتُك، وأنتَ تريدُ رَجْوَتَكَ ﴿ وكانَ اللَّهُ عليماً حكيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنّا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بما أَرَاكَ اللّهُ ﴾ الآية، روى الكلبي عن أبي

رسول الله ﷺ ما كان يحكم إلا بالوحي الإلهي والنص المنزل عليه ﴿ولا تكن﴾ يعني يا محمد ﴿للخائنين خصيماً﴾ يعني ولا تكن لأجل الخائنين وهم قوم طعمة تخاصم عنهم وتجادل عن طعمة مدافعاً عنه ومعيناً له ﴿واستغفر الله﴾ يعني مما هممت به من معاقبة اليهودي وقيل من جدالك عن طعمة ﴿إن الله كان غفوراً﴾ يعني لذنوب عباده يسترها عليهم ويغفرها لهم ﴿رحيماً﴾ يعني بعباده المؤمنين.

فصل

وقد تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء وقالوا لو لم يقع من الرسول ﷺ ذنب لما أُمر بالاستغفار والجواب عما تمسكوا به من وجوه: أحدها أن رسول الله ﷺ لم يفعل المنهي عنه في قوله ولا تكن للخائنين خصماً ولم يخاصم عن طعمة لما سأله قومه أن يذب عنه أن يلحق السرقة باليهودي فتوقف رسول الله ﷺ عن ذلك وانتظر ما يأتيه من الوحي السماوي والأمر الإلهي فنزلت هذه الآية وأعلم رسول الله ﷺ بأن طعمة كذاب وأن اليهودي بريء من السرقة. وإنما مال ﷺ إلى نصرة طعمة وهمّ بذلك بسبب أنه في الظاهر من المسلمين فأمره الله بالاستغفار لهذا القدر. الوجه الثاني أن قوم طعمة لما شهدوا عند رسول الله ﷺ ببراءة طعمة من السرقة ولم يظهر في الحال لرسول الله ﷺ ما يوجب القدح في شهادتهم همّ بأن يقضي على اليهودي بالسرقة فلما أطلعه الله على كذب قوم طعمة عرف أنه لو وقع ذلك الأمر لكان خطأ في نفس الأمر فأمره الله بالاستغقار منه وإن كان معذوراً. الوجه الثالث يحتمل أن الله تعالى أمره بالاستغفار لقوم طعمة لذبهم عن طعمة فإن استغفاره ﷺ يحتمل أن يكون لذنب قد سبق قبل النبوة وأن يكون لذنوب أمته. الوجه الرابع أن درجة النبي ﷺ أعلى الدرجات ومنصبه أشرف المناصب فلعلو درجته وشرف منصبه وكمال معرفته بالله عز وجل فما يقع منه على وجه التأويل أو السهو أو أمر من أمور الدنيا فإنه ذنب بالنسبة إلى منصبه ﷺ كما قيل حسنات الأبرار سيئآت المقربين. وذلك بالنسبة إلى منازلهم ودرجاتهم والله أعلم. قوله تعالى: .

صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بني ظفر بن الحارث سرقَ درعاً من جارٍ له يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جِراب له فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود، يُقال له زيد بن السمين، فالتُمستِ الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه منه، فقال اليهودي دفعها إليّ طعمة بن أبيرق، فجاء بنو ظفر وهم قوم طعمة إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يُجادل عن صاحبهم، وقالوا له: إنك إن لم تفعل افتضح صاحبنا، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يُعاقب اليهودي. ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى أن طعمة سرق الدرع في جراب فيه نخالة فخرق الجراب حتى كان يتناثر منه النخالة طول الطريق فجاء به إلى دار زيد السمين وتركه على بابه، وحمل الدرع إلى بيته، فلما أصبح صاحب الدرع جاء على أثر النخالة إلى دار زيد السمين فأخذه وحمله إلى النبي ﷺ، فهمّ النبي ﷺ أن يقطع يد زيد اليهودي. وقال مقاتل: إنّ زيداً السمين أودع درعاً عن طعمة فجحدها طعمة فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال: ﴿ إنّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحق ﴾ بالأمر والنهي والفصل، ﴿ لِتحكمَ بينَ الناسِ بما أراكَ اللّهُ ﴾ بما علّمكَ اللّهُ وأوحى إليك، ﴿ ولا تَكُنْ للخائنينَ ﴾، طعمة، ﴿ خصيماً ﴾، مُعيناً مدافعاً عنه.

﴿ واسْتَغفِرِ اللّهَ ﴾، ممّا هممتَ به من معاقبة اليهودي، وقال مقاتل: واستغفرِ الله من جِدَالِكَ عن طعمة ﴿ إنّ اللّهَ كانَ غفوراً رحِيماً ﴾.

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

﴿**ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم**﴾ يعني ولا تجادل يا محمد عن الذين يظلمون أنفسهم بالخيانة وهم طعمة ومن عاونه وذب عنه من قومهم وإنما سماهم خائنين لأن من أقدم على ذنب فقد خان نفسه لأنه أوقعها في العذاب وحرمها من الثواب ولهذا قيل لمن ظلم غيره إنما ظلم نفسه وقيل المراد بهذا الجمع كل من خان خيانة أي فلا تخاصم الخائن ولا تجادل عنه ﴿**إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً**﴾ يعني خواناً بسرقة الدرع أثيماً برميه اليهودي وهو بريء وإنما قال تعالى خواناً أثيماً على المبالغة لأنه تعالى علم من طعمة الإفراط في الخيانة وركوب المآثم. ويدل على ذلك أنه لما نزل فيه القرآن لحق مكة مرتداً عن دينه ثم عدا على الحجاج بن علاط فنقب عليه بيته فسقط عليه حجر من الحائط فلما أصبحوا أخرجوه من مكة فلقي ركباً فعرض لهم. وقال ابن السبيل ومنقطع به فحملوه حتى إذا جن عليه الليل عدا عليهم فسرقهم ثم انطلق فركبوا في طلبه فأدركوه فرموه بالحجارة حتى مات، ومن كانت هذه حاله كان كثير الخيانة والإثم فلذلك وصفه الله تعالى بالمبالغة في الخيانة والإثم قال بعضهم إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. ويروى عن عمر أنه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكي وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه يا أمير المؤمنين فقال كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة.

قوله عز وجل: ﴿**يستخفون من الناس**﴾ يعني يستترون حياء من الناس يريد بذلك بني ظفر بن الحارث وهم قوم طعمة بن أبيرق ﴿**ولا يستخفون من الله**﴾ يعني ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه وأصل الاستخفاء الاستتار وإنما فسر الاستخفاء بالاستحياء على المعنى لأن الاستحياء من الناس يوجب الاستتار منهم ﴿**وهو معهم**﴾ يعني والله معهم بالعلم والقدرة ولا يخفى عليه شيء من حالهم لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية. وكفى بذلك زجراً للإنسان عن ارتكاب الذنوب ﴿**إذ يبيتون ما لا يرضى من القول**﴾ يعني يضمرون ويقدرون ويزورون في أذهانهم. وأصل التبييت تدبير الفعل بالليل وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ فإنه يسمع قول

﴿ **ولا تُجَادِلْ** ﴾، لا تُخاصم، ﴿ **عنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ** ﴾، أي: يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة، ﴿ **إنّ اللّهَ لا يُحبُّ مَنْ كانَ خَوّاناً** ﴾، خائِناً، ﴿ **أثيماً** ﴾، بسرقة الدرع، أثيماً في رميه اليهودي، قيل: إنه خطاب مع النبي ﷺ، والمُرادُ به غيره، كقوله تعالى: ﴿ فإنْ كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك ﴾ [يونس: ٩٤]، والاستغفار في حق الأنبياء بعد النبوّة على أحد الوجوه الثلاثة إمّا لذنبٍ تقدّم على النبوّة أو لذنوب أُمته وقرابته، أو لمباحٍ جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار، فالاستغفار يكون معناه السمع والطاعة لحكم الشرع.

﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ** ﴾، أي: يستترون ويستحيون من الناس، يريد بني ظفر بن الحارث، ﴿ **ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ** ﴾ أي: لا يستترون ولا يستحيون من الله، ﴿ **وهوَ معهمْ إذْ يُبيِّتُونَ** ﴾، يتقولون ويُؤلِّفون، والتبييت: تدبير الفعل ليلاً، ﴿ **ما لا يَرْضَى مِنَ القول** ﴾، وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ فإنه يسمع قوله ويمينه لأنه مسلم ولا يسمع من اليهودي فإنه كافر، فلم يرضَ الله ذلك منهم، ﴿ **وكانَ اللّهُ بما يعملونَ محيطاً** ﴾، ثم يقول لقوم طعمة:

طعمة ويقبل يمينه لأنه مسلم ولا يسمع قول اليهودي لأنه كافر فلم يرض الله تعالى بذلك منهم فأطلع نبيه ﷺ على سرهم وما هموا به ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ يعني أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده وهو مطلع عليهم محيط بهم لا تخفى عليه خافية ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ ها للتنبيه يعني يا هؤلاء الذين هو خطاب لقوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة وعن قومه ﴿جادلتم عنهم﴾ يعني خاصمتم عنهم بسبب أنهم كانوا يرونهم في الظاهر مسلمين وأصل الجدال شدة الفتل لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يفتل صاحبه عما هو عليه والمعنى هبوا إنكم خاصمتم وجادلتم عن طعمة وقومه في الحياة الدنيا وقيل هو خطاب لقوم طعمة وفي قراءة ابن مسعود: جادلتم عنه والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة في الحياة الدنيا ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ يعني إذا أخذه بعذابه فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع: ﴿أمن يكون عليهم وكيلاً﴾ يعني محافظاً ومحامياً عنهم من بأس الله إذا نزل بهم. قوله تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ نزلت هذه الآية في ترغيب طعمة في التوبة وعرضها عليه. وقيل نزلت في قومه الذين جادلوا عنه وقيل هي عامة في كل مسيء ومذنب لأن خصوص السبب لا يمنع من إطلاق الحكم ومعنى الآية ومن يعمل سوءاً يسيء به غيره كما فعل طعمة بالسرقة من قتادة وإنما خص ما يتعدى إلى الغير باسم السوء لأن ذلك يكون في الأكثر إيصالاً للضرر إلى الغير أو يظلم نفسه يعني فيما يختص به من الحلف الكاذب ونحو ذلك. وقيل معناه ومن يعمل سوءاً أي قبيحاً أو يظلم نفسه يرميه البريء وقيل السوء كل ما يأثم به الإنسان والظلم هو الشرك فما دونه ﴿ثم يستغفر الله﴾ يعني من ذنوبه ﴿يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ففي هذه الآية دليل على حكمين: أحدهما أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر لأن قوله ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه عم الكل. والحكم الثاني أن ظاهر الآية يقتضي أن مجرد الاستغفار كاف. وقال بعضهم إنه مقيد بالتوبة لأنه لا ينفع الاستغفار مع الإصرار على الذنوب.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿ومن يكسب إثماً﴾ يعني ومن يعمل ذنباً يأثم به ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ يعني إنما يعود وبال كسبه عليه

﴿ ها أنتم هؤلاءِ ﴾ أي: يا هؤلاء، ﴿ جَادَلْتُمْ ﴾، أي: خاصمتم، ﴿ عنهمْ ﴾ يعني: عن طعمة، وفي قراءة أُبي بن كعب عنه ﴿ في الحياة الدنيا ﴾، والجدال: شدّة المخاصمة من الجدل، وهو شدّة القتل، فهو يريد قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجّاج، وقيل: الجدال من الجدالة، وهي الأرض، فكان كل واحد من الخصمين يروم قهرَ صاحبه وصرعه على الجدالة، ﴿ فمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عنهمْ ﴾، يعني: عن طعمة، ﴿ يَوْمَ القيامةِ ﴾ إذا أخذه الله بعذابه، ﴿ أمْ مَنْ يكون عليهم وكيلاً ﴾، كفيلاً، أي: من الذي يذب عنهم، ويتولى أمرهم يوم القيامة، ثم استأنف فقال:

﴿ ومَنْ يعملْ سوءاً ﴾، يعني السرقة، ﴿ أو يَظْلِمْ نفسه ﴾، برميه البريء، وقيل: ومَنْ يعمل سوءاً أي: شِرْكاً أو يظلم نفسَه: يعني: إثماً دُونَ الشِّرك، ﴿ ثمّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾، أي: يتبْ إليه ويستغفرْهُ، ﴿ يَجِدِ اللَّهَ غفُوراً رحيماً ﴾، يعرضُ التوبة على طعمة في هذه الآية.

﴿ ومَنْ يكسبْ إثماً ﴾، يعني: يمين طعمة بالباطل، أي: ما سرقته إنّما سرقه اليهود ﴿ فإنّما يكسِبُهُ على

والكسب عبارة عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة فكأنه تعالى يقول يا أيها الإنسان إن الذنب الذي ارتكبته إنما عادت مضرته عليك فإني منزه عن الضر والنفع فأكثر من الاستغفار ولا تيأس من قبول التوبة فإني لغفار لمن تاب وهذه الآية نزلت في طعمة أيضاً ﴿وكان الله عليماً﴾ يعني بسارق الدرع ﴿حكيماً﴾ يعني إذا حكم عليه بالقطع وقيل معناه عليها بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبة حكيماً تقتضي حكمته أن يتجاوز عن التائب ويغفر له ويقبل توبته ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ قيل إن الخطيئة هي الصغيرة منم الذنوب والإثم هو الكبيرة وقيل الخطيئة هي الذنب المختص بفاعله والإثم الذنب المتعدي إلى الغير وقيل إن الخطيئة هي سرقة الدرع والإثم هو يمينه الكاذبة ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ يعني ثم يقذف بما جناه بريئاً منه وهو نسبة السرقة إلى اليهود ولم يسرق. فإن قلت الخطيئة والإثم اثنان فكيف وحد الضمير في قوله ثم يرم به. قلت معناه ثم يرم بأحد هذين المذكورين بريئاً وقيل معناه ثم يرم بهما فاكتفى بأحدهما عن الآخر وقيل إنه يعود الضمير إلى الإثم وحده لأنه أقرب مذكور وقيل إن الضمير يعود إلى الكسب ومعناه ثم يرم بما سكب بريئاً ﴿فقد احتمل بهتاناً﴾ البهتان من البهت وهو الكذب الذي يتحير في عظمه ﴿وإثماً مبيناً﴾ يعني ذنباً بيناً لأنه بكسب الإثم آثم وبرميه البريء باهت فقد جمع بين الأمرين. قوله عز وجل: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ هذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق وقومه حيث لبسوا على رسول الله ﷺ أمر صاحبهم. فقوله تعالى فلولا فضل الله عليك يعني يا محمد بالنبوة ورحمته يعني بالعصمة وما أوحى إليك من الاطلاع على أسرارهم فهو خطاب للنبي ﷺ ﴿لهمت طائفة منهم﴾ يعني من بني ظفر وهم قوم طعمة ﴿أن يضلوك﴾ يعني عن القضاء بالحق وتوخي طريق العدل وقيل معناه يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدفع عن طعمة وذلك لأن قوم طعمة عرفوا أنه سارق ثم سألوا النبي ﷺ أن يدفع عنه وينزهه عن السرقة ويرمي بها اليهودي ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ يعني أن وبال ذلك يرجع عليهم بسبب تعاونهم على الإثم وبشهادتهم له أنه بريء فهم لما قدموا على ذلك رجع وباله عليهم ﴿وما يضرونك من شيء﴾ يعني أنهم وإن سعوا في إلقائك في الباطل فأنت ما وقعت فيه لأنك بنيت الأمر على ظاهر الحال وما خطر ببالك أن الأمر على خلاف ذلك وقيل معناه وما يضرونك من شيء في المستقبل فوعده الله إدامة العصمة وإنه لا يضره أحد ﴿وأنزل الله عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿والحكمة﴾ يعني القضاء بما يعني وأوجب بهما بناء الحكم على الظاهر فكيف يضرونك بإلقائك في الشبهات ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ يعني من أحكام الشرع وأمور الدين وقيل علمك من علم الغيب ما لم تكن تعلم وقيل معناه وعلمك من خفيات الأمور وأطلعك على ضمائر القلوب وعلمك من أحوال المنافقين وكيدهم ما لم تكن تعلم ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ يعني ولم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيماً فاشكره على ما أولاك من إحسانه ومن عليك بنبوته وعلمك ما أنزل عليك من كتابه وحكمته وعصمك ممن حاول إضلالك فإن الله هو

نفسِهِ﴾، فإنما يضرُّ به نفسَه، ﴿وكانَ اللّهُ عليماً﴾، بسارق الدرع ﴿حكيماً﴾، حَكَمَ بالقطع على السارق.

﴿ومَنْ يَكْسِبْ خَطِيْئَةً﴾ أي: سرقة الدرع، ﴿أو إثماً﴾ بيمينه الكاذبة، ﴿ثمّ يرمِ بهِ﴾ أي: يقذفُ بما جَنَى ﴿بَرِيْئاً﴾ منه وهو نسبة السرقة إلى اليهود ﴿فقدِ احتملَ بُهتاناً﴾ البهتان: هو البهت، وهو الكذب الذي يُتحيّر في عِظَمِه، ﴿وإثماً مُبيناً﴾ أي: ذنباً بيّناً، وقوله: ﴿ثمّ يرمِ به﴾ ولم يقلْ بهما بعد ذكر الخطيئة والإثم، ردَّ الكناية إلى الإثم أو جعل الخطيئة والإثم كالشيء الواحد.

قوله تعالى: ﴿ولولا فَضْلُ اللّهِ عليكَ ورحمتُه﴾، يقول للنبي ﷺ: ﴿لَهَمّتْ﴾، لقدْ هَمّتْ أي: أضمرت، ﴿طائفةٌ منهمْ﴾، يعني: قوم طعمة، ﴿أن يُضلّوك﴾ يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدافع عن طعمة، ﴿وما يُضلّون إلاّ أنفسَهم﴾، يعني يرجع وَبَالُهُ عليها، ﴿وما يضرُّونَك من شيء﴾، يُريد أن ضرره يرجع

الذي تولاك بفضله وشملك بإحسانه وكفاك غائلة من أرادك بسوء ففي هذه الآية تنبيه من الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ على ما حباه من ألطافه وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه. قوله تعالى: .

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ يعني من نجوى قوم طعمة وقيل هي عامة في جميع ما يتناجى الناس به والنجوى هي الإسرار في التدبير وقيل النجوى ما تفرد بتدبيره قوم سراً كان ذلك أو جهراً وناجيته ساررته وأصله أن يخلو في نجوة من الأرض وقيل أصله من النجي والمعنى لا خير في كثير مما يدبرونه ويتناجون فيه ﴿إلّا من أمر بصدقة﴾ يعني إلّا في نجوى من أمر بصدقة وقيل معناه لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلّا فيما كان من أعمال الخير وقيل هو استثناء منقطع تقديره لكن من أمر بصدقة وحث عليها ﴿أو معروف﴾ يعني أو أمر بطاعة الله وما يجيزه الشرع وأعمال البر كلها معروف لأن العقول تعرفها ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ يعني الإصلاح يبن المتباينين والمتخاصمين ليتراجعا إلى ما كانا فيه من الألفة والاجتماع على ما أذن الله فيه وأمر به. عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى يا رسول الله قال إصلاح ذات البين وإن فساد ذات البين هي الحالقة» أخرجه الترمذي وأبو داود وقال الترمذي ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» (خ) عن سهل بن سعد أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم» (ق) عن أم مكتوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين اثنين أو قال بين الناس فيقول خيراً أو ينمى خيراً» زاد مسلم في رواية قالت ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلّا فيما في ثلاث: يعني الحرب

إليهم، ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب ﴾، يعني: القرآن، ﴿ والحكمة ﴾، يعني: القضاء بالوحي ﴿ وعلّمَكَ ما لمْ تكنْ تعْلَم ﴾ من الأحكام، وقيل: من علم الغيب، ﴿ وكانَ فَضْلُ اللّهِ عليكَ عظيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ ﴾، يعني: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامّةٌ في حق جميع الناس، والنّجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما يتفرّد بتدبيره قوم سرّاً كان أو جهراً، فمعنى الآية: لا خيرَ في كثيرٍ ممّا يدبّرونه بينهم، ﴿ إلّا مَنْ أمرَ بصدقةٍ ﴾ أي: إلّا في نجوى من أمر بصدقة، فالنّجوى يكون متصلاً، قيل: النجوى هَا هُنَا: الرجال المتناجون كما قال الله تعالى: ﴿ وإذْ هم نجوى ﴾ [الإسراء: ٤٧] ﴿ إلّا مَنْ أمرَ بصدقة ﴾، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، أي: حثّ عليها، ﴿ أو مَعْرُوفٍ ﴾، أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمالُ البرّ كلُّها معروف، لأنّ العقول تعرفها، ﴿ أو إصْلَاحٌ بينَ الناس ﴾، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر بن أحمد الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حمّاد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرّة عن سالم هو ابن أبي الجعد عن أُمّ الدرداء رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألَا أخبرُكم بأفضلَ من درجة الصيام والصدقة والصلاة»؟ قال: قلنا بلى، قال: «إصلاحُ ذاتِ البين، وإن إفساد ذات البين هي الحالقة»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أمه أُم مكتوم بنت عُقبة، وكانت من المهاجرات الأُوَل، قالت: سمعت رسول

والإصلاح بين الناس وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يعني هذه الأشياء التي ذكرت ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ يعني طلب رضاه لأن الإنسان إذا فعل ذلك خالصاً لوجه الله نفعه وإن فعله رياء وسمعة لم ينفعه ذلك لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» الحديث ﴿فسوف نؤتيه﴾ يعني في الآخرة إذا فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ﴿أجراً عظيماً﴾ لا حد له لأن الله سماه عظيماً وإذا كان كذلك فلا يعلم قدره إلّا الله قوله عز وجل:.

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

﴿ومن يشاقق الرسول﴾ نزلت في طعمة أيضاً وذلك أنه لما سرق وظهرت عليه السرقة خاف على نفسه القطع والفضيحة فهرب إلى مكة كافراً مرتداً عن الدين فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ يعني يخالفه في التوحيد والإيمان وأصله من المشاقة وهي كون كل واحد منهما في شق غير شق الآخر ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي وضح له التوحيد والحدود وظهر له صحة الإسلام وذلك لأن طعمة كان قد تبين له بما أنزل فيه وأظهر من سرقته ما يدل على صحة دين الإسلام فعادى الرسول ﷺ وأظهر الشقاق ورجع عن الإسلام ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ يعني ويتبع غير طريق المؤمنين وما هم عليه من الإيمان وتبيع عبادة الأوثان ﴿نوله ما تولى﴾ أي نكله في الآخرة إلى ما تولى في الدنيا ونتركه وما اختار لنفسه ﴿ونصله جهنم﴾ يعني ونلزمه جهنم وأصله من الصلي وهو لزوم النار وقت الاستدفاء ﴿وساءت مصيراً﴾ يعني وبئس المرجع إلى النار. روي أن الشافعي سئل عن آية من كتاب الله تدل على أن الإجماع حجة فقرأ القرآن ثلاثمائة مرة حتى استخرج هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ وذلك لأن اتباع غير سبيل المؤمنين وهي مفارقة الجماعة حرام فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين ولزوم وجماعتهم واجباً وذلك لأن الله تعالى ألحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين فثبت بهذا أن إجماع الأمة حجة.

قوله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق أيضاً لكونه مات مشركاً وقال ابن عباس نزلت هذه الآية في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أني شيخ منهمك في الذنوب غير أني لم أشرك بالله منذ عرفته وآمنت به ولم اتخذ مند دونه ولياً ولم أواقع المعاصي جراءة على الله عز وجل وما

الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب مَن أصلح بين الناس فقال خيراً أو نمى خيراً». قوله تعالى: ﴿ وَمَن يفعل ذلك ﴾ أي: هذه الأشياء التي ذكرها، ﴿ ابتغاءَ مرضاةِ الله ﴾، أي: طلبَ رضاه، ﴿ فسوفَ نُؤْتِيْهِ ﴾، في الآخرة، ﴿ أجْراً عظيماً ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة (يـؤتيه) بالياء، يعني: يؤتيه الله وقرأ الآخرون بالنون.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ ﴾، نزلت في طعمة بن أبيرق وذلك أنه لمّا ظهرت عليه السرقة خاف على نفسه من قطع اليَدِ والفضيحة، فهرب إلى مكة وارتدّ عن الدين، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشاقِقِ الرسولَ ﴾، أي: يخالفه، ﴿ مِنْ بعدِ مَا تبيّن له الهُدَى ﴾، من التوحيد والحدود، ﴿ ويَتّبع غيرَ سبيلِ المؤمنين ﴾، أي: غير طريق المؤمنين، ﴿ نُولِهِ مَا تَولّى ﴾، أي: نكله في الآخرة إلى ما تولّى في الدنيا، ﴿ ونُصْلِه جهنّمَ وساءتْ مصيراً ﴾، رُوِيَ أن طَعمة بن أبيرق نزل على رجل من بني سليم من أهلِ مكة يقال له الحجّاج بن علاط، فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع أن يدخل ولا أن يخرج حتى أصبح، فأُخذ ليقتل، فقال بعضهم: دعوه فإنه قد لجأ إليكم

توهمت طرفة عين أني أعجز الله هرباً وإني لنادم تائب مستغفر فما حالي عند الله فأنزل الله هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ فهذا نص صريح بأن الشرك غير مغفور إذا مات صاحبه عليه لأنه قد ثبت أن المشرك إذا تاب من شركه وآمن قبلت توبته وصح إيمانه وغفرت ذنوبه كلها التي عملها في حال الشرك ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ يعني ما دون الشرك ﴿لمن يشاء﴾ يعني لمن يشاء من أهل التوحيد قال العلماء لما أخبر الله أنه يغفر الشرك بالإيمان والتوبة علمنا أنه يغفر ما دون الشرك بالتوبة وهذه المشيئة فيمن لم يتب من ذنوبه من أهل التوحيد فإذا مات صاحب الكبيرة أو الصغيرة من غير توبة فهو على خطر المشيئة إن شاء غفر له وأدخله الجنة بفضله ورحمته وإن شاء عذبه ثم يدخله الجنة بعد ذلك ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ يعني فقد ذهب عن طريق الهدى وحرم الخير كله إذا مات على شركه فإن قلت لم كررت هذه الآية بلفظ واحد في موضعين من هذه السورة وما فائدة ذلك. قلت فائدة ذلك التأكيد أو لأن الآية المتقدمة نزلت في سبب. ونزلت هذه الآية في سبب آخر وهو أن الآية المتقدمة(١) نزلت في سبب سرقة طعمة بن أبيرق ونزلت هذه الآية في سبب ارتداده وموته على الشرك. قوله عز وجل: .

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾

﴿إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً﴾ نزلت في أهل مكة يعني ما يعبدون من دون الله إلاّ إناثاً لأن كل من عبد شيئاً فقد دعاه لحاجته وفي قوله إناثاً أقوال أحدها إنهم كانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث فيقولون اللات والعزى ومناة قال الحسن كانوا يقولون لصنم كل قبيلة أنثى بني فلان والقول الثاني إناثاً يعني أمواتاً. قال الحسن: كل شيء لا روح فيه كالحجر والخشبة هو إناث قال الزجاج والموات كلها يخبر عنها كما يخبر من المؤنث تقول هذه الحجر تعجبني وهذه الدراهم تنفعني. ولأن الأنثى أنزل درجة من الذكر والميت أنزل درجة من الحي كما أن الموت أنزل من الحيوان وقد يطلق اسم الأنثى على الجمادات والقول الثالث إن بعضهم كان يعبد الملائكة ويقول هن بنات الله

فتركوه فأخرجوه من مكة، فخرج مع تجّار من قضاعة نحو الشام، فنزلوا منزلاً فسرق بعض متاعهم وهرب، فطلبوه وأخذوه ورموه بالحجارة، حتى قتلوه، فصار قبره تلك الحجارة، وقيل: إنه ركب سفينة إلى جدّة فسرق فيها كيساً فيه دنانير فأخذه، فأُلقي في البحر، وقيل: إنه نزل في حرّة بني سليم وكان يعبد صنماً إلى أن مات فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أن يُشرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذلكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشرِكْ بِاللَّهِ فقدْ ضلَّ ضلَالاً بعيداً ﴾ أي: ذهب عن الطريق وحُرم الخير كله، قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ هذه الآية نزلتْ في شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله إني شيخ منهمك في الذنوب، إلاّ أنّي لم أُشرك بالله شيئاً منذ عرفتُه وآمنت به، ولم أتّخذ من دونه وَليّاً ولم أُواقع المعاصي جرأة على الله، وما توهمت طرفة عين أني أُعجز اللّهَ هرباً وإنّ لنادم تائبٌ مستغفرٌ فماذا حالي؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلاّ إِناثاً ﴾، نزلت في أهل مكة، أي: ما يعبدون، كقوله تعالى: ﴿ وقال ربُّكُم ادْعُوني ﴾ [غافر: ٦٠] أي: اعبدوني، بدليل قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾

﴿وإن يدعون﴾ أي وما يعبدوا ﴿إلاّ شيطاناً مريداً﴾ قال ابن عباس: لكل صنم شيطان يدخل في جوفه ويتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم فلذلك قال الله تعالى: ﴿وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً﴾ وقيل هو إبليس لأنه أغواهم وأغراهم على عبادتها وأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو المتمرد العاتي الخارج عن الطاعة ﴿لعنه الله﴾ أي أبعده الله وطرده عن رحمته ﴿وقال﴾ يعني إبليس ﴿لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ يعني حظاً مقدراً معلوماً فكل ما أطيع فيه إبليس فهو نصيبه ومفروضه وأصل الفرض القطع وهذا النصيب هم الذين يتبعون خطواته ويقبلون وساوسه ﴿ولأضلنهم﴾ عن طريق الحق والمراد به التزيين والوسوسة وإلاّ فليس إليه من الإضلال شيء. قال بعضهم لو كانت الضلالة إلى إبليس لأضل جميع الخلق ﴿ولأمنينهم﴾ قال ابن عباس يريد تسويف التوبة وتأخيرها وقال الكلبي أمنيهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث وقيل أمنيهم إدراك الجنة مع عمل المعاصي وقيل أزين لهم ركوب الأهواء والأهوال الداعية إلى العصيان وقيل أمنيهم طول البقاء في الدنيا ونعيمها ليؤثروها على الآخرة ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ يعني يقطعونها ويشقونها وهي البحيرة. وذلك أنهم كانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ولا يردونها عن ماء ولا مرعى وسول لهم إبليس إن هذا قربة ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ قال ابن عباس يعني دين وتغيير دين الله هو تحليل الحرام وتحريم الحلال وقيل تغيير خلق الله هو تغيير الفطرة التي فطر الخلق عليها ويدل عليه قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وقيل يحتمل أن يحمل هذا التغيير على تغيير أحوال تتعلق بظاهر الخلق مثل الوشم ووصل الشعر ويدل عليه ﷺ: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله» أخرجاه من رواية ابن مسعود ولهما عن أسماء قالت: «لعن النبي ﷺ الواصلة والمستوصلة» وقيل تغيير خلق الله هو الاختصاء وقطع الآذان حتى إن بعض العلماء حرمه. وكره أنس إخصاء الغنم وجوز بعض العلماء لأن فيه غرضاً ظاهراً (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال لولا أن رسول الله ﷺ رد على عثمان بن مظعون التبتل لاختصينا. التبتل: هو ترك النكاح والانقطاع للعبادة عن نافع قال كان ابن عمر يكره الاختصاء ويقول إن فيه نماء الخلق أخرجه مالك في الموطأ ومعناه في ترك الاختصاء نماء الخلق يعني زيادتهم. وقال ابن زيد هو التخنث وهو أن يتشبه الرجل بالنساء في حركاتهن وكلامهن ولباسهن ونحو ذلك. وقيل تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق البهائم والأنعام للركوب والأكل فحرموها على أنفسهم وخلق الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار

[غافر: ٦٠]، قوله: ﴿ من دونه ﴾ أي: من دون الله، ﴿ إلاّ إناثاً ﴾ أراد بالإناث الأوثان لأنهم كانوا يسمّونها باسم الإناث، فيقولون: اللاّت والعزّى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أُنثى بني فلان فكان في كل واحدة منهنّ شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم، ولذلك قال: ﴿ وإنْ يَدْعُون إلاّ شيطاناً مريداً ﴾، هذا قول أكثر المفسرين يدلّ على صحة التأويل: وأن المراد بالإناث الأوثان قراءة ابن عباس رضي الله عنه (إنْ يدعُون من دونه إلاّ أُنثاً)، جمع الوثن فصيّر الواو همزة، وقال الحسن وقتادة: إلاّ إناثاً أي: مواتاً لا روح فيه، لأن أصنامهم كانت من الجمادات سمّاها إناثاً لأنه يخبر عن الموات، كما يخبر عن الإناث، ولأن الإناث أدون الجنسين كما أن الموات أرذل من الحيوان، وقال الضحّاك: أراد بالإناث الملائكة، وكان بعضهم يعبدون الملائكة ويقولون: الملائكة إناث، كما قال الله تعالى: ﴿ وجعلُوا الملائكةَ الذينَ هم عبادُ الرحمن إناثاً ﴾ [الزخرف: ١٩] ﴿ وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً ﴾، أي: وما يعبدون إلاّ شيطاناً مريداً لأنهم إذا عبدُوا الأصنام فقد أطاعوا الشيطان، والمريد: المارد، وهو المتمرّد العاتي الخارج عن الطاعة، وأراد: إبليس.

﴿ لعنه اللّهُ ﴾، أي: أبعده الله من رحمته، ﴿ وقالَ ﴾، يعني: قال إبليس: ﴿ لأتَّخِذَنَّ مِنْ عبادِكَ نصيباً

لمنفعة الناس فعبدوها من دون الله ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله﴾ يعني يتخذه رباً يطيعه فيما يأمره به وقيل الولي من الموالاة وهو الناصر ﴿فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ لأن طاعة الشيطان توصله إلى نار جهنم وهي غاية الخسران، بقي في الآية سؤالان: الأول قال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً والنصيب المفروض هو الشيء المقدر القليل وقال في موضع آخر لأحتنكن ذريته إلاّ قليلاً وقال: لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين. وهذا استثناء القليل من الكثير فكيف وجه الجمع فالجواب أن الكفار الذين هم حزب الشيطان وإن كانوا أكثر من المسلمين في العدد لكنهم أقل من المؤمنين في الفضل والشرف وعلو الدرجة عند الله والمؤمنون وإن كانوا أقل من الكفار لكنهم أكثر منهم لأن الفضل والشرف والسؤدد والغلبة في الدنيا وعلو الدرجة في الآخرة وأنشد بعضهم في هذا المعنى قال:

وهـــم الأقـــل إذا تعـــد عشيـــرة والأكثـــرون إذا يعـــد الســـؤدد

وقيل إن إبليس لما لم ينل من آدم ما أراد ورأى الجنة والنار وعلم أن لهذه أهلاً ولهذه أهلاً قال: لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً يعني الذين هم أهل النار. السؤال الثاني: من أين لإبليس العلم بالعواقب حتى يقول ولأضلنهم ولأغوينهم ولأمنينهم ولآمرنهم، وقال في الاعراف ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال في بني إسرائيل لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ فالجواب من ثلاثة أوجه: **أحدها**: أن إبليس ظن أن تقع منهم هذه الأمور التي يريدها منهم فحصل له ما ظنه ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه﴾. **الوجه الثاني**: قال ابن الأنباري المعنى لأجتهدن ولأحرصن في ذلك أنه كان يعلم الغيب. **الوجه الثالث**: قال الماوردي من الجائز أن يكون قد علم ذلك من الملائكة بخبر من الله تعالى أن أكثر الخلائق لا يؤمنون وقوله تعالى: .

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

مفرُوضاً ﴾، أي: حقاً معلوماً، فما أُطيع فيه إبليس فهو مفروضه، وفي بعض التفاسير: من كل ألف واحدٌ لله تعالى وتسعمائة وتسعة وتسعون لإبليس، وأصل الفرض في اللغة: القطع، ومنه الفرصة في النهر وهي الثلمة تكون فيه، وفرض القوس والشرك: للشَّقِّ الذي يكون فيه الوتر والخيط الذي يشدّ به الشراك.

﴿ ولأُضِلَّنَّهم ﴾ يعني: عن الحق، أي: لأغوينّهم، بقوله إبليس، وأراد به التزيين، وإلاّ فليس إليه من الإضلال شيء، كما قال: ﴿ لأزيننّ لهم في الأرض ﴾ [الحجر: ٣٩] **﴿ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾**، قيل: أُمنِّينّهم ركوبَ الأهواء، وقيل: أُمنّينّهم أنْ لا جَنَّةَ ولا نارَ ولا بعث، وقيل: أُمنّينّهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصي، **﴿ ولآمرنّهم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ولآمُرَنَّهم فَلَيُغيِّرُنَّ خلقَ اللّهِ ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب والضحاك: يعني دين الله، نظيره قوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لخلقِ الله ﴾ [الروم: ٣٠] أي: لدين الله، يريد وضع الله في الدِّين بتحليل الحرام وتحريم الحلال، وقال عكرمة وجماعة من المفسرين: فليُغيِّرنّ خلق الله بالخِصاء والوشم وقطع الآذان حتى حرّم بعضهم الخصاء وجوّزه بعضهم في البهائم، لأن فيه غرضاً ظاهراً، وقيل: تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الأنعام للركوب والأكل فحرّموها، وخلق الشمسَ والقمرَ والأحجار لمنفعة العباد فعبدوها من دون الله، ﴿ ومَنْ يتّخذِ الشّيطانَ وليّاً من دُونِ الله ﴾ أي: ربّاً يطيعه، **﴿ فقدْ خسِرَ خُسرَاناً مُبيناً ﴾**.

﴿فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣﴾

﴿يعدهم ويمنيهم﴾ يعني الشيطان يعد حزبه وأولياءه ويمينهم فوعده وتمنيته إياهم ما يوقع في قلب الإنسان من طول العمر ونيل ما أراد من الدنيا ومن نعيمها ولذاتها وكل ذلك غرور فيجب على العاقل أن لا يلتفت إلى شيء منها فربما لم يطل عمره ولم يحصل له ما أراد منها ولئن طال عمره وحصل مقصوده فالموت وراءه ينغص عليه ما هو فيه وقيل يعدهم ويمنيهم بأن لا جنة ولا نار ولا بعث فاجتهدوا في تحصيل اللذات الدنيوية ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ يعني باطلاً وضلالاً ﴿أولئك﴾ يعني الذين اتخذوا الشيطان ولياً ﴿مأواهم جهنم﴾ يعني مرجعهم ومستقرهم جهنم ﴿ولا يجدون عنها﴾ يعني عن جهنم ﴿محيصاً﴾ يعني مفراً ومعدلاً يعني لا يعدلون عنها إلى غيرها ولا بد لهم من ورودها والخلد فيها ولما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ يعني من تحت المساكن والغرف ﴿خالدين فيها﴾ يعني في الجنات ﴿أبداً﴾ بلا انتهاء ولا غاية والأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا انقطاع له ولا يتجزأ كما يتجزأ غيره من الأزمنة لأنه لا يقال أبد كذا كما يقال زمن كذا وفي قوله: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ دليل على أن الخلود لا يفيد التأبيد والدوام لأنه لو أفاد ذلك لزم التكرار وهو خلاف الأصل فعلم من ذلك أن الخلود عبارة عن طول الزمان لا على الدوام فلما أتبع الخلود بالأبد علم أنه يراد به الدوام الذي لا ينقطع. وقوله عز وجل: ﴿وعد الله حقاً﴾ يعني وعد الله ذلك الذي ذكر وعدا حقاً ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾ يعني ليس أحد أصدق من الله وهو توكيد بليغ لقوله: ﴿وعد الله حقاً﴾ قوله تعالى: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ الأمنية أفعولة من التمنية والتمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها والأمنية هي الصورة الحاصلة في النفس من تمنى الشيء إذا وقع في نفسه وأراده في المخاطب بقوله: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ قولان: أحدهما أنه خطاب للمسلمين وأهل الكتاب اليهود والنصارى وذلك أنهم افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى

﴿ يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ ﴾ فوعدُهُ وتمنيتُهُ ما يُوقعه في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم كما قال الله تعالى: ﴿ الشيطانُ يَعِدُكم الفقرَ ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ويُمنّيهم بأنْ لا بعثَ ولا جنَّةَ ولا نار ﴿ وما يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلّا غُروراً ﴾، أي: باطلاً.

﴿ أولئكَ مَأْوَاهُم جهنَّمُ ولا يَجِدُون عنها مَحِيصاً ﴾، أي: مفرّاً ومعدِلاً عنها.

قوله تعالى: ﴿ والذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار ﴾، أي: من تحت الغُرف والمساكن، ﴿ خالدين فيها أبداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قيلاً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ليسَ بأمانِيِّكُم ولا أمانيِّ أهلِ الكِتَابِ ﴾، الآية. قال مسروق وقتادة والضحاك: أراد ليس أمانيكم أيها المسلمون ولا أماني أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى، وذلك أنّهم افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبلَ نبيّكم وكتابُنا قبل كتابِكم فنحن أَوْلَى بالله منكم، وقال المسلمون: نبيّنا خاتمُ الأنبياء وكتابُنا يقضي على الكتب، وقد آمنّا بكتابكم ولم تُؤمنوا بكتابنا فنحن أَوْلى. وقال مجاهد: أراد بقوله ﴿ ليسَ بأمانيِّكم ﴾ يا مشركي أهل الكتاب، وذلك أنهم قالوا: لا بعثَ ولا حسابَ، وقال أهل الكتاب: ﴿ لن تمسَّنا النّار إلّا أياماً معدودة ﴾ [البقرة: ٨٠]، ﴿ ولن يدخل الجنّة إلّا مَن كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة: ١١١]، فأنزل الله تعالى: ﴿ ليسَ

بالله منكم. وقال المسلمون نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى بالله منكم. والقول الثاني أنه خطاب لمشركي مكة في قولهم لانبعث ولا نحاسب وخطاب لأهل الكتاب في قولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. والمعنى ليس الأمر بالأماني إنما الأمر بالعمل الصالح **﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾** قال الضحاك يقول: ليس لكم ما تمنيتم وليس لأهل الكتاب ما تمنوا ولكن من عمل سوءاً يعني شركاً فمات عليه يجز به النار. وقال الحسن هذا في حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ولا يجزى المؤمن بسيىء عمله يوم القيامة ولكن يجزى بأحسن عمله ويتجاوز عن سيئاته ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله: **﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا﴾** وهذا هو الكافر، فأما المؤمن فله ولي ونصير. وقال آخرون هذه الآية في حق كل من عمل سوءاً من مسلم ونصراني وكافر. قال ابن عباس هي عامة في حق كل من عمل سوءاً يجز به إلا أن يتوب قبل أن يموت فيتوب الله عليه. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين مشقة شديدة وقالوا يا رسول الله وأينا من لم يعمل سوءاً غيرك فكيف الجزاء؟ قال منه ما يكون في الدنيا فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات ومن جوزي بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته وبقيت له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره. وأما من كان جزاؤه في الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر في الفضل فيعطى الجزاء في الجنة فيؤتى كل ذي فضل فضله ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي هريرة قال لما نزلت **﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾** بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً قال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها» أخرجه مسلم وعن أبي بكر الصديق قال كنت عند رسول الله ﷺ فنزلت: **﴿من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا﴾** فقال رسول الله ﷺ يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت عليّ قلت بلى يا رسول الله قال فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني وجدت انقساماً في ظهري فتمطيت لها فقال رسول الله ﷺ ما شأنك يا أبا بكر؟ قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءاً وإنا لمجزيون بأعمالنا فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب. وأما الآخرون فيجتمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي إسناده مقال وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي بكر وليس له

بأمانيكم ﴾ أي: ليس الأمر بالأماني وإنّما الأمر بالعمل الصالح، **﴿ مَنْ يَعملْ سُوءاً يُجْزَ بهِ ﴾**، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وجماعة: الآية عامّة في حق كل عامل، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا نزلت هذه الآية شقّتْ على المسلمين وقالوا: يا رسول الله وأيّنا لم يعمل سوءاً غيرك فكيف الجزاء؟ قال: «منه ما يكون في الدنيا، فمَنْ يعملْ حسنةً فله عشرُ حسنات، ومَنْ جُوزِيَ بالسيّئة نقصتْ واحدةٌ من عشر، وبقيتْ له تسعُ حسنات، فويل لمَن غلبتْ آحادُه أعشارَه، وأمّا مَنْ يكون جزاؤه في الآخرة فليقابل بين حسناته وسيئاته، فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر في الفضل، فيعطي الجزاءَ في الجنة فيؤتي كلَّ ذي فضلٍ فَضْلَه». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أبو بكر محمد بن أحمد العدوسي ثنا أبو بكر أحمد بن سليمان الفقيه ببغداد ثنا يحيىٰ بن جعفر بن الزبرقان والحرث بن محمد قالا: ثنا روح هو ابن عبادة ثنا موسى بن عُبيدة أخبرني مولى بن سبّاع قال: سمعت عبد الله بن عمر يحدّث عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كنتُ عندَ رسول الله ﷺ فأُنزلتْ عليه هذه الآية: **﴿ مَنْ يعملْ سوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾**، **﴿ ولا يَجِدُ لهُ منْ دُونِ اللّهِ وَليّاً ولا نَصِيْراً ﴾**، قال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر ألا أُقرئكَ آية أُنزلت عليّ»؟ قال: قلتُ: بلى، قال: فأقرئنيها، قال: ولا أعلم إلّا أني وجدتُ انقصاماً في ظهري حتى تمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ: «ما لك يا أبا بكر»؟ فقلتُ: يا رسول الله بأبي

إسناد صحيح وقوله: «ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً» قال ابن عباس: يريد ولياً يمنعه ولا نصيراً ينصره فإن قلنا إن هذه الآية خاصة في حق الكفار فتأويلها ظاهر وإن قلنا إنها في حق كل عامل سوء من مسلم وكافر فإنه لا ولي لأحد من دون الله يوم القيامة ولا ناصر. فالمؤمنون لا ولي لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون بإذن الله فليس يمنع أحد أحداً عن الله وقوله تعالى: .

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ قال مسروق لما نزلت من يعمل سوءاً يجز به قال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية قال المفسرون بيّن الله تعالى بهذه الآية فضيلة المؤمنين على غيرهم ولفظة من في قوله من الصالحات للتبعيض، لأن أحداً لا يقدر أن يستوعب جميع الصالحات بالعمل فإذا عمل بعضها استحق الثواب ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ النقير نقرة في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة قال ابن عباس يريد لا ينقصون قدر نقرة النواة وهذا على سبيل المبالغة في نفي الظلم ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان قوله عز وجل: .

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ لما بيّن الله تعالى أن الجنة لمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن شرح الإيمان وبين فضله فقال تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً﴾ يعني ومن أحكم ديناً والدين هو المشتمل على كمال العبودية والخضوع والانقياد لله عز وجل وهو الذي كان عليه إبراهيم ﷺ. واعلم أن دين الإسلام مبني على أمرين: أحدهما الاعتقاد وإليه الإشارة بقوله: ﴿أسلم وجهه لله﴾ يعني انقاد لله وخضع له في سره وعلانيته وقيل معناه أخلص طاعته لله وقيل فوض أمره إلى الله. الأمر الثاني من مباني الإسلام العمل وإليه الإشارة بقوله:

أنت وأمي وأيّنا لم يعمل سوءاً؟ إنّا لمجزيّون بكل سوء عملناه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أمّا أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله، وليست لكم ذنوب، وأمّا الآخرون فيُجمع ذلك لهم حتى يُجزوا يومَ القيامة».

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثى وهوَ مُؤْمِنٌ فأولئكَ يَدْخُلونَ الجنَّةَ ولا يُظْلَمُونَ نَقِيْراً ﴾، أي: مقدار النقير، وهو النقرة التي تكون في ظهر النَّواة، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة وأبو بكر ﴿ يدخلون ﴾ بضم الياء وفتح الخاء ههنا وفي سورة مريم وحَمّ المؤمن، زادَ أبو عمر ﴿يدخلونها﴾ في سورة [فاطر: ٣٣]، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الخاء، وروى الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: لمّا نزلتْ ﴿ ليسَ بأمانيكم ولا أمَاني أهلِ الكتابِ مَنْ يعملْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ قال أهل الكتاب: نحنُ وأنتم سواء، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ ﴾ الآية، ونزلت أيضاً:

﴿ وَمَنْ أحسنُ دِيْناً﴾، أحكمُ ديناً ﴿ مِمَّنْ أَسْلَم وَجْهَهُ للّهِ ﴾، أي: أخلص عمله لله، وقيل: فوّض أمرَه إلى الله، ﴿ وهوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: مُوحد، ﴿ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ ﴾، يعني: دين إبراهيم عليه السلام، ﴿ حنيفاً ﴾ أي:

﴿وهو محسن﴾ يعني في عمله لله فيدخل فيه فعل الحسنات والمفروضات والطاعات وترك السيئات وقال ابن عباس في تفسير قوله: «وهو محسن» يريد وهو موحد لله عز وجل لا يشرك به شيئاً قال العلماء وإنما صار دين الإسلام أحسن الأديان لأن فيه طاعة الله ورضاه وهما أحسن الأعمال. وإنما خص الوجه بالذكر في قوله: ﴿أسلم وجهه لله﴾ لأنه أشرف الأعضاء فإذا انقاد الوجه لله وخضع له فقد انقاد لله جميع الأعضاء لأنها تابعة له ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ يعني دين إبراهيم عليه السلام ﴿حنيفاً﴾ يعني مسلماً مخلصاً والحنيف المائل ومعناه المائل عن الأديان كلها إلى الإسلام لأن كل ما سواه من الأديان باطل وحنيفاً يجوز أن يكون حالاً لإبراهيم ويجوز أن يكون حالاً للمتبع كما تقول رأيته راكباً. قال ابن عباس ومن دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى الكعبة والطواف ومناسك الحج والختان هونحو ذلك. فإن قلت ظاهر هذه الآية يقتضي أن شرع محمد ﷺ هو نفس شرع إبراهيم عليه السلام وعلى هذا لم يكن لمحمد ﷺ شرع يستقل به وليس الأمر كذلك فما الجواب؟ قلت إن شرع إبراهيم وملته داخلان في شرع محمد ﷺ وملته مع زيادات كثيرة حسنة خص الله بها محمداً ﷺ فمن اتبع ملة محمد ﷺ فقد اتبع ملة إبراهيم لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ وشرع إبراهيم داخل في شرع محمد ﷺ وإنما قال تعالى: ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ لأن إبراهيم ﷺ كان يدعو إلى توحيد الله وعبادته ولهذا خصه بالذكر لأنه كان مقبولاً عند جميع الأمم فإن العرب كانوا يفتخرون بالانتساب إليه وكذا اليهود والنصارى. فإذا ثبت هذا وأن شرعه كان مقبولاً عند الأمم وأن شرع محمد ﷺ وملته هو شرع إبراهيم وملته لزم الخلق الدخول في دين محمد ﷺ وقبول شرعه وملته. وقوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ يعني صفياً والخلة صفاء المودة وقيل الخلة الافتقار والانقطاع فخليل الله المنقطع إليه وسمي إبراهيم خليلاً لأنه انقطع إلى الله في كل حال. وقيل الخلة الاختصاص والاصطفاء وسمي إبراهيم خليلاً لأنه والى في الله وعادى في الله وقيل لأنه تخلّق بأخلاق حسنة وخلالٍ كريمة وقيل الخليل المحب الذي ليس في محبته خلل وسمي إبراهيم خليل الله لأنه أحبه محبة كاملة ليس فيها نقص ولا خلل وأنشد في معنى الخلة التي هي بمعنى المحبة:

قــد تخللــت مسلــك الــروح منــي وبـــه سمـــي الخليـــل خليـــلا

وقيل الخليل من الخلة بفتح الخاء وهي الحاجة سميت خلة للاختلال الذي يلحق الإنسان فيها وسمي إبراهيم خليلاً لأنه جعل فقره وفاقته وحاجته إلى الله تعالى. وخلة الله للعبد هي تمكينه من طاعته وعصمته وتوفيقه وستر خلله ونصره والثناء عليه فقد أثنى الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام وجعله إماماً للناس يقتدى به.

مُسلماً مُخلصاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومن دين إبراهيم الصلاة إلى الكعبة والطواف بها ومناسك الحج، وإنّما خُصّ بها إبراهيم لأنه كان مقبولاً عند الأمم أجمع، وقيل: لأنه بُعث على ملّة إبراهيم وزيدت له أشياء. ﴿ واتَّخذ اللَّهُ إبراهيمَ خليلاً ﴾، صفيّاً، والخِلّة: صفاء المودّة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان، وكان منزله على ظهر الطّريق يضيف مَن مرَّ به من الناس، فأصاب الناسَ سَنَةٌ فحُشروا إلى باب إبراهيم عليه السلام يطلبون الطعامَ وكانت الميرة كل سنة من صديق له بمصر، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي بمصر، فقال خليله لغلمانه: لو كان إبراهيم عليه السلام إنما يريده لنفسه لاحتمالنا ذلك له، فقد دخل علينا ما دخل على الناس من الشدّة، فرجع رُسل إبراهيم عليه السلام، فمرّوا ببطحاء سهلة فقالوا فيما بينهم: لو أنّا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنّا قد جئنا بميرة، فإنّا نستحي أن نمرّ بهم وإبلنا فارغة، فملؤوا تلك الغرائر سهلة، ثم أتوا إبراهيم فأعلموه وسارة نائمة، فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه، فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار، فقالت: سبحان الله ما جاء الغلمان؟ قالوا: بلى، قالت: فما جاؤوا بشيء؟

واختلفوا في السبب الذي من أجله اتخذ الله إبراهيم خليلاً فقال ابن عباس كان إبراهيم ﷺ أبا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مر به من الناس فأصاب الناس شدة قحط فقصد الناس باب إبراهيم يطلبون منه الطعام، وكانت الميرة تأتيه من صديق له بمصر فبعث إبراهيم غلمانه إلى خليله الذي بمصر فقال خليله لغلمان إبراهيم لو كان إبراهيم يريد إنماء الطعام لنفسه احتملنا ذلك له وقد دخل علينا مثل ما دخل على الناس من الشدة فرجع غلمان إبراهيم بغير طعام فمروا ببطحاء من الرمل سهلة فقالوا لو حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بالميرة فإنا نستحي أن نمر بهم وإبلنا فارغة فملؤوا من ذلك الرمل الغرائر التي معهم ثم أتوا إلى أبراهيم ﷺ فأعلموه وسارة نائمة فاهتم لذلك ولمكان الناس ببابه فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله ما جاء الغلمان قالوا بلى قالت فجاؤوا بشيء قالوا نعم فقامت إلى الغرائر ففتحتها فإذا هي ملأى بأجود دقيق يكون حواري فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس فاستيقظ إبراهيم فوجد ريح الطعام فقال يا سارة من أين لكم هذا؟ فقالت من عند خليلك المصري فقال هذا من عند خليلي الله قال فيومئذ اتخذه الله خليلاً وقيل لما أراه الله ملكوت السموات والأرض وحاج قومه في الله ودعاهم إلى توحيده ومنعهم من عبادة النجوم والشمس والقمر والأوثان وبذل نفسه للإلقاء في النيران وبذل ولده للقربان وماله للضيفان اتخذه الله خليلاً وجعله إماماً للناس يقتدى به وجعل النبوة فيه وفي ذريته وقيل إن إبراهيم عليه السلام لما كسر الأصنام وعادى قومه في الله عز وجل اتخذه الله خليلاً وقيل لما دخل عليه الملائكة فظنهم ضيفاً فقرب إليهم عجلاً مشوياً وقال كلوا على شرط أن تسموا الله في أوله وتحمدوه في آخره فقال جبريل أنت خليل الله فمن يومئذ سمي إبراهيم خليل الله (م) عن أنس قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا خير البرية فقال رسول الله ﷺ ذلك إبراهيم خليل الله».

فصل

وقد اتخذ الله محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً فقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً» وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً» أخرجه مسلم؛ فقد ثبت بهذين الحديثين الخلة للنبي ﷺ وزاد على إبراهيم عليه السلام بالمحبة فمحمد ﷺ خليل الله وحبيبه فقد جاء في حديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر» أخرجه الترمذي بأطول منه. قوله تعالى: .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ

قالوا: بلى، فقامت إلى الغرائر ففتحتها فإذا هي ملأى بأجودِ دَقيق حَوَارٍ يكون، فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناسَ فاستيقظ إبراهيم فوجد ريح الطعام، فقال: يا سارة من أين هذا؟ قالت: من عند خليلك المصري، فقال: هذا من عند خليلي الله، قال: فيومئذٍ اتخذ الله إبراهيم خليلاً. قال الزجّاج: معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل، والخلّة: الصداقة، فسُمّي خليلاً لأنّ الله أحبّه واصطفاه. وقيل: هو من الخلّة وهي الحاجة، سُمّي خليلاً، أي: فقيراً إلى الله لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلاّ إلى الله عزّ وجلّ، والأول أصحّ لأن قوله: ﴿ واتخذ اللَّهُ إبراهيمَ خليلاً ﴾ يقتضي الخلّة من الجانبين، ولا يتصور الحاجة من الجانبين. ثنا أبو المظفر بن أحمد التيمي ثنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم ثنا خيثمة بن سليمان بن حيضرة الأطرابلسي ثنا أبو قلابة الرقاشي ثنا بشر بن عمر ثنا شعبة عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كُنتُ متّخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ولكنّه أخي وصاحبي، ولقد اتّخذ اللَّهُ صاحبَكم خليلاً».

ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ قال أهل المعاني: لما دعا الله الخلق إلى طاعته وعبادته والانقياد لأمره بيّن سعة ملكه ليرغب الخلق إليه بالطاعة له. وإنما قال ما في السموات وما في الأرض ولم يقل من لأنه ذهب به مذهب الجنس والذي يعقل إذا ذكر وأريد به الجنس ذكر بلفظة ما ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ يعني عالماً علم إحاطة وهو العلم بالشيء من كل وجه حتى لا يشذ عنه نوع إلا علمه وقيل يجوز أن يكون معناه محيطاً بالقدرة عليه. قوله عز وجل: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ الآية. قال ابن عباس: نزلت في بنات أم كحة وقد تقدمت قصتهن في أول السورة وقالت عائشة هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وهو وليها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنّة صداقها وإذا كانت غير مرغوب فيها لقلة الجمال والمال تركها، وفي رواية قالت هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وقد شركته في ماله فيرغب عنها فلا يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه ويشركه في ماله فيحبسها حتى تموت فنهاهم الله عن ذلك وأنزل هذه الآية فقال ويستفتونك يعني ويستخبرونك يا محمد في شأن النساء وحالهن والاستفتاء طلب الفتوى وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه قال المفسرون والذي استفتوه فيه هو ميراث النساء وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد فلما نزلت آية الميراث قالوا: يا رسول الله كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية: ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ يعني قل يا محمد الله يفتيكم في شأن النساء وحالهن ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ يعني يفتيك فيما يتلى عليكم والمعنى أن الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ والغرض منه تعظيم حال هذه الآية التي تتلى عليكم وأنها في اللوح المحفوظ وأن العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى التي تجب مراعاتها وأن المخل بها ظالم ﴿في يتامى النساء﴾ قيل معناه في النساء اليتامى وقيل في اليتامى أولاد النساء، لأن الآية نزلت في يتامى أم كحة ﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ يعني ما فرض لهن من الميراث وهذا على قول من يقول إن الآية نازلة في ميراث اليتامى والصغار وعلى القول الآخر معناه ما كتب لهن من الصداق ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ يعني وترغبون في نكاحهن لمالهن

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولِلَّهِ مَا في السمٰواتِ ومَا في الأرضِ وكانَ اللَّهُ بكلِّ شيءٍ مُحيطاً ﴾ أي: أحاط علمهُ بجميع الأشياء.

قوله تعالى: ﴿ ويَسْتَفْتُونَكَ في النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُم فيهنّ ﴾، الآية. قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في بنات أم كُحّة وميراثهنّ عن أبيهنّ وقد مضت القصة في أول السورة، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي اليتيمة تكون في حجر الرجل، وهو وليّها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سُنّة صَداقها، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلّة المال والجمال تركها، وفي رواية هي اليتيمة تكون في حجر الرجل قد شركته في ماله فيرغب أن يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوّجها غيره فيدخل عليه في ماله فيحبسها حتى تموت فيرثها، فنهاهم الله عن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويستفتونك ﴾ أي: يستخبرونك في النساء، ﴿ قل الله يُفتيكم فيهنّ ﴾، ﴿ وما يتلى عليكم في الكتاب ﴾، قيل: معناه ويفتيكم في ما يُتلى عليكم، وقيل: يريد الله أن

وجمالهن بأقل من صداقهن وقيل معناه وترغبون عن نكاحهن لقبحهن ودمامتهن وتمسكوهن رغبة في أموالهن (ق) عن عائشة قالت هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن ينقص صداقها فنهوا عن تكاحهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة رضي الله عنها فاستفتى الناس رسول الله ﷺ بعد ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿يستفتونك في النساء﴾ إلى قوله: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ فبين لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها في إكمال الصداق وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها قال فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى من الصداق. وقوله تعالى: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ يعني ويفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار أن تعطوهم حقوقهم لأن العرب في الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار أيضاً فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم حقهم من الميراث ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ يعني بالعدل في مهورهن ومواريثهن ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ يعني فيجازيكم عليه. قوله تعالى:

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ (ق) عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ قالت نزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد طلاقها ويتزوج غيرها فتقول له امسكني لا تطلقني ثم تزوج غيري وأنت في حل من النفقة عليّ والقسمة لي قالت فذلك قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ وقيل نزلت في عمرة بنت محمد بن مسلمة ويقال اسمها خولة وفي زوجها سعد بن الربيع ويقال له رافع بن خديج تزوجها وهي شابة فلما كبرت تزوج عليها امرأة أخرى شابة وآثرها عليها وجفا الأولى فأتت ابنة محمد بن مسلمة تشكو زوجها إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية. وقيل كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على أولادي واقسم لي

يفتيكم فيهنّ وكتابه يفتيكم فيهنّ، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ وآتوا اليتامَى أموالَهم ﴾ [النساء: ٢]، قوله: ﴿ في يتامى النساء ﴾، هذا إضافة الشيء إلى نفسه لأنه أراد باليتامى النساء، ﴿ اللاتي لا تُؤتُونهنّ ﴾، أي: لا تعطونهنّ، ﴿ ما كتبَ لهنّ ﴾، من صداقهنّ، ﴿ وترغبون أن تَنْكِحُوهُنّ ﴾، أي في نِكَاحهنّ لِمَالِهِنّ وجمالِهِنّ بأقل من صداقهنّ، وقال الحسن وجماعة أراد لا تؤتونهنّ حقّهنّ من الميراث لأنهم كانوا لا يرثون النساءَ، وترغبون أن تنكحوهنّ، أي: عن نكاحهنّ لدمامتهنّ، ﴿ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الولدانِ ﴾ يريد: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار، أن تعطوهم حُقوقهم لأنهم كانوا لا يُورِّثون الصغار، يريد ما يُتلى عليكم في باب اليتامى من قوله: ﴿ وآتُوا اليتامَى أموالَهم ﴾ [النساء: ٢] يعني بإعطاء حقوق الصغار، ﴿ وأنْ تَقُومُوا لليتَامَى بالقِسْطِ ﴾، أي: ويفتيكم في أنْ تقُوموا لليتامى بالقسط بالعدل في مُهورهنّ ومواريثهنّ، ﴿ وما تفعلُوا مِنْ خيرٍ فإنّ اللّهَ كانَ بهِ عليماً ﴾، يُجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿ وإن امْرَأةٌ خافتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أو إعْرَاضاً ﴾ الآية، نزلت في عمرة ويُقال في خولة بنت محمد بن مسلمة، وفي زوجها سعد بن الربيع، ويقال رافع بن خديج تزوجها وهي شابّة فلما علاها الكِبَر تزوّج عليها امرأة شابّة، وآثرها عليها وجفا ابنة محمد بن مسلمة، فأتتْ رسولَ الله ﷺ فشكت إليه فنزلت فيها هذه الآية، وقال سعيد بن جبير: كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلّقها ويتزوج عليها غيرها، فقالت: لا

كل شهرين إن شئت وإن شئت فلا تقسم لي فقال إن كان يصلح ذلك فهو أحب إليّ فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله هذه الآية: ﴿وإن امرأة خافت﴾ يعني علمت وقيل ظنت وقيل بل المراد نفس الخوف لأن الخوف لا يحصل إلا عند ظهور الأمارات الدالة على وقوعه من بعلها يعني من زوجها. والبعل هو السيد وسمي الزوج بعلاً لأنه سيد المرأة. نشوزاً يعني بغضاً وقيل هو ترك مضاجعتها وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض والنشوز قد يكون من الزوجين وهو أن يكره كل واحد منهما صاحبه فنشوز الزوج هو أن يعرض عن المرأة. وهو قوله تعالى: ﴿أو إعراضاً﴾ يعني بوجهه عنها أو يعبس في وجهها أو يترك مضاجعتها أو يسيء عشرتها أو يشتغل بغيرها وقيل المراد من النشوز إظهار الخشونة في القول والفعل والمراد من الإعراض السكوت عن الخير والشر والإيذاء بل يعرض عنها بوجهه أو يشتغل بغيرها ﴿فلا جناح عليهما﴾ يعني فلا حرج ولا إثم على الزوج والمرأة ﴿أن صح﴾ من المصالحة، وقرىء أن يصلحا بضم الياء وكسر اللام من الإصلاح ﴿بينهما صلحاً﴾ يعني في القسمة والنفقة وهو أن يقول الزوج للمرأة: إنك قد كبرت ودخلت في السن، وأنا أريد أن أتزوج امرأة جميلة شابة أوثرها عليك في القسمة ليلاً ونهاراً فإن رضيت فأقيمي وإن كرهت ذلك فارقتك وخليت سبيلك فإن رضيت بذلك كانت هي المحسنة ولا تجبر على ذلك وإن لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها بإحسان وإن أمسكها ووفاها حقها مع الكراهة لها كان هو المحسن قال ابن عباس: فإن صالحته على بعض حقها من القسمة والنفقة جاز وإن أنكرت ذلك بعد الصلح كان ذلك لها ولها حقها ﴿والصلح خير﴾ يعني إقامتها بعد تخييره إياها والمصالحة على ترك بعض حقها من القسم والنفقة خير من الفرقة عن ابن عباس قال: «خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة ففعل فنزلت ـ ﴿فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ ـ فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز» أخرجه الترمذي وقال

تطلقني ودعني أقوم على أَوْلادي وأَقْسِمْ لي من كل شهرين إن شئت، وإن شئت فلا تَقْسِم لي، فقال: إن كان يصلح ذلك فهو أحبّ إليّ فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿ وإنِ امرأةٌ خافتْ ﴾ أي علمتْ ﴿ من بعلها ﴾، أي: من زوجها ﴿ نشوزاً ﴾ أي: بُغضاً، قال الكلبي: يعني تركَ مضاجعتَها، أو إعراضاً بوجهه عنها وقلّة مجالستها، ﴿ فلا جُناحَ عليهما ﴾، أي: على الزوج والمرأة، ﴿ أنْ يُصلحا ﴾ أي: يتصالحا، وقرأ أهل الكوفة (أنْ يُصْلِحَا) من الإصلاح، ﴿ بينهما صُلحاً ﴾ يعني: في القِسْم والنفقة، وهو أن يقول الزوج لها، إنّك قد دخلت في السنّ وإني أُريد أن أتزوج امرأة شابّة جميلةٍ أُوْثرها عليك في القسمة ليلاً ونهاراً فإن رضيتِ بهذا فأقيمي وإن كرهتِ خَلّيتُ سبيلك، فإن رضيتْ كانتْ هي المحسنة ولا تُجبر على ذلك، وإن لم ترضَ بدون حقها كان على الزوج أن يوفّيها حقّها من القِسْم والنفقة أو يسرّحها بإحسان، فإن أمسكها ووفّاها حقّها مع كراهية فهو مُحسن، وقال سليمان بن يسار في هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما: فإن صالحته عن بعض حقّها من القِسْم والنفقة فذلك جائز ما رضيت، فإن أنكرته بعد الصلح فذلك لها ولها حقها، وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية: هو أن الرجل يكون تحته المرأة الكبيرة فيتزوج عليها الشابّة، فيقول للكبيرة: أعطيتُكِ من مالي نصيباً على أن أقسم لهذه الشابّة أكثر مما أَقْسِمُ لك فترضَى بما اصطلحا عليه، فإن أبتْ أن ترضى فعليه أن يَعْدِلَ بينهما في القِسْم. وعن عليّ رضي الله عنه في هذه الآية قال: تكون المرأة عند الرجل فتنبُو عينُه عنها من دمامة أو كبر فتكره فرقته، فإن أعطته من مالها فهو له حلّ وإن أعطته من أيامها فهو حلٌّ له، ﴿ والصّلْحُ خَيْر ﴾ يعني: إقامتها بعد تخييره إيّاها والمصالحة على ترك بعض حقّها من القسم والنفقة، خير من الفرقة كما يُروَى أنّ سودة رضي الله عنها كانت امرأة كبيرة وأراد النبي ﷺ أنْ يُفارقها، فقالتْ: لا تطلقني وكفاني أنْ أُبعث في نسائك وقد جعلتُ نوبتي لعائشة رضي الله عنها

حديث حسن غريب، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ الشح أقبح البخل، وحقيقته الحرص على منع الخير، وإنما قال: وأحضرت الأنفس الشح لأنه كالأمر اللازم للنفوس لأنها مطبوعة عليه، ومعنى الآية أن كل واحد من الزوجين يشح بنصيبه من الآخر فالمرأة تشح على مكانها من زوجها والرجل يشح عليها بنفسه إذا كان غيرها أحب إليه منها ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ هذا خطاب للأزواج يعني وإن تحسنوا أيها الأزواج الصحبة والعشرة وتتقوا الله في حق المرأة فإنها أمانة عندكم وقيل معناه وإن تحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتتقوا ظلمها والجور عليها. ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ يعني فيجازيكم بأعمالكم قوله عز وجل: .

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ يعني ولن تقدروا أن تسووا بين النساء في الحب وميل القلب لأن ذلك مما لا تقدرون عليه وليس من كسبكم ﴿ولو حرصتم﴾ يعني على العدل والتسوية بينهن وقيل معناه ولو حرصتم على ذلك ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ يعني إلى التي تحبونها في القسم والنفقة والمعنى أنكم لستم منهيين عن حصول التفاوت في الميل القلبي لأن ذلك خارج عن قدرتكم ووسعكم ولكنكم منهيون عن إظهار ذلك الميل في القول والفعل عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط» أخرجه الترمذي وعند أبي داود «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» وعن عائشة قالت «كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل فيقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك يعني القلب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقوله تعالى: ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ يعني فتدعوا الأخرى التي لا تميلون إليها كالمعلقة لا أيماً ولا ذات بعل كالشيء المعلق لا هو في السماء ولا على الأرض. وقيل معناه فتذورها

فأمسكها رسول الله ﷺ، وكان يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة رضي الله عنها. قوله تبارك وتعالى: ﴿ وأحضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ ﴾، يريد: شُحَّ كلٍّ واحد من الزوجين بنصيبه من الآخر، والشُّح: أقبح البخل، وحقيقتُه: الحرص على منع الخير، ﴿ وإنْ تُحْسِنُوا ﴾، أي: تصلحوا ﴿ وتَتَّقُوا ﴾، الجورَ، وقيل: هذا خطاب مع الأزواج، أي: وإنْ تُحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتتّقوا ظُلمَها ﴿ فإنَّ اللَّهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً ﴾، فيجزيكم بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿ ولنْ تستطيعوا أنْ تعدِلُوا بينَ النِّساء ﴾، أي: لن تقدروا أن تُسووا بين النساء في الحب وميل القلب، ﴿ ولو حرصتُم ﴾ على العدل، ﴿ فلا تميلوا ﴾، أي: إلى التي تُحبّونها، ﴿ كلَّ الميلِ ﴾ في القِسْم والنَّفقة، أي: لا تُتبعُوا أهواءَكم أفعالَكم، ﴿ فَتَذَرُوها كالمُعلَّقةِ ﴾، أي فَتَدعُوا الأخرى كالمعلّقة لا أيِّماً ولا ذاتَ بعل. وقال قتادة: كالمحبوسة، وفي قراءة أُبيّ بن كعب: كأنها مسجونة. ورُوِيَ عن أبي قلابة أنّ النبي ﷺ كان يُقْسِمُ بين نسائه، فيعدل ويقول: «اللهمَّ هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تَلُمْنِي فيما تَمْلِكُ ولا أملك»، ورواه بعضهم عن أبي قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة رضي الله عنها مُتصلاً. ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانتْ له امرأتان فمالَ إلى إحداهما جاءَ يومَ القيامةِ وشَقُّه مائل». ﴿ وإنْ تُصْلِحُوا وتَتَّقُوا ﴾، الجورَ، ﴿ فإنَّ اللَّهَ كانَ غفوراً رحيماً ﴾.

كالمسجونة لا هي مخلصة فتتزوج ولا هي ذات بعل فيحسن إليها ﴿وإن تصلحوا﴾ يعني بالعدل في القسم ﴿وتتقوا﴾ يعني الجور في القسم ﴿فإن الله كان غفوراً﴾ يعني لما حصل من الميل إلى بعضهن دون بعض ﴿رحيماً﴾ يعني بكم حيث لم يكلفكم ما لا تقدرون عليه ﴿وإن يتفرقا﴾ يعني إن لم يصطلحا وأرادا الفرقة ﴿يغن الله كلاً من سعته﴾ يعني من فضله ورزقه والمعنى يغني الزوج بامرأة أخرى والمرأة بزوج آخر. وقيل معناه يعوض الزوج بما يحب والمرأة بما تحب ويوسع عليهما وفي هذا تسلية لكل واحد من الزوجين بعد الطلاق ﴿وكان الله واسعاً﴾ يعني واسع الفضل والرحمة وقيل واسع القدرة والعلم والرزق وقيل هو الغني الذي وسع جميع مخلوقاته غناه ﴿حكيماً﴾ يعني فيما أمر به ونهى عنه.

فصل فيما يتعلق بحكم الآية

وجملته أن الرجل إذا كان تحته امرأتان أو أكثر يجب عليه التسوية بينهن في القسم فإن ترك التسوية بينهن في فعل القسم عصى الله عز وجل في ذلك وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرك في البيتوتة أما في الجماع فلا لأن ذلك يدور على النشاط وميل القلب وليس ذلك إليه ولو كان في نكاحه حرة وأمة قسم للحرة ليلتين وللأمة ليلة واحدة. وإذا تزوج جديدة على قديمات كن عنده فإنه يخص الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال إن كانت الجديدة بكراً وإن كانت ثيباً خصها بثلاث ليال ثم إنه يستأنف القسم ويسوي بينهن ولا يجب عليه قضاء عوض هذه الليالي للقديمات ويدل على ذلك ما روى أبو قلابة عن أنس قال: «من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً وقسم وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً وقسم» قال أبو قلابة ولو شئت لقلت إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ أخرجاه في الصحيحين. وإذا سافر الرجل إلى سفر حاجة جاز له أن يحمل معه بعض نسائه بشرط أن يقرع بينهن ولا يجب عليه أن يقضي للباقيات عوض مدة سفره وإن طالت إذا لم يزد مقامه في البلد على مدة المسافرين ويدل على ذلك

﴿ وإنْ يَتفرَّقَا ﴾، يعني: الزوج والمرأة بالطلاق، ﴿ يُغْنِ اللَّهُ كلاً مِنْ سَعَتِهِ ﴾، من رزقه، يعني: المرأة بزوج آخر والزوج بامرأة أُخرى، ﴿ وكَانَ اللَّهُ واسعاً حكيماً ﴾، واسعَ الفضل والرحمة حكيماً فيما أمر به ونهى عنه، وجملةُ حُكم الآية: أنّ الرجل إذا كانت تحته امرأتان أو أكثر فإنه يجب عليه التسوية بينهنّ في القِسْم، فإن ترك التسوية بينهنّ في فعل القِسْم عصى الله تعالى، وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرط في البينونة، أما في الجماع فلا، لأنه يدور على النشاط وليس ذلك إليه ولو كانت في نكاحه حُرَّةٌ وأَمَةٌ فإنه يبيت عند الحرّة ليلتين وعند الأمَةِ ليلة واحدة، وإذا تزوج جديدة على قديمات عنده يخصّ الجديد بأن يبيت عندها سبع ليالٍ على التوالِ إن كانت بكراً، وإن كانت ثيّباً فثلاث ليالٍ ثم يُسوّي بعد ذلك بين الكل، ولا يجب قضاء هذه الليالي للقديمات. أخبرنا عبد الواحد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن راشد ثنا أبو أسامة ثنا سفيان الثّوري ثنا أيوب وخالد عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: مِنَ السُّنّة إذا تزوجَ البكر على الثيب أقام عندها سبعاً، ثم قَسَمَ وإذا تزوج الثّيب أقام عندها ثلاثاً، ثم قسم. قال أبو قلابة: ولو شئتُ لقلتُ: إن أنساً رفعه إلى النبي ﷺ. وإذا أراد الرجل سفرَ حَاجةٍ فيجوز له أن يحمل بعض نسائه مع نفسه بعد أن يُقرع بينهنّ فيه، ثم لا يجب عليه أن يقضي للباقيات مدة سفره، وإن طالت إذا لم يزد مقامه في بلده على مدة المسافرين، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع ثنا الشافعي ثنا عمّي محمد بن علي بن شافع عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد السفرَ أقرعَ بين نسائه فأيتهُنّ خرج سهمُها خرج بها، أما إذا أراد سفر نقلة فليس له تخصيص بعضهنّ لا بالقرعة ولا بغيرها».

ما روى عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه». أخرجه البخاري مع زيادة فيه. وإذا أراد الرجل سفر نقلة وجب عليه أخذ نسائه معه. قوله تعالى: .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني عبيداً وملكاً قال أهل المعاني لما ذكر الله تعالى أنه يغني من سعته وفضله أشار إلى ما يوجب الرغبة إليه في طلب الخير منه لأن من ملك السموات والأرض لا تفنى خزائنه ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ يعني من اليهود والنصارى وأصحاب الكتب القديمة ﴿وإياكم﴾ يعني ووصيناكم يا أهل القرآن في كتابكم ﴿أن اتقوا الله﴾ أي بأن تتقوا الله وهو أن توحدوه وتطيعوه وتحذروه ولا تخالفوا أمره والمعنى أن الأمر بتقوى الله شريعة قديمة أوصى الله بها جميع الأمم السالفة في كتبهم ﴿وإن تكفروا﴾ يعني وإن تجحدوا ما أوصاكم به ﴿فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني فإن لله ملائكة في السموات والأرض هم أطوع له منكم. وقيل معناه أن الله تعالى خالق السموات والأرض وما فيه ومالكهن، والمنعم عليهم بأصناف النعم ومن كان كذلك فحق لكل أحد أن يتقيه ويرجوه ﴿وكان الله غنياً﴾ يعني عن جميع خلقه غير محتاج إليهم ولا إلى طاعتهم ﴿حميداً﴾ يعني محموداً على نعمه عليهم ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ قال ابن عباس يعني شهيداً على أن له فيهن عبيداً وقيل معناه وكفى بالله دافعاً ومجيراً. فإن قلت ما الفائدة في تكرير قوله تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ قلت الفائدة في ذلك أن لكل آية معنى تخص به، أما الآية الأولى فمعناها فإن لله ما في السموات وما في الأرض وهو يوصيكم بتقوى الله فاقبلوا وصيته وقيل لما قال تعالى: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته﴾ بيّن أن له ما في السموات وما في الأرض وأنه قادر على إغناء جميع الخلائق وهو المستغني عنهم. وأما الآية الثانية فإنه تعالى قال: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ والمراد أنه تعالى منزه عن طاعات الطائعين وعن ذنوب المذنبين وأنه لا يزداد جلاله بالطاعات ولا ينقص بالمعاصي. وقيل لما بين أن له ما في السموات وما في الأرض وقال بعد ذلك: ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ فالمراد منه أنه تعالى هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون فهو يعطيكم لأن له ما في السموات وما في الأرض. وأما

قوله تعالى: ﴿ ولِلَّهِ مَا في السّمواتِ وما في الأرض ﴾ عبيداً ومُلكاً ﴿ ولقدْ وصّينا الذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قبلِكُمْ ﴾، يعني: أهل التوراة والإنجيل وسائر الأمم المتقدمة في كتبهم، ﴿ وإيّاكم ﴾ يا أهل القرآن في القرآن، ﴿ أنِ اتقُوا اللّهَ ﴾ أي: وحّدُوا اللّهَ وأطيعوه، ﴿ وإن تَكْفُرُوا ﴾، بما أوصاكم الله به ﴿ فإنَّ للّهِ ما في السّمواتِ وما في الأرض ﴾، قيل: فإن لله ملائكة في السمٰوات والأرض وهي أطوع له منكم، ﴿ وكان اللّهُ غنياً ﴾، عن جميع خلقه غير محتاج إلى طاعتهم، ﴿ حميداً ﴾ محموداً على نعمه.

﴿ ولِلّهِ مَا في السمٰواتِ وما في الأرضِ وكفى باللّهِ وكيلاً ﴾، قال عكرمة عن ابن عباس: يعني شهيداً أن فيها عبيداً، وقيل: دافعاً ومُجيراً، فإن قيل: فأيّ فائدة في تكرار قوله تعالى: ﴿ لله ما في السمٰواتِ وما في الأرض ﴾؟ قيل: لكلٍّ واحد منهما وجه، أمّا الأول: فمعناه لله ما في السمٰوات وما في الأرض وهو يُوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيّته، وأمّا الثاني فيقول: فإن لله ما في السمٰوات وما في الأرض وكان الله غنيّاً أي: هو الغني وله

الثالثة فقال تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ أي فتوكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره فإنه المالك لما في السموات والأرض. وقيل تكريرها تعديدها لما هو موجب تقواه لتتقوه وتطيعوه ولا تعصوه لأن التقوى والخشية أصل كل خير.

قوله عز وجل: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس﴾ قال ابن عباس: يريد المشركين والمنافقين ﴿ويأت بآخرين﴾ بغيركم هم خير منكم وأطوع له ففيه تهديد للكفار والمعنى أنه يهلككم أيها الكفار كما أهلك من كان قبلكم، إذ كفروا به وكذبوا رسله ﴿وكان الله على ما ذلك قديراً﴾ يعني وكان الله على ذلك الإهلاك وإعادة غيركم قادراً بليغاً في القدرة لا يمتنع عليه شيء أراده لم يزل ولا يزال موصوفاً بالقدرة على جميع الأشياء. قوله تعالى:.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)﴾

﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ يعني من كان يريد بعمله عرضاً من الدنيا نزلت في مشركي العرب وذلك أنهم كانوا يقرون بالله تعالى خالقهم ولا يقرون بالبعث يوم القيامة فكانوا يقربون إلى الله ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها وقيل نزلت في المنافقين لأنهم كانوا لا يصدقون بيوم القيامة، وإنما كانوا يطلبون بجهادهم مع رسول الله ﷺ عاجل الدنيا وهو ما ينالونه من الغنيمة ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ يعني الذين يطلبون بأعمالهم وجهادهم ثواب الدنيا وما ينالونه من الغنيمة مخطئون في قصدهم لأن الله عنده ثواب الدنيا وثواب الآخرة فلو كانوا عقلاء لطلبوا ثواب الآخرة حتى يحصل لهم ذلك ويحصل لهم ثواب الدنيا على سبيل التبعية والمعنى أن من أراد بعمله الدنيا آتاه الله منها ما أراد وصرف عنه من شرها ما أراد وليس له ثواب في الآخرة يجزى به، ومن أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة فعند الله ثواب الدنيا والآخرة يؤتيه من الدنيا ما قدر له ويجزيه في الآخرة خير الجزاء ﴿وكان الله سميعاً﴾ يعني لأقوالهم وما يسرونه من طلب ثواب الدنيا ﴿بصيراً﴾ يعني بنياتهم وما في نفوسهم وقيل بصيراً بمن يطلب الدنيا بعمله وبمن يطلب الآخرة بعمله. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط

المُلك فاطلبوا منه ما تطلبون، وأمّا الثالث فيقول: ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي: له الملك فاتخذوه وكيلاً ولا تتوكلوا على غيره.

قوله تعالى: ﴿ إنْ يَشأْ يُذْهِبْكم ﴾، يُهلككم ﴿ أيها النَّاسُ ﴾، يعني: الكفّار، ﴿ ويَأْتِ بآخَرينَ ﴾، يقول: بغيركم خير منكم وأطوع، ﴿ وكانَ اللَّهُ على ذلكَ قديراً ﴾ قادراً.

﴿ مَنْ كانَ يُريدُ ثَوابَ الدنيا فَعِنْدَ اللَّهِ ثوابُ الدّنيا والآخِرَةِ ﴾ يُريد مَن كان يريد بعمله عَرَضاً من الدنيا، ولا يريد بها اللَّهَ عزّ وجلّ آتاه الله من عَرَضِ الدنيا أو دفع عنه فيها ما أراد الله، وليس له في الآخرة من ثواب، ومَن أراد بعمله ثواب الآخرة آتاه الله من الدنيا ما أحبّ وجزاه الجنة في الآخرة. قوله تعالى: ﴿ وكانَ اللَّهُ سميعاً بصيراً ﴾.

﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهداءَ للَّهِ ﴾، يعني: كونوا قائمين بالشهادة بالقسط، أي: بالعدل

شهداء لله﴾ قال السدي إن فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي ﷺ فكان صغوه مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغني فأنزل الله هذه الآية وأمر بالقيام بالقسط مع الغني والفقير وقيل إن هذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق فهي خطاب لقومه الذين جادلوا عنه وشهدوا به بالباطل، فأمرهم الله تعالى أن يكونوا قائمين بالقسط شاهدين لله على كل حال ولو على أنفسهم وأقاربهم فقال تعالى: **﴿كونوا قوامين بالقسط﴾** القوام مبالغة في القيام بالعدل في جميع الشهادات واجتناب الجور فيها قال ابن عباس كونوا قوامين بالعدل في جميع الشهادات على من كانت شهداء لله يعني أقيموا شهادتكم لوجه الله كما أمركم فيها فيقول الحق في شهادته **﴿ولو على أنفسكم﴾** يعني ولو كانت الشهادة على أنفسكم أمر الله العبد أن يشهد على نفسه بالحق وهو أن يقر على نفسه وذلك الإقرار يسمى شهادة في كونه موجباً للحق عليه **﴿أو الوالدين والأقربين﴾** يعني ولو كانت الشهادة على الوالدين والأقربين من ذوي رحمه أو أقاربه والمعنى قولوا الحق ولو على أنفسكم أو على الوالدين أو الأقارب فأقيموا الشهادة عليهم لله تعالى ولا تحابوا غنياً لغناه ولا ترحموا فقيراً لفقره فذلك قوله تعالى: **﴿إن يكن﴾** يعني المشهود عليه **﴿غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾** يعني منكم والمعنى كلوا أمرهم إلى الله تعالى فهوأ علم بهم وبحالهم وإنما قال بهما على التثنية لأن رد الضمير إلى المعنى دون اللفظ يعني فالله أولى بالغني والفقير **﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾** يعني فلا تتبعوا الهوى واتقوا الله أن تعدلوا عن الحق في أداء الشهادة وقيل معناه اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل، لأن العدل عبارة عن ترك متابعة الهوى **﴿وإن تلووا﴾** قرىء بواوين ومعناه أن يلوي الشاهد لسانه إلى غير الحق قال ابن عباس يلوي لسانه بغير الحق ولا يقيم الشهادة على وجهها **﴿أو تعرضوا﴾** يعني أو يعرض الشاهد عن الشهادة فيكتمها ولا يقيمها يقال لويته حقه إذا دفعته عنه ومطلته به، وقيل معناه وإن تلووا عن القيام بأداء الشهادة أو تعرضوا عنها فتتركوها وقيل معناه التحريف والتبديل في الشهادة من قولهم لويت الشيء إذا قبلته وقيل هو خطاب مع الحكام يقول وإن تلووا يعني تميلوا مع أحد الخصمين دون الآخر أو تعرضوا عنه بالكلية وقرىء تلوا بواو واحدة من الولاية فهو خطاب للحكام أيضاً ومعناه فلا تلوا أمور المسلمين وتضيعوهم أو تعرضوا عنهم **﴿فإن الله**

لله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كونوا قوّامين بالعدل في الشهادة على مَن كانت له، **﴿ ولو على أنفسِكُم أو الوَالِدَين والأقْرَبين ﴾ في الرحم**، أي: **قُولُوا الحقَّ** ولو على أنفسكم بالإقرار أو الوالدين والأقربين، **فأقيموها عليهم لله، ولا تُحابوا غنياً** لغناه ولا ترحموا فقيراً لفقره، فذلك قوله تعالى: **﴿ إنْ يكنْ غنياً أو فقيراً فاللّهُ أوْلَى بهمَا ﴾**، **منكم، أي أقيموا على المشهُود عليه وإن كان غنياً وللمشهود له وإن كان فقيراً فالله أولى بهما منكم، أي كِلُوا أمرَهما إلى الله. وقال الحسن:** معناه الله أعلم بهما، **﴿ فلا تَتَّبِعُوا الهوَى أنْ تَعْدِلُوا ﴾**، أي ولا تجوروا وتميلوا إلى الباطل من الحق، وقيل: معناه لا تتبعوا الهوى لتعدلوا، أي: لتكونوا عادلين كما يقال: لا تتبع الهوى لترضي ربك.

﴿ وإنْ تَلْوُوا ﴾ أي: تحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق **﴿ أو تعرضوا ﴾** عنها فتكتموها ولا تقيموها، ويقال: تلووا أي تدافعوا في إقامة الشهادة، يقال: لَوَيْتَه حقَّه إذا دفعتَه وأبطلتَه، وقيل: هذا خطاب مع الحكّام في ليِّهم الأشداق، يقول: وإن تلووا أي تميلوا إلى أحد الخصمين أو تعرضوا عنه، قرأ ابن عامر وحمزة «تلـوا» بضم اللام، قيل: أصله تلووا، فحذفت إحدى الواوين تخفيفاً، وقيل: معناه وإن تلوا القيام بأداء الشهادة أو تعرضوا فتتركوا أداءَها **﴿ فإنَّ اللّهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ يا أيّها الذينَ آمَنُوا آمِنُوا باللّهِ ورسولِهِ ﴾** الآية، قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأسد وأُسيد بني كعب، وثعلبة بن قيس وسلاّم بن أخت عبد الله بن سلاّم، وسلمة بن أخيه ويامين بن يامين فهؤلاء مُؤمنوا أهل الكتاب أتَوْا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: إنّا نُؤمن بك وبكتابك

كان بما تعملون خبيراً﴾ يعني أنه تعالى يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فيجازيكم بأعمالكم. قوله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾** قال ابن عباس نزلت في عبدالله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبدالله بن سلام وسلمة ابن أخيه ويامين بن يامين فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب أتوا رسول الله ﷺ فقالوا إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل فقال لهم النبي ﷺ: «بل آمنوا بالله وبرسوله محمد والقرآن وبكل كتاب كان قبله» فأنزل الله هذه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** يعني بمحمد والقرآن وبموسى والتوراة آمنوا بالله ورسوله اسم جنس يعني آمنوا بجميع رسله وقيل هو خطاب لأهل الكتاب جميعاً والمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والإنجيل آمنوا بمحمد والقرآن وقيل هو خطاب للمنافقين والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم آمنوا بقلوبكم حتى ينفعكم الإيمان لأن الإيمان باللسان لا ينفع من غير مواطأة القلب وقيل هو خطاب للمؤمنين والمعنى يا أيها الذين آمنوا في الماضي والحال آمنوا في المستقبل ودوموا واثبتوا على الإيمان والكتاب **﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾** يعني القرآن **﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾** يعني وآمنوا بالقرآن وبجميع الكتب الذي أنزلها على أنبيائه قبل القرآن فيكون الكتاب اسم جنس لجميع الكتب **﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾** قوله عز وجل: .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾

﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً﴾ قال ابن عباس نزلت في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم بعد ذلك كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن وقيل إنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعده ثم آمنوا بداود ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، وقيل نزلت في المنافقين وذلك

وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرُّسل، فقال النبي ﷺ: «بل آمِنُوا بالله ورسوله محمد ﷺ، والقرآن وبكل كتاب كان قبله»، فأنزل الله هذه الآية **﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا ﴾** بمحمدٍ ﷺ والقرآن وبموسى عليه السلام والتوراة **﴿ آمِنُوا باللَّهِ ورسولِهِ ﴾** محمد ﷺ، **﴿ والكتابِ الذي نَزّلَ على رسوله ﴾**، يعني القرآن، **﴿ والكتاب الذي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾**، من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو **﴿ نُزّل وأُنزل ﴾** بضمّ النون والألف، وقرأ الآخرون **﴿ نَزّل وأنزل ﴾** بالفتح أي أنزل الله، **﴿ ومَنْ يكفُرْ باللَّهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورُسلِهِ واليومِ الآخر فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً ﴾**، فلما نزلت هذه الآية قالوا: فإنّا نؤمن بالله ورسوله والقرآن وبكل رسولٍ وكتاب كان قبل القرآن، والملائكة واليوم الآخر لا نُفرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، وقال الضحاك: أراد بهم اليهود والنصارى، وقيل: **﴿ يا أيّها الذين آمَنُوا ﴾** بموسى وعيسى **﴿ آمِنُوا ﴾** بمحمدٍ والقرآن، وقال مجاهد: أراد بهم المنافقين، يقول: **﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ﴾** باللسان **﴿ آمِنُوا ﴾** بالقلب. وقال أبو العالية وجماعة: هذا خطاب للمؤمنين، يقول: **﴿ يا أيّها الذين آمَنُوا آمِنُوا ﴾** أي أقيمُوا وأثبتُوا على الإيمان، كما يُقال للقائم: قُمْ حتى أرجع إليك، أي اثبت قائماً، قيل: المراد به أهل الشرك، يعني **﴿ يا أيها الذين آمَنُوا ﴾** باللاّتِ والعُزى **﴿ آمِنُوا ﴾** بالله ورسوله.

قوله تعالى: **﴿ إنّ الذينَ آمَنُوا ثم كَفَرُوا ثمّ آمنُوا ثم كفروا ثم ازْدَادُوا كفراً ﴾**، قال قتادة: هم اليهود آمَنُوا بموسى ثم كفروا من بعد بعبادتهم العجل، ثم آمَنُوا بالتوراة ثم كفروا بعيسى عليه السلام، ثم ازْدَادُوا كفراً

أنهم آمنوا ثم كفروا بعد الإيمان ثم آمنوا يعني بألسنتهم وهو إظهارهم الإيمان لتجري عليهم أحكام المؤمنين ثم ازدادوا كفراً يعني بموتهم على الكفر. وقيل بذنوب أحدثوها في الكفر وقيل هم قوم آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً يعني بموتهم عليه. وذلك لأن من تكرر منه الإيمان بعد الكفر والكفر بعد الإيمان مرات كثيرة يدل على أنه لا وقع للإيمان في قلبه، ومن كان كذلك لا يكون مؤمناً بالله إيماناً صحيحاً وازديادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالإيمان ومثل هذا المتلاعب بالدين هل تقبل توبته أم لا؟ حكي عن علي بن أبي طالب أنه قال لا تقبل توبته بل يقتل وذهب أكثر أهل العلم إلى أن توبته مقبولة. وقوله تعالى: **﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾** يعني ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه وذلك لأن الله تعالى أخبر أنه يغفر الكفر إذا تاب منه بقوله قل للذين كفروا إن ينتهوا يعني عن الكفر يغفر لهم ما قد سلف يعني من كفرهم **﴿ولا ليهديهم سبيلاً﴾** يعني طريق هدى وقيل لا يجعلهم بكفرهم مهتدين. قوله تعالى: **﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾** يعني أخبرهم يا محمد وإنما وضع بشر مكان أخبر تهكماً بهم وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه ساراً كان ذلك الخبر أو غير سار وقيل معناه اجعل موضع بشارتك لهم العذاب لأن العرب يقول تحيتك الضرب أي هذا بدل من تحيتك قال الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل … تحية بينهم ضرب وجيع

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

ثم وصف الله تعالى المنافقين فقال تعالى: **﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾** يعني يتخذون

بمحمد ﷺ. وقيل: هو في جميع أهل الكتاب آمَنوا بنبيّهم ثم كفَرُوا به، وآمَنُوا بالكتاب الذي نُزِّل عليه ثم كفروا به، وكفرهم به تركهم إيّاه ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، وقيل: هذا في قوم مرتدّين آمنوا ثمّ ارتدّوا ثمّ آمنوا ثمّ ارتدّوا ثمّ آمنوا ثمّ ارتدّوا، ومثل هذا هلْ تُقبل توبته؟ حُكي عن علي رضي الله عنه أنه لا تقبل توبته بل يُقتل، لقوله تعالى: **﴿لم يكنِ اللّهُ ليغفرَ لهمْ﴾**، وأكثر أهل العلم على قبول توبته، وقال مجاهد: ثم ازدادوا كفراً أي ماتوا عليه، **﴿لم يكنِ اللّهُ ليغفرَ لهم﴾**، ما أقاموا على ذلك، **﴿ولاَ ليهديهم سَبيلاً﴾** أي طريقاً إلى الحق، فإن قيل: ما معنى قوله: **﴿لمْ يكنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لهم﴾**، ومعلوم أنه لا يغفر الشرك إن كان أول مرّة؟ قيل: معناه أن الكافر إذا أسلم أول مرّة ودام عليه يُغفر له كفرُه السابق، فإن أسلم ثم كفر ثم أسلم ثم كفر لا يُغفر له كفرُه السابق الذي كان، يُغفر له لو دَامَ على الإسلام.

﴿وبَشّرِ المُنَافِقِينَ﴾، أخبرهم يا محمد، **﴿بأنّ لهم عذاباً أليماً﴾**، والبشارة: كل خبر يتغيّر به بشرة الوجه سارّاً كان أو غير سارّ، وقال الزجّاج: معناه اجعل في موضع بشارتك لهم العذاب، كما تقول العرب: تحيّتُك الضرب وعِتَابُك السيف، أي: بدلاً لك من التحية، ثم وصف المنافقين فقال:

﴿الذين يَتَّخِذُونَ الكافرينَ أولياء﴾، يعني: يتخذون اليهودَ أولياءَ وأنصاراً أو بطانة **﴿مِنْ دُونِ المؤمنين﴾**

اليهود أولياء وأنصاراً وبطانة من دون المؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا يقولون إن محمداً لا يتم أمره فيوالون اليهود فقال الله تعالى رداً على المنافقين: ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ يعني يطلبون من اليهود العزة والمعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ يعني فإن القوة والقدرة والغلبة لله جميعاً وهو الذي يعز أولياءه وأهل طاعته كما قال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ﴿وقد نزل عليكم﴾ يا معشر المسلمين ﴿في الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ قال المفسرون الذي أنزل عليهم في النهي عن مجالستهم هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ وهذا أنزله بمكة لأن المشركين كانوا يخوضون في القرآن ويستهزؤون به في مجالسهم ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين وكان المنافقون يجلسون إليهم ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله: ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ يعني يأخذوا في حديث آخر غير الاستهزاء بالقرآن وبمحمد ﷺ قال ابن عباس دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ يعني أنكم يا أيها الجالسون مع المستهزئين بآيات الله إذا رضيتم بذلك فأنتم وهم في الكفر سواء. قال العلماء وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر ومن رضي بمنكر أو خالط أهله كان في الإثم بمنزلتهم إذا رضي به وإن لم يباشره فإن جلس إليهم، ولم يرض بفعلهم بل كان ساخط له وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه أهون من المجالسة مع الرضا وإن جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض في بدعته أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة وقيل لا يجوز بحال والأول أصح ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ أي إنهم اجتمعوا في الدنيا على الاستهزاء بآيات الله وكذلك يجمعهم في عذاب جهنم يوم القيامة قوله عز وجل: ﴿الذين يتربصون بكم﴾ نزلت في المنافقين والمعنى ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر ﴿فإن كان لكم من فتح الله﴾ أي ظفر على عدوكم، وغنيمة تنالونها منهم ﴿قالوا﴾ يعني المنافقين لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ يعني في الوقعة والفتح فأعطونا من الغنيمة وقيل معناه ألم نكن على دينكم وفي الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيباً من الغنيمة ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ أي دولة وظهور على المسلمين

﴿ **أَيَبْتَغُونَ عندَهُمُ العِزّةَ** ﴾، أي: المعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه: وقيل: أيطلبون عندهم القوة، ﴿ **فإنَّ العِزّةَ** ﴾ أي: الغلبة والقوة والقدرة، ﴿ **للّهِ جميعاً** ﴾.

﴿ **وقَدْ نَزّلَ عليكم في الكتابِ** ﴾، قرأ عاصم ويعقوب ﴿ **نزل** ﴾ بفتح النون والزاي، أي: نزل الله، وقرأ الآخرون ﴿ **نزل** ﴾ بضم النون وكسر الزاي، أي: عليكم يا معشر المسلمين، ﴿ **أنْ إذا سمعتُم آياتِ اللّهِ** ﴾، يعني القرآن، ﴿ **يُكفرُ بها ويُستهزأ بها فلا تقعُدوا معهم** ﴾، يعني: مع الذين يستهزؤون، ﴿ **حتى يخُوضُوا في حديثٍ غيرِهِ** ﴾، أي: يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد ﷺ والقرآن، وهذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام ﴿ وإذا رأيتَ الذينَ يخُوضُونَ في آياتِنا فأعْرِضْ عنهم حتى يخُوضُوا في حديثٍ غيرِهِ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: دخل في هذه الآية كلُّ مُحْدِثٍ في الدين وكلّ مُبتدع إلى يوم القيامة، ﴿ **إنّكم إذاً مِثْلُهُمْ** ﴾، أي: إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزئون ورضيتم به فأنتم كفّار مثلهم، وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة، وقال الحسن: لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره، لقوله تعالى: ﴿ وإمّا يُنْسِيَنّك الشيطانُ فلا تقعدْ بعدَ الذكرَى مع القومِ الظالمين ﴾ [الأنعام: ٦٨]، والأكثرون على الأول. وآية الأنعام مكيّة وهذه مدنية والمتأخر أوْلَى. قوله: ﴿ **إنّ اللّهَ جامعُ المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً** ﴾.

﴿قالوا﴾ يعني المنافقين للكفار ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ الاستحواذ هو الاستيلاء والغلبة يقال استحوذ فلان على فلان أي غلب عليه والمعنى أم نغلبكم ونتمكن منكم ومن قتالكم وأسركم ثم لم نفعل ذلك وقيل معناه ألم نغلبكم على رأيكم ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ يعني في صلاتهم والدخول في دينهم وقيل معناه ألم ندفع المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأسرارهم فهاتوا نصيباً مما أصبتم منهم ومراد المنافقين إظهار المنة على الكفار. فإن قلت لمَ سمي ظفر المؤمنين فتحاً وسمي ظفر الكافرين نصيباً. قلت تعظيماً لشأن المؤمنين وتخسيساً لحظ الكافرين لأن ظفر المؤمنين أمر عظيم تفتح له أبواب السماء حتى ينزل النصر على المسلمين وأما ظفر الكفار فما هو إلا حظ دنيء ونصيب خسيس لا يبقى منه إلا ما نالوه ولهم في الآخرة العقوبة الشديدة على ذلك النصيب الذي نالوه من المسلمين ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ يعني الفريقين فريق المؤمنين وفريق المنافقين والمعنى إنما وضع السيف عن المنافقين في الدنيا لا لأجل كرامتهم بل أخر عذابهم إلى يوم القيامة ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ فيه قولان: أحدهما وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس أن المراد به يوم القيامة بدليل أنه عطف على قوله فالله يحكم بينكم يوم القيامة روي أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب عن هذه الآية: ﴿وأن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ وهم يقتلوننا فقال ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلاً. والقول الثاني إن هذا في الدنيا والمعنى أن حجة المؤمنين غالبة في الدنيا على الكافرين وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة وقيل معناه إن الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً بأن يمحو دولة المؤمنين بالكلية حتى يستبيحوا بيضتهم فلا يبقى أحد من المؤمنين وقيل معناه إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً بالشرع فإن شريعة الإسلام ظاهرة إلى يوم القيامة ويتفرع على ذلك مسائل من أحكام الفقه منها أن الكافر لا يرث المسلم ومنها أن الكافر إذا استولى على مال المسلم لم يملكه بدليل هذه الآية ومنها أن الكافر ليس له أن يشتري عبداً مسلماً ومنها أن المسلم لا يقتل بالذمي بدليل هذه الآية. قوله تعالى: .

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

﴿ الذينَ يتربَّصُون بكم ﴾، ينتظرون بكم الدوائر، يعني: المنافقين، ﴿ فإن كانَ لكم فتحٌ مِنَ الله ﴾، يعني: ظفر وغنيمة، ﴿ قالوا ﴾، لكم ﴿ أَلَمْ نكنْ مَعَكُم ﴾، على دينكم في الجهاد كنّا معكم فاجعلوا لنا نصيباً من الغنيمة، ﴿ وإنْ كانَ للكافرينَ نصيبٌ ﴾، يعني دولة وظهور على المسلمين، ﴿ قالُوا ﴾، يعني: المنافقين للكافرين، ﴿ أَلَمْ نَسْتَحوِذْ عليكُم ﴾، والاستحواذ: هو الاستيلاء والغلبة، قال تعالى: ﴿ استحوذَ عليهمُ الشيطانُ ﴾ [المجادلة: ١٩] أي: استولى وغلب، يقول: ألم نخبركم بعورة محمد ﷺ وأصحابه ونُطلعكم على سرِّهم؟ قال المبرِّد: يقول المنافقون للكفّار ألم نغلبكم على رأيكم ﴿ ونَمْنَعْكُم ﴾، ونصرفكم، ﴿ مِنَ المؤمنينَ ﴾، أي: عن الدخول في جملتهم، وقيل: معناه ألم نستولِ عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين، أي: ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إيّاكم بإخبارهم وأمورهم، ومُرادُ المنافقين بهذا الكلام إظهارُ المنّة على الكافرين ﴿ فاللَّهُ يحكمُ بينكم يومَ القيامة ﴾، يعني: بين أهل الإيمان وأهل النفاق، ﴿ ولنْ يجعلَ اللَّهُ للكافرينَ على المُؤمنينَ سبيلاً ﴾، قال عليٌّ: في الآخرة، وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم: أي حجة، وقيل: ظهوراً على أصحاب النبي ﷺ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ يعني يعاملون الله وهو يجازيهم على خداعهم وقيل معناه يخادعون رسول الله ﷺ لأنهم يظهرون له الإسلام ويبطنون له الكفر وهو خادعهم يعني والله مجازيهم بالعقاب وقيل إنهم يعطون نوراً يوم القيامة كما يعطى المؤمنون فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط ويطفأ نور المنافقين ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾ يعني المنافقين ﴿قاموا كسالى﴾ يعني متثاقلين وسبب هذا الكسل أنهم يتعبون بها لأنهم لا يريدون بفعلها ثواباً ولا يريدون بها وجه الله عز وجل ولا يخافون على تركها عقاباً لأن الداعي إلى فعلها خوف الناس فلذلك وقع فعلها على وجه الكسل والفتور ﴿يراؤون الناس﴾ يعني أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا لأجل الرياء والسمعة لا لأجل الدين ولا يرون أنها واجبة عليهم قال قتادة والله لولا الناس ما صلّى منافق ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ قال ابن عباس إنما قال ذلك لأنهم يفعلونه رياء وسمعة ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله لكان كثيراً وقيل لأن الله لم يقبله ولو قبله لكان كثيراً وقبل المراد بذكر الله الصلاة والمعنى أنهم لا يصلون إلا قليلاً لأنهم متى لم يكن معهم أحد من المؤمنين فلا يصلّون وإذا كانوا مع المؤمنين يتكلفون فعلها ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ يعني متحيرين مترددين بين الكفر والإيمان لأنهم ليسوا مع المؤمنين المخلصين ولا مع المشركين المصرحين بالشرك وهو قوله تعالى: ﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ يعني ليسوا من المؤمنين حتى يجب لهم ما يجب للمؤمنين وليسوا من الكفار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفار ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ يعني طريقاً إلى الهدى (ق) عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» قوله كمثل الشاة العائرة بالعين المهملة ومعناه المتحيرة المترددة لا تدري لأي الغنمين تتبع ومعنى تعير تتردد وتذهب يميناً وشمالاً مرة إلى هذه ومرة إلى هذه لا تدري إلى أين تذهب وهذا مثل المنافق مرة على المؤمنين ومرة مع الكافرين أو ظاهره مع المؤمنين وباطنه مع الكافرين. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ لما ذم الله عز وجل المنافقين بقوله مذبذبين بين ذلك نهى الله المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين يقول لا تولوا الكفار من دون أهل ملتكم ودينكم فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين والسبب في

﴿ إنّ المنافقينَ يُخادِعُونَ اللّهَ وهو خَادِعُهم ﴾، أي يعاملونه معاملة المخادعين وهو خادعهم، أي: مجازيهم على خِداعهم وذلك أنهم يعطون نوراً يوم القيامة كما للمؤمنين فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط، ويُطفأ نورُ المنافقين، ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاةِ ﴾، يعني: المنافقين ﴿ قاموا كُسَالَى ﴾ أي: متثاقلين لا يُريدون بها الله فإن رآهم أحد صلّوا وإلاّ انصرفُوا فلا يُصلّون، ﴿ يُراؤُون النّاسَ ﴾ أي: يفعلون ذلك مراءاةً للناس لا اتّباعاً لأمر الله، ﴿ ولا يذكُرونَ اللّهَ إلاّ قليلاً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن: إنّما قال ذلك لأنهم يفعلونها رياءً وسمعةً، ولو أرادوا بذلك القليلَ وجهَ اللّهِ تعالى لكان كثيراً، وقال قتادة: إنّما قلَّ ذكرُ المنافقين لأن الله تعالى لم يقبله وكل ما قبل الله فهو كثير.

﴿ مُذَبْذَبِينَ بينَ ذلكَ ﴾، أي: مترددين متحيّرين بين الكفر والإيمان، ﴿ لاَ إلى هؤلاءِ ولاَ إلى هؤلاءِ ﴾، أي: ليسوا من المؤمنين فيجب لهم ما يجب للمؤمنين، وليسوا من الكفّار فيُؤخذ منهم ما يُؤخذ من الكفّار، ﴿ ومَن يُضْلِلِ اللّهُ فلنْ تجدَ له سبيلاً ﴾، أي: طريقاً إلى الهُدى، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني قال: أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجّاج أنا

هذا النهي أن الأنصار بالمدينة كان لهم من يهود بني النضير وقريظة حلف ومودة ورضاع فقالوا يا رسول الله من نتولى؟ فقال: المهاجرين ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ يعني أتريدون أيها المتخذون الكفار أولياء أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين فتستوجبوا بذلك النار ثم بيّن مقر النار من المنافقين فقال تعالى: .

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ يعني في الطبق الذي في قعر جهنم والنار سبع دركات بعضها فوق بعض سميت طبقات جهنم دركات لأنها متداركة متتابعة. وقيل الدرك بيت مقفل عليهم تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم وقيل هي توابيت من حديد مقفلة عليهم في النار. فإن قلت لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر؟ قلت إن المنافق مثل الكافر في الكفر وزيادة وهو أنه ضم إلى كفره نوعاً آخر من الكفر أخبث منه وهو الاستهزاء بالإسلام والمسلمين وإفشاء أسرار المسلمين ونقلها إلى الكفار. فلهذا السبب جعل الله عذاب المنافقين أشد عذاباً من الكفار والمنافق من أظهر الإيمان وأبطن الكفر وقيل هو الذي يصف الإسلام بلسانه ولا يعمل بشرائعه ولا يتقيد بقيوده ولا يدخل تحت أحكامه وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به منافقاً فللتغليظ ومنه قوله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» فإن هذه الخصال صفات المنافقين فمن فعلها فقد تشبه بالمنافقين. وقوله تعالى: ﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ يعني ولن تجد يا محمد لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم ثم استثنى الله عز وجل من تاب

محمد بن المثنى أنا عبد الوهاب يعني الثقفي أنا عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ، قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعيرإلي هذه مرّة وإلى هذه مرّة».

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تَتّخذوا الكافِرينَ أوْلياءَ مِنْ دُونِ المُؤمنينَ ﴾، نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفّار، وقال: ﴿ أتريدُونَ أنْ تجعلُوا للّهِ عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ أي حجّةً بيّنةً في عذابكم، ثم ذكر منازل المنافقين، فقال جلّ ذكره:

﴿ إنّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّار ﴾، قرأ أهل الكوفة ﴿ في الدّرْك ﴾ بسكون الراء والباقون بفتحها وهما لغتان كالظعْن والظعَن والنهْر والنهَر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ في الدرك الأسفل ﴾ في توابيت من حديد مقفلة في النار، وقال أبو هريرة: بيت مقفل عليهم تتوقّد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم، ﴿ ولنْ تَجِدَ لهم نصيراً ﴾ مانعاً من العذاب.

﴿ إلّا الذينَ تابُوا ﴾ مِنَ النفاق وآمنوا ﴿ وأصْلَحُوا ﴾، عملهم ﴿ واعْتَصَمُوا بالله ﴾، وثقوا بالله ﴿ وأخلَصُوا دينَهم لله ﴾، أراد الإخلاص بالقلب، لأن النفاق كفر القلب، فَزوالُه يكون بإخلاص القلب، ﴿ فأولئكَ معَ المؤمنينَ ﴾ قال الفرّاء: من المؤمنين، ﴿ وسوفَ يؤتِ اللّهُ المؤمنين ﴾، في الآخرة، ﴿ أجراً عظيماً ﴾، يعني: الجنّة، وحذفتِ الياء ﴿ من يؤتِ ﴾ في الخط لسقوطها في اللفظ، وسقوطها في اللفظ لسكون اللّام في ﴿ الله ﴾.

من المنافقين فقال تعالى: ﴿**إلا الذين تابوا**﴾ يعني من النفاق ﴿**وأصلحوا**﴾ يعني أصلحوا الأعمال فعملوا بما أمر الله به وأدوا فرائضه وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿**واعتصموا بالله**﴾ يعني وتمسكوا بعهد الله ووثقوا به ﴿**وأخلصوا دينهم لله**﴾ يعني وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي عملوها لله وأرادوه بها ولم يريدوا رياء ولا سمعة فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت فقد كمل الإيمان فلذلك قال تعالى: ﴿**فأولئك**﴾ يعني التائبين من النفاق ﴿**مع المؤمنين**﴾ يعني في الجنة وقيل مع بمعنى من أي المؤمنين ﴿**وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً**﴾ يعني في الآخرة. قوله تعالى: ﴿**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم**﴾ هذا استفهام تقرير معناه أنه تعالى لا يعذب الشاكر المؤمن فإن تعذيبه لا يزيد في ملكه وتركه عقوبته لا ينقص من سلطانه لأنه الغني الذي لا يحتاج إلى شيء من ذلك فإن عاقب أحداً فإنما يعاقبه لأمر أوجبه العدل والحكمة فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أنقذتم أنفسكم من عذابه قال أهل المعاني فيه تقديم وتأخير تقديره إن آمنتم وشكرتم لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات ولأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان ولأن الواو لا توجب الترتيب وقيل هو على أصله والمعنى أن العاقل ينظر بعين بصيرته أولاً إلى ما عليه من النعمة العظيمة في إيجاده وخلقه فيشكر على ذلك شكراً عظيماً مبهماً ثم إذا تمم النظر ثانياً انتهى به النظر إلى معرفة المنعم عليه فآمن به ثم شكره شكراً مفصلاً فكان ذلك الشكر المبهم مقدماً على الإيمان فلذلك قدم الشكر على الإيمان في الذكر ﴿**وكان الله شاكراً**﴾ يعني مثيباً عباده المؤمنين موفياً أجورهم والشكر من الله الرضا بالقليل من أعمال عباده واضعاف الثواب عليه وقيل لما أمر الله عباده بالشكر سمى الجزاء شكراً على سبيل الاستعارة فالمراد من الشاكر في صفة الله تعالى كونه مثيباً على الشكر ﴿**عليماً**﴾ يعني بحق شكركم، وإيمانكم فيجازيكم على ذلك. قوله عز وجل: ﴿**لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم**﴾ قال أهل المعاني يعني أنه تعالى لا يحب الجهر بالسوء ولا غير الجهر به أيضاً من القول يعني من القول القبيح إلا من ظلم قيل هو استثناء متصل والمعنى إلا جهر من ظلم وقيل هو استثناء منقطع ومعناه لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم قال العلماء لا يجوز إظهار أحوال الناس المستورة المكتومة لأن ذلك يصير سبباً لوقوع الناس في الغيبة ووقوع ذلك الشخص في الريبة لكن من ظلم فيجوز له إظهار ظلمه فيقول سرق مني أو غصب ونحو ذلك. وإن شتم جاز له أن يشتم بمثله ولا يزيد شيئاً على ذلك ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا فعلى الأول «وفي رواية» فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم» أخرجه مسلم قال ابن عباس: لا يحب الله أن يدعو

قوله تعالى: ﴿ **ما يفعلُ اللَّهُ بعذابِكُمْ إنْ شَكَرْتُم** ﴾ أي: إن شكرتم نعماءَهُ ﴿ **وآمنتُم** ﴾ به، فيه تقديم وتأخير، تقديره: إن آمنتم وشكرتم، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان، وهذا استفهام بمعنى التقرير معناه إنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فإن تعذيبه عبادَهُ لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا يُنقِصُ من سلطانه، والشكرُ: ضدّ الكفر والكفر ستر النعمة، والشكر: إظهارُها، ﴿ **وكانَ اللَّهُ شاكراً عليماً** ﴾، فالشكر من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عبادِه وإضعاف الثواب عليه، والشكر من العبد: الطاعة، ومن الله: الثواب.

قوله: ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الجهرَ بالسوءِ مِنَ القولِ إلاّ مَنْ ظُلم** ﴾ يعني: لا يحبّ الله الجهر بالقبح من القول إلاّ من ظلم، فيجوز للمظلوم أن يخبر عن الظالم وأن يدعو عليه، قال الله تعالى: ﴿ ولَمَن انتصرَ بعدَ ظلمِهِ فأولئك ما عليهم مِنْ سَبيل ﴾ [الشورى: ٤١]، قال الحسن: دعاؤه عليه أن يقول: اللّهمّ أعنّي عليه اللّهمَّ استخرجْ حقّي منه، وقيل: إنْ شتم جاز أن يشتم بمثله لا يزيد عليه، أخبرنا أبو عبد الله الحرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالا، فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم»،

أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله إلا من ظلم وإن صبر فهو خير له وقال الحسن البصري هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه ولكن ليقل: اللهم أعني عليه اللهم استخرج لي حقي، اللهم حل بيني وبين ما يريد ونحوه من الدعاء وقيل نزلت الآية في الضيف إذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يحسنوا ضيافته فله أن يشكو ما صنع به قال مجاهد: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج من عنده فيقول أساء ضيافتي وقال مقاتل نزلت في أبي بكر الصديق وذلك أن رجلاً نال منه والنبي ﷺ حاضر فسكت عنه أبو بكر مراراً ثم رد عليه فقام النبي ﷺ فقال أبو بكر يا رسول الله شتمني فلم تقل له شيئاً حتى إذا رددت عليه قمت قال إن ملكاً كان يجيب عنك فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان فقمت ونزلت هذه الآية: ﴿وكان الله سميعاً﴾ يعني لدعاء المظلوم ﴿عليماً﴾ بما في قلبه فليتق الله ولا يقل إلا الحق. قوله تعالى:.

إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

﴿إن تبدوا خيراً﴾ قال ابن عباس يريد من أعمال البر كالصيام والصدقة والضيافة والصلة. وقيل معناه إن تبدوا خيراً بدلاً من السوء ﴿أو تخفوه﴾ يعني تخفوا الخير فلم تظهروه وقيل معناه إن تبدوا حسنة فتعملوا بها تكتب لكم عشراً وإن هم بها ولم يعملها كتبت له واحدة وقيل إن جميع مقاصد الخيرات على كثرتها محصورة في قسمين أحدهما صدق النية مع الحق. والثاني التخلق مع الخلق فالذي يتعلق بالخلق ينحصر في قسمين: أيضاً وهما إيصال نفع إليهم في السر والعلانية وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه﴾ أو رفع ضر عنهم وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ فيدخل في هاتين الكلمتين جميع أعمال البر وجميع دفع الضر، وقيل المراد بالخير المال والمعنى إن تبدوا الصدقة فتعطوها الفقراء جهراً أو تخفوها فتعطوها سراً أو تعفوا عن مظلمة ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ يعني لم يزل ذا عفو مع قدرته على الانتقام فاعفوا أنتم عمن ظلمكم واقتدوا بسنّة الله عز وجل يعف عنكم يوم القيامة لأنه أهل للتجاوز والعفو عنكم وقيل معناه إن الله كان عفواً لمن عفا قديراً على إيصال الثواب إليه. قوله عز وجل: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ نزلت في اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى والتوراة

وقال مجاهد هذا في الضيف إذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يُحسنوا ضيافته فله أن يشكو ويذكر ما صُنع به. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا قتيبة بن سعيد أنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر أنه قال: قلنا يا رسول الله إنّك تبعثنا فننزل بقوم فلا يُقرُونا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: «إنْ نزلتم بقوم فأمَرُوا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا فإن لم يفعلوا فخذُوا منهم حقَّ الضيف الذي ينبغي لهم»، وقرأ الضحاك بن مزاحم وزيد بن أسلم: ﴿ إلاّ مَن ظَلَم ﴾ بفتح الظاء واللام، معناه: لكن الظالم أجهروا له بالسوء من القول، وقيل معناه: لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول لكن يجهره من ظلم، والقراءة الأولى هي المعروفة، ﴿ وكانَ اللّهُ سميعاً ﴾، لدعاء المظلوم، ﴿ عليماً ﴾، بعقاب الظالم.

قوله تعالى: ﴿ إنْ تُبْدُوا خيراً ﴾، يعني: حسنةً فيَعملُ بها كُتِبَتْ له عشراً، وإنْ همَّ بها ولم يعملْها كُتبتْ له حسنةٌ واحدة، وهو قوله: ﴿ أو تُخْفُوه ﴾، وقيل المراد من الخير: المال، يُريدُ: إنْ تُبدوا صدقةً تُعطونها جهراً أو

وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن وقيل نزلت في اليهود والنصارى جميعاً وذلك أن اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد والنصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد ﷺ وعليهم أجمعين ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ يعني ويريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله ولا يصح الإيمان مع التكذيب ببعض رسله ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ يعني بين الإيمان بالبعض دون البعض يتخذون مذهباً يذهبون إليه وديناً يدينون به ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿هم الكافرون حقاً﴾ يعني يقيناً وإنما قال ذلك توكيداً لكفرهم لئلا يتوهم متوهم أن الإيمان ببعض الرسل يزيل اسم الكفر عنهم وليعلم أن الكفر ببعض الأنبياء كالكفر بكلهم لأن الدليل الذي يدل على نبوة البعض وهو المعجزة لزم منه أنه حيث وجدت المعجزة حصلت النبوة وقد وجدت المعجزة لجميع الأنبياء فلزم الإيمان بجميعهم ﴿وأعتدنا﴾ يعني وهيأنا ﴿للكافرين عذاباً مهيناً﴾ يعني يهانون فيه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ يعني والذين صدقوا بوحدانية الله ونبوة جميع أنبيائه وأن جميع ما جاؤوا به من عند الله حق وصدق ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ يعني من الرسل بل آمنوا بجميعهم وهم المؤمنون ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾ يعني جزاء إيمانهم بالله وبجميع كتبه ورسله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يعني أنه تعالى لما وعدهم بالثواب أخبرهم أنه يتجاوز عن سيئاتهم ويغفرها لهم ويرحمهم فهو كالترغيب لليهود والنصارى في الإيمان بمحمد ﷺ لأنهم إذا آمنوا غفر لهم ما كان منهم في حال الكفر. قوله تعالى: ﴿يسألك أهل

تخفوها فتعطوها سراً، ﴿ أو تَعْفُوا عَنْ سُوء ﴾، أي: عن مَظْلَمَةٍ، ﴿ فإنّ اللّهَ كانَ عفُوّاً قديراً ﴾، فهو أولى بالتجاوز عنكم يوم القيامة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ الذين يكفرُون باللهِ ورُسلِه ﴾ الآية: نزلت في اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى عليه السلام والتوراة وعُزير، وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمدٍ والقرآن، ﴿ ويُريدونَ أنْ يُفرِّقُوا بينَ اللّهِ ورُسله ويقولُونَ نُؤمن ببعضٍ ونكفُرُ ببعضٍ ويُريدُون أنْ يَتخِذُوا بينَ ذلكَ سبيلاً ﴾، أي: ديناً بين اليهودية والإسلام ومذهباً يذهبون إليه.

﴿ أولئكَ هُمُ الكافرون حقّاً ﴾، حقّق كفرهم ليعلم أن الكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم ﴿ وأعْتَدْنَا للكافِرِينَ عَذاباً مُهيناً ﴾.

﴿ والّذين آمَنُوا باللّهِ ورُسُلهِ ﴾، كُلّهم ﴿ ولم يُفرِّقُوا بينَ أحدٍ منهمُ ﴾، يعني: بين الرُّسل وهم المؤمنون، يقولون: لا نُفرِّق بين أحدٍ من رسله، ﴿ أُولئكَ سوفَ يُؤْتِيهِم أجورَهم ﴾، بإيمانهم بالله وكتبه ورسله، قرأ حفص

الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ يعني يسألك يا محمد أهل الكتاب، وهم اليهود وذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب جملة واحدة من السماء كما أتى موسى بالتوراة وقيل: سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً مختصاً بهم وقيل سألوه أن ينزل عليهم كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان ليشهدا لك بأنك رسول الله وكان هذا السؤال من اليهود سؤال تعنت واقتراح لا سؤال استرشاد وانقياد والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد، ولأن معجزة النبي ﷺ كانت قد تقدمت وظهرت فكان طلب الزيادة من باب التعنت. وقوله تعالى: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ يعني أعظم من الذي سألوك يا محمد ففيه تسلية للنبي ﷺ وتوبيخ وتقريع لليهود حيث سألوا رسول الله ﷺ سؤال تعنت والمعنى لا تعظمن عليك يا محمد مسألتهم ذلك فإنهم من فرط جهلهم واجترائهم على الله لو أتيتهم بكتاب من السماء لما آمنوا بك وإنما أسند السؤال إلى اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وإن وجد هذا السؤال من آبائهم الذين كانوا في أيام موسى عليه السلام لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومشاكلين لهم في التعنت ﴿فقالوا﴾ يعني أسلاف هؤلاء اليهود ﴿أرنا الله جهرة﴾ يعني عياناً. والمعنى أرناه نره جهرة وذلك أن سبعين من بني إسرائيل خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام إلى الجبل فقالوا ذلك وقد تقدمت القصة في سورة البقرة ﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ يعني بسبب ظلمهم وسؤالهم الرؤية ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ يعني إلهاً وهم الذين خلفهم موسى مع أخيه هارون حين خرج إلى ميقات ربه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ يعني الدلالات الواضحات الدالة على صدق موسى وهي: العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات الباهرة ﴿فعفونا عن ذلك﴾ يعني عن ذلك الذنب العظيم فلم نستأصل عبدة العجل. والمقصود من هذا تسلية النبي ﷺ والمعنى أن هؤلاء الذين يطلبون منك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء إنما يطلبونه عناداً ولجاجاً فاني قد أنزلت التوراة جملة واحدة على موسى وآتيته من المعجزات الباهرات والآيات البينات ما فيه كفاية ثم إنهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد وعبدوا العجل وكل ذلك يدل على جهلهم وأنهم مجبولون على اللجاج والعناد. وفي قوله فعفونا عن ذلك استدعاء إلى التوبة. والمعنى أن أولئك الذين أجرموا لما تابوا عفونا عنهم فتوبوا أنتم نعف عنكم ﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ يعني حجة واضحة تدل على صدقه وهي المعجزات الباهرات التي أعطاها الله عز وجل لموسى عليه السلام قوله عز وجل: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ يعني ورفعنا فوقهم الجبل المسمى بالطور بسبب أخذ ميثاقهم وذلك أن بني إسرائيل امتنعوا من قبول التوراة والعمل بما فيها فرفع الله فوقهم الطور حتى أظلهم ليخافوا فلا ينقضوا العهد والميثاق ﴿وقلنا لهم﴾

عن عاصم ﴿ يُؤتيهم ﴾ بالياء، أي: يؤتيهم الله، والباقون بالنون، ﴿ وكانَ اللَّهُ غفوراً رحيماً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يسألُكَ أهلُ الكتابِ ﴾ الآية، وذلك أنّ كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله ﷺ: إنْ كنتَ نبياً فأتِنا بكتاب جملةً من السماء كما أتى به موسى عليه السلام، فأنزل الله عليه: ﴿ يسألك أهلُ الكتاب أن تُنَزِّلَ عليهم كتاباً مِنَ السماء ﴾، وكان هذا السؤال منهم سؤال تحكّم واقتراح، لا سؤال انقياد، والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد. قوله: ﴿ فقدْ سَألُوا موسى أكبرَ منْ ذلك ﴾ أي: أعظم من ذلك، يعني: السبعين الذي خرج بهم موسى عليه السلام إلى الجبل، ﴿ فقالوا أرِنَا اللَّهَ جَهْرةً ﴾ أي: عياناً، قال أبو عُبيدة: معناه قالوا جهرة أرِنَا الله، ﴿ فأخذتْهُم الصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم ثمّ اتّخذُوا العِجْل ﴾، يعني إلَهاً، ﴿ مِنْ بعدِ ما جاءَتْهُم البيّناتُ فَعَفَوْنَا عنْ ذلكَ ﴾، ولم نستأصلهم، قيل: هذا استدعاء إلى التوبة، معناه: أن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم، فتُوبوا أنتم حتى نعفوَ عنكم، ﴿ وآتينا مُوسَى سُلطاناً مُبيناً ﴾، أي: حجّةً بيّنةً من المعجزات، وهي الآيات التسع.

يعني والطور يظلهم ﴿ادخلوا الباب سجداً﴾ فخالفوا ودخلوا وهم يزحفون على أستاههم ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ يعني وقلنا لهم لا تجاوزوا في يوم السبت إلى ما لا يحل لكم فيه. وذلك أنهم نهوا أن يصطادوا السمك في يوم السبت فاعتدوا واصطادوا فيه، وقيل المراد به النهي عن العمل والكسب في يوم السبت ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ يعني وأخذنا منهم عهداً مؤكداً شديداً بأن يعملوا بما أمرهم الله به وأن ينتهوا عما نهاهم الله عنه ثم إنهم نقضوا ذلك الميثاق وهو قوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ يعني فبنقضهم وما مزيدة للتوكيد والمعنى فبسبب نقضهم ميثاقهم لعناهم وسخطنا عليهم وفعلنا بهم ما فعلنا ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ يعني وبجحودهم بآيات الله الدالة على صدق أنبيائه ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ يعني بعد قيام الحجة والدلالة على صحة نبوتهم ﴿بغير حق﴾ يعني بغير استحقاق لذلك القتل ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ يعني وبقولهم على قلوبنا أغطية وغشاوة فهي لا تفقه ما تقول جمع أغلف وقيل جمع غلاف يعني قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى ما تدعونا إليه فرد الله عليهم بقوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ يعني بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ يعني إيمانهم بموسى والتوراة وكفرهم بما سواه من الأنبياء والكتب وقيل لا يؤمنون قليلاً ولا كثيراً وقيل المراد بالقليل هو عبدالله بن سلام وأصحابه والذين آمنوا من اليهود. قوله تعالى: .

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ يعني حين رموها بالزنا وذلك أنهم أنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب ومنكر قدرة الله كافر. فالمراد بقوله وبكفرهم هو إنكارهم قدرة الله تعالى والمراد بقولهم على مريم بهتاناً عظيماً هو رميهم إياها بالزنا وإنما سماه بهتاناً عظيماً لأنه قد ظهر عند ولادة مريم من المعجزات ما يدل على براءتها من ذلك فلهذا السبب وصف الله قول اليهود على مريم بالبهتان العظيم.

قوله عز وجل: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ ادعت اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام وصدقتهم النصارى على ذلك فكذبهم الله عز وجل جميعاً وردّ عليهم بقوله: ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾

﴿ ورَفَعْنَا فَوْقَهُم الطّور بميثاقِهمْ وقُلنا لهمُ ادْخُلوا البَابَ سُجّداً وقُلْنا لهمْ لا تَعْدُوا في السَّبْتِ ﴾ قرأ أهل المدينة بتشديد الدال وفتح العين نافع برواية ورش ويجزمها الآخرون، ومعناه: لا تعتدوا ولا تظلموا باصطياد الحيتان فيه، ﴿ وأخَذْنا منهمْ مِيثاقاً غليظاً ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نقضِهمْ مِيثاقَهم ﴾، أي: فبنقضهم، و﴿ ما ﴾ صلة كقوله تعالى: ﴿ فبما رحمةٍ من الله ﴾ [آل عمران: ٥٩]، ونحوها، ﴿ وكُفْرِهمْ بآياتِ اللّهِ وقَتْلِهمُ الأنبياءَ بغير حقٍّ وقولِهمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بلْ طَبَعَ اللّهُ عليهَا بكفرِهِمْ ﴾، أي: ختم عليها، ﴿ فلا يُؤْمنُونَ إلاّ قليلاً ﴾، يعني: ممّن كذّب الرُّسلَ لا ممّن طُبعَ على قلبه، لأنّ مَن طبعَ اللّهُ على قلبه لا يُؤمن أبداً، وأراد بالقليل: عبدَ الله بن سلام وأصحابه، وقيل: معناه لا يُؤمنون قليلاً ولا كثيراً.

﴿ وبكفرِهِمْ وقولِهمْ على مريمَ بُهتاناً عظيماً ﴾، حين رموها بالزنا.

﴿ وقولِهِمْ إنّا قتلنا المسيحَ عيسَى ابنَ مريمَ رسولَ الله وما قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوه ولكنْ شُبِّهَ لهمْ ﴾ وذلك أنّ الله تعالى ألقى شَبهَ عيسى عليه السلام على الذي دلّ اليهودَ عليه، وقيل: إنهم حبسوا عيسى عليه السلام في بيت

وفي قول رسول الله قولان: أحدهما أنه من قول اليهود فيكون المعنى أنه رسول الله على زعمه. والقول الثاني أن من قول الله لا على وجه الحكاية عنهم وذلك أن الله تعالى أبدل ذكرهم في عيسى عليه السلام القول القبيح بالقول الحسن رفعاً لدرجته عما كانوا يذكرونه من القول القبيح.

وقوله تعالى: ﴿ولكن شبه لهم﴾ يعني ألقى شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب. واختلف العلماء في صفة التشبيه الذي شبه على اليهود في أمر عيسى عليه السلام. فروى الطبري بسنده عن وهب بن منبه أنه قال أتى اليهود عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً فقال عيسى لأصحابه من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة فقال رجل منهم أنا فخرج إليهم فقال: أنا عيسى وقد صوره الله تعالى على صورة عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك. ورفع الله عز وجل عيسى عليه السلام من يومه ذلك. وفي رواية أخرى عن وهب أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين. فقالوا هذا من أصحاب عيسى فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه ثم أخذوا آخر فجحد كذلك فلما أصبح أتى بعض الحواريين إلى اليهود وكان منافقاً فقال ما تجعلون لي إن أنا دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهماً فدلهم عليه فألقى الله شبه عيسى على ذلك المنافق الذي دل عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى. وقال قتادة إن أعداء الله اليهود زعموا أنهم قتلوا عيسى وصلبوه وذكر لنا أن نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهي وله الجنة فانه مقتول فقال رجل منهم حبسوا عيسى في بيت وجعلوا عليه رقيباً يحفظه فألقى الله شبه عيسى على ذلك للرقيب فأخذ فقتل وصلب فرفع الله عز وجل عيسى في ذلك الوقت. قال الطبري وأولى الأقوال بالصواب ما ذكرنا عن وهب بن منبه من أن شبه عيسى ألقى على جميع من كان مع عيسى في البيت حين أحيط بي وبهم من غير مسألة عيسى إياهم ذلك ولكن ليخزي الله بذلك اليهود وينقذ به نبيه عيسى عليه السلام من كل مكروه أرادوه به من قتل وغيره وليبتلي الله من أراد ابتلاءه من عباده ويحتمل أن يكون ألقى شبهه على بعض أصحابه بعد ما تفرق عنه أصحابه ورفع الله عيسى عليه السلام. وبقي ذلك فأخذ وقتل وصلب وظن أصحابه واليهود أن الذي قتلوه وصلبوه هو عيسى لما رأوا من شبهه به وخفي أمر عيسى عليهم وكانت حقيقة ذلك الأمر عند الله فلذلك قال تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ ﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ يعني في قتل عيسى وهم اليهود ﴿لفي شك منه﴾ يعني من قتله وذلك أن اليهود قتلوا ذلك الشخص المشبه بعيسى وكان قد ألقي الشبه على وجه ذلك الشخص دون جسده فلما قتلوه نظروا إلى جسده فوجدوه غير جسد عيسى فقالوا: الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره فهذا هو اختلافهم فيه وقيل: إن اليهود لما حبسوا عيسى وأصحابه في البيت دخل عليه رجل منهم ليخرجه إليهم. فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل فأخذ وقتل ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء وفقدوا صاحبهم فقالوا: إن كنا قتلنا المسيح فأين صاحبنا؟ وإن كنا قتلنا

وجعلوا عليه رقيباً فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على الرقيب فقتلوه، وقيل غير ذلك، كما ذكرنا في سورة آل عمران. قوله تبارك وتعالى: ﴿ وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا فيهِ ﴾، في قتله، ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾، أي: في قتله، قال الكلبي: اختلافهم فيه هو أن اليهود قالتْ نحْنُ قتلناه، وقالت طائفة من النصارى نحن قتلناه، وقالت طائفة منهم ما قتله هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه الله إلى السماء، ونحن ننظر إليه، وقيل: كان الله تعالى ألقى شَبه عيسى عليه السلام على وجه صطيافوس ولم يلقه على جسده، فاختلفوا فيه فقال بعضهم: قتلنا عيسى، فإن الوجه وجه عيسى عليه السلام وقال بعضهم: لم نقتله لأن جسده ليس جسد عيسى عليه السلام، فاختلفوا. قال السدي: اختلافهم من

صاحبنا فأين المسيح عيسى؟ فهذا هو اختلافهم فيه وقيل إن الذين اختلفوا فيه هم النصارى فبعضهم يقول إن القتل وقع على ناسوت عيسى دون لاهوته وبعضهم يقول وقع القتل عليهما جميعاً وبعضهم يقول رأيناه قتل وبعضهم يقول رأيناه رفع إلى السماء فهذا هو اختلافهم فيه قال الله تعالى: **﴿ما لهم به من علم﴾** يعني أنهم قتلوا من قتلوا على شك منهم فيه ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول هل هو عيسى أو غيره **﴿إلّا اتباع الظن﴾** يعني لكن يتبعون الظن في قتله ظناً منهم أنه عيسى لا عن علم وحقيقة **﴿وما قتلوه يقيناً﴾** قال ابن عباس: يعني لم يقتلوا ظنهم يقيناً فعلى هذا القول تكون الهاء في قتلوه عائدة على الظن. والمعنى مما قتلوا ذلك الظن يقيناً ولم يزل ظنهم ولم يرتفع ما وقع لهم من الشبه في قتله فهو كقول العرب قتله علماً وقتله يقيناً يعني علمه علماً تاماً. وأصل ذلك أن القتل للشيء يكون عن قهر واستيلاء وغلبة وكمعنى الآية على هذا لم يكن علمهم بقتل عيسى علماً تاماً كاملاً إنما كان ظناً منهم إنهم قتلوه ولم يكن لذلك حقيقة. وقيل إن الهاء في قتلوه عائدة على عيسى والمعنى ما قتلوا المسيح يقيناً كما ادعوا أنهم قتلوه وقيل إن قوله يقيناً يرجع إلى ما بعده تقديره وما قتلوه **﴿بل رفعه الله إليه﴾** يقيناً والمعنى أنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه ولكن الله عز وجل رفعه إليه وطهره من الذين كفروا وخلصه ممن أراده بسوء وقد تقدم كيف كان رفعه في سورة آل عمران بما فيه كفاية. وقوله تعالى: **﴿وكان الله عزيزاً﴾** يعني في اقتداره على من يشاء من عباده **﴿حكيماً﴾** يعني في إنجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود. وقيل عزيزاً يعني منيعاً منتقماً من اليهود فسلط عليهم ينطيونس بن اسبسيانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة حكيماً حكم باللعنة والغضب على اليهود حيث ادعوا هذه الدعوى الكاذبة. قوله تعالى: .

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ يعني وما من أحد من أهل الكتاب **﴿إلّا ليؤمنن به﴾** يعني بعيسى عليه السلام وأنه عبدالله ورسوله وروحه وكلمته هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين وقال عكرمة في قوله إلّا ليؤمنن به يعني بمحمد ﷺ وهذا القول لا وجه له لأنه لم يجر للنبي ﷺ ذكر قبل هذه الآية حتى يرجع الضمير إليه وقول الأكثرين الأولى لأنه تقدم ذكر عيسى عليه السلام فكان عود الضمير إليه أولى **﴿قبل موته﴾** اختلف المفسرون في هذا الضمير إلى من يرجع؟ فقال ابن عباس وأكثر المفسرين إن الضمير يرجع إلى الكتابي والمعنى وما من أحد من أهل

حيث أنهم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ قال الله تعالى: **﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلمٍ ﴾**، من حقيقة أنه قتل أو لم يُقتل، **﴿ إلّا اتّباعَ الظَّنِّ ﴾**، لكنهم يتبعون الظنّ في قتله، قال الله جلّ جلاله: **﴿ ومَا قتلُوه يقيناً ﴾**، أي: ما قتلوا عيسى يقيناً.

﴿ بلْ رَفَعَهُ اللّهُ إليه ﴾، وقيل قوله: **﴿ يقيناً ﴾** ترجع إلى ما بعده وقوله: **﴿ وما قتلوه ﴾** كلام تامّ تقديره: بل رفعه الله إليه يقيناً، والهاء في **﴿ ما قتلوه ﴾** كناية عن عيسى عليه السلام، وقال الفرّاء رحمه الله: معناه وما قتلوا الذين ظنوا أنه عيسى يقيناً، ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما معناه: وما قتلوا ظنهم يقيناً، **﴿ وكانَ اللّهُ عزيزاً ﴾** منيعاً بالنقمة من اليهود، **﴿ حكيماً ﴾** حكم باللعنة والغضب عليهم، فسلّط عليهم ينطيونس بن إسبسيانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة.

قوله تعالى: **﴿ وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلّا لَيُؤمِننّ به قبل موتِهِ ﴾**، أي: وما من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ بعيسى عليه السلام، هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم، وقوله: **﴿ قبل موته ﴾** اختلفوا في هذه الكناية، فقال عكرمة

الكتاب إلاّ آمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابي ولكن يكون ذلك الإيمان عند الحشرجة حين لا ينفعه إيمانه قال ابن عباس: معناه إذا وقع في اليأس حين لا ينفعه إيمانه سواء احترق أو تردى من شاهق أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة فقيل له أرأيت إن خر من فوق بيت قال: يتكلم به في الهواء فقيل له أرأيت إن ضربت عنقه قال يتلجلج به لسانه وقال شهر بن حوشب إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة بأجنحتها وجهه ودبره وقالوا يا عدو الله أتاك موسى نبياً فكذبت به فيقول آمنت إنه عبدالله ورسوله وتقول للنصراني أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله وابن الله فيقول آمنت أنه عبدالله فأهل الكتابين يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام وهو رواية عن ابن عباس أيضاً والمعنى وما من أحد من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتابين إلاّ آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام قال عطاء إذا نزل عيسى إلى الأرض لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا أحد يعبد غير الله إلاّ آمن بعيسى وأنه عبدالله وكلمته ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» زاد في رواية: «حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: «اقرؤوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته» الآية وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن فيكم ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» أخرجاه في الصحيحين. ففي هذا الحديث دليل على أن عيسى ينزل في آخر الزمان في هذه الأمة ويحكم بشريعة محمد ﷺ وأنه لا ينزل نبياً برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل يكون حاكماً من حكام هذه الأمة وإماماً من أئمتهم لقوله ﷺ فيكسر الصليب يعني يكسره حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه. وكذلك قتله الخنزير وقوله ويضع الجزية يعني لا يقبلها ممن بدلها من اليهود والنصارى. ولا يقبل من أحد إلاّ الإسلام أو القتل وعلى هذا قد يقال هذا خلاف منا هو حكم الشرع اليوم فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها منه ولم يجز قتله ولا إجباره على الإسلام والجواب أن هذا الحكم ليس مستمر إلى يوم القيامة بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام وقد أخبر النبي ﷺ بنسخه وليس الناسخ هو عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد ﷺ فدل على أن الامتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد ﷺ والله أعلم. قال الزجاج هذا القول بعيد يعني قول من قال إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان قال لعموم قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به﴾ قال والذين يبقون يومئذٍ يعني عند نزوله شرذمة قليلة منهم وأجاب أصحاب هذا القول يعني

ومجاهد والضحاك والسدي: إنها كناية عن الكتابي، ومعناه: وما من أهل الكتاب أحد إلاّ ليؤمِننّ بعيسى عليه السلام قبل موته، إذا وقع في اليأس حين لا ينفعه إيمانُه سواء احترق أو غرق أو تردّى في بئر أو سقط عليه جدارٌ أو أكله سبعٌ أو مات فجأةً، وهذه رواية عن ابن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم. قال: فقيل لابن عباس رضي الله عنهما: أرأيتَ أن مَنْ خرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهواء قال: فقيل أرأيت إن ضرب عُنُق أحدهم؟ قال: يتلجلج به لسانه، وذهب قومٌ إلى أن الهاء في ﴿ موته ﴾ كناية عن عيسى عليه السلام، معناه: وإنّ من أهل الكتاب إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بعيسى قبل موت عيسى عليه السلام، وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحدٌ إلاّ آمنَ به حتى تكون الملّة واحدة، ملّة الإسلام. وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُوشِكُ أنْ ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حكماً عدْلاً يكسرُ الصّليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزية، ويفيضُ المالُ حتى لا يقبله أحدٌ، ويهلك في زمانه المِلَل كلُّها إلاّ الإسلام، ويقتلُ الدَّجالَ فيمكثُ في الأرض أربعين سنة ثم يتوفَّى ويُصلّي عليه

الذين يقولون إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان بأن هذا على العموم. ولكن المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به ويكون معنى الآية وما من أحد، من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلاّ آمن بعيسى عند نزوله من السماء وصحح الطبري هذا القول وقال عكرمة في معنى الآية وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي فلا يموت يهودي ولا نصراني حتى يؤمن بمحمد ﷺ وذلك عند الحشرجة حتى لا ينفعه إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿**ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ يعني يكون عيسى عليه السلام شاهداً على اليهود أنهم كذبوه وطعنوا فيه وعلى النصارى أنهم اتخذوه رباً وأشركوا به ويشهد على تصديق من صدقه منهم وآمن به قال قتادة معناه إنه يكون شهيداً يوم القيامة إنه قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية.

قوله عز وجل: ﴿**فبظلم من الذين هادوا**﴾ يعني فبسبب ظلم منهم ﴿**حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم**﴾ يعني ما حرمنا عليم الطيبات التي كانت حلالاً لهم إلاّ بظلم عظيم ارتكبوه وذلك الظلم هو ما ذكره من نقضهم الميثاق وما عدد عليهم من أنواع الكفر والكبائر العظيمة مثل قولهم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة وكقولهم أرنا الله جهرة وكعبادتهم العجل فبسبب هذه الأمور حرم الله عليهم طيبات كانت حلالاً لهم وهي ما ذكره في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ الآية وقال الطبري: في معنى الآية فحرمنا على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذي واثقوا ربهم به وكفروا بآيات الله، وقالوا أنبيائهم وقالوا البهتان على مريم وفعلوا ما وصفهم الله به في كتابه طيبات من المآكل وغيرها التي كانت لهم حلالاً عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنهم في كتابه. وروي عن قتادة قال عوقب القوم بظلم ظلموه وبغي بغوة وحرمت عليهم أشياء ببغيهم وظلمهم. ونقل الواحدي وابن الجوزي عن مقاتل قال كان الله حرم على أهل التوراة أن يأكلوا الربا ونهاهم أن يأكلوا أموال الناس ظلماً فأكلوا الربا وأكلوا أموال الناس ظلماً بالباطل وصدوا عن دين الله وعن الإيمان بمحمد ﷺ فحرم الله عليهم عقوبة لهم ما ذكر في قوله: «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر» الآية قال الواحدي فأما وجه تحريم الطيبات عليهم كيف ومتى كان وعلى لسان من حرم عليهم فلم أجد فيه شيئاً انتهى إليه فتركه ولقد أنصف الواحدي فيما قال فإن هذه الآية في غاية الإشكال وبيانه إن الله تعالى لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه وقد ذكر المفسرون في معنى الظلم المذكور في الآية ما تقدم ذكره وكلها ذنوب في المستقبل. فإن قلت علم الله وقوع هذه الذنوب منهم قبل وقوعها لحرم عليهم ما حرم من الطيبات التي كانت لهم حلالاً عقوبة لهم على ما سيقع منهم قلت جوابه ما تقدم وهو أن الله تعالى لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه ولهذا لم يذكر الإمام فخر الدين في تفسير هذه الآية ما ذكره المفسرون بل

المسلمون»، وقال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وإنْ مِنْ أهل الكتابِ إلّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قبلَ موتهِ ﴾، قبل موت عيسى ابن مريم، ثم يُعيدها أبو هريرة ثلاث مرات. ورُوِيَ عن عكرمة: أنّ الهاء في قوله: ﴿ ليؤمننّ به ﴾ كناية عن محمد ﷺ يقول: لا يموت كتابي حتى يؤمن بمحمد ﷺ، وقيل: هي راجعة إلى الله عزّ وجلّ يقول: وإنّ مِنْ أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ بالله عزّ وجلّ، قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه إيمانُه. قوله تعالى: ﴿ ويومَ القيامةِ يكونُ ﴾، يعني: عيسى عليه السلام، ﴿ عليهِمْ شهيداً ﴾ أنّه قد بلّغهم رسالة ربه، وأقرّ بالعبودية على نفسه، كما قال تعالى مخبراً عنه: ﴿ وكنتُ عليهِم شهيداً ما دمتُ فيهم ﴾ [المائدة: ١١٧] وكلّ نبي شاهد على أمته قال الله تعالى: ﴿ فكيفَ إذا جِئْنَا مِنْ كلِّ أُمةٍ بشهيدٍ وجِئْنَا بِكَ على هؤلاءِ شَهيداً ﴾ [النساء: ٤١].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذينَ هادُوا ﴾، وهو ما تقدّم ذكره من نقضهم الميثاق وكفرهم بآيات الله وبُهتانهم على مريم، وقولهم: إنّا قتلنا المسيح ﴿ حَرَّمْنَا عليهمْ طَيباتٍ أُحِلّتْ لهمْ ﴾، وهي ما ذكر في سُورة

ذكر تفسيراً إجمالياً فقال أعلم أن أنواع الذنوب محصورة في نوعين: الظلم للخلق والإعراض عن الدين الحق، أما ظلم الخلق فإليه الإشارة بقوله ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾ ثم إنهم مع ذلك في غاية الحرص على طلب المال فتارة يحصلونه بطريق الربا مع أنهم قد نهوا عنه وتارة يحصلونه بطريق الرشا وهو المراد بقوله ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ فهذه الأربعة هي الذنوب التي شدد عليهم بسببها في الدنيا والآخرة، أما التشديد في الدنيا فهو ما تقدم من تحريم الطيبات عليهم وأما التشديد في الآخرة فهو المراد بقوله تعالى: ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ قال المفسرون: إنما قال منهم لأن الله علم أن قوماً منهم سيؤمنون فيأمنون من العذاب.

قوله تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ يعني من اليهود وهذا استثناء استثنى الله عز وجل من آمن من أهل الكتاب ممن تقدم وصفهم وصفتهم في الآيات التي تقدمت فبين فيما تقدم حال كفار اليهود والجهال منهم وبين في هذه الآية حال من هداه لدينه منهم وأرشده للعمل بما علم فقال لكن الراسخون في العلم ولكن هنا بمعنى الاستدراك والاستثناء والراسخون في العلم الثابتون في العلم البالغون فيه أولو البصائر الثاقبة والعقول الصافية وهم عبدالله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل الكتاب لأنهم رسخوا في العلم وعرفوا حقيقته فأوصلهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ ﴿والمؤمنون﴾ يعني بالله ورسله ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾ يعني بالقرآن الذي أنزل إليك ﴿وما أنزل من قبلك﴾ يعني ويؤمنون بسائر الكتاب التي أنزلها الله على أنبيائه من قبله يا محمد وفي المراد بالمؤمنين ها هنا قولان: أحدهما إنهم أهل الكتاب فيكون المعنى لكن الراسخون في العلم منهم وهم المؤمنون. والقول الثاني أنهم المهاجرون والأنصار من هذه الأمة فيكون قوله والمؤمنون ابتداء كلام مستأنف يؤمنون بما أنزل إليك ويعني أنهم يصدقون بالقرآن الذي أنزل إليك يا محمد وما أنزل من قبلك ﴿والمقيمين الصلاة﴾ اختلف العلماء في وجه نصبه فحكي عن عائشة وأبان بن عثمان أنه غلط من الكتاب ينبغي أن يكتب والمقيمون الصلاة. وقال عثمان بن عفان إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتهم فقيل له أفلا تغيره؟ فقال دعوه فإنه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً وذهب عامة الصحابة وسائر العلماء من بعدهم إلى أنه لفظ صحيح ليس فيه من خطأ من كاتب ولا غيره وأجيب عما روي عن عثمان بن عفان وعن عائشة وأبان بن عثمان بأن هذا بعيد جداً لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والفصاحة والقدرة على ذلك فكيف يتركون في كتاب الله لحناً يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا

الأنعام، فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كلَّ ذي ظفر﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ونظم الآية: فبظلم من الذين هادوا وهو ما ذكرنا، ﴿وبِصَدِّهِمْ﴾، وبصرفهم أنفسهم وغيرهم، ﴿عَنْ سَبيلِ اللَّهِ كثيراً﴾، أي: عن دين الله صداً كثيراً.

﴿وأَخْذِهِمُ الرِّبا وقدْ نُهوا عنهُ﴾، في التوراة ﴿وأكلِهِمْ أموالَ النّاسِ بالبَاطِلِ﴾، من الرشا في الحكم، والمآكل التي يصيبونها من عوامِّهم، عاقبناهم بأنْ حرّمنا عليهم طيباتٍ، وكانُوا كلّما ارتكبوا كبيرة حُرّم عليهم شيءٌ من الطيبات التي كانت حلالاً لهم، قال الله تعالى: ﴿ذلكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وإنّا لصادقون﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ﴿وأعْتَدْنا للكافرينَ مِنهمْ عذاباً أليماً﴾.

إليهم. قال ابن الأنباري: ما روي عن عثمان لا يصلح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً فاسداً ليصلحه غيره ولأن القرآن منقول بالتواتر عن رسول الله ﷺ فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه؟ وقال الزمخشري في الكشاف ولا يلتفت إلى ما زعموا من قوع لحن في خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب يعني كتاب سيبويه ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص والمدح من الافتتان وهو باب واسع قد ذكره سيبويه على أمثلة وشواهد وربما غبي عليه أن السابقين الأولين كانوا أبعد همة في الغيرة في الإسلام وذب الطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله عز وجل ثلمة يسدها من بعدهم وخرقاً يرفؤه من يلحن بهم ثم اختلف العلماء في المقيمين الصلاة أهم الراسخون في العلم أم غيرهم؟ على قولين: أحدهما إنهم هم وإنما نصب على المدح والمعنى أذكر المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة قالوا والعرب تفعل ذلك في صفة الشيء الواحد ونعته وإذا تطاولت بمدح أو ذم فربما خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه أحياناً ثم رجعوا بآخره إلى إعراب أوله وربما أجروا إعراب آخره على إعراب أوسطه وربما أجروا ذلك على نوع واحد من الإعراب واستشهدوا على معنى الآية:

لا يبعدن قومي الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر

النازلين بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر

وهذا على معنى أذكر النازلين وهم الطيبون ومن هذا المعنى تقول جاءني قومك المطعمين وهم المعينون. والقول الثاني أن المقيمين الصلاة غير الراسخين في العلم وموضع والمقيمين الصلاة خفض بالعطف على قوله تعالى بما أنزل إليك فعلى هذا القول يكون معنى الآية: **﴿والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة﴾** وهم الأنبياء لأنه لم يخل شرع أحد منهم عن إقامة الصلاة وقيل المراد بهم الملائكة لأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وصحح الزجاج القول الأول واختاره وصحح الطبري القول الثاني واختاره.

وقوله تعالى: **﴿والمؤتون الزكاة﴾** عطف على والمؤمنون لأنه من صفتهم **﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** يعني والمصدقون بوحدانية الله تعالى وبالبعث بعد الموت وبالثواب وبالعقاب **﴿أولئك﴾** يعني من هذه الأوصاف صفته **﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾** يعني سنعطيهم على ما كان منهم من طاعة الله وإتباع أمره ثواباً عظيماً وهو الجنة. قوله عز وجل: .

﴿ لكِنِ الرَّاسِخُونَ في العلمِ منهمْ ﴾، يعني: ليس كل أهل الكتاب بهذه الصفة، لكن الراسخون المبالغون في العلم منهم أُولوا البصائر، وأراد به الذين أسْلَمُوا من علماء اليهودَ مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، **﴿ والمُؤْمِنُونَ ﴾**، يعني: المهاجرون والأنصار، **﴿ يُؤْمِنُونَ بما أُنزلَ إليكَ ﴾**، يعني: القرآن، **﴿ وما أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾**، يعني: سائر الكتب المنزلة، **﴿ والمُقِيمِينَ الصلاةَ ﴾**، اختلفوا في وجه انتصابه، فحُكِي عن عائشة رضي الله عنها وأبَان بن عثمان أنه غلط من الكاتب ينبغي أن يكتب والمقيمون الصلاة وكذلك قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ﴾ [المائدة: ٦٩]، وقوله: ﴿ إنّ هذان لساحران ﴾ [طه: ٦٣] قالوا: ذلك خطأً من الكاتب. وقال عثمان: إن في المصحف لحناً ستقيمه العربُ بألسنتها، فقيل له: ألاَ تغيّره؟ فقال: دعوه فإنه لا يُحلّ حراماً ولا يُحرّم حلالاً. وعامّة الصحابة وأهل العلم على أنه صحيح، واختلفوا فيه، قيل: هو نصب على المدح، وقيل: نصب على إضمار فعل تقديره: أعني المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة، وقيل: موضعه خفض، واختلفوا في وجهه، فقال بعضهم: معناه لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة، وقيل: معناه يؤمنون بما أُنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة، ثمّ قوله: **﴿ والمُؤْتُونَ الزكاةَ ﴾** رجوع إلى النسق الأوّل، **﴿ والمُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ أُولئكَ سَنُؤْتِيهِمْ أجراً عظيماً ﴾**، قرأ حمزة سيؤتيهم بالياء والباقون بالنون.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ قال ابن عباس قال سكين وعدي بن زيد يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى فأنزل الله هذه الآيات وقيل هو جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء جملة واحدة فأجاب الله عز وجل عن سؤالهم بهذه الآية فقال: إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده والمعنى إنكم يا معشر اليهود تقرون بنبوة نوح وبجميع الأنبياء المذكورين في هذه الآية وهم اثنا عشر نبياً والمعنى أن الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتاباً جملة واحدة مثل ما أنزل على موسى فلما لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدة على أحد هؤلاء الأنبياء قادحاً في نبوته فكذلك لم يكن إنزال القرآن على محمد ﷺ قادحاً في نبوته بل قد أنزل عليه كما أنزل عليهم. قال المفسرون وإنما بدأ الله عز وجل بذكر نوح عليه السلام لأنه أول نبي بعث بشريعة وأول نذير على الشرك وأنزل الله عز وجل عليه عشر صحائف وكان أول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض بدعائه وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام وكان أطول الأنبياء عمراً عاش ألف سنة لم تنقص قوته ولم يشب ولم تنقص له سن وصبر على أذى قومه طول عمره ثم ذكر الله الأنبياء من بعده جملة بقوله تعالى: ﴿والنبيين من بعده﴾ ثم خص جماعة من الأنبياء بالذكر لشرفهم وفضلهم فقال ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهم أولاد يعقوب وكانوا اثني عشر ﴿وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ يعني وآتينا داود كتاباً مزبوراً يعني مكتوباً. وقيل: الزبور بالفتح اسم الكتاب الذي أنزل على داود وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام بل كلها تسبيح وتقديس وتمجيد وثناء على الله عز وجل ومواعظ وكان داود عليه السلام يخرج إلى البرية فيقوم ويقرأ الزبور وتقوم علماء بني إسرائيل خلفه ويقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس والشياطين خلف الجن وتجيء الدواب التي في

قوله تعالى: ﴿إنّا أَوْحَيْنَا إليكَ﴾ هذا بناء على ما سبق من قوله: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تُنزِّلَ عليهم كتاباً مِنَ السماء﴾ [النساء: ١٥٣]، فلمّا ذكر الله عيوبهم وذنوبهم غضبوا وجحدوا كل ما أنزل الله عزّ وجلّ، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزل: ﴿وما قَدَرُوا اللّهَ حقَّ قَدْرِهِ إذ قالُوا ما أنزل الله على بشرٍ مِنْ شيء﴾ [الأنعام: ٩١] وأنزل: ﴿إنّا أوحينا إليك﴾، ﴿كما أوحينا إلى نوح والنّبيينَ مِنْ بعدِهِ﴾ فذكر عدّةً من الرُّسل الذين أوحى إليهم، وبدأ بذكر نوح عليه السلام لأنه كان أبا البشر مثل آدم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا ذريتَه هم الباقين﴾ [الصّافّات: ٧٧] ولأنه أول نبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير على الشرك، وأول مَن عذّبت أمته لردِّهم دعوته، وأهلكَ أهلُ الأرض جميعاً بدعائه وكان أطول الأنبياء عمراً وجعلت معجزته في نفسه، لأنه عمّر ألف سنة فلم تسقط له سن ولم تشب له شعرة ولم ينتقص له قوّة، ولم يصبر نبي على أذى قومه ما صبر هو على طول عمره. قوله تعالى: ﴿وأَوْحَيْنَا إلى إبراهيمَ وإسماعيل وإسحَقَ ويعقوبَ والأَسْبَاطِ﴾، وهم أولاد يعقوب، ﴿وعيسَى وأيوب ويُونُسَ وهارونَ وسليمانَ وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾، قرأ الأعمش وحمزة (زُبُـوراً) والزُّبور بضمّ الزاي حيث كان، بمعنى: جمع زَبور، أي آتينا داود كُتباً وصُحفاً مزبورةً، أي: مكتوبة، وقرأ الآخرون بفتح الزاي وهو اسم الكتاب الذي أنزل الله تعالى على داود عليه السلام، وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عزّ وجلّ، وكان داودُ يبرزُ إلى البريّة فيقوم ويقرأ الزّبورَ ويقوم معه علماء بني إسرائيل، فيقومون خلفه ويقوم الناس خلف العلماء، ويقوم الجنّ

الجبال فيقمن بين يديه وترفرف الطير على رؤوس الناس وهم يستمعون لقراءة داود ويتعجبون منها فلما قارف الذنب زال عنه ذلك وقيل له ذلك أنس الطاعة وهذا ذل المعصية (ق) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود» قال الحميدي زاد البرقاني قلت والله يا رسول الله لو علمت إنك تسمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيراً، التحبير تحسين الصوت بالقراءة قال بعض العلماء إنما لم يذكر موسى في هذه الآية لأن الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة وكان المقصود بذكر من ذكر من الأنبياء في الآية أنه لم ينزل على أحد منهم كتاباً جملة واحدة فلهذا لم يذكر موسى عليه السلام. قوله تعالى: .

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

﴿**ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل**﴾ لما نزلت هذه الآية المتقدمة قالت اليهود ما لموسى لم يذكر؟ فأنزل الله هذه الآية وفيها ذكر موسى عليه السلام والمعنى وأوحينا إلى رسل قد قصصناهم عليك من قبل يعني سميناهم في القرآن وعرفناك أخبارهم وإلى من بعثوا وما ورد عليهم من قومهم ﴿**ورسلاً لم نقصصهم عليك**﴾ أي لم نسمهم لك ولم نعرفك أخبارهم قال أهل المعاني الذين نوه الله بذكرهم من الأنبياء يدل على تفضيلهم على من لم يذكر ولم يسم.

وقوله تعالى: ﴿**وكلم الله موسى تكليماً**﴾ يعني خاطبه مخاطبة من غير واسطة لأن تأكيد كلم بالمصدر يدل على تحقيق الكلام وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا شك لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر فلا يقال أراد الحائط يسقط إرادة. وهذا رد على من يقول إن الله خلق كلاماً في محل فسمع موسى ذلك الكلام وقال الفراء العرب تسمى كل ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل لكن لا تحققه بالمصدر وإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقق بالمصدر لم يكن إلاّ حقيقة الكلام فدل قوله تعالى تكليماً على أن موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة. وروى الطبري بسنده من عدة طرق عن كعب الأحبار قال لما كلم الله موسى عليه السلام بالألسنة كلها قبل كلامه يعني كلام موسى بلسانه فجعل موسى يقول يا رب لا أفهم حتى كلمه بلسانه آخر الألسنة فقال: يا رب هكذا كلامك قال لو سمعت كلامي يعني على وجهه لم تك شيئاً قال موسى: يا رب هل في خلقك شيء يشبه كلامك قال لا وأقرب خلقي شبهاً بكلامي أشد ما سمع الناس من الصواعق قال بعض العلماء كما إن الله تعالى خص

خلف الناس، الأعظمُ فالأعظم، والشياطين خلف الجن وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه تعجّباً لِمَا يسمعن منه، والطير ترفرف على رؤوسهم، فلما قارف الذنب لم يرَ ذلك، ونفروا من حوله، فقيل له ذاكَ أنس الطاعة، وهذه وَحْشَةُ المعصية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو بكر الجوزقي أنا أبو العباس الرعوف أنا يحيىٰ بن زكريا أنا الحسن بن حمّاد بن سعيد الأموي عن طلحة بنِ يحيىٰ عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أُعطيتَ مِزْماراً من مَزَامِيرِ آلِ داود»، فقال: أَمَا واللّهِ يا رسول الله لو علمتُ أنّك تستمعُ لحبرتُه تحبيراً. وكان عمر رضي الله عنه إذا رآه يقول ذكّرْنا يا أبا موسى فيقرأ عنده.

قوله تعالى: ﴿ ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عليك مِنْ قَبْلُ ﴾، أي: وكما أوحينا إلى نوح وإلى الرسل، ﴿ رُسُلاً ﴾ نصب بنزع حرف الصفة، وقيل: معناه وقصصنا عليك رسلاً، وفي قراءة أُبيّ (ورسل قد قصصناهم عليك من

موسى عليه السلام بالتكليم وشرفه به ولم يكن ذلك قادحاً في نبوة غيره من الأنبياء فكذلك إنزال التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحاً في نبوة من أنزل عليه كتابه متفرقاً من الأنبياء.

قوله عز وجل: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ يعني: «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده» ومن أولئك النبيين أرسلت رسلاً إلى خلقي مبشرين من أطاعني واتبع أمري وصدق رسلي بالثواب الجزيل في الجنة ومنذرين من عصاني وخالف أمري وكذب رسلي بالعذاب الأليم في النار. وقيل هو جواب عن سؤال اليهود إنزال الكتاب جملة واحدة والمعنى أن المقصود من بعثة الرسول هو إرشاد الخلق إلى معرفة الله وتوحيده والإيمان به والاشتغال بعبادته وإنذار من خالف ذلك وهذا المقصود يحصل بإنزال الكتاب جملة واحدة وبإنزاله نجوماً متفرقة بل إنزاله متفرقاً أولى. وذلك أن النفوس قبل بعثة الرسل وإنزال الكتب عليهم لم تكن تعرف شيئاً من العبادات ولم تألفها فإذا نزل الكتاب جملة واحدة وفيه جميع التكاليف ربما حصل في بعض نفوس العباد نفور من تلك التكاليف وتثقل عليهم كما أخبر الله عن قوم موسى بقوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه﴾ فلم يقبلوا أحكام التوراة إلّا بعد شدة فلهذا السبب كان إنزال القرآن نجوماً متفرقة أولى.

وقوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ يعني بعد إرسال الرسل وإنزال الكتاب والمعنى لئلا يحتج الناس على الله في ترك التوحيد والطاعة بعدم الرسل فيقولوا ما أرسلت إلينا رسولاً وما أنزلت علينا كتاباً ففيه دليل على أنه لو لم يبعث الرسل لكان للناس عليه حجة في ترك التوحيد والطاعة وفيه دليل على أن الله لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن معرفة الله تعالى لا تثبت إلّا بالسمع لأن قوله: «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» يدل على أن قبل بعثة الرسل تكون لهم الحجة في ترك الطاعات والعبادات. فإن قلت كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل والخلق محجوبون بما نصب من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى معرفته ووحدانيته كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قلت الرسل منبهون من رقاد الغفلة والجهالة وباعثون الخلق إلى النظر في تلك الدلائل التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ومبينون لها وهم وسائط بين الله تعالى وخلقه ومبينون أحكام الله تعالى التي افترضها على عباده ومبلغون رسالته إليهم (ق) عن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير مني ومن

قبل)، ﴿ورُسلاً لم نَقْصُصْهُمْ عليكَ وكلّمَ اللّهُ موسَى تكليماً﴾، قال الفرّاء: العرب تسمّي ما يُوصل إلى الإنسان كلاماً بأيّ طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر فإذا حُقّق بالمصدر ولم يكن إلّا حقيقة الكلام كالإرادة يُقال: أراد فلانٌ إرادةً، يُريد حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار، ولا يقال أراد الجدار إرادةً لأنه مجاز غير حقيقة.

قوله تعالى: ﴿ رُسلاً مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ لِئَلاّ يكونَ للنّاسِ على اللّهِ حُجّةٌ بعدَ الرُّسلِ ﴾، فيقولوا: ما أرسلتَ إلينا رسُولاً وما أنزلتَ إلينا كتاباً، وفيه دليل على أنّ الله تعالى لا يعذّب الخلق قبل بعثة الرسول، قال الله تعالى: ﴿ وما كُنّا مُعذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿ وكانَ اللّهُ عزيزاً حكيماً ﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل أنا أبو عوانة أنا عبد الملك عن وَرّاد كاتب المغيرة قال: قال سعد بن عُبادة رضي الله عنه: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربتُه بالسيف

أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الجنة» لفظ البخاري وفي لفظ مسلم ولا شخص أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين. وقوله تعالى:.

﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

﴿**وكان الله عزيزاً**﴾ يعني في انتقامه ممن خالف أمره وعصى رسله ﴿**حكيماً**﴾ يعني في إرساله الرسل قوله تعالى: ﴿**لكن الله يشهد بما أنزل إليك**﴾ قال ابن عباس دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم: «إني والله أعلم أنكم لتعلمن أني رسول الله» فقالوا ما نعلم ذلك فأنزل الله هذه الآية وفي رواية ابن عباس أن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد إنا سألنا عنك اليهود وعن صفتك في كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك فأنزل الله عز وجل لكن الله **يشهد** بما أنزل إليك يعني إن جحدك هؤلاء اليهود يا محمد وكفروا بما أوحينا إليك وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء فقد كذبوا فيما ادعوا فإن الله **يشهد** لك بالنبوة ويشهد بما أنزل إليك من كتابه ووحيه. والمعنى أن اليهود وإن شهدوا أن القرآن لم ينزل عليك يا محمد لكن الله يشهد بأنه أنزل عليك وشهادة الله إنما عرفت بسبب أنه أنزل هذا القرآن البالغ في الفصاحة والبلاغة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضته، والإيمان بمثله فكان ذلك معجزاً وإظهار المعجزة شهادة يكون المدعي صادقاً لا جرم قال الله تعالى لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك ﴿**أنزله بعلمه**﴾ يعني أنه تعالى لما قال لكن الله يشهد بما أنزل إليك بين صفة ذلك الإنزال وهو أنه تعالى أنزله بعلم تام وحكمة بالغة وقيل معناه أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك وأنك مبلغه إلى عباده وقيل معناه أنزله بما علم من مصالح عباده في إنزاله عليك ﴿**والملائكة يشهدون**﴾ يعني يشهدون بأن الله أنزله عليك ويشهدون بتصديقك وإنما عرفت شهادة الملائكة لأن الله تعالى إذا شهد بشيء شهدت الملائكة بذلك الشيء. وقد ثبت أن الله يشهد بأنه أنزله بعلمه فلذلك الملائكة يشهدون بذلك ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ يعني وحسبك يا محمد أن الله يشهد لك وكفى بالله شهيداً وإن لم يشهد معه أحد غيره ففيه تسلية للنبي ﷺ عن شهادة أهل الكتاب له فإن الله يشهد له وملائكته كذلك.

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين كفروا**﴾ يعني جحدوا نبوة محمد ﷺ وهم اليهود ﴿**وصدوا عن سبيل الله**﴾ يعني منعوا غيرهم عن الإيمان به بكتمان صفته وإلقاء الشبهات في قلوب الناس وهو قولهم لو كان محمد رسولاً لأتى

غير مُصْفِح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغْيَرُ منه، واللَّهُ أغيرُ منّي، ومن أجل غيرة الله حرّم الفواحشَ ما ظهرَ منها ومَا بَطنَ، ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعثَ المُنذرين والمُبشرين، ولا أحد أحبّ إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنّة».

قوله تعالى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إليكَ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما أن رؤساءَ مكة أتَوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد سألْنَا عنكَ اليهود وعن صفتك في كتابهم فزعمُوا أنهم لا يعرفونَكَ، ودخل عليه جماعة من

بكتاب من السماء جملة واحدة كما أتى موسى بالتوراة ﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ يعني عن طريق الهدى ﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾ يعني كفروا بالله وظلموا محمداً ﷺ بكتمان صفته وظلموا غيرهم بإلقاء الشبهة في قلوبهم ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ يعني لمن علم منهم أنهم يموتون على الكفر وقيل معناه لم يكن الله ليستر عليهم قبائح أفعالهم بل يفضحهم في الدنيا ويعاقبهم عليها بالقتل والسبي والجلاء في الآخرة بالنار وهو قوله تعالى: ﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾ يعني ينجون فيه من النار وقيل ولا ليهديهم طريقاً إلى الإسلام لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون ﴿إلاّ طريق جهنم﴾ يعني لكنه تعالى يهديهم إلى طريق يؤدي إلى جهنم وهي اليهودية لما سبق في علمه أنهم أهل لذلك ﴿خالدين فيها﴾ يعني في جهنم ﴿أبداً وكان ذلك على الله يسيراً﴾ يعني هيناً.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الناس﴾ هذا خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبادة الأصنام وغيرهم وقيل هو خطاب لمشركي العرب ﴿قد جاءكم الرسول﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بالحق﴾ يعني بدين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده وقيل جاء بالقرآن الذي هو الحق ﴿من ربكم﴾ يعني من عند ربكم ﴿فآمنوا خيراً لكم﴾ يعني فآمنوا بما جاءكم به محمد ﷺ يكن الإيمان بذلك خيراً لكم يعني من الكفر الذي أنتم عليه ﴿وإن تكفروا﴾ يعني وإن تجحدوا رسالة محمد ﷺ وتكذبوا بما جاءكم من الحق من ربكم ﴿فإن لله ما في السموات والأرض﴾ يعني فإن الله هو الغني عن إيمانكم لأن له ما في السموات والأرض ملكاً وعبيداً ومن كان كذلك لم يكن محتاجاً إلى شيء وأنه قادر على من يشاء ﴿وكان الله عليماً﴾ يعني بما يكون منكم لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده فيجزي كل عامل بعمله ﴿حكيماً﴾ يعني في تكليفهم مع علمه بما يكون منكم. قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ نزلت هذه الآية في النصارى وذلك أن الله تعالى لما أجاب عن شبه اليهود فيما تقدم من

اليهود فقال لهم: إنّي والله أعلم أنكم لتعلمنّ أنّي رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك والله، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ لكِنِ اللَّهُ يشهدُ بما أنزل إليكَ ﴾ إن جحدوك وكذّبوك، ﴿ أنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائكةُ يشهدُونَ وكَفى باللَّهِ شهيداً ﴾.

﴿ إنّ الذينَ كفرُوا وصدُّوا عنْ سَبيلِ اللَّهِ ﴾، بكتمانِ نَعْتِ محمد ﷺ، ﴿ قدْ ضَلُّوا ضَلالاً بعيداً ﴾.

﴿ إنّ الذينَ كفرُوا وظلمُوا ﴾، قيل: إنّما قال: ﴿ وظلمُوا ﴾ اتبع ظلمهم بكفرهم تأكيداً، وقيل: معناه كفروا بالله وظلموا محمداً ﷺ بكتمان نعته، ﴿ لمْ يكنِ اللَّهُ ليغفرَ لهُمْ ولاَ ليهديَهُمْ طريقاً ﴾، يعني: دين الإسلام.

﴿ إلاّ طريقَ جهنّم ﴾، يعني اليهودية، ﴿ خالدينَ فيها أبداً وكانَ ذلكَ على اللَّهِ يَسيْراً ﴾، وهذا في حق مَن سبق حكمه فيهم أنهم لا يؤمنون.

﴿ يا أيّها النّاسُ قدْ جاءَكُم الرسولُ بالحقِّ مِنْ رَبِّكُم فآمِنُوا خيراً لكُم ﴾، تقديره: فآمِنُوا يكن الإيمان خيراً لكم، ﴿ وإنْ تكفرُوا فإنّ للَّهِ ما في السمواتِ والأرضِ وكانَ اللَّهُ عليماً حكيماً ﴾.

﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تَغْلُوا في دينِكُم ﴾، نزلت في النصارى وهم أصناف أربعة اليعقوبية والملكانية

الآية اتبع ذلك بإبطال ما تعتقده النصارى وأصناف النصارى أربعة: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية، فأما اليعقوبية والملكانية فقالوا في عيسى أنه الله وقالت النسطورية إنه ابن الله وقالت المرقوسية ثالث ثلاثة وقيل: إنهم يقولون إن عيسى جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وبأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بأقنوم الأب الذات وأقنوم الابن عيسى. وبأقنوم روح القدس الحياة الحالة فيه فتقديره عندهم الإله ثلاثة، وقيل إنهم يقولون في عيسى ناسوتية وألوهية فناسوتيته من قبل الأم وألوهيته من قبل الأب تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً يقال إن الذي أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له بولص تنصر ودس هذا في دين النصارى ليضلهم بذلك. وستأتي قصته في سورة التوبة إن شاء الله تعالى وقيل يحتمل أن يكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى جميعاً. فإنهم غلوا في أمر عيسى عليه السلام. فأما اليهود فإنهم بالغوا في التقصير في أمره حتى حطوه عن منزلته حيث جعلوه مولوداً لغير رشدة وغلت النصارى في رفع عيسى عن منزلته ومقداره حيث جعلوه إلهاً فقال الله تعالى رداً عليهم جميعاً يا أهل الكتاب ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ وأصل الغلو مجاوزة الحد وهو في الدين حرام والمعنى لا تفرطوا في أمر عيسى ولا تحطوه عن منزلته ولا ترفعوه فوق قدره ومنزلته ﴿**ولا تقولوا على الله إلاّ الحق**﴾ يعني لا تقولوا إن له شريكاً وولداً وقيل معناه لا تصفوه بالحلول والاتحاد في بدن الإنسان ونزهوا الله تعالى عن ذلك، ولما منعهم الله من الغلو في دينهم أرشدهم إلى طريق الحق في أمرِ عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿**إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله**﴾ يقول إنما المسيح هو عيسى ابن مريم ليس له نسب غير هذا وأنه رسول الله فمن زعم غير هذا فقد كفر وأشرك ﴿**وكلمته**﴾ هي قوله تعالى: ﴿كن فكان بشراً﴾ من غير أب ولا واسطة ﴿**ألقاها إلى مريم**﴾ يعني أوصلها إلى مريم ﴿**وروح منه**﴾ يعني أنه كسائر الأرواح التي خلقها الله تعالى وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم كما يقال بيت الله وناقة الله. وهذه نعمة من الله يعني أنه تفضل بها وقيل الروح هو الذي نفخ فيه جبريل في جيب درع مريم فحملت بإذن الله. وإنما أضافه إلى نفسه بقوله منه لأنه وجد بأمر الله قال

والنسطورية والمرقسية، فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية، وقالت النسطورية: عيسى هو ابن الله، وقالت المرقسية ثالث ثلاثة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ويقال الملكانية يقولون: عيسى هو الله، واليعقوبية يقولون: ابن الله والنسطورية يقولون: ثالث ثلاثة عليهم رجل من اليهود يقال له بولص، سيأتي في سورة التوبة إنْ شاء الله تعالى. وقال الحسن يجوز أن تكون نزلت في اليهود والنصارى فإنهم جميعاً غلوا في أمر عيسى، فاليهود بالتقصير، والنصارى مجاوزة بالحدّ، وأصل الغلو مجاوزة الحدّ، وهو في الدِّين حرام، قال الله تعالى: ﴿ **لا تَغْلُوا في دِينِكُم** ﴾، لا تشدّدوا في دِينكم فتفترُوا على اللَّهِ الكذبَ ﴿ **ولا تَقُولُوا على اللَّهِ إلاّ الحقَّ** ﴾، لا تقولوا أنّ له شريكاً وولداً ﴿ **إنَّما المسيحُ عيسَى ابنُ مريمَ رَسُولُ اللَّهِ وكلمتُهُ** ﴾، وهي قوله: ﴿ كُنْ ﴾ [مريم: ٣٥] فكان بشراً من غير أب، وقيل غيره، ﴿ **ألقاها إلى مريم** ﴾ أي أعلمها وأخبرها بها، كما يقال: ألقيتُ إليك كلمة حسنة، ﴿ **ورُوحٌ منهُ** ﴾، قيل: هو روح كسائر الأرواح إلاّ أن الله تعالى أضافه إلى نفسه تشريفاً، وقيل: الروح هو النفخ الذي نفخه جبريل عليه السلام في دِرْعِ مريم فحملتهُ بإذن الله تعالى، سُمّي النفخ روحاً لأنه ريح يخرج من الروح وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره، وقيل: روح منه أي ورحمة، فكان عيسى عليه السلام رحمةً لِمَن تبعه وآمن به، وقيل: الروح الوحي أوحى إلى مريم بالبشارة وإلى جبريل عليه السلام أن كُنْ فكان كما قال الله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أمرِهِ ﴾ [النحل: ٢] يعني: بالوحي، وقيل: أراد بالروح جبريل عليه السلام، معناه كلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها أيضاً روح منه بأمره وهو جبريل عليه السلام، كما قال: ﴿ تنزّل الملائكةُ والرُّوح ﴾ [القدر: ٤]، يعني: جبريل فيها،

بعض المفسرين إن الله تعالى لما خلق أرواح البشر جعلها في صلب آدم عليه السلام، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام فلما أراد الله أن يخلقه أرسل بروحه مع جبريل إلى مريم فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام وقيل إن الروح والريح متقاربان في كلام العرب، فالروح عبارة عن نفخ جبريل عليه السلام وقوله منه يعني إن ذلك النفخ كان بأمره وإذنه وقيل أدخل النكرة في قوله وروح على سبيل التعظيم والمعنى روح وأي روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة وقوله منه إضافته تلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتكريم (ق) عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

وقوله تعالى: ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾ يعني فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله وأنه لا ولد له وصدقوا رسله فيما جاءكم به من عند الله وصدقوا بأن عيسى عليه السلام من رسل الله فآمنوا به ولا تجعلوه إله وقوله تعالى: ﴿**ولا تقولوا ثلاثة**﴾ يعني ولا تقولوا الآلهة ثلاثة وذلك أن النصارى يقولون أب وابن وروح القدس وقيل إنهم يقولون إن الله بالجوهر ثلاثة أقانيم وذلك أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاثة بدليل أنهم يجوزون على تلك الذات الحلول في عيسى وفي مريم فأثبتوا ذواتاً متعددة ثلاثة وهذا هو محض الكفر. فلهذا قال الله تعالى ولا تقولوا ثلاثة ﴿**انتهوا خيراً لكم**﴾ يعني يكون الانتهاء عن هذا القول خير لكم من القول بالتثليث ثم نزه الله تعالى نفسه عن قول النصارى بالتثليث فقال تعالى: ﴿**إنما الله إله واحد**﴾ ثم نزه نفسه عن الولد فقال ﴿**سبحانه أن يكون له ولد**﴾ يعني لا ينبغي أن يكون له ولد لأن الولد جزء من الأب وتعالى الله عن التجزئة، وعن صفات الحدوث ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني أنه تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه وعيسى ومريم من جملة من فيهما فهما عبيده وملكه فإذا كانا عبدين له فكيف يعقل مع هذا أن له ولداً أو زوجة تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً؟ وهذا بيان لتنزيهه مما نسب إليه من الولد والمعنى أن جميع ما في السموات والأرض خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزء منه؟ لأن التجزئة إنما تصح في الأجسام والله تعالى منزه عن صفات الأعراض والأجسام ﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾ يعني أنه تعالى كاف في تدبير جميع خلقه فلا حاجة له إلى غيره، وكل الخلق محتاجون إليه وفقراء إليه وهو غني عنهم.

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن

وقال: ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ [مريم: ١٧]، يعني: جبريل. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أنا صدقة بن الفضل أنا الوليد عن الأوزاعي حدّثنا عمرو بن هانـي حدّثني جُنادة بن أمية عن عُبادة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ أنْ لا إلَه إلاّ اللّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه وأنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه وابنُ أمتِهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجنّةُ حقٌّ والنّارُ حقٌّ أدْخلَهُ الجنّةَ على ما كانَ منَ العمل». ﴿ فآمِنُوا باللّهِ ورُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ﴾، أي: ولا تقولوا هم بثلاثة، وكانت النصارى تقول: أب وابن وروح القدس، ﴿ انْتَهُوا خيراً لكُم ﴾، تقديره: انتهوا يكنِ الانتهاءُ خيراً لكم، ﴿ إنما اللّهُ إلَهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أنْ يكونَ لهُ وَلَدٌ ﴾، واعلم أنّ التبنّي لا يجوز لله تعالى، لأنّ التبنّي إنّما يجوز لمَن يُتصوّر له ولد، ﴿ لهُ ما في السّمٰواتِ وَمَا في الأرضِ وكَفَى باللّهِ وَكِيلاً ﴾.

فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا
وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ
وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

وقوله تعالى: ﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله**﴾ وذلك أن وفد نجران قالوا يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله فقال النبي ﷺ إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله فنزلت لن يستنكف المسيح يعني لن يأنف ولن يتعظم والاستنكاف الاستكبار مع الأنفة يقال نكفت من كذا واستنكفت منه أي أنفت منه وأصله من نكفت الشيء نحيته ونكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك من خدك والمعنى لن ينقبض ولن يمتنع ولن يأنف المسيح أن يكون عبدالله ﴿**ولا الملائكة المقربون**﴾ يعني ولن يستنكف الملائكة المقربون وهم حملة العرش والكروبيون وأفاضل الملائكة مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أن يكونوا عبيدالله لأنهم في ملكه ومن جملة خلقه وقيل لما ادّعت النصارى في عيسى أنه ابن الله وذلك لما رأوا منه خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من المعجزات، أجاب الله تعالى عن هذه الشبهات التي وقعت للنصارى بأن عيسى من شرف قدره وكرامته لن يستنكف أن يكون عبداً لله. وكذلك الملائكة المقربون فإنهم مع كرامتهم وعلو منزلتهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله وقد يستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر ووجه الدليل أن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يرتقي إلاّ من الأدنى إلى الأعلى ولا حجة لهم فيه والجواب عنه أن الله تعالى لم يقل ذلك رفعاً لمقامهم على مقام البشر بل قاله رداً على من يقول إن الملائكة بنات الله أو أنهم آلهة كما رد على النصارى قولهم إن المسيح ابن الله وقاله أيضاً رداً على النصارى فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة يعني كما أن المسيح عبدالله فكذلك الملائكة عبيدالله. وقوله تعالى: ﴿**ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر**﴾ يعني ومن يتعظم عن عبادة الله ويأنف من التذلل لله والخضوع والطاعات من جميع خلقه ﴿**فسيحشرهم إليه جميعاً**﴾ يعني فسيبعثهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم**﴾ يعني يوفيهم جزاء أعمالهم الصالحة ﴿**ويزيدهم من فضله**﴾ يعني ويزيدهم على ما أعطاهم من الثواب على أعمالهم الصالحة من التضعيف على ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿**وأما الذين استنكفوا واستكبروا**﴾ يعني الذين أنفوا وتكبروا عن عبادة الله تعالى ﴿**فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله**﴾ يعني من سوى الله لأنفسهم ﴿**وليّاً**﴾ يعني ينجيهم من عذابه ﴿**ولا نصيراً**﴾ يعني ولا ناصراً ينصرهم منه، ويدفع عنهم عقوبته بقي في الآية سؤال وهو أن التفصيل غير مطابق للمفصل لأن التفصيل اشتمل على ذكر فريقين:

قوله تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أنْ يكونَ عبداً للهِ ﴾، وذلك أنّ وفد نجران قالوا: يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «**إنّه ليس بعار لعيسى عليه السلام أن يكونَ عبدَ اللّهِ**»، فنزل: **﴿ لنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ ﴾**، لن يأنف ولن يتعظم، والاستنكاف: التكبّر مع الأَنَفَة، **﴿ ولاَ الملائِكَةُ المُقَرَّبُون ﴾**، وهم حَمَلَة العرش، لا يأنفون أن يكونوا عبيداً لله، ويستدلّ بهذه الآية مَن يقول بتفضيل الملائكة على البشر، **لأن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يُرتقى إلاّ إلى الأعلى**، لا يقال: لا يستنكف فلان من كذا ولا عبده، إنّما يقال: فلان لا يستنكف من هذا ولا مولاه، ولا حجّة لهم فيه لأنه لم يقل ذلك رفعاً لمقامهم على مقام البشر، بل ردّاً على الذين يقولون الملائكة آلهة، كما ردّ على النصارى قولَهم المسيح ابن الله، وقال ردّاً على النصارى بزعمهم، فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة. قوله تعالى: **﴿ ومَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ**

وهو قوله: «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيوفيهم أجورهم وأما الذين استنكفوا واستكبروا» والمفصل اشتمل على ذكر فريق واحد وهو قوله: «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر» والجواب أنه لا إشكال فيه فهو مثل قولك جمع الإمام الخوارج فمن لم يخرج عليه كساه وحمله ومن خرج عليه نكل به، وصحة ذلك لوجهين: أحدهما أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه لأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني، والوجه الثاني أن الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم فكأنه قال ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيعذبهم بالحسرة والغم إذا رأوا أجور المطيعين العاملين لله تعالى. قوله عز وجل: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب للكافة ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾ يعني محمداً ﷺ وما جاء به من البينات من ربه عز وجل وإنما سماه برهاناً لما معه من المعجزات الباهرات التي تشهد بصدقه ولأن للبرهان دليل على إقامة الحق وإيصال الباطل والنبي ﷺ كان كذلك ولأنه تعالى جعله حجة قاطعة قطع به عذر جميع الخلائق ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ يعني القرآن وإنما سماه نوراً لأن به تتبين الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور بعد الظلام ولأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب فسماه نوراً لهذا المعنى ﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ يعني صدقوا بوحدانية الله وبما أرسل من رسول وأنزل من كتاب ﴿واعتصموا به﴾ يعني بالله في أن يثبتهم على الإيمان ويصونهم عن زيغ الشيطان، وقيل في معنى واعتصموا به أي وتمسكوا بالنور وهو القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ يعني فسيدخلهم في رحمته التي ينجيهم بها من أليم عذابه قال ابن عباس الرحمة الجنة ﴿وفضل﴾ يعني ما يتفضل به عليهم بعد إدخالهم الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ يعني ويوفقهم لإصابة فضله الذي تفضل به عليهم ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته ويرشدهم لدينه الذي ارتضاه لعباده وهو دين الإسلام. قوله تعالى: .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ نزلت في جابر بن عبدالله الأنصاري (ق) عن جابر بن عبدالله قال

جَميعاً﴾، قيل: الاستنكاف هو التكبّر مع الأنفة، والاستكبار هو العلو والتكبّر من غير أَنفَة.

﴿فأمّا الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحات فَيُوفّيهم أُجورَهُمْ ويَزيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾، من تضعيف ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشر، ﴿وأمّا الذينَ اسْتَنكَفُوا واسْتَكْبَرُوا﴾، عن عبادته، ﴿فيُعذِّبُهم عذاباً أليماً ولا يَجِدُونَ لهمْ مِّنْ دُونِ اللّهِ وليّاً ولا نَصِيْراً﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يا أيّها النّاسُ قَدْ جاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يعني: محمداً ﷺ، هذا قول أكثر المفسّرين، وقيل: هو القرآن، والبرهانُ: الحُجّة، ﴿وأنزَلْنا إليكُمْ نُوراً مُبيناً﴾، بيّناً يعني القرآن.

﴿فأمّا الذينَ آمَنُوا باللّهِ واعْتَصَمُوا بِهِ﴾، امتنعوا به من زيغ الشيطان، ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ في رَحْمَةٍ منهُ وفَضْلٍ﴾، يعني الجنّة، ﴿ويَهْدِيهِمْ إليهِ صِراطاً مُسْتقيماً﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ﴾ نزلت في جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال:

مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأغمي عليّ فتوضأ النبي ﷺ ثم صب علي من وضوئه فأفقت فإذا النبي ﷺ فقلت يا رسول الله كيف أصنع في مالي؟ كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وفي رواية فقلت يا رسول الله إنما يرثني كلالة فنزلت آية الميراث قال شعبة فقلت لمحمد بن المنكدر يستفتونك: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ قال هكذا نزلت وفي رواية للترمذي وكان لي تسع أخوات حتى نزلت آية الميراث: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ ولأبي داود قال اشتكيت وعندي سبع أخوات فدخل على رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي فأفقت فقلت يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين؟ قال أحسن قلت بالشطر؟ قال أحسن ثم خرج وتركني فقال يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك فجعل لهن الثلثين قال فكان جابر يقول أنزلت هذه الآية في: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وروى الطبري عن قتادة أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها نبي الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية وروى عن ابن سيرين قال نزلت: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ والنبي ﷺ في مسير له وإلى جنبه حذيفة بن اليمان فبلغها النبي ﷺ حذيفة وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه فلما استخلف عمر سأل حذيفة عنها ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له حذيفة والله لأنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملني أن أحدثك فيها ما لم أحدثك يومئذٍ فقال عمر لم أرد هذا رحمك الله. وأما التفسير فقوله تعالى: ﴿يستفتونك﴾ يعني يسألونك ويستخبرونك عن معنى الكلالة يا محمد قل: الله يفتيكم في الكلالة يعني أن الله هو يخبركم عما سألتم عنه من أمر الكلالة. وقد تقدم في أول السورة الكلام على معنى الكلالة من حيث الاشتقاق وغيره وأن اسم الكلالة يقع على الوارث وعلى المورث فإن وقع على الوارث فهم من سوى الوالد والولد وإن وقع على الموروث فهو من مات ولا يرثه أحد الأبوين ولا أحد الأولاد.

قوله تعالى: ﴿إن امرؤ هلك﴾ يعني مات سمي الموت هلاكاً لأنه إعدام في الحقيقة ﴿ليس له ولد﴾ يعني ولا والد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر ودل على المحذوف أن السؤال في الفتيا إنما كان في الكلالة وقد تقدم أن الكلالة من ليس له ولد ولا والد ﴿وله أخت﴾ يعني ولذلك الهالك أخت وأراد بالأخت من أبيه وأمه أو من أبيه ﴿فلها نصف ما ترك﴾ يعني فللأخت الميت نصف تركته وهو فرضها إذا انفردت وباقي المال لبيت المال إذا لم يكن للميت عصبة. وهذا مذهب زيد بن ثابت وبه قال الشافعي وعند أبي حنيفة وأهل العراق يرد الباقي عليها فإذا كان للميت بنت أخذت النصف بالفرض وتأخذ الأخت النصف الباقي بالتعصيب لا بالفرض لأن الأخوات مع البنات عصبة.

عادني رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، وتوضأ وصبَّ عليَّ من وضوئه، فعلقتُ فقلتُ: يا رسول الله لِمَن الميراث إنهما يرثني كَلالة؟ فنزلت ﴿ يستفتونَكَ قلِ اللّهُ يُفتيكُمْ في الكَلالَةِ ﴾، وقد ذُكر معنى الكلالَة وحكم الآية في أوّل السورة، وفي هذه الآية بيان حكم ميراث الأخوة للأب والأم وللأب، قوله: ﴿ يستفتونك ﴾ أي: يستخبرُونَكَ ويسألونَكَ، ﴿ قُلِ اللّهُ يُفتيكُمْ في الكَلالَة ﴾، ﴿ إنِ امْرُؤٌ هَلَكَ ليسَ لَهُ ولدٌ وله أُختٌ فلها نصفُ ما تركَ وهو يَرِثُها ﴾، يعني إذا ماتت الأُخت فجميع ميراثها للأخ، ﴿ إنْ لمْ يكنْ لها وَلَدٌ ﴾ فإن كان لها ابنٌ فلا شيء للأخ، وإنْ كان ولدها أنثى فللأخ ما فَضُلَ عن فرض البنات، ﴿ فإنْ كَانَتَا اثنتين فلهُمَا الثلثانِ مِمّا تَرَكَ ﴾، أراد اثنتين فصاعداً وهو أنّ مَن مات وله أخوات فلهنّ الثلثان، ﴿ وإنْ كَانُوا إخوةً رِجَالاً ونِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾، ﴿ يُبَيِّنُ اللّهُ لكم أنْ تَضِلُّوا ﴾، قال الفرّاء رحمة الله عليه وأبو عبيدة: معناه أن لا تضلّوا، وقيل: معناه يبيّن اللّهُ لكم كراهة أن تضلّوا، ﴿ واللّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن رجاء أنا إسرائيل عن أبي إسحق عن

وقوله تعالى: ﴿وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ يعني أن الأخت إذا ماتت وتركت أخاً من الأب والأم أو من الأب فإنه يستغرق جميع ميراث الأخت إذا انفرد ولم يكن للأخت ولد وهذا أصل في جميع العصبات واستغراقهم جميع المال، فأما الأخ من الأم فإنه صاحب فرض لا يستغرق جميع المال وقد تقدم بيانه ﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ أراد بنتين فصاعداً وهو أن من مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك الميت ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ يعني وإن كان المتروكون من الإخوة رجالاً ونساء فللذكر منهم نصيب اثنتين من الإخوة الإناث ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ يعني يبين الله لكم هذه الفرائض والأحكام لئلا تضلوا. وقيل معناه كراهية أن تضلوا وقيل بيّن الله الضلالة لتجتنبوها ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يعني من مصالح عباده التي حكم بها من قسمة المواريث وبيان الأحكام وغير ذلك لأن علمه محيط بكل شيء (ق) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال إن آخر سورة نزلت تامة سورة التوبة وإن آخر آية نزلت آية الكلالة وفي رواية لمسلم قال آخر آية نزلت يستفتونك وروي عن ابن عباس أن آخر سورة نزلت تامة سورة التوبة وأن آخر آية الكلالة وفي رواية لمسلم قال آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح وروي عنه أن آخر آية نزلت ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ وروي أن النبي ﷺ عاش بعد نزول سورة النصر سنة ونزلت بعدها سورة براءة وهي آخر سورة نزلت كاملة فعاش بعدها ستة أشهر هكذا ذكره البغوي وفيه نظر لأنه قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه في الحجة التي أمره عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر: ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا في أهل منى ببراءة ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وكانت حجة أبي بكر هذه سنة تسع قبل حجة الوداع بسنة قال البغوي: ثم نزلت في طريق حجة الوداع ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ فسميت آية الصيف ثم نزلت وهو واقف بعرفة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فعاش بعدها أحداً وثمانين يوماً ثم نزلت آية الربا ثم نزلت: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ عاش النبي ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً. وهذا آخر تفسير سورة النساء والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

تم الجزء الأول من تفسير الخازن

ويليه الجزء الثاني

وأوله: تفسير سورة المائدة

البراء رضي الله عنهم قال: آخرُ سورةٍ نزلتْ كاملةً براءة، وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء ﴿ يستفتونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفتيكُم في الكَلالة ﴾. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ آخر آية نزلتْ آيةُ الرِّبا، وآخر سورة نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [النصر: ١]. ورُوِيَ عنه أن آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿ واتقُوا يوماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. ورُوِيَ بعدما نزلت سورة النصر عاشَ النبي ﷺ عاماً، ونزلت بعدها سورة براءة وهي آخر سورة نزلت كاملةً فعاش النبي ﷺ بعدها ستّة أشهر، ثم نزلت في طريق حجّة الوداع ﴿ يستفتونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفتيكُم في الكَلالة ﴾ فسُمّيتْ آية الصَّيف، ثم نزلت وهو واقف بعَرَفَة: ﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دِيْنَكُم وأتممتُ عليكُم نِعْمَتِي ﴾ [المائدة: ٣]، فعاش بعدها أحداً وثمانين يوماً، ثم نزلت آيات الرِّبا، ثم نزلت ﴿ واتَقُوا يوماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً.

بعونه تعالى تمّ الجزء الأول

ويليـه الجـزء الثاني

وأوله سورة المائدة

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
(قرآن كريم)

تفسير سورة المائدة

نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ فإنها نزلت بعرفة في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفة فقرأها النبي ﷺ في خطبته وقال «يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها». فإن قلت لما خص النبي ﷺ هذه السورة من بين سور القرآن بقوله فأحلوا حلالها وحرموا حرامها وكل سور القرآن يجب أن يحل حلالها ويحرم حرامها، قلت هو كذلك وإنما خص هذه السورة لزيادة الاعتناء بها فهو كقوله تعالى: ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ فأكد اجتناب الظلم في هذه الأربعة أشهر وإن كان لا يجوز الظلم في شيء من جميع أشهر السنة وإنما أفرد هذه الأربعة الأشهر بالذكر لزيادة الاعتناء بها، وقيل إنما خص النبي ﷺ هذه السورة لأن فيها ثمانية عشر حكماً لم تنزل في غيرها من سور القرآن.

قال البغوي روي عن ميسرة قال: إن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها وهي قوله: ﴿**والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام وما علمتم من الجوارح مكلبين وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب**﴾ وتمام بيان الطهر في قوله: «إذا قمتم إلى الصلاة ـ والسارق والسارقة ـ ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ـ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام» وقوله: ﴿**شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت**﴾.

سُورَة المَــائِدَةِ

مدنيّة كلها إلاّ قوله: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم ﴾ [٣] الآية، فإنها نزلت بعرفات، وهي مائة وعشرون آية.

بِسْـــمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رُوِيَ عن أبي ميسرة قال: أنزل الله تعالى في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم يُنزلها في غيرها، قوله: ﴿ أُحلّت لكم بهيمة الأنعام ﴾ [١] وقوله: ﴿ والمنخنقةُ والموقوذةُ والمترديةُ والنطيحةُ وما أكلَ السَّبُعُ إلاّ ما ذكّيتم وما ذُبحَ على النُّصُبِ وأن تستقسموا بالأزْلام وما علّمتم من الجوارح مُكلّبين تعلمونهنّ ﴾ [٣]، ﴿ وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمُحصناتُ من المؤمنات والمحصناتُ من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلِكُمْ ﴾ [٥]، وتمام الطهور في قوله: ﴿ إذا قمْتُم إلى الصلاةِ ﴾ [٦]، ﴿ والسارقُ والسارقة ﴾ [٣٨]، ﴿ ولا تقتلوا الصيدَ وأنتم حُرُم ﴾ [٩٥] الآية، ﴿ وما جعلَ اللَّهُ من بَحِيْرةٍ ولا سَائِبَةٍ ولا وَصِيْلَةٍ ولا حَام ﴾ [١٠٣]، وقوله: ﴿ شهادةُ بينِكم إذا حضرَ أحدَكُمُ الموتُ ﴾ [١٠٦].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ يعني العهود قال الجماعة: واختلفوا في المراد بهذه العقود التي أمر الله تعالى بوفائها فقال ابن جريج: هذا خطاب لأهل الكتاب. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة، أوفوا بالعقود التي عهدتها إليكم في شأن محمد ﷺ والإيمان به. وقيل: هو خطاب للمؤمنين أمرهم بالوفاء بالعقود. قال ابن عباس: هي عهود الإيمان وما أخذه على عباده في القرآن فيما أحل وحرم. وقيل هي العقود التي كانت في الجاهلية كان يعاقد بعضهم بعضاً على النصرة والمؤازرة على من حاول ظلمه أو بغاه بسوء وذلك هو معنى الحلف الذي كانوا يتعاقدونه بينهم. قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول «أوفوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقداً في الإسلام».

وقيل: بل هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم وما يعقده الإنسان على نفسه. والعقود خمسة: عقد اليمين، وعقد النكاح، وعقد العهد، وعقد البيع، وعقد الشركة. زاد بعضهم: وعقد الحلف.

قال الطبري: وأولى الأقوال عندنا بالصواب ما قاله ابن عباس أن معناه أوفوا يا أيها المؤمنون بعقود الله التي أوجبها عليكم وعقدها فيما أحلَّ وحرم عليكم وألزمكم فرضه وبيَّن لكم حدوده وإنما قلنا إن هذا القول أولى بالصواب، لأن الله تعالى أتبعه بالبيان عما أحل لعباده وحرم عليهم فقال تعالى: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ وهو خطاب للمؤمنين خاصة والبهيمة اسم لكل ذي أربع من الحيوان لكن خص في التعارف بما عدا السباع والضواري من الوحوش وإنما سميت بهيمة لأنها أبهمت عن العقل والتمييز. قال الزجاج: كل حي لا يميز فهو بهيمة. والأنعام: جمع النعم وهي الإبل والبقر والغنم ولا يدخل فيها ذوات الحافر في قول جميع أهل اللغة. واختلفوا في معنى الآية فقال الحسن وقتادة: بهيمة الأنعام، الإبل والبقر والغنم والمعز. وعلى هذا القول إنما أضاف البهيمة إلى الأنعام على جهة التوكيد. وقال الكلبي: بهيمة الأنعام وحشيّها كالظباء وبقر الوحش وحمر الوحش. وعلى هذا إنما أضاف البهيمة إلى الأنعام ليعرف جنس الأنعام وما أحل منها لأنه لو أفردها فقال البهيمة لدخل فيه ما يحل ويحرم من البهائم فلهذا قال تعالى: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾. وقال ابن عباس: هي الأجنَّة التي توجد ميتة في بطون أمهاتها إذا ذبحت أو نحرت. ذهب أكثر العلماء إلى تحليلها وهو مذهب الشافعي ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال في الجنين ذكاته ذكاة أمه أخرجه الترمذي وابن ماجه.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا أوْفُوا بالعُقود ﴾، أي بالعهود، قال الزجّاج: هي أوكد العهود، يقال: عاقدتُ فلاناً وعقدتُ عليه أي: ألزمتُه ذلك باستئناف، وأصله من عقد الشيء بغيره ووصله به، كما يُعقد الحبل بالحبل إذا وُصل، واختلفوا في هذه العقود، قال ابن جُريج: هذا خطاب لأهل الكتاب، يعني: يا أيّها الذين آمنُوا بالكتب المتقدمة أوْفُوا بالعهود التي عهدتُها إليكم في شأن محمد ﷺ، وهو قوله: ﴿ وإذْ أخذَ اللّهُ ميثاقَ الذينَ أُوتوا الكتابَ لَتُبيننّه للناس ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال الآخرون: هو عامّ، قال قتادة: أراد بها الحلف الذي تعاقدوا عليه في الجاهلية، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي عهود الإيمان والقرآن، وقيل: هي العقود التي يتعاقدها الناس بينهم، ﴿ **أُحلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام** ﴾، قال الحسن وقتادة: هي الأنعام كلّها، وهي الإبل والبقر والغنم، وأراد تحليل ما حرّم أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بهيمة الأنعام هي الأجنّة، ومثله عن الشعبي قال: هي الأجنّة التي تُوجد ميتة في بطون أُمهاتها إذا ذُبحت أو نحرت،

وفي رواية أبي داود قال: «قلنا يا رسول الله ننحر النّاقة ونذبح البقرة والشاة ونجد في بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله؟ قال: كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه» وروى الطبري عن ابن عمر في قوله: أحلّت لكم بهيمة الأنعام، قال: ما في بطنها.

قال عطية العوفي: قلت إن خرج ميتاً آكله؟ قال: نعم هو بمنزلة رئتها وكبدها. وعن ابن عباس قال: الجنين من بهيمة الأنعام وعنه أن بقرة نحرت فوجد في بطنها جنين فأخذ ابن عباس بذنب الجنين. وقال: هذا من بهيمة الأنعام. وشرط بعضهم الإشعار وتمام الخلق. وقال ابن عمر: ذكاة ما في بطنها ذكاتها إذا تم خلقه ونبت شعره ومثله عن سعيد بن المسيب. وقال أبو حنيفة: لا يحل أكل الجنين إذا خرج ميتاً بعد ذكاة الأم.

وقوله تعالى: ﴿**إلا ما يتلى عليكم**﴾ يعني في القرآن تحريمه وأراد به قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ إلى آخر الآية فهذا من المتلو علينا وهو ما استثنى الله عز وجل من بهيمة الأنعام ﴿**غير محلّي الصيد وأنتم حرم**﴾ يعني أحللت لكم الأنعام كلها والوحشية أيضاً من الظباء والبقر والحمر غير محلّي صيدها وأنتم محرمون في حال الإحرام فلا يجوز للمحرم أن يقتل صيداً في حال إحرامه ﴿**إن الله يحكم ما يريد**﴾ يعني أن الله يقضي في خلقه ما يشاء، من تحليل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه وفرض ما يشاء أن يفرضه عليهم من أحكامه وفرائضه مما فيه مصلحة لعباده.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله**﴾ نزلت في الحطم واسمه شريح بن هند بن ضبعة البكري

ذهب أكثر أهل العلم إلى تحليله، قال الشيخ رحمه الله تعالى: قرأتُ على أبي عبد الله محمد بن الفضل الخرقي فقلتُ: قرأ عليّ أبي سهلٍ محمدُ بن عمر بنُ طرفة الشجري وأنتَ حاضر، فقيل له: حدّثكم أبو سليمان الخطابي أنا أبو بكر ابن داسة أنا أبو داود السجستاني أنا مسدد أنا هشيم عن مخلد عن أبي الوداك عن أبي مسعود رضي الله عنهم قال قلنا: يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة والشاة فنجد في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إنْ شئتُمْ فإنّ ذكاتَه ذكاةُ أمّه»، وروى أبو الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمّه» وشرط بعضهم الإشعار، قال ابن عمر: ذكاة ما في بطنها في ذكاتها إذا تَمَّ خلقُه ونبتَ شعرُه، ومثله عن سعيد بن المسيب، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يحلُّ أكل الجنين إذا خرج ميتاً بعد ذكاة الأم. وقال الكلبي: بهيمة الأنعام وحشها وهي الظباء وبقر الوحش وحُمر الوحش، سُمّيت بهيمةً لأنها أُبهمت عن التميز، وقيل: لأنها لا نطق لها، ﴿ إلّا ما يُتلَى عليكُم ﴾ أي: ما ذُكر في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وما ذُبحَ على النُّصب ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿ غَيْرَ مُحلّي الصَّيْدِ ﴾، وهو نصب على الحال، أي: لا مُحلّي الصيد، ومعنى الآية: أُحلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام كلّها إلّا ما كان منها وحشياً فإنه صيدٌ لا يحلّ لكم في حال الإحرام، فلذلك قوله تعالى: ﴿ وأنتم حُرُمٌ إنّ الله يَحْكُمُ ما يُريد ﴾.

﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لا تُحِلّوا شَعائِرَ اللّهِ ﴾، نزلت في الحطم واسمه شريح بن ضبيعة البكري، أتى المدينة

أتى المدينة وحده وخلف خيله خارج المدينة ودخل على النبي ﷺ فقال للنبي ﷺ: إلا ما، تدعو الناس فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقال حسن إلا أن لي أمراء لا أقطع أمراً دونهم ولعلي أسلم وآتي بهم فخرج من عنده وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه: يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان فلما خرج شريح. قال النبي ﷺ: لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر وما الرجل بمسلم، فمرَّ بسرح من سرح المدينة فاستاقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول:

لقد لفّها بالليل سواق حطم ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم باتوا نياماً وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزلم خدلج الساقين ممسوح القدم

فتبعوه فلم يدركوه فلما كان العام القابل، خرج شريح حاجّاً مع حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة وقد قلد الهدي، فقال المسلمون: يا رسول الله هذا الحطم قد خرج حاجاً فخلِّ بيننا وبينه، فقال النبي ﷺ: إنه قد قلد الهدي. فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية فأبى النبي ﷺ فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾**.

قال ابن عباس: هي المناسك كان المشركون يحجون ويهدون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك.

وقيل: الشعائر، الهدايا المشعرة وإشعارها أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه فيكون ذلك علامة أنها هدي وهو سنة في الإبل والبقر عون الغنم، ويدل عليه ما روي عن عائشة: «فتلت قلائد بدن النبي ﷺ ثم أشعرها وقلدها ثم بعث بها إلى البيت فما حرم عليه شيء كان له حلالاً» أخرجاه في الصحيحين (م).

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بذي الحليفة ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم عنها وقلدها نعلين ثم ركب راحلته فلما استوت به على البيداء أهلَّ بالحج. وعند أبي حنيفة لا يجوز إشعار الهدي

وخلّف خيله خارج المدينة، ودخل وحده على النبي ﷺ فقال له: إلامَ تدعُو الناسَ؟ فقال له: «إلى شهادة أنْ لا إلّه إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة»، فقال: حسن، إلّا أن لي أُمراء لا أقطع أمراً دونهم، ولَعلّي أسلم وآتي بهم، وقد كان النبي ﷺ قال لأصحابه: «يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان الشيطان»، ثم خرج شريح من عنده، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر وخرجَ بقفا غادرٍ وما الرجل بمسلم»، فمرّ بسرح المدينة فاستاقه وانطلق، فاتبعوه فلم يُدركوه، فلمّا كان العام القابل خرج حاجّاً في حجّاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة، وقدْ قلّدُوا الهَدْيَ، فقال المسلمون للنبي ﷺ: هذا الحطم قد خرج حاجّاً فخلّ بيننا وبينه، فقال النبي ﷺ: «إنه قلّد الهَدْيَ»، فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنّا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لا تُحلُّوا شعائرَ اللّهِ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هي مناسك الحج، وكان المشركون يحجّون ويهدون، فأرادَ المسلمون أن يُغيّرُوا عليهم فنهاهم الله عن ذلك. وقال أبو عبيدة: شعائر الله هي الهدايا المُشْعَرة، والإشعار من الشعار، وهي العلامة، وأشعارها، أعلامها بما يُعرَف أنها هَدْي، والإشعار ههنا: أن يطعن في صَحْفَةِ سنانِ البعير بحديدة حتى يسيلَ الدمُ، فيكون ذلك علامة أنها هَدْي، وهي سُنّة في الهدايا إذا كانت من الإبلِ، لِما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم أنا أفلح عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فتلتُ قلائدَ بُدْنِ

بل قال يكره ذلك. وقال ابن عباس[1] في معنى الآية: لا تحلوا شعائر الله هي أن تصيد وأنت محرم. وقيل: شعائر الله شرائع الله ومعالم دينه، والمعنى: لا تحلوا شيئاً من فرائضه التي افترض عليكم واجتنبوا نواهيه التي نهى عنها ﴿ولا الشهر الحرام﴾ أي ولا تحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه والشهر الحرام: هو الذي كانت العرب تعظمه وتحرم القتال في الجاهلية فيه، فلما جاء الإسلام، لم ينقض هذا الحكم، بل أكده. والمراد بالشهر الحرام هنا، ذو القعدة. وقيل: رجب. ذكرهما ابن جرير. وقيل: المراد بإحلال الشهر الحرام النسيء. قال مقاتل: كان جنادة بن عوف يقوم في سوق عكاظ، فيقول: إني قد أحللت كذا وحرمت كذا يعني به الأشهر فنهى الله عن ذلك وسيأتي تفسير النسيء في سورة براءة: ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾ الهدي ما يهدى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة أو غير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى، والقلائد جمع قلادة وهي التي تُشد في عنق البعير وغيره والمعنى: ولا الهدي ذوات القلائد. قال الشاعر:

حلفت برب مكة والمصلى وأعناق هدين مقلدات

فعلى هذا القول إنما عطف القلائد على الهدي مبالغة في التوصية لأنها من أشراف البدن المهداة والمعنى: ولا تستحلوا الهدي خصوصاً المقلدات منها. وقيل: أراد أصحاب القلائد وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا أرادوا الخروج من الحرم قلدوا أنفسهم وإبلهم من لحاء شجر الحرم فكانوا يأمنون بذلك فلا يتعرض لهم أحد، فنهى الله المؤمنين عن ذلك الفعل ونهاهم عن استحلال نزع شيء من شجر الحرم ﴿ولا آمّين البيت الحرام﴾ يعني ولا تستحلوا القاصدين إلى البيت الحرام وهو الكعبة شرَّفها الله وعظمها ﴿يبتغون﴾ يعني يطلبون ﴿فضلاً من ربهم﴾ يعني الرزق والأرباح في التجارة ﴿ورضواناً﴾ يعني ويطلبون رضا الله عنهم بزعمهم لأن الكافر لا حظ له في الرضوان لكن يظن أن فعله ذلك طلب الرضوان فيجوز أن يوصف به بناء على ظنه. وقيل إن المشركين كانوا يقصدون بحججهم ابتغاء رضوان الله وإن كاوا لا يغالونه فلا يبعد أن يحصل لهم بسبب ذلك القصد نوع من الحرمة وهو الأمن على أنفسهم. وقيل: كان المشركون يلتمسون في حجهم ما يصلح لهم دنياهم ومعاشهم. وقيل: ابتغاء الفضل هو للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة وذلك أنهم يحجون جميعاً.

النبي ﷺ بيدي، ثم قلّدَها وأشعرَها وأهداها، فما حَرُمَ عليه شيء كان أُحِلّ له، وقاس الشافعي البقرَ على الإبل في الإشعار، وأمّا الغنم فلا تشعر بالجرح، فإنها لا تحتمل الجرح لضعفها، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يشعر الهدي، وقال عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تُحِلّوا شعائرَ الله هي أن تَصِيْدَ وأنتَ محرمٌ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وإذا حَلَلْتُم فاصطادُوا ﴾، وقال السدي: أراد حرم الله، وقيل: المراد منه النهي عن القتل في الحرم، وقال عطاء: شعائر الله حرمات الله واجتناب سخطه واتّباع الطاعة، قوله: ﴿ ولا الشَّهرَ الحَرامَ ﴾، أي: بالقتال فيه، وقال ابن زيد: هو النسيء، وذلك أنهم كانوا يُحِلّونه عاماً ويُحرّمُونه عاماً، ﴿ ولا الهَدْيَ ﴾، هو كل ما يُهدَى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة، ﴿ ولا القَلائِدَ ﴾، أي: الهدايا المُقلّدة، يريد ذواتِ القلائد، وقال عطاء: أراد أصحاب القلائد، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا أرادوا الخروج من الحرم قلّدُوا أنفسهم وإبلهم بشيءٍ منْ لِحَاءِ شجرِ الحرم كيلا يُتعرّض لهم، فنهى الشرعُ عن استحلال شيء منها. وقال مطرف بن الشخير: هي القلائد نفسها وذلك أنّ المشركين كانوا يأخذون من لِحَاءِ شجر مكة ويتقلّدونها فنُهوا عن نزع شجرها. قوله تعالى: ﴿ ولا آمّينَ البيتَ الحرامَ ﴾، أي: قاصدين البيت الحرام، يعني: الكعبة فلا تتعرّضُوا لهم، ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون ﴿ فَضْلاً مِنْ

---

(١) قوله وقال ابن عباس الخ كأن هذا قول ثان له رضي الله عنه إذ تقدم له غير هذا اهـ.

(فصل)

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية فقال قوم: هذه الآية منسوخة إلى هاهنا لأن قوله تعالى لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام يقتضي حرمة القتل في الشهر الحرام وفي الحرم وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وقوله تعالى: ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ يقتضي حرمة منع المشركين عن البيت الحرام وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ فلا يجوز أن يحج مشرك ولا يأمن بالهدي والقلائد كافر وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر المفسرين.

قال الشعبي: لم ينسخ من سورة المائدة إلا هذه الآية. وقيل: المنسوخ منها قوله ولا آمين البيت الحرام نسختها آية براءة ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وقوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم﴾ هذا وقال ابن عباس: كان المؤمنون والمشركون يحجون البيت جميعاً فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً أن يحج البيت أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله بعد هذا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وقال آخرون: لم ينسخ من ذلك شيء سوى القلائد التي كانت في الجاهلية يتقلدونها من لحاء شجر الحرم.

قال الواحدي: وذهب جماعة إلى أنه لا منسوخ في هذه السورة وأن هذه الآية محكمة قالوا ما ندبنا إلى أن نخيف من يقصد بيته من أهل شريعتنا في الشهر الحرام ولا في غيره وفصل الشهر الحرام عن غيره بالذكر تعظيماً وتفضيلاً وحرم علينا أخذ الهدي من المُهدين وصرفه عن بلوغ محله وحرم علينا القلائد التي كانوا يفعلونها في الجاهلية وهذا غير مقبول، والظاهر ما عليه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية لإجماع العلماء، على أن الله عزَّ وجلَّ قد أحلَّ قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها.

وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه وذراعيه جميع لحاء الشجر لم يكن ذلك له أماناً من القتل إذا لم يكن قد تقدم له عهد ذمة أو أمان. وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو عمرة من المشركين لقوله تعالى عمرة من المشركين لقوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وإذا حللتم﴾ يعني من إحرامكم ﴿فاصطادوا﴾ هذا أمر إباحة، لأن الله حرم الصيد على المحرم حالة إحرامه بقوله تعالى: ﴿غير محلّي الصيد وأنتم حرم﴾ وإذا حلَّ من إحرامه بقوله وإذا حللتم فاصطادوا وإنما قلنا

رَبِّهِم ﴾، يعني الرزق بالتجارة، ﴿ ورِضْواناً ﴾ أي: على زعمهم، لأن الكافرين لا نصيب لهم في الرضوان، وقال قتادة: هو أن يصلح معايشهم في الدنيا ولا يعجّل لهم العقوبة فيها، وقيل: ابتغاء الفضل للمؤمنين والمشركين عامّة، وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصّة، لأنّ المسلمين والمشركين كانوا يحجُّون، وهذه الآية إلى ههنا منسوخة بقوله: ﴿ اقتُلوا المشركينَ حيثُ وَجَدْتُموهُم ﴾ [التوبة: ٥] وبقوله: ﴿ فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهِم هذا ﴾ [التوبة: ٢٨]، فلا يجوز أن يحجّ مشرك ولا يأمن كافر بالهدي والقلائد. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا حَلَلْتُم ﴾ أي: من إحرامكم، ﴿ فاصْطَادُوا ﴾، أمرُ إباحة، أباح للحلال أخذ الصيد، كقوله تعالى: ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشِرُوا في الأرض ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: لا يحملنّكم، يقال: جرمني فلان على أن صنعتُ كذا، أي حملني، وقال الفرّاء: لا يكسبنّكم، يقال: جرمَ أي: كَسَبَ فلانٌ جريمة أهله، أي: كاسبهم، وقيل: لا يدعونكم، ﴿ شَنَآنُ قومٍ ﴾، أي: بغضُهم وعداوتهم، وهو مصدر شنْئت، قرأ ابن عامر وأبو بكر « شنْآنُ قوم » بسكون النون الأولى، وقرأ الآخرون بفتحها، وهما لغتان، والفتح أجود، لأنّ المصادر أكثرها فعلان، بفتح العين مثل الضربان والسيلان والنسلان ونحوها، ﴿ أنْ صَدّوكم عنِ المسجدِ الحَرامِ ﴾، قرأ

إنه أمر إباحة لأنه ليس واجباً على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد ومثله قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ معناه أنه قد أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة ﴿ولا يجرمنكم﴾.

قال ابن عباس: لا يحملنكم. وقيل: معناه لا يكسبنكم ولا يدعوكم ﴿شنآن قوم﴾ يعني بغض قوم وعداوتهم ﴿أن صدوكم﴾ يعني لأن صدوكم ﴿عن المسجد الحرام﴾ والمعنى: لا يحملنكم عداوة قوم على الاعتداء، لأن صدوكم عن المسجد الحرام، لأن هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية، فكان الصدّ قد تقدم ﴿أن تعتدوا﴾ عليهم يعني: بالقتل وأخذ المال ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ يعني ليعن بعضكم بعضاً على ما يكسب البر والتقوى قال ابن عباس: البر متابعة السنة ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ يعني ولا يعن بعضكم بعضاً على الإثم وهو الكفر والعدوان هو الظلم. وقيل: الإثم المعاصي، والعدوان البدعة (م) عن النواس بن سمعان، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: البر «حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» ﴿واتقوا الله﴾ أي احذروا الله أن تعتدوا ما أمركم به أو تجاوزوا إلى ما نهاكم عنه ﴿إن الله شديد العقاب﴾ يعني لمن خالف أمره ففيه وعيد وتهديد عظيم.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾

قوله عز وجل: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ بيّن الله تعالى في أول السورة ما أحل لنا من بهيمة الأنعام بقوله أحلت لكم بهيمة الأنعام ثم إنه تعالى استثنى من ذلك بقوله: إلا ما يتلى عليكم. فذكر ذلك المستثنى بقوله حرمت عليكم الميتة فكل ما فارقته الروح مما يذبح بغير ذكاة فهو ميتة. وسبب تحريم الميتة، أن الدم لطيف جداً، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس ذلك الدم وبقي في العروق فيفسد ويحصل منه ضرر عظيم والدم هو

ابن كثير وأبو عمرو بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بفتح الألف، أي: لأن صدّوكم، ومعنى الآية: ولا يحملنّكم عداوةُ قومٍ على الاعتداء لأنهم صدّوكم. وقال محمد بن جرير: لأن هذه السورة نزلت بعد قصة الحديبية، وكان الصَّدُّ قد تقدّم، ﴿ أنْ تعتدُوا ﴾، عليهم بالقتل وأخذ الأموال، ﴿ وتعاوَنوا ﴾، أي: ليعنْ بعضكم بعضاً، ﴿ على البرِّ والتَّقوَى ﴾، قيل: البرُّ متابعة الأمر، والتقوى مجانبة النهي، وقيل: البرّ: الإسلام، والتقوى: السنّة، ﴿ ولا تَعاوَنُوا على الإثْمِ والعُدْوَانِ ﴾، قيل: الإثم: الكفر، والعدوان: الظلم، وقيل: الإثم: المعصية، والعدوان: البدعة. أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي طاهر الدقّاق ببغداد أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن الزبير القريشي أنا الحسن علي بن عفّان أنا زيد بن الحباب عن معاوية بن صالح حدّثني عبد الرحمن بن جبير بن نغير ابن مالك الحضرمي عن أبيه عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ عن البرِّ والإثمِ، قال: «البِرُّ حُسْنُ الخُلقِ، والإثْمُ ما حَاكَ في نفسِكَ وكرهْتَ أنْ يطّلعَ عليه النّاس». ﴿ واتّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ شديدُ العِقَابِ ﴾.

﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغيرِ اللّهِ بهِ ﴾، أي: ما ذُكر على ذبحه غيرُ اسمِ الله

المسفوح الجاري، وكانت العرب في الجاهلية تجعل الدم في المصارين وتشويه وتأكله، فحرم الله ذلك كله. ولحم الخنزير، أراد به جميع أجزائه وأعضائه. وإنما خص اللحم بالذكر، لأنه المقصود بالأكل وقد تقدم في سورة البقرة أحكام هذه الثلاثة أشياء وما استثنى الشارع من الميتة والدم وهو السمك والجراد والكبد والطحال وذكرنا الدليل على إباحة ذلك واختلاف العلماء في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وما أهلَّ لغير الله به﴾ يعني ما ذكر على ذبحه غير اسم الله وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح فحرم الله ذلك بهذه الآية وبقوله: ولا تأكلوا مما لا يذكر اسم الله عليه ﴿والمنخنقة﴾.

قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها فحرم الله ذلك. والمنخنقة: جنس الميتة لأنها لما ماتت لم يسل دمها. والفرق بينهما، أن الميتة تموت بلا سبب أحد، والمنخنقة تموت بسبب الخنق. ﴿والموقوذة﴾: يعني المقتولة بالخشب. وكانت العرب في الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها فحرَّم الله ذلك ﴿والمتردية﴾ يعني التي تتردى من مكان عالٍ فتموت أو في بئر فتموت. والتردي: هو السقوط من سطح أو من جبل ونحوه وهذه المتردية تلحق بالميتة فيحرم أكلها ويدخل في هذا الحكم إذا رمى بسهمه صيداً فتردى ذلك الصيد من جبل أو من مكان عال فمات فإنه يحرم أكله لأنه لا يعلم هل مات بالتردي أو بالسهم ﴿والنطيحة﴾ يعني التي تنطحها شاة أخرى حتى تموت وكانت العرب في الجاهلية تأكل ذلك، فحرمها الله تعالى لأنها في حكم الميتة. فأما الهاء في الكلمات التي تقدمت أعني المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، فإنما دخلت عليها، لأنها صفات لموصوف مؤنث وهو الشاة. كأنه قال: حرمت عليكم الشاة المنخنقة والموقوذة والمتردية. وخصت الشاة، لأنها من أعم ما يأكله الناس، والكلام إنما يخرج على الأعم الأغلب ثم يلحق به غيره.

فإن قلت: لمَ أثبتت الهاء في النطيحة مع أنها في الأصل منطوحة فعدلوا بها إلى النطيحة وفي مثل هذا الموضع تكون الهاء محذوفة تقول: كف خضيب وعين كحيل يعني كف مخضوبة وعين مكحولة. قلت: إنما تحذف الهاء من الفعيلة إذا كانت صفة لموصوف يتقدمها، فإذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة وضعتها موضع الموصوف تقول:

تعالى: ﴿ والمُنْخَنِقَةُ ﴾، وهي التي تخنق فتموت، قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتتْ أكلوها، ﴿ والمَوقُوذَةُ ﴾ هي المقتولة بالخشب، قال قتادة: كانوا يضربونها بالعصا فإذا ماتتْ أكلوها، ﴿ والمتردِّيةُ ﴾، هي التي تتردّى من مكان عالٍ أو في بئر فتموت، ﴿ والنَّطِيحَةُ ﴾، هي التي تنطحها أخرى فتموت، وهاء التأنيث تدخل في الفعيل إذا كان بمعنى الفاعل، فإذا كان بمعنى المفعول استوى فيه المذكّر والمؤنث، نحو عينٌ كحيلٌ وكفٌّ خَضِيبٌ، فإذا حَذفْتَ الاسم وأفردتَ الصفةَ، أدخلوا الهاء فقالوا: رأينا كحيلة وخضيبة، وهنا أُدخل الهاء لأنه لم يتقدمها الاسم، فلو أسقط الهاء لم يُدْرَ أنها صفة مؤنث أم مذكّر، ومثله الذبيحة والنسيكة، وأكيلة السبع ﴿ ومَا اكَلَ السَّبُعُ ﴾، يريد ما بقي ممّا أكل السبع، وكان أهل الجاهلية يأكلونه، ﴿ إلاّ ما ذَكَّيْتُمْ ﴾، يعني: إلاّ ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء، وأصل التذكية الإتمام، يقال: ذكّيتُ النارَ إذا أتممتُ اشتعالها، والمراد هنا: إتمام فري الأوداج وإنهارُ الدم، قال النبي ﷺ: «ما أنْهرَ الدّمَ وذُكِرَ اسمُ الله عليه فكُلْ غير السّن والظفر»، وأقل الذكاة في الحيوان المقدور عليه قطع المري والحُلقوم وكما له أن يقطع الودجين معهما، ويجوز بكل مُحدّد يقطع من حديد أو قصب أو زجاج أو حجر إلاّ السنّ والظفر، فنهَى النبي ﷺ عن الذبح بهما، وإنمـا يحلّ ما ذكّيته بعدما جرحَه السبعُ وأكل شيئاً منه إذا أدركته والحياةُ فيه مستقرةٌ فذبحته، فأمّا مَا صَار بجرح

رأيت قبيلة بني فلان بالهاء لأنك إن لم تدخل الهاء لم يعرف أرجل هو أم امرأة. فعلى هذا، إنما دخلت الهاء في النطيحة لأنها صفة لموصوف غير مذكور وهو الشاة.

وقال ابن السكيت: قد تأتي فعيلة بالهاء وهي في تأويل مفعول بها تخرج مخرج الأسماء ولا يذهب بها مذهب النعوت نحو النطيحة والذبيحة والفريسة وأكيلة السبع ومررت بقبيلة بني فلان. وقوله تعالى: ﴿وما أكل السبع﴾ قال قتادة: كان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئاً فقتله أو أكل منه أكلوا ما بقي منه، فحرمه الله تعالى. والسبع اسم يقع على كل حيوان له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترس بنابه كالأسد والذئب والنمر والفهد ونحوه وفي الآية محذوف تقديره وما أكل السبع منه لأن ما أكله السبع فقد فقد فلا حكم له، إنما الحكم للباقي منه.

﴿إلا ما ذكيتم﴾ يعني إلا ما أدركتموه وقد بقيت فيه حياة مستقرة من هذه الأشياء المذكورة والظاهر أن هذا الاستثناء يرجع إلى جميع المحرمات المذكورة في الآية من قوله تعالى: والمنخنقة، إلى، وما أكل السبع. وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس والحسن وقتادة.

قال ابن عباس: يقول الله تعالى ما أدركتم من هذا كله وفيه روح فاذبحوه فهو حلال. وقال الكلبي: هذا الاستثناء مما أكل السبع خاصة. والقول هو الأول وأما كيفية إدراكها، فقال أكثر أهل العلم من المفسرين: إن أدركت ذكاته بأن توجد له عين تطرف أو ذنب يتحرك فأكله جائز. قال ابن عباس: إذا طرفت بعينها أو ركضت برجلها أو تحركت فاذبح فهو حلال. وذهب بعض أهل العلم إلى أن السبع إذا جرح فأخرج الحشوة أو قطع لجوف قطعاً تيأس معه الحياة فلا ذكاة لأن ذلك وإن كان به حركة ورمق إلا أنه قد صار إلى حالة لا يؤثر في حياته الذبح وهو مذهب مالك واختاره الزجاج وابن الأنباري، لأن معنى التذكية أن يلحقها وفيها بقية تشخب معها الأوداج وتضطرب اضطراب المذبوح لوجود الحياة فيه قبل ذلك وإلا فهو كالميتة. وأصل الذكاة في اللغة تمام الشيء، فالمراد من التذكية، تمام قطع الأوداج وإنهار الدم ويدل عليه ما روي عن رافع بن خديج عن النبي ﷺ قال: ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر «وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة» أخرجاه في الصحيحين.

وأقل الذبح في الحيوان المقدور عليه قطع المريء والحلقوم وأكمله قطع الودجين مع ذلك والحلقوم بعد الفم،

السبع إلى حاله المذبوح، فهو في حكم الميتة، فلا يكون حلالاً وإن ذبحتَه، وكذلك المتردّية والنّطيحة إذا أدركتَها حيّةً قبل أن تصير إلى حالة المذبوح فذبحتها تكون حلالاً، ولو رمي إلى صيد في الهواء فأصابه فسقط على الأرض ومات كان حلالاً لأن الوقوع على الأرض من ضرورته، فإن سقط على جبل أو شجر ثم تردّى منه فمات فلا يحلّ، وهو من المتردية إلّا أن يكون السهم أصاب مذبحه في الهواء فيحلّ كيفَ مَا وقع، لأن الذبح قد حصل بإصابة السهم المَذْبَح، ﴿ وما ذُبحَ على النُّصُب ﴾، قيل: النُّصب جمعٌ، واحده نصاب، وقيل: هو واحد وجمعه أنصاب مثل عنق وأعناق، وهو الشيء المنصوب، واختلفوا فيه، فقال مجاهد وقتادة: كانت حول البيت ثلاثمائة وستّون حجراً منصوبة، كان أهل الجاهلية يعبدونها ويُعظِّمونها ويذبحون لها، وليست هي بأصنام إنّما الأصنام هي المُصَوَّرة المنقوشة، وقال الآخرون: هي الأصنام المنصوبة، ومعناه: وما ذُبح على اسم النُّصبِ، قال ابن زيد: وما ذُبح على النصب وما أُهلّ لغير الله به: هما واحد، قال قطرب: على بمعنى اللام أي: وما ذُبح لأجل النُّصب، ﴿ وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلَام ﴾، أي: وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، والاستقسام هو طلب القسم، والحكم من الأزلام، والأزلام هي: القِداح التي لا ريش لها ولا نَصْل، وَاحِدُها: زَلَم، وزُلَم، بفتح الزاي وضمّها، كانت أزلامهم سبعة قداح مستوية من شوحط، يكون عند سَادِنِ الكعبة، مكتوبٌ على واحدٍ نعم، وعلى واحدٍ لا، وعلى واحدٍ منكم،

وهو موضع النفس والمريء مجرى الطعام والودجان عرقان يقطعان عند الذبح وأما آلة الذبح فكل ما أنهرا الدم وفرى الأوداج من حديد وغيره إلا السن والظفر لما تقدم من نهي النبي ﷺ عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وما ذبح على النصب﴾ يعني وحرم ما ذبح على النصب. والنصب يحتمل أن يكون جمعاً واحده نصاب وأن يكون واحداً وجمعه أنصاب وهو الشيء المنصوب. قيل: كان حول الكعبة ثلثمائة وستون حجراً منصوبة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويعظمونها ويذبحون لها وليست هذه الحجارة بأصنام إنما الأصنام الصور المنقوشة. وقال ابن عباس: هي الأصنام المنصوبة. والمعنى: وما ذبح على اسم النصب أو لأجل النصب فهو حرام ﴿وإن تستقسموا بالأزلام﴾ يعني وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام وهو طلب القسم والحكم من الأزلام وهي القداح وكانت أزلامهم سبع قداح مستوية مكتوب على واحد منها أمرني ربي وعلى واحد نهاني وعلى واحد منكم وعلى واحد من غيركم وعلى واحد ملصق وعلى واحد العقل وعلى واحد غفل أي ليس عليه شيء. وكانت العرب في الجاهلية، إذا أرادوا سفراً أو تجارة أو نكاحاً أو اختلفوا في نسب أو أمر قتيل أو تحمل عقل أو غير ذلك من الأمور العظام جاؤوا إلى هبل وكانت أعظم صنم لقريش، بمكة وجاؤوا بمائة درهم وأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم. فإن خرج أمرني ربي فعلوا ذلك الأمر وإن خرج نهاني ربي ولم يفعلوه وإن أجالوا على نسب فإن خرج منكم كان وسطاً فيهم وإن خرج من غيركم كان حلفاً فيهم وإن خرج ملصق كان على حاله وإن اختلفوا في العقل وهو الدية فمن خرج عليه قدح العقل تحمله وإن خرج الغفل أجابوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه فنهاهم الله عن ذلك وحرمه وسماه فسقا. وقيل: الأزلام كعاب فارس والروم التي كانوا يقامرون بها. وقيل: كانت الأزلام للعرب. والكعاب للعجم وهي: النرد وكلها حرام لا يجوز اللعب بشيء منها.

عن قطن بن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت» أخرجه أبو داود وقال: الطرق الزجر والعيافة الخط. وقيل: العيافة زجر الطير والطرق الضرب بالحصى والجبت كل ما عبد من دون الله عز وجل. وقيل: الجبت الكاهن. وروى البغوي بسند الثعلبي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «من تكهن أو استقسم بالأزلام أو تطيَّر طيرة ترده عن سفره لم ينظر إلى الدرجات العلى يوم القيامة وقوله تعالى: ﴿ذلكم فسق﴾ يعني ما ذكر من هذه المحرمات في هذه الآية لأن المعنى حرم عليكم تناول كذا وكذا فإنه فسق والفسق ما

وعلى واحدٍ من غيركم، وعلى واحدٍ مُلْصَق، وعلى واحدِ العقل، وواحدٍ غَفْل ليس عليه شيْء، فكانوا إذا أرادوا أمراً من سفر أو نكاح أو ختان أو غيره، أو تداوَرُوا في نسبٍ أو اختلفُوا في تحمّل عقلٍ جاؤوا إلى هُبل وكان أعظم أصنام قريش بمكة وجاؤوا بمائة درهم أعطوها صاحب القداح حتى يُجِيلَ القِدَاحَ، ويقولون: يا إلّهنا إنّا أردنا كذا وكذا، فإن خرج نعم، فعلوا، وإن خرج لا، لم يفعلوا ذلك حولاً، ثمّ عادوا إلى القِدَاح ثانيةً، فإذا أجالوا على نسبٍ، فإن خرج منكم كان وسيطاً منهم، وإن خرج من غيركم كان حليفاً، وإن خرج ملصق كان على منزلته لا نسب له ولا حلف، وإذا اختلفوا في عقل فمَن خرج عليه قدح العقل حمله، وإن خرج الغفل أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك وحرّمه، وقال: ﴿ ذَلِكُم فِسْقٌ ﴾ قال سعيد بن جبير: الأزلام حصى بيض كانوا يضربون بها، وقال مجاهد: هي كعاب فارس والروم التي يتقامرون بها، وقال الشعبي وغيره: الأزلام للعرب، والكعاب للعجم، وقال سفيان بن وكيع: هي الشطرنج، وروينا أن النبي ﷺ قال: «العِيَافَةُ والطَّرْقُ والطِّيَرَةُ مِنَ الجِبْتِ»، والمراد من الطَّرْقِ: الضَّرْبُ بالحصى، أخبرنا أبو سعيد الشريحي أخبرنا أبو إسحق الثعلبي أنا ابن فنجويه أنا فضل الكندي أخبرنا الحسن بن داود الخشاب أنا سويد بن سعيد أنا أبو المختار عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تكهَّنَ أو اسْتَقْسَمَ أو تطيّر طيرةً تردّه عن سفره لم ينظرْ إلى

يخرج من الحلال إلى الحرام وقيل إن الإشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام والأول أصح ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ يعني يئسوا أن ترجعوا عن دينكم إلى دينهم كفاراً، وذلك أن الكفار كانوا يطمعون في أن يعود المسلمون إلى دينهم، فلما قوي الإسلام، أيسوا من ذلك وذلك هو اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ مكة عام حجة الوداع فعند ذلك يئس الكفار من بطلان دين الإسلام. وقيل: إن ذلك هو يوم عرفة فنزلت هذه الآية والنبي ﷺ واقف بعرفة.

وقيل: لم يرد يوماً بعينه وإنما المعنى الآن يئس الذين كفروا من دينكم فهو كما تقول: اليوم قد كبرت. تريد: الآن قد كبرت. وتقول: فلان كان يزورنا وهو اليوم يجفونا ولم ترد يوماً بعينه. يعني: وهو الآن يجفونا ولم تقصد به اليوم قال الشاعر:

فيـــوم علينـــا ويـــوم لنـــا ويـــوم نُســـاء ويـــوم نُســـرّ

أراد فزمان علينا وزمان لنا ولم يقصد اليوم واحد معين ﴿فلا تخشوهم﴾ فلا تخافوا الكفار أيها المؤمنون الذين آمنوا أن يظهروا على دينكم فقد زال الخوف عنكم بإظهار دينكم ﴿واخشونِ﴾ أي وخافوا مخالفة أمري وأخلصوا الخشية لي.

قوله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ نزلت هذه الآية في يوم الجمعة بعد العصر في يوم عرفة والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق وبركت لثقل الوحي وذلك في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة (ق).

عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال: فأي آية؟ قال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات في يوم الجمعة أشار عمر إلى ذلك اليوم يوم عيد لنا. وعن ابن عباس أنه قرأ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ وعنده يهودي فقال: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذناها عيداً فقال ابن عباس: «فإنها نزلت في يوم عيدين في يوم جمعة ويوم عرفة» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

الدرجات العُلى من الجنة يوم القيامة». ﴿ اليومَ يَئِسَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾، يعني: أنْ ترجِعُوا إلى دينهم كفّاراً، وذلك أن الكفّار كانوا يطْعَمُون في عَوْدِ المسلمين إلى دينهم فلما قَوِيَ الإسلام أيسوا، ويئس وأيس بمعنى واحد، ﴿ فلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ اليومَ أكملتُ لكُمْ دِينَكُم وأتْمَمْتُ عليكُم نِعْمَتِي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً ﴾، نزلت هذه الآية يوم الجمعة، يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع، والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضبا، فكادت عضد الناقة تندقّ من ثقلها فبركت، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدّثني الحسن بن الصباح سمع جعفر بن عون أنا أبو العميس أنا قيسُ بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلتْ لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أيَّةُ آيةٍ؟ قال: «اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً» قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة، أشار عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيداً لنا، قال ابن عباس: كان في ذلك اليوم خمسة أعياد: جمعة وعرفة وعيد اليهود والنصارى والمجوس، ولم تجتمع أهل المِلَل في يوم قبله ولا بعده، وروى

قال ابن عباس: كان في ذلك اليوم خمسة أعياد يوم جمعة، ويوم عرفة، وعيد لليهود، وعيد للنصارى، وعيد للمجوس. ولم تجتمع أعياد لأهل الملل في يوم واحد قبله ولا بعده.

وروي أنه لما نزلت هذه الآية، بكى عمر فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟ فقال أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا. فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص قال: صدقت» فكانت هذه الآية نعي رسول الله ﷺ عاش بعدها أحداً وثمانين يوماً ومات ﷺ يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول وقيل: لاثنتي عشر ليلة وهو الأصح سنة إحدى عشرة من الهجرة. وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ يعني بالفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض هذا معنى قول ابن عباس.

وقال سعيد بن جبير وقتادة: معنى أكملت لكم دينكم، أي حيث لم يحج معكم مشرك وخلا الموسم لرسول الله ﷺ وللمسلمين. وقيل: معناه أني أظهرت دينكم على الأديان وأمنتكم من عدوكم بأن كفيتكم ما كنتم تخافونه. وقيل: إكمال الدين لهذه الأمة أنه لا يزول ولا يُنسخ وإن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة. وقيل: إكمال الدين لهذه الأمة أنهم آمنوا بكل نبي وكل كتاب ولم يكن هذا لغير هذه الأمة. وقال ابن الأنباري: اليوم أكملت شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت وذلك أن الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشيء في وقت ثم يزيد عليه في وقت آخر فيكون الوقت الأول تاماً في وقته، وكذلك الوقت الثاني تاماً في وقته فهو كما يقول القائل: عندي عشرة كاملة. ومعلوم أن العشرين أكمل منها والشرائع التي تعبد الله عز وجل بها عباده في الأوقات المختلفة مختلفة وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبد بها فكمل الله عز وجل الشرائع في اليوم الذي ذكره وهو يوم عرفة ولم يوجب ذلك أن الدين كان ناقصاً في وقت من الأوقات ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن القفال واختاره أن الدين ما كان ناقصاً البتة بل كان أبداً كاملاً كانت الشرائع النازلة من عند الله كافية في ذلك الوقت إلا أنه تعالى كان عالماً في أول وقت البعثة بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد لا يصالح فيه لا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيل بعد التحتم.

وأما في آخر زمان البعثة، فأنزل الله شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبداً كان كاملاً إلا أن الأول كمال إلى يوم مخصوص، والثاني كمال إلى يوم القيامة، فلأجل هذا المعنى قال: اليوم أكملت لكم دينكم. ثم قال تعالى: ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ يعني بإكمال الدين والشريعة، لأنه لا نعمة أتم من الإسلام.

وقال ابن عباس: حكم لها بدخول الجنة. وقيل: معناه أنه تعالى أنجز لهم ما وعدهم في قوله ولأتم نعمتي

هارون بن عنترة عن أبيه قال: لمّا نزلتْ هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه، فقال له النبي ﷺ: «ما يُبكيك يا عمر»؟ فقال: أبكاني أنّا كنّا في زيادة من ديننا، فأمّا إذا كمل فإنه لم يكن شيء إلّا نقص، قال: «صدقت». وكانت هذه الآية نعي النبي ﷺ وعاش بعدها إحدى وثمانين يوماً، ومات يوم الاثنين بعدما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقيل: تُوفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وكانت هجرته في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أما تفسير الآية قوله عزّ وجلّ: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكُم ﴾ يعني: يوم نزول هذه الآية أكملت لكم دينكم، يعني الفرائض والسُّنن والحُدود والجهاد والأحكام والحلال والحرام، فلم ينزل بعد هذه الآية حلالٌ ولاَ حرام، ولا شيء من الفرائض والسُّنن والحدود والأحكام هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، ويُروى عنه أن آية الرِّبا نزلت بعدها، وقال سعيد بن جبير وقتادة: أكملتُ لكم دينكم فلم يحجّ معكم مشرك، وقيل: أظهرت دينكم وأمَّنْتُكم من العدو، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وأتممتُ عليكم نعمتي ﴾، يعني: وأنجزت وعدي في قوله: ﴿ ولأتمّ نعمتي عليكم ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وعليها ظاهرين، وحجُّوا

عليكم فكان من تمام النعمة أن دخلوا مكة آمنين وحجّوا مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين ﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ يعني واخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وقيل: معناه ورضيت لكم الإسلام لأمري والانقياد لطاعتي فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم وإنما قال تعالى: ﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ يوم نزلت هذه الآية وإن كان الله تعالى لم يزل راضياً بدين الإسلام فيما مضى قبل نزول هذه الآية لأنه لم يزل يصرف نبيه رسول الله ﷺ وعباده المؤمنين من حال إلى حال وينقلهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها حتى أكمل لهم شرائع الدين ومعالمه وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه ثم أنزل عليهم هذه الآية: ورضيت لكم الإسلام ديناً، يعني بالصفة التي هو اليوم بها وهي نهاية الكمال وأنتم الآن عليه فالزموه ولا تفارقوه. روى البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قال جبريل قال الله عز وجل: «هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه» وروى الطبري عن قتادة قال: ذكر لنا أنه يمثل لكل أهل دين دينهم يوم القيامة فأما الإيمان فيبشر أصحابه وأهله ويعدهم في الخبر حتى يجيء الإسلام فيقول يا رب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول إياك اليوم أقبل وبك اليوم أجزى. وقوله تعالى: ﴿**فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم**﴾ هذه الآية من تمام ما تقدم ذكره في المطاعم التي حرمها الله تعالى ومتصلة بها، والمعنى: أن المحرمات وإن كانت محرمة، إلا أنها قد تحل في حالة الاضطرار إليها. ومن قوله تعالى: ذلكم فسق، إلى هنا اعتراض وقع بين الكلامين والغرض منه تأكيد ما تقدم ذكره من معنى التحريم، لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام الذي هو المرضي عند الله.

ومعنى الآية: فمن اضطر أي أُجْهِدَ وأصيب بالضر الذي لا يمكنه معه الامتناع من أكل الميتة. وهو قوله تعالى: في مخمصة، يعني في مجاعة. والمخمصة: خلو البطن من الغذاء عند الجوع. غير متجانف لإثم: يعني غير مائل إلى إثم أو منحرف إليه. والمعنى: فمن اضطر إلى أكل الميتة أو إلى غيرها في المجاعة فليأكل غير متجانف لإثم وهو أن يأكل فوق الشبع. وقول فقهاء العراق. وقيل: معناه غير متعرض لمعصية في مقصد وهو قول فقهاء الحجاز ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾، يعني لمن أكل من الميتة في حال الجوع والاضطرار.

مطمئنين لم يخالطهم أحد من المشركين، ﴿ ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾، سمعتُ عبد الواحد قال: سمعت عبد الواحد المليحي قال: سمعت أبا محمد بن حاتم، قال: سمعت أبا بكر النيسابوري سمعت أبا بكر محمد بن الحسن بن المسيب المروزي، سمعت أبا حاتم محمد بن إدريس الحنظلي، سمعت عبد الملك بن مسلمة أنا مروان المصري سمعت إبراهيم بن أبي بكر بن المنكدر رضي الله عنه، سمعت عمّي محمد بن المنكدر سمعت جابر بن عبد الله يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال جبريل قال الله تعالى: هذا دين ارتضيتُه لنفسي ولن يُصلِحَه إلّا السخاءُ وحُسنُ الخُلق، فأكرمُوه بهما ما صحبتُمُوه». قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾، أي: جهد في مجاعة، والمخمصة خلو البطن من الغذاء، يقال: رجل خميص البطن إذا كان طاوياً خاوياً، ﴿ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإثم ﴾ أي: مائل إلى إثم وهو أن يأكل فوق الشبع، وقال قتادة غير متعرّض لمعصية في مقصده، ﴿ فإنّ اللّهَ غفورٌ رحيم ﴾، وفيه إضمار، أي: فأكله فإنّ الله غفور رحيم، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسن المروزي أنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحّان أنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أنا أبو الحسن علي بن عبد العزيز المكّي أنا أبو عبيدة القاسم بن سلام أنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن حسّان بن عطية عن أبي واقد الليثي قال رجل: يا رسول الله إنّا نكون بالأرض فتصيبُنا بها المخمصة فمتى تَحِلّ لنا الميتة؟ فقال: «ما لم تصطبحوا أو تغتبقوا أو تختنقوا بها بقلاً فشأنكم بها».

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ روى الطبري بسنده عن أبي رافع قال: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ يستأذن عليه فأذن له فلم يدخل فقال: قد أذنًا لك يا رسول الله قال أجل ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب».

قال أبو رافع فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة ففعلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها فتركته رحمة لها ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرني بقتله فرجعت إلى الكلب فقتلته فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها قال فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحلّ لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾.

وروي عن عكرمة أن النبي ﷺ بعث أبا رافع في قتل الكلاب فقتل حتى بلغ العوالي فدخل عاصم وسعد بن أبي خيثمة وعويمر بن ساعدة على النبي ﷺ فقالوا: ماذا أحل لنا فنزلت: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ قال ابن الجوزي: وأخرج حديث أبي رافع الحاكم في صحيحه قال البغوي: فلما نزلت هذه الآية أذن رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من أمسك كلباً فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراط إلا كلب حرث أو ماشية». ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال «من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينقص من أجره قيراطان كل يوم» وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله ﷺ زيد الخير قالا: يا رسول الله إنَّا قوم نصيد بالكلاب وبالبزاة فماذا يحل لنا فنزلت هذه الآية.

قال البغوي: وهذا القول أصح في سبب نزولها. وأما التفسير فقوله تعالى يسألونك يعني يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل كأنهم لما تلا عليهم من خبائث المآكل ما تلا سألوا عما أحل لهم ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ يعني قل لهم يا محمد أحل لكم الطيبات يعني: ما ذبح عن اسم الله عز وجل. وقيل: الطيبات كل ما تستطيبه العرب وتستلذه من غير أن يرد بتحريمه نص من كتاب أو سنة. واعلم: أن العبرة في الاستطابة والاستلذاذ بأهل المروءة والأخلاق الجميلة من العرب، فإن أهل البادية منهم يستطيبون أكل جميع الحيوانات فلا عبرة بهم لقوله تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ فإن الخبيث غير مستطاب، فصارت هذه الآية

قوله: ﴿ يَسْئَلُونَكَ ماذا أُحِلّ لهم ﴾ الآية، قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عديّ بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيّين وهو زيد الخيل الذي سمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير، قالا يا رسول الله إنّا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فماذا يحلّ لنا منها؟ فنزلت هذه الآية، وقيل: سبب نزولها أن النبي ﷺ لمّا أمر بقتل الكلاب قالوا: يا رسول الله ماذا يحلّ لنا من هذه الأمة التي أُمرت بقتلها؟ فنزلت هذه الآية، فلمّا نزلت أذِنَ رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي يُنتفع بها، ونهى عن إمساك مَا لَا نفعَ فيه منها، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بِشْرَان أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الزيادي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن اتخذ كلباً إلّا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط»، والأول أصح في سبب نزول الآية. ﴿ قُلْ أُحِلّ لكُمُ الطيباتُ ﴾، يعني: الذبائح على اسم الله تعالى، وقيل: كل ما تستطيبه العرب وتستلذّه من غير أنْ يرد بتحريمه نصّ من كتاب أو سُنّة

الكريمة نصاً فيما يحل ويحرم من الأطعمة. وقوله تعالى: ﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ يعني وأحل صيد ما علمتم من الجوارح فحذف ذكر الصيد وهو مراد في الكلام لدلالة الباقي عليه ولأنهم سألوا عن الصيد وقيل: إن قوله وما علمتم من الجوارح ابتداء كلام خبره فكلوا مما أمسكن عليكم وعلى هذا القول يصح معنى الكلام من غير إضمار. والجوارح: جمع جارحة وهي الكواسب من: السباع والطير كالفهد والنمر والكلب والبازي والصقر والعقاب والشاهين والباشق من الطير مما يقبل التعليم سميت جوارح من الجرح لأنها تجرح الصيد عند إمساكه وقيل: سميت جوارح لأنها تكسب. والجوارح: الكواسب من جرح واجترح إذا اكتسب ومنه قوله تعالى: ﴿الذين اجترحوا السيئات﴾ يعني اكتسبوا وقوله ويعلم ما جرحتم بالنهار أي اكتسبتم مكلبين يعني معلمين.

والمكلب: هو الذي يغري الكلاب على الصيد. وقيل: هو مؤدِّب الجوارح ومعلمها وإنما اشتق له هذا الاسم من الكلب، لأنه أكثر احتياجاً إلى التعليم من غيره من الجوارح. **(تعلمونهن)** يعني تعلمون الجوارح الاصطياد ﴿مما علمكم الله﴾ يعني من العلم الذي علمكم الله، ففي الآية دليل على أنه لا يجوز صيد جارحة ما لم تكن معلمة. وصفة التعليم هو أن الرجل يعلم جارحة الصيد وذلك أن يوجد فيها أمور منها: أنه إذا أشليت[1] على الصيد استشلت وإذا زجرت انزجرت وإذا أخذت الصيد أمسكت ولم تأكل منها شيئاً ومنها أن لا ينفر منه إذا أراده وأن يجيبه إذا دعاه فهذا هو تعليم جميع الجوارح فإذا وجد ذلك منها مراراً كانت معلمة وأقلها ثلاث مرات فإنه يحل قتلها إذا جرحت بإرسال صاحبها (ق). عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت إنا قوم نصيد بهذه الكلاب؟ فقال «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه وإن خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليه فأمسكن وقتلن فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره».

﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ ﴾، يعني: وأُحِلَّ لكم صيد ما علّمتم من الجوارح، واختلفوا في هذه الجوارح، فقال الضحاك والسدي: هي الكلاب دون غيرها، ولا يحلّ ما صاده غير الكلب إلاّ أن تُدرِكَ ذكاتَه، وهذا غير معمول به، بل عامّة أهل العلم على أنّ المراد من الجوارح الكواسب من سباع البهائم كالفهد والنمر والكلب ومن سِباع الطير كالبازي والعُقاب والصقر ونحوها ممّا يقبل التعليم، فيَحلّ صيدُ جميعها، سُمّيت جارحة: لجرحها أربابها أقواتهم من الصيد، أي: كسبها، يقال: فلان جارحة أهله، أي كاسبهم، **﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾**، والمُكلِّب الذي يغري الكلاب على الصيد، ويقال للذي يعلمها أيضاً: مُكلِّب، والكلّاب: صاحب الكلاب، ويقال للصائد بها أيضاً كلّاب، ونصبُ مكلّبين على الحال، أي: في حال تكليبكم هذه الجوارح أي إغرائكم إيّاها على الصيد، وذكر الكلاب لأنها أكثر وأعمّ، والمراد جميع جوارح الصيد، **﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ ﴾**، تؤدِّبونهنّ آدابَ أخذ الصيد، **﴿ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾**، أي: من العلم الذي علّمكم الله، قال السدي: أي كما علّمكم الله، **﴿ مِن ﴾** بمعنى الكاف، **﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عليكم واذْكُروا اسْمَ اللَّهِ عليهِ ﴾** أراد أن الجارحة المعلّمة إذا خرجتْ بإرسال صاحبها فأخذتِ الصيدَ وقتلتْه كان حلالاً، والتعليم هو أن يُوجِدَ فيها ثلاثةَ أشياء: إذا أُشليتْ استَشْلَتْ، وإذا زُجِرَتْ انزَجَرَتْ، وإذا أخذتِ الصيدَ أَمْسكتْ ولم تأكل، وإذا وجد ذلك منه مراراً وأقلّها ثلاث مرات كانت معلّمة، يحلّ قتلها إذا خرجت بإرسال صاحبها، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل أنا ثابت بن زيد عن عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: «إذا أرسلتَ

---

(١) قوله إذا أشليت قال في الصحاح وقول الناس أشليت الكلب على الصيد خطأ وقال أبو زيد أشليت الكلب دعوته وقال ابن السكيت يقال أوسدت الكلب بالصيد وآسدته إذا أغربته به ولا يقال أشليته إنما الإشلاء الدعاء اهـ.

وفي رواية: فإنك لا تدري أيها قتل وسألته عن الصيد المعراض، فقال: إذا أصبت بحده فكل وإذا أصبت بعرضه فقتل فإنه وقيذ فلا تأكل وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكُلْ فإن وقع في المال فلا تأكل.

واختلف العلماء فيما إذا أخذت الكلاب الصيد وأكلت منه شيئاً فذهب أكثر أهل العلم إلى تحريمه ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول عطاء وطاوس الشعبي وبه قال الثوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وهو أصح قول الشافعي ويدل عليه قوله ﷺ: وإن أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه ورخص بعضهم في أكله يروي ذلك عمر وسلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وبه قال مالك لما روي عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ في صيد الكلب «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه» أخرجه أبو داود. وأما غير المعلم من الجوارح إذا أخذت صيداً أو المعلم إذا خرج بغير إرسال صاحبه فأخذ وقتل فإنه لا يحل إلا أن يدركه حياً فيذبحه فيحل (ق).

عن أبي ثعلبة الخشني قال: قلت يا رسول الله أنا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم فما يصلح لي؟ قال: أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا غيرها فاغسلوها وكلوا فيها وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل.

وقوله تعالى: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ دخلت من في قوله مما للتبعيض لأنه إنما أحل أكل بعض الصيد وهو اللحم دون الفرث والدم. وقيل: من زائدة فهو كقوله تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾.

قال ابن عباس: يعني إذا أرسلت جارحك فقل بسم الله وإن نسيت فلا حرج. ومنه قوله ﷺ لعدي: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل» فعلى هذا يكون الضمير في عليه عائد إلى ما علمتم من الجوارح أي سموا الله عليه عند إرساله. وقيل: الضمير عائد إلى ما أمسكن عليكم. والمعنى: سموا الله عليه إذا أدركتم ذكاته. وقيل: يحتمل أن

كلبَكَ المعلّم وسمّيتَ فأمسكَ وقتلَ فَكُلْ، وإن أكل فلا تأكل فإنّما أمسك على نفسه، وإذا خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكنَ وقتلنَ فلا تأكل فإنك لا تدري أيّها قتل، وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلاّ أثر سهمك فكُلْ وإن وقع في الماء فلا تأكل»، واختلفوا فيما إذا أخذت الصيد وأكلت منه شيئاً، فذهب أكثر أهل العلم إلى تحريمه، رُوِيَ ذلك عن ابن عباس، وهو قول عطاء وطاوس والشعبي، وبه قال الثّوري وابن المبارك وأصحاب الرأي وهو أصحّ قول الشافعي لقوله ﷺ: وإن أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه»، ورخّص بعضهم في أكله رُوِيَ ذلك عن ابن عمر وسلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص، وقال مالك: لِما رُوِيَ عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرسلتَ كلبكَ وذكرتَ اسمَ اللَّهِ تعالى فكُلْ وإن أكل منه»، وأمّا غير المعلم من الجوارح إذا أخذ صيداً أو المعلّم إذا جرح بغير إرسال صاحبه فأخذ وقتل فلا يكون حلالاً إلاّ أن يدركه صاحبه حيّاً فيذبحه، فيكون حلالاً، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن يزيد أنا حيوة أخبرني ربيعة بن يزيد الدمشقي عن أبي إدريس عن أبي ثعلبة الخشني قال: قلت: يا نبيّ الله إنّا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم، وبأرضٍ صيدٌ أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلّم، وبكلبي المعلّم فما يصحّ لي؟ قال: «أمّا ما ذكرت من آنية أهل الكتاب فإنْ وجدتُم غيرَها فلا تأكلُوا فيها وإن لم تجدُوا فاغسلُوها وكلُوا فيها وما صِدْتَ بقوسك فذكرتَ اسمَ اللَّهِ عليه فكُلْ وما صِدْتَ بكلبك غير

يكون الضمير عائد إلى الأكل يعني واذكروا اسم الله عليه عند الأكل فعلى هذا تكون للتسمية شرطاً عند إرسال الجوارح وعند إرسال الذبيحة وعند الأكل وسيأتي بيان هذه المسألة(١) في سورة الأنعام عند قوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴿واتقوا الله﴾ يعني واحذروا مخالفة الله يعني فيما أحل لكم وحرم عليكم ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يعني إذا حاسب عباده يوم القيامة ففيه تخويف لمن خالف أمره وفعل ما نهاه عنه.

ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥

قوله عز وجل: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ إنما كرر إحلال الطيبات للتأكيد كأنه قال: اليوم أحل لكم الطيبات التي سألتم عنها ويحتمل أن يراد باليوم، اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية أو اليوم الذي تقدم ذكره في قوله: اليوم يئس الذي كفروا من دينكم اليوم أكملت لكم دينكم. ويكون الغرض من ذكر هذا الحكم، أنه تعالى قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، فبين أنه كما أكمل الدين وأتم النعمة، فكذلك أتم النعمة بإحلال الطيبات.

وقيل: ليس المراد باليوم يوماً معيناً وقد تقدم الكلام في ذلك اليوم وفي معنى الطيبات في الآية المتقدمة. وقوله تعالى: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ يعني وذبائح أهل الكتاب حل لكم وهم اليهود والنصارى ومن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث النبي ﷺ. فأما من دخل في دينهم بعد مبعث النبي ﷺ وهم متنصروا العرب من بني تغلب فلا تحل ذبيحته.

روي عن علي بن أبي طالب قال: لا تأكل من ذبائح نصارى العرب بني تغلب فإنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر. وبه قال ابن مسعود. ومذهب الشافعي: أن من دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن، فإنه لا تحل ذبيحته.

المعلّم فأدركتَ ذكاته فكُلْ». ﴿ واتقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ سريعُ الحِسَاب ﴾، ففيه بيان أن ذكرَ اسمِ الله عزّ وجلّ على الذبيحة شرطٌ حالةَ ما يُذبح، وفي الصيد حالةَ ما يُرسِلُ الجارحةَ أو السهمَ، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن محمد الداودي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن علوية الجوهري قال: أنا أبو العباس محمد بن أحمد بن الأثرم المقري بالبصرة أنا عمر بن شيبة أنا أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن أنس قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر، قال: رأيته واضعاً قدمه على صِفَاحِهِمَا ويذبحهما بيده ويقول: «بسم الله والله أكبر».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكُمُ الطّيّباتُ ﴾، يعني: الذبائح على اسم الله عزّ وجلّ: ﴿ وطعامُ الّذينَ أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكُمْ ﴾، يريد ذبائح اليهود والنصارى ومَن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث محمد ﷺ حلالٌ لكم، فأمّا مَن دخل في دينهم بعد مبعث محمد ﷺ فلا تحلّ ذبيحتُه، ولو ذبح يهودي أو نصراني على اسم غير الله كالنصراني يذبح باسم المسيح فاختلفوا فيه، قال عمر: لا يحلّ وهو قول ربيعة، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحلّ وهو قول الشعبي وعطاء والزهري ومكحول، سُئِل الشعبي وعطاء عن النصراني يذبح باسم المسيح، قالا: يَحِلُّ فإن

---

(١) قوله وسيأتي بيان هذه المسألة الخ لم يتعرض لما ذكره هنا عند الآية الآتية في سورة الأنعام اهـ مصححه.

سئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب فقال: لا بأس به. ثم قرأ: ومن يتولهم منكم، فإنه منهم وهذا قول الحسن وعطاء بن أبي رباح والشعبي وعكرمة وقتادة والزهري والحكم وحماد وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وإحدى الروايتين عن أحمد والرواية الأخرى مثل هذا مذهب الشافعي.

وأجمعوا على تحريم ذبائح المجوس وسائر أهل الشرك من مشركي العرب وعبدة الأصنام ومن لا كتاب له، وأجمعوا على أن المراد بطعام الذين أوتوا الكتاب ذبائحهم خاصة لأن ما سوى الذبائح فهي محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة ولأن ما قبل هذه الآية في بيان حكم الصيد والذبائح فحمل هذه الآية عليه أولى ولأن سائر الطعام لا يختلف من تولاه من كتابي أو غيره، وإنما تختلف الذكاة، فلما خص أهل الكتاب بالذكر دل على أن المراد بطعامهم وذبائحهم واختلف العلماء فيما لو ذبح يهودي أو نصراني على غير اسم الله فقال ابن عمر: لا يحل ذلك وهو قول ربيعة وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحل. سئل الشعبي وعطاء عن النصراني يذبح باسم المسيح فقال: يحل فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي والنصراني وذكر غير اسم الله وأنت تسمع فلا تأكل وإذا غاب عنك فكل فقد أحله الله لك وقد زعم قوم أن هذه الآية اقتضت إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً وإن ذكروا غير اسم الله فيكون هذا ناسخاً لقوله تعالى: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه، وليس الأمر كذلك ولا نسخ لأن الأصل أنهم يذكرون الله عند الذبح فيحمل أمرهم على هذا فإن تيقنا أنهم ذبحوا على غير اسم الله لم تأكل ولا وجه للنسخ.

وقوله تعالى: ﴿**وطعامكم حل لهم**﴾ يعني أن ذبائحنا لهم حلال وهذا يدل على أنهم مخاطبون بشريعتنا. وقال الزجاج: معناه ويحل لكم أن تطعموهم من طعامكم فجعل الخطاب للمؤمنين على معنى أن التحليل يعود إلى إطعامنا إياهم لا إليهم لأنه لا يمتنع أن يحرم الله تعالى أن تطعمهم من ذبائحنا. وقيل: إن الفائدة في ذكر ذلك أن إباحة المناكحة غير حاصلة من الجانبين وإباحة الذبائح كانت حاصلة من الجانبين لا جرم ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على التمييز بين النوعين ثم قال تعالى: ﴿**والمحصنات من المؤمنات**﴾ قال مجاهد: هن الحرائر فعلى هذا القول لا تدخل الأمة المؤمنة في هذا التحليل ومن أجاز نكاحهن أجازه بشرطين: خوف العنت، وعدم طول الحرة.

وقال ابن عباس: المحصنات: العفائف. فعلى هذا القول لا يحل نكاح الزانية لأنها لم تدخل في هذا التحليل وأباح العلماء نكاحها إذا تابت وحسنت توبتها.

الله تعالى قد أحلّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون، وقال الحسن: إذا ذبح اليهودي أو النصراني فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكله فإذا غاب عنك فكُلْ فقد أحلّ لك، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وطَعَامُكُمْ حِلٌّ لهم** ﴾، فإن قيل: كيف شرع لهم حِلّ طعامنا وهم كفّار ليسوا من أهل الشرع؟ قال الزجّاج: معناه حلال لكم أن تطعموهم فيكون خطاب الحِلّ مع المسلمين، وقيل: لأنه ذكر عقيبه حكم النساء، ولم يذكر حِلّ المسلمات لهم فكأنه قال حلالٌ لكم أن تطعموهم حرامٌ عليكم أن تُزوّجوهم، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والمُحصناتُ من المؤمناتِ والمُحصناتُ مِنَ الذين أوتوا الكتابَ مِنْ قبلِكم** ﴾، هذا راجع إلى الأول منقطع عن قوله: ﴿ **وطعامُكم حِلٌّ لهم** ﴾ اختلفوا في معنى ﴿ **المحصنات** ﴾ فذهب أكثر العلماء إلى أنّ المراد منهنّ الحرائر، وأجازوا نكاح كل حرّة مؤمنة كانت أو كتابية فاجرة كانت أو عفيفة، وهو قول مجاهد، وقال هؤلاء: لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى: ﴿ **فمما ملكتْ أيمانُكم من فتياتِكم المُؤمنات** ﴾ [النساء: ٢٥] جوّز نكاح الأمة بشرط أن تكون الأمة مؤمنة، وجوّز أكثرُهم نكاح الأمة الكتابية الحربية، وقال ابن عباس: لا يجوز وقرأ ﴿ **قاتلُوا الذينَ لا يُؤمنُون بالله** ﴾ إلى قوله: ﴿ **حتى**

روى طارق بن شهاب أن رجلاً أراد أن يزوج أخته فقالت: إني أخشى أن أفضحك إني قد بغيت فأتى عمر فذكر ذلك له منها فقال: أليس قد تابت؟ قال: بلى. قال: فزوجها. وقيل: إنما خص المحصنات بالذكر وهن الحرائر أو العفائف ليحث المؤمنين على تخير النساء ليكون الولد كريم الأصل من الطرفين.

وقوله تعالى: ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ يعني وأحل لكم المحصنات من أهل الكتاب اليهود والنصارى. قال ابن عباس: يعني الحرائر من أهل الكتاب. وقال الحسن والشعبي والنخعي والضحاك: يريد العفائف من أهل الكتاب فعلى قول ابن عباس: لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية وهو مذهب الشافعي قال: لأنه اجتمع في حقها نوعان من النقصان، الكفر، والرق. وعلى قول الحسن ومن وافقه، يجوز التزويج بالأمة الكتابية وهو مذهب أبي حنيفة لعموم هذه الآية. واختلف العلماء في حكم هذه المسألة فذهب جمهور الفقهاء إلى جواز التزويج بالذميات من اليهود والنصارى. روي أن عثمان بن عفان تزوج نائلة بنت الفرافصة على نسائه وهي نصرانية وأن طلحة بن عبيد الله تزوج يهودية وروي عن ابن عمر كراهية ذلك ويحتج بقوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾ وكان يقول: لا أعلم شركاً أعظم من قولها إن ربها عيسى وأجاب الجمهور عن قوله ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن بأنه عام خص بهذه الآية فأباح الله تعالى المحصنات من أهل الكتاب وحرم من سواهن من أهل الشرك وقال سعيد بن المسيب والحسن: يجوز التزويج بالذميات والحربيات من أهل الكتاب لعموم قوله تعالى: ﴿**والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم**﴾ وأجاب جمهور العلماء بأن ذلك مخصوص بالذميات دون الحربيات من أهل الكتاب.

قال ابن عباس: من نساء أهل الكتاب من تحل لنا ومنهن من لا تحل لنا. وقرأ: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله إلى قوله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون والمراد بهم أهل الذمة دون أهل الحرب من أهل الكتاب. وقوله تعالى: ﴿**إذا آتيتموهن أجورهن**﴾ يعني مهورهن وهو العوض الذي يبذله الزوج للمرأة ﴿**محصنين غير مسافحين**﴾ يعني متعففين بالتزوج غير زانين ﴿**ولا متخذي أخدان**﴾ يعني ولا منفردين ببغي واحدة قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا واتخاذ الصديق وهو الخدن وأحله على جهة الإحصان وهو التزويج بعقد صحيح ﴿**ومن يكفر بالإيمان**﴾ يعني ومن يجحد ما أمر الله به من توحيده ونبوة محمد ﷺ وما جاء به من عند الله ﴿**فقد حبط عمله**﴾ يعني فقد بطل ثواب عمله الذي كان عمله في الدنيا وخاب وخسر في الدنيا والآخرة. وقيل في معنى الآية، ومن يكفر بشرائع الإيمان وتكاليفه فقد خاب وخسر وقال قتادة ذكر لنا إن ناساً من المسلمين قالوا: كيف نتزوج نساءهم؟ يعني نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا، فأنزل الله تعالى: ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين. وقيل: لما أباح الله تعالى نكاح الكتابيات، قلن فيما بينهن لولا أن الله قد رضي أعمالنا لم يُبِحْ للمؤمنين تزويجنا، فأنزل الله هذه الآية والمعنى أن تزوج المسلمين إياهن ليس بالذي

يُعطُوا الجزيةَ عن يَدٍ وهم صَاغِرُون ﴾ [التوبة: ٢٩]، فمَن أعطى الجزية حَلّ لنا نساؤه ومَن لم يعطِها فلا يحلّ لنا نساؤه، وذهب قوم إلى أن المراد من المحصنات في الآية: العفائف من الفريقين حرائر كنّ أو إماء وأجازوا نكاح الأمة الكتابية، وحرّموا البغايا من المؤمنات والكتابيات، وهو قول الحسن، وقال الشعبي: إحصان الكتابية أن تستعفّ من الزنا وتغتسل من الجنابة، ﴿ **إذا آتيتموهُنّ أُجُورَهُنّ مُحصنينَ غيرَ مُسافِحِينَ** ﴾، غير مُعالنين بالزنا، ﴿ **ولا مُتخِذِي أخْدَانٍ** ﴾، أي: غير مُسرّين تسرّونهنّ بالزنا، قال الزجّاج: حرّم الله الجماع على جهة السفاح وعلى جهة اتخاذ الصديقة، وأحلّه على جهة الإحصان وهو التزوّج ﴿ **ومَنْ يكفرْ بالإيمانِ فقدْ حَبِطَ عملُه وهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾، قال مقاتل بن حيّان: يقول ليس إحصان المسلمين إيّاهنّ بالذي يخرجهنّ من الكفر أو يغني

يخرجهن من الكفر. وقيل: إن أهل الكتاب وإن حصلت لهم في الدنيا فضيلة بإباحة ذبائحهم ونكاح نسائهم إلا أن ذلك غير حاصل لهم في الآخرة، لأن كل من كفر بالله وجحد نبوة محمد ﷺ، فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين.

وقيل: إن من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله أو جحد بشيء مما أنزل الله فقد كفر بالله وحبط عمله المتقدم ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إذا مات على ذلك وهذا الشرط لا بد منه لأنه إذا تاب وآمن قبل الموت قبلت توبته وصح إيمانه. قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ يعني إذا أردتم القيام إلى الصلاة ومثله قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ أي: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله ومثله من الكلام إذا أتجرت فأتجر في البر أي إذا أردت التجارة. وهذا القول يقتضي وجوب الوضوء عند كل صلاة وهو ظاهر الآية ومذهب داود الظاهري وذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم إلى أنه يجزىء عدة صلوات بوضوء واحد وأجيب عن ظاهر الآية بأن المعنى إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهر فحذف ذلك لدلالة المعنى عليه وهذا أحد اختصارات القرآن وهو كثير جداً ولأن النبي ﷺ جمع يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» أخرجاه في الصحيحين وقيل في معنى الآية: إذا قمتم إلى الصلاة من النوم وقيل: هو أمر ندب ندب من قام إلى الصلاة أن يجدد لها طهارة وإن كان على طهر ويدل عليه ما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات» أخرجه الترمذي. وقيل: هذا إعلام من الله إلى رسول الله ﷺ

عنهنّ شيئاً وهي للناس عامّة ﴿ وَمَنْ يكفرْ بالإيمانِ فقدْ حَبِط عملُه وهو في الآخرةِ مِنَ الخاسرين ﴾ قال ابن عباس ومجاهد في معنى قوله تعالى: ﴿ ومَنْ يكفرْ بالإيمان ﴾ أي: بالله الذي يجب الإيمانُ به، وقال الكلبي: بالإيمان أي: بكلمة التوحيد وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله، وقال مقاتل: بما أُنزل على محمد ﷺ وهو القرآن، وقيل: مَن يكفر بالإيمان أي: يستحلّ الحرامَ ويحرّم الحلالَ فقد حَبِطَ عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين قال ابن عباس: خسر الثواب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا إذا قمتُم إلى الصَّلاةِ ﴾، أي: إذا أردتُم القيامَ إلى الصلاةِ، كقوله تعالى: ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاسْتعِذْ بالله ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردتَ القراءةَ، وظاهر الآية يقتضي وجوب الوضوء عند كلِّ مرّة يريد القيام إلى الصلاة، لكن علمنا ببيان السُّنّة وفعل النبي ﷺ أنّ المرادَ من الآية: ﴿ إذا قمتُم إلى الصَّلاة ﴾ وأنتم على غيرِ طُهر، قال النبي ﷺ: «لا يقبلُ اللّهُ صلاةَ أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»، وقد جمع النبي ﷺ يوم الخندق بين أربع صلوات بوضوء واحد، أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفي أنا أبو الحارث

أن لا وضوء عليه إلا إذا قام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال ويدل عليه ما روي عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ خرج يوماً من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا ألا نأتيك بوضوء فقال إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة» أخرجه مسلم. والقول الأول هو المختار في معنى الآية وفروض الوضوء المذكور في هذه الآية أربعة: الأول غسل الوجه وهو قوله تعالى: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ واستدل الشافعي على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية وحجته أن الوضوء مأمور به وكل مأمور به يجب أن يكون منوياً ولما روي في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ «قال إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى». والوضوء من الأعمال فيجب أن يكون منوياً وإنما قلنا: إن الوضوء مأمور به وأنه من أعمال الدين لقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾. والإخلاص، عبارة عن النية الخالصة ومتى كانت النية الخالصة، معتبرة كان أصل النية في جميع الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى معتبراً. واستدل أبو حنيفة لعدم وجوب النية في الوضوء بهذه الآية قال: إن النية ليست شرطاً لصحة الوضوء، لأن الله تعالى أوجب غسل الأعضاء الأربعة في هذه الآية ولم يوجب النية فيها، فإيجاب النية زيادة على النص والزيادة على النص نسخ ونسخ القرآن بخبر الواحد وبالقياس غير جائز. وأجيب عنه: بأنا إنما أوجبنا النية في الوضوء بدلالة القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وأما حد الوجه، فمن منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً لأنه مأخوذ من المواجهة فيجب غسل جميع الوجه في الوضوء ويجب إيصال الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والعذارين والشارب والعنفقة وإن كانت كثة. وأما اللحية فإن كانت كثة لا ترى البشرة من تحتها لا يجب غسل ما تحتها ويجب غسل ما تحت اللحية الخفيفة وهل يجب إمرار الماء على ظاهر ما نزل من اللحية عن الذقن؟ فيه قولان: أحدهما وبه قال أبو حنيفة، لا يجب لأن الشعر النازل عن حد الرأس لا يكون حكمه حكم الرأس في المسح فكذلك حكم الشعر النازل عن حد الوجه لا يجب غسله. والقول الثاني يجب إمرار الماء على ظاهره لأن الوجه مأخوذ من المواجهة فتدخل جميع اللحية في حكم الوجه. الفرض الثاني قوله تعالى: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ يعني: واغسلوا أيديكم إلى المرافق والمِرافق بالكسر هو من الإنسان أعلى الذراع وأسفل العضد. وذهب جمهور العلماء إلى وجوب إدخال المرفقين في الغسل ونقل عن مالك والشافعي وزفر وأبي بكر بن داود الظاهري، أنه لا يجب إدخال المرفقين في الغسل واختاره ابن جرير الطبري. ونقل عن مالك: وقد سئل عن قول الله عز وجل: ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾ فقال: الذي آمر به أن يبلغ المرفقين في الغسل لا يجاوزهما وحجة أصحاب هذا القول أن كلمة إلى لانتهاء الغاية وما يجعل غاية للحكم يكون خارجاً عنه كما في قوله

طاهر بن محمد الطاهري أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حكيم أنا أبو الموجة محمد بن عمرو بن الموجة أنا عبدان أنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سلمان بن بريدة عن أبيه أنّ النبي ﷺ صلّى يومَ فتحِ مكةَ الصلواتِ بوضوءٍ واحد، ومسح على خُفّيه. وقال زيد بن أسلم: معنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة من النوم، وقال بعضهم: هو أمر على طريق النَّدب، ندب مَن قام إلى الصلاة أن يجدّد لها طهارته وإن كان على طُهر، روى ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ توضأ على طُهرٍ كتبَ اللّهُ له عشرَ حسناتٍ»، وروَى عبد الله بن حنظلة بن عامر «أن رسول الله ﷺ أمر بالوضوء عند كلِّ صلاةٍ طاهراً أو غير طاهر، فلمّا شقَّ ذلك عليه أمر بالسِّواك لكلِّ صلاةٍ». وقال بعضهم: هذا إعلام من الله سبحانه وتعالى لرسول الله ﷺ أن لا وضوء عليه إلّا إذا قام إلى الصلاةِ دون غيرها من الأعمال، فأذن له أن يفعل بعد الحدث ما بَدَا له من الأفعال غير الصلاة، أخبرنا أبو القاسم الحنفي أنا أبو الحارث الطاهري أنا الحسن بن محمد بن حكيم أنا أبو الموجة أنا صدقة أنا ابن عُيينة عن عمرو بن دينار سمع سعيد بن الحويرث سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كنّا عند النبي ﷺ فرجع من الغائط فأُتيَ بطعامٍ فقيل له: ألا تتوضأ؟ فقال: «لم أصلِّ فأتوضأ». قوله عزّ وجلّ: ﴿ فاغْسِلُوا وُجُوهَكُم ﴾ وحدُّ الوجه من مَنَابِتِ شعر الرأس إلى

تعالى: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ ولأن الحد لا يدخل في المحدود فوجب أن لا يجب غسل المرفقين في الوضوء وحجة الجمهور أن كلمة إلى هنا بمعنى مع ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ أي مع أموالكم ويعضده من السنة ما صح من حديث أبي هريرة أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل اليمنى حتى أشرع في العضد ثم يده السرى حتى أشرع في العضد ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ كان يتوضأ. والجواب عن الحجة المتقدمة إن الحد إذا كان من جنس المحدود دخل فيه كما في هذه الآية لأن المرفق من جنس اليد وإذا لم يكن من جنس المحدود لم يدخل فيه كما في قوله تعالى: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ لأن النهار من غير جنس الليل فلا يدخل فيه. الفرض الثالث: قوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ اختلف العلماء في القدر الذي يجب مسحه من الرأس فقال مالك يجب مسح جميعه وهو إحدى الروايتين عن أحمد والرواية الأخرى عنه أنه يجب مسح أكثره وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربعه. وفي رواية أخرى عنه: يجب مسح قدر ثلاثة أصابع منه وقال الشافعي الواجب مسح ما ينطلق عليه اسم المسح والمراد إلصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح بالرأس فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب وأخذ الشافعي باليقين فأوجب مسح ما يقع عليه اسم المسح وأخذ أبو حنيفة ببيان السنة وهو ما روي عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة والخفين متفق عليه وقدر الناصية بربع الرأس. الفرض الرابع: قوله تعالى: ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ اختلف العلماء في هذا الحكم. وهل فرض الرجلين المسح أو الغسل؟ فروي عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان. ويروى ذلك عن قتادة أيضاً. ويروى عن أنس أنه قال: نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل. وعن عكرمة قال: ليس في الرجلين إنما نزل فيهما المسح. وعن الشعبي أنه قال: إنما هو المسح عن الرجلين. ألا ترى إن ما كان عليه الغسل جعل عليه التيمم وما كان عليه المسح أهمل. ومذهب الإمامية من الشيعة: أن الواجب في الرجلين المسح.

وقال جمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم والأئمة الأربعة وأصحابهم: إن فرض الرجلين هو

مُنتهى الذقن طولاً وما بين الأذنين عرضاً يجب غسل جميعه في الوضوء، ويجب أيضاً إيصالُ الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والشارب والعذار أو العنفقة وإن كانت كثيفاً وأمّا العارض واللحية فإن كانت كثيفة لا تُرى البشرة من تحتها لا يجب غسل باطنها في الوضوء، بل يجب غسل ظاهرها وهل يجب إمرارُ الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية عن الذقن؟ فيه قولان، أحدهما: لا يجب وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه لأن الشعر النازل عن حدّ الرأس لا يكون حكمه حكم الرأس في جواز المسح عليه، كذلك النازل عن حدّ الوجه لا يكون حكمه حكم الوجه في وجوب غسله، والقول الثاني: يجب إمرار الماء على ظاهره، لأن الله تعالى أمر بغسل الوجه، والوجه ما يقع به المواجهة من هذا العضو، ويقال في اللغة بقل وجه فلان وخرج وجهه: إذا نبتت لحيته. قوله تعالى: ﴿ وأيديَكم إلى المرافقِ ﴾، أي: مع المرافق، كما قال الله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء: ٢] أي: مع أموالكم، وقال: ﴿ مَن أنصاري إلى الله ﴾ [آل عمران: ٥٢، الصفّ: ١٤] أي: مع الله، وأكثر العلماء على أنه يجب غسل المرفقين، وفي الرِّجْل يجب غسل الكعبين، وقال الشعبي ومحمد بن جرير: لا يجب غسل المرفقين والكعبين في غسل اليد والرِّجل لأن حرف إلى للغاية والحدّ، فلا يدخل في المحدود، قلنا: ليس هذا بحدّ ولكنه بمعنى مع كما ذكرنا، وقيل: الشيء إذا حدّ إلى جنسه يدخل فيه الغاية، وإذا حدّ إلى غير جنسه لا يدخل، كقوله تعالى: ﴿ ثم أتمُّوا الصيامَ إلى الليل ﴾ [البقرة: ١٨٧]، لم يدخل الليل فيه لأنه ليس من جنس النهار، قوله تعالى: ﴿ وامْسَحُوا برُءُوسِكُم ﴾، اختلف العلماء في قدر الواجب من مسح الرأس فقال مالك: يجب مسح جميع الرأس كما يجب مسح جميع الوجه في التيمّم، وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربع الرأس، وعند

الغسل. وقال داود الظاهري: يجب الجمع بينهما. وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري: المكلف مخير بين الغسل والمسح. وسبب هذا الاختلاف، اختلاف القراء في هذا الحرف. فقرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم: وأرجلكم بفتح اللام عطفاً على الغسل فيكون من المؤخر الذي معناه التقديم ويكون المعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم. وقال أصحاب هذه القراءة: إنما أمر الله عباده بغسل الأرجل دون مسحها ويدل عليه أيضاً فعل النبي ﷺ وأصحابه والتابعين فمن بعدهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم وأرجلكم بكسر اللام عطفاً على المسح. أما قراءة النصب فالمعنى فيها ظاهر لأنه عطف على المغسول لوجوب غسل الرجلين على مذهب الجمهور ولا يقدح فيه قول من خالف. وأما قراءة الكسر فقد اختلفوا في معناها والجواب عنها فقال أبو حاتم وابن الأنباري وأبو علي الكسر عطف على الممسوح، غير أن المراد بالمسح في الأرجل الغسل. وقال أبو زيد: المسح خفيف الغسل لقول العرب تمسحت للصلاة بمعنى توضأت لها وهات ما أتمسح به للصلاة بمعنى أتوضأ.

قال أبو حاتم: وذلك أن المتوضىء لا يرضى بصب الماء على أعضائه حتى يمسحها مع الغسل فسمي الغسل مسحاً بهذا الاعتبار فعلى هذا الرأس والرجل ممسوحاً إلا أن مسح الرأس أخف. والذي يدل على أن المراد بالمسح في الرجل الغسل ذكر التحديد وهو قوله تعالى: إلى الكعبين لأن التحديد إنما جاء في المغسول ولم يجىء في الممسوح فلما وقع التحديد مع المسح علم أنه في حكم الغسل. وقال جماعة من العلماء: إن الأرجل معطوفة على الرؤوس في الظاهر والمراد فيها الغسل لأنه قد ينسق بالشيء على غيره والحكم فيهما مختلف كما قال الشاعر:

يـــا ليـــت بعلـــك قـــد غـــدا متقلـــداً سيفـــاً ورمحـــا

والمعنى: وحاملاً رمحاً لأن الرمح لا يتقلد به وكذلك قول الآخرين. علفتها تبناً وماء بارداً. يعني وسقيتها ماء بارداً. وكذلك المعنى في الآية وامسحوا برؤوسكم واغسلوا أرجلكم فلما لم يذكر الغسل وعطفت الأرجل على الرؤوس في الظاهر اكتفى بقيام الدليل على أن الأرجل مغسولة من مفهوم الآية والأحاديث الصحيحة الواردة بغسل الرجلين في الوضوء. وأما من جعل كسر اللام في الأرجل على مجاورة اللفظ دون الحكم واستدل بقولهم: جحر

الشافعي رحمه الله: يجب قدرُ ما يُطلق عليه اسم المسح، واحتجَّ مَن أجاز مسح بعض الرأس بما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا يحيىٰ بن حسان عن حمّاد بن زيد وابن عليّة عن أيوب السختياني عن ابن سيرين عن عمرو بن وهب الثقفي عن المغيرة بن شعبة «أنّ النبي ﷺ توضأ فمسح بناصيته وعلى عمامته وخُفّيه»، فأجاز بعض أهل العلم المسح على العمامة بهذا الحديث وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحق ولم يُجوّز أكثر أهل العلم المسح على العمامة بدلاً من مسح الرأس، وقال: في حديث المغيرة أن فرض المسح سقط عنه بمسح الناصية، وفيه دليل على أن مسح جميع الرأس غير واجب. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأرْجُلَكُم إلى الكَعبينِ ﴾، قرأ نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص «أرْجُلَكم» بنصب اللّام، وقرأ الآخرون «وأرْجُلِكم» بالخفض، فمَن قرأ «وأرجلكم» بالنصب فيكون عطفاً على قوله: ﴿ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ﴾ أي: واغسلوا أرجلكم، ومَن قرأ بالخفض فقد ذهب قليل من أهل العلم إلى أنه يمسح على الرجلين، ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان، ويُروى ذلك عن عكرمة وقتادة، وقال الشعبي: نزل جبريل بالمسح وقال: ألا ترى المتيمّم يمسح ما كان غسلاً ويلغي ما كان مسحاً، وقال محمد بن جرير الطبري يتخيّر المتوضىء بين المسح على الخفّين وبين غسل الرجلين، وذهب جماعة أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى وجوب غسل الرجلين، وقالوا: خفض اللّام في الأرجل على مجاورة

ضب خرب. وقال: الخرب نعت للجحر لا للضب وإنما أخذ إعراب الضب للمجاورة فليس يجيد لأن الكسر على المجاورة إنما يحمل لأجل الضرورة في الشعر أو يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس لأن الخرب لا يكون نعتاً للضب بل للجحر ولأن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف.

أما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب وقوله تعالى: ﴿إلى الكعبين﴾ فيه دليل قاطع على وجوب غسل الكعبين كما في وجوب غسل الرجلين كما في قوله تعالى: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ والمعنى: واغسلوا أرجلكم مع الكعبين وقد تقدم اختلاف العلماء في ذلك عند قوله إلى المرافق، والكعبان: هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم هذا قول جمهور العلماء من أهل الفقه واللغة وشذت الشيعة، ومن قال بمسح الرجلين. فقال: الكعب عبارة عن عظم مستدير على ظهر القدم ويدل على بطلان هذا القول أن الكعب لو كان على ما ذكره لكان في كل رجل كعب واحد فكان ينبغي أن يقال: وأرجلكم إلى الكعاب كما في قوله تعالى: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ فلما قال إلى الكعبين علم أن لكل رجل كعبين فبطل ما قالوه وثبت قول الجمهور.

(فصل)

قد تقدم أن الفروض المذكورة في هذه الآية أربعة: وهي غسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين وقد تقدم استدلال الشافعي بهذه الآية على وجوب النية في الوضوء فصارت فرضاً خامساً. وذهب الشافعي ومالك وأحمد إلى وجوب الترتيب في الوضوء، وهو أن يغسل الأعضاء في الوضوء على الولاء كما ذكره الله في هذه الآية فيغسل أولاً وجهه ثم يده ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه، فصار الترتيب فرضاً سادساً. وذهب أبو حنيفة، إلى أن الترتيب في الوضوء غير واجب احتج الشافعي على وجوب الترتيب بهذه الآية وذلك أن الله تعالى أمر بغسل الوجه ثم بغسل اليدين ثم بمسح الرأس ثم بغسل الرجلين فوجب أن يقع الفعل مرتباً كما أمر الله تعالى ولقوله ﷺ في حديث حجة الوداع «ابدأ بما بدأ الله به» وهذا الحديث، وإن ورد في قصة السعي بين الصفا والمروة، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن أفعال النبي ﷺ في الوضوء ما وردت إلا مرتبة كما ورد في نص الآية ولم ينقل عنه ولا عن غيره من الصحابة أنه توضأ منكساً أو غير مرتب، فثبت أن ترتيب أفعال الوضوء كما مر الله تعالى ونص عليه في هذه الآية واجب واحتج. أبو حنيفة لمذهبه بهذه الآية أيضاً. وذلك أن الواو لا توجب الترتيب، فإذا قلنا بوجوب الترتيب صار ذلك زيادة على النص وذلك غير جائز وأجيب عنه بأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه توضأ إلا مرتباً كما ذكر وبيان الكتاب إنما يؤخذ من السنة.

اللفظ لا على موافقة الحكم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ عذاب يوم أليم ﴾ [هود: ٢٦، الزخرف: ٦٥]، فالأليم صفة العذاب، ولكنه أخذ أعراب اليوم للمجاورة، وكقولهم: جُحْرُ ضبٍّ خربٍ، فالخراب نعت الجُحر، وأخذ أعراب الضبِّ للمجاورة، والدليل على وجوب غسل الرجلين ما أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدي الخطيب أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب أنا يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ أنا الحجبي ومسدد قال: أخبرنا أبو عوانة عن أبي بشرٍ عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: تخلّف عنّا رسول الله ﷺ العلماء في سفر سافرناه فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاةُ صلاة العصر، ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادانا بأعلى صوته: «وَيلٌ للأعقابِ منَ النّار»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله أنا معمر حدّثني الزهري عن عطاء بن يزيد عن حمران مولى عثمان قال: رأيتُ عثمان رضي الله عنه توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المِرفق ثلاثاً، ثم غسل يده اليسرى إلى المِرفق ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجله

(فصل في ذكر الأحاديث التي وردت في صفة الوضوء وفضله)

(ق) عن حمران مولى عثمان بن عفان «أن عثمان دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاثاً ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا ثم قال: من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه» (ق).

عن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري «قيل له توضأ لنا وضوء رسول الله ﷺ فدعا بإناء فأفرغ منه على يديه ثلاثاً ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل وجهه ثلاثاً ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل يديه إلى المرفقين مرتين مرتين ثم أدخل يده فاستخرجها فمسح برأسه فأقبل بيديه وأدبر ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثم قال هكذا كان وضوء رسول الله ﷺ» زاد في رواية بعد قوله: «فأقبل بيديه وأدبر بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه».

عن عبد خير قال: أتانا علي كرم الله وجهه وقد صلى فدعا بطهور فقلنا ما يصنع بالطهور وقد صلى ما يريد إلا ليعلمنا فأتى بإناء فيه ماء وطست فأفرغ من الإناء على يمينه فغسل يده ثلاثاً ثم تمضمض واستنشق ثلاثاً فمضمض ونثر من كف يأخذ منه ثم غسل وجهه ثلاثاً وغسل يده اليمين ثلاثاً وغسل الشمال ثلاثاً ثم جعل يده في الإناء فمسح رأسه مرة واحدة ثم غسل رجله اليمنى ثلاثاً ورجله الشمال ثلاثاً ثم جعل يده في الإناء فمسح رأسه مرة واحدة ثم غسل رجله اليمنى ثلاثاً ورجله الشمال ثلاثاً ثم قال: «من سره أن يعلم وضوء رسول الله ﷺ فهو هذا» أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله كيف الطهور فدعا بماء في إناء فغسل كفيه ثلاثاً ثم غسل وجهه ثلاثاً ثم غسل ذراعيه ثلاثاً ثم مسح برأسه فأدخل اصبعيه السبابتين في أذنيه ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه ثم غسل رجليه ثلاثاً ثلاثاً ثم قال: هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم أو قال ظلم وأساء» أخرجه أبو داود.

وعن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ مسح برأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما» أخرجه الترمذي وصححه (ق) عن

اليمنى ثلاثاً، ثم قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ توضأ نحو وُضوئي هذا، ثم قال: «مَن توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلّى ركعتين لا يحدِّثُ نفسَه فيهما بشيء غُفر له ما تقدّم من ذنبه». وقال بعضهم: أراد بقوله: ﴿ وأرجلكم ﴾ المسح على الخفّين كما رُوِيَ أنّ النبي ﷺ كان إذا ركع وضع يديه على ركبتيه، وليس المراد منه أنه لم يكن بينهما حائل، ويُقال: قبَّلَ فلان رأس الأمير ويده، وإن كانت العمامة على رأسه ويده في كمّه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم زكريا عن عامر عن عروة بن المغيرة عن أبيه رضي الله عنهما قال: كنتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة في سفر فقال: «أمعك ماء»؟ فقلت: نعم، فنزل عن راحلته فمشى حتى توارى عنّي في سواد الليل، ثم جاء فأفرغتُ عليه من الإداوة فغسل وجهه ويديه وعليه جبّة من صوف فلم يستطع أن يُخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجبّة فغسل ذراعيه، ثم مسح برأسه، ثم أهويتُ لأنزع خفّيه فقال: «دعْهُما فإني أدخلتُهما طاهرتين»، فمسح عليهما. قوله تعالى: ﴿ إلى الكعبين ﴾ فالكعبان هما العظمان الناتئان من جانبي القدمين، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، فيجب غسلهما مع القدمين كما ذكرنا في المِرفقين. وفرائضُ الوضوء غسل الأعضاء الثلاثة كما ذكر الله تعالى ومسح الرأس، واختلف أهل العلم في وجوب النيّة، فذهب أكثرهم إلى وجوبها لأن الوضوء عبادة فيفتقر إلى النيّة كسائر العبادات، وذهب

أبي هريرة أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبه فقال: «ويل للأعقاب من النار» (م) عن جابر قال: أخبرني عمر بن الخطاب «أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ فقال ارجع وأحسن وضوءك قال فرجع فتوضأ ثم صلى» أخرجه مسلم عن خالد عن بعض أصحاب النبي ﷺ «أن النبي ﷺ رأى رجلاً يصلي وفي قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره النبي ﷺ أن يعيد الوضوء والصلاة» أخرجه أبو داود (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادانا بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثاً» عن ابن عباس «أن النبي ﷺ توضأ مرة» أخرجه البخاري عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ توضأ مرتين مرتين أخرجه أبو داود والترمذي. وقال وقد روي عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً» (م).

عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس فأدركت من قوله «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة» فقلت ما أجود هذا فإذا قائل بين يدي يقول التي قبلها أجود فنظرت فإذا عمر قال: إني قد رأيتك جئت آنفاً قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» (م).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب» (ق) عن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» وفي رواية قال: رأيت أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه فأسبغ

بعضهم إلى أنها غير واجبة وهو قول الثوري، واختلفوا في وجوب الترتيب وهو أن يغسل أعضاءه على الولاء كما ذكر الله تبارك وتعالى، فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحق رحمهم الله. ويُروى ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه. واحتجّ الشافعي بقول الله تعالى: ﴿ إنّ الصّفا والمروةَ مِنْ شعائر الله ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وبدأ النبي ﷺ بالصفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»، وكذلك ههنا بدأ الله تعالى بذكر غسل الوجه فيجب علينا أن نبدأ فعلاً بما بدأ الله تعالى بذكره، وذهب جماعة إلى أنّ الترتيب سُنّة، وقالوا: الواوات المذكورة في الآية للجمع لا للترتيب كما قال الله تعالى: ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية، واتفقوا على أنه لا تجب مراعاة الترتيب في صرف الصدقات إلى أهل السهمان، ومَن أوجب الترتيب أجاب بأنه لم يُنقل عن النبي ﷺ أنه راعى الترتيب بين أهل السهمان، وفي الوضوء لم ينقل أنه توضأ إلاّ مرتّباً كما ذكر الله تعالى، وبيان الكتاب يُؤخذ من السُّنّة كما قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ [الحج: ٧٧] لمّا قدم ذكر الركوع على السجود، ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه فعل إلاّ كذلك فكان مراعاة الترتيب فيه واجبة، كذلك الترتيب هنا. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإنْ كنتم جنباً فاطّهرُوا ﴾، أي: اغتسلوا. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعه في الماء فيخلّل بها أصول شعره، ثم يصبُّ على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على جلده كله. قوله تعالى: ﴿ وإنْ كنتُم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم منَ الغائطِ أوْ لامستُمُ النِّساءَ فلمْ تَجدُوا ماءً فتيمّمُوا صعيداً طيباً فامسحُوا بوجوهِكم

الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع في العضد ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: قال رسول الله ﷺ «أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله».

وفي رواية لمسلم قال: سمعت خليلي رسول الله ﷺ «يقول تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات» أخرجه الترمذي.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» أخرجه أبو داود وابن ماجه. وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ أي اغتسلوا أمر الله بالاغتسال من الجنابة وذلك يجب على الرجل والمرأة بأحد شيئين: إما بخروج المني على أي صفة كان من احتلام أو غيره أو بالتقاء الختانين وإن لم يكن معه إنزال فإذا حصل وجب الغسل (ق).

عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ثم يدخل أصابعه في الماء يخلل بهما أصول شعره ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيده ثم يفيض الماء على سائر جسده» أو قوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ فقد تقدم تفسيره وأحكامه في تفسير سورة النساء وفي قوله تعالى منه دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب. وقوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ يعني من ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم عند عدم الماء ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ يعني من الاحداث والذنوب والخطايا لأن الوضوء تكفير للذنوب ﴿لعلكم تشكرون﴾ يعني تشكرون

﴿ وأيدِيْكُمْ منه ﴾، فيه دليلٌ على أنّه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب، **﴿ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيجعلَ عليكم ﴾**، بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمّم، **﴿ مِنْ حَرجٍ ﴾**، ضيق، **﴿ ولكنْ يُريدُ لِيُطهركم ﴾**، من الأحداث والجنابات والذنوب، **﴿ وليُتِمّ نِعْمَتَهُ عليكمْ لعلّكمْ تشكُرُون ﴾**. قال محمد بن كعب القرظي: إتمام النعمة تكفير الخطايا بالوضوء كما قال الله تعالى: **﴿ ليغفرَ لكَ اللَّهُ ما تقدّمَ منْ ذنبكَ وما تأخر ﴾** [الفتح: ٢]، فجعل تمام نعمته غفران ذنوبه. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن حمران: أنّ عثمان توضأ بالمقاعد ثلاثاً ثلاثاً ثم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن توضّأ وضوئي هذا خرجتْ خطاياه من وجهه ويديه ورجليه»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن حمران مولى عثمان: أنّ عثمان بن عفّان رضي الله عنه جلس على المقاعد يوماً فجاءه المؤذّن فآذنه بصلاة العصر فدعا بماء فتوضأ، ثم قال: والله لأحدّثنّكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدّثتكموه، ثم قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مامن امرىءٍ مسلمٍ يتوضأ فيُحسن وضوءه ثم يُصلّي الصلاةَ إلاّ غُفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصلّيها» قال مالك: أراه يريد هذه الآية **﴿ أقمِ الصلاة لذكري ﴾** [طه: ١٧]، ورواه ابن شهاب. وقال عروة: الآية **﴿ إنّ الذين يكتمُون ما أنزلنا من البيّنات ﴾** [البقرة: ١٥٩]، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيىٰ بن بكير أنا الليث عن خالد عن سعيد بن أبي هلال عن نعيم المجمر قال: رقيت مع أبي هريرة رضي الله عنه على ظهر المسجد، فتوضأ قال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ

نعمة الله عليكم بأن طهركم من الاحداث والذنوب وما جعل عليكم في الدين من حرج. قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞٧ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞٨ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۞٩﴾

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ يعني: ما أنعم به عليكم من النعم كلها، لأن كثرة النعم وذكرها يوجب مزيد الشكر من المنعم عليه والاشتغال بطاعة المنعم بها والانقياد لأمره وهو الله تعالى: ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ يعني: واذكروا عهده الذي عاهدكم به أيها المؤمنون ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ وذلك حين بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فيما أحبوا وكرهوا وقيل الميثاق هو الذي أخذه عليهم في يوم ألست بربكم قالوا بلى: ﴿واتقوا الله﴾ يعني فيما أخذه عليكم من الميثاق فلا تنقضوه ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ يعني إن الله تعالى عالم بما في قلوب عباده من خير وشر.

وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله﴾ قال ابن عباس يريد أنهم يقومون لله بحقه ومعنى ذلك: هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من العمل بطاعته واجتناب نواهيه ﴿شهداء بالقسط﴾ يعني وتشهدون بالعدل يقول لا تحابِ في شهادتك أهل ودِّك وقرابتك ولا تمنع شهادتك أهل بغضك وأعداءك أقم شهادتك لهم وعليهم بالصدق والعدل.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم﴾ ولا يحملنكم بغض قوم ﴿على ألا تعدلوا﴾ على ترك العدل فيهم لعدوانهم ﴿اعدلوا﴾ أمر الله بالعدل في كل أحد القريب والبعيد والصديق والعدو ﴿هو أقرب للتقوى﴾ أي العدل أقرب للتقوى ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ يعني: أن الله تعالى خبير بجميع أعمالكم مطلع عليها وخبير بمن عدل ومن لم يعدل.

قوله تعالى: ﴿وعد الله الذي آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني عملوا بما واثقهم الله به وأوفوا بالعهود التي عاهدهم عليها ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ هذا بيان للوعد كأنه لما تقدم ذكر الوعد فقيل: أي شيء هذا الوعد؟ فقال: لهم مغفرة وأجر عظيم وإذا وعدهم أنجز لهم الوعد فإنه تعالى لا يخلف الميعاد.

يقول: «إنَّ أمتي يُدعون يومَ القيامة غُرّاً محجّلين من آثار الوضوء، فمَن استطاع أن يُطيل منكم غُرّتَه فليفعل».

قوله تعالى: ﴿ واذكُروا نعمةَ اللّهِ عليكم ﴾، يعني: النّعم كلها، ﴿ وميثاقَهُ الذي واثَقَكُمْ به ﴾، عهده الذي عاهدكم به أيّها المؤمنون، ﴿ إذْ قلتُمْ سمعنا وأطعنا ﴾ وذلك حين بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فيما أحبّوا وكرهوا، وهو قول أكثر المفسّرين، وقال مجاهد ومقاتل: يعني الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام، ﴿ واتَّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدُور ﴾، بما في القلوب من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا كونُوا قوّامين للّهِ شُهداءَ بالقِسْطِ ﴾، أي: كونُوا له قائمين بالعدل قوّالين بالصدق، أمرهم بالعدل والصدق في أعمالهم. وأقوالهم، ﴿ ولا يَجرِمَنّكم ﴾، ولا يحملنّكم، ﴿ شَنآنُ قومٍ ﴾، بغضُ قوم، ﴿ على أنْ لا تَعْدِلُوا ﴾، أي: على ترك العدل فيهم لعداوتهم. ثم قال: ﴿ اعْدِلُوا ﴾، يعني: في أوليائكم وأعدائكم، ﴿ هو أقربُ للتّقوى ﴾، يعني: إلى التقوى، ﴿ واتّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ خبيرٌ بما تعملون ﴾.

﴿ وَعَدَ اللّهُ الذين آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجْرٌ عظيم ﴾، وهذا في موضع النصب، لأن فعل الوعد واقع على المغفرة ورفعها على تقدير أي: وقال لهم مغفرة وأجر عظيم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١٠ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾

﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا**﴾ يعني: والذين جحدوا وحدانية الله ونقضوا عهوده ومواثيقه وكذبوا بما جاءت به الرسل من عنده ﴿**أولئك**﴾ يعني من هذه صفته ﴿**أصحاب الجحيم**﴾ هذه الآية نص قاطع في أن الخلود في النار ليس إلا للكفار لأن المصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال: فلان صاحب فلان يعني الملازم له.

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ يعني: اذكروا نعمة الله عليكم بالدفع عنكم مع سائر نعمه التي أنعم بها عليكم ثم وصف تلك النعمة التي ذكرهم بها وأمرهم بالشكر عليها فقال تعالى: ﴿**إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم**﴾ يعني بالقتل والبطش بكم فصرفهم عنكم وحال بينكم وبين ما أرادوه بكم.

اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية وفي صفة هذه النعمة التي أمر الله تعالى أصحاب نبيه ﷺ بذكرها والشكر عليها، فقال قتادة: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ ببطن نخلة حين أراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا برسول الله ﷺ وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ذلك وأنزل صلاة الخوف. وقال الحسن: كان رسول الله ﷺ محاصراً غطفان بنخل فقال رجل من المشركين: هل لكم أن أقتل محمداً؟ قالوا: وكيف تقتله؟ قال: أفتك به. قالوا: وددنا أنك فعلت ذلك. فأتى النبي ﷺ والنبي ﷺ متقلد سيفه فقال: يا محمد أرني سيفك فأعطاه إياه فجعل الرجل يهز السيف وينظر إليه مرة وإلى النبي ﷺ مرة ثم قال: من يمنعك مني يا محمد؟ قال: الله. فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ فأغمد السيف ومضى فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد وعكرمة والكلبي: بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو الساعدي وهو أحد النقباء ليلة العقبة في ثلاثين راكباً من المهاجرين والأنصار إلى بني عامر بن صعصعة فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة وهي من مياه بني عامر فاقتتلوا فقتل المنذر وأصحابه إلا ثلاثة نفر كانوا في طلب ضالة لهم: أحدهم عمرو بن أمية الضمري فلم يرعهم إلا الطير تحوم في السماء يسقط من بين مناقيرها علق الدم فقال أحد النفر الثلاثة: قتل أصحابنا. ثم تولى يشتد حتى لقي رجلاً من المشركين فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه فقال: الله أكبر الجنة ورب العالمين ورجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم وكان بين النبي ﷺ وبين قومهما موادعة فانتسبا إلى بني عامر فقتلاهما وقدم قومهما إلى النبي ﷺ يطلبون

﴿ **والذين كفروا وكذبُوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾.

﴿ **يا أيها الذين آمنُوا اذكُروا نعمتَ اللهِ عليكم** ﴾، بالدفع عنكم، ﴿ **إذْ هَمّ قومٌ أن يبسطُوا إليكم أيديَهم** ﴾ بالقتل، وقال قتادة: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ ببطن نخل فأراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتكوا به وبأصحابه إذا اشتغلوا بالصلاة فأطلع الله تبارك وتعالى نبيّه على ذلك، وأنزل الله صلاة الخوف، وقال الحسن: كان النبي ﷺ محاصراً غطفان بنخل، فقال رجل من المشركين: هل لكم في أن أقتل محمداً؟ قالوا: وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، قالوا: وددنا أنك قد فعلت ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ والنبيُّ ﷺ متقلّد سيفه، فقال: يا محمد أرِني سيفك فأعطاه إيّاه فجعل الرجل يهزّ السيف وينظر مرة إلى السيف ومرة إلى النبي ﷺ، وقال: مَن يمنعك منّي يا محمد؟ قال: «الله»، فتهدّده أصحاب رسول الله ﷺ فشام السيف ومضى، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مجاهد وعكرمة والكلبي وابن يسار عن رجاله: بعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو الساعدي وهو أحد النقباء ليلة العقبة في ثلاثين راكباً من

الدية فخرج النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبدالرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في عقلهما وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات. وقيل أراد أن يستقرض منهم دية رجلين فقالوا نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي سألته فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه فخلا بعض اليهود ببعض وقالوا: إنكم لم تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمن يظهر منكم على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه فقال عمرو بن جحاش: أنا. فعمد إلى رحى عظيمة ليطرحها على النبي ﷺ فأمسك الله يده ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك، فخرج النبي ﷺ راجعاً إلى المدينة. قال: وخرج معه علي بن أبي طالب فقال النبي ﷺ لعلي لا تبرح مكانك حتى يخرج إليك أصحابي فمن خرج إليك منهم وسألك عني فقل توجه إلى المدينة ففعل ذلك حتى تناهوا إليه ثم اتبعوه إلى المدينة وأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم﴾ يعني اليهود ﴿أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ يقال بسط يده إليه إذا بطش به وهو إذا مدها إلى المبطوش به ليقتله ﴿فكفَّ أيديهم عنكم﴾ يعني أنه تعالى منعهم مما أرادوه بكم ﴿واتقوا الله﴾ يعني فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بالتوكل عليه لأنه هو الكافي عباده جميع أمورهم فإذا فعلوا ذلك وتوكلوا عليه حفظهم ورعاهم ممن أرادهم بسوء كما كفَّ أيدي اليهود عنهم لما أرادوا أن يفتكوا بهم وهذه القصة أولى بالصواب لأنه عقب الآية بذم اليهود وذكر قبيح أفعالهم وخيانتهم وذلك قوله تعالى:

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ

المهاجرين والأنصار إلى بني عامر بن صعصعة فخرجوا فلقوا عامر بن الطفيل على بئر معونة وهي من مياه بني عامر واقتتلوا فقتل المنذر بن عمرو وأصحابه إلّا ثلاثة نفر كانوا في طلب ضالّة لهم أحدهم عمرو بن أمية الضمري فلم يرعهم إلّا الطير يحوم في السماء يسقط من بين خراطيمها علق الدم فقال أحد النفر: قتل أصحابنا ثم تولّى يشتدّ حتى لقي رجلاً فاختلفا ضربتين فلما خالطته الضربة رفع رأسه إلى السماء وفتح عينيه وقال الله أكبر الجنّة وربّ العالمين، فرجع صاحباه فلقيا رجلين من بني سليم وكان بين النبي ﷺ وبين قومهما موادعة، فانتسبا لهما إلى بني عامر فقتلاهما وقَدِما قومهما إلى النبي ﷺ يطلبون الديّة فخرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، حتى دخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في عقلهما، وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديّات، قالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلسْ حتى نطعمك ونعطيك الذي سألته، فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فمَن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيُريحنا منه؟ فقال عمر بن حجاش: أنا، فجاء إلى رُحى عظيمة ليطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده وجاء جبريل وأخبره، فخرج النبي ﷺ راجعاً إلى المدينة ثم دعا عليّاً فقال: «لا تبرح مكانك فمَن خرج عليك من أصحابي فسألك عنّي فقل: توجّه إلى المدينة»، ففعل ذلك عليّ رضي الله عنه حتى تناهوا إليه ثم تبعوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال: ﴿ فكفّ أيديَهم عنكم واتّقوا اللّهَ وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ لما ذكر الله في الآية المتقدمة بعض غدرات اليهود وما أرادوه من كيد رسول الله ﷺ وأصحابه أتبعه بذكر أسلافهم وما نقضوه من المواثيق والعهود ومعنى الآية أن الله أخذ ميثاقهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأن يعملوا بما في التوراة من الأحكام والتكاليف ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ اختلف العلماء في معنى النقيب فقال ابن عباس: النقيب الضمين. وقال قتادة: هو الشهيد على قومه. وقيل: هو الأمين الكفيل. وقيل: هو الباحث عن القوم وعن أحوالهم.

(ذكر القصة في ذلك)

قال أصحاب الأخبار والسير: إن الله عز وجل وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون فأمر الله موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فإني ناصرك عليهم وخذ من قومك اثني عشر نقيباً من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به فاختار موسى النقباء وسار ببني إسرائيل حتى قربوا من أريحاء وهي مدينة الجبارين فبعث هؤلاء النقباء يتجسسون له الأخبار ويعلمون علمها فلقيهم رجل من الجبارين يقال له، عوج بن عنق، وعنق: أمه، وهي إحدى بنات آدم عليه السلام. وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع هكذا نقله البغوي وفيه نظر لأن آدم عليه السلام كان طوله على ما ورد في الأحاديث الصحيحة ستين ذراعاً. قال: وكان عوج يحتجر بالسحاب ويشرب من مائه ويتناول الحوت من قعر البحر ويشويه في عين الشمس، ويروى أن الماء لما طبق على الأرض من جبل وغيره ما بلغ ركبتي عوج وقال لنوح عليه السلام: احملني معك في السفينة فقال نوح عليه السلام: اخرج عني ياعدو الله فإني لم أؤمر بك وعاش عوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله تعالى على يد موسى عليه السلام وذلك أنه اقتلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى، وكان فرسخاً في فرسخ وحملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فنقب الصخرة وقورها بمنقاره فوقعت في عنقه فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله قال، فلما لقي عوج النقباء أخذهم وجعلهم في حجزته وكان على رأسه حزمة حطب وانطلق بهم إلى امرأته وقال لها: انظري إلى هؤلاء الذين يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها وقال لا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته: بل خلِّ

﴿ ولقد أخذ اللَّهُ ميثاقَ بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشرَ نقيباً ﴾، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ وعد موسى عليه السلام أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام، وكان يسكنها الكنعانيون الجبّارون، فلما استقرت لبني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحاء من أرض الشام وهي الأرض المقدسة، وكان لها ألف قرية في كل قرية ألف بستان، وقال: يا موسى إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرج إليها وجاهد مَن فيها من العدو فإني ناصرك عليهم، وخذ من قومك اثني عشر نقيباً من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء منهم على ما أُمروا به، فاختار موسى النقباء وسار موسى ببني إسرائيل حتى قربوا من أريحاء وهي مدينة الجبّارين فبعث هؤلاء النقباء يتجسّسون له الأخبار ويعلمون علمها، فلقيهم رجل من الجبّارين يقول له عوج بن عنق، وكان طوله ثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاث وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع، وكان يحتجر بالسحاب ويشرب منه ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله. ويُروى أن الماء في زمن نوح عليه السلام طبق ما على الأرض من جبل وما جاوز ركبتي عوج وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدي موسى عليه السلام، وذلك أنه جاء وقلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى عليه السلام، وكان فرسخاً في فرسخ، وحملها ليطبقها عليهم فبعث الله الهدهد فقوّر الصخرة

عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا منك وقيل إنه جعلهم في كمه وأتى بهم إلى الملك فنثرهم بين يديه فقال لهم الملك ارجعوا إلى قومكم فأخبروهم بما رأيتم وكان مما رأوا أن العنقود العنب لا يحمله إلا خمسة أنفس منهم بينهم في خشبة ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع منها حبسها خمسة أنفس فرجع النقباء وقال بعضهم لبعض: يا قوم إنكم إذا خبرتم بني إسرائيل خبر القوم رجعوا عن نبي الله موسى ولا يقاتلونهم معه اكتموا عن بني إسرائيل خبر القوم وأخبروا موسى وهارون بما رأيتم فيريان رأيهما وأخذ بعض النقباء على بعض الميثاق بذلك فلما رجعوا إلى بني إسرائيل نكثوا العهد والميثاق وأخبر كل رجل سبطه بما رأى إلا رجلان منهم وهم يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فإنهم أوفيا بالعهود ولم ينكثا الميثاق فذلك قوله تعالى: ﴿**ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً**﴾ ﴿**وقال الله إني معكم**﴾ فيه حذف تقديره وقال للنقباء: إني معكم يعني بالنصر والمعونة. وقيل: هو خطاب لعامة بني إسرائيل: والقول الأول أولى لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور فكان عوده إلى النقباء أولى ثم ابتدأ الكلام فقال مخاطباً لبني إسرائيل: ﴿**لئن أقمتم الصلاة**﴾ هذه جملة شرطية والشرط مركب من خمسة أمور، وهي قوله: لئن أقمتم الصلاة ﴿**وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً**﴾ وجزاء الشرط قوله تعالى: ﴿**لأكفرنّ عنكم سيئاتكم**﴾ وذلك إشارة إلى إزالة العذاب. وقوله تعالى: ﴿**ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ إشارة إلى إيصال الثواب ومعنى الآية لئن أقمتم الصلاة المكتوبة وآتيتم الزكاة المفروضة وآمنتم برسلي يعني جميع رسلي وإنما أخر ذكر الإيمان بالرسل لأن اليهود كانوا مقربين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان ببعض الرسل فقال الله لهم إنه لا يتم لكم ذلك ولا يحصل المقصود إلا بالإيمان بجميع الرسل. وقوله تعالى: وعزرتموهم، يعني ونصرتموهم. وأصل التعزير في اللغة: الردع. فمعنى وعزرتموهم: ونصرتموهم بأن تردوا أعداءهم عنهم. وقيل: معناه وقرتموهم وعظتموهم. والقول هو الأول.

وأقرضتم الله قرضاً حسناً: يعني به الصدقات المندوبة لأن الزكاة تقدم ذكرها فلا فائدة في تفسير هذا الفرض بالزكاة. فإن قلت: كيف؟ قال: وأقرضتم الله قرضاً حسناً ولم يقل إقراضاً حسناً لأن مصدر أقرضتم الإقراض قلت: إن قوله قرضاً أخرج مصدراً من معناه لا من لفظه وذلك أن أقرض بمعنى قرض فكان معنى الكلام وأقرضتم الله فقرضتم قرضاً حسناً ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**﴾ إذ كان معناه فنبتم نباتاً وقوله ﴿**لأكفرن**

بمنقاره فوقعت في عنقه فصرعته، فأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله، وكانت أُمه عنق إحدى بنات آدم وكان مجلسها جريباً من الأرض، فلما لقي عوج النقباء وعلى رأسه حزمة حطب أخذ الإثني عشر وجعلهم في حجزته وانطلق بهم إلى امرأته، وقال: انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، وطرحهم بين يديها وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته: لا بلْ خلِّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك. ورُوِيَ أنه جعلهم في كمّه وأتى بهم إلى الملك فنثرهم بين يديه، فقال الملك: ارجعوا فأخبروهم بما رأيتم، وكان لا يحمل عنقوداً من عنبهم إلّا خمسة أنفس منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع منها حبّها خمسة أنفس، فرجع النقباء وجعلوا يتعرّفون أحوالهم، وقال بعضهم لبعض يا قوم: إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل خبر القوم ارتدّوا عن نبيّ الله ولكن اكتموا، وأخبروا موسى وهارون فيريان رأيهما وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك، ثم أنهم نكثوا العهد وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى: إلّا رجلان فذلك قوله تعالى: ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً** ﴾. ﴿ **وقال اللّهُ إنّي معكم** ﴾، ناصركم على عدوكم، ثم ابتدأ الكلام فقال: ﴿ **لئن أقمتم الصلاة** ﴾، يا معشر بني إسرائيل، ﴿ **وآتيتُمُ الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم** ﴾، نصرتموهم، وقيل: وقّرتمـوهم وعظّمتموهم؛ ﴿ **وأقرضتُمُ اللّهَ قرضاً حسناً** ﴾، قيل: هو إخراج الزكاة، وقيل: هو

عنكم سيئاتكم﴾ يعني إذا فعلتم سائر ما أمرتكم به لأمحونَّ عنكم سيئآتكم وأغفرها لكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم﴾ يعني بعد أخذ العهد والميثاق ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ يعني فقد أخطأ الطريق المستقيم وهو طريق الدين الذي شرعه والهدى الذي أمر باتباعه قوله تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق؛ وذلك أن بني إسرائيل نقضوا ميثاق الله وعهده بأن كذبوا الرسل الذين جاؤوا من بعد موسى وقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيَّعوا فرائضه ﴿لعناهم﴾ يعني جازيناهم على ذلك بأن أبعدناهم وطردناهم عن رحمتنا وأصل اللعنة الإبعاد عن الرحمة ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ يعني غليظة يابسة لا تلين لأن القسوة خلاف اللين والرقة وقيل معناه إن قلوبهم ليست خالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ يعني يغيرون حدود التوراة وأحكامها وقيل هو تبديلهم صفة محمد ﷺ ونعته من التوراة وقيل هو تحريفهم معاني الألفاظ بسوء التأويل ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ يعني وتركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان يعني على معصية منهم وكانت خيانتهم نقض العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب محمد ﷺ وهمهم بقتله وسمه ونحوها من خيانتهم التي ظهرت ﴿إلا قليلاً منهم﴾ يعني أنهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل الكتاب ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ أي فاعف عن زلاتهم يا محمد واصفح عن جرمهم ومؤاخذتهم وهذا الأمر بالعفو والصفح عن أهل الكتاب منسوخ بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية التي نزلت في سورة براءة قاله قتادة وقيل إنها غير منسوخة بل نزلت في قوم كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد فغدروا ونقضوا ذلك العهد فأظهر الله تعالى نبيه ﷺ على ذلك وأنزل هذا الآية ولم تنسخ

النفقة على الأهل، ﴿ لأكفرنَّ عنكم سيآتِكم ﴾، لأمحونَّ عنكم سيآتكم، ﴿ ولأدخلنَّكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فمَن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواءَ السبيل ﴾، أي: أخطأ قصد السبيل، يريد طريق الحق، وسواء كل شيء: وسطه.

﴿ فبما نقضهم ﴾ أي: فبنقضهم، و﴿ ما ﴾ صلة، ﴿ ميثاقهم ﴾، قال قتادة: نقضوه من وجوه لأنهم كذّبوا الرسل الذين جاؤوا بعد موسى وقتلوا أنبياء الله ونبذوا كتابه وضيّعوا فرائضه، ﴿ لعنّاهم ﴾، قال عطاء: أبعدناهم من رحمتنا، قال الحسن ومقاتل: عذّبناهم بالمسخ، ﴿ وجعلنا قلوبَهم قاسيةً ﴾، قرأ حمزة والكسائي قسية بتشديد الياء من غير ألف، وهما لغتان مثل الذاكية والذكية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قاسية أي يابسة، وقيل: غليظة لا تلين، وقيل معناه: إن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق، ومنه الدراهم القاسية وهي الرديّــة المغشوشة. ﴿ يُحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه ﴾، قيل: هو تبديلهم نعت النبي ﷺ، وقيل: تحريفهم بسوء التأويل، ﴿ ونَسُوا حظّاً ممّا ذُكِّرُوا به ﴾، أي: وتركوا نصيبَ أنفسهم مما أُمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعته، ﴿ ولا تزال ﴾، يا محمد، ﴿ تطّلع على خائنةٍ منهم ﴾، أي: على خيانة، فاعلة بمعنى المصدر كالكاذبة واللّاغية، وقيل: هو بمعنى الفاعل والهاء للمبالغة مثل روّاية ونسّابة وعلّامة وحسّابة، وقيل: على فرقة خائنة، قال

وذلك أن يجوز أن يعفو عن غدرة فعلوها ما لم ينصبوا حرباً ولم يمنعوا من أداء الجزية والصغار وعلى هذا القول بأنها غير منسوخة يكون معنى الآية فاعفُ عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم قبل ذلك. وقيل: معناه فاعف عن صغائر زلاتهم ما داموا باقين على العهد ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ يعني إذا عفوت عنهم فإنك تحسن والله يحب المحسنين قوله عز وجل: ﴿ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ لما ذكر نقض اليهود الميثاق اتبعه بذكر نقض النصارى الميثاق وأن سبيل النصارى مثل سبيل اليهود في نقض العهد والميثاق وإنما قال تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ ولم يقل من النصارى لأنهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسموا به أنفسهم لأن الله تعالى سماهم به أخذنا ميثاقهم يعني كتبنا عليهم في الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾ يعني فتركوا ما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿فأغرينا﴾ يعني فألقينا وأوقعنا ﴿بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾.

قال قتادة: لما تركوا العمل بكتاب الله وعصوا رسله وضيعوا فرائضه وعطلوا حدوده، ألقى الله العداوة والبغضاء بينهم. وقيل: العداوة والبغضاء هي الأهواء المختلفة وفي الهاء والميم من قوله بينهم قولان: أحدهما أن المراد بهم اليهود والنصارى فإن العداوة والبغضاء حاصلة بينهم إلى يوم القيامة. والقول الثاني أن المراد بهم فرق النصارى، فإن كل فرقة منهم تكفر الأخرى ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ يعني أن الله تعالى يخبرهم في الآخرة بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ففيه وعيد وتهديد لهم. قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ يعني محمد ﷺ ﴿يبين لكم كثيراً مما كنتم

ابن عباس رضي الله عنهما: على خائنة أي: على معصية، وكانت خيانتهم نقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ وهمّهم بقتله وسمّه، ونحوهما من خياناتهم التي ظهرت منهم، ﴿ إلاّ قليلاً منهم ﴾، لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم الذين أسلموا من أهل الكتاب، ﴿ فاعفُ عنهم واصفح ﴾، أي: أعرض عنهم ولا تتعرّض لهم، ﴿ إنّ اللّهَ يحبُّ المحسنين ﴾، وهذا منسوخ بآية السيف.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾، قيل: أراد بهم اليهود والنصارى فاكتفى بذكر أحدهما، والصحيح أن الآية في النصارى خاصة لأنه قد تقدّم ذكر اليهود، وقال الحسن: فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى، أخذنا ميثاقهم في التوحيد والنبوّة، ﴿ فَنَسُوا حظاً ممّا ذُكِّروا به فأغرينا بينهُمُ العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة ﴾، بالأهواء المختلفة والجدال في الدين، قال مجاهد وقتادة: يعني بين اليهود والنصارى، وقال الربيع: هم النصارى وحدهم صاروا فرقاً منهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية وكل فرقة تكفّر الأخرى، ﴿ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ في الآخرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أهلَ الكتاب ﴾، يريد يا أهل الكتابين، ﴿ قد جاءكم رسولُنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم

تخفون من الكتاب﴾ يعني أن محمداً ﷺ يظهر كثيراً مما أخفوا وكتموا من أحكام التوراة والإنجيل وذلك أنهم أخفوا آية الرجم وصفة محمد ﷺ وغير ذلك ثم إن رسول الله ﷺ بيَّن ذلك وأظهره وهذا معجزة النبي ﷺ لأنه لم يقرأ كتابهم ولم يعلم ما فيه فكان إظهاره ذلك معجزة له ﴿ويعفو عن كثير﴾ يعني مما يكتمونه فلا يتعرض له ولا يؤاخذهم به لأنه لا حاجة إلى إظهاره والفائدة في ذلك أنهم يعلمون كون النبي ﷺ عالماً بما يخفونه وهو معجزة له أيضاً فيكون ذلك داعياً لهم إلى الإيمان به ﴿وقد جاءكم من الله نور﴾ يعني محمداً ﷺ إنما سماه الله نوراً لأنه يهتدى به كما يهتدى بالنور في الظلام وقيل: النور هو الإسلام ﴿وكتاب مبين﴾ يعني القرآن﴿يهدي الله به﴾ يعني يهدي الله بالكتاب المبين ﴿من اتبع رضوانه﴾ أي اتبع ما رضيه الله وهو دين الإسلام لأنه مدحه وأثنى عليه ﴿سبل السلام﴾ قال ابن عباس: يريد دين الله وهو الإسلام فسبله دينه الذي شرع لعباده وبعث به رسله وأمر عباده باتباعه. وقيل: سبل السلامة طرق السلام. وقيل: سبل السلام دار السلام فيكون من باب حذف المضاف ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ يعني من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿بإذنه﴾ يعني بتوفيقه وهدايته ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ يعني دين الإسلام قوله عز وجل﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾. قال ابن عباس: هؤلاء نصارى نجران، فإنهم قالوا هذه المقالة وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى لأنهم يقولون بالحلول وأن الله قد حل في بدن عيسى فلما كان اعتقادهم ذلك لا جرم حكم الله عليهم بالكفر ثم ذكر الله ما يدل على فساد مذهبهم فقال تعالى: ﴿قل﴾ يعني يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة ﴿فمن يملك﴾ يعني يقدر أن يدفع ﴿من الله شيئاً﴾ يعني من أمر الله شيئاً ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه﴾ يعني يعدم المسيح وأمه ﴿ومن في الأرض جميعاً﴾ ووجه الاحتجاج على النصارى بهذا أن المسيح لو كان إنما كما يقولون لقدر على دفع أمر الله إذا أراد إهلاكه وإهلاك أمه وغيرها ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ إنما قال وما بينهما ولم يقل وما بينهن لأنه أراد ما بين هذين النوعين أو الصنفين من الأشياء فإنها ملكه وأهلها عبيده وعيسى وأمه من جملة عبيده ﴿يخلق ما يشاء﴾ يعني من غير اعتراض عليه فيما يخلق لأنه خلق آدم من غير أب وأم وخلق عيسى من أم بلا أب وخلق سائر الخلق من أب وأم ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني أن الله تعالى لا يعجزه شيء أراده فلا اعتراض لأحد من خلقه عليه قوله تعالى:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ

تخفون من الكتاب ﴾، أي: من التوراة والإنجيل مثل صفة محمد ﷺ وآية الرجم وغير ذلك، ﴿ ويعفوا عن كثير ﴾، أي: يعرض عن كثير مما أخفيتم فلا يتعرّض له ولا يؤاخذكم به، ﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾، يعني: محمداً ﷺ، وقيل: الإسلام، ﴿ وكتابٌ مبين ﴾، أي: بيّن، وقيل: مبين وهو القرآن.

﴿ يهدي به الله مَن اتّبع رضوانه ﴾، رضاه، ﴿ سُبلَ السلام ﴾، قيل: السلام هو الله عزّ وجلّ وسبيله دينه الذي شرع لعباده، وبعث به رسله، وقيل: السلام هو السلامة، كاللذاذ واللذاذة بمعنى واحد، والمراد به طرق السلامة، ﴿ ويخرجُهم مِنَ الظلماتِ إلى النّور ﴾، أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ﴿ بإذنه ﴾، بتوفيقه وهدايته، ﴿ ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾، وهو الإسلام.

قوله تبارك وتعالى: ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ اللّهَ هو المسيحُ ابنُ مريم ﴾، وهم اليعقوبية من النصارى يقولون: المسيح هو الله تعالى، ﴿ قلْ فمَنْ يملك من الله شيئاً ﴾، أي: مَن يقدر أن يدفع من أمر الله شيئاً إذا قضاه؟ ﴿ إنْ أراد أن يُهلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ وأمه ومَنْ في الأرض جميعاً ولِلّهِ مُلكُ السمٰواتِ والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء واللّهُ على كلّ شيءٍ قدير ﴾.

يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ
قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ
وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ قال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ عثمان وابن أصار وبحري بن عمرو وشاس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى، فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿وقالت اليهود والنصارى، نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ الآية. وسبب هذه المقالة ما حكاه السدي قال: أما اليهود فإنهم قالوا إن الله أوحى إلى إسرائيل إني أدخل من ولدك النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادي منادٍ أن اخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فيخرجون فذلك قوله تعالى: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات. وأما النصارى، فإن فرقاً منهم يقولون المسيح ابن الله وكذبوا فيما قالوا على الله تعالى فأما وجه قول اليهود فإنهم يعنون أنه من عطفه عليهم كالأب الشفيق على الولد وأما وجه قول النصارى، فإنهم لما قالوا في المسيح أنه ابن الله وادعوا أنه منهم فكأنهم قالوا: نحن أبناء الله لهذا السبب. وقيل: إن اليهود إنما قالوا هذه المقالة من باب حذف المضاف والمعنى نحن أبناء رسول الله وأما النصارى فإنهم تأولوا قول المسيح أذهب إلى أبي وأبيكم. وقوله: إذا صليتم فقولوا يا أبانا الذي في السماء لنقدس اسمك فذهبوا إلى ظاهر هذه المقالة ولم يعلموا ما أراد المسيح عليه السلام إن صحت هذه المقالة عنه فإن تأويلها أنه في بره ورحمته وعطفه على عباده الصالحين كالأب الرحيم لولده وجملة الكلام في ذلك أن اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم فضلاً على من سواهم بسبب أسلافهم الأفاضل حتى انتهوا في تعظيم أنفسهم إلى أن قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فأبطل الله عز وجل دعواهم وكذبهم فيما قالوا بقوله تعالى: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾. معناه: إذا كان الأمر كما تزعمون فلمَ يعذبكم الله وأنتم قد أقررتم على أنفسكم أنه يعذبكم أربعين يوماً وهل رأيتم والداً يعذب ولده بالنار وهل تطيب نفس محب أن يعذب حبيبه في النار ﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ يعني بل أنتم يا معشر اليهود والنصارى كسائر بني آدم مجزيون بالإساءة والإحسان.

قوله تعالى: ﴿يغفر لمن يشاء﴾ يعني لمن تاب من اليهود والنصرانية ﴿ويعذب من يشاء﴾ يعني من مات على اليهودية والنصرانية. وقيل: معناه يهدي من يشاء فيغفر له ويميت من يشاء على كفره فيعذبه ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾. يعني: أنه تعالى يملك ذلك لا شريك له في ذلك فيعارضه وهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء

﴿ وقالتِ اليهودُ والنصارى نحن أبناءُ الله وأحباؤه ﴾، قيل: أرادوا أن الله تعالى لنا كالأب في الحنوّ والعطف، ونحن كالأبناء له في القرب والمنزلة، وقال إبراهيم النخعي: إن اليهود وجدوا في التوراة يا أبناء أحباري فبدّلوا يا أبناء أبكاري فمن ذلك قالوا نحن أبناء الله، وقيل: معناه نحن أبناء الله يعني أبناء رسل الله. قوله تعالى: ﴿ قلْ فلِمَ يعذِّبُكم بذنوبكم ﴾، يريد إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه فإن الأب لا يعذب ولده، والحبيب لا يعذّب حبيبه، وأنتم مقرّون أنه معذّبكم؟ وقيل: فلم يعذّبكم أي: لِمَ عذّب من قبلكم بذنوبهم فمسخهم قردة وخنازير؟ ﴿ بل أنتم بشرٌ ممّن خلق ﴾، كسائر بني آدم مجزيّون بالإساءة والإحسان، ﴿ يغفر لمَن يشاء ﴾ فضلاً، ﴿ ويعذّب مَن يشاء ﴾، عدلاً، ﴿ ولله مُلكُ السمٰواتِ والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾.

والتعذيب لمن يشاء وفيه دليل على أنه تعالى لا ولد له لأن من يملك السموات والأرض يستحيل أن يكون له شبيه من خلقه أو شريك في ملكه ﴿وإليه المصير﴾ يعني وإلى الله مرجع العباد في الآخرة فيجازيهم بأعمالهم. قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل﴾ قال ابن عباس: قال معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب لليهود: يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهودا: ما قلنا ذلك لكم وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده فأنزل الله هذه الآية يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يعني محمداً ﷺ يبين لكم يعني أحكام الدين والشرائع على فترة من الرسل قال ابن عباس: يعني على انقطاع من الرسل. واختلف العلماء في قدر مدة الفترة فروي عن سلمان قال: فترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة أخرجه البخاري. وقال قتادة: كانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة وما شاء الله من ذلك وعنه أنها خمسمائة سنة وستون سنة. وقال ابن السائب: خمسمائة وأربعون سنة. وقال الضحاك: إنها أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. ونقل ابن الجوزي عن ابن عباس: على فترة من الرسل قال: على انقطاع منهم. قال: وكان بين ميلاد عيسى وميلاد محمد ﷺ خمسمائة سنة وتسعة وستون سنة وهي الفترة وكان بين عيسى ومحمد أربعة من الرسل فذلك قوله ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث﴾ قال: والرابع لا أدري من هو فكانت تلك السنون مائة وأربعاً وثلاثين سنة نبوة وسائرها فترة. قال أبو سليمان الدمشقي: والرابع والله أعلم خالد بن سنان الذي قال فيه رسول الله ﷺ: نبيٌّ ضيعَه قومه.

قال الإمام فخر الدين الرازي: والفائدة في بعثة محمد ﷺ عند فترة الرسل، هي أن التحريف والتغيير كان قد تطرف إلى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها وسبب ذلك اختلاط الحق بالباطل والكذب بالصدق فصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات لأن لهم أن يقولوا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ولكنا ما عرفنا كيف نعبدك فبعث الله في هذا الوقت محمداً ﷺ لإزالة هذا العذر فذلك قوله عز وجل: ﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ يعني لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير في هذا الوقت ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ يعني فقد أرسلت إليكم محمداً ﷺ لإزالة هذا العذر ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني أنه قادر على بعثة الرسل في وقت الحاجة إليهم. قوله عز وجل: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ قال ابن عباس: اذكروا عافية الله. وقيل: معناه اذكروا أيادي الله عندكم وأيامه التي أنعم فيها عليكم قال الطبري: هذا تعريف من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بتمادي هؤلاء في الغي وبعدهم عن الحق وسوء اختيارهم لأنفسهم وشدة مخالفتهم لأنبيائهم مع كثرة نعم الله عليهم وتتابع أياديه وآلائه لديهم سلَّى بذلك نبيه ﷺ عما نزل به من مقاساتهم ومعالجتهم في ذات الله عز وجل ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يعني أن موسى عليه السلام ذكر قومه بني إسرائيل بأيام الله عندهم وبما أنعم به عليهم فقال اذكروا نعمة الله عليكم إذ فضلكم بأن جعل فيكم أنبياء. قال الكلبي: هم السبعون الذي اختارهم موسى من قومه

﴿ يا أهلَ الكتابِ قدْ جاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾، محمد ﷺ، ﴿ يُبَيِّنُ لكم ﴾ أعلام الهدى وشرائعَ الدين، ﴿ على فترةٍ منَ الرُّسلِ ﴾ أي انقطاع من الرسل واختلفوا في مدة الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، قال أبوعثمان النهدي: ستمائة سنة، وقال قتادة: خمسمائة وستّون سنة، وقال معمر والكلبي: خمسمائة وأربعون سنة، وسُمّيتْ فترة لأن الرسل كانت تترى بعد موسى عليه السلام من غير انقطاع إلى زمن عيسى عليه السلام، ولم يكن بعد عيسى عليه السلام سوى رسولنا ﷺ. ﴿ أنْ تقولُوا ﴾، كيلا تقولوا، ﴿ ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير فقدْ جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ والله على كلِّ شيءٍ قدير ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ قال موسى لقومه يا قومِ اذْكُروا نعمةَ الله عليكم إذْ جعل فيكم أنبياء ﴾، أي: منكم

وانطلق بهم إلى الجبل وأيضاً كان أنبياء بني إسرائيل من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهؤلاء لا شك أنهم من أكابر الأنبياء وأولاد يعقوب وهم الأسباط أنبياء على قول الأكثرين وموسى وهارون عليهما السلام وأيضاً فإن الله تعالى أعلم موسى أنه يبعث من بعده في بني إسرائيل أنبياء فإنه لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء فكان هذا شرفاً عظيماً لهم ونعمة ظاهرة عليهم ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ يعني: وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً في أيدي القبط. قال ابن عباس: يعني جعلكم أصحاب خدم وحشم. قال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم ولم يكن لمن قبلهم خدم وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابة يكتب ملكاً ذكره البغوي بغير سند وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال ألسنا من فقراء المهاجرين فقال له عبد الله ألك امرأة تأوي إليها؟ قال نعم، قال: لك مسكن تسكنه؟ قال نعم، قال: أنت من الأغنياء، قال فإن لي خادماً قال فأنت من الملوك. وقال الضحاك: كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية ومن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جار فهو ملك ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ يعني من عالمي زمانكم يذكرهم ما أنعم الله به عليهم من فلق البحر لهم وإهلاك عدوهم وإنزال المن والسلوى عليهم وإخراج الماء من الحجر لهم وتظليل الغمام فوقهم إلى غير ذلك من النعم التي أنعم الله بها عليهم.

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ لما ذكر موسى قومه ما أنعم الله عليهم أمرهم بالخروج إلى جهاد عدوهم فقال: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة المباركة. قال الكلبي: صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له انظر فما أدرك بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك والأرض هي الطور وما حوله. وقيل: هي أريحاء وفلسطين وبعض الأردن. وقيل: هي دمشق. وقيل: هي الشام، كلها. قال كعب الأحبار: ووجدت في كتاب الله المُنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده التي كتب الله لكم يعني كتب الله في اللوح المحفوظ إنها لكم مساكن وقيل: فرض الله عليكم دخولها وأمركم بسكناها. وقيل: وهبها لكم.

أنبياء، ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾، أي: فيكم ملوكاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أصحاب خدم وحشم، قال قتادة: كانوا أول مَن ملك الخدم ولم يكن لمَن قبلهم خدم. ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة ودابّة يكتب ملكاً». وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإنّ لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. قال السدي: وجعلكم ملوكاً أحراراً تملكون أمر أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم، وقال الضحّاك: كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية فمَن كان مسكنه واسعاً وفيه نهرٌ جارٍ فهو ملك ﴿ وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين ﴾، يعني عالمي زمانكم، قال مجاهد: يعني المنّ والسّلوى والحَجَر وتظليل الغمام.

قوله تعالى: ﴿ يا قوم ادْخلُوا الأرض المقدسة التي كتبَ اللّهُ لكم ﴾، اختلفوا في الأرض المقدسة، قال مجاهد: هي الطور وما حوله، وقال الضحّاك: إيليا وبيت المقدس، وقال عكرمة والسدي: هي أريحاء، وقال الكلبي: هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن ، وقال قتادة: هي الشام كلها، قال كعب: وجدت في كتاب الله

فإن قلت: كيف؟ قال الله تعالى: ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم. وقال فإنها محرمة عليهم وكيف الجمع بينهما؟ قلت فيه وجوه أحدها أنها كانت هبة من الله ثم حرمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم.

الوجه الثاني: أن اللفظ وإن كان عاماً لكن المراد منه الخصوص فصار كأنه مكتوب لبعضهم وحرام على بعضهم فإن يوشع بن نون وكالب بن يوفنا دخلاها وكانا ممن خوطب بهذا الخطاب.

الوجه الثالث: إن هذا الوعد كان مشروطاً بالطاعة فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط.

الوجه الرابع: أنه قال: إنها محرمة عليهم أربعين سنة فلما مضت الأربعون دخلوها وكانت مساكن لهم كما وعدهم الله تعالى: ﴿**ولا ترتدوا على أدباركم**﴾ يعني ولا ترجعوا القهقهرى مرتدّين على أعقابكم إلى ورائكم ولكن امضوا لأمر الله الذي أمركم به وإن فعلتم خلاف ما أمركم الله به ﴿**فتنقلبوا خاسرين**﴾ يعني فترجعوا خائبين لأنكم رددتم أمر الله قوله عز وجل: ﴿**قالوا**﴾ يعني قوم موسى ﴿**يا موسى إن فيها**﴾ يعني في الأرض المقدسة ﴿**قوماً جبارين**﴾ يعني قوماً عاتين لا طاقة لنا بهم ولا قوة لنا بقتالهم وسموا أولئك القوم جبارين لشدة بطشهم وعظم خلقهم وكانوا ذوي أجسام عظيمة وأشكال هائلة وهم العمالقة بقية قوم عاد وأصل الجبار في صفة الإنسان فعال من جبره على الأمر يعني أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد وقيل إنه مأخوذ من قولهم نخلة جبارة إذاكانت طويلة مرتفعة لا تصل الأيدي إليها ويقال رجل جبار إذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيهاً بالجبار من النخل ﴿**وإنا لن ندخلها**﴾ يعني أرض الجبارين التي أمرهم الله بدخولها ﴿**حتى يخرجوا منها**﴾ حتى يخرج الجبارون من الأرض المقدسة وإنما قالوا ذلك استبعاداً لخروج الجبارين من أرضهم ﴿**فإن يخرجوا منها فإنا داخلون**﴾ يعني إليها قال العلماء بالأخبار إن النقباء لما خرجوا يتجسسون الأخبار لموسى عليه السلام ورجعوا إليه وأخبروه خبر القوم وما عاينوه منهم. قال لهم موسى: لا تخبروا بني إسرائيل بهذا فيجبنوا ويضعفوا عن قتالهم. وقيل: إن النقباء الاثني عشر لما خرجوا من أرض الجبارين قال بعضهم لبعض: لا تخبروا بني إسرائيل بما رأيتم فلما رجعوا وأخبروا موسى أمرهم أن لا تخبروا بني إسرائيل بذلك فخالفوا أمره ونقضوا العهد وأخبر كل رجل النقباء سبطه بما رأى إلا يوشع بن نون وكالب فإنهما كتما

المنزل أن الشام كنز الله في أرضه وبها أكثر عباده. قوله عزّ وجلّ: ﴿ كتب الله لكم ﴾ يعني: كتب في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم، وقال ابن إسحق: وهبَ اللّهُ لكم، وقيل: جعلها لكم، وقال السدي: أمركم الله بدخولها، وقال قتادة: أُمروا بها كما أُمروا بالصلاة، أي: فَرَضَ عليكم. ﴿ ولا ترتدّوا على أدبارِكم ﴾، أعقابكم بخلاف أمر الله، ﴿ فتنقلبُوا خاسِرين ﴾، قال الكلبي: صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان فقيل له: أنظر فما أدركه بصرك فهو مقدّس وهو ميراث لذريتك.

﴿ قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين ﴾، وذلك أن النقباء الذين خرجوا يتجسّسون الأخبار لمّا رجعوا إلى موسى وأخبروه بما عاينوا، قال لهم موسى: اكتمُوا شانَهم ولا تخبروا به أحداً من أهل العسكر فيفشلوا، فأخبر كل رجل منهم قريبه وابن عمّه إلاّ رجلان وفيا بما قال لهما موسى، أحدهما يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليهم السلام فتى موسى، والآخر كالب بن يوفنا ختن موسى عليه السلام على أُخته مريم بنت عمران، وكان من سبط يهود وهما النقباء فعلمت جماعة من بني إسرائيل ذلك ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: يا ليتنا في أرض مصر، أو لَيْتَنا نموتُ في هذه البرية ولا يُدْخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأثقالنا غنيمةً لهم، وجعل الرجل يقول لصاحبه: تعال نجعل علينا رأساً وننصرف إلى مصر، فذلك قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿ قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبارين وإنّا لنْ ندخلَها حتى يخرجُوا منها فإن يخرجُوا منها فإنّا داخلون ﴾، أصلُ الجبّار: المتعظّم الممتنع عن القهر،

ووفيا بالعهد فلما علم بنو إسرائيل بذلك وفشا ذلك فيهم رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا في أرض مصر ولا يدخلنا الله أرضهم فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم. وجعل الرجل من بني إسرائيل يقول لصاحبه: تعالوا نجعل لنا رأساً وننصرف إلى مصر فلما قال بنو إسرائيل ذلك هموا بالانصراف إلى مصر خر موسى وهارون ساجدين وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبرنا الله عنهما بقوله:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ يعني يخافون الله ويراقبونه **﴿أنعم الله عليهما﴾** يعني بالهداية والوفاء **﴿ادخلوا عليهم الباب﴾** يعني قال الرجلان، وهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا لبني إسرائيل، ادخلوا على الجبارين باب مدينتهم **﴿فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾** لأن الله وعدكم بالنصر وأن الله ينجز لكم وعده **﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾** يعني يقول الرجلان لقوم موسى ثقوا بالله فإنه معكم وناصركم إن كنتم مصدقين بأن الله ناصركم لا يهولنكم عظم أجسامهم فإنا قد رأيناهم فكانت أجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فلما قالا ذلك، أراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوا أمرهما، وقالوا: ما أخبرنا الله عنهم بقوله تعالى: **﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً﴾** يعني: قال قوم موسى لموسى إنا لن ندخل مدينة الجبارين أبداً يعني مدة حياتنا **﴿ما داموا فيها﴾** يعني مقيمين فيها **﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾** إنما قالوا هذه المقالة لأن مذهب اليهود التجسيم فكانوا يجوزون الذهاب والمجيء على الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. قال بعض العلماء: إن كانوا قالوا هذا على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر وإن كانوا قالوه على وجه الخلاف لأمر الله وأمر نبيه فهو فسق، وقال بعضهم: إنما قالوه على وجه المجاز. والمعنى: اذهب أنت وربك معين لك لكن قوله: فقاتلا يفسد هذا التأويل. وقال بعضهم: إنما أرادوا بقولهم وربك أخاه هارون لأنه كان أكبر من موسى والأصح أنهم إنما قالوا ذلك جهلاً منهم بالله تعالى وصفاته ومنه قوله تعالى: **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾** (خ).

عن ابن مسعود قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به أتى النبي

يُقال: نخلة جبارة إذا كانت طويلة ممتنعة عن وصول الأيدي إليها، وسُمّي أولئك القوم جبّارين لامتناعهم بطولهم وقوة أجسادهم، وكانوا من العمالقة وبقية قوم عاد، فلما قال بنو إسرائيل ما قالوا وهمّوا بالانصراف إلى مصر خرَّ موسى وهارون ساجدين، وخرق يوشع وكالب ثيابهما وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما في قوله:

﴿ قالَ رجلانِ منَ الذينَ يخافُون ﴾، أي: يخافون الله تعالى، قرأ سعيد بن جبير «يخـافون» بضمّ الياء، وقال: الرجلان كانا من الجبارين فأسلما واتّبعا موسى، **﴿ أنعم الله عليهما ﴾** بالتوفيق والعصمة قالا: **ادْخُلوا عليهمُ الباب ﴾**. يعني: قرية الجبّارين، **﴿ فإذا دخلتموه فإنّكم غالِبُون ﴾**، لأن الله منجز وعده، وإنّا رأيناهم فكانت أجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة، فلا تخشوهم، **﴿ وعلى الله فتوكّلُوا إنْ كنتمْ مؤمنين ﴾**، فأراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوهما.

ﷺ وهو يدعو على المشركين يوم بدر فقال يا رسول الله ألا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن امض ونحن معك فكأنه سرِّي عن رسول الله ﷺ.

وفي رواية: لكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه وسرَّ. قوله تعالى: ﴿قال﴾ يعني موسى عليه السلام (رب) أي يا رب ﴿إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ يعني إني لا أملك إلا نفسي وأخي لا يملك إلا نفسه وقيل معناه لا أملك إلا نفسي ونفس أخي لأنه كان يطيعه وإذا كان كذلك فقد ملكه وإنما قال موسى لا أملك إلا نفسي وأخي وإن كان معه في طاعته يوشع بن نون وكالب بن يوفنا لاختصاص هارون به ولمزيد الاعتناء بأخيه ويحتمل أن يكون معناه وأخي في الدين ومن كان على دينه وطاعته فهو أخوه في الدين فعلى هذا الاحتمال يدخل الرجلان في قوله وأخي ثم قال: ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي افصل وقيل احكم بيننا وبين القوم الفاسقين يعني الخارجين عن طاعتك وإنما قال موسى ذلك لأنه لما رأى بني إسرائيل وما فعلوه من مخالفة أمر الله وهمهم بيوشع وكالب غضب لذلك ودعا عليهم فأجاب الله تعالى دعاء موسى عليه السلام (قال) الله عز وجل: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ يعني فإن الأرض المقدسة محرمة عليهم ومعناه أن تلك البلدة محرمة عليهم أبداً ولم يرد تحريم تعبد وإنما أراد تحريم منع فأوحى الله تعالى إلى موسى «بي حلفت لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدي يوشع وكالب ولأتيهنهم في هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الأيام التي كانوا يتجسسون فيها سنة ولألقين جيفهم في هذه القفار وأما أبناؤهم الذين لم يعملوا الشر فيدخلونها» فذلك قوله تعالى فإنها يعني الأرض المقدسة محرمة عليهم. قال أكثر أهل العلم: هذا تحريم منع لا تحريم تعبُّد. وقيل: يحتمل أن يكون تحريم تعبد فيجوز أن يكون الله تعالى أمرهم بأن يمكثوا في تلك المفازة في الشدة والبلية عقاباً لهم على سوء صنيعهم (أربعين سنة) فمن قال إن الكلام ثم عند قوله فإنها محرمة عليهم قال أربعين سنة يتيهون في الأرض فأما الحرمة فإنها مؤبدة حتى يموتوا ويدخلها أبناؤهم. وقيل: معناه أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة ثم يدخلونها وتفتح لم.

﴿ قالوا يا موسى إنّا لنْ ندخلَها أبداً ما داموا فيها فاذْهَبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم أنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول: لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليّ مما عدل به، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى عليه السلام: **﴿ اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا ﴾**، ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك، فرأيتُ النبيَّ ﷺ أشرق وجهه وسرّه ما قال. فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من مخالفتهم أمر ربّهم وهمّهم بيوشع وكالب غضب موسى عليه السلام ودعا عليهم.

﴿ قال ربِّ إني لا أملك إلاّ نفسي وأخي ﴾، قيل: معناه لا يملك إلاّ نفسه، وقيل: معناه لا يطيعني إلاّ نفسي وأخي، **﴿ فافْرُقْ ﴾**، فافصل، **﴿ بيننا ﴾**، قيل: فاقضِ بيننا، **﴿ وبينَ القومِ الفاسقين ﴾**، العاصين.

﴿ قال ﴾، الله تعالى **﴿ فإنّها محرّمةٌ عليهم ﴾**، قيل: ههنا تمّ الكلام معناه تلك البلد محرّمة عليهم أبداً لم يرد به تحريم تعبد، وإنما أراد تحريم منع فأوحى الله تعالى إلى موسى لأحرِمَنّ عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدي يوشع وكالب، ولآتيهنّهم في هذه البرية **﴿ أربعين سنة ﴾**، مكان كل يوم من الأيام التي تجسّسوا فيها سنة ولألقينّ جيفهم في هذه القِفار وأمّا بنوهم الذين لم يعملوا الشرّ فيدخلونها، فذلك قوله تعالى: **﴿ فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة ﴾**، **﴿ يتيهون ﴾**، يتحيرون، **﴿ في الأرض فلا تأسَ على القومِ الفاسقين ﴾**، أي: لا تحزن على مثل هؤلاء القوم، فلبثوا أربعين سنة في ستّة فراسخ وهم ستمائة ألف مقاتل، وكانوا يسيرون كل يوم جادّين فإذا

وقوله تعالى: ﴿يتيهون في الأرض﴾ يعني يتحيرون فيها. يقال: تاه يتيه إذا تحير. واختلفوا في مقدار الأرض التي تاهوا فيها، فقيل: مقدار ستة فراسخ. وقيل: ستة فراسخ في اثني عشر فرسخاً. وقيل: تسع فراسخ في ثلاثين فرسخاً. وكان القوم ستمائة ألف مقاتل وكانوا يرحلون ويسيرون يومهم أجمع فإذا أمسوا إذا هم في الموضع الذي رحلوا منه وكان ذلك التيه عقوبة لنبي إسرائيل ما خلا موسى وهارون ويوشع وكالب فإن الله تعالى سهله عليهم وأعانهم عليه كما سهل على إبراهيم النار وجعلها برداً وسلاماً.

فإن قلت: كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم في هذا المقدار الصغير من الأرض أربعين سنة بحيث لم يخرج منه أحد؟.

قلت: هذا من باب خوارق العادات. وخوارق العادات في أزمان الأنبياء غير مستبعدة، فإن الله على كل شيء قدير. وقيل: إن فسرنا ذلك التحريم بتحريم التعبد زال هذا الإشكال لاحتمال أن الله ما حرم عليهم الخورج من تلك الأرض بل أمر بالمكث أربعين سنة في المشقة والمحنة جزاء لهم على سوء صنيعهم ومخالفتهم أمر الله ولما حصل بنو إسرائيل في التيه شكوا إلى موسى عيه السلام حالهم فأنزل الله عليهم المن والسلوى وأُعطوا من الكسوة ما هي قائمة لهم فينشأ الناشىء منهم فتكون معه على مقداره وهيئته وسأل موسى ربه أن يسقيهم فأتى بحجر أبيض من جبل الطور فكان إذا نزل ضربه بعصاه فيخرج منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط منهم عين وأرسل الله عليهم الغمام يظلُّهم في التيه ومات في التيه كل من دخله ممن جاوز عشرين سنة غير يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ولم يدخل أريحاء ممن قال: إنا لن ندخلها أبداً واختلفوا في أن موسى عليه السلام مات في التيه أم خرج منه فقيل: إن موسى وهارون ماتا في التيه جميعاً.

(قصة وفاة موسى وهارون عليهما السلام)

فأما هارون فإنه كان أكبر من موسى بسنة. قال السدي: أوحى الله عز وجل إلى موسى إني متوفى هارون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا بشجرة لم ير مثلها وإذا ببيت مبني وفيه سرير عليه فراش وفيه رائحة طيبة فلما رأى هارون ذلك البيت أعجبه، وقال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير. قال: نم. قال: إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ. قال: لا تخف إني أكفيك ربَّ هذا البيت فنم. قال: يا موسى

أمسوا كانوا في الموضع الذي ارتحلوا عنه، وقيل: إن موسى وهارون عليهما السلام لم يكونا فيهم، والأصح أنهما كانا فيهم ولم يكن لهما عقوبة إنما كانت العقوبة لأولئك القوم، ومات في التيه كلّ مَن دخلها ممّن جاوز عشرين سنة غير يوشع وكالب، ولم يدخل أريحاء أحد ممّن قالوا إنّا لن ندخلها أبداً فلما هلكوا وانقضت الأربعون سنة، ونشأت النواشىء من ذراريهم ساروا إلى حرب الجبّارين، واختلفوا فيمن تولّى تلك الحرب وعلى يدي مَن كان الفتح، فقال قوم: وإنما فتح موسى أريحاء وكان يوشع على مقدمته، فسار موسى عليه السلام إليهم فيمن بقي من بني إسرائيل، فدخلها يوشع فقاتل الجبابرة ثم دخلها موسى عليه السلام فأقام فيها ما شاء الله تعالى، ثم قبضه الله تعالى إليه، ولا يعلم قبره أحد، وهذا أصحّ الأقاويل لاتفاق العلماء أن عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام. وقال الآخرون: إنما قاتل الجبّارين يوشع ولم يسر إليهم إلاّ بعد موت موسى عليه السلام، وقالوا: مات موسى وهارون جميعاً في التيه.

فصل في ذكر وفاة هارون

قال السدي: أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى أنّي متوفّي هارون فأتِ به جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون عليهما السلام نحو ذلك الجبل فإذا هما بشجرة لم يرَ مثلها وإذا ببيت مبني وفيه سرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة،

فنم أنت معي فإن جاء رب هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً. فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد مسه قال: يا موسى خدعتني فلما قبض هارون رفع البيت والسرير إلى السماء وهارون عليه وذهبت الشجرة فرجع موسى إلى بني إسرائيل وليس هارون معه فقال بنو إسرائيل حسد موسى هارون فقتله لحبنا إياه. قال موسى: ويحكم إن هارون كان أخي أفترونني أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام موسى فصلى ركعتين ثم دعا الله عز وجل فنزل السرير وعليه هارون فنظروا إليه وهو بين السماء والأرض فصدقوه ثم رفع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صعد موسى عليه السلام وهارون إلى الجبل فمات هارون وبقي موسى فقال بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته وآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مروا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته فصدقت بنو إسرائيل أنه مات وبرأ الله موسى مما قالوه ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه ولم يطلع على موضع قبره أحد إلا الرخم فجعله الله أصم أبكم.

وأما وفاة موسى عليه السلام فقال ابن إسحاق كان صفي الله موسى عليه السلام قد كره الموت وأعظمه فأراد الله أن يحبب إليه الموت فنبأ يوشع بن نون فكان موسى يغدو ويروح إليه ويقول له يا نبي الله ما أحدث الله إليك فيقول له يوشع يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى كنت أنت تبتدىء به وتذكره لي ولا يذكر له شيئاً فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت (ق). عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أرسل ملك الموت إلى موسى فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت يده من شعره سنة. قال: أي رب ثم مه قال: ثم الموت قال: فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر» وفي رواية لمسلم قال: جاء ملك الموت إلى موسى فقال: أجب ربك قال فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها» ثم ذكر معنى ما تقدم قال الشيخ محيي الدين النووي. قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوره قالوا كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت.

وأجاب عنه العلماء بأجوبة أحدها أنه لا يمتنع أن يكون الله قد أذن لموسى في هذه اللطمة ويكون ذلك امتحاناً للملطوم والله تعالى يفعل في خلقه ما يشاء ويمتحنهم بما أراد.

الثاني: أن موسى لم يعلم أنه ملك من عند الله وظن أنه رجل قصده يريد نفسه فدافعه عنها فأدت المدافعة إلى فقء عينه لأنه قصدها بالفقء وتؤيده رواية صكه وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين واختاره المازري والقاضي عياض. قالوا: وليس في الحديث تصريح بأنه قصد فقء عينه.

فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه، فقال: يا موسى إنّي أُحب أن أنام على هذا السرير قال: فنم عليه، فقال: إني أخاف أن يأتي ربُّ هذا البيت فيغضب عليّ، قال له موسى: لا ترهب إنّي أكفيك أمر ربِّ هذا البيت فنم، قال: يا موسى نَمْ أنت معي فإن جاء ربُّ البيت غضب عليّ وعليك جميعاً فلما ناما أخذ هارون الموت فلما وجد مسّه قال: يا موسى خدعتني، فلما قبض رفع البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون قالوا: إن موسى قتل هارون وحسده لحبِّ بني إسرائيل له، فقال موسى عليه السلام: ويحكم كان أخي فكيف أقتله، فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين ثم دعا الله تعالى ونزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صعد موسى وهارون عليهما السلام الجبل فمات هارون وبقي موسى، فقالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلته فآذوه فأمر الله الملائكة فحملوه حتى مرّوا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرّأه الله تعالى ممّا قالوا،

فإن قيل: فقد اعترف موسى حين جاء ثانياً بأنه ملك الموت. فالجواب، أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم له بخلاف المرة الأولى وأما سؤال موسى الإدناء من الأرض المقدسة فلشرفها وفضلها وفضل من بها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم وفيه دليل على استحباب الدفن في المواضع الفاضلة والمواطن المباركة والقرب من مدافن الصالحين قال بعض العلماء وإنما سأل موسى الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لأنه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم فيفتتن به الناس والله أعلم.

قال وهب بن منبه: خرج موسى لبعض حاجته فمر برهط من الملائكة وهم يحفرون قبراً لم ير شيئاً أحسن منه ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد كريم على ربه. فقال: إن هذا العبد من الله بمنزلة ما رأيت كاليوم قط. فقالت الملائكة: يا صفي الله تحب أن يكون لك؟ قال: وددت. قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك فنزل واضطجع وتوجه إلى ربه عز وجل ثم تنفس أسهل تنفس فقبض الله روحه ثم سوت الملائكة عليه التراب. وقيل: إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه وكان عمر موسى عليه السلام مائة سنة وعشرين سنة فلما مات موسى عليه السلام انقضت الأربعون سنة وبعث الله يوشع إلى بني إسرائيل فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبارين فصدقوه وتابعوه فتوجه ببني إسرائيل إلى أريحاء وهي مدينة الجبارين ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر فلما كان من السابع نفخوا في القرون وضجوا في الشعب ضجة واحدة فسقط سور المدينة فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل من الجبابرة يضربونها حتى يقطعونها وكان القتال والفتح يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت فقال: اللهم اردد علي الشمس وقال للشمس: إنك في طاعة الله وأنا في طاعة الله وسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقف حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت فرد الله عليه الشمس وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً حتى غلب على جميع أرض الشام وصارت كلها لبني إسرائيل وفرق عماله نواحيها وجميع الغنائم فجاءت النار لتأكلها فلم تطعمها فقال: إن فيكم غلولاً فليبايعني من كل قبيلة رجل ففعلوا فلصقت يد رجل بيده. فقال: فيكم الغلول فجاؤوا برأس ثور من ذهب مكلل بالياقوت والجوهر قد غلَّه رجل منهم فجعله في القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان.

ثم إن الملائكة حملوه ودفنوه فلم يطّلع على موضع قبره أحد إلّا الرخم فجعله الله أصم وأبكم، وقال عمر بن ميمون: مات هارون قبل موت موسى عليه السلام في التيه، وكانا قد خرجا إلى بعض الكهوف فمات هارون ودفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل، فقالوا: قتلتَه لحبنا إيّاه، وكان محبّباً في بني إسرائيل، فتضرّع موسى عليه السلام إلى ربّه عزّ وجلّ فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره فإني باعثه، فانطلق بهم إلى قبره فناداه موسى فخرج من قبره ينفض رأسه، فقال: أنا قتلتُك؟ قال: لا ولكني متّ، قال فعد إلى مضجعك، وانصرفوا. وأمّا وفاة موسى عليه السلام قال ابن إسحاق: كان موسى عليه الصلاة والسلام قد كره الموت وأعظمه فأراد الله أن يحبّب إليه الموت، فنبّأ يوشع بن نون فكان يغدو ويروح عليه، قال: فيقول له موسى عليه السلام يا نبيّ الله ما أحدث الله إليك؟ فيقول له يوشع: يا نبيّ الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنتُ أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبتدىء به وتذكره؟ ولا يذكر له شيئاً، فلما رأى ذلك كره موسى الحياة وأحبّ الموت. أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبه قال: أخبرنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال

وفي الحديث الصحيح ما يدل على صحة هذا أو هو ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها ولا رجل اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليه فجمع الغنائم فجاءت يعني النار لتأكلها فلم تطعمها فقال إن فيكم غلولاً فليبايعني من كل قبيلة رجل فلزقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعها فجاءت النار فأكلتها» زاد في رواية: «فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا» أخرجه البخاري ومسلم.

شرح غريب هذا الحديث. قوله لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، البضع بضم الباء كناية عن فرج المرأة ولم يبن بها أي لم يدخل عليها، ولخلفات النوق الحوامل قوله للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا قال الشيخ محيي الدين قال القاضي عياض: اختلف الناس في حبس الشمس المذكور هنا فقيل: ردت إلى ورائها وقيل: وقفت ولم ترد وقيل: بطء حركتها وكل ذلك من معجزات النبوة قال ويقال إن الذي حبست عليه الشمس يوشع بن نون قال القاضي.

وقد روي أن نبينا محمداً ﷺ حبست له الشمس مرتين إحداهما يوم الخندق حين شغلوا عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فردها الله عليه حتى صلى العصر ذكر، ذلك الطحاوي وقال: رواته ثقات. والثانية: صبيحة ليلة الإسراء حين انتظر العير لما أخبر بوصولها مع شروق الشمس ذكره يونس بن بكير في زياداته عن سيرة بن إسحاق.

وقال وهب: ثم مات يوشع بن نون ودفن في جبل أفرائيم وكان عمره مائة سنة وستاً وعشرين سنة وكان تدبيره أمر بني إسرائيل بعد موسى سبعاً وعشرين سنة. وقيل: إن الذي فتح أريحاء هو موسى عليه السلام وكان يوشع بن نون على مقدمته فسار إليهم بمن بقي من بني إسرائيل فدخلها يوشع وقاتل الجبابرة ثم دخلها موسى وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم قبضه الله إليه ولا يعلم أحد قبره وهذا أصح الأقاويل لاتفاق العلماء أن موسى عليه السلام هو الذي قتل عوج بن عنق وهذا القول هو اختيار الطبري. ونقل عن السدي قال: غضب موسى على قومه فدعا عليهم فقال: رب

رسول الله ﷺ: «جاء ملكُ الموت إلى موسى بن عمران، فقال لـه أجب ربَّك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع ملك الموت إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت وقد فقأ عيني قال: فردّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل له: الحياةَ تريد؟ فإن كنتَ تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارتْ يدُك من شعرة فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر»، قال رسول الله ﷺ: «والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر»، وقال وهب: خرج موسى لبعض حاجته فمرّ برهط من الملائكة يحفرون قبراً لم يرَ شيئاً قطّ أحسن منه ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله لِمَ تحفرون هذا القبر؟ قال: لعبد كريم على ربّه، فقال: إن هذا العبدَ من الله له بمنزلة ما رأيت كاليوم مضجعاً قطّ، فقالت الملائكة: يا صفيَّ الله تحبّ أن يكون لك؟ قال: وددت، قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجّه إلى ربّك، قال: فاضطجع فيه وتوجّه إلى ربّه ثم تنفس أسهل تنفّس فقبض الله تبارك وتعالى روحه، ثم سوّت عليه الملائكة. وقيل: ان ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمّها فقبض روحه، وكان عُمر موسى مائة وعشرين سنة فلما مات موسى عليه السلام وانقضت الأربعون سنة بعث الله يوشع نبياً فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبابرة، فصدّقوه وتابعوه فتوجّه ببني إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق، فأحاط بمدينة أريحاء ستّة أشهر، فلما كان السابع نفخوا في القرون وضجّ الشعب ضجّة واحدة فسقط

إني لا أملك إلا نفسي وأخي الآية. فقال الله عز وجل: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلما ضرب عليهم التيه ندم موسى وأتاه قومه الذين كانوا يطيعونه فقالوا له: ما صنعت بنا يا موسى فمكثوا في التيه فلما خرجوا منه رفع المن والسلوى والبقول والتقى موسى وعوج فنزا موسى في السماء عشر أذرع وكانت عصاه عشرة أذرع وكان طوله عشرة فأصاب كعب عوج فقتله. قال الطبري: ولو كان قتل موسى إياه قبل مصيره في التيه لم يجزع بنو إسرائيل لأنه كان من أعظم الجبارين. وروي عن نون قال: كان سرير عوج ثمانمائة ذراع. وقال: وإن أهل العلم بأخبار الأولين مجمعون على أن بلعم بن باعوراء كان ممن أعان الجبارين بالدعاء على موسى لأنه كان يعلم الاسم الأعظم فدعا عليه وسترد قصته في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقوله تعالى: ﴿**فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾ يعني: لا تحزن عليهم لأنهم أهل مخالفة وخروج عن الطاعة. وقيل: لما ندم موسى على ما دعاه على قومه أوحى الله إليه فلا تأس على القوم الفاسقين. قال الزجاج: وجائز أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ أي: لا تحزن يا محمد على قوم لم يزل شأنهم المعاصي ومخالفة الرسل.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق**﴾ يعني اذكر لقومك وأخبرهم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل في قول جمهور المفسرين ونقل عن الحسن والضحاك أن ابني آدم اللذين قربا القربان ما كانا ابني آدم لصلبه وإنما كانا رجلين من بني إسرائيل ويدل عليه قوله تعالى في آخر القصة ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس**﴾ الآية والصحيح ما ذهب إليه جمهور المفسرين، لأن الله تعالى قال في آخر الآية: ﴿**فبعث الله غراباً يبحث في الأرض**﴾ لأن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول حتى تعلّم من فعلِ الغراب بالحق أن أخبرهم خبراً ملتبساً بالحق

سور المدينة، ودخلوا فقاتلوا الجبّارين وهزموهم وهجموا عليهم يقتلونهم، وكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها حتى يقطعوها، فكان القتال يوم الجمعة فبقيت منهم بقية وكادت الشمس تغرب وتدخل ليلة السبت، فقال: اللّهمَّ أردِدِ الشمسَ عليّ وقال للشمس: إنك في طاعة الله سبحانه وتعالى وأنا في طاعته فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله تعالى قبل دخول السبت، فردّت عليه الشمس وزيدت في النهار ساعة حتى قتلتهم أجمعين، وتتبّع ملوك الشام فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً حتى غلب على جميع أرض الشام، وصارت الشام كلها لبني إسرائيل وفرّق عمّاله في نواحيها وجمع الغنائم، فلم تزل النار، فأوحى الله إلي يوشع أن فيها غلولاً فمرْهم فليبايعوك فبايعوه فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال: هلمّ عندك فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل باليواقيت والجواهر كان قد غلّه، فجعله في القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان، ثم مات يوشع ودفن في جبل أفرائيم، وكان عمره مائة وستّاً وعشرين سنة، وتدبيره أمر بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام سبعاً وعشرين سنة.

قوله تعالى: ﴿ **واتْلُ عليهمْ نبأ ابني آدم بالحق** ﴾، وهما هابيل وقابيل، ويقال له قابين، ﴿ **إذْ قرّبا قُرباناً** ﴾، وكان سبب قربانهما على ما ذكره أهل العلم أن حوّاء كانت تلد لآدم عليه السلام في كل بطن غلاماً وجارية، وكان جميع ما ولدته أربعين ولداً في عشرين بطناً أولهم قابيل وتوأمته أقليما، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث، ثم بارك الله عزّ وجلّ في نسل آدم عليه السلام، قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً، واختلفوا في مولد قابيل وهابيل، فقال بعضهم: غشي آدم وحوّاء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة، فولدت له

والصدق لأنه من عند الله وموافقاً لما في الكتب المتقدمة وهم يعلمون صحته ومقصود هذا الخبر هو تقبيح الحسد لأن المشركين وأهل الكتاب كانوا يحسدون رسول الله ﷺ ﴿إذا قربا قرباناً﴾ القربان اسم لما يتقرب به إلى الله عز وجل من صدقة أو ذبيحة أو غير ذلك مما يتقرب به.

(ذكر قصة القربان وسببه وقتل قابيل هابيل)

ذكر أهل العلم بالأخبار والسير أن حواء كانت تلد لآدم في كل بطن غلاماً وجارية فكان جميع ما ولدته أربعين ولداً في عشرين بطناً أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً واختلفوا في مولد قابيل وهابيل فقال بعضهم غشي آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت له قابيل وتوأمته إقليما في بطن ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت بقابيل وأخته فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً ولا طلقاً ولم تر دماً وقت الولادة فلما هبط إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم وكان إذا كبر أولاده زوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى وكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء غير توأمته التي ولدت معه لأنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم فكبر قابيل وأخوه هابيل وكان بينهما سنتان، فلما بلغوا، أمر الله آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل ويزوج هابيل إقليما. وكانت إقليما أحسن من لبودا، فذكر آدم ذلك لهما فرضي هابيل وسخط قابيل وقال: هي أختي وأنا أحق بها ونحن أولاد من الجنة وهما من أولاد الأرض. فقال أبوه آدم: إنها لا تحل لك. فأبى أن يقبل ذلك. وقال: إن الله لم يأمرك بهذا وإنما هو من رأيك فقال لهما آدم. قربا لله قرباناً فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها وإن لم تكن مقبولة لم تنزل النار بل تأكلها الطير والسباع. فخرجا من عند آدم ليقربا القربان وكان قابيل صاحب زرع فقرب صبرة من طعام رديء وأضمر في نفسه: لا أبالي أيتقبل مني أم لا لا يتزوج أختي أحد غيري وكان هابيل صاحب غنم فعدل إلى أحسن كبش في غنمه فقربه وأضمر في نفسه رضا الله فوضعا قربانهما على جبل ثم دعا آدم فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل فذلك قوله تعالى: ﴿فتقبل من أحدهما﴾ يعني هابيل ﴿ولم يتقبل من الآخر﴾ يعني قابيل فغضب قابيل إذ لم يتقبل قربانه فأضمر لأخيه الحسد إلى أن آتى آدم مكة لزيارة البيت وغاب عنهم فأتى قابيل وهابيل وهو في غنمه ﴿قال لأقتلنك قال﴾ قال

قابيل وتوأمته أقليما في بطن واحد، ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن، وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: ان آدم كان يغشى حوّاء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت فيها بقابيل وتوأمته أقليما، فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً ولا طلقاً حتى ولدتهما، ولم ترَ معهما دماً فلما هبط إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم، وكان آدمُ إذا شبّ أولاده يـزوّج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى، فكان الرجل منهم يتزوّج أيّة أخواته شاء إلّا توأمته التي ولدت معه لأنه لم يكن يومئذ نساء إلّا أخواتهم، فلما ولد قابيل وتوأمته أقليما ثم هابيل وتوأمته لبودا، وكان بينهما سنتان في قول الكلبي وأدركوا، أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن ينكح قابيل لبودا وينكح هابيل إقليما أُخت قابيل، وكانت أُخت قابيل أحسن من أخت هابيل، فذكر ذلك آدم لولده فرضي هابيل وسخط قابيل، وقال: هي أُختي أنا أحقّ بها، ونحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض، فقال له أبوه: إنها لا تحلّ لك فأبى أن يقبل ذلك، وقال: إن الله لم يأمره بهذا وإنما هو من رأيه، فقال لهمـا آدم عليه السلام: فقرّبـا قرباناً فأيّكما يُقبل قربانه فهو أحقّ بها، وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نار

هابيل ولم تقتلني؟ قال قابيل: لأن الله تقبّل قربانك وردّ قرباني وتريد أن تنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة فيتحدث الناس بأنك خير مني ويفخر ولدك على ولدي فقال هابيل وما ذنبي ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ يعني أن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال فلذلك كان أحد القربانين مقبولاً دون الآخر ولأن التقوى من أعمال القلوب وكان قد أضمر في قلبه الحسد لأخيه على تقبل قربانه وتوعّده بالقتل فقال له: إنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى وإنما يتقبل الله من المتقين فأجابه بجواب مختصر. وقيل: يحتمل أن يكون خطاباً للنبي ﷺ فكأنه تعالى بين للنبي ﷺ أنه إنما لم يتقبل قربانه لأنه لم يكن متقياً وإنما يتقبل الله من المتقين ثم قال تعالى إخباراً عن هابيل.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾

﴿لئن بسطت إليَّ يدك﴾ يعني لئن مددت إلي يدك ﴿لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ يعني ما أنا بمنتصر لنفسي بل أستسلم لأمر الله. وقيل: معناه ما كنت بمبتدئك بالقتل وذلك أن الله كان قد حرم عليهم قتل نفس بغير نفس ظلماً. وقال مجاهد: كان قد كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلاً تركه ولا يمتنع منه. وقيل: إن المقتول كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكنه تحرج عن قتل أخيه فاستسلم له خوفاً من الله فذلك قوله ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ والمعنى إني أخاف الله في بسط يدي إليك إن أبسطها لقتلك أن يعاقبني على ذلك.

قوله عز وجل إخباراً عن هابيل ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يعني ترجع بإثم قتلي إلى إثم معاصيك التي عملتها من قبل. فإن قلت: كيف؟ قال هابيل إني أريد وإرادة القتل والمعصية من الغير لا تجوز. قلت: أجاب ابن الأنباري عن هذا بأن قال: إن قابيل لما قال لأخيه هابيل لأقتلنك وعظه هابيل وذكره الله واستعطفه وقال لئن بسطت إليّ يدك الآية فلم يرجع فلما رآه هابيل قد صمم على القتل وأخذ له الحجارة ليرميه بها قال له هابيل عند ذلك إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك أي إذا قتلتني ولم يندفع قتلك إياي إلا بقتلي إياك فحينئذ يلزمك إثم قتلي إذا قتلتني فكان هذا

من السماء بيضاء فأكلتها، وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلته الطير والسِّباع، فخرجا ليقرِّبا قرباناً وكان قابيل صاحب زرع فقرّب صبرة من طعام من أردأ زرعه وأضمر في نفسه ما أُبالي يقبل منّي أو لا يتزوج أُختي أبداً، وكان هابيل صاحب غنم فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقرّب به وأضمر في نفسه رضا الله عزّ وجلّ فوضعا قربانهما على الجبل، ثم دعا آدم عليه السلام فنزلت نار من السماء وأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ فتُقبّل من أحدهما ﴾، يعني هابيل ﴿ ولم يُتَقَبّلْ من الآخر ﴾، يعني: قابيل فنزلوا على الجبل وقد غضب قابيل لردّ قربانه وكان يضمر الحسد في نفسه إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت، فلما غاب آدم أتى قابيل هابيل وهو في غنمه، ﴿ قال لأقتلنّك ﴾؟ قال: لأنّ الله تعالى قبل قربانك وردّ قرباني، وتنكح أُختي الحسناء وأنكح أُختك الدميمة، فيتحدّث الناس أنك خير منّي ويفتخر ولدك على ولدي، ﴿ قال ﴾، هابيل: وما ذنبي؟ ﴿ إنما يتقبّل اللّهُ منَ المتّقين ﴾.

﴿ لئنْ بسطت ﴾، أي: مددت، ﴿ إليّ يدَك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يديَ إليك لأقتلك إني أخافُ اللّهَ ربَّ العالمين ﴾، قال عبد الله بن عمر: وأيم الله إن كان المقتول لأشدّ الرجلين ولكن منعه التحرّج أن يبسط إلى أخيه يده، وهذا في الشرع جائز لمَن أُريد قتله أن ينقاد ويستسلم طلباً للأجر كما فعل عثمان رضي الله عنه، قال مجاهد:

عدلاً من هابيل وإليه أشار الزجاج فقال: معناه إن قتلتني فما أنا مريد ذلك فهذه الإرادة منه بشرط أن يكون قاتلاً له والإنسان إذا تمنى أن يكون إثم دمه على قاتله لم يلم على ذلك وعلى هذا التأويل.

قال بعضهم: معناه إني أريد أن تبوء بعقاب إثمي وإثمك فحذف المضاف وما باء بإثم باءَ بعقاب ذلك الإثم ذكره الواحدي وقال الزمخشري: ليس ذلك بحقيقة الإرادة لكنه لما علم أنه يقتله لا محالة ووطن نفسه على الاستسلام للقتل طلباً للثواب فكأنه صار مريداً لقتله مجازاً وإن لم يكن مريداً حقيقة ﴿فتكون من أصحاب النار﴾ يعني الملازمين لها ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ يعني جهنم جزاء من قتل أخاه ظلماً.

قوله تعالى: ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ يعني زينت له وسهلت عليه القتل وذلك أن الإنسان إذا تصور أن قتل النفس من أكبر الكبائر صار ذلك صارفاً له عن القتل فلا يقدم عليه فإذا سهلت عليه نفسه هذا الفعل فعله بغير كلفة فهذا هو المراد من قوله تعالى: «فطوعت له نفسه قتل أخيه»﴿فقتله﴾.

قال ابن جريج: لما قصد قابيل قتل هابيل لم يدر كيف يقتله فتمثل له إبليس وقد أخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم رضخه بحجر آخر وقابيل ينظر فعلمه القتل فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر وقيل بل اغتاله وهو نائم فقتله.

واختلف في موضع قتله فقال ابن عباس: على جبل ثور. وقيل: على عقبة حراء. وقيل: بالبصرة عند مسجدها الأعظم وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة.

وقوله تعالى: ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ قال ابن عباس: خسر دنياه وآخرته أما دنياه فإسخاط والديه وبقي بلا أخ

كتب الله في ذلك الوقت إذا أراد رجل قتل رجل أن يمتنع ويصبر.

﴿ إنّي أُريد أن تبوء ﴾، ترجع، وقيل: تحمل، ﴿ بإثمي وإثمك ﴾، أي: بإثم قتلي إلى إثمك، أي: إثم معاصيك التي عملت من قبل، هذا قول أكثر المفسّرين. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: معناه إني أريد أن يكون عليك خطيئتي التي عملتها أنا إذا قتلتني وإثمك فتبوء بخطيئتي ودمي جميعاً، وقيل: معناه أن ترجع بإثم قتلي وإثم معصيتك التي لم يتقبّل لأجلها قربانك، أو إثم حسدك، فإن قيل: كيف قال إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، وإرادة القتل والمعصية لا تجوز؟ قيل: ذلك ليس بحقيقة إرادة ولكنه لمّا علم أنه يقتله لا محالة وطّن نفسه على الاستسلام طلباً للثواب فكأنه صار مريداً لقتله مجازاً، وإن لم يكن مريداً حقيقة، وقيل: معناه إني أُريد أن تبوء بعقاب قتلي فيكون إرادة صحيحة لأنها موافقة لحكم الله عزّ وجلّ فلا يكون هذا إرادة للقتل بل لموجب القتل من الإثم والعقاب، ﴿ فتكونَ من أصحاب النار وذلك جزاءُ الظالمين ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فطوّعتْ له نفسُه ﴾، أي: طاوعته وشايعته وعاونته، ﴿ قتلَ أخيه ﴾، في قتل أخيه، وقال مجاهد: فشجعته، وقال قتادة: فزيّنتْ له نفسُه، وقال يمان: سهّلت له ذلك، أي: جعلته سهلاً، تقديره: صوّرت له نفسه أن قتل أخيه طوع له أي سهل عليه، فقتله فلما قصد قابيل قتله لم يدرِ كيف يقتله، قال ابن جريج: فتمثّل له إبليس وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخ رأسه بحجر آخر وقابيل ينظر إليه فعلّمه القتل، فرضخ قابيل رأس هابيل بين حجرين، قيل: قتل وهو مستسلم، وقيل: اغتاله وهو في النوم فشدخ رأسه فقتله، وذلك قوله تعالى: ﴿ فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾، وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة، واختلفوا في موضع قتله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: على جبل ثور، وقيل: عند عقبة حراء، فلما قتله تركه بالعراء ولم يدرِ ما يصنع به لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم، وقصدته السِّباع فحمله في جراب على ظهره أربعين يوماً، وقال ابن عباس:

وأما آخرته فأسخط ربه وصار إلى النار (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل».

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: **﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه﴾** قال أصحاب الأخبار لما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء ولم يدر ما يصنع به لأنه أول ميت من بني آدم على وجه الأرض فقصدته السباع لتأكله فحمله قابيل على ظهره في جراب أربعين يوماً. وقال ابن عباس: سنة حتى أروَحَ وأنتن فأراه الله أن يرى قابيل سنته في موتى بني آدم في الدفن فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه حفيرة ثم ألقاه فيها وواراه بالتراب وقابيل ينظر فذلك قوله تعالى: **﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾** يعني يحفرها وينثر ترابها ليريه كيف يواري سوأة أخيه يعني ليري الله أو يري الغراب قابيل كيف يواري ويستر جيفة أخيه فلما رأى ذلك قابيل من فعل الغراب **﴿قال يا ويلتا﴾** أي لزمه الويل وحضره وهي كلمة تحسر وتلهف وتستعمل عند وقوع الداهية العظيمة وذلك أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول فلما علم ذلك من فعل الغراب علم أن الغراب أكثر علماً منه وعلم أنه إنما ندم على قتل أخيه بسبب جهله وعدم معرفته فعند ذلك تلهف وتحسر على ما فعله فقال: يا ويلتا. وفيه اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب **﴿أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾** يعني مثل هذا الغراب الذي وارى الغراب الآخر **﴿فأواري سوأة أخي﴾** يعني فأستر جيفته وعورته عن الأعين **﴿فأصبح من النادمين﴾** يعني على حمله على ظهره مدة سنة لا على قتله. وقيل: إنه ندم على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله وسخط عليه أبواه وإخوته فندم لأجل ذلك لا لأجل أنه جنى جناية واقترف ذنباً عظيماً بقتله فلم يكن ندمه ندم توبة وخوف وإشفاق من فعله فلأجل ذلك لم ينفعه الندم، قال المطلب بن عبد الله بن حطب: لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بمن عليها سبعة أيام وشربت دم المقتول كما تشرب الماء فناداه تعالى أين أخوك هابيل؟ فقال ما أدري ما كنت عليه رقيباً: فقال الله تعالى إن دم أخيك ليناديني من الأرض فلم قتلت أخاك؟ قال فأين دمه إن كنت قتلته! فحرم الله على الأرض يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً ويروى عن ابن عباس قال لما قتل قابيل هابيل كان آدم بمكة فاشتاكَ الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه واغبرت الأرض فقال آدم: قد حدث في الأرض حدث، فأتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل، وقيل: لما رجع آدم سأل قابيل عن

سنة حتى أروح، وعكفت عليه الطير والسِّباع تنتظر متى يرمي به فتأكله، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكّن له ثم ألقاه في الحفرة وواراه، وقابيل ينظر إليه، فذلك قوله تعالى:

﴿ فبعث اللَّهُ غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُواري سوءةَ أخيه ﴾، فلما رأى قابيل ذلك ﴿ قال يا ويلتي أعَجَزْتُ أنْ أكونَ مثل هذا الغُرابِ فأُواري سوأةَ أخي ﴾، أي: جيفته، وقيل: عورته لأنه قد سلب ثيابه، ﴿ فأصبحَ منَ النّادمين ﴾، على حمله على عاتقه لا على قتله، وقيل: على فراق أخيه، وقيل: ندم لقلّة النفع بقتله فإنه أسخط والديه، وما انتفع بقتله شيئاً ولم يكن ندمه على القتل وركوب الذنب، قال عبد المطّلب بن عبد الله بن حنطب: لمّا قتل ابن آدم أخاه وجفّت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما يشرب الماء، فناداه آدم أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً، فقال آدم: إن دم أخيك ليناديني من الأرض، فلِمَ قتلت أخاك؟ قال: فأين دمه إن كنتُ قتلتُه؟ فحرّم الله عزّ وجلّ على الأرض يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً، وقال مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا قتل قابيل هابيل وآدم عليه السلام بمكة اشتاك الشجر وتغيرت

أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلاً. فقال: بل قتلته ولذلك اسود جلدك. وقيل: إن آدم مكث بعد قتل هابيل مائة سنة لا يضحك وأنه رثاه بشعر فقال:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغير كل ذي طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه المليحُ

ويروى عن ابن عباس أنه قال: من قال إن آدم قال شعراً فقد كذب وأن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم في النهي سواء ولكن لما قتل هابيل رثاه آدم وهو سرياني فلما قال آدم مرثيته قال لشيث: يا بني أنت وصيي احفظ هذا الكلام ليُتوارث فيرثي الناس عليه فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول من خط العربية وكان يقول الشعر فنظر في المرثية فرد المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعراً وزاد فيه أبياتها منها:

وما لي لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمنه الضريحُ
أرى طول الحياة عليّ غماً ... فهل أنا من حياتي مستريحُ

قال الزمخشري: ويروى أنه رثاه بشعر وهو كذب بحت وما الشعر إلا منحول ملحون وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر. قال الإمام فخر الدين الرازي: ولقد صدق صاحب الكشاف فيما قال فإن ذلك الشعر في غاية الركاكة لا يليق إلا بالحمقى من المعلمين فكيف ينسب إلى من جعل الله علمه حجة على الملائكة؟.

قال أصحاب الأخبار: فلما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة ولدت له حواء شيثاً وتفسيره هبة الله يعني أنه خلف من هابيل وعلمه الله تعالى ساعات الليل والنهار وعلمه عبادة الخلق في كل

الأطعمة وحمضت الفواكه، وأمرّ الماء واغبرّت الأرض، فقال آدم عليه السلام: قد حدث في الأرض حدث فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل فأنشأ يقول وهو أول مَن قال الشعر:

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليها ... فوجه الأرض مغبرٌّ قبيح
تغيّر كل ذي طعم ولون ... وقلّ بشاشةُ الوجه المليح

ورُوِيَ عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مَن قال إن آدم عليه السلام قال شعراً فقد كذب على الله ورسوله، فإن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم عليهم السلام في النهي عن الشعر سواء، ولكن لمّا قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سرياني، فلما قال آدم مرثيّته قال لشيث: يا بني إنك وصي احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرقّ الناس عليه، فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية والسريانية وهو أول مَن خطّ بالعربية، وكان يقول الشعر فنظر في المرثية فردّ المقدّم إلى المؤخّر والمؤخّر إلى المقدّم، فوزنه شعراً وزاد فيه أبيات منها:

وما لي لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة عليّ غمّاً ... فهل أنا من حياتي مستريح

فلما مضى من عمر آدم عليه السلام مائة وثلاثون سنة، وذلك بعد قتل هابيل بخمس سنين ولدت له حوّاء شيثاً واسمه عبد الله، يعني إنه خلف من هابيل علّمه الله تعالى ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادة الخلق في كل ساعة منها، وأنزل عليه خمسين صحيفة فصار وصيّ آدم ووليّ عهده، وأما قابيل فقيل له: اذهب طريداً شريداً فزعاً

ساعة وأنزل عليه خمسين صحيفة وصار وصي آدم وولي عهده وأما قابيل فقيل له اذهب طريداً شريداً فزعاً مرعوباً لا تأمن من تراه فأخذ بيد أخته إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس وقال له إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من عبد النار وكان قابيل لا يمر به أحد إلا رماه بالحجارة فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابنه فقال ابن الأعمى لأبيه هذا أبوك قابيل فرماه بحجارة فقتله فقال ابن الأعمى لأبيه قتلت أباك قابيل فرفع الأعمى يده ولطم ابنه فمات فقال الأعمى ويل لي قتلت أبي برميتي وقتلت ابني بلطمتي فلما مات قابيل علقت إحدى رجليه بفخذه وعلق بها فهو معلق بها إلى يوم القيامة ووجهه إلى الشمس حيث دارت وعليه حظيرة من نار في الصيف وحظيرة من ثلج في الشتاء فهو يعذب بذلك إلى يوم القيامة قالوا: واتخذ أولاد قابيل آلات للهو من الطبول والزمور والعيدان والطنابير وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والفواحش حتى أغرقهم الله تعالى جميعاً بالطوفان في زمن نوح عليه السلام فلم يبق من ذرية قابيل أحد وأبقى الله ذرية شيث ونسله إلى يوم القيامة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿من أجل ذلك﴾ يعني بسبب ذلك القتل الذي حصل وقيل الأجل في اللغة الجناية يقال أجل عليهم شراً أي جنى عليهم شراً ﴿كتبنا﴾ أي فرضنا وأوجبنا ﴿على بني إسرائيل﴾.

فإن قلت: من أجل ذلك معناه من أجل ما مر من قصة قابيل وهابيل كتبنا على بني إسرائيل. وهذا مشكل لأنه لا مناسبة بين واقعة قابيل وهابيل وبين وجوب القصاص على بني إسرائيل. قلت: قال بعضهم هو من تمام الكلام الذي قبله والمعنى فأصبح من النادمين من أجل ذلك أي من أجل أنه قتل هابيل ولم يواره. ويروى عن نافع أنه كان يقف

مرعوباً لا تأمن مـن تراه، فأخذ بيد أخته إقليما وهرب بها إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليس فقال له: إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبد النار فانصبْ أيضاً أنت ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيتاً للنار فهو أول مَن عبد النار، وكان لا يمرّ به أحد من ولده إلّا رماه، فأقبل ابن له أعمى ومعه ابن له، فقال ابنه: هذا أبوك قابيل، فرمى الأعمى أباه فقتله، فقال ابن الأعمى: قتلتَ أباك؟ فرفع يده ولطم ابنه، فمات فقال الأعمى: ويلٌ لي قتلت أبي برميتي وقتلت ابني بلطمتي، وقال مجاهد: فعلقت إحدى رجلي قابيل إلى فخذها وساقها وعلقت منها فهو معلّق إلى يوم القيامة ووجهه إلى الشمس ما دارت عليه في الصيف حظيرة من نار وفي الشتاء حظيرة من ثلج، قال: واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من اليراع والطبول والمزامير والعيدان والطنابير، وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر وعبادة النار والزنا والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان أيام نوح عليه السلام، وبقي نسل شيث. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث ثنا أبي ثنا الأعمش حدّثني عبد الله بن مرّة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه أوّل مَن سنّ القتل».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ من أجل ذلك ﴾، قرأ أبو جعفر من أجل ذلك بكسر النون موصولاً وقراءة العامّة بجزم النون وفتح الهمزة مقطوعاً، أي: من جرّاء ذلكِ القاتل وجنايته، يقال: أجل يأجل أجلاً، إذا جنى، مثل أخذ يأخذ أخذاً،

على قوله من أجل ذلك ويجعله تمام الكلام الأول فعلى هذا يزول الإشكال. لكن جمهور المفسرين وأصحاب المعاني على أن قوله من أجل ذلك ابتداء كلام وليس يوقف عليه. فعلى هذا قال بعضهم: إن قوله من أجل ذلك ليس هو إشارة إلى قصة قابيل وهابيل، بل هو إشارة إلى ما مر ما ذكره في هذه القصة من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب هذا القتل الحرام منها قوله ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ وفيه إشارة إلى أنه حصلت له خسارة في الدين والدنيا والآخرة.

ومنها قوله: ﴿فأصبح من النادمين﴾ وفيه إشارة إلى أنه حظر في أنواع الندم والحسرة والحزن مع أنه لا دافع لذلك البتة فقوله من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أي من أجل ذلك الذي ذكرنا في أثناء القصة من أنواع المفاسد المتولدة من القتل العمد المحرم شرعنا القصاص على القاتل. فإن قلت: فعلى هذا تكون شريعة القصاص حكماً ثابتاً في جميع الأمم، فما الفائدة بتخصيصه ببني إسرائيل. قلت: إن وجوب القصاص وإن كان عامّاً في جميع الأديان والملل إلا أن التشديد المذكور هاهنا في حق بني إسرائيل غير ثابت في جميع الأديان والملل لأنه تعالى حكم في هذه الآية بأن من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً ولا يشك أن المقصود منه المبالغة في عقاب قاتل النفس عدواناً وأن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على قساوة قلوبهم وبعدهم عن الله عز وجل ولما كان الفرض من ذكر هذه القصة تسلية النبي ﷺ على ما أقدم عليه اليهود بالفتك بالنبي ﷺ وبأصحابه فتخصيص بني إسرائيل في هذه القصة بهذه المبالغة مناسب للكلام وتوكيد للمقصود والله أعلم بمراده.

قوله عز وجل: ﴿أنه من قتل نفساً﴾ يعني من قتل نفساً ظلماً ﴿بغير نفس﴾ يعني بغير قتل نفس لا على وجه الاقتصاص فيقاد من قاتل النفس على وجه العدوان المحرم ﴿أو فساد في الأرض﴾ هو عطف على بغير نفس يعني وبغير فساد في الأرض فيستحق به القتل لأن القتل على أسباب كثيرة منها القصاص وهو المراد من قوله: قتل نفساً بغير نفس. ومنها الشرك والكفر بعد الإيمان ومنها قطع الطريق ونحو ذلك وهو المراد من قوله أو فساد في الأرض ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ قال مجاهد: من قتل نفساً محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلاها بقتل الناس جميعاً ومن سلم من قتلها فكأنما سلم من قتل الناس جميعاً. وقال ابن عباس: من قتل نبياً أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعاً. ومن شد عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً. وقيل: معناه أن من قتل نفساً محرمة يجب عليه من القصاص مثل الذي يجب عليه لو قتل الناس جميعاً ومن أحياها يعني من غرق أو حرق أو وقوع في هلكة فكأنما أحيا الناس جميعاً يعني أن له من الثواب مثل ثواب من أحيا الناس جميعاً وقيل: معناه من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما استحل قتل الناس جميعاً لأنهم لا يسلمون منه ومن تورع عن قتل مسلم فكأنما تورع عن قتل جميع الناس فقد سلموا منه قال أهل المعاني قوله ومن أحياها على المجاز لأن المحيي هو الله تعالى في الحقيقة فيكون المعنى ومن ناجاها من الهلاك فكأنما نجى جميع الناس منه. سئل الحسن عن هذه الآية أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل فقال: أي والذي لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا.

وقوله تعالى: ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ يعني: ولقد جاءت بني إسرائيل رسلنا ببيان الأحكام والشرائع

﴿ كتبنا على بني إسرائيل أنّه مَن قتل نفساً بغير نفس ﴾، قتلها فيقاد منه، **﴿ أو فسادٍ في الأرض ﴾**، يريد بغير نفس وبغير فساد في الأرض مَن كفر أو زنا أو قطع طريق، أو نحو ذلك **﴿ فكأنّما قتلَ النّاسَ جميعاً ﴾**، اختلفوا في تأويله، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة: مَن قتل نبيّاً أو إمام عدل فكأنما قتل النّاسَ **جميعاً**، ومَن شدّ عضد نبيٍّ أو إمام عدل فكأنما أحيا النّاسَ جميعاً، قال مجاهد: مَن قتل نفساً محرّمة يصلى النار بقتلها، كما يصلى لو قتل الناس جميعاً، ومَن أحياها مَن سلم من قتلها فقد سلم من قتل الناس جميعاً، قال قتادة: أعظم الله أجرها وعظّم وزرها، معناه مَن استحلّ قتل مسلم بغير حقّه فكأنما قتل الناس جميعاً في الإثم لأنهم لا يسلمون منه،

والدلالات الواضحات ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك﴾ يعني بعد مجيء الرسل وبعد ما كتبنا عليهم تحريم القتل ﴿في الأرض لمسرفون﴾ يعني بالقتل لا ينتهون عنه وقيل معناه لمجازون حد الحق وإنما قال تعالى وإن كثيراً منهم، لأنه تعالى علم أن منهم من يؤمن بالله ورسوله وهم قليل من كثير. قوله عز وجل: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ قال ابن عباس نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض فخيَّر الله رسوله ﷺ إن يشأ يقتل وإن يشأ يصلب وإن يشأ يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وهذا قول الضحاك أيضاً.

وقال الكلبي: نزلت في قوم هلال بن عويمر وذلك أن النبي ﷺ وادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن مر بهلال إلى النبي ﷺ فهو آمن لا يهاج فمر قوم من بني كنانة يريدون الإسلام بقوم هلال ولم يكن هلال شاهداً فشدوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضاء فيهم بهذه الآية. وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في قوم من عرينة وعكل أتوا إلى رسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام وهم كذبة فاستوخموا المدينة، فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل (ق).

عن أنس بن مالك أن ناساً من عكل وعرينة قدموا على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام فقالوا: يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف واستوخموا المدينة فأمر لهم النبي ﷺ بذود وراع وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد الإسلام وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود، فبلغ ذلك النبي ﷺ فبعث الطلب في أثرهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة بلغنا أن رسول الله ﷺ كان بعد ذلك يحث على الصدقة وينهى عن المثلة. زاد في رواية قال قتادة: فحدثني ابن سيرين إن ذلك قبل إن تزول الحدود.

وفي رواية للبخاري أن ناساً من عرينة اجتووا المدينة فرخص لهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من ألبانها وأبوالها فقتلوا الراعي واستاقوا الذود فأرسل رسول الله ﷺ فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وتركهم في الحرة يعضون الحجارة. زاد في رواية: قال أبو قلابة وأي شيء أشد مما صنع هؤلاء ارتدوا عن الإسلام وقتلوا وسرقوا، وفي رواية أبي داود إن قوماً من عكل أو قال من عرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة فأمر لهم النبي ﷺ بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا النعم فبلغ رسول الله ﷺ خبرهم من أول النهار فأرسل في آثارهم فلما ارتفع النهار حتى جيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون قال أبو قلابة: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله زاد في رواية له وأنزل الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ

﴿ ومَنْ أحياها ﴾، وتورّع عن قتلها، ﴿ فكأنما أحيا النّاس جميعاً ﴾، في الثواب لسلامتهم منه، قال الحسن فكأنما قتل النّاسَ جميعاً يعني أنه يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذي يجب عليه لو قتل النّاسَ جميعاً، ومَن أحياها أي عفا عمّن وجب عليه القصاص له فلم يقتله فكأنما أحيا الناس جميعاً، قال سليمان بن علي قلت للحسن: يا أبا سعيد أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ قال: إيْ والذي لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا، ﴿ ولقدْ جاءتْهم رُسلنا بالبيّنات ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾.

أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا﴾ الآية.

شرح غريب هذا الحديث وحكمه قوله إنا كنا أهل ضرع يعني، أهل ماشية وبادية نعيش باللبن ولسنا من أهل المدن. والريف هو الأرض التي فيها زرع وخصب والجمع أرياف. قوله: استوخموا المدينة يعني أنها لم توافق مزاجهم وكذا قوله: ناجتووا المدينة وهو معناه والذود من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة والحرة هي أرض ذات حجارة سود وهي هنا اسم لأرض بظاهر المدينة معروفة. وقوله: فسمر أعينهم، معناه أنه حمى مسامير الحديد وكحل بها أعينهم حتى ذهب بصرها. وقوله: وينهى عن المثلة، أن تقطع أطراف الحيوان وتشوه خلقته ومثلة القتيل أن يقطع أنفه وأذنيه ومذاكيره ونحو ذلك. واختلف العلماء في حكم هذا الحديث فقيل: هو منسوخ لنهي النبي ﷺ عن المثلة. وقيل: حكمه ثابت غير السمل والمثلة. وقيل: إن هذه الآية ناسخة لما فعله النبي ﷺ بهم. وقيل: كان ذلك قبل أن تنزل الحدود، فلما نزلت الحدود وجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها. وقيل: نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله ﷺ وتعليماً من الله تعالى إياه عقوبتهم وما يجب عليهم فقال تعالى: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾** واعلم أن المحاربة لله غير ممكنة وفي معناها للعلماء قولان: **أحدهما** أن المحاربين لله هم المخالفون أمره الخارجون عن طاعته لأن كل من خالف أمر إنسان فهو حرب له فيكون المعنى يخالفون الله ورسوله ويعصون أمرهما.

والقول الثاني: معناه يحاربون أولياء الله وأولياء رسوله فهو من باب حذف المضاف **﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾** يعني بحمل السلاح والخروج على الناس وقتل النفس وأخذ الأموال وقطع الطريق.

﴿إنّما جزاءُ الذين يُحاربُون اللّهَ ورسولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فساداً﴾، الآية قال الضحاك: نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض، وقال الكلبي: نزلت في قوم هلال بن عويمر، وذلك أن النبي ﷺ وَادع هلال بن عويمر وهو أبو بردة الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومَن مرّ بهلال بن عويمر إلى رسول الله ﷺ فهو آمن لا يهاج، فمرّ قوم من بني كنانة يريدون الإسلام بناس من أسلم من قوم هلال بن عويمر، ولم يكن هلال شاهداً فشدّوا عليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزل جبريل عليه السلام بالقضاء فيهم، وقال سعيد بن جبير: نزلت في ناس من عرينة وعكل أتوا النبي ﷺ وبايعوه على الإسلام وهم كذبة فبعثهم النبي ﷺ إلى إبل الصدقة، فارتدّوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي حدّثني يحيىٰ بن أبي عمير حدّثني أبو قلابة الجرمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النبي ﷺ نفر من عكل فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا فصحّوا فارتدّوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم، فأُتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم لم يحسمهم حتى ماتوا، ورواه أيوب عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: فقطع أيديهم وأرجلهم ثم أمر بمسامير فكحّلهم بها وطرحهم بالحرّة يستسقون فما يسقون حتى ماتوا، قال أبو قلابة: قتلوا وسرقوا وحاربوا اللّهَ ورسولَه وسعوا في الأرض فساداً، واختلفوا في حكم هؤلاء العرنيين، فقال بعضهم: هي منسوخة لأن المثلة لا تجوز، وقال بعضهم: حكمه ثابت إلاّ السمل والمثلة، وروى قتادة عن ابن سيرين أن ذلك كان قبل أن ينزل الحدّ، وقال أبو الزناد: فلما فعل رسول الله ﷺ ذلك بهم أنزل الله الحدود ونهاه عن المثلة فلم

واختلفوا في حكم هؤلاء المحاربين الذين يستحقون هذا الحد فقال قوم: هم الذين يقطعون الطريق ويحملون السلاح والمكابرون في البلد وهذاقول الأوزاعي ومالك والليث بن سعد والشافعي وقال أبو حنيفة: المكابرون في الأمصار ليس لهم حكم المحاربين في استحقاق هذا الحد ثم ذكر الله تعالى عقوبة هؤلاء المحاربين وما يستحقونه فقال تعالى: ﴿**أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾ وللعلماء في لفظة أو المذكورة في هذه الآية قولان: أحدهما أنها للتخيير وهو قول ابن عباس في رواية عنه وبه قال الحسن وسعيد بن المسيب والنخعي ومجاهد، وهو أن الإمام مخير في أمر المحاربين فإن شاء قتل، وإن شاء صلب، وإن شاء قطع، وإن شاء نفى من الأرض كما هو ظاهر الآية. والقول الثاني: أن لفظة أو للبيان وليست للتخيير وهو الرواية الثانية عن ابن عباس وهو قول أكثر العلماء لأن الأحكام تختلف فترتبت هذه العقوبات على ترتيب الجرائم. وهذا كما روي عن ابن عباس في قطاع الطريق قال: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا لم يأخذوا المال قتلوا وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وإذا أخافوا السبيل ولم يقتلوا ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض، وهذا قول قتادة والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي. واختلفوا في كيفية الصلب فقيل: يصلب حياً ثم يطعن في بطنه برمح حتى يموت. قال الشافعي: يقتل أولاً ويصلى عليه ثم يصلب. وإنما يجمع بين القتل والصلب إذا قتل وأخذ المال ويصلب على الطريق في ممر الناس ليكون ذلك زاجراً لغيره عن الإقدام على مثل هذه المعصية. واختلفوا في تفسير النفي من الأرض المذكور في الآية، فقيل: إن الإمام يطلبهم ففي كل بلد وجدوا نفوا عنه وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز. وقيل: يطلبون حتى تقام عليهم الحدود وهو قول ابن عباس والليث بن سعد والشافعي وقال أبو حنيفة وأهل الكوفة: النفي هو الحبس لأنه نفي من الأرض لأن المحبوس لا يرى أحداً من أحبابه ولا ينتفع بلذات الدنيا وطيباتها فهو منفي من الأرض في الحقيقة إلا من تلك البقعة الضيقة التي هو فيها.

يعد. وعن قتادة قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة. وقال سليمان التيمي عن أنس: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرِّعاة. وقال الليث بن سعد: نزلت هذه الآية معاتبة لرسول الله ﷺ وتعليماً منه إيّاه عقوبتهم، وقال: إنما جزاؤهم هذا لا المثلة، ولذلك ما قام النبي ﷺ خطيباً إلاّ نهى عن المثلة، واختلفوا في المحاربين الذين يستحقّون هذا الحدّ، فقال قوم: هم الذين يقطعون الطريق ويحملون السلاح على المسلمين، والمكابرون في الأمصار، وهو قول الأوزاعي ومالك والليث بن سعد والشافعي رحمهم الله، وقال قوم: هم المكابرون في الأمصار ليس لهم حكم المحاربين في استحقاق هذا الحدّ، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه، وعقوبة المحاربين ما ذكر الله سبحانه وتعالى. ﴿ **أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض** ﴾، فذهب قوم إلى أن الإمام بالخيار في أمر المحاربين بين القتل والقطع والصلب، والنفي كما هو ظاهر الآية، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والنخعي ومجاهد، وذهب الأكثرون إلى أن هذه العقوبات على ترتيب الجرائم لا على التخيير، لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قطّاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، فإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نُفُوا من الأرض، وهو قول قتادة والأوزاعي والشافعي وأصحاب الرأي رحمهم الله تعالى، وإذا قتل قاطع الطريق يُقتل حتماً حتى لا يسقط بعفو وليّ الدّم، وإذا أخذ من المال نصاباً وهو ربع دينار تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإذا قتل وأخذ المال يُقتل ويُصلب، واختلفوا في كيفيته فظاهر مذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يقتل ثم يصلب،

قال مكحول: إن عمر بن الخطاب أول من حبس في السجون يعني من هذه الأمة وقال أحبسه حتى أعلم منه التوبة ولا أنفيه إلى بلد آخر فيؤذيهم ثم قال تعالى: ﴿ذلك﴾ يعني الذي ذكر في هذه الآية من الحدود ﴿لهم﴾ يعني للمحاربين ﴿خزي في الدنيا﴾ أي عذاب وهوان وفضيحة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ هذا الوعيد في حق الكفار الذين نزلت الآية فيهم، فأما من أجرى حكم الآية على المحاربين من المسلمين فينفي العذاب العظيم عنهم في الآخرة لأن المسلم إذا عوقب بجناية في الدنيا كانت عقوبته كفارة له وإن لم يعاقب في الدنيا فهو في خطر المشيئة، إن شاء عذبه بجنايته ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة هذا مذهب أهل السنة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٣٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ يعني لكن الذين تابوا من شركهم وحربهم لله ورسوله ومن السعي في الأرض بالفساد من قبل أن تقدروا عليهم. يعني فلا سبيل لكم عليهم بشيء من العقوبات المذكورة في الآية المتقدمة ﴿فاعلموا أن الله غفور﴾ يعني لمن تاب من الشرك ﴿رحيم﴾ يعني به إذا رجع عما يسخط الله عز وجل وهذا قول معظم أهل التفسير أن المراد بهذا الاستثناء المشرك المحارب إذا آمن وأصلح قبل القدرة عليه سقط عنه جميع الحدود التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية وأنه لا يطالب بشيء مما أصاب من مال أو دم. قال أبو إسحاق: جعل الله التوبة للكفار تدرأ عنهم الحدود التي وجبت عليهم في كفرهم ليكون ذلك داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام، فهذا حكم المشرك المحارب إذا آمن وأصلح وكذلك لو آمن بعد القدرة عليه لم يطالب بشيء بالإجماع، وأما المسلم المحارب، إذا تاب واستأمن قبل القدرة عليه. فقال السدي: هو الكافر إذا آمن لم يطالب بشيء إلا إذا أصيب عنده مال بعينه فإنه يرده على أهله وهذا مذهب مالك والأوزاعي غير أن مالك قال يؤخذ بالدم إذا طلب به وليه، فأما ما أصاب من الدماء والأموال ولم يطلبها أولياؤها فلا يتبعه الإمام بشيء من ذلك وهذا حكم علي بن أبي طالب في حارثة بن زيد وكان قد خرج محارباً فتاب قبل أن يقدر عليه فآمنه علي على نفسه وكذلك جاء رجل من مراد

وقيل: يصلب حيّاً ثم يطعن حتى يموت مصلوباً، وهو قول الليث بن سعد، وقيل: يُصلب ثلاثة أيام حيّاً ثم ينزل فيقتل، وإذا أخاف السبيل ينفى واختلفوا في النفي، فذهب قوم إلى أن الإمام يطلبه ففي كل بلد يوجد ينفى، وهو قول سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز، وقيل: يطلبون لتُقام عليهم الحدود، وهو قول ابن عباس والليث بن سعد، وبه قال الشافعي، وقال أهل الكوفة: النفي هو الحبس، وهو نفي من الأرض، وقال محمد بن جرير: ينفى من بلده إلى غيره ويُحبس في السجن في البلد الذي نُفي إليه حتى تظهر توبته، وقال مكحول: إن عمر بن الخطاب أول مَن حبس في السجون، وقال: أحبسه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلد فيؤذيهم، ﴿ ذلك ﴾، الذي ذكرت من الحدّ، ﴿ لهم خزيٌ ﴾ عذاب وهوان وفضيحة، ﴿ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ﴾.

﴿ إلّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن اللّهَ غفورٌ رحيم ﴾، فمن ذهب إلى أن الآية نزلت في الكفّار، قال معناه: إلّا الذين تابوا من شركهم وسلموا قبل القدرة عليهم فلا سبيل عليهم بشيء من الحدود ولا تبعة عليهم فيما أصابوا في حال الكفر من دم أو مال، وأما المسلمون المحاربون فمَن تاب منهم قبل القدرة عليهم وهو قبل أن يظفر به الإمام تسقط عنه كل عقوبة وجبت حقاً لله، ولا يسقط ما كان من حقوق العباد فإن كان قد قتل في قطع الطريق يسقط عنه بالتوبة قبل القدرة عليه تحتّم القتل، ويبقى عليه القصاص لوليّ القتيل فإن شاء عفا عنه وإن شاء تاب واستوفى، وإن كان قد أخذ المال يسقط عنه القطع، وإن كان قد جمع بينهما يسقط عنه تحتّم القتل والصلب، ويجب ضمان المال وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وقال بعضهم: إذا جاء تائباً قبل القدرة عليه لا

إلى أبي موسى الأشعري وهو على الكوفة في خلافة عثمان بعد ما صلى المكتوبة، فقال: يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك أنا فلان بن فلان المرادي كنت قد حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض بالفساد وإني قد تبت من قبل أن يقدر عليّ. فقام أبو موسى فقال: هذا فلان المرادي وأنه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً وأنه قد تاب من قبل أن يقدر عليه فلا يتعرض له أحد إلا بخير. وقال الشافعي: يسقط عنه بتوبته قبل القدرة عليه حد الله ولا يسقط عنه بها ما كان من حقوق بني آدم من قصاص أو مظلمة من مال أو غيره وأما إذا تاب بعد القدرة عليه فظاهر الآية أن التوبة لا تنفعه وتقام عليه الحدود وقال الشافعي: ويحتمل أن يسقط كل حد لله عز وجل بالتوبة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أي خافوا الله بترك المنهيات ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ يعني واطلبوا إليه القرب بطاعته والعمل بما يرضي وإنما قلنا ذلك، لأن مجامع التكاليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما. أحد النوعين: ترك المنهيات وإليه الإشارة بقوله: اتقوا الله. والثاني: التقرب إلى الله تعالى بالطاعات وإليه الإشارة بقوله: وابتغوا إليه الوسيلة والوسيلة فعيلة من وسل إليه إذا تقرب ومنه قول الشاعر:

إن الرجال لهـم إليـك وسيلـة

أي قربة. وقيل: معنى الوسيلة المحبة أي تحببوا إلى الله عز وجل ﴿وجاهدوا في سبيله﴾ أي وجاهدوا العدو في طاعته وابتغاء مرضاته ﴿لعلكم تفلحون﴾ يعني لكي تسعدوا بالخلود في جنته لأن الفلاح اسم جامع للخلاص من كل مكروه والفوز بكل محبوب قوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم﴾ يعني: أن الكافر لو ملك الدنيا ودنيا أخرى مثلها معها ثم فدى نفسه من العذاب يوم القيامة لم يقبل منه ذلك الفداء ﴿ولهم عذاب أليم﴾ المقصود من هذا أن العذاب لازم للكفار وأنه لا سبيل لهم إلا الخلاص منه بوجه من الوجوه (ق). عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتدياً بها فيقول نعم فيقول قد أردت منك أيسر من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك

يكون لأحد عليه تبعة في دم ولا مال إلّا أن يوجد معه مال بعينه فيردّه إلى صاحبه، ورُوِيَ عن علي رضي الله عنه في حارثة بن يزيد كان خرج محارباً فسفك الدماء وأخذ المال، ثم جاء تائباً قبل أن يقدر عليه فلم يجعل عليّ رضي الله عنه تَبِعَة، أما مَن تاب بعد القدرة عليه فلا يسقط عنه شيء منها، وقيل: كل عقوبة تجب حقاً لله عزّ وجل من عقوبات قطع الطريق وقطع السرقة وحدّ الزّنا والشرب تسقط بالتوبة بكل حال، والأكثرون على أنها لا تسقط.

﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّهَ وابْتَغُوا ﴾، اطلبوا، ﴿ إليه الوسيلة ﴾، أي: القربة، فعيلة مِنْ توسل إلى فلان بكذا، أي: تقرّب إليه وجمعها وسائل، ﴿ وجاهدُوا في سبيله لعلّكم تُفلحون ﴾.

﴿ إن الذين كفرُوا لَوْ أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لِيَفْتَدُوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبِّلَ

بي ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك» هذا لفظ مسلم.

وفي رواية البخاري قال: يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لوكان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به فيقول نعم فيقال له لقد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك أن لا تشرك بي ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾ فيه وجهان: **أحدهما** أنهم يقصدون الخروج من النار ويطلبونه ولكن لا يستطيعون ذلك قيل إذا حملهم لهب النار إلى فوق طلبوا الخروج منها فلا يقدرون عليه.

والوجه الثاني: أنهم يتمنون الخروج من النار بقلوبهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ يعني ولهم عذاب دائم ثابت لا يزول عنهم ولا ينتقل أبداً. قوله عز وجل: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ قال ابن السائب نزلت في طعمة بن أبيرق وقدمنا قصته في سورة النساء وإنما سمي السارق سارق لأنه يأخذ الشيء الذي ليس له أخذه في خفاء ومنه استرق السمع مستخفياً والسارق هنا مرفوع بالابتداء لأنه لم يقصد واحد بعينه إنما هو كقولك من سرق فاقطع يده والمراد باليد المذكورة هنا اليمين. قاله الحسن والشعبي والسدي وكذلك هو في قراءة عبد الله بن مسعود: فاقطعوا أيمانهما. وإنما قال: أيديهما ولم يقل يديهما، لأنه أراد يميناً من هذا ويميناً من هذه فجمع فإنه ليس للإنسان إلا يمين واحدة وكل شيء موحد من أعضاء الإنسان إذا ذكر مضافاً إلى اثنين فصاعداً جمع والمراد باليد هنا الجارحة وحدها عند جمهور أهل اللغة من رؤوس الأصابع إلى الكوع فيجب قطعها في حد السرقة من الكوع. وقوله تعالى: ﴿جزاء بما كسبا﴾ يعني ذلك القطع جزاء على فعلهم ﴿نكالاً من الله﴾ يعني عقوبة من الله ﴿والله عزيز﴾ في انتقامه ممن عصاه ﴿حكيم﴾ يعني فيما أوجبه من قطع يد السارق.

(فصل في بيان حكم الآية: وفيه مسائل)

المسألة الأولى: اقتضت هذه وجوب القطع على كل سارق وقطع رسول الله ﷺ في السرقة (ق).

عن عائشة، أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ: قالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ. فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب ثم قال: إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» وعن عائشة قالت: «أتي رسول الله ﷺ بسارق فقطعه فقالوا ما كنا نراك تبلغ به هذا قال لو كانت فاطمة لقطعتها» أخرجه النسائي (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ

منهم ﴾، أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها ومثلها معها ثم فدى بذلك نفسه من العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء، **﴿ ولهم عذابٌ أليم ﴾**.

﴿ يُرِيدُونَ أن يخرجُوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾، فيه وجهان أحدهما أنهم يقصدون ويطلبون المخرج منها، كما قال الله تعالى: ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها ﴾ [الحج: ٢٢، السجدة: ٢] والثاني أنهم يتمنّون ذلك بقلوبهم، كما قال الله تعالى إخباراً عنهم: ﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، **﴿ ولهم عذابٌ مقيم ﴾**.

﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما ﴾، أراد به أيمانهما، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود وجملة الحكم أن مَن سرق نصاباً من المال من حرز لا شبهة له فيه تقطع يده اليمنى من الكوع، ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب عند أهل العلم، حكي عن ابن الزبير أنه كان يقطع في الشيء القليل، وعامّة العلماء على خلافه واختلفوا في القدر الذي يقطع فيه، فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقطع في أقل من ربع دينارٍ، فإن سرق ربع دينار أو

قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده» قال الأعمش: يرون أنه بيض الحديد وأن من الحبال ما يساوي دراهم أخرجه البخاري ومسلم، أما السارق الذي يجب عليه القطع، فهو البالغ، العاقل، العالم بتحريم السرقة، فلو كان حديث عهد بالإسلام ولا يعلم أن السرقة حرام، فلا قطع عليه.

المسألة الثانية: اختلف العلماء في قدر النصاب الذي يقطع به فذهب أكثر العلماء إلى أنه ربع دينار فإن سرق ربع دينار أو متاعاً قيمته ربع دينار يقطع، وهذا قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وبه قال عمر بن العزيز والأوزاعي والشافعي. ويدل عليه ما روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» أخرجاه في الصحيحين وذهب مالك وأحمد وإسحاق إلى أنه ثلاثة دراهم أو قيمتها لما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم أخرجه الجماعة. المجن: الترس. ويروى عن أبي هريرة أن قدر النصاب الذي تقطع به اليد خمسة دراهم وبه قال ابن أبي ليلى لما روي عن أنس قال: قطع أبو بكر في مجن قيمته خمسة دراهم وفي رواية قطع رسول الله ﷺ أخرجه النسائي. وقال: الرواية الأولى، أصح. وذهب قوم إلى أنه لاقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم يروى ذلك عن ابن مسعود وإليه ذهب سفيان الثوري وأبو حنيفة لما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أول من قطع في مجن قيمته دينار أو عشرة دراهم أخرجه أبو داود فإذا سرق نصاباً من المال من حرز لا شبهة له فيه قطعت يده اليمنى من الكوع ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن القدر غير معتبر فيجب القطع في القليل والكثير وكذا الحرز غير معتبر أيضاً عندهم وإليه ذهب داود الظاهري واحتجوا بعموم الآية فإن قوله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ يتناول القليل والكثير وسواء سرقه من حرز أو غير حرز.

المسألة الثالثة: الحرز، هو ما جعل للسكنى وحفظ الأموال كالدور والمضارب والخيم التي يسكنها الناس ويحفظون أمتعتهم فيها فكل حرز وإن لم يكن فيه حافظ ولا عنده وسواء سرق من ذلك وهو مفتوح الباب أو مغلق، فأما ما كان في غير بناء ولا خيمة فإنه ليس بحرز إلا أن يكون عنده من يحفظه أما نباش القبور، فإنه يقطع وهو قول مالك والشافعي وأحمد. وقال ابن أبي ليلى والثوري والأوزاعي وأبو حنيفة: لا قطع عليه، فإن سرق شيئاً من غير حرز كثمر من بستان لا حارس له أو حيوان في برية ولا راعي له أو متاع في بيت منقطع عن البيوت فلا قطع عليه. عن

متاعاً قيمته ربع دينار يقطع، وهو قول أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله تعالى عنهم، وبه قال عمر بن عبد العزيز والأوزاعي والشافعي، لِما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا ابن عيينة عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «القطع في ربع دينار فصاعداً»، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مِجَن قيمته ثلاثة دراهم، ورُوِيَ عن عثمان أنه قطع سارقاً في أترجة قوّمت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار، وهذا قول مالك رحمه الله تعالى أنه يقطع في ثلاثة دراهم، وذهب قوم إلى أنه لا تقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم، ويُروى ذلك عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، وإليه ذهب سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وقال قوم: لا يقطع إلاّ في خمسة دراهم ويُروى ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وبه قال ابن أبي ليلى، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمر بن حفص بن غياث أخبرني أبي أنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضةَ فتقطع يده، ويسرق الحبلَ فتقطع يده»، وقال الأعمش: كانوا يرون أنه بيض الحديد والحبل، يرون أن منها ما

عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ سئل عن الثمر المعلق فقال: من أصاب بفيه منه من ذي حاجة غير متخذ خبنة فلا شيء عليه أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي. وزاد فيه: ومن خرج بشيء منه فعليه غرامة مثله والعقوبة. ومن سرق منه شيئاً بعد أن يؤويه الجرين فبلغ ثمن المجن فعليه القطع ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثله والعقوبة.

قوله: غير متخذ خبنة، الخبنة: بالخاء المعجمة وبعدها باء موحدة من تحت نون وهو ما يحمله الإنسان في حضنه. وقيل: وما يأخذه من خبنة ثوبه وهو ذيله وأسفله. والجرين: موضع التمر الذي يجفف فيه مثل البيدر للحنطة. وروى مالك في الموطأ، عن أبي حسين المكي أن رسول الله ﷺ قال: لاقطع في ثمر معلق ولا في حريسة الجبل فإذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن. هكذا رواه مالك منقطعاً. وهو رواية من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم فإن هذه الرواية عن أبي حسين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وجده هو عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: ولا في حريسة الجبل. من العلماء من يجعل الحريسة السرقة نفسها. يقال: حرس يحرس حرساً إذا سرق ومنهم من يجعلها المحروسة. ومعنى الحديث: أنه ليس فيما يحرس في الجبل إذا سرق قطع لأنه ليس بحرز. وقيل: حريسة الجبل هي الشاة التي يدركها الليل قبل أن تصل مأواها والمراح بضم الميم هو الموضع الذي تأوي إليه الماشية بالليل. عن جابر أن النبي ﷺ قال: ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس. قطع أخرجه الترمذي والنسائي.

المسألة الرابعة: إذا سرق مالاً له فيه شبهة كالولد يسرق من مال والده والوالد يسرق من مال ابنه أو العبد يسرق من مال سيده أو الشريك يسرق من مال شريكه فلا قطع على أحد من هؤلاء فيه.

المسألة الخامسة: إذا سرق أول مرة قطعت يده اليمنى من الكوع وإذا سرق ثانية قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم واختلفوا فيما إذا سرق مرة ثالثة فذهب أكثرهم إلى أن تقطع يده اليسرى فإن سرق مرة رابعة قطعت رجله اليمنى ثم إذا سرق بعد ذلك يعذَّر ويحبس حتى تظهر توبته. يروى عن هذا عن أبي بكر وهو قول قتادة وبه قال مالك والشافعي لما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «في السارق إن سرق فاقطعوا يده ثم إن سرق فاقطعوا يده ثم

يساوي ثلاثة دراهم، ويحتجّ بهذا الحديث مَن يرى القطع في الشيء القليل، وهو عند الأكثرين محمول على ما قاله الأعمش، لحديث عائشة رضي الله عنها وإذا سرق شيئاً من غير حرز كثمر في حائط لا حارس له أو حيوان في برية لا حافظ له، أو متاع في بيت منقطع عن البيوت لا قطع عليه. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا قطع في ثمر معلّق ولا في حريسة حبل» فإذا آواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن، ورُوِيَ عن ابن جريج عن الزبير عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس على خائن أو منتهب ولا مختلس قطع»، وإذا سرق مالاً له فيه شبهة كالعبد يسرق من مال سيده أو الولد يسرق من مال والده أو الوالد يسرق من مال ولده أو أحد الشريكين يسرق من مال المشترك شيئاً لا قطع عليه، وإذا سرق السارق أول مرّة تقطع يده اليمنى من الكوع، ثم إذا سرق ثانياً تقطع رجله اليسرى من مِفصل القدم، واختلفوا فيما إذا سرق ثالثاً فذهب أكثرهم إلى أنه تُقطع يده اليسرى وإذا سرق رابعاً تُقطع رجله اليمنى، ثم إذا سرق بعده شيئاً يعزر ويحبس حتى تظهر توبته، وهو المروي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو قول قتادة، وبه قال مالك والشافعي لِما رُوِيَ عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في السارق أنه سرق: «فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله، ثم إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله» وذهب قوم إلى أنه إن سرق ثالثاً بعدما قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى لا يقطع، بل يحبس، ورُوِيَ ذلك عن عليّ رضي الله عنه وقال: إني لأستحي أن لا أدع له يداً يستنجي بها ولا رجلاً يمشي بها،

إن سرق فاقطعوا رجله» ذكره البغوي بغير سند وذهب قوم إلى أنه« إن سرق بعد ما قطعت يده ورجله فلا قطع عليه بل يحبس» ويروى عن علي أنه قال: إني أستحي أن لا أدع له يداً يستنجي بها ولا رجلاً يمشي بها. وهذا قول الشعبي والنخعي والأوزاعي وبه قال أحمد وأصحاب الرأي. قوله تعالى:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾﴾

﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ يعني من بعد ما ظلم نفسه بالسرقة ﴿وأصلح﴾ يعني وأصلح العمل في المستقبل ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ يعني فإن الله يغفر له ويتجاوز عنه ﴿إن الله غفور﴾ يعني لمن تاب ﴿رحيم﴾ به.

(فصل)

وهذه التوبة مقبولة فيما بينه وبين الله. فأما القطع، فلا يسقط عنه بالتوبة عند أكثر العلماء لأن الحد جزاء عن الجناية. ولا بد من التوبة بعد القطع وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل. عن أبي أمية المخزومي أن رسول الله ﷺ أتي بلصّ قد اعترف اعترافاً ولم يوجد معه متاع فقال له رسول الله: ﷺ ما أخالك سرقت. فقال: بلى فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يعترف فأمر به فقطع. ثم جيء به فقال له رسول الله ﷺ: استغفر الله وتب إليه. فقال رجل: أستغفر الله وأتوب إليه فقال النبي ﷺ: اللهم تب عليه. أخرجه أبو داود والنسائي بمعناه وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم. وقال الثوري وأصحاب الرأي: لا غرم عليه فلو كان المسروق باقياً عنده يجب عليه أن يرده إلى صاحبه وتقطع يده لأن القطع حق الله والغرم حق الآدمي فلا يمتنع أحدهما بالآخر والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد به جميع الناس وقيل

وهو قول الشعبي والنخعي، وبه قال الأوزاعي وأحمد وأصحاب الرأي. قوله تعالى: ﴿ جزاءً بما كسبَا ﴾، نصبٌ على الحال والقطع، ومثله: ﴿ نكالاً ﴾، أي: عقوبة، ﴿ من الله والله عزيزٌ حكيم ﴾.

﴿ فمَنْ تاب من بعدِ ظُلمه ﴾، أي: سرقته، ﴿ وأصلح ﴾ العمل، ﴿ فإنّ اللَّهَ يتوبُ عليه إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾، هذا فيما بينهم وبين الله تعالى، فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الأكثرين، قال مجاهد: السارق لا توبة له فإذا قطعتِ حصلت التوبة، والصحيح أن القطع للجزاء على الجناية، كما قال: ﴿ جزاءً بما كسبا ﴾، ولا بدّ من التوبة بعده، وتوبته الندم على ما مضى والعزم على تركه في المستقبل، وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم، وقال سفيان الثّوري وأصحاب الرأي: لا غرم عليه، وبالإتفاق إن كان

معناه، ألم تعلم أيها الإنسان فيكون الخطاب لكل فرد من الناس أن الله له ملك السموات والأرض، يعني أن الله مدبر أمره في السموات والأرض ومصرفه وخالق من فيها ومالكه لا يمتنع عليه شيء مما أراده فيهما لأن ذلك كله في ملكه وإليه أمره ﴿**يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء**﴾.

قال ابن عباس: يعذب من يشاء على الصغيرة ويغفر لمن يشاء على الكبيرة وقيل يعذب من يشاء على معصيته وكفره بالقتل والقطع وغير ذلك في الدنيا، ويغفر لمن يشاء بالتوبة عليه فينقذه من الهلكة والعذاب وإنما قدم التعذيب على المغفرة، لأنه في مقابلة قطع السرقة على التوبة. وهذه الآية فاضحة للقدرية والمعتزلة في قولهم بوجوب الرحمة للمطيع والعذاب للعاصي لأن الآية دالة على أن التعذيب والرحمة مفوضان إلى المشيئة والوجوب ينافي ذلك وجواب آخر وهو أنه تعالى أخبر أن له ملك السموات والأرض والمالك له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء وأراد لا اعتراض لأحد عليه في ملكه يؤكد ذلك قوله ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ يعني أنه تعالى قادر على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه وغفران ذنوب من أراد إسعاده وإنقاذه من الهلكة من خلقه، لأن الخلق كلهم عبيده وفي ملكه.

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول**﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ وهو خطاب تشريف وتكريم وتعظيم، وقد خاطبه الله عز وجل بيا أيها النبي في مواضع من كتابه وبيا أيها الرسول في موضعين: هذا أحدهما والآخر قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**﴾. وقوله ﴿**لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾ يعني لا تهتم بموالاتهم الكفار ولا تبالِ بهم فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم ﴿**ومن الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**﴾ يعني المنافقين لأنهم أظهروا الإيمان بالقول وكتموا الكفر وهذه صفة المنافقين ﴿**ومن الذين هادوا**﴾ أي وطائفة من اليهود قال الزجاج وهذا يحتمل وجهين: **أحدهما** أن الكلام تم عند قوله ومن الذين هادوا ثم ابتدأ الكلام بقوله: ﴿**سماعون للكذب**﴾ ويكون تقدير الكلام ﴿**ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين ومن الذين هادوا**﴾ ثم وصف الكل بكونهم سماعين للكذب.

والوجه الثاني: أن الكلام تم عند قوله ﴿**ولم تؤمن قلوبهم**﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿**ومن الذين هادوا سماعون للكذب**﴾ أي ومن ﴿**الذين هادوا قوم سماعون للكذب**﴾ والمعنى أنهم قائلون الكذب، أي يسمعون الكذب من رؤسائهم ويقبلونه منهم والسمع يستعمل والمراد منه القبول، كما تقول: لا تسمع من فلان أي، لا تقبل منه. وقيل: معناه سماعون لأجل أن يكذبوا عليك وذلك أنهم كانوا يسمعون من رسول الله ﷺ ثم يخرجون من عنده ويقولون

المسروق قائماً عنده يستردّه وتقطع يده لأن القطع حق الله تعالى والغرم حق العبد، فلا يمنع أحدهم الآخر، كاسترداد العين.

﴿ ألم تعلمْ أنّ اللّهَ له مُلكُ السمٰواتِ والأرضِ﴾، الخطاب مع النبي ﷺ والمراد به الجميع، وقيل: معناه ألم تعلم أيها الإنسان فيكون خطاباً لكل واحد من الناس، ﴿ يعذبُ مَنْ يشاء ويغفرُ لمنْ يشاء ﴾، قال السدي والكلبي: يعذّب مَن يشاء مَن مات على كفره ويغفر لمَن يشاء مَن تاب من كفره، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعذب مَن يشاء على الصغيرة ويغفر لمَن يشاء على الكبيرة، ﴿ واللّهُ على كلِّ شيء قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الرسول لا يحزنْك الذينَ يُسارعونَ في الكفر ﴾، أي: في موالاة الكفّار فإنهم لم يعجزوا الله، ﴿ مِنَ الذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تُؤمنْ قلوبُهم ﴾، وهم المنافقون، ﴿ ومِنَ الذين هادُوا ﴾، يعني: اليهود، ﴿ سمّاعُون ﴾، أي: قوم سمّاعون، ﴿ للكذب ﴾، أي: قابلون للكذب، كقول المصلّي: سمع الله لمَن حمده، أي: قبل الله، وقيل: معناه: سمّاعون لأجل الكذب، أي يسمعون منك ليكذبوا عليك، وذلك

سمعنا منه كذا وكذا ولم يسمعوا ذلك منه بل كذبوا عليه. وقوله تعالى: ﴿سماعون﴾ يعني بني قريظة يعني أنهم جواسيس وعيون ﴿لقوم آخرين﴾ وهم أهل خيبر ﴿لم يأتوك﴾ يعني أهل خيبر لم يأتوك ولم يحضروا عندك يا محمد.

(ذكر القصة في ذلك)

قال علماء التفسير: إن رجلاً وامرأة من أشراف يهود خيبر زنيا وكانا محصنين وكان حدهما الرجم عندهم في حكم التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فقالوا: إن هذا الرجل بيثرب يعنون محمداً ﷺ وليس في كتابه الرجم ولكن الضرب فأرسلوا إلى إخوانكم بني قريظة فإنهم جيرانه وصلح معه فليسألوه عن ذلك، فبعثوا رهطاً منهم مستخفين وقالوا لهم: اسألوا محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدهما؟ فإن أمركم بالحد فاقبلوا منه، وإن أمركم بالرجم فاحذروه ولا تقبلوا منه وأرسلوا معهم الزانيين. فقدم الرهط حتى نزلوا على بني قريظة والنضير وقالوا لهم: إنكم جيران هذا الرجل ومعه في بلده وقد حدث فينا حدث وذلك أن فلان وفلانة قد زنيا وقد أحصنا فنحب أن تسألوه عن قضائه في ذلك فقال لهم بنو قريظة والنضير إذاً والله يأمركم بما تكرهون ثم انطلق قوم منهم فيهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصّيف وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدهما في كتابك؟ فقال هل ترضون بقضائي؟ قالوا: نعم فنزل جبريل عليه السلام بآية الرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال جبريل للنبي ﷺ: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصفه لهم فقال لهم النبي ﷺ هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا نعم قال فأي رجل هو فيكم؟ فقالوا هو أعلم يهودي بقي على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى عليه السلام في التوراة قال فأرسلوا إليه ففعلوا فلما جاء قال له النبي ﷺ أنت ابن صوريا؟ قال نعم، قال: أنت أعلم يهودي؟ قال كذلك يقولون فقال النبي ﷺ لليهود تجعلونه بيني وبينكم قالوا نعم فقال النبي ﷺ لابن صوريا: «ناشدتك بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى وأخرجكم من مصر وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وبالذي ظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه هل تجدون في كتابكم الرجم على المحصن؟» فقال ابن صوريا: اللهم نعم والذي ذكرتني به لولا خشيت أن ينزل علينا العذاب إن كذبت وغير ما اعترفت لك ولكن كيف هي في

أنهم كانوا يسمعون من الرسول ﷺ ثم يخرجون ويقولون سمعنا منه كذا ولم يسمعوا ذلك منه، ﴿سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك﴾، أي هم جواسيس، يعني: بني قريظة لقوم آخرين هم أهل خيبر، وذلك أن رجلاً وامرأةً من أشراف أهل خيبر زنيا وكانا محصنين، وكان حدّهما الرجم في التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فقالوا: إن هذا الرجل الذي بيثرب ليس في كتابه الرجم ولكنه الضرب، فأرسلوا إلى إخوانكم بني قريظة فإنهم جيرانه وصلح له فليسألوه عن ذلك، فبعثوا رهطاً منهم مستخفين وقالوا لهم: سَلُوا محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدّهما؟ فإن أمركم بالجلد فاقبلوا منه، وإن أمركم بالرجم فاحذروا ولا تقبلوا منه، وأرسلوا معهم الزانيين فقَدِمَ الرهط حتى نزلوا على بني قريظة والنضير فقال لهم: إنكم جيران هذا الرجل ومعه في بلده وقد حدث فينا حدث فلان وفلانة قد فَجَرَا وقد أحصنا فنحبّ أن تسألوا لنا محمداً عن قضائه، فقالت لهم قريظة والنضير: إذاً والله يأمركم بما تكرهون، ثم انطلق قوم منهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وسعيد بن عمرو ومالك بن الصيف وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدُّهما في كتابك؟ فقال: هل ترضون بقضائي؟ قالوا: نعم، فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له، فقال له رسول الله ﷺ: «هل تعرفون شاباً أمرد أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم، قال: فأيّ رجل هو فيكم؟ فقالوا: هو أعلم يهودي بقي على وجه الأرض بما أنزل

كتابكم يا محمد؟ قال: إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليهما الرجم. فقال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله في التوراة على موسى فقال له النبي ﷺ: فما كان أول ما ترخصتم به في أمر الله تعالى؟ فقال ابن صوريا: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه ثم زنى رجل آخر في امرأة من قومه فأراد الملك رجمه فقام قومه دونه وقالوا والله لا ترجمه حتى ترجم فلاناً لابن عم الملك، فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بقار ثم تسود وجوههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما فجعلوا ذلك مكان الرجم. فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته وما كنت لما أثنينا عليك بأهل ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك. فقال لهم ابن صوريا: إنه قد ناشدني بالتوراة ولولا خشيت أن ينزل علينا العذاب ما أخبرته. فأمر النبي ﷺ بهما فرجما عند باب المسجد وقال: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأنزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر قال إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما النبي ﷺ فرجما قال: فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة. وفي رواية أخرى لهما قال: «أتي النبي ﷺ برجل وامرأة من اليهود قد زنيا فقال لليهود ما تصنعون بهما قال نفحم وجوههما ونخزيهما قال فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فجاؤوا بها فقال لرجل ممن يرضون أعور اقرأ فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليها فقال ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم تلوح، فقال: يا محمد إن فيها الرجم ولكنا نتكاتمه بيننا فأمر بهما فرجما فرأيته يحنى» زاد في رواية أخرى: «فرجما قريباً موضع الجنائز قرب المسجد» (م) عن البراء بن عازب قال: «مر على رسول الله ﷺ بيهودي محمم مجلود فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم فقال أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك بحد الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه

الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام في التوراة، قال ﷺ: «أنت ابن صوريا»؟ قال: نعم، قال: «أنت أعلم اليهود»؟ قال: كذلك يزعمون، قال: «أتجعلونه بيني وبينكم»؟ قالوا: نعم، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالله الذي لا إله إلّا هو الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام وأخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي ظلّل عليكم الغمام وأنزل عليكم المنَّ والسلوى، وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه هل تجدون في كتابكم الرجم على مَن أحصن»؟، قال ابن صوريا: نعم والذي ذكرتني به لولا خشية أن تحرقني التوراة إن كذبت أو غيّرت ما اعْترفت لك، ولكن كيف هي في كتابك يا محمد؟ قال: «إذا شهد أربعة رهط عدول أنه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه الرجم»، فقال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله عزّ وجلّ في التوراة على موسى عليه السلام، فقال له النبي ﷺ: «فماذا كان أول ما ترخصتم به أمْرَ الله»؟، قال: كنّا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنا ابن عمّ ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر في أُسوة من الناس فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه، فقالوا: والله لا يرجم حتى يزجم فلان لابن عمّ الملك، فقلنا: تعالوا نجتمع فلنصنعْ شيئاً دون الرجم يكون على الوضيع والشريف، فوضعنا الجلدَ والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم يسود وجههما، ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويُطاف بهما، فجعلوا هذا مكان الرجم، فقالت اليهود لابن صوريا: ما

وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم فأنزل الله: يا أيها الرسول» لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، إلى قوله، إن أوتيم هذا فخذوه. يقول: ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أمركم بالرجم فاحذروه فأنزل الله تبارك وتعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» في الكفار كلها. التحميم هو تسويد الوجه بالحمم وهو الفحم وقوله ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ قال العلماء: هذا السؤال من النبي ﷺ ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم، وإنما هو لإلزامهم بما يعقدونه في كتابهم. ولعله ﷺ كان قد أوحى إليه أن الرجم في التوراة الموجودة في أيديهم لم يغيروه كما غيّروا شيئاً منها أو أخبروه بذلك من أسلم من أهل الكتاب وهو عبد الله بن سلام كما في حديث بن عمر المتفق عليه ولذلك لم يخف عليه ﷺ حين كتموه.

قوله تعالى: ﴿**يحرفون الكلم**﴾، يعني: يغيرون حدود الله التي أوجبها عليهم في التوراة وذلك أنهم بدلوا الرجم بالجلد والتحميم وقال الحسن إنهم يغيرون ما يسمعون من النبي ﷺ بالكذب عليه. وقال ابن جرير الطبري: يحرفون حكم الكلم فحذف ذكر الحكم لمعرفة السامعين به ﴿**من بعد مواضعه**﴾ يعني من بعد أن وضعه الله مواضعه وفرض فروضه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه فإن قلت: قد قال الله عز وجل هنا يحرفون الكلم من بعد مواضعه. وقال في موضع آخر: يحرفون الكلم عن مواضعه فهل من فرق بينهما؟ قلت نعم بينهما فرق وذلك أنّا إذا فسرنا يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويلات الباطلة فيكون معنى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه أنهم يذكرون التأويلات الفاسدة لتلك النصوص وليس فيه بيان أنهم يحرفون تلك اللفظة من الكتاب. وأما قوله يحرفون الكلم من بعد مواضعه ففيه دلالة على أنهم جمعوا بين الأمرين يعني أنهم كانوا يذكرون التأويلات الفاسدة وكانوا يحرفون اللفظة من الكتاب ففي قوله: يحرفون الكلم عن مواضعه إشارة إلى التأويل الباطل وفي قوله من بعد مواضعه إشارة إلى إخراجه من الكتاب بالكلية

أسرع ما أخبرته به، وما كنّا لمّا أثنينا عليك بأهل ولكنّك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك، فقال لهم: إنه قد أنشدني بالتوراة ولولا خشية التوراة أن تهلكني لما أخبرته به، فأمر بهما النبي ﷺ فرُجما عند باب مسجده، وقال: «اللّهمّ إني أول مَن أحيا أمرك إذا أمـاتوه»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الرسولُ لا يحزُنْكَ الذين يُسارعون في الكفر ﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنّ رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها لآية الرجم، فأتوا بالتوارة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله: إرفع يدك، فرفع، يده فإذا فيها آية الرجم، قالوا: أصدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِمَا، فقال عبد الله بن عمر: فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة. وقيل: سبب نزول هذه الآية القصاص، وذلك أنّ بني النضير كان لهم فضل على بني قريظة فقال بنو قريظة: يا محمد إخواننا بنو النضير وأبونا واحد وديننا واحد ونبيّنا واحد، وإذا قتلوا منّا قتيلاً لم يقيّدونا وأعطونا ديته سبعين وسقاً من تمر، وإذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منّا الضعف مائة وأربعين وسقاً من تمر، وإن كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منّا وبالرجل منهم الرجلين منّا، وبالعبد حرّاً منّا، وجراحتنا على التضعيف من جراحاتهم، فاقضِ بيننا وبينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. والأول أصحّ لأن الآية في الرجم. قوله: ﴿ ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب ﴾، قيل: اللام بمعنى إلى، وقيل: هي لام كي، أي يسمعون لكي يكذبوا عليك، واللام في قوله: ﴿ لقوم ﴾ أي: لأجل قوم

وقوله تعالى: ﴿يقولون﴾ يعني اليهود ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾ يعني إن أفتاكم محمد بالجلد والتحميم فاقبلوا منه ﴿وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ يعني وإن لم يفتكم بذلك وأفتاكم بالرجم فاحذروا أن تقبلوه ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ يعني كفره وضلالته ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ يعني فلن تقدر على دفع أمر الله فيك ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ قال ابن عباس معناه أن يخلص نياتهم وقيل معناه لم يرد الله أن يهديهم وفي هذه الآية دلالة على أن الله تعالى لم يرد إسلام الكافر وإنه لم يطهر قلبه من الشك والشرك ولو فعل ذلك لآمن وهذه الآية من أشد الآيات على القدرية ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ يعني للمنافقين واليهود أما خزي المنافقين، فبالفضيحة وهتك ستارهم بإظهار نفاقهم وكفرهم وأما خزي اليهود فبأخذ الجزية والقتل والسبي والإجلاء من أرض الحجاز إلى غيرها ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ يعني الخلود في النار للمنافقين واليهود.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿سماعون للكذب أكّالون للسحت﴾ نزلت في حكام اليهود مثل كعب بن الأشرف ونظرائه كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في كمه ثم يريها إياه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه فيسمع الكذب ويأكل الرشوة وهي السحت وأصل السحت الاستئصال يقال: سحته إذا استأصلته وسميت الرشوة في الحكم سحتاً، لأنها تستأصل دين المرتشي. والسحت كله حرام يحمل عليه شدة الشره وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا تكون له بركة ولا لآخذه مروءة ويكون في حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة ومعلوم أن حالة الرشوة كذلك فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «لعن الراشي والمرتشي في الحكم». أخرجه الترمذي وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص. قال الحسن: إنما ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً أو يبطل عنك حقاً وقال ابن مسعود: الرشوة في كل شيء فمن شفع شفاعة ليرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً فأهدى بها إليه فقبل فهو سحت. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم قال الله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿فإن جاؤوك﴾ يعني اليهود ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ خيّر الله رسوله ﷺ في الحكم بينهم فإن شاء حكم وإن شاء ترك قال الحسن ومجاهد والسدي نزلت في اليهوديين

آخرين لم يأتوك وهم أهل خيبر، ﴿ يُحرِّفون الكَلِمَ ﴾، جمع كلمة، ﴿ مِنْ بَعْدِ مواضعِهِ ﴾، أي: من بعد وضعه مواضعه، وإنما ذكر الكناية ردّاً على لفظ الكَلِم، ﴿ يقولون إنْ أُوتيتُم هذا فخذُوه ﴾، أي: إن أفتاكم محمد ﷺ بالجلد والتحميم فاقبلوا، ﴿ وإنْ لم تُؤتوه فاحْذَرُوا ومَنْ يُرِدِ اللَّهُ فتنتَه ﴾، كفره وضلالته، قال الضحاك: هلاكه، وقال قتادة: عذابه، ﴿ فلَنْ تملك له منَ اللَّهِ شيئاً ﴾، فلن تقدر على دفع أمر الله، ﴿ أولئك الذين لم يردِ اللَّهُ أن يطهِّرَ قلوبَهم ﴾، وفيه ردٌّ على مَن ينكر القدر، ﴿ لهم في الدنيا خزيٌ ﴾ أي: للمنافقين واليهود، فخزي المنافقين الفضيحة وهتك الستر بإظهار نفاقهم، وخزيُ اليهود الجزية أو القتل أو السبي أو النفي، ورؤيتهم من محمد ﷺ وأصحابه فيهم ما يكرهون، ﴿ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ﴾، الخلود في النار.

﴿ سمّاعون للكذب أكّالون للسحت ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة والكسائي « للسُّحُتِ » بضمّ الحاء، والآخرون بسكونها، وهو الحرام، وأصله الهلاك والشدّة، قال الله تعالى: ﴿ فيُسحتكم بعذاب ﴾ [طه: ٦١]، نزلت في حكم حكّام اليهود كعب بن الأشرف وأمثاله، كانوا يرتشون ويقضون لمَن رشاهم، قال

اللذين زنيا. وقال قتادة: نزلت في رجلين من قريظة والنضير قتل أحدهما الآخر. قال ابن زيد: كان حيي بن أخطب قد جعل للنضير ديتين وللقرظي دية واحدة لأنه كان من بني النضير فقالت قريظة: لا نرضى بحكم حيي ونتحاكم إلى محمد فأنزل الله هذه الآية يخير نبيه محمداً ﷺ في الحكم بينهم.

(فصل)

اختلف علماء التفسير في حكم هذه الآية على قولين: أحدهما أنها منسوخة وذلك أن أهل الكتاب كانوا إذا ترافعوا إلى النبي ﷺ كان مخيراً فإن شاء حكم بينهم وإن شاء عرض عنهم ثم نسخ ذلك بقوله «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» فلزمه الحكم بينهم وزال التخير هذا القول مروي عن ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والسدي. والقول الثاني: إنها محكمة وحكام المسلمين بالخيار إذا ترافعوا إليهم فإن شاؤوا حكموا بينهم وإن شاؤوا أعرضوا عنهم وهذا القول مروي عن الحسن والشعبي والنخعي والزهري وبه، قال أحمد: لأنه لا منافاة بين الآيتين.

أما قوله فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ففيه التخيير بين الحكم والإعراض. وأما قوله «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» ففيه كيفية الحكم إذا حكم بينهم قال الإمام فخر الدين الرازي: ومذهب الشافعي، إنه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليه لأن إمضاء حكم الإسلام صغاراً لهم. فأما المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهد إلى مدة فليس بواجب على الحاكم أن يحكم بينهم بل يتخير في ذلك وهو التخيير المذكور في هذه الآية مخصوص بالمعاهدين وأما إذا تحاكم مسلم وذمي وجب على الحاكم بينهم لا يختلف القول فيه لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط**﴾ يعني بالعدل والاحتياط ﴿**إن الله يحب المقسطين**﴾ يعني العادلين فيما ولوا وحكموا فيه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله

الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاه أحد برشوة جعلها في كمّه فيريها إيّاه ويتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة، وعنه أيضاً قال: إنما ذلك في الحكم إذا رشوته ليحقّ لك باطلاً أو يبطل عنك حقك، فأما أن يعطي الرجل الوالي يخاف ظلمه ليدرأ به عن نفسه فلا بأس، فالسحت هو الرشوة في الحكم على قول الحسن ومقاتل وقتادة والضحاك، وقال ابن مسعود: هو الرشوة في كل شيء، قال ابن مسعود: مَن يشفع شفاعة ليردّ بها حقاً أو يدفع بها ظلماً فأُهدي له فقبل فهو سحت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن ما كنّا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم، فقال: الأخذ على الحكم كفر، قال الله تعالى: ﴿ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة: ٤٤]، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنا ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لعنةُ اللّهِ على الراشي والمرتشي». والسحت كل كسب لا يحلّ. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فإن جاءُوك فاحكم بينهم أو أعرضْ عنهم وإن تُعرضْ عنهم فلنْ يضرّوك شيئاً ﴾، خيّر الله تعالى رسولَه ﷺ في الحكم بينهم إن شاء حكم وإن شاء ترك، واختلفوا في حكم الآية اليوم هل للحاكم الخيار في الحكم بين أهل الذمّة إذا تحاكم إلينا؟ فقال أكثر أهل العلم: هو حكم ثابت وليس في سورة المائدة حكم منسوخ، وحكّام المسلمين بالخيار في الحكم بين أهل الكتاب إن شاؤوا حكموا وإن شاؤوا لم يحكموا، وإن حكموا حكموا بحكم الإسلام، وهو قول النخعي والشعبي وعطاء وقتادة، وقال قوم: يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بينهم. والآية منسوخة نسخها قوله تعالى: ﴿ وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ [المائدة: ٤٩]، وهو قول مجاهد وعكرمة،

على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». هذا من أحاديث الصفات فمن العلماء من قال فيه وفي أمثاله: نؤمن بها ولا نتكلم في تأويلها ولا نعرف معناها لكن نعتقد أن ظاهرها غير مراد وأن لها معنى يليق بالله. هذا مذهب جماهير السلف وطوائف من المتكلمين. ومنهم من قال: إنها تؤول بتأويل يليق بها وهذا قول أكثر المتكلمين. فعلى هذا قال القاضي عياض: المراد بكونهم عن اليمين الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة والعرب تنسب الفعل المحمود والإحسان إلى اليمين وضده إلى اليسار قالوا واليمين مأخوذة من اليمن وقوله وكلتا يديه يمين مبني على أنه ليس المراد باليمين الجارحة تعالى الله عن ذلك فإنها مستحيلة في حقه تعالى وقوله ﴿وما ولوا﴾ بفتح الواو وضم اللام المخففة هكذا ذكره الشيخ محيي الدين في شرح مسلم. قال: ومعناه وما كانت له عليه ولاية وهذا الفضل لمن عدل فيما تقلده من الأحكام والله أعلم.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة﴾ هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في تحكيم اليهود إياه مع علمهم بما في التوراة تركهم قبول ذلك الحكم مع اعتقادهم صحته وعدولهم إلى حكم من يجحدون نبوته طلباً للرخصة لا جرم إن الله تعالى أظهر جهلهم وعنادهم لأنهم حكموا النبي ﷺ وسلم في أمر الزانيين ثم أعرضوا عن حكمه في الآية لتقريع اليهود والمعنى وكيف يجعلونك حكماً بينهم ويرضون بحكمك وعندهم التوراة ﴿فيها حكم الله﴾ يعني الرجم الذي تحاكموا إليك من أجله ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ يعني ثم يعرضون عن حكمك الموافق لما في كتابهم ﴿وما أولئك﴾ يعني اليهود ﴿بالمؤمنين﴾ يعني بكتابهم كما يزعمون. وقيل: معناه وما أولئك بالمصدقين.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ سبب نزول هذه الآية استفتاء اليهود رسول الله ﷺ في أمر الزانيين وقد سبق بيانه والهدى هو البيان لأن التوراة مبينة صحة نبوة محمد ﷺ ومبينة ما تحاكموا فيه والنور هو

ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس، وقال: لم ينسخ من المائدة إلّا آيتان، قوله تعالى: ﴿ لا تُحلّوا شعائر الله ﴾ [المائدة: ٢]، نسخها قوله تعالى: ﴿ اقتلوا المشركين ﴾ [التوبة: ٥] وقوله: ﴿ فإن جاءُوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾، نسخها قوله تعالى: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ [المائدة: ٤٩] فأما إذا تحاكم إلينا مسلم وذمّي فيجب علينا الحكم بينهما لا يختلف القول فيه، لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمّة. قوله: ﴿ وإنْ حكمتَ فاحكمْ بينهم بالقسط ﴾، أي: بالعدل، ﴿ إنّ اللّهَ يحب المقسطين ﴾ أي: العادلين، رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور».

قوله تعالى: ﴿ وكيف يُحكمونك وعندهم التوراة ﴾، هذا تعجيب للنبي ﷺ، وفيه اختصار، أي: وكيف يجعلونك حكماً بينهم فيرضون بحكمك وعندهم التوراة؟ ﴿ فيها حكم الله ﴾، وهو الرجم، ﴿ ثم يتولّون من بعد ذلك وما أُولئك بالمؤمنين ﴾، أي بمصدّقين لك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النبيّون الذين أسلموا ﴾، أي: أسلموا وانقادوا

الكاشف للشبهات الموضح للمشكلات والتوراة كذلك. وقيل: الفرق بين الهدى والنور أن الهدى محمول على بيان الأحكام والشرائع والنور محمول على بيان أحكام التوحيد والنبوات والمعاد ﴿**يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا**﴾ أراد بالنبيين الذين بعثوا بعد موسى عليه السلام وذلك أن الله بعث في بني إسرائيل ألوفاً من الأنبياء وليس معهم كتاب إنما بعثوا بإقامة التوراة وأحكامها ومعنى أسلموا: أي انقادوا لأمر الله تعالى والعمل بكتابه وهذا على سبيل المدح لهم وفيه تعريض باليهود لأنهم بعدوا عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء عليهم السلام وقال الحسن والزهري وعكرمة وقتادة والسدي: يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو محمد ﷺ وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً وتشريفاً له ﷺ لأن النبي ﷺ حكم على اليهود بالرجم وكان هذا الحكم في التوراة. قال ابن الأنباري هذا رد على اليهود والنصارى لأن الأنبياء عليهم السلام ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لأمره ونهيه. للذين هادوا يعني لليهود يعني يحكم بالتوراة لهم وفيما بينهم ويحملهم على أحكامها كما فعل رسول الله ﷺ من حملهم على حكم الرجم كما هو في التوراة ولم يوافقهم على ما أرادوه من الجلد وقال الزجاج وجائز أن يكون المعنى على التقديم والتأخير على معنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴿**والربانيون والأحبار**﴾ أما الربانيون فتقدم تفسيره في سورة آل عمران وأما الأحبار فقال ابن عباس: هم الفقهاء. وقيل: هم العلماء الأحبار واحده حبر بفتح الحاء وكسرها لغتان. وقال الفراء: إنما هو حبر بكسر الحاء وإنما سمي به لمكان الحبر الذي يكتب به وذلك لأنه صاحب كتاب. وقال أبو عبيد: إنما هو حَبر بفتح الحاء والحبر العالم لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس وأفعاله الحسنة التي يقتدى بها وجمعه أحبار ومنه كعب الأحبار. وقيل: الحبر الأثر المستحسن ومنه الحديث: يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسبره أي جماله وبهاؤه. وإنما سمي العالم حبراً لما عليه من أثر جمال العلم وهل فرق بين الربانيين والأحبار أم لا؟ فيه خلاف، فقيل: لا فرق. والربانيون، والأحبار بمعنى واحد وهم: العلماء والفقهاء. وقيل: الربانيون أعلى درجة من الأحبار لأن الله تعالى قدمهم في الذكر على الأحبار. وقيل: الربانيون هم الولاة. والحكام والأحبار هم العلماء. وقيل: الربانيون علماء النصارى، والأحبار: علماء اليهود. ومعنى الآية: يحكم بأحكام التوراة النبيون وكذلك يحكم بها الربانيون والأحبار. وقوله تعالى: ﴿**بما استحفظوا من كتاب الله**﴾ يعني بما استودعوا من كتاب الله. وقيل: هو أن يحفظوا كتاب الله فلا ينسوه وقيل هو أن يحفظوه فلا يضيعوا أحكامه وشرائعه. وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين معاً وذلك بأن يحفظوا كتاب الله في صدورهم ويدرسونه بألسنتهم لئلا ينسوه وأن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه فإذا فعلوا ذلك كانوا قائمين بحفظه ﴿**وكانوا عليه شهداء**﴾ يعني: أن هؤلاء النبيين والربانيين والأحبار كانوا شهداء على كتاب الله تعالى

لأمر الله تعالى، كما أخبر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إذْ قال له ربّه أسلمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمين ﴾ [البقرة: ١٣١]، وكما قال: ﴿ وله أسلم مَنْ في السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وأراد بهم النبيّين الذين بعثوا من بعد موسى عليه السلام ليحكموا بما في التوراة، وقد أسلموا لحكم التوراة وحكموا بها، فإن من النبيّين مَن لم يؤمر بحكم التوراة منهم عيسى عليه السلام، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال الحسن والسدي: أراد به محمداً ﷺ حكم على اليهود بالرجم، ذكر بلفظ الجمع كما قال: ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ للذين هادُوا ﴾، قيل: فيه تقديم وتأخير تقديره فيها هدىً ونور للذين هادوا ثم قال يحكم بها النبيّون الذين أسلموا والربانيّون، وقيل: هو على موضعه، ومعناه: يحكم بها النبيّون الذين أسلموا على الذين هادوا، كما قال: ﴿ وإنْ أسأتُمْ فلها ﴾ [الإسراء: ٧]، أي: فعليها، وكما قال: ﴿ أولئك لهم اللعنةُ ﴾ [الرعد: ٢٥]، وقيل: فيه حذف كأنه قال: للذين هادوا وعلى الذين

ويعلمون أنه حق وصدق وأنه من عند الله ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ هذا خطاب لحكام اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ يعني لا تخافوا أحداً من الناس في إظهار صفة محمد ﷺ والعمل بالرجم واخشون يعني في كتمان ذلك ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ يعني ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ثمناً قليلاً يعني الرشوة في الأحكام والجاه عند الناس ورضاهم والمعنى كما نهيتكم عن تغير الأحكام لأجل خوف الناس كذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لأجل الطمع في المال والجاه وأخذ الرشوة فإن كل متاع الدنيا قليل ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ بمعنى: أن اليهود لما أنكروا حكم الله تعالى المنصوص عليه في التوراة وقالوا إنه غير واجب عليهم، فهم كافرون على الإطلاق بموسى والتوراة وبمحمد ﷺ والقرآن واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآيات الثلاث وهي قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ فقال جماعة من المفسرين: الآيات الثلاث نزلت في الكفار ومن غير حكم الله من اليهود، لأن المسلم وإن ارتكب كبيرة، لا يقال إنه كافر وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك. ويدل على صحة هذا القول ما روي عن البراء بن عازب قال أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ في الكفار كلها أخرجه مسلم وعن ابن عباس قال ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ إلى قوله هم الفاسقون هذه الآيات الثلاث في اليهود خاصة قريظة والنضير أخرجه أبو داود. وقال مجاهد: في هذه الآيات الثلاث من ترك الحكم بما أنزل الله رداً لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق. وقال عكرمة ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق وهذا قول ابن عباس أيضاً واختار الزجاج لأنه قال: من زعم أنّ حكماً من أحكام الله تعالى التي أتانا بها الأنبياء باطل فهو كافر. وقال طاوس: قلت لابن عباس أكافر من لم يحكم بما أنزل الله؟ فقال: به كفر وليس بكفر ينقل عن الملة كمن كفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ونحو هذا روي عن عطاء. قال: هو كفر دون الكفر. وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة فكل من ارتشى وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق وإليه ذهب السدي لأنه ظاهر الخطاب. وقيل: هذا فيمن علم

هادوا فحذف أحدهما اختصاراً. ﴿ والرَّبَّانيُّون والأحبار ﴾، يعني العلماء، واحدها حبر، وحبر بفتح الحاء وكسرها، والكسر أفصح، وهو العالم المحكم في الشيء، قال الكسائي وأبو عبيدة: هو من الحبر الذي يكتب به وقال قطرب هو من الحبر الذي هو بمعنى الجمال بفتح الحاء وكسرها، وفي الحديث «يخرجُ مِنَ النّار رجلٌ قد ذهبَ حِبرُه وسِبرُه»، أي: حُسنه وهيأته، ومنه التحبير وهو التحسين، فسمّى العالم حبراً لما عليه من جمال العلم وبهائه، وقيل: الربانيون ههنا من النصارى، والأحبار من اليهود، قوله عزّ وجلّ: ﴿ بما استحفظُوا منْ كتابِ الله ﴾، أي: استُودعوا من كتاب الله، ﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾، أنه كذلك، ﴿ فلا تخشوا الناسَ واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الكافرون ﴾، قال قتادة والضحاك: نزلت هذه الآيات الثلاث في اليهود دون مَن أساء من هذه الأمة. رُوِيَ عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿ ومَنْ لم يحكم بما أنزل اللّهُ فأُولئك هم الكافرون ﴾ والظالمون والفاسقون كلها في الكافرين، وقيل: هي على الناس كلهم، وقال ابن عباس وطاوس: ليس بكفر ينقل عن الملّة، بل إذا فعله فهو به كافر، وليس كمَن كفر بالله واليوم الآخر، قال عطاء: هو كفرٌ دُونَ كفرٍ، وظُلمٌ دون ظلم، وفسق دون فسق، وقال عكرمة معناه: ومَن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر، ومَن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. وسُئِلَ عبد العزيز بن يحيىٰ الكناني عن هذه الآيات، فقال: إنها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه، وكلّ مَن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، فأمّا مَن حكم بما

نص حكم الله ثم رده عياناً عمداً وحكم بغيره وأما من خفي عليه النص أو أخطأ في التأويل فلا يدخل في هذا الوعيد والله أعلم بمراده.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس**﴾ يعني: وفرضنا على بني إسرائيل في التوراة أن نفس القاتل بنفس المقتول وفاقاً فيقتل به وذلك أن الله تعالى حكم في التوراة أن على الزاني المحصن الرجم وأخبر أن اليهود بدّلوه وغيروه وأخبر أيضاً أن في التوراة أن النفس بالنفس وأن هؤلاء اليهود غيروا هذا الحكم وبدلوه ففضلوا بني النضير على بني قريظة فكان بنو النضير إذا قتلوا من بني قريظة أدوا إليهم نصف الدية وإذا قتل بنو قريظة من بني النضير أدوا إليهم الدية كاملة فغيروا حكم الله الذي أنزل في التوراة.

قال ابن عباس: أخبر الله بحكمه في التوراة وهو أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص. قال: فما لهم يخالفون فيقتلون النفسين بالنفس ويفقأون العينين بالعين. ومعنى الآية: أن قاتل النفس يقتل بها إذا تكافأ الدمان ومذهب الشافعي: أنه لا يقتل مسلم بكافر لما صح من حديث علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: «لا يقتل مسلم بكافر» الحديث أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى: ﴿**والعين بالعين**﴾ يعني تفقأ بها ﴿**والأنف بالأنف**﴾ يعني يجدع به ﴿**والأذن بالأذن**﴾ يعني تقطع بها ﴿**والسن بالسن**﴾ يعني تقلع بها وأما سائر الأطراف والأعضاء فيجري فيها القصاص كذلك، وقوله تعالى: ﴿**والجروح قصاص**﴾ يعني فيما يمكن أن يقتص منه وهذا تعميم بعد التخصيص، لأن الله تعالى ذكر النفس والعين والأنف والأذن فخص هذه الأربعة بالذكر ثم قال تعالى: والجروح قصاص، على سبيل العموم فيما يمكن أن يقتص منه كاليد والرجل والذكر والانثيين وغيرها وأما مالا يمكن القصاص فيه كرضّ في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن يخاف منها التلف فلا قصاص في ذلك وفيه الأرش والحكومة. واعلم أن هذه الآية دالة على أن هذا الحكم كان شرعاً في التوراة فمن قال شرع من قبلنا يلزمنا إلا ما نسخ منه بالتفصيل قال هذه الآية حجة في شرعنا ومن أنكره قال إنها ليست بحجة علينا وأصل هذه المسألة أن النبي ﷺ وأمته بعد البعثة هل هم متعبدون بشرع من تقدم من الأنبياء عليهم السلام؟ فنقل عن أصحاب أبي حنيفة وبعض

أنزل الله من التوحيد وترك الشرك، ثم لم يحكم ببعض ما أنزل الله من الشرائع لم يستوجب حكم هذه الآيات. وقال العلماء: هذا إذا ردّ نصَّ حكمِ الله عياناً عمداً، فأمّا مَن خفي عليه أو أخطأ في تأويل فلا.

قوله تعالى: ﴿ **وكتبنا عليهم فيها** ﴾، أي: أوجبنا على بني إسرائيل في التوراة، ﴿ **أنّ النفسَ بالنفس** ﴾، يعني: من نفس القاتل بنفس المقتول وفاءً يقتل به، ﴿**والعينَ بالعينِ**﴾، تُفقأ بها، ﴿**والأنفَ بالأنف**﴾، يُجدع به، ﴿ **والأذنَ بالأذن** ﴾، تُقطع بها، قال ابن عباس: أخبر الله تعالى بحكمه في التوراة وهو: أن النفس بالنفس واحدة بواحدة إلى آخرها، فما بالهم يخالفون فيقتلون بالنفس النفسين، ويفقأون بالعين العينين، وخفّف نافع الأُذن في جميع القرآن ونقلها الآخرون، ﴿ **والسنَّ بالسنّ** ﴾، تقلع بها وسائر الجوارح قياس عليها في القصاص، ﴿ **والجروحُ قصاص** ﴾، فهذا تعميم بعد تخصيص، لأنه ذكر العين والأنف والأُذن والسن، ثم قال: ﴿ **والجروح قصاص**﴾، أي فيما يمكن الاقتصاص منه كاليد والرجل واللسان ونحوها، وأمّا ما لا يمكن الاقتصاص منه من كسر

أصحاب الشافعي وعن أحمد في أحد الروايتين عنه أنه كان متعبداً بما صح من شرائع من قبله بطريق الوحي إليه لا من جهة كتبهم المبدلة ونقل أربابها واختار ابن الحاجب من المتأخرين هذا المذهب وهو أنه ﷺ كان بعد البعثة متعبداً بشرع من قبله فيما لم ينسخ من الأحكام الباقية قبل شريعته لكنه لم يعتبر فيه قيد الوحي وهو الحق وإلا لم يبق للنزاع معنى إذ لا ينكر أحد كون النبي ﷺ متعبداً بعد البعثة بما أوحى إليه سواء كان من شريعة من قبله أم لا وذهبت الأشاعرة والمعتزلة إلى المنع من ذلك وهو اختيار الآمدي من المتأخرين واحتج الأولون لصحة مذهبهم بأن الإجماع منعقد على صحة الاستدلال بقوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ الآية مع أنه من شريعة من تقدم لأنه مذكور في التوراة. ومكتوب على بني إسرائيل: ولولا أنا متعبدون بشريعة من قبلنا لما صح هذا الاستدلال، وقوله تعالى: ﴿فمن تصدق به﴾ يعني بالقصاص فلم يقتص من الجاني ﴿فهو كفارة له﴾ في هاء له قولان: أحدهما أن الهاء في له كناية عن المجروح وولي المقتول وذلك أن المجروح أو ولي المقتول إذا تصدق بالقصاص كان ذلك كفارة لذنوبه وهذا قول ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص والحسن ويدل عليه ما روي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل يصاب بشيء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة» أخرجه الترمذي. وعن أنس قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو أخرجه أبو داود والنسائي».

والقول الثاني: أن الضمير في قوله له يعود إلى الجارح والقاتل يعني أن المجني عليه إذا عفا عن الجاني كان ذلك العفو كفارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل كما أن القصاص كفارة له فأما أجر العافي، فعلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾: يعني لأنفسهم حيث لم يحكموا بما أنزل الله عز وجل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

عظم أو جرح لحم كالجائفة ونحوها فلا قصاص فيه، لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته، وقرأ الكسائي «والعين» وما بعدها بالرفع، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر وأبو عمرو «والجروح» بالرفع فقط وقرأ الآخرون كلها بالنصب كالنفس. قوله تعالى: ﴿ فمَن تصدّق به ﴾، أي بالقصاص ﴿ فهو كفّارة له ﴾، قيل: الهاءِ في له كناية عن المجروح ووليّ القتيل، أي: كفّارة للمصدّق وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص والحسن والشعبي وقتادة، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أنا عبد الله الحسين بن محمد الدينوري أنا عمر بن الخطاب أنا عبد الله بن الفضل أخبرنا أبو خيثمة أنا جرير عن مغيرة عن الشعبي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تصدّق من جسدِهِ بشيءٍ كفَّرَ اللَّهُ عنه بقدره من ذنوبه» وقال جماعة: هي كناية عن الجارح والقاتل، يعني إذا عفا المُجنِي عليه من الجاني فعفوه كفّارة لذنب الجاني لا يُؤاخذ به في الآخرة، كما أن القصاص كفّارة له، فأما أجر العافي فعلى الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿ فمَن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ [الشورى: ٤٠]، رُويَ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول إبراهيم ومجاهد وزيد بن أسلم، ﴿ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾.

ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

قوله عز وجل: ﴿**وقفينا على آثارهم**﴾ يعني وعقبنا على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿**بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة**﴾ يعني أن عيسى عليه السلام كان مصدقاً بأن التوراة منزلة من عند الله عزّ وجل وكان العمل بها واجباً قبل ورود النسخ عليها فإن عيسى عليه السلام نسخ بعض أحكام التوراة وخالفها ﴿**وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور**﴾ يعني فيه هدى من الجهالة وضياء من عمى البصيرة﴿**ومصدقاً لما بين يديه من التوراة**﴾ هذا ليس بتكرار للأول لأن في الأول الإخبار بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة. وفي الثاني: الإخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة، فظهر الفرق بين اللفظين وأنه ليس بتكرار ﴿**وهدى وموعظة للمتقين**﴾ إنما قال: وهدى مرة أخرى لأن الإنجيل يتضمن البشارة بمحمد ﷺ فيكون سبباً لاهتداء الناس إلى نبوة محمد ﷺ. وأما كون الإنجيل موعظة، فلما فيه من المواعظ البليغة والزواجر والأمثال وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ.

قوله تعالى: ﴿**وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه**﴾ قال أهل المعاني: قوله وليحكم يحتمل وجهين: **أحدهما** أن يكون المعنى وقلنا ليحكم أهل الإنجيل، فيكون هذا إخباراً عما فرض عليهم في وقت إنزاله عليهم من الحكم بما تضمنه الإنجيل ثم حذف القول لأن ما قبله من قوله وكتبنا وقفينا يدل عليه وحذف القول كثير.

والوجه الثاني: أن يكون قوله وليحكم ابتداء وفيه أمر للنصارى بالحكم بما في كتابهم وهو الإنجيل.

فإن قلت فعلى هذا الوجه كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن قلت: إن المراد بهذا الحكم الإيمان بمحمد ﷺ لأن ذكره في الإنجيل ووجوب التصديق بنبوته موجود فإذا آمنوا بمحمد ﷺ فقد حكموا بما في الإنجيل.

وقوله ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ يعني: فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب**﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني وأنزلنا إليك يا محمد القرآن ﴿**بالحق**﴾ يعني

﴿ وقفَّينا على آثارهم ﴾، أي: على آثار النبيِّين الذين أسلموا، **﴿ بعيسى ابن مريم مصدِّقاً لِمَا بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه ﴾**، أي: في الإنجيل، **﴿ هدىً ونورٌ ومصدِّقاً ﴾**، يعني الإنجيل، **﴿ لِما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظةً للمتَّقين ﴾**.

﴿ ولْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾، قرأ الأعمش وحمزة «وليحكم» بكسر اللام ونصب الميم، أي: لكي يحكم، وقرأ الآخرون بسكون اللام وجزم الميم على الأمر، قال مقاتل بن حيان: **أمر الله الربَّانيين** والأحبار أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة، وأمر القسيسين والرهبان أن يحكموا بما في الإنجيل، فكفروا وقالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، **﴿ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾**، الخارجون عن أمر الله عزّ وجل.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وأنزلنا إليك ﴾، يا محمد **﴿ الكتاب ﴾**، القرآن، **﴿ بالحقّ مصدِّقاً لِما بين يديه من الكتاب ﴾**، أي: من الكتب المنزلة من قبل، **﴿ ومُهيمناً عليه ﴾**، روى الوالي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي

بالصدق الذي لا شك فيه أنه من عند الله ﴿**مصدقاً لما بين يديه من الكتاب**﴾ يعني أن يصدق جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ﴿**ومهيمناً عليه**﴾ قال ابن عباس يعني شاهداً على الكتب التي قبله ومنه قول حسان:

إن الكتـــــاب مهيمـــــن لنبينـــــا والحـــق يعـــرفـــه ذوو الألبـــاب

يريد أنه شاهد ومصدق لنبينا ﷺ وإنما كان القرآن مهيمناً على الكتب التي قبله لأنه الكتاب الذي لا ينسخ ولا يغير ولا يبدل. وإذا كان القرآن كانت شهادته على التوراة والإنجيل والزبور وجميع الكتب المنزلة حقاً وصدقاً. وقيل: المهيمن الأمين. وإنما كان القرآن أميناً على الكتب التي قبله فيما أخبر أهل الكتب عن كتبهم فإن قالوا ذلك في القرآن فقد صدقوا وإلا فلا ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله**﴾ يعني: إذا ترافع أهل الكتاب إليك يا محمد فاحكم بينهم بالقرآن الذي أنزل الله إليك ﴿**ولا تتبع أهواءهم**﴾ يعني: ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود في الحكم وقال ابن عباس لا تأخذ بأهوائهم في جلد المحصن ﴿**عما جاءك من الحق**﴾ يعني ولا تنحرف عن الحق الذي جاءك من عند الله متبعاً أهواءهم، وقوله: ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق وإن كان خطاباً للنبي ﷺ لكن المراد به غيره لأنه ﷺ لم يتبع أهواءهم قط.

وقوله تعالى: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ الخطاب في قوله منكم للأمم الثلاثة أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين بدليل أن الله عز وجل قال قبل هذه ﴿**إنما أنزلنا التوراة فيها هدى ونور**﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم**﴾ ثم قال ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب**﴾ ثم جمع فقال ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ والشرعة: الشريعة. يعني لكل أمة شريعة فللتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة والدين واحد وهو التوحيد. وأصل الشريعة من الشرع وهو البيان والإظهار فمعنى شرع بيَّن وأوضح. وقيل: هو من الشروع في الشيء. والشريعة في كلام العرب، المشرعة التي يشرعها الناس فيشربون ويسقون منها. وقيل: الشريعة الطريقة ثم استعير ذلك للطريقة الإلهية المؤدية إلى الدين والمنهاج الطريق الواضح وقال بعضهم الشريعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد والتكرير للتأكيد والمراد بهما: الدين وقال آخرون: بينهما فرق لطيف وهو أن الشريعة هي التي أمر الله بها عباده. والمنهاج: الطريق الواضح المؤدي إلى الشريعة.

قال ابن عباس: في قوله شرعة ومنهاجاً سنة وسبيلاً. وقال قتادة: سبيلاً وسنة فالسنن مختلفة للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة يحل الله عز وجل فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه والدين الذي لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم السلام وقال علي بن أبي طالب: الإيمان منذ بعث آدم عليه السلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله ولكل قوم شريعة ومنهاج. قال العلماء: وردت آيات دالة على عدم التباين في طريقة الأنبياء والرسل منها قوله: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ ووردت آيات دالة على حصول التباين بينهم منها هذه الآية وهي قوله ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾

شاهداً عليه، وهو قول مجاهد وقتادة والسدي والكسائي، قال حسان: إن الكتاب مهيمن لنبيِّنا والحق يعرفه ذوو الألباب، يريد شاهداً ومصدِّقاً، وقال عكرمة: دالاًّ، وقال سعيد بن جبير وأبو عبيدة: مؤتمناً عليه، وقال الحسن: أميناً، وقيل: أصله مؤيمن مفيعل من أمين، كما قالوا: مُبيطر من البيطار، فقلبت الهمزة هاء كما قالوا: أرقت الماء وهرقته، وإيهات وهيهات، ونحوها. ومعنى أمانة القرآن ما قال ابن جريج: القرآن أمين على ما قبله من الكتب، فما أخبر أهل الكتاب عن كتابهم فإن كان في القرآن فصدقوا وإلاّ فكذبوا، وقال سعيد بن المسيب والضحّاك قاضياً، وقال الخليل: رقيباً وحافظاً، والمعاني متقاربة، ومعنى الكل: أن الكل كتاب يشهد بصدق القرآن فهو كتاب الله تعالى وإلاّ فلا. ﴿ **فاحكم** ﴾، يا محمد، ﴿ **بينهم** ﴾، بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك، ﴿ **بما أنزل الله** ﴾

وطريق الجمع بين هذه الآيات أن كل آية دلت على عدم التباين فهي دالة على أصول الدين من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ذلك جاءت به الرسل من عند الله ولم يختلفوا فيه.

وأما الآيات الدالة على حصول التباين بينهم، فمحمولة على الفروع، وما يتعلق بظواهر العبادات فجائز أن يتعبد الله عباده في كل وقت بما يشاء فهذه طريق الجمع بين هذه الآيات والله أعلم بأسرار كتابه واحتج بهذه من قال إن شرع من قبلنا لا يلزمنا لأن قوله لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً يدل على أن كل رسول جاء بشريعة خاصة فلا يلزم أمة رسول الاقتداء بشريعة رسول آخر ثم قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ يعني جماعة متفقة على شريعة واحدة ودين واحد لا اختلاف فيه ﴿ولكن ليبلوكم﴾ يعني ولكن أراد أن يختبركم ﴿فيما آتاكم﴾ يعني من الشرائع المختلفة هل تعلمون بها أم لا؟ فيتبين بذلك المطيع من العاصي والموافق من المخالف ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ هذا خطاب لأمة محمد ﷺ يعني فبادروا يا أمة محمد بالأعمال الصالحات التي تقربكم إلى الله تعالى ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ يعني المطيع والعاصي والموافق والمخالف ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ يعني: فيخبركم في الآخرة بما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين والدنيا. والمعنى: فيخبركم في الآخرة بما لا تشكون معه فيفصل بين المحق والمبطل والطائع والعاصي بالثواب والعقاب.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله﴾ قال ابن عباس: إن كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم وأنّا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود ولم يخالفونا وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فاقض لنا عليهم نؤمن بك ونصدقك فأبى رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ يعني احكم بينهم يا محمد بالحكم الذي أنزله الله في كتابه ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ يعني فيما أمروك به.

قال العلماء: ليس في هذه الآية تكرار لما تقدم، وإنما أنزلت في حكمين مختلفين. أما الآية الأولى: فنزلت في شأن رجم المحصن وأن اليهود طلبوا منه أن يجلده وهذه الآية نزلت في شأن الدماء والديات حين تحاكموا إليه في

تعالى بالقرآن، ﴿ ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق ﴾، أي لا تعرض عمّا جاءك من الحق ولا تتبع أهواءهم، ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شُرعةً ومنهاجاً ﴾، قال ابن عباس والحسن ومجاهد: أي سبيلاً وسُنّةً، فالشرعة والمنهاج الطريق الواضح، وكلّ ما شرعت فيه فهو شريعة وشرعة، ومنه شرائع الإسلام لشروع أهلها فيها، وأراد بهذا أن الشرائع مختلفة، ولكل أهل ملّة شريعة، قال قتادة: الخطاب للأمم الثلاث أُمة موسى وأُمة عيسى وأُمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين، فالتوراة شريعة والإنجيل شريعة والفرقان شريعة، والدين واحد وهو التوحيد. ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ﴾، أي: على ملّة واحدة، ﴿ ولكنْ ليبلوكم ﴾، ليختبركم، ﴿ فيما آتاكم ﴾، من الكتب وبيّن لكم من الشرائع فيبيّن المطيع من العاصي والموافق من المخالف، ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾، فبادروا إلى الأعمال الصالحة، ﴿ إلى اللهِ مَرْجِعُكم جميعاً فيُنبّئكمْ بما كُنتُم فيهِ تختلفون ﴾.

قولـه عزّ وجلّ: ﴿ وأنِ احكمْ بينهمْ بما أنزل الله ﴾، إليك ﴿ ولا تتبعْ أهواءهم واحذرْهم أنْ يفتنُوكَ عن

أمر قتيل كان بينهم قال بعض العلماء هذه الآية ناسخة للتخيير في قوله: ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ .

وقوله تعالى: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ يعني: واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاؤوا إليك أن يصرفوك ويصدوك بمكرهم وكيدهم فيحملوك على ترك العلم ببعض ما أنزل الله إليك في كتابه واتباع أهوائهم ﴿فإن تولوا﴾ يعني فإن أعرضوا عن الإيمان بك والرضا بالحكم بما أنزل الله عليك ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ يعني فاعلم يا محمد أن الله يريد أن يعجل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم وإنما خص بعض الذنوب لأن الله جازاهم في الدنيا على بعض ذنوبهم بالقتل والسبي والجلاء وأخر مجازاتهم على باقي ذنوبهم إلى الآخرة ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ يعني اليهود لأنهم ردوا حكم الله تعالى ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ يعني أفحكم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود قال ابن عباس: يعني بحكم الجاهلية ما كانوا عليه من الضلال والجور في الأحكام وتحريفهم إياها عما أمر الله به وقال مقاتل كانت بين بني النضير وقريظة دماء وهما حيان من اليهود وذلك قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ فلما بعث وهاجر إلى المدينة تحاكموا إليه فقالت بنو قريظة بنو النضير إخواننا أبونا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد فإن قتل بنو النضير منا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً من تمر وإن قتلنا منهم قتيلاً أخذوا منا مائة وأربعين وسقاً وأرش جراحتنا على النصف من جراحتهم فاقض بيننا وبينهم فقال رسول الله ﷺ: فإني أحكم أن دم القرظي وفاء من دم النضيري، ودم النضيري وفاء من دم القرظي ليس لأحدهما فضل على الآخر في دم ولا عقل ولا جراحة. فغضبت بنو النضير، وقالوا: لا نرضى بحكمك فإنك لنا عدو وإنك ما تألو في وضعنا وتصغيرنا. فأنزل الله: أفحكم الجاهلية يبغون. وقرىء بالتاء على الخطاب. والمعنى: قل لهم يا محمد أفحكم الجاهلية تبغون ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ يعني: أي حكم أحسن من حكم الله إن كنتم موقنين أنّ لكم رباً وأنه عدل في أحكامه.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية وإن كان حكمها عاماً لجميع المؤمنين، لأن خصوص السبب لا يمنع من عموم الحكم، فقال قوم: نزلت هذه

بعضِ ما أنزلَ اللّهُ إليك ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من رؤوساء اليهود بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وإنّا إن اتّبعناك لم يخالفنا اليهود، وإن بيننا وبين الناس خصومات فنحاكمهم إليك فاقضِ لنا عليهم نؤمن بك، ويتبعنا غيرنا ولم يكن قصدهم الإيمان، وإنما كان قصدهم التلبيس ودعوته إلى الميل في الحكم فأنزل الله عزّ وجلّ الآية **﴿ فإنْ تولّوا ﴾**، أي: أعرضوا عن الإيمان والحكم بالقرآن، **﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾**، أي: فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد أن يعجّل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم، **﴿ وإن كثيراً من الناس ﴾**، يعني اليهود، **﴿ لفاسقون ﴾**.

﴿ أفحكمَ الجاهليةِ يَبْغُون ﴾ قرأ ابن عامر تبغون بالتاء وقرأ الآخرون بالياء، أي: يطلبون، **﴿ ومَن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾**.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياء ﴾، اختلفوا في نزول هذه الآية وإن كان حكمها عامّاً

الآية في عبادة بن الصامت رضي الله عنه وعبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين وذلك أنهما اختصما فقال عبادة إن لي أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم ولا مولى لي إلا الله ورسوله فقال عبد الله بن أبيّ: لكني لا أبرأ من ولاية اليهود فإن أخاف الدوائر ولا بد لي منهم. فقال النبي ﷺ: يا أبا الحباب ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه فقال: إذن أقبل فأنزل الله هذه الآية. وقال السدي: لما كانت وقعة أحد اشتد الأمر على طائفة من الناس وتخوفوا أن يدال عليهم الكفار فقال رجل من المسلمين: أنا ألحق بفلان اليهودي وآخذ منه أماناً إني أخاف أن يدال علينا اليهود. وقال رجل آخر: أنا ألحق بفلان النصراني من أهل الشام وآخذ منه أماناً. فأنزل الله هذه الآية ينهاهم عن موالاة اليهود والنصارى.

وقال عكرمة: نزل في أبي لبابة بن عبد المنذر لما بعثه النبي ﷺ إلى بني قريظة حين حاصرهم فاستشاروه في النزول وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟ فجعل اصبعه في حلقه أشار إلى أنه الذبح وأنه يقتلكم فأنزل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**﴾ فنهى الله المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وأعواناً على أهل الإيمان بالله ورسوله وأخبر أنه من اتخذهم أنصاراً وأعواناً وخلفاء من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم وإن الله ورسوله والمؤمنين منه براء ﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾ يعني أن بعض اليهود أنصار لبعض على المؤمنين وأن النصارى كذلك يد واحدة على من خالفهم في دينهم وملتهم ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ يعني ومن يتولَّ اليهود والنصارى دون المؤمنين فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم لأنه لا يتولى مولى إلا وهو راض به وبدينه وإذا رضيه ورضى دينه صار منهم وهذا تعليم من الله تعالى وتشديد عظيم في مجانبة اليهود والنصارى وكل من خالف دين الإسلام ﴿**إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ يعني أن الله لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها فتول اليهود والنصارى مع علمه بعداوتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، روي أن أبا موسى الأشعري قال: قلت لعمر بن الخطاب: إن لي كاتباً نصرانياً فقال: مالك وله قاتلك الله ألا اتخذت حنيفاً؟ يعني مسلماً أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**﴾ قلت: له دينه ولي كتابته. فقال: لا أكرّمهم إذا أهانهم الله ولا أعزهم إذا أذلهم الله ولا أدنيهم إذا أبعدهم الله. قلت: إنه لا يتم أمر البصرة إلا به. فقال: مات النصراني والسلام يعني: هب أنه مات فما تصنع بعده فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغنِ عنه بغيره من المسلمين.

لجميع المؤمنين فقال قوم نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبيّ بن سلول، وذلك أنهما اختصما، فقال عبادة: إن لي أولياء من اليهود كثير عددهم شديدة شوكتهم ،وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم وولاية اليهود، ولا مولى لي إلّا الله ورسوله، فقال عبد الله: لكني أبرأ من ولاية اليهود لأني أخاف الدوائر ولا بدّ لي منهم، فقال النبي ﷺ: «يا أبا الحباب ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه»، قال: إذاً أقبل، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال السدي: لمّا كانت وقعة أُحُد اشتدت على طائفة من الناس وتخوّفوا أن يدلّ عليهم الكفّار فقال رجل من المسلمين: أنا ألحق بفلان اليهودي وآخذ منه أماناً إني أخاف أن يدال علينا اليهود، وقال رجل آخر: أما أنا فألحق بفلان النصراني من أهل الشام وآخذ منه أماناً، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهما، وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر بعثه النبي ﷺ إلى بني قريظة حين حاصرهم، فاستشاروه في النزول، وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟، فجعل أصبعه على حلقه أنه الذبح، أي: يقتلكم فنزلت هذه الآية. ﴿ بعضُهم أولياءُ بعض ﴾، في العون والنصرة ويدهم واحدة على المسلمين، ﴿ ومَن يتولهم منكم ﴾، فيوفّقهم ويعينهم، ﴿ فإنه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ يعني فترى يا محمد الذين في قلوبهم شك ونفاق ﴿يسارعون فيهم﴾ يعني يسارعون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار فكانوا يغشونهم ويخالطونهم لأجل ذلك. نزلت في عبد الله بن أبي، المنافق وفي أصحابه من المنافقين ﴿يقولون﴾ يعني المنافقين ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ الدائرة من دوائر الدهر كالدولة التي تدول والمعنى. يقول المنافقون: إنما نخالط اليهود لأنا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه، ويعنون بذلك المكروه الهزيمة في الحرب والقحط والجدب والحوادث المخوفة. قال ابن عباس: معناه نخشى أن لا يتم أمر محمد فيدور علينا الأمر كما كان قبل محمد ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾ قال المفسرون: عسى من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله وهو بمنزلة الواعد لتعلق النفس به ورجائها له والمعنى فعسى الله أن يأتي بالفتح لرسوله محمد ﷺ على أعدائه وإظهار دينه على الأديان كلها وإظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى وقد فعل الله ذلك بمنّه وكرمه فأظهر دينه ونصر عبده. وقيل: أراد بالفتح فتح مكة. وقيل: فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك ونحوهما من بلادهم ﴿أوأمر من عنده﴾ يعني أنه تعالى يقطع أصل اليهود من أرض الحجاز ويخرجهم من بلادهم بلا كلفة وتعب ولا يكون للناس فيه فعل البتة كما ألقى في قلوبهم الرعب فأخلوا ديارهم وخربوها بأيديهم ورحلوا إلى الشام.

وقوله تعالى: ﴿فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ يعني فيصبح المنافقون الذين كانوا يوالون اليهود نادمين على ما حدثوا به أنفسهم أنّ أمر محمد لا يتم وقيل ندموا على دس الأخبار إلى اليهود.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ يعني ويقول الذين آمنوا في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ وذلك أن المؤمنين كانوا يتعجبون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى ويقولون إن المنافقين حلفوا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعنا ومن أنصارنا والآن كيف صاروا موالين لأعدائنا من اليهود محبين للاختلاط بهم فبان كذب المنافقين في أيمانهم الباطلة ﴿حبطت أعمالهم﴾ أي بطل كل خير

﴿ فترى الذين في قلوبهم مرضٌ ﴾، أي: نفاق يعني عبد الله بن أُبيّ وأصحابه من المنافقين الذين يُوالون اليهود، ﴿ يُسارعون فيهم ﴾، في معونتهم وموالاتهم، ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾، دولة، يعني: أن يدول الدهر دولته فنحتاج إلى نصرهم إيّانا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه نخشى أن لا يتمّ أمر محمد فيدور الأمر علينا، وقيل: نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه من جدب وقحْط ولا يعطونا الميرة والقرض، ﴿ فعسى اللهُ أن يأتي بالفتح ﴾، قال قتادة ومقاتل: بالقضاء الفصل من نصر محمد ﷺ على مَن خالفه، وقال الكلبي والسدي: فتح مكة، وقال الضحاك: فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك، ﴿ أو أمر من عنده ﴾، قيل: بإتمام أمر محمد ﷺ، وقيل: عذاب لهم، وقيل: إجلاء بني النضير، ﴿ فيُصبحوا ﴾، يعني هؤلاء المنافقون، ﴿ على ما أسرّوا في أنفسهم ﴾، من موالاة اليهود ودسّ الأخبار إليهم، ﴿ نادمين ﴾.

﴿ و ﴾، حينئذ، ﴿ يقولُ الذين آمنُوا ﴾، قرأ أهل الكوفة: (ويقـول) ، بالواو والرفع على الاستئناف وقرأ أهل البصرة بالواو ونصب اللام عطفاً على ﴿ أن يأتي ﴾ أي: وعسى أن يقول الذين آمنوا، وقرأ الآخرون بحذف

عملوه لأجل ما أظهروا من النفاق وموالاة اليهود ﴿**فأصبحوا خاسرين**﴾ يعني أنهم خسروا في الدنيا بافتضاحهم وخسروا في الآخرة بإحباط ثواب أعمالهم وحصلوا بالعذاب الدائم المقيم.

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه**﴾ يعني من يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه وهو دين الإسلام فيبدله ويغيره بدخوله في الكفر بعد الإيمان فيختار: إما اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من أصناف الكفر فلن يضر الله شيئاً وإنما ضرَّ نفسه برجوعه عن الدين الصحيح الذي هو دين الإسلام قال الحسن: علم الله تعالى أن قوماً سيرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه. وذكر صاحب الكشاف أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت ثلاث في زمن رسول الله ﷺ وهم: بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسي وكان كاهناً فتنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج منها عمال رسول الله ﷺ فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن فأهلكه الله تعالى على يد فيروز الديلمي في بيته فقتله فأخبر رسول الله ﷺ المسلمين بقتله ليلة قتل فسرَّ المسلمون بذلك وقبض رسول الله ﷺ من الغد وأتى خبر قتله في آخر ربيع الأول. وبنو حنيفة وهم قوم مسيلمة الكذاب تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله.

«أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك» فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» وستأتي قصة قتله فيما بعد وبنو أسد وهم قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقاتله فانهزم بعد القتال إلى الشام ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وارتد سبع فرق في خلافة أبي بكر الصديق وهم فزارة قوم عيينة بن حصن الفزاري وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة اليربوعي وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب. وكندة قوم الأشعث بن قيس الكندي وبنو بكر بن وائل قوم الحطم بن زيد فكفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفرقة واحدة ارتدت في خلافة عمر بن الخطاب وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم واختلف العلماء في المعنى بقوله تعالى: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ فقال علي بن أبي طالب والحسن وقتادة هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ومانعي الزكاة وذلك

الواو ورفع اللام، وكذلك هو في مصاحف أهل العالية، استغناء عن حرف العطف لملابسة هذه الآية بما قبلها، يعني يقول الذين آمنوا في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين، ﴿ **أهؤلاء الذين أقسموا بالله** ﴾، حلفوا بالله، ﴿ **جهد أيمانهم** ﴾، أي: حلفوا بأغلظ الأيمان، ﴿ **إنّهم لَمَعَكُمْ** ﴾، أي: إنهم لمؤمنون، يريد أن المؤمنين حينئذ يتعجبون من كذبهم وحلفهم بالباطل. قال الله تعالى: ﴿ **حَبِطَتْ أعمالُهم** ﴾، بطل كل خير عملوه، ﴿ **فأصبحوا خاسرين** ﴾، خسروا الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب وفَوَات الثواب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا مَنْ يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يُحبّهم ويُحبّونه** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام (يرتـدد) بدالين على إظهار التضعيف ﴿ **عن دينه** ﴾ فيرجع إلى الكفر، قال الحسن: علم الله تبارك وتعالى أن قوماً يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيّهم ﷺ فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبّهم الله ويحبّونه، واختلفوا في أولئك القوم مَن هم؟ قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وقتادة: هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردّة ومانِعي الزكاة، وذلك أن النبي ﷺ لمّا قبض ارتدّ عامّة العرب إلى أهل مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس، ومنع بعضهم الزكاة، وهمّ أبو بكر رضي الله عنه بقتالهم فكره ذلك أصحاب النبي ﷺ، وقال عمر رضي الله عنه: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فمَنْ قال لا إله إلاّ الله عصمَ منّي ماله ونفسه إلا بحقّه وحسابه على الله عزّ وجلّ»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ مَن فرّق بين

أن النبي ﷺ لما قبض ارتد عامة العرب[١] كما تقدم تفصيله إلا أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من بني عبد القيس فإنهم ثبتوا على الإسلام ونصر الله بهم الدين ولما ارتد مَن ارتد من العرب ومنعوا الزكاة همَّ أبو بكر بقتالهم وكره ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وقال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ودمه إلا بحقه وحسابه على الله». فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً أو قال عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. وقال أنس بن مالك: كرهت الصحابة قتال مانعي الزكاة، وقالوا: هم أهل القبلة، فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدّاً من الخروج على أثره، فقال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه عليه في الانتهاء. وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق لقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردة وقالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب واشرأبَّ النفاق ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها وبعث أبو بكر الصديق خالد بن الوليد في جيش كثير إلى بني حنيفة باليمامة وهم قوم مسيلمة الكذاب فأهلك الله مسيلمة على يد وحشي غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة، فكان وحشي يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام أراد بذلك وحشي أنه في حال الجاهلية قتل حمزة وهو خير الناس وفي حال إسلامه قتل مسيلمة الكذاب وهو شر الناس وقال قوم: المراد بقوله تعالى: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ الأشعريون قوم أبي موسى الأشعري، روي عن عياض بن غنم الأشعري قال لما نزلت هذه الآية ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**﴾ قال رسول الله ﷺ: هم قوم هذا يعني أبا موسى الأشعري أخرجه الحاكم في المستدرك وقيل هم أهل اليمن (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً الإيمان يمان والحكمة يمانية».

الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، ولله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كرهت الصحابة قتال مانِعِي الزكاة، وقالوا: أهل القِبلة، فتقلّد أبو بكر سيفه وخرج وحده، فلم يجدوا بدّاً من الخروج على أثره، قال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه عليه في الانتهاء، قال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد بعد النبيّين مولود أفضل من أبي بكر رضي الله عنه، لقد قام مقام نبيٍّ من الأنبياء في قتال أهل الردّة، وقد كان قد ارتدّ في حياة النبي ﷺ ثلاث فِرَق منهم بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار عيهلة بن كعب العنسي، ويلقّب بالأسود، وكان كاهناً مشعبذاً فتنبأ باليمن واستولى على بلاده، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل ومَن معه من المسلمين، وأمرهم أن يحثّوا الناس على التمسّك بدينهم، وعلى النهوض إلى حزب الأسود، فقتله فيروز الديلمي على فراشه، قال ابن عمر رضي الله عنه فأتى الخبرُ النبيَّ ﷺ من السماء الليلة التي قُتل فيها، فقال رسول الله ﷺ: «قُتل الأسود البارحة قتله رجل مبارك»، قيل: ومَن هو؟ قال: «فيروز»، فبشّر النبي ﷺ أصحابه بهلاك الأسود، وقبض ﷺ من الغد؛ وأتى خبرُ مقتل العنسي المدينة في آخر شهر ربيع الأول بعدما خرج أُسامة وكان ذلك أول فتح. جاء أبو بكر رضي الله عنه والفرقة الثانية بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذّاب، وكان قد تنبأ في حياة رسول الله ﷺ في آخر سنة عشر، وزعم أنه أُشرك مع محمد ﷺ في النبوّة، وكتب إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، وبعث إليه مع رجلين من أصحابه، فقال لهما رسول الله ﷺ: «لولا أنّ الرُّسل لا تُقتل لضربت أعناقكما»، ثم أجاب: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، أمّا بعد فإن الأرضَ للّهِ يُورثُها مَنْ يشاءُ

---

(١) قوله «ارتد عامة العرب» الخ الذين تقدم ارتدادهم في زمن أبي بكر سبع فرق لا غير. اهـ.

وقال السدي: نزلت في الأنصار لأنهم هم الذين نصروا رسول الله ﷺ وأعانوه على إظهار الدين. وقيل: هم أحياء من أهل اليمن ألفان من النخع وخمسة آلاف من أهل كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا في سبيل الله يوم القادسية في خلافة عمر، وعلى هذا التقدير، تكون هذه الآية إخباراً عن الغيب وقد وقع الخبر على وفقه بحمد الله تعالى فتكون هذه الآية معجزة.

وأما معنى المحبة، فيقال أحببت فلاناً بمعنى جعلت قلبي معرضاً بأن يحبه والمحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيراً. ومحبة الله تعالى العبد، إنعامه عليه وتوفيقه وهدايته إلى طاعته والعمل بما يرضى به عنه وأن يثيبه أحسن الثواب على طاعته وأن يثني عليه ويرضى عنه ومحبة العبد لله عزّ وجل أن يسارع إلى طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعل ما يوجب سخطه وعقوبته وأن يتحبب بما يوجب له الزلفى لديه جعلنا الله ممن يحبهم ويحبونه بمنّه وكرمه.

وقوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ هذه من صفات الذين اصطفاهم الله تعالى ووصفهم بقوله: يحبهم ويحبونه، يعني أنهم أرقاء رحماء لأهل دينهم وإخوانهم من المؤمنين ولم يرد ذل الهوان بل أراد لين جانبهم لإخوانهم المؤمنين وهم من رقتهم ورحمتهم ولين جانبهم أشداء أقوياء غلظاء على أعدائهم الكافرين.

قال علي بن أبي طالب: أذلة على المؤمنين يعني أهل رقة على أهل دينهم أعزة على الكافرين أهل غلظة على من خالفهم في دينهم. وقال ابن عباس: تراهم كالولد لوالده والعبد لسيده وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته. وقال ابن الأنباري: أثنى الله على المؤمنين بأنهم يتواضعون للمؤمنين إذا لقوهم ويعنفون الكافرين إذا لقوهم. وقيل: إن الذل بمعنى الشفقة والرحمة كأنه قال راحمين للمؤمنين مشفقين عليهم على وجه التذلل والتواضع وإنما أتى بلفظة على حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم لا لأجل كونهم ذليلين في أنفسهم بل ذلك التذلل

من عباده، والعاقبةُ للمتّقين»، ومرض رسول الله ﷺ وتوفي، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذّاب في جيش كثير حتى أهلكه الله على يدي وحشي، غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة بن عبد المطّلب، بعد حرب شديد، وكان وحشي يقول: قتلتُ خيرَ الناس في الجاهلية وشرَّ الناس في الإسلام، والفرقة الثالثة بنو أسد ورئيسهم طليحة بن خويلد، وكان طليحة آخر مَن ارتدّ، وادّعى النبوّة في حياة النبي ﷺ، وأول مَن قُوتل بعد وفاة النبي ﷺ من أهلِ الردّة، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد فهزمهم خالد بعد قتال شديد، وأفلت طليحة فمرّ على وجهه هارباً نحو الشام، ثم إنه أسلم بعد ذلك وحَسُنَ إسلامه. وارتدّ بعد وفاة النبي ﷺ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه خلق كثير، حتى كفى الله المسلمين أمرهم ونصر دينه على يديّ أبي بكر رضي الله عنه، قالت عائشة: (توفي رسول الله ﷺ وارتدتِ العربُ واشرأبّ النفاق، ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها)، وقال قوم: المراد بقوله: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يُحبّهم ويُحبّونه ﴾ هم الأشعريون، رُوِيَ عن عياض بن غنم الأشعري قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ فسوف يأتي اللّهُ بقوم يحبّهم ويحبّونه ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هم قومُ هذا، وأشار إلى أبي موسى الأشعري» وكانوا من اليمن. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا أبو عبد الله عمر الجوهري أنا أحمد بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي موسى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرقّ أفئدةً، الإيمانُ يمانٌ والحكمةُ يمانيةٌ». وقال الكلبي: هم أحياء من اليمن، ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس، فجاهدوا في سبيل الله يوم القادسية في أيام عمر رضي الله عنه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ أذِلّةٍ على المؤمنين ﴾، يعني أرقّاء رحماء، لقوله عزّ وجلّ: ﴿ واخفضْ لهما جناحَ الذّلِّ من الرحمةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤]، ولم يرد به الهوان،

لأجل أنهم ضموا إلى علو منصبهم فضيلة التواضع ويدل على صحة هذا سياق الآية وهو قوله: ﴿أعزة على الكافرين﴾ يعني أنهم أشداء أقوياء في أنفسهم وعلى أعدائهم ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ يعني أنهم ينصرون دين الله ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ يعني لا يخافون عدل عادل في نصرهم الدين وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويخافون لومهم فبين الله تعالى في هذه الآية أن من كان قوياً في الدين فإنه لا يخاف في نصره لدين الله بيده أو بلسانه لومة لائم وهذه صفة المؤمنين المخلصين إيمانهم لله تعالى (ق).

عن عبادة بن الصامت قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره على أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ثم قال تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم ذكره من وصفهم بمحبة الله ولين جانبهم للمؤمنين وشدتهم على الكافرين وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم كل ذلك من فضل الله تعالى تفضل بهم عليهم ومن إحسانه إليهم ﴿والله واسع عليم﴾ يعني أنه تعالى واسع الفضل عليم بمن يستحقه.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبادة بن الصامت حين تبرأ من موالاة اليهود وقال: أوالي الله ورسوله والمؤمنين يعني أصحاب محمد ﷺ وقال جابر بن عبد الله: نزلت في عبد الله بن سلام وذلك أنه جاء إلى محمد ﷺ فقال يا رسول الله إن قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا، فنزلت هذه الآية، فقرأ: عليه رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن سلام: رضينا بالله رباً وبرسوله نبياً وبالمؤمنين أولياء.

وقيل: الآية عامة في حق جميع المؤمنين لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فعلى هذا يكون قوله تعالى:

بل أراد أنّ جانبهم ليّن على المؤمنين. وقيل: هو الذلُّ من قولهم دابّة ذلول، يعني أنهم متواضعون. قال الله تعالى: ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذينَ يمشونَ على الأرضِ هَوناً ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿ أعزَّةٍ على الكافرين ﴾، أي: أشدّاء غِلاظ على الكفّار يُعادونهم ويُغالبونهم، من قولهم: عزّه أي غلبه. قال عطاء: أذلّةٍ على المؤمنين: كالولد لوالده والعبد لسيده، أعزّةٍ على الكافرين: كالسبع على فريسته، نظيره قوله تعالى: ﴿ أشداءُ على الكفّارِ رُحماءُ بينهم ﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿ يُجاهدُون في سبيل الله ولا يخافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ ﴾، يعني: لا يخافون في الله لومةَ الناس، وذلك أن المنافقين كانوا يراقبون الكفّار ويخافون لومهم، وروينا عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة وأنْ نقومَ أو نقولَ بالحق حيث ما كنّا لا نخاف في الله لومةَ لائم. ﴿ ذلكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤتيهِ مَنْ يشاء ﴾، أي محبتهم لله ولين جانبهم للمسلمين، وشدّتهم على الكافرين، من فضل الله عليهم، ﴿ واللّهُ واسعٌ عليم ﴾.

﴿ إنّما وليُّكُمُ اللّهُ ورسولُهُ والذينَ آمنُوا ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أُبَيّ بن سلول حين تبرأ عبادة من اليهود، وقال: أتولى الله ورسوله والذين آمنوا، فنزل فيهم من قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ﴾ [المائدة: ٥١]، إلى قوله: ﴿ إنّما وليُّكُمُ الله ورسوله والذين آمنوا ﴾، يعني عبادة بن الصامت وأصحاب رسول الله ﷺ. وقال جابر بن عبد الله: جاء عبد الله بن

﴿**الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾ صفة لكل مؤمن ويكون المراد بذكر هذه الصفات تمييز المؤمنين عن المنافقين لأن المنافقين كانوا يدعون أنهم مؤمنون إلا أنهم لم يكونوا يداومون على فعل الصلاة والزكاة فوصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة يعني بتمام ركوعها وسجودها في مواقيتها ويؤتون الزكاة يعني ويؤدون زكاة أموالهم إذا وجبت عليهم.

أما قوله تعالى وهم راكعون فعلى هذا التفسير فيه وجوه:

أحدها: أن المراد من الركوع هنا الخضوع والمعنى أن المؤمنين يصلون ويزكون وهم منقادون خاضعون لأوامر الله ونواهيه.

الوجه الثاني: أن يكون المراد منه أن من شأنهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإنما خص الركوع بالذكر تشريفاً له.

الوجه الثالث: قيل إن هذه الآية نزلت وهم ركوع. وقيل: نزلت في شخص معين وهو علي بن أبي طالب. قال السدي: مر بعلي سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، فعلى هذا قال العلماء: العمل القليل في الصلاة لا يفسدها والقول بالعموم أولى وإن كان قد وافق وقت نزولها صدقة علي بن أبي طالب وهو راكع. ويدل على ذلك ما روي عن عبد الملك بن سليمان قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عن هذه الآية ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا**﴾ من هم؟ فقال: المؤمنون، فقلت: إن ناساً يقولون هو علي، فقال: علي من الذين آمنوا.

وقوله تعالى: ﴿**ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا**﴾ يعني ومن يتول القيام بطاعة الله ونصر رسوله والمؤمنين. قال ابن عباس: يريد المهاجرين والأنصار ومن يأتي بعدهم ﴿**فإن حزب الله**﴾ يعني أنصار دين الله ﴿**هم الغالبون**﴾ لأن الله ناصرهم على عدوهم والحزب في اللغة أصحاب الرجل الذين يكونون معه على رأيه وهم القوم الذين يجتمعون لأمر حزبه يعني أهمه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ

سلام إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ قومنا قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء». وعلى هذا التأويل أراد بقوله: ﴿ **وهم راكعون** ﴾، صلاة التطوّع بالليل والنهار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقال السدي: قوله: ﴿ **والذين آمنُوا الذين يُقيمون الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ وهم راكعُون** ﴾، أراد به عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، مرّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، وقال جُويبر عن الضحّاك في قوله: ﴿ **إنّما وليُّكم اللّهُ ورسولُه والذين آمنوا** ﴾، قال: هم المؤمنون بعضهم أولياء بعض، وقال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: ﴿ **إنما وليُكُمُ اللّهُ ورسولُهُ والذينَ آمنوا** ﴾، نزلت في المؤمنين، فقيل له: إنّ أُناساً يقولون إنها نزلت في عليّ رضي الله عنه، فقال: هو من المؤمنين.

﴿ **ومَنْ يتولَّ اللّهَ ورسولَهُ والذينَ آمنُوا** ﴾، يعني: يتولَّ القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد المهاجرين والأنصار، ﴿ **فإنّ حزبَ الله** ﴾، يعني: أنصار دين الله، ﴿ **هم الغالبون** ﴾.

هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً﴾ قال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومعنى: اتخذوا دينكم هزواً ولعباً هو إظهارهم الإسلام بألسنتهم قولاً وهم على ذلك يبطنون الكفر ويسرونه ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ يعني اليهود ﴿والكفار﴾ يعني عبدة الأصنام وإنما فصل بين أهل الكتاب والكفار وإن كان أهل الكتاب من الكفر لأن كفر المشركين من عبدة الأصنام أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب ﴿أولياء﴾ يعني لا تتخذوهم أولياء والمعنى أن أهل الكتاب والكفار اتخذوا دينكم يا معشر المؤمنين هزواً وسخرية فلا تتخذوهم أنتم أولياء وأنصاراً ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مؤمنين حقاً لأن المؤمن يأبى موالاة أعداء الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ قال الكلبي: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا ويضحكون على طريق الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية. وقال السدي: نزلت هذه الآية في رجل من النصارى كان بالمدينة فكان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يقول حرق الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وهو وأهله نيام فطارت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله. وقيل: إن الكفار والمنافقين كانوا إذا سمعوا حسدوا المسلمين على ذلك فدخلوا على رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئاً لم يسمع بمثله فيما مضى من الأمم قبلك فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت الأنبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء فمن أين لك صياح كصياح العير فما أقبح هذا الصوت وما أسمج هذا الأمر؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ الآية وأنزل ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ يعني أن هزؤهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لا عقل لهم.

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذي اتخذوا

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تتخذوا الذينَ اتخذوا دينَكم هزواً ولعباً ﴾، الآية قال ابن عباس كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادّونهما، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: **﴿ يا أيّها الذين آمنُوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزواً ولعباً ﴾**، بإظهار ذلك بألسنتهم قولاً وهم مستبطنون الكفر، **﴿ من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلكم ﴾**، يعني: اليهود، **﴿ والكفّار ﴾**، قرأ أهل البصرة والكسائي «الكفّارِ» بخفض الراء، يعني: ومن الكفّار، وقرأ الآخرون بالنصب، أي: لا تتخذوا الكفّار، **﴿ أولياءَ واتّقوا اللّهَ إنْ كنتُمْ مؤمنين ﴾**.

﴿ وإذا ناديتُم إلى الصّلاةِ اتخذوها هُزُواً ولعباً ذلك بأنّهم قومٌ لا يعقلون ﴾، قال الكلبي: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، قاموا وصلّوا لا صلّوا، على طريق الاستهزاء، وضحكوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. وقال السدي: نزلت في رجل من النصارى بالمدينة كان إذا سمع المؤذّن يقول: أشهدُ أنّ محمداً رسولُ الله، قال: حُرق الكاذبُ، فدخل خادمه ذات ليلة بنار هو وأهله نيام، فتطايرت منها شرارة فاحترق البيت واحترق هو وأهله. وقال الآخرون: إن الكفّار لمّا سمعوا الأذان حسدوا المسلمين فدخلوا على رسول الله ﷺ، وقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم فإن كنت

دينك هزواً ولعباً ﴿هل تنقمون منا﴾ وهذا على سبيل التعجب من فعل أهل الكتاب والمعنى هل تجدون علينا في الدين إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وبما أنزل على جميع الأنبياء من قبل وهذا ليس مما ينكر أو ينقم منه وهذا كما قال بعضهم:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

يعني أنه ليس فيهم عيب إلا ذلك وهذا ليس بعيب بل هو مدح عظيم لهم. قال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وعازوراء وزيد وخالد وأزار بن أبي أزار وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال: أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ـ إلى قوله ـ ونحن له مسلمون الآية فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: والله لا نؤمن بمن آمن به، فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنهم قالوا والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله هذه الآية ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ وهذا هو ديننا الحق وطريقنا المستقيم فلم تنقمونه علينا ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ يعني إنما كرهتم إيماننا ونقمتموه علينا مع علمكم بأننا على الحق بسبب فسقكم وإقامتكم على الدين الباطل لحب الرياسة وأخذ الأموال بالباطل وإنما قال أكثركم لأن الله يعلم أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله وبرسوله. قوله عز وجل:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك﴾ هذا جواب لليهود لما قالوا ما نعرف ديناً شراً من دينكم. والمعنى: قل يا محمد

تدّعي النبوّة فقد خالفت فيما أحدثت الأنبياء قبلك ولو كان فيه خير لكان أولى الناس به الأنبياء، فمن أين لك صياح كصياح العير، فما أقبح من صوت وما أسمج من أمر، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ ومَنْ أحسنُ قولاً ممّن دعا إلى الله ﴾ [فصّلت: ٣٣]، الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ هل تَنْقِمُون منّا ﴾، الآية. قرأ الكسائي: «هـل تنقمـون»، بإدغـام اللام في التاء، وكذلك يدغم لام هل في التاء والثاء والنون، ووافقه حمزة في التاء والثاء وأبو عمرو في ﴿ هلْ ترى ﴾ [الملك: ٣] في موضعين، قال ابن عباس: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ من اليهود، أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع وغيرهما، فسألوه عمّن يؤمن به من الرُّسل، فقال: «أؤمن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل» إلى قوله: ﴿ ونحنُ له مسلمون ﴾ [البقرة: ١٣٣ و١٣٦، آل عمران: ٨٤]، فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوّته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقلّ حظ في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شرّاً من دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ هل تَنْقِمُون منّا ﴾ أي: تكرهون منّا، ﴿ إلاّ أن آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل منْ قبلُ وأنّ أكثرَكُمْ فاسقون ﴾، أي: هل تكرهون منّا إلاّ إيماننا وفسقكم، أي: إنّما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنّا على حق، لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم لحبّ الرياسة وحبّ الأقوال. ثم قال:

﴿ قلْ ﴾، يا محمد، ﴿ هل أُنبئكم ﴾، أخبركم، ﴿ بشرٍّ منْ ذلك ﴾، الذي ذكرتم، يعني قولهم لم نرَ أهل

لهؤلاء اليهود الذين قالوا هذه المقالة هل أخبركم بشر من ذلك الذي ذكرتم ونقمتم علينا من إيماننا بالله وبما أنزل علينا ﴿**مثوبة عند الله**﴾ يعني جزاء.

فإن قلت: المثوبة مختصة بالإحسان لأنها في معنى الثواب، فكيف جاءت في الإساءة؟. قلت: وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله: تحية بينهم ضرب وجيع.

فإن قلت: هذا يقتضي أن الموصوفين بذلك الدين محكوم عليهم بالشر لأنه تعالى قال بشر من ذلك ومعلوم أن الأمر ليس كذلك فما جوابه؟. قلت: جوابه أن الكلام خرج على حسب قولهم واعتقادهم، فإن اليهود حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر فقال لهم: هب أن الأمر كذلك لكن من لعنه الله وغضب عليه ومسخ صورته شر من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**من لعنه الله**﴾ معناه هل أنبئكم بمن لعنه الله أو هو من لعنه الله ومعنى لعنه الله: أبعده وطرده عن رحمته ﴿**وغضب عليه**﴾ يعني وانتقم منه لأن الغضب إرادة الانتقام من العصاة ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير**﴾ يعني من اليهود من لعنه الله وغضب عليه ومنهم من جعلهم قردة وخنازير قال ابن عباس: إن الممسوخين كلاهما أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير.

وقيل إن مسخ القردة كان من أصحاب السبت من اليهود ومسخ الخنازير كان في الذين كفروا بعد نزول المائدة في زمن عيسى عليه السلام ولما نزلت هذه الآية عيَّر المسلمون اليهود وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير وافتضحوا بذلك ﴿**وعبد الطاغوت**﴾ يعني: وجعل منهم عبد الطاغوت، يعني من أطاع الشيطان فيما سول له والطاغوت هو الشيطان. وقيل: هو العجل. وقيل: هو الكهان والأحبار. وجملته أن كل من أطاع أحداً في معصية الله فقد عبده وهو الطاغوت ﴿**أولئك**﴾ يعني الملعونين والمغضوب عليهم والممسوخين ﴿**شرّ مكاناً**﴾ يعني من غيرهم ونسب الشر إلى المكان والمراد به أهله فهو من باب الكناية وقيل: أراد أن مكانهم سقر ولا مكان أشد شراً منه ﴿**وأضل عن سواء السبيل**﴾ يعني وأخطأ عن قصد طريق الحق.

قوله تعالى: ﴿**وإذا جاؤوكم قالوا آمنا**﴾ قال قتادة: نزلت في أناس من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به وهم متمسكون بضلالتهم وكفرهم فكان هؤلاء يظهرون الإيمان وهم في ذلك منافقون، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ بحالهم وشأنهم ﴿**وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به**﴾ يعني: إنهم دخلوا كافرين

دين أقلّ حظّاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شرّاً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء، وإن لم يكن الابتداء شرّاً لقوله تعالى: ﴿ **أفأنبئكم بشرٍّ من ذلكم النار** ﴾ [الحج: ٧٢]، ﴿ **مثوبةً** ﴾ ثواباً وجزاءً، نُصب على التفسير، ﴿ **عندَ اللَّهِ مَنْ لعنَهُ اللَّهُ** ﴾أي: هو من لعنه الله، ﴿ **وغضِبَ عليه** ﴾، يعني: اليهود، ﴿ **وجعلَ منهم القردةَ والخنازيرَ** ﴾، فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفّار مائدة عيسى عليه السلام. ورُوِيَ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الممسوخين كلاهما من أصحاب السبت فشبّانهم مُسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير. ﴿ **وعبَدَ الطاغُوت** ﴾، أي: جعل منهم مَن عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سوّل له، وتصديقها، قراءة ابن مسعود: ومَن عبدوا الطاغوت، وقرأ حمزة «وعبُد» بضم الباء «الطاغوتِ» بجرّ التاء، أراد العبد وهما لغتان عَبْد بجزم الباء وعبُد بضم الباء، مثل سَبْع وسبُع، وقيل: جمع العباد، وقرأ الحسن وعبد الطاغوت على الواحد، ﴿ **أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عنْ سواء السبيل** ﴾، عن طريق الحق.

﴿ **وإذا جاءُوكم قالوا** ﴾، يعني: هؤلاء المنافقين، وقيل: هم الذين قالوا: ﴿ آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ [آل عمران: ٧٢]، دخلوا على النبي ﷺ وقالوا: ﴿ **آمنّا** ﴾، بك وصدّقناك فيما

وخرجوا كما دخلوا كافرين لم يتعلق بقلوبهم شيء من الإيمان فهم كافرون في حالتي الدخول والخروج ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ يعني من الكفر الذي في قلوبهم.

قوله عز وجل: ﴿وترى كثيراً منهم﴾ الخطاب للنبي ﷺ. وترى يا محمد كثيراً من اليهود وكلمة «من» يحتمل أن تكون للتبعيض. ولعل هذه الأفعال المذكورة في هذه الآية ما كان يفعلها كل اليهود فلذا قال تعالى: وترى كثيراً منهم ﴿يسارعون﴾. المسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة لكن لفظة المسارعة إنما تستعمل في الخير. ومنه قوله تعالى: يسارعون في الخيرات وضدها العجلة، وتقال في الشر في الأغلب وإنما ذكرت لفظة في قوله يسارعون ﴿في الإثم والعدوان وأكلهم السحت﴾ الفائدة وهي أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيها. والإثم اسم جامع لجميع المعاصي والمنهيات فيدخل تحته العدوان وأكل السحت، فلهذا ذكر الله العدوان وأكل السحت بعد الإثم والمعاصي وقيل الإثم ما كتموه من التوراة والعدوان ما زادو فيها والسحت هو الرشا وما يأكلونه من غير وجهه ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ يعني لبئس العمل كان هؤلاء اليهود يعملون وهو مسارعتهم إلى الإثم والعدوان وأكلهم السحت.

قوله تعالى: ﴿لولا﴾ يعني هلا وهي هنا بمعنى التحضيض والتوبيخ ﴿ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ قال الحسن الربانيون علماء أهل الإنجيل والأحبار علماء أهل التوراة وقال غيره كلهم من اليهود لأنه متصل بذكرهم ﴿عن قولهم الإثم﴾ يعني الكذب ﴿وأكلهم السحت﴾ والمعنى هلا نهى الأحبار والرهبان، اليهود عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ يعني الأحبار والرهبان إذا لم ينهوا غيرهم عن المعاصي. وهذا يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه لأن الله تعالى ذمّ الفريقين في هذه الآية. قال ابن عباس: ما في القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية. وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ نزلت هذه الآية في فنحاص اليهودي. قال ابن عباس: إن الله قد بسط على اليهود حتى كانوا أكثر الناس أموالاً وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله ومحمداً ﷺ وكذبوا به كف عنهم ما بسط عليهم من السعة.

فعند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلولة يعني محبوسة مقبوضة عن الرزق والبذل والعطاء. فنسبوا الله تعالى إلى

قلت، وهم يُسرُّون الكفرَ، ﴿ وقدْ دخلُوا بالكفر وهُمْ قدْ خرجُوا به ﴾، يعني: دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، ﴿ واللَّهُ أعلمُ بما كانُوا يكتمون ﴾.

﴿ وترَى كثيراً منهم ﴾، من اليهود ﴿ يُسارِعُون في الإثم والعُدْوَانِ ﴾، قيل: الإثم المعاصي والعدوان الظلم، وقيل: الإثم ما كتموا من التوراة، والعدوان ما زادوا فيها، ﴿ وأكلِهِمُ السُّحْتَ ﴾، الرِّشَا، ﴿ لبئسَ ما كانُوا يعملون ﴾.

﴿ لَوْلاَ ﴾، هلاَّ، ﴿ ينهاهُم الرَّبانيّونَ والأحبارُ ﴾، يعني: العلماء، قيل: الربانيون علماء النصارى والأحبار علماء اليهود، ﴿ عن قولهِمُ الإثمَ وأكلِهِمُ السُّحتَ لبئسَ ما كانُوا يصنعُون ﴾.

﴿ وقالتِ اليهودُ يدُ اللَّهِ مغلولة ﴾، قال ابن عباس وعكرمة والضحّاك وقتادة: إنّ الله تعالى كان قد بسط على

البخل والقبض تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً، ولما قال هذه المقالة الخبيثة فنحاص ولم ينهه بقية اليهود ورضوا بقوله، لا جرم لأن الله تعالى أشركهم معه في هذه المقالة فقال تعالى إخباراً عنهم: وقالت اليهود يد الله مغلولة. يعني نعمته مقبوضة عنا. وقيل: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا إلا بقدر ما يبر به قسمه وذلك قدر ما عبد آباؤنا العجل.

والقول الأول أصح، لقوله تعالى: ينفق كيف يشاء. واعلم أن غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود بدليل قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾ والسبب أن اليد آلة لكل الأعمال لا سيما لدفع المال وإنفاقه وإمساكه فأطلقوا اسم السبب على المسبب وأسندوا الجود والبخل إلى اليد مجازاً فقيل للجواد الكريم فياض اليد ومبسوط اليد وقيل للبخيل مقبوض اليد.

وقوله تعالى: ﴿**غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا**﴾ يعني: أمسكت أيديهم عن كل خير وطردوا عن رحمة الله.

قال الزجاج: رد الله عليهم فقال: أنا الجواد الكريم وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسوكة. وقيل: هذا دعاء على اليهود علمنا الله كيف ندعو عليهم؟ فقال: غلت أيديهم أي في نار جهنم. فعلى هذا هو من الغل حقيقة أي شدت أيديهم إلى أعناقهم وطرحوا في النار جزاء لهم على هذا القول ومعنى لعنوا بما قالوا عذبوا بسبب ما قالوا فمن لعنتهم أنهم مسخوا في الدنيا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة والجزية وفي الآخرة لهم عذاب النار.

وقوله تعالى: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾ يعني أنه تعالى جواد كريم ينفق كيف يشاء وهذا جواب لليهود ورد عليهم ما افتروه واختلقوه على الله تعالى عن قولهم علواً كبيراً وإنما أجيبوا بهذا الجواب على قدر كلامهم.

وأما الكلام في اليد فقد اختلف العلماء في معناها على قولين: أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وعلماء أهل السنة وبعض المتكلمين أن يد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه فيجب علينا الإيمان بها والتسليم ونمرها كما جاءت في الكتاب والسنة بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل قال الله تعالى ﴿**لما خلقت بيدي**﴾ وقال النبي ﷺ: «عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين».

والقول الثاني: قول جمهور المتكلمين وأهل التأويل، فإنهم قالوا اليد تذكر في اللغة على وجوه، أحدها: الجارحة وهي معلومة. وثانيهما: النعمة. يقال: لفلان عندي يد أشكره عليها. وثالثها: القدرة قال الله تعالى: ﴿**أولى الأيدي والأبصار**﴾ فسروه بذوي القوى والعقول لا يدلك بهذا الأمر والمعنى سلب كمال القدرة. ورابعها: الملك يقال هذه الضيعة في يد فلان أي في ملكه ومنه قوله تعالى ﴿**الذي بيده عقده النكاح**﴾ أي يملك ذلك، أما الجارحة فمنتفية في صفة الله عز وجل لأن العقل دل على أنه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الأجزاء والأبعاض تعالى الله عن الجسمية والكيفية والتشبيه علواً كبيراً فامتنع بذلك أن تكون يد الله بمعنى الجارحة وأما سائر المعاني، التي فسرت اليد بها فحاصلة، لأن أكثر العلماء من المتكلمين زعموا أن اليد في حق الله عبارة عن القدرة وعن الملك وعن النعمة وهاهنا إشكالان:

اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله في محمد ﷺ وكذّبوا به كفّ الله عنهم ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، أي: محبوسة مقبوضة من الرزق نسبوه إلى البخل، قيل: إنما قال هذه المقالة فنحاص، فلمّا لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله فيها. وقال الحسن: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذّبنا إلّا ما يبرّ به قسمه قدر ما عبد آباؤنا العجل. والأول أولى لقوله: ﴿ينفق كيف يشاء﴾. ﴿غُلّتْ أيديهم﴾، أي: أُمسكت أيديهم عن الخيرات. وقال الزجّاج: أجابهم الله تعالى فقال: أنا

أحدهما: أن اليد إذا فسرت بمعنى القدرة فقدرة الله واحدة ونص القرآن ناطق بإثبات اليدين في قوله تعالى بل يداه مبسوطتان وأجيب عن هذا الإشكال بأن اليهود لما جعلوا قولهم ﴿**يد الله مغلولة**﴾ كناية عن البخل أجيبوا على وفق كلامهم فقال: بل يداه مبسوطتان. أي ليس الأمر على ما وصفتموه من البخل بل هو جواد كريم على سبيل الكمال فإن من أعطى بيديه فقد أعطى عل أكمل الوجوه.

الإشكال الثاني: أن اليد إذا فسرت بالنعمة فنص القرآن ناطق بتثنية اليد ونعم الله غير محصورة ولا معدودة ومنه قوله تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها**﴾ وأجيب عن هذا الإشكال بأن التثنية بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع لا نهاية لها مثل: نعمة الدنيا ونعمة الدين ونعمة الظاهر ونعمة الباطن ونعمة النفع ونعمة الدفع. فالمراد بالتثنية، المبالغة في وصف النعمة. أجاب أصحاب القول عن هذا بأن قالوا: إن الله تعالى أخبر عن آدم أنه خلقه بيديه ولو كان معنى خلقه لآدم بقدرته أو بنعمته أو بملكه لم يكن لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم لأن جميع خلقه مخلوقون بقدرته وجميعهم في ملكه ومتقلبون في نعمه فلما خص الله آدم عليه السلام بقوله تعالى لما خلقت بيدي دون خلقه علم بذلك اختصاصه وتشريفه على غيره. ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن أبي الحسن الأشعري قولاً: أن اليد صفة قائمة بذات الله وهي صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء قال والذي يدل عليه أنه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه على سبيل الكرامة لآدم واصطفائه له فلو كانت اليد عبارة عن القدرة امتنع كون آدم مصطفى بذلك لأن ذلك حاصل في جميع المخلوقات فلا بد من إثبات صفة أخرى وراء القدرة يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء هذا آخر كلامه. وأجيب عن قولهم: إن التثنية بحسب الجنس ثم يدخل تحت كل واحد من الجنسين أنواع كثيرة بأن الاسم إذا ثني لا يؤدي في كلام العرب إلا عن اثنين بأعيانهما دون الجمع ولا يؤدي عن الجنس أيضاً قالوا وخطأ في كلام العرب أن يقال ما أكثر الدرهمين في أيدي الناس بمعنى ما أكثر الدراهم في أيديهم لأن الدرهم إذا ثني لا يؤدي في كلام العرب إلا عن اثنين بأعيانهما ولكن الواحد يؤدي عن جنسه، كما تقول العرب: ما أكثر الدرهم في أيدي الناس. بمعنى ما أكثر الدراهم في أيديهم، لأن الواحد يؤدي عن الجمع فثبت بهذا البيان قول من قال: إن اليد صفة لله تعالى تليق بجلاله وإنها ليست بجارحة، كما نقول: المجسمة تعالى الله عن قولهم علّواً كبيراً ﴿**ينفق كيف يشاء**﴾ يعني أنه تعالى يرزق كما يريد ويختار فيوسع على من يشاء ويقتّر على من يشاء لا اعتراض عليه في ملكه ولا فيما يفعله (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى لما أنفق عليك وقال يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما بيده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يرفع ويخفض وهذا الحديث أيضاً أحد أحاديث الصفات فيجب الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تكييف.

وقوله تعالى: ﴿**وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً**﴾ يعني كلما نزلت عليك آية من القرآن كفروا بها فازدادوا شدة في كفرهم وطغياناً مع طغيانهم والمراد بالكثير علماء اليهود وقيل إقامتهم على كفرهم زيادة منهم فيه ﴿**وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾ يعني: ألقينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى.

الجواد وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسكة. وقيل: هو من الغلّ في النار يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ إذِ الأغلالُ في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر: ٧١]. ﴿ ولُعِنُوا ﴾، عُذِّبوا، ﴿ بما قالوا ﴾، فمنْ لعنهم أنهم مُسخوا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلّة والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة بالنار، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾، ويدُ اللّهِ صفةٌ من صفات ذاتِه كالسمع، والبصر والوجه، وقال جلّ ذكره: ﴿ لما خلقتُ بيدي ﴾ [صٓ: ٧٥]، وقال النبي ﷺ: «كلتا يديه يمين»، والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السُّنّة في هذه

وقيل: ألقى ذلك بين طوائف اليهود، فجعلهم مختلفين في دينهم متعادين متباغضين إلى يوم القيامة، فإن بعض اليهود جبرية، وبعضهم قدرية، وبعضهم مشبهة وكذلك النصارى فرق كالملكانية، والنسطورية، واليعقوبية، والمارونية.

فإن قلت، فهذا المعنى أيضاً حاصل بين فرق المسلمين فكيف يكون ذلك عيباً على اليهود والنصارى حتى يذموا به. قلت: هذه البدع التي حصلت في المسلمين إنما حدثت بعد عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة والتابعين.

أما في الصدر الأول، فلم يكن شيء من ذلك حاصلاً بينهم فحسن جعل ذلك عيباً على اليهود والنصارى في ذلك العصر الذي نزل فيه القرآن على رسول الله ﷺ ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ يعني كلما أفسد اليهود وخالفوا حكم الله يبعث الله عليهم من يهلكهم. أفسدوا فبعث الله عليهم بختنصر البابلي ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومي ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس وهم الفرس ثم أفسدوا. وقالوا: يد الله مغلولة فبعث الله المسلمين فلا تزال اليهود في ذلة أبداً وقال مجاهد: معنى الآية كلما مكروا في حرب محمد ﷺ أطفأه الله تعالى وقال السدي: كلما أجمعوا أمرهم على شيء ليفسدوا به أمر محمد ﷺ فرّقه الله تعالى وكلما أوقدوا ناراً في حرب محمد ﷺ أطفأها الله وأخمد نارهم وقذف في قلوبهم الرعب وقهرهم ونصر نبيه ودينه ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ يعني ويجتهدون في دفع الإسلام ومحو ذكر محمد ﷺ من كتبهم. وقيل: إنهم يسعون بالمكر والكيدوالحيل وليس يقدرون على غير ذلك ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ يعني أن الله لا يحب من كانت هذه صفته. قال قتادة: لا نلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس فيها وهم أبغض خلق الله إليه.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا﴾ بمحمد ﷺ وصدقوه فيما جاء به ﴿واتقوا﴾ يعني اليهودية والنصرانية

الصفات: «أمرُّوها كما جاءت بلا كيف»، ﴿ يُنفقُ ﴾، يرزق، ﴿ كيفَ يشاء ولَيَزيدَنّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك منْ ربِّكَ طُغياناً وكفراً ﴾، أي: كلما أنزل آية كفروا بها فازدادوا طغياناً وكفراً، وكفروا، ﴿ وألقينا بينهم العَدَاوَةَ والبغضاءَ ﴾، يعني: بين اليهود والنصارى، قاله الحسن ومجاهد: قيل وبين طوائف اليهود جعلهم مختلفين في دينهم متباغضين ﴿ إلى يومِ القيامة كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾، يعني: اليهود أفسدوا وخالفوا حكم التوراة، فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومي، ثم أفسدوا فسلّط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين، وقيل: كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر محمد ﷺ وأوقدوا نارَ المحاربة أطفأها الله، فردّهم وقهرهم ونصرَ نبيَّه ودينه، هذا معنى قول الحسن، وقال قتادة: هذا عامٌ في كل حرب طلبته اليهود فلا تلقى اليهود في بلد إلاّ وجدتهم من أذلِّ الناس، ﴿ ويسعون في الأرضِ فساداً واللّهُ لا يحبُّ المفسدين ﴾.

﴿ ولو أنّ أهلَ الكتابِ آمنوا ﴾، بمحمد ﷺ، ﴿ واتّقَوْا ﴾، الكفرَ، ﴿ لكفّرْنا عنهم سيئاتِهِمْ ولأدْخَلْنَاهم جنّاتِ النّعيم ﴾.

﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ يعني: لمحونا عنهم ذنوبهم التي عملوها قبل الإسلام لأن الإسلام يجب ما قبله ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ يعني مع المسلمين يوم القيامة ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ يعني أقاموا أحكامهما بحدودهما وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود والتصديق بمحمد ﷺ لأن نعته وصفته موجودان فيهما.

فإن قلت: كيف يأمر أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل مع أنهما نُسخا وبدلا. قلت: إنما أمرهم الله تعالى بإقامة ما فيهما من الإيمان بمحمد ﷺ واتباع شريعته وهذا غير منسوخ لأنه موافق لما في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وما أنزل إليهم من ربهم﴾ فيه قولان أحدهما أن المراد به كتب أنبيائهم القديمة مثل كتاب شعياء وكتاب أرمياء وزبور داود وفي هذا الكتب أيضاً ذكر محمد ﷺ فيكون المراد بإقامة هذه الكتب الإيمان بمحمد ﷺ.

والقول الثاني: أن المراد بما أنزل من ربهم هو القرآن لأنهم مأمورون بالإيمان به فكأنه نزل إليهم من ربهم ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ يعني أن اليهود لما أصروا على تكذيب محمد وثبتوا على كفرهم ويهوديتهم أصابهم الله بالقحط والشدة حتى بلغوا إلى حيث قالوا ﴿يد الله مغلولة﴾ فأخبر الله أنهم لو تركوا اليهودية والكفر الذي هم عليه لانقلبت تلك الشدة بالخصب والسعة وهو قوله تعالى: ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ قال ابن عباس: معناه لأنزلت عليهم المطر وأخرجت لهم النبات والمراد من ذلك توسعة الرزق عليهم ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ أي عادلة. والاقتصاد: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير. أصله من القصد، لأن من عرف مقصوداً طلبه من غير اعوجاج عنه. والمراد بالأمة المقتصدة: من آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا ﴿وكثير منهم﴾ يعني من أهل الكتاب الذين أقاموا على كفرهم مثل كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود ﴿ساء ما يعملون﴾ يعني بئس ما يعملون من إقامتهم على كفرهم قال ابن عباس: عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبي ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية روي عن الحسن أن الله تعالى لما بعث رسول الله ﷺ ضاق ذرعاً وعرف أن من الناس من يكذبه، فأنزل هذه الآية. وقيل: نزلت في عيب اليهود وذلك أن النبي ﷺ دعاهم إلى الإسلام فقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به ويقولون: تريد أن نتخذك حناناً كما اتخذت النصارى عيسى حناناً، فلما رأى النبي ﷺ ذلك منهم، سكت، فأنزل الله هذه الآية وأمره بأن يقول لهم: ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ الآية.

وقيل: نزلت هذه الآية في أمر الجهاد وذلك أن المنافقين كرهوه فكان النبي ﷺ يمسك في بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما علم من كراهية بعضهم له فأنزل الله هذه الآية.

﴿ ولو أنَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ ﴾، يعني: أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما، ﴿ وما أنزل إليهم منْ ربِّهم ﴾، يعني: القرآن، وقيل: كتب أنبياء بني إسرائيل، ﴿ لأكلُوا مِنْ فَوقِهِم ومِنْ تحتِ أرجلِهم ﴾، قيل: من فوقهم هو المطر، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلت عليهم القطر وأخرجتُ لهم من نبات الأرض. قال الفرّاء أراد به التوسعة في الرزق كما يقال فلان في الخير من قرنه إلى قدمه، نظيره قوله تعالى: ﴿ ولو أنّ أهلَ القُرى آمنُوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ منَ السماءِ والأرضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿ منهم أمَّةٌ مقتصدةٌ ﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه، مقتصدة أي عادلة غير غالية، ولا مقصرة جافية. ومعنى الاقتصاد في اللغة: الإعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير، ﴿ وكثيرٌ منهم ﴾، كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿ ساءَ ما يعملُون ﴾، بئس ما يعملون، بئس شيئاً عملهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبي ﷺ.

وقيل: نزلت في قصة الرجم والقصاص وما سأل عنه اليهود ومعنى الآية يا أيها الرسول بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك مجاهراً به ولا تراقبن أحداً ولا تترك شيئاً مما أنزل إليك من ربك وإن أخفيت شيئاً من ذلك في وقت من الأوقات فلما بلغت رسالته وهو قوله تعالى ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ وقرىء رسالاته قال ابن عباس: يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالتي يعني أنه ﷺ لو ترك إبلاغ البعض كان كمن لم يبلغ شيئاً مما أنزل الله إليه وحاشا رسول الله ﷺ أن يكتم شيئاً مما أوحي إليه. روى مسروق عن عائشة قالت من حدثك أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً مما أنزل إليه فقد كذب؟ ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه.

وقوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ يعني يحفظك يا محمد ويمنعك منهم والمراد بالناس هنا الكفار فإن قلت أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد وقد أوذي بضروب من الأذى فكيف يجمع بين ذلك وبين قوله والله يعصمك من الناس.

قلت: المراد منه أنه يعصمه من القتل فلا يقدر عليه أحد أراده بالقتل ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر أنه غزى مع رسول الله ﷺ قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه ونمنا معه نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً. فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس.

وفي رواية أخرى «قال جابر كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ

قوله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزل إليك منْ ربِّك﴾، رُوِيَ عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها مَن حدّثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أنزل الله فقد كذب، وهو يقول: ﴿ يا أيها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزل إليك منْ ربِّك ﴾ الآية. روى الحسن: أنّ الله تعالى لمّا بعث رسوله ضاق ذرعاً وعرف أنّ من الناس مَن يكذبه، فنزلت هذه الآية، نزلت في عيب اليهود، وذلك أن النبي ﷺ دعاهم إلى الإسلام، فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤون به، فيقولون له: تريد أن نتخذك حناناً كما اتخذت النصارى عيسى حناناً، فلما رأى النبي ﷺ ذلك سكت فنزلت هذه الآية، وأمره أن يقول لهم: ﴿ يا أهل الكتاب لستمْ على شيء ﴾ [المائدة: ٦٨] الآية. وقيل: بلّغ ما أُنزل إليك من الرجم والقصاص، نزلتْ في قصة اليهود، وقيل: نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها، وقيل: في الجهاد، وذلك أن المنافقين كرهوه، كما قال الله تعالى: ﴿ فإذا أُنزلت سورةٌ مُحكمةٌ وذُكرَ فيها القتالُ رأيتَ الذينَ في قلوبهم مرضٌ ينظرونَ إليكَ نظرَ المغشي عليه منَ الموتِ ﴾ [محمد: ٢٠]، كرهه بعض المؤمنين قال الله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم ﴾ [النساء: ٧٧] الآية. فكان النبي ﷺ يمسك في بعض الأحايين عن الحثّ على الجهادِ لما يعلم من كراهة بعضهم، فأنزل الله هذه الآية. قوله تعالى: ﴿ وإنْ لم تفعلْ فما بلغتَ رسالتَهُ ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر ويعقوب (رسالاته)، على الجمع والباقون رسالته على التوحيد، ومعنى الآية: إن لم تبلّغ الجمع وتركت بعضه، فما بلغت شيئاً، أي: جرمك في ترك تبليغ البعض كجرمك في ترك تبليغ الكل، كقوله: ﴿ نُؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويريدونَ أنْ يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ [النساء: ١٥٠ و١٥١]، أخبر أن كفرهم بالبعض محبط للإيعاب بالبعض، وقيل: بلّغْ ما أُنزل إليكَ أي: أظهر تبليغه، كقوله: ﴿ فاصدَعْ بما تُؤمرُ ﴾ [الحجر: ٩٤] وإن لم تفعلْ فإن لم تظهر تبليغه فما بلغت رسالته، أمره

فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافني؟. فقال: لا. فقال من يمنعك مني؟ قال: الله فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ» أخرجاه في الصحيحين وزاد البخاري في رواية له: أن اسم ذلك الرجل غورث بن الحارث (ق).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة قال: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة السلاح فقال من هذا؟ قال سعد بن أبي وقاص: فقال له رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام» وعن عائشة قالت «كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزلت «والله يعصمك من الناس» فأخرج رسول الله من القبة فقال لهم أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب. وقيل في الجواب عن هذا: إن هذه الآية نزلت بعد ما شج رأسه في يوم أحد لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً وقوله ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ قال ابن عباس: معناه لا يرشد من كذبك وأعرض عنك. وقال ابن جرير الطبري: معناه إن الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ما جئت به من عند الله ولم ينته إلى أمر الله وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه.

قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى لستم على شيء من الدين الحق المرتضى عند الله ولستم على شيء مما تدعون أنكم عليه مما جاءكم به موسى عليه السلام يا معشر اليهود ولا مما جاءكم به عيسى يا معشر النصارى فإنكم أحدثتم وغيّرتم.

قال ابن عباس: «جاء رسول الله ﷺ رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف وراتع بن حرملة. قالوا يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها حق، فقال رسول الله: ﷺ

بتبليغ ما أُنزل إليه مجاهراً محتسباً صابراً، غير خائف، فإن أخفيتَ منه شيئاً لخوفٍ يلحقك فما بلّغتَ رسالته، ﴿ واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾، يحفظك ويمنعك من الناس، فإن قيل: أليس قد شجّ رأسه وكسرت رباعيته وأُوذي بضروب من الأذى؟ قيل: معناه يعصمك من القتل فلا يصلون إلى قتلك. وقيل: هذه الآية بعدما شجّ رأسه لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن. وقيل: والله يخصّك بالعصمة من بين الناس، لأنّ النبي ﷺ معصوم، ﴿ إنّ اللَّهَ لا يهدي القومَ الكافرين ﴾، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا أبو شعيب عن الزهري أنا سنان بن أبي سنان الدولي وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ، قفل معه وأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلّون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلّق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي، فقال: «إنّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صَلْتاً، فقال: مَن يمنعك منّي؟ فقلت: الله ثلاثاً»، ولم يعاقبه وجلس. وروى محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الأعرابي سَلّ سيفه وقال: مَن يمنعك منّي يا محمد قال: «الله»، فرعدتْ يدُ الأعرابي وسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مسهر أنا يحيىٰ بن سعيد أنا عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: كان النبي ﷺ سهر فلما قَدِمَ المدينة قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» إذا سمعنا صوت سلاح، فقال: «مَن هذا»؟ قال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك ونام النبي ﷺ، وقال

بلى: ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس فأنا بريء من إحداثكم. قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الحق والهدى ولا نؤمن لك ولا نتبعك فأنزل الله:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ الآية وقد تقدم معنى إقامة التوراة والإنجيل وإنه يلزمهم العمل بما فيهما وهو الإيمان بمحمد ﷺ وقد تقدم تفسير ما أنزل إليكم من ربكم **﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾** وقوله تعالى **﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾** يعني فلا تحزن يا محمد على هؤلاء اليهود الذي جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك فإنما يعود ضرر ذلك الكفر عليهم.

قوله عز وجل: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى﴾** لما بين الله عز وجل أن أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا، بين في هذه الآية أن هذا الحكم عام في كل أهل الملل وأنه لا يحصل لأحد منهم فضيلة ولا منقبة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً يرضاه الله ومن العمل الصالح الإيمان بمحمد ﷺ لأنه لا يتم الإيمان إلا به وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة.

وقوله تعالى: **﴿والصابئون﴾** ظاهر الإعراب يقتضي أن يقال: والصابئين، وكذا قراءة أبيّ بن كعب وابن مسعود وابن كثير من السبعة. وقرأ الجمهور بالرفع. ومذهب الخليل وسيبويه أنه ارتفع الصابئون بالابتداء على نية التأخير كأنه قيل «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» والصابئون كذلك فحذف خبره والحكمة في عطف الصابئين على من قبلهم هي أن الصابئين أشد الفرق المذكورة في هذه الآية ضلالاً فكأنه قال: كل هؤلاء الفرق إذا آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئون، فإنهم إذا آمنوا كانوا أيضاً كذلك، وإنما سموا صابئين، لأنهم صبئوا عن الأديان كلها، بمعنى: خرجوا

عبد الله بن شقيق عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيّ ﷺ يُحرَس حتى نزلت هذه الآية: **﴿ والله يعصمك من الناس ﴾**، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبّة فقال لهم: «أيها النّاس انصرفوا فقد عصمني الله سبحانه وتعالى».

قوله عزّ وجلّ: **﴿ قلْ يا أهلَ الكتابِ لستُمْ على شيءٍ حتى تقيمُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أنزل إليكم منْ ربِّكم ﴾**، أي: تقيموا أحكامهما وما يجب عليكم فيهما، **﴿ ولَيَزِيدَنَّ كثيراً منهمْ ما أنزل إليك منْ ربّك طُغياناً وكفراً فلا تأسَ ﴾**، فلا تحزن، **﴿ على القومِ الكافرين ﴾**.

﴿ إنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هادُوا والصَّابئون والنَّصارى ﴾، وكان حقه: **﴿ والصابئين ﴾** وقد ذكرنا في سورة البقرة وجه ارتفاعه، وقال سيبويه: فيه تقديم وتأخير تقديره: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى مَن آمن بالله إلى آخر الآية، والصابئون كذلك، قوله: **﴿ إن الذين آمنوا ﴾** أي: باللسان، وقوله: **﴿ مَن آمن بالله ﴾** أي: بالقلب،

لأنهم صبئوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا ما جاءت به الرسل من عنده الله.

فإن قلت: قد قال الله تعالى في أول الآية إن الذين آمنوا ثم قال في آخر الآية فمن آمن فما فائدة هذا التكرار. قلت: فائدته أن المنافقين كانوا يظهرون الإسلام ويزعمون أنهم مؤمنون، ففي هذا التكرار إخراجهم من قبيل المؤمنين فيكون معنى إن الذين آمنوا أي بألسنتهم لا بقلوبهم. ثم قال: من آمن يعني من ثبت على إيمانه ورجع عن نفاقه منهم. وقيل: فيه فائدة أخرى وهي أن الإيمان يدخل تحته أقسام كثيرة وأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر ففائدة التكرار التنبيه على أشرف أقسام الإيمان هذان القسمان وفي قوله ﴿**من آمن بالله**﴾ حذف تقديره من آمن بالله ﴿**واليوم الآخر**﴾ منهم وإنما حسن هذا الحذف لكونه معلوماً عند السامعين ﴿**وعمل صالحاً**﴾ يعني وضم إلى إيمانه العمل الصالح وهو الذي يراد به وجه الله تعالى ﴿**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ يعني في الآخر. قوله عز وجل: ﴿**لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل**﴾ يعني أخذنا العهود عليهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها من التوحيد والعمل بما أمرناهم به والانتهاء عما نهيناهم عنه ﴿**وأرسلنا إليهم رسلاً**﴾ يعني لبيان الشرائع والأحكام ﴿**كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم**﴾ يعني بما يخالف أهواءهم ويضاد شهواتهم من ميثاق التكليف والعمل بالشرائع ﴿**فريقاً كذبوا**﴾ يعني من الرسل الذين جاءتهم ﴿**وفريقاً يقتلون**﴾ يعني من الرسل فكان فيمن كذبوا عيسى ومحمد ﷺ وكان فيمن قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام وإنما فعلوا ذلك نقضاً للميثاق وجراءة على الله عز وجل ومخالفة لأمره.

قوله تعالى: ﴿**وحسبوا**﴾ يعني وظنّ هؤلاء الذين كذبوا الرسل وقتلوا الأنبياء ﴿**أن لا تكون فتنة**﴾ يعني أن لا يعذبهم الله ولا يبتليهم بذلك الفعل الذي فعلوه وإنما حملهم على هذا الظن الفاسد أنهم كانوا يعتقدون أن كل رسول جاءهم بشرع آخر غير شرعهم يجب عليهم تكذيبه وقتله. فلهذا السبب حسبوا أن لا يكون فعلهم ذلك فتنة يبتلون بها. وقيل: إنما قدموا على ذلك لاعتقادهم أن آباءهم وأسلافهم يدفعون عنهم العذاب في الآخرة ﴿**فعموا وصموا**﴾ يعني أنهم عموا عن الحق فلم يبصروه وصموا عنه فلم يسمعوه وهذا العمى هو كناية عن عمى البصيرة لا البصر وكذلك الصمم هو كناية عن منع نفوذ الحق إلى قلوبهم وسبب ذلك شدة جهلهم وقوة كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق قال بعض المفسرين سبب هذا العمى والصمم عبادتهم العجل في زمن موسى عليه السلام ﴿**ثم تاب الله عليهم**﴾ يعني أنهم لما تابوا من عبادتهم العجل تاب الله عليهم ﴿**ثم عموا وصموا**﴾ يعني في زمان زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام لأنهم كذبوا عيسى وقتلوا زكريا ويحيى وقيل إن العمى والصمم الأول كان بعد موسى ثم تاب الله عليهم يعني ببعثه عيسى عليه السلام ثم عموا وصموا يعني بسبب الكفر بمحمد ﷺ ﴿**كثير منهم**﴾ من اليهود لأن بعضهم آمن بمحمد ﷺ

وقيل: الذين آمنوا على حقيقة الإيمان ﴿ مَنْ آمنَ باللّهِ ﴾، أي ثبتَ على الإيمان، ﴿ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **لقدْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل** ﴾ في التوحيد والنبوّة، ﴿ **وأرسلنا إليهم رُسُلاً كلّما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسُهم فريقاً كذّبوا** ﴾، عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما، ﴿ **وفريقاً يقتلون** ﴾، يحيىٰ وزكريا.

﴿ **وحَسِبُوا** ﴾، ظنّوا، ﴿ **أن لا تكونَ فتنة** ﴾، أي: عذاب وقتل، وقيل: ابتلاء واختبار، أي: ظنّوا أن لا يُبتلوا ولا يُعذّبهم الله، قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي «تكون» برفع النون على معنى أنها لا تكون، ونصبها الآخرون كما لو لم يكن قبله لا، ﴿ **فَعَمُوا** ﴾، عن الحق فلم يبصروه، ﴿ **وصَمُّوا** ﴾، عنه فلم يسمعوه، يعني عموا وصمّوا بعد موسى صلوات الله وسلامه عليه، ﴿ **ثم تابَ اللّهُ عليهم** ﴾، ببعث عيسى عليه السلام، ﴿ **ثم عَمُوا وصمُّوا كثيرٌ منهم** ﴾، بالكفر بمحمد ﷺ، ﴿ **واللّهُ بصيرٌ بما يعملون** ﴾.

مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿والله بصير بما يعملون﴾ يعني من قتل الأنبياء وتكذيب الرسل.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم**﴾ لما حكى الله عن اليهود ما حكاه من نقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل وغير ذلك شرع في الأخبار عن كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد فقال تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم**﴾ وهذا قول اليعقوبية والملكانية من النصارى لأنهم لا يقولون إن مريم ولدت إلهاً ولأنهم يقولون إن الإله جل وعلا حل في ذات عيسى واتحد به فصار إلهاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿**وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم**﴾ يعني وقد كان المسيح قال هذا لبني إسرائيل عند مبعثه إليهم وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى ذلك لأنه عليه السلام لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية والإقرار لله بالربوبية وإن دلائل الحدوث ظاهرة عليه ﴿**أنه يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة**﴾ يعني أنه من يجعل له شريكاً من خلقه فقد حرم الله عليه الجنة يعني إذا مات على شركه ﴿**ومأواه النار**﴾ يعني أنه يصير إلى النار في الآخرة ﴿**وما للظالمين**﴾ يعني وما للمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ﴿**من أنصار**﴾ يعني ما لهم من أنصار ينصرونهم ويمنعونهم من العذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة**﴾ وهذا قول المرقوسية والنساورية من النصارى. ولتفسير قول النصارى طريقان: أحدهما وهو قول أكثر المفسرين إنهم أرادوا بهذه المقالة أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة وأن الإلهية مشتركة بينهم وأن كل واحد منهم إله ويبين ذلك قوله تعالى للمسيح: ﴿**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾؟ فقوله ثالث ثلاثة فيه إضمار تقديره إن الله أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة آلهة. قال الواحدي: ولا يكفر من يقول إن الله ثالث ثلاثة ولم يرد به أنه ثالث ثلاثة آلهة لأنه ما من اثنين إلا والله ثالثهما بالعلم ويدل عليه قوله تعالى في سورة المجادلة ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم**﴾ وقد قال النبي ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟». والطريق الثاني: أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: إنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم أب وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة،

﴿لقد كفرَ الذين قالوا إنّ اللّهَ هو المسيحُ ابن مريمَ﴾، وهم الملكانية واليعقوبية منهم، ﴿وقال المسيحُ يا بني إسرائيل اعبدُوا اللّهَ ربّي وربَّكم إنّه مَنْ يُشرِكْ باللّهِ فقد حرّمَ اللّهُ عليه الجنةَ ومأواهُ النارُ وما للظّالمين من أنصار﴾.

﴿لقد كفرَ الذينَ قالوا إنّ اللّهَ ثالثُ ثلاثة﴾، يعني: المرقوسية، وفيه إضمار معناه: ثالث ثلاثة الآلهة، لأنهم يقولون: الإلٰهية مشتركة بين الله تعالى ومريم وعيسى، وكل واحد من هؤلاء إلٰه فهم ثلاثة آلهة، يبيّن هذا قوله عزّ وجلّ للمسيح: ﴿ أأنتَ قلتَ للنّاسِ اتخذوني وأُميَ إلٰهين من دون الله ﴾ [المائدة: ١١٦]؟ ومَن قال: إن الله ثالث

وعنوا بالأب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة وأثبتوا الذات والكلمة والحياة قالوا إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد واعلم أن هذا الكلام معلوم البطلان لبديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحداً والواحد لا يكون ثلاثة، ولا ترى في الدنيا مقالة أشد فساداً ولا أظهر بطلاناً من مقالة النصارى وعلى هذا أخبر الله عنهم في قوله ﴿لقد كفرالذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ فهذا معنى مذهبهم وإن لم يصرحوا بأنه واحد من ثلاثة آلهة فذلك لازم لهم وإنما يمتنعون من هذه العبارة لأنهم إذا قالوا: إن كل واحد من الأقانيم إله فقد جعلوه ثالث ثلاثة. وقولهم بعد هذا: هو إله واحد فيه مناقضة لما قالوا أولاً فهذا بيان فساد قول النصارى ثم رد الله عليهم فقال تعالى: ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ يعني أنه ليس في الوجود إله واحد موصوف بالوحدانية لا ثاني له ولا شريك له ولا والد له ولا ولد له ولا صاحبة له إلا الله تعالى: ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾ يعني وإن لم ينته النصارى عن هذه المقالة الخبيثة ﴿ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ يعني ليصيبن الذين أقاموا على هذا القول الخبيث وهذا الدين الذي ليس بمرضي عذاب وجيع في الآخرة وإنما قال تعالى منهم لعلمه السابق أن من النصارى من سيؤمن ويخلص ويترك هذا القول ويعلم أنه فاسد ثم ندب سائر النصارى إلى التوبة من هذه المقالة الخبيثة فقال تعالى: ﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾ يعني من قولهم بالتثليث ﴿ويستغفرونه﴾ وهذا استفهام بمعنى الأمر أي: توبوا إلى الله واستغفروه من هذا الذنب العظيم فإنه تعالى يغفر الذنوب ﴿والله غفور﴾ يعني لمن استغفره وتاب إليه ﴿رحيم﴾ به وبسائر خلقه.

قوله عز وجل: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ يعني أن المسيح رسول من الله عز وجل ليس بإله كما أن الرسل الذين كانوا من قبله لم يكونوا آلهة وقد أتى عيسى عليه السلام بالمعجزات الدالة على صدقه كما أن الذين من قبله أتوا بالمعجزات الدالة على صدقهم ﴿وأمه صديقة﴾ يعني أنها كثيرة الصدق وقيل: سميت مريم صديقة، لأنها صدقت بآيات ربها وكتبه. وقوله تعالى: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ في احتجاج على فساد قول النصارى بإلهية المسيح. يعني: أن المسيح وأمه مريم كانا بشرين يأكلان الطعام ويعيشان به كسائر بني آدم، فكيف يكون إلهاً مَنْ يحتاج إلى الطعام ولا يعيش إلا به؟ وقيل: معناه أنه لو كان إلهاً كما يزعمون لدفع عن نفسه ألم الجوع وألم العطش ولم يوجد ذلك فكيف يكون إلهاً وقيل هذا كناية عن الحدث وذلك أن كل من أكل وشرب لا بد له من الغائط والبول ومن كانت هذه صفته فكيف يكون إلهاً؟

ثلاثة ولم يرد به الإلٰهية لا يكفر، فإنّ الله يقول: ﴿ ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعهم ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال النبيّ ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «ما ظنّك باثنين اللّهُ ثالثهما». ثم قال ردّاً عليهم: ﴿ وما مِنْ إلٰهٍ إلاّ إلٰهٌ واحدٌ وإنْ لم ينتهُوا عمّا يقولون ليَمسَّنَّ ﴾، ليصيبنّ، ﴿ الذين كفرُوا منهم عذابٌ أليم ﴾، خصّ الذين كفروا لعلمه أنّ بعضهم يؤمنون.

﴿ أفلا يتوبُونَ إلى الله ويستغفرونه ﴾؟ قال الفرّاء: هذا أمر بلفظ الاستفهام كقوله تعالى: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة: ٩١]، أي: انتهوا، والمعنى: أن الله يأمركم بالتوبة والاستغفار من هذا الذنب العظيم، ﴿ واللّهُ غفورٌ رحيم ﴾.

﴿ ما المسيحُ ابن مريمَ إلاّ رسولٌ قد خلتْ ﴾، مضت، ﴿ من قبله الرُّسل ﴾، أي: ليس هو بإلٰه بل هو كالرُّسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة، ﴿ وأمّه صدّيقة ﴾، أي: كثيرة الصدق. وقيل: سُمّيت صدّيقة لأنها صدّقت بآيات الله، كما قال عزّ وجلّ في وصفها: ﴿ وصدّقت بكلمات ربّها ﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿ كانا يأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾،

وبالجملة فإن فساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج إلى إقامة دليل عليه ثم قال تعالى: ﴿انظر﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي انظر يا محمد ﴿كيف نبين لهم الآيات﴾ يعني الدالة على بطلان قولهم ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن استماع الحق وقبوله.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل أتعبدون من دون الله﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: قل يا محمد لهؤلاء النصارى أتعبدون من دون الله ﴿ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ يعني لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال ولا يقدر أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان وسعة الأرزاق فإن الضار والنافع هو الله تعالى لا من تعبدون من دونه ومن لم يقدر على النفع والضر لا يكون إلهاً ﴿والله هو السميع العليم﴾ يعني أنه تعالى سميع لأقوالكم وكفركم عليم بما في ضمائركم.

قوله عز وجل: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾. الغلوّ: مجاوزة الحد وذلك أن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط فمجاوزة الحد والتقصير مذمومان في الدين ﴿غير الحق﴾ يعني: لا تغلوا في دينكم غلواً باطلاً غير الحق وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم ثم غلوا في الإصرار عليه وكلا الفريقين من اليهود والنصارى غلوا في عيسى عليه السلام، أما غلوّ اليهود فالتقصير في حقه حتى نسبوه إلى غير رشدة، وأما غلوّ النصارى فمجاوزة الحد في حقه حتى جعلوه إلههم وكلا الغلوين مذموم ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ الأهواء جمع هوى وهو ما تدعو شهوة النفس إليه، قال الشعبي: ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلا وذمه وقال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا

أي: كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين، فكيف يكون إلهاً مَن لا يقيمه إلاّ أكل الطعام؟ وقيل: هذا كناية عن الحدث، وذلك أن مَن أكل وشرب لا بدّ له من البول والغائط، ومَن هذه صفته كيف يكون إلهاً؟ ثم قال: ﴿ انظر كيفَ نبيِّنُ لهمُ الآياتِ ثم انظرْ أنّى يُؤفكون ﴾، أي يُصرفون عن الحق.

﴿ قلْ أتعبدُون مِن دونِ اللّهِ ما لا يملكُ لكمْ ضرّاً ولا نفعاً واللّهُ هو السميعُ العليم ﴾.

﴿ قلْ يا أهلَ الكتابِ لا تغلُوا في دينكم غيرَ الحق ﴾، أي: لا تتجاوزوا الحدّ والعلو والتقصير كل واحد مِنهما مذموم في الدين، وقوله: ﴿ غير الحق ﴾ أي: في دينكم المخالف للحق، وذلك أنهم خالفوا الحق في دينهم، ثم غلوا فيه بالإصرار عليه، ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم ﴾، والأهواء جمع الهوى وهو ما تدعو إليه شهوة النفس ﴿ قدْ ضلّوا من قبل ﴾، يعني: رؤوساء الضلالة من فريقي اليهود والنصارى، والخطاب للذين كانوا في عصر النبي ﷺ نهوا عن اتّباع أسلافهم فيما ابتدعوه بأهوائهم، ﴿ وأضلّوا كثيراً ﴾، يعني: مَن اتّبعهم على أهوائهم، ﴿ وضلّوا عنْ سَواءِ السبيل ﴾، عن قصد الطريق: أي: بالإضلال فالضلال الأول من الضلالة، والثاني بإضلال مَن اتّبعهم.

موضع الشر لأنه لا يقال فلان يهوى الخير إنما يقال فلان يحب الخير ويريده والخطاب في قوله ولا تتبعوا أهواء قوم لليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ نهوا عن اتباع أسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم وهو المراد بقوله أهواء قوم قد ضلوا من قبل فبين الله تعالى أنهم كانوا على ضلاله ﴿**وأضلوا كثيراً**﴾ يعني من اتبعهم على ضلالتهم وأهوائهم ﴿**وضلوا عن سواء السبيل**﴾ يعني وأخطؤوا عن قصد طريق الحق.

قوله تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود**﴾ قال أكثر المفسرين: هم أصحاب السبت لما اعتدوا في السبت واصطادوا الحيتان فيه. قال داود عليه السلام: اللهم العنهم واجعلهم قردة فمسخوا قردة وستأتي قصتهم في سورة الأعراف ﴿**وعيسى ابن مريم**﴾ يعني وعلى لسان عيسى ابن مريم وهم كفار أصحاب المائدة لما أكلوا منها وادخروا ولم يؤمنوا قال عيسى عليه السلام اللهم العنهم واجعلهم خنازير فمسخوا خنازير وستأتي قصتهم.

وقال بعض العلماء: إن اليهود كانوا يفتخرون بآبائهم ويقولون نحن من أولاد الأنبياء عليهم السلام، فأخبر الله تعالى بأنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء عليهم السلام. وقيل: إن داود وعيسى بشَّرا بمحمد ﷺ ولعنا من يكفر به ﴿**ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ يعني ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ثم فسر الاعتداء والمعصية فقال تعالى: ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر. وقيل: معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ولا عن الإصرار عليه ﴿**لبئس ما كانوا يفعلون**﴾ اللام في لبئس لام القسم أي أقسم لبئس ما كانوا يفعلون يعني من ارتكاب المعاصي والعدوان. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم**﴾ إلى قوله فاسقون ثم قال «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا» زاد في رواية ﴿**أوليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم**﴾ أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عنه فقال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم: ﴿**ذلك بما**

﴿ **لُعنَ الذينَ كفرُوا من بني إسرائيل على لسانِ داودَ** ﴾، يعني: أهل أيلة لمّا اعتدوا في السبت، وقال داود عليه السلام: اللّهمَّ العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردةً وخنازير، ﴿ **وعيسى ابْنِ مريم** ﴾، أي: على لسان عيسى عليه السلام يعني كفّار أصحاب المائدة، لمّا لم يؤمنوا، قال عيسى: اللّهمَّ العنهم واجعلهم آية فمسخوا خنازير، ﴿ **ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدُون** ﴾.

﴿ **كانوا لا يتناهَوْنَ عن منكرٍ فعلوه** ﴾، أي: لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿ **لبئسَ ما كانُوا يفعلون** ﴾. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أبو الحسن محمد بن الحسين أنا أحمد بن محمد بن إسحق أنا أبو يعلى الموصلي أنا وهب بن بقية أنا خالد يعني ابن عبد الله الواسطي عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرّة عن أبي عُبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة نهاه الناهي تعذيراً فإذا كان من الغد جالسه وآكله وشاربه كأنه لم يره على الخطيئة بالأمس، فلما رأى الله تبارك وتعالى ذلك منهم ضرب قلوبَ بعضهم على بعض، وجعل منهم القردة والخنازير،

عصوا وكانوا يعتدون﴾ وجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً فقال «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا» قال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب قوله أكيله وشريبه وقعيده هو المؤاكل والمشارب والمقاعد فعيل بمعنى فاعل وقوله: لتأطرنه، الأطر العطف يعني لتعطفنه ولتردنه إلى الحق الذي خالفه والقصر والقهر على الشيء.

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ
أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)

قوله عز وجل: ﴿ترى كثيراً منهم﴾ يعني من اليهود مثل كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يتولون الذين كفروا﴾ يعني: يوالون المشركين من أهل مكة وذلك حين خرجوا إليهم ليجيشوا على رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس: معناه ترى كثيراً من المنافقين يتولون اليهود ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ يعني بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أن سخط الله عليهم﴾ يعني بما فعلوا من موالاة الكفار ﴿وفي العذاب هم خالدون﴾ يعني في الآخرة ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي﴾ يعني ولو كان هؤلاء الذين يتولون الكفار يؤمنون بالله ويصدقون بمحمد ﷺ وأنه نبي مبعوث إلى كافة الخلق ﴿وما أنزل إليه﴾ يعني ويؤمنون بالقرآن الذي أنزل إليه من ربه ﴿ما اتخذوهم أولياء﴾ يعني ولكن أكثرهم خارجون عن طاعة الله وأمره وإنما قال كثيراً لأنه علم أن منهم من سيؤمن مثل عبد الله بن سلام وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ اللام في قوله لتجدن لام القسم تقديره والله يا محمد إنك لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا بك وصدقوك اليهود والذين أشركوا ووصف الله شدة عداوة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق وجعلهم قرناء المشركين عبدة الأصنام في العداوة للمؤمنين وذلك حسداً منهم للمؤمنين ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ ووصف لين عريكة النصارى وسهولة قبولهم الحق. قال بعضهم: مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر والأذى إلى من خالفهم في الدين بأي طريق كان مثل القتل ونهب المال بأنواع المكر والكيد والحيل، ومذهب النصارى خلاف اليهود، فإن الإيذاء في مذهبهم حرام، فحصل الفرق بين اليهود والنصارى. وقيل: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرياسة ومن كان كذلك كان شديد العداوة لغيره.

ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون، والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخذنّ على يَدِ السفيه ولتأطرنّه على الحق أطراً أو ليضربنّ اللّهُ قلوبَ بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم».

قوله تعالى: ﴿ ترى كثيراً منهم ﴾، قيل: من اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿ يتولّون الذين كفروا ﴾، مشركي مكة حين خرجوا إليهم يجيشون على النبي ﷺ، وقال ابن عباس ومجاهد والحسن: منهم يعني من المنافقين يتولّون اليهود، ﴿ لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم ﴾، بئس ما قدّموا من العمل لمعادهم في الآخرة، ﴿ أنْ

وأما النصارى، فإن فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذتها وترك طلب الرياسة ومن كان كذلك فإنه لا يحسد أحداً ولا يعاديه بل يكون لين العريكة في طلب الحق لهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأن منهم﴾ يعني من النصارى ﴿قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ ولم يرد به كل النصارى فإن معظم النصارى في عداوة المسلمين كاليهود بل الآية نزلت فيمن آمن من النصارى مثل النجاشي وأصحابه. والقس والقسيس: اسم رئيس النصارى والجمع قسيسون. وقال قطرب: القس والقسيس العالم بلغة الروم. وهذا مما وقع الوفاق بين اللغتين يعني العربية والرومية. وأما الرهبان، فهو جمع راهب. وقيل: الرهبان واحد وجمعه رهابين وهم سكان الصوامع.

فإن قلت: كيف مدحهم الله بذلك مع قوله ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ قلت: إنما مدحهم الله في مقابلة ذم اليهود ووصفهم بشدة العداوة للمؤمنين ولا يلزم من هذا القدر أن يكون مدحاً على الإطلاق. وقيل: إنما مدح من آمن منهم بمحمد ﷺ فوصفهم بالتمسك بدين عيسى إلى أن بعث رسول الله ﷺ فآمنوا به واتبعوه فإن قلت: كفر النصارى أشد وأغلظ من كفر اليهود وأقبح فإن النصارى ينازعون في الإلهيات فيدعون أن لله ولداً واليهود ينازعون في النبوات فيقرون ببعض النبيين وينكرون بعضهم والأول أقبح فلم ذم اليهود ومدح النصارى؟ قلت: إنما هو مدح في مقابلة ذم وليس بمدح على الإطلاق وقد تقدم الفرق بين شدة عداوة اليهود ولين النصارى فلذلك ذم اليهود ومدح النصارى الذين آمنوا منهم. واختلف العلماء في من نزلت هذه الآية فقيل نزلت في النجاشي ملك الحبشة واسمه أصحمة وأصحابه الذين أسلموا معه.

(ذكر قصة الهجرة الأولى وسبب نزول هذه)

قال ابن عباس وغيره من المفسرين في قوله ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾: إن قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم فأذوهم وعذبوهم فافتتن من افتتن منهم وعصم الله من شاء منهم ومنع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ﷺ ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: إن بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً فخرج إليها أحد عشر رجلاً وأربع

سَخِطَ اللَّهُ عليهم ﴾، غضب الله عليهم، **﴿ وفي العذاب هم خالدون ﴾**.

﴿ ولو كانوا يُؤمنون بالله والنبيِّ ﴾، محمد ﷺ، **﴿ وما أُنزل إليه ﴾**، يعني القرآن، **﴿ ما اتخذوهم ﴾** يعني الكفّار، **﴿ أولياء ولكنّ كثيراً منهم فاسقون ﴾**، أي خارجون عن أمر الله سبحانه وتعالى.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ لتجدنّ أشدَّ النَّاسِ عداوةً للذين آمنُوا اليهودَ والذينَ أشركوا ﴾**، يعني: مشركي العرب، **﴿ ولتجدنّ أقربَهم مودّةً للذين آمنُوا الذينَ قالوا إنّا نصارى ﴾**، لم يرد به جميع النصارى لأنهم في عداوتهم المسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين، وأسرهم وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم، لا ولا كرامة لهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه، وقيل: نزلت في جميع اليهود وجميع النصارى، لأن اليهود أقسى قلباً والنصارى ألين قلباً منهم، وكانوا أقلّ مظاهرة للمشركين من اليهود، قال أهل التفسير: ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على مَن فيها من المسلمين يُؤذونهم ويعذبونهم، فافتتن مَن افتتن، وعصم الله منهم مَن شاء، ومنع الله تعالى رسوله بعمّه أبي طالب، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يُؤمَرْ بعدُ بالجهاد أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «إنّ بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرُجُوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً» وأراد به النجاشي واسمه أصحمة وهو بالحبشة

نسوة سراً وهم: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة بن عقبة وامرأته سهلة بنت سهل بن عمرو، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة بنت أمية، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة، وحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء، فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة بنصف دينار إلى أرض الحبشة وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث النبي ﷺ، وهذه الهجرة الأولى. ثم خرج بعدهم جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون فكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص وجماعة بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ليردهم إليهم، فدخل إليه عمرو وقال له: أيها الملك إنه قد خرج فينا رجل سفَّه عقول قريش وأحلامها وزعم أنه نبي وأنه قد بعث إليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم وأن قومهم يسألونك أن تردهم إليهم. فقال: حتى نسألهم فأمر بهم فأحضروا فلما أتوا باب النجاشي قالوا: يستأذن أولياء الله. فقال: ائذنوا لهم فمرحباً بأولياء الله. فلما دخلوا عليه سلموا، فقال الرهط من المشركين: أيها الملك ألا ترى أنا قد صدَقناك إنهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها؟ فقال لهم الملك: ما منعكم أن تحيوني بتحيتي؟ فقالوا له: إنا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة. فقال لهم النجاشي: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ فقال جعفر بن أبي طالب: يقول هو عبد الله ورسوله وكلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم العذراء، ويقول في مريم إنها العذراء البتول. قال: فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: والله ما زال صاحبكم على ما قال عيسى قدر هذا العود. فكره المشركون قوله وتغيرت وجوههم. فقال: هل تعرفون شيئاً مما أُنزل على صاحبكم؟ قالوا: نعم. قال: اقرؤوا، فقرأ جعفر سورة مريم وهنالك قسيسون ورهبان وسائر النصارى فعرفوا ما قرأ فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق فأنزل الله فيهم ﴿**ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون**﴾ إلى آخر الآيتين فقال النجاشي لجعفر وأصحابه؛ اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي يعني أنكم آمنون فرجع عمرو وأصحابه خائبين وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار وخير جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وعلا أمره وقهر أعداءه وذلك في سنة ست من الهجرة وكتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت قد هاجرت مع زوجها ومات عنها فأرسل النجاشي جارية يقال لها أبرهة إلى أم حبيبة يخبرها

عطية، وإنما النجاشي اسم الملك، كقولهم قيصر وكسرى، فخرج إليها سرّاً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وهم عثمان بن عفّان وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوّام وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أُم سلمة بنت أبي أُمية، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي خيثمة، وحاطب بن عمرو وسهل بن بيضاء رضي الله عنهم، فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ، وهذه الهجرة الأولى ثم خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون إليها وكان جميع مَن هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك وجّهوا عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى النجاشي وبطارقته ليردّوهم إليهم، فعصمه الله وذُكرت القصة في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾ [آل عمران: ٦٨]، إلى آخر الآية، فلما انصرفا خائبين أقام المسلمون هناك بخير دار وأحسن جوار إلى أن هاجر رسول الله ﷺ، وعلا أمره وذلك في سنة ستٍّ من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري ليزوّجه أُم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت قد هاجرت إليه مع زوجها فمات زوجها، ويبعث إليه من عنده من المسلمين فأرسل النجاشي إلى أُم حبيبة جارية

أن رسول الله ﷺ قد خطبها فسرت بذلك وأعطت الجارية أوضاحاً كانت لها وأذنت لخالد بن سعيد في نكاحها فأنكحها رسول الله ﷺ على صداق مبلغه أربعمائة دينار وكان الخاطب لرسول الله ﷺ النجاشي ﷺ فأرسل إليها بجميع الصداق على يد جاريته أبرهة فلما جاءتها بالدنانير وهبتها منها خمسين ديناراً فلم تأخذها. وقالت: إن الملك أمرني أن لا أخذ منك شيئاً. وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت بمحمد ﷺ وآمنت به وحاجتي إليك أن تقرئيه مني السلام. قالت: نعم. فقالت قد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من دهن وعود وكان رسول الله ﷺ يراه عندها فلا ينكره. قالت أم حبيبة: فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ يحاصر خيبر فخرج من خرج إليه ممن قدم من الحبشة وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ فكان يسألني عن النجاشي وقرأت عليه السلام من أبرهة جارية الملك فرد رسول الله ﷺ عليها السلام وأنزل الله عز وجل: ﴿**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة**﴾ يعني أبا سفيان وذلك بتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة ولما بلغ أبا سفيان أن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة قال ذلك الفحل لا يجدع أنفه. وبعث النجاشي بعد خروج جعفر وأصحابه إلى النبي ﷺ ابنه أزهى في ستين رجلاً من أصحابه وكتب إليه يا رسول الله إني أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفراً وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت إليك ابني أزهى وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول الله. فركبوا في سفينة قي أثر جعفر حتى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا ووافى جعفر وأصحابه رسول الله ﷺ وهو بخير ووافى مع جعفر سبعون رجلاً عليهم ثياب الصوف منهم اثنان وستون رجلاً من الحبشة وثمانية من الشام فقرأ عليهم رسول الله ﷺ يس إلى آخرها فبكى القوم حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام فأنزل الله هذه الآية فيهم وهي قول: ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**﴾ يعني: وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر وهم السبعون وكانوا من أصحاب الصوامع.

يقال لها أبرهة تخبرها بخطبة رسول الله ﷺ إيّاها، فأعطتها أوضاحاً لها سروراً بذلك، فأذنت خالد بن سعيد بن العاص حتى أنكحها على صداق أربعمائة دينار، وكان الخاطب لرسول الله ﷺ النجاشي رحمه الله فأنفذ إليها النجاشي أربعمائة دينار على يد أبرهة، فلما جاءتْها بها أعطتها خمسين ديناراً فردّته وقالت: أمرني الملك أن لا آخذ منك شيئاً، وقالت: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه، وقد صدقتُ محمداً ﷺ وآمنتُ به، وحاجتي منك أن تُقرئيه منّي السلام، قالت نعم: قالت أبرهة: وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهنّ من عُودٍ وعنبر، فكان رسول الله ﷺ يراه عندها فلا ينكر، قالتْ أُم حبيبة فخرجنا إلى المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر، فخرج مَن خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قَدِمَ النبي ﷺ فدخلت عليه وكان يسألني عن النجاشي فقرأت عليه من أبرهة السلام فردّ رسول الله ﷺ، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهمْ مودّة ﴾ [الممتحنة: ٧] يعني: أبا سفيان مودّة، يعني: بتزويج أُم حبيبة، ولما جاء أبا سفيان تزويج أُم حبيبة، قال: ذلك الفحل لا يُجدع أنفُه، وبعث النجاشي بعد قدوم جعفر إلى رسول الله ﷺ، ابنه أزهى بن أصحمة بن أبجر في ستّين رجلاً من الحبشة، وكتب إليه: يا رسول الله أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدِّقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمّك وأسلمت لله ربِّ العالمين، وقد بعثتُ إليك ابني أزهى، وإن شئت آتيك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول الله، فركبوا سفينة في أثر جعفر وأصحابه حتى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا، ووافى جعفر وأصحابه رسولَ الله ﷺ في سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستّون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يٰسٓ إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن، وقالوا: آمنّا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿ **ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى** ﴾، يعني: وفد النجاشي

وقيل: نزلت في ثمانين رجلاً أربعين من نصارى نجران من بني الحرث بن كعب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية روميين من أهل الشام. وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق بما جاء به عيسى عليه السلام فلما بعث محمد ﷺ آمنوا به وصدقوه فأثنى الله عليهم بقوله: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ يعني لا يتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ يعني: وإذا سمعوا القرآن الذي أنزل إلى الرسول محمد ﷺ ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ يقال: فاض الإناء إذا امتلأ حتى يخرج منه ما فيه. وصفهم الله تعالى بسيل الدمع عند البكاء ورقة القلب عن سماع القرآن. قال ابن عباس: يريد النجاشي وأصحابه لما قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم. قال: فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة ﴿مما عرفوا من الحق﴾ يعني الذي نزل على محمد ﷺ وهو الحق ﴿يقولون﴾ يعني القسيسين والرهبان الذين سمعوا القرآن من جعفر عند النجاشي ﴿ربنا آمنا﴾ يعني بالقرآن وشهدنا أنه حق وصدق ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ يعني مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ قال ابن عباس: لما رجع الوفد من عند رسول الله ﷺ لامهم قومهم على ترك دينهم. وقيل: إن اليهود عيروهم وقالوا تركتم دينكم فأجابوا بهذا الجواب. ومعنى الآية: ومالنا لا نؤمن بوحدانية الله وما جاءنا من

الذين قَدِموا مع جعفر وهم السبعون، وكانوا أصحاب الصوامع، وقال مقاتل والكلبي: كانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وقال عطاء: كانوا ثمانين رجلاً أربعون من أهل نجران من بني الحرث ابن كعب، واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية روميّون من أهل الشام، وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام، فلما بعث الله محمداً ﷺ صدّقوه وآمنوا به فأثنى الله عزّ وجلّ بذلك عليهم. ﴿ ذلك بأنّ منهم قسيسين ﴾، أي علماء، قال قطرب: القس والقسيس العالِم بلغة الروم، ﴿ ورهباناً ﴾، الرهبان العباد أصحاب الصوامع واحدهم راهب، مثل فارس وفرسان، وراكب وركبان وقد يكون واحداً وجمعه رهابين، مثل قربان وقرابين، ﴿ وأنهم لا يستكبِرُون ﴾، لا يتعظمون عن الإيمان والإذعان للحق.

﴿ وإذا سمعُوا ما أُنزل إلى الرسول ﴾، محمد ﷺ، ﴿ ترى أعينهم تفيض ﴾، تسيل، ﴿ من الدّمع ممّا عرفُوا من الحق ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: يريد النجاشي وأصحابه قرأ عليهم جعفر بالحبشة كهيعص [مريم: ١]، فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة. ﴿يقولُون ربّنا آمنّا فاكتبْنا معَ الشاهدين﴾، يعني أمة محمد ﷺ، دليله قوله تعالى: ﴿ لتكونُوا شهداءَ على النّاس ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ ومَا لَنا لا نُؤمنُ بالله وما جاءَنا من الحق ﴾، وذلك أن اليهود عيّروهم وقالوا لهم: لِمَ آمنتم؟ فأجابوهم بهذا، ﴿ ونطمع أن يُدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين ﴾، أي: في أمة محمد ﷺ، بيانه أن الأرض يرثها عبادي الصالحون.

الحق من عنده على لسان رسول الله ﷺ ﴿ونطمع﴾ يعني: ونرجو بذلك الإيمان ﴿أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ يعني مع أمة محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ يعني بالتوحيد الذي قالوه وإنما علق الثواب وهو قوله تعالى: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ بمجرد القول لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم فيما قالوا وهو المعرفة والبكاء المؤذنان بحقيقة الإخلاص واستكانة القلب، لأن القول إذا اقترن بالمعرفة، فهو الإيمان الحقيقي الموعود عليه بالثواب. وقال ابن عباس: بما قالوا يريد سألوا يعني قولهم فاكتبنا مع الشاهدين ﴿خالدين فيها﴾ يعني في الجنات ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ يعني المؤمنين الموحدين المخلصين في إيمانهم ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ لما ذكر الله عز وجل الوعد لمؤمني أهل الكتاب وما أعدلهم من الجنات ذكر الوعيد لمن أقام منهم على كفره وتكذيبه وأطلق القول بذلك ليكون هذا الوعيد لهم ولمن جرى مجراهم في الكفر والتكذيب فقال والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ قال علماء التفسير: إن النبي ﷺ ذكر الناس يوماً ووصف القيامة فرقَّ الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي وهم: أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبو ذر الغفاري، وسالم مولى أبي حذيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن، وتشاوروا واتفقوا على أنهم يترهبون ويلبسون المسوح ويجبون مذاكيرهم ويصومون الدهر ويقومون الليل ولا ينامون على الفرش ولا يأكلون اللحم والودك ولا يقربون النساء ولا الطيب ويسيحون في الأرض. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه، فقال لامرأته: أحق ما بلغني عن زوجك وأصحابه؟ فكرهت أن تكذب وكرهت أن تبدي سر زوجها، فقالت: يا رسول الله إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدق. فانصرف رسول الله ﷺ فلما جاء عثمان أخبرته بذلك فأتى هو وأصحابه العشرة إلى رسول الله ﷺ: فقال لهم رسول الله ﷺ «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا فقالوا بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير فقال رسول الله ﷺ إني لم أؤمر بذلك، ثم قال رسول الله ﷺ: إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني ثم جمع الناس وخطبهم فقال: ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب وشهوات الدنيا فإني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الديار والصوامع فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ يعني الطيبات اللذيذات التي تشتهيها الأنفس وتميل إليها القلوب من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة فأعلم الله عز وجل بهذه الآية

﴿ فأثابهمُ اللّهُ ﴾، أعطاهم الله، ﴿ بما قالوا جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ﴾، وإنّما أنجح قولهم وعلّق الثواب بالقول لاقترانه بالإخلاص، بدليل قوله: ﴿ وذلك جزاءُ المحسنين ﴾، يعني: الموحدين المؤمنين، وقوله: ﴿ ترى أعينَهم تفيضُ من الدمع ممّا عرفُوا منَ الحق ﴾، يدلّ على أن الإخلاص والمعرفة بالقلب مع القول يكون إيماناً.

﴿ والذين كفرُوا وكذّبُوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تحرّموا طيباتِ ما أحلَّ اللّهُ لكم ﴾، الآية قال أهل التفسير: ذكر النبي ﷺ الناس يوماً ووصف القيامة فرقّ له الناس وبكوا فاجتمع عشرة من أصحابه في بيت عثمان بن مظعون الجمحي، وهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن

أن شريعة نبيه ﷺ غير ما عزموا عليه من ترك الطيبات وأنه لا ينبغي أن تجتنب الطيبات المباحات ومعنى: لا تحرموا، لا تعتقدوا تحريم الطيبات المباحات، فإن من اعتقد تحريم شيء أحله الله فقد كفر. أما ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله والتفرغ لعبادته من غير إضرار بالنفس ولا تفويت حق الغير ففضيلة لا مانع منها بل مأمور بها.

وقوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا﴾ يعني: ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام. وقيل: معناه ولا تجبوا أنفسكم فسمى جب المذاكير اعتداء وقيل معناه ولا تعتدوا بالإسراف في الطيبات ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ يعني المجاوزين الحلال إلى الحرام.

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ يعني: وكلوا أيها المؤمنون من رزق الله الذي رزقكم وأحله

عمر، وأبو ذر الغفاري وسالم مولى أبي حذيفة، والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن رضي الله عنهم، وتشاوروا واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويجبوا مذاكيرهم، ويصوموا الدهر، ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويسيحوا في الأرض فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه فقال لامرأته أُم حكيم بنت أبي أُمية، واسمها الخولاء، وكانت عطارة: «أحقٌّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه»؟ فكرهت أن تكذب رسول الله ﷺ وكرهت أن تبدي على زوجها، فقالت: يا رسول الله إن كان أخبرك عثمان فقد صدقك فانصرف رسول الله ﷺ، فلما دخل عثمان أخبرته بذلك فأتى رسولَ الله ﷺ هو وأصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلاّ الخير، فقال ﷺ: «إني لم أُومر بذلك»، ثم قال: «إنّ لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدّسم وآتي النساء، فمَن رغب عن سُنّتي فليس منّي»، ثم جمع الناس وخطبهم فقال: «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات النساء؟ أما إني فلستُ آمركم أن تكونوا قسّيسين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أُمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وحجّوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة، وصوموا رمضان واستقيموا يُستقمْ لكم، فإنّما هلك مَن كان قبلكم بالتشديد، شدّدوا على أنفسكم فشدّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع»، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن رشد بن سعد حدّثني أبو نعيم عن سعد بن مسعود أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أتي النبي ﷺ فقال: ائذنْ لنا في الاختصاء، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منّا مَن خصي ولا مَن اختصى، خصاء أُمتي الصيام»، فقال: يا رسول الله ائذن لنا في السياحة، فقال: «إنّ سياحة أُمتي الجهاد في سبيل الله»، فقال: يا رسول الله ائذن لنا في الترهّب، فقال: «إنّ ترهّب أُمتي الجلوس في المساجد وانتظار الصلاة».
ورُوِيَ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أصبت من اللحم فانتشرت وأخذتني شهوة، فحرّمت اللحم، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا لا تُحرّموا طيباتِ ما أحلّ اللهُ لكم ﴾، يعني: اللذّات التي تشتهيها النفوس، مما أحلّ الله لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، ﴿ ولا تعتدُوا ﴾، ولا تجاوزوا الحلال إلى الحرام. وقيل: جبّ المذاكير ﴿ إنّ الله لا يحبُّ المعتدين ﴾.

﴿ وكلُوا ممّا رزقكم اللّهُ حلالاً طيباً ﴾، قال عبد الله بن المبارك: الحلال ما أخذته من وجهه، والطيب ما

لكم من المطاعم والمشارب. قال عبد الله بن المبارك: الحلال ما أخذته من وجهه، والطيب ما غذى وأنمى، فأما الجامد كالطين والتراب وما لا يغذي فمكروه إلا على وجه التداوي. وعن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي فحرمت عليَّ اللحم فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل. وله عن أبي هريرة قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها قالت عائشة: ما كان الذراع أحب إلى رسول الله ﷺ ولكن كان لا يجد اللحم إلا غباً وكان يعجل إليه الذراع لأنه أعجلها نضجاً أخرجه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ هذا تأكيد للوصية بما أمر الله تعالى به وزاد التأكيد بقوله الذي أنتم به مؤمنون لأن الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء إلى أمر الله به وعما نهى عنه. وفي الآية دليل على أن الله عز وجل قد تكفل برزق كل أحد من عباده فإنه تعالى لو لم يتكفل بذلك لما قال وكلوا مما رزقكم الله وإذا تكفل برزق العبد وجب أن لا يبالغ في الطلب والحرص على الدنيا وأن يعول على ما وعده الله وتكفل به فإنه تعالى أكرم من أن يخلف الوعد.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَاحْفَظُوٓا أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قال ابن عباس: «لما نزلت يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ـ قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها وكانوا قد حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» وقد تقدم تفسير اللغو في الأيمان في سورة البقرة وقوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ يعني ولكن يؤاخذكم بما تعمدتم وقصدتم به اليمين ومنه قول الفرزدق:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله ... إذا لم تعمد عاقدات العزائم

وفي الآية حذف تقديره ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم فحذفه لأنه معلوم عند السامعين ﴿فكفارته﴾ يعني

غذّى وأنمى، فأما الجوامد كالطين والتراب وما لا يغذّي فمكروه إلّا على وجه التداوي، ﴿ واتقوا الله الذي أنتمْ بهِ مُؤمنون ﴾، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذي أخبرنا أحمد بن إبراهيم الدورقي وسلمة بن شبيب ومحمود بن غيلان قالوا: أخبرنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسلَ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ لا يُؤاخذكُم اللّهُ باللّغو في أيمانِكم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا نزلت: ﴿ لا تُحرّموا طيباتِ ما أحلّ اللّهُ لكم ﴾ [المائدة: ٨٧]، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ وكانوا حلفوا على ما اتفقوا عليه، فأنزل الله: ﴿ لا يُؤاخذُكُم اللّهُ باللّغو في أيمانِكُم ﴾، ﴿ ولكنْ يُؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر (عقـدتم) بالتخفيف، وقرأ ابن عامر « عاقدتم » بالألف وقرأ الآخرون «عقّـدتم» بالتشديد، أي: وكّدتم، والمراد من الآية قصدتم وتعمّدتم، ﴿ فكفّارته ﴾، أي: كفّارة ما عقدتم

فكفارة إيمانكم التي عقدتموها إذا حنثتم ﴿**إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم**﴾ يعني من أقصد ذلك لأن من الناس من يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتر عليهم فأمر الله بالعدل في أداء الكفارة. وقيل: أراد بالأوسط في القيمة فلا يكون غالباً من أعلى الموجود ولا خسيس الثمن من أردأ الموجود بل الوسط في القيمة وقيل أراد بالأوسط الأفضل قال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله أوسط فهو أفضل فعلى هذا يكون المعنى من خير ما تطعمون أهليكم وأفضله ﴿**أو كسوتهم**﴾ هو معطوف على محل أوسط أي كما تطعمون المساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم فكذلك فاكسوهم من أوسط الكسوة ﴿**أو تحرير رقبة**﴾ يعني عتق رقبة والمراد جملة الشخص.

(فصل في حكم الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى: في بيان الكفارة وهي أربعة أنواع:

النوع الأول: من الكفارة الإطعام فيجب إطعام عشرة مساكين واختلفوا في قدر ما يطعم لكل مسكين فذهب قوم إلى أنه يطعم لكل مسكين مد من الطعام بمد النبي ﷺ وهو رطل وثلث بالبغدادي من غالب قوت البلد وكذلك سائر الكفارات وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وسليمان بن يسار وعطاء والحسن وإليه ذهب مالك والشافعي ويروى عن عمر وعلي وعائشة أنه يطعم لكل مسكين مدان من بر وهو نصف صاع وبه قال أهل العراق. وقال أبو حنيفة: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع وإن أطعم من غيرها فصاع وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد. وقال أحمد بن حنبل: يطعم لكل مسكين مد من البر أو نصف صاع من غيرها مثل التمر والشعير: ومن شرط الإطعام تمليك الطعام للمساكين فلو عشاهم وغداهم لم يجزه وقال أبو حنيفة: يجزيه ذلك ولا يجوز إخراج القيمة في الكفارة كالدراهم والدنانير. وقال أبو حنيفة: يجوز ذلك ولا إخراج الدقيق والخبز في الكفارة بل يجب إخراج الحب، وجوّزه أبو حنيفة ولا يجوز صرف الكل إلى مسكين واحد في عشرة أيام.

النوع الثاني: من الكفارات الكسوة واختلف العلماء في قدرها فذهب قوم إلى أنه يكسو كل مسكين ثوباً واحداً مما يقع عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء ونحو ذلك وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس وإليه ذهب الشافعي. وقال مالك: يجب أن يكسو كل مسكين ما تجوز به الصلاة فيكسو الرجل ثوباً والمرأة ثوبين درعاً وخماراً. وقال أحمد: للرجال ثوباً وللمرأة ثوبين درعاً وخماراً وهو أدنى ما يجزى في الصلاة وقال ابن عمر: يجب قميص وإزار ورداء. وقال أبو موسى الأشعري: يجب ثوبان وهو قول

الأيمان إذا حنثتم، ﴿ **إطعامُ عشرةِ مساكين** ﴾، واختلفوا في قدره فذهب قوم إلى أنه يُطعم كل مسكين مُدّاً من الطعام بمدّ النبي ﷺ، وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد، وكذلك في جميع الكفّارات، وهو قول زيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر، وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم وسليمان بن يسار وعطاء والحسن، وقال أهل العراق: لكل مسكين مُدّانِ، وهو نصف صاع، يُروى ذلك عن عمر وعليّ رضي الله عنهما، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع، وإن أطعم من غيرها فصاع، وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والحَكم، ولو غدّاهم وعشّاهم لا يجوز، وجوّزه أبو حنيفة رضي الله عنه، ويُروى ذلك عن عليّ رضي الله عنه، ولا تجوز الدراهم والدنانير ولا الخبز ولا الدقيق، بل يجب إخراج الحبِّ إليهم، وجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه كل ذلك، ولو صرف الكل إلى مسكين واحد لا يجوز، وجوّز أبو حنيفة أن يصرف طعام عشرة إلى مسكين واحد في عشرة أيام، ولا يجوز أن يُصرَف إلّا إلى مسلم حرٍّ محتاج، فإن صُرِفَ إلى ذمّي وجوّز أبو حنيفة رضي الله عنه صرفها إلى أهل الذمّة واتفقوا على أنّ صرف الزكاة إلى أهل الذمّة لا يجوز. قوله تعالى: ﴿ **مِنْ أوسطِ ما تُطعمُون**

سعيد بن المسيب وابن سيرين وقال إبراهيم النخعي: يجب ثوب جامع كالملحفة.

النوع الثالث: من الكفارات العتق فيجب إعتاق رقبة مؤمنة وكذلك يجب في جميع الكفارات وأجاز أبو حنيفة والثوري إعتاق الرقبة الكافرة في جميع الكفارات إلا كفارة القتل فإن الله قيد الرقبة بالإيمان في كفارة القتل ومذهب الشافعي أن المطلق يحمل على المقيد ولا يجوز إعتاق المرتد في الكفارات بالإجماع ويشترط أن تكون الرقبة سليمة الرق حتى لو أعتق في الكفارة مكاتباً أو أم ولد أو عبداً اشتراه بشرط العتق أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه فكل هؤلاء لا يجزى في إعتاق الكفارة وجوز أصحاب الرأي عتق المكاتب في الكفارة إذا لم يؤد من نجوم الكتابة شيئاً وجوزوا عتق القريب في الكفارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل فلا يجزى مقطوع اليد أو الرجل ولا الأعمي ولا الزمن ولا المجنون المطبق ويجوز عتق الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف لأن هذه العيوب كلها لا تضر بالعمل وعند أبي حنيفة كل عيب يفوت جنساً من المنفعة يمنع الجواز فيجوز عتق مقطوع إحدى اليدين ولا يجوز عتق مقطوع الأذنين في الكفارة.

النوع الرابع: من الكفارات الصوم وهو قوله تعالى: ﴿**فمن لم يجد**﴾ يعني الكفارة ﴿**فصيام ثلاثة أيام**﴾ يعني فإذا عجز من لزمته كفارة اليمين عن الإطعام أو الكسوة أو العتق وجب عليه صيام ثلاثة أيام وهو قوله تعالى: فصيام ثلاثة أيام، يعني فعليه صيام ثلاثة أيام. قال الشافعي: إذا كان عنده قوته أو قوت عياله يومه وليلته وفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالإطعام وإن لم يكن عنده هذا القدر جاز له الصيام. وقال أبو حنيفة: يجوز له الصيام إذا لم يكن عنده من المال ما تجب فيه الزكاة فجعل من لا زكاة عليه عادماً. وقال الحسن: إذا لم يجد درهمين صام. وقال سعيد بن جبير: ثلاثة دراهم. واختلفوا في وجوب التتابع في الصيام عن كفارة اليمين على قولين: أحدهما: أنه يجب التتابع فيه قياساً على كفارة الظهار والقتل وهو قول ابن عباس ومجاهد وطاوس وعطاء وقتادة وهو مذهب أبي

أهليكم﴾، أي: من خير قوت عيالكم، وقال عبيدة السلماني: الأوسط الخبز والخل، والأعلى الخبز واللحم، والأدنى الخبز البحت والكل مُجزٍ، قوله تعالى: ﴿ **أو كِسْوَتُهُمْ** ﴾، كلّ مَن لزمته كفّارة اليمين فهو فيها مخيّر إن شاء أطعم عشرة من المساكين، وإنْ شاء كساهم، وإن شاء أعتق رقبة، فإن اختار الكسوة، فاختلفوا في قدرها، فذهب قوم إلى أنه يكسو كلّ مسكين ثوباً واحداً ممّا يقع عليه اسم الكسوة، إزار أو رِدَاء أو قميص أو عمامة أو كِسَاء أو نحوها، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالى، وقال مالك: يجب لكل إنسان ما تجوز فيه صلاته، فيكسو الرجال ثوباً واحداً والنساء ثوبين درعاً وخماراً، وقال سعيد بن المسيب لكل مسكين ثوبان، قوله عزّ وجلّ: ﴿ **أو تحرير رقبة** ﴾، وإذا اختار العتق يجب إعتاق رقبة مؤمنة، وكذلك جميع الكفّارات، مثل كفّارة القتل والظهار والجماع في نهار رمضان، يجب فيها إعتاق رقبة مؤمنة، وأجاز أبو حنيفة رضي الله عنه والثّوري رضي الله عنه إعتاق الرقبة الكافرة في جميعها إلّا في كفّارة القتل، لأن الله تعالى قيّد الرقبة فيها بالإيمان، قلنا: المطلق يُحمل على المقيّد كما أن الله تعالى قيّد الشهادة بالعدالة في موضع فقال: ﴿ **وأشهدوا ذوي عدلٍ منكم** ﴾ [الطلاق: ٢]، وأطلق في موضع، فقال: ﴿ **واستشهدُوا شهيدين منْ رجالكم**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ثم العدالة شرط في جميعها حملاً للمطلق على المقيّد، كذلك هذا، ولا يجوز إعتاق المرتد بالاتفاق عن الكفّارة، ويُشترط أن يكون سليم الرقّ حتى لو أعتق عن كفّارته مُكاتباً أو أُم ولد أو عبداً اشتري بشرط العتق أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه بنيّة الكفّارة، يُعتق ولكن لا يجوز عن الكفّارة، وجوّز أصحاب الرأي عتق المكاتب إذا لم يكن أدّى شيئاً من النجوم، وعتق القريب عن الكفّارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة مَن كل عيب يضرّ بالعمل ضرراً بيّناً حتى لا يجوز مقطوع إحدى اليدين، أو إحدى الرجلين، ولا الأعمى ولا الزَّمِن ولا المجنون المطبق، ويجوز الأعور

حنيفة وأحمد وأحد قولي الشافعي والقول الثاني: لا يجب التتابع في كفارة اليمين فإن شاء تابع وإن شاء فرق والتتابع أفضل وبه قال الحسن ومالك وهذا القول الثاني للشافعي.

المسألة الثانية: كلمة أو للتخيير بين الإطعام والكسوة والعتق فإن شاء أطعم وإن شاء كسا وإن شاء أعتق فبأيها أخذ المكفر فقد أصاب وخرج عن العهدة.

المسألة الثالثة: لا يجوز صرف شيء من الكفارات إلا إلى مسلم حر محتاج فلو صرف إلى ذمي أو عبد أو غني لا يجزيه. وجوز أبو حنيفة صرفها إلى أهل الذمة واتفقوا على أن صرف الزكاة إلى أهل الذمة لا يجوز.

المسألة الرابعة: اختلفوا في تقديم الكفارة على الحنث فذهب قوم إلى جوازه لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمينه فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير» أخرجه الترمذي (ق) عن عبد الرحمن بن سمرة. قال: قال رسول الله ﷺ «يا عبد الرحمن لا تسأل الأمارة فإنها إن أتتك عن مسألة وكلت إليها وإن أتتك من غير مسألة أعنت عليها وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفِّر عن يمينك» وهذا قول عمر وابن عباس وعائشة وعامة الفقهاء وبه قال الحسن وابن سيرين وإليه ذهب مالك والأوزاعي والشافعي. إلا أن الشافعي قال: إن كفر بالصوم قبل الحنث لا يجوز لأنه بدني إنما يجوز الطعام أو الكسوة أوالعتق. وقال أبو حنيفة: لا يجوز تقديم الكفارة على الحنث وقوله ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الإطعام أو الكسوة أو العتق أو الصوم عند العجز ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ يعني: وحنثتم، لأن الكفارة لا تجب بمجرد اليمين إنما تجب بالحنث بعد اليمين وفيه إشارة إلى تقديم الكفارة على اليمين لا يجوز، بل بعد اليمين وقبل الحنث كما تقدم ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ يعني قللوا أيمانكم ففيه النهي عن كثرة الحلف ومنه قول الشاعر:

قليل الألايا حافظ ليمينه

والأصمّ ومقطوع الأذنين والأنف لأن هذه العيوب لا تضرّ بالعمل ضرراً بيّناً، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه كلُّ عيب يفوّت جنساً من المنفعة يمتنع الجواز، حتى جوّز مقطوع إحدى اليدين، ولم يجوّز مقطوع الأذنين. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فمَنْ لم يجدْ فصيامُ ثلاثةِ أيام ﴾، إذا عجز الذي لزمته كفّارة اليمين عن الطعام والكسوة وتحرير الرقبة، يجب عليه صوم ثلاثة أيام، والعجز أن لا يفضل من ماله عن قوته وقوت عياله وحاجته ما يطعم أو يكسو أو يعتق فإنه يصوم ثلاثة أيام، وقال بعضهم: إذا ملك ما يمكنه الإطعام وإن لم يفضل عن كفايته فليس له الصيام، وهو قول الحسن وسعيد بن جبير، واختلفوا في وجوب التتابع في هذا الصوم، فذهب جماعة إلى أنه لا يجب فيه التتابع بل إن شاء تابع وإن شاء فرّق، والتتابع أفضل وهو أحد قولي الشافعي، وذهب قوم إلى أنه يجب فيه التتابع قياساً على كفّارة القتل والظهار، وهو قول الثّوري وأبي حنيفة، ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه صيام ثلاثة أيام متتابعات. ﴿ ذلك ﴾، أي: ذلك الذي ذكرت، ﴿ كفّارة أيمانِكم إذا حلفتم ﴾، وحنثتم، فإن الكفّارة لا تجب إلّا بعد الحنث، واختلفوا في تقديم الكفّارة على الحنث، فذهب قوم إلى جوازه، لِما روينا أنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ حلف على يمينٍ فرأى غيرَها خيراً منها فليُكفّر عن يمينه، وليفعلِ الذي هوخير». وهو قول عمر وابن عباس وعائشة رضي الله عنها وبه قال الحسن وابن سيرين، وإليه ذهب مالك والأوزاعي والشافعي، إلّا أن الشافعي يقول: إن كفّر بالصوم قبل الحنث لأنه يجوز لأنه بدني، إنما يجوز بالإطعام أو الكسوة أو العتق كما يجوز تقديم الزكاة على الحول، ولا يجوز تعجيل صوم رمضان قبل وقته، وذهب قوم إلى أنه لا يجوز تقديم الكفّارة على الحنث، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ واحْفَظُوا أيمانَكم ﴾، قيل: أراد به ترك الحلف، أي: لا تحلفوا،

وصفه بأنه لا يحلف وقيل في معنى الآية: واحفظوا أيمانكم عن الحنث إذا حلفتم لئلا تحتاجوا إلى التكفير وهذا إذا لم يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه فإن حلف على ذلك فالأفضل، بل الأولى أن يحنث نفسه ويكفر لما روي عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خير منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير» أخرجاه في الصحيحين قوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ يعني كما بيَّن لكم كفارة أيمانكم إذا حنثتم كذلك يبين لكم جميع ما تحتاجون إليه في أمر دينكم ﴿لعلكم تشكرون﴾ يعني نعمه التي أنعم بها عليكم أن بيَّن لكم آياته ومعالم شريعته قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس﴾ لما أنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ وقوله: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ وكانت الخمر والميسر مما يستطاب عندهم بين الله تعالى في هذه الآية أن الخمر والميسر غير داخلين في جملة الطيبات المحللات، بل هما من جملة المحرمات والخمر كل ما خامر العقل وغطاه والميسر القمار وقد تقدم تفسيرهما في سورة البقرة والأنصاب هي الحجارة التي كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها والأزلام هي القداح التي كانوا يستقسمون بها وتقدم تفسير ذلك. والرجس في اللغة الشيء الخبيث المستقذر ﴿من عمل الشيطان﴾ يعني من تزيينه وإغوائه ودعائه إياكم إليها وليس المراد أنها من عمل يديه ﴿فاجتنبوه﴾ يعني كونوا جانباً منه والضمير في قوله فاجتنبوه عائد إلى الرجس لأنه اسم جامع للكل كأنه قال إن هذه الأربعة الأشياء كلها رجس فاجتنبوه ﴿لعلكم تفلحون﴾ يعني لكم لكي تدركوا الفلاح إذا اجتنبتم هذه المحرمات التي هي رجس قوله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فروى أبو ميسرة أن عمر بن الخطاب قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية في سورة البقرة: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ الآية فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فدعي عمر فقرئت عليه ثم قال: اللهم بين لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ إلى قوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾

وقيل: هو الأصح، أراد به: إذا حلفتم فلا تحنثوا، فالمراد منه حفظ اليمين عن الحنث هذا إذا لم يكن يمينه على ترك مندوب أو فعل مكروه، فإن حلف على فعل مكروه أو ترك مندوب، فالأفضل أن يُحنث نفسه ويُكفّر، لِما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا حجّاج بن منهال أنا جرير بن حازم عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُوتيتها من غير مسألة أُعِنتَ عليها، وإذا حلفتَ على يمينَ فرأيت غيرَها خيراً منها فكفّر عن يمينك وأتِ الذي هو خير». ﴿ كذلك يُبيِّنُ اللَّهُ لكم آياتِه لعلّكم تشكرُون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إنّما الخمرُ والميسرُ ﴾، أي: القمار ﴿ والأنصابُ ﴾، يعني: الأوثان، سُمّيت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها، واحدها نَصْب بفتح النون وسكون الصاد، ونُصب بضمّ النون مخفّفاً ومثقّلاً،

فدعي عمر فقرئت عليه فقال انتهينا انتهينا أخرجه الترمذي من طريقين. وقال رواية أبي ميسرة هذه أصح وأخرجه أبو داود والنسائي. وروى مصعب بن سعيد عن أبيه قال: صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فشربنا وذلك قبل أن تحرم زاد حتى انتشينا فتفاخرت الأنصار وقريش فقالت الأنصار نحن أفضل منكم فقال سعد بن أبي وقاص: المهاجرون خير منكم فأخذ رجل من الأنصار لحى جمل فضرب به أنف سعد ففزره فأتى سعد رسول الله ﷺ فأخبره فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾ وقال ابن عباس: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا حتى ثملوا وعبث بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول فعل بي هذا فلان أخي وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فأنزل الله تعالى تحريم الخمر في هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله ﴿فهل أنتم منتهون﴾ وأما تفسير الآية فقوله تعالى إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر يعني إنما يزين لكم الشيطان شرب الخمر والقمار بالقداح وهو الميسر ويحسن ذلك لكم إرادة أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء بسبب شرب الخمر لأنها تزيل عقل شاربها فيتكلم بالفحش وربما أفضى ذلك إلى المقاتلة وذلك سبب إيقاع العداوة والبغضاء بين شاربيها.

وأما الميسر، فقال قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقمر فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره فيورثه ذلك العداوة والبغضاء فنهى الله عن ذلك وتقدم ما فيه والله أعلم بما يصلح خلقه فظهر بذلك أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس وهذا فيما يتعلق بأمر الدنيا وفيهما مفاسد تتعلق بأمر الدين وهي قوله تعالى: ﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ لأن شرب الخمر يشغل عن ذكر الله وعن فعل الصلاة وكذلك القمار يشغل صاحبه عن ذكر الله وعن الصلاة.

فإن قلت: لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام في الآية الأولى ثم أفرد الخمر والميسر في هذه الآية؟

قلت: لأن الخطاب مع المؤمنين بدليل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا والمقصود نهيهم عن شرب الخمر واللعب بالقمار وإنما ضم الأنصاب والأزلام إلى الخمر والميسر لتأكيد تحريم الخمر والميسر فلما كان المقصود من الآية النهي عن شرب الخمر والميسر لا جرم أفردهما بالذكر في آخر الآية والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ لفظة استفهام ومعناه الأمر أي انتهوا وهذا من أبلغ ما ينهى به لأنه تعالى ذم الخمر والميسر وأظهر قبحهما للمخاطب كأنه قيل قد تدلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم منتهون مع هذه الأمور أم أنتم على ما كنتم عليه كأنكم لم توعَظوا ولم تنزجروا؟ وفي هذه الآية دليل على تحريم شرب الخمر لأن الله تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأصنام وعدَّد أنواع الفساد الحاصلة بهما ووعد بالفلاح عند اجتنابهما وقال فهل أنتم منتهون ومعناه الأمر وقد صح من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال: «كل شراب أسكر فهو حرام» أخرجاه في الصحيحين وزاد الترمذي وأبو داود: ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام. الفرق بالتحريك إناء يسع ستة

﴿ والأزلامُ ﴾، يعني: القِدَاح التي يستقسمون بها واحدها زلم وزلم، ﴿ رِجْسٌ ﴾، خبيث مستقذر، ﴿ مِنْ عملِ الشيطان ﴾، من تزيينه، ﴿ فاجتنِبُوه ﴾، ردّ الكناية إلى الرجس، ﴿ لعلّكم تُفلحون ﴾.

﴿ إنّما يُريد الشيطانُ أن يُوقع بينكمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ﴾، أما العداوة في الخمر فإن الشاربين إذا سكروا عربدوا وتشاجروا، كما فعل الأنصاري الذي شجّ سعد بن أبي وقاص بلحى الجمل وأما العداوة في الميسر، قال قتادة: كان الرجل يقامر على الأهل والمال ثم يبقى حزيناً مسلوب الأهل والمال مغتاظاً على خرقائه، ﴿ ويصدّكم عنْ ذكرِ اللّهِ وعَنِ الصّلاة ﴾، وذلك أن مَن اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن

عشر رطلاً، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد لن يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد الرابعة لم يقبل الله له أربعين صباحاً فإن تاب لم يتب الله عليه وسقاه الله من نهر الخبال» قالوا يا أبا عبد الرحمن وما نهر الخبال؟ قال: صديد أهل النار أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن وأخرجه النسائي وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه» أخرجه أبو داود.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾ يعني، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿**واحذروا**﴾ أي واحذروا مخالفة الله ومخالفة رسول الله ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿**فإن توليتم**﴾ يعني فإن أعرضتم عما أمركم به ونهاكم عنه ﴿**فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين**﴾ وهذا وعيد وتهديد لمن أعرض عن أمر الله ونهيه كأنه قال فاعلموا أنكم بسبب توليكم وإعراضكم قد استحققتم العذاب والسخط.

قوله تعالى: ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ الآية عن البراء بن عازب قال: مات ناس من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريم الخمر قال ناس من أصحاب النبي ﷺ: كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ قال: فنزلت: ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ الآية أخرجه الترمذي. وقال حديث: حسن صحيح. عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر لما نزل تحريم الخمر فنزلت: ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ الآية أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن ومعنى الآية ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ أي لا حرج ولا إثم عليهم فيما شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار في وقت الإباحة قبل التحريم قال ابن قتيبة يقال: لم أطعم خبزاً ولا ماء ولا نوماً قال الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا بردا

ذكر الله، وشوّش عليه صلاته كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف، وتقدّم رجل ليصلّي بهم صلاة المغرب بعدما شربوا فقرأ ﴿ قلْ يا أيّها الكافرون ﴾ [الكافرون: ١]، أعبد، بحذف لا، ﴿ **فهلْ أنتمْ منتهون** ﴾؟ أي: انتهوا لفظة استفهام ومعناه أمر، كقوله تعالى: ﴿ **فهل** أنتم شاكرون ﴾ [الأنبياء: ٨٠]؟.

﴿ **وأطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرسولَ واحذرُوا** ﴾، المحارم والمناهي، ﴿ **فإنْ توليتمْ فاعلمُوا أنّما على رسولِنا البلاغُ المبين** ﴾، وفي وعيد شارب الخمر أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الفوراني أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني ثنا أبو الحسن محمد بن محمود المحمودي أنا أبو العباس الماسرجسي بنيسابور أخبرنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي أخبرنا صالح بن قدامة حدّثنا أخي عبد الملك بن قدامة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «كلُّ مُسكرٍ حرام، وإنْ حتماً على الله أن لا يشربه عبدٌ في الدنيا إلّا سقاه الله تعالى يوم

النقاخ الماء والبرد النوم ﴿إذا ما اتقوا﴾ يعني إذا ما اتقوا الشرك وقيل اتقوا ما حرم الله عليهم ﴿وآمنوا﴾ يعني بالله ورسوله﴿وعملوا الصالحات﴾ أي وازدادوا من عمل الصالحات ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ يعني اتقوا الخمر والميسر بعد التحريم فعلى هذا تكون الأولى إخباراً عن حال من مات وهو يشربها قبل التحريم أنه لا جناح عليه.

والثانية: خطاب لمن بقي بعد التحريم أمروا باتقائها والإيمان بتحريمها ﴿ثم اتقوا﴾ يعني ما حرم عليهم في المستقبل ﴿وأحسنوا﴾ يعني العمل. وقيل: المراد بالاتقاء الأول فعل التقوى وبالثاني المداومة عليها وبالثالث اتقاء الظلم مع ضم الإحسان إليه. وقيل: إن المقصود من التكرير التأكيد والمبالغة في الحث على الإيمان والتقوى وضم الإحسان إليهما ثم قال تعالى: ﴿والله يحب المحسنين﴾ يعني أنه تعالى يحب المتقربين إليه بالإيمان والأعمال الصالحة والتقوى والإحسان وهذا ثناء ومدح لهم على الإيمان والتقوى والإحسان لأن هذه المقامات من أشرف الدرجات وأعلاها (م) عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية قال رسول الله ﷺ قيل لي: أنت منهم ومعناه، أن رسول الله ﷺ قيل له إن ابن مسعود منهم يعني من الذين آمنوا وعملوا الصالحات والتقوى والإحسان.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد﴾ نزلت هذه الآية عام الحديبية وكانوا محرمين، فابتلاهم الله بالصيد، فكانت الوحوش تغشى رحالهم من كثرتها فهمّوا بأخذها وصيدها فأنزل الله هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله﴾ الآية اللام في ليبلونكم لام القسم أي ليخبرن طاعتكم من معصيتكم والمعنى يعاملكم معاملة المختبر بشيء من الصيد يعني بصيد البر دون البحر. وقيل: أراد الصيد في حالة الإحرام دون الإحلال وإنما قال بشيء من الصيد ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي نزل عندها أقدام الثابتين ويكون التكليف فيها صعباً شاقاً كالابتلاء ببذل الأموال والأرواح وإنما هو ابتلاء سهل كما ابتلي أصحاب السبت بصيد السمك فيه لكن الله عز وجل بفضله وكرمه عصم أمة محمد ﷺ فلم يصطادوا شيئاً في حالة الابتلاء ولم يعصم أصحاب السبت فمسخوا قردة وخنازير.

وقوله تعالى: ﴿تناله أيديكم﴾ يعني الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفر من صغار الصيد ﴿ورماحكم﴾ يعني كبار الصيد مثل حمر الوحش ونحوها. وقال ابن عباس: في قوله تناله أيديكم ورماحكم هو الضعيف من الصيد وصغيره

القيامة من طينة الخبال، هل تدرون ما طينة الخبال»؟ قال: «عرق أهل النار». وأخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنّ النبي ﷺ قال: «مَنْ شربَ الخمرَ في الدنيا ثم لم يتبْ منها حُرِمَها في الآخرة». وأخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أنا أحمد بن أُبيّ أخبرنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن إسحق الصنعاني حدّثنا أبو نعيم حدّثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من أهل مصر عن عبد الله بن عمر أنه قال: أشهد أني سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يقول: «لعنَ اللّهُ الخمرَ وشارِبَها وساقيها وبائعَها ومُبتاعَها وعاصرهَا ومُعتصرهَا وحاملَها والمحمولَة إليه وآكلَ ثمنها».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ليسَ على الذين آمنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا ﴾، الآية، سبب نزول هذه الآية أنّ الصحابة رضوان الله عليهم قالوا لمّا نزل تحريم الخمر: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون من مال الميسر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ ليسَ على الذينَ آمنوا وعمِلُوا الصالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا ﴾، وشَرِبُوا من الخمر وأكلوا من مال الميسر، ﴿ إذا ما اتَّقَوْا ﴾، الشركَ، ﴿ وآمنُوا ﴾، وصدّقوا، ﴿ وعمِلُوا الصالحاتِ ثمّ اتّقوا ﴾، الخمر والميسرَ بعد تحريمهما، ﴿ وآمنُوا ثمّ اتّقوا ﴾، ما حرّم الله عليهم أكله وشربه،

يبتلي الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاؤوا نالوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه ﴿ليعلم الله﴾ أي: ليرى الله فإنه قد علمه فهو مجاز لأنه تعالى عالم لم يزل والمعنى يعاملكم معاملة المختبر. وقيل: معناه ليظهر المعلوم وهو خوف الخائف وقيل هو من باب حذف المضاف والتقدير ليعلم أولياء الله ﴿من يخافه بالغيب﴾ يعني: من يخاف الله ولم يره فلا يصطاد في حالة الإحرام شيئاً بعد النهي ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ يعني فصاد في حالة الإحرام بعد النهي ﴿فله عذاب أليم﴾ يعني في الدنيا. قال ابن عباس: هو أن يوجع ظهره وبطنه جلداً وتسلب ثيابه وهذا قول أكثر المفسرين في معنى هذه الآية لأنه قد سمى الجلد عذاباً وهو قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ جمع حرام. أي: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بالحج والعمرة وقيل المراد منه دخول الحرم. يقال: أحرم إذا عقد الإحرام، وأحرم: إذا دخل الحرم. وقيل: هما مرادان بالآية فلا يجوز قتل الصيد للمحرم ولا في الحرم نزلت هذه الآية في أبي اليسر شد على حمار وحش فقتله وهو محرم ثم صار هذا الحكم عاماً فلا يجوز قتل الصيد ولا التعرض له ما دام محرماً ولا في الحرم. والمراد بالصيد، كل حيوان متوحش مأكول اللحم وهذا قول الشافعي. وقال أبو حنيفة: هو كل حيوان متوحش سواء كان مأكولاً أو لم يكن فيجب عنده الضمان على من قتل سبعاً أو نمراً أو نحو ذلك واستثنى الشارع خمس فواسق فأجاز قتلهن (ق).

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب، والحدأة،

﴿ وأحسنُوا واللَّهُ يحبُّ المحسنين ﴾، وقيل: معنى الأول إذ ما اتقوا الشرك، وآمنوا وصدقوا ثمّ اتقوا، أي: داوِمُوا على ذلك التقوى، وآمنوا وازْدادُوا إيماناً، ثم اتقوا المعاصي كلها وأحسنوا، وقيل: أي: اتقوا بالإحسان، وكلُّ محسن متّقٍ، والله يحبّ المحسنين.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بشيءٍ من الصَّيدِ ﴾، الآية، نزلت عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد، وكانت الوحوش تغشى رِحالهم من كثرتها فهمّوا بأخذها فنزلت: ﴿ يا أيّها الذينَ آمنوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ ﴾ ليختبرنّكم الله، وفائدة البلوى إظهار المطيع من العاصي، وإلاّ فلا حاجة له إلى البلوى بشيء من الصيد، وإنما بعض، فقال: ﴿ بشيءٍ ﴾ لأنه ابتلاهم بصيد البرِّ خاصةً. ﴿ تناله أيديكم ﴾، يعني: الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفرّ من صغار الصيد، ﴿ ورماحُكم ﴾، يعني: الكبار من الصيد، ﴿ ليعلمَ اللَّهُ ﴾، ليرى الله، لأنه قد علمه، ﴿ مَنْ يخافه بالغيب ﴾، أي: يخاف الله ولم يره، كقوله تعالى: ﴿ الذين يخشون ربَّهم بالغيب ﴾ [الأنبياء: ٤٩، فاطر: ١٨، الملك: ١٢] أي: يخافه فلا يصطاد في حال الإحرام ﴿ فمَن اعتدَى بعدَ ذلك ﴾، أي: صاد بعد تحريمه، ﴿ فله عذاب أليم ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يوجع ظهره وبطنه جلداً، ويُسلَب ثيابه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تقتلُوا الصَّيد وأنتم حُرُم ﴾، أي: محرمون بالحج والعمرة، وهو جمع حرام، يقال: رجل حرام وامرأة حرام، وقد يكون من دخول الحرم، يقال: أحرم الرجل إذا عقد الإحرام، وأحرم

والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» وفي رواية: «خمس لا جناح على من قتلهن في الحرم والإحرام» (ق). عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» ولمسلم «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم» وذكر نحوه. وفي رواية النسائي قال: «خمس يقتلن المحرم: الحية، والعقرب، والفأرة، والغراب الأبقع، والكلب العقور». قال ابن عيينة: الكلب العقور كل سبع ضار يعقر. وقاس الشافعي عليها جميع ما لا يؤكل لحمه، قال: لأن الحديث يشتمل على أشياء بعضها سباع ضارية وبعضها هوام قاتلة وبعضها طير لا يدخل في معنى السباع ولا في معنى الهوام وإنما هو حيوان مستخبث اللحم. وتحريم الأكل، يجمع الكل فاعتبره ورتب عليه الحكم. وذهب أصحاب الرأي إلى وجوب الجزاء في كل ما لا يؤكل لحمه إلا الأعيان المذكورة في الحديث وقاسوا عليها الذئب فلم يوجبوا فيه كفارة.

قوله تعالى: ﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾ قال مجاهد والحسن وابن زيد: هو الذي يتعمد قتل الصيد مع نسيان الإحرام فعليه الجزاء.

أما إذا تعمد قتل الصيد ذكراً لإحرامه، فلا جزاء عليه لأنه أعظم من أن يكون له كفارة. وقال ابن عباس والجمهور: يحكم عليه بالجزاء وإن تعمد القتل مع ذكر الإحرام وهذا مذهب عامة الفقهاء، أما إذا قتل الصيد خطأ بأن قصد غيره بالرمي فأصابه، فهو كالعمد في وجوب الجزاء وهذا مذهب جمهور المفسرين والفقهاء قال الزهري: نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الخطأ يعني ألحقت المخطىء بالمتعمد في وجوب الجزاء وقال سعيد بن جبير: لا أرى في الخطأ شيئاً وهذا قول شاذ لا يؤخذ به ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ يعني فعليه جزاء من النعم مثل ما قتل والمثل والشبه واحد واختلفوا في هذه المماثلة أهي بالخلقة أم بالقيمة والذي عليه جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أن المماثلة في الخلقة معتبرة لأن ظاهر الآية يدل على ذلك وما لا مثل له فالقيمة، وقال أبو حنيفة: المثل الواجب في قتل الصيد هو القيمة لأن الصيد المقتول إذا لم يكن له مثل فإنه يضمن بالقيمة وهذا لا نزاع فيه فكان المراد بالمثل هو القيمة في هذه الصورة فوجب أن يكون في سائر الصور كذلك لأن اللفظ الواحد لا يجوز حمله إلا على معنى واحد وأجيب عنه بأن حقيقة المماثلة أمر معلوم فيجب رعايتها بأقصى الإمكان وإن لم تكن رعايتها إلا بالقيمة وجب الاكتفاء بها للضرورة وحجة الشافعي ومن وافقه في اعتبار المماثلة بالخلقة أن الصحابة حكموا في بلدان شتى وأزمان مختلفة بالمثل من النعم فحكموا في النعامة ببدنة وهي لا تساوي بدنة وحكموا في حمار الوحش ببقرة وهو لا يساوي

إذا دخل الحرم، نزلت في رجل يقال له أبو اليسر شدّ على حمارٍ وحشٍ وهو محرم فقتله، قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ قَتَلَه منكم متعمّداً ﴾، اختلفوا في هذا العمد فقال قوم: هو العمد لقتل الصيد مع نسيان الإحرام، أما إذا قتله عمداً وهو ذاكر لإحرامه فلا حكم عليه، وأمره إلى الله لأنه أعظم من أن يكون له كفّارة، هذا قول مجاهد والحسن، وقال الآخرون: هو أن يعمد المحرم قتل الصيد ذاكراً لإحرامه فعليه الكفّارة، واختلفوا فيما لو قتله خطأً، فذهب أكثر الفقهاء إلى أن العمد والخطأ سواء في لزوم الكفّارة، وقال الزهري: على المتعمّد بالكتاب وعلى المخطىء بالسُّنّة، وقال سعيد بن جبير: لا تجب كفّارة الصيد بقتل الخطأ، بل يختصّ بالعمد. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فجزاءٌ مثلُ ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب «فجـزاء» منونٌ، ﴿ مثلُ ﴾، رفعٌ على البدل من الجزاء، وقرأ الآخرون بالإضافة (فجزاء مثل)، ﴿ ما قتلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾، معناه أنه يجب عليه مثل ذلك الصيد من النَّعم، وأراد به ما يقرب من الصيد المقتول شبهاً من حيث الخلقة لا من حيث القيمة، ﴿ يحكمُ بهِ ذَوَا عدلٍ منكم ﴾، أي: يحكم بالجزاء رجلان عدلان، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى أشبه الأشياء من النَّعم فيحكمان به، وممّن ذهب إلى إيجاب المثل من النَّعم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن عمر وابن عباس، وغيرهم من الصحابة رضي الله

بقرة وكذا في الضبع بكبش فدل ذلك على أنهم إنما نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة فحكموا به ولم يعتبروا القيمة فيجب في الظبي شاة وفي الأرنب سخل وفي الضب سخلة وفي اليربوع جفرة ويجب في الحمامة وكل ما عبَّ وهدر كالفواخت والقمري وذوات الأطواق شاة وما سواه من الطير ففيه القيمة في المكان الذي أصيب فيه. وروي عن عثمان وابن عباس أنهما حكما في حمام الحرم. وروي عن عمر أنه قضى في الضبع بكبش وفي الغزال بعنز وفي الأرنب بعناق وفي اليربوع بجفرة.

وقوله تعالى: ﴿**يحكم به ذوا عدل منكم**﴾ يعني يحكم بالجزاء في قتل الصيد رجلان صالحان عدلان من أهل ملتكم ودينكم وينبغي أن يكونا فقيهين فينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به.

قال ميمون بن مهران: جاء أعرابي إلى أبي بكر الصديق، فقال: إني أصبت من الصيد كذا وكذا فسأل أبو بكر أبي بن كعب، فقال الأعرابي: إني أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك، فقال أبو بكر: وما أنكرت من ذلك؟ قال الله تعالى: يحكم به ذوا عدل منكم فشاورت صاحبي فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به وقوله تعالى: ﴿**هدياً بالغ الكعبة**﴾ يعني أن الكفارة هدي يساق إلى الكعبة وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها والعرب تسمي كل بيت مرتفع كعبة. وإنما أريد الكعبة، كل الحرم لأن الذبح لا يقع في الكعبة وعندها ملاقياً لها إنما يقع في الحرم وهو المراد بالبلوغ فيذبح الهدي

عنهم، حكموا في بلدان مختلفة وأزمان شتّى بالمثل من النَعم، فحكم حاكمهم في النعامة ببدنة وهي لا تساوي بدنة، وفي حمار الوحش ببقرة وهي لا تساوي بقرة، وفي الضبع بكبش وهي لا تساوي كبشاً، فدلّ أنهم نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة، وتجب في الحمام شاة، وهو كل ما عبّ وهدر من الطير، كالفاختة والقمري والدبسي، ورُوِيَ عن عمر وعثمان وابن عباس رضي الله عنهم أنهم قضوا في حمام مكة بشاة، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزبير المكّي عن جابر بن عبد الله أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قضى في الضبع بكبش، وفي الغزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة، قوله تعالى: ﴿ **هدياً بالغَ الكعبة** ﴾، أي: يُهدي تلك الكفّارة إلى الكعبة، فيذبحها بمكة ويتصدّق بلحمها على مساكين الحرم، ﴿ **أو كفّارةٌ طعامُ مساكين أو عَدْلُ ذلك صياماً** ﴾، قال الفرّاء رحمه الله: **العِدْل بالكسر**: المثل من جنسه، والعَدْل بالفتح: المثل من غير جنسه، وأراد به أنه في جزاء الصيدِ مُخيّر بين أن يذبح المثل من النَّعم فيتصدّق بلحمه على مساكين الحرم، وبين أن يقوّم المثل دراهم، والدراهم طعاماً فيتصدّق بالطعام على مساكين الحرم، أو يصوم عن كل مَدٍّ من الطعام يوماً وله أن يصوم حيث شاء لأنه لا نفع فيه للمساكين.
وقال مالك: إن لم يخرج المثل يقوّم الصيد ثم يجعل القيمة طعاماً فيتصدّق به، أو يصوم، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا يجب المثل من النَّعم، بل يقوّم الصيد فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النَّعم، وإن شاء إلى الطعام فتيصدّق به، وإن شاء صام عن كل نصف صاع من برٍّ أو صاع من شعير يوماً، وقال الشعبي والنخعي جزاء الصيد على الترتيب والآية حجّة لمَن ذهب إلى التخيير. قوله تعالى: ﴿ **ليذوقَ وَبَالَ أمره** ﴾، أي: جزاء معصيته، ﴿ **عفا اللّهُ عمّا سَلَف** ﴾، يعني: قبل التحريم، ونزول الآية، قال السدي: عفا الله عمّا سلف في الجاهلية، ﴿ **ومَنْ عادَ فينتقِم اللّهُ منه** ﴾، في الآخرة، ﴿ **واللّهُ عزيزٌ ذو انتقام** ﴾، وإذا تكرّر من المحرم قتل الصيد فيتعدّد عليه الجزاء عند عامّة أهل العلم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قتل المحرم صيداً متعمّداً يُسألُ هل قتلتَ قبله شيئاً من الصيد؟ فإن قال: نعم لم يحكم عليه، وقيل له: اذهب ينتقم الله منك، وإن قال لم أقتل قبله شيئاً حكم عليه، فإن عاد بعد ذلك لم يحكم عليه، ولكن يُملأ ظهرُه وصدره ضرباً وجيعاً، وكذلك حَكَم رسول الله ﷺ في وج وهو وادٍ بالطائف، واختلفوا في المحرم هل يجوز له أكل لحم الصيد؟ فذهب قوم إلى أنه لا يحلّ له بحال، ويروى ذلك عن

بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم هذا مذهب الشافعي وقال أبو حنيفة له أن يتصدق به حيث شاء إذا وصل الهدي إلى الكعبة ﴿أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾ ذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن كلمة ـ أو ـ في هذه الآية للتخيير وقال أحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة إنها للترتيب وهما روايتان. عن ابن عباس قال الشافعي إذا قتل صيداً له مثل فهو مخير بين ثلاثة أشياء: إن شاء ذبح المثل من النعم وتصدق به على مساكين الحرم وإن شاء قوم المثل دراهم والدراهم طعاماً ثم يتصدق به على مساكين الحرم وإن شاء صام عن كل مد من الطعام يوماً. وقال أبو حنيفة: يصوم عن كل نصف صاع يوماً. وعن أحمد روايتان كالقولين وأصل هذه المسألة أنّ الصوم مقدر بطعام اليوم فعند الشافعي مقدر بالمد وعند أبي حنيفة مقدر بنصف صاع وله أن يصوم حيث شاء لأنه لا نفع فيه للمساكين وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخيار في تعيين أحد هذه الثلاثة الأشياء إلى قاتل الصيد الذي وجب عليه الكفارة لأن الله أوجب عليه أحد هذه الثلاثة على التخيير فوجب أن يكون هو المخير بين أيها شاء وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة التخيير إلى الحكمين لأن الله تعالى قال: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ ومن قال: إن كلمة أو للترتيب، قال: إن لم يجد الهدي اشترى طعاماً وتصدق به فإن كان معسراً صام وقال مالك: إن لم يخرج المثل من النعم يقوّم الصيد ثم يجعل القيمة طعاماً فيتصدق به أو يصوم. وقال أبو حنيفة: لا يجب المثل من النعم، بل يقوم الصيد فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النعم وإن شاء إلى الطعام فيتصدق به وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوماً واختلفوا في موضع التقويم فقال جمهور الفقهاء يقوم في المكان الذي قتل فيه الصيد. وقال الشعبي: يقوم بمكة بثمن مكة لأنه يصرف بها.

وقوله تعالى: ﴿ليذوق وبال أمره﴾ يعني جزاء ذنبه. والوبال في اللغة، الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره. يقال: مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة وإنما سمى ذلك الله وبالاً لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس لأن فيه تنقيصاً للمال وهو ثقيل على النفس وكذا الصوم أيضاً ثقيل على النفس لأن فيه إنهاك البدن ﴿عفا الله عما سلف﴾ يعني قبل التحريم ﴿ومن عاد﴾ يعني إلى قتل الصيد مرة ثانية ﴿فينتقم الله منه﴾ يعني في الآخرة والانتقام المبالغة في العقوبة وهذا الوعيد لا يمنع إيجاب الجزاء في المرة الثانية والثالثة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد تكرر عليه الجزاء وهذا قول جمهور العلماء

ابن عباس، وهو قول طاوس وبه قال سفيان الثّوري، واحتجّوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى لرسول الله ﷺ حماراً وحشياً، فردّه عليه رسول الله ﷺ، قال: فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهي، قال: «إنّا لم نردّه عليك إلاّ أنّا حُرم». وذهب الأكثرون إلى أنه يجوز للمحرم أكله إذا لم يصطد بنفسه ولا اصطيد لأجله أو بإشارته، وهو قول عمر وعثمان وأبي هريرة، وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحق وأصحاب الرأي، وإنما ردّ النبي ﷺ على الصعب بن جثامة لأنه ظن أنه صيد من أجله، والدليل على جوازه ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله التيمي عن نافع مولى أبي قتادة عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ حتى كان ببعض طريق مكة، تخلّف مع أصحابه محرمين وهو غير محرم فرأى حماراً وحشياً فاستوى على فرسه وسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا فسألهم رمحه فأبوا فأخذه ثم سدّ على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وأبى بعضهم فلما أدركوا رسولَ الله ﷺ سألوه عن ذلك، فقال: «إنّما هي طعمة أطعمكموها الله تعالى»، أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن

وقد روي عن ابن عباس والنخعي وداود الظاهري أنه إذا قتل الصيد مرة ثانية فلا جزاء عليه لأنه وعد بالانتقام منه.

قال ابن عباس: إذا قتل المحرم صيداً متعمداً سئل هل قتل شيئاً من الصيد، فإن قال نعم، لم يحكم عليه. ويقال له: اذهب فينتقم الله منك وإن قال لم أقتل قبله شيئاً، حكم عليه، فإن عاد بعد ذلك لم يحكم عليه، ولكن يملأ ظهره وصدره ضرباً وكذلك حكم رسول الله ﷺ في صيدوج وهو واد بالطائف: ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ يعني ممن عصاه. وإذا أتلف المحرم شيئاً من الصيد الذي لا مثل له من النعم مثل البيض وطائر صغير دون الحمام ففيه القيمة فيقوّم ثم يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به على محاويج الحرم أو يصوم عن كل مد يوماً.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ المراد بالصيد ما صيد من البحر والمراد جميع المياه العذبة والمالحة.

فأما طعامه، فاختلفوا فيه فقيل: هو ما قذفه البحر ورمى به إلى الساحل يروى ذلك عن أبي بكر وعمر وابن عمر وأبي أيوب وقتادة وقيل: صيد البحر طريه وطعامه مالحه. يروى ذلك عن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب والسدي.

ويروى عن ابن عباس ومجاهد كالقولين وجملة حيوان الماء على قسمين: سمك وغير سمك فأما السمك فجميعه حلال على اختلاف أجناسه وأنواعه قال رسول الله ﷺ: «في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب فيحل أكله وقال أبو حنيفة لا يحل إلا أن يموت بسبب وما عدا السمك فقسمان: قسم يعيش في البر والبحر كالضفدع والسرطان فلا يحل أكلهما وقال سفيان أرجو أن لا يكون بالسرطان بأس واختلفوا في الجراد فقيل هو من صيد البحر فيحل أكله للمحرم وذهب جمهور العلماء إلى أنه من صيد البر وأنه لا يحل للمحرم أكله في حال الإحرام فإن أصاب جرادة فعليه صدقة. قال عمر: في الجرادة تمرة.

عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن حنطب عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لحم الصيد لكم في الإحرام حلال، ما لم تصيدوه أو يُصاد لكم»، قال أبو عيسى: المطّلب لا نعرف له سماعاً من جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وإذا أتلف المحرم شيئاً من الصيد لا مثل له من النعم مثل بيض أو طائر دون الحمام ففيه قيمة يصرفها إلى الطعام، فيتصدّق به أو يصوم عن كل مُدّ يوماً، واختلفوا في الجراد فرخص فيه قوم للمحرم وقالوا: هو من صيد البحر، رُوِيَ ذلك عن كعب الأحبار، والأكثرون على أنها لا تحلّ، فإن أصابها فعليه صدقة، قال عمر: في الجراد تمرة، ورُوِيَ عنه وعن ابن عباس: قبضة من طعام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أُحلّ لكم صيدُ البحر وطعامُه متاعاً لكم وللسيّارة ﴾، والمراد بالبحر جميع المياه، قال عمر رضي الله عنه: (صيده ما اصطيد وطعامه ما رُمِيَ به). وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة: طعامه ما قذفه الماء إلى الساحل ميتاً. وقال قوم: هو المالح منه وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعي، وقال مجاهد: صيده: طريُّه، وطعامه: مالحه، متاعاً لكم أي: منفعة لكم، وللسيارة يعني: المارّة. وجملة حيوانات الماء على قسمين: سمك وغيره، أمّا السمك فميتته حلال مع اختلاف أنواعها، قال النبي ﷺ: «أُحلّتْ لنا ميتتان: السمكُ والجراد»، فلا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب، وعند أبي حنيفة لا يحلّ إلّا أن يموت بسبب

وعنه وعن ابن عباس قبضة من طعام وكذلك طير الماء فهو من صيد البر أيضاً وقال أحمد: يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح قال لأن التمساح يفترس ويأكل الناس. وقال ابن أبي ليلى ومالك يباح كل ما في البحر وذهب جماعة إلى أن ماله نظير من البر يؤكل فيؤكل نظيره من حيوان البحر مثل بقر الماء ونحوه ولا يؤكل ما لا يؤكل نظيره في البر مثل كلب الماء وخنزير الماء فلا يحل أكله.

قوله تعالى: ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ يعني ينتفع به المقيمون والمسافرون فيتزودون منه.

قوله تعالى: ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ ذكر الله عز وجل تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة أحدها في أول السورة وهو قوله: غير محلِّي الصيدوأنتم حرم.

والثاني قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ والثالث: هذه الآية وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً. كل ذلك لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم واختلف العلماء هل يجوز للمحرم أن يأكل من لحم صيد صاده غيره فذهب قوم إلى أنه لا يحل ذلك بحال يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول طاوس وإليه ذهب الثوري واحتجوا على ذلك بما روي عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه رسول الله ﷺ: فلما رأى ما في وجهه من الكراهة قال: إنا لم نرده عليك إلا أنّا حرم. أخرجاه في الصحيحين

من وقوع على حجر أو انحسار الماء منه ونحو ذلك، أمّا غير السمك فقسمان: قسم يعيش في البرّ كالضفدع والسرطان، فلا يحلّ أكله، وقسم يعيش في الماء ولا يعيش في البرّ إلاّ عيش المذبوح، فاختلف القول فيه، فذهب قوم إلى أنه لا يحلّ شيء منها إلاّ السمك، وهو قول أبي حنيفة رضي الله عنه وذهب قوم إلى أن ميت الماء كلها حلال، لأن كلّها سمك، وإن اختُلف صورتها، كالجريث يقال له حيّة الماء، وهو على شكل الحيّة وأكله مباح بالاتفاق، وهو قول عمر وأبي بكر وابن عباس وزيد بن ثابت وأبي هريرة، وبه قال شريح والحسن وعطاء، وهو قول مالك وظاهر مذهب الشافعي، وذهب قوم إلى أن ما له نظير بالبرّ يُؤكل، فميتته من حيوانات البحر حلال، مثل بقر الماء ونحوه، وما لا يؤكل نظيره في البرّ لا يحلّ ميتته من حيوانات البحر، مثل كلب الماء والخنزير والحمار ونحوها، وقال الأوزاعي كل شيء عيشه في الماء فهو حلال، قيل: فالتمساح؟ قال: نعم، وقال الشعبي: لو أن أهلي أكلوا الضفادع لأطعمتهم، وقال سفيان الثّوري: أرجو أن لا يكون بالسرطان بأساً. وظاهر الآية حجّة لمَن أباح جميع حيوانات البحر، وكذلك الحديث. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن صفوان بن سلمان عن سعيد بن سلمة من آل بني الأزرق أن المغيرة بن أبي بردة وهو من بني عبد الدار أخبره أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّا نركب في البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطّهورُ ماؤُه الحِلّ ميتته». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيىٰ عن ابن جريج أخبرني عمر أنه سمع جابراً رضي الله عنه يقول: غزوتُ جيش الخبط وأمر أبو عبيدة، فجعنا جوعاً شديداً فألقى البحر حوتاً لم نرَ مثله، يقال له العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظماً من عظامه، فمرّ الراكب تحته. وأخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول: قال أبو عبيدة: كلوا فلما قَدِمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «كلوا رزقاً أخرجه الله إليكم، أطعمونا إن كان معكم» فأتاه بعضُهم بشيء منه فأكلوه، قوله تعالى: ﴿ وحُرِّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تُحشرُون ﴾، صيد البحر حلال للمحرم، كما هو حلال لغير المحرم، أما صيد البرّ فحرام على المحرم في الحرم، والصيد هو الحيوان الوحشي

وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه ولا صِيدَ له ولا بإشارته ولا أعان عليه.

وهذا قول عمر وعثمان وأبي هريرة وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وأصحاب الرأي ويدل عليه ما روي عن أبي قتادة الأنصاري، قال: كنت جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ في منزل في طريق مكة ورسول الله ﷺ أمامنا والقوم محرمون وأنا غير محرم عام الحديبية، فأبصروا حماراً وحشياً وأنا مشغول أخصف نعلاً فلم يؤذنوا بي وأحبوا لو أني أبصرته فالتفتُّ، فأبصرته، فقمت إلى الفرس فأسرجته ثم ركبت ونسيت السوط والرمح فقلت لهم ناولوني السوط والرمح. قالوا: لا والله لا نعينك عليه، فغضبت ونزلت فأخذتهما ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته ثم جئت به وقد مات، فوقعوا فيه يأكلون. ثم إنهم شكّوا في أكلهم إياه وهم حرم فرحنا وخبأت العضد فأدركنا رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال: هل معكم منه شيء؟ فقلت نعم. فناولته العضد فأكل منها وهو محرم. وزاد في رواية: أن النبي ﷺ قال لهم: إنما هي طعمة أطعمكموها الله. وفي رواية: هو حلال فكلوه. وفي رواية قال لهم رسول الله ﷺ: هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها قالوا: لا؟ قال: كلوا ما بقي من لحمها. أخرجاه في الصحيحين وأجاب أصحاب هذا المذهب عن حديث الصعب بن جثامة بأنه إنما رده النبي ﷺ لأنه ظن أنه إنما صيد لأجله والمحرم لا يأكل ما صيد لأجله ﴿واتقوا الله﴾ يعني فلا تستحلُّوا الصيد في حال الإحرام ولا في الحرم ثم حذرهم بقوله ﴿الذي إليه تحشرون﴾ يعني في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾

قوله عز وجل: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام﴾ جعل بمعنى صبر. وقيل: معناه بيَّن وحكم. وقال مجاهد:

الذي يحلّ أكله، أمّا ما يحلّ أكله فلا يحرم بسبب الإحرام، ويحرم أخذه وقتله، ولا جزاء على مَن قتله إلّا المتولّد بين ما لا يؤكل لحمه وما يؤكل، كالمتولّد بين الذئب والظبي لا يحلّ أكله ويجب بقتله الجزاء على المحرم، لأن فيه جزاء من الصيد، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زهير بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهنّ جُناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور»، ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقتلُ المحرمُ السبع العادي»، وعن أبي هريرة أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «خمسٌ قتلهنّ حلال في الحرم: الحيّة والعقرب والحدأة والفأرة والكلب العقور»، وقال سفيان بن عيينة: الكلب العقور كل سبع، ومثله عن مالك رحمه الله، وذهب أصحاب الرأي إلى وجوب الجزاء في قتل ما لا يُؤكل لحمه، كالفهد والنمر والخنزير ونحوها إلّا الأعيان المذكورة في الخبر، وقاسوا عليها الذئب فلم يُوجبوا فيه الكفّارة، وقاس الشافعي رحمه الله عليها جميعَ ما لا يُؤكل لحمه لأن الحديث يشتمل على أعيانٍ بعضُها سباعٌ ضارية وبعضُها هوامٌ قاتلة وبعضُها طير لا يدخل في معنى السباع ولا هي من جملة الهوام، وإنما هي حيوان مستخبث اللحم، وتحريم الأكل يجمع الكل فاعتبره ورتّب الحكم عليه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ جعلَ اللّهُ الكعبةَ البيتَ الحَرامَ ﴾، قال مجاهد: سمّيت كعبة لتربيعها والعرب تسمّي كل

سمي البيت كعبة لتربيعه. وقيل: لارتفاعه عن الأرض. وسمي البيت الحرام لأن الله حرمه وعظمه وشرفه وعظم حرمته وحرم أن يصطاد عنده وأن يختلى خلاه وأن يعضد شجره وأراد بالبيت الحرام، جميع الحرم لما صح من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ خطب يوم فتح مكة فقال «إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه».

وقوله تعالى: ﴿**قياماً للناس**﴾ أصله قواماً لأنه سبب لقوام مصالح الناس في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم.

أما في أمر الدين فإنه به يقوم الحج وتتم المناسك، وأما في أمر الدنيا فإنه تجبى إليه ثمرات كل شيء ويأمنون فيه من النهب والغارة فلو لقي الرجل قاتِل أبيه أو ابنه في الحرم لم يهجه، وأما في أمر الآخرة فإن البيت جعل لقيام المناسك عنده وجعلت تلك المناسك التي تقام عنده أسباباً لعلو الدرجات وتكفير الخطيئات وزيادة الكرامات والمثوبات فلما كانت الكعبة الشريفة سبباً لحصول هذه الأشياء كانت سبباً لقيام الناس ﴿**والشهر الحرام**﴾ يعني وجعل الشهر الحرام قياماً للناس وأراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم الأربعة وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد يعني وكذلك جعل الأشهر الحرم يأمنون فيها من القتال وذلك أن العرب كان يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض وكانوا إذا دخلت الأشهر الحرم أمسكوا عن القتال والغارة فيها فكانوا يأمنون في الأشهر الحرم فكانت سبباً لقيام مصالح الناس. ﴿**والهدي والقلائد**﴾ يعني وكذلك جعل الهدي والقلائد سبباً لقيام مصالح الناس وذلك أنهم كانوا يأمنون بسوق الهدي إلى البيت الحرام على أنفسهم وكذلك كانوا يأمنون إذا قلدوا أنفسهم من لحاء شجر الحرام فلا يتعرض لهم أحد ﴿**ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض**﴾ يعني: أنه تعالى علم في الأزل بمصالح العباد وما يحتاجون إليه فجعل الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد يأمنون بها لأنه يعلم مصالح العباد كما يعلم ما في السموات وما في الأرض لأنه تعالى علم جميع المعلومات الكليات والجزئيات وهو قوله تعالى: ﴿**وأن الله بكل شيء عليم**﴾ يعني أنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿**واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ يعني لمن انتهك محارمه واستحلها ﴿**وأن الله غفور رحيم**﴾ يعني لمن تاب وآمن ولما ذكر الله أنواع رحمته بعباده ذكر بعدها أنه

بيت مربّع كعبة، قال مقاتل: سُمّيت كعبة لانفرادها من البناء، وقيل: سمّيت كعبة لارتفاعها من الأرض، وأصلها من الخروج والارتفاع، وسمي الكعب كعباً لنتوئه، وخروجه من جانبي القدم، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرج ثديها: تكعّبت، وسمّي البيت الحرام لأن الله تعالى حرّمه وعظّم حُرمته. قال النبي ﷺ: «إنّ اللّهَ تعالى حرّم مكةَ يومَ خلقَ السمٰواتِ والأرض». ﴿ **قياماً للنّاس** ﴾، قرأ ابن عامر (قيماً) بلا ألف والآخرون قياماً بالألف، أي: قواماً لهم في أمرِ دينهم ودنياهم، أما الدين لأن به يقوم الحجّ والمناسك، وأما الدنيا فما يُجبى إليه من الثمرات، وكانوا يأمنون فيه من النهار والغارة فلا يتعرّض لهم أحد في الحرام، قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطّف النّاسُ منْ حولهم ﴾ [العنكبوت: ٦٧]؟ ﴿**والشهرَ الحرامَ**﴾، أراد به الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب، أراد أنه جعل الأشهر الحرم قياماً للنّاس يأمنون فيها القتال، ﴿ **والهدي والقلائد** ﴾، أراد أنهم كانوا يأمنون بتقليد الهدي، فذلك القوام فيه، ﴿ **ذلك لتعلمُوا أنّ الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض وأنّ اللّهَ بكل شيءٍ عليم** ﴾، فإن قيل: أيّ اتصال لهذا الكلام بما قبله وقيل: أراد أن الله عزّ وجلّ جعل الكعبة قياماً للنّـاس لأن الله تعالى يعلم صلاح العباد كما يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، وقال الزجّاج: قد سبق في هذه السورة الإخبار عن الغيوب والكشف عن الأسرار، مثل قوله: ﴿ سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين﴾ [المائدة: ٤١]، ومثل إخباره بتحريفهم الكتب ونحو ذلك، فقوله: ﴿ **ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السمٰواتِ وما في الأرض** ﴾ راجع إليه.

شديد العقاب لأن الإيمان لا يتم إلا بحصول الرجاء والخوف ثم ذكر بعده ما يدل على سعة رحمته وأنه غفور رحيم.

مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ يعني ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم إلا تبليغ ما أرسل به من الإنذار بما فيه قطع الحجج، ففي الآية تشديد عظيم في إيجاب القيامة بما أمر الله وأن الرسول ﷺ قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت الحجة عليكم بذلك ولزمتكم الطاعة فلا عذر في التفريط ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ يعني أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ظاهراً وباطناً ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب﴾ يعني الحلال والحرام في الدرجة والرتبة ولا يعتد الرديء والجيد ولا المسلم والكافر ولا الصالح والطالح ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ يعني ولو سرك كثرة الخبيث لأن عاقبته عاقبة سوء. والمعنى: أن أهل الدنيا يعجبهم كثرة المال وزينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى لأن زينة الدنيا ونعيمها يزول وما عند الله يدوم. وقال ابن الجوزي: روى جابر بن عبد الله أن رجلاً قال: يا رسول الله إن الخمر كانت تجارتي فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب» وقال مقاتل: نزلت في شريح بن ضبعة البكري وحجاج بن بكر وقد تقدمت القصة في أول السورة ﴿فاتقوا الله﴾ يعني فيما أمركم به أو نهاكم عنه ولا تعتدوه ﴿يا أولي الألباب﴾ يعني يا ذوي العقول السليمة ﴿لعلكم تفلحون﴾ قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فروي عن أنس بن مالك قال خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعنا مثلها قط فقال ﴿لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً﴾ قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين فقال رجل: من أبي؟ فقال فلان فنزلت هذه الآية ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ اعلموا أنّ اللّهَ شديدُ العقاب، وأنّ اللّهَ غفورٌ رحيم ﴾.

﴿ ما على الرسولِ إلاّ البلاغ ﴾ التبليغ، ﴿ واللّهُ يعلم ما تُبدون وما تكتمون ﴾.

﴿ قلْ لا يستوي الخبيثُ والطيب ﴾، أي: الحلال والحرام، ﴿ ولو أعجبك ﴾، سرّك، ﴿ كثرةُ الخبيث ﴾، نزلت في شريح بن ضبعة البكري، وحجّاج بن بكر بن وائل، ﴿ فاتّقوا اللّهَ ﴾، ولا تتعرضوا للحجّاج وإن كانوا مشركين، وقد مضت القصة في أول السورة، ﴿ يا أُولي الألباب لعلّكم تفلحون ﴾.

﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تسؤكم ﴾، الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بـن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا حفص بن عمر أنا هشام عن قتادة عن أنس رضي الله عنه سألوا رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فغضب فصعد المنبر فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلاّ بيّنته لكم»، فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً فإذا كان رجل لافٌ رأسه في ثوبه يبكي، فإذا رجل كان إذا لاحى الرجالَ يُدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول الله مَن أبي؟ قـال «حذافة»: ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من الفتن، فقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت في الخير والشرّ كاليوم قطّ، أن صُوّرتْ لي الجنةُ والنّارُ حتى رأيتهما وراء الحائط» وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تسؤكم ﴾ قال يونس عن ابن شهاب: أخبرني عبيد الله بن عبد الله قال: قالت أم

فصلى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة فذكر فيها أموراً عظاماً ثم قال: من أحب أن يسألني عن شيء فليسأل، فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي فأكثر الناس البكاء وأكثر أن يقول سلوا فقام عبد الله بن حذافة السهمي فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة. ثم أكثر أن يقول سلوني فبرك عمر على ركبتيه فقال: «رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً» فسكت ثم قال: عرضت علي الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر. قال ابن شهاب: فأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة ما سمعت بابن قط أعق منك أمنت أن تكون أمك قارفت بعض ما تقارف أهل الجاهلية فتفضحها عن أعين الناس؟ فقال عبد الله بن حذافة: لو ألحقني بعبد أسود للحقته زاد في رواية أخرى قال قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ أخرجاه في الصحيحين (خ).

عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل: تضل ناقته أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ الآية كلها وقيل نزلت هذه الآية في شأن الحج عن علي بن أبي طالب قال لما نزلت ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ قالوا: يا رسول الله ﷺ في كل عام؟ فسكت فقالوا يا رسول الله في كل عام؟ قال: لا ولو قلت نعم لوجبت فأنزل الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م).

عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله فقال: يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أفي كل عام؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال: ذروني ما تركتكم ولو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

وروى مجاهد عن ابن عباس: لا تسألوا عن أشياء قال هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى أنه يقول بعد ذلك ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا وقال عكرمة: إنهم كانوا يسألون عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ومعنى الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ جمع شيء ﴿إن تبد لكم﴾ أي تظهر لكم وتبن لكم ﴿تسؤكم﴾ يعني إن أمرتم بالعمل بها فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به فلا يقدر عليه فيسوءه ذلك ومن سأل عن نسبه لم يأمن أن يلحقه النبي ﷺ بغير أبيه فيفتضح ويسوءه ذلك ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ معناه: إن صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم وليس في ظاهره شرح ما تحتاجون إليه ومست حاجتكم إليه فإذا سألتم عنه فحينئذ يبدى لكم، ومثال هذا: أن الله عز وجل لما بيَّن عدة

عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة: ما سمعت بابن قطّ أعقّ منك، آمنت أن تكون أُمك قد فارقت بعض ما تفارقت نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ قال عبد الله بن حذافة: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته.
ورُوِيَ عن عمر قال: يا رسول الله إنّا حديثو عهد بجاهلية فاعفُ عنّا يعفُ الله سبحانه وتعالى عنك، فسكن غضبه.
أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا الفضل بن سهل أخبرنا أبو النضر أنا أبو خيثمة أنا أبو جويرية عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: مَن أبي ويقول الرجل ضلّت ناقته أين ناقتي، فأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تسؤكم ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. ورُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه قال: لمّا نزلت: ﴿ وللّهِ على النّاسِ حجُّ البيت ﴾ [آل عمران: ٩٧] قال رجل: يا رسول الله أفي كل عام فأعرض عنه فعاد مرتين أو ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «ما يُؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم،

المطلقة والمتوفى عنها زوجها والحامل ولم يكن في عدد هؤلاء دليل على عدة التي ليست ذات قرء ولا حامل فسألوا عنها فأنزل الله عز وجل جوابهم في قوله ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم﴾ الآية ﴿عفا الله عنها﴾ يعني عن مسألتكم عن الأشياء التي سألتم عنها رسول الله ﷺ التي كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ولم يعاقبكم عليها ﴿والله غفور﴾ يعني لمن تاب منكم ﴿حليم﴾ فلا يعجل بعقوبتكم. وقال عطاء: غفور يعني لما كان في الجاهلية. حليم: يعني عن عقابكم منذ آمنتم وصدقتم. وقال بعض العلماء: الأشياء التي يجوز السؤال عنها، هي ما يترتب عليها أمر الدين والدنيا من مصالح العباد وما عدا ذلك فلا يجوز السؤال عنه (ق).

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسألته (ق).

عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية أن النبي ﷺ «كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال» عن معاوية أن النبي ﷺ «نهى عن الأغلوطات» أخرجه أبو داود. والأغلوطات صعاب المسائل التي تزل فيها أقدام العلماء ويؤيد ذلك قول أبي هريرة: شرار الناس الذين يسألون عن شرار المسائل كي يغلطوا بها العلماء. عن سلمان قال سئل رسول الله ﷺ عن أشياء فقال «الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه فلا تتكلفوا» وعن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تقربوها وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها» هذان الحديثان أخرجهما في جامع الأصول ولم يعزهما إلى الكتب الستة ثم قال تعالى:

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ قال المفسرون: يعني قوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها فأصبحوا بها كافرين، وقوم موسى قالوا: أرنا الله جهرة، فكان هذا السؤال وبالاً عليهم، وقوم عيسى، سألوا نزول المائدة عليهم ثم كذبوها. كأنه تعالى يقول: إن أولئك سألوا فلما أُعطوا سؤلهم كفروا به فلا تسألوا أنتم شيئاً فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك.

فاتركوني ما تركتكم فإنّما هلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤكم ﴾ أي: إن تظهر لكم تسؤكم، أي: إن أُمرتم بالعمل بها فإن مَن سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به في كل عام فيسوءه، ومَن سأل عن نسبه لم يأمن من أن يلحقه بغيره فيفتضح، وقال مجاهد: نزلت حين سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحَام، ألا تراه ذكره بعد ذلك. ﴿ وإنْ تسألوا عنها حين يُنزَّلُ القرآنُ تُبدَ لكم ﴾، معناه صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم، وليس في ظاهره شرح ما بكم إليه حاجة ومسّت حاجتكم إليه، فإذا سألتم عنها حينئذ تُبد لكم، ﴿ عفَا اللَّهُ عنها والله غفورٌ حليم ﴾.

﴿ قدْ سألها قومٌ من قبلكم ﴾، كما سألت ثمود صالحاً الناقة وسأل قوم عيسى المائدة، ﴿ ثم أصبحوا بها كافرين ﴾، فأُهلكوا، قال أبو ثعلبة الخشني: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشيا فلا تنتهكوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها.

قوله تعالى: ﴿ما جعل الله﴾ أي ما أنزل الله ولا حكم به ولا شرعه ولا أمر به ﴿من بحيرة﴾ البحيرة: من البحر وهو الشق. يقال: بحر ناقته إذا شق أذنها فهي فعيلة بمعنى مفعولة ﴿ولا سائبة﴾ يعني المسيبة المخلاة ﴿ولا وصيلة﴾ الوصيلة: الشاة وكانت العرب في الجاهلية إذا ولدت لهم ذكراً أو أنثى قالوا وصلت أخاها ﴿ولا حام﴾ الحام: هو الفحل من الإبل يحمى ظهره فلا يركب ولا ينتفع به. قال ابن عباس: في بيان هذه الأوصاف، البحيرة: هي الناقة إذا ولدت خمسة أبطن لم يركبوها ولم يجزّوا وبرها ولم يمنعوها الماء والكلأ ثم نظروا إلى خامس ولدها فإن كان ذكراً نحروه وأكله الرجال والنساء وإن كانت أنثى شقوا أذنها وتركوها وحرموا على الناس منافعها. وكانت منافعها للرجال خاصة فإذا ماتت حلت الرجال والنساء. وقيل كانت الناقة إذا تابعت اثنتي عشرة سنة إناثاً سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم سيب مع أمها ويفعل بها ما يفعل بأمها. وقيل: السائبة البعير الذي يسيب لآلهتهم وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أو غاب له قريب نذر، فقال: إنْ شفاني الله أو شفى الله مريضي أو قدم غائبي فناقتي هذه سائبة ثم يسيبها، فلا تحبس عن ماء ولا مرعى ولا يركبها أحد، فهي بمنزلة البحيرة والوصيلة من الغنم. كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكر ذبحوه وأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تركوها في الغنم وإن كانت ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها واستحيوا الذكر فلم يذبحوه من أجل الأنثى والحامي هو الفحل إذا ركب ولدوله. وقيل: هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن. قالوا: حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى فإذا مات أكله الرجال والنساء (ق) عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار.

﴿ ما جعلَ اللَّهُ منْ بَحِيرةٍ ﴾ أي: ما أنزل الله ولا أمرَ به، ﴿ ولا سائبةٍ ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ ﴾، قال ابن عباس في بيان هذه الأوضاع: البحيرة هي الناقة التي كانت إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أُذنها، أي: شقّوها وتركوا الحمل عليها ولم يركبوها، ولم يجزّوا وَبرَها ولم يمنعوها الماء والكلأ، ثم نظروا إلى خامس ولدها فإن كان ذكراً نحروه وأكله الرجال والنساء، وإن كان أُنثى تحرّوا أُذنها، أي: شقّوها وتركوها، وحُرّم على النساء لبنها ومنافعها، وكانت منافعها خاصّة للرجال، فإذا ماتت حلّت للرجال والنساء، وقيل: كانت الناقة إذا تابعت اثنتي عشرة سنة إناثاً سُيّبت فلم يُركب ظهرُها ولم يُجزّ وبرُها ولم يُشرَب لبنُها إلّا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أُنثى شقّ أُذنها ثم خلّى سبيلها مع أُمّها في الإبل، فلم يُركب ظهرُها ولم يُجزّ وَبرُها ولم يُشربْ لبنَها إلا ضيف، كما فعل بأُمها، فهي البحيرة بنت السائبة. وقال أبو عبيدة: السائبة البعير الذي يُسيّب، وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية كان إذا مرض أو غاب له قريب نذر فقال إن شفاني الله تعالى أو شُفي مريضي أو عاد غائبي، فناقتي هذه سائبة، ثم يسيّبها فلا تحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبها أحدٌ فكانت بمنزلة البحيرة، وقال علقمة: هي العبد يُسيّب على أن لا ولاء عليه ولا عقل ولا ميراث. وقال ﷺ: «إنّما الولاء لمَن أعتق»، والسائبة فاعلة بمعنى المفعولة، وهي المسيبة، كقوله تعالى: ﴿ ماءٍ دافق ﴾[الطارق: ٦] أي: مدفوق، ﴿ وعيشةٌ راضية ﴾ [الحاقة: ٢١، والقارعة: ٧]، وأمّا الوصيلة: فمن الغنم كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكراً ذبحوه، فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أُنثى تركوها في الغنم وإن كان ذكراً وأُنثى استحيوا الذكر من أجل الأنثى، وقالوا: واصلت أخاها فلم يذبحوه، وكان لبن الأنثى حراماً على النساء، فإن مات منهما شيء أكله الرجال والنساء جميعاً. وأما الحَام: فهو الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: إذا نتج من صلبه عشرة أبطن، قالوا: حُمي ظهرُه فلا يُركب ولا يُحمل عليه ولا يُمنع من كلأ ولا ماء، فإذا مات أكله الرجال والنساء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن

ولمسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب وهو يجر قصبه في النار (خ) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ رأيت جهنم تحطم بعضها بعضاً ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب. القُصْب بضم القاف وسكون الصاد المهملة الأمعاء كانت الجاهلية تفعل هذا في جاهليتهم فلما بعث الله عز وجل نبيه ﷺ أبطل ذلك بقوله ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام يعني ما بحر الله من بحيرة ولا سيب من سائبة ولا وصل من وصيلة ولا حمى من حام ولا أذن فيه ولا أمر به ولكنكم أنتم فعلتم ذلك من عند أنفسكم (خ) عن ابن مسعود أن أهل الإسلام لا يسيبون وأن أهل الجاهلية كانوا يسيبون.

وقوله تعالى: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ يعني بقولهم إن الله أمرنا بهم ﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾ أراد بالأكثر الاتباع يعني أن الاتباع لا تعقل أن هذا كذب وافتراء من الرؤساء على الله عز وجل:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ يعني: وإذا قيل لهؤلاء الذين بحروا البحائر وفعلوا هذه الأشياء أضافوها إلى الله كذباً تعالوا إلى ما أنزل الله يعني في كتابه وإلى الرسول يعني محمداً ﷺ الذي أنزل عليه كتابه ليبين لكم كذب ما تضيفونه إلى الله ويبين لكم الشرائع والأحكام وإن الذي تفعلونه ليس بشيء ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ يعني قد اكتفينا بما أخذنا عنهم من الدين ونحن لهم تبع قال الله رداً عليهم ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ يعني إنما يصح الاقتداء بالعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجة والبرهان والدليل وأن آباءهم ما كانوا كذلك فيصح اقتداؤهم بهم قوله عز وجل:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ قال بعض العلماء: هذا أمر من الله تعالى

يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يُسيّبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء.
قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يجرّ قصبه في النار، وكان أول مَن سيّب السوائب». رَوى محمد بن إسحق عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأكتم بن جون الخزاعي: «يا أكتم رأيتُ عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق يجرّ قصبه في النار فما رأيت من رجل أشبه برجلٍ منك به ولا به منك»، وذلك أنه أول مَن غيّر دين إسماعيل ونصبَ الأوثان وبحرَ البحيرة وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة وحمى الحامي، «فلقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه»، فقال أكتم: أيضرّني شبه يا رسول الله؟ فقال: «لا إنك مؤمن وهو كافر». ﴿ ولكنّ الذينَ كفرُوا يفترونَ على اللّهِ الكذب ﴾، في قولهم الله أمرنا بها، ﴿ وأكثرهُم لا يعقلون ﴾.

﴿ وإذا قيلَ لهمْ تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾، في تحليل الحرث والأنعام وبيان الشرائع والأحكام، ﴿ قالوا حسبنا ما وجدْنا عليه آباءَنا ﴾، من الذين قال الله تعالى: ﴿ أو لو كانَ آباؤُهم لا يعلمُون شيئاً ولا يهتدُون ﴾.

﴿ يا أيّها الذينَ آمنُوا عليكمْ أنفسَكُم لا يضرُّكمْ مَنْ ضلّ إذا اهتديتُم ﴾ روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله

ومعناه احفظوا أنفسكم من ملابسة الذنوب والإصرار على المعاصي لأنك إذا قلت عليك زيداً معناه الزم زيداً وقيل معناه عليكم أنفسكم فأصلحوها واعملوا في خلاصها من عذاب الله عز وجل. وانظروا لها ما يقربها من الله عز وجل. لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، يعني لا يضركم كفر من كفر إذا كنتم مهتدين وأطعتم الله عز وجل فيما أمركم به ونهاكم عنه.

قال سعيد بن جبير ومجاهد: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب اليهود والنصارى يعني عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم. وقيل: لما قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار: كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض؟ فنزلت هذه الآية. وقيل: إن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم فقيل لهم: عليكم أنفسكم واجتهدوا في صلاحهم لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين إذا كنتم مهتدين. فإن قلت هل يدل ظاهر هذه الآية على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قلت: لا يدل على ذلك والذي عليه أكثر الناس أن المطيع لربه عزَّ وجل لا يكون مؤاخذاً بذنوب أصحاب المعاصي فأما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فثابت بدليل الكتاب والسنة. عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم**﴾ ولا تضعونها موضعها ولا تدرون ما هي وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وأخرجه أبو داود زاد فيه: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب».

وقال قوم في معنى الآية عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم قال ابن مسعود مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم فإن رد عليكم فعليكم أنفسكم، ثم قال: إن القرآن نزل منه أي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه أي وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ومنه أي وقع تأويلهن بعد رسول الله ﷺ بيسير ومنه أي يقع تأويلهن في آخر الزمان ومنه أي يقع تأويلهن يوم القيامة وهو ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة لم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض فامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإذا اختلفت قلوبكم وأهواؤكم وألبستم شيعاً وأذيق بعضكم بأس بعض فأمرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية. وقيل لابن عمر لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله يقول «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي لأن رسول الله ﷺ قال ألا ليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنت الغائب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وعن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني

عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يضرُّكم مَّنْ ضلّ إذا اهتديتم** ﴾، وتضعونها في غير موضعها ولا تدرون ما هي، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه يُوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه» وفي رواية «لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليسلطنّ اللَّهُ سبحانه وتعالى عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون اللَّهَ عزّ وجلّ خيّارُكم فلا يُستجاب لكم»، قال أبو عبيدة: خاف الصديق أن يتأوّل الناس الآية غير متأوّلها فيدعوهم إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأعلمهم أنها ليست كذلك وأن الذي أذن الإمساك عن تغييره من المنكر، هو الشرك الذي ينطق به المعاهدون من أجل أنهم يتدينون به، وقد صُولحوا عليه، فأما الفسوق والعصيان والذنب من أهل الإسلام فلا يدخل فيه، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الآية في اليهود والنصارى، يعني: عليكم أنفسكم لا يضرّكم مَن ضلّ من

فقلت له: كيف نصنع بهذه الآية قال: أية آية قلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ فقال «ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم».

وفي رواية: «قيل: يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم، قال: لا بل أجر خمسين منكم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وقيل في معنى الآية: إن العبد إذا عمل بطاعة الله واجتنب نواهيه لا يضره من ضل. وقال ابن عباس: قوله «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» يقول إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته من الحلال والحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به وعن صفوان بن محرز قال: دخل عليَّ شاب من أصحاب الأهواء فذكر شيئاً من أمره فقلت له: ألا أدلك على خاصة الله التي خص بها أولياءه «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» وقال الحسن: لم يكن مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله. وقيل في معنى الآية: لا يضركم من كفر بالله وحاد عن قصد السبيل من أهل الكتاب إذا اهتديتم أنتم. قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب. وقال ابن زيد: كان الرجل إذا أسلم قالوا له سفهت آباءك وضللتهم وفعلت وفعلت وكان ينبغي لك أن تنصرهم وتفعل وتفعل فقال الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ قال الطبري: وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق وهو العمل بطاعة الله وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم لأن الله تعالى يقول: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه.

وقال عبد الله بن المبارك: هذه الآية أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الله تعالى قال: عليكم أنفسكم يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغبه في الخيرات وينفره عن القبائح والمكروهات والذي يؤكد ذلك أن معنى قوله: عليكم أنفسكم أي احفظوا أنفسكم وهذا أمر بأن نحفظ أنفسنا ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والله أعلم.

أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم، وعن ابن عباس قال في هذه الآية: مُرُوا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قُبِلَ منكم فإن رُدَّ عليكم فعليكم أنفسكم، ثم قال: إن القرآن نزل منه، أي: قد مضى تأويلهنّ قبل أن ينزل، ومنه أي: وقع تأويلهنّ على عهد رسول الله ﷺ، ومنه أي وقع تأويلهنّ بعد رسول الله، ومنه أي تأويلهنّ في آخر الزمان، ومنه أي: يقع تأويلهنّ يوم القيامة ما ذكر من الحساب والجنّة والنار، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ولم يُذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤٌ ونفسُه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو جعفر أحمد بن محمد العنبري أخبرنا أبو عيسى بن نضر أنا عبد الله بن المبارك أنا عتبة بن أبي حكيم حدّثني عمرو بن جارية اللخمي أنا أبو أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلتُ: يا أبا ثعلبة كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أيّةُ آية؟ قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **عليكم أنفسَكم لا يضرّكم مَنْ ضَلّ إذا اهتديتُم** ﴾، فقال: أمَا والله لقد سألت عنها خبيراً، سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ فقال: «بل ائتمرُوا بالمعروف وتناهُوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحّاً مُطاعاً وهوىً متّبعاً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، ورأيتَ أمراً لا بدّ لك فعليك نفسك ودع أمر العوام، فإنّ وراءكم أيام الصبر، فمَن صبر فيهنّ قبض على الجمر، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسين رجلاً يعملون

وقوله تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ يعني في الآخرة الطائع والعاصي والضال والمهتدي ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ يعني فيخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ سبب نزول هذه الآية ما روي أن تميم بن أوس الداري، وعدي بن بداء، خرجا من المدينة في تجارة إلى الشام وهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتاباً فيه جميع ما معه من المتاع وألقاه في متاعه ولم يخبر صاحبيه بذلك فلما اشتد وجعه أوصى إلى تميم وعدي وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله إذا رجعا إلى المدينة ومات بديل، ففتشا متاعه، فوجدا فيه إناء من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فغيباه، ثم إنهما قضيا حاجتهما وانصرفا إلى المدينة فدفعا المتاع إلى أهل البيت ففتشوه فأصابوا الصحيفة وفيها تسمية ما كان معه فجاء أهل الميت إلى تميم وعدي فقالوا: هل باع صاحبنا شيئاً من متاعه قالا: لا. قالوا: فهل أتجر تجارة؟ قالا: لا. قالوا: فهل طال مرضه فأنفق شيئاً على نفسه قالا: لا. قالوا: إنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما كان معه وإنا فقدنا إناء من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فضة قالا: لا ندري إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه ومَا لَنا علم بالإناء فاختصموا إلى النبي ﷺ فأصرا على الإنكار وحلفا فأنزل الله هذه الآية هذا قول المفسرين. وروى الترمذي عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت قال تميم بريء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام بتجارتهما قبل الإسلام فأتيا إلى الشام بتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم: ولما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي فلما أتينا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقد الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا ولا دفع إلينا غيره قال تميم:

مثله»، قال ابن المبارك: وزادني غيره قالوا: يا رسول الله أجْر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم». وقيل: نزلت في أهل الأهواء، قال أبو جعفر الرازي: دخل على صفوان بن محرز شابٌّ من أهل الأهواء فذكر شيئاً من أمره، فقال صفوان ألا أدلّك على خاصّة الله التي خصّ بها أولياءه: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا عليكم أنفسَكُم لا يضرّكم مَنْ ضلّ إذا اهتديتُم** ﴾. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إلى اللّهِ مرجعُكم جميعاً** ﴾، الضالّ والمهتدي، ﴿ **فينبئُكم بما كنتُم تعملُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذينَ آمنُوا شهادةُ بينكم** ﴾، سبب نزول هذه الآية ما رُوِيَ أن تميم بن أوس الداري وعدي بن زيد قد خرجا من المدينة للتجارة إلى أرض الشام وهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص، وكان مسلماً فلما قَدِموا الشام مرض بديل، فكتب كتاباً فيه جميع ما معه من المتاع وألقاه في جوالقه ولم يخبر صاحبيه بذلك، فلما اشتدّ وجعه أوصى إلى تميم وعدي وأمرهم أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله، ومات بديل ففتشا متاعه وأخذا منه إناءً من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضة فغيباه، ثم قضيا حاجتهما فانصرفا إلى المدينة فدفعا المتاع إلى أهل البيت، ففتشوا وأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه فجاؤوا تميماً وعدياً فقالوا: هل باع صاحبنا شيئاً من متاعه؟ قالا: لا، قالوا: فهل اتّجر تجارة؟ قالا: لا، قالوا: هل طال مرضه فأنفق على

فلما أسلمت بعد قدوم النبي ﷺ المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم على أهل دينه فحلف فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ إلى قوله ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي قال الترمذي: هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح.

وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه قال ابن عباس: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم قال وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرج هذه الرواية الأخيرة البخاري في صحيحه فأما التفسير فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ يعني ليشهد ما بينكم لأن الشهادة إنما يحتاج إليها عند وقوع التنازع والتشاجر ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ يعني إذا قارب وقت حضور الموت ﴿حين الوصية اثنان﴾ لفظه خبر ومعناه الأمر يعني ليشهد اثنان منكم عند حضور الموت وأردتم الوصية ﴿ذوا عدل منكم﴾ يعني من أهل دينكم وملتكم يا معشر المؤمنين واختلفوا في هذين الاثنين فقيل هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي وقيل هما الوصيان لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال تعالى: ﴿فيقسمان بالله﴾ والشاهد لا يلزمه يمين وجعل الوصي اثنين تأكيداً فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك: شهدت وصية فلان بمعنى حضرت ﴿أو آخران من غيركم﴾ يعني من غير أهل دينكم وملتكم وهذا قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير والنخعي والشعبي وابن سيرين وابن شريح وأكثر المفسرين. وقيل: معناه من غير عشيرتكم وقبيلتكم وهم مسلمون. واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال إبراهيم النخعي وجماعة: هي منسوخة كانت شهادة أهل الذمة

نفسه؟ قالا: لا، فقالوا: إنّا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه وإنّا قد فقدنا منها إناءً من فضة مموّهاً بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال فضّة، قالا: ما ندري إنما أوصى لنا بشيء فأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه وما لنا علم بالإناء، فاختصموا إلى النبي ﷺ فأصرّا على الإنكار، وحلفا فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿ يا أَيّها الذين آمنوا شهادةُ بينكم إذا حضرَ أحدَكم الموتُ حينَ الوصيةِ اثنان ﴾، أي: ليشهد اثنان، لفظه خبر ومعناه أمر، وقيل: إن معناه: أن الشهادة فيما بينكم على الوصية عند الموت اثنان، واختلفوا في هذين الاثنين، فقال قوم: هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصيّة الموصي، وقال الآخرون: هما الوصيّان، لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال: ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان ﴾، ولا يلزم الشاهد يمين، وجعلُ الوصي اثنين تأكيد، فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور، كقولك: شهدتُ وصيّة فلان، بمعنى حضرت، قال الله تعالى: ﴿ وليشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾ [النور: ٢]، يريد الحضور، ﴿ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ أي: أمانة وعقل، ﴿ منكم ﴾، أي: من أهل دينكم يا معشر المؤمنين، ﴿ أو آخَرَانِ من غيركم ﴾، أي: من غير دينكم وملّتكم في قول أكثر المفسّرين، قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري، وهو قول سعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد وعبيدة، ثم اختلف هؤلاء في حكم الآية فقال النخعي وجماعة: هي منسوخة وكانت شهادة أهل الذمّة مقبولة في الابتداء ثم نسخت، وذهب قوم إلى أنها ثابتة، وقالوا: إذا لم نجد مسلمين فنشهد كافرين، قال شريح: مَن كان بأرض غربة ولم يجد مسلماً يشهده على وصيّته فأشهد كافرين على أيّ دين كانا من دين أهل الكتاب أو عبدة الأوثان، فشهادتُهم جائزة، ولا يجوز

مقبولة في الابتداء ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿**واستشهدوا شهيدين من رجالكم**﴾ لأن إجماع الأمة على أن شهادة الفاسق لا تجوز فشهادة الكفار وأهل الذمة لا تجوز بطريق الأولى وذهب قوم إلى أنها ثابتة لم تنسخ وهو قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير وابن سيرين وبه قال أحمد بن حنبل قالوا إذا لم يجد مسلمين يشهدان على وصيته وهو في أرض غربة فليشهد كافرين أو ذميين أو من أي دين كانا لأن هذا موضع ضرورة قال شريح: من كان بأرض غربة لم يجد مسلماً يشهد وصيته فليشهد كافرين على أي دين كانا من أهل الكتاب أو من عبدة الأصنام فشهادتهم جائزة في هذا الموضع ولا تجوز شهادة كافر على مسلم بحال إلا على وصيته في سفر لا يجد فيه مسلماً. عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه ولم يجد أحداً من المسلمين حضر يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى فأخبراه وقدما بتركته ووصيته فقال أبو موسى هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وأنها لوصيته الرجل وتركته فأمضى شهادتهما أخرجه أبو داود. وقال قوم في قوله ذوا عدل منكم يعني من عشيرتكم وحيكم أو آخران من غيركم من غير عشيرتكم وحيكم وأن الآية كلها في المسلمين وهذا قول الحسن والزهري وعكرمة وقالوا لا تجوز شهادة كافر في شيء من الأحكام وهذا مذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة غير أن أبا حنيفة أجاز شهادة أهل الذمة فيما بينهم بعضهم على بعض واحتج من قال بأن هذه الآية محكمة بأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً وليس فيها منسوخ واحتج من أجاز شهادة غير المسلم في هذا الموضع بأن الله تعالى قال في أول الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فعمَّ بهذا الخطاب جميع المؤمنين ثم قال بعده ﴿**ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم**﴾ فعلم بذلك أنهما من غير المؤمنين، ولأن الآية دالة على وجوب الحلف على هذين الشاهدين وأجمع المسلمون على أن الشاهد المسلم لا يجب عليه يمين ولأن الميت إذا كان في أرض غربة ولم يجد مسلماً يشهده على وصيته ضاع ماله وربما كان عليه ديون أو عنده وديعة فيضيع ذلك كله وإذا كان ذلك كذلك احتاج إلى إشهاد من حضر من أهل الذمة وغيرهم من الكفار حتى لا يضيع ماله وتنفذ وصيته فهذا كالمضطر الذي أبيح له أكل الميتة في حال الاضطرار والضرورات قد تبيح شيئاً من المحظورات واحتج من منع ذلك بأن الله تعالى قال: ﴿**ممن ترضون من الشهداء**﴾ والكفار ليسوا مرضيين ولا عدولاً فشهادتهم غير مقبولة في حال من الأحوال.

وقوله تعالى: ﴿**إن أنتم ضربتم في الأرض**﴾ يعني: إن أنتم سافرتم في الأرض ﴿**فأصابتكم مصيبة الموت**﴾

شهادة كافر على مسلم إلّا على وصيّة في سفر، وعن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا ولم يجد مسلماً يشهده على وصيّته فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدِمَا الكوفة بتركَته وأتا الأشعري فأخبراه بتَركَته ووصيّته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ فأحلفهما، وأمضى شهادتهما، وقال آخرون: قوله: ﴿ **ذوا عدل منكم** ﴾ أي: من حيّ الموصي أو آخران من غيرِ حيّكم وعشيرتكم، وهو قول الحسن والزهري وعكرمة، وقالوا: لا تجوز شهادة كافر في شيء من الأحكام، ﴿ **إن أنتم ضربتُم** ﴾، سرتُم وسافرتُم، ﴿ **في الأرضِ فأصابتْكُم مصيبةُ الموتِ** ﴾، فأوصيتُم إليهما ودفعتُم إليهما فاتهمتهما بعض الورثة وادّعوا عليهما خيانةً فالحكم فيه أنْ، ﴿ **تحْبِسُونَهُما** ﴾، أي: تستوقفونهما، ﴿ **من بعدِ الصّلاةِ** ﴾، أي: بعد الصلاة، و﴿ **من** ﴾ صلة يريد بعد صلاة العصر، هذا قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير وقتادة وعامّة المفسّرين، لأن جميع أهل الأديان يعظّمون ذلك الوقت، ويجتنبون فيه الحلف الكاذب، وقال الحسن: أراد من بعد. صلاة العصر، وقال السدي: من بعد صلاة أهل دينهما وملّتهما لأنهما لا يُباليان بصلاة العصر، ﴿ **فيُقْسمان** ﴾، يحلفان، ﴿ **باللّهِ إنِ ارْتَبْتُم** ﴾، أي: شككتم ووقعت لكم الريبة في قول الشاهدين وصدقهما، أي: في قول اللذين ليسا من أهل ملّتكم، فإن كانا مسلمين فلا

يعني نزل بكم أسباب الموت فأوصيتم إليهما ودفعتم مالكم إليهما ﴿تحبسونهما﴾ يعني إن اتهمهما بعض الورثة وادعوا عليهما خيانة فالحكم فيه أن يوقفوهما ﴿من بعد الصلاة﴾ يعني من بعد صلاة العصر لأن جميع أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقيل من بعد صلاة أهل دينهم لأنهما إذا كانا كافرين لا يحترمان صلاة العصر ﴿فيقسمان بالله﴾ يعني فيحلفان بالله. قال الشافعي: الأيمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق والمال إذا بلغ مائتي درهم بالزمان والمكان فيحلف بعد صلاة العصر إن كان بمكة بين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر وإن كان في بيت المقدس فعند الصخرة وفي سائر البلاد في أشرف المساجد وأعظمها بها ﴿إن ارتبتم﴾ يعني إن شككتم أيها الورثة في قول الشاهدين وصدقهما، فحلّفوهما وهذا إذا كانا كافرين أما إذا كانا مسلمين فلا يمين عليهما لأن تحليف الشاهد المسلم غير مشروع ﴿لا نشتري به ثمناً﴾ يعني لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا ولا نحلف بالله كاذبين لأجل عوض نأخذه أو حق نجحده ﴿ولو كان ذا قربى﴾ يعني ولو كان المشهود له ذا قرابة منا وإنما خص القربى بالذكر لأن الميل إليهم أكثر من غيرهم ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ إنما أضاف الشهادة إليه لأنه أمر بإقامتها ونهى عن كتمانها ﴿إنا إذاً لمن الآثمين﴾ يعني إن كتمنا الشهادة أو خنّا فيها ولما نزلت هذه الآية صلى ﷺ العصر ودعا تميماً وعدياً وحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنهما لم يخونا شيئاً مما دفع إليهما فحلفا على ذلك فخلى رسول الله ﷺ سبيلهما ثم ظهر الإناء من بعد ذلك قال ابن عباس وجد الإناء بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي. وقيل: لما طالت المدة أظهروه فبلغ ذلك بني سهم، فأتوهما في ذلك، فقالا: إنا كنا اشتريناه منه. فقالوا لهما: ألم تزعما أن صاحبنا لم يبع شيئاً من متاعه؟ قالا: لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر لكم به فكتمناه لذلك فرفعوهما إلى النبي ﷺ.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿فإن عثر﴾ يعني فإن اطلع وظهر والعثور الهجوم على أمر لم يهجم عليه غيره وكل من اطلع على أمر كان قد

يمين عليهما، ﴿لا نشتري به ثمناً﴾، أي: لا نحلف بالله كاذبين على عوض نأخذه أو مال نذهب به أو حق نجحده، ﴿ولو كان ذا قُربَى﴾، ولو كان المشهود له ذا قرابة منّا، ﴿ولا نَكْتُمُ شهادةَ اللهِ﴾ أضاف الشهادة إلى الله لأنه أمر بإقامتها ونهى عن كتمانها، وقرأ يعقوب (شــهادة)، بتنويـن، (آلله) ممدود، وجعل الاستفهام عوضاً عن حرف القسم، ويُروى عن أبي يعقوب (شــهادة) منوّنة (الله) بقطع الألف وكسر الهاء من غير استفهام على ابتداء اليمين، أي: والله، ﴿إنّا إذاً لَمِنَ الآثمين﴾، أي: إن كتمناها كنّا من الآثمين، فلما نزلت هذه الآية صلّى رسول الله ﷺ صلاة العصر ودعا تميماً وعديّاً فاستحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلّا هو أنهما لم يختانا شيئاً مما دُفع إليهما فحلفا على ذلك، وخلّى رسول الله ﷺ سبيلهما، ثم ظهر الإناء واختلفوا في كيفية ظهوره، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه وجد بمكة، فقالوا: إنّا اشتريناه من تميم وعدي، وقال الآخرون: لمّا طالت المدة أظهروه فبلغ ذلك بني سهم فأتوهما في ذلك، فقالا: إنّا كنّا قد اشتريناه منه فقالـوا لهما: ألم تزعما أن صاحبنا لم يُبعْ شيئاً من متاعه؟ قالا: لم يكن عندنا بيّنة فكرهنا أن نقرّ لكم به فكتمناه لذلك، فرفعهما إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿فإنْ عُثِرَ﴾، أي: اطّلع على خيانتهما، وأصل العثور: الوقوع على الشيء، ﴿على أنهما﴾، يعني: الوصيين ﴿استحقّا﴾، استوجبا، ﴿إثماً﴾، بخيانتهما وبأيمانهما الكاذبة، ﴿فآخرانِ﴾، من أولياء الميت،

خفي عليه قيل له قد عثر عليه ﴿**على أنهما استحقا إثماً**﴾ يعني الوصيين ومعنى الآية فإن حصل العثور والوقوف على أن الوصيين كانا استوجبا الإثم بسبب خيانتهما وأيمانهما الكاذبة ﴿**فآخران**﴾ يعني من أولياء الميت وأقربائه ﴿**يقومان مقامهما**﴾ يعني مقام الوصيين في اليمين ﴿**من الذين استحق عليهم**﴾ يعني من الذين استحق عليهم الإثم وهم الورثة والمعنى إذا ظهرت خيانة الحالفين وبان كذبهما يقوم اثنان آخران من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته ﴿**الأوليان**﴾ يعني بأمر الميت وهم أهله وعشيرته ﴿**فيقسمان بالله**﴾ يعني فيحلفان بالله ﴿**لشهادتنا أحق من شهادتهما**﴾ يعني أيماننا أحق وأصدق من أيمانهما ﴿**وما اعتدينا**﴾ يعني في أيماننا وقولنا إن شهادتنا أحق من شهادتهما ﴿**إنا إذاً لمن الظالمين**﴾ ولما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان لو وهما من أهل الميت وحلفا بالله بعد العصر ودفع الإناء إليهما وإنما ردت اليمين على أولياء الميت لأن الوصيين ادعيا أن الميت باعهما الإناء وأنكر ورثة الميت ذلك ومثل هذا أن الوصي إذا أخذ شيء من مال الميت وقال: إنه أوصى له به وأنكر ذلك الورثة ردت اليمين عليه ولما أسلم تميم الداري بعد هذه القصة كان يقول صدق الله وصدق رسوله أنا أخذت الإناء فأنا أتوب إلى الله وأستغفره.

وقوله تعالى: ﴿**ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها**﴾ يعني ذلك الذي حكمنا به من رد اليمين على أولياء الميت بعد أيمانهم أدنى، أي: أجدر وأحرى أن يأتوا بالشهادة على وجهها يعني أن يأتي الوصيان وسائر للناس بالشهادة على وجهها فلا يخونوا فيها﴿**أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم**﴾ أي وأقرب أن يخاف الوصيان أن ترد

﴿ **يقومانِ مقامَهما** ﴾، يعني: مقام الوصيّين، ﴿ **منَ الذينَ استحقّ** ﴾، بضمّ التاء على المجهول، هذا قراءة العامّة، يعني: الذين استحقّ، ﴿ **عليهم** ﴾، أي فيهم ولأجلهم الإثم وهم ورثة الميت استحقّ الحالفان بسببهم الإثم و﴿ **على** ﴾ بمعنى في، كما قال الله على ملك سليمان، وقرأ حفص «استحق» بفتح التاء والحاء، وهي قراءة علي والحسن، أي: حقّ ووجب عليهم الإثم، يقال: حقّ واستحقّ بمعنى واحد، ﴿ **الأَوْلَيَانِ** ﴾، نعت للآخران، أي: فآخران الأوليان، وإنما جاز ذلك و﴿ **الأوليان** ﴾ معرفة والآخران نكرة لأنه لمّا وصف الآخران، فقال: ﴿ **من الذين** ﴾ صار كالمعرفة في المعنى، و﴿ **الأوليان** ﴾ تثنية الأولى، والأولى هو أقرب، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ويعقوب (الأولين) بالجمع فيكون بدلاً من الذين، والمراد منهم أيضاً أولياء الميت، ومعنى الآية: إذا ظهرتْ خيانة الحالفين يقوم اثنان آخران من أقارب الميت، ﴿ **فيُقسمان باللّهِ لَشَهادتُنا أحقُّ من شهادتِهما** ﴾، يعني: يميننا أحقّ من يمينهما، نظيره قوله تعالى في اللعان: ﴿ فشهادة أحدهم أربعُ شهادات بالله ﴾ [النور: ٦]، والمراد بها الأيمان، فهو كقول القائل: أشهد بالله، أي: أُقسم بالله، ﴿ **وما اعْتَدَيْنَا** ﴾، في أيماننا، وقولنا أنّ شهادتنا أحقّ من شهادتهما، ﴿ **إنّا إذاً لمنَ الظالمين** ﴾، فلما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص والمطّلب بن أبي وداعة السهميان، فحلفا بالله بعد العصر فدفع الإناء إليهما وإلى أولياء الميت، وكان تميم الدّاري بعدما أسلم يقول: صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء، فأتوب إلى الله وأستغفره، وإنما انتقل اليمين إلى الأولياء لأن الوصيين ادّعيا أنهما ابتاعاه، والوصي إذا أخذ شيئاً من مال الميت وقال: إنه أوصى لي به حلف الوارث، إذا أنكر ذلك، وكذلك لو ادّعى رجل سلعة في يد رجل فاعترف ثم ادّعى أنه اشتراها من المدّعي، حلف المدّعي أنه لم يبعها منه. ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن تميم الدّاري قال: كنّا بعنا الإناء بألف درهم فقسمتها أنا وعدي، فلما أسلمت تأثمت فأتيت موالي الميت فأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به إلى رسول الله ﷺ، وحلف عمرو والمطّلب فنزعت الخمسمائة من عدي، ورددتُ أنا الخمسمائة. فذلك قوله تعالى:

﴿ **ذلكَ أدْنَى أنْ يأتوا بالشهادةِ على وجهها** ﴾، ذلك الذي حكمنا به من ردّ اليمين أجدر وأحرى أن يأتي

الأيمان على أولياء الميت فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرّموا فربما لا يحلفون كاذبين إذاخافوا هذه الحكم ﴿واتقوا الله﴾ يعني وخافوا الله أن تحلفوا أيماناً كاذبة أو تخونوا أمانة ﴿واسمعوا﴾ يعني المواعظ والزواجر وقيل معناه واسمعوا سمع إجابة ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يعني: والله لا يرشد من كان على معصية وهذا تهديد وتخويف ووعيد لمن خالف حكم الله تعالى أو خان أمانته أو حلف أيماناً كاذبة وهذه الآية الكريمة من أصعب ما في القرآن من الآيات نظماً وإعراباً وحكماً والله أعلم بأسرار كتابه.

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ قال الزجاج هي متصلة بما قبلها تقديرها: واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل، وقيل: تقدير: والله لا يهدي القوم الفاسقين يوم يجمع الله الرسل. أي لا يهديهم إلى الجنة في ذلك اليوم وهو يوم القيامة وقيل إنها منقطعة عما قبلها وتقديره اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل ذلك يوم القيامة ﴿فيقول ماذا أجبتم﴾ يعني فيقول الله تبارك وتعالى للرسل ماذا أجابكم أممكم وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم في دار الدنيا إلى توحيدي وطاعتي وفائدة هذا السؤال توبيخ أمم الأنبياء الذين كذبوهم ﴿قالوا﴾ يعني الرسل ﴿لا علم لنا﴾ قال ابن عباس: معناه لا علم لنا كعلمك فيهم لأنك تعلم ما أضمروا وما أظهروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا وأبلغ.

فعلى هذا القول، إنما نفوا العلم عن أنفسهم وإن كانوا علماء لأن علمهم صار كلاعلم عند علم الله.

وقال في رواية أخرى: معناه لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا وهذا القول قريب من الأول. وقيل: معناه لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا. وقيل: معناه لا حقيقة لعلمنا بعاقبة أمرهم لأنا كنا نعلم ما كان من أفعالهم وأقوالهم وقت حياتنا ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا ولا نعلم ما أحدثوا من بعدنا ومنه ما أخبر الله عن عيسى عليه السلام بقوله: «وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم» ومنه

الوصيّان بالشهادة على وجهها وسائر الناس أمثالهم، أي: أقرب إلى الإتيان بالشهادة على ما كانت، ﴿ أو يخافوا أنْ تُردّ أيمان بعد أيمانهم ﴾، أي: أقرب إلى أن يخافوا ردّ اليمين بعد يمينهم على المدّعين، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحوا ويغرموا فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا هذا الحكم، ﴿ واتّقوا اللّهَ ﴾، أن تحلفوا أيماناً كاذبة وتخونوا الأمانة، ﴿ واسمعُوا ﴾، الموعظة، ﴿ واللّهُ لا يهدي القومَ الفاسقين ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يومَ يجمعُ اللّهُ الرّسلَ ﴾، وهو يوم القيامة، ﴿ فيقولُ ﴾، لهم، ﴿ ماذا أجبتم ﴾، أي: ما الذي أجابَتْكُم أُمّتُكم؟ ومَا الذي رُدّ عليكم قومُكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي؟ ﴿ قالوا ﴾، أي: فيقولون: ﴿ لا عِلْمَ لَنا ﴾، قال ابن عباس معناه: لا علم لنا إلاّ العلم الذي أنت أعلم به منّا، وقيل: لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيّانا عن أمرٍ أنت أعلم به منّا، وقال ابن جريج: لا علم لنا بعاقبة أمرهم وبما أحدثوا من بعد، دليله أنه قال: ﴿ إنّكَ أنتَ علاّمُ الغيوب ﴾، أي: أنتَ الذي تعلم ما غاب ونحن لا نعلم إلاّ ما نشاهد، أخبرنا

ما روي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» زاد في رواية «فأقول سحقاً لمن بدل بعدي» أخرجاه في الصحيحين وقال جمع من المفسرين إن للقيامة أهوالاً وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها فيفزعون من هول ذلك ويذهلون عن الجواب ثم إذا ثابت إليهم عقولهم يشهدون على أممهم بالتبليغ.

وهذا فيه ضعف ونظر لأن الله تعالى قال في حق الأنبياء: «لا يحزنهم الفزع الأكبر»، وذكر الإمام فخر الدين الرازي وجهاً آخر وهو أن الرسل عليهم السلام لما علموا أن الله تعالى عالم لا يجهل وحليم لا يسفه وعادل لا يظلم علموا أن قولهم لا يفيد خيراً ولا يدفع شراً فرأوا أن الأدب في السكوت وفي تفويض الأمر إلى الله تعالى وعدله فقالوا لا علم لنا ﴿**إنك أنت علام الغيوب**﴾ يعني إنك تعلم ما غاب عنا من بواطن الأمور ونحن نعلم ما نشاهد ولا نعلم ما في البواطن. وقيل معناه إنك لا يخفى عليك ما عندنا من العلوم وأن الذي سألتنا عنه ليس بخاف عليك لأنك أنت علام الغيوب ومعناه العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها ليس تخفى عليه خافية وبناء فعال بتاء التكثير ودلت الآية على جواز إطلاق العلام على الله تعالى كما يجوز إطلاق الخلاق عليه.

قوله عز وجل: ﴿**إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك**﴾ قال بعضهم: إن إذ قال الله تعالى: يا عيسى صلة لماذا أجبتم ولما كان المراد بقوله للرسل ما أجبتم توبيخ الأمم ومن تمرد منهم على الله وكان أشد الأمم احتياجاً وافتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ووجه ذلك أن جميع الأمم إنما كان طعنهم في أنبيائهم بالتكذيب لهم وطعن هؤلاء النصارى تعدي إلى جلال الله تعالى حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الزوجة والولد. ذكر الله في هذه الآية أنواع نعمه على عيسى عليه السلام التي تدل على أنه عبد وليس بإله والفائدة في ذكر هذه الحكاية تنبيه النصارى على قبح مقالتهم وفساد اعتقادهم وتوكيد الحجة عليهم. وقيل: فائدة ذلك إسماع الأمم يوم القيامة ما خص الله عيسى عليه السلام به من الكرامة. وقيل: موضع إذا رفع بالابتداء على القطع ومعناه اذكر إذ قال الله: يا عيسى وإنما خرج قوله: إذ قال الله على لفظ الماضي دون المستقبل لأنه ورد على سبيل حكاية الحال. وقيل: تقديره إذ يقول الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك لفظه واحد والمراد به الجمع لأن الله تعالى عدد نعمه عليه في هذه الآية والمراد من ذكرها شكرها ﴿**وعلى والدتك**﴾ يعني بنعمته على مريم عليها السلام أنه تعالى: ﴿أنبتها نباتاً حسناً وطهرها واصطفاها على نساء العالمين﴾.

ثم ذكر نعمه على عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿**إذ أيدتك بروح القدس**﴾ يعني بجبريل عليه السلام لأن

عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم أنا وهيب أنا عبد العزيز عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَيَرِدَنَّ عليّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتى إذا عرفتُهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك»، وقال ابن عباس والحسن ومجاهد والسدي: إن للقيامة أهوالاً وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها، فينزعون من هول ذلك اليوم ويذهلون عن الجواب، ثم بعدما ثابت إليهم عقولهم ويشهدون على أُممهم.

قوله تعالى: ﴿ **إِذْ قالَ اللَّهُ يا عيسى ابْنَ مريمَ اذْكُرْ نعمتي عليك** ﴾، قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، وأراد بقوله: ﴿ **نعمتي** ﴾، أي نعمي لفظة واحد ومعناه جمع، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحصُوها** ﴾ [إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨]، ﴿ **وعلى والدتِكَ** ﴾، مريم ثم ذكر النِعَم فقال: ﴿ **إذ أَيَّدتُك** ﴾، قوّيتك، ﴿ **برُوحِ القُدُس** ﴾، يعني جبريل عليه السلام، ﴿ **تكلّم النّاس** ﴾، يعني: وتكلم الناس، ﴿ **في المهدِ** ﴾، صبيّاً،

القدس هو الله تعالى وأضافه إليه على سبيل التشريف والتعظيم كإضافة بيت الله وناقة الله. وقيل: أراد بروح القدس الروح المطهرة لأن الأرواح تختلف باختلاف الماهية فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية فخصَّ الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرقة ﴿تكلم الناس في المهد﴾ يعني تكلمهم طفلاً في حال الصغر ﴿وكهلاً﴾ يعني وفي حالة الكهولة من غير أن يتفاوت كلامك في هذين الوقتين وهذه معجزة عظيمة وخاصة شريفة ليست لأحد قبله. قال ابن عباس: أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله إليه ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة﴾ يعني الكتابة وهي الخط والحكمة الفهم والاطلاع على أسرار العلوم ﴿والتوراة والإنجيل﴾ أي وعلمتك التوراة التي أنزلتها على موسى والإنجيل الذي أنزلته عليك ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني﴾ يعني وإذ تجعل وتصور من الطين كصورة ﴿الطير بإذني﴾ ﴿فتنفخ فيها﴾ ذكر هنا فيها سورة آل عمران فيه يعني بالضمير في قوله فيها يعود إلى الهيئة بجعلها مصدراً كما يقع اسم الخلق على المخلوق وذلك لأن النفخ لا يكون في الهيئة إنما يكون في المهيأ وذي الهيئة ويجوز أن يعود الضمير إلى الطير لأنها مؤنثة قال الله تعالى: «أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات».

وأما الضمير المذكور في آل عمران في قوله فيه فيعود إلى الكاف يعني في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فتكون طيراً بإذني﴾ وإنما كرر قوله بإذني تأكيداً لكون ذلك الخلق واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى عليه السلام وتخليقه لأن المخلوق لا يخلق شيئاً إنما خالق الأشياء كلها هو الله تعالى لا خالق لها سواه وإنما كان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى عليه السلام أكرمه الله تعالى بها وكذا قوله تعالى: ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾ يعني وتشفي الأكمه وهو الأعمى المطموس البصر والأبرص معروف ظاهر ﴿وإذ تخرج الموتى﴾ يعني من قبورهم أحياء ﴿بإذني﴾ تفعل ذلك كله بدعائك والفاعل لهذه الأشياء كلها في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو المبرىء للأكمه والأبرص وهو محيي الموتى وهو على كل شيء قدير وإنما كانت هذه الأشياء معجزات لعيسى عليه السلام ووقعت بإذن الله تعالى وقدرته.

وقوله تعالى: ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك﴾ يعني واذكر نعمتي عليك إذ كففت وصرفت عنك اليهود ومنعتك منهم حين أرادوا قتلك ﴿إذ جئتهم بالبينات﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي ذكرت في هذه الآية وذلك أن عيسى عليه السلام لما أتى بهذه المعجزات العجيبة الباهرة قصد اليهود قتله فخلصه الله منهم ورفعه إلى السماء ﴿فقال الذين كفروا منهم﴾ يعني فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا بهذه المعجزات ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ يعني ما جاءهم به عيسى عليه السلام من المعجزات.

﴿ وكهلاً ﴾، نبيّاً قال ابن عباس: أرسله الله وهو ابن ثلاثين سنة، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله إليه، ﴿ وإذْ علّمتُكَ الكتابَ ﴾، يعني الخط، ﴿ والحكمةَ ﴾، يعني: العلم والفهم، ﴿ والتوراة والإنجيل وإذْ تخلق ﴾، تجعل وتصوّر، ﴿ منَ الطينِ كهيئة الطير ﴾، كصورة الطير، ﴿ بإذني فتنفخُ فيها فتكونُ طيراً ﴾ حيّاً يطير، ﴿ بإذني وتُبرىءُ ﴾، وتصحّح، ﴿ الأكْمَهَ والأبْرَصَ بإذني وإذ تخرجُ الموتى ﴾، من قبورهم أحياء، ﴿ بإذني وإذْ كَفَفْتُ ﴾، منعت وصرفت، ﴿ بني إسرائيل ﴾، يعني اليهود، ﴿ عنك ﴾، حين همُّوا بقتلك، ﴿ إذْ جئتَهم بالبيّناتِ ﴾، يعني: بالدلالات الواضحات والمعجزات، وهي التي ذكرنا وسمّيت بالبيّنات، لأنها مما يعجز عنها سائر الخلق الذين ليسوا بمرسلين، ﴿ فقالَ الذينَ كفرُوا منهمْ إنْ هذا ﴾، ما هذا، ﴿ إلّا سحرٌ مبين ﴾، يعني: ما جاءهم به من البيّنات، قرأ حمزة والكسائي «ساحر مبين» هاهنا وفي سـورة هود [٧] والصفّ [٦]، فيكـون راجعاً إلى عيسى عليه السلام، وفي هود يكون راجعاً إلى محمد ﷺ.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ يعني ألهمتهم وقذفت في قلوبهم فهو وحي إلهام كما أوحى إلى أم موسى وإلى النحل والحواريون هم أصحاب عيسى وخواصه ﴿أن آمنوا بي وبرسولي﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ لما وفقهم الله للإيمان، قالوا: آمنا. وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام، لأن الإيمان من أعمال القلوب والإسلام هو الانقياد والخضوع في الظاهر والمعنى أنهم آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم. قوله تعالى: ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك﴾ قال المفسرون: هذا على المجاز ولا يجوز لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكّوا في قدرة الله تعالى لكنه كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تقوم معي؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام وإنما قصد بقوله هل تستطيع هل يسهل عليك وهل يخف أن تقوم معي فكذلك. معنى الآية: لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ومعترفين بكمال قدرته وإنما قالوا ذلك ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن قلبي. ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب ولهذا السبب قالوا وتطمئن قلوبنا وقال بعضهم هو على ظاهره. وقال: غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة في قلوبهم وكانوا بشراً فقالوا هذه المقالة فرد الله عليهم عند غلطهم بقوله: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ يعني اتقوا الله إن كنتم مؤمنين يعني اتقوا الله أن تشكوا في قدرة الله عز وجل والقول الأول أصح وقيل في معنى الآية: هل يقبل ربك دعاءك ويعطيك بإجابة دعائك وسؤالك إنزال المائدة، فقد ورد في الآثار: من أطاع الله أطاعه كل شيء ﴿أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ المائدة الخوان الذي عليه الطعام ولا يسمى مائدة إن لم يكن عليه

﴿ وإذْ أوحيتُ إلى الحواريين ﴾، ألهمتُهم وقذفت في قلوبهم، وقال أبو عبيدة يعني أمرت و﴿ إلى ﴾ صلة، والحواريون خواص أصحاب عيسى عليه السلام، ﴿ أنْ آمنُوا بي وبرسولي ﴾، عيسى، ﴿ قالوا ﴾ حين وفقتُهم ﴿ آمنّا واشهد بأنّنا مسلمون ﴾.

﴿ إذْ قالَ الحواريونَ يا عيسى ابْنَ مريم هلْ يستطيعُ ربُّك ﴾ قرأ الكسائي « هل تستطيع » بالتاء « ربَّك » بنصب الباء وهو قراءة علي وعائشة وابن عباس ومجاهد، أي: هل تستطيع أن تدعو وتسأل ربّك، وقرأ الآخرون «يستطيع» بالياء و«ربُّك» برفع الباء، ولم يكونوا شاكين بقدرة الله عزّ وجلّ ولكن معناه هل ينزل ربّك أم لا، كما يقال الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنه يستطيع، وإنما يريد هل يفعل ذلك أم لا، وقيل: يستطيع بمعنى يطيع، يقال: أطاع واستطاع بمعنى واحد، كقوله: أجاب واستجاب، معناه: هل يعطيك ربّك بإجابة سؤالك؟ وفي الآثار مَن أطاع الله أطاعه الله، وأجرى بعضهم على الظاهر، فقالوا: غلط القوم، وقالوه قبل استحكام المعرفة وكانوا بشراً، فقال لهم عيسى عليه السلام: عند الغلط استعظاماً لقولهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، أي: لا تشكّوا في قدرته، ﴿ أنْ ينزّل علينا مائدة مّنَ السماء ﴾، المائدة الخوان الذي عليه الطعام، وهي فاعلة من: مادَهُ يميدُهُ إذا أعطاه وأطعمه، كقوله ماره يميره، وامتار افتعل منه، والمائدة هي الطعمة للآكلين، وسُمّي الطعام أيضاً مائدة على الجواز، لأنه يؤكل على المائدة، وقال أهل الكوفة: سُمّيت مائدة لأنها تميد بالآكلين، أي: تميل وقال أهل البصرة: فاعلة بمعنى المفعولة، يعني ميد بالآكلين إليها، كقوله تعالى: ﴿ عيشة

طعام إنما يقال خوان أو طبق وأصلها من ماد يميد إذا تحرك كأنها تميد بما عليها من الطعام ﴿قال﴾ يعني عيسى مجيباً للحواريين ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ يعني اتقوا الله في هذا السؤال إن كنتم مؤمنين لأنه سؤال تعنت وقيل: أمرهم بالتقوى ليحصل لهم هذا السؤال ومعنى إن كنتم مؤمنين مصدقين فلا تشكوا في قدرة الله تعالى وقيل معناه اتقوا الله أن تسألوا شيئاً لم يسأله أحد من الأمم قبلكم فنهاهم عن اقتراح الآية بعد الإيمان.

قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ يعني: قال الحواريون مجيبين لعيسى عليه السلام إنما نطلب نزول المائدة علينا لأن نأكل منها فإن الجوع قد غلب علينا. وقيل: معناه نريد أن نأكل منها للتبرك بها لا أكل حاجة ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ يعني وتسكن قلوبنا ونستيقن قدرة الله تعالى لأنا، وإن علمنا قدرة الله بالدليل، فإذا شاهدنا نزول المائدة ازداد اليقين وقويت الطمأنينة ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ يعني: ونزداد إيماناً ويقيناً بأنك رسول الله ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ يعني لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة. وقيل: معناه ونكون لك عليها من الشاهدين عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم، فلما قالوا ذلك، أمرهم عيسى أن يصوموا ثلاثين يوماً وقال لهم: إنكم إذا صمتم ذلك وأفطرتم فلا تسألون الله شيئاً إلا أعطاكم، ففعلوا ذلك وسألوا نزول المائدة فعند ذلك ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم﴾ قيل: إنه اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وبكى ثم دعا فقال اللهم ﴿ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ يعني عائدة من الله علينا وحجة وبرهاناً والعيد يوم السرور وأصله من عاد يعود إذا رجع والمعنى نتخذ ذلك اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً لعظمه ونصلي فيه نحن ومن يجيء من بعدنا فنزلت في يوم الأحد فاتخذه النصارى عيداً. وقال ابن عباس: معناه يأكل منها أول الناس كما يأكل آخرهم ﴿وآية منك﴾ أي وتكون المائدة دلالة على قدرتك دلالة على قدرتك ووحدانيتك وحجة بصدق رسولك ﴿وارزقنا﴾ أي ارزقنا ذلك من عندك وقيل: ارزقنا الشكر على هذه النعمة ﴿وأنت خير الرازقين﴾ يعني وأنت خير من تفضل ورزق ﴿قال الله﴾ عز وجل مجيباً لعيسى ﴿إني منزلها عليكم﴾ يعني

راضية ﴾ [الحاقة: ٢١، والقارعة: ٧] أي: مرضية: ﴿ قال ﴾، عيسى عليه السلام مجيباً لهم: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إنْ كنتُم مؤمنين ﴾، فلا تشكّوا في قدرته، وقيل: اتقوا اللَّهَ أن تسألوه شيئاً لم يسأله الأمم قبلكم، فنهاهم عن اقتراح الآيات بعد الإيمان.

﴿ قالوا نُريد ﴾، أي: إنّما سألنا لأنّا نُريد، ﴿ أنْ نأكل منها ﴾، أكل تبرّك لا أكل حاجة فنستيقن قدرته، ﴿ وتطمئنَّ ﴾، وتسكن، ﴿ قلوبُنا ونَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدقتَنَا ﴾، بأنّك رسول الله، أي: نزداد إيماناً ويقيناً، وقيل: إن عيسى عليه السلام أمرهم أن يصوموا ثلاثين يوماً فإذا فطروا لا يسألون اللَّهَ شيئاً إلّا أعطاهم، ففعلوا وسألوا المائدة، وقالوا: ونعلم أن قد صدقتنا في قولك، إنّا إذا صمنا ثلاثين يوماً لا نسأل الله تعالى شيئاً إلّا أعطانا، ﴿ ونكونَ عليها منَ الشاهدين ﴾، لله بالوحدانية والقدرة، ولك بالنبوّة والرسالة، وقيل: ونكون من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم.

﴿ قال عيسى ابْنُ مريم ﴾، عند ذلك، ﴿ اللّهُمَّ ربّنا أنزل علينا مائدةً من السماء ﴾، وقيل: إنه اغتسل ولبس

المائدة ﴿فمن يكفر بعد منكم﴾ يعني بعد نزول المائدة ﴿فإني أعذبه عذاباً﴾ يعني جنساً من العذاب ﴿لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ يعني من عالمي زمانهم فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة فمسخوا خنازير. قال الزجاج: ويجوز أن يكون هذا العذاب معجلاً في الدنيا ويجوز أن يكون مؤخراً إلى الآخرة. قال عبد الله بن عمر: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون. واختلف العلماء في نزول المائدة فقال الحسن ومجاهد: لم تنزل المائدة لأن الله لما أوعدهم على كفرهم بالعذاب بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا: لا نريدها فلم تنزل عليهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى: ﴿إني منزلها عليكم﴾ إن سألتم نزولها والصحيح الذي عليه جمهور العلماء والمفسرين أنها نزلت لأن الله تعالى قال: ﴿إني منزلها عليكم﴾ وهذا وعد من الله بإنزالها ولا خلف في خبره ووعده ولما روي عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد، فمسخوا قردة وخنازير أخرجه الترمذي. وقال قد روي عن عمار من غير طريق موقوفاً وهو أصح. وقال ابن عباس: إن عيسى عليه السلام قال لهم: صوموا ثلاثين يوماً ثم اسألوا الله ما شئتم يعطيكموه فصاموا فلما فرغوا قالوا يا عيسى إنا لو عملنا عملاً لأحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم. وقال سلمان الفارسي: لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى صوفاً وبكى وقال: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء الآية، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوي إليهم منقضّة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين

المسح وصلّى ركعتين وطأطأ رأسه وغضّ بصره وبكى، ثم قال: اللّهمّ ربّنا أنزل علينا مائدةً من السماء، ﴿ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾، أي: عائدة من الله علينا حجّة وبرهاناً، والعيد: يوم السرور. سُمّي به للعود من الترح إلى الفرح، وهو اسم لما اعتدته ويعود إليك وسُمّي يوم الفطر والأضحى عيداً لأنهما يعودان في كل سنة، قال السدي: معناه نتخذ اليوم الذي أنزلتْ فيه عيداً لأوّلنا وآخرنا، أي: نعظّمه نحن ومَن بعدنا، وقال سفيان: نصلّي فيه، قوله: ﴿ لأوّلنا ﴾ أي: لأهل زماننا وآخرنا، أي: لمَن يجيء بعدنا، وقال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهـم، ﴿ وآيةً منك ﴾، دلالة وحجّة، ﴿ وارزقْنَا وأنْتَ خَيرُ الرازقين ﴾.

﴿ قال الله ﴾ تعالى مجيباً لعيسى عليه السلام، ﴿ إني منزلها عليكم ﴾، يعني: المائدة وقرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم (منـزّلها) بالتشديد لأنها نزلت مرات والتفعيل يدلّ على التكريز مرة بعد أخرى وقرأ الآخرون بالتخفيف لقوله: أنزل علينا، ﴿ فمَن يكفرْ بعد منكم ﴾، أي: بعد نزول المائدة ﴿ فإني أُعذّبه عذاباً ﴾، أي: جنس عذاب، ﴿ لا أعذّبه أحداً من العالمين ﴾، يعني: عالمي زمانه فجحدوا وكفروا بعد نزول المائدة فمُسِخُوا قردة وخنازير، قال عبد الله بن عمر: إنّ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومَن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون، واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا، فقال مجاهد والحسن لم تنزل فإن الله عزّ وجلّ لمّا أوعدهم على كفرهم بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا، وقالوا: لا نريدها، فلم تنزل، وقوله: ﴿ إني منزلها عليكم ﴾، يعني: إن سألتم، والصحيح الذي عليه الأكثرون أنها نزلت لقوله تعالى: ﴿ إني منزّلها عليكم ﴾، ولا خلف في خبره لتواتر الأخبار فيه عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، واختلفوا في صفتها فروَى خلاّس بن عمرو عن عمّار بـن ياسر عن رسول الله ﷺ أنها نزلت خبزاً ولحماً، وقيل لهم: إنها مقيمة لكم ما لكم تخونوا وتخبـؤا فما مضى يومها حتى خانوا وخبـؤا فمسخوا قردة وخنازير، وقال ابن عباس رض الله عنهما: إن عيسى عليه السلام قال لهم: صُومُوا ثلاثين يوماً ثم سَلوا الله ما شئتُم يعطكموه، فصامُوا فلما فرغوا قالوا: يا عيسى

اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة واليهود ينظرون إلى شيء لم ينظروا مثله ولم يجدوا ريحاً أطيب من ريحه فقال عيسى عليه السلام ليقم أحسنكم عملاً فليكشف عنها ويسمّ الله. فقال شمعون الصفار رأس الحواريين: أنت أولى بذلك منا. فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيراً ثم كشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين، فإذا هو بسمكة مشوية ليس فيها شوك ولا عليها فلوس تسيل من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى: ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة ولكنه شيء اخترعه الله بقدرته العالية. كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم ويزدكم من فضله. فقالوا: يا روح الله كن أول من يأكل منها فقال عيسى: معاذ الله أن آكل منها يأكل منها من سألها، فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها أهل الفاقة والمرض والبرص والجذام والمقعدين فقال: كلوا من رزق الله لكم الشفاء ولغيركم البلاء، فأكلوا منها وهم ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزمِن ومبتلى وصدروا عنها وهم شباع، وإذا السمكة بحالها حين أنزلت ثم طارت المائدة صعوداً وهم ينظرون إليها حتى توارت ولم يأكل منها مريض أو زَمِن أو مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى. وندم من لم يأكل منها.

وقيل: مكثت أربعين صباحاً تنزل ضحى فإذا نزلت اجتمع إليها الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يأكلون منها ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى يفيء الفيء، فإذا فاء الفيء، طارت وهم ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم وكانت تنزل غباً يوماً ويوماً لا تنزل فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام اجعل مائدتي ورزقي

إنّا لو عملنا لأحدهما فقضينا عمله لا أطعمنا وسألوا الله المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم، قال كعب الأحبار: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض، عليها كل الطعام إلّا اللحم، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أُنزل على المائدة كل شيء إلّا الخبز واللحم، قال قتادة: كان عليها ثمر من الجنة، وقال عطية العوفي: نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء، وقال الكلبي: كان عليها خبز ورز وبقل، وقال وهب بن منبّه: أنزل الله أقرصة من شعير وحيتاناً وكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوا جميعُهم وفضل، وعن الكلبي ومقاتل: أنزل الله خبزاً وسمكاً وخمسة أرغفة فأكلوا ما شاء الله تعالى، والناس ألف ونيّف فلمّا رجعوا إلى قراهم، ونشروا الحديث ضحك منهم مَن لم يشهد قالوا: ويحكم إنما سحر أعينكم فمَن أراد الله به الخير ثبّته على بصيرته، ومَن أراد فتنته رجع إلى كفره، ومسخوا خنازير ليس فيهم صبي ولا امرأة، فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا، وكذلك كل ممسوخ، وقال قتادة: كانت تنزل عليهم بكرةً وعشياً حيث كانوا كالمنّ والسلوى لبني إسرائيل، وقال عطاء بن أبي رباح عن سلمان الفارسي لمّا سأل الحواريون المائدة لبس عيسى عليه السلام صوفاً وبكى، وقال: اللّهمّ أنزل علينا مائدة من السماء الآية فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوى خافضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى، وقال: اللّهمّ اجعلني من الشاكرين اللّهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة، واليهود ينظرون إلى شيء لم يروا مثله قطّ ولم يجدوا ريحاً أطيب من ريحه، فقال عيسى عليه السلام: ليقم أحسنكم عملاً فيكشف عنها ويذكر اسم الله تعالى، فقال شمعون الصفّار رأس الحواريين: أنت أولى بذلك منّا فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلّى صلاة طويلة وبكى كثيراً، ثم كشف المنديل عنها، وقال: بسم الله خير الرازقين فإذا هو سمكة مشويّة ليس عليها فلوسها ولا شوك عليها تسيل من الدّسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خلّ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد

للفقراء دون الأغنياء فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها وقالوا: ترون المائدة حقاً تنزل من السماء، فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام إني شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فقال عيسى عليه السلام عند ذلك «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» فمسخ الله منهم ثلثمائة وثلاثين رجلاً باتوا ليلتهم مع نسائهم على فرشهم ثم أصبحوا خنازير يسعون في الطرق يأكلون العذرة من الكناسات والحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعموا إلى عيسى عليه السلام وبكوا ولما أبصرت الخنزير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى عليه السلام يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا. وقال كعب: أنزلت المائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل شيء إلا اللحم وقال ابن عباس: أنزل على المائدة كل شيء إلا الخبز واللحم. وقال الكلبي: كان عليها خبز بر وبقل. وقال وهب بن منبه: أنزل الله أقرصة من شعير وحيتاناً فكان القوم يأكلون ويخرجون ثم يجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوا بأجمعهم وفضل. وقال قتادة: كانت تنزل عليهم بكرة وعشياً حيث كانوا كالمن والسلوى لبني إسرائيل. وقال الكلبي ومقاتل: أنزل الله سمكاً وخمسة أرغفة فأكلوا منها ما شاء الله والناس ألف ونيف فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك من لم يشهد منهم وقالوا ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به خيراً ثبته ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا خنازير وليس فيهم صبي ولا امرأة فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا

زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، ولكنه شيء افتعله الله تعالى بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم يمددكم ويزيدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله كن أول مَن يأكل منها، فقال عيسى عليه السلام: معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها مَن سألها فخافوا أن يأكلوا منها، فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمقعدين والمبتلين، فقال: كلوا من رزق الله ولكم المهنأ ولغيركم البلاء، فأكلوا وصدر عنها ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزَمِن ومُبتلى كلهم شبعان، وإذ السمكة بحالها حين نزلت، ثم طارت المائدة صُعُداً وهم ينظرون إليها حتى توارت بالحجاب، فلم يأكل منها زَمِن ولا مريض ولا مبتلي إلاّ عُوفِيَ ولا فقير إلاّ استغنى وندم مَن لم يأكل منها فلبثت أربعين صباحاً تنزل ضحى، فإذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء، ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صعداً وهم ينظرون إليها في ظلها حتى توارت عنهم، وكانت تنزل غبّاً تنزل يوماً ولا تنزل يوماً كناقة ثمود، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناسَ فيها، وقالوا: أترون المائدة حقاً تنزل من السماء؟ فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام إني شرطت أنّ مَن كفر بعد نزولها عذّبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، فقال عيسى عليه السلام: ﴿إنْ تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفرْ لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة: ١١٨] فمسخ منها ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلاً باتوا من ليلتهم على فرشهم مع نسائهم فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكنّاسات، ويأكلون القذرة في الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف بعيسى عليه السلام وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤوسهم ويبكون ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا.

يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ الآية اختلف المفسرون في وقت هذا القول فقال السدي: قال الله لعيسى هذا القول حين رفعه إلى السماء بدليل أن حرف إذ يكون للماضي وقال سائر المفسرين: إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ وذلك يوم القيامة وبدليل قوله ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهن﴾ وذلك يوم القيامة وأجيب عن حرف إذ بأنها قد تجيء بمعنى إذا كقوله ﴿ولو ترى إذا فزعوا﴾ يعني إذ فزعوا وقال الراجز ثم جزاك الله عني إذا جزى.

جنات عدن في السموات العلى ولفظ الآية في قوله: أأنت قلت للناس لفظ استفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى عليه السلام من النصارى، لأن عيسى عليه السلام لم يقل هذه المقالة، فإن قلت إذا كان عيسى عليه السلام لم يقلها فما وجه هذا السؤال له مع علم الله بأنه لم يقله؟ قلت: وجه هذا السؤال تثبيت الحجة على قومه وإكذاب لهم في ادعائهم ذلك عليه وأنه أمرهم به فهو كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا؟ وهو يعلم أنه لم يفعله وإنما أراد تعظيم ذلك الفعل فنفى عن نفسه هذه المقالة. وقال: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم فاعترف بالعبودية وأنه ليس بإله كما زعمت وادعت فيه النصارى فإن قلت إن النصارى لم يقولوا بإلهية مريم، فكيف قال: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قلت إن النصارى لما ادعت في عيسى أنه إله ورأوا أن مريم ولدته لزمهم بهذه المقالة على سبيل التبعية وقوله تعالى إخباراً عن عيسى عليه السلام ﴿قال سبحانك﴾ يعني تنزيهاً لك عن النقائص وبراءة لك من العيوب قال أبو روق إذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب وهو قوله: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ ارتعدت مفاصلة وانفجرت من أصل كل شعرة من جسده عين من دم وقال مجيباً لله تعالى سبحانك ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي كيف أقول هذا الكلام ولست بأهل ولست أستحق العبادة حتى ادعو الناس إليها ولما بيَّن أنه ليس له أن يقول هذه المقالة وهذا المقام مقام التواضع والخشوع لعظمة الله تعالى شرع في بيان هل وقع ذلك منه أم لا؟ فقال: ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ أسند العلم إلى الله تعالى وهذا هو غاية الأدب وإظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الأمر إلى علمه ثم قال ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما نفسك﴾ يعني تعلم

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ قالَ اللّهُ يا عيسى ابْنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للنّاس اتخذوني وأُميَ إلَهين مِنْ دُونِ الله ﴾ واختلفوا في أن هذا القول متى يكون، فقال السدي: قال الله تعالى هذا القول لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء لأن حرف ﴿ إذ ﴾ يكون للماضي، وقال سائر المفسّرين: إنما يقول الله له هذا القول يوم القيامة بدليل قوله من قبل: ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقال من بعد هذا: ﴿ يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ [المائدة: ١١٩]، وأراد بهما يوم القيامة، وقد تجيء إذْ بمعنى إذاً كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو ترى إذْ فزعوا ﴾ [سبأ: ٥١] أي: إذا فزعوا يوم القيامة، والقيامة وإن لم تكن بعد ولكنها كالكائنة لأنها آتية لا محالة، قوله: ﴿ أأنت قلتَ للنّاس اتخذوني وأُميَ إلَهين منْ دُونِ الله ﴾؟ فإن قيل: فما وجه هذا السؤال عنه لتوبيخ قومه وتعظيم أمر هذه المقالة كما يقول القائل لآخر: أفعلت كذا وكذا فيما يعلم أنه لم يفعله إعلاماً واستعظاماً لا استخباراً واستفهاماً وأيضاً أراد الله عزّ وجلّ أن يقرَّ عيسى عليه السلام عن نفسه العبودية، فيسمع قومه منه ويظهر كذبهم عليه أنه أمرهم بذلك، قال أبو روق: وإذا سمع عيسى عليه السلام هذا الخطاب أرعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة على جسده عين من دم، ثم يقول مجيباً لله عزّ وجلّ: ﴿ قالَ سبحانَكَ ﴾، تنزيهاً وتعظيماً لك﴿ ما يكونُ لي أنْ

ما أعلم ولا أعلم ما تعلم وقال ابن عباس تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك وقيل معناه تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي وقيل معناه تعلم ما كان مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة وقيل معناه تعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل والنفس عبارة عن ذات الشيء يقال نفس الشيء وذاته بمعنى واحد. وقال الزجاج: النفس عبارة عن جملة الشيء وحقيقته يقال تعلم جميع حقيقة أمري ولا أعلم حقيقة أمرك. وقيل: معناه تعلم معلومي ولا أعلم معلومك وإنما ذكر هذا الكلام على طريقة المشاكلة والمطابقة وهو من فصيح الكلام ثم قال: ﴿**إنك أنت علام الغيوب**﴾ يعني أنك تعلم ما كان وما سيكون وهذا تأكيد لما تقدم من قوله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك.

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى إخباراً عن عيسى ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به**﴾ يعني ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به ﴿**أن اعبدوا الله**﴾ يعني قلت لهم اعبدوا الله ﴿**ربي وربكم**﴾ يعني وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿**وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم**﴾ يعني وكنت أشهد ما يفعلون وأحصره ما دمت مقيماً فيهم ﴿**فلما توفيتني**﴾ يعني فلما رفعتني إلى السماء فالمراد به وفاة الرفع لا الموت ﴿**كنت أنت الرقيب عليهم**﴾ يعني الحفيظ عليهم المراقب لأعمالهم وأحوالهم والرقيب الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ﴿**وأنت على كل شيء شهيد**﴾ يعني أنت شهدت مقالتي التي قلتها لهم وأنت الشهيد عليهم بعد ما رفعتني إليك لا تخفى عليك خافية فعلى هذا الشهيد هنا بمعنى الشاهد لما كان وما يكون أن يجوز أن يكون الشهيد هنا بمعنى العليم يعني أنت العالم بكل شيء فلا يعزب عن علمك شيء.

قوله عز وجل إخباراً عن عيسى عليه السلام ﴿**إن تعذبهم**﴾ يعني إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة بأن تميتهم على كفرهم ﴿**فإنهم عبادك**﴾ لا يقدرون على دفع ضر نزل بهم ولا جلب نفع لأنفسهم وأنت العادل فيهم لأنك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا ﴿**وإن تغفر لهم**﴾ يعني لمن تاب من كفره منهم بأن تهديه إلى الإيمان فإن ذلك بفضلك ورحمتك ﴿**فإنك أنت العزيز**﴾ يعني في الانتقام ممن تريد الانتقام منه لا يمتنع عليك ما تريده

أقولَ ما ليسَ لي بحقٍ إنْ كنتُ قلتُهُ فقدْ علمتَه تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسِكَ ﴾، قال ابن عباس: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، وقيل: تعلم سرّي ولا أعلَم سرَّك، وقال أبو روق تعلم ما كان منّي في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في الآخرة، وقال الزجّاج: النفس عبارة عن جملة الشيء وحقيقته، يقول: تعلم جميع ما أعلم من حقيقة أمري ولا أعلم حقيقة أمرك، ﴿ **إنّك أنتَ علاّمُ الغُيوب** ﴾، ما كان وما يكون.

﴿ **ما قلتُ لهم إلاّ ما أمرتني به أنِ اعبدُوا اللّهَ رَبي وربّكم** ﴾، وحده ولا تُشركوا به شيئاً، ﴿ **وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ** ﴾، وقمت، ﴿ **فيهِمْ فلمّا توفّيتني** ﴾، قبضتني ورفعتني إليك، ﴿ **كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم** ﴾ والحفيظ عليهم تحفظ أعمالهم، ﴿ **وأنتَ على كل شيء شهيد** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **إنْ تُعذّبهمْ فإنهم عبادُكَ وإنْ تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾، فإن قيل كيف طلب المغفرة لهم وهم كفّار، وكيف قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وهذا لا يليق بسؤال المغفرة، قيل: أما الأول فمعناه إن تعذبهم بإقامتهم على كفرهم وإن تغفر لهم بعد الإيمان وهذا يستقيم بعد الإيمان وهذا يستقيم على قول السدي: إن هذا السؤال قبل يوم القيامة لأن الإيمان لا ينفع في القيامة، وقيل: هذا في الفريقين منهم معناه إن تعذّب مَن كفر منهم وإن تغفر مَن كفر منهم وإن تغفر لمَن آمن منهم، وقيل: ليس هذا على وجه طلب المغفرة ولو

﴿الحكيم﴾ في أفعالك كلها وهذا التفسير إنما يصح على قول السدي لأنه قال كان سؤال الله عز وجل لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء قبل يوم القيامة. أما على قول جمهور المفسرين إن هذا السؤال إنما يقع يوم القيامة ففي قوله ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ إشكال وهو أنه يليق بعيسى عليه السلام طلب المغفرة لهم مع علمه بأن الله تعالى لا يغفر لمن يموت على الشرك والجواب عن هذا الإشكال من وجوه أحدها أنه ليس هذا على طريق طلب المغفرة ولو كان كذلك لقال فإنك أنت الغفور الرحيم ولكنه على تسليم الأمر إلى الله وتفويضه إلى مراده فيهم لأنه العزيز في ملكه الحكيم في فعله ويجوز في حكمته وسعة مغفرته ورحمته أن يغفر للكفار، لكنه تعالى أخبر أنه لا يفعل ذلك بقوله ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الوجه الثاني: قيل معناه أن تعذبهم يعني إقامتهم على كفرهم إلى الموت وإن تغفر لهم يعني لمن آمن منهم وتاب ورجع عن كفره، الوجه الثالث: قال ابن الأنباري: لما قال الله لعيسى ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾. لم يقع لعيسى إلا أن النصارى حكت عنه الكذب لأنه لم يقل ذلك وقول الكذب ذنب فيجوز أن يسأل له المغفرة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني﴾ الآية وقول عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي فبكى فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فاسأله ما يبكيك، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك. عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام حتى أصبح بآية والآية ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أخرجه النسائي

قوله عز وجل:

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ اتفق جمهور العلماء على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة والمعنى أن

كان كذلك لقال: أنت الغفور الرحيم، ولكنه على تسليم الأمر وتفويضه إلى مراده، وأما السؤال الثاني فكان ابن مسعود رضي الله عنه يقرأ وإن تغفر لهم فإنّك أنت الغفور لهم فإنّك أنت الغفور الرحيم، وكذلك هو في مصحفه، وأما على القراءة المعروفة قيل فيه تقديم وتأخير تقديره: إن تغفر لهم فإنهم عبادك وإن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وقيل: معناه إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز في الملك الحكيم في القضاء لا ينقص من عزّك شيء، ولا يخرج من حكمك ويدخل في حكمته ومغفرته وسعة رحمته ومغفرته للكفّار، ولكنه أخبر أنه لا يغفر وهو لا يخلف خبره أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي ثنا محمد بن عيسى الجلودي حدّثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان حدّثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني يونس بن عبد الأعلى الصيرفي حدّثنا ابن وهب أخبرني عمر بن الحارث أن بكر بن سوادة حدّثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿ ربِّ إنهنّ أضللنَ كثيراً من الناس فمَنْ تبعني فإنه منّي ﴾ [٣٦]، الآية. وقول عيسى عليه السلام: إنْ تعذبهم فإنهم عبادك وإنْ تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، فرفع يديه وقال: اللّهمَّ أمتي وبكى فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل إذهب إلى محمد وربُّك أعلم فسله ما يبكيه، فأتاه جبريل فسأله، فأخبر رسول الله ﷺ بما قال فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنّا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك.

﴿ قال اللّهُ هذا يوم ينفع الصادقين صدقُهم ﴾، قرأ نافع «يوم» بنصب الميم، يعني: تكون هذه الأشياء في

صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة لأنه يوم الإثابة والجزاء وما تقدم من صدقهم في الدنيا يتبين نفعه يوم القيامة والمراد بالصادقين النبيون والمؤمنون لأن الكفار لا ينفعهم صدقهم يوم القيامة. قال قتادة: متكلمان لا يخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام لأنه يقوم فيقول ما قص الله عنه ما قلت لهم إلا ما أمرتني به الآية فكان صادقاً في الدنيا والآخرة فينفعه صدقه. وأما المتكلم الآخر فإبليس فإنه يقوم فيقول وقال الشيطان لما قضى الأمر الآية فصدق عدو الله فيما قال ولم ينفعه صدقه. وقال عطاء هو يوم من أيام الدنيا لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل وذهب في هذا القول إلى ظاهر الآية من أن الصدق النافع إنما يكون في الدنيا وهذا القول موافق لمذهب السدي حيث يقول إن هذه المخاطبة جرت مع عيسى عليه السلام حين رفع إلى السماء، والوجه ما ذهب إليه الجمهور ثم ذكر الله تعالى ما لهم من الثواب على صدقهم فقال تعالى: ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً**﴾ فهذا إشارة إلى ما يحصل من الثواب الدائم الذي لا انقطاع له ولا انتهاء ﴿**رضي الله عنهم**﴾ يعني بطاعتهم له ﴿**ورضوا عنه**﴾ يعني بما أعطاهم من ثوابه وجزيل كرامته ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما ذكره من ثوابهم ﴿**الفوز العظيم**﴾ يعني أنهم فازوا بالجنة وبرضوانه عنهم ونجوا من النار ﴿**لله ملك السموات والأرض وما فيهن**﴾ عظم الله عز وجل نفسه عما قال فيه النصارى يعني، أن الذي له ملك السموات والأرض هو الذي يستحق الإلهية لا ما قالت النصارى من إلهة المسيح وأمه لأنهما جملة من في السموات والأرض فهما عبيده وفي ملكه. وقيل: هو جواب السؤال مضمر في الكلام كأنه لما وعد الصادقين بالثواب العظيم قيل من يعطيهم ذلك قال الذي له ملك السموات والأرض ومن فيهن ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

يوم، فحذف في فانتصب، وقرأ الآخرون بالرفع على أنه خبر ﴿ هذا ﴾ أي: ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة، ولو كذبوا ختم الله على أفواههم ونطقت به جوارحهم فافتضحوا، وقيل: أرادوا بالصادقين النبيّين، وقال الكلبي: ينفع المؤمنين إيمانهم، قال قتادة: متكلمان لا يخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام، وهو ما قصّ الله، وعدوّ الله إبليس، وهو قوله: ﴿ وقال الشيطان لمّا قضي الأمر ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، الآية. فصدق عدو الله يومئذٍ، وكان قبل ذلك كاذباً فلم ينفعه صدقه، وأما عيسى عليه السلام فكان صادقاً في الدنيا والآخرة، فنفعه صدقه، وقال بعضهم: هذا يوم من أيام الدنيا لأن الدار الآخرة دار جزاء لا دار عمل، ثم بيّن ثوابهم فقال: ﴿ لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾، ثم عظّم نفسه.

فقال: ﴿ لله مُلكُ السمٰواتِ والأرض وما فيهنّ وهو على كل شيء قدير ﴾.

تفسير سورة الأنعام

(فصل في ذكر نزولها)

روى مجاهد عن ابن عباس أن سورة الأنعام مما نزل بمكة وهذا قول الحسن وقتادة وجابر بن زيد. وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الأنعام جملة ليلاً بمكة وحولها سبعون ألف ملك وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مكية نزلت جملة واحدة نزلت ليلاً وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فإنها مدنيات وهي قوله تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم**﴾ إلى آخر الثلاث آيات وقوله تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء**﴾ إلى آخر الآيتين وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين وهما قوله تعالى: ﴿**والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق**﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ الآية وروي عن ابن عباس أيضاً وقتادة أنهما قالا: هي مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة قوله ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ وقوله: ﴿**وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات**﴾ الآية ولما نزلت سورة الأنعام ومعها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد قال النبي ﷺ «سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم وخرّ ساجداً» قال البغوي وروي عنه مرفوعاً من قرأ سورة الأنعام صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وذكره بغير سند والله سبحانه وتعالى أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿**الحمد لله الذي خلق السموات والأرض**﴾ قال كعب الأحبار: هذه الآية أول آية في التوراة وآخر آية في التوراة قوله تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ الآية وفي رواية عنه أن آخر آية في التوراة آخر

سُورَةَ الأنْعَامِ

مكيّة وهي مائة وخمس وستّون آية. نزلت بمكة جملة ليلاً معها سبعون ألف ملك قد سدُّوا ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد، فقال النبي ﷺ: «سبحان ربّي العظيم سبحان ربّي العظيم وخرّ ساجداً». ورُوِيَ مرفوعاً: «مَن قرأ سورة الأنعام يصلّي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره»، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة الأنعام بمكة، إلاّ قوله: ﴿ وما قدَرُوا الله حقَّ قدره ﴾ [٩١ ـ ٩٣]، إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿ قلْ تعالوا ﴾، إلى قوله: ﴿ لعلكم تتقون ﴾ [١٥١ ـ ١٥٣]، فهذه الستّ آيات مدنيات.

﴿ **الحمدُ للّهِ الذِي خلَقَ السمواتِ والأرض** ﴾، قال كعب الأحبار: هذه الآية أول آية في التوراة، وآخر آية

سورة هود قال ابن عباس: افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وختمه بالحمد فقال تعالى: ﴿وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ وفي قوله: الحمد لله، تعليم لعباده كيف يحمدونه أي: قولوا الحمد لله. وقال أهل المعاني لفظه خبر ومعناه الأمر أي احمدوا الله وإنما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر لأنه أبلغ من البيان من حيث إنه جمع الأمرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الأمرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وقد تقدم معنى الحمد في تفسير سورة فاتحة الكتاب بما فيه مقنع الذي خلق السموات والأرض أي احمدوا الله خلق السموات والأرض وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد لأن السماء بغير عمد ترونها وفيها العبر والمنافع والأرض مسكن الخلق وفيها أيضاً العبر والمنافع ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ الجعل هنا بمعنى الخلق أي وخلق الظلمات والنور. قال السدي: يريد بالظلمات، ظلمات الليل والنهار، وبالنور، نور النهار. وقال الحسن: يعني بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان. وقيل: يعني بالظلمات الجهل وبالنور العلم. وقيل: الجنة والنار. وقال قتادة: خلق الله السموات قبل الأرض وخلق الظلمات قبل النور وخلق الجنة قبل النار.

روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه ضل» ذكره البغوي بغير سند ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ يعني والذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يشركون وأصل العدل، مساواة الشيء بالشيء. والمعنى: أنهم يعدلون بالله غير الله ويجعلون له عديلاً من خلقه فيعبدون الحجارة مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض. وقال النضر بن شميل: الباء في قوله بربهم بمعنى عن أي عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشيء وقيل دخول ثم في قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو أنه تعالى دل به على إنكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك: أن تقول لرجل أكرمتك وأحسنت إليك وأنت تنكرني وتجحد إحساني إليك فتقول ذلك منكراً عليه ومتعجباً من فعله قوله تعالى:

في التوراة. قوله: ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ﴾ [الإسراء: ١١١] الآية: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: افتتح الله الخلق بالحمد، فقال: ﴿ الحمد لله الذي خلقَ السمٰواتِ والأرض ﴾، وختمه بالحمد فقال: ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ [الزّمر: ٦٩ و٧٥]، أي: بين الخلائق، وقيل: الحمد لله ربِّ العالمين. قوله: الحمد لله، حمد الله نفسه تعليماً لعباده، أي: احمدوا الله الذي خلق السموات والأرض، خصّهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد وفيهما العبر والمنافع للعباد، ﴿ وجعلَ الظلمَاتِ والنور ﴾، والجعل بمعنى الخلق، وقال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلّا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار، وقال الحسن: وجعل الظلمات والنور يعني الكفر والإيمان، وقيل: أراد بالظلمات الجهل والنور العلم، وقال قتادة: يعني الجنة والنار، وقيل: معناه خلق الله السمٰوات والأرض، وقد جعل الظلمات والنور، لأنه خلق السمٰوات والنور قبل السمٰوات والأرض، قال قتادة: خلق الله السمٰوات قبل الأرض، وخلق الظلمة قبل النور، والجنة قبل النار، ورُوِيَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمَن أصابه من ذلك النور اهتدى ومَن أخطأه ضلّ» ﴿ ثمّ الذينَ كفرُوا بربّهم يعدِلُون ﴾، أي: ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربّهم يعدلون، أي: يشركون، وأصله خلق مساواة الشيء بالشيء، ومنه العدل، أي: يعدلون بالله غير الله تعالى، يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته، وبه قال النضر بن شميل، الباء بمعنى عن، أي: عن ربهم يعدلون، أي يميلون وينحرفون من العدل، قال الله تعالى: ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ [الإنسان: ٦] أي: منها، وقيل: تحب، قوله: ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون، معنى لطيف، وهو مثل قول القائل:

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ يعني أنه تعالى خلق آدم من طين وإنما خاطب ذريته بذلك لأنه أصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا مَن يحيـي العظام وهي رميم أعلمهم بهذه الآية أنه خلقهم من طين وهو القادر على إعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت. قال السدي: لما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بقبضة منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني فراجع ولم يأخذ منها شيئاً فقال: يا رب عاذت بك فبعث الله ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره وأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء؛ فلذا اختلفت ألوان بني آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم قال الله لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها لا جرم اجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب» أخرجه أبو داود والترمذي وأما قوله تعالى: ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ فاختلف العلماء في معنى ذلك فقال الحسن وقتادة والضحاك: الأجل الأول، من وقت الولادة إلى وقت الموت. والأجل الثاني: من وقت الموت إلى البعث، وهو البرزخ.

ويروى نحو ذلك عن ابن عباس قال: لكل أحد أجلان: أجل إلى الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان الرجل براً تقياً وصولاً للرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث وذلك قوله: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأجل الأول أجل الدنيا، والأجل الثاني أجل الآخرة. وقيل: الأجل هو الوقت المقدر فأجل كل إنسان مقدر معلوم عند الله لا يزيد ولا ينقص.

أنعمت عليكم بكذا وتفضّلت عليكم بكذا، ثم تكفرون بنعمتي.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ هو الذي خلقكمْ منْ طين ﴾، يعني آدم عليه السلام، خاطبهم به إذ كانوا من ولده، قال السدي: بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها، فقالت الأرض إني أعوذ بالله منك أن تنقص منّي، فرجع جبريل ولم يأخذ وقال: يا ربِّ إنها عاذت بك، فبعث ميكائيل، فاستعاذت فرجع، فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره، فأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء، فلذلك اختلفتْ ألوان بني آدم، ثم عجنها بالماء العذب والملح والمرّ، كذا اختلفت أخلاقهم فقال الله تعالى لملك الموت: رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها، لا جرمَ أخرجْ أرواح مَن أخلق من هذا الطين بيـدك ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خلق الله آدم عليه السلام من تراب وجعله طيناً، ثم تركه حتى كان حمأً مسنوناً ثم خلقه وصوّره وتركه حتى كان صلصالاً كالفخار، ثم نفخ فيه روحه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ثم قضى أجلاً وأجلٌ مُسمًّى عنده ﴾، قال الحسن وقتادة والضحاك: الأجل الأول من الولادة إلى الموت، والأجل الثاني من الموت إلى البعث، وهو البرزخ، ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس، وقال: لكل أحد أجلان أجل من الولادة إلى الموت وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان بَرّاً تقيّاً وَصُولاً للرحم زيد له من أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأجل الأول أجل الدنيا، والأجل

والأجل الثاني: هو أجل القيامة وهو أيضاً معلوم مقدر عند الله لا يعلمه إلا الله تعالى وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه ثم قضى أجلاً يعني النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند الانتباه وأجل مسمى عنده هو أجل الموت وقيل هما واحد ومعناه ثم قضى أجلاً يعني قدّر مدة لأعماركم تنتهون إليها وهو أجل مسمى عنده يعني أن ذلك الأجل عنده لا يعلمه إلا هو والمراد بقوله عنده يعني في اللوح المحفوظ الذي لا يطلع عليه غيره ﴿ثم أنتم تمترون﴾ يعني ثم أنتم تشكون في البعث.

قوله عز وجل: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ يعني وهو إله السموات وإله الأرض. وقيل: معناه وهو المعبود في السموات وفي الأرض. وقال محمد بن جرير الطبري: معناه وهو الله في السموات ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ في الأرض. وقال الزجاج: فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض. وقيل: معناه وهوالمنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض لا شريك له فيهما. والمراد بالسر، ما يخفيه الإنسان في ضميره فهو من أعمال القلوب وبالجهر ما يظهره الإنسان فهو من أعمال الجوارح والمعنى: أن الله لا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ يعني من خير أو شر، بقي في الآية سؤال وهو أن الكسب إما أن يكون من أعمال القلوب وهو المسمى بالسر أو من أعمال الجوارح وهو المسمى بالجهر فالأفعال لا تخرج عن هذين النوعين يعني السر والجهر فقوله ويعلم ما تكسبون يقتضي عطف الشيء على نفسه وذلك غير جائز فما معنى ذلك وأجيب عنه بأنه يجب حمل قوله ويعلم ما تكسبون على ما يستحقه الإنسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب والحاصل فيه أنه محمول على المكتسب فهو كما يقال: هذا المال كسب فلان أي مكتسبه ولا يجوز حمله على نفس الكسب وإلا لزم عطف الشيء على نفسه ذكره الإمام فخر الدين.

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

﴿وما تأتيهم﴾ يعني أهل مكة ﴿من آية من آيات ربهم﴾ يعني من المعجزات الباهرات التي جاء بها رسول الله ﷺ

الثاني أجل الآخرة، وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ يعني: النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند اليقظة، ﴿ وأجلٌ مسمًى عنده ﴾، هو أجل الموت، وقيل: هما واحد معناه: ثم قضى أجلاً يعني جعل لأعماركم مدة تنتهون إليها، وأجل مسمى عنده يعني وهو أجل مسمى عنده لا يعلمه غيره، ﴿ ثم أنتم تمترُون ﴾، تشكّون في البعث.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وهو اللّهُ في السمٰواتِ وفي الأرضِ ﴾، يعني: وهو إلٰه السمٰوات والأرض، كقوله: ﴿ وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرضِ إلٰه ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقيل: هو المعبود في السمٰوات، وقال محمد بن جرير: معناه وهو الله في السمٰوات يعلم سرّكم وجهركم في الأرض، وقال الزجّاج: فيه تقديم وتأخير وتقدير: وهو الله، ﴿ يعلم سِرّكم وجهركم ﴾، في السمٰوات والأرض، ﴿ ويعلمُ ما تكْسِبُون ﴾، تعملون من الخير والشر.

﴿ وما تأتيهم ﴾، يعني: أهل مكة، ﴿ من آيةٍ مّنْ آياتِ ربِّهم ﴾، مثل انشقاق القمر وغيره، وقال عطاء: يريد من آيات القرآن، ﴿ إلاّ كانُوا عنها مُعْرِضين ﴾، لها تاركين بها مكذبين.

مثل انشقاق القمر وغير ذلك وقيل المراد بالآيات آيات القرآن ﴿**إلا كانوا عنها معرضين**﴾ يعني إلا كانوا لها تاركين وبها مكذبين ﴿**فقد كذبوا بالحق**﴾ يعني بآيات القرآن وقيل بمحمد ﷺ وبما أتى به من المعجزات ﴿**لما جاءهم**﴾ يعني لما جاءهم الحق من عند ربهم كذبوا به ﴿**فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون**﴾ يعني فسوف يأتيهم أخبار استهزائهم إذا عذبوا في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿**ألم يروا**﴾ الخطاب لكفار مكة يعني ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من قرن**﴾ يعني مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم الماضية والقرون الخالية. والقرن الأمة من الناس وأهل كل زمان قرن سموا بذلك لاقترانهم في الوجود في ذلك الزمان وقيل سمي قرناً لأنه زمان بزمان وأمة بأمة واختلفوا في مقدار القرن، فقيل: ثمانون سنة. وقيل: ستون سنة. وقيل: أربعون سنة. وقيل: مائة وعشرون، وقيل: مائة سنة. وهو الأصح لما روي أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن بشر المازني: إنك تعيش قرناً فعاش مائة سنة. فعلى هذا القول: المراد بالقرن أهله الذين وجدوا فيه، ومنه قول النبي ﷺ: خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يعني أصحابي وتابعيهم وتابعي التابعين ﴿**مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم**﴾ يعني أعطيناهم ما لم نعطكم يا أهل مكة وقيل أمددناهم في العمر والبسطة في الأجسام والسعة في الأرزاق مثل إعطاء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿**وأرسلنا السماء عليهم مدراراً**﴾ مفعال من الدر يعني وأرسلنا المطر متتابعاً في أوقات الحاجة إليه والمراد بالسماء المطر سمي بذلك لنزوله منها ﴿**وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم**﴾ يعني: وفجرنا لهم العيون تجري من تحتهم والمراد منه كثرة البساتين ﴿**فأهلكناهم بذنوبهم**﴾ يعني بسبب ذنوبهم وكفرهم ﴿**وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين**﴾ يعني وخلفنا من بعد هلاك أولئك أهل قرن آخرين وفي هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عدداً وعدداً وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

قوله عز وجل: ﴿**ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس**﴾ الآية. قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث

﴿ **فقد كذّبوا بالحقّ** ﴾، بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، ﴿ **لمّا جاءهُمْ فسوفَ يأتيهم أنباءُ ما كانُوا بـه يستهزئون** ﴾، أي: أخبار استهزائهم وجزاؤه، أي: سيعلمون عاقبة استهزائهم إذا عُذّبوا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ألمْ يَرَوْا كمْ أهلكْنا من قَبْلِهِمْ من قَرْن** ﴾، يعني: الأمم الماضية، والقرن: الجماعة من الناس، وجمعه قرون، وقيل: القرن مدة من الزمان، يقال: ثمانون سنة، وقيل: ستّون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ثلاثون سنة، ويقال: مائة سنة، لِمَا رُوِيَ أنّ النبي ﷺ قال لعبد الله بن بشر المازني: «إنكَ تعيشُ قرناً»، فعاش مائة سنة فيكون معناه على هذه الأقاويل من أهلِ قرنٍ، ﴿ **مكّناهم في الأرض ما لم نمكنْ لكم** ﴾، أي: أعطيناهم ما لم نعطكم، وقال ابن عباس: أمهلناهم في العمر مثل قوم نوح وعاد وثمود، يقال: مكّنتهُ ومكّنتُ له، ﴿ **وأرسلنا السماء عليهم مِّدْرَاراً** ﴾ يعني: المطر، مِفْعَال، من الدَّر، قال ابن عباس: مدراراً أي: مُتتابعاً في أوقات الحاجات، وقوله: ﴿ **ما لم نمكّنْ لكم** ﴾ من خطاب التلوين، رجع من الخبر من قوله: ﴿ **ألم يَرَوْا** ﴾ إلى خطاب، كقوله: ﴿ **حتى إذا كنتُم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم** ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال أهل البصرة: أخبر عنهم بقوله: ﴿ **ألم يروا** ﴾ وفيهم محمد ﷺ وأصحابه، ثم خاطبهم معهم، والعرب تقول: قلت لعبد الله ما أكرمه، وقلت: لعبد الله ما أكرمك، ﴿ **وجعلْنَا الأنهارَ تجري من تحتهمْ فأهلكنَاهُمْ بذنوبِهِمْ وأنشأْنَا** ﴾ خلَقْنَا وابتدأنا، ﴿ **من بعدهم قرناً آخرين** ﴾.

وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد قالوا يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وإنك رسوله فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾ يعني من عندي يعني مكتوباً في قرطاس وهو الكاغد والصحيفة التي يكتب فيها ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ يعني فعاينوه ومسوه بأيديهم وإنما ذكر اللمس، ولم يذكر المعاينة، لأنه أبلغ في إيقاع العلم بالشيء من الرؤية، لأن المرئيات قد يدخلها التخيلات كالبحر ونحوه بخلاف الملموس ﴿لقال الذي كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ يعني لو أنزلنا عليهم كتاباً كما سألوه لما آمنوا به ولقالوا هذا سحر مبين كما قالوا في انشقاق القمر وأنه لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمي بهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿وقالوا﴾ يعني مشركي مكة ﴿لولا﴾ يعني هلا ﴿أنزل عليه﴾ يعني على محمد ﴿ملك﴾ يعني نراه عياناً ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر﴾ يعني لفرغ الأمر ولوجب العذاب وهذه سنة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به ﴿ثم لا ينظرون﴾ يعني أنهم لا يمهلون ولا يؤخرون طرفة عين بل يعجل لهم العذاب ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ يعني ولو أرسلنا إليهم ملكاً لجعلناه في صورة رجل وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الأنس كما جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ولما رأى النبي ﷺ جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه.

وقوله تعالى: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ يقال لبست الأمر على القوم إذا أشبهته عليهم وجعلته مشكلاً ولبست عليه الأمر إذا خلطته عليه حتى لا يعرف جهته ومعنى الآية وخالطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو نزّلنا عليك كتاباً في قِرْطاسٍ ﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ولو نزّلنا عليكَ كتاباً في قرطاس ﴾ مكتوباً من عنده، ﴿ فلمسُوه بأيديهمْ ﴾، أي: عاينوه ومسّوه بأيديهم، وذكر اللّمس ولم يذكر المعاينة لأن اللمس أبلغ في إيقاع العِلم من المعاينة، فإن السحر يجري على المرئي ولا يجري على الملموس، ﴿ لقالَ الذينَ كفرُوا إنْ هذا إلّا سحرٌ مبين ﴾، معناه: أنه لا ينفع معهم شيء لِمَا سبق فيهم من علمي.

﴿ وقالوا لَوْلَآ أُنْزِلَ عليه ﴾، على محمد ﷺ، ﴿ مَلَكٌ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ﴾، أي: لوجب العذاب، وفُرِغَ من الأمر، وهذا سُنّة الله في الكفّار أنهم متى اقترحوا آية فأُنزلت ثم لم يؤمنوا استُؤصلوا بالعذاب، ﴿ ثم لا يُنظرون ﴾، أي: لا يؤجلون ولا يمهلون، وقال قتادة: لو أنزلنا ملكاً ثم لم يُؤمنوا لعُجّل لهم العذابُ ولم يُؤخرُوا طرفةَ عين، وقال مجاهد: لقضي الأمر أي لقامت القيامة، وقال الضحّاك: لو أتاهم ملك في صورته لماتُوا.

﴿ ولو جعلنَاه مَلَكاً ﴾، يعني: لو أرسلنا إليهم ملكاً، ﴿ لجعلناه رجلاً ﴾، يعني في صورة رجل آدمي، لأنهم

يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي وقيل في معنى الآية إنا لو جعلنا الملك في صورة البشر لظنوه بشراً فتعود المسألة بحالها أنا لا نرضى برسالة البشر ولو فعل الله عز وجل ذلك صار فعل الله مثل فعلهم في التلبيس وإنما كان تلبيساً لأنهم يظنون أنه ملك وليس بملك أو يظنون أنه بشر وليس هو بشراً وإنما كان فعلهم تلبيساً لأنهم لبسوا على ضعفتهم في أمر النبي ﷺ فقالوا: إنما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلاً للحقهم من اللبس مثل مالحق بضعفائهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط في السؤال واللبس على الضعفاء.

قوله عز وجل: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ يعني كما استهزىء بك يا محمد وفي هذه الآية تعزية للنبي ﷺ وتسلية له عما كان من تكذيب المشركين إياه واستهزائهم به إذ جعل له أسوة في ذلك بالأنبياء الذين كانوا قبله ﴿فحاق﴾ أي فنزل وقيل: أحاط، وقيل: حل ﴿بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ والمعنى: فنزل العذاب بهم ووجب عليهم من النقمة والعذاب جزاء استهزائهم أو في هذه الآية تحذير للمشركين أن يفعلوا بنبيهم كما فعل من كان قبلهم بأنبيائهم فينزل بهم مثل ما نزل بهم ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سيروا في الأرض معتبرين ومتفكرين وقيل هو سير الأقدام ﴿ثم انظروا﴾ فعلى القول الأول يكون النظر نظرة فكرة وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر وعلى القول الثاني يكون المراد بالنظر نظر العين والمعنى ثم انظروا بأعينكم إلى آثار الأمم الخالية والقرون الماضية السالفة وهو قوله تعالى: ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يعني كيف كان جزاء المكذبين وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك فحذر كفار مكة عذاب الأمم الخالية.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله﴾ هذا سؤال وجواب المعنى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين العادلين بربهم لمن ملك ما في السموات والأرض فإن أجابوك وإلا فأخبرهم أن ذلك لله الذي قهر كل شيء

لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحي الكلبي، وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُونَ ﴾، أي: خلطنا عليهم ما يخلطون وشبّهنا عليهم فلا يدرون أملَكٌ هو أو آدمي، وقيل: معناه شَبّهوا على ضعفائهم فشبّه عليهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم أهل الكتاب فرّقوا دينهم وحرّفوا الكَلِم عن مواضعه، فلبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم وقرأ الزهري «للبسنا» بالتشديد على التكرير والتأكيد.

﴿ ولقد استهزىء برُسُلٍ مِّن قبلك ﴾، كما استهزىء بك يا محمد فعزّى نبيّه ﷺ، ﴿ فحاقَ ﴾، قال الربيع بن أنس: فنزل، وقال عطاء: حلّ، وقال الضحّاك: أحاط، ﴿ بالذين سخرُوا منهم ما كانوا به يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، أي: جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة.

﴿ قل ﴾، يا محمد لهؤلاء المكذبين المستهزئين، ﴿ سيروا في الأرض ﴾، معتبرين، يُحتمل هذا السير بالعقول والفكر، ويحتمل السير بالأقدام، ﴿ ثم انظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المُكَذّبينَ ﴾، أي: جزاء أمرهم وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك، يُحذّر كفّار مكة عذاب الأمم الخالية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ لمنْ مّا في السمٰواتِ والأرضِ ﴾، فإن أجابوك وإلاّ فـ ﴿ قُلْ ﴾، أنتَ، ﴿ للّهِ ﴾، أمره

وملك كل شيء واستعبد كل شيء لا للأصنام التي تعبدونها أنتم فإنها موات لا تملك شيئاً ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً وإنما أمره بالجواب عقب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته أردفه بكمال رحمته وإحسانه إليهم فقال تعالى: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ يعني أنه تعالى أوجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتولين عنه الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بعباده وأنه لا يعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة والإنابة ممن تاب وأناب (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي» وفي البخاري: «أن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش» وفي رواية لهما أن الله لما خلق الخلق، وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده، زاد البخاري على العرش ثم اتفقا «إن رحمتي تغلب غضبي» (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» زاد البخاري في رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب. ولمسلم إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (م) عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة» (ق) عن عمر قال: قدم على رسول الله ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله ﷺ أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا لا والله وهي تقدر أن تطرحه فقال ﷺ الله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها.

وقوله تعالى: ﴿ليجمعنكم﴾ اللام في قوله ليجمعنكم لام القسم تقديره والله ليجمعنكم ﴿إلى يوم القيامة﴾ يعني

بالجواب عقيب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجّة، ﴿كتبَ﴾، أي: قضى، ﴿على نفسِه الرحمة﴾، هذا استعطاف منه تعالى للمتولّين عنه إلى الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بالعباد لا يعجّل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة، أخبرنا أبو علي حسان بن سعد المنيعي أخبرنا أبو طاهر الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه قال: ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا قضى اللّهُ الخلقَ كتبَ كتاباً فهو عند الله فوق العرش: إنّ رحمتي غلبت غضبي»، وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إنّ رحمتي سبقتْ غضبي»، أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي الكركاني أنا أبو طاهر الزيادي أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحمن المروزي أخبرنا عبد الله بن المبارك أنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله مائةَ رحمةً واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّرَ الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا ابن أبي مريم ثنا أبو غسان حدّثني زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها، تسعى إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدها في النار»؟ فقلنا: لا وهي تقدر على أن تطرحه، فقال: «اللّهُ أرحمُ بعبادهِ منْ هذهِ بولدها». قوله عزّ وجلّ:

في يوم القيامة وقيل معناه في قبوركم إلى يوم القيامة ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه أنه آت ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ يعني بالشرك بالله أو غبنوا أنفسهم باتخاذهم الأصنام فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه فكانوا كمن خسر شيئاً وأصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل إذا غبن في بيعه ﴿فهم لا يؤمنون﴾ يعني لما سبق عليهم القضاء بالخسران فهو الذي حملهم على الامتناع عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ يعني وله ما استقر وقيل ما سكن وما تحرك فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر وقال ابن جرير كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار فيكون المراد منه جميع ما حصل في الأرض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما في البر والبحر وهذا يفيد الحصر والمعنى أن جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره ﴿وهو السميع﴾ لأقوالهم وأصواتهم ﴿العليم﴾ بسرائرهم وأحوالهم.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قل أغير الله أتخذ ولياً﴾ قال مقاتل لما دعا رسول الله ﷺ إلى دين آبائه أنزل الله هذه الآية فقال قل لهم يا محمد أغير الله اتخذ ولياً يعني رباً ومعبوداً وناصراً ومعيناً وهو استفهام ومعناه الإنكار أي لا أتخذ غير الله ولياً ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي خالق السموات والأرض ومبدعهما ومبدئهما ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ يعني وهو يرزق ولا يرزق وصف الله عز وجل نفسه بالغني عن الخلق وباحتياج الخلق إليه لأن من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم إليه وهو لا يطعم لاستغنائه سبحانه وتعالى عن الإطعام فهو غني عن الخلق ومن كان كذلك وجب أن يتخذ رباً وناصراً وولياً ومعبوداً ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ يعني من هذه الأمة والإسلام بمعنى الاستسلام يعني أمرت أن استسلم لأمر الله وأنقاد إلى طاعته ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ يعني وقيل لي يا محمد لا تكونن من

﴿ ليجمعنّكم ﴾، اللام فيه لام القسم والنون نون التأكيد مجازه: والله ليجمعنكم، ﴿ إلى يوم القيامة ﴾، أي: في يوم القيامة، وقيل: معناه ليجمعنّكم في قبوركم إلى يوم القيامة، ﴿ لا ريبَ فيهِ الذينَ خسرُوا ﴾، غبنوا، ﴿ أنفسهم فهم لا يُؤمنون ﴾.

﴿ ولهُ مَا سكنَ في الليلِ والنهارِ ﴾، أي: استقر، قيل: أراد ما سكن وما تحرك، كقوله: ﴿ سرابيل تقيكم الحرّ ﴾ [النحل ٨١] أي: الحرّ والبرد، وقيل: إنما خصّ السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر، وقال محمد بن جرير: كلّ ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار، والمراد منه جميع ما في الأرض وقيل معناه: وله ما يمرّ عليه الليل والنهار، ﴿ وهو السميعُ ﴾، لأصواتهم، ﴿ العليمُ ﴾ بأسرارهم.

قوله تعالى: ﴿ قلْ أغيرَ اللّهِ اتّخذُ ولياً ﴾؟ وهذا حين دعى إلى دين آبائه، فقال تعالى: قل يا محمد أغير الله أتخذ ولياً، ربّاً ومعبوداً وناصراً ومُعيناً؟ ﴿ فاطِرِ السّمواتِ والأرضِ ﴾، أي: خالقهما ومُبدعهما ومبتديهما، ﴿ وهو يُطعِمُ ولا يُطعَمُ ﴾، أي: وهو يَرْزق ولا يُرزق، كما قال: ﴿ ما أُريد منهم منْ رزقٍ وما أُريد أنْ يُطعمون ﴾ [الذاريات: ٥٧]. ﴿ قل إني أُمِرْتُ أنْ أكونَ أوّلَ مَنْ أسلم ﴾، يعني: من هذه الأمة، والإسلام بمعنى الاستسلام

المشركين ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى عبادة غيري إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم ونهاني عن عبادة شيء سواه وإني أخاف إن عصيت ربي فعبدت شيئاً سواه عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة ﴿من يصرف عنه﴾ يعني العذاب ﴿يومئذ﴾ يعني يوم القيامة ﴿فقد رحمه﴾ يعني بأن أنجاه من العذاب ومن أنجاه من العذاب فقد رحمه وأناله الثواب لا محالة وإنما ذكر الرحمة من صرف العذاب لئلا يتوهم أنه صرف العذاب فقط بل تحصل الرحمة من صرف العذاب عنه ﴿وذلك الفوز المبين﴾ يعني أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين.

قوله تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ يعني بشدة وبلية والضر اسم جامع لما ينال الإنسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو في معناه ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ يعني فلا يدفع ذلك الضر إلا الله عز وجل: ﴿وإن يمسسك بخير﴾ يعني بعافية ونعمة والخير اسم جامع لكل ما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ يعني من دفع الضر وجلب الخير. وهذه الآية خطاب للنبي ﷺ والمعنى: لا تتخذ ولياً سوى الله لأنه هو القادر على أن يمسك بضر وهو القادر على دفعه عنك وهو القادر على إيصال الخير إليك وأنه لا يقدر على ذلك إلا هو فاتخذه ولياً وناصراً ومعيناً. وهذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عام لكل أحد والمعنى وإن يمسسك الله بضر أيها الإنسان فلا كاشف لذلك الضر إلا هو وإن يمسسك بخير أيها الإنسان فهو على كل شيء قدير من دفع الضر وإيصال الخير.

عن ابن عباس قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقيل لي يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت عى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» أخرجه الترمذي زاد فيه رزين تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وفيه «وإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل فإن لم تستطع فاصبر فإن الصبر على ما تكره خير كثير واعلم أن النصر

لأمر الله، وقيل: أسلم أخلص، ﴿ ولا تكوننَّ ﴾، يعني: وقيل لي ولا تكوننّ، ﴿ مِنَ المشركين ﴾.

﴿ قلْ إنّي أخاف إنْ عصيتُ ربّي ﴾، فعبدتُ غيرَه ﴿ عذاب يومٍ عظيم ﴾، يعني: عذاب يوم القيامة.

﴿ مَنْ يصرفْ عنه ﴾، يعني: مَن يُصرف العذاب عنه، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب «يصرف» بفتح الياء وكسر الراء، أي: مَن يصرف الله عنه العذاب فقد رحمه، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء، ﴿ يومئذ ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿ فقدْ رَحِمَهُ وذلك الفوزُ المبين ﴾، أي: النجاة البيِّنة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضرّ فلا كاشفَ ﴾، لا رافع، ﴿ له إلاّ هو، وإنْ يَمْسَسْكَ بخيرٍ ﴾، عافية ونعمة، ﴿ فهو على كل شيء قدير ﴾، من الخير والضرّ. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الله السلمي أنا أبو العباس الأصم أنا أحمد بن شيبان الرملي أنا عبد الله بن ميمور القداح أنا شهاب بن خراش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس قال: أُهدِيَ للنبي ﷺ بغلة، أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر، ثم أردفني خلفه، ثم سار بي ملياً ثم التفت إليّ فقال: يا غلام، فقلتُ: لبّيك يا رسولَ الله، قال: «احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجدْهُ تِجاهك، تعرّفْ إلى اللَّهِ في الرخاء يعرفْك في الشدّة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعنْ بالله، وقد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله تعالى لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضرّوك بما لم يكتب الله تعالى عليك، ما قدروا عليه، فإن استطعتَ أن تعملَ بالصبر مع اليقين، فافعلْ فإن لم تستطع فاصبرْ فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وإنّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وإنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً».

مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين» قال ابن الأثير وقد جاء نحو هذا أو مثله بطوله في مسند أحمد بن حنبل.

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ يعني وهو الغالب لعباده القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته والقاهر والقهار معناه الذي يدبر خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه فلا يستطيع أحد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى لأنه القادر والقاهر الذي لا يعجزه شيء أراده ومعنى فوق عباده هنا أن قهره قد استعلى على خلقه فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيئاً فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة. وقال ابن جرير الطبري: معنى القاهر المتعبد خلقه العالي عليهم وإنما قال فوق عباده لأنه تعالى وصف نفسه بقهره إياهم ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه فمعنى الكلام إذاً والله الغالب عباده المذلل لهم العالي عليهم بتذليله إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه. وقيل: فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله عز وجل: ﴿وهو الحكيم﴾ يعني في أمره وتدبير عباده ﴿الخبير﴾ يعني بأعمالهم وما يصلحهم.

قوله عز وجل: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ قال الكلبي أتى أهل مكة رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أرنا من يشهد أنك رسول الله فإنا لا نرى أحداً يصدقك ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر فأنزل الله عز وجل قل يعني يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك أي شيء أكبر شهادة يعني أعظم شهادة فإن هم أجابوك وإلا ﴿قل﴾ أنت يا محمد ﴿الله شهيد بيني وبينكم﴾ قال مجاهد أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشاً أي شيء أكبر شهادة ثم أمره أن يخبرهم فيقول الله شهيد بيني وبينكم يعني يشهد لي بالحق وعليكم بالباطل الذي تقولونه والحاصل أنهم طلبوا شاهداً مقبول القول يشهد له بالنبوة فبيَّن الله تعالى بهذه الآية أن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى ثم بيَّن أنه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله: ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به﴾ يعني أن الله عز وجل يشهد لي بالنبوة لأنه أوحى إليّ هذا القرآن وهو معجزة لأنكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته فكان معجزاً وإذا كان معجزاً كان نزوله على شهادة من الله بأني رسوله وهو المراد بقوله لأنذركم به يعني أوحي إلى هذا القرآن لأخوفكم به وأحذركم مخالفة أمر الله عز وجل: ﴿ومن بلغ﴾ يعني وأنذر من بلغه القرآن ممن

﴿ وهوَ القَاهِرُ فَوْقَ عبادِهِ ﴾، القاهر الغالب، وفي القهر زيادة معنى على القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد، وقيل: هو المنفرد بالتدبير يُجْبِرُ الخلقَ على مُراده، فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرّد به الله عزّ وجلّ. ﴿ وهو الحكيمُ ﴾، في أمره، ﴿ الخبيرُ ﴾، بأعمال عباده.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادة ﴾؟ الآية، قال الكلبي: أتى أهل مكة رسول الله ﷺ فقالوا: أرِنا مَن يشهد أنك رسول الله فإنّا لا نرى أحداً يصدقك، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس عندهم ذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿ قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادة ﴾؟ فإن أجابوك، وإلاّ ﴿ قلِ اللّهُ شهيدٌ بيني وبينَكم ﴾، على ما

يأتي بعدي إلى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الأمم فكل من بلغ إليه القرآن وسمعه فالنبي ﷺ نذير له قال محمد بن كعب القرظي من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه وقال أنس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

(شرح ما يتعلق بهذا الحديث)

فيه الأمر بإبلاغ ما جاء به النبي ﷺ إلى من بعده من قرآن وسنة وقوله وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج الحرج الضيق والإثم ومعنى الحديث أنه مهما قلتم عن بني إسرائيل فإنهم كانوا في حال أكثر مما قلتم وأوسع وليس هذا فيه إباحة الكذب والإخبار عن بني إسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض البلاغ وإن لم يتحقق ذلك بنقل لأنه أمر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «نضر الله أمرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع» أخرجه الترمذي وله عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه» عن ابن عباس قال «تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم» أخرجه أبو داود موقوفاً.

وقوله تعالى: ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيري إنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها وإنما قال أخرى لأن الجمع يلحقه التأنيث كما قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فما بال القرون الأولى﴾ ولم يقل الأول ولا الأولين ﴿قل لا أشهد﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون به أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره ﴿قل إنما هو إله واحد﴾ يعني قل لهم إنما الله إله واحد ومعبود واحد لا شريك له وبذلك أشهد ﴿وإنني بريء مما تشركون﴾ يعني وأنا بريء من كل شيء تعبدونه سوى الله وفي هذه الآية دليل على إثبات التوحيد لله عز وجل وإبطال كل معبود سواه لأن كلمة إنما تفيد الحصر ولفظة الواحد صريح في التوحيد ونفي الشريك فثبت بذلك إيجاب التوحيد وسلب كل شريك والتبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى قال العلماء يستحب لكل من أسلم أن يأتي بالشهادتين ويبرأ من كل دين خالف الإسلام لقوله تعالى: ﴿وإنني بريء مما تشركون﴾.

قوله عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون آباءهم﴾ المراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وذلك أن كفّار مكة لما قالوا للنبي ﷺ إنا سألنا عنك اليهود والنصارى

أقول، ويشهد لي بالحق وعليكم بالباطل، ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآنُ لأُنْذِرَكم به ﴾، لأخوّفكم به يا أهل مكة، ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾، ومَن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن الحنفي أنا محمد بن بشر بن محمد المزني أنا أبو بكر محمد بن الحسين بن بشر النقاش أنا أبو شعيب الحرّاني أنا يحيىٰ بن عبد الله بن الضحاك البلابلي أنا الأوزاعي حدّثني حسان بن عطية عن أبي كبشة السلوي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بلّغوا عنّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَنْ كذبَ عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعدَه مِنَ النار»، أخبرنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان بن عيينة عن عبد الله الملك ابن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «نضّر اللّهُ عبداً سمعَ مقالتي فحفظها ووعاها وأدّاها. فَرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه، ثلاث لا يَغِلُّ عليهنّ قلبُ مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتَهم تحيطُ من ورائهم». قال مقاتل: ومَن بلغه القرآن من الجنّ

فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر وأنكروا معرفته بين الله عز وجل أن شهادته له كافية على صحة نبوته وبين في هذه الآية أنهم يعرفونه وأنهم كذبوا في قولهم إنهم لا يعرفونه. وروي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر بن الخطاب: إن الله عز وجل أنزل على نبيه محمداً ﷺ بمكة ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد ﷺ مني بابني فقال عمر وكيف ذاك؟ قال أشهد أنه رسول الله ﷺ حقاً ولا أدري ما يصنع النساء.

وقوله تعالى: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ يعني: أهلكوا أنفسهم وغبنوها وأوبقوها في نار جهنم بإنكارهم نبوة محمد ﷺ.

وفي الذين خسروا أنفسهم قولان: **أحدهما**: أنه صفة الذين الأولى ويكون المقصود من ذلك وعيد المعاندين الذين يعرفون محمداً ﷺ ويجحدون نبوته وهم كفار أهل الكتابين ﴿فهم لا يؤمنون﴾ يعني به.

والقول الثاني: إنه كلام مبتدأ ولا تعلق له بالأول وهم كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وذكروا في معنى الخسار وجهين: **أحدهما**: أنه الهلاك الدائم الذي حصل لهم بسبب كفرهم وإنكارهم نبوة محمد ﷺ.

والوجه الثاني: أنه جعل لكل واحد من بني آدم منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التي في الجنة وجعل للكفار منازل المؤمنين التي في النار فذلك هو الخسران.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ يعني ومن أشد عناداً وأخطأ فعلاً وأعظم كفراً ممن اختلق على الله كذباً فزعم أن له شريكاً من خلقه وإلهاً يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأصنام، أو ادعى أن له صاحبة وولداً كما قلت النصارى ﴿أو كذب بآياته﴾ يعني كذب بحجته وأعلام أدلته التي أعطاها رسله كما كذبت اليهود بمعجزات الأنبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ يعني أنه

والإنس فهو نذير له، وقال محمد بن كعب القرظي: مَن بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ وسمع منه، ﴿ أئِنَّكم لتشهدونَ أنّ معَ اللَّهِ آلهة أُخرى ﴾؟ ولم يقل أخر لأن الجمع يلحقه التأنيث، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿ فما بالُ القُرونِ الأولى ﴾ [طه: ٥١]. ﴿ قلْ ﴾، يا محمد إن شهدتم أنتم، ﴿ لا أشهد ﴾، أنا أنّ معه إلَهاً، ﴿ قلْ إنّما هو إلَهٌ واحد وإنني بريء مما تُشركُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ الذينَ آتيناهُم الكتابَ ﴾، يعني: التوراة والإنجيل، ﴿ يعرفُونَه ﴾، يعني: محمداً ﷺ بنعته وصفته، ﴿ كما يعرفون أبناءَهم ﴾، من بين الصبيان. ﴿ الذين خَسِرُوا ﴾، غبنوا، ﴿ أنفسَهُمْ فهمْ لا يُؤمِنُون ﴾، وذلك أن الله جعل لكل آدمي منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار، وذلك الخسران.

قوله تعالى: ﴿ ومَنْ أظلم ﴾، أكفر، ﴿ ممَّنِ افترى ﴾، اختلق، ﴿ على اللَّهِ كَذباً ﴾، فأشرك به غيره، ﴿ أو كذَّب بآياتِهِ ﴾، يعني: القرآن، ﴿ إنّه لا يُفلحُ الظالمون ﴾، الكافرون.

لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ أي اذكر يوم نحشر العابدين والمعبودين وهو يوم القيامة ﴿ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ يعني أنها تشفع لكم عند ربكم.

قوله عز وجل: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ يعني قولهم وجوابهم وقال ابن عباس معذرتهم والفتنة التجربة، فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار ما في قلوبهم قيل له فتنة قال الزجاج في قوله ثم لم تكن فتنتهم معنى لطيف وذلك أن الرجل يفتتن بمحبوب ثم تصيبه فيه محنة فيبرأ من محبوبه فيقال لم تكن فتنته إلا بذلك المحبوب فكذلك الكفار فتنوا بمحبة الأصنام ثم لما رأوا العذاب تبرؤوا منها. يقول الله تبارك وتعالى ثم لم تكن فتنتهم ومحبتهم للأصنام إلا أن تبرؤوا منها وهو قوله تعالى: ﴿إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ وذلك إذا شاهدوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى لأهل التوحيد فيقول بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو من أهل التوحيد فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ يعني انظر يا محمد بعين البصيرة والتأمل إلى حال هؤلاء المشركين كيف كذبوا على أنفسهم يعني اعتذارهم بالباطل وتبرؤهم من الأصنام والشرك الذي كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه في دار الدنيا وذلك لا ينفعهم وهو قوله: ﴿وضل عنهم﴾ يعني زال عنهم وذهب ﴿ما كانوا يفترون﴾ يعني ما كانوا يكذبون وهو قولهم إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله في ذلك اليوم.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا

﴿ ويومَ نحشرُهم جميعاً ﴾، أي: العابدين والمعبودين، يعني: يوم القيامة، قرأ يعقوب (يحشـرهم) هنا، وفي سبأ [٤٠] بالياء، ووافق حفص في سبأ، وقرأ الآخرون بالنون. ﴿ ثمّ نقولُ للذينَ أشركُوا أينَ شركاؤكُمُ الذينَ كنتمْ تزعمُون ﴾، أنها تشفع لكم عند ربكم.

﴿ ثمّ لم تكنْ فتنتُهم ﴾، قرأ حمزة والكسائي ويعقوب « يكن » بالياء لأن الفتنة بمعنى الافتتان، فجاز تذكيره، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الفتنة، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم «فتنتهـم» بالرفـع جعلوه اسم كان، وقرأ الآخرون بالنصب، فجعلوا الاسم قوله: أن قالوا، وفتنتهم الخبر، ومعنى فتنتهم أي: قولهم وجوابهم، وقال ابن عباس وقتادة: معذرتهم والفتنة التجربة، فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار ما في قلوبهم قيل له فتنة، وقال الزجّاج في قوله: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ معنى لطيف وذلك مثل الرجل يفتتن بمحبوب ثم يصيبه فيه محنة فيتبرأ من محبوبه، فيقال: لم تكن فتنتهم إلاّ هذا، كذلك الكفّار فُتنوا بمحبة الأصنام ولما رأوا العذاب تبرأوا منها، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ ومحبتهم للأصنام، ﴿ إلاّ أنْ قالوا واللهِ ربّنا ما كنّا مشركين ﴾، قرأ حمزة والكسائي (ربّنـا) بالنصب على نداء المضاف، وقرأ الآخرون بالخفض على نعت والله، وقيل: إنهم إذا رأوا يوم القيامة مغفرةَ الله تعالى وتجاوزه عن أهل التوحيد، قالوا لبعضهم البعض: تعالوا نكتُمُ الشرك لعلّنا ننجوا مع أهل التوحيد، فيقولون: والله ربّنا ما كنّا مشركين، فيختم على أفواههم وتشهدُ عليهم جوارحُهم بالكفر.

فقال عزّ وجلّ: ﴿ انظرْ كيفَ كَذَبُوا على أنفسِهمْ ﴾، باعتذارهم بالباطل وتبرّيهم عن الشرك، ﴿ وضلّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُونَ ﴾، أي: زال وذهب عنهم ما كانوا يفترون من الأصنام، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها، فبطل كله في ذلك اليوم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ الآية. قال الكلبي: اجتمع أبو سفيان صخر بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبي ابنا خلف والحارث بن عامر يستمعون القرآن فقالوا للنضر يا أبا قتيبة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها فقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقاً. فقال أبو جهل: كلا لا تقر بشيء من هذا وفي رواية للموت أهون علينا من هذا فأنزل الله تعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ يعني إلى كلامك وقراءتك يا محمد ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ يعني أغطية جمع كنان ﴿أن يفقهوه﴾ يعني لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ يعني وجعلنا في آذانهم صمماً وثقلاً وفي هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى والإيمان فتقبله ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ يعني: كل معجزة من المعجزات الدالة على صدقك لا يؤمنوا بها يعني لا يصدقوا بها ولا يقروا أنها دالة على صدقك ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك﴾ يعني أنهم إذا رأوا الآيات واستمعوا القرآن إنما جاؤوا ليجادلوك ويخاصموك لا ليؤمنوا بها ﴿يقول الذين كفروا إن هذا﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إلا أساطير الأولين﴾ يعني أحاديث الأولين من الأمم الماضية وأخبارهم وأقاصيصهم. وما سطروا: يعني وما كتبوا والأساطير جمع أسطورة وأسطارة. وقيل: واحدها سطر وأسطار جمع وأساطير جمع الجمع فعلى هذا لو قال قائل: لمَ عابوا القرآن وجعلوه أساطير الأولين وقد سطر الأولون في كتبهم الحكم والعلوم النافعة وما لا يعاب قائله؟ أجيب عنه: بأنهم إنما نسبوا القرآن إلى أساطير الأولين بمعنى أنه ليس بوحي من الله تعالى وإنما هو أخبار مجردة كما تروى أخبار الأولين. وقيل في معنى أساطير الأولين: إنها الترهات وهي عند العرب طرق غامضة ومسالك وعرة مشكلة. يقول قائلهم: أخذنا في الترهات، بمعنى عدلنا عن الطريق الواضح إلى الطريق المشكل الذي لا يعرض فجعلت الترهات مثلاً لما لا يعرف ولا يتضح من الأمور المشكلة الغامضة التي لا أصل لها.

قوله عز وجل: ﴿وهم ينهون عنه﴾ يعني ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ ﴿وينأون عنه﴾ يعني ويتباعدون عنه بأنفسهم نزلت في كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن الاجتماع به وينهون عن استماع القرآن وكانوا هم كذلك. وقال ابن عباس: نزلت في أبي طالب عم النبي ﷺ كان ينهى المشركين عن أذى النبي ﷺ ويمنعه

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومنهم مَن يستمعُ إليك ﴾ الآية، قال الكلبي: اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُميّة وأُبيّ ابنا خلف والحارث بن عامر يستمعون القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلّا أني أراه يحرّك لسانه ويقول أساطير الأوّلين، مثل ما كنت أحدّثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها، فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا لا تقرّ بشيء من هذا، وفي رواية: الموتُ أهونُ علينا من هذا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ومنهم مَن يستمعُ إليك ﴾ وإلى كلامك، ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكِنَّةً ﴾، أغطية، جمع كنان، كالأعنة جمع عنان، ﴿ أن يفقَهُوهُ ﴾، أن يعلموه، قيل: معناه أن لا يفقهوه، وقيل: كراهة أن يفقهوه، ﴿ وفي آذانهم وَقْراً ﴾، صمماً وثقلاً، وهذا دليل على أن الله تعالى يقلّب القلوب فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنّة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن، ﴿ وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ ﴾، من المعجزات والدلالات، ﴿ لا يُؤمنُوا بها

منهم وينأى هو بنفسه عن الإيمان به بمعنى يبعد حتى روي أنه اجتمع إليه رؤوس المشركين وقالوا له خذ شاباً من أصبحنا وجهاً وادفع إلينا محمد. فقال: ما أنصفتموني أدفع إليكم ابني محمداً لتقتلوه وأربي لكم ابنكم وروي أن النبي ﷺ دعا أبا طالب إلى الإيمان فقال لولا أن تعيرني قريش لأقررت بها عينك ولكن أذب عنك ما حييت وقال في ذلك أبياتاً:

والله لـــن يصلـــوا إليـــك بجمعهـــم ... حتـــى أوســـد فـــي التـــراب دفينـــا
فـــاصدع بـــأمـــرك مـــا عليـــك غضـــاضـــة ... وابشـــر بـــذاك وقـــر منـــه عيـــونـــا
ودعـــوتنـــي وعـــرفـــت أنـــك نـــاصحـــي ... ولقـــد صـــدقـــت وكنـــت ثـــم أمينـــا
وعـــرضـــت دينـــاً قـــد علمـــت بـــأنـــه ... مـــن خيـــر أديـــان البـــريـــة دينـــا
لـــولا المـــلامـــة أو حـــذار مسبـــة ... لـــوجـــدتنـــي سمحـــاً بـــذاك مبينـــا

وقوله تعالى: ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم﴾ يعني لا يرجع وبال كفرهم وفعلهم إلا عليهم ﴿وما يشعرون﴾ يعني بذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ يعني في النار فوضع على موضع في: كقوله «على ملك سليمان»

حتى إذا جاؤوك يُجادلونك يقولُ الذين كفرُوا إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأوّلين ﴾، يعني: أحاديثهم وأقاصيصهم، والأساطير جمع: أسطورة، وأساطرة، وقيل: الأساطير هي الترهات والأباطيل، وأصلها من سطرت، أي: كُتبت.

﴿ وهم ينهون عنه ﴾ أي: ينهون الناس عن اتّباع محمد ﷺ **﴿ وينأون عنه ﴾**، أي: يتباعدن عنه بأنفسهم، نزلت في كفّار مكة، قاله محمد بن الحنفية والسدي والضحّاك، وقال قتادة: ينهون عن القرآن وعن النبي ﷺ ويتباعدون عنه، وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن أذى النبي ﷺ ويمنعهم وينأى عن الإيمان به، أي: يبعد، حتى رُوِيَ أنه اجتمع إليه رؤوس المشركين وقالوا: خذْ شابّاً من أصبحنا وجهاً، وادفع إلينا محمداً، فقال أبو طالب: ما أنصفتموني أدفع إليكم ولدي لتقتلوه وأُربّي ولدكم؟ ورُوِيَ أنّ النبي ﷺ دعاه إلى الإيمان، فقال: لولا أن تعيّرني قريش لأقررت بها عينك، ولكن أذبّ عنك ما حييت. وقال فيه أبيات شعر:

والله لن يصلوا إليـك بجمعهـم ... حتى أُوْسـدَ فـي التـرابِ دفينـاً
فاصدع بأمركَ ما عليكَ غضاضةٌ ... وابْشِـرْ بـذاكَ وقـرّ منكَ عيـونـاً
ودعـوتني وعـرفتُ أنـكَ نـاصحي ... ولقـد صـدقتَ وكنتَ ثمّ أميناً
وعـرضتَ ديناً قـدْ علمتُ بأنـه ... من خير أديـان البـريّـة دينـاً
لـولا المـلامـةُ أو حـذارِ مسبّ ... لـوجدتني سمحـاً بـذاك مبينـاً

﴿ وإنْ يُهلكون ﴾، أي: ما يهلكون، **﴿ إلاّ أنفسَهم ﴾** أي: لا يرجع وبال فعلهم إلاّ إليهم، وأوزار الذين يصدّونهم عليهم، **﴿ وما يشعرون ﴾**.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ ولو ترى إذْ وُقفوا على النّار ﴾**، يعني: في النار، كقوله تعالى: **﴿ على ملك سليمان ﴾**

أي في ملك سليمان وقيل معناه إذ عرضوا على النار وجواب لو محذوف. والمعنى: ولو ترى الكفار الذين ينهون عنك وينأون عنك يا محمد في تلك الحالة لرأيت أمراً عجيباً وموقفاً فظيعاً ﴿فقالوا﴾ يعني الكفار ﴿يا ليتنا نردّ﴾ يعني إلى الدنيا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ تمنوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى حتى يؤمنوا ولا يكذبوا بآيات ربهم فرد الله عليهم ذلك فقال تعالى: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ يعني ليس الأمر كما قالوا لو ردوا إلى الدنيا لأمنوا بل ظهر لهم ما كانوا يسرون في الدنيا من الكفر والمعاصي. وقيل: ظهر لهم ما كانوا يخفون من قولهم والله ربنا ما كنا مشركين أخفوا شركهم وكتموه فأظهره الله عليهم حين شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا من شركهم وقيل ظهر لهم ما أخفوا من الكفر فعلى هذا تكون الآية في المنافقين ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ يعني في قولهم لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين: ﴿وقالوا إن هذه إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ وهذا خبر عن حال منكري البعث وذلك أن النبي ﷺ لما أخبر الكفار عن أحوال القيامة وأهوالها وما أعد الله في الآخرة من الثواب للمؤمنين المطيعين وما أعد الله من العقاب للكفار والعاصين قالوا، يعني الكفار، إن هي أي ما هي إلا حياتنا الدنيا، أي، ليس لنا غير هذه الدنيا التي نحن فيها وما نحن بمبعوثين يعني بعد الموت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا خبر من الله عن هؤلاء الكفار الذي وقفوا على النار أنهم لو ردوا إلى الدنيا لقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

قوله عز وجل: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ يعني على حكم ربهم وقضائه ومسألته وقال مقاتل عرضوا على ربهم ﴿قال أليس هذا بالحق﴾ أي يقول الله يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وتكذبون به وتقولون لا بعث ولا نشور حقاً ﴿قالوا بلى وربنا﴾ يعني أنهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه فأجابوا وقالوا بلى

[البقرة: ١٠٢] أي: في ملك سليمان، وقيل: عُرضوا على النار، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف معناه: لو تراهم في تلك الحالة لرأيتَ عجباً، ﴿ فقالوا يا ليتَنا نُرَدُّ ﴾، يعني: إلى الدنيا، ﴿ ولا نُكذِّبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين ﴾، قراءة العامّة كلها بالرفع على معنى: يا ليتنا نرد نحن ولا نكذبُ ونكونُ من المؤمنين، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب (ولا) بنصب الباء والنون على جواب التمنّي، أي: ليت ردّنا وقع، وأن لا نكذب ونكون، والعرب تنصب جواب التمنّي بالواو كما تنصب بالفاء، وقرأ ابن عامر (نكـذب) بالرفع و (نكـون) بالنصب لأنهم تمنّوا أن يكونوا من المؤمنين، وأخبروا عن أنفسهم أنهم لا يكذبون بآيات ربّهم إنْ رُدّوا إلى الدنيا.

﴿ بلْ بدَا لهم ﴾، أي: ليس الأمر على ما قالوا إنهم لو رُدّوا لآمنُوا بل بدَا لهم ظهر لهم، ﴿ ما كانوا يُخفُون ﴾، يسرّون، ﴿ من قبل ﴾، في الدنيا من كفرهم ومعاصيهم، وقيل: ما كانوا يخفون وهو قولهم: ﴿ واللَّهِ ربِّنا ما كنّا مُشركين ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدتْ عليهم جوارحُهم بما كتمُوا وستروا، لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا، إلاّ أن تجعل الآية في المنافقين، وقال المبرّد: بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون، وقال النضر بن شميل: بل بَدَا لهم بدا عنهم. ثم قال: ﴿ ولو رُدُّوا ﴾ إلى الدنيا ﴿ لعادُوا لِمَا ﴾، يعني إلى ما، ﴿ نُهوا عنه ﴾، من الكفر، ﴿ وإنّهم لكاذبُون ﴾، في قولهم، لو ردّوا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين.

﴿ وقالوا إنْ هي إلاّ حياتُنا الدنيا وما نحنُ بمبعوثين ﴾، وهذا إخبار عن إنكارهم البعث، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، هذا من قولهم لو ردّوا لقالوا قوله تعالى.

﴿ ولو تَرى إذْ وُقِفُوا على ربِّهم ﴾، أي: على حكمه وقضاءه ومسألته، وقيل: عُرضوا على ربّهم،

والله إنه لحق. وقيل: تقول لهم خزنة النار بأمر الله أليس هذا بالحق يعني البعث حقاً فأجابوا بقولهم بلى وربنا قال ابن عباس: للقيامة مواقف ففي موقف ينكرون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وفي موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه في الدنيا ﴿قال فذوقوا العذاب﴾ أي يقول الله لهم ذلك أو الخزنة تقول لهم ذلك بأمر الله تعالى. وإنما خص لفظ الذوق، لأنهم في كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق في شدة الإحساس ﴿بما كنتم تكفرون﴾ يعني هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ يعني خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالمصير إلى الله تعالى وبالبعث بعد الموت وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم وحصول العذاب الأليم، في دركات الجحيم ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ يعني جاءتهم القيامة فجأة وسميت القيامة ساعة: لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تبارك وتعالى. وقيل: سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة أو أقل من ذلك ﴿قالوا﴾ يعني منكري البعث وهم كفار قريش ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد ﴿يا حسرتنا﴾ يعني: يا ندامتنا والحسرة التلهف على الشيء الفائت وذكرت على وجه النداء للمبالغة والمراد تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة ﴿على ما فرطنا﴾ يعني قصرنا ﴿فيها﴾ يعني في الدنيا لأنها موضع التفريط في الأعمال الصالحة والمعنى يا حسرتنا على الأعمال الصالحة التي فرطنا فيها في دار الدنيا. وقال محمد بن جرير الطبري: الهاء والألف في قوله فيها تعود إلى الصفقة ولكن اكتفى بدلالة قوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله عليها من ذكرها إذ كان معلوماً أن الخسران لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرى ومعنى الآية قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به رضوان الله وجنته بالكفر الذي يستوجبون به سخط الله وعقوبته وهم لا يشعرون بذلك حتى تقوم الساعة.

فإذا جاءتهم الساعة بغتة ورأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وروى الطبري بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله يا حسرتنا، قال: يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون يا حسرتنا.

﴿ **قال** ﴾، لهم، وقيل: تقول لهم الخزنة بأمر الله، ﴿ **أليسَ هذا بالحقّ** ﴾؟ يعني: أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ ﴿ **قالوا بلى وربِّنا** ﴾، إنه حق، قال ابن عباس: هذا في موقف، وقولهم: والله ربِّنا ما كنّا مشركين في موقف آخر، وفي القيامة مواقف، ففي موقف يُقرّون، وفي موقف يُنكرون. ﴿ **قال فذُوقُوا العذابَ بما كنْتم تكفُرون** ﴾.

﴿ **قدْ خَسِرَ الذينَ كذَّبُوا بلقاءِ اللّهِ** ﴾، أي: خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله والبعث بعد الموت، ﴿ **حتى إذا جاءتْهُمُ السّاعةُ** ﴾، أي: القيامة ﴿ **بغتةً** ﴾، أي: فجأة، ﴿ **قالوا يا حسرتَنا** ﴾، ندامَتَنا، ذُكر على وجه النداء للمبالغة، قال سيبويه: كأنه يقول: أيتها الحسرة هذا أو أنك، ﴿ **على ما فرطنا** ﴾ أي: قصّرنا ﴿ **فيها** ﴾، أي: في الطاعة، وقيل: تركنا في الدنيا من عمل الآخرة، وقال محمد بن جرير: الهاء راجعة إلى الصفقة، وذلك أنه لمّا تبيّن لهم خسران صفقتهم ببيعها الآخرة بالدنيا قالوا: يا حسرتَنا على ما فرطنا فيها، أي: في الصفقة، فترك

وقوله تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم﴾ يعني أثقالهم: ﴿على ظهورهم﴾ والأوزار: الخطايا والذنوب. وأصل الوزر: الثقل والحمل. يقال: وزرته إذا حملته وإنما قيل للذنوب أوزار، لأنها تثقل ظهر من يحملها. قال قتادة والسدي: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحاً فيقول هل تعرفني؟ فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبني فقد طالما ركبتك في الدنيا فذلك قوله: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ يعني ركباناً.

وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحاً فيقول هل تعرفني؟ فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك فذلك معنى قوله ﴿وهم يحملون أوزراهم على ظهورهم﴾.

وقال عمر بن هانيء: يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح كلما رأى هو صورته وقبحه زاده الله خوفاً فيقول له بئس الجليس أنت فيقول أنا عملك طالما ركبتني فلأركبنك اليوم حتى أخزيك على رؤوس الخلائق فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾. وقال الزجاج: الثقل كما يذكر في الوزن فقد يذكر في الحال والصفة يقال ثقل علي كلام فلان بمعنى كرهته فالمعنى أنهم يقاسون من ألم عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل ذلك عليهم فعلى هذا القول يكون قوله ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ مجازاً عما يقاسونه من شدة العذاب. وقيل في معنى الآية: أوزارهم لا تزايلهم كما تقول شخصه نصب عيني أي ذكره ملازم لي ﴿ألاساء ما يزرون﴾ يعني بئس الشيء شيئاً يحملونه.

وقال ابن عباس: بئس الحمل حملوا. قوله عز وجل: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ أي باطل وغرور لا بقاء لها وهذا فيه رد على منكري البعث في قولهم ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ فقال الله رداً عليهم وكذباً لهم ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن أو الكافر قولان: أحدهما: إن المراد بها حياة الكافر لأن المؤمن لا يزداد بحياته في الدنيا إلا خيراً لأنه يحصل في أيام حياته من الأعمال الصالحة والطاعة ما يكون سبباً لحصول السعادة في الآخرة؛ وأما الكافر فإن كل حياته في الدنيا وبال عليه قال ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق.

والقول الثاني: إن هذا عام في حياة المؤمن والكافر لأن الإنسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لأن الذي كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لا بقاء له فبان بهذا التقرير أن المراد بهذه الحياة حياة

ذكر الصفقة اكتفاءً بذكر بقوله: ﴿ قد خسر ﴾ لأن الخسران إنما يكون في صفقة بيع، والحسرة شدّة الندم، حتى يحسر الندم النادم، كما يحسر الذي تقوم به دابّته في السفر البعيد، ﴿ وهم يحملُون أوْزارَهم ﴾، أثقالهم وآثامهم، ﴿ على ظهورهم ﴾، قال السدي وغيره: إن المؤمن إذ أخرج من قبره استقبله أحسن شيء صورةً وأطيبه ريحاً فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الصالح فاركبني، فقد طالما ركبتك في الدنيا، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ يومَ نحشرُ المتّقينَ إلى الرحمن وَفْداً ﴾ [مريم: ٨٥] أي ركباناً، وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورةً وأنتنه ريحاً، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك، فهذا معنى قوله: ﴿ وهم يحملُون أوْزارَهم على ظهورهم ﴾، ﴿ ألا ساءَ ما يَزِرُون ﴾، يحملون، قال ابنُ عباس: أي بئس الحمل حملوا.

﴿ ومَا الحياةُ الدنيا إلاّ لَعِبٌ ولهوٌ ﴾، باطل وغُرور لا بقاء ﴿ ولَلدّارُ الآخرةُ ﴾، قرأ ابن عامر « ولدار الآخرة » مضافاً أضاف الدار إلى الآخرة، ويضاف الشيء إلى نفسه عند اختلاف اللفظين، كقوله: ﴿ وحبّ الحصيد ﴾

المؤمن والكافر وأنه عام فيهما. وإنما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشيء الذي يُلعب به.

وقيل: معناه إن أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وإن كان وقوعه في الدنيا وقيل معناه وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو لأنه لا يجدي شيئاً ولاشتغالهم عما أمروا به ونسبوا إلى اللعب وقوله تعالى: ﴿وللدار الآخرة﴾ يعني الجنة واللام فيه لام القسم تقديره والله لدار الآخرة ﴿خير﴾ يعني من الدنيا وأفضل لأن الدنيا سريعة الزوال والانقطاع ﴿للذين يتقون﴾ يعني الشرك. وقيل: يتقون اللعب واللهو ﴿أفلا تعقلون﴾ إن الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها.

قوله تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ يعني قد نعلم يا محمد إنه ليحزنك الذي يقوله المشركون لك، قال السدي: التقى الأخنس بن شريق أبو جهل بن هشام فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيري؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله هذه الآية وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبي ﷺ: ما نتهمك ولا نكذبك ولكنا نكذب الذي جئت به، فأنزل الله هذه الآية. عن علي بن أبي طالب أن أبا جهل قال للنبي إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به فأنزل الله فيهم ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أخرجه الترمذي من طريقين وقال في أحدهما وهذا أصح، ففي هذه الآية تسلية للنبي ﷺ وتعزية عما يواجهه به قومه لأنهم كانوا يعتقدون صدقه وأنه ليس بكذاب وإنما حملهم على تكذيبه في الظاهر الحسد والظلم: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ يعني أنهم لا يكذبونك في السر، لأنهم قد عرفوا أنك صادق ﴿ولكن الظالمين﴾ يعني الكافرين ﴿بآيات الله يجحدون﴾ يعني في العلانية وذلك أنهم جحدوا القرآن بعد معرفة الصدق الذي أنزل عليه لعنادهم وكفرهم كما قال الله تعالى في حق غيرهم، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً. وقيل: ظاهر الآية يدل على أنهم لم يكذبوا محمداً ﷺ وإنما جحدوا آيات الله وهي القرآن الدال على صدقه، فعلى هذا يكون المعنى: فإنهم لا يكذبونك لأنهم قد عرفوا صدقك وإنما جحدوا آيات الله وهي القرآن الدال على

[قٓ: ٩]، وقولهم: ربيع الأول ومسجد الجامع، سُمِّيت الدنيا لدنوها، وقيل: لدناءتها، وسُمِّيت الآخرة لأنها بعد الدنيا، ﴿ خيرٌ للّذين يتّقون ﴾ الشرك، ﴿ أفلا تعقلُون ﴾، أي: أن الآخرة أفضل من الدنيا، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب «أفلا تعقلون» بالتاء هاهنا وفي الأعراف [١٦٩] وسورة يوسف [١٠٩] ويٓس [٦٢]، ووافق أبو بكر في سورة يوسف، ووافق حفص إلّا في سورة يٓس، وقرأ الآخرون بالياء فيهنّ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قدْ نعلمُ إنه ليحْزُنُكَ الذي يقولُون ﴾، قال السدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل يا أبا الحكم: أخبرني عن محمد بن عبد الله أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيري، قال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قطّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوّة فماذا يكون لسائر قريش، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبيّ ﷺ لا نتّهمك ولا نكذبك ولكنّا نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿ قد نعلم إنّهُ لَيحْزُنُكَ الذي يقولون ﴾ بأنك كاذب، ﴿ فإنهم لا يُكذّبُونَك ﴾، قرأ نافع والكسائي بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد من التكذيب، والتكذيب هو أن تنسبه إلى الكذب، وتقول له: كذبت، والكذاب هو أن تجده كاذباً، تقول العرب: أجدبت الأرض وأخصبتها إذا وجدتها جدبة ومخصبة، ﴿ ولكنّ الظالمينَ بآياتِ الله يجحدُون ﴾، يقول:

صدقه فعلى هذا يكون المعنى فإنهم لا يكذبونك لأنهم قد عرفوا صدقك وإنما جحدوا صحة نبوتك ورسالتك، قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ يعني ولقد كذبت الأمم الخالية رسلهم كما كذبك قومك: **﴿فصبروا على ما كذبوا وأوذوا﴾** يعني أن الرسل عليهم السلام صبروا على تكذيب قومهم إياهم وصبروا على أذاهم، فاصبر أنت يا محمد على تكذيب قومك وأذاهم لك كما صبر مَن كان قبلك من الرسل وهذا فيه تسلية للنبي ﷺ وإزالة حزنه على تكذيب قومه له وأذاهم إياه **﴿حتى أتاهم نصرنا﴾** يعني بإهلاك من كذبهم **﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾** يعني ولا ناقض لما حكم الله به من إهلاك المكذبين ونصر المسلمين كما قال ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لَهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وقال الله تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ولا خلف فيما وعد الله به﴾.

وقوله تعالى: **﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾** يعني ولقد أنزلت عليك في القرآن من أخبار المرسلين ما فيه تسلية لك وتسكين لقلبك. وقال الأخفش: من هنا صلة كما تقول أصابنا من مطر وقال غيره بل هي للتبعيض لأن الواصل إلى رسول الله ﷺ قصص بعض الأنبياء وأخبارهم كما قال تعالى: **﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾**.

قوله تعالى: **﴿إن كان كبر عليك إعراضهم﴾** ذكر ابن الجوزي في سبب نزول هذه الآية: أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في نفر من قريش فقال: ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات فإن فعلت آمنا بك فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس. ومعنى الآية: وإن كان عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك وعن تصديقك والإيمان بك، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص وكان إذا سألوه آية أحب أن يريهم الله ذلك طمعاً في إيمانهم فقال الله عز وجل: **﴿فإن استطعت أن تبتغي﴾** يعني تطلب وتتخذ **﴿نفقاً في الأرض﴾** يني سرباً في الأرض والنفق سرب في الأرض تخلص منه إلى مكان آخر **﴿أو سلماً في السماء﴾** يعني: أو تتخذ مصعداً إلى السماء والسلم المصعد وهو مشتق من السلامة **﴿فتأتيهم بآية﴾** يعني بالآية: التي سألوا عنها. ومعنى الآية وإن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك فإن قدرت أن تذهب في الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية تدلهم

إنهم لا يكذبونك في السرّ لأنهم عرفوا صدقك فيما مضى، وإنّما يكذِّبون وَحْيي ويجحدون آياتي، كما قال: ﴿ وجحدُوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل: ١٤].

﴿ ولقدْ كُذِّبتْ رُسُلٌ من قبلِكَ ﴾، كذبهم قومهم كما كذبَتْكَ قريشٌ، **﴿ فصبرُوا على ما كُذِّبُوا وأُوذُوا حتى أتاهم نصرُنا ﴾**، بتعذيب من كذبهم، **﴿ ولا مُبدّلَ لكلماتِ الله ﴾**، **لا ناقض لِمَا حكم به**، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه عليهم السلام، فقال: ﴿ ولقد سبقتْ كلمتنا لعبادِنا المرسَلين لهم أنَّهُمْ المنصُورُون وإنّ جندَنا لَهُمُ الغالِبون ﴾ [الصّافّات: ١٧١ و١٧٢ و١٧٣]، وقال: ﴿ إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا ﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿ كتبَ الله لأغلِبَنّ أنا ورُسُلي ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال الحسن بن الفضل: لا خُلْفَ لِعُدّتِهِ، **﴿ ولقدْ جاءَكَ من نَبَإِ المرسلين ﴾**، و**﴿ من ﴾** صلة كما تقول: أصابنا من مطر.

على صدقك فافعل وإنما حسن حذف جواب الشرط لأنه معلوم عند السامع والمقصود من هذا أن يقطع رسول الله ﷺ طمعه عن إيمانهم ولا يتأذى بسبب إعراضهم عنه وعن الإيمان به ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ أخبر الله عز وجل نبيه ﷺ أنهم إنما تركوا الإيمان وأعرضوا عنه وأقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذ قضائه فيهم وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى: ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ يعني بأن لو شاء الله لجمعهم على الهدى وأنه يؤمن بك بعضهم دون بعض وقيل معناه لا يشتد تحسرك على تكذيبهم، إياك ولا تجزع من إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم وإنما نهاه عن هذه الحالة وغلّظ له الخطاب تبعيداً له عن هذه الحالة.

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

قوله عز وجل: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ يعني المؤمنين الذين فتح الله أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويبغونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله ﴿الموتى﴾ يعني الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ﴿يبعثهم الله﴾ يعني يوم القيامة ﴿ثم إليه يرجعون﴾ فيجزيهم بأعمالهم ﴿وقالوا﴾ يعني رؤساء كفار قريش ﴿لولا﴾ يعني هلا ﴿نزل عليه آية من ربه﴾ يعني الملك ليشهد لمحمد بالنبوة وقيل الآية المعجزة الباهرة كمثل معجزات الأنبياء ﴿قل﴾ يعني قل لهم يا محمد ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ يعني أنه تعالى قادر على إيجاد ما طلبوه وإنزال ما اقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني ماذا عليهم في إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها وقيل معناه إنهم لا يعلمون أن الله قادر على إنزال الآيات وقيل إنهم لا يعلمون وجه المصلحة في إنزالها قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ قال العلماء: جميع ما خلق الله عز وجل لا يخرج عن هاتين الحالتين إما أن يدب على الأرض، أو يطير في الهواء، حتى ألحقوا حيوان الماء بالطير، لأن الحيتان تسبح في الماء كما أن الطير يسبح في الهواء. وإنما خص ما في الأرض بذكر دون ما في السماء وإن كان ما في السماء مخلوقاً لأن الاحتجاج بالشاهد أظهر وأولى مما لا يشهد وإنما ذكر الجناح في قوله بجناحيه للتوكيد كقولك كتبت بيدي ونظرت بعيني إلا أمم أمثالكم.

قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها. يريدون أن كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة

﴿ وإنْ كانَ كَبُرَ عليكَ إعراضُهم ﴾ أي: عظم عليك وشقّ أن أعرضوا عن الإيمان بك، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشدّ الحرص، وكانوا إذ سألوا آية أحبَّ أن يريهم الله تعالى ذلك طمعاً في إيمانهم، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ فإنِ استطعتَ أن تبتغيَ نفقاً ﴾، تطلب وتتخذ نفقاً سرباً ﴿ في الأرض ﴾، ومنه نافقاً. اليربوع وهو أحد جحرية فتذهب فيه، ﴿ أو سُلّماً ﴾، أي: دَرَجاً ومصعداً، ﴿ في السماء ﴾، فتصعد فيه، ﴿ فتأتيهم بآية ﴾، فافعل، ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾، فآمنوا كلُّهم، ﴿ فلا تكونَنّ مِنَ الجاهلين ﴾، أي: بهذا الحرف، وهو قوله: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾، وأنِ مَن يكفر لسابق علم الله فيه.

﴿ إنّما يستجيبُ الذينَ يسمعُون ﴾، يعني: المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتّبعُونه وينتفعون به دون مَن ختم الله على سمعه، ﴿ والمَوْتى ﴾، يعني الكفّار، ﴿ يبعثُهُم اللّهُ ثمّ إليه يُرْجَعُون ﴾، فيخزيهم بأعمالهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقالوا ﴾، يعني: رؤساء قريش، ﴿ لَوْلاَ ﴾، هلّا، ﴿ نُزِّلَ عليه آية من ربه قلْ إنّ اللّهَ قادرٌ

والسباع أمة تعرف بأسمائها مثل بني آدم يعرفون بأسمائهم كما يقال الإنس والناس ويدل على أن كل جنس من الدواب أمة ما روي عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي.

فإن قلت ثبت بالآية والحديث أن الدواب والطير أمم أمثالنا وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فيما يظهر لنا فما وجه هذه المماثلة.

قلت: اختلف العلماء في وجه هذه المماثلة فقيل: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبّحه وتصلي له كما أنكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلّون له. وقيل: إنها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله عز وجل وقيل إنها يفهم بعضها عن بعض ويألف بعضها بعضاً كما أن جنس الإنسان يألف بعضهم بعضاً ويفهم بعضهم عن بعض. وقيل: أمثالكم في طلب الرزق وتوقي المهالك ومعرفة الذكر والأنثى. وقيل: أمثالكم في الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب حتى يقتص للجماء من القرناء وهو قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ يعني في اللوح المحفوظ لأنه يشمل جميع أحوال المخلوقات وقيل إن المراد بالكتاب القرآن يعني أن القرآن مشتمل على جميع الأحوال: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ يعني الدواب والطير قال ابن عباس: حشرها موتها. وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كوني تراباً (م).

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ

على أنْ يُنزِّل آيةً ولكنّ أكثرَهم لا يعلمُون﴾، ما عليهم في إنزالها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه﴾، قيّد الطيران بالجناح تأكيداً كما يقال نظرت بعيني وأخذت بيدي، ﴿إلاّ أممٌ أمثالُكم﴾، قال مجاهد: أصناف مصنّفة تُعْرَف بأسمائها يريد أن كل جنس من الحيوان أمة، فالطير أمة، والهوام أمة، والذباب أمة، والسباع أمة، تُعرَف بأسمائها مثل بني آدم، يُعرَفون بأسمائهم، يقال: الأنس والناس. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا المبارك هو ابن فضالة عن الحسن عن عبد الله بن مفغل عن النبي ﷺ قال: «لولا أنّ الكلابَ أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم»، وقيل: أمم أمثالكم يفقه بعضهم عن بعض، وقيل: أمم أمثالكم في الخلق والموت والبعث، وقال عطاء: أمم أمثالكم في التوحيد والمعرفة، قال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في الغذاء وابتغاء الرزق وتوقّي المهالك، ﴿ما فرّطنا في الكتابِ﴾، أي: في اللوح المحفوظ، ﴿مِن شيء ثمّ إلى ربِّهم يُحشرُون﴾، قال ابن عباس والضحاك: حشرها موتها، وقال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير، وكل شيء فيقتصّ للجمـاء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً فحينئذ يتمنى الكافر ويقول: يا ليتني كنتُ تراباً. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بـن عمر الجوهري أنا أحمد بـن علي الكشمهيني أنا علي بـن حجر أنا إسماعيل بـن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتردنّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامةِ حتى يُقادَ للشاةِ الجمـاءِ مِنَ القَرْناء».

مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني بالقرآن وبمحمد ﷺ وقيل: كذبوا بحجج الله وأدلته على توحيده ﴿صم﴾ يعني عن سماع الحق ﴿وبكم﴾ يعني عن النطق به والمعنى أنهم في حال كفرهم وتكذيبهم كمن لا يسمع ولا يتكلم، ولهذا شبه الكفار بالموتى لأن الميت لا يسمع ولا يتكلم ﴿في الظلمات﴾ يعني في ظلمات الكفر، حائرين مترددين فيها لا يهتدون سبيلاً ﴿من يشأ الله يضلله﴾ يعني عن الإيمان ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ يعني ومن يشأ يجعله الله على دين الإسلام وفي هذا دليل على أن الهادي والمضل هو الله تعالى فمن أحب هدايته وفقه بفضله وإحسانه للإيمان به ومن أحب ضلالته تركه على كفره وهذا عدل منه لأنه تعالى هو الفاعل المختار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتكم﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين تركوا عبادة الله عز وجل وعبدوا غيره من الأصنام أخبروني تقول العرب أرأيتك بمعنى أخبرنا بحالك وأصله أرأيتم والكاف فيه للتأكيد: ﴿إن أتاكم عذاب الله﴾ يعني قبل الموت مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة من: الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب ﴿أو أتتكم الساعة﴾ يعني القيامة ﴿أغير الله تدعون﴾ يعني في كشف العذاب عنكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني في دعواكم. ومعنى الآية أن الكفار كانوا إذا نزل بهم شدة وبلاء رجعوا إلى الله بالتضرع والدعاء وتركوا الأصنام فقيل لهم: أترجعون إلى الله في حال الشدة والبلاء ولا تعبدونه ولا تطيعونه في حال اليسر والرخاء؟ ﴿بل إياه تدعون﴾ يعني بل تدعون الله، ولا تدعون غيره في كشف ما نزل بكم ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ يعني فيكشف الضر الذي من أجله دعوتموه وإنما قيد الإجابة بالمشيئة رعاية للمصلحة وإن كانت الأمور كلها بمشيئة الله تعالى: ﴿وتنسون ما تشركون﴾ يعني: وتتركون دعاء الأصنام التي تعبدونها فلا تدعونها لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع وقيل معناه أنكم في ترككم دعاء الأصنام بمنزلة من قد نسيها؛ وهذا معنى قول الحسن لأنه قال وتعرضون عنها إعراض الناسي لها.

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ في الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك يا محمد رسلاً فخالفوهم وكفروا وحسن هذا الحذف لكونه معلوماً عند السامع ﴿فأخذناهم بالبأساء﴾ يعني بالفقر

قوله عزّ وجلّ: ﴿ والذينَ كذَّبوا بآياتِنا صمٌّ وبُكْمٌ ﴾، لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به، ﴿ في الظلمات ﴾، في ضلالات الكفر، ﴿ مَنْ يشأ اللَّهُ يضلله ومَن يشأ يجعلْهُ على صراطٍ مُستقيم ﴾، هو الإسلام.

قوله تعالى: ﴿ قلْ أرأيتكُمْ ﴾، هلْ رأيتم؟ والكاف فيه للتأكيد، وقال الفرّاء رحمه الله: العرب تقول: أرأيتَك، وهم يريدون أخبرنا، كما يقول: أرأيتَك إن فعلت كذا ماذا تفعل؟ أي: أخبرني، وقرأ أهل المدينة «أرأيتكم، وأرأيتم، وأرأيت» بتليين الهمزة الثانية، والكسائي يحذفها، قال ابن عباس: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أرأيتكم، ﴿ إنْ أتاكم عذابُ اللَّهِ ﴾، قبل الموت، ﴿ أو أتتكُم الساعةُ ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿ أغيرَ اللَّهِ تَدْعُون ﴾، في صرف العذاب عنكم، ﴿ إنْ كنتُم صادقين ﴾، وأراد الكفّار يدعون الله في أحوال الاضطرار كما أخبر الله عنهم: ﴿ وإذا غشيهم موجٌ كالظُّلَلِ دَعُوا اللَّهَ مخلصينَ له الدين ﴾ [لقمان: ٣٢].

الشديد وأصله من البؤس وهو الشدة والمكروه وقيل: البأساء، شدة الجوع ﴿والضراء﴾ يعني الأمراض والأوجاع والزمانة ﴿لعلهم يتضرعون﴾ يعني يخضعون ويتوبون والتضرع التخشع والتذلل والانقياد وترك التمرد وأصله من الضراعة وهي الذلة. ومقصود الآية، أن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنه قد أرسل من قبله رسلاً إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالبأساء والضراء وهي الشدة في النفس والمال فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ففيه تسلية للنبي ﷺ ﴿فلولا﴾ يعني فهلا ﴿إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ معناه نفي التضرع فلم يتضرعوا ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ يعني ولكن غلظت قلوبهم فلم تضرع ولم تخشع بل أقاموا على كفرهم وتكذيبهم رسلهم ﴿وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون﴾ يعني من الكفر والتكذيب وتزيين الشيطان إغواؤه بما في المعصية من اللذة. قال ابن عباس: يريد زين الشيطان الضلالة التي كانوا عليها فأصروا على معاصي الله عز وجل.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي تركوا ما وعظوا به وقيل تركوا العمل بما أمرتهم به الرسل وإنما كان النسيان بمعنى الترك لأن التارك للشيء معرضاً عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ يعني بدلنا مكان البأساء والرخاء والسعة في الرزق والعيش ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام وذلك استدراج منه لهم. وقيل: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الخير كان مغلقاً عنهم ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ يعني فرحوا بما أوتوا من السعة والرخاء والصحة في الأبدان والمعيشة وظنوا أن ما كان نزل بهم من الشدة لم يكن انتقاماً من الله تعالى فإنهم لما فتح الله عليهم ما فتح من الخير والسعة فرحوا به وظنوا أن ذلك باستحقاقهم

ثم قال: ﴿ بلْ إيَّاهُ تَدْعُون ﴾، أي: تدعون الله ولا تدعون غيره، ﴿ فيكشِفُ ما تدعُون إليه إنْ شاء ﴾، قيد الإجابة بالمشيئة والأمور كلها بمشيئته، ﴿ وَتَنْسَونَ ﴾، وتتركون، ﴿ ما تُشْرِكُون ﴾.

﴿ ولقدْ أرسلْنَا إلى أممٍ مِن قبلِكَ فأخذْنَاهُمْ بالبأساءِ ﴾، بالشدّة والجوع، ﴿ والضَّرَّاءِ ﴾، المرض والزمانة، ﴿ لعلّهم يتضرَّعُون ﴾، أي: يتوبون ويخضعون، والتضرُّعُ السؤال بالتذلّل.

﴿ فلولا ﴾، فهلاّ، ﴿ إذْ جاءَهم بأْسُنَا ﴾، عذابُنَا، ﴿ تضرَّعُوا ﴾، آمنوا فيكشف عنهم، أخبر الله عزّ وجلّ أنه قد أرسل إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أنهم أُخذوا بالشدّة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرعوا، فذلك قوله: ﴿ ولكنْ قستْ قلوبُهم وزَيّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانُوا يعملون ﴾، من الكفر والمعاصي.

﴿ فلمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به ﴾، تركوا ما وعظوا وأُمروا به، ﴿ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء ﴾، قرأ أبو جعفر «فتّحنا» بالتشديد في كل القرآن، وقرأ ابن عامر كذلك إذا كان عقيبه جمعاً، والباقون بالتخفيف وهذا فتح استدراج ومكر، أي: بدّلنا مكان البلاء والشدّة الرخاء والصحّة، ﴿ حتى إذا فرِحُوا بما أُوتُوا ﴾، وهذا فرح بطر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا، ﴿ أخذناهمْ بغتةً ﴾، فجأة آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم، ﴿ فإذا هُمْ مُبْلِسُون ﴾، آيسون من كل خير، وقال أبو عبيدة: المبلس النادم الحزين، وأصل الإبلاس الإطراق من الحزن والندم. روى عقبة بن عامر أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله يُعطي العبدَ ما يحبُّ وهو مقيم على معصيته، فإنّما ذلك استدراج» ثم تلا ﴿ فلمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوابه ﴾ الآية.

وهذا فرح بطر كما فرح قارون بما أوتي من الدنيا ﴿أخذناهم بغتة﴾ يعني جاءهم عذابنا فجأة من حيث لا يشعرون قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة، وقال أهل المعاني: إنما أخذوا في حال الرخاء والسلامة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف في ضروب اللذة، فأخذناهم في آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا إليهم ﴿فإذا هم مبلسون﴾ أي آيسون من كل خير، وقال الفراء المبلس اليائس المنقطع رجاؤه ولذلك يقال لمن يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون له جواب قد أبلس وقال الزجاج المبلس الشديد الحزن والحسرة وقال أبو عبيدة المبلس النادم والحزين والإبلاس هو الإطراق من الحزن والندم روى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال «إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فإنما ذلك استدراج ثم تلا ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ الآية» ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري.

وقوله تعالى: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي آخرهم الذي يدبرهم. يقال: دبر فلان القوم، إذا كان آخرهم. والمعنى: أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم تبق منهم باقية ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ قال الزجاج: حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم ومعنى هذا أن قطع دابرهم نعمة أنعم الله بها على الرسل الذين أرسلوا إليهم فكذبوهم فذكر الحمد تعليماً للرسل ولمن آمن بهم ليحمدوا الله على كفايتهم إياهم شر الذين ظلموا وليحمد محمد ﷺ وأصحابه ربهم، إذ أهلك المشركين المكذبين. وقيل: معناه الثناء الكامل والشكر الدائم لله رب العالمين على إنعامه على رسله وأهل طاعته بإظهار حجتهم على من خالفهم وإهلاك أعدائهم واستئصالهم العذاب.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿إن أخذ الله سمعكم﴾ يعني الذي تسمعون به

﴿ فقطعَ دابرُ القومِ الذينَ ظلمُوا ﴾، أي: آخرهم الذين بدبرهم، يقال: دبر فلانٍ القوم يدبرهم دبراً ودبوراً إذا كان آخرهم، ومعناه أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم يبقَ منهم باقية، ﴿ والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين ﴾، حمدَ الله نفسه على أن قطع دابرهم لأنه نعمة على رسله، فذكر الحمد لله تعليماً لهم ولمَن آمن بهم، أن يحمدوا الله على كفايته شرَّ الظالمين، وليحمد محمد ﷺ وأصحابه ربَّهم إذا أهلك المكذبين.

قوله تعالى: ﴿ قلْ أرأيتُم ﴾، أيها المشركون، ﴿ إنْ أخذَ اللَّهُ سمعَكم ﴾، حتى لا تسمعوا شيئاً أصلاً ﴿ وأبصارَكم ﴾، حتى لا تبصروا شيئاً أصلاً، ﴿ وختَم على قلوبِكم ﴾، حتى لا تفقهوا شيئاً ولا تعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا شيئاً، ﴿ مَنْ إلَهٌ غيرُ اللَّهِ يأتيكم به ﴾، ولم يقل بها مع أنه ذكر أشياء، قيل: معناه يأتيكم بما أخذ منكم، وقيل: الكناية ترجع إلى السمع الذي ذكر أولاً ولا يندرج غيرُه تحته، كقوله تعالى: ﴿ واللَّهُ ورسولُهُ أحقُّ أنْ يُرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢] فالهاء راجعة إلى الله، ورضى رسوله يندرج في رضا الله تعالى: ﴿ انظرْ كيفَ نُصرِّفُ الآياتِ ﴾، أي: نبيِّن لهم العلامات الدالّة على التوحيد والنبوّة، ﴿ ثمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾، يعرضون عنها مكذّبين.

﴿ قلْ أرأيتَكم إنْ أتاكم عذابُ اللَّهِ بغتةً ﴾، فجأة، ﴿ أو جهرةً ﴾، معاينة ترونه عند نزوله، قال ابن عباس

فأصمكم حتى لا تسمعوا شيئاً ﴿وأبصاركم﴾ يعني وأخذ أبصاركم التي تبصرون بها فأعماكم حتى لا تبصروا شيئاً أصلاً ﴿وختم على قلوبكم﴾ يعني لا تفقهوا شيئاً أصلاً ولا تعرفوا شيئاً مما تعرفون من أمور الدنيا. وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا. ومقصود هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره أن القادر على إيجاد هذه الأعضاء وأخذها هو الله تعالى المستحق للعبادة لا الأصنام التي تعبدونها وهو قوله تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ يعني يأتيكم بما أخذ الله منكم لأن الضمير في به يعود على معنى الفعل ويجوز أن يعود على السمع الذي ذكر أولاً ويندرج تحته غيره ﴿انظر﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويدخل معه غيره أن انظر يا محمد ﴿كيف نصرف الآيات﴾ يعني كيف نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة ﴿ثم هم يصدفون﴾ يعني يعرضون عنها مكذبين لها ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة﴾ يعني فجأة ﴿أو جهرة﴾ يعني معاينة ترونه عند نزوله، وقال ابن عباس ليلاً أو نهاراً ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ يعني المشركين لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك.

قوله عز وجل: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين﴾ يعني لمن آمن بالثواب ﴿ومنذرين﴾ يعني لمن أقام على كفره بالعقاب والمعنى ليس في إرسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات إنما أرسلوا بالبشارة والنذارة ﴿فمن آمن وأصلح﴾ يعني آمن بهم وأصلح العمل لله ﴿فلا خوف عليهم﴾ يعني حين يخاف أهل النار ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي إذا حزن غيرهم ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب﴾ يعني يصيبهم العذاب ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يعني بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿قل لا أقول لكم﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أقول لكم ﴿عندي خزائن الله﴾ نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم إنما بعثت بشيراً ونذيراً ولا أقول لكم عندي خزائن الله جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي والمعنى ليس عندي خزائن رزق الله فأعطيكم منها ما تريدون لأنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ إن كنت رسولاً من الله فاطلب منه أن يوسع علينا عيشنا ويغني فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيدي ﴿ولا أعلم الغيب﴾ يعني فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل، وذلك أنهم قالوا له: أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار، فأجابهم بقوله: ولا أعلم الغيب فأخبركم بما تريدون ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ وذلك أنهم قالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء؟ فأجابهم بقوله: ولا أقول لكم إني ملك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدون فلست أقول شيئاً من ذلك ولا أدّعيه فتنكرون قولي وتجحدون أمري. وإنما نفى عن نفسه الشريفة هذه الأشياء تواضعاً لله تعالى واعترافاً له بالعبودية وأن لا يقترحوا عليه الآيات العظام ﴿إن أتبع

والحسن: ليلاً ونهاراً، ﴿ هلْ يُهْلَكُ إلاّ القومُ الظّالمُون ﴾، المشركون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ومَا نُرسلُ المرسَلينَ إلاّ مُبشّرين ومُنذِرينَ فمَنْ آمنَ وأصلحَ ﴾، العمل، ﴿ فلا خَوفٌ عليهم ﴾، حين يخاف أهل النار، ﴿ ولا هم يحزنُون ﴾، إذا حزنوا.

﴿ والذينَ كذّبُوا بآياتِنَا يَمسُّهُمُ ﴾، يصيبهم، ﴿ العذابُ بما كانوا يَفْسُقُون ﴾، يكفرون.

﴿ قلْ لا أقولُ لكمْ عندي خزائنُ الله ﴾، نزل حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم: ﴿ لا أقولُ لكمْ عندي خزائنُ الله ﴾ أي: خزائن رزقه فأعطيكم ما تريدون، ﴿ ولا أعلم الغيبَ ﴾، فأُخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون، ﴿ ولا أقولُ لكمْ إني مَلَكٌ ﴾، قال ذلك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي ويشاهد ما لا يشاهده

إلا ما يوحى إلي﴾ يعني ما أخبركم إلا بوحي من الله أنزله عليّ ومعنى الآية أن النبي ﷺ أعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي وأنه لا يعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون وأنه ليس بملك حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر إنما يتبع ما يوحى إليه من ربه عز وجل فما أخبر عنه من غيب بوحي الله إليه وظاهر الآية يدل على أن الرسول ﷺ ما كان يجتهد في شيء من الأحكام بل جميع أوامره ونواهيه إنما كانت بوحي من الله إليه ﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير**﴾؟ يعني: المؤمن والكافر والضال والمهتدي والعالم والجاهل ﴿**أفلا تتفكرون**﴾ يعني أنهما لا يستويان.

قوله عز وجل: ﴿**وأنذر به**﴾ يعني وخوف بالقرآن والإنذار إعلام مع تخويف ﴿**الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم**﴾.

قال ابن عباس: يريد المؤمنين لأنهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الأهوال. وقيل: معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كل معترف بالبعث من مسلم وكتابي وإنما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وإن كان إنذاره ﷺ لجميع الخلائق لأن الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر. وقيل: المراد بهم الكفار لأنهم لا يعتقدون صحة ولذلك قال: يخافون أن يحشروا إلى ربهم، وقيل: المراد بالإنذار جميع الخلائق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له لأنه ليس أحد إلا وهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه أو كان يشكّ فيه ولأن دعوة النبي ﷺ وإنذاره لجميع الخلق ﴿**ليس لهم من دونه**﴾ يعني من دون الله ﴿**ولي**﴾ أي قريب ينفعهم ﴿**ولا شفيع**﴾ يعني يشفع لهم ثم إن فسرنا الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم أن المراد بهم الكفار فلا إشكال فيه لقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ وإن فسرنا الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم أن المراد بهم المؤمنون ففيه إشكال، لأنه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد ﷺ للمذنبين من أمته وكذلك تشفع الملائكة والأنبياء والمؤمنون بعضهم لبعض والجواب عن هذا الإشكال أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله لقوله عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وإذا كانت الشفاعة بإذن الله صح قوله: ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ يعني حتى يأذن الله لهم في الشفاعة فإذا أذن فيها كان للمؤمنين ولي وشفيع ﴿**لعلهم يتقون**﴾ يعني ما نهيتم عنه.

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾ قال سلمان وخباب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وهما من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي ﷺ

الآدمي، يريد ما لا يشاهده الآدمي، يريد لا أقول لكم شيئاً من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري، ﴿ **إنْ أتبعُ إلاّ ما يُوحَى إليّ** ﴾، أي: ما آتيكم به فمن وَحْيِ الله تعالى، وذلك غير مستحيل في العقل مع قيام الدليل والحجج البالغة، ﴿ **قلْ هلْ يستوي الأعمى والبصير** ﴾؟ قال قتادة: الكافر والمؤمن، وقال مجاهد: الضال والمهتدي، وقيل: الجاهل والعالم، ﴿ **أفلا تتفكّرُون** ﴾، أي: أنهما لا يستويان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وأنْذِرْ به** ﴾، خوّف به أي: بالقرآن، ﴿ **الذينَ يخافُون أن يُحشروا** ﴾، يجمعوا ويبعثوا، ﴿ **إلى ربّهم** ﴾، وقيل: يخافون أي يعلمون، لأن خوفهم إنّما كان من علمهم، ﴿ **ليسَ لهمْ من دُونِهِ** ﴾، من دون الله، ﴿ **وليّ** ﴾ قريب ينفعهم، ﴿ **ولا شفيعٌ** ﴾، يشفع لهم، ﴿ **لعلّهم يتّقون** ﴾، فينتهون عمّا نُهوا عنه، وإنّما نفى الشفاعة لغيره مع أن الأنبياء الأولياء يشفعون، لأنهم لا يشفعون إلاّ بإذنه.

﴿ **ولا تَطْرُدِ الذينَ يدعونَ ربّهم بالغَدْوَةِ والعَشِي** ﴾، قرأ ابن عامر (بالغداة) بضم الغين وسكون الدال وواو

قاعداً مع صهيب وبلال وعمار وخباب في نفر من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله، حقّروهم فأتوه فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبي ﷺ «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت. قال: نعم. قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً. قال: فأتى بالصحيفة ودعا علياً ليكتب. قال: ونحن قعود في ناحية إذا نزل جبريل عليه السلام بقوله: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ إلى قوله ﴿أليس الله بأعلم الشاكرين﴾ فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول سلام عليكم كتب ربكم عى نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال لنا «الحمد الله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات».

وروي عن سعد بن أبي وقاص قال كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هزيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أخرجه مسلم.

وقال الكلبي: قالوا له، يعني أشراف قريش، اجعل لنا يوماً ولهم يوماً. قال: لا أفعل. قالوا: فاجعل المجلس واحداً وأقبل علينا ولِّ ظهرك إليهم. فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد: قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعني ابن مسعود لبايعناك فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن مسعود: مر ملأ من قريش بالنبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء بدلاً من قومك هؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعاً لهؤلاء اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية. وقال عكرمة: جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب عم النبي ﷺ فقالوا: يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا، كان أعظم في

بعدها هاهنا وفي سورة الكهف [٢٨]، وقرأ الآخرون بفتح الغين والدال وألف بعدها، قال سلمان وخباب بن الأرت: فينا نزلتْ هذه الآية، جاء الأقرع بن حابس التيمي وعيينة بن حصن الفزاري وذووهم من المؤلّفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمّار وخبّاب في ناس من ضعفاء المؤمنين، فلمّا رأوهم حوله حقّروهم، فأتوه فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنّا هؤلاء وأرواح جبابهم، وكان عليهم جباب صوف لها رائحة لم يكن عليهم غيرها، لجالسناك وأخذنا عنك، فقال النبي ﷺ لهم: «ما أنا بطاردِ المؤمنين»، قالوا فإنّا نحبّ أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنّا، فإذا نحن فرغنا فاقعدْ معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: أكتب لنا عليك بذلك كتاباً، قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، قالوا: ونحن قعود في ناحية إذْ نزل جبريل بقوله: ﴿ ولا تَطْرُدِ الذينَ يَدْعُونَ ربَّهم بالغَداة والعَشِي يُريدُونَ وَجْهَه ﴾، إلى قوله: ﴿ بالشاكرين ﴾ فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتينا، وهو يقول: ﴿ سلامٌ عليكم كتبَ ربُّكم على نفسه الرحمة ﴾، فكنّا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ واصبرْ نفسَكَ معَ الذينَ يدعُونَ ربَّهم بالغَداةِ والعَشِي يُريدُونَ وَجْهَه ﴾

صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له فأتى أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه به فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلى ماذا يصيرون فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿**وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾ فجاء عمر فاعتذر من مقالته. قلت بين هذه الروايات والرواية الأولى التي عن سلمان وخباب بن الأرت فرق كثير وبعد عظيم، وهو أن إسلام سلمان كان بالمدينة، وكان إسلام المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وسورة الأنعام مكية. والصحيح ما روي عن ابن مسعود والكلبي وعكرمة في ذلك، ويعضده حديث مسعد بن أبي وقاص المخرج في صحيح مسلم من أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، يعني ضعفاء المسلمين، والله أعلم.

وأما معنى الآية فقوله: ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ. يعني: ولا تطرد هؤلاء الضعفاء عنك ولا تبعدهم عن مجلسك لأجل ضعفهم وفقرهم. ثم وصفهم فقال تعالى الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يعني صلاة الصبح وصلاة العصر. ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس. وإنما ذكر هذين الوقتين تنبيهاً على شرفهما ولأنهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات، ولأن الصلوات تشتمل على القراءة والدعاء والذكر فعبر بالدعاء عن الصلاة لهذا المعنى. قال مجاهد: صليت الصبح مع سعيد بن المسيب فلما سلم الإمام ابتدر الناس القاص فقال سعيد بن المسيب: ما أسرع الناس إلى هذا المجلس؟ فقال مجاهد: يتأولون قوله تعالى يدعون ربهم بالغداة والعشي قال أوفي هذا إنما هو في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن وقال ابن عباس إن ناساً من الفقراء كانوا مع النبي ﷺ فقال ناس من أشراف الناس نؤمن لك وإذا صلينا فأخِّر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا، وقيل: المراد منه حقيقة الدعاء والذكر والمعنى: أنهم كانوا يذكرون ربهم ويدعونه طرفي النهار يريدون وجهه يعني يطلبون بعبادتهم وطاعتهم وجه الله مخلصين في عبادتهم له. وقال ابن عباس: يطلبون ثواب الله تعالى: ﴿**ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء**﴾ يعني لا تكلف أمرهم ولا يكلفون أمرك. وقيل: ما عليك حسابهم رزقهم فتملهم وتطردهم عنك ولا رزقك عليهم إنما الرازق لجميع الخلق هو الله تعالى فلا تطردهم عنك: ﴿**فتطردهم فتكون من الظالمين**﴾ يعني بطردهم عنك وعن مجلسك. فقوله: فتطردهم، جواب النفي وهو قوله ما عليك من حسابهم من شيء وقوله: فتكون من الظالمين، جواب النهي وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا إن النبي ﷺ لما همَّ بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الأشراف عاتبه الله على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك يقدح في العصمة وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين والجواب عن هذا الاحتجاج

[الكهف: ٢٨]، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد وندنوا منه حتى كانت ركبنا تمسّ ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم، وقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبّر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات» وقال الكلبي: قالوا له اجعل لنا يوماً ولهم يوماً، فقال: لا أفعل، فقالوا: فاجعل المجلس واحداً فاقبل علينا ووَلِّ ظهرك عليهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **ولا تطردِ الذينَ** ﴾، قال مجاهد: قالت قريش لولا بلال وابن أُم عبد لبايعنا محمداً، فأنزل الله هذه الآية ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي** ﴾، يعني: صلاة الصبح وصلاة العصر. ويُروى عنه: أن المراد منه الصلوات الخمس، وذلك أن أُناساً من الفقراء كانوا مع النبي عليه السلام، فقال ناس من الأشراف: إذا صلّينا فأَخِّر هؤلاء فليصلّوا خلفنا، فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد: صلّيت الصبح مع سعيد بن المسيب، فلما سلّم الإمام ابتدر الناس القاص، فقال سعيد: ما أسرع الناس إلى هذا المجلس! قال مجاهد: فقلت يتأوّلون قوله: ﴿ **يدعون ربّهم بالغداة والعشي** ﴾، قال: أفي هذا هو إنما ذلك في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن، وقال إبراهيم النخعي: يعني يذكرون ربّهم، وقيل المراد منه:

أن النبي ﷺ ما طردهم ولا همَّ بطردهم، لأجل استخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما كان هذا الهم لمصلحة وهي التلطف بهؤلاء الأشراف في إدخالهم في الإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه فأعلمه الله تعالى أن إدناء هؤلاء الفقراء أولى من الهمّ بطردهم فقربهم منه وأدناهم. وأما قوله فتطردهم فتكون من الظالمين فإن الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه فيكون المعنى أن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشيء في غير موضعه فهو من باب ترك الأفضل والأولى لا من باب ترك الواجبات والله أعلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض﴾ يعني وكذلك ابتلينا الغني بالفقير، والفقير بالغني، والشريف بالوضيع، والوضيع بالشريف فكل أحد مبتلى بضده فكان ابتلاء الأغنياء فالشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول في الإسلام لذلك فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم. وأما فتنة الفقراء بالأغنياء، فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم فكان ذلك فتنة لهم ﴿ليقولوا﴾ يعني الأغنياء والشرفاء والرؤساء ﴿أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا﴾ يعني منَّ على الفقراء والضعفاء بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى فأجابهم بقوله: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ يعني أنه تعالى أعلم بخلقه وبأحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين: قوله تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله نبيه عن طردهم فكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام.

وقال عطاء: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم بن أبي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة

حقيقة الدعاء، ﴿ يريدُون وَجْهَهُ ﴾، أي: يريدون الله بطاعتهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يطلبون ثوابَ الله فقال: ﴿ ما عليكَ مِنْ حسابِهِمْ مِن شيء وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عليهِمْ مِن شيء ﴾، أي: لا تكلّف أمرهم ولا يتكلّفون أمرك، وقيل: ليس رزقهم عليك فتملّهم، ﴿ فتطردَهم ﴾، رزقك عليهم، قوله: ﴿ فتطردَهم ﴾، جوابٌ لقوله: ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ وقوله: ﴿ فتكونَ من الظالمين ﴾، جوابٌ لقوله: ﴿ ولا تطرد ﴾ أحدهما جواب النفي والآخر جواب النهي.

﴿وكذلك فتنّا﴾، أي: ابتلينا، ﴿بَعْضَهُمْ ببعض﴾، أراد ابتلى الغني بالفقير والشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له فذلك قوله: ﴿ لِيَقُولُوا أهؤلاءِ مَنَّ الله عليهم مِّن بينِنَا ﴾، فقال الله تعالى: ﴿ أليسَ الله بأعلمَ بالشاكرين ﴾، فهو جواب لقوله: ﴿ أهؤلاء مَنّ اللّهُ عليهِمْ مِّن بينِنَا ﴾، فهو استفهام بمعنى التقرير، أي: الله أعلم بمَن شكر الإسلام إذ هداه الله عزّ وجلّ. أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو العباس عبد الله بن محمد هارون الطيسفوني أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام ثنا أبو الحسن بن أحمد بن سيار القرشي أنا مسدد أنا جعفر بن سليمان عن المعلّى بن زياد عن العلاء بن بشير المزني عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: جلستُ في نفرٍ من ضعفاء المهاجرين وإنّ بعضهم ليستتر ببعض من العُري، وقارىءٌ يقرأ علينا إذْ جاء رسولُ الله ﷺ، فقام علينا، فلمّا قال رسول الله ﷺ سكت القارىء، فسلّم رسول الله ﷺ وقال: «ما كنتم

وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد وقيل إن الآية على إطلاقها في كل مؤمن. وقيل: لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التي تقدمت في رواية عكرمة وقال: ما أردت إلا الخير، نزلت وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴿كتب ربكم﴾ يعني فرض ربكم وقضى ربكم ﴿على نفسه الرحمة﴾ وهذا يفيد الوجوب وسبب هذا أنه تعالى يتصرف في عباده كيف يشاء وأراد فأوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين: ﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾ قال مجاهد: كل من عمل ذنباً أو خطيئة فهو بها جاهل واختلفوا في سبب هذا الجهل فقيل لأنه جاهل بمقدار ما استحقه من العقاب وما فاته من الثواب. وقيل إنه وإن علم أن عاقبة ذلك السوء والفعل القبيح مذمومة إلا أنه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل ومن آثر القليل على الكثير فهو جاهل وقيل إنه لما فعل فعل الجهال نسب إلى الجهل وإن لم يكن جاهلاً: ﴿ثم تاب من بعده﴾ يعني من بعد ارتكابه ذلك السوء ورجع عنه ﴿وأصلح﴾ يعني أصلح العمل في المستقبل، وقيل أخلص توبته وندم على فعله ﴿فأنه غفور﴾ يعني لمن تاب من ذنوبه ﴿رحيم﴾ بعباده قال خالد بن دينار كنا إذا دخلنا على أبي العالية قال: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ الآية. عن أبي سعيد الخدري قال: جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارىء يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا فلما قام علينا رسول الله ﷺ سكت القارىء فسلم ثم قال ما كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله كان قارىء لنا يقرأ علينا وكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم» وجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتلحقوا وبرزت وجوههم، قال فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحداً غيري. ثم قال رسول الله ﷺ: أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة عام أخرجه أبو داود.

تصنعون»؟ قلنا: يا رسول الله كان قارئ يقرأ علينا فكنّا نستمع إلى كتاب الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أُمتي مَن أمرني أن أصبّر نفسي معهم» قال: ثم جلس وسطنا ليدلّ نفسه فينا ثم قال بيده: هكذا فتخلّفوا وبرزت وجوههم له، قال فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحداً غيري، فقال رسول الله ﷺ: «أبشرُوا بالنور التّامّ يومَ القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة».

﴿ وإذا جاءَكَ الذينَ يُؤمنون بآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عليكم ﴾، قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله عزّ وجلّ نبيّه عن طردهم، وكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال عطاء: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وبلال وسالم وأبي عُبيدة ومُصعب بن عُمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمّار بن ياسر والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنهم أجمعين. ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نفسِهِ الرحمة ﴾، أي: قضى على نفسه الرحمة، ﴿ أنه مَنْ عَمِلَ منكمْ سوءاً بجهالة ﴾، قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام فمن جهالته ركب الذنب، وقيل: جاهل بما يورثه ذلك الذنب، وقيل: جهالته من حيث إنّه آثر المعصية على الطاعة العاجل القليل على الآجل الكثير، ﴿ ثم تابَ مِن بعدِهِ ﴾، رجع عن ذنبه، ﴿ وأَصْلَحَ ﴾، عمله، وقيل: أخلص توبته، ﴿ فأنّه غفورٌ رحيم ﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب « أنه مَنْ عمل فأنّه غفور رحيم » بفتح الألف فيهما بدلاً من الرحمة، أي: كتب على نفسه أنه مَن عمل منكم، ثم جعل الثانية بدلاً عن الأولى، كقوله تعالى: ﴿ أيعدكم أنّكم إذا مُتّم وكنتُم تراباً وعظاماً أنّكم مُخْرَجُون ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، وفتح أهل المدينة الأولى منهما وكسر الثانية على الاستئناف وكسرهما الآخرون على الاستئناف.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾

وقوله عز وجل: ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ يعني وكما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وإبطال ما هم عليه من الشرك كذلك نميز ونبين لك أدلة حججنا وبراهيننا على تقرير كل حق ينكره أهل الباطل ﴿ولتستبين﴾ قرأ بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ يعني وليظهر لك الحق يا محمد ويتبين لك ﴿سبيل المجرمين﴾ يعني طريق هؤلاء المجرمين وقرأ بالياء على الغيبة ومعناه ليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة إذا صاروا إلى النار.

قوله تعالى: ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ يعني نهيت أن أعبد الأصنام التي تعبدونها أنتم من دون الله وقيل تدعونها عند شدائدكم من دون الله لأن الجمادات أخس من أن تعبد أو تدعى وإنما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى وهو قوله تعالى ﴿قل لا أتبع أهواءكم﴾ يعني في عبادة الأصنام وطرد الفقراء ﴿قد ضللت﴾ يعني: ﴿إذ﴾ عبدتها ﴿وما أنا من المهتدين﴾ يعني لو عبدتها ﴿قل﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿إني على بينة من ربي﴾ قال ابن عباس: يعني على يقين من ربي، وقيل: البيّنة الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل والمعنى: إني على بيان وبصيرة في عبادة ربي ﴿وكذبتم به﴾ يعني وكذبتم بالبيان الذي جئت به من عند ربي وهو القرآن والمعجزات الباهرات والبراهين الواضحات التي تدل على صحة التوحيد وفساد الشرك ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ يعني العذاب، وذلك أن النبي ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم وكانوا يستعجلون به استهزاءً وكانوا يقولون: يا محمد ائتنا بما تعدنا يعني من نزول العذاب، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: ما عندي ما تستعجلون به لأن إنزال العذاب لا يقدر عليه إلا الله تعالى ولا يقدر أحد على تقديمه ولا تأخيره.

وقيل: كانوا يستعجلون بالآيات التي طلبوها واقترحوها فأعلم الله أن ذلك عنده ليس عند أحد من خلقه. وقيل: كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴿إن الحكم إلا لله﴾ يعني

﴿ وكذلك نُفصّل الآيات﴾، أي: وهكذا، وقيل: معناه وكما فصّلنا لك في هذه السورة دلائلَنا وإعلامَنا على المشركين كذلك نفصّل الآيات، أي: نميّز ونبيّن لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل، ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ ﴾، أي: طريق المجرمين، وقرأ أهل المدينة «ولتستبين» بالتاء، «سبيل المجرمين» نصب على خطاب النبي ﷺ، أي: ولنعرف يا محمد سبيل المجرمين، يقال: استبنتُ الشيءَ وتبيّنته إذا عرفته، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «وليستبين» بالياء «سبيلُ» بالرفع، وقرأ الآخرون «ولتستبين» بالتاء «سبيل» رفع، أي: ليظهر وليتّضح السبيل، يُذكّر ويؤنّث، فدليل التذكير قوله تعالى: ﴿ وإنْ يروا سبيلَ الرُّشد لا يتخذوه سبيلاً ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ودليل التأنيث قوله تعالى: ﴿ لِمَ تصدُّون عن سبيلِ اللَّهِ مَنْ آمن بهِ وتبغُونَها عوجاً ﴾ [الأعراف: ٨٦].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قُلْ إني نُهيتُ أن أعبد الذين تدعُونَ من دُونِ اللَّهِ قلْ لا أتّبعُ أهواءَكم ﴾، في عبادة الأوثان وطرد الفقراء، ﴿ قدْ ضَلَلْتُ إذاً وما أنا مِنَ المُهتدين ﴾، يعني: إن فعلتُ ذلك فقد تركتُ سبيل الحق وسلكتُ غير طريق الهدى.

الحكم الذي يفصل به بين الحق والباطل والثواب للطائع والعقاب للعاصي أي ما الحكم المطلق إلا الله ليس معه حكم فهو يفصل بين المختلفين ويقضي بإنزال العذاب إذا شاء ﴿يقص الحق﴾ قرىء بالصاد المهملة. ومعناه: يقول الحق لأن كل ما أخبر به فهو وحق وقرىء يقض بالضاد المعجمة من القضاء يعني أنه تعالى يقضي القضاء الحق ﴿وهو خير الفاصلين﴾ يعني وهو خير من بين وفصل وميز بين المحق والمبطل لأنه لا يقع في حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به﴾ يعني من إنزال العذاب. والاستعجال، المطالبة بالشيء قبل وقته، فلذلك كانت العجلة مذمومة. والإسراع: تقديم الشيء في وقته، فلذلك كانت السرعة محمودة. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو أن عندي ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة ولكن الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ يعني: لا نفصل ما بيني وبينكم ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ يعني أنه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذي يستحثونه فيه وقيل علم أنه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب فلذلك أخره عنهم قال والله أعلم بالظالمين وبأحوالهم. قوله عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ المفتاح الذي يفتح به المغلاق جمعه مفاتيح ويقال فيه تفتح بكسر الميم وجمعه مفاتح والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهي مفتح وجمعه مفاتح فقوله وعنده مفاتح الغيب يحتمل أن يكون المراد منه المفاتيح التي يفتح بها ويحتمل أن يكون المراد منه الخزائن. فعلى التفسير الأول فقد جعل للغيب مفاتيح على طرق الاستعارة، لأن المفاتيح هي التي يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالإغلاق، فمن علم كيف

﴿ قلْ إني على بيِّنةٍ ﴾، أي: على بيان وبصيرة وبرهان، ﴿ من ربِّي وكذَّبتمْ بهِ ﴾، أي: ما جئت به، ﴿ ما عندي ما تستعجلُونَ به ﴾، قيل: أراد به استعجالهم بالعذاب كانوا يقولون: ﴿ إن كانَ هذا هو الحقَّ مِنْ عندِكَ فأمطرْ علينَا حجارةً ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، وقيل: أراد به القيامة، قال الله: ﴿ يستعجل الذينَ بها لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿ إنِ الحُكْمُ إلاّ لله يَقُصُّ الحقَّ ﴾، وقرأ الآخرون « يقضي » بسكون القاف والضاد مكسورة، من قضيت، أي: يحكم بالحق بدليل أنه قال: ﴿ وهو خيرُ الفاصلين ﴾، والفصل يكون في القضاء وإنما حذفوا الياء لاستثقال الألف واللام، كقوله تعالى: ﴿ صال الجحيم ﴾ [الصّافّات: ١٦٣] ونحوها، ولم يقلْ بالحق لأن الحق صفة المصدر، كأنه قال: يقضي القضاء الحق.

﴿ قلْ لو أنّ عندي ﴾، وبيدي، ﴿ ما تستعجلُونَ به ﴾، من العذاب، ﴿ لقُضيَ الأمرُ بيني وبينكم ﴾، أي: فرغ من العذاب وأهلكتم، أي: لعجّلتُه حتى أتخلّص منكم، ﴿ واللَّهُ أعلم بالظّالمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وعِنْدَهُ مفاتح الغيب لا يعلمُها إلاّ هو ﴾، مفاتح الغيب خزائنه، جمع مفتح، واختلفوا في

يفتح بها ويتوصل إلى ما فيها، فهو عالم. وكذلك ها هنا لأن الله تعالى لما كان عالماً بجميع المعلومات ما غاب منها وما لم يغب عن هذا المعنى بهذه العبارة.

وعلى التفسير الثاني، يكون المعنى وعنده خزائن الغيب والمراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات ثم اختلفت أقوال المفسرين في قوله وعنده مفاتح الغيب ﴿**لا يعلمها إلا هو**﴾ فقيل: مفاتيح الغيب خمس وهي ما روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى، لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يدري أحد متى يجيء المطر.

وفي رواية أخرى: لا يعلم أحد ما تغيض الأرحام، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى الساعة إلا الله، أخرجه البخاري. وقال الضحاك ومقاتل: مفاتح الغيب: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب، وقال عطاء: هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب. وقيل: هو انقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم. وقيل: هو علم ما لم يكن بعد أن يكون إذ يكون كيف يكون وما لا يكون أن لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود: أوتي نبيكم ﷺ كل شيء إلا مفاتح الغيب. وقال ابن عباس: إنها خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق ﴿**ويعلم ما في البر والبحر**﴾ قال مجاهد: البر المفاوز والقفار، والبحر القُرى والأمصار لا يحدث فيها شيء إلا وهو يعلمه. وقال جمهور المفسرين: هو البر والبحر المعروفان، لأن جميع الأرض إما بر وإما بحر وفي كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه ﴿**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها**﴾ يريد ساقطة وثابتة والمعنى أنه يعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقي على الشجر من ذلك ويعلم كم انقلبت ظهراً لبطن إلى أن تسقط على الأرض ﴿**ولا حبة في ظلمات الأرض**﴾ قيل: هو الحب المعروف يكون في بطن الأرض قبل أن ينبت. وقيل: هي الحبة التي في الصخرة التي في أسفل الأرضين ﴿**ولا رطب ولا يابس**﴾ قال ابن عباس: الرطب الماء واليابس البادية. وقال عطاء: يريد ما ينبت وما لا ينبت. وقيل: المراد بالرطب الحي واليابس الميت. وقيل: هو عبارة عن كل شيء لأن جميع الأشياء إما رطبة وإما يابسة.

فإن قلت إن جميع هذه الأشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح الغيب فَلِمَ أفرد هذه الأشياء بالذكر وما فائدة ذلك؟.

قلت: لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على سبيل الإجمال ذكر من بعد ذلك الإجمال ما يدل على

مفاتح الغيب، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله: «مفاتحُ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلاّ اللّهُ، لا يعلم ما تغيض الأرحام أحدٌ إلاّ الله تعالى، ولا يعلم ما في الغد إلاّ الله عزّ وجلّ، ولا يعلم متَى يأتي المطرُ أحدٌ إلاّ الله، ولا تَدْرِي نفسٌ بأيّ أرض تموت، ولا يعلمُ متَى تقومُ الساعة أحدٌ إلاّ الله». وقال الضحاك ومقاتل: مفاتح الغيب خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب، وقال عطاء: ما غاب عنكم من الثواب والعقاب، وقيل: انقضاء الآجال، وقيل: أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم، وقيل: هي ما لم يكن بعد أنه يكون أم لا يكون، وما يكون كيف يكون، وما لا يكون أنْ لو كان كيف يكون؟ وقال ابن مسعود: أُوتي نبيُّكم عِلْمَ كلّ شيء إلاّ علم مفاتيح الغيب. ﴿ **ويعلمُ ما في البَرِّ والبحر** ﴾، قال

التفصيل، فذكر هذه الأشياء المحسوسة ليدل بها على غيرها، فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان، وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة. ثم ذكر بعد ذلك مثالاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير.

قوله تعالى: ﴿إلا في كتاب مبين﴾ فيه قولان: أحدهما أن الكتاب المبين هو علم الله الذي لا يغير ولا يبدل.

والثاني: أن المراد بالكتاب المبين، هو اللوح المحفوظ، لأن الله كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والأرض. وفائدة إحصاء الأشياء كلها في هذا الكتاب، لتقف الملائكة على إنفاذ علمه ونبه بذلك على تعظيم الحساب وأعلم عباده أنه لا يفوته شيء مما يصنعونه لأن من أثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب في كتاب فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع.

قوله تعالى: ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل**﴾ يعني يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل ﴿**ويعلم ما جرحتم**﴾ ما كسبتم ﴿**بالنهار ثم يبعثكم فيه**﴾ أي يوقظكم فيه أي في النهار ﴿**ليقضى أجل مسمى**﴾ يعني أجل الحياة إلى الممات يريد استيفاء العمر على التمام ﴿**ثم إليه مرجعكم**﴾ في الآخرة ﴿**ثم ينبئكم**﴾ أي يخبركم ﴿**بما كنتم تعملون**﴾ قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾

﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ يعني وهو العالي عليهم بقدرته لأن كل من قهر شيئاً وغلبه فهو مستعلٍ عليه بالقهر والقدرة. فهو كما يقال: أمرُ فلانٍ فوقَ أمرِ فلانٍ، يعني: أنه أقدر منه. وأغلب هذا مذهب أهل التأويل في معنى لفظة

مجاهد: البَرُّ: المفاوز والقفار، والبحر: القرى والأمصار، لا يحدث فيهما شيء إلّا يعلمه، وقيل: هو البرّ والبحر المعروف، ﴿ **وما تسقطُ مِن ورقةٍ إلّا يعلمها** ﴾، يريد ساقطة وثابتة، يعني: يعلم عدد ما يسقط من ورق الشجر وما يبقى عليه، وقيل يعلم كم انقلبت ظهر البطن إلى أن سقطت على الأرض، ﴿ **ولا حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرضِ** ﴾، قيل: هو الحب المعروف في بطون الأرض، وقيل: هو تحت الصخرة التي في أسفل الأرضين، ﴿ **ولا رَطْبٍ ولا يابس** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الرطب الماء، واليابس البادية، وقال عطاء: يريد ما ينبت وما لا ينبت، وقيل: ولا حَيٍّ ولا موات، وقيل: هو عبارة عن كل شيء، ﴿ **إلّا في كتابٍ مُبين** ﴾، يعني أن الكل مكتوب في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿ **وهو الذي يتوفّاكم باللّيلِ** ﴾، أي: يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل، ﴿ **ويعلمُ ما جرحتُم** ﴾، كسبتم، ﴿ **بالنّهارِ ثمّ يَبْعَثُكم فيه** ﴾، أي: يوقظكم في النهار، ﴿ **ليُقْضى أجلٌ مسمّى** ﴾، يعني: أجل الحياة إلى الممات، يريد استيفاء العمر على التمام، ﴿ **ثم إليه مَرْجِعُكم** ﴾، في الآخرة، ﴿ **ثم ينبِّئكم** ﴾، يخبركم، ﴿ **بما كنتُم تعملُون** ﴾.

﴿ **وهوَ القاهِرُ فوقَ عبادِهِ ويُرسِلُ عليكم حفظةً** ﴾، يعني: الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم، وهو

فوق في قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وأما مذهب السلف. فيها: فإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا إطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو القاهر لخلقه وقهر كل شيء بضده فقهر الحياة بالموت والإيجاد بالإعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة.

وقوله تعالى: ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ يعني أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم من الخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الأقوال والأفعال قيل إن مع كل إنسان ملكين ملكاً عن يمينه وملكاً عن شماله فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر عليه لعله يتوب منها فإن لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال. وفائدة جعل الملائكة موكلين بالإنسان أنه إذا علم أن له حافظاً من الملائكة موكلاً به يحفظ عليه أقواله وأفعاله في صحائف تنشر له وتقرأ عليه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد كان ذلك زاجراً له عن فعل القبيح وترك المعاصي. وقيل: المراد بقوله ويرسل عليكم حفظة، هم الملائكة الذين يحفظون بني آدم ويحفظون أجسادهم. قال قتادة: حفظه يحفظون على ابن آدم رزقه وأجله وعمله ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ يعني أعوان ملك الموت الموكلين بقبض أرواح البشر.

فإن قلت قال الله تعالى في آية: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وقال في آية أخرى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع بين هذه الآيات؟ قلت وجه الجمع بين هذه الآيات أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى، فإذا حضر أجل العبد، أمر الله ملك الموت بقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه فحصل الجمع بين الآيات. وقيل: المراد من قوله توفته رسلنا ملك الموت وحده وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له. وقال مجاهد: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطشت يتناول من حيث شاء وجعلت له أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم وقال أيضاً: ما من أهل بيت شعر ولا مدر إلا وملك الموت يطيف بهم كل يوم مرتين. وقيل: إن الأرواح إذا كثرت عليه يدعوها فتستجيب له وقوله: ﴿وهم لا يفرطون﴾ يعني الرسل لا يقصرون فيما أمروا به ولا يضيعونه.

قوله عز وجل: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ يعني ثم رد العباد بالموت إلى الله في الآخرة وإنما قال مولاهم الحق لأنهم كانوا في الدنيا تحت أيدي موال بالباطل والله مولاهم وسيدهم ومالكهم بالحق ﴿ألا له الحكم﴾ يعني لا حكم إلا له ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ يعني أنه تعالى أسرع من حسب لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض.

جمع حافظ، نظيره ﴿ وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ [الانفطار: ١٠]، ﴿ حتى إذا جاء أحدَكُمُ الموتُ توفّتْهُ ﴾، قرأ حمزة «توفاه» و«استهواه» بالياء وأمالهما، ﴿ رسلُنا ﴾ يعني: أعوان ملك الموت يقبضونه فيدفعونه إلى ملك الموت فيقبض روحه، كما قال: ﴿ قلْ يتوفّاكم مَلَكُ الموت ﴾ [السجدة: ١١]، وقيل: الأعوان يتوفّونه بأمر ملك الموت، فكأن ملك الموت توفّاه لأنّهم يصدرون عن أمره، وقيل: أراد بالرسل ملك الموت وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع، وجاء في الأخبار: أن الله تعالى جعل الدنيا بين ملك الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من هنا ومن ههنا فإذا أكثرت الأرواح يدعو الأرواح فتجيب له، ﴿ وهم لا يُفرِّطُون ﴾، لا يقصرون.

﴿ ثم رُدُّوا إلى اللّهِ مولاهُمُ الحقُّ ﴾، يعني: الملائكة، وقيل: يعني العباد يُردُّون بالموت إلى الله مولاهم الحق، فإن قيل الآية في المؤمنين والكفّار جميعاً وقد قال في آية أخرى: ﴿ وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾

قوله تعالى: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ يعني يا محمد، قل لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام من دون الله من ذا الذي ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه وتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذي ينجيكم من ظلمات البحر إذا ركبتم فيه فأخطأتم الطريق وأظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل: ظلمات البر والبحر مجاز عما فيهما من الشدائد والأهوال وقيل الحل على الحقيقة أولى. فظلمات البر هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضاً الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك فالمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان فيها إلا إلى الله سبحانه وتعالى لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة الشدائد وهو المراد من قوله: ﴿تدعونه تضرعاً وخفية﴾ يعني فإذا اشتد بكم الأمر تخلصون له الدعاء تضرعاً منكم إليه واستكانة. جهراً وخفية: يعني سراً حالاً وحالاً ﴿لئن أنجانا من هذه﴾ يعني قائلين في حال الدعاء والتضرع لئن أنجيتنا من هذه الظلمات وخلصتنا من الهلاك ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ يعني لك على هذه النعمة والشكر وهو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قل الله ينجيكم منها﴾ يعني من الظلمات والشدائد التي أنتم فيها ﴿ومن كل كرب﴾ يعني وهو الذي ينجيكم من كل كرب أيضاً والكرب هو الغم الشديد الذي يأخذ بالنفس ﴿ثم أنتم تشركون﴾ يريد أنهم يقرون بأن الذي أنجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى ثم إنهم بعد ذلك الإقرار يشركون معه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

قوله عز وجل: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ أي: قل يا محمد لقومك إن الله هو

[محمد: ١١]، فكيف وجه الجمع؟ فقيل: المولى في تلك الآية بمعنى الناصر ولا ناصر للكفّار، والمولى ههنا بمعنى المالك الذي يتولى أمورهم والله عزّ وجلّ مالك الكل ومتولّي الأمور، وقيل: أراد هنا المؤمنين خاصة يردّون إلى مولاهم، والكفّار فيه تبع، ﴿ ألا لَهُ الحُكْمُ ﴾، أي: القضاء دون خلقه، ﴿ وهو أَسْرَعُ الحاسبين ﴾، أي: إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة ورويّة وعقد يد.

قوله تعالى: ﴿ قلْ مَن يُنجيكم ﴾، قرأ يعقوب بالتخفيف، وقرأ العامّة بالتشديد، ﴿ من ظُلماتِ البَرِّ والبحرِ ﴾، أي: من شدائدهما وأهوالهما، كانوا إذا سافروا في البرّ والبحر فضلّوا الطريق وخافوا الهلاك، دعُوا اللّهَ مخلصين له الدين فينجيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ تدعُونَه تضرعاً وخفْيَة ﴾، أي: علانية وسرّاً، قرأ أبو بكر عن عاصم «وخِيفة» بكسر الخاء هنا وفي الأعراف [٥٥]، وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان، ﴿لئِنْ أنجيتَنا﴾، أي: يقولون لئن أنجيتنا، وقرأ أهل الكوفة: لئن أنجانا الله، ﴿ مِنْ هذه ﴾، يعني: من هذه الظلمات، ﴿ لنكونَنّ مِنَ الشّاكرين ﴾، والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها.

﴿ قُلِ اللَّهُ يُنجيكُمْ منها ﴾، قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر «ينجّيكم» بالتشديد، مثل قوله تعالى: ﴿ قلْ مَن يُنجيكم ﴾، وقرأ الآخرون هذا بالتخفيف، ﴿ ومن كلِّ كَرْبٍ ﴾، والكرب غاية الغمّ الذي يأخذ النفس، ﴿ ثمّ أنتم تُشركون ﴾، يريد أنهم يقرّون أنّ الذي يدعونه عند الشدّة هو الذي ينجيهم ثم يشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضرّ ولا تنفع.

القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم يعني الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ يعني الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون. وقال ابن عباس ومجاهد: عذاباً من فوقكم، يعني أئمة السوء والسلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم يعني عبيد السوء. وقال الضحاك: من فوقكم يعني من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم يعني السفلة ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ الشيع جمع شيعة وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة وأشياع وأصله من التشيع. ومعنى الشيعة: الذين يتبع بعضهم بعضاً. وقيل: الشيعة هم الذي يتقوى بهم الإنسان. قال الزجاج: في قوله أويلبسكم شيعاً يعني يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط إنفاق فيجعلكم فرقاً مختلفين يقاتل بعضكم بعضاً وهو معنى قوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال ابن عباس: قوله أويلبسكم شيعاً يعني الأهواء المختلفة ويذيق بعضكم بأس بعض يعني أنه يقتل بعضكم بيد بعض. وقال مجاهد: يعني أهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف. وقال ابن زيد: هو الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء وسفك بعضهم دماء بعض. ثم اختلف المفسرون فيمن عني بهذه الآية فقال قوم عني بها المسلمون من أمة محمد ﷺ وفيهم نزلت هذه الآية. قال أبو العالية: في قوله ﴿قال هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ الآية. قال: هن أربع وكلهن عذاب فجاءت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان وهما لا بد واقعتان يعني الخسف والمسخ. وعن أبي بن كعب نحوه وهن أربع خلال وكلهن واقع قبل يوم القيامة مضت ثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض ثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم. وقال مجاهد: في قوله من فوقكم أو من تحت أرجلكم لأمة محمد فأعفاهم منه أو يلبسكم شيعاً ما كان بينهم من الفتن والاختلاف زاد غيره ويذيق بعضكم بأس بعض يعني ما كان فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله ﷺ (خ) عن جابر قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض قال هذا أهون أو هذا أيسر» (م).

عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي ﷺ ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قل هو القادرُ على أنْ يبعثَ عَلَيْكُمْ عذاباً من فَوقِكُم ﴾ قال الحسن وقتادة: نزلت الآية في أهل الإيمان، وقال قوم نزلت في المشركين، قوله: ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ يعني: الصيحة والحجارة والريح والطوفان، كما فعل بعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح، ﴿ أو مِن تحتِ أرْجُلِكُم ﴾، يعني: الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون، وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ السلاطين الظلمة، ومن تحت أرجلكم العبيد السوء، وقال الضحاك: من فوقكم من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم أي من أسفل منكم، ﴿ أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾، أي: يخلطكم فرقاً ويبثّ فيكم الأهواء المختلفة، ﴿ ويُذيقَ بعضَكمْ بأسَ بعضٍ ﴾، يعني: السيوف المختلفة، يقتل بعضكم بعضاً. أخبرنا عبد الواحد أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا حمّاد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿ قلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بوجهك الكريم»، قال: «أو مِنْ تحت أرجلكم»، قال: «أعوذُ بوجهك»، قال: ﴿ أو يَلْبِسَكم شيعاً ويذيقَ بعضَكم بأس بعض ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسرَ»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا أبو جعفر محمد بن علي دحيم الشيباني أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي عرفة أنا يعلى بن عبيد الطنافسي

أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها». عن خباب بن الأرت قال صلى رسول الله ﷺ صلاة فأطالها فقالوا يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال: «أجل إنها صلاة رغبة ورهبة إني سألت الله فيها ثلاثة فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا تهلك أمتي بسنة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها» أخرجه الترمذي وقوله تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أي انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحجتنا لهؤلاء المكذبين ﴿لعلهم يفقهون﴾ يعني يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿وكذب به قومك﴾ يعني بالقرآن ﴿وهو الحق﴾ يعني في كونه كتاباً منزلاً من عند الله وقيل الضمير في به يرجع إلى العذاب وهو الحق يعني أنه نازل بهم أن أقاموا على كفرهم وتكذيبهم. وقيل: الضمير يرجع إلى تصريف الآيات وهو الحق لأنهم كذبوا كونها من عند الله ﴿قلت لست عليكم بوكيل﴾. أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الحق بل إنما أنا منذر والله هو المجازي لكم على أعمالكم وقيل معناه إنما أدعوكم إلى الله وإلى الإيمان به ولم أومر بحربكم، فعلى هذا القول، تكون الآية منسوخة بآية السيف. وقيل في معنى الآية: قل لست عليكم بوكيل، يعني حفيظاً إنما أطالبكم بالظاهر من الإقرار والعلم لا بما تحويه الضمائر والأسرار فعلى هذا تكون الآية محكمة ﴿لكل نبأ مستقر﴾ أي لكل خبر من أخبار القرآن حقيقة ومنتهى ينتهي إليه إما في الدنيا وإما في الآخرة. وقيل لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير فكان ما وعدهم به من العذاب في الدنيا وقع يوم بدر ﴿وسوف تعلمون﴾ يعني صحة هذا الخبر إما في الدنيا وإما في الآخرة.

أنا عثمان بن حكيم عن عامر بن سعيد بن وقاص عن أبيه، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلّى ركعتين وصلّينا معه فناجى ربّه طويلاً ثم قال: «سألتُ ربّي ثلاثاً: سألتُه أن لا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلك أمتي بالسَّنَةِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فَمَنَعْنِيهَا». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا السيد أبو الحسن محمد الحسين بن داود العلوي أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن دلوية الدقاق ثنا محمد بن إسماعيل البخاري ثنا إسماعيل بن أبي أُويس حدّثني أخي عن سليمان بن بلال عن عبيد الله بن عمر جاءهم ثم قال: (إن النبي ﷺ دعا في مسجد فسأل الله ثلاثاً فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة، سأله أن لا يُسلّط على أمته عدوّاً من غيرهم يظهرعليهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يُهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسَ بعضهم عل بعض، فمنعه ذلك)، قوله تعالى: ﴿ انظرْ كيفَ نُصرِّفُ الآيات لعلّهم يفقهُون ﴾.

﴿ وكذَّب بهِ قومُك ﴾، أي: بالقرآن، وقيل: بالعذاب، ﴿ وهو الحقُّ قلْ لستُ عليكم بوكيل ﴾، برقيب، وقيل: بمسلَّطٍ ألزمكم الإسلام شِئْتُم أو أبيتم، إنّما أنا رسول.

﴿ لكل نبإٍ ﴾، خبر من أخبار القرون، ﴿ مُسْتَقَرٌّ ﴾، حقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبيّن صدقه من كذبه وحقه من باطله، إما في الدنيا وإمّا في الآخرة، ﴿ وسوفَ تعلمُون ﴾، وقال مقاتل: لكل خبر يخبره الله وقت وقّته ومكان يقع

قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ الخطاب في وإذا رأيت للنبي ﷺ والمعنى وإذا رأيت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوضون في آياتنا يعني القرآن الذي أنزلناه إليك والخوض في اللغة هو الشروع في الماء والعبور فيه، ويستعار للأخذ في الحديث والشروع فيه. يقال: تخاوضوا في الحديث وتفاوضوا فيه، لكن أكثر ما يستعمل الخوض في الحديث على وجه اللعب والعبث وما يذم عليه ومنه قوله ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ وقيل: الخطاب في وإذا رأيت لكل فرد من الناس. والمعنى: وإذا رأيت أيها الإنسان الذين يخوضون في آياتنا وذلك أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في الاستهزاء بالقرآن وبمن أنزله وبمن أنزل عليه، فنهاهم الله أن يقعدوا معهم في وقت الاستهزاء بقوله ﴿فأعرض عنهم﴾ يعني فاتركهم ولا تجالسهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ يعني حتى يكون خوضهم في غير القرآن والاستهزاء به ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ يعني فقعدت معهم ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ يعني إذا ذكرت فقم عنهم ولا تقعد ﴿مع القوم الظالمين﴾ يعني المشركين قوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً؟ وفي رواية، قال المسلمون: إنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم فأنزل الله هذه الآية ﴿وما على الذين يتقون﴾ يعني يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من حساب المشركين من شيء يعني ليس عليهم شيء من حسابهم ولا آثامهم ﴿ولكن ذكرى﴾ يعني ولكن ذكروهم ذكرى. وقيل: معناه ولكن عليكم أن تذكروهم ﴿لعلهم يتقون﴾ يعني لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء.

(فصل)

قال سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل: هذه الآية منسوخة بالآية التي في سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ وذهب الجمهور إلى أنها محكمة لا نسخ فيها لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ لأنها إنما دلت على أن كل إنسان إنما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره، وقيل: إنما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة فلا تكون منسوخة. قوله عز وجل:

فيه من غير خلف ولا تأخير، وقال الكلبي: لكلِّ قولٍ وفعلٍ حقيقة، إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة وسوف تعلمون ما كان في الدنيا فستعرفونه وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا رأيتَ الذين يخوضُون في آياتِنَا ﴾، يعني: في القرآن بالاستهزاء ﴿ فأعرضْ عنهم ﴾، فاتركهم ولا تجالسهم، ﴿ حتى يخوضُوا في حديثٍ غيرهِ وإمّا يُنْسِيَنّكَ ﴾، قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد السين وقرأ الآخرون بسكون النون وتخفيف السين، ﴿ الشيطانُ ﴾، نَهْيَنا، ﴿ فلا تقعدْ بعدَ الذِكرَى مَعَ القومِ الظّالمين ﴾، يعني: إذا جلست معهم ناسياً فقم من عندهم بعدما تذكرت.

﴿ وما على الذينَ يتّقُون مِن حِسَابِهِمْ منْ شيء ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ وإذا رأيتَ الذينَ يخوضُون في آياتنا فأعرضْ عنهم ﴾، قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً؟ وفي رواية قال المسلمون: فإنّا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم، فأنزل الله عزّ وجلّ، ﴿ وما على الذين يتّقون ﴾، الخوض، ﴿ من حسابهم ﴾، أي: من إثم الخائضين ﴿ من شيء ولكن ذِكْرَى ﴾، أي: ذكروهم وعِظُوهم بالقرآن، والذكر والذكرى واحد، يريد ذكرهم وهم ذكرى، فيكون في محل النصب، ﴿ لعلّهم يتّقون ﴾، الخوض إذا وعظتموهم فرخّصَ في مجالستهم على الوعظ لعلّهم يمنعهم من ذلك الخوض، قيل: لعلّهم يستحيون.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿**وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً**﴾ الخطاب للنبي. يعني: وذر يا محمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم الذي أمروا به ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً ولهواً وذلك حيث سخروا به واستهزؤوا به وقيل إنهم اتخذوا عبادة الأصنام لعباً ولهواً. وقيل: إن الكفار كانوا إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه. وقيل إن الله جعل لكل قوم عيداً فاتخذ كل قوم دينهم يعني عيدهم لعباً ولهواً يلعبون ويلهون فيه إلا المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيراً وفعل الخير فيه مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة ﴿**وغرتهم الحياة الدنيا**﴾ يعني أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق واتخذوا دينهم لعباً ولهواً ومعنى الآية: وذَرْ يا محمد الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً واتركهم ولا تبالِ بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضي الإعراض عنهم ثم نسخ ذلك الإعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدي. وقيل: إنه خرج مخرج التهديد فهو كقوله ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وهذا قول مجاهد فعلى هذا تكون الآية محكمة. وقيل: المراد بالإعراض عنهم، ترك معاشرتهم ومخالطتهم لا ترك الإنذار والتخويف ويدل عليه قوله: ﴿**وذكر به**﴾ يعني وذكر بالقرآن وعِظ به هؤلاء المشركين ﴿**أن تبسل نفس بما كسبت**﴾ أي لئلا تبسل نفس وأصل البسل في اللغة: التحريم وضم الشيء ومنعه. وهذا عليك بسل: أي حرام ممنوع. فمعنى تبسل نفس بما كسبت: ترتهن وتحبس في جهنم وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام.

وقال ابن عباس: تبسل تهلك. وقال قتادة: تحبس يعني في جهنم. وقال الضحاك: تحرق بالنار. وقال ابن زيد: تؤخذ يعني بما كسبت. وقيل: تفضح. والمعنى: وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكي لا تهلك نفس وترتهن في جهنم بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا وتحرم الثواب في الآخرة ﴿**ليس لها**﴾ يعني لتلك النفس التي هلكت ﴿**من دون الله ولي**﴾ أي قريب يلي أمرها ﴿**ولا شفيع**﴾ يعني يشفع لها في الآخرة ﴿**وإن تعدل كل عدل**﴾ يعني وإن تفتد بكل فداء والعدل الفداء ﴿**لا يؤخذ منها**﴾ يعني العدل وتلك الفدية ﴿**أولئك الذين**﴾ إشارة إلى الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ﴿**أبسلوا بما كسبوا**﴾ يعني أسلموا إلى الهلاك بسبب ما اكتسبوا ﴿**لهم شراب من**

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وذَرِ الذينَ اتّخذُوا دينهم لعباً ولهواً** ﴾، يعني: الكفّار الذين إذا سمعوا بآيات الله استهزؤا بها وتلاعبوا عند ذكرها، وقيل: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً فاتخذ كل قوم دينهم، أي: عيدهم لعباً ولهواً وعيد المسلمين الصلاة وتكبيراتها وفعل الخير مثل الجمعة والفطر والنحر، ﴿ **وغَرّتْهمُ الحياة الدنيا وذكِّرْ به** ﴾ أي: وعظْ بالقرآن، ﴿ **أنْ تُبْسَلَ** ﴾، أي: لأن لا تبسل، أي: لا تسلم، ﴿ **نفس** ﴾، للهلاك، ﴿ **بما كسبتْ** ﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي: قال ابن عباس: تهلك، وقال قتادة: أن تحبس، وقال الضحاك: تحرق، وقال ابن زيد: تؤخذ، ومعناه: ذكرهم لأن يؤمنوا كيلا تهلك نفس بما كسبت، وقال الأخفش: تبسل تُجازى، وقيل: تفضح، وقال الفرّاء: ترتهن، وأصل الإبسال التحريم، والبسل الحرام، ثم جعل نعتاً لكل شدّة تُتّقى وتُترك ﴿ **ليسَ لها** ﴾، لتلك النفس، ﴿ **مِن دُون الله وليٌّ** ﴾، قريب، ﴿ **ولا شفيع** ﴾، يشفع في الآخرة ﴿ **وإنْ تَعْدِلْ كلَّ عدلٍ** ﴾، أي: تَفدِ كل فداء،

حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ ذلك لهم بسبب كفرهم.

قوله تعالى: ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى دين آبائك أندعو يعني أنعبد من دون الله يعني الأصنام التي لا تنفع من عبدها ولا تضر من ترك عبادتها ﴿ونرد على أعقابنا﴾ يعني ونرد إلى الشرك ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ يعني إلى دين الإسلام والتوحيد ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ يعني كالذي ذهبت به الشياطين فألقته في هوية من الأرض وأصله من الهوى وهو النزول من أعلى إلى أسفل ﴿حيران﴾ يقال: حارَ فلان في الأمر، إذا تردد فيه فلم يهتد إلى الصواب ولا المخرج منه ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ يعني لهذا المتحير الذي استهوته الشياطين أصحاب على الطريق المستقيم ﴿ائتنا﴾ يعني يقولون له ائتنا وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو إلى عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولمن يدعو إلى عبادة الله عز وجل الذي يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل في رفقة ضل به الغول والشيطان عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه ورفقته يدعونه إليهم يقولون: هلم إلى الطريق المستقيم وجعل الغيلان يدعونه إليهم فبقي حيران لا يدري أين يذهب فإن أجاب الغيلان ضل وهلك وإن أجاب أصحابه اهتدى وسلم ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ يعني أن طريق الله الذي أوضحه لعباده ودينه الذي شرعه لهم هو الهدى والنور والاستقامة لا عبادة الأصنام ففيه زجر عن عبادتها كأنه يقول لا تفعل ذلك فإن هدى الله هو الهدى لا هدى غيره ﴿وأمرنا لنسلم﴾ أي وأمرنا أن نسلم ونخلص العبادة ﴿لرب العالمين﴾ لأنه هو الذي يستحق العبادة لا غيره.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ يعني وأمرنا بإقامة الصلاة والتقوى لأن فيهما ما يقرب إليه ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ يعني في يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم.

﴿ لا يُؤخَذْ منها ﴾، هنا، ﴿ أولئكَ الذينَ أُبسِلُوا ﴾، أُسْلِموا للهلاك، ﴿ بما كسبُوا لهمْ شرابٌ من حميم وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفُرون ﴾.

﴿ قلْ أندعُوا مِن دُونِ اللَّهِ ما لا ينفعُنا ﴾، إن عبدناه، ﴿ ولا يضرُّنا ﴾، إنْ تركناه، يعني: الأصنام ليس إليها نفع ولا ضر، ﴿ ونُرَدُّ على أعقابِنَا ﴾، إلى الشرك مرتدّين، ﴿ بعدَ إذْ هدانا اللَّهُ كالذي استهوتهُ الشياطينُ ﴾، أي: يكون مَثَلُنا كمثل الذي استهوته الشياطين، أي: أضلّته، ﴿ في الأرض حَيْرانَ ﴾، قال ابن عباس: كالذي استغوته الغيلان في المهامة فأضلّوه فهو حائر بائر، والحيران: المتردّد في الأمر لا يهتدي إلى مخرج منه، ﴿ له أصحابٌ يدعونَه إلى الهُدَى ائتِنَا ﴾، هذا مثل ضربه الله تعالى لمَن يدعو إلى الآلهة ولمَن يدعو إلى الله تعالى كمثل رجل في رفقة ضلّ به الغول عن الطريق أصحابه من أهل الرفقة هلمَّ إلى الطريق، ويَدعوه الغول فيبقى حيران لا يدري أين يذهب، فإن أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى، ﴿ قلْ إنّ هُدَى اللَّهِ هوَ الهُدَى ﴾، يزجر عن عبادة الأصنام، كأنه يقول: لا تفعل ذلك فإن الهدى هدى الله لا يهدي غيرُه، ﴿ وأمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾، أي: أن نُسلم، ﴿ لربِّ العالمين ﴾، والعرب تقول: أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل.

﴿ وأن أقيمُوا الصلاةَ واتَّقُوه ﴾، أي: وأُمرنا بإقامة الصلاة والتقوى، ﴿ وهو الذي إليه تُحشرُون ﴾ أي: تجمعون في الموقف للحساب.

قوله عز وجل: ﴿**وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق**﴾ يعني إظهاراً للحق فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته. وقيل: خلقها بكمال قدرته وشمول علمه وإتقان صنعه وكل ذلك حق. وقيل خلقها بكلامه الحق وهو قول كن وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق ﴿**ويوم يقول كن فيكون**﴾. وقيل إنه راجع إلى خلق السموات. والمعنى: اذكر يوم قال للسموات والأرض كن فيكون. وقيل: يرجع إلى القيامة ويدل عليه سرعة البعث والحساب كأنه قال: ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا للحساب فيقومون أحياء ﴿**قوله الحق**﴾ يعني أن قول الله تبارك وتعالى للشيء إذا أراده كن فيكون حق وصدق وهو كائن لا محالة ﴿**وله الملك يوم ينفخ في الصور**﴾ إنما أخبر عن ملكه يومئذ وإن كان الملك له سبحانه وتعالى خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة لأنه لا منازع يومئذ يدعي الملك وأنه المنفرد بالملك يومئذ وأن من كان يدعي الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا في الدنيا قد زال ملكهم واعترفوا بأن الملك لله الواحد القهار وإنه لا منازع له فيه واعلموا أن الذي كانوا يدعونه من الملك في الدنيا باطل وغرور.

واختلف العلماء في الصور المذكور في الآية فقال قوم: هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن. قال مجاهد: الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال ما الصور؟ «قال قرن ينفخ فيه» أخرجه أبو داود والترمذي.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على أصحابه» فقالوا كيف نفعل يا رسول الله وكيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا، وربما قال توكلنا على الله» أخرجه الترمذي. وقال أبو عبيدة: الصور جمع صورة والنفخ فيه إحياؤها بنفخ الروح فيها. وهذا قول الحسن ومقاتل. والقول الأول أصح لما تقدم في الحديث ولقوله تعالى في آية أخرى: ثم نفخ فيه أخرى: ولإجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل نفختين، نفخة الصعق، ونفخة البعث للحساب.

﴿ **وهو الذي خلقَ السمٰواتِ والأرضَ بالحقّ** ﴾، قيل: الباء بمعنى اللام، أي: إظهاراً للحق لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته، ﴿ **ويومَ يقولُ كنْ فيكُونُ** ﴾، قيل: هو راجع إلى خلق السمٰواتِ والأرض والخلق، بمعنى: القضاء والتقدير، أي: كل شيء قضاه وقدّره قال له: كن، فيكون، وقيل: يرجع إلى القيامة يدلّ على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق موتوا فيموتوا فيقومون، ﴿ **قولُهُ الحقُّ** ﴾، أي: الصدق الواقع لا محالة، يريد أن ما وعده حق كائن، ﴿ **ولَهُ المُلْكُ يومَ يُنفخ في الصُّور** ﴾، يعني: مُلْكُ الملوك يومئذ زائل، كقوله: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة: ٤]، وكما قال: ﴿ والأمرُ يومئذٍ لله ﴾ [الانفطار: ١٩]، والأمر لله في كل وقت، ولكن لا أمر في ذلك اليوم لأحد مع أمر الله، والصُّور: قرنٌ يُنفخ فيه، قال مجاهد: كهيئة البوق، وقيل: هو بلغة أهل اليمن، وقال أبو عبيدة: الصور هو الصُّور وهو جمع الصُّورة، وهو قول الحسن، والأول أصحّ، والدليل عليه ما أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر المحاربي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا أبو عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمي عن أسلم عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قَرْنٌ يُنفخُ فيه»، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله الصفّار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرقي أنا أبو حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن عطية بن سعد العوفي عن أبي سعيد الخدري أنّ النبي ﷺ قال: «كيف أنْعَمُ وصاحبُ الصُّورِ قد الْتَقَمَهُ، وأصْغَى سمعَهُ وحَنَى جبهتَهُ ينتظِرُ متى

وقوله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ يعني أنه تعالى ما غاب عن عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن عمله شيء ﴿وهو الحكيم﴾ يعني في جميع أفعاله وتدبير خلقه ﴿الخبير﴾ يعني بكل ما يفعلونه من خير أو شر.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ اختلف العلماء في لفظ آزر فقال محمد بن إسحاق والكلبي والضحاك: آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة فعلى هذا يكون لأبي إبراهيم اسمان: آزر وتارح مثل يعقوب وإسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه الأصلي آزر وتارح لقب له وبالعكس والله سماه آزر وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو إبراهيم من كوثي وهي قرية من سواد الكوفة. وقال سليمان التيمي: آزر سب وعيب. ومعناه في كلامهم المعوج. وقيل: الشيخ الهرم وهو بالفارسية وهذا على مذهب من يجوز أن في القرآن ألفاظاً قليلة فارسية. وقيل: هو المخطىء فكان إبراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق. وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: آزر اسم صنم كان والد إبراهيم يعبده وإنما سماه بهذا الاسم لأن من عبد شيئاً أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماً له فهو كقوله: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ وقيل: معناه وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والصحيح هو الأول أن آزر اسم لأبي إبراهيم لأن الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارح ففيه نظر لأنهم إنما نقلوه عن أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم.

وقد أخرج البخاري في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة» الحديث فسماه النبي ﷺ آزر أيضاً ولم يقل أباه تارح فثبت بهذا أن اسمه الأصلي آزر لا تارخ والله أعلم.

يُؤمر»؟ فقالوا: يا رسول الله وما تأمر؟ قال: «قولُوا حسبنا اللّهُ ونِعْمَ الوكيل». وقال أبو العلاء عن عطية متى يؤمر بالنفخ فينفخ، قوله تعالى: ﴿ عالمُ الغيبِ والشّهادة ﴾، يعني: يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه لا يغيب عن علمه شيء، ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ قال إبراهيمُ لأبيهِ آزَرَ ﴾، قـرأ يعقـوب «آزر» بالرفع، يعني: « آزَرُ »، والقراءة المعروفة بالنصب، وهو اسم أعجمي لا ينصرف فينصب في موضع الخفض، قال محمد بن إسحق والضحاك والكلبي: آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارخ أيضاً مثل إسرائيل ويعقوب وكان من كوثى قرية من سواد الكوفة، وقال مقاتل بن حيان وغيره: آزر لقب لأبي إبراهيم، واسمه تارخ، وقال سليمان التيمي: هو سبٌ وعيب، ومعناه في كلامهم المعوج، وقيل: معناه الشيخ الهرم بالفارسية، وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: آزر اسم صنم، فعلى هذا يكون في محل النصب تقديره أتتخذ آزر إلٰهاً، قوله: ﴿ أتتخذ أصناماً آلهةً ﴾، دون الله، ﴿ إني أراكَ وقومكَ في ضلالٍ مبين ﴾، أي: في خطأ بيّن.

﴿ وكذلك نُرِي إبراهيمَ ﴾، أي: كما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه كذلك نريه، ﴿ ملكوت السمٰواتِ والأرض ﴾، والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالجبروت والرحموت والرهبوت،

وقوله تعالى: ﴿**أتتخذ أصناماً آلهة**﴾ معناه: اذكر لقومك يا محمد قول إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك. والأصنام: جمع صنم وهو التمثال الذي يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان وهو الوثن أيضاً ﴿**إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾ يعني: يقول إبراهيم لأبيه آزر: إني أراك وقومك الذين يعبدون الأصنام معك ويتخذونها آلهة في ضلال يعني عن طريق الحق مبين يعني بيِّن لمن أبصر ذلك فإنه لا يشك أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع وهذه الآية احتجاج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم ومحاجته لأبيه وقومه لأنهم كانوا يعظمون إبراهيم ﷺ ويعترفون بفضله فلا جرم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في معرض الاحتجاج على المشركين قوله عز وجل: ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض**﴾ معناه وكما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله وكذلك نرى إبراهيم لأنه تعالى كان أراه بعين البصيرة أن أباه وقومه على غير الحق فخالفهم فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السموات والأرض فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى. والملكوت: الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة.

قال ابن عباس: يعني خلق السموات والأرض. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني آيات السموات والأرض وذلك أنه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب وحتى رأى مكانه في الجنة فذلك قوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ يعني أريناه مكانه في الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين ورأى ما فيها من العجائب. قال البغوي: وروي عن سليمان ورفعه بعضهم عن علي قال: لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى: ﴿يا إبراهيم أنت رجل مجاب الدعوة فلا تدعون على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال: إما أن يتوب إلي فأتوب عليه وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني وإما أن يبعث إلي فإن شئت عفوت وإن شئت عاقبت﴾ وفي رواية، وإن تولى فإن جهنم من ورائه، قال قتادة: ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار، واختلف في هذه الرؤية هل كانت بعين البصر أو بعين البصيرة على قولين: **أحدهما** إنها كانت بين البصر الظاهر فشق لإبراهيم السموات حتى رأى العرش وشق له الأرض حتى رأى ما في بطنها.

قال ابن عباس: يعني خلق السمٰوات والأرض، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني آيات السمٰوات والأرض، وذلك أنه أُقيم على صخر وكشف له عن ملكوت السمٰوات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين ونظر إلى مكانه في الجنَةَ، فذلك قوله تعالى: ﴿ وآتيناه أَجْرَهُ في الدنيا ﴾ [العنكبوت: ٢٧] يعني: أريناه مكانه في الجنة، ورُوِيَ عن سلمان رضي الله عنه، ورفعه بعضهم عن عليّ رضي الله عنه لمّا أُرِي إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض أبصر رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له الربّ عزّ وجلّ: «يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة، فلا تدعونّ على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خصال: إمّا أن يتوب إليّ فأتوب عليه، وإمّا أن أخرج منه نسمة تعبدني، وإمّا أن يبعث إليّ فإن شئتُ عفوتُ عنه، وإن شئتُ عاقبتُه» وفي رواية: «وإمّا أن يتولى فإنّ جهنم من ورائه». وقال قتادة: ملكوت السمٰوات والشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض والجبال والشجر والبحار، ﴿ وليكونَ مِنَ المُوقِنِين ﴾، عطف على المعنى، ومعناه: نُريه ملكوت السمٰوات والأرض، ليستدلّ به وليكون من الموقنين.

والقول الثاني: إن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لأن ملكوت السموات والأرض عبارة عن الملك وذلك لا يعرف إلا بالعقل فبان بهذا أن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة، إلا أن يقال: المراد بملكوت السموات والأرض نفس السموات والأرض.

وقوله تعالى: **﴿وليكون من الموقنين﴾** عطف على المعنى ومعناه «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض» ليستدل به **﴿وليكون من الموقنين﴾** واليقين: عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة، لأن الإنسان في أول الحال لا ينفك عن شبهة وشك، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت، صارت سبباً لحصول اليقين والطمأنينة في القلب وزالت الشبهة عند ذلك: قال ابن عباس في وليكون من الموقنين جلا له الأمر سره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى: إنك لا تستطيع هذا فردَّه الله كما كان قبل ذلك فمعنى الآية على هذا القول وكذلك أريناه ملكوت السموات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شيء حساً وخبراً.

وقوله تعالى: **﴿فلما جن عليه الليل﴾** يقال جن الليل وأجن إذا أظلم وغطى كل شيء وأجنه الليل وجن عليه إذا ستره بسواده **﴿رأى كوكباً قال هذا ربي﴾**

(ذكر القصة في ذلك)

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار والسير: ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان الملك وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته وكان له كهان منجمون، فقالوا له: إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه. ويقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء. وقال السدي: رأى نمرود في منامه كأن كوكباً قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعاً شديداً، فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك، فقالوا: هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك أهل دينك على يديه، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة في ناحيته وأمر بعزل النساء عن الرجال وجعل على كل عشرة، رجلاً يحفظهم فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لأنهم كانوا لا يجامعون في المحيض فإذا طهرت من الحيض حالوا بينهما. قالوا: فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بإبراهيم. وقال محمد بن إسحاق: بعث نمرود إلى كل رجل امرأة حبلى بقربه فحبسها عنده إلا ما كان من أم

﴿ فلمّا جَنّ عليه الليلُ رأى كوكباً ﴾، الآية، قال أهل التفسير: ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان، وكان نمرود أول مَن وضع التاج على رأسه ودعا الناسَ إلى عبادته، وكان له كهّان ومُنجّمون، فقالوا له: إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغيِّر دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه، ويقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام، فقال السدي: رأى نمرود في منامه كأن كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبقَ لهما ضوء، ففزع من ذلك فزعاً شديداً، فدعا السَحَرَة والكَهَنة فسألهم عن ذلك، فقالوا: هو مولود يُولد في ناحيتك في هذه السنة، فيكون هلاكك وهلاك مُلْكك وأهل بيتك على يديه، قالوا: فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته في تلك السنة، وأمر بعزل الرجال عن النساء، وجعل على كل عشرة رجلاً فإذا حاضت المرأة خلّى بينها وبين زوجها، لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض، فإذا طهرت حال بينهما، فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها، فحملت بإبراهيم عليه السلام، وقال محمد بن إسحق: بعث نمرود إلى كل امرأة حُبلى بقرية، فحبسها عنده إلّا ما كان من أمِ إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية حديثة

إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحبل في بطنها. وقال السدي: فخرج نمرود بالرجال إلى العسكر وعزلهم عن النساء تخوفاً من ذلك المولود فمكثت بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأمن عليها أحداً من قومه إلا آزر فبعث إليه فأحضره عنده وقال له: إن لي إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك فيها إلا لثقتي بك فأقسمت عليك ألا تدنو من أهلك. فقال آزر: أنا أشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك، ثم قال: لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلما دخل على أم إبراهيم ونظر إليها لم يتمالك حتى واقعها فحملت من ساعتها بإبراهيم. قال ابن عباس: لما حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة، فأمر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض، خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها. قالوا: فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ثم رجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا، فانطلق إليه أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً في النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع. وكانت أمه تختلف إليه فترضعه. وقال محمد بن إسحاق: لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ثم سدت عليها باب المغارة ثم رجعت إلى بيتها. وكانت تختلف إليه لتنظر ما فعل فتجده حياً وهو يمص إبهامه. قال أبو روق: قالت أم إبراهيم لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء، ومن أصبع لبناً، ومن أصبع سمناً، ومن أصبع عسلاً، ومن أصبع تمراً. وقال محمد بن إسحاق: كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت: ولدت غلاماً فما صدقها وسكت عنها. وكان إبراهيم يشب في اليوم كالشهر وفي الشهر كالسنة فلم يمكث في المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال: أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض. وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وساقني لربي الذي ما لي إله غيره ونظر في السماء فرأى كوكباً قال: هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال: لا أحب الآفلين.

فلما رأى القمر بازغاً، قال: هذا ربي وأتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب ثم طلعت الشمس قال هكذا إلى آخره ثم رجعت به إلى أبيه آزر قد استقامت وجهته وعرف ربه وبرىء من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك. فلما رجعت به أمه، أخبرته أنه ابنه وأخبرته بما صنعت به فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً. وقيل: إنه مكث في السرب سبع سنين. وقيل: ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة. قالوا، فلما شب إبراهيم وهو في السرب قال لأمه: من ربي؟ قالت: أنا. قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك. قال: فمن رب أبي؟ قالت: اسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام

السن، لم يعرف الحبل في بطنها، وقال السدي: خرج نمرود بالرجال إلى معسكر ونحاهم عن النساء تخوفاً من ذلك المولود أن يكون، فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة، فلم يأتمن عليها أحداً من قومه إلّا آزر، فبعث إليه ودعاه وقال له: إنّ لي حاجة أريد أن أُوصيك بها ولا أبعثك إلّا لثقتي بك، فأقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك، فقال آزر: أنا أشحّ على ديني من ذلك، فأوصاه بحاجته، فدخل المدينة وقضى حاجته، ثم قال: لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلمّا نظر إلى أُم إبراهيم عليه السلام لم يتمالك حتى واقعها، فحملت بإبراهيم عليه السلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا حملت أُم إبراهيم قال الكهّان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملته أُمّه الليلة، فأمر نمرود بقتل الغلمان، فلمّا دنت ولادة أُم إبراهيم عليه السلام وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطّلع عليها فيقتل ولدها، فوضعته في نهر يابس ثم لفّته في خرقة ووضعته في حلفاء فرجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا وكذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً عند نهر، فواراه فيه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السّباع، وكانت أُمه تختلف إليه فترضعه، وقال محمد بن إسحق: لمّا

الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك. ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه آزر فقال إبراهيم: يا أبتاه من ربي؟ قال: أمك. قال: فمن رب أمي؟ قال: أنا. قال: فمن ربك؟ قال: نمرود. قال: فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمة وقال: اسكت.

فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكباً قال: هذا ربي ويقال إنه قال لأبويه: أخرجاني، فأخرجاه من باب السرب حين غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم فسأل أباه ما هذه؟ قال: إبل وخيل وغنم. فقال إبراهيم: ما لهذه بد من أن يكون لها إله وهو ربها وخالقها. ثم نظر، فإذا المشتري قد طلع ويقال إنها الزهرة، وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل: ﴿فلما جن عليه الليل﴾ يعني ستره بظلامه رأى كوكباً قال ﴿هذا ربي﴾ ثم اختلف العلماء في وقت هذه الرؤية وفي وقت هذا القول هل كان قبل البلوغ أو بعده على قولين: أحدهما أنه كان قبل البلوغ في حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة عليه فلم يكن لهذا القول الذي صدر من إبراهيم في هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لأن الأحكام إنما تثبت بعد البلوغ. وقيل: إن إبراهيم لما خرج من السرب في حال صغره ونظر إلى السماء وما فيها من العجائب ونظر إلى الأرض وما فيها من العجائب وكان قد خصه الله بالعقل الكامل والفطرة السليمة تفكر في نفسه وقال لا بد لهذا الخلق من خالق مدبر وهو إله الخلق، ثم نظر في حال تفكره فرأى الكوكب وقد أزهر، فقال: هذا ربي على ما سبق إلى وهمه وذلك في حال طفوليته وقبل استحكام النظر في معرفة الرب سبحانه وتعالى واستدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ قالوا وهذا يدل على نوع تحير وذلك لا يكون إلا في حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة وهذا القول ليس بسديد ولا مَرْضي لأن الأنبياء معصومون في كل حال من الأحوال وأنه لا يجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو بالله عارف وله موحد وله من

وجدتْ أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدّت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه لتنظر ما فعل فتجده حيّاً يمصّ إبهامه، وقال أبو روق: قالت أم إبراهيم ذات يوم لأنظرنّ إلى أصابعه، فوجدته يمصّ من أصبع ماءً، ومن أصبع لبناً ومن أصبع عسلاً ومن أصبع تمراً، ومن أصبع سمناً. وقال محمد بن إسحق: كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل؟ فقالت: قد ولدتُ غلاماً فمات، فصدقها فسكت عنها، وكان اليوم على إبراهيم في النشوء كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلاّ خمسة عشر شهراً حتى قال لأمه أخرجيني فأخرجته عِشاءً فنظرَ وتفكّر في خلق السمٰواتِ والأرضِ، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي الذي ما لي إلٰه غيره، ثم نظر إلى السماء فرأى كوكباً فقال: هذا ربّي، ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب، فلما أفل، قال: لا أُحبّ الآفلين، ثم أتبعه ببصره حتى غاب، ثم طلعت الشمس هكذا إلى آخره، ثم رجع إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربّه وبريء من دين قومه إلاّ أنه لم ينادهم بذلك، فأخبره أنه ابنه وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه فَسُرَّ آزر بذلك وفرح فرحاً شديداً. وقيل: إنه كان في السرب سبع سنين، وقيل: ثلاثة عشرة سنة، وقيل: سبعة عشرة سنة، قالوا: فلما شبّ إبراهيم عليه السلام، وهو في السرب قال لأمه: مَنْ ربّي؟ قالت: أنا، قال: فمَنْ ربُّكِ؟ قالت: أبوك، قال: فمَن ربُّ أبي؟ قالت: نمرود، قال: فمَنْ ربُّه؟ قالت له: اسكت فسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت: أرأيت الغلام الذي كنّا نحدّث أنه يغيّر دين أهل الأرض فإنه ابنك، ثم أخبرته بما قال، فأتاه أبوه آزر، فقال له إبراهيم عليه السلام: يا أبتاه مَنْ ربّي؟ قال: أُمُّك، قال: فمَن ربُّ أمي؟ قال: أنا، قال: فمَن ربُّك؟ قال: نمرود، قال: إنه قال لأبويه أخرجاني فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين غابت الشمس، فنظر إبراهيم إلى

كل منقصة منزه ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على إبراهيم وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوت السموات والأرض أفبرؤية الكوكب يقول معتقداً هذا ربي؟ حاشا إبراهيم ﷺ من ذلك لأن منصبه أعلى وأشرف من ذلك ﷺ.

والقول الثاني: الذي عليه جمهورالمحققين إن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم وحين شرفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة ثم اختلف أصحاب هذا القول في تأويل الآية ومعناها فذكروا فيها وجوهاً:

الوجه الأول: أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها، فأراهم إبراهيم أنه معظِّمٌ ما عظموه فلما أفل الكوكب والقمر والشمس أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأفول ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية. ومثل هذا كمثل الحواري الذي ورد على قوم كانوا يعبدون صنماً فأظهر تعظيمه فأكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رأيه في كثير من أمورهم إلى أن دهمهم عدو لا قبل لهم به فشاوروه في أمر هذا العدو فقال: الرأي عندي أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنا ما نزل بنا، فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون إليه فلم يغنِ شيئاً فلما تبين لهم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يدفع، دعاهم الحواري وأمرهم أن يدعو الله عز وجل ويسألوه أن يكشف ما نزل بهم، فدعوا الله مخلصين، فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا جميعاً.

الوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام قال هذا القول على سبيل الاستفهام وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه وتقديره: أهذا ربي الذي تزعمون، وإسقاط حرف الاستفهام كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ يعني أفهم الخالدون. والمعنى أيكون هذا رباً ودلائل النقص فيه ظاهرة.

الإبل والخيل والغنم، فسأل أباه ما هذه؟ فقال: إبل وخيل وغنم ما لهذه بدّ من أن يكون لها ربٌّ وخالق، ثم نظر فإذا المشتري قد طلع، ويقال: الزهرة، فكان تلك الليلة في آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فيها، فرأى الكوكب قبل القمر، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فلمّا جَنّ عليه الليلُ** ﴾ أي: دخل الليل، يقال: جنّ الليل وأجنّ الليل، وجنّه الليل، وأجنّ عليه الليل يجنّ جنوناً وجناناً، إذا أظلم وغطى كل شيء، وجنون الليل سواده، ﴿ **رأى كوكباً** ﴾ قرأ أبـو عمـرو «رأى بفتح الراء وكسر الألف، ويكسرهما ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر، فإنِ اتصل بكاف أو هاء فتحهما ابن عامر، وإن لقيهما ساكن كسر الراء وفتح الهمزة، وحمزة وأبو بكر، وفتحهما الآخرون. ﴿ **قال هذا ربّي** ﴾، واختلفوا في قوله ذلك فأجراه بعضهم على الظاهر، وقالوا: كان إبراهيم مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفّقه الله وآتاه رشده فلم يضرّه ذلك في حال الاستدلال، وأيضاً كان ذلك في حال طفوليته قبل قيام الحجّة عليه، فلم يكن كفراً، وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقتٌ من الأوقات إلاّ وهو لله موحّدٌ وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على مَن عصمه الله وطهّره وآتاه رشده من قبل وأخبره عنه؟ وقال: ﴿ إذ جاء ربَّه بقلبٍ سليم ﴾ [الصّافّات: ٨٤] وقال: ﴿ **وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السمٰواتِ والأرض** ﴾، أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكباً قال: هذا ربّي معتقداً فهذا ما لا يكون أبداً، ثم قال: فيه أربعة أوجه من التأويل: أحدها أن إبراهيم أراد أن يستدرج القوم بهذا القول ويعرّفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ما عظّموه، وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها، ويرون أن الأمور كلها إليها فأراهم أنه مُعظّم ما عظّموه ومُلتمس الهدى من حيث ما التمسوه، فلما أفل أراهم النقص الداخل على النجوم ليثبت خطأ ما يدعون، ومثل هذا مثل الحواري الذي ورد على قوم يعبدون الصنم، فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدّوا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم

الوجه الثالث: أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول هذا ربي بزعمكم فلما غاب قال لو كان إلهاً كما تزعمون لما غاب فهو كقوله ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ يعني عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿انظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ يريد إلهك بزعمك.

الوجه الرابع: إن في هذه الآية إضماراً تقديره يقولون «هذا ربي» وإضمار القول كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا﴾ أي يقولان ﴿ربنا تقبل منا﴾.

الوجه الخامس: إن الله تعالى قال في حقه ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**﴾ ثم قال بعده ﴿**فلما جن عليه الليل**﴾ والفاء تقتضي التعقيب فدل هذا أن هذه الواقعة كانت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض وبعض الإيقان ومن كان معه بهذه المنزلة العالية الشريفة لا يليق بحاله أن يعبد الكواكب ويتخذها رباً.

فأما الجواب عن قوله: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ فإن الأنبياء عليهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبيت ومنه قوله ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ قوله تعالى: ﴿**فلما أفل**﴾ يعني غاب والأفول غيبة النيرات ﴿**قال**﴾ يعني إبراهيم ﴿**لا أحب الآفلين**﴾ يعني لا أحب رباً يغيب ويطلع لأن أمارات الحدوث فيه ظاهرة قوله تعالى:

فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ
وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى
فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

﴿**فلما رأى القمر بازغاً**﴾ يعني طالعاً منتشر الضوء ﴿**قال هذا ربي**﴾ معناه ما تقدم من الكلام في الكوكب ﴿**فلما أفل**﴾ يعني غاب ﴿**قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين**﴾ يعني إن لم يثبتني ربي على الهدى وليس المراد

عدو فشاوروه في أمره، فقال الرأي أن ندعوا هذا الصنم حتى يكشف عنّا ما قد أظلّنا، فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبيّن له أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعو الله فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون، فأسلموا، والوجه الثاني من التأويل أنه قاله على وجه الاستفهام تقديره: أهذا ربّي؟ كقوله تعالى: ﴿ أفإنْ مِتَّ فهمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؟ أي: أفهمُ الخالدون؟ وذكره على وجه التوبيخ منكراً لفعلهم، يعني: أمِثْل هذا يكون ربّاً أي: ليس هذا ربّي، والوجه الاحتجاج عليهم، يقول: هذا ربّي بزعمكم؟ فلمّا غاب قال: لو كان إلَهاً لمَا غاب، كما قال: ﴿ ذُقْ إنّك أنتَ العزيزُ الكريم ﴾ [الدخان: ٤٩] أي: عند نفسك وبزعمك، وكما أخبر عن موسى أنه قال: ﴿ وانْظرْ إلى إلَهكَ الذي ظَلْتَ عليهِ عاكِفاً لنحرقَنَّهُ ﴾ [طه: ٩٧] يريد إلَهكَ بزعمك، والوجه الرابع: فيه إضمار وتقديره يقولون هذا ربّي، كقوله تعالى: ﴿ وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ مِنَ البيتِ وإسماعيلُ ربَّنا تقبَّلْ مِنّا ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أي: يقولون ربّنا تقبّلْ منّا. ﴿ فلمّا أفَلَ قالَ لا أُحبُّ الآفِلِينَ ﴾، وما لا يدُومُ.

﴿ فلمّا رأى القمرَ بازِغاً ﴾، طالعاً، ﴿ قال هذا ربّي فلما أفلَ قالَ لَئِنْ لمْ يهدني ربّي ﴾، قيل: لئن لم يثبتني

أنه لم يكن مهتدياً لأن الأنبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة وفي الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى لأن إبراهيم أضاف الهداية لله تعالى: ﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ يعني طالعة ﴿قال هذا ربي﴾ يعني هذا الطالع أو أنه إشارة إلى الضياء والنور لأنه رأى الشمس أضوأ من الكوكب والقمر وقيل إنما قال هذا ولم يقل هذه لأن تأنيث الشمس غير حقيقي فلهذا أتى بلفظ التذكير ﴿هذا أكبر﴾ يعني من الكوكب والقمر ﴿فلما أفلت﴾ يعني فلما غابت الشمس ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ يعني أنه لما أثبت إبراهيم عليه السلام بالدليل القطعي أن هذه النجوم ليست بآلهة ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه أنه بريء مما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ما هو عليه من الدين الحق فقال ﴿إني وجهت وجهي﴾ يعني إني صرفت وجه عبادتي وقصرت توحيدي ﴿للذي فطر السموات والأرض﴾ يعني للذي خلقهما وأبدعهما ﴿حنيفاً﴾ يعني مائلاً عن عبادة كل شيء سوى الله تعالى. وأصل الحنف: الميل، وهو ميل عن طرق الضلال إلى طريق الاستقامة. وقيل: الحنيف هو الذي يستقبل الكعبة في صلاته ﴿وما أنا من المشركين﴾ تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه.

قوله عز وجل: ﴿وحاجَّه قومه﴾ يعني وخاصمه قومه وذلك لما أظهر إبراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عز وجل خاصمه قومه وجادلوه في ذلك فقال: أتحاجوني في الله. يعني تجادولونني في توحيدي لله وقد هداني وقد بين لي طريق الهداية إلى توحيده ومعرفته. وقال البغوي: لما رجع إبراهيم إلى أبيه وصار من الشباب بحالة تسقط عنه طمع الذابحين وضمه آزر إلى نفسه جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها فيذهب إبراهيم وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه فلا يكتريها أحد فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوب فيه رؤوسها وقال اشربي استهزاء بقومه وبما هم فيه من الضلالة حتى فشا استهزاؤه بها في قومه وأهل قريته حاجه قومه يعني خاصمه وجادله قومه في دينه ﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿أتحاجُوني في الله وقد هدان﴾ يعني إلى توحيده ومعرفته ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ وذلك أنهم قالوا له: احذر الأصنام فإنا نخاف أن تمسَّك بخبل أو جنون لعيبك إياها فأجابهم بقوله ولا أخاف ما تشركون به فإنها جمادات لا تضر ولا تنفع وإنما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ يعني لكن أن يشأ ربي شيئاً كان ما يشاء لأنه قادر على النفع والضر وإنما قال إبراهيم ذلك لاحتمال أن الإنسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه إلى الأصنام فنفى

ربّي على الهدى، ليس أنه لم يكن مهتدياً، والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان، وكان إبراهيم يقول: ﴿ واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿ لأكوننَّ من القوم الضالّين ﴾، أي: عن الهدى.

﴿ فلمّا رأى الشمسَ بازِغةً ﴾، طالعةً، ﴿ قال هذا ربّي هذا أكبر ﴾، أي: أكبر من الكوكب والقمر، ولم يقل هذه مع أن الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع، أو ردّه إلى المعنى، وهو الضياء والنور، لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر، ﴿ فلمّا أفلتْ ﴾، غربتْ، ﴿ قال يا قومِ إنّي بريءٌ ممّا تُشركون ﴾.

﴿ إنّي وجّهتُ وجهيَ للذي فطَرَ السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا مِنَ المشركين ﴾.

﴿ وحاجّه قومُهُ قال أتحاجُونّي في اللهِ وقدْ هَدانِ ﴾، ولمّا رجع إبراهيم عليه السلام إلى أبيه، وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذّبّاحين، وضمّه آزر إلى نفسه جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فيذهب إبراهيم عليه السلام وينادي مَن يشتري ما يضرّه ولا ينفعه، فلا يشتريها أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوّب فيه رؤوسها، وقال: اشربي استهزاءً بقومه، وبما هم فيه من الضلالة، حتى فشا استهزاؤُه بها في قومه وأهل قريته، فحاجّه أيْ خاصمه وجادله قومه في دينه، ﴿ قال: أتحاجّوني في الله ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر بتخفيف النون، وقرأ الآخرون بتشديدها إدغاماً لإحدى النونين في الأخرى، ومَن خفّف حذف إحدى النونين تخفيفاً

هذه الشبهة بقوله ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ وهذا استثناء منقطع وليس هو من الأول في شيء. والمعنى ولكن إن شاء ربي شيئاً كان ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ يعني أحاط علمه بكل شيء فلا يخرج شيء عن علمه ﴿أفلا تتذكرون﴾ يعني أفلا تعتبرون أن هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع وأن الضار هو الذي خلق السموات والأرض ومن فيهما.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ يعني وكيف أخاف الأصنام التي أشركتم بها لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ يعني وأنتم لا تخافون وقد أشركتم بالله وهومن أعظم الذنوب ﴿ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ يعني ما ليس لكم فيه حجة وبرهان ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ يعني يقول من أولى بالأمن من العذاب في يوم القيامة الموحد أم المشرك ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ وهذا فصل قضاه الله بين إبراهيم وبين قومه يعني أن الذين يستحقون الأمن يوم القيامة هم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم. وقيل: هو من تمام كلام إبراهيم في المحاجّة لقومه. والمعنى: إن الذين يحصل لهم الأمن يوم القيامة هم الذين آمنوا يعني آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيئاً ولم يلبسوا إيمانهم بظلم يعني ولم يخلطوا إيمانهم بشرك (ق).

عن ابن مسعود قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على المسلمين وقالوا أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لَظلم عظيم﴾» وفي رواية ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه وذكره. وقيل: في معنى قوله ولم يلبس إيمانهم بظلم، يعني: ولم يخلطوا إيمانهم بشيء من معاني الظلم وذلك بأن يفعل بعض ما نهى الله عنه أو يترك

يقال: أتجادلونني في توحيد الله، وقد هداني للتوحيد والحق؟ ﴿ ولا أخاف ما تُشركون به ﴾، وذلك أنهم قالوا له: احذر الأصنام فإنّا نخاف أن تمسّك بسوء من خبل أو جنون لعيبك إيّاها، فقال لهم: ولا أخاف ما تُشركون به، ﴿ إلاّ أن يشاء ربّي شيئاً ﴾، وليس هذا باستثناء من الأول بل هو استثناء منقطع، معناه لكن إن يشأ ربّي شيئاً أي سواء فيكون ما شاء، ﴿ وسِعَ ربّي كلَّ شيء علماً ﴾، أي: أحاط علمه بكل شيء، ﴿ أفلا تتذكّرون ﴾.

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ﴾، يعني الأصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع، ﴿ ولا تخافُون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّلْ بهِ عليكم سلطاناً ﴾، حجّةً وبرهاناً، وهو القاهر القادر على كل شيء، ﴿ فأيُّ الفريقين أحق ﴾، أولى، ﴿ بالأمن ﴾، أنا وأهل ديني أم أنتم، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾. فقال الله تعالى قاضياً بينهما:

﴿ الذينَ آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بِظُلْمٍ ﴾، لم يخلطوا أيمانهم بشرك، ﴿ أولئك لهم الأمنُ وَهُم مُهْتَدُون ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحق ثنا عيسى بن يونس أنا الأعمش أنا إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لمّا نزلت: ﴿ الذينَ آمنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم ﴾ شقّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله فأيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال: ليس

ما أمر الله به فعلى هذا القول تكون الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معاني الظلم دون غيره والصحيح أن الظلم المذكور في هذه الآية هو الشرك لما تقدم من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ فسَّر الظلم هنا بالشرك وفي الآية دليل على أن من مات لا يشرك بالله شيئاً كانت عاقبته الأمن من النار لقوله ﴿أولئك﴾ يعني الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴿لهم الأمن﴾ يوم القيامة من عذاب النار ﴿وهم مهتدون﴾ يعني إلى سبيل الرشاد. وقوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ يعني ما جرى بين إبراهيم وبين قومه واستدل على حدوث الكوكب والقمر والشمس بالأفول وقيل لما قالوا لإبراهيم إنّا نخاف عليك من آلهتنا لسبك إياها قال أفلا تخافون أنتم منها إذ سويتم بين الصغير والكبير في العبادة أن يغضب الكبير عليكم؟ وقيل: إنه خاصم قومه المشركين فمالوا أي الفريقين أحق بالأمن من يعبد إلهاً واحداً مخلصاً له الدين والعبادة أم من يعبد أرباباً كثيرة فدلوا من يعبد إلهاً واحداً فقضوا على أنفسهم فكانت هذه حجة إبراهيم عليه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعني بالعلم والفهم والعدل والفضيلة كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى إلى محاجَّة قومه. وقيل: نرفع درجات من نشاء في الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة وفي الآخرة بالثواب على الأعمال الصالحة ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ يعني أنه تعالى حكيم في جميع أفعاله عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيء إلا بحكمة وعلم.

قوله عز وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ لما أظهر إبراهيم عليه السلام دينه وغلب خصمه بالحجج القاطعة والبراهين القوية والدلائل الصحيحة التي فهمه الله تعالى إياه وهداه إليها عدد الله نعمه عليه وإحسانه إليه بأن رفع درجته في عليين وأبقى النبوة في ذريته إلى يوم الدين فقال تعالى: ﴿ووهبنا له﴾ يعني لإبراهيم إسحاق يعني ابنا لصلبه ويعقوب يعني ابن إسحاق وهو ولد الولد ﴿كلًّا هدينا﴾ يعني هدينا جميعهم إلى سبيل الرشاد ووفقناهم إلى طريق الحق والصواب ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ يعني من قبل إبراهيم أرشدنا نوحاً ووفقناه للحق والصواب ومننّا عليه بالهداية ﴿ومن ذريته﴾ اختلفوا في الضمير إلى من يرجع فقيل يرجع إلى إبراهيم يعني ومن ذرية إبراهيم ﴿داود وسليمان﴾ وقيل: يرجع إلى نوح وهو اختيار جمهور المفسرين، لأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور ولأن الله ذكر في جملة هذه الذرية لوطاً وهو ابن أخي إبراهيم ولم يكن من ذريته فثبت بهذا أن هاء الكناية ترجع إلى نوح وقال الزجاج: كلا القولين جائز لأن ذكرهما جميعاً قد جرى. وداود هو ابن بيشا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة وكذلك سليمان بن داود ﴿وأيوب﴾ هو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ويوسف﴾ هو ابن يعقوب بن

ذلك إنما هو الشركِ ألَمْ تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشّركَ لظلمٌ عظيم ﴾ [لقمان: ١٣].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وتلكَ حُجّتُنَا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ ﴾، حتى خصمهم وغلبهم بالحجّة، قال مجاهد: هي قوله: ﴿ الذين آمنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ﴾ ﴿نرفعُ درجاتٍ مَنْ نَشاء﴾، بالعلم قرأ أهل الكوفة ويعقوب «درجات» بالتنوين ههنا وفي سورة يوسف [٧٦]، أي: نرفع درجات مَن نشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل، كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاجّ قومه في التوحيد ، ﴿ إنّ ربّكَ حكيمٌ عليم ﴾.

﴿ ووهبنا له إسحَق ويعقوب كلًّا هدينا ﴾، ووفقنا وأرشدنا. ﴿ ونُوحاً هدينا من قبلُ ﴾، أي: من قبل إبراهيم، ﴿ ومن ذريته ﴾، أي من ذرية نوح عليه السلام، ولم يرد من ذريّة إبراهيم لأنه ذكر في جملتهم يُونس ولوطاً ولم يكونا من ذرية إبراهيم، ﴿ داودَ ﴾، هو داود بن أيشا، ﴿ وسليمان ﴾، يعني ابنه، ﴿ وأيوبَ ﴾، وهو أيوب بن أموص بن رازح بن رومِ بـن عيص بن إسحق بن إبراهيم، ﴿ ويوسُفَ ﴾، هو يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام، ﴿ وموسى ﴾، وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بـن لاوى بن يعقوب بن

إسحاق بن إبراهيم ﴿وموسى﴾ هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ﴿وهارون﴾ هو أخو موسى وكان أكبر منه بسنة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ يعني: وكما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه كذلك نجزي المحسنين على إحسانهم.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وزكريا﴾ هو ابن آذن بن بركيا ﴿ويحيى﴾ هو ابن زكريا ﴿وعيسى﴾ هو ابن مريم بنت عمران ﴿والياس﴾.

قال ابن مسعود: هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل وقال محمد بن إسحاق: هو الياس بن سنا بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران. وهذا هو الصحيح لأن أصحاب الأنساب يقولون: إن إدريس جد نوح لأن نوحاً بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس ولأن الله تعالى نسب الياس في هذه الآية إلى نوح وجعله من ذريته ﴿كل من الصالحين﴾ يعني أن كل من ذكرنا وسمينا من الصالحين ﴿وإسماعيل﴾ هو ابن إبراهيم وإنما أخر ذكره إلى هنا لأنه ذكر إسحاق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر إسماعيل إلى هنا ﴿واليسع﴾ هو ابن أخطوب بن العجوز ﴿ويونس﴾ هو ابن متى ﴿ولوطاً﴾ هو ابن أخي إبراهيم: ﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ يعني على عالمي زمانهم. ويستدل بهذه الآية من يقول إن الأنبياء أفضل من الملائكة لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه الملك فيقتضي أن الأنبياء أفضل من الملائكة.

واعلم أن الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبياً من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل، لأن الواو لا تقتضي الترتيب ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل، فذكر أولاً نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب لأنهم أصول الأنبياء وإليهم ترجع أنسابهم جميعاً ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان قد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظاً وافراً من المراتب: الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب عليه

إسحق بن إبراهيم، ﴿ وهارون ﴾، هو أخو موسى أكبر منه بسنة، ﴿ وكذلك ﴾، أي كما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء كذلك، ﴿ نجزي المحسنين ﴾، على إحسانهم، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم.

﴿ وزكريا ﴾، هو زكريا بن أذن، ﴿ ويحيى ﴾، وهو ابنه، ﴿ وعيسى ﴾، وهو ابن مريم بنت عمران، ﴿ وإلْياسَ ﴾، واختلفوا فيه، قال ابن مسعود: هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل، والصحيح أنه غير لأن الله تعالى ذكره في ولد نوح، وإدريس جدّ أبي نوح وهو إلياس بن بشير بن فنحاص بن عيزار بن هارونِ بن عمران. ﴿ كلٌّ من الصالحين ﴾.

﴿ وإسماعيل ﴾، وهو ولد إبراهيم، ﴿ واليسعَ ﴾، وهو ابن أخطوب بن العجوز، وقرأ حمزة والكسائي «واليسـع» بتشديد اللام وسكون الياء هنا وفي صٓ ﴿ ويونس ﴾ وهو يونس بن متّى، ﴿ ولوطاً ﴾، وهو لوط بن هاران بن أخي إبراهيم، ﴿ وكلًا فضّلنا على العالمين ﴾، أي: عالمي زمانهم.

السلام ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف عليه السلام فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله تعالى موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والإعراض عنها وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى والياس عليهم السلام ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شيء يذكر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

قوله تعالى: ﴿**ومن آبائهم**﴾ يعني ومن آباء الذين سميناهم ومَن هنا للتبعيض لأن من آباء بعضهم من لم يكن مسلماً ﴿**وذرياتهم**﴾ يعني ومن ذرياتهم أي بعضهم لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان في ذرية بعضهم من هو كافر كابن نوح ﴿**وإخوانهم**﴾ يعني ومن إخوانهم والمعنى أن الله تعالى وفق من آباء المذكورين ومن إخوانهم وذرياتهم للهداية وخالص الدين وهو قوله تعالى: ﴿**واجتبيناهم**﴾ يعني اخترناهم واصطفيناهم ﴿**وهديناهم**﴾ يعني وأرشدناهم ﴿**إلى صراط مستقيم**﴾ أي إلى دين الحق ﴿**ذلك هدى الله**﴾ قال ابن عباس: ذلك دين الله الذي كان عليه هؤلاء الأنبياء. وقيل: المراد بهدى الله معرفة الله وتنزيهه عن الشركاء والأضداد والأنداد ﴿**يهدي به من يشاء من عباده**﴾ يعني يوفق من يشاء من عباده ويرشده إلى دينه وطاعته وخلع الأضداد والشركاء ﴿**ولو أشركوا**﴾ يعني هؤلاء الذين سميناهم ﴿**لحبط**﴾ يعني لبطل وذهب ﴿**عنهم ما كانوا يعملون**﴾ من الطاعات قبل ذلك لأن الله تعالى لا يقبل مع الشرك من الأعمال شيئاً.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾

قوله عز وجل: ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة**﴾ يعني أولئك الذين سميناهم من الأنبياء

﴿ **ومن آبائهم** ﴾، من فيه للتبعيض، لأن آباء بعضهم كانوا مشركين، ﴿ **وذُرِّيّاتهم** ﴾، أي: ومن ذرِّيّاتهم وأراد ذرِّيّة بعضهم، لأن عيسى ويحيىٰ لم يكن لهما ولد وكان في ذرِّيّة بعضهم مَن كان كافراً، ﴿ **وإخوانهم واجْتبيناهم** ﴾، اخترناهم واصطفيناهم، ﴿ **وهديناهم** ﴾، أرشدناهم، ﴿ **إلى صراطٍ مستقيم** ﴾.

﴿ **ذلك هُدَى اللّهِ** ﴾، دين الله، ﴿ **يهدي به** ﴾، يرشد به، ﴿ **مَن يشاءُ مِنْ عبادِهِ، ولو أشركُوا** ﴾، أي: هؤلاء الذين سمّيناهم، ﴿ **لَحَبِطَ** ﴾، لبطل وذهب، ﴿ **عنهم ما كانُوا يعملون** ﴾.

﴿ **أولئكَ الذينَ آتيناهمُ الكتابَ** ﴾، أي: الكتب المنزلة عليهم، ﴿ **والحُكْمَ** ﴾، يعني: العلم والفقه، ﴿ **والنبوّةَ فإنْ يكفرْ بها هؤلاء** ﴾، يعني: أهل مكة، ﴿ **فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين** ﴾، يعني: الأنصار وأهل المدينة قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فإن يكفر بها هؤلاء الكفّار فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين، يعني: الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله ههنا، وقال أبو رجاء العطاردي: معناه فإن يكفر بها أهل الأرض فقد وكّلنا بها أهل السماء وهم الملائكة قوماً ليسوا بها بكافرين.

﴿ **أولئكَ الذينَ هدَى اللّهُ** ﴾، أي: هداهم الله، ﴿ **فبهداهم** ﴾، فبسنّتهم وسيرتهم، ﴿ **اقْتَدِهْ** ﴾، الهاء فيها

أعطيناهم الكتب التي أنزلناها عليهم وآتيناهم العلم والفهم وشرفناهم بالنبوة وإنما قدم ذكر الكتاب والحكمة على النبوة وإن كانت النبوة هي الأصل لأن منصب النبوة أشرف المراتب والمناصب فذكروا أولاً الكتاب والحكم لأنهما يدلان على النبوة ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء**﴾ يعني فإن يجحد بدلائل التوحيد والنبوة كفار قريش ﴿**فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾ قال ابن عباس: هم الأنصار وأهل المدينة. وقيل: هم المهاجرون والأنصار وقال الحسن وقتادة: هم الأنبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال: والدليل عليه قوله ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ وقال رجاء العطاردي: هم الملائكة وفيه بعد لأن اسم القوم لا ينطلق إلا على بني آدم وقيل هم الفرس. قال ابن زيد: كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكاً أو نبياً أو من الصحابة أو التابعين وفي الآية دليل على أن الله تعالى ينصر نبيه ﷺ ويقوي دينه ويجعله عالياً على الأديان كلها وقد جعل ذلك فهو إخبار عن الغيب. . . قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين هدى الله**﴾ يعني النبيين الذين تقدم ذكرهم لأنهم هو المخصوصون بالهداية ﴿**فبهداهم اقتده**﴾ إشارة إلى النبي ﷺ يعني فبشرائعهم وسننهم اعمل وأصل الاقتداء في اللغة طلب موافقة الثاني للأول في فعله. وقيل أمره أن يقتدي بهم في أمر الدين الذي أمرهم أن يجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن جميع النقائص التي لا تليق بجلاله في الأسماء والصفات والأفعال. وقيل: أمره الله أن يقتدي بهم في جميع الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية والصفات الرفيعة الكاملة مثل: الصبر على أذى السفهاء، والعفو عنهم. وقيل: أمره أن يقتدي بشرائعهم إلا ما خصه دليل آخر فعلى هذا القول يكون في الآية دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا.

(فصل)

احتج العلماء بهذه الآية على أن رسول الله ﷺ أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. بيانه أن جميع خصال الكمال وصفات الشرف وكانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه، وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة في الله عز وجل، وكان إسحاق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن، وكان داود عليه السلام وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة، قال الله فيهم: ﴿**اعملوا آل داود شكراً**﴾ وكان أيوب صاحب صبر على البلاء، قال الله فيه ﴿**إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب**﴾ وكان يوسف قد جمع بين الحالتين، يعني: الصبر والشكر، وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزات الباهرة، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد في الدنيا، وكان إسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع وإخبات ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقتدي بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرقة فيهم فثبت بهذا البيان أنه ﷺ كان أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت متفرقة في جميعهم والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً**﴾ يعني: قل يا محمد لا أطلب على تبليغ الرسالة جعلاً قيل لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هداهم عدم طلب الأجر على إيصال الدين وإبلاغ الشريعة لا جرم اقتدى بهم فقال: لا أسألكم عليه أجراً ﴿**إن هو**﴾ يعني ما هو يعني القرآن ﴿**إلا ذكرى للعالمين**﴾ يعني أن القرآن موعظة وذكرى

هاء الوقف، وحذف حمزة والكسائي ويعقوب الهاء في الوصل، والباقون بإثباتها وصلاً ووقفاً، وقرأ ابن عامر: «اقتـده» بإشباع الهاء كسراً ﴿ **قلْ لا أسألكم عليهِ أجراً إنْ هوَ** ﴾، ما هو، ﴿ **إلاّ ذكرى** ﴾، أي: تذكرة وموعظة، ﴿ **للعالمين** ﴾.

﴿ **وما قَدَرُوا الله حقَّ قدْرِهِ** ﴾، أي: **ما عظّموه حقّ عظمته، وقيل ما وصفوه حقّ وصفه**، ﴿ **إذْ قالُوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء** ﴾، قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ بمكة، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنّ الله يبغض الحبر

لجميع العالم من الجن والإنس وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الجن والإنس وإن دعوته عمَّت جميع الخلائق.

قوله عز وجل: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ قال ابن عباس: لما عظموا الله حق عظمته وعنه أن معناه ما آمنوا أن الله على شيء قدير. وقال أبو العالية: ما وصفوا الله حق وصفه. وقال الأخفش: ما عرفوا الله حق معرفته. يقال: قدر الشيء إذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقداره يقال قدره يقدره بالضم قدراً ثم يقال لمن عرف شيئاً هو يقدره قدره وإذا لم يعرفه بصفاته يقال فيه إنه لا يقدر قدره فقوله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ يصح فيه جميع الوجوه المذكورة في معناه ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ يعني الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته إذ لو عرفوه حق معرفته لما قالوا هذه المقالة، ثم اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في كفار قريش وهذا على قول من يقول إن جميع هذه السورة مكية وهو قول السدي. ويروي ذلك عن مجاهد وصححه الطبري قال: لأن من أول السورة إلى هذا الموضع هو خبر عن المشركين من عبدة الأصنام وكان قوله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ موصولاً بذلك غير مفصول عنه فلا يكون قوله إذ قالوا: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ خبراً عن غيرهم وأورد فخر الدين الرازي على هذا القول إشكالاً وهو أن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء فكيف يمكن إلزامهم بنبوة موسى وأيضاً فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش إنما يليق بحال اليهود وأجاب عنه بأن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالتوراة وبالمعجزات الباهرات وإنما أنكر كفار قريش نبوة محمد ﷺ فيمكن إلزامهم بقوله ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ وأجاب عن كون سياق الآية لا يليق إلا بحال اليهود بأن كفار قريش واليهود لما كانوا مشتركين في إنكار نبوة محمد ﷺ فلا يبعد أن بعض الآية يكون خطاباً لكفار قريش وبعضها خطاباً لليهود.

والقول الثاني: في سبب نزول هذه الآية وهو قول جمهور المفسرين أنها نزلت في اليهود وهذا على قول من يقول: إن هذه الآية نزلت بالمدينة وأنها من الآيات المدنيات التي في السور المكية. قال ابن عباس: نزلت سورة الأنعام بمكة إلا ست آيات منها قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ فإنها نزلت بالمدينة ثم اختلف القائلون بهذا القول في اسم من نزلت هذه الآية فيه فقال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجدون في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب. وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى فقال والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ نوراً وهدى للناس الآية. قال البغوي: وفي القصة أن مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا: أليس الله أنزل التوراة على موسى فلِمَ قلت ما أنزل الله على بشر من شيء؟ فقال مالك بن الصيف: أغضبني محمد فقلت ذلك. فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق؟

السمين» وكان حبراً سميناً فغضب، فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، وقال السدي: نزلت في فنحاص بن عازوراء، وهو قائل هذه المقالة. وفي القصة أن مالك بن الصيف لمّا سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه، وقالوا: أليس أن الله أنزل التوراة على موسى؟ فلِمَ قلتَ ما أنزل الله على بشرٍ من شيء؟ قال: فقال مالك بن الصيف أغضبني محمد فقلتُ ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه من الحبرية، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتاباً، قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزل الله: ﴿ **وما قدَرُوا اللَّهَ حقَّ قدره إذْ قالُوا ما أنزلَ اللَّهُ**

فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب الأشرف. وقال السدي: لما نزلت هذه الاية في فنحاص بن عازوراء اليهودي وهو القائل هذه المقالة. وقال ابن عباس: قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم فقالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً فأنزل الله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ الآية وقال محمد بن كعب القرظي: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ وهو محتب؟ فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً يحملونها من عند الله فأنزل الله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ الآية التي في سورة النساء فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة جثا رجل منهم وقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً فأنزل الله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء وأورد الرازي على هذا القول إشكالاً أيضاً وهو أنه قال: إن اليهود مقرون بإنزال التوراة على موسى فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء مع اعترافهم بإنزال التوراة ولم يجب عن هذا الإشكال بشيء وأجيب عنه بأن مراد اليهود إنكار إنزال القرآن على محمد ﷺ فقط ولهذا ألزموا بما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى فقال تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين أنكروا إنزال القرآن عليك بقولهم ما أنزل الله على بشر من شيء من أنزل التوراة على موسى وفي هذا الإلزام توبيخ اليهود بسوء جهلهم وإقدامهم على إنكار الحق الذي لا ينكر ﴿نوراً وهدى للناس﴾ يعني التوراة ضياء من ظلمة الضلالة وبياناً يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن تبدل وتغير ﴿تجعلونه قراطيس﴾ يكتبونه في قراطيس مقطعة ﴿تبدونها﴾ يعني القراطيس المكتوبة ﴿وتخفون كثيراً﴾ يعني ويخفون كثيراً مما كتبوه في القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد ﷺ ونعته في التوراة ومما أخفوه أيضاً آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم في التوراة ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ أكثر المفسرين على أن هذا خطاب لليهود ومعناه: أنكم علمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من قبل. قال الحسن: جعل لهم علم ما جاء به محمد ﷺ فضيعوه ولم ينتفعوا به. وقال مجاهد: هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان نبيه ﷺ ﴿قل الله﴾ هذا راجع إلى قوله: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾، فإن أجابوك يا محمد وإلا فقل أنت الله الذي أنزله: ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ يعني: دعهم يا محمد فيما هم فيه يخوضون من باطلهم وكفرهم بالله. ومعنى يلعبون: يستهزؤون ويسخرون. وقيل: معناه يا محمد إنك إذا أقمت الحجة عليهم وبلغت في الأعذار والإنذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شيء فذرهم فيما هم فيه من الخوض واللعب وفيه وعيد وتهديد للمشركين. وقال بعضهم: هذا منسوخ بآية السيف وفيه بُعد لأنه مذكور لأجل التهديد والوعيد.

على بشرٍ من شيء﴾، قال اللَّهُ تعالى: ﴿ قلْ ﴾، لهم، ﴿ مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للنّاس ﴾، يعني التوراة، ﴿ تجعلُونَهُ قراطيسَ تبدُونها وتُخْفُونَ كثيراً ﴾، أي: تكتبون عنه دفاتر وكتباً مقطعة تبدونها، أي: تُبدون ما تُحبّون وتُخفون كثيراً من نعت محمد ﷺ وآية الرجم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (يجعلونه) و(يبدونها) و(يخفونها) بالياء جميعاً، لقوله تعالى: ﴿ وما قَدَرُوا اللَّه ﴾ وقرأ الآخرون بالتاء، لقوله تعالى: ﴿ قلْ مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء بهِ موسى ﴾، وقوله: ﴿ وعُلِّمْتُمْ ما لم تعلمُوا ﴾، الأكثرون على أنها خطاب لليهود، يقول: عُلِّمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا، ﴿ أنتُمْ ولا آباؤُكم ﴾، قال الحسن: جعل لهم علم ما جاء به محمد ﷺ فضيعوه ولم ينتفعوا به، وقال مجاهد: هذا خطاب للمسلمين يذكّرهم النعمة فيما علّمهم على لسان محمد ﷺ، ﴿ قُل اللَّهُ ﴾، هذا راجع إلى قوله: ﴿ قلْ مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسَى ﴾، فإن أجابوك وإلاّ فقل أنت: الله، أي: قل أنزله الله، ﴿ ثم ذَرْهم في خوضهم يلعبُون ﴾.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مبارك**﴾ يعني: وهذا القرآن كتاب أنزلناه من عندنا عليك يا محمد كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية. وأصل البركة: النماء والزيادة وثبوت الخير ﴿**مصدق الذي بين يديه**﴾ يعني من الكتب الإلهية المنزلة من السماء على الأنبياء يعني أنه موافق لما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب، لأنها اشتملت جميعها على التوحيد والتنزيه لله من كل عيب ونقيصه وتدل على البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقاً لجميع الكتب المنزلة ﴿**ولتنذر**﴾ قرىء بالتاء يعني ولتنذر يا محمد وبالياء ومعناه ولينذر الكتاب ﴿**أم القرى**﴾ يعني مكة وفيه حذف تقديره ولتنذر أهل القرى وسميت مكة أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها. قاله ابن عباس: وقيل: لأنها أقدم القرى وأعظمها بركة. وقيل: لأنها قبلة أهل الأرض ﴿**ومن حولها**﴾ يعني جميع البلاد والقرى التي حولها شرقاً وغرباً ﴿**والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به**﴾ يعني: والذين يصدقون بقيام الساعة وبالمعاد والبعث بعد الموت يصدقون بها الكتاب وأنه منزل من عند الله عز وجل وقيل ببعثة الرسول ﷺ وذلك أن الذي يؤمن بالآخرة يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ومن كان كذلك فإنه يرغب في تحصيل الثواب ورد العقاب عنه وذلك لا يحصل إلا بالنظر التام فإذا نظر وتفكر علم بالضرورة أن دين محمد أشرف الأديان وشريعته أعظم الشرائع ﴿**وهم على صلواتهم يحافظون**﴾ يعني يداومون عليها في أوقاتها. والمعنى: أن الإيمان بالآخرة يحمل على الإيمان بمحمد ﷺ وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة، وفائدة تخصيص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات، التنبيه على أنها أشرف العبادات بعد الإيمان بالله تعالى، فإذا حافظ العبد عليها يكون محافظاً على جميع العبادات والطاعات قوله عز وجل: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ يعني ومن أعظم خطأ وأجهل فعلاً ممن اختلق على الله كذباً فزعم أن الله بعثه نبياً وهو في زعمه كذاب مبطل ﴿**أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء**﴾ قال قتادة: نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب بن ثمامة. وقيل مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات وكهانة وسجع ادعى النبوة باليمن وزعم أن الله أوحى إليه وكان قد أرسل إلى النبي ﷺ رسولين: فقال لهما رسول الله ﷺ أتشهدان أن مسيلمة نبي؟ قالا: نعم. فقال لهما: النبي ﷺ لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما (ق).

﴿ **وهذا كتابٌ أنزلْناه مُباركٌ** ﴾، أي: القرآن كتاب مبارك أنزلناه ﴿ **مُصدِّقُ الذي بينَ يديهِ ولِتُنذِرَ** ﴾، يا محمد، قرأ أبو بكر عن عاصم (ولينـذر) بالياء أي: ولينذر الكتاب، ﴿ **أمَّ القُرى** ﴾، يعني: مكة سُمّيت أُمّ القرى لأنّ الأرض دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل، وأراد أهلَ أم القرَى ﴿ **ومَنْ حولَها** ﴾، أي: أهل الأرض كلها شرقاً وغرباً، ﴿ **والذينَ يُؤْمِنون بالآخرة يؤْمنُونَ به** ﴾، بالكتاب، ﴿ **وهمْ على صَلاَتِهمْ** ﴾، يعني: الصلوات الخمس، ﴿ **يُحافِظُون** ﴾، يداومون، يعني: المؤمنين.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ومَنْ أظلمُ ممَّنِ افْترى** ﴾، اختلق ﴿ **على اللّهِ كذباً** ﴾، فزعم أن الله تعالى بعثه نبياً، ﴿ **أوْ قالَ أُوْحِيَ إليّ ولم يُوحَ إليهِ شيءٌ** ﴾، قال قتادة: نزلت في مسيلمة الكذّاب، وكان يسجع ويتكهن، فادّعى النبوّة وزعم أن الله أوحى إليه، وكان قد أرسل إلى رسول الله ﷺ رسولين، فقال النبي ﷺ لهما: «**أتشهدان أن مسيلمة**

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا عليّ وأهماني فأوحي إلي أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة» وفي لفظ الترمذي قال رسول الله ﷺ: «رأيت في المنام كأن في يدي سوارين فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي، يقال لأحدهما: مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء» قوله فأوحى إليّ أن أنفخهما يروى بالخاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفخت الدابة برجلها إذا دفعت ورمحت ويروى بالخاء المعجمة من النفخ يريد أنه نفخهما فطارا عنه وهو قريب من الأول فأما مسيلمة الكذاب فإنه ادعى النبوة باليمامة من اليمن وتبعه قوم من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغترّ قومه بذلك وقتل مسيلمة. الكذاب في زمن خلافة أبي بكر الصديق قتله وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب وكان وحشي يقول: قتلت خير الناس يعني حمزة وقتلت شر الناس يعني مسيلمة وأما الأسود العنسي بالنون فهو عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الحمار ادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي ﷺ وقتل والنبي ﷺ حي لم يمت وذلك قبل موته بيومين وأخبر أصحابه بقتله وقتله فيروز الديلمي فقال النبي ﷺ فاز فيروز يعني بقتلة الأسود العنسي فمن قال إن هذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء**﴾ أنزلت في مسيلمة الكذاب والأسود العنسي يقول: إن هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة وهو قول لبعض علماء التفسير تقدم ذكره في أول السورة ومن قال إن هذه الآية مكية وقال: إنها نزلت في شأنهما يقول إنها خبر عن غيب قد ظهر ذلك فيما بعد والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله**﴾ قال السدي: نزلت في عبد الله بن أبي سرح القرشي وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي ﷺ فكان إذا أملى عليه سميعاً بصيراً كتب عليماً حكيماً وإذا أملى عليه عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً فلما نزلت ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ أملاها عليه رسول الله ﷺ فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله ﷺ اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله بن أبي سرح وقال: لئن كان محمد صادقاً فقد أوحي إلي مثل ما أوحي إليه فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبد الله بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم قبل فتح مكة والنبي ﷺ نازل بمر الظهران وقال ابن عباس نزل قوله ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله في المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده لأنه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم: ﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت**﴾ يعني ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الظالمين إذ أنزل بهم الموت لرأيت أمراً عظيماً وغمراته شدائده

نبي»؟ قالا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لولا أنّ الرسلَ لا تقتلُ لضربتُ أعناقكما» أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائـم إذ أُوتيـت خزائن الأرض فوضع في يدي سِواران من ذهب، فكبرَا عليّ وأوهماني فأُوحي إليّ أن أنفخهما فنفختهما فذهب، فأوّلتهما الكذّابين اللّذَين أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»، أراد بصاحب صنعاء الأسود العنسي وبصاحب اليمامة مسيلمة الكذّاب، ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مثلَ ما أنزل الله ﴾، قيل: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي ﷺ وكان إذ أملى عليه سميعاً بصيراً كتب عليماً حكيماً، وإذا قال: عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً، فلما نزلت: ﴿ ولقد خلقْنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون: ١٢] أملاها عليه رسول الله ﷺ فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال النبي ﷺ: «اكتبها فهكذا نزلتْ»، فشكّ عبد الله، وقال: لئن كان محمد صادقاً فقد أُوحي إليّ كما أُوحي إليه، فارتدّ عن الإسلام ولحق بالمشركين، ثم رجع عبد الله إلى الإسلام

وسكراته وغمرة كل شيء معظمه وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها ثم وضعت في موضع الشدائد والمكاره ﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾ يعني بالعذاب يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل: باسطو أيديهم لقبض أرواحهم ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ يعني يقولون لهم أخرجوا أنفسكم.

فإن قلت: إنه لا قدرة لأحد على إخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا الكلام.

قلت: معناه يقولون لهم أخرجوا أنفسكم كرهاً لأن المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل معناه يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب إن قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخاً لهم لأنهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب في ذلك الوقت ﴿اليوم تجزون عذاب الهون﴾ يعني الهوان ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ يعني ذلك العذاب الذي تجزونه بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴿وكنتم عن آياتنا تستكبرون﴾ يعني وبسبب ما كنتم تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ يعني وحداناً لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم وهذا خبر من الله عز وجل عن حال الكافرين يوم القيامة وكيف يحشرون إليه ماذا يقول لهم في ذلك اليوم وفي قوله للكافرين ولقد جئتمونا فرادى تقريع وتوبيخ لهم لأنهم صرفوا هممهم في الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه وأفنوا أعمارهم في عبادة الأصنام فلم يغن عنهم كل ذلك شيئاً يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه في الدنيا ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ يعني جئتمونا حفاة عراة غرلاً يعني قلفاً كما ولدتهم أمهاتهم في أول مرة في الدنيا لا شيء عليهم ولا معهم (ق).

عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تحشر الناس حفاة غراة غرلاً» قالت عائشة: فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك روى الطبري بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ فقالت: يا رسول الله واسوأتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال رسول الله ﷺ «لكل امرىء منهم يومئذ شيء يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض». وقوله

قبل فتح مكة إذ نزل النبي ﷺ بمرّ الظهران. وقال ابن عباس: قوله: ﴿ وَمَن قالَ سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾، يريد المستهزئين وهو جواب لقولهم: ﴿ ولو نشاءُ لقُلْنا مثلَ هذا ﴾ [الأنفال: ٣١]. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو ترى ﴾، يا محمد، ﴿ إذِ الظّالمون في غمرات الموت ﴾، سكراته وهي جمع غمرة كل شيء معظمه وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطّيها، ثم وُضعت في موضع الشدائد والمكاره، ﴿ والملائكَةُ باسِطُوا أيديهم ﴾، بالعذاب والضرب يضربون وجوههم وأدبارهم، وقيل بقبض الأرواح، ﴿ أخرِجُوا ﴾، أي: يقولون أخرجوا، ﴿ أنفسَكُم ﴾، أي: أرواحكم كُرْهاً لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربه، والجواب محذوف، يعني لو تراهم في هذه الحال لرأيت عجباً، ﴿ اليوم تجزون عذابَ الهُونِ ﴾، أي: الهوان، ﴿ بما كنتُم تقولون على اللهِ غيرَ الحقِّ وكنتُم عنْ آياتِهِ تستكبرُون ﴾، تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدّقونه.

﴿ ولقدْ جئتمونا فُرادَى ﴾، هذا خبر من الله أنه يقول للكفّار يوم القيامة: ولقد جئتمونا فُرادَى وحداناً، لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم، وفُرادى جمع فردان، مثل سكران وسكارى، وكسلان وكسالى، وقرأ الأعرج فردى

تعالى: ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ يعني وتركتم الذي أعطيناكم وملكناكم من الأموال والأولاد والخدم والخول وكل ما أعطى الله العبد خوله فيه من المال والعبيد وراء ظهوركم يعني في الدنيا ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ يعني أن المشركين زعموا أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام «لأنها تشفع لهم عند الله يوم القيامة لأنها شركاء الله تعالى الله عن ذلك فإذا كان يوم القيامة وبخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية ثم قال تعالى: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ قرىء بنصب النون من بينكم ومعناه لقد تقطع ما بينكم من الوصل أو يكون معناه لقد تقطع الأمر بينكم وقرىء بينكم برفع النون، ومعناه لقد تقطع وصلكم والبين من الأضداد يكون وصلاً ويكون هجراً ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ يعني: وذهب وبطل ما كنتم تكذبون في الدنيا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

قوله عز وجل: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة، أردفه بذكر الدلائل على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيهاً بذلك على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله وأنه مبدع الأشياء وخالقها ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها وتعريفاً منه خطأ ما كانوا عليه من الإشراك الذي كانوا عليه. والمعنى: أن الذي يستحق العبادة دون غيره هو الله الذي فلق الحب عن النبات والنواة عن النخلة. وفي معنى فلق قولان: **أحدهما**: أنه بمعنى خلق ومعنى الآية على هذا القول: «أن الله خالق الحب والنوى» وهو قول ابن عباس في رواية العوفي عنه وبه. قال الضحاك ومقاتل: قال الواحدي: ذهبوا بفالق مذهب فاطر. وأنكر الطبري هذا القول وقال لا يعرف في كلام العرب فلق الله الشيء بمعنى خلق. ونقل الأزهري عن الزجاج جوازه فقال: وقيل الفلق الخلق، وإذا تأملت الخلق، تبين لك أن أكثره عن انفلاق ومعنى هذا الكلام أن جميع الأشياء كانت قبل الوجود في العدم فلما أوجدها الله تعالى وأخرجها من العدم إلى الوجود فكأنه فلقها وأظهرها.

والقول الثاني: وهو قول الأكثرين أن الفلق هو الشق ثم اختلفوا في معناه على قولين: **أحدهما**: وهو مروي عن

بغير ألف مثل سكرى، ﴿كما خلقناكم أول مرّة﴾، عراةً حُفاةً غرلاً، ﴿وتركتُمْ﴾، وخلّفتم ﴿ما خوّلنَاكم﴾، أعطيناكم من الأموال والأولاد والخدم، ﴿وراء ظهورِكم﴾، في الدنيا، ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذينَ زعمتُمْ أنّهم فيكم شُركاؤُ﴾، وذلك أن المشركين زعموا أنّهم يعبدون الأصنام لأنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده، ﴿لقد تقطّع بينكم﴾، قرأ أهل المدينة والكسائي وحفص عن عاصم بنصب النون على معنى لقد تقطع ما بينكم من الوصل، أو تقطع الأمر بينكم برفع النون، أي: لقد تقطع وصلكم وذلك مثل قوله: ﴿وتقطعتْ بهمُ الأسباب﴾ [البقرة: ١٦٦]، أي: الوصلات والبين من الأضداد يكون وصلاً ويكون هجراً، ﴿وضلّ عنكم ما كنتم تزعمُون﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إنّ اللّهَ فالِقُ الحبّ والنّوى﴾، الفلق الشق، قال الحسن وقتادة والسدي: معناه يشق الحبّة عن السنبلة والنواة عن النخلة فيخرجها منها، والحبّ جمع الحبّة، وهي اسم لجميع البذور والحبوب من البرّ

ابن عباس قال: فلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة وهو قول الحسن والسدي وابن زيد. قال الزجاج: بشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منها ورقاً أخضر.

والقول الثاني: وهو قول مجاهد إنه الشقان اللذان في الحب والنوى والحب هو الذي ليس له نوى كالحنطة والشعير والأرز وما أشبه ذلك والنوى جمع نواة وهي ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما أشبه ذلك ومعنى قوله: ﴿**فالق الحب والنوى**﴾ أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر على ذلك قدر من الزمان أظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقاً أخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروقاً ضاربة في الأرض فسبحان من أوجد جميع الأشياء بقدرته وإبداعه وخلقه.

وقوله تعالى: ﴿**يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي**﴾ قال ابن عباس: في رواية عنه: يخرج من النطفة بشراً حياً ويخرج النطفة الميتة من الحي وهذا قول الكلبي ومقاتل. قال الكلبي: يخرج النسمة الحية من النطفة الميتة ويخرج الفرخة من البيضة ويخرج النطفة الميتة والبيضة الميتة من الحي. وقال ابن عباس في رواية أخرى: يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن فجعل الإيمان بمنزلة الحياة والكفر بمنزلة الموت وهذا قول الحسن. وقيل: معناه يخرج الطائع من العاصي والعاصي من الطائع. وقال السدي: يخرج النبات من الحب والحب من النبات وهذا اختيار الطبري لأنه قال عقب قوله «إن الله فالق الحب والنوى».

فإن قلت كيف قال ومخرج الميت من الحي بلفظ اسم الفاعل بعد قوله «يخرج الحي من الميت» وما السبب في عطف الاسم على الفعل.

قلت: قوله ﴿**ومخرج الميت من الحي**﴾ عطف على قوله: ﴿**فالق الحب والنوى**﴾ وقوله: ﴿**يخرج الحي من الميت**﴾ كالبيان والتفسير لقوله ﴿**فالق الحب والنوى**﴾ لأن فلق الحب والنوى واليابس وإخراج النبات والشجر منه من جنس إخراج الحي من الميت لأن النامي من النبات في حكم الحيوان وقوله ﴿**ذلكم الله**﴾ يعني ذلكم الله المدبر الخالق الصانع لهذه الأشياء المحيي المميت لها ﴿**فأنى تؤفكون**﴾ يعني فأنى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الأشياء كلها وفيه دليل أيضاً على صحة البعث بعد الموت لأن القادر على إخراج البدن من النطفة قادر على إخراجه من التراب للحساب قوله تعالى: ﴿**فالق الإصباح**﴾ أي شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده والإصباح مصدر سمي به الصبح. وقال الزجاج: الإصباح والصبح واحد وهما أول النهار.

فإن قلت ظاهر الآية يدل على أنه تعالى فلق الصبح، والظلمة هي التي تنفلق بالصبح فما معنى ذلك؟ قلت ذكر العلماء فيه وجوهاً:

الأول: أن يكون المراد فالق ظلمة الصبح وذلك لأن الصبح صبحان: فالصبح الأول هو البياض المستطيل الصاعد في الأفق كذنب السرحان وهو الذئب ثم تعقبه ظلمة بعد ذلك ويسمى هذا الصبح الفجر الكاذب لأنه يبدو في

والشعير والذرة، وكلّ ما لم يكن له نوى، وقال الزجّاج: يشقّ الحبّة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منهما ورقاً أخضر، وقال مجاهد: يعني الشقّين اللّذين فيهما، أي: يشقّ عن النبات ويخرجه منه ويشقّ النّوى عن النخل ويخرجها منه، والنوى جمع النواة، وهي كل ما لم يكن له حبّ، كالتمر والمشمش والخوخ ونحوها، وقال الضحاك: فالق الحبّ والنّوى يعني: خالق الحبّ والنّوى، ﴿ **يُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميتِ ومُخرجُ الميّت مِنَ الحيِّ ذلِكُمُ اللّهُ فأنّى تُؤفَكون** ﴾، تصرفون عن الحقِّ.

﴿ **فالِقُ الإِصْبَاحِ** ﴾، شاقّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وكاشفه، وقال الضحاك: خالق النهار، والإصباح

الأفق الشرقي ثم يضمحل ويذهب ثم يطلع بعده الصبح الثاني، وهو الضوء المستطير في جميع الأفق الشرقي ويسمى الفجر الصادق لأنه ليس بعده ظلمة والحاصل من هذا أن يكون المعنى: فالق ظلمة الصبح الأول بنور الصبح الثاني.

الوجه الثاني: أنه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار فيكون معنى قوله: ﴿**فالق الإصباح**﴾ أي فالق الصباح بنور النهار.

الوجه الثالث: أن يراد فالق ظلمة الإصباح وهي الغبش في آخر الليل الذي يلي الصبح.

الوجه الرابع: أن يكون المعنى فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر إذا انصدع الفجر وانفلق وسمي الفجر فلقاً بمعنى مفلوق.

الوجه الخامس: الفلق بمعنى الخلق يعني خالق الإصباح. وعلى هذا القول يزول الإشكال. والصبح هو الضوء الذي يبدو أول النهار. والمعنى أنه تعالى مبدي ضوء الصبح وخالقه ومنوره.

وقوله تعالى: ﴿**وجعل الليل سكناً**﴾ السكن ما سكنت إليه واسترحت به. يريد أن الناس يسكنون في الليل سكون راحة لأن الله جعل الليل لهم كذلك. قال ابن عباس: إن كل ذي روح يسكن فيه لأن الإنسان قد أتعب نفسه في النهار فاحتاج إلى زمان يستريح فيه ويسكن عن الحركة وذلك هو الليل ﴿**والشمس والقمر حسباناً**﴾ يعني أنه تعالى قدر حركة الشمس والقمر في الفلك بحسبان معين. قال ابن عباس: يجريان إلى أجل جعل لهما يعني عدد الأيام والشهور والسنين وقال الكلبي منازلهما بحسبان لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية من الأشياء التي خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله ﴿**تقدير العزيز العليم**﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه.

قوله عز وجل: ﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر**﴾ جعل هنا بمعنى خلق يعني والله الذي خلق لكم هذه النجوم أدلة لتهتدوا بها إذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه، فامتنّ الله على عباده بأن جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في المسالك والطرق في البر والبحر إلى حيث يريدون ويستدلون بالنجوم أيضاً على القبلة فيستدلون على ما يريدون في النهار بحركة الشمس وفي الليل بحركة الكواكب ومن منافعها أيضاً أنه تعالى خلقها زينة

مصدر كالإقبال والإدبار وهو الإضاءة وأراد به الصبح وهو أول ما يبدو من النهار، يريد ومُبدي الصبح وموضحه، ﴿ **وجعلَ الليلَ سكناً** ﴾، يسكن فيه خلقه وقرأ أهل الكوفة، «وجعـل» على الماضي، ﴿ **الليل** ﴾، نصب اتّباعاً للمصحف، وقرأ إبراهيم النخعي «فلق الإصباح» «وجعل الليل سكناً»، «والشمس والقمرَ حُسْبَاناً»، أي، جعل الشمس والقمر بحساب معلوم لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما، والحسبان مصدر كالحساب، وقيل: جمع حساب، ﴿ **ذلك تقديرُ العزيز العليم** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وهوَ الذي جعلَ لكمُ النّجومَ** ﴾ أي خلقها لكم، ﴿ **لتهتدُوا بها في ظلمات البَرِّ والبحر** ﴾، والله تعالى خلق النجوم لفوائد، أحدها هذا وهو أن راكب السفينة والسائر في القِفار يهتدي بها في الليالي إلى مقاصده، والثاني أنها زينة للسماء كما قال: ﴿ ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [الملك: ٥]، ومنها رمي الشيطان، كما قال: ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [الملك: ٥]، ﴿ **قدْ فصّلْنا الآيات لقوم يعلمُون** ﴾.

﴿ **وهوَ الذي أنشأكم** ﴾، خلقكم وابتدأكم، ﴿ **مِنْ نفسٍ واحدة** ﴾، يعني: آدم عليه السلام، ﴿ **فَمُسْتَقَرٌّ ومُستوْدَعٌ** ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة «فمستقِر» بكسر القاف، يعني: فمنكم مستقر ومنكم مستودع، وقرأ

للسماء ورجوماً للشياطين كما قال: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ **﴿قد فصلنا الآيات﴾** يعني قد بيّنا الآيات الدالة على توحيدنا وكمال قدرتنا **﴿لقوم يعلمون﴾** أن ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال علمه وقدرته.

قوله تعالى: **﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾** يعني والله الذي ابتدأ خلقكم أيها الناس من آدم عليه السلام فهو أبو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى أيضاً لأن ابتداء خلقه من مريم وهي من بنات آدم فثبت أن جميع الخلق من آدم عليه السلام **﴿فمستقر ومستودع﴾** قرىء فمستقر بكسر القاف وفتحها. يقال: قر في مكانه واستقر فمن كسَر القاف قال: المستقر بمعنى القارّ. والمعنى: منكم مستقر يعني في الأرحام. ومن فتح القاف جعله مكاناً فالمستقر نفس المقر فيكون المعنى لكم مقر.

وأما المستودع فهو مثل أودع فيجوز أن يكون اسماً للإنسان الذي استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المكان نفسه.

فمن قرأ فمستقر بفتح القاف جعل المستودع مكاناً، والمعنى: فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن كسر القاف جعل المعنى منكم مستقر ومنكم مستودع يعني منكم من استقر ومنكم من استودع والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب إلى الثبات من المستودع، لأن المستقر من القرار والمستودع معرض لأن يرد.

ولهذا اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذين اللفظين فروي عن ابن عباس أنه قال المستقر في أرحام الأمهات والمستودع في أصلاب الآباء ثم قرأ **﴿ونقر في الأرحام ما نشاء﴾** ويؤيد هذا القول أن النطفة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً والجنين يبقى في بطن الأم زماناً طويلاً، ولما كان المكث في بطن الأم أكثر من صلب الأب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب. وروي عنه أنه قال: بالعكس يعني أن المستقر صلب الأب والمستودع رحم الأم. ووجه هذا القول، أن النطفة حصلت في صلب الأب قبل رحم الأم فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم. وقال ابن مسعود: المستقر في الرحم إلى أن يولد والمستودع في القبر إلى أن يبعث وقال مجاهد: المستقر على ظهر الأرض في الدنيا لقوله: **﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾** والمستودع عند الله في الآخرة. وقال الحسن: المستقر في القبر والمستودع في الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت مستودع في أهلك إلى أن تلحق بصاحبك يعني القبر وقيل المستودع في القبر والمستقر إما في الجنة والنار، لأن المقام فيهما يقتضي الخلود والتأبيد **﴿قد فصلنا الآيات﴾** قد بيّنا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة **﴿لقوم يفقهون﴾**

الآخرون بفتح القاف، أي: فلكم مستقر ومستودع، واختلفوا في المستقر والمستودع، قال عبد الله بن مسعود: فمستقر في الرحم إلى أن يولد، ومستودع في القبر إلى أن يبعث، وقال سعيد بن جبير وعطاء: فمستقر في أرحام الأمهات ومستودع في أصلاب الآباء، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس قال سعيد بن جبير: قال لي ابن عباس هل تزوجت قلت لا: قال: أما أنه ما كان مستودعاً في ظهرك فيستخرجه الله عزّ وجلّ. ورُوِيَ عن أُبيّ أنه قال: مستقر في أصلاب الآباء، ومستودع في أرحام الأمهات، وقيل: مستقر في الرحم ومستودع فوق الأرض، قال الله تعالى: ﴿ ونقرّ في الأرحام ما نشاء ﴾ [الحج: ٥] **وقال مجاهد: مستقر على ظهر الأرض في الدنيا ومستودع عند الله في الآخرة، ويدلّ عليه قوله تعالى:** ﴿ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة: ٣٦]**، وقال الحسن: المستقر في القبر والمستودع في الدنيا، وكان يقول: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك ويُوشك أن تلحق بصاحبك، وقيل: المستودع القبر والمستقر الجنة والنار، لقوله عزّ وجلّ في صفة أهل الجنّة:** ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً ﴾

يعني لقوم يفهمون عن الله آياته ودلائله الدالة على توحيده لأن الفقه هو الفهم. قوله عز وجل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء﴾ يعني المطر وقيل إن الله ينزل المطر من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض ﴿فأخرجنا به﴾ يعني بالماء الذي أنزلناه من السماء ﴿نبات كل شيء﴾ يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات، وقيل معناه أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء غذاء كل شيء من: الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون ﴿فأخرجنا منه خضراً﴾ يريد أخضر مثل عور وأعور. والأخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة ﴿نخرج منه حباً متراكباً﴾ يعني: يخرج من ذلك الأخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل: سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر لأنه القوت المألوف ﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية﴾ يعني من ثمرها. يقال: أطلعت النخلة إذا أخرجت طلعها وطلعها كفراها قبل أن ينشق عن الإغريض. والإغريض: يسمى طلعاً أيضاً وهو ما يكون في قلب الطلع والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فإذا شق عنه كيزانه سمي عذقاً وهو القنو وجمعه قنوان مثل: صنو وصنون. دانية أي قريبة التناول ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد: متدلية. وقال الضحاك: قصار ملتصقة بالأرض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ومنها ما هي بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولاً من البعيدة لأن البعيدة تحتاج إلى كلفة ﴿وجنات من أعناب﴾ يعني وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب ﴿والزيتون والرمان﴾ يعني وأخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان ﴿مشتبهاً﴾ قال قتادة مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ﴿وغير متشابه﴾ يعني ومنها غير متشابه في الورق والطعم. واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار لأن الزرع غذاء وثمار أشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وإنما

[الفرقان: ٧٦]، وفي صفة أهل النار: ﴿ساءتْ مُستقراً ومُقاماً﴾ [الفرقان: ٦٦] ﴿قدْ فصَّلْنا الآياتِ لقومٍ يفقهُون﴾.

﴿وهوَ الذي أنزلَ منَ السماءِ ماءً فأخرَجْنا بِهِ﴾، أي: بالماء، ﴿نباتَ كلِّ شيءٍ فأخرَجْنا منه﴾، من الماء، وقيل: من النبات، ﴿خَضِراً﴾، يعني: اخضرّ، مثل العور والأعور: يعني: ما كان رطباً أخضر مما ينبت من القمح والشعير ونحوهما، ﴿نُخرجُ منه حبّاً مُتراكِباً﴾، أي متراكباً بعضه على بعض، مثل سنابل البُرّ والشعير والأرز وسائر الحبوب، ﴿ومِنَ النّخلِ مِن طَلْعِها﴾، والطَّلع أول ما يخرج من ثمر النخل، ﴿قِنْوانٌ﴾ جمع قِنْو وهو العِذق، مثل صنو وصنوان ولا نظير لهما في الكلام، ﴿دانيةٌ﴾، أي: قريبة المتناول ينالها القائم والقاعد، وقال مجاهد: متدلية، وقال الضحاك: قصار ملتزمة بالأرض، وفيه اختصار معناه: ومن النخل ما قنوانها دانية ومنها ما هي بعيدة، فاكتفي بذكر القريبة عن البعيدة لسبقه إلى الأفهام، كقوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] يعني: الحرَّ والبَرْد فاكتفى بذكر أحدهما، ﴿وجنّاتٍ من أعناب﴾، أي: وأخرجنا منه جنّات، وقرأ الأعمش عن عاصم «وجنّـاتٌ» بالرفع نسقاً على قوله: ﴿قنوان﴾ وعامّة القرّاء على خلافة، ﴿والزيتون والرُّمانَ﴾، يعني: وشجر الزيتون وشجر الرمّان، ﴿مشتبهاً وغيرَ مُتشابهٍ﴾، قال قتادة: معناه مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها، لأن ورق الزيتون

قدم النخلة على غيرها لأن ثمرتها تجري مجرى الغذاء، وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار وإنما ذكر العنب عقب النخلة؛ لأنها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه الرمان لما فيه من المنافع أيضاً لأنه فاكهة ودواء ثم قال تعالى: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ يعني ونضجه وإدراكه. والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله تعالى هذه التمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله: ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ يعني يصدقون أن الذي أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيـي الموتى ويبعثهم وإنما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال إلى حال وهو ما يعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها وإخراج سائر أنواع النبات والثمار منها وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم ويبعثهم يوم القيامة فاحتج عليهم بهذه الأشياء لأنهم كانوا ينكرون البعث قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ قال الحسن: معناه أطاعوا الجن في عبادة الأوثان. وهو اختيار الزجاج. قال: معناه إنهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله. وقال الكلبي: نزلت في الزنادقة أثبتوا الشرك لاثنين في الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ونقل هذا القول ابن الجوزي عن ابن السائب ونقله الرازي عن ابن عباس. قال الإمام فخر الدين: وهذا مذهب المجوس. وإنما قال ابن عباس: هذا قول الزنادقة، لأن المجوس يلتبسون بالزندقة، لأن الكتاب الذي زعم زرادشت أنه نزل من السماء سماه بالزند والمنسوب إليه زندي ثم عرب: فقيل: زنديق فإذا جمع، قيل: زنادقة. ثم إن المجوس قالوا: كل ما يكون في هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعني النور وجميع ما في العالم من الشر فهو من الظلمة يعني إبليس ثم اختلف المجوس فالأكثرون منهم على أن إبليس محدث ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجيبة والأقلون منهم قالوا: إنه قديم وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على أنه شريك الله في تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن إبليس تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً.

فإن قلت فعلى هذا القول إنما أثبتوا لله شريكاً واحداً وهو إبليس فكيف حكى الله أنهم جعلوا له شركاء قلت: إن إبليس له أعوان من جنسه وحزبه وهم شياطين الجن يعملون أعماله فصح ما حكاه الله عنهم من أنهم جعلوا له شركاء الجن ومعنى الآية وجعلوا الجن شركاه لله واختلفوا في معنى هذه الشركة فمن قال إن الآية في كفار العرب قال إنهم

يشبه ورق الرمّان، وقيل: مشتبه في المنظر مختلف في الطعم، ﴿ انظروا إلى ثمره ﴾، قرأ حمزة والكسائي بضمّ الثاء والميم، هذا وما بعده وفي يّس على جمع الثمار، وقرأ الآخرون بفتحهما على جمع الثمرة مثل بقرة وبقر، ﴿ إذا أثمرَ وينْعِهِ ﴾، ونضجه وإدراكه، ﴿ إنّ في ذلكم لآياتٍ لقوم يُؤمنُون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وجعلُوا للَّهِ شُركاءَ الجِنّ ﴾، يعني: الكافرين جعلُوا للَّهِ شركاء الجن، ﴿ وخَلَقَهُمْ ﴾، يعني: وهو خلق الجن، قال الكلبي: نزلت في الزنادقة أثبتوا الشركة لإبليس في الخلق، فقالوا: الله خالق النور والناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسِّباع والحيّات والعقارب، وهذا كقوله: ﴿ وجعلُوا بينَه وبينَ

لما أطاعوا الجن فيما أمروهم به من عبادة الأصنام فقد جعلوهم شركاء لله ومن قال إنها في المجوس قال إنهم أثبتوا إلهين اثنين النور والظلمة، وقيل إن كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لأنهم مستورون عن الأعين.

وقوله ﴿وخلقهم﴾ في معنى الكناية قولان: **أحدهما**: أنها تعود إلى الجن فيكون المعنى: والله خلق الجن فكيف يكون شريك الله من هو محدث مخلوق.

والقول الثاني: إن الكناية تعود إلى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى: وجعلوا لله الذي خلقهم شركاء لا يخلقون شيئاً.

وهذا كالدليل القاطع بأن المخلوق لا يكون شريكه لله وكل ما في الكون محدث مخلوق والله تعالى هو الخالق لجميع ما في الكون فامتنع أن يكون لله شريك في ملكه ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ أي اختلقوا وكذبوا يقال: اختلق واخترق على فلان إذا كذب عليه وذلك أن النصارى وطائفة من اليهود ادعوا أن لله ابناً، وكفار العرب ادعوا أن الملائكة بنات الله وكذبوا على الله جميعاً فيما ادعوه وقوله ﴿بغير علم﴾ كالتنبيه على ما هو الدليل القاطع على فساد هذا القول لأن الولد جزء من الأب والله سبحانه وتعالى لا يتجزأ فثبت بهذا فساد قول من يدعي أن لله ولداً ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد وعن هذه الأقاويل الفاسدة فقال تعالى: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فقوله سبحانه فيه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وقوله تعالى يعني هو المتعالي عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد، أو يكون المعنى: المتعالي عن اتخاذ الولد والتشريك وقوله ﴿عما يصفون﴾ يعني عما يصفونه به من الكذب.

قوله عز وجل: ﴿بديع السموات والأرض﴾ الإبداع عبارة عن تكوين الشيء على غير مثال سبق والله تعالى خلق السموات والأرض على غير مثال سبق ﴿أنى يكون له ولد﴾ يعني من أين يكون له ولد ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ لأن الولد لا يكون إلا من صاحبة أنثى ولا ينبغي أن تكون لله صاحبة لأنه ليس كمثله شيء ﴿وخلق كل شيء﴾ يعني أن الصاحبة والولد في جملة من خلق لأنه خالق كل شيء وليس كمثله شيء فكيف يكون الولد لمن لا مثل له وإذا نسب الولد والصاحبة إليه فقد جعل له مثل والله تعالى منزه عن المثلية وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ يعني أنه تعالى عالم بجميع خلقه لا يعزب عن علمه شيء وعلمه محيط بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ يعني ذلكم الله الذي من صفته أنه خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير

الجِنَّة نسباً﴾ [الصَّافَّات: ١٥٨]، وإبليس من الجن، ﴿وخرقُوا﴾ بتشديد الراء على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: اختلقوا ﴿له بنينَ وبناتٍ بغيرِ علم﴾، وذلك مثل قول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، وقول كفّار مكة الملائكة بنات الله، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿ سبحانَهُ وتعالى عمّا يصفُون﴾.

﴿بديعُ السمٰواتِ والأرضِ﴾، أي: مبدعهما لا على مثال سبق، ﴿أنّى يكونُ له ولد﴾، أي: كيف يكون له ولد؟ ﴿ولم تكنْ له صاحبةٌ﴾، زوجة، ﴿وخلقَ كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم﴾.

﴿ذلكمُ اللّهُ ربكم لا إلٰهَ إلاّ هوَ خالقُ كلِّ شيءٍ فاعبدوه﴾، فأطيعُوه، ﴿وهو على كلِّ شيءٍ وَكيل﴾، بالحفظ له والتدبير، ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهو يُدرِكُ الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يتمسك أهل الاعتزال بظاهر هذه الآية في نفي رُؤية الله عزّ وجلّ عياناً، ومذهب أهل السُّنّة إثبات رؤية الله عزّ وجلّ عياناً قال الله تعالى: ﴿وُجوهٌ يومئذ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢ و٢٣]، قال: ﴿كلاّ إنّهم عنْ ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [المطفّفين: ١٥] قال مالك رضي الله عنه: لو لم يرَ المؤمنون ربَّهم يوم القيامة لم يعيِّرِ اللّهُ الكفّارَ بالحجاب، وقرأ النبي ﷺ: ﴿للذينَ

مثال سبق ﴿وأنه بكل شيء عليم﴾ هو ربكم الذي يستحق العبادة لا من تدعون من دونه من الأصنام لأنها جمادات لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم والله تعالى هو الخالق الضار النافع ﴿لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه﴾ يعني أنه هو الذي يستحق العبادة فاعبدوه وأطيعوه ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ يعني أنه هو تعالى على كل شيء خلق رقيب حفيظ، يقوم بأرزاق جميع خلقه.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ قال جمهور المفسرين معنى: الإدراك الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته فالأبصار ترى الباريء جل جلاله ولا تحيط به كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به. وقال سعيد بن المسيب في تفسيره: قوله لا تدركه الأبصار، لا تحيط به الأبصار. وقال ابن عباس: كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به.

(فصل)

تمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع ووهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا: إن الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وإن رؤيته مستحيلة عقلاً، لأن الله أخبر أن الأبصار لا تدركه وإدراك البصر عبارة عن الرؤية، إذ لا فرق بين قوله أدركته ببصري ورأيته ببصري فثبت بذلك أن قوله لا تدركه الأبصار بمعنى لا تراه الأبصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة وأن رؤيته غير مستحيلة عقلاً واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ ففي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ قال الشافعي رحمه الله: حجب قوماً بالمعصية وهي الكفر فثبت أن قوماً يرونه بالطاعة وهي الإيمان وقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكفار بالحجاب وقال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ وفسروا هذه الزيادة بالنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى يوم القيامة.

وأما دلائل السنة فما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال «كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع

أحسنُوا الحُسْنَى وزِيَادة ﴾ [يونس: ٢٦]، وفسّره بالنظر إلى وجه الله عزّ وجلّ. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن موسى ثنا عاصم بن يوسف اليربوعي أنا أبو شهاب عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن حازم عن جرير بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «إنّكم سترَوْنَ ربّكم عياناً».

وأمّا قوله: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾، علم أن الإدراك هو الوقوف لأن الإدراك هو الوقوف على كُنهِ الشيء والإحاطة به والرؤية المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فلما تراءى الجمعان قالَ أصحابُ موسَى إنّا لَمُدرَكُون ﴾ [الشعراء: ٦١]، قال: كلا، وقال: ﴿ لا تخافُ دركاً ولا تخشى ﴾

الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «أن ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ هل تضامون في القمر ليلة البدر؟ قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا لا يا رسول الله قال رسول الله ﷺ فإنكم ترونه» كذلك أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي وليس عنده في أوله أن أناساً سألوا ولا في آخره ليس دونها سحاب. عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة؟ قال: نعم قلت وما آية ذلك من خلقه؟ قال: يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به قلت بلى قال: «فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله جل وأعظم» أخرجه أبو داود وأما الدلائل العقلية، فقد احتج أهل السنة أيضاً بهذه الآية عى جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وتقريره، أنه تعالى تمدح بقوله لا تدركه الأبصار فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل هذا التمدح لأن المعدوم لا يصح التمدح به فثبت أن قوله لا تدركه الأبصار يفيد المدح، وهذا يدل على أنه تعالى جائز الرؤية وتحقيق هذا أن الشيء إذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم، أما إذا كان في نفسه جائز الرؤية. ثم إنه قدر على حجب الأبصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائز الرؤية وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة، لأن موسى ﷺ سأل الرؤية بقوله: أرني أنظر إليك وذلك يدل على جواز الرؤية، إذ لا يسأل نبي مثل موسى ما لا يجوز ويمتنع وقد علق الله الرؤية على استقرار الجبل بقوله فإن استقر مكانه فسوف تراني. استقرار الجبل جائز. والمعلق على الجائز جائز. وأما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية في نفي الرؤية، فاعلم أن الإدراك غير الرؤية، لأن الإدراك هو الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته، والرؤية: المعاينة للشيء من غير إحاطة. وقد تكون الرؤية بغير إدارك كما قال تعالى في قصة موسى: قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لكن قاربوا إدراكهم إياه فنفى موسى الإدراك مع إثبات الرؤية بقوله كلا والله تعالى يجوز أن يرى في الآخرة من غير إدراك ولا إحاطة لأن الإدراك هو الإحاطة بالمرئي وهو ما كان محدوداً وله جهات والله تعالى منزه عن الحد والجهة لأنه القديم الذي لا نهاية لوجوده فعلى هذا أنه تعالى يرى ولا يدرك وقال قوم: إن الآية مخصوصة بالدنيا. قال ابن عباس في معنى الآية: لا تدركه الأبصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة وعلى هذا القول فلا فرق بين الإدراك والرؤية قالوا ويدل على هذا التخصيص قوله: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فقوله: ﴿يومئذ ناضرة﴾ مقيد بيوم القيامة على هذا يمكن الجمع بين الآيتين وقال السدي: البصر بصران: بصر معاينة وبصر علم فمعنى قوله **﴿لا تدركه الأبصار﴾** لا

[طٰه: ٧٧]، فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، فالله عزّ وجلّ يجوّز أن يُرى من غير إدراك وإحاطة كما يُعرف في الدنيا ولا يُحاط به، قال الله تعالى: ﴿ ولا يُحيطون به علماً ﴾ [طٰه: ١١٠]، فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم، قال سعيد بن المسيب: لا تُحيط به الأبصار، وقال عطاء: كَلَّتْ أبصار المخلوقين عن الإحاطة به، وقال ابن عباس ومقاتل: لا تُدركه الأبصار في الدنيا، وهو يُرى في الأخرة، قوله: ﴿ وهو يُدرِك الأبصار ﴾، أي: لا يخفَى على الله شيء ولا يفوته، ﴿ وهو اللّطيفُ الخبيرُ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما، اللطيف بأوليائه الخبير بهم، وقال الزهري معنى ﴿ اللطيف ﴾ الرفيق بعباده، وقيل: اللطيف الموصل الشيء باللين والرفق، وقيل: اللطيف الذي يُنسي العبادَ ذنوبَهم لئلا يخجلوا، وأصل اللطف دقّة النظر في الأشياء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قدْ جاءَكمْ بصائرُ مِّن رَّبكم ﴾، يعني: الحجج البيّنة التي تبصرون بها الهُدى من الضلالة والحق من الباطل، ﴿ فمَن أبصر ﴾، أي: فمَن عرفها وآمن بها ﴿ فلنفْسِهِ ﴾، عمله ونفعه له، ﴿ ومَنْ عَمِيَ فعليها ﴾، أي: مَن عمي عنها فلم يعرفها ولم يصدّقها فعليها، أي: بنفسه ضرٌ، وَوبال العمى عليه، ﴿ وما أنا

يدركه علم العلماء ونظيره ولا يحيطون به علماً هذا وجه حسن أيضاً والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿**وهو يدرك الأبصار**﴾ يعني أنه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لا يخفى عليه شيء منها ويعلم حقيقتها ومطلع على ماهيتها فهو تعالى لا تدركه أبصار المبصرين وهو يدركها ﴿**وهو اللطيف الخبير**﴾ قال ابن عباس: بأوليائه الخبير بهم. وقال الزهري: معنى اللطيف الرفيق بعباده. وقيل هو الموصل الشيء إليك برفق ولين. وقيل هو الذي ينسى عباده ذنوبهم لئلا يخجلوا وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء. وقال أبو سليمان الخطابي: اللطيف هو اللين بعباده يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويوصل إليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون. وقال الأزهري: اللطيف في أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده. وقيل: هو اللطيف حيث لم يأمر عباده بفوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم. وقيل: هو اللطيف بعباده حيث يثني عليهم عند الطاعة ولم يقطع عنهم بره وإحسانه عند المعصية. وقيل: هو الذي لطف عن أن تدركه الأبصار وهو يدركها.

قوله تعالى: ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم**﴾ البصائر: جمع البصيرة، وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به. والمعنى: قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل. وقيل: إن الآيات والبراهين ليست في أنفسها بصائر إلا أنها لقوّتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين أسباباً لحصول البصائر سميت بصائر ﴿**فمن أبصر**﴾ يعني فمن عرف الآيات واهتدى بها إلى الحق ﴿**فلنفسه**﴾ يعني فلنفسه أبصر ولها عمل لأنه يعود نفع ذلك عليه ﴿**ومن عمي**﴾ يعني ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها إلى الطريق ﴿**فعليها**﴾ يعني فعلى نفسه عمى ولها ضر وكان وبال ذلك العمى عليه لأن الله تعالى غني عن خلقه ﴿**وما أنا عليكم بحفيظ**﴾ يعني وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم إنما أنا رسول من ربكم إليكم أبلغكم ما أرسلت به إليكم والله هو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم. وقيل معناه لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم وقيل معناه لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ الوكيل وهذا كان قبل الأمر بقتال المشركين فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآيات السيف وعلى القول الأول ليست منسوخة والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿**وكذلك نصرف الآيات**﴾ يعني وكذلك نبين الآيات ونفصلها في كل وجه كما صرفناها وبيناها من قبل ﴿**وليقولوا درست**﴾ يعني وكذلك نصرف الآيات لتلزمهم الحجة وليقولوا درست. وقيل: معناه لئلا يقولوا درست وقيل اللام فيه لام العاقبة ومعناه عاقبة أمرهم أن يقولوا درست يعني قرأت على غيرك. يقال: درس الكتاب يدرسه دراسة إذا أكثر قراءته وذلله للحفظ. قال ابن عباس: وليقولوا، يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درست يعني تعلمت من يسار وجبر وكانا عبدين من سبي الروم ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله وقال الفراء: معناه تعلمت

عليكم بحفيظ ﴾، برقيب أُحصي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسول أبلغكم رسالاتِ ربّي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أفعالكم.

﴿ وكذلك نُصرِّفُ الآيات ﴾، نفصّلها ونبيّنها في كل وجه، **﴿ وَلِيَقُولُوا ﴾**، قيل: معناه لئلا يقولوا، **﴿ دَرَسْتَ ﴾**، وقيل: اللام لام العاقبة أي عاقبة أمرهم أن يقولوا: درست، أي قرأت على غيرك، وقيل: قرأت كتب أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ﴾ [القصص: ٨]، ومعلوم أنهم لم يلتقطوه لذلك، ولكن أراد أن عاقبة أمرهم أن كان عدوّاً لهم، قال ابن عباس: وليقولوا يعني: أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درستَ أي: تعلّمتَ من يسار وجبر كانا عبدين من سبي الروم، ثم قرأتَ علينا تزعم أنه من عند الله،

من اليهود وقرىء دارست بالألف بمعنى قارأت أهل الكتاب من المدارسة التي هي بين اثنين يعني يقولون قرأت على أهل الكتاب وقرؤوا عليك وقرىء درست بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء ومعناه أن هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة فدرست وانمحت من قولهم فرس الأثر إذا محي وذهب أثره ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾ يعني القرآن وقيل: معناه نصرف الآيات لقوم يعلمون. قال ابن عباس: يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد وقيل: معنى الآية وكذلك نصرف الآيات ليسعد بها قوم ويشقى بها آخرون فمن أعرض عنها وقال النبي ﷺ: درست أو درست فهو شقي ومن تبين له الحق وفهم معناها وعمل بها فهو سعيد وقال أبو إسحاق: إن السبب الذي أداهم إلى أن قالوا درست هو تلاوة الآيات عليهم وهذه اللام تسميها أهل اللغة لام الصيرورة يعني صار عاقبة أمرهم أن قالوا دارست فصار ذلك سبباً لشقاوتهم وفي هذا دليل على أن الله تعالى جعل تصريف الآيات سبباً لضلالة قوم وشقاوتهم وسعادة قوم وهدايتهم قوله تعالى:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه إلى البادي ولا تلتفت إلى قول من يقول: دارست أو درست. وفي قوله اتبع ما أوحي إليك من ربك تعزية لقلب النبي ﷺ وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست ونبه بقوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾ أنه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له وإذا كان كذلك فإنه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين وقوله تعالى: ﴿وأعرض عن المشركين﴾ قيل: المراد منه في الحال لا الدوام وإذا كان كذلك لم يكن النسخ وقيل: المراد ترك مقالتهم فعلى هذا يكون الأمر بالإعراض منسوخة بآية القتال قوله عز وجل: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ قال الزجاج: معناه لو شاء الله لجعلهم مؤمنين وهذا نص صريح في أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافاً للمعتزلة في قولهم لم يرد من أحد الكفر والشرك فالآية رد عليهم ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ يعني:

من قولهم: درست الكتاب أدْرس درساً ودراسةً، وقال الفرّاء رحمه الله: يقولون تعلّمت من اليهود، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: (دارســت)، بالألف، بفتح السين وسكون التاء، أي: هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة، قد درست وانمحت، من قولهم درس الأثر يدرس دروساً. ﴿ ولِنُبَيِّنَهُ لقومٍ يعلمُون ﴾، أي: القرآن، وقيل: نُصرِّف الآيات لقوم يعلمون، قال ابن عباس: يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد، وقيل: يعني أن تصريف الآيات ليشقى بها قوم ويسعد بها قوم آخرون، فمَن قال: درست فهو شقي ومَن تبيّن له الحق فهو سعيد.

﴿ اتبِعْ ما أُوحيَ إليكَ مِن ربِّك ﴾، يعني: القرآن اعمل به، ﴿ لا إلَه إلّا هو وأعرِضْ عَنِ المشركين ﴾، فلا تجادلهم.

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾، أي: ولو شاء لجعلهم مؤمنين، ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾، رقيباً، قال عطاء: وما جعلناك عليهم حفيظاً تمنعهم منّي، أي: لم تُبعَث لتحفظ المشركين من العذاب إنّما بُعِثتَ مبلّغاً. ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾.

وما جعلناك يا محمد على هؤلاء المشركين رقيباً ولا حافظاً تحفظ عليهم أعمالهم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: وما جعلناك عليهم حفيظاً تمنعهم منّا ومعناه إنك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب وإنما بعثت مبلّغاً فلا تهتم بشركهم فإن ذلك بمشيئة الله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ يعني وما أنت عليهم بقيِّم تقوم بأرزاقهم وما أنت عليهم بمسيطر، فعلى التفسير الأول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى قول ابن عباس: لا تكون منسوخة.

قوله تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ الآية قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم وقال قتادة: كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله لأنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل. وقال السدي: لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا بنا لندخل على هذ الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلما مات قتلوه. فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه فدعاه جاء النبي ﷺ: فقال له أبو طالب: إن هؤلاء قومك وبنو عمك فقال رسول الله ﷺ وما يريدون؟ قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك. فقال له أبو طالب: قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبي ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم هذا فهل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وأدت لكم الخراج؟ فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي؟ فقال: قولوا لا إله إلا الله «فأبوا ونفروا» فقال أبو طالب: قل غيرها يا ابن أخي فقال: يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها إرادة أن يؤيسهم فقالوا: لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك فأنزلت: ﴿ولا تسبوا الذين تدعون من دون الله﴾ يعني ولا تسبوا أيها المؤمنون الأصنام التي يعبدها المشركون فيسبوا الله عدواً بغير علم يعني فيسبوا الله ظلماً بغير علم لأنهم جهلة بالله عز وجل. قال الزجاج: نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الأصنام التي كانت عبدها المشركون. وقال ابن الأنباري: هذه الآية منسوخة أنزلها الله عز وجل والنبي ﷺ بمكة فلما قواه بأصحابه نسخ هذه الآية ونظائرها بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. وقيل إنما نهوا عن سب الأصنام وإن كان في سبها طاعة وهو مباح لما يترتب على ذلك من المفاسد التي هي أعظم من ذلك وهو سب الله عز وجل وسب رسوله وذلك من أعظم المفاسد فلذلك نهوا عن سب الأصنام وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ لا تسبوا آلهتكم فيسبوا ربكم فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم فظاهر الآية وإن كان

﴿ ولا تسبُّوا الذين يدعُون مِن دُونِ الله ﴾ الآية، قال ابن عباس: لمّا نزلت: ﴿ إنّكم وما تعبدون مِن دُونِ اللّهِ حَصَبُ جهنّم ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: يا محمد لتنتهينّ عن سبّ آلهتنا أو لنهجونّ ربّك، فنهاهم الله تعالى أن يسبّوا أوثانهم، وقال قتادة: كان المسلمون يسبّون أصنام الكفّار، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك، لئلا يسبُّوا الله فإنهم قوم جَهَلَة، وقال السدي: لمّا حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمرنّه أن ينهى عنّا ابنَ أخيه فإنّا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه عمّه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأُمَيَّة وأُبَيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي مُعيط وعمرو بن العاص، والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرُنا وسيّدُنا وإن محمداً قد آذانا وآلهتنا، فنحبّ أن تدعوه وتنهاه عن ذلك، وعن ذكر آلهتنا، ولندعنّه وإلّهه، فدعاه فقال: يا محمد هؤلاء قومك يقولون نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلّهك، وقد أنصفك قومك فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم أن أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة إن

نهياً عن سب الأصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى لأنه سبب لذلك.

وقوله تعالى: ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ يعني كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل أمه عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه.

وقوله تعالى: ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ يعني المؤمن والكافر والطائع والعاصي ﴿فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ يعني في الدنيا ويجازيهم على ذلك.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ قال محمد بن كعب القرظي والكلبي: قالت قريش يا محمد إنك تخبرنا أن موسى كانت له عصاً يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى فأتنا بآية حتى نصدقك ونؤمن بك فقال رسول الله ﷺ: أي شيء تحبون؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل؟ وأرنا الملائكة يشهدون لك؟ قال رسول الله ﷺ: إن فعلت بعض ما تقولون أتصدقوني؟ قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون. وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله ﷺ وجعل يدعو الله عز وجل أن يجعل الصفا ذهباً فجاءه جبريل فقال ما شئت إن شئت أصبح ذهباً ولكن إن لم يصدقوك لنعذبهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله ﷺ بل يتوب تائبهم فأنزل الله عز وجل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني أوكد ما

تكلمتُم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم»؟ فقــال أبو جهل: نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها، قال: فما هي؟ قال: «قولوا لا إله إلاّ الله»، فأبَوْا أو تفرقوا فقال أبو طالب: قلْ غيرها يا ابنَ أخي، فقال: «يا عمُّ ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يديْ»، فقالوا له: لتكفنَّ عن سبِّك آلهتنا أو لنشتمنّك ونشتمنَّ مَن يأمرك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تسبّوا الذين يدعُون من دُونِ الله ﴾، يعني: الأوثان، ﴿ فيسبُّوا الله عَدْواً ﴾، أي: اعتـداءً وظلماً، ﴿ بغير علم ﴾، قرأ يعقـوب «عُدُواً» بضم العين والـدال وتشديـد الواو، فلمّـا نزلت هـذه الآيـة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا تسبُّوا رَبَّكم»، فأمسك المسلمون عن سبِّ آلهتهم. وظاهر الآية وإنْ كان نهياً عن سبِّ الأصنام فحقيقته النهي عن سبِّ الله تعالى، لأنه سبب لذلك، و﴿ كذلك زيَّنا لكلِّ أمَّةٍ عملَهم ﴾، أي: كما زيَّنّا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان، كذلك زيَّنّا لكل أُمة عملَهم من الخير والشر والطاعة والمعصية، ﴿ ثم إلى ربِّهم مرجعُهم فينبئُهم ﴾، ويُجازيهم، ﴿ بما كانُوا يعملُون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأقسمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ الآية. قال محمد بن كعب القرظي والكلبي: قالت قريش يا محمد إنك تخبرنا أن موسى عليه السلام كان معه عصاً يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: «أيَّ شيء تحبّون»؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً وابعثْ لنا بعض موتانا حتى نسأله عنك أحقٌّ ما تقول أم باطل، وأرِنا الملائكة يشهدون لك، فقال رسول الله ﷺ: «فإن فعلتُ بعض ما تقولون أتصدقوني»؟ قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون، وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول الله ﷺ يدعو الله أن يجعل الصفا ذهباً

قدروا عليه من الأيمان وأشدها. قال الكلبي ومقاتل: إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه ﴿لئن جاءتهم آية﴾ يعني كما جاءت من قبلهم من الأمم ﴿ليؤمنن بها﴾ يعني ليصدقن بها ﴿قل﴾ يعني قل يا محمد ﴿إنما الآيات عند الله﴾ يعني أن الله تعالى قادر على إنزالها ﴿وما يشعركم﴾ يعني: وما يدريكم. ثم اختلف في المخاطبين بقوله وما يشعركم فقيل هو خطاب للمشركين الذين أقسموا بالله وقيل هو خطاب للمؤمنين واختلفوا في قوله ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ فقرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم إنها بكسر الألف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله وما يشعروكم على معنى وما يدريكم ما يكون منهم ثم ابتدأ فقال: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ فمن جعل الخطاب للمشركين قال معناه وما يشعركم أيها المشركون أنها يعني الآيات إنها إذا جاءت آمنتم. ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه وما يشعركم أيها المؤمنون إذا جاءت آمنوا لأن المؤمنين كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله أن يريهم ما اقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم الله بقوله: ﴿وما يشعركم﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى إنها: ﴿إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عز وجل عليهم بأنهم لا يؤمنون وذلك لسابق علمه فيهم وقرأ الباقون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب في ذلك للمؤمنين لأن المؤمنين هم الذين سألوا رسول الله ﷺ إنزال الآيات حتى يؤمن المشركون بها إذا رؤوها لأن المشركين كانوا حلفوا أنهم إذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا واتبعوا رسول الله ﷺ فأحب أصحاب رسول الله ﷺ إنزال الآيات لذلك فقال الله تعالى: وما يشعركم أيها المؤمنون أن الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون فعلى هذا اختلفوا في لفظة لا من قوله لا يؤمنون فقيل هي صلة والمعنى وما يشعركم إنها إذا جاءت يؤمنون وقيل هي على بابها وفيه حذف والمعنى وما يشعركم أنها إذا جاءتهم يؤمنون أو لا يؤمنون وقيل إن بمعنى لعل في قوله إنها إذا جاءت وكذلك هو في قراءة أبيّ بن كعب لعلها إذا جاءت وهذا سائغ في كلام العرب تقول العرب: أئت السوق أنك

فجاءه جبريل عليه السلام، فقال له: ما شئت إن شئت أصبح ذهباً ولكن إن لم يصدقوا عذّبتهم، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبُهم، فقال رسول الله ﷺ: «بلْ يتوب تائبهُم»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾، أي: حلفوا بالله جهد أيمانهم، أي: بجهد أيمانهم، يعني أوْكد ما قدروا عليه من الأيمان وأشدّها، قال الكلبي ومجاهد: إذا حلف الرجل بالله، فهوجهد يمينه، ﴿ لئن جاءتْهم آيةٌ ﴾، كما جاءت من قبلهم من الأمم، ﴿ لَيُؤمِنُنَّ بها قُلْ ﴾، يا محمد، ﴿ إنّما الآيات عندَ الله ﴾، والله قادر على إنزالها، ﴿ وما يُشعركم ﴾، وما يدريكم، واختلفوا في المخاطبين بقوله: ﴿ وما يشعركم ﴾، فقال بعضهم: الخطاب للمشركين الذين أقسموا، وقال بعضهم: الخطاب للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿ أنها إذا جاءتْ لا يؤمنُون ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم «إنّها» بكسر الألف على الابتداء، وقالوا: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ وما يشعركم ﴾، ثم مَن جعل الخطاب للمشركين قال معناه: وما يُشعركم أيها المشركون أنها لو جاءتْ آمنتم؟ ومَن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه: وما يُشعركم أيها المؤمنون أنها لو جاءت آمنوا؟ لأن المسلمين كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله حتى يريهم ما اقترحوا حتى يُؤمنوا فخاطبهم بقوله: ﴿ وما يشعركم ﴾ ثم ابتدأ فقال جلّ ذكره: ﴿ أنها إذا جاءتْ لا يُؤمنون ﴾، وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عليهم بأنهم لا يؤمنون، وقرأ الآخرون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب للمؤمنين، واختلفوا في قوله: ﴿ لا يؤمنون ﴾، فقال الكسائي: ﴿ لا ﴾ صلة، ومعنى الآية: وما يشعركم أيها المؤمنون إذا جاءت أن المشركين يؤمنون؟ كقوله: ﴿ وحرامٌ على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أي: يرجعون وقيل: إنها بمعنى لعلّ، وكذلك هو في قراءة أُبيّ، تقول العرب: اذهب إلى السوق أنك تشتري شيئاً، أي: لعلك، وقال عدي بن زيد: (أعاذل ما يدريك أن منيتي، إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد) أي: لعلّ منيتي، وقيل: فيه حذف وتقديره: وما يُشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو لا يؤمنون؟ وقرأ ابن عامر وحمزة (لا

تشتري لنا شيئاً، بمعنى لعلك ومنه قول عدي بن زيد:

أعاذل ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

يعني لعل منيتي.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾

قوله تعالى: ﴿**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم**﴾ قال ابن عباس: يعني ونحول بينهم وبين الإيمان فلو جئناهم بالآيات التي سألوها لما آمنوا بها. والتقليب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر لأن الله تعالى إذا صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر ﴿**كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾ يعني كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات، وقيل: أول مرة يعني الآيات التي جاء بها موسى وغيره من الأنبياء.

وقال ابن عباس: المرة الأولى دار الدنيا يعني لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم وفي الآية دليل على أن الله تعالى: ﴿**يهدي من يشاء ويضل من يشاء**﴾ وأن القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها ومنه قوله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فمعنى قوله بقلب أفئدتهم نزيغها عن الإيمان ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وإن جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فعلى هذا تكون الكناية في به عائدة على الإيمان بالقرآن وبما جاء به رسول الله ﷺ قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها.

وقوله تعالى: ﴿**ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ يعني ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق علم الله أنهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لا يهتدون إلى الحق.

قوله عز وجل: ﴿**ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة**﴾ قال ابن جريج: نزلت في المستهزئين، وذلك أنهم أتوا إلى رسول الله ﷺ في نفر من قريش، فقالوا: يا محمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدن لك أنك رسول الله ﷺ، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً فنزلت هذه الآية جواباً لهم. والمعنى: ولو أنا نزلنا إليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة ﴿**وكلمهم الموتى**﴾ يعني كما سألوا ﴿**وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً**﴾ يعني وجمعنا عليهم كل شيء قبلاً قبيلاً، قيل القبيل الكفيل بصحة ما تقول ما آمنوا وهو قوله: ﴿**ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله**﴾ يعني إلا أن يشاء الله الإيمان منهم وفيه دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى حتى الإيمان والكفر،

تـؤمنون) بالتاء على الخطاب للكفّار واعتبروا بقراءة أُبيّ: إذا جاءتكم لا تؤمنون، وقرأ الآخرون بالياء على الخبر، دليلها قراءة الأعمش: أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون.

﴿ **ونُقَلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يُؤمنوا به أوّلَ مرّة** ﴾، قال ابن عباس: يعني ونحول بينهم وبين الإيمان، فلو جئناهم بالآيات التي سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا به أول مرة، أي: كما لم يؤمنوا بما قبلها مرة، أي: كما لم يؤمنوا بما قبلها من الآيات من انشقاق القمر وغيره، وقيل: كما لم يُؤمنوا به أول مرة، يعني: معجزات موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿ أوَلم يكفروا بما أُوتي موسى من قبل ﴾ [القصص: ٤٨]،

وموضع المعجزة أن الأشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت فإذا أنطق الله الكل حتى يشهدوا له بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الإعجاز. وقيل قبلاً من المقابلة والمواجهة، والمعنى: وحشرنا عليهم كل شيء مواجهة ومعاينة ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ أخبر الله أن الإيمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا لم يؤمنوا، وقال ابن عباس: ما كانوا ليؤمنوا هم أهل الشقاء إلا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أنهم يدخلون في الإيمان. وصحح الطبري قول ابن عباس قال: لأن الله عم بقوله ما كانوا ليؤمنوا القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ ثم استثنى منهم أهل السعادة وهم الذين شاء لهم الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ يعني يجهلون أن ذلك كذلك ويحسبون أن الإيمان إليهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا كفروا، وليس الأمر كذلك بل الإيمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفي هذا دليل لمذهب أهل السنة أن الأشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة في قولهم: إن الله أراد الإيمان من جميع الكفار.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً﴾ قيل هو منسوق على قوله تعالى كذلك زينّا لكل أمة عملهم، أي كما فعلنا ذلك كذلك جعلنا لكل نبي عدواً. وقيل: معناه كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء كذلك جعلنا لك أعداء وفيه تعزية للنبي ﷺ وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى: كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك عدواً ليعظم ثوابه على ما يكابده من أذى أعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعني جعلنا لكل نبي أعداء ﴿شياطين الإنس والجن﴾ اختلف العلماء في معنى شياطين الإنس والجن على قولين:

وفي الآية محذوف تقديره فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المرّة الأولى دار الدنيا، يعني لو رُدّوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا في الدنيا قبل مماتهم، كما قال: ﴿ ولو رُدّوا لعادُوا لما نُهوا عنه ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿ ونَذَرُهُمْ في طُغيانِهِم يعمهُون ﴾، قال عطاء: نخذلهم وندعهم في ضلالتهم يتمادون.

﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾، فرأوهم عياناً ﴿ وكلّمهم الموتى ﴾ بإحيائنا إيّاهم فشهدوا لك بالنبوّة كما سألوا، ﴿ وحشرنا ﴾، وجمعنا، ﴿ عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر (قِبلًا) بكسر القاف وفتح الباء، أي معاينة، وقرأ الآخرون بضمّ القاف والباء، قيل: هو جميع قبيل، وهو الكفيل، مثل رغيف ورُغف، وقضيب وقُضبٍ، أي: ضُمناء وكُفلاء، وقيل: هو جمع قبيل وهو القبيلة، أي: فوجاً، وقيل: هو بمعنى المقابلة والمواجهة، من قولهم: أتيتك قبلًا لا دبراً إذا أتاه من قبل وجهه. ﴿ ما كانوا لِيؤمِنُوا إلّا أنْ يشاءَ اللّهُ ﴾، ذلك، ﴿ ولكنّ أكثرَهم يجهلُون ﴾.

﴿ وكذلك جعلنا لكلِّ نبي عدوّاً ﴾، أي: أعداء فيه تعزية للنبي ﷺ، يعني كما ابتليناك بهؤلاء القوم، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء، ثم فسّرهم فقال: ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾، قال عكرمة والضحاك والسدي

أحدهما: أن المراد شياطين من الإنس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والإنس وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، وهو قول مجاهد وقتادة. قالوا: وشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «هل تعوذت بالله من شيطان الجن والإنس قلت يا رسول الله وهل للأنس من شيطان؟ قال نعم هم شر من شياطين الجن» ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري. وقال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي.

القول الثاني: إن الجميع من ولد إبليس وأضيف الشياطين إلى الإنس على معنى أنهم يغوونهم، وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبي والسدي. ورواية عن ابن عباس قالوا: والمراد بشياطين الإنس التي مع الإنس وبشياطين الجن التي مع الجن وذلك أن إبليس قسم جنده قسمين فبعث فريقاً منهم إلى الجن وفريقاً إلى الإنس فالفريقان شياطين الجن والإنس بمعنى أنهم يغوونهم ويضلّونهم وكلا الفريقين أعداء للنبي ﷺ ولأوليائه من المؤمنين والصالحين. ومن ذهب إلى هذا القول قال: يدل على صحته أن لفظ الآية يقتضي إضافة الشياطين إلى الإنس والجن والإضافة تقتضي المغايرة فعلى هذا يكون في الشياطين نوع مغاير للإنس والجن وهم أولاد إبليس.

وقوله تعالى: ﴿**يوحي بعضهم إلى بعض**﴾ يعني يلقي ويسرّ بعضهم إلى بعض ويناجي بعضهم بعضاً وهو الوسوسة التي يلقيها إلى من يريد إغوائه، فعلى القول الأول: إن شياطين الإنس والجن يسر بعضهم إلى بعض ما يفتنون به المؤمنين والصالحين، وعلى القول الثاني: إن أولاد إبليس يلقى بعضهم بعضاً في كل حين فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضلَّ أنت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

وقوله: ﴿**زخرف القول**﴾ يعني باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذي قد زين ووشي بالكذب وكل شيء حسن مموه فهو زخرف ﴿**غروراً**﴾ يعني أن الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غروراً وذلك أن الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم بها غروراً ﴿**ولو شاء ربك ما فعلوه**﴾ يعني ما فعلوا الوسوسة التي يلقيها الشياطين في قلوب بني آدم، والمعنى أن الله تعالى لو شاء لمنعَ الشياطين من إلقاء الوسوسة إلى الإنس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم أنه الأجزل له في الثواب إذا صبر على المحنة ﴿**فذرهم وما يفترون**﴾ يعني فخلِّهم يا محمد وما زين لهم إبليس وغرهم به من الكفر والمعاصي فإني من ورائهم.

والكلبي: معناه شياطين الإنس التي مع الإنس، وشياطين الجن التي مع الجن، وليس للإنس شياطين، وذلك أن إبليس جعل جنده فريقين فبعث فريقاً منهم إلى الإنس وفريقاً منهم إلى الجن، وكِلا الفريقين أعداء للنبي ﷺ ولأوليائه، وهم يلتقون في كل حين، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن: أضللت صاحبي بكذا فأضلَّ صاحبك بمثله، ويقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحي بعضهم إلى بعض، قال قتادة ومجاهد والحسن: إن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين، والشيطان: العاتي المتمرد من كل شيء، قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز من إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه، يدلّ عليه ما رُوِيَ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الجن والإنس»؟ فقلت: يا رسول الله وهلْ للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، هم شرّ من شياطين الجن». وقال مالك بن دينار: إن شياطين الإنس أشدّ عليّ من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوّذتُ بالله ذهب عنّي شياطين الجن، وشياطين الإنس يجيئني فيجرّني إلى

قوله تعالى: ﴿ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ قال ابن عباس: ولتميل إليه وأصل الصغو في اللغة الميل، يقال: أصغى إلى كذا مال إليه. ويقال صغوت أصغو وصغيت أصغى لغتان. قال ابن الأنباري: اللام في ولتصغى متعلقة بفعل مضمر معناه وفعلنا بهم ذلك لكي تصغي إلى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وقال غيره اللام متعلقة بيوحي تقديره ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروا بذلك ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة والضمير في إليه يرجع إلى زخرف القول، ليغروا بذلك ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة والضمير في إليه يرجع إلى زخرف القول والمعنى أن قلوب الكفار تميل إلى زخرف القول وباطله وتحبه وترضى به وهو قوله: ﴿وليرضوه﴾ يعني يرضون ذلك القول المزخرف الباطل ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ يعني وليكتسبوا من الأعمال الخبيثة ما هم مكتسبون.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أفغير الله أطلب حكماً قاضياً يقضي بيني وبينكم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ اجعل بيننا وبينك حكماً، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب والحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة، غير أن بعض أهل المعاني قال: الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم من شأنه أن يحكم والحكم أهل أن يتحاكم إليه وهو الذي لا يحكم إلا بالحق فالله تعالى حكم لا يحكم إلا بالحق فلما أنزل الله على محمد القرآن فقد حكم له بالنبوة وهو قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ يعني علماء اليهود والنصارى ﴿يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ يعني يشهدون أن هذا القرآن منزل من عند الله وذلك لما ثبت عندهم بالدلائل الدالة على ذلك، وقيل المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونظرائهم يعلمون أن هذا القرآن منزل من ربك بالحق فآمنوا به وصدقوه ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ يعني فلا تكونن يا محمد من

المعاصي عياناً. قوله تعالى: ﴿ يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ ﴾، أي: يلقي، ﴿ زُخْرُفَ القَوْلِ ﴾، وهو قول مموَّه مزيّن مزخرف بالباطل لا معنى تحته، ﴿ غُروراً ﴾، يعني: لهؤلاء الشياطين يُزيّنون الأعمال القبيحة لبني آدم، ويغرونهم غروراً، والغرور: القول الباطل، ﴿ ولو شاءَ رَبُّكَ ما فعلُوه ﴾، أي: ما ألقوه من الوسوسة في القلوب، ﴿ فذرْهُم وما يفترُون ﴾.

﴿ ولِتَصْغى إليه أفئدةُ الذينَ لا يُؤمنون بالآخرة ﴾، أي: تميل إليه، والصغو: الميل، يقال: صغو فلان معك، أي: ميله، والفعل منه: صغى يُصغي، صغا وصغى يَصْغَى، ويصغُو صغو، أو الهاء راجعة إلى زخرف القول، ﴿ ولِيَرْضَوْهُ ولِيَقْتَرِفُوا ﴾، ليكتسبوا، ﴿ ما هم مُقْتَرِفُونَ ﴾، يقال: اقترف فلان مالاً إذا اكتسبه، وقال تعالى: ﴿ ومَن يقترف حسنةً ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال الزجّاج: أي ليعملوا من الذنوب ما هم عاملون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ أفغيرَ اللّهِ ﴾، فيه إضمار أي: قلْ لهم يـا محمد أفغيـرَ الله، ﴿ أبتغي ﴾، أطلب ﴿ حَكَماً ﴾، قاضياً بيني وبينكم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَماً فأجابهم به، ﴿ وهوَ

الشاكّين أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله وقيل: معناه فلا تكونن في شك مما قصصنا عليك أنه حق وصدق فهو من باب التهييج لأنه ﷺ لم يشك قط، وقيل: الخطاب وإن كان في الظاهر للنبي ﷺ إلا أن المراد به غيره. والمعنى: فلا تكونن أيها الإنسان السامع لهذا القرآن في شك أنه منزل من عند الله لما فيه من الإعجاز الذي لا يقدر على مثله إلا الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك﴾ وقرىء كلمات ربك على الجمع فمن قرأ على التوحيد قال: الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته، وكذلك القرآن كلمة واحدة لأنه شيء واحد في إعجاز النظم وكونه حقاً وصدقاً ومعجزاً ومن قرأ بالجمع قال لأن الله قال في سياق الآية ﴿لا مبدل لكلماته﴾ فوجب الجمع في اللفظ الأول إتباعاً للثاني ﴿صدقاً وعدلاً﴾ يعني صدقاً فيما وعد وعدلاً فيما حكم وقيل إن القرآن مشتمل على الأخبار والأحكام فهو صادق فيما أخبر عن القرون الماضية والأمم الخالية وعما هو كائن إلى قيام الساعة. وفيما أخبر عن ثواب المطيع في الجنة وعقاب العاصي في النار وهو عدل فيما حكم من الأمر والنهي والحلال والحرام وسائر الأحكام ﴿لا مبدل لكلماته﴾ يعني لا مغير لقضائه ولا رادّ لحكمه ولا خلف لمواعيده، وقيل: لما وصف كلماته بالتمام في قوله وتمت كلمة ربك والتمام في كلام الله لا يقبل النقص والتغيير والتبديل.

قال الله تعالى: ﴿لا مبدل لكلماته﴾ لأنها مصونة عن التحريف والتغيير والتبديل باقية إلى يوم القيامة وفي قوله: ﴿لا مبدل لكلماته﴾ دليل على أن السعيد لا ينقلب شقياً ولا الشقي ينقلب سعيداً، فالسعيد من سعدَ في الأزل والشقي من شقيَ في الأزل وأورد على هذا أن الكافر يكون شقياً بكفره فيسلم فينقلب سعيداً بإسلامه وأجيب عنه بأن الاعتبار بالخاتمة فمن ختم له بالسعادة كان قد كتب سعيداً في الأزل ومن ختم له بالشقاوة كان شقياً في الأزل والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وهو السميع﴾ يعني لما يقول العباد ﴿العليم﴾ بأحوالهم قوله عز وجل: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ قال المفسرون إن المشركين جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين في أكل الميتة وذلك أنهم قالوا للمسلمين كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلوا ما قتل ربكم؟ فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن تطع أكثر من في

الذي أنزلَ إليكمُ الكتابَ مُفصّلاً ﴾، مبيّناً فيه أمره ونهيه، يعني: القرآن، وقيل: مفصّلاً أي خمساً خمساً وعشراً عشراً، كما قال: ﴿ لنثبّتَ به فؤادَك ﴾ [الفرقان: ٣٢]، ﴿ **والذين آتيناهمُ الكتابَ** ﴾، يعني: علماء اليهود والنصارى الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، وقيل: هم مؤمنوا أهل الكتاب، وقال عطاء: هم رؤوس أصحاب النبي ﷺ، والمراد من الكتاب هو القرآن، ﴿ **يعلمُون أنّه مُنزّلٌ** ﴾، يعني: القرآن، قرأ ابن عامر وحفص: «منــزل»، بالتشديد من التنزيل لأنه انزل نجوماً متفرقة، وقرأ الآخرون بالتخفيف من الإنزال، لقوله تعالى: ﴿ **وهو الذي أنزل إليكم الكتاب** ﴾، ﴿ **مِن ربِّك بالحقّ فلا تكُونَنّ مِنَ الممترين** ﴾، من الشاكين أنهم يعلمون ذلك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وتَمّتْ كلمةُ ربِّكَ** ﴾، قرأ أهل الكوفة ويعقوب «كلمــة» على التوحيد، وقرأ الآخرون «كلمات» بالجمع وأراد بالكلمات أمره ونهيه ووعده ووعيده، ﴿ **صِدْقاً وعَدْلاً** ﴾، أي: صدقاً في الوعد والوعيد، وعدلاً في الأمر والنهي، قال قتادة ومقاتل: صادقاً فيما وعد وعدلاً فيما حكم. ﴿ **لا مُبدِّلَ لكلماتِه** ﴾، قال ابن عباس: لا رادّ لقضائه ولا مغيّر لحكمه ولا خلف لوعده، ﴿ **وهو السّميعُ العليم** ﴾، قيل: أراد بالكلمات القرآن لا مبدّل له، يريد لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون.

الأرض في أكل الميتة، وكان الكفار يومئذ أكثر أهل الأرض يضلوك عن سبيل الله، يعني يضلوك عن دين الله الذي شرعه لك وبعثك به وقيل معناه لا تطعهم في معتقداتهم الباطلة فإنك إن تطعهم يضلوك عن سبيل الله يعني يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم أخبر عن حال الكفار وما هم عليه فقال تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ يعني أن هؤلاء الكفار الذين يجادلونك ما يتبعون في دينهم الذي هم عليه إلا الظن وليسوا على بصيرة وحق في دينهم وليسوا بقاطعين أنهم على حق لأنهم اتبعوا أهواءهم وتركوا التماس الصواب والحق واقتصروا على اتباع الظن والجهل ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يعني يكذبون وأصل الخرص الحزر والتخمين، ومنه خرص النخلة إذا حزر كمية ثمرتها على الظن من غير يقين ويسمى الكذب خرصاً لما يدخله من الظنون الكاذبة وقيل: إن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص لأن قائله لم يقله عن علم ويقين ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله﴾ يقول الله لنبيه محمد ﷺ يا محمد إن ربك هو أعلم منك ومن جميع خلقه أيّ الناس يضل عن سبيله ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ يعني وهو أعلم أيضاً بمن كان على هدى واستقامة وسداد ولا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه فأخبر تعالى أنه أعلم بالفريقين الضال والمهتدي وأنه يجازي كلًّا بما يستحق.

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل ربكم؟ فقال الله تعالى للمسلمين فكلوا أنتم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح: ﴿إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ وقيل كانوا يحرمون أصنافاً من النعم ويحلون الميتة فقيل: أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله، فعلى هذا القول تكون الآية خطاباً للمشركين.

وعلى القول الأول تكون الآية خطاباً للمسلمين وهو الأصح لقوله في آخر الآية: ﴿إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ ﴿وما لكم إلاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ يعني وأي شيء لكم في أن لا تأكلوا وما يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهذا تأكيد في إباحة ما ذبح على اسم الله دون غيره: ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾ يعني وقد بين لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون. وقال جمهور المفسرين: المراد بقوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم المحرمات

﴿ وإنْ تُطعْ أكثرَ مَن في الأرض يُضِلُّوكَ عن سبيل الله ﴾، عن دين الله، وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة، وقيل: أراد أنهم جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين في أكل الميتة، وقالوا: أتأكلون ما تقتلون ولا تأكلون ما قتله الله عزّ وجلّ؟ فقال: ﴿ وإن تُطعْ أكثرَ مَنْ في الأرض ﴾، أي: وإن تطعهم في أكل الميتة يُضلّوكَ عن سبيل الله، ﴿ إن يتّبعُون إلاّ الظنّ ﴾، يريد أن دينهم الذي هم عليه ظنٌّ وهوىً لم يأخذوه عن بصيرة، ﴿ وإنْ هم إلاّ يخرصُون ﴾، يكذّبون.

﴿ إنّ ربَّك هو أعلمُ مَن يَضِلُّ عن سبيلِهِ ﴾، قيل: موضع من نصب بنزع حرف الصفة، أي: بمَن يضلّ، وقال الزجّاج: موضعه رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام، والمعنى: إنّ ربك هو أعلم أيِّ الناس مَن يضل عن سبيله، ﴿ وهو أعلم بالمُهتدين ﴾، أخبر أنه أعلم بالفريقين الضالّين والمهتدين فيجازي كلًّا بما يستحقون.

قوله تعالى: ﴿ فكلُوا ممّا ذُكِرَ اسمُ اللّهِ عليهِ ﴾، أي: كلوا ممّا ذُبح على اسم الله، ﴿ إن كنتُم بآياته

المذكورة في قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به﴾ وأورد الإمام فخر الدين الرازي هاهنا إشكالاً فقال: في سورة الأنعام مكية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة، وقوله: وقد فصل يجب أن يكون ذلك المفصل متقدماً على هذا المحل والمدني متأخر على المكي فيمتنع كونه متقدماً ثم قال بل الأولى أن يقال قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ وهذه الآية وإن كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من المتأخر لا يمنع أن يكون هو المراد قال كاتبه ولما ذكره المفسرون وجه وهو أن الله لما علم أن سورة المائدة متقدمة على سورة الأنعام في الترتيب لا في النزول حسن عود الضمير في قوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلى ما هو متقدم في الترتيب وهو قوله ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ الآية والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿**إلا ما اضررتم إليه**﴾ يعني إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة فيباح لكم ذلك عند الاضطرار ﴿**وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم**﴾ يعني وإن كثيراً من الذين يجادلونكم في أكل الميتة ويحتجون عليكم في ذلك بقولهم أتأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما يذبحه الله، وإنما قالوا هذه المقالة جهلاً منهم بغير علم منهم بصحة ما يقولون بل يتبعون أهواءهم ليضلوا أنفسهم وأتباعهم بذلك. وقيل: المراد به عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين لأنه أول من بحرَ البحائر وسيَّب السوائب وأباح الميتة وغير دين إبراهيم عليه السلام ﴿**إن ربك هو أعلم بالمعتدين**﴾ يعني إن ربك يا محمد هو أعلم بمن تعدى حدوده فأحل ما حرم وحرم ما أحل الله فهو يجازيهم على سوء صنيعهم.

قوله عز وجل: ﴿**وذروا ظاهر الإثم وباطنه**﴾ يعني وذروا أيها الناس ما يوجب الإثم وهي الذنوب والمعاصي كلها سرها وعلانيتها قليلها وكثيرها، قال الربيع بن أنس: نهى الله عن ظاهر الإثم وباطنه أن يعمل به سراً وعلانية وقال سعيد بن جبير: في هذه الآية الظاهر منه قوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ونكاح المحارم من الأمهات والبنات والأخوات والباطن الزنا، وقال السدي: أما الظاهر فالزواني في الحوانيت وهنَّ أصحاب الرايات.

وأما الباطن فالمرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سراً، وقال الضحاك: كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون أن ذلك حلالاً ماكان سراً فحرم الله السر منه والعلانية، وقال ابن زيد: ظاهر الإثم التجرد من الثياب والتعري في الطواف والباطن الزنا، وقال الكلبي: ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهاراً عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة

مُؤمنين ﴾، وذلك أنهم كانوا يُحرِّمون أصنافاً من النَّعم ويحلّون الأموات، فقيل لهم: أحِلّوا ما أحلّ الله وحرِّموا ما حرَّم الله.

ثم قال: ﴿ **وَمَا لَكُمْ** ﴾، يعني: أي شيء لكم، ﴿ **أَلاَّ تأكلُوا** ﴾، وما يمنعكم من أن تأكلوا ﴿ **مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللَّهِ عليهِ** ﴾، من الذبائح، ﴿ **وقدْ فصَّلَ لكُم مَا حرَّم عليكم** ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب وحفص «فصـل»، و﴿ **حرَّم** ﴾ بالفتح فيهما أي فصل الله ما حرَّمه عليكم، لقوله: ﴿ **اسمُ الله** ﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو عمرو بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء على غير تسمية الفاعل، لقوله: ﴿ **ذُكر** ﴾ وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «فصـل» بالفتح و«حـرم» بالضم، وأراد بتفصيل المحرَّمات ما ذكرت في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عليكمُ الميتةُ والدمُ ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿ **إلاَّ ما اضْطُرِرْتُم إليه** ﴾ من هذه الأشياء فإنه حلال لكم عند الاضطرار، ﴿ **وإنَّ كثيراً لَيُضِلُّون** ﴾، قرأ أهل الكوفة بضمّ الياء وكذلك قوله: ﴿ ليضلّوا ﴾ في سورة يونس [٨٨]، لقوله تعالى: ﴿ **يضلّوك**

وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك إلى أن جاء الإسلام فنهى الله عن ذلك كله. وقيل: إن هذا النهي عام في جميع المحرمات التي نهى الله عنها وهو الأصح لأن تخصيص العام بصورة معينة من غير دليل لا يجوز، فعلى هذا القول يكون معنى الآية وذروا ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها، قال ابن الأنباري: وذروا الإثم من جميع جهاته. وقيل: المراد بظاهر الإثم الإقدام على الذنوب من غير مبالاة وباطنه ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا خوف الناس وقيل المراد بظاهر الإثم أفعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب فيدخل في ذلك الحسد والكبر والعجب إرادة السوء للمسلمين ونحو ذلك.

وقوله عز وجل: ﴿إن الذين يكسبون الإثم﴾ يعني إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويرتكبون ما حرم عليهم من المعاصي وغيرها ﴿سيجزون﴾ يعني في الآخرة ﴿بما كانوا يقترفون﴾ يعني بما كانوا يسكبون في الدنيا من الآثام وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب أنه مخصوص بمن لم يتب لأن المسلمين أجمعوا على أنه إذا تاب العبد من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وزاد أهل السنة في ذلك، فقالوا: المذنب إذا لم يتب فهو في خطر المشيئة إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه بفضله وكرمه، وقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ قال ابن عباس: الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها، وقال عطاء الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام اهـ.

(فصل)

اختلف العلماء في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها فذهب قوم إلى تحريمها سواء تركها عامداً أو ناسياً: وهو قول ابن سيرين والشعبي ونقله الإمام فخر الدين الرازي عن مالك، ونقل عن عطاء أنه قال: كل ما لم يذكر اسم الله عليه من طعام أو شراب فهو حرام. احتجوا في ذلك بظاهر هذه الآية. وقال الثوري وأبو حنيفة: إن ترك التسمية عامداً لا تحل وإن تركها ناسياً تحل. وقال الشافعي: تحل الذبيحة سواء ترك التسمية عامداً أو ناسياً، ونقله البغوي عن ابن عباس ومالك ونقل ابن الجوزي عن أحمد روايتين: فيما إذا ترك التسمية عامداً وإن تركها ناسياً حلت فمن أباح أكل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها قال: المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم الأصنام بدليل أنه قال تعالى في سياق الآية ﴿وإنه لفسق﴾ وأجمع العلماء على أن آكل ذبيحة المسلم التي تُرك التسمية عليها لا يفسق واحتجوا أيضاً في إباحتها بما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت يا رسول الله إن هنا أقواماً حديثاً عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فما ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا» قالوا لو كانت التسمية شرطاً للإباحة لكان الشك في وجودها مانعاً من أكلها كالشك في أصل الذبح وقول الشافعي في أول الآية وإن كان عاماً بحسب الصيغة إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة وهي قوله وإنه لفسق وإن

عن سبيل الله ﴾، وقيل: أراد به عمرو بن لحي فمَن دونه من المشركين الذين اتخذوا البحائر والسوائب، وقرأ الآخرون بالفتح لقوله: **﴿ مَن يضلّ ﴾**، **﴿ بأهوائهم بغيرِ علم ﴾**، حين امتنعوا من أكل ما ذكر اسم الله عليه ودعوا إلى أكل الميتة، **﴿ إنّ ربَّك هو أعلمُ بالمعتدين ﴾**، الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام.

﴿ وذَرُوا ظاهر الإثم وباطنَه ﴾، يعني: الذنوب كلها لأنها لا تخلو من هذين الوجهين، قال قتادة: علانيته وسرّه، وقال مجاهد: ظاهره ما يعمله الإنسان بالجوارح من الذنوب، وباطنه ما ينويه ويقصده بقلبه كالمصرّ على الذنب القاصد له، قال الكلبي: ظاهره الزنا وباطنه المخالفة، وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم الإعلان بالزنا، وهم أصحاب الروايات، وباطنه الاستسرار به، وذلك أن العرب كانوا يحبّون الزنا وكان الشريف منهم يتشرّف

الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم أنكم لمشركون علمنا أن المراد من هذا العموم هو الخصوص والفسق ذكر اسم غير الله في الذبح ما قال في آخر السورة ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ إلى قوله ﴿أو فسق أهل لغير الله به﴾ فصار هذا الفسق الذي أهلّ لغير الله به مفسراً لقوله ﴿وإنه لفسق﴾ وإذا كان كذلك كان قوله:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ مخصوصاً بما ﴿أهلّ لغير الله به﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ يعني أن الشياطين يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم ويخاصموا محمداً ﷺ، وذلك أن المشركين قالوا يا محمد أخبرنا عن الشاة إذاماتت من قتلها فقال: الله قتلها قالوا فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله عز وجلّ هذه الآية، وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية في تحريم الميتة كتبت فارس، وهم المجوس، إلى مشركي قريش أنْ خاصموا محمداً وقولوا له إن ما ذبحت فهو حلال، وما ذبحه الله فهو حرام فأنزل الله: وأن الشياطين، يعني مردة الإنس وهم المجوس، ليوحون إلى أوليائهم، يعني مشركي قريش، وكان بين فارس والعرب مولاة ومكاتبة على الروم، فعلى هذا يكون المراد بالوحي المكاتبة في خفية ﴿وإن أطعتموهم﴾ يعني في أكل الميتة، وما حرم الله عليكم ﴿إنكم لمشركون﴾ يعني أنكم إذاً مثلهم في الشرك، قال الزجاج: فيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أحل الله فهو مشرك إنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً غير الله عز وجل ومن كان كذلك فهو مشرك.

قوله عز وجل: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ يعني أو من كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جعل الإيمان حياة لأن الحي صاحب بصر يهتدي به إلى رشده ولما كان الإيمان يهدي إلى الفوز العظيم والحياة الأبدية شبهه بالحياة ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ يعني وجعلنا له نوراً يستضيء به في الناس ويهتدي به إلى

فيسرُّه، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره، فحرّمهما الله عزّ وجلّ، وقال سعيد بن جبير: ظاهر الإثم نكاح المحارم وباطنه الزنا، وقال ابن زيد: إن ظاهر الإثم التجرّد من الثياب والتعرّي في الطواف والباطن الزنا، وروى حيان عن الكلبي: ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهاراً عُراة: وباطنه طواف النساء بالليل عُراة، ﴿ إنّ الذينَ يَكْسِبُون الإثم سَيُجْزَوْنَ ﴾، في الآخرة، ﴿ بما كانوا يَقترِفُون ﴾، يكتسبون في الدنيا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يذكرِ اسمُ الله عليهِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها. وقال عطاء: الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام واختلف أهل العلم في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها، فذهب قوم إلى تحريمها سواء ترك التسمية عامداً وناسياً، وهو قول ابن سيرين والشعبي، واحتجّوا بظاهر هذه الآية. وذهب قوم إلى تحليلها، يُروى ذلك عن ابن عباس وهو قول مالك والشافعي وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين. وذهب قوم إلى أنه ترك التسمية عامداً لا يحلّ، وإن تركها ناسياً يحلّ، حكى الخرقي من أصحاب أحمد: أن هذا مذهبه، وهو قول الثّوري وأصحاب الرأي، مَن أباحها قال: المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم غير الله بدليل أنه قال: ﴿ وإنّه

قصد السبيل، قيل: النور هو الإسلام لأنه يخلص من ظلمات الكفر لقوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقال قتادة: هو كتاب الله القرآن لأنه بينة من الله مع المؤمن بما يعمله ﴿كمن مثله في الظلمات﴾ يعني كمن هو في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة ﴿ليس بخارج منها﴾ يعني من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً فأحياه وأعطاه نوراً يهتدي به في مصالحه وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيراً على الدوام، ثم اختلف المفسرون في هذين المثالين هل هما مخصوصان بإنسانين معينين أو هما عامّان في كل مؤمن وكافر؟ فذكروا في ذلك قولين: أحدهما أن الآية في رجلين معينين ثم اختلفوا فيهما فقال ابن عباس في قوله وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس يريد حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ كمن مثله في الظلمات يريد بذلك أن أبا جهل بن هشام وذلك أبا جهل رمى النبي ﷺ بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل، وكان حمزة قد رجع من صيد وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل حمزة غضبان حتى علا أبا جهل وجعل يضربه بالقوس، وجعل أبو جهل يتضرع إلى حمزة ويقول: يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفَّه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا؟ فقال حمزة: ومن أسفه منكم عقولاً تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فأسلم حمزة يومئذ فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاك: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل. وقال عكرمة والكلبي: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل، وقال مقاتل: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل وذلك أن أبا جهل قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا نحن وهم كفرسي رهان، قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن حتى يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية.

لَفِسْقٌ ﴾، والفسق في ذكر اسم غير الله كما قال في آخر السورة: **﴿ قل لا أجد فيما أُوحيَ إلى محرماً على طاعم ﴾** [الأنعام: ١٤٥] إلى قوله: **﴿ أو فسقاً أُهِلَّ لغير اللَّهِ به ﴾** [الأنعام: ١٤٥]، واحتجَّ مَن أباحها بما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن موسى ثنا أبو خالد الأحمر قال: سمعت هشام بن عروة يحدِّث عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: إن قوماً قالوا: يا رسول الله إن هنا أقواماً حديثاً عهدهم بشرْك يأتون بلحمان لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: «اذكروا أنتم اسم الله وكُلُوا». ولو كانت التسمية شرطاً للإباحة لكان الشك في وجودها مانعاً من أكلها كالشك في أصل الذبح. قوله: **﴿ وإنَّ الشياطينَ لَيُوحُونَ إلى أوليائِهم لِيُجادِلُوكم ﴾**، أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم، وذلك أن المشركين قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت مَن قتلها؟ فقال: «الله قتلها»، قالوا: أفتزعم أن ما قتلتَ أنتَ وأصحابك حلالٌ، وما قتله الكلب والصقر والفهد حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله هذه الآية، **﴿ وإنْ أطعتموهم ﴾**، في أكل الميتة، **﴿ إنّكم لَمشركُون ﴾**، قال الزجّاج: وفيه دليل على أن مَن أحلّ شيئاً مما حرّم الله أو حرّم ما أحلّ الله فهو مشرك.

قوله: **﴿ أوَ مَن كانَ مَيْتاً فأحييناه ﴾**، قرأ نافع «ميّتاً» و**﴿ لحم أخيه ميتاً ﴾** [الحجرات: ١٢] و**﴿ الأرض الميتة أحييناها ﴾** [يٓس: ٣٣] بالتشديد فيهنّ، وقرأ الآخرون بالتخفيف «فأحييناه» أي: كان ضَالاً فهديناه، كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، **﴿ وجعلنا له نوراً ﴾**، يستضيء به، **﴿ يمشي به في الناس ﴾**، على قصد السبيل، قيل: النور هو الإسلام، لقوله تعالى: **﴿ يُخرجُهم مِّنَ الظّلماتِ إلى النور ﴾** [البقرة: ٢٥٧]، وقال قتادة: هو كتاب الله بيِّنةٌ من الله مع المؤمن، بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي، **﴿ كَمَن مَّثَلُهُ في الظّلماتِ ﴾**، المثل صلة، أي: كَمَن هو في الظلماتِ، **﴿ ليس بخارجٍ منها ﴾**، يعني: من ظلمة الكفر، قيل: نزلت هذه الآية في رجلين بأعيانهما، ثم اختلفوا فيهما، قال ابن عباس: جعلنا له نوراً، يريد حمزة بن عبد المطّلب، كمَن مثله في الظلمات

والقول الثاني: وهو قول الحسن في آخرين أن هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر وهذا هو الصحيح لأن المعنى إذا كان حاصلاً في الكل دخل فيه كل أحد.

وقوله تعالى: ﴿**كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون**﴾ قال أهل السنة: المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله زينّا لهم أعمالهم ولأن حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعي وحصوله لا يكون إلا بخلق الله تعالى فدل ذلك على أن المزين هو الله تعالى، وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ويرده ما تقدم.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

وقوله تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها**﴾ يعني وكما جعلنا في مكة أكابر، وعظماء جعلنا في كل قرية أكابر وعظماء، وقيل: هو معطوف على ما قبله. ومعناه: كما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكابر جمع الأكبر ولا يجوز أن يكون مضافاً لأنه لا يتم المعنى في بل الآية تقديم وتأخير تقديره: وكذلك جعلنا كل قرية أكابر «مجرميها» وإنما جعل المجرمين أكابر لأنهم أقدر على المكر والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم، وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فسّاقهم أكابرهم ﴿**ليمكروا فيها**﴾ قال أبو عبيدة: المكر، الخديعة والحيلة والغدر والفجور. زاد بعضهم والغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة وترويج الباطل. قال ابن عباس: معناه ليقولوا فيها الكذب. وقال مجاهد: جلس على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ ويقولوا هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم ﴿**وما يمكرون إلا بأنفسهم**﴾ يعني ما يحيق هذا المكر إلا بهم لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿**وما يشعرون**﴾ يعني أن وبال ذلك المكر يعود عليهم ويضرهم.

قوله عز وجل: ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله**﴾ يعني النبوة وذلك أن الوليد بن المغيرة قال للنبي ﷺ: لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أولى بها منك لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً، فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فأنزل الله هذه الآية. وإذا جاءتهم آية، يعني حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد ﷺ.

يريد أبا جهل بن هشام، وذلك أنّ أبا جهل رمَى رسول الله ﷺ بفرثٍ، فأُخبر حمزةُ بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، وحمزة لم يؤمن بعد، فأقبل غضبان حتى رمى أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه، ويقول: يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به؟ سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف آباءنا، فقال حمزة: ومَن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاك: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل. وقال عكرمة والكلبي: نزلت في عمّار بن ياسر وأبي جهل. ﴿ **كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانُوا يعملُون** ﴾، من الكفرِ والمعصية. قال ابن عباس: يريد زيّن لهم الشيطان عبادة الأصنام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وكذلكَ جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها** ﴾، أي: كما أن فسّاق مكة أكابرها، كذلك جعلنا فسّاق كل قرية أكابرها، أي: عظماءها، جمع أكبر، مثل أفضل وأفاضل، وأسود وأساود، وذلك سُنّة الله

قالوا: يعني الوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام أو كل واحد من رؤساء الكفر ويدل عليه الآية التي قبلها وهي قوله وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها فكان من مكر كفار قريش أن قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني النبوة وإنما قالوا هذه المقالة الخبيثة حسداً منهم للنبي ﷺ وفي قولهم لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله قولان:

أحدهما: وهو المشهور أن القوم أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلت للنبي ﷺ وأن يكونوا متبوعين لا تابعين.

القول الثاني: وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس أن المعنى: وإذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد ﷺ قالوا: لن نؤمن لك يعني لن نصدقك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل بصدقك بأنك رسول الله، فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوة وإنما طلبوا أن تخبرهم الملائكة بصدق محمد ﷺ وأنه رسول الله تعالى. وعلى القول الأول أنهم طلبوا أن يكونوا أنبياء ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالاته**﴾ يعني أنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها ويعلم من لا يستحقها ومن ليس بأهل لها، وأنتم لستم لها بأهل وأن النبوة لا تحصل لمن يطلبها، خصوصاً لمن عنده حسد ومكر وغدر. وقال أهل المعاني: الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعثة مطاعين في قومهم، لأن الطعن كان يتوجه عليهم فيقال إنما كانوا رؤساء مطاعين فاتبعهم قومهم لأجل ذلك فكان الله تعالى أعلم بمن يستحق الرسالة فجعلها ليتيم أبي طالب دون أبي جهل والوليد وغيرهما من أكابر قريش ورؤسائها وقوله تعالى: ﴿**سيصيب الذين أجرموا صَغار**﴾ أي ذلة وهوان. وقيل الصغار هو الذل الذي تصغر إلى المرء نفسه فيه ﴿**عند الله**﴾ يعني هذا من عند الله وقيل إن هذا الصغار ثابت لهم عند الله فعلى هذا القول إنما يحصل لهم الصغار في الآخرة وقيل معناه سيصيبهم صغار بحكم الله حكم به عليهم في الدنيا ﴿**وعذاب شديد**﴾ يعني في الآخرة ﴿**بما كانوا يمكرون**﴾ يعني إنما حصل لهم هذ الصغار والعذاب بسبب مكرهم وحسدهم وطلبهم ما لا يستحقون.

تعالى أنه جعل في كل قرية أتباع الرسلِ ضعفاءهم، كما قال في قصة نوح عليه السلام: ﴿ **أنؤمنُ لكَ واتّبعكَ الأرْذَلُون** ﴾ [الشعراء: ١١١]، وجعل فسّاقهم أكابرهم، ﴿ **لِيمْكُروا فيها** ﴾، وذلك أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، يقولون لكل مَن يقدم: إيّاك وهذا الرجل فإنه كاهن ساحر كذّاب. ﴿ **وما يمكرُون إلاّ بأنْفُسِهم** ﴾، لأن وِبال مكرهم يعود عليهم. ﴿ **وما يشعرُون** ﴾، أنه كذلك.

قوله تعالى: ﴿ **وإذا جاءَتْهُمْ آيةٌ قالوا لن نُؤمِنَ حتّى نُؤتى مِثْلَ ما أُوتيَ رُسُلُ اللّهِ** ﴾، يعني: مثل ما أُوتي رسل الله من النبوّة، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوّة حقّاً لكنتُ أولى بها منك، لأني أكبر منك سنّاً وأكثر منك مالاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إنّا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يُوحَى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا جاءتهم آية** ﴾، حجّة على صدق محمد ﷺ قالوا: يعني أبا جهل، ﴿ **لن نُؤْمنَ حتى نُؤتَى مثل ما أُوتي رسلُ الله** ﴾، يعني: محمداً ﷺ. ثم قال الله تعالى: ﴿ **اللّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتهُ** ﴾، قرأ ابن كثير وحفص«رسالته» على التوحيد،وقرأ الآخرون رسالاته بالجمع، يعني الله أعلم بمَن هو أحقُّ بالرسالة. ﴿ **سيُصيبُ الذينَ أجْرَمُوا صَغارٌ** ﴾، ذُلٌ وهَوان، ﴿ **عند الله** ﴾، أي: من عند الله، ﴿ **وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرُون** ﴾، قيل: صغار في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾ أي الإيمان. يقال: شرح الله صدره فانشرح أي وسعه لقبول الإيمان والخير فتوسع وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر مال بطبعه إليه وقويت رغبته فيه فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر. وقيل الشرح الفتح والبين ويقال شرح فلان أمره إذا: أوضحه وأظهره. وشرح المسألة إذا كانت مشكلة فأوضحها وبينها فقد ثبت أن للشرح معنين:

أحدهما: الفتح ومنه يقال شرح الكافر بالكفر صدراً أي فتحه لقبوله ومنه قوله تعالى: ﴿**ولكن من شرح بالكفر صدراً**﴾ وقوله: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام**﴾ يعني فتحه ووسعه لقبوله.

والثاني: أن الشرح نور يقذفه الله في قلب العبد فيعرف بذلك النور الحق، فيقبله وينشرح صدره له ومعنى الآية: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه للإيمان بالله**﴾ وبرسوله وبما جاء به من عنده يوفقه له ويشرح صدره، لقبوله ويهونه عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به وإحسانه إليه فعند ذلك يستنير الإسلام في قلبه فيضيء به ويتسع له صدره ولما نزلت هذه الآية سئل النبي ﷺ عن شرح الصدر فقال« نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» قيل فهل لذلك أمارة قال: «نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت» وأسنده الطبري عن ابن مسعود قيل لرسول الله ﷺ حين نزلت عليه هذه الآية: ﴿**فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾ قال «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح» قالوا فهل لذلك من آية يعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».

وقوله تعالى: ﴿**ومن يرد**﴾ أي الله ﴿**أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً**﴾ يعني يجعل صدره ضيقاً حتى لا يدخله الإيمان، وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ، وقال ابن عباس: إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه وإذا سمع ذكر الأصنام ارتاح إلى ذلك. وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وعنده أعرابي من كنانة فقال له: ما الحرجة فيكم؟ قال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. وأصل الحرج الضيق وهو مأخوذ من الحرجة وهي الأشجار الملتف بعضها على بعض حتى لا يصل إليه شيء. وقرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد من بني بكر؟ قال رجل: نعم. قال: ما الحرجة فيكم؟ قال:

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾، أي: **يفتح قلبه وينوّره حتى يقبل الإسلام**، ولمّا نزلت هذه الآية سُئِلَ رسول الله ﷺ عن شرح الصدر، قال: «**نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسخ**»، قيل: فهل لذلك أمارة؟ قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت». قوله تعالى: **﴿ وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلّه يجعل صَدْره ضَيّقاً ﴾**، قرأ ابن كثير «ضيقـاً»، خفيف ههنا وفي الفرقان، والباقون بالتشديد، وهما لغتان مثل: هين وهين ولين ولين، **﴿ حَرَجاً ﴾**، قرأ أهل المدينة وأبو بكر بكسر الراء والباقون بفتحها، وهما لغتان أيضاً مثل: الدنف والدَنف، المصدر كالطلب ومعناه ذا حرج، وبالكسر الاسم وهو أشدّ الضيق، يعني: يجعل قلبه ضيقاً حتى لا يدخله الإيمان. وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ. قال ابن عباس: إذا سمع ذكر الله اشمأزّ قلبه، وإذا ذكر شيء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية، فسأل أعرابياً من كنانة: ما الحرجة فيكم؟ قال: الحرجة فينا الشجرة

الوادي الكثير الشجر المستمسك الذي لا طريق فيه، فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر. قال أهل المعاني: لما كان القلب محلاً للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالانشراح والانفساح ونوره فقبل ما أودعه من الإيمان بالله ورسوله ووصف قلب من يريد ضلالته بالضيق الذي هو خلاف الشرح والانفساح فدل ذلك على أن الله تعالى صير قلب الكافر بحيث لا يعي علماً ولا استدلالاً على توحيد الله تعالى والإيمان به وفي الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وإرادته حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر.

وقوله تعالى: ﴿**كأنما يصعد في السماء**﴾ يعني أن الكافر إذا دعي إلى الإسلام كأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء ولا يقدر على ذلك، وقيل: يجوز أن يكون المعنى كأن قلب الكافر يصعد إلى السماء نبواً عن الإسلام وتكبراً، وقيل: ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعد إلى السماء وليس يقدر على ذلك، وقيل: هو من المشقة وصعوبة الأمر فيكون المعنى أن الكافر إذا دعي إلى الإسلام فإنه يتكلف مشقة وصعوبة في ذلك كمن يتكلف إلى السماء وليس يقدر على ذلك ﴿**كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾ الكاف في كذلك تفيد التشبيه وفيه وجهان:

الأول معناه أن جعله الرجس عليهم كجعله صدورهم ضيقة حرجة والمعنى كما جعلنا صدورهم ضيقه حرجة كذلك يجعل الله الرجس عليهم.

والوجه الثاني: قال الزجاج: أي مثل ما قصصنا عليك كذلك يجعل الله الرجس. قال ابن عباس: الرجس الشيطان أي فيسلطه الله عليهم، وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه. وفي رواية عن ابن عباس أن الرجس العذاب، وقال الزجاج: الرجس في الدنيا اللعنة وفي الآخرة العذاب.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**وهذا صراط ربك مستقيماً**﴾ يعني وهذا الذي بيّنّا لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعني دينه الذي شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه. قال ابن عباس: في قوله وهذا صراط ربك مستقيماً يعني الإسلام، وقال ابن مسعود: يعني القرآن لأنه يؤدي من تبعه وعمل به إلى طريق

تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. ﴿ **كأنما يَصْعَدُ في السماء** ﴾، وقرأ ابن كثير: «يصعـد»، بالتخفيف وسكون الصاد، وقرأ أبو بكر عن عاصم « يصاعد » بالألف، أي: يتصاعد، وقرأ الآخرون ﴿ **يصّعّد** ﴾ بتشديد الصاد والعين، أي: يتصعد، يعني: يشقّ عليه الإيمان كما يشقّ عليه صعود السماء. وأصل الصعود المشقّة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **سأرْهِقُهُ صُعُوداً** ﴾ [المدثر: ١٧] أي: عقبة شاقّة. ﴿ **كذلك يجعلُ اللّهُ الرِّجْسَ على الذين لا يؤمنُون** ﴾، قال ابن عباس: الرجس هو الشيطان، أي: يسلّط عليه. وقال الكلبي: هو المأتم، وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه. وقال عطاء: الرجس العذاب مثل الرجس. وقيل: هو النجس رُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: «اللّهمّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ الرِّجْسِ والنّجس». وقال الزجّاج: الرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وهذا صراطُ ربِّكَ مستقيماً** ﴾، أي: هذا الذي بيّنّا. وقيل: هذا الذي أنت عليه يا محمد

الاستقامة والسداد ﴿قد فصلنا الآيات﴾ يعني قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والأمر والنهي وغير ذلك من أحكام القرآن ﴿لقوم يذكرون﴾ يعني لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر.

قال عطاء: يعني أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ يعني الجنة في قول جميع المفسرين. قال الحسن والسدي: السلام هو الله تعالى وداره الجنة. معنى السلام في أسماء الله تعالى ذو السلام وهو جمع سلامة لأنه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقائص فعلى هذا القول أضيفت الدار إلى السلام الذي هو اسم الله تعالى إضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبي ﷺ عبد الله في قوله «وأنه لما قام عبد الله يدعوه»، واحتج لصحة هذا بأن في إضافة الدار إلى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الإضافة مبالغة في تعظيم أمرها. وقيل إن السلام صفة للدار لأنها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كأنه قال دار السلامة التي لا يلقون فيها شيئاً يكرهونه. وقيل سميت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى في وصفها ﴿ادخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ وقال ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وقال ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ وقوله ﴿عند ربهم﴾ يعني أن الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم إليها ﴿وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ يعني أنه تعالى يتولى أمرهم وإيصال المنافع إليهم ويدفع المضار عنهم. وقيل معناه أنه يتولاهم في الدنيا بالتوفيق والهداية وفي الآخرة بالجزاء والجنة. وقيل: الولي هو الناصر والقريب يعني أنه تعالى ينصرهم في الدنيا ويقربهم في الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ أي اذكر يا محمد يوم نحشر المعادلين بالله الأصنام مع أوليائهم من الشياطين يعني نحشر المشركين والشياطين جميعاً يوم القيامة ﴿يا معشر الجن﴾ فيه حذف تقديره يقول لهم يا معشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ يعني من إضلالهم وإغوائهم وقال ابن عباس: معناه أضللتم كثيراً من الإنس وهذا التفسير لا بد له من تأويل آخر لأن الجن لا يقدرون على إضلال الإنس وإغوائهم بأنفسهم لأنه لا يقدر على الإجبار أحد إلا الله لأنه هو المتصرف في خلقه بما شاء فوجب

طريق ربّك ودينه الذي ارتضاه لنفسه مستقيماً لا عوج فيه وهو الإسلام. ﴿ قدْ فصّلنا الآيات لقومٍ يذّكّرُون ﴾.

﴿ لهمْ دارُ السلام عندَ ربِّهم ﴾، يعني: الجنّة: قال أكثر المفسّرين: السلام هو الله وداره الجنة. وقيل: السلام هو السلامة، أي: لهم دار السلامة من الآفات، وهي الجنة. وسُمّيت دار السلام لأن كل مَن دخلها سَلِمَ من البلايا والرزايا. وقيل: سُمّيت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، فقال في الابتداء: ﴿ ادْخلوها بسلامٍ آمنين ﴾ [الحجر: ٤٦]، ﴿ والملائكةُ يدخلون عليهمْ من كلّ بابٍ سلام عليكم ﴾ [الرعد: ٢٣ و٢٤]، وقال: ﴿ لا يسمعُون فيها لغواً ولا تأثيماً إلّا قيلًا سلاماً سلاماً ﴾ [الواقعة: ٢٥ و٢٦]، وقال: ﴿ تحيّتُهم فيها سلامٌ ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿ سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ﴾ [يٓس: ٥٨] ﴿ وهوَ وليُّهُمْ بما كانوا يعملُون ﴾، قال الحسين بن الفضل: يتولّاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويومَ يحشرُهم ﴾، قرأ حفص: «يحشرهم»، بالياء، ﴿ جميعاً ﴾، يعني: الجن والإنس يجمعهم في موقف القيامة فيقول: ﴿ يا معشرَ الجنّ ﴾، والمراد بالجنّ: الشياطين، ﴿ قد استكْثَرتُم منَ الإنسِ ﴾ أي: استكبرتم من الإنس بالإضلال والإغواء أي: أضللتم كثيراً، ﴿ وقال أولياؤهم منَ الإنس ﴾، يعني: أولياء الشياطين الذين أطاعوهم من الإنس: ﴿ ربّنا اسْتَمْتَعَ بعضُنا ببعضٍ ﴾، قال الكلبي: استمتاع الإنس بالجن هو أن الرجل إذا كان سافر ونزل بأرض قفْرٍ وخاف على نفسه من الجن قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من

أن يكون المعنى: قد استكثرتم من الدعاء إلى الإضلال مع مصادفة القبول من الإنس ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنابلبعض﴾ يعني استمتع الجن بالإنس والإنس بالجن فأما استمتاع الإنس بالجن فقال الكلبي: كان الرجل في الجاهلية إذا سافر فنزل بأرض قفراء وخاف على نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جوارهم.

وأما استمتاع الجن بالإنس فهم أنهم قالوا سدنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفاً في قومهم وعظماً في أنفسهم. وقيل: استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الأمور التي كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس للجن، فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي، وقيل: استمتاع الإنس بالجن فيما كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وأصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالإنس هي طاعة الإنس للجن، فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم فصاروا كالرؤساء للإنس والإنس كالأتباع. وقيل: إن قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض هو من كلام الإنس خاصة لأن استمتاع الجن بالإنس وبالعكس أمر نادر لا يكاد يظهر، أما استمتاع الإنس بعضهم ببعض فهو ظاهر فوجب حمل الكلام عليه ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ يعني أن ذلك الاستمتاع كان إلى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة الندامة، قال الحسن والسدي: لأجل الموت. وقيل: هو وقت البعث للحساب في يوم القيامة ﴿قال﴾ يعني قال الله لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والإنس ﴿النار مثواكم﴾ يعني أن النار مقامكم ومقركم فيها ومصيركم إليها ﴿خالدين فيها﴾ يعني مقيمين في نار جهنم أبداً ﴿إلا ما شاء الله﴾ اختلفوا في معنى هذا الاستثناء فقيل: معناه خالدين فيها إلا قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب إلى حين دخولهم إلى النار فإن هذا الوقت ليسوا بخالدين فيه في النار، وقيل: المراد من الاستثناء هو أوقات نقلتهم من عذاب إلى عذاب آخر وذلك أنهم يستغيثون من النار فينقلون إلى الزمهرير ثم يستغيثون منه فينقلون إلى النار فكانت مدة نقلتهم هي المراد من هذا الاستثناء. ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس أنه قال: إن هذا الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون ويصدقون النبي ﷺ فيخرجون من النار قالوا فعلى هذا التأويل تكون ما في قوله إلا ما شاء الله، بمعنى من يعني إلا ما شاء الله ونقل الطبري عن ابن عباس أنه كان يتأول هذا الاستثناء بأن الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابهم إلى مشيئته، وقال في هذه الآية: إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه أن لا ينزلهم جنة ولا ناراً. قال الزجاج: والقول الأول أولى لأن معنى الاستثناء إنما هو من يوم القيامة لأن قوله: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ هو يوم القيامة ثم قال ﴿خالدين فيها﴾ منذ يبعثون ﴿إلا ما شاء الله﴾ من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدة محاسبتهم.

سفهاء قومه، فيبيت في جوارهم، وأما استمتاع الجن بالإنس: هو أنهم قالوا: قد سِدْنَا الإنس مع الجن، حتى عاذوا بنا فيزدادون شرفاً في قومهم وعِظَماً في أنفسهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذُون برجالٍ من الجنِّ فزادُوهم رهقاً ﴾ [الجن: ٦] وقيل: استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يُلْقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التي يهوونها، حتى يسهل فعلها عليهم، واستمتاع الجنّ بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزيّنون لهم من الضلالة والمعاصي. قال محمد بن كعب: هو طاعة بعضهم بعضاً وموافقة بعضهم لبعض، ﴿ وبَلَغْنَا أجلَنا الذي أجّلْتَ لنا ﴾، يعني: القيامة والبعث، ﴿ قال ﴾ الله تعالى: ﴿ النارُ مثواكم ﴾، مقامكم، ﴿ خالدينَ فيها إلاّ ما شاءَ الله ﴾، اختلفوا في هذا الاستثناء كما اختلفوا في قوله: ﴿ خالدينَ فيها ما دامتِ السمٰواتُ والأرضُ إلاّ ما شاء رَبُّك ﴾ [هود: ١٠٧]، قيل: أراد إلاّ قدر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم، يعني: خالدون في النار إلاّ هذا المقدار، وقيل: الاستثناء يرجع إلى العذاب، وهو قوله: ﴿ النار مثواكم ﴾، أي:

﴿إن ربك حكيم﴾ يعني في تدبير خلقه وتصريفه إياهم في مشيئته من حال إلى حال وغير ذلك من أفعاله. وقيل حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصي وفي سائر وجوه المجازاة ﴿عليم﴾ يعني بعواقب أمور خلقه وما هم إليه صائرون كأنه قال إنما حكمت لهؤلاء الكفار بالخلود في النار، لعلمي بأنهم يستحقون ذلك.

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ الكاف في كذلك كاف التشبيه تقتضي شيئاً تقدم ذكره فالتقدير كما أنزلت العذاب بالجن والإنس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً أي نسلط بعضهم على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء في الأثر: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه» وقال قتادة: نجعل بعضهم أولياء بعض فالمؤمن ولي المؤمن حيث كان وأين كان والكافر ولي الكافر حيث كان وأين كان. وفي رواية أخرى عن قتادة قال: يتبع بعضهم بعضاً في النار من الموالاة، وقيل: معناه نولي ظلمة الإنس الجن وظلمة الجن ظلمة الإنس يعني نكل بعضهم إلى بعض. وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية وأن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى عليهم خيارهم وإذا أراد بقوم شراً ولى عليهم شرارهم فعلى هذا القول إن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالماً مثلهم فمن أراد أن يتخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم.

وقوله تعالى: ﴿بما كانوا يكسبون﴾ يعني يسلط عليهم من يظلمهم بسبب أعمالهم الخبيثة التي اكتسبوها.

قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس﴾ المعشر كل جماعة أمرهم واحد والجمع معاشر ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية وهل كان من الجن رسل أم لا فذهب أكثر العلماء إلى أنه لم يكن من الجن رسول وإنما كانت الرسل من الإنس وأجابوا عن قوله رسل منكم يعني من أحدكم وهم الإنس فحذف المضاف فهو كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع في قوله ﴿مرج البحرين﴾ وهو جائز في كل ما اتفق في أصله فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين وهم الإنس، وهذا قول الفراء والزجاج ومذهب جمهور أهل العلم.

خالدين في النار سوى ما شاء الله من أنواع العذاب، وقال ابن عباس: الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار، و﴿ ما ﴾ بمعنى (من) على هذا التأويل، ﴿ إِنّ ربَّك حكيمٌ عليم ﴾، قيل: حكيم بمَن استثنى عليم بما في قلوبهم من البِرِّ والتقوى.

﴿ وكذلك نُولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانُوا يكسِبُون ﴾، قيل: أي: كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض نولي بعض الظالمين بعضاً، أي: نسلّط بعض الظالمين على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم، كما جاء «مَنْ أعان ظالماً سلّطه اللّهُ عليه». وقال قتادة: نجعل بعضهم أولياء بعض، فالمؤمن وليّ المؤمن أين كان، والكافر وليُّ الكافر حيث كان. وروى معمر عن قتادة: نتبع بعضهم بعضاً في النار، من الموالاة. وقيل: معناه نولي ظلمة الإنس ظلمة الجن، ونولي ظلمة الجن ظلمة الإنس، أي: نَكِل بعضهم إلى بعض، كقوله تعالى: ﴿ نُولّه ما تولى ﴾ [النساء: ١١٥]، وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها هو: أنّ الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولّى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شرّاً ولّى أمرهم شرارهم.

قال الواحدي: وعليه دل كلام ابن عباس لأنه قال يريد أنبياء من جنسهم ولم يكن من جنس الجن أنبياء وذهب قوم إلى أنه أرسل إلى الجن رسلاً منهم كما أرسل إلى الإنس رسلاً منهم. قال الضحاك: من الجن رسل كما من الإنس رسل وظاهر الآية يدل على ذلك لأنه تعالى قال: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ فخاطب الفريقين جميعاً وأجيب عن ذلك بأن الله تعالى قال: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ وهذا يقتضي كون الرسل بعضاً من أبعاض هذا المجموع وإذا كان الرسل من الإنس كان الرسل بعضاً من أبعاض هذا المجموع وكان هذا القول أولى من حمل لفظ الآية على ظاهرها فثبت بذلك كون الرسل من الإنس لا من الجن، ويحتمل أيضاً أن يقال إن كافة الرسل كانوا من الإنس لكن الله تعالى يلقى الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل من الإنس ثم يأتوا قومهم من الجن فيخبروهم بما سمعوا من الرسول ينذرهم به كما قال تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن - إليّ - فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ فكان أولئك النفر من الجن رسل رسول الله ﷺ إلى قومهم وهذا مذهب مجاهد فإنّ الرسل من الإنس والنذر من الجن ونحو ذلك قال ابن جريج وأبو عبيدة. وقيل: كانت الرسل يبعثون إلى الجن من الجن، ولكن بواسطة رسل الإنس والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقوله تعالى: ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ يعني يخبرونكم بما أوحي إليهم من آياتي الدالة على توحيدي وتصديق رسلي ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ يعني ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء عذابي في يومكم هذا وهو يوم القيامة وذلك أن الله تعالى يقول يوم القيامة يوم لكفار الجن والإنس على سبيل التقريع والتوبيخ ما أخبر في كتابه، وهو قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس﴾ الآية فيجيبون بما أخبر عنهم في قوله تعالى: ﴿قالوا﴾ يعني كفار الجن والإنس ﴿شهدنا على أنفسنا﴾ اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذروهم لقاء يومهم هذا وأنهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى: ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ إنما كان ذلك بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا إليها: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ في الدنيا.

فإن قلت كيف أقروا على أنفسهم بالكفر في هذه الآية وجحدوا الشرك والكفر في قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾.

قلت: يوم القيامة يوم طويل والأحوال فيه مختلفة فإذا رأوا ما حصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة أنكروا الشرك لعل ذلك الإنكار ينفعهم، وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فحينئذٍ يختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر فذلك قوله تعالى: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

فإن قلت لما كرر شهادتهم على أنفسهم، قلت: شهادتهم الأولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا معشرَ الجنِّ والإنس أَلَمْ يأتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾، واختلفوا في أن الجن هلْ أُرسل إليهم منهم رسول، فسُئل الضحاك عنه، فقال: بلى ألم تسمع الله يقول: ﴿ ألم يأتِكم رسلٌ منكم ﴾، يعني: بذلك رسلاً من الإنس ورسلاً من الجن. قال الكلبي: كانت الرسل من قبل أن يبعث محمد ﷺ يبعثون إلى الجن والإنس جميعاً ومحمد الرسول ﷺ يبعث إلى الجن والإنس كافّة. قال مجاهد: الرسل من الإنس والنذر من الجن، ثم قرأ ﴿ولَّوْا إلى قومهم مُنْذِرين ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وهم قوم يسمعون كلام الرسل فيبلغون الجن ما سمعوا، وليس للجن رسل، فعلى هذا قوله رسل منكم ينصرف إلى أحد الصنفين وهم الإنس، كما قال: ﴿ يخرجِ منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمٰن: ٢٢]، وإنّما يخرج من الملح دون العذب، وقال: ﴿ وجعل القمر فيهنّ نوراً ﴾ [نوح: ١٦]، وإنّما هو في سماء واحدة، ﴿ يقصُّون عليكم ﴾، أي: يقرؤون عليكم، ﴿ آياتي ﴾، كتبي ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم

الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفي قوله: ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والمقصود من شرح حالهم تحذير السامعين وضجر لهم عن الكفر والمعاصي. وقوله عز وجل:

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة، وقال الزجاج: معناه ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذبهم ﴿إن لم يكن ربك﴾ يعني لأنه لم يكن ربك ﴿مهلك القرى بظلم﴾ قال الكلبي: معناه لم يكن ليهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل فتنهاهم فإن رجعوا وإلا أتاهم العذاب، وهذا قول جمهور المفسرين قال الفراء: يجوز أن يكون المعنى لم يكن ليهلكهم بظلم منه ﴿وأهلها غافلون﴾ أي: وهم غافلون فعلى قول الجمهور: يكون الظلم فعلاً للكفار وهو شركهم وذنوبهم التي عملوها، وعلى قول الفراء: إنه لو أهلكهم قبل بعثة الرسل لكان ظالماً والله عز وجل يتعالى عن الظلم.

والقول الأول: أصح، لأنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، غير أنه أخبر أنه لا يعذب قبل بعثة الرسل ولو فعل ذلك لم يكن ظلماً منه قوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ يعني ولكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات، يعني منازل يبلغها بعمله إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر.

وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج وهذا إنما يكون في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا فمنهم من هو أعظم ثواباً ومنهم من هو أشد عقاباً، وهو قول جمهور المفسرين وقيل: إن قوله تعالى ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾، مختص بأهل الطاعة لأن لفظ الدرجة لا يليق إلا بهم. وقوله تعالى: ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ مختص بأهل الكفر والمعاصي ففيه وعيد وتهديد لهم.

والقول الأول أصح، لأن علمه تعالى شامل لكل المعلومات فيدخر فيه المؤمن والكافر والطائع والعاصي وأنه عالم بأعمالهم على التفصيل التام فيجزي كل عامل على قدر عمله وما يليق به من ثواب أو عقاب.

قوله عز وجل: ﴿وربك الغني﴾ يعني عن خلقه وذلك أنه تعالى لما بيَّن أن لكل عامل بطاعة أو معصية درجة على قدر عمله بين أن تخصيص المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب ليس لأنه محتاج إلى طاعة المطيع أو منتقص بمعصية العاصي بل هو الغني على الإطلاق وأن جميع الخلق فقراء إليه ﴿ذو الرحمة﴾ قال ابن عباس: بأوليائه وأهل

هذا ﴾، وهو يوم القيامة، **﴿ قالوا شهِدْنا على أنفسنا ﴾**، أنهم قد بلغوا، قال مقاتل: وذلك حين شهدتْ عليهم جوارحهم بالشرك والكفر. قال الله عزّ وجلّ: **﴿ وغرّتْهم الحياةُ الدنيا ﴾**، حتى لم يؤمنُوا، **﴿ وشهدُوا على أنفسهم أنهم كانُوا كافرين ﴾**.

﴿ ذلك أن لَّم يكن ربُّك مُهْلِكَ القُرَى بظلم ﴾، أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرُّسل وعذابِ مَن كذّبهم، لأنه لم يكنْ ربُّك مُهلكَ القرى بظلمٍ، أي: لم يكن يهلكهم بظلم، أي: بشركِ مَن أشرك، **﴿ وأهلُها غافلُون ﴾**، لم ينذروا حتى يبعث إليهم رسلاً ينذرونهم. وقال الكلبي: لم يهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم

طاعته، وقال الكلبي: بخلقه ذو التجاوز عنهم فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ يعني يهلككم. الخطاب لأهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم ﴿ويستخلف﴾ يعني وينشىء ويخلق ﴿من بعدكم﴾ يعني من بعد إهلاككم ﴿ما يشاء﴾ يعني خلقاً غيركم أمثل وأطوع منكم ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ اختلف عبارات المفسرين في هذه اللفظة فقال البغوي: يعني آباءهم الماضين قرناً بعد قرن، ونحوه قال الواحدي وصاحب الكشاف: يعني من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام. وقال الإمام فخر الدين الرازي في قوله تعالى: ﴿ويستخلف من بعدكم﴾ يعني من بعد إذهابكم لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل من فائت.

وأما قوله ﴿ما يشاء﴾ فالمراد منه خلق ثالث أو رابع واختلفوا فيه، فقال بعضهم: خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس. قال القاضي: وهو الوجه الأقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فمتى كمل خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي الثواب فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء الأقوام الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل منهم سواهم ثم بيَّن الله تعالى قوة قدرته على ذلك فقال: ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ لأن المرء إذا تفكر علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة وإذا كان كذلك فكما قدر على تصوير هذه الأجسام بهذه الخاصة فكذلك يقدر على تصويرهم خلقاً آخر مخالفاً لها هذا آخر كلامه. وقال الطبري في قوله «كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين» يقول كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم ومعنى من في هذا الموضع التعقيب كما يقال في الكلام أعطيتك من دينارك ثوباً يعني مكان الدينار ثوباً لا أن الثوب من الدينار بعض. كذلك الذين خوطبوا بقوله «كما أنشأكم» لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين ولكن معنى ذلك ما ذكرنا أنهم أنشئوا مكان قوم آخرين قد أهلكوا قبلهم.

قوله تعالى: ﴿إن ما توعدون﴾ به من مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة ﴿لآت﴾ يعني أنه كائن قريب ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ يعني بفائتين حيثما كنتم يدرككم الموت.

الرسل. وقيل: معناه لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرّسل فيكون قد ظلمهم، وذلك أن الله تعالى أجرى السُّنّة أن لا يأخذ أحداً إلّا بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنباً إذا أُمر فلم يأتمر أو نُهي فلم ينته، وذلك يكون بعد إنذار الرّسل.

﴿ ولكلٍّ درجاتٌ ممّا عملُوا ﴾، يعني في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا، فمنهم مَن هو أشدّ عذاباً ومنهم مَن هو أجزل ثواباً، ﴿ وما ربُّك بغافل عمّا يعملون ﴾، قرأ ابن عامر تعملون بالتاء والباقون بالياء.

﴿ وربُّك الغني ﴾، عن خلقه، ﴿ ذُو الرحمة ﴾، قال ابن عباس بأوليائه وأهل طاعته، وقال الكلبي: بخلقه ذو التجاوز، ﴿ إن يشأ يُذْهِبْكُم ﴾، يهلككم، وعيد لأهل مكة، ﴿ ويستخلفْ ﴾، ويخلف وينشىء، ﴿ من بعدِكم ما يشاءُ ﴾، خلقاً غيركم أمثل وأطوع. ﴿ كما أنشأكم مِّن ذُرّيةِ قومٍ آخرين ﴾، أي: من نسل آبائهم الماضين قرناً بعد قرن.

﴿ إنّ ما تُوعدُون ﴾ أي: ما توعدون من مجيء الساعة والحشر، ﴿ لآتٍ ﴾، كائن، ﴿ وما أنتمْ بمعجزين ﴾، أي: بفائِتين، يعني: يدرككم الموت حيث ما كنتم.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿قل﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي قل يا محمد ﴿يا قوم﴾ أي قل لقومك من كفار قريش ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ وقرىء مكاناتكم على الجمع والمكانة تكون مصدراً يقال: مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة كما يقال مقام ومقامة فقوله اعملوا على مكانتكم يحتمل أن يكون معناه اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ويحتمل أن يكون معناه اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها كما يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: مكانتك يا فلان أي أثبت على ما أنت عليه لا تتغير عنه. وقال ابن عباس معناه اعملوا على ناحيتكم ﴿إني عامل﴾ يعني إني عامل على مكانتي التي أنا عليها وما أمرني به ربي والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فإني ثابت على الإسلام والمصابرة.

فإن قلت ظاهر الآية يدل على أمر الكفار بالإقامة على ما هم عليه من الكفر وذلك لا يجوز.

قلت: معنى هذا الأمر الوعيد والتهديد والمبالغة في الزجر عما هم عليه من الكفر فكأنه قال أقيموا على ما أنتم عليه من الكفر إن رضيتم لأنفسكم بالعذاب الدائم فهو كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ففيه تفويض أمر العمل إليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه إطلاق لهم في عمل ما أرادوه من الكفر والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿فسوف تعلمون﴾ يعني لمن العاقبة المحمودة لنا أو لكم. وقيل معناه فسوف تعلمون عند نزول

﴿ قلْ ﴾ يا محمد ﴿ يا قوم اعملُوا على مكانَتِكم ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم (مكاناتكم) بالجمع حيث كان أي: على تمكّنكم، قال عطاء: على حالاتكم التي أنتم عليها. قال الزجّاج: اعملوا على ما أنتم عليه. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه، وهذا أمر وعيد عن المبالغة يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: قل لهم اعملوا على ما أنتم عاملون، ﴿ إنّي عاملٌ ﴾، ما أمرني به ربّي عزّ وجلّ، ﴿ فسوف تعلمُون مَن تكونُ له عاقبة الدار ﴾، أي: الجنة، قرأ حمزة والكسائي: يكون بالياء هنا وفي القصص، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث العاقبة، ﴿ إنه لا يُفلحُ الظّالمون ﴾، قال ابن عباس: معناه لا يسعد مَن كفر بي وأشرك. قال الضحاك: لا يفوز.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وجعلوا للّهِ ممّا ذَرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ الآية، كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيباً، وللأوثان نصيباً فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين، وما جعلوه للأصنام وخدمها، فإن سقط شيء مما جعلوه لله تعالى في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إنّ الله غنيّ عن هذا، وإن سقط شيء من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردّوه إلى الأوثان، وقالوا: إنها محتاجة، وكان إذا هلك أو انتقص

العذاب بكم أينا كان على الحق في عمله نحن أم أنتم ﴿من تكون له عاقبة الدار﴾ يعني فسوف تعلمون غداً القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهي الجنة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ قال ابن عباس: معناه أنه لا يسعد من كفر بي وأشرك. ثم في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها محكمة وهذا على قول من يقول إن المراد بقوله اعملوا على مكانتكم الوعيد التهديد.

والقول الثاني: أنها منسوخة بآية السيف وهذا على قول من يقول إن المراد بها ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً**﴾ الآية لما بين الله عز وجل قبح طريقه الكفار وما كانوا عليه من إنكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم الفاسدة تنبيهاً على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه في الجاهلية فقال تعالى: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ**﴾ يعني مما خلق من الحرث يعني الزرع والثمر والأنعام، يعني ومن الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم نصيباً يعني قسماً وجزءاً. قال المفسرون: كان المشركون في الجاهلية يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً وللأصنام نصيباً فما جعلوه من ذلك لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن الله غني عن هذا وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان. وقالوا: إنها محتاجة إليه. وكانوا إذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله فذلك قوله: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً**﴾ وفيه اختصار تقديره وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً وللأصنام نصيباً ﴿**فقالوا هذا لله بزعمهم**﴾ يعني قولهم الذي هو بغير حقيقة لأن معنى زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب ولذلك لا يجيء إلا في موضع ذم لقائليه وإنما نسبوا إلى الكذب في قولهم هذا الله بزعمهم وإن كانت الأشياء كلها لله لإضافتهم نصيب الأصنام مع نصيب الله وهو قولهم: ﴿**وهذا لشركائنا**﴾ يعني الأصنام وإنما سموا الأصنام شركاء لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونه عليها: ﴿**فما كان لشركائهم**﴾ يعني وما جعلوا لها من الحرث والأنعام ﴿**فلا يصل إلى الله**﴾ يعني فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان ﴿**وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم**﴾ والمعنى أنهم كانوا يقرون ما جعلوه للأصنام مما جعلوه لله ولا يقرون ما جعلوه لله مما جعلوه للأصنام، وقال قتادة: كانوا إذا أصابتهم سنة قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا مما جعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئاً. وقال الحسن والسدي: كانوا إذا هلك ما جعلوا لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم فلذلك ذمهم الله تعالى فقال: ﴿**ساء ما يحكمون**﴾ يعني: بئس ما يحكمون

شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به، إذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوا للأصنام جبروه بما جعلوه لله، فذلك قوله تعالى: ﴿ وجعلُوا للَّهِ مِمّا ذَرَأَ من ﴾ خلق ﴿ الحرث والأنعام نصيباً ﴾، وفيه اختصار مجازه: وجعلوا لله نصيباً ولشركائهم نصيباً. **﴿ فقالوا هذا للَّهِ بزعمِهم ﴾**، قرأ الكسائي «بزعمهـم» بضم الزاي، والباقون بفتحها، وهما لغتان، وهو القول من غير حقيقة، **﴿ وهذا لشركائِنا ﴾**، يعني: الأوثان، **﴿ فما كانَ لشُركائِهم فلا يصلُ إلى اللَّهِ وما كان للَّهِ فهو يصلُ إلى شُركائِهم ﴾**، ومعناه: ما قلنا أنهم كانوا يتمّون ما جعلوا للأوثان ممّا جعلوه لله، ولا يتمّون ما جعلوه لله مما جعلوه للأوثان. وقال قتادة: كانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جزّؤوا لله وأكلوا منه فوفّروا ما جزّؤوا لشركائهم ولم يأكلوا منه، **﴿ ساءَ ما يحكمُون ﴾**، أي: بئس ما يقضون.

﴿ وكذلك زَيَّنَ لكثير منَ المشركين ﴾، أي: كما زين لهم تحريم الحرث والأنعام كذلك زيّن لكثير من المشركين، **﴿ قتلَ أولادِهم شركاؤُهم ﴾**، قال مجاهد شركاؤهم، أي: شياطينهم زيّنوا أو حسّنوا لهم وأدَ البنات

ويقضون وذلك أنهم رجحوا جانب الأصنام على جانب الله تعالى في الرعاية والحفظ وهذا سفه منهم. وقيل: إن الأشياء كلها لله عز وجل وهو خلقها فلما جعلوا للأصنام جزءاً من المال وهي لا تملك ولا تخلق ولا تضر ولا تنفع نسبوا إلى الإساءة في الحكم والمقصود من ذلك بيان ما كانوا عليه في الجاهلية من هذه الأحكام الفاسدة التي لم يرد بها شرع ولا نص ولا يحسنها عقل.

قوله عز وجل: ﴿**وكذلك**﴾ عطف على قوله ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً**﴾ يعني كما فعلوا ذلك جهلاً منهم كذلك زين لكثير منهم قتل أولادهم شركاؤهم. والمعنى أن جعلهم لله نصيباً من أموالهم ولشركائهم نصيباً في غاية الجهل بمعرفة الخالق المنعم لأنهم جعلوا الأصنام مثله في استحقاق النصيب وكذلك إقدامهم على قتل أولادهم في نهاية الجهالة أيضاً فكأنه قال ومثل ذلك الذي فعلوه في القسم جهلاً وخطأ وضلالاً كذلك ﴿**زين**﴾ يعني حسَّن ﴿**لكثير من المشركين قتل أولادهم**﴾ يعني به وأد البنات أحياء مخافة الفقر والعيلة ﴿**شركاؤهم**﴾ يعني شياطينهم أمروهم أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الأولاد فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم وأضيف الشركاء إلى المشركين لأنهم أطاعوهم واتخذوهم أرباباً، وقال الكلبي: شركاؤهم سدنة آلهتهم يعني خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الأولاد وكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول، الشركاء هم السدنة وخدام الأصنام سموا شركاء لأنهم أشركوهم في الطاعة ﴿**ليردوهم**﴾ يعني ليهلكوهم بذلك الفعل الذي أمروهم به. والإرداء في اللغة: الإهلاك. قال ابن عباس: ليردوهم في النار ﴿**وليلبسوا عليهم دينهم**﴾ يعني وليخلطوا عليهم دينهم. قال ابن عباس: ليدخلوا عليهم الشك في دينهم وكانوا على دين إسماعيل عليه السلام فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين، وإنما فعلوا ذلك ليزيلهم عن الدين الحق الذي كان عليه إسماعيل وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فوضعوا لهم هذه الأوضاع الفاسدة وزينوها لهم ﴿**ولو شاء الله ما فعلوه**﴾ يعني ولو شاء الله لعصمهم من ذلك الفعل القبيح الذي زين لهم من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد أخبر الله عز وجلّ أن جميع الأشياء بمشيئته وإرادته إذ لو لم يشأ ما فعلوا ذلك ﴿**فذرهم**﴾ يعني فاتركهم يا محمد ﴿**وما يفترون**﴾ يعني وما يختلقون من الكذب على الله فإن الله لهم بالمرصاد.

خيفة الغيلة، سمّيت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله وأُضيف الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها. وقال الكلبي: شركاؤهم سدنة آلهتهم الذين كانوا يزينون للكفّار قتل الأولاد، وكان الرجل منهم يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنّ أحدَهم كما حلف عبد المطّلب على ابنه عبد الله، وقرأ ابن عامر: «زُيِّــن» بضم الزاي وكسر الياء، ﴿ قتل ﴾ رفع ﴿ أولادهم ﴾ نصب، ﴿ شركائهم ﴾ بالخفض على التقديم، كأنه قال: زُيّن لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم فصل بين الفعل وفاعله بالمفعول به وهو الأولاد، كما قال الشاعر:

فـزجـجْـتـهُ مـتـمـكّـنـاً زجّ الـقـلـوص أبـي مـزاده

أي: زجّ أبي مزادة القلوص، فأُضيف الفعل وهو القتل، إلى الشركاء، وإن لم يتولّوا ذلك لأنهم هم الذين زيّنوا ذلك ودعوا إليه، فكأنّهم فعلوه. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ليردُوهم ﴾، ليُهلكوهم، ﴿ ولِيَلْبِسُوا عليهم ﴾، ليخلطوا عليهم، ﴿ دينَهم ﴾، قال ابن عباس: ليُدخلوا عليهم الشكَّ في دينهم، وكانوا على دين إسـماعيل فرجعوا عنه بلَبْسِ الشياطين. ﴿ ولو شاءَ اللَّهُ ما فعلُوه ﴾، أي: لو شاء الله لعصمهم حتى ما فعلوا من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد، ﴿ فَذَرْهم ﴾، يا محمد، ﴿ وما يَفْتَرُون ﴾، يختلقون من الكذب، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقالوا﴾ يعني المشركين ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ أي حرام وأصله المنع لأنه منع من الانتفاع منه بتحريمه. وقيل: هو من التضييق والحبس لأنهم كانوا يحبسون أشياء من أنعامهم وحروثهم لآلهتهم. قال مجاهد: يعني بالأنعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ﴿لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم﴾ يعني يأكلها خدام الأصنام والرجال دون النساء: ﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ يعني الحوامي وهي الأنعام التي حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ يعني لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح وإنما كانوا يذكرون عليها أسماء الأصنام: وقيل معناه لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير لأنه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير ﴿افتراء عليه﴾ يعني أنهم كانوا يفعلون هذه الأفعال ويزعمون أن الله أمرهم بها وذلك اختلاق وكذب على الله عز وجل: ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ فيه وعيد وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب.

قوله عز وجل: ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ يعني نساءنا، قال ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد جنة البحائر والنساء جميعاً وهو قوله تعالى: ﴿وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾ ودخلت الهاء في خالصة للتأكيد والمبالغة، كقولهم رجل علَّامة ونسَّابه. وقال الفراء: دخلت الهاء لتأنيث الأنعام لأن ما في

﴿ وقالوا ﴾ يعني: المشركين، ﴿ هذهِ أنعام وحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾، أي حرام، يعني: ما جعلوا لله ولآلهتهم من الحرث والأنعام على ما مضى ذكره. وقال مجاهد: يعني بالأنعام البحيرة والسائبة الوصيلة والحام، ﴿ لا يَطْعَمُها إلاّ مَنْ نشاءُ بزعمِهم ﴾، يعنون الرجال دون النساء، ﴿ وأنعامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُها ﴾، يعني: الحوامَي كانوا لا يركبونها، ﴿ وأنعامٌ لا يذكُرون اسمَ اللّهِ عليها ﴾، أي: يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله، وقال أبو وائل: معناه لا يحجّون عليها ولا يركبونها لفعل الخير، لأنه لمّا جرتِ العادة بذكر اسم الله على فعل الخير عبّر بذكر الله تعالى عن فعل الخير. ﴿ افتراءً عليه ﴾، يعني: أنهم يفعلون ذلك ويزعمون أن الله أمرهم به افتراءً ﴿ سَيَجْزِيهِمْ بما كانُوا يفْتَرُون ﴾.

﴿ وقالوا ما في بطونِ هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورِنَا ومُحرَّمٌ على أزواجِنا ﴾، أي: نسائنا. قال ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد أجنّة البحائر والسوائب فما وُلد منها حيّاً فهو خالص للرجال دون النساء، وما وُلد ميّتاً أكله الرجال والنساء جميعاً. وأدخل الهاء في ﴿الخالصة﴾ للتأكيد كالخالصة والعامّة، كقولهم: نسّابة وعلاّمة، قال الفرّاء رحمه الله: أُدخلت الهاء لتأنيثها. وقال الكسائي: خالص وخالصة واحد، مثل وعظٍ وموعظة. ﴿وإن يَكُن مَّيتَةً﴾، قرأ ابن عامر وأبو جعفر: «تكن» بالتاء ﴿ ميتة ﴾ رفع، ذكر الفعل بعلامة التأنيث، لأن الميتة في اللفظ مؤنثة. وقرأ أبو بكر عن عاصم «تكن» بالتاء ﴿ ميتة ﴾ نصب، أي: وإن تكن الأجنة ميتة، وقرأ ابن كثير: «وإنْ يكن» بالياء «ميتة» رفع، لأنّ المراد بالميتة الميت، أي: وإن يقع ما في البطون ميّتاً، وقرأ الآخرون

بطونها مثلها فأنث بتأنيثها. وقال الكسائي: خالص وخالصة واحد مثل وعظ وموعظة وقيل: إذا كان اللفظ عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى وتذكيره على اللفظ كما في هذه الآية فإنه أنث خالصة على المعنى وذكر ومحرم على اللفظ ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ يعني سيكافئهم بسبب وصفهم على الله الكذب ﴿إنه حكيم عليم﴾ فيه وعيد وتهديد يعني أنه تعالى حكيم فيما يفعله عليم بقدر استحقاقهم.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ قال عكرمة: نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر وكان الرجل يقاضي الرجل على أن يستحيي جارية ويئد أخرى فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عندها امرأته وقال لها أنت عليّ كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تئديها فتخدّ لها في الأرض خداً وترسل إلى نسائها فيجتمعن عنهدا ثم يتداولنها بينهن حتى إذا أبصرته راجعاً دستها في حفرتها ثم سوت عليها التراب. وقال قتادة: هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنه مخافة السبي والفاقة ويغذو كلبه.

أما سبب الخسران المذكور في قوله قد خسر الذين قتلوا أولادهم: أن الولد نعمة عظيمة أنعم الله بها على الوالد فإذا تسبب الرجل في إزالة هذه النعمة عنه وإبطالها فقد استوجب الذم وخسر في الدنيا والآخرة، أما خسارته في الدنيا فقد سعى في نقص عدده وإزالة ما أنعم الله به عليه. وأما خسارته في الآخرة فقد استحق بذلك العذاب العظيم.

وقوله ﴿سفها بغير علم﴾ يعني فعلوا ذلك للسفاهة وهي الخفة والجهالة المذمومة وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه لأن الجهل كان هو الغالب عليهم قبل بعثة رسول الله ﷺ ولهذا سموا جاهلية وقوله تعالى: ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ يعني البحائر والسوائب والحامي وبعض الحروث وبعض ما في بطون الأنعام، وهذا أيضاً من أعظم الجهالة ﴿افتراء على الله﴾ يعني أنهم فعلوا هذه الأفعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بذلك وهذا افتراء على الله وكذب وهذا أيضاً من أعظم الجهالة لأن الجرأة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ولهذا قال تعالى: ﴿قد ضلوا﴾ يعني في فعلهم عن طريق الحق والرشاد ﴿وما كانوا مهتدين﴾ يعني إلى طريق الحق والصواب في فعلهم (خ).

عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم إلى قوله ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾.

«وإنْ يكن» بالياء «ميتة» نصب، ردّه إلى ﴿ ما ﴾ أي: وإن يكن ما في البطون ميتة، يدلّ عليه أنه قال: ﴿ فهمْ فيهِ شُركاء ﴾، ولم يقل فيها، وأراد أن الرجال والنساء فيه شركاء. ﴿ سَيَجْزِيهم وَصْفَهم ﴾، أي: بوصفهم، أو على وصفهم الكذب على الله، ﴿ إنه حكيمٌ عليم ﴾.

﴿ قدْ خَسِرَ الذينَ قَتَلُوا أولادَهم ﴾، قرأ ابن عامر وابن كثير «قتّلوا» بتشديد التاء على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف. ﴿ سفهاً ﴾، جهلاً. ﴿ بغير علمٍ ﴾، نزلت في ربيعة ومضر وبعض من العرب من غيرهم، كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر، وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك. ﴿ وحرّمُوا ما رزقَهُم الله ﴾، يعني:

قوله عز وجل: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ يعني والله الذي ابتدع وخلق جنات يعني بساتين معروشات ﴿وغير معروشات﴾ يعني مسموكات مرتفعات وغير مرتفعات وأصل العرش في اللغة شيء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم أعرشه عرشاً وعرشته تعريشاً إذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش إذا علاه وركبه. واختلفوا في معنى قوله ﴿معروشات وغير معروشات﴾ فقال ابن عباس: المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك وغير معروشات ما قام على ساق ونسق كالنخل والزرع وسائر الشجر. وقال الضحاك: كلاهما في الكرم خاصة لأن منه ما يعرش ومنه ما لم يعرش بل يلقى على وجه الأرض منبسطاً، وقيل: المعروشات ما غرسه الناس في البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير معروشات وهو ما أنبته الله في البراري والجبال من كرم أو شجر ﴿والنخل والزرع﴾ يعني وأنشأ النخل والزرع وهو جميع الحبوب التي تقتات وتدخر ﴿مختلفاً أكله﴾ يعني به اختلاف الطعوم في الثمار كالحلو والحامض والجيد والرديء ونحو ذلك ﴿والزيتون والرمان متشابهاً﴾ يعني في المنظر ﴿وغير متشابه﴾ يعني في المطعم كالرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف، وقيل: إن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرتهما مختلفة في الجنس والطعم ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ لما ذكر ما أنعم الله به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع من الثمار ذكر ما هو المقصود الأصلي وهو الانتفاع بها، فقال تعالى: كلوا من ثمره إذا أثمر، وهذا أمر إباحة. وتمسك بهذا بعضهم فقال: الأمر قد يرد إلى غير الوجوب لأن هذه الصيغة مفيدة لدفع الحجر. وقال بعضهم: المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق لأنه تعالى لما أوجب الزكاة في الحبوب والثمار كان يحتمل أن يحرم على المالك أن يأكل منها شيئاً قبل إخراج الواجب فيها لمكان شركة الفقراء والمساكين معه فأباح الله أن يأكل قبل إخراجه لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير وقيل إنما قال تعالى كلوا من ثمره إذا أثمر بصيغة الأمر ليعلم أن المقصود من خلق هذه الأشياء التي أنعم الله بها على عباده وهو الأكل ﴿وآتوا حقّه يوم حصاده﴾ يعني يوم جذاذه وقطعه. واختلفوا في هذا الحق المأمور بإخراجه، فقال ابن عباس وأنس بن مالك: هو الزكاة المفروضة. وهذا قول طاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب ومحمد بن الحنفية وقتادة. قال قتادة في قوله «وآتوا حقه يوم حصاده» أي من الصدقة المفروضة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ سن فيما سقت السماء والعين السائحة أو سقاه النيل والندى أو كان بعلاً العشر كاملاً وإن سقي بنضح أو سانية فنصف العشر وهذا فيما يكال من الثمرة أو الزرع وبلغ خمسة أوسق وذلك ثلثمائة صاع فقد وجب فيها حق الزكاة وفي رواية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال هو العشر ونصف العشر.

البحيرة والسائبة والوصيلة والحَـام، ﴿ افتِرَاءً على اللَّهِ ﴾، حيث قالوا: إن الله أمرهم بها، ﴿ قدْ ضَلُّوا وما كَانُوا مُهْتَدِين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وهو الذي أنشأ جنَّاتٍ ﴾، بساتين، ﴿ معْرُوشاتٍ وغيرَ معرُوشات ﴾، أي: مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات. وقال ابن عباس: معروشات ما انبسط على وجه الأرض، فانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ وغيرهـا، وغير معروشات ما قام على ساق ونسق، مثل النخل والزرع وسائر الأشجار. وقال الضحاك: كلاهما من الكرم خاصة منها ما عرش ومنها ما لم يعرش. ﴿ والنَّخلَ والزَّرْعَ ﴾، أي: وأنشأ النخل والزرع، ﴿ مختلفاً أُكُلُهُ ﴾، ثمره وطعمه منها الحلو والحامض والجيد والرديء، ﴿ والزيتونَ والرمَّانَ متشابهاً ﴾، في النظر، ﴿ وغيرَ مُتشابه ﴾، في المطعم مثل الرمّانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف، ﴿ كلُوا من ثمرهِ إذا أثمر ﴾، ﴿ وآتُوا حقَّه يومَ حصادِه ﴾ قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم «حصـاده» بفتح الحاء، وقرأ الآخرون بكسرها ومعناهما واحد، كالصِّرام والصَّرام والجَذار والجِذار، واختلفوا في هذا الحق فقال ابن عباس وطاوس

فإن قلت على هذا التفسير إشكال وهو أن فرض الزكاة كان بالمدينة وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل قوله وآتوا يوم حصاده على الزكاة المفروضة، قلت: ذكر ابن الجوزي في تفسيره عن ابن عباس وقتادة: إن هذه الآية نزلت بالمدينة فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت في حكم الزكاة وإن قلنا إن هذه الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة، لأنه قد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن وقيل في قوله تعالى: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أنه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد وهو إطعام من حضر وترك ما سقط من الزرع والثمر، وهذا قول علي بن الحسن وعطاء ومجاهد وحماد. قال إبراهيم: هو الضغث، وقال الربيع: هو لقاط السنبل، وقال مجاهد: كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر. وقال يزيد بن الأصم: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيعلقونه في جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله فعلى هذا القول هل هذا الأمر أمر وجوب أو استحباب وندب فيه قولان:

أحدهما: أنه أمر وجوب فيكون منسوخاً بآية الزكاة.

وبقوله ﷺ في حديث الأعرابي هل علي غيرها قال إلا أن تطوع.

والقول الثاني: إنه أمر ندب واستحباب فتكون الآية محكمة، وقال سعيد بن جبير: كان هذا حقاً يؤمر بإخراجه في ابتداء الإسلام ثم صار منسوخاً بإيجاب العشر، ولقول ابن عباس: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن واختار هذا القول الطبري وصححه واختار الواحدي والرازي القول الأول وصححاه.

فإن قلت: فعلى القول الأولى كيف تؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب في السنبل وإنما يجب الإخراج بعد التصفية والجفاف، قلت: معناه قدروا أداء إخراج الواجب منه يوم الحصاد فإنه قريب من زمان التنقية والجفاف ولأن النخل يجب إخراج الحق منه يوم حصاده وهو الصرام والزرع محمول عليه إلا أنه لا يمكن إخراج الحق منه إلا بعد التصفية. وقيل معناه وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التصفية، وقيل: إن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب بنفس الزرع وبلوغه إنما يجب يوم حصاده وحصوله في يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله في يد مالكه.

قوله تعالى: ﴿ولا تسرفوا﴾ الإسراف تجاوز الحد فيما يفعله الإنسان وإن كان في الإنفاق أشهر وقيل السراف تجاوز ما حد لك وسرف المال إنفاقه في غير منفعة.

ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً. قال ابن عباس في رواية عنه: عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة فقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيء فأنزل الله هذه الآية ﴿ولا تسرفوا﴾ قال السدي: معناه لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء. قال الزجاج فعلى هذا لو أعطى الإنسان كل ماله ولم

والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب: إنها الزكاة المفروضة من العشر ونصف العشر، وقال علي بن الحسين وعطاء ومجاهد وحمّاد والحكم: حق في المال سوى الزكاة، أمر بإتيانه لأن الآية مكية وفرضت الزكاة بالمدينة. قال إبراهيم: هو الضغث. وقال الربيع: لقاط السنبل. وقال مجاهد: كانوا يعلّقون العذق عند الصرام فيأكل منه مَنْ مرَّ. وقال يزيد بن الأصم: كان أهل المدينة إذا أصرموا يجيئون بالعذق فيعلّقونه في جانب المسجد، فيجيء المسكين يضربه بعصاه فيسقط منه فيأخذه. وقال سعيد بن جبير: كان هذا حقاً بإتيانه في ابتداء الإسلام منسوخاً بإيجاب العشر. قال مقسم عن ابن عباس: نسختِ الزكاةُ كلَّ نفقة في القرآن. ﴿ ولا تُسرفُوا إنّه لا يُحبُّ المُسرفين ﴾، وقيل: أراد بالإسراف إعطاء الكل. قال ابن عباس في رواية الكلبي: عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة وقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيء فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال السدي: لا تسرفوا أي لا

يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف لأنه قد صح في الحديث «ابدأ بمن تعول». وقال سعيد بن المسيب: معناه لا تمنعوا الصدقة فتأويل الآية على هذا القول لا تجاوزوا الحد في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وهذان القولان يشتركان في أن المراد من الإسراف مجاوزة الحد إلا أن الأول في البذل والإعطاء والثاني في الإمساك والبخل، وقال مقاتل: معناه لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام وهذا القول أيضاً يرجع إلى مجاوزة الحد لأن من شرك الأصنام في الحرث والأنعام فقد جاوز ما حد له. وقال الزهري: معناه لا تنفقوا في معصية الله عز وجل. وقال مجاهد: الإسراف ما قصرت به في حق الله تعالى ولو كان أبو قبيس ذهباً فأنفقته في طاعة الله لم تكن مسرفاً ولو أنفقت درهماً أو مداً في معصية الله كنت مسرفاً. وقال ابن زيد: إنما خوطب بهذا السلطان نهي أن يأخذ من رب المال فوق الذي ألزم الله ماله. يقول الله عز وجل للسلاطين: لا تسرفوا أي لا تأخذوا بغير حق فكانت الآية بين السلطان وبين الناس. وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ فيه وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء لأن من لا يحبه الله فهو من أهل النار. قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿ومن الأنعام﴾ يعني وأنشأ من الأنعام ﴿حمولة﴾ وهي كل ما يحمل عليها من الإبل ﴿وفرشاً﴾ يعني صغار الإبل التي لا تحمل. قال ابن عباس: الحمولة هي الكبار من الإبل والفرش هي الصغار من الإبل، وقال في رواية أخرى عنه ذكرها الطبري:

أما الحمولة: فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه وأما الفرش فالغنم. وقال الربيع بن أنس: الحمولة: الإبل والبقر والفرش المعز والضان فالحمولة كل مايحمل عليها من الأنعام والفرش ما لا يصلح للحمل سمي فرشاً لأنه يفرش للذبح ولأنه قريب من الأرض لصغره ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ يعني كلوا مما أحله الله لكم من هذه الأنعام والحرث ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ يعني لا تسلكوا طريقه وآثاره في تحريم الحرث والأنعام كما فعله

تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء. قال الزجّاج: على هذا إذا أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف، لأنه جاء في الخبر: «بمَن تعول ابدأ...»، وقال سعيد بن المسيب: معناه لا تمنعوا الصدقة. فتأويل هذه الآية على هذا لا تتجاوز الحدّ في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة. وقال مقاتل: لا تُشركوا الأصنام في الحرث والأنعام. وقال الزهري: لا تنفقوا في المعصية. وقال مجاهد: لإسراف ما قصّرت به عن حق الله عزّ وجلّ، وقال: لو كان أبو قبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً أو مُدّاً في معصية الله كان مسرفاً. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف وإسراف. وروى ابن وهب عن أبي زيد، قال الخطاب للسلاطين: يقول لا تأخذُوا فوق حقكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمِنَ الأنعام ﴾، أي: وأنشأ من الأنعام، (حَمُولَةً)، وهي كل ما يحمل عليها من الإبل، ﴿ وفَرْشاً ﴾، وهي الصغار من الإبل التي لا تحمل. ﴿ كُلُوا ممّا رزَقَكُمُ اللَّهُ ولا تتّبعوا خطواتِ الشيطان ﴾، لا تسلكوا طريقة آثاره في تحريم الحرث والأنعام، ﴿ إنّه لكمْ عدوٌّ مبين ﴾، ثم بيّن الحمولة والفرش فقال:

﴿ ثمانية أزواج ﴾، نصبها على البدل من الحمولة والفرش، أي: وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج أصناف،

أهل الجاهلية ﴿إنه﴾ يعني الشيطان ﴿لكم عدو مبين﴾ يعني أنه مبين العداوة لكم ثم بين الحمولة والفرش فقال عز وجل: ﴿ثمانية أزواج﴾ يعني وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج يعني ثمانية أصناف والزوج في اللغة الفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج ﴿من الضأن اثنين﴾ يعني الذكر والأنثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والأنثى ضائنة والجمع ضوائن ﴿ومن المعز اثنين﴾ يعني الذكر والأنثى والمعز ذوات الشعر من الغنم والواحد ماعز والجمع معزى: ﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ استفهام إنكار، أي: قل يا محمد لهؤلاء الجهلة الذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الأنثيين منهما، فإن كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام وإن كان حرم الانثيين منهما فكل إناثها حرام ﴿أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ يعني أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى ﴿نبئوني﴾ أي أخبروني وفسروا لي ما حرمتم ﴿بعلم إن كنتم صادقين﴾ يعني أن الله حرم ذلك عليكم.

وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

﴿من الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾ وهذه أربعة أزواج أخر بقية الثمانية ﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ وتفسير هذه الآية نحو ما تقدم وفي هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله تعالى لأهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله وذلك أنهم كانوا يقولون: هذه أنعام وحرث حجر. وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال كما أخبر الله عنهم في كتابه فلما جاء الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي فقال: يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان أباؤنا يفعلونه، فقال له رسول الله ﷺ: قد حرمتم أصنافاً من النعم على غير أصل وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع فمن أين جاء هذا التحريم من قبل الذكر أم من قبل الأنثى؟ فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم فقال النبي ﷺ يا مالك ألا تتكلم؟

﴿ من الضأن اثنين ﴾، أي: الذكر والأنثى، فالذكر زوج والأنثى زوج، والعرب تسمّي الواحد زوجاً إذا كان لا ينفكّ عن الآخر، والضأن النعاج، وهي ذوات الصوف من الغنم، والواحد ضأن والأنثى ضائنة، والجمع ضوائن، ﴿ ومِنَ المَعْزِ اثنين ﴾، قرأ ابن كثير وابن عامر وأهل البصرة «من المعز» بفتح العين والباقون بسكونها، والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه، وهي ذوات الشعر من الغنم، وجمع الماعز معزى، وجميع الماعز مواعز، ﴿ قلْ ﴾ يا محمد ﴿ ءآلذَكَرين حرّمَ ﴾، الله عليكم، يعني ذكر الضأن والمعز، ﴿ أمِ الأنثيين ﴾، يعني أنثى الضأن والمعز، ﴿ أما اشتملتْ عليه أرحام الأنثيين ﴾، منهما فإنها لا تشتمل إلّا على ذكر وأنثى، ﴿ نبئوني ﴾ أخبروني، ﴿ بعلم ﴾، قال الزجّاج: فسّروا ما حرّمتم بعلم، ﴿ إنْ كنتُم صَادقين ﴾ أن الله تعالى حرّم هذا.

﴿ ومِنَ الإبل اثنين ومِنَ البقرِ اثنينِ قلْ ءآلذكرينِ حرّم أمِ الأنثيين أمّا اشتملَتْ عليه أرحام الأنثيين ﴾، وذلك أنهم كانوا يقولون: هذه أنعام وحرث حِجْر، وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّمة على أزواجنا،

فقال: بل أنت تتكلم وأسمع منك، قال المفسرون: فلو قال جاء التحريم من قبل الذكر بسبب الذكورة وجب أن يحرم جميع الذكور ولو قال بسبب الأنوثة وجب أن يحرم جميع الإناث وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر أو أنثى.

وأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو بالبعض دون البعض فمن أين ذلك التحريم؟ فاحتج الله على بطلان دعواهم بهاتين الآيتين وأعلم نبيه ﷺ أن كل ما قالوه من ذلك وأضافوه إلى الله فهو كذب على الله وأنه لم يحرم شيئاً من ذلك وأنهم اتبعوا في ذلك أهواءهم وخالفوا أمر ربهم.

وذكر الإمام فخر الدين في معنى الآية وجهين آخرين ونسبهما إلى نفسه، فقال: إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار يعني إنكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم.

والوجه الثاني: إنكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مخصوصاً بالإبل فالله تعالى بيّن أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة وهي: الضأن والمعز والبقر والإبل فلم لم تحكموا بهذه الأحكام في هذه الأنواع الثلاثة وهي الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم دون هذه الأنواع الثلاثة.

قوله تعالى: **﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾** يقول الله لنبيه ﷺ قل لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين يزعمون أن الله حرم عليهم ما حرموا على أنفسهم من الأنعام والحرث هل شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به فإنكم لا تقرون بنبوة أحد من الأنبياء فكيف تثبتون هذه الأحكام وتنسبونها إلى الله عز وجل. ولما احتج الله عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا مستند لهم في ذلك قال تعالى: **﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾** يعني فمن أشد ظلماً وأبعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم ما لم يحرمه الله إلى الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله جهلاً منه إذ ليس هو على بصيرة وعلم في ذلك الذي ابتدعه ونسبه إلى الله ويقول إن الله أمرنا بهذا، قيل: أراد به عمرو بن لحي لأنه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدع شيئاً لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا

وحرّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحَام، كانوا يحرّمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال، فلمّا قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ، وكان خطيبهم مالك بن عوف أبو الأحوض الجشمي، قالوا: يا محمد بلغنا أنك تحرّم أشياء ممّا كان آباؤنا يفعلونه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنكم قد حرّمتم أصنافاً من الغنم على غير أصلٍ، إنّما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم؟ من قِبَل الذكر أم من قِبَل الأنثى»؟ فسكت مالك بن عوف وتحيّر فلم يتكلم. فلو قال جاء هذا التحريم بسبب الذكور وجب أن يحرّم جميع الذكور، وإن كان بسبب الأنوثة وجب أن يحرّم جميع الإناث، وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرّم الكل، لأنّ الرحم لا يشتمل إلّا على ذكر أو أُنثى، فأما تخصيص التحريم بالولد الخامس والسابع أو البعض دون البعض فمن أين؟ ويُروى أنّ النبي ﷺ قال لمالك: «يا مالك لا تتكلم»؟ قال له مالك: بل تكلمْ وأسمعُ منك. **﴿ أمْ كنتُم شهداءَ إذْ وصّاكُمُ اللّهُ بهذا فمَنْ أظلمُ ممّن افْتَرَى على الله كَذِباً لِيُضِلَ النّاسَ بغيرِ علم ﴾**، قيل: أراد عمرو بن لحي ومَن جاء بعده على طريقته، **﴿ إنّ الله لا يهدي القومَ الظالمين ﴾**، ثم بيّن أن التحريم والتحليل يكون بالوحي والتنزيل، فقال:

﴿ قلْ لا أجد فيما أُوحي إليّ محرماً ﴾ أي: شيئاً محرّماً. ورُوِيَ أنهم قالوا: فما المحرّم إذاً فنزل:

وجه للتخصيص فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني أن الله لا يرشده ولا يوفق من كذب على الله وأضاف إليه ما لم يشرعه لعباده.

قوله عز وجل: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ اعلم أنه لما بين الله تعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التضليل والتحريم من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح في ذلك وبيَّن أن التحريم والتحليل لا يكون إلا بوحي سماوي وشرع نبوي، فقال تعالى: قل أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم لا أجد فيما أوحي إليّ، وقيل إنهم قالوا فما المحرم إذاً فنزل؟ ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً﴾ يعني شيئاً محرماً على طاعم يطعمه يعني على آكل يأكله ﴿إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً﴾ يعني سائلاً مصبوباً ﴿أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أي نجس ﴿أو فسقاً أهلّ لغير الله به﴾ يعني ما ذبح على غير اسم الله تعالى فبين الله تعالى في هذه الآية أن التحريم والتحليل لا يكون إلا بوحي منه وأن المحرمات محصورة في الأربعة الأشياء المذكورة في هذه الآية وهي: الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله، وهذا مبالغة في أن التحريم لا يخرج عن هذه الأربعة وذلك أنه ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرمات إلا بالوحي وثبت أن الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الأربعة الأشياء ولهذا اختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب بعضهم إلى ظاهرها وأنه لا يحرم شيء من سائر المطعومات والحيوان إلا ما ذكر في هذه الآية؛ يروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بأن هذه الآية محكمة لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ واحتجوا بأن هذه الآية وإن كانت مكية لكن يعضدها آية مدنية وهي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله﴾ ، وكلمة إنما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم، وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها في هذه الآية فإن المحرم بنص الكتاب هو ما ذكر في هذه الآية.

وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها: منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير. عن المقدام بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكىء على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه وإنما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب. ولأبي داود قال: قال رسول الله ﷺ «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه

﴿ قلْ ﴾ يا محمد ﴿ لا أجد فيما أُوحي إليّ محرّماً ﴾ ﴿ على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾، آكل يأكله، ﴿ إلاّ أن يكون مَيْتةً ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر «تكـون» باليـاء، «ميتـة» رفع أي: إلاّ أن تقع ميتة، وقرأ ابن كثير وحمزة « تكون » بالياء، «ميتـة» نصب على تقدير اسم مؤنث، أي: إلاّ أن تكون النفس، أي: الجثّة ميتة، وقرأ الباقون بالياء «ميتـة» نصب، يعني إلاّ أن يكون المطعوم ميتة، ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ أي: مُهْراقاً سائلاً، قال ابن عباس: يريد ما خرج من الحيوان، وهنّ أحياء وما يخرج من الأوداج عند الذبح، ولا يدخل فيه الكبد والطحال، لأنهما جامدان. وقد جاء الشرع بإباحتهما ولا ما اختلط باللحم من الدم، لأنه غير سائل، قال عمران بن جرير: سألت أبا مجلز عمّا يختلط باللحم من الدم، وعن القدر يرى: فيها حُمرة الدم، فقال: لا بأس به، إنما نهى عن الدم المسفوح، وقال إبراهيم: لا بأس بالدم في عرق أو مخ، إلاّ المسفوح الذي يعمد ذلك. وقال عكرمة: لولا هذه الآية لاتّبع المسلمون من العروق ما يتبع اليهود. ﴿ أو لَحْمَ خنزير فإنّه رِجْسٌ أو فِسْقاً أُهلّ لغيرِ اللّهِ بِهِ ﴾، وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالى. فذهب بعض أهل العلم إلى أن التحريم مقصور على هذه الأشياء. ويُروى ذلك عن

وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعفيهم بمثل قراه».

عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو معفو وتلا: ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة**﴾ الآية أخرجه أبو داود (م) عن ابن عباس قال «نهى النبي ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير» (م) عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية» (ق) عن جابر «أن النبي ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل» وفي رواية: «أكلنا من خيبر الخيل وحمر الوحش» ونهى رسول الله ﷺ عن الحمار الأهلي عن جابر «أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه» وقد استثنى الشارع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال وأباح أكل ذلك وقد تقدم دليله.

والأصل في ذلك عند الشافعي أن كل ما لم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل فما كان أمر الشرع بقتله كما ورد في الصحيح «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وهي الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور» وروي عن سعد بن أبي وقاص «أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ» أخرجه البخاري ومسلم، وسماه فويسقاً. وعن ابن عباس قال «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد» أخرجه أبو داود فهذا كله حرام لا يحل أكله وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادة العرب فما يستطيبه الأغلب منهم فهو حلال وما يستخبثه الأغلب منهم ولا يأكلونه فهو حرام لأن الله خاطبهم بقوله: ﴿**أحل لكم الطيبات**﴾ فما استطابوه فهو حلال فهذا تقرير ما يحل ويحرم من المطعومات.

وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه:

أحدها: أن يكون المعنى لا أجد محرماً مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها إلا ما أوحي إليّ في هذه الآية.

الوجه الثاني: أن يكون المراد وقت نزول هذه الآية لم يكن محرماً غير ما ذكر ونص عليه في هذه الآية ثم حرم بعد نزولها أشياء أخر.

الوجه الثالث: يحتمل أن هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر، وهو ما ورد في السنة.

الوجه الرابع: أن ما ذكر في هذه الآية محرم على لسان رسول الله ﷺ وهو ما ورد في السنة من المحرمات والله أعلم.

بقي في الآية أحكام في قوله تعالى: ﴿**أو دماً مسفوحاً**﴾ وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح

عائشة وابن عباس، قالوا: ويدخل في الميتة المنخنقة والموقوذة، وما ذُكر في أول سورة المائدة، وأكثر العلماء على أن التحريم لا يختصّ بهذه الأشياء بل المحرّم بنص الكتاب ما ذكر هنا، ذلك معنى قوله تعالى: ﴿ **قل لا أجد فيما أُوحي إليّ محرماً** ﴾. وقد حرّمتِ السُّنّةُ أشياء يجب القول بها، منها ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج، قال: ثنا عبيد الله بن معاذ العنبري أخبرنا أبي أنا شعبة عن الحكم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: (نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السِّباع، وكل ذي مخلب من الطير). أخبرنا أبو الحسن السرخسي ثنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحق الهاشمي ثنا أبو مصعب عن مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم عن عبيدة بن سفيان الحضرمي

فإن ذلك الدم حرام نجس وما سوى ذلك كالكبد والطحال فإنهما حلال لأنهما دمان جامدان. وقد ورد الحديث بإباحتهما وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل، قال عمران بن جرير: سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يُرى فيها حمرة الدم فقال لا بأس بذلك وإنما نهي عن الدم المسفوح. وقال إبراهيم النخعي: لا بأس بالدم في عرق أو مخ إلا المسفوح، وقال عكرمة: لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود.

وقوله تعالى: ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد**﴾ لما بين الله المحرمات في هذه الآية أباح أكلها عند الاضطرار من غير بغي ولا عدوان، وفي قوله: ﴿**فإن ربك غفور رحيم**﴾ دليل على الرخصة والإباحة عند الاضطرار.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وعلى الذين هادوا**﴾ يعني اليهود ﴿**حرمنا كل ذي ظفر**﴾ قال ابن عباس: هو البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب. وقيل كل ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والإوز والبط. قال القتيبي هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وسمي الحافر ظفراً على الاستعارة ﴿**ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما**﴾ يعني شحم الجوف وهي الثروب وشحم الكليتين ﴿**إلا ما حملت ظهورهما**﴾ يعني إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم فإنه غير محرم عليهم، وقال السدي وأبو صالح: الألية مما حملت ظهورهما وهذا القول مختص بالغنم لأن البقر ليس لها ألية ﴿**أو الحوايا**﴾ وهي المباعر، في قول ابن عباس وجمهور المفسرين واحدتها حاوية وحوية، وقيل: الحوايا المباعر والمصارين وهي الدوائر التي تكون في بطن الشاة والمعنى أن الشحم المتلصق بالمباعر والمصارين غير محرم على اليهود ﴿**أو ما اختلط بعظم**﴾ يعني من شحم الألية لأنه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التي تكون في الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال على اليهود فحاصل هذا أن الذي حرم عليهم شحم الثرب وشحم الكلية وما عدا ذلك فهو حلال عليهم (ق).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكلُ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السباع حرامٌ»، والأصل عند الشافعي أن ما لم يرد فيه نص تحريم أو تحليل، فإن كان مما أمر الشرع بقتله كما قال: (خمسٌ فواسق يقتلن في الحِلِّ والحَرم)، أو نهي عن قتله، كما رُوِيَ أنه نهى عن قطع النخلة وقتل النملة فهو حرام، وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادات العرب فيما يأكله الأغلب منهم حلال، وما لا يأكله الأغلب منهم فهو حرام، لأن الله تعالى خاطبهم بقوله: ﴿ قلْ أُحلَّ لكم الطيبات ﴾ [المائدة: ٤]، فثبت أن ما استطابوه فهو حلال، ﴿ فَمَن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ ربَّك غفورٌ رحيم ﴾، أباح الله أكل هذه المحرَّمات عند الاضطرار في غير العدوان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وعلى الذينَ هادُوا حرّمنا ﴾، يعني اليهود، ﴿ كلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾، وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والأوز والبط، قال القتيبي: هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وحكاه عن بعض المفسرين: سمّى الحافر ظُفراً على الاستعارة، ﴿ ومِنَ البَقرِ والغَنَمِ حرّمْنَا عليهمْ شُحُومهما ﴾، يعني شحوم الجوف، وهي الثروب، وشحم الكليتين، ﴿ إلّا ما حملتْ ظُهورُهما ﴾، أي: إلّا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما، ﴿ أو الحَوَايا ﴾، وهي المباعر واحدتها حاوية وحوية أي ما حملته الحوايا من الشحم. ﴿ أو ما اخْتَلَطَ بعظم ﴾، يعني: شحم الإلية هذا كله داخل في الاستثناء، والتحريم مختصٌّ بالثراب وشحم الكلية. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل

عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح بمكة «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: لا هوحرام. ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه» قوله: جملوه يعني أذابوه يقال أجملت الشحم وجملته إذا أذبته وجملته أكثر وأفصح.

وقوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم﴾ أي ذلك التحريم جزيناهم عقوبة ﴿ببغيهم﴾ يعني بسبب بغيهم وظلمهم وهو قتل الأنبياء وأخذ الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل ﴿وإنا لصادقون﴾ يعني في الإخبار عن بغيهم وفي الإخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿فإن كذبوك﴾ يعني فإن كذبك اليهود يا محمد فيما أخبرناك أنا حرمنا عليهم وأحللنا لهم مما بيّناه في هذه الآية المتقدمة ﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ يعني بتأخير العقوبة عنكم فإن رحمته تسع المسيء والمحسن فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به أو عصاه ﴿ولا يرد بأسه﴾ يعني ولا يرد عذابه ونقمته إذا جاء وقتهما ﴿عن القوم المجرمين﴾ لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله أخبر الله تعالى عنهم بما سيقولونه فقال تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا﴾ يعني مشركي قريش والعرب ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ يعني من قبل، قال المفسرون: جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة على إقامتهم على الكفر والشرك. وقالوا: إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله فلولا أنه رضي ما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحالَ بيننا وبين ذلك ﴿ولا حرمنا من شيء﴾ يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغير ذلك، فقال الله عز وجل رداً وتكذيباً لهم ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ يعني من كفار الأمم الخالية الذي كانوا قبل قومك كذبوا أنبياءهم وقالوا مثل قول هؤلاء ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ يعني عذابنا.

ثنا قتيبة أنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «أن الله ورسوله حَرّمَا بيعَ الخمر والميتة والخنزير والأصنام» قيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يُطلى بها السفن ويُدهن بها الجلود ويستضيء بها الناس؟ فقال: «لا هو حرام» ثم قال رسول الله عند ذلك: «قاتلَ اللّهُ اليهودَ إن الله عزّ وجلّ لمّا حرّم شحومهما جَمَلوه باعوه فأكلوا ثمنه». ﴿ ذلك جزيناهم ﴾، أي: ذلك التحريم عقوبة لهم ﴿ ببغيهم ﴾، أي: بظلمهم مَن قتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلال أموال الناس بالباطل، ﴿ وإنّا لصادقون ﴾، في الإخبار عمّا حرّمنا عليهم وعن بغيهم.

﴿ فإن كذَّبوكَ فقلْ ربُكم ذُو رحمةٍ واسعة ﴾، بتأخير العذاب عنكم، ﴿ ولا يُردُّ بَأْسُهُ ﴾، عذابه ﴿ عن القوم المجرمين ﴾، إذا جاء وقتُه.

﴿ سيقولُ الذينَ أشركوا ﴾، لمّا لزمتهم الحجة وتيقّنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرّمه الله قالوا: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾، نحن، ﴿ ولا آباؤنا ﴾، من قبل، ﴿ ولا حرّمنَا مِن شيء ﴾، من البحائر والسوائب وغيرهما أرادوا أن يجعلوه قوله: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾، حجةً لهم على إقامتهم على الشرك،

(فصل)

استدل القدرية والمعتزلة بهذه الآية فقالوا: إن القوم لما قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم بقوله ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ وأيضاً فإن الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لو شاء الله منا أن لا نشرك لم نشرك ولمنعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت أنه مريد له وإذا أراده منا امتنع تركه منا وأجيب عن هذا بأن الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا لو شاء الله ما أشركنا ثم ذكر عقيبة كذلك كذب الذين من قبلهم وهذا التكذيب ليس هو في قولهم لو شاء الله ما أشركنا، بل ذلك القول حق وصدق ولكن الكذب في قولهم إن الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ والدليل أن التكذيب في قولهم إن الله أمرنا بهذا ورضيه منا لا في قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ بالتشديد ولو كان خبراً من الله عن كذبهم في قولهم لو شاء الله ما أشركنا لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب وقال الحسن بن الفضل: لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله وإجلالاً له ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك، ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون. وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة وهو قوله: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ إلا أنهم كانوا يعدونه عذراً لأنفسهم ويجعلونه حجة لهم في ترك الإيمان والرد عليهم في ذلك أن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته فإن الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد عليه في فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ومع هذا فيبعث الرسل إلى العبد ويأمر بالإيمان، وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع.

فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم، فأخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسد باطل فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام والله أعلم.

وقالوا: إن الله تعالى قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه لا نفعله، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منّا وأمرَنا بِهِ لَحَالَ بيننا وبين ذلك، فقال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿ كذلِكَ كذَّبَ الذينَ من قبلهم ﴾، من كفّار الأمم الخالية، ﴿ حتى ذاقُوا بأسنا ﴾، عذابنا، ويستدلّ أهل القدر بهذه الآية، يقولون: إنهم لمّا قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذّبهم الله وردّ عليهم، فقال: ﴿ كذلك كذَّبَ الذينَ من قبلهم ﴾، قلنا: التكذيب ليس في قولهم: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾، بل ذلك القول صدقٌ ولكن في قولهم: إن الله تعالى أمرنا بها ورضي بما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف: ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدْنا عليها آباءَنا والله أمرَنا بها ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فالردّ عليهم في هذا كما قال تعالى: ﴿ قلْ إنّ اللّهَ لا يأمرُ بالفحشاء ﴾ [الأعراف: ٢٨] والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لا في قولهم: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾، قوله: ﴿ كذلك كذّب الذين من قبلهم ﴾، بالتشديد ولو كان ذلك خبراً من الله عزّ وجلّ عن كذبهم في قولهم: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾، لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان نسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب، وقال الحسن بن الفضل لو ذكروا هذه المقالة تعظيماً وإجلالاً لله عزّ وجلّ، ومعرفة منهم به لما عابهم بذلك، لأن الله تعالى قال: ﴿ ولو شاءَ اللّهُ ما أشركوا ﴾ [الأنعام: ١٠٧] وقال: ﴿وما كانُوا لِيُؤمنُوا إلّا أنْ يشاءَ الله ﴾ [الأنعام: ١١١]، والمؤمنون يقولون ذلك، ولكنهم قالوه تكذيباً وتخرّصاً وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عَبَدْنَاهم ﴾ [الزخرف: ٢٠]، قال الله

وقوله تعالى: ﴿قل هل عندكم من علم﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لو شاء الله ما أشركنا ولكنه رضي ما نحن عليه من الشرك هل عندكم يعني بدعواكم ما تدعون من علم يعني من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم ﴿فتخرجوه لنا﴾ يعني فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه كما بينّا لكم خطأ قولكم وفعلكم وتناقض ذلك واستحالته في العقول ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ يعني فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله عليكم وتحسبون أنكم على حق وإنما هو باطل ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ يعني وما أنتم في ذلك كله إلا تكذبون وتقولون على الله الباطل وقوله تعالى:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن إظهار علم الله أو حجة لهم فلله الحجة البالغة يعني التامة على خلقه بإنزال الكتاب وإرسال الرسل. قال الربيع بن أنس: لا حجة لأحد عصى الله أو أشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ يعني فلو شاء الله لوفقكم أجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على أنه تعالى لم يشأ إيمان الكافر ولو شاء لهداه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون﴾ يعني هاتوا وادعوا شهداءكم. وهلم كلمة دعوة إلى الشيء يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والذكر والأنثى وفيها لغة أخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا وللأنثى هلمي واللغة الأولى أفصح ﴿إن الله حرم هذا﴾ وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ما حرموه على أنفسهم وقالوا إن الله أمرنا به ليظهر أن لا شاهد لهم على ذلك وإنما اختلقوه من عند أنفسهم ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ وهذا تنبيه أيضاً على كونهم كاذبين في شهادتهم فلا تشهد أنت يا محمد معهم لأنهم في شهادتهم كاذبون ﴿ولا تتبع

تعالى: ﴿ ما لهمْ بذلكَ من علم إنْ هم إلاّ يخرصُون ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلاّ أنهم كانوا يعدّونه عذراً لأنفسهم ويجعلونه حجّة لأنفسهم في ترك الإيمان، وردّ عليهم في هذا لأنّ أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته، فإنهُ مريدٌ لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته، فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد. ﴿ قلْ هلْ عندكم منْ علم ﴾، أي: كتاب وحجّة من الله، ﴿ فتُخرِجُوه لنا ﴾، حتى يظهر ما تدّعون على الله تعالى من الشرك وتحريم ما حرّمتموه، ﴿ إن تتّبِعُون ﴾، ما تتبعون فيما أنتم عليه، ﴿ إلاّ الظّنّ ﴾، من غير علم ويقين، ﴿ وإنْ أنتم إلاّ تخْرُصُون ﴾، تكذّبون.

﴿ قلْ فللّه الحُجّةُ البالغةُ ﴾، التامّة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان، ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾، فهذا يدلّ على أنه إيمان الكافر ولو شاء لهداه.

﴿ قلْ هلمّ ﴾، يقال للواحد والاثنين والجمع، ﴿ شُهَدَاءَكُم الذينَ يشهدُون ﴾، أي: ائتوا بشهدائكم الذين يشهدون، ﴿ أنّ اللّهَ حرّمَ هذا ﴾، هذا راجع إلى ما تقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودعْوَاهم أن الله أمرهم

أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني إن وقع منهم شهادة فإنما هي باتباع الهوى فلا تتبع أنت يا محمد أهواءهم ولكن اتبع ما أوحي إليك من كتابي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه **﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** أي ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة **﴿وهم بربهم يعدلون﴾** يعني يشركون.

قوله عز وجل: **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾** لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا أن الله أمرهم بتحريم ما حرموه على أنفسهم فكأنهم سألوا وقالوا: أي شيء حرم الله فأمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم تعالوا تعال من الخاص الذي صار عاماً وأصله أن يقوله من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عمَّ. وقيل أصله أن تدعو الإنسان إلى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاه إلى ما فيه رفعة وشرف ثم كثر في الاستعمال، والمعنى: تعالوا وهلموا أيها القوم أتل عليكم يعني أقرأ ما حرم ربكم عليكم يعني الذي حرم ربكم عليكم حقاً يقيناً لا شك فيه ولا ظناً ولا كذباً كما تزعمون أنتم بل هو وحي أوحاه الله إليّ **﴿أن لا تشركوا به شيئاً﴾**.

فإن قلت: ترك الإشراك واجب فمامعنى قوله أن لا تشركوا به شيئاً لأنه كالتفصيل لما أجمله فيقوله حرم ربكم عليكم وذلك لا يجوز.

قلت الجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن يكون موضع أن رفع معناه هو أن لا تشركوا له.

الوجه الثاني: أن يكون محل النصب، واختلفوا في وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم أن تشركوا وتكون لا صلة. وقيل: إن حرف لا على أصلها ويكون المعنى: أتل عليكم تحريم الشرك أي لا تشركوا ويكون المعنى أوصيكم أن لا تشركوا لأن قوله وبالوالدين إحساناً محمول على: أوصيكم بالوالدين إحساناً.

الوجه الثالث: أن يكون الكلام قد تم عند قوله حرم ربكم، ثم قال: عليكم أن لا تشركوا على الإغراء أو بمعنى فرض عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ومعنى هذا الإشراك الذي حرمه الله ونهى عنه هو أن يجعل الله شريكه من خلقه أو يطيع مخلوقاً في معصية الخالق أو يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله: **﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحد﴾**.

وقوله عز وجل: **﴿وبالوالدين إحساناً﴾** أي: وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين إحساناً وإنما ثنى بالوصية بالإحسان إلى الوالدين لأن أعظم النعم على الإنسان نعمة الله لأنه هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود وخلقه وأوجده بعد أن لم يكن شيئاً ثم بعد نعمة الله نعمة الوالدين لأنهما السبب في وجود الإنسان ولما لهما عليه من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك في حال صغره **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾** يعني من خوف الفقر، والإملاق: الإقتار. والمراد بالقتل، وأد البنات وهن أحياء فكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن

به، **﴿ فإنْ شهدُوا ﴾**، وهم كاذبون، **﴿ فلا تشهدْ ﴾**، أنت، **﴿ معهم ولا تَتّبعْ أهواءَ الذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا والذينَ لا يُؤمنُون بالآخرة وَهُم بِرَبِّهِمْ يعدِلُون ﴾**، أي: يشركون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ قلْ تعالَوا أتل ما حرّم ربُّكم عليكم أن لا تُشركوا به شيئاً ﴾، وذلك أن المشركين سألوا وقالوا: أيّ شيءٍ الذي حرّم الله تعالى؟ فقال عزّ وجلّ: **﴿ قل تَعالَوا أتلِ ﴾** أقرأ ما حرّم ربكم عليكم حقاً ويقيناً لا ظنّاً وكذباً كما تزعمون، فإن قيل: ما معنى قوله: **﴿ حرّم ربّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً ﴾**، والمحرّم هو الشرك لا ترك الشرك؟ قيل: موضع (أن) رفع معناه هو أن لا تشركوا، وقيل: محله نصب واختلفوا في وجه انتصابه، قيل:

ذلك وحرمه عليهم ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ يعني لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فإني رازقكم وإياهم لأن الله تعالى إذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال في أمر الرزق على الله عز وجل: ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ يعني الزنا ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ يعني علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السر فحرم الله تعالى الزنا في السر والعلانية وقيل إن الأولى حمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لأن المعنى الموجب لهذا النهي هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش، وأيضاً فإن السبب إذا كان خاصاً لا يمنع من حمل اللفظ على العموم وفي قوله ما ظهر منها وما بطن دقيقة وهي أن الإنسان إذا احترز عن المعاصي في الظاهر ولم يحترز منها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمرها به أو نهى عنه ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم ومن كان كذلك استحق العقاب ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً لأجل خوف الله وتعظيماً لأمره استوجب رضوان الله وثوابه ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ حرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحق وقتها من جملة الفواحش المتقدم ذكرها في قوله تعالى ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ وإنما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيماً لأمر القتل وإنه من أعظم الفواحش والكبائر، وقيل: إنما أفرده بالذكر لأنه تعالى أراد أن يستثني منه ولا يمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش إلا بالإفراد فلذلك فقال: ﴿لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق﴾ وهي التي أبيح قتلها من ردة أو قصاص أو زنا بعد إحصان وهو الذي يوجب الرجم.

(ق) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله لا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وقوله تعالى: ﴿ذلكم﴾ يعني ما ذكر من الأوامر والنواهي المحرمات ﴿وصاكم به﴾ يعني أمركم به وأوجبه عليكم ﴿لعلكم تعقلون﴾ يعني لكي تفهموا ما في هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها. قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ

معناه حرّم عليكم أن تشركوا و(لا) صلة كقوله تعالى: ﴿ ما منعك أنْ لا تسجد ﴾ [الأعراف: ١٢] أي: منعك أن تسجد. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ حرّم ربكم ﴾ ثم قال: عليكم أن لا تُشركوا به شيئاً على وجه الإغراء. قال الزجّاج: يجوز أن يكون هذا محمولاً على المعنى، أي: أتل عليكم تحريم الشرك، وجائز أن يكون على معنى: أوصيكم ألاّ تشركوا، ﴿ وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾، فقر، ﴿ نحن نرزقكم وإيّاهم ﴾، أي: لا تئدوا بناتكم خشية العيلة فإني رازقكم وإيّاهم، ﴿ ولا تَقْرَبُوا الفَواحِشَ ما ظهرَ منها وما بطَن ﴾، ما ظهر يعني العلانية وما بطن يعني السرّ، وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السرّ فحرّم الله تعالى الزنا في العلانية والسرّ. وقال الضحاك: ما ظهر الخمر وما بطن الزنا. ﴿ ولا تقتلُوا النَّفْسَ التي حرّمَ اللّهُ إلاّ بالحق ﴾، حرّم الله تعالى قتل المؤمن والمعاهد إلاّ بالحق، إلاّ بما أُبيح قتله من ردّة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي ثنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري ثنا حاجب بن أحمد الطوسي ثني محمد بن حمّاد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرّة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دمُ امرىء يشهد أنْ لا إلّه إلاّ الله وأني رسول الله إلاّ بإحدَى ثلاث: الثّيب الزاني، والنّفسُ بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»، ﴿ ذلِكُم ﴾ الذي ذكرت، ﴿ وصّاكم به ﴾، أمركم به، ﴿ لعلّكم تعقلُون ﴾.

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ يعني ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له. قال مجاهد: هو التجارة فيه وقال الضحاك: هو أن يسعى له فيه. ولا يأخذ من ربحه شيئاً هذا إذا كان القيم بالمال غنياً غير محتاج فلو كان الوصي فقيراً فله أن يأكل بالمعروف ﴿حتى يبلغ أشده﴾ يعني احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله.

فأما الأشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى في الشاب إلى حد الرجال. قال الشعبي ومالك: لأشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات. وقال أبوالعالية: حتى يعقل وتجتمع قوته. وقال الكلبي: الأشد هو ما بين ثمان عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وقيل إلى أربعين وقيل إلى ستين سنة وقال الضحاك: الأشد عشرون سنة، وقال السدي: الأشد ثلاثون سنة وقال مجاهد: الأشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الأقوال التي نقلت عن المفسرين في هذه الآية إنما هي نهاية الأشد لا ابتداؤه. والمراد بالأشد في هذه الآية، هو ابتداء بلوغ الحلم مع إيناس الرشد وهذا هو المختار في تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ يعني بالعدل من غير زيادة ولا نقصان ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ يعني طاقتها وما يسعها في إيفاء الكيل والميزان وإتمامه. لم يكلف المعطي أن يعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد بما يسعه مما لا حرج عليه فيه ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ يعني في الحكم والشهادة ﴿ولو كان ذا قربى﴾ يعني المحكوم عليه وكذا المشهود عليه، وقيل: إن الأمر بالعدل في القول هو أعم من الحكم والشهادة، بل يدخل فيه كل قول حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان وأداء الأمانة وغير ذلك من جميع الأقوال التي يعتمد فيها العدل والصدق ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ يعني ما عهد إلى عباده ووصاهم به وأوجبه عليهم أو ما أوجبه الإنسان على نفسه كنذر ونحوه فيجب الوفاء به

﴿ ولا تقرَبُوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هيَ أحْسنُ ﴾، يعني: بما فيه صلاحه وتثميره. وقال مجاهد: هو التجارة فيه. وقال الضحّاك: هو أن يبتغي له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئاً، ﴿ حتى يَبْلُغَ أشُدَّه ﴾، قال الشعبي ومالك: الأشدّ: الحلم، حتى يكتب له الحسنات وتكتب عليه السيئات. قال أبو العالية: حتى يعقل وتجتمع قوته. وقال الكلبي: الأشدّ ما بين الثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة. وقيل: إلى أربعين سنة. وقيل: إلى ستّين سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال مجاهد: الأشدّ ثلاث وثلاثون سنة. والأشد جمع شدّ، مثل قد وأقد، وهو استحكام قوة شبابه وسنّه، ومنه شدُّ النهار وهو ارتفاعه. وقيل بلوغ الأشد أن يؤنس رشده بعد البلوغ، وتقدير الآية: ولا تقربُوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشدّه، فادفعوا إليه ماله إن كان رشيداً، ﴿ وأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيْزانَ بالقِسْط ﴾، بالعدل، ﴿ لا نُكلّفُ نفساً إلاّ وُسْعَها ﴾، أي: طاقتها في إيفاء الكيل والميزان، لم يكلّف المعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلّف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه، ﴿ وإذا قلتُم فاعْدِلُوا ﴾، فاصدقوا في الحكم والشهادة، ﴿ ولو كانَ ذا قُرْبَى ﴾، ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قرابة، ﴿ وبعهد الله أَوْفُوا ذلِكُم وصّاكُمْ به لعلّكُم تذكّرون ﴾، تتعظون، قرأ حمزة والكسائي وحفص تذكرون خفيفة الذال، كل القرآن، والآخرون بتشديدها

﴿ذلكم﴾ يعني الذي ذكر في هذه الآيات ﴿وصاكم به﴾ يعني بالعمل به ﴿لعلكم تذكرون﴾ يعني لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما أمرتكم به.

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

قوله عز وجل ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾ يعني وأن هذا الذي وصيتكم به وأمرتكم به في هاتين الآيتين هو صراطي يعني طريقي وديني الذي ارتضيته لعبادي مستقيماً يعني قويماً لا اعوجاج فيه فاتبعوه ويعني فاعملوا به. وقيل: إن الله تعالى لما بين في الآيتين المتقدمين ما وصى به مفصلاً أجمله في هذه الآية إجمالاً يقتضي دخول جميع ما تقدم ذكره فيه ويدخل فيه أيضاً جميع أحكام الشريعة وكل ما بينه رسول الله ﷺ من دين الإسلام هو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين وأمرهم باتباع جملته وتفصيله ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ يعني الطرق المختلفة والأهواء المضلة والبدع الرديئة وقيل السبل المختلفة مثل: اليهود والنصرانية وسائر الملل والأديان المخالفة لدين الإسلام ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾ يعني فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده، روى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية ﴿ذلكم وصاكم به﴾ يعني باتباع دينه وصراطه الذي لا اعوجاج فيه ﴿لعكلم تتقون﴾ يعني الطرق المختلفة والسبل المضلة. قال ابن عباس: هذه الآيات محكمات في جميع الكتب لم ينسخهن شيء وهن من محرمات على بني آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار. وعن ابن مسعود قال: من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ الآيات ـ إلى قوله ـ ﴿لعلكم تتقون﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

قوله تعالى: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ يعني التوراة.

قال ابن عباس: هـذه الآيات محكمات في جميع الكتب، لم ينسخهنّ شيء وهنّ محرّمات على بني آدم كلهم، وهنّ أم الكتاب مَن عمل بهنّ دخل الجنة، ومَن تركهنّ دخل النار.

﴿ وأنّ هـذا ﴾، أي: هذا الـذي أوصـاكم بـه في هـاتين الآيتين، ﴿ صِرَاطي ﴾، طريقي وديني، ﴿ مستقيماً ﴾، مستوياً قويماً، ﴿ فاتّبعُوه ﴾، قرأ حمزة والكسـائي، وإن بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الآخرون بفتح الألف، قال الفرّاء: والمعنى وأتلُ عليكم أنّ هذا صراطي مستقيماً وقرأ ابن عامر ويعقوب بسكون النون. ﴿ ولا تتبِعُوا السُّبل ﴾، أي: الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق، مثل اليهودية والنصرانية وسائر المِلَل، وقيل: الأهواء والبِدَع، ﴿ فتفرّق ﴾، فتميل، ﴿ بكم ﴾، وتشتّت، ﴿ عن سبيله ﴾، عن طريقه ودينه الذي ارتضى، وبه أوصى، ﴿ ذلكم ﴾، الذي ذكرنا، ﴿ وصّاكم بهِ لعلّكم تتّقُون ﴾. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الراني المعروف بأبي بكر بن الهيثم أخبر الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي ثنا أبو بكر محمد بن يحيى بن خالد ثنا أبو يعقوب إسحق بن إبراهيم الحنظلي ثنا عبد الرحمن بن مهدي عن حمّاد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد الله قال: خطّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً ثم قال: «هذا سبيلُ اللَّهِ، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن

فإن قلت إتيان موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن وحرف ثم للتعقيب فما معنى ذلك؟ قلت دخلت ثم لتأخير الخير لا لتأخير النزول والمعنى ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ وهو كذا وكذا إلى قوله تعالى لعلكم تتقون ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب وقيل إن المحرمات المذكورة في قوله تعالى: ﴿قل تعالوا اتلُ ما حرم ربكم عليكم﴾ محرمات على جميع الأمم وجميع الشرائع فتقدير الكلام: ذلك وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب يعني بعد إيجاب هذه المحرمات وقيل معناه ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ ثم قال بعد ذلك يا محمد إنا آتينا موسى الكتاب فحذف لفظة قل لدلالة الكلام عليها.

وقوله تعالى: ﴿تماماً على الذي أحسن﴾ اختلف أهل التفسير فيه فقيل معناه تماماً على المحسنين من قومه فيكون الذي بمعنى أي تماماً على من أحسن من قومه لأنه كان منهم محسن ومسيء وعلى قراءة ابن مسعود تماماً على الذين أحسنوا، وقيل: معناه تماماً على كل من أحسن أي أتممنا فضيلة موسى على المحسنين وهم الأنبياء والمؤمنون أي أتممنا فضله عليهم بالكتاب، وقيل: الذي أحسن هو موسى فيكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن وتقديره وآتينا موسى الكتاب إتماماً للنعمة عليه لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر. وقيل الإحسان بمعنى العلم وتقديره آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة زيادة له على ذلك وقيل معناه تماماً مني على إحساني إلى موسى ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يعني: وفيه بيان لكل شيء يحتاج إليه من شرائع الدين وأحكامه ﴿وهدى﴾ يعني: وفيه هدى من الضلالة ﴿ورحمة﴾ يعني: إنزاله عليهم رحمة مني عليهم ﴿لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ قال ابن عباس: لكي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى

شماله، وقال: هذه سُبلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبِعُوه﴾ الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ثمّ آتينا موسى الكتابَ﴾، فإن قيل: لِمَ قال: ﴿ثم آتينا﴾ وحرف ﴿ثم﴾ للتعقيب وإيتاء موسى الكتاب كان قبل مجيء القرآن؟ قيل: معناه ثم أخبُركم أنّا آتينا موسى الكتاب، فأدخل ﴿ثم﴾ لتأخير الخبر لا لتأويل النزول. ﴿تَماماً على الذي أحْسَنَ﴾، اختلفوا فيه، قيل: تماماً على المحسنين من قومه، فيكون ﴿الذي﴾ بمعنى من، أي: على مَن أحسن من قومه، وكان منهم محسن ومسيء، يدلّ عليه قراءة ابن مسعود: «على الذين أحسنوا»، وقال أبو عبيدة: معناه على كل مَن أحسن، أي: أتممنا فضيلة موسى بالكتاب على المحسنين، يعني: أظهرنا فضله عليها، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وقيل: الذي أحسن هو موسى، و﴿الذي﴾ بمعنى ما، أي: على ما أحسن موسى، تقديره آتيناه الكتاب يعني التوراة إتماماً عليه للنعمة لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر. وقيل: الإحسان بمعنى العلم، وأحسن بمعنى علم، ومعناه تماماً على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة، أي آتيناه الكتاب زيادة على ذلك. وقيل: معناه تماماً مني على إحساني إلى موسى. ﴿وتفصيلاً﴾، بياناً ﴿لكلِّ شيء﴾، يحتاج إليه من شرائع الدين، ﴿وهُدىً ورحمةً﴾، هذا في صفة التوراة، ﴿ولعلّهم بلقاء ربِّهم يُؤمنون﴾، قال ابن عباس: كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب.

ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ يعني: القرآن لأنه كثير الخير والنفع والبركة ولا يتطرق إليه نسخ ﴿فاتبعوه﴾ يعني: فاعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام ﴿واتقوا﴾ يعني مخالفته ﴿لعلكم ترحمون﴾ يعني: ليكن الغرض بالتقوى رحمة الله وقيل معناه لكي ترحموا على جزاء التقوى ﴿أن تقولوا﴾ يعني لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا يعني أنزلنا إليكم الكتاب كراهية أن تقولوا ﴿إنما أنزل الكتاب﴾ وقيل: يجوز أن تكون متعلقة بما قبلها فيكون المعنى واتقوا أن تقولوا وهذا خطاب لأهل مكة والمعنى واتقوا يا أهل مكة أن تقولوا إنما أنزل الكتاب والكتاب اسم جنس لأن المراد به التوراة والإنجيل ﴿على طائفتين من قبلنا﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وإن كنا﴾ أي: وقد كنا وقيل وإنه كنا ﴿عن دراستهم﴾ يعني قراءتهم ﴿لغافلين﴾ يعني: لا علم لنا بما فيها لأنها ليست بلغتنا. والمراد بهذه الآية إثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ بلغتهم والمعنى: وأنزلنا القرآن بلغتهم لئلا يقولوا يوم القيامة إن التوراة والإنجيل أنزلا عى طائفتين من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيهما فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم بلغتهم ﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ وذلك أن جماعة من الكفار قالوا لو أنزل علينا ما أنزله على اليهود والنصارى لكنّا خيراً منهم وأهدى وإنما قالوا ذلك لاعتمادهم على صحة عقولهم وجودة فطنهم وذهنهم قال الله عز وجل: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ وهو رحمة ونعمة أنعم الله بها عليكم ﴿فمن أظلم﴾ أي لا أحد أظلم أو أكفر ﴿ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ يعني وأعرض عنها ﴿سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾ يعني أسوأ العذاب وأشده ﴿بما كانوا يصدفون﴾ أي ذلك العذاب جزاؤهم بسبب إعراضهم وتكذيبهم بآيات الله قوله تعالى:

هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿هل ينظرون﴾ يعني: هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله وهو استفهام

﴿ وهذا ﴾، يعني: القرآن، ﴿ كتابٌ أنزلناه ﴾، إليك، ﴿ مباركٌ فاتبِعُوه ﴾، فاعملوا بما فيه، ﴿ واتَّقُوا ﴾، وأطيعوا، ﴿ لعلَّكم تُرحمُون ﴾.

﴿ أن تقولُوا ﴾، يعني: لئلا تقولوا، كقوله تعالى: ﴿ يبيِّنُ الله لكم أن تَضِلُّوا ﴾ [النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلّوا وقيل: معناه أنزلناه كراهة أن تضلّوا ﴿ أنْ تقُولوا ﴾، قال الكسائي: معناه اتقوا أن تقولوا يا أهل مكة، ﴿ إنَّما أُنزل الكتابُ على طائفتَيْنِ من قبلِنَا ﴾، يعني: اليهود والنصارى، ﴿ وإن كنّا ﴾، وقد كنّا، ﴿ عن دراستهم ﴾، قراءتهم، ﴿ لغافلين ﴾، لا نعلم ما هي، معناه أنزلنا عليكم القرآن لئلا تقولوا إن الكتاب أُنزل على مَن قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيه وغفلنا عن دراسته، فتجعلوه عذراً لأنفسكم.

﴿ أو تقولُوا لو أنّا أُنزل علينا الكتابُ لكُنّا أهدى منهم ﴾، وقد كان جماعة من الكفّار قالوا ذلك لو أنّا أُنزل علينا ما أُنزل على اليهود والنصارى لكنّا خيراً منهم، قال الله تعالى: ﴿ فقدْ جاءكُمْ بيِّنةٌ من ربِّكم ﴾، حجة واضحة بلغة تعرفونها، ﴿ وهدىً ﴾، بيانٌ، ﴿ ورحمةٌ ﴾، ونعمة لم أتبعه، ﴿ فمَن أظلمُ مِمّن كذّب بآياتِ اللّهِ وصدفَ ﴾، أعرض، ﴿ عنها سَنَجْزِي الذين يَصْدِفُونَ عن آياتِنا سُوءَ العَذاب ﴾، أي شدّة العذابِ، ﴿ بما كانُوا يَصْدِفُون ﴾، يعرضون.

قوله تعالى: ﴿ هلْ ينظُرُون ﴾، أي: هل ينتظرون بعد تكذيبهم الرّسل وإنكارهم القرآن، ﴿ إلاّ أن تأتيَهُمُ

معناه النفي وتقديره الآية أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءتهم إحدى هذه الأمور الثلاث فإذا جاءتهم إحداها آمنوا وذلك حين لا ينفعهم إيمانهم ﴿**إلا أن تأتيهم الملائكة**﴾ يعني: لقبض أرواحهم وقيل أن تأتيهم بالعذاب ﴿**أو يأتي ربك**﴾ يعني: للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيمة وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة عند قوله ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ بما فيه كفاية وإن المجيء والذهاب على الله لمحال فيجب إمرارها بلا تكييف ﴿**أو يأتي بعض آيات ربك**﴾ قال جمهور المفسرين: هو طلوع الشمس من مغربها، ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» أخرجه مسلم. عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله «أو يأتي بعض آيات ربك» قال: «طلوع الشمس من مغربها» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه» عن صفوان بن عسال المراد قال: قال رسول الله ﷺ «باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أو قال يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها» وفي رواية «فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» (م) عن حذيفة بن أسد الغفاري قال اطلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قلنا الساعة فقال «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر: الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم» (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «بادروا بالأعمال قبل ست: طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة» (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً» وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية قال: «تصبحون والشمس والقمر من هاهنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين» زاد في رواية عنه «فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» وبسنده عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً «أتدرون أين تذهب هذه الشمس قالوا الله ورسوله أعلم قال إنها تذهب إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي من حيث جئتِ فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى

الملائكةُ﴾، لتقبض أرواحهم، وقيل: بالعذاب، قرأ حمزة والكسائي (يأتيهم) بالياء هنا وفي النحل، والباقون بالتاء، ﴿ **أو يأتيَ ربُك** ﴾، بلا كيف لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة، ﴿ **أو يأتي بعضُ آياتِ ربِّك** ﴾، يعني طلوع الشمس من مغربها، عليه أكثر المفسّرين ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً. ﴿ **يوم يأتي بعضُ آياتِ ربِّك لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ منْ قبلُ** ﴾، أي: لا ينفع الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان، ﴿ **أو كسبتْ في إيمانها خيراً** ﴾، يريد: لا يُقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق ﴿ **قلِ انْتَظِرُوا** ﴾، يا أهل مكة، ﴿ **إنّا منتظِرُون** ﴾، بكم العذاب أخبرنا أبو علي حسّان بن سعيد المنيعي ثنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن همّام بن منبّه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها فإذا طلعتْ ورَآها الناسُ آمنُوا أجمعين، وذلك حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ منْ قبلُ أو كسبتْ في إيمانها خيراً»،

مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي فارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لا تنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي فتخر ساجدة في مستقرها تحت العرش فيقال لها اطلعي من مغربك فتصبح طالعة من مغربها» قال رسول الله ﷺ «أتدرون أي يوم ذلك أقالوا: الله ورسوله أعلم. قال ذلك يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً».

وبسنده عن أبي ذر قال: كنت رديف النبي ﷺ ذات يوم على حمار «فنظر إلى الشمس حين غربت فقال إنها تغرب في عين حمئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها فإذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول يا رب إن مسيري بعيد فيقول لها اطلعي من حيث غربت فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» وروي بسنده عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ عشية من العشيات فقال لهم «عباد الله توبوا إلى الله قبل أن يأتيكم بعذاب فإنكم توشكون أن تروا الشمس من قبل المغرب فإذا فعلت حبست التوبة وطوي العمل» فقال الناس: هل لذلك من آية يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقص ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم فإذا أصبحوا فطال عليهم رأت أعينهم طلوع الشمس فبينما هم ينظرونها إذ طلعت عليهم من قبل المغرب فإذا فعلت ذلك لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» قال ابن عباس: لا ينفع مشركاً إيمانه عند الآيات وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيراً قبل ذلك. وقال ابن الجوزي قيل إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن الملحدة المنجمين زعموا أن ذلك لا يكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاثة: الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها. يروى عن ابن مسعود أنه قال: التوبة معروضة على ابن آدم إن قبلها ما لم تخرج إحدى ثلاث: الدابة وطلوع الشمس من مغربها أو يأجوج ومأجوج. ويروى عن عائشة قالت: إذا خرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال. ويروى عن أبي هريرة في قوله تعالى أو يأتي بعض الآيات ربك قال هي مجموع الآيات الثلاث: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض ورواه مرفوعاً عن النبي ﷺ قال «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» وأصح الأقوال في ذلك ما تظاهرت عليه الأحاديث الصحيحة وثبت عن النبي ﷺ أنه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى: ﴿**يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**﴾ يعني لا ينفع من كان مشركاً إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة ﴿**أو كسبت في إيمانها خيراً**﴾ يعني أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيراً من عمل صالح وتصديق. قال الضحاك: من أدركه

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حمّاد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرّة عن عبيدة عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ «أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها».

أخبرنا عبد الواحد المليحي ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا النضر بن شميل أنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تابَ قبلَ أنْ تطلعَ الشمسُ من مغربها تابَ اللّهُ عليه»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجويه أنا أحمد بن عبد الله أنا حمّاد بن زيد أنا عاصم بن أبي النجود عن زرّ بنِ حُبيش قال: أتيتُ صفوان بن عسال المرادي فذكر عن رسول الله ﷺ: «أنّ الله عَزّ وجلّ جعل

بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذاباً على أمة فآمنوا وصدقوا فإنها لا ينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة وقوله ﴿**قل انتظروا**﴾ يعني ما وعدتم به من مجيء الآية ففيه وعيد وتهديد ﴿**إنا منتظرون**﴾ يعني ما وعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة أو قبله في الدنيا. قال بعض المفسرين: وهذا إنما ينتظره من تأخر في الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد ﷺ إلى ذلك الوقت والمراد بهذا أن المشركين إنما يمهلون قدر مدة الدنيا فإذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان وحلت بهم العقوبة اللازمة أبداً. وقيل إن قوله ﴿**قل انتظروا إنا منتظرون**﴾ المراد به الكف عن قتال الكفار فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الأول تكون الآية محكمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين فرقوا**﴾ وقرىء فارقوا ﴿**دينهم وكانوا شيعاً**﴾ يعني أحزاباً متفرقة في الضلالة ومعنى فرقوا دينهم أنهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه فمن قرأ وفرقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السهلة أدياناً مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة، ومن قرأ فارقوا دينهم قال: معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء. وقيل: إن معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد في الحقيقة وهو أن من فرق دينه فأمر ببعض وأنكر بعضاً فارق دينه في الحقيقة ثم اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فقال الحسن: هم جميع المشركين لأن بعضهم عبدوا الأصنام وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا إنهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم. وقال مجاهد: هم اليهود. وقال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك: هم اليهود والنصارى لأنهم تفرقوا فكانوا فرقاً مختلفة. وقال أبو هريرة: في هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة وروى ذلك مراوعاً قال: قال رسول الله ﷺ «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا **شيعاً** لست منهم في شيء وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة» أسنده الطبري، فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة. وروي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة»

بالمغرب باباً مسيرة عرضه سبعُون عاماً للتوبة لا يُغلق ما لَمْ تَطْلُع الشمسُ مِنْ قِبَلِهِ»، وذلك قول الله تعالى: **﴿ يوم يأتي بعض آياتِ ربِّك لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل ﴾**، وروَى أبو حازم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خرجنَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبل أو كسبتْ في إيمانِها خيراً: الدجال، والدابّة، وطلوع الشمس من مغربها».

قوله عزّ وجلّ: **﴿ إن الذين فرّقوا دينَهم ﴾**، قرأ حمزة والكسائي: « فارقوا »، بالألف هنا وفي سورة الروم، أي: خرجوا من دينهم وتركوه وقرأ الآخرون: «فـرّقوا» مشدّداً، أي: جعلوا دينَ الله وهو واحد دين إبراهيم عليه السلام الحنيفية، أدياناً مختلفة فتهوّد قوم وتنصّر قوم، يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: **﴿ وكانُوا شِيَعاً ﴾**، أي: صارُوا فرقاً مختلفة وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي، وقيل: هم أصحاب البِدَع والشُّبُهات من هذه الأمّة. ورُوِيَ عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «يا عائشةُ إنّ الذين فارقُوا دينَهم وكانوا شِيَعاً هم أصحاب البِدَع والشُّبُهات من هذه الأمّة» حدّثنا أبو الفضل زياد بن محمد زياد الحنفي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأنصاري أنا أبو عبيد الله محمد بن عقيل الأزهري البلخي أنا الزبادي أنا أحمد بن منصور أنا الضحاك بن

ذكره البغوي بغير سند عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودِّع فما تعهد إلينا؟ فقال «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليك عبد حبشي فإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» أخرجه أبو داود والترمذي عن معاوية قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة «زاد في رواية» وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله» أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ «إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي عى ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي» أخرجه الترمذي. قال الخطابي في هذا الحديث دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين إذ جعلهم من أمته. وقوله تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، التجاري تفاعل من الجري وهو الوقوع في الأهواء الفاسدة والبدع المضلة تشبيهاً بجري الفرس والكلب. قال ابن مسعود «إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها» ورواه جابر عن النبي ﷺ مرفوعاً.

وقوله تعالى: ﴿لست منهم في شيء﴾ يعني: في قتال الكفار فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال وهذا على قول من يقول إن المراد من الآية اليهود والنصارى والكفار، ومن قال: المراد من الآية أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة قال: معناه لست منهم في شيء أي أنت منهم بريء وهم منك برآء. تقول العرب إن فعلت كذا فلست منك ولست مني أي كل واحد منا بريء من صاحبه ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يعني في الجزاء والمكافأة ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ يعني إذا وردوا القيامة.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى

مخلد أنا ثور بن يزيد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمر السلمي عن العرباض بن سارية قال: (صلّى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب)، وقال قائل: يا رسول الله كأنّها موعظةُ مودِّع فأوْصِنَا: فقال: «أوصِيْكُم بتقوى الله والسمعِ والطّاعةِ وإنْ كان عبداً حبشياً، فإن مَن يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجِذِ وإيّاكم ومُحدثات الأمور، فإنّ كل بدعة ضلالة». ورُوِيَ عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ بني إسرائيل تفرّقتْ على اثنينِ وسبعين ملّة، وتفرّق أمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلّة، كلهم في النار إلّا واحدة»، قالوا: مَن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»، قال عبد الله بن مسعود: (فإن أحسنَ الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ مُحدثاتُها). ورواه جابر مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ. قوله عزّ وجلّ: ﴿ لَسْتَ منهمْ في شيء ﴾، قيل: لست من قتالهم في شيء، نسختها آية القتال، وهذا على قول مَن يقول: المراد منه اليهود والنصارى، ومَن قال: أراد بالآية أهل الأهواء قال: المراد من قوله لست منهم في شيء أي أنتَ منهم بريء وهم منك براء، تقول العرب: إن فعلتَ كذا فلست منّي ولستُ منكَ أي: كل واحد منّا بريء من صاحبه، ﴿ إنّما أمْرُهُمْ إلى اللّهِ ﴾، يعني: في الجزاء والمكافآت، ﴿ ثم يُنَبِّئُهُمْ بما كانُوا يفعلُون ﴾، إذا رُدُّوا للقيامة.

﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ يعني مثلها في مقابلتها واختلفوا في هذه الحسنة والسيئة على قولين:

أحدهما: أن الحسنة قول لا إله لا الله والسيئة هي الشرك بالله، وأورد على هذا القول: إن كلمة التوحيد لا مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها وأجيب عنه بأن جزاء الحسنة قدر معلوم عند الله فهل يجازى على قدر إيمان المؤمن بما يشاء من الجزاء وإنما قال عشر أمثالها للترغيب في الإيمان لا للتحديد وكذلك جزاء السيئة بمثلها من جنسها.

والقول الثاني: إن اللفظ عام في كل حسنة يعملها العبد أو سيئة، وهذا أولى. لأن حمل اللفظ على العموم أولى قال بعضهم: التقدير بالعشرة ليس التحديد لأن الله يضاعف لمن يشاء في حسناته إلى سبعمائة ويعطي من يشاء بغير حساب وإعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه وتعالى وهو قوله تعالى: ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعني لا ينقص من ثواب الطائع ولا يزاد على عذاب العاصي (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى» (م) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد من جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة» (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «يقول الله تبارك وتعالى وإذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن ترك من أجلي فاكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة» لفظ البخاري وفي لفظ مسلم عن محمد رسول الله ﷺ قال «قال الله تبارك وتعالى إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها» فقال رسول الله ﷺ «قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن

قوله تعالى: ﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عشرُ أمْثالِها﴾، أي: له عشر حسنات أمثالها، وقرأ يعقوب «عشرٌ» منوّن، «أمثالُها» بالرفع. ﴿ومَن جاءَ بالسيِّئة فلا يُجْزَى إلّا مِثلَها وهم لا يُظلَمُون﴾. أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي ثنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسن القطّان ثنا محمد بن يوسف القطان ثنا محمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحدُكم إسلامه فكلُّ حسنة يعملُها تُكتبُ له بعشرِ أمثالها إلى سبعمائةِ ضعف، وكلُّ سيئةٍ يعملُها تُكتبُ له بمثلها حتى يلْقَى الله عزّ وجلّ». وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني ثنا عبد الغافر بن محمد الفارسي ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عِشرُ أمثالِها وأزيد، ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فجزاءُ سيئةٍ بمثلها أو أغفر، ومَنْ تقرَّبَ منّي شِبْراً تقرَّبتُ منه ذراعاً

يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من أجلي» زاد الترمذي: من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها.

قوله عز وجل: ﴿قل﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ﴿إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ يعني: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين ﴿ديناً قيماً﴾ يعني هداني صراطاً مستقيماً ديناً قيماً، وقيل: يحتمل أن يكون محمولاً على المعنى تقديره: وعرفني ديناً قيماً يعني ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، وقيل: قيماً ثابتاً مقوماً لأمور معاشي ومعادي، وقيل: هو من قام وهو أبلغ من القائم ﴿ملة إبراهيم﴾ والمِلة بالكسر الدين والشريعة. يعني هداني وعرفني دين إبراهيم وشريعته ﴿حنيفاً﴾ الأصل في الحنيف الميل وهو ميل عن الضلالة إلى الاستقامة والعرب تسمي كل من اختتن أو حج حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم عليه السلام ﴿وما كان من المشركين﴾ يعني إبراهيم عليه السلام وفيه رد على كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم فأخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن من المشركين وممن يعبد الأصنام ﴿قل إن صلاتي﴾ أي: قل يا محمد إن صلاتي ﴿ونسكي﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والسدي: أراد بالنسك في هذا الموضع الذبيحة في الحج والعمرة، وقيل: النسك العبادة والناسك العابد. وقيل: المناسك أعمال الحج. وقيل: النسك كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة وحج وذبح وعبادة. ونقل الواحدي عن أبي الأعرابي قال: النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة وقيل للمتعبد ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث.

وفي قوله إن صلاتي ونسكي دليل على أن جميع العبادات يؤديها العبد عى الإخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله رب العالمين لا شريك له وفيه دليل على أن جميع العبادات لا تؤدى إلا على وجه التمام والكمال لأن ما كان لله لا ينبغي أن يكون إلا كاملاً تاماً مع إخلاص العبادة له فما كان بهذه الصفة من العبادات كان مقبولاً ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي حياتي وموتي بخلق الله وقضائه وقدره أي هو يحييني ويميتني وقيل معناه إن محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله، وقيل: معناه إن طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله وحاصل هذا الكلام له أن الله أمر رسول الله ﷺ أن يبين أن صلاته ونسكه وسائر عباداته وحياته وموته كلها واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وهو المراد بقوله ﴿لله رب العالمين لا شريك له﴾ يعني في العبادة والخلق والقضاء والقدر وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه

ومَنْ تقرَّب منّي ذِرَاعاً تقرّبتُ منه باعاً، ومَن أتاني يمشي أتيتهُ هرولةً ومَن لقيني بقُرَابِ الأرض خطيئةً لا يُشركُ بي شيئاً لقيتُه بمثلها مغفرة». قال ابن عمر: الآية في غير الصدقات من الحسنات، فأما الصدقات تضاعف سبعمائة ضعف.

قوله تعالى: ﴿ قلْ إنني هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيم ديناً قيّماً ﴾، قرأ أهل الكوفة والشام «قِيَـماً» بكسر القاف وفتح الياء خفيفةً، وقرأ الآخرون بفتح القاف وكسر الياء مشدداً ومعناهما واحد وهو القويم المستقيم، وانتصابه على معنى هداني ديناً قيّماً، ﴿ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ المشركين ﴾.

﴿ قلْ إنّ صلاتي ونسكي ﴾، قيل: أراد بالنسك الذبيحة في الحج والعمرة، وقال مقاتل: نسكي: حجّي، وقيل: ديني، ﴿ ومحيايَ ومماتي ﴾، أي: حياتي ووفاتي، ﴿ لله ربِّ العالمين ﴾، أي: هو يُحييني ويُميتني، وقيل: محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا متّ على الإيمان لله ربّ العالمين، وقيل: طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله ربِّ العالمين. قرأ أهل المدينـة «محيــاي» بسكون الياء و«ممــاتي» بفتحها، وقراءة العامّة «محيــايَ» بفتح الياء لئلا يجتمع ساكنان.

﴿وبذلك أمرت﴾ يعني: قل يا محمد وبهذا التوحيد أمرت ﴿وأنا أول المسلمين﴾ قال قتادة: يعني من هذه الأمة وقيل معناه وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قل أغير الله أبغي رباً﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك أغير الله أطلب سيداً أو إلهاً ﴿وهو رب كل شيء﴾ يعني وهو سيد كل شيء ومالكه لا يشاركه فيه أحد وذلك أن الكفار قالوا للنبي ﷺ ارجع إلى ديننا. قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم فقال الله عز وجل رداً عليه ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ يعني أن إثم الجاني عليه لا على غيره ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ يعني لا تؤاخذ نفس آثمة بإثم أخرى ولا تحمل نفس حاملة حمل أخرى ولا يؤاخذ أحد بذنب آخر ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يعني يوم القيامة ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ يعني في الدنيا من الأديان والملل.

قوله تعالى ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ يعني: والله الذي جعلكم يا أمة محمد خلائف في الأرض فإن الله أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم وذلك لأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء وهو آخرهم وأمته آخر الأمم ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ يعني أنه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل فجعل منهم الحسن والقبيح والغني والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوي والضعيف وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان وهو قوله تعالى: ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ يعني يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده. والمعنى: يبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب، لأن العبد إما أن يكون مقصراً فيما كلف به وإما أن يكون

قوله تعالى: ﴿ لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين ﴾، قال قتادة: وأنا أول المسلمين من هذه الأمة.

﴿ قلْ أغيرَ اللّهِ أبْغي ربّاً ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيداً وإلَهاً ﴿ وهو ربُّ كلِّ شيء ﴾، وذلك أن الكفّار كانوا يقولون للنبي ﷺ: ارجعْ إلى ديننا. قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول: اتّبعوا سبيلي أحملْ عنكم أوزارَكم، فقال الله تعالى: ﴿ ولا تَكْسِبُ كلُّ نفسٍ إلاّ عليها ﴾، لا تجيء كل نفس إلاّ ما كان من إثمه على الجاني، ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾، أي لا تحمل حمل أخرى، أي: لا يُؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، ﴿ ثمّ إلى ربِّكم مرجِعُكم فيُنَبِّئكم بما كنتمْ فيه تختلفُون ﴾.

﴿ وهو الذي جعلكم خَلائِفَ الأرضِ ﴾، يعني: أهل القرون الماضية وأورثكم الأرضَ يا أُمّة محمد ﷺ من بعدهم، فجعلكم خلائف منهم فيها يخلفونكم فيـها وتعمرونها بعدهم، والخلائف جمع خليفة كالوصائف جمع وصيفة، وكلّ ما جاء بعد مَنْ مضى فهو خليفة، لأنه يخلفه. ﴿ ورفَعَ بعضَكم فوقَ بعضٍ درجات ﴾، أي: خالف

موفياً ما أمره به فإن كان مقصراً كان نصيبه التخويف والترغيب وهو قوله تعالى: ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ يعني لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا وإنما وصف العقاب بالسرعة لأن كل ما هو آت فهو قريب إن كان العبد موفياً حقوق الله تعالى فيما أمره به أو نهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم وهو قوله تعالى: ﴿وإنه لغفور﴾ يعني لذنوب أوليائه وأهل طاعته ﴿رحيم﴾ يعني بجميع خلقه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض في الخلق والرزق والمعاش والقوة والفضل، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتَاكُمْ ﴾، ليختبركم فيما رزقكم، يعني: يبتلي الغني والفقير والشريف والوضيع والحرّ والعبد، ليظهر منكم ما يكون عليه من الثواب والعقاب، ﴿ إنّ ربَّك سريعُ العقَاب ﴾، لأن ما هو آتٍ فهو سريع قريب، قيل: هو الهلاك في الدنيا، ﴿ وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾، قال عطاء: سريع العقاب لأعدائه غفور لأوليائه رحيم بهم.

تفسير سورة الأعراف

نزلت بمكة روي ذلك عن ابن عباس، وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة. وروي عن ابن عباس أيضاً أنها مكية إلا خمس آيات أولها: وأسألهم عن القرية التي كانت. وبه قال قتادة وقال مقاتل: ثمان آيات في سورة الأعراف مدنية أولها وأسألهم عن القرية إلى قوله وإذا أخذ ربك من بني آدم وهي مائتان وست آيات وثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة وأربعة عشرة ألف حرف عشرة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾

قوله عز وجل ﴿المصّ﴾ قال ابن عباس: معناه أنا الله أفصل وعنه أنا الله أعلم وأفصل وعنه أن المصّ قسم أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله تعالى، وقال قتادة: المصّ اسم من أسماء القرآن، وقال الحسن: هو اسم للسورة، وقال السدي: هو بعض اسمه تعالى المصور، وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور. وقيل: هي حروف مقطعة استأثر الله تعالى بعلمها وهي سره في كتابه العزيز، وقيل: هي حروف اسمه الأعظم وقيل هي حروف تحتوي معاني دل الله بها خلقه على مراده وقد تقدم بسط الكلام على معاني الحروف المقطعة أوائل السور في أول سورة البقرة.

كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

وقوله تعالى ﴿كتاب أنزل إليك﴾ يعني هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ يعني: فلا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به إلى الناس ﴿لتنذر به﴾ يعني: أنزلت إليك الكتاب يا محمد لتنذر به من أمرتك بإنذاره ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ يعني: ولتذكر وتعظ به المؤمنين وهذا من المؤخر الذي معناه

سُوْرَة الأعْــرَافْ

مكيّة كلها إلاّ خمس آيات أولها ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت ﴾ [١٦٣ - ١٦٧].

﴿ الٓمٓصٓ ﴾.

﴿ كتابٌ ﴾، أي: هذا كتاب، ﴿ أُنزلَ إليكَ ﴾، وهو القرآن، ﴿ فلا يكنْ في صدرك حَرَجٌ منه ﴾، قال

التقديم، تقديره: كتاب أنزلناه إليك لتنذر به وذكر للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه. قال ابن عباس: فلا تكن في شك منه لأن الشك لا يكون إلا من ضيق الصدر وقلة الاتساع لتوجيه ما حصل له.

قوله تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: قل يا محمد لقومك اتبعوا أيها الناس ما أنزل إليكم من ربكم يعني من القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان. قال الحسن: يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد ﷺ والله ما نزلت آية إلا ويجب أن تعلم فيما أنزلت وما معناها، وبنحو هذا قال الزجاج: أي اتبعوا القرآن وما أتى به النبي ﷺ فإنه مما أنزل لقوله تعالى: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ومعنى الآية أن الله تعالى لما أمر رسول الله ﷺ بالإنذار في قوله لتنذر به كان معنى الكلام أنذر القوم «وقل لهم اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك، وقيل: معناه لتنذر به وتذكر به المؤمنين فتقول لهم «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم»، وقيل: هو خطاب للكفار أي اتبعوا أيها المشركون ما أنزل إليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ يعني ولا تتخذوا الذين يدعونكم إلى الكفر والشرك أولياء فتتبعوهم. والمعنى: ولا تتولوا من دونه شياطين الإنس والجن فيأمروكم بعبادة الأصنام واتباع البدع والأهواء الفاسدة ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ يعني ما تتعظون إلا قليلاً.

قوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ لما أمر الله رسول الله ﷺ بالإنذار والإبلاغ، وأمر أمته باتباع ما أنزله إليهم حذرهم نقمته وبأسه إن لم يتبعوا ما أمروا به فذكر في هذه الآية ما في ترك المتابعة والإعراض عن أمره من الوعيد فقال تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾، قيل: فيه حذف تقديره وكم من أهل قرية لأن المقصود بالإهلاك أهل القرية لا القرية، وقيل: ليس فيه حذف لأن إهلاك القرية إهلاك لأهلها ﴿فجاءها بأسنا﴾ يعني عذابنا.

فإن قلت مجيء البأس وهو العذاب إنما يكون قبل الإهلاك فكيف قال أهلكناها فجاءها بأسنا؟

قلت: معناه وكم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا. وقال الفراء: الهلاك والبأس قد يقعان معاً كما يقال أعطيتني فأحسنت إليّ فلم يكن الإحسان قبل الإعطاء ولا بعده وإنما وقعا معاً. وقال غيره: لا فرق بين قولك أعطيتني فأحسنت إليّ أو أحسنت إليّ فأعطيتني فيكون أحدهما بدلاً من الآخر ﴿بياتاً﴾ يعني فجاءها عذابنا ليلاً قبل أن يصبحوا ﴿أو هم قائلون﴾ من القيلولة وهي نوم نصف النهار أو استراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم والمعنى فجاءها بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون وقت الظهيرة وكل ذلك وقت الغفلة. ومقصود

مجاهد: شك، فالخطاب للرسول ﷺ والمراد به الأمة. وقال أبو العالية: حرج أي ضيق، معناه لا يضيق ما أرسلتَ به، ﴿ لِتُنْذِرَ بِهِ ﴾، أي: كتاب أُنزل إليكَ لِتُنْذِرَ به، ﴿ وذكرَى للمؤمنين ﴾، أي: على الكتاب.

﴿ اتَّبِعُوا ﴾، أي: وقلْ لهم اتَّبعوا: ﴿ مَا أُنْزِلَ إلَيْكم مِن رَّبِّكم ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾، أي: لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم في معصية الله تعالى، ﴿ قليلاً ما تذكَّرُون ﴾، تتعِظُونَ، وقرأ ابن عامر: « يتذكرون » بالياء والتاء.

﴿ وكَمْ مِّن قريةٍ أهلكنَاها ﴾، بالعذاب، و﴿ كم ﴾ للتكثير و رُبَّ للتقليل، ﴿ فجاءها بأسُنَا ﴾، عذابنا، ﴿ بياتاً ﴾، ليلاً ﴿ أو هم قائلون ﴾، من القيلولة، تقديره: فجاءها بأسُنا ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون أو نائمون ظهيرة، والقيلولة: استراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم. ومعنى الآية: أنهم جاءهم بأسُنا وهم غير متوقعين إمّا ليلاً أو نهاراً. قال الزجّاج: و«أوْ» لتصريف العذاب، أي: مرّة ليلاً ومرّة نهاراً. وقيل: معناه مِنْ أهل القِرى مَنْ أهلكناهم ليلاً، ومنهم مَن أهلكناهم نهاراً، أي حكمنا بهلاكها. فإن قيل: ما معنى أهلكناها فجاءها بأسُنا؟ فكيف يكون مجيء البأس بعد الهلاك؟ قيل: معنى أهلكنا حَكَمْنَا بهلاكِها فجاءها بأسُنا. وقيل: فجاءها

الآية أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة فإن عذاب الله إذا نزل نزل دفعة واحدة ﴿فما كان دعواهم﴾ يعني فما كان دعاء أهل القرية التي جاءها بأسنا والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء، قال سيبويه: تقول العرب اللهم أشركنا في صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ ﴿إذ جاءهم بأسنا﴾ يعني عذابنا ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ يعني أنهم لم يقدروا على رد العذاب عنهم وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية وذلك حين لا ينفع الاعتراف ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ يعني: نسأل الأمم الذين أرسلنا إليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل ﴿ولنسألن المرسلين﴾ يعني ولنسألن الرسل الذين أرسلناهم إلى الأمم هل بلغتم رسالاتنا وأديتم إلى الأمم ما أُمرتم بتأديته إليهم أم قصرتم في ذلك. قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية: يسأل الله تعالى الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا وعنه أنه قال يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون. وقال السدي: يسأل الأمم ماذا عملوا فيما جاءت به الرسل ويسأل الرسل هل بلَّغوا ما أرسلوا به.

فإن قلت: قد أخبر عنهم في الآية الأولى بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم في قوله إنا كنا ظالمين فما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على أنفسهم بذلك؟

قلت: لما اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار.

فإن قلت: فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلنا إليهم من الأمم؟

قلت: إذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فكان مسألة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا إليهم من الأمم أنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليه من الأمم فتكون هذه المسألة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضاً لأنهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ يعني: فلنخبرن الرسل ومن أرسلوا إليهم بعلم ويقين بما عملوا في الدنيا

بأسنا هو بيان قوله: ﴿ أهلكناها ﴾ مثل قول القائل: أعطيتني فأحسنت إليّ لا فرق بينه وبين قوله: أحسنت، إلي فأعطيتني، فيكون أحدهما بدلاً من الآخر.

﴿ فما كانَ دَعْوَاهم ﴾، أي: قولهم ودعاؤهم وتضرعهم، والدعوى تكون بمعنى الادّعاء بمعنى الدعاء، قال سيبويه: تقول العرب اللّهمّ أشركنا في صالح دعوى المسلمين أي في دعائهم، ﴿ إذْ جاءَهم بأسُنا ﴾، عذابنا، ﴿ إلاّ أن قالوا إنّا كنّا ظالمين ﴾، معناه لم يقدروا على ردّ العذاب، وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية حتى لا ينفع الاعتراف.

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذينَ أُرسلَ إليهم ﴾، يعني: الأمم عن إجابتهم الرسل، وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استعلام، يعني: نسألهم عمّا فيما بلغتهم الرّسل، ﴿ ولنسألَنّ المرسَلين ﴾، عن الإبلاغ.

﴿ فَلَنَقُصَّنّ عليهمْ بعلمٍ ﴾ أي: نخبرنّهم عن علم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينطق عليهم كتاب

﴿وما كنا غائبين﴾ يعني عنهم وعن أفعالهم وعن الرسل فيما بلغوا وعن الأمم فيما أجابوا.

فإن قلت كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ وبين قوله ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ وإذا كان عالماً فما فائدة هذا السؤال؟

قلت: فائدة سؤال الأمم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات، التقريع، والتوبيخ للكفار لأنهم إذ أقروا على أنفسهم كان أبلغ في المقصود، فأما سؤال الاسترشاد والاستثبات، فهو منفي عن الله عز وجل، لأنه عالم بجميع الأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، فهو العالم بالكليات، والجزئيات، وعلمه بظاهر الأشياء كعلمه بباطنها.

قوله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ يعني والوزن يوم سؤال الأمم والرسل وهو يوم القيامة العدل، وقال مجاهد: المراد بالوزن هنا القضاء، ومعنى الحق العدل. وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالوزن وزن الأعمال بالميزان وذلك أن الله عز وجل ينصب ميزاناً له لسان وكفتان كل كفة ما بين المشرق والمغرب، قال ابن الجوزي: جاء في الحديث «أن دواد عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه إياه فقال إلهي من يقدر أن يملأ كفتيه حسنات فقال يا داود إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة» وقال حذيفة: جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل زن بينهم ورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة فإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل.

فإن قلت: أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد فما الحكمة في وزنها؟

قلت: فيه حكم منها إظهار العدل، وأن الله عز وجل لا يظلم عباده، ومنها امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى ومنها تعريف العباد ما لهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى، ثم اختلف العلماء في كيفية الوزن فقال بعضهم: توزن صحائف الأعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال «إن الله عز وجل سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول الله تبارك وتعالى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول أحضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فإنه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء» أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل. وقال ابن عباس: يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان فعلى قول ابن عباس: أن الأعمال تتصور صوراً وتوضع تلك

أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿ هذا كتابُنا ينطِقُ عليكم بالحقّ ﴾ [الجاثية: ٢٩]. ﴿ وما كُنّا غائِبين ﴾، عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا.

قوله تعالى: ﴿ والوزنُ يومئذٍ الحقُّ ﴾، يعني: يوم السؤال. قال مجاهد: معناه والقضاء يومئذٍ العدل. وقال الأكثرون: أرادَ به وزن الأعمال بالميزان، وذاك أن الله تعالى ينصب ميزاناً له لسان وكفتان كل كفة بقدر ما بين المشرق والمغرب، واختلفوا في كيفية الوزن، فقال بعضهم: تُوزن صحائف الأعمال: وروينا: (أنّ رجلاً يُنشر عليه تسعة وتسعون فيُخرج له بطاقةٌ فيها شهادة أنْ لا إلَه إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتوضع السجلات في

الصور في الميزان ويخلق الله في تلك الصور ثقلاً وخفة. ونقل البغوي عن بعضهم أنها توزن الأشخاص واستدل لذلك بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة» أخرجاه في الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذكر من وزن الأشخاص في الميزان لأن المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لا وزن جسده ولحمه والصحيح قول من قال إن صحائف الأعمال توزن أو نفس الأعمال تتجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ جمع ميزان، وأورد على هذا أنه ميزان واحد فما وجه الجمع وأجيب عنه بأن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد، وقيل: إنه ينصب لكل عبد ميزان، وقيل: إنما جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ولا يتم الوزن إلا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعني من رجحت أعماله بالحسنة الموزونة التي لها وزن وقدر ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ يعني: هم الناجون غداً والفائزون بثواب الله وجزائه ﴿ومن خفَّت موازينه﴾ يعني موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ يعني غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ يعني سبب ذلك الخسران أنهم كانوا بحجج الله وأدلة توحيده يجحدون ولا يقرّون بها. روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه حين حضره الموت قال في وصيته لعمر بن الخطاب: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً. قوله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ يعني ولقد مكناكم أيها الناس في الأرض، والمراد من التمكين التمليك وقيل:

كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلاتُ وثَقُلَت البطاقةُ). وقيل: توزن الأشخاص، وروينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يوم القيامة فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بَعُوضة». وقيل: تُوزن الأعمال، رُوِي ذلك عن ابن عباس، فيؤتَى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان، والحكمةُ في وزن الأعمال امتحانُ الله عباده بالإيمان في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى، ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ موازِينُهُ ﴾، قال مجاهد: حسناته، ﴿ فأولئِكَ همُ المفلحُون ﴾.

﴿ ومَن خفَّتْ موازِينُه فأولئكَ الذينَ خسرُوا أنفسَهُمْ بما كانُوا بآياتِنَا يَظْلِمُون ﴾، وقال أبو بكر رضي الله عنه حين حضره الموت في وصيته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّما ثقلت موازين مَن ثقلت موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفّتْ موازينُ مَن خفّتْ موازينُه يومَ القيامة باتّباعهم الباطلَ في الدنيا، وخفّته عليهم حـق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، فإن قيل: فقد قيل: مَن ثقلت موازينه ذكر بلفظ الجمع، والميزان واحد، قيل يجوز أن يكون لفظه جمعاً ومعناه واحد كقوله يا أيها الرسل وقيل لكل عبد ميزان وقيل الأصل ميزان واحد عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلّق به، وقيل: جمعه: لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان، ولا يتم الوزن إلّا باجتماعها.

قوله تعالى: ﴿ ولقدْ مكنّاكُمْ في الأرضِ ﴾، أي: مكنّاكم والمراد من التمكين التمليك والقدرة، ﴿ وجعلنَا

معناه جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً أو قدرناكم على التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جمع معيشة يعني به جمع وجوه المنافع التي تحصل بها الأرزاق وتعيشون بها أيام حياتكم وهي على قسمين:

أحدهما: ما أنعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وأنواع المآكل والمشارب.

والثاني: ما يتحصل من المكاسب والأرباح في أنواع التجارات والصنائع وكلا مقسمين في الحقيقة إنما يحصل بفضل الله وإنعامه وإقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك أن جميع معايش العالم إنعام من الله تعالى على عباده وكثرة الإنعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى أنه مع هذا الإفضال على عباده وإنعامه عليهم لا يقومون بشكره كما ينبغي فقال تعالى: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ يعني: على ما صنعت إليكم وأنعمت به عليكم، وفيه دليل على أنهم قد يشكرون لأن الإنسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو في بعض الأوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر، تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها.

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ يعني: ولقد خلقناكم أيها الناس المخاطبون بهذا الخطاب وقت نزوله في ظهر أبيكم آدم ثم صورناكم في أرحام النساء صوراً مخلوقة.

فإن قلت على هذا التفسير يكون قوله «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» يقتضي الأمر بالسجود كان وقع بعد خلق المخاطبين بهذا الخطاب وتصويرهم لأن كلمة ثم للتراخي ومعلوم أن الأمر ليس كذلك بل كان السجود لآدم عليه الصلاة والسلام قبل خلق ذريته؟

قلت: يحتمل أن يكون المعنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم أيها المخاطبون ثم أخبرناكم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فتكون كلمة ثم تفيد ترتيب خبر على خبر ولا تفيد ترتيب المخبر به على الخبر. وقيل في معنى الآية: ولقد خلقناكم يعني آدم، ثم صورناكم يعني ذريته، وهذا قول ابن عباس. وقال مجاهد ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني في ظهره وعلى هذين القولين إنما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم أو لأنه أبو البشر فكان في خلقه خلق من خرج من صلبه؛ وقيل: إن الخلق والتصوير يرجع إلى آدم عليه الصلاة والسلام وحده. والمعنى: ولقد خلقناكم يعني آدم حكمنا بخلقه ثم صورناكم يعني آدم صورة من طين ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ يعني بعد إكمال خلقه وقد تقدم في سورة البقرة الكلام في معنى هذا السجود وأنه كان على سبيل التحية والتعظيم لآدم لا حقيقة السجود، وقيل: بل كان حقيقة السجود وأن المسجود له هو الله تعالى وإنما كان آدم كالقبلة للساجدين، وقيل: بل كان المسجود له وكان ذلك بأمر الله تعالى وهل كان هذا الأمر بالسجود لجميع الملائكة أو لبعضهم فيه خلاف تقدم ذكره في سورة البقرة.

لكم فيها مَعَايِشَ ﴾، أي: أسباباً تعيشون بها أيام حياتكم من التجارات والمكاسب والمآكل والمشارب والمعايش جمع المعيشة، ﴿ **قليلاً ما تشكرُون** ﴾، فيما صنعتُ إليكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولقدْ خلقنَاكُمْ ثمّ صوّرْنَاكُم** ﴾ قال ابن عباس: خلقناكم، أي: أُصولَكم وآباءَكم ثم صوّرناكم في أرحام أمهاتكم. وقال قتادة والضحاك والسدي: أمّا خلقناكم فآدم، وأمّا صوّرناكم فذريته. وقال مجاهد في خلقناكم: آدم ثم صوّرناكم في ظهر آدم بلفظ الجمع لأنه أبو البشر ففي خلقه خلق مَن يخرج من صلبه، وقيل خلقناكم في ظهر آدم ﴿ثم صوّرناكم﴾ يوم الميثاق حين أخرجكم كالذر. وقال عكرمة: خلقناكم في أصلاب الرجال وصوّرناكم في أرحام النساء. وقال يمان: خلق الإنسان في الرحم ثم صوّره فشقّ سمعَه وبصَره وأصابعه. وقيل: الكل آدم خلقه وصوّره ﴿وثم﴾ بمعنى الواو، ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾، فإن قيل: الأمر بسجود

وقوله تعالى: ﴿فسجدوا﴾ يعني الملائكة ﴿إلا إبليس﴾ يعني: فسجد الملائكة لآدم إلا إبليس ﴿لم يكن من الساجدين﴾ يعني له وظاهر الآية يدل على أن إبليس كان من الملائكة لأن الله تعالى استثناه منهم وكان الحسن يقول: إن إبليس لم يكن من الملائكة لأنه خلق من نار والملائكة من نور وإنما استثناه من الملائكة لأنه كان مأموراً بالسجود لآدم مع الملائكة فلما لم يسجد أخبر الله تعالى عنه أنه لم يكن من الساجدين لآدم فلهذا استثناه منهم.

قوله تعالى: ﴿قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾ يعني: قال الله عز وجل لإبليس أي شيء منعك من السجود لآدم إذ أمرتك به فعلى هذا التأويل تكون كلمة لا في قوله أن لا تسجد صلة زائدة وإنما دخلت للتوكيد والتقدير ما منعك أن تسجد فهو كقوله: ﴿لا أقسم﴾ وقوله ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ أي يرجعون وقوله ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ أي يعلم أهل الكتاب وهذا قول الكسائي والفراء والزجاج والأكثرين. وقيل: إن كلمة لا هنا على أصلها مفيدة وليست بزائدة لأنه لا يجوز أن يقال إن كلمة من كتاب الله زائدة أو لا معنى لها، وعلى هذا القول حكى الواحدي عن أحمد بن يحيى: أن لا في هذه الآية ليست زائدة ولا توكيداً لأن معنى قوله «ما منعك أن لا تسجد» من قال لك لا تسجد فحمل نظم الكلام على معناه وهذا القول حكاه أبو بكر عن الفراء. وقال الطبري والصواب في ذلك أن يقال إن في الكلام محذوفاً تقديره ما منعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد فترك ذكر ذلك أحوجك استغناء عنه بمعرفة السامعين به ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن القاضي قال: ذكر الله تعالى المنع وأراد الداعي فكأنه قال ما دعاك إلى أن لا تسجد لأن مخالفة الله تعالى عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها.

فإن قلت: لم سأله عن المانع له من السجود وهو أعلم به؟

قلت: إنما سأله للتوبيخ والتقريع له ولإظهار معاندته وكفره وافتخاره بأصله وحسده لآدم عليه الصلاة والسلام ولذلك لم يتب الله عليه ﴿قال﴾ يعني قال إبليس مجيباً لله تعالى عما سأله عنه ﴿أنا خير منه﴾.

فإن قلت قوله أنا خير منه ليس بجواب عما سأله عنه في قوله تعالى: ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ فلم يجب بما منعه من السجود فإنه كان ينبغي له أن يقول منعني كذا وكذا ولكنه قال أنا خير منه.

قلت: استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وفيها دليل على موضع الجواب وهو قوله ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ والنار خير من الطين وأنور وإنما قال أنا خير منه لما رأى أنه أشد منه قوة وأفضل منه أصلاً وذلك لفضل الجنس الذي خلق منه وهو النار على الطين الذي خلق منه آدم عليه الصلاة والسلام فجهل عدو الله وجه الحق وأخطأ طريق الصواب لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب، وهذا الذي حمل الخبيث إبليس مع الشقاء الذي سبق له من الله تعالى في الكتاب السابق على الاستكبار على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام والاستخفاف بأمر ربه فأورده ذلك العطب والهلاك ومن المعلوم أن في جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر

الملائكة كان قبل خلق بني آدم، فما وجه قوله: ﴿ ثمّ قلنا ﴾ وثم للترتيب وللتراخي؟ قيل: على قول مَن يصرف الخلق والتصوير إلى آدم وحده يستقيم الكلام إما على قول مَن يصرفه إلى الذرية فعنه أجوبة أحدها ثم بمعنى الواو، أي: وقلنا للملائكة، فلا تكون للترتيب والتعقيب، وقيل: أراد ثم أخبركم أنّا قلنا للملائكة اسجدوا، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره ولقد خلقناكم، يعني: آدم ثم قلنا للملائكة اسجدوا ثم صوّرناكم. قوله تعالى: ﴿ فسجدُوا ﴾، يعني الملائكة، ﴿ إلاّ إبْليسَ لم يكن مِّنَ السّاجِدين ﴾، لآدم.

﴿ قال ﴾، الله تعالى يا إبليس: ﴿ ما منعك ألاّ تسجُدَ إذ أمرتُك ﴾، أي: ولم منعك أن تسجد ولا زائدة كقوله تعالى: ﴿ وحرام على قريةٍ أهلكناها أنّهم لا يرجعون ﴾[الأنبياء: ٩٥]. ﴿ قال ﴾ إبليس مُجيباً له ﴿ أنا خير

والحلم والحياة والتثبت وهذا كان الداعي لآدم عليه الصلاة والسلام مع السعادة السابقة التي سبقت له من الله تعالى في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة، ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: أول من قاس إبليس فأخطأ وقال ابن سيرين أيضاً: ما عبدت الشمس والقمر لا بالمقاييس وأصل هذا القياس الذي قاسه إبليس لعنه الله تعالى لما رأى أن النار أفضل من الطين وأقوى فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يدر أن الفضل لمن جعله الله فاضلاً وأن الأفضلية والخيرية لا تحصل بسبب فضيلة الأصل والجوهر وأيضاً الفضيلة إنما تحصل بسبب الطاعة وقبول الأمر، فالمؤمن الحبشي خير من الكافر القرشي فالله تعالى خص صفيه آدم عليه الصلاة والسلام بأشياء لم يخص بها غيره وهو أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية إلى غير ذلك مما خص الله تعالى به آدم عليه الصلاة والسلام للعناية التي سبقت له في القدم وأورث إبليس كبره اللعنةَ والطردَ للشقاوة التي سبقت له في القدم.

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿قال فاهبط منها﴾ يعني قال الله تعالى لإبليس لعنه الله اهبط من الجنة. وقيل: من السماء إلى الأرض. والهبوط الإنزال والانحدار من فوق على سيل القهر والهوان والاستخفاف ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ يعني فليس لك أن تستكبر في الجنة عن أمري وطاعتي لأنه لا ينبغي أن يسكن في الجنة أو في السماء متكبر مخالف لأمر الله عز وجل فأما غير الجنة والسماء فقد يسكنها المستكبر عن طاعة الله تعالى وهم الكفار الساكنون في الأرض ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ يعني: إنك من الأذلاء المهانين والصّغار الذل والمهانة. قال الزجاج: استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة. وقيل: كان له ملك الأرض فأخرجه الله تعالى منها إلى جزائر البحر الأخضر وعرشه عليه فلا يدخل الأرض إلا خائفاً كهيئة السارق مثل شيخ عليه أطمار رثة يروع فيها حتى يخرج منها ﴿قال

منه﴾ لأنك ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، والنار خير وأنور من الطين قال ابن عباس: أول مَن قاس إبليس فأخطأ القياس فمَن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس. قال ابن سيرين: ما عُبِدَتِ الشمسُ إلاّ بالقياس قال محمد بن جرير: ظن الخبيث أن النار خير من الطين ولم يعلم أن الفضل لمَن جعل الله له الفضل، وقد فضّل الطين على النار. وقالت الحكماء: للطين فضل على النار من وجده منها أنّ من جوهر الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبق له إلى التوبة والتواضع والتضرّع فأورثه الاجتباء والتوبة والهداية، ومن جوهر النار الخفّة والطيش والجرأة والارتفاع وهو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه اللعنة والشقاوة، ولأن الطين سبب جمع الأشياء والنار سبب تفرّقها ولأن التراب سبب الحياة، لأنّ حياة الأشجار والنبات به، والنار سبب الهلاك.

قوله تعالى: ﴿قالَ فاهبطْ منها﴾، أي: من الجنة، وقيل: من السماءِ إلى الأرض وكان له ملك الأرض فأخرجه منها إلى جزائر البحر وعرشه في البحر الأخضر، فلا يدخل الأرض إلاّ خائفاً على هيئة السارقِ مثل شيخ عليه أطمار يروع فيها حتى يخرج منها. قوله تعالى: ﴿فما يكونُ لكَ أنْ تتكبَّر﴾، بمخالفة الأمر، ﴿فيها﴾، أي: في الجنة، ولا ينبغي أن يسكن الجنة ولا السماء متكبرٌ مخالفٌ لأمر الله، ﴿فاخرجْ إنّكَ من الصّاغرين﴾، من الأذلاّء، والصغار: الذل والمهانة.

يعني: قال إبليس عند ذلك ﴿أنظرني﴾ يعني أخّرني وأمهلني فلا تمتني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ يعني من قبورهم وهي النفخة الآخرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة الخبيث إبليس لعنه الله لأنه سأل ربه الإمهال وقد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله تعالى إلى البقاء في الدنيا ولكنه كره أن يكون ذائقاً للموت فطلب البقاء والخلود فلم يجب إلى ما سأل به ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿إنك من المنظرين﴾ يعني من المؤخرين الممهلين وقد بين الله تعالى مدة النظرة والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى: ﴿إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ وذلك هو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم.

فإن قلت: فما وجه قولك إنك من المنظرين وليس أحد ينظر سواه؟

قلت: معناه إن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت بآجالهم فهو منهم ﴿قال﴾ يعني إبليس ﴿فبما أغويتني﴾ يعني فبأي شيء أضللتني فعلى هذا تكون ما استفهامية وتم الكلام عند قوله أغويتني ثم ابتدأ فقال ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ وقيل: هي باء القسم تقديره فبإغوائك إياي وقيل معناه فيما أوقعت في قلبي الغي الذي كان سبب هبوطي إلى الأرض من السماء وأضللتني عن الهدى لأقعدن لهم صراطك المستقيم يعني لأجلسن على طريقك القويم وهو طريق الإسلام. وقيل المراد بالصراط المستقيم الطريق الذي يسلكونه إلى الجنة وذلك بأن أوسوس إليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم. وقيل: المراد بالصراط المستقيم هنا طريق مكة يعني يمنعهم من الهجرة. وقيل: المراد به الحج. والقول الأول أولى لأنه يعم الجميع ومعنى لأردنَّ بني آدم عن عبادتك وطاعتك ولأغوينهم ولأضلنَّهم كما أضللتني. عن سبرة بن أبي الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة قعد له في طريق الإسلام فقال تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك فعصاه وأسلم، وقعد له بطريق الهجرة فقال تهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول فعصاه فهاجر وقعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد قال فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة» أخرجه النسائي، وقوله تعالى إخباراً عن إبليس ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ قال ابن عباس: من بين أيديهم يعني من قبل الآخرة فأشككهم فيها، ومن خلفهم يعني من قبل الدنيا فأرغبهم فيها، وعن أيمانهم يشبه عليهم أمر دينهم، وعن شمائلهم أشهي لهم المعاصي. وإنما جعل الآخرة من بين أيديهم في هذا القول لأنهم منقلبون إليها وصائرون إليها فعلى هذا الاعتبار فالدنيا خلفهم لأنها وراء ظهورهم. وقال ابن عباس في رواية عنه: من بين أيديهم من قبل دنياهم يعني أزينها في قلوبهم، ومن خلفهم من قبل الآخرة، فأقول لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم، وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم وإنما جعل الدنيا من بين

﴿ قال ﴾، إبليس عند ذلك، ﴿ انظرني ﴾، أخّرني وأمهلني فلا تمتني، ﴿ إلى يوم يُبعثُون ﴾، من قبورهم وهو النفخة الأخرة عند قيام الساعة، أراد الخبيث أن لا يذوق الموت.

﴿ قال ﴾، الله تعالى، ﴿ إنّك مِنَ المُنْظَرِينَ ﴾، المؤخرين، وبيّن مدة النظر والمهلة في موضع آخر فقال: ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾، وهو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم.

﴿ قالَ فَبِمَا أغْوَيتني ﴾، اختلفوا في ﴿ ما ﴾ قيل: هو استفهام يعني فبأيّ شيء أغويتني؟ ثم ابتدأ فقال: ﴿ لأقعدنّ لهم ﴾ وقيل: هو ما الجزاء، أي: لأجل أنك أغويتني أقعدنّ لهم. وقيل: هو ما المصدر موضع القسم تقديره: فبإغوائك إيّاي لأقعدنّ لهم، كقوله بما غفر لي ربّي، يعني: بغفران ربي، والمعنى بقدرتك عليّ ونفاذ سلطانك. وقال ابن الأنباري: أي فيما أوقعت في قلبي من الغِي الذي كان سبب هبوطي من السماء أغويتني، أي:

أيديهم في هذا القول لأن الإنسان يسعى فيها ويشاهدها فهي حاضرة بين يديه والآخرة غائبة عنه فهي خلفه. وقال الحكم بن عتبة: من بين أيديهم يعني من قبل الدنيا فأزينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فأثبطهم عنها وعن أيمانهم يعني من قبل الحق فأصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فأزينه لهم وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن إيمانهم من قبل حسناتهم فبطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك فلم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله تعالى. وقال مجاهد: يأتيهم من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون. ومعنى هذا من حيث يخطئون ويعلمون أنهم يخطئون ومن حيث لا يبصرون أنهم يخطئون ولا يعلمون أنهم يخطئون، وقيل: من بين أيديهم يعني فيما بقي من أعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة ومن خلفهم يعني ما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عما أسلفوا فيه من معصية عن أيمانهم يعني من قبل الغنى فلا ينفقون ولا يشركون ومن خلفهم يعني من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محظور نالوه. وقال شقيق البلخي: ما من صباح إلا ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي أما بين يدي فيقول: لا تخف إن الله غفور رحيم فأقرأ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، وأما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر فأقرأ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، وأما من قبل يميني فيأتيني من الثناء فأقرأ والعاقبة للمتقين، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون. وقيل إن ذكر هذه الجهات الأربع إنما أريد بها التأكيد والمبالغة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم وأنه لا يقصر في ذلك، ومعنى الآية على هذا القول: ثم لآتينهم من جميع الوجوه الممكنة لجميع الاعتبارات وقوله ﴿**ولا تجد أكثرهم شاكرين**﴾ يعني ولا تجد يا رب أكثرهم بني آدم شاكرين على نعمك التي أنعمت بها عليهم. وقال ابن عباس: معناه ولا تجد أكثرهم موحدين.

فإن قلت: كيف علم الخبيث إبليس ذلك حتى قال ولا تجد أكثرهم شاكرين؟

قلت: قاله ظناً فأصاب منه قوله تعالى، ولقد صدق عليهم إبليس ظنه وقيل إنه كان عازماً على المبالغة في تزيين

أضللتني عن الهدى. وقيل: أهلكتني. وقيل: خيّبتني، ﴿ **لأقعدنّ لهم صراطَكَ المستقيم** ﴾، أي: لأجلسنّ لبني آدم على طريقك القويم وهو الإسلام.

﴿ **ثمّ لآتينّهم من بينِ أيديهم** ﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: من بين أيديهم أي مِنْ قِبل الآخرة فأُشكّكُهم فيها، ﴿ **ومِنْ خلفِهم** ﴾، أرغّبهم في دنياهم، ﴿ **وعَنْ أيمانِهم** ﴾، أشبِّه عليهم أمر دينهم. ﴿ **وعَنْ شمائِلهم** ﴾، أُشهّي لهم المعاصي. وروى عطية عن ابن عباس: ﴿ **من بين أيديهم** ﴾ من قِبَلِ دنياهم، يعني أُزيّنها في قلوبهم، ﴿ **ومن خلفهم** ﴾، من قِبَلِ الآخرة فأقول: لَا بعث ولا جنّةَ ولا نارَ، ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ من قِبَلِ حسناتهم، ﴿ **وعن شَمائِلِهِمْ** ﴾ من قِبَلِ سيئاتهم. وقال الحكم: من بين أيديهم: من قبل الدنيا يُزيّنها لهم، ومن خلفهم: من قبل الآخرة يثبطهم عنها، وعن أيمانهم: من قبل الحقّ يصدّهم عنه، وعن شمائلهم: من قبل الباطل يزينه لهم. وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنّة ولا نار، ومن خلفهم: من أمور الدنيا يزينها لهم ويدعوهم إليها، وعن أيمانهم: من قبل حسناتهم بطّأهم عنها، وعن شمائلهم: زيّن لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم من حيث لا يبصرون. وقال ابن جريج: معنى قوله حيث لا يبصرون أي لا يخطئون وحيث لا يبصرون أي لا يعلمون أنهم يخطئون. ﴿ **ولا تجد**

الشهوات وتحسين القبائح وعلم ميل بني آدم إلى ذلك فقال هذه المقالة وقيل إنه رآه مكتوباً في اللوح المحفوظ فقال هذه المقالة على سبيل اليقين والقطع والله أعلم بمراده.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**قال اخرج منها**﴾ أي: قال الله تعالى لإبليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وذلك بسبب مخالفته وعصيانه اخرج منها يعني من الجنة فإنه لا ينبغي أن يسكن فيها العصاة ﴿**مذؤوماً**﴾ يعني معيباً والذأم أشد العيب ﴿**مدحوراً**﴾ يعني مطروداً مبعداً. وقال ابن عباس: صغيراً ممقوتاً. وقال قتادة: لعيناً مقيتاً وقال الكلبي: ملوماً مقصياً من الجنة ومن كل خير ﴿**لمن تبعك منهم**﴾ يعني من بني آدم ﴿**لأملان جهنم منكم أجمعين**﴾ اللام لام القسم أقسم الله تعالى أن من اتبع إبليس من بني آدم وأطاعه منهم.

قوله تعالى: ﴿**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة**﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وذلك بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه وطرده من الجنة ﴿**فكُلا من حيث شئتما**﴾ يعني فكُلا من ثمار الجنة من أي مكان شئتما.

فإن قلت: قال في سورة البقرة وكلا بالواو وقال هنا فكلا بالفاء فما الفرق؟

قلت: قال الإمام فخر الدين الرازي إن الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففي سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾ تقدم في سورة البقرة الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى.

قوله تعالى: ﴿**فوسوس لهما الشيطان**﴾ يعني فوسوس إليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان في قلب الإنسان، يقال: وسوس إذا تكلم كلاماً خفيفاً مكرراً وأصله من صوت الحلي ومعنى وسوس لهما فعلَ الوسوسة وألقاها إليهما.

فإن قلت: كيف وسوس إليهما وآدم وحواء في الجنة وإبليس قد أُخرج منها؟

قلت: ذكر الإمام فخر الدين الرازي في الجواب عن هذا السؤال عن الحسن أنه قال: كان يوسوس في الأرض إلى السماء إلى الجنة بالقوة القوية التي جعلها الله تعالى له. قوله وقال أبو مسلم الأصبهاني: بل كان آدم وإبليس في الجنة لأن هذه الجنة كانت بعض جنات الأرض والذي يقوله بعض الناس من أن إبليس دخل في جوف الحية فدخلت

أكثرهم شاكرين﴾، مؤمنين، فإن قيل: كيف علم الخبيث ذلك؟ قيل: قاله ظنّاً فأصاب. قال الله تعالى: ﴿ **ولقدْ صدقَ عليهم إبليسُ ظنَّه** ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿ **قال** ﴾، الله تعالى لإبليس، ﴿ **اخرجْ منها مَذْءُوماً مَّدْحُوراً** ﴾، أي: معيباً، والذامّ أشدّ العيب، يقال: ذامّه يذامّه ذامّاً فهو مذؤوم وذامّه يذيمه ذاماً فهو مذيم، مثل سار يسير سيراً. والمدحور: المبعد المطرود، يقال: دحره يدحره دحراً إذا أبعده وطرده. قال ابن عباس: مذؤوماً أي ممقوتاً قال قتادة: مذؤوماً مدحوراً أي: لعيناً شقيّاً. وقال الكلبي: مذؤوماً مدحوراً مقصيّاً من الجنة ومن كل خير. ﴿ **لمَنْ تَبِعَكَ منهم** ﴾، من بني آدم، ﴿ **لأملأنّ**

به الحية إلى الجنة فقصة مشهورة ركيكة، وقال آخرون: إن آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة وكان إبليس واقفاً من خارج الجنة على بابها فقرب أحدهما من الآخر فحصلت الوسوسة هناك.

فإن قلت: إن آدم عليه الصلاة والسلام قد عرف ما بينه وبين إبليس من العداوة فكيف قبل قوله؟

قلت: يحتمل أن يقال إن إبليس لقي آدم مراراً كثيرة ورغبه في أكل هذه الشجرة بطرق كثيرة منها رجاء نيل الخلد ومنها قوله وقاسمهما «إني لكما لمن الناصحين» فلأجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلام إبليس في آدم حتى أكل من الشجرة ﴿ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما﴾ يعني ليظهر لهم ما غطى وستر عوراتهما وقوله ما ووري مأخوذ من المواراة وهي الستر يقال واريته بمعنى سترته والسوأة فرج الرجل والمرأة سمي بذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان وفي الآية دليل على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات واللام في قوله ليبدي لهما لام العاقبة وذلك لأن إبليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما وإنما كان حملهما على المعصية فقط فكان عاقبة أمرهما أن بدت عوراتهما ﴿وقال﴾ يعني وقال إبليس لآدم وحواء ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾ يعني عن الأكل من هذه الشجرة ﴿إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ يعني إنما نهاكما عن هذه الشجرة لكي لا تكونا ملكين من الملائكة تعلمان الخير والشر أو تكونا من الباقين الذين لا يموتون وإنما أطمع إبليس آدم بهذه الآية لأنه علم أن الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش فاستشرف لذلك آدم وأحب أن يعيش مع الملائكة لطول أعمارهم أو يكون من الخالدين الذين لا يموتون أبداً.

فإن قلت: ظاهر الآية يدل على أن الملَك أفضل من الأنبياء لأن آدم عليه الصلاة والسلام طلب أن يكون من الملائكة وهذا يدل على فضلهم عليه.

قلت: ليس في ظاهر الآية ما يدل على ذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام لما طلب أن يكون من الملائكة كان ذلك الطلب قبل أن يتشرف بالنبوة وكانت هذه الواقعة قبل نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فطلب أن يكون من الملائكة أو من الخالدين وعلى تقديره أن تكون هذه الواقعة في زمان النبوة بعد أن شرف بها آدم إنما طلب أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم لا لأنهم أفضل منه حتى يلتحق بهم في الفضل لأنه طلب إما أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم أو من الخالدين الذين لا يموتون أبداً وقوله تعالى:

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا

جهنَّمَ ﴾، اللام لام القسمُ، ﴿ منكم أجمعين ﴾، أي: منك ومن ذريتك ومن كفّار ذريّة آدم أجمعين.

﴿ ويا آدمُ اسْكنْ أنتَ وزوجُكَ الجنّةَ فكُلا منْ حيثُ شِئتُما ولا تقربا هذهِ الشجرةَ فتكونَا مِنَ الظّالمين ﴾.

﴿ فَوسْوَسَ لهمَا الشّيطانُ ﴾، أي: إليهما، والوسوسة: حديث يُلقيه الشيطان في قلب الإنسان ﴿ لِيُبْدِيَ لهما مَا وُورِيَ عنهما مِنْ سوْآتِهما ﴾، أي: لِيُظهِرَ لهما ما غُطي وسُتر عنهما من عوراتهما، قيل: اللام فيه لام العاقبة أن إبليس لم يوسوس لهذا ولكن كان عاقبة أمرهم ذلك، وهو ظهور عورتهما، كقوله تعالى: ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَونَ ليكونَ لهمْ عدوّاً وحزناً ﴾ [القصص: ٨]، ثم بيّن الوسوسة فقال: ﴿ وقال ﴾ إبليس لآدم وحوّاء، ﴿ مَا نَهاكُمَا ربُّكما عن هذه الشجرة إلّا أنْ تكونَا مَلَكيْنِ ﴾، يعني إلّا كراهية أن تكونا من الملائكة يعلمان الخير والشر، ﴿ أو تكونَا مِنَ الخالدين ﴾، من الباقين الذين لا يموتون كما قال في موضع آخر: ﴿ هل أدلّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ﴾ [طه: ١٢٠].

يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

﴿وقاسمهما﴾ أي وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد ﴿إني لكما لَمن الناصحين﴾ قال قتادة: حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما وقد يُخدع المؤمن بالله فقال إني خُلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما وقال بعض العلماء: من خادعنا بالله خدعنا له ﴿فدلاهما بغرور﴾ يعني فخدعهما بغرور يقال ما زال فلان يدلي فلاناً بغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل. قال الأزهري وأصله أن الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش وهو أن إبليس حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية لأن التدلي لا يكون إلا من علو إلى أسفل. ومعنى الآية أن إبليس لعنه الله تعالى غر آدم باليمين الكاذبة وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً وإبليس أول من حلف بالله كاذباً فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغتر به ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ يعني: طعما من ثمرة الشجرة وفيها دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك قصد إلى معرفة طعمه لأن الذوق يدل على الأكل اليسير ﴿بدت لهما سوءاتهما﴾ يعني: ظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس رضي الله عنهما: قبل أن ازدردا أخذتهما العقوبة والعقوبة أن ظهرت وبدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما لبسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك. وقال وهب: كان لباسهما من النور لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما وقال قتادة: كان لباس آدم في الجنة ظفراً كله فلما وقع في الذنب قشط عنه وبدت سوأته ﴿وطفقا﴾ يعني وأقبلا وجعلا ﴿يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ يعني أنهما لما بدت لهما سوآتهما جعلا يرقعان ويلزقان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب. وقال الزجاج: جعلا ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما وفي الآية دليل على أن كشف العورة من ابن آدم قبيح ألا ترى أنهما بادرا إلى ستر العورة لما تقرر في عقلهما من قبيح كشفها.

روى أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال «كان آدم ﷺ رجلاً طويلاً كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها في الجنة فانطلق فاراً فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إنّي لكما لَمِنَ النَّاصِحين ﴾، أي: وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختصّ بالواحد، وقال قتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتّبعـاني أُرشدكما، وإبليس أول مَن حلف بالله كاذباً فلما حلف ظنّ آدم أن أحداً لا يحلف بالله إلّا صادقاً فاغترّ به.

﴿ فدلّاهُما بِغُرور ﴾، أي: خدعهما، يقال: ما زال إبليس يدلّ فلاناً بالغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف باطل من القول. وقيل: حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية، ولا يكون التدلّي إلّا من علو إلى أسفل والتدلية إرسال الدلو في البئر، يُقال: تدلّى بنفسه ودعا غيره، وقال الأزهري: أصله من تدلية العطشان البئر ليروي من الماء ولا يجد الماء فيكون تدلى بالغرور عن إظهار النصح مع إبْطانِ الغش. ﴿ فلما ذَاقَا الشجرةَ بدتْ لهما سوآتهما ﴾، قال الكلبي: فلما أكلا منها. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قبل أن ازدردا أخذتْهما العقوبةُ، والعقوبةُ إنْ بدتْ ظهرتْ لهما سوآتُهما عوراتُهما، وتهافت لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما

لها أرسليني قالت لست بمرسلتك فناداه ربه يا آدم أمنّي تفر قال لا يا رب ولكني استحييتك» ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري من طريقين موقوفاً ومرفوعاً.

قوله تعالى: ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾ يعني أن الله تعالى نادى آدم وحواء وخاطبهما فقال: ألم أنهكما عن أكل ثمرة هذه الشجرة ﴿وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ يعني أعلمكما أن الشيطان قد بانت عداوته لكما بترك السجود حسداً وبغياً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني. قال فإني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً قال فرنت حواء عند ذلك رنة فقيل لها الرنة عليك وعلى بناتك وقال محمد بن قيس: ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال أطعمتني حواء فقال لحواء لم أطعمتيه قالت أمرتني الحية فقال للحية لم أمرتها قالت أمرني إبليس قال الله تعالى: أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر وأما أنت يا حية فأنطع رجليك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا إبليس فملعون مطرود مدحور يعني عن الرحمة. وقيل ناداه ربه يا آدم أما خلقتك بيدي أما نفخت فيك من روحي أما أسجدت لك ملائكتي أما أسكنتك جنتي في جواري.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ وهذا خبر من الله عز وجل عن آدم عليه الصلاة والسلام وحواء عليها السلام واعترافهما على أنفسهما بالذنب والندم على ذلك والمعنى: قالا يا ربنا إنا فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك ما لم يكن لنا أن نطيعه فيه من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها ﴿وإن لم تغفر لنا﴾ يعني وأنت يا ربنا إن لم تستر علينا ذنبنا ﴿وترحمنا﴾ يعني وتتفضل علينا برحمتك ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ يعني من الهالكين.

وُورِيَ عنه من عورة صاحبه، وكانا لا يريان ذلك قال وهب: كان لباسهما من النور. وقال قتادة: كان ظفراً ألبسهما الله من الظفر لباساً فلمّا وقعا في الذنب بدت لهما سوءاتهما فاستحيا، ﴿ وطَفِقَا ﴾ أقبلا وجعلا ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾، يرقّعان ويلزقان ويصلان، ﴿ عليهما منْ وَرَقِ الجنّة ﴾، وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب. قال الزجّاج: يجعلان ورقة على ورقة ليستروا سوآتهما، ورُوِيَ عن أُبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ «كان آدم رجلاً طِوَالاً كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس، فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته، وكان لا يراها فانطلق هارباً في الجنة، فعرضتْ له شجرةٌ من شجر الجنة فحبسته بشعره، فقال لها: أرسليني، قالت: لست بمرسلتك، فناداه ربُّه يا آدمُ أتفرّ منّي؟ قال: لا يا رب ولكن استحييتُك». ﴿ وناداهما ربُّهما ألمْ أنْهكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشجرة ﴾، يعني: عن الأكل منها، ﴿ وأقلْ لكُمَا إنّ الشيطانَ لَكُمَا عدوٌّ مُّبين ﴾، أي: بيّن العداوة، قال محمد بن قيس: ناداه ربُّه يا آدمُ أكلت منها وقد نهيتُك؟ قال: ربِّ أطعمتني حوّاء، قال لحوّاء: لِمَ أطعمتيه؟ قالت: أمرتني الحيّة، قال للحيّةِ: لِمَ أمرتيها؟ قالتْ: أمرني إبليس، فقال الله: أمّا أنت يا حوّاء فكما أدميت الشجرة فتدمين كل شهر، وأما أنت يا حيّة فأقطع قوائمك فتمشين على بطنك ووجهك، وسيشدخ رأسك مَن لقيك، وأمّا أنتَ يا إبليس فملعون مدحور.

﴿ قالاَ ربَّنا ظلمنا أنفسَنا ﴾، ضررناها بالمعصية، ﴿ وإنْ لم تغفرْ لنا وترحَمْنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾، الهالكين.

قال قتادة: قال آدم يا رب أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك، قال: إذاً أدخلك الجنة.

وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله أن ينظره فأعطى كل واحد مهما ما سأل وقال الضحاك في قوله ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ قال: هي الكلمات التي تلقّاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه عز وجل.

(فصل)

وقد استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية وأجيب عنه بأن درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الرفعة والعلو والمعرفة بالله عز وجل مما حملهم على الخوف منه والإشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخَذ به غيرهم وأنهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو فهم بسبب ذلك خائفون وجِلون وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم وسيئات بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم، مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحي السماوي والذكر القدسي وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله عز وجل، ذنوباً وهي حسنات بالنسبة إلى غيرهم كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. يعني أنهم يرونها بالنسبة إلى أحوالهم كالسيئات وهي حسنات لغيرهم. وقد تقدم في سورة البقرة أن أكل آدم من الشجرة هل كان قبل النبوة أو بعدها؟ والخلاف فيه فأغنى عن الإعادة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قال اهبطوا﴾ قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: إن الذي تقدم ذكره هو آدم وحواء وإبليس فقوله اهبطوا يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة. وقال الطبري: قال الله تعالى لآدم وحواء وإبليس والحية اهبطوا يعني من السماء إلى الأرض قال السدي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿اهبطوا﴾ يعني إلى الأرض آدم وحواء وإبليس والحية ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ يعني أن العداوة ثابتة بين آدم وإبليس والحية وذرية كل واحد من آدم وإبليس ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ يعني موضع قرار تستقرون فيه، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ يعني القبور ﴿ومتاع إلى حين﴾ يعني ولكم فيها متاع تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا أو إلى انقضاء آجالكم ومعنى الآية أن الله عز وجل أخبر آدم وحواء وإبليس والحية أنه إذا أهبطهم إلى الأرض فإن بعضهم لبعض عدو وأن لهم في الأرض موضع قرار يستقرون فيه إلى انقضاء آجالهم ثم يستقرون في قبورهم إلى انقطاع الدنيا. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿ومتاع إلى حين﴾ يعني إلى يوم القيامة وإلى انقطاع الدنيا ﴿قال فيها تحيون﴾ يعني: قال الله عز وجل لآدم وذريته وإبليس وأولاده فيها تحيون يعني في الأرض تعيشون أيام حياتكم

﴿ قال اهبطُوا بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌّ ولكم في الأرضِ مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين ﴾.

﴿ قال فيها تَحْيَوْنَ ﴾، يعني في الأرض تعيشون، ﴿ وفيها تَمُوتُونَ ومنها تخرُجُون ﴾، أي: من الأرض تخرجون من قبوركم للبعث، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «تخرجــون» بفتح التاء ههنا وفي الزخرف، وافق يعقوب ههنا وزاد حمزة والكسائي: « وكذلك تخرجون » في أول الروم، والباقون بضمّ التاء وفتح الراء فيهنّ.

﴿ يا بني آدمَ قدْ أنزلنا عليكم ﴾، أي: خلقْنَا لكم ﴿ لباساً ﴾، وقيل: إنّما قال: ﴿ أنزلْنا ﴾ لأنّ اللباس يكون من نبات الأرض، والنبات يكون بما ينزل من السماء، فمعنى قوله: ﴿ أنزلنا ﴾ أي: أنزلنا أسبابه. وقيل: كل بركات الأرض منسوبة إلى السماء كما قال تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ [الحديد: ٢٥] وإنما يستخرج الحديد من الأرض. وسبب نزول هذه الآية أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عُراة يقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة. قال قتادة: كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول:

﴿وفيها تموتون﴾ يعني: وفي الأرض تكون وفاتكم وموضع قبوركم **﴿ومنها تخرجون﴾** يعني: ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة.

قوله عز وجل: **﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم﴾** اعلم أن الله عز وجل لما أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعلها مستقراً لهم أنزل عليهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح الدين والدنيا فكان مما أنزل عليهم اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا فأما منفعته في الدين فإنه يستر العورة وسترها شرط في صحة الصلاة وأما منفعته في الدنيا فإنه يمنع الحر والبرد فامتنّ الله على عباده بأن أنزل عليهم لباساً يواري سوءاتهم فقال تعالى: **﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم﴾** يعني لباساً تسترون به عوراتكم.

فإن قلت ما معنى قوله قد أنزلنا عليكم لباساً.

قلت ذكر العلماء فيه وجوهاً **أحدها**: أنه بمعنى خلق أي خلقنا لكم لباساً أو بمعنى رزقناكم لباساً.

الوجه الثاني: أن الله تعالى أنزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكأنه أنزله عليهم.

الوجه الثالث: أن جميع بركات الأرض تنسب إلى السماء وإلى الإنزال كما قال تعالى: وأنزلنا الحديد **﴿وريشاً﴾** الريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للإنسان فاستعير للإنسان لأنه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسين لباساً يواري سوءاتكم ولباساً لزينتكم لأن التزيين غرض صحيح كما قال تعالى **﴿لتركبوها وزينة﴾** وقال **﴿ولكم فيها جمال﴾** وقال رسول الله ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال» واختلفوا في معنى الريش المذكور في الآية فقال ابن عباس رضي الله عنهما وريشاً يعني مالاً، وهو قول مجاهد والضحاك والسدي لأن المال مما يتزين به، ويقال: تريش الرجل إذا تموّل. وقال ابن زيد: الريش الجمال وهو يرجع إلى الزينة أيضاً، وقيل: إن الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب والمتاع مما يلبس أو يفرش والريش أيضاً المتاع والأموال عندهم وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال يقال إنه لحسن الريش أو لحسن الثياب وقيل الريش والرياش يستعمل أيضاً في الخصب ورفاهية العيش **﴿ولباس التقوى﴾** اختلف العلماء في معناه فمنهم من حمله على نفس الملبوس وحقيقته، ومنهم من حمله على المجاز أما من حمله على نفس الملبوس فاختلفوا أيضاً في معناه، فقال ابن الأنباري: لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخباراً أنّ ستر العورة من التقوى وذلك خير.

وقيل: إنما أعاده لأجل أن يخبر عنه بأنه خير لأن العرب في الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت فأخبر أن ستر العورة في الطواف هو لباس التقوى وذلك خير. وقال زيد بن علي رحمه الله تعالى: لباس التقوى آلات الحرب التي يتقى بها في الحروب كالدروع والمغفر ونحو ذلك. وقيل لباس التقوى هو الصوف

اليـومَ يبـدُو بـعضُـه أو كـلُّه وما بَـدَا منـه فـلاَ أُحِلُّه

فأمر الله سبحانه بالستر فقال: ﴿ **قد أنزلنا عليكم لباساً يُوارِي سوآتِكم** ﴾، يستر عوراتكم، واحدتها سوأة سُمّيت بها لأنه يسوء صاحبَها انكشافُها فلا تطوفوا عُراةً، ﴿ **وريشاً** ﴾، يعني: مالاً في قول ابن عباس ومجاهد والضحّاك والسدي، يُقال: تريّش الرجل إذا تموّل، وقيل: الريش الجمال، أي: ما تتجملون به من الثياب، وقيل: هو اللباس ﴿ **ولباسُ التقوى ذلك خير** ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي «ولبـاس» بنصب السين عطفاً على قوله: ﴿ **لباساً** ﴾ وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره ﴿ **خير** ﴾، وجعلوا ﴿ **ذلك** ﴾ صلة في الكلام، ولذلك قرأ ابن مسعود وأُبيّ بن كعب « ولباسُ التقوى خير » واختلفوا في ﴿ **لباس التقوى** ﴾ قال قتادة والسدي:

والخشن من الثياب التي يلبسها أهل الزهد والورع. وقيل: هو ستر العورة في الصلاة وأما من حمل لباس التقوى على المجاز فاختلفوا في معناه. فقال قتادة والسدي: لباس التقوى هو الإيمان لأن صاحبه يتقي به من النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لباس التقوى هو العمل الصالح، وقال الحسن رضي الله عنه: هو الحياء لأنه يحث على التقوى. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لباس التقوى هو السمت الحسن، وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه: لباس التقوى خشية الله، وقال الكلبي: هو العفاف فعلى هذه الأقوال: إن لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به مما خلق الله له من لباس التجمل وزينة الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿ذلك خير﴾ يعني لباس التقوى خير من لباس الجمال والزينة وأنشدوا في المعنى:

إذا أنت لم تلبس ثياباً من التقى عريت وإن وارى القميصَ قميصُ

وقوله تعالى: ﴿ذلك من آيات الله﴾ يعني أنزل اللباس عليكم يا بني آدم من آيات الله الدالة على معرفته وتوحيده ﴿لعلهم يذكرون﴾ يعني لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكرونها.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ قيل: هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى: لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم في الطواف وإنما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة إبليس له ليحذر بذلك أولاد آدم فقال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ يعني آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام والمعنى أن من قدر على إخراج أبويكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته فبأن يقدر على فتنتكم بطريق الأولى فحذر الله عز وجل بني آدم وأمرهم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه القبائح وتحسينه الأفعال الرديئة في قلوب بني آدم فهذه فتنته التي نهى الله تعالى عباده عنها وحذرهم منها.

قوله تعالى: ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ إنما أضاف نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك لأن نزع لباسهما كان بسبب وسوسة الشيطان وغروره فأسند إليه واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وبقيت الأظفار تذكرة وزينة ومنافع، وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى: كان لباس آدم وحواء نوراً، وقال مجاهد: كان لباسهما التقى.

التقوى هو الإيمان. وقال الحسن: هو الحياء لأنه يبعث على التقوى. وقال عطاء عن ابن عباس: هو العمل الصالح. وعن عثمان بن عفّان: أنه هو السمت الحسن. وقال عروة بن الزبير: لباس التقوى خشية الله. وقال الكلبي: هو العفـاف. والمعنى: لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخـذ به مما خُلق له من اللباس للتجمّل. وقال ابن الأنباري: لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخباراً أن ستر العورة خير من التعرّي في الطواف. وقال زيد بن علي: لباس التقوى الآلات التي يُتّقى بها في الحرب كالدرع والمغفر والساعد والساقين. وقيل: لباس التقوى هو الصوف والثياب الخشنة التي يلبسها أهل الورع. ﴿ ذلك من آيات الله لعلهم يذّكرون ﴾.

﴿ يا بني آدمَ لا يفتننّكم الشيطانُ ﴾، لا يضلنّكم الشيطان، ﴿ كما أخرج أبـوَيْكُم ﴾، أي: فتن أبـويكم آدم وحوّاء فأخرجهما، ﴿ مِنَ الجنّةِ ينْزِعُ عنهما لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سوءاتِهما ﴾، أي ليرى كل واحد سوأة الآخر. ﴿ إنّه

وفي رواية عنه التقوى وقيل إن لباسهما من ثياب الجنة وهذا القول أقرب لأن إطلاق اللباس ينصرف إليه ولأن النزع لا يكون إلا بعد اللبس ﴿ليريهما سوءاتهما﴾ يعني: ليرى آدم عورة حواء وترى حواء عورة آدم وكان قبل ذلك لا يرى بعضهم سوءة بعض ﴿إنه يراكم هو وقبيله﴾ يعني أن إبليس يراكم يا بني آدم هو وقبيله إنما أعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضاً، وقال الليث: كل جيل من جن أو إنس قبيل ومعنى يراكم هو وقبيله أي من هو من نسله، وحكى أبو عبيد عن أبي يزيد القبيل: ثلاثة فصاعداً من قوم شتى والجمع قبل والقبيلة بنو أب واحد. وقال الطبري: قبيله يعني صنفه وجيله الذي هو منهم وهو واحد يجمع على قبل وهم الجن. وقال مجاهد: الجن والشياطين وقال ابن يزيد: قبيله نسله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو ولده وقوله ﴿من حيث لا ترونهم﴾ يعني أنتم يا بني آدم، قال العلماء رحمهم الله: إن الله تعالى خلق في عيون الجن إدراكاً يرون بذلك الإدراك الإنس ولم يخلق في عيون الإنس هذا الإدراك فلم يروا الجن. وقالت المعتزلة الوجه في أن الإنس لا يرون الجن رقة أجسام الجن ولطافتها والوجه في رؤية الجن للإنس كثافة أجسام الإنس والوجه في رؤية الجن بعضهم بعضاً أن الله تعالى قوى شعاع أبصار الجن وزاد فيها حتى يرى بعضهم بعضاً ولو جعل في أبصارنا هذه القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها. وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى» كما قال تعالى: «الذي يوسوس في صدور الناس» فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم، وقال مجاهد: قال إبليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى. وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله تعالى ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء﴾ يعني أعواناً وقرباء ﴿للذين لا يؤمنون﴾ قال الزجاج يعني سلَّطانهم عليهم يزيدون في غيهم.

قوله عز وجل: ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هي طوافهم بالبيت عراة الرجال والنساء. وقال عطاء: هي الشرك والفاحشة اسم لكل قبيح فيدخل فيه جميع المعاصي والكبائر فيمكن حملها على الإطلاق وإن كان السبب مخصوصاً بما ورد من طوافهم عراة ولما كانت هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها ويعتقدون أنها طاعات وهي في نفسها فواحش ذمهم الله تعالى عليها ونهاهم عنها فاحتجوا عن هذه الأفعال بما أخبر الله عنهم وهو قوله تعالى: ﴿قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ فذكروا لأنفسهم عذرين أحدهما محض التقليد وهو قولهم وجدنا على هذا الفعل آباءنا وهذا التقليد باطل لأنه لا أصل له، والعذر الثاني قولهم والله أمرنا بها وهذا العذر أيضاً باطل وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ والمعنى أن هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكرة فكيف يأمر الله تعالى بها والله لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بما فيه مصالح العباد ثم قال تعالى رداً عليهم ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ يعني انكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة

يراكم ﴾، يعني أنّ الشيطان يراكم يا بني آدم، **﴿ هو وقبيله ﴾**، جنوده، قال ابن عباس: هو وولده. وقال قتادة: قبيلة الجن والشياطين، **﴿ من حيثُ لا ترونَهم ﴾**، قال مالك بن دينار: إنّ عدوّاً يراكَ ولا تراه لشديد المؤنة إلّا مَن عصم الله، **﴿ إنّا جعلنا الشياطينَ أولياء ﴾** قرناء وأعواناً، **﴿ للذينَ لا يُؤمنُون ﴾**، قال الزجّاج: سلّطناهم عليهم يزيدون في غيّهم كما قال: **﴿ إنّا أرسلنا الشياطينَ على الكافرينَ تؤزّهم أزّاً ﴾** [مريم: ٨٣].

﴿ وإذا فعلُوا فاحشةً ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: هي طوافهم بالبيت عراة. قال عطاء: الشرك والفاحشة: اسم لكل فعل قبيح بلغ النهاية في القبح. **﴿ قالوا وَجَدْنا عليها آباءَنا ﴾**، وفيه إضمار معناه: وإذا فعلوا فاحشة فنهوا

ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه لأنكم تنكرون نبوّة الأنبياء فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون أمر ربي بالقسط يعني بالعدل، وهذا قول مجاهد والسدي. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بلا إله إلا الله فالأمر بالقسط في هذه الآية يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله وأنه واحد لا شريك له ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ فإن قلت قل أمر ربي بالقسط خبر وقوله وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد أمر وعطف الأمر على الخبر لا يجوز فما معناه.

قلت: فيه إضمار وحذف تقديره قل أمر ربي بالقسط وقال «وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد» فحذف فقال لدلالة الكلام عليه ومعنى الآية قول مجاهد والسدي: وجهوا وجوهكم حيثما كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال الضحاك: معناه إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي أو في مسجد قومي. وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي واعبدوه مخلصين العبادة والطاعة والدعاء لله عز وجل لا لغيره ﴿كما بدأكم تعودون﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله عز وجل بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً وحجة هذا القول قوله في سياق الآية ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ فإنه كالتفسير له ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يُبعث كل عبد على ما مات عليه» أخرجه مسلم زاد البغوي في روايته: المؤمن على إيمانه والكافر على كفره. وقال محمد بن كعب: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة كما أن إبليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة. ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بأعمال أهل الشقاوة كما أن السحرة كانوا

عنها قالوا: وجدنا عليها آباءنا. وإذا قيل: ومن أين أخذ آباؤكم؟ قالوا: ﴿ والله أمرنا بها قلْ إنّ الله لا يأمرُ بالفحشاءِ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾.

﴿ قلْ أمرَ ربّي بالقسط ﴾، قال ابن عباس: بِلاَ إِلَهَ إلاّ الله. وقال الضحاك: بالتوحيد. وقال مجاهد والسدي: بالعدل. ﴿ وأقيمُوا وجوهَكم عندَ كلِّ مسجد ﴾ قال مجاهد والسدي: يعني توجهوا حيث ما كنتم في الصلاة إلى الكعبة. وقال الضحاك: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلّوا فيه ولا يقولنّ أحدكم أُصلّي في مسجدي. وقيل: معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً. ﴿ وادْعُوه ﴾، واعبدوه، ﴿ مخلصين له الدين ﴾، الطاعة والعبادة، ﴿ كما بدأكم تعودُون ﴾، قال ابن عباس: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال: ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً. قال جابر: يبعثون على ما ماتوا عليه. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي حدّثنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنبأنا محمد بن عبد الله الصفّار حدّثنا أحمد بن محمد بن عيسى البزّي حدّثنا أبو حذيفة حدّثنا سفيان الثّوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليه، المؤمن على

يعملون بعمل أهل الشقاوة ثم صاروا إلى السعادة ويصح هذا القول ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة» أخرجه مسلم وقال الحسن ومجاهد في معنى الآية كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً فأحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون أحياء يوم القيامة ويشهد لمصلحة هذا القول ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» أخرجه البخاري ومسلم وقوله تعالى: ﴿فريقاً هدى﴾ يعني هداهم إلى الإيمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته ﴿وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ يعني وخذل فريقاً حتى وجبت عليهم الضلالة للسابقة التي سبقت لهم في الأزل بأنهم أشقياء وفيه دليل على أن الهدى والضلالة من الله عز وجل، ولما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص روى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» أخرجه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ يعني أن الفريق الذي حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء وأعواناً أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصي والمعنى أن الداعي الذي دعاهم إلى الكفر والمعاصي هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لأن الشياطين لا يقدرون على إضلال أحد.

وقوله ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ يعني أنهم مع ضلالتهم يظنون ويحسبون أنهم على هداية وحق وفيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند في الكفر سواء.

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ

إيمانه والكافر على كفره». وقال أبو العالية: عادوا على عمله فيهم. قال سعيد بن جبير: كما كُتِبَ عليكم تكونون. قال محمد بن كعب: مَن ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل أهل السعادة، كما أن إبليس كان يعمل بأعمال أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة، ومن ابتداء خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بعمل أهل الشقاة، وكما أن السَحَرَة كانت تعمل بعمل أهل الشقاوة فصاروا إلى السعادة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد حدّثنا أبو غسان عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعيد يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ العبد يعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناسُ بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم». وقال الحسن ومجاهد: كما بدأكم وخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً، كذلك تعودون أحياء يوم القيامة كما بدأنا أول خلق نعيده. قال قتادة: بدأهم من التراب إلى التراب يعودون، فنظيره قوله تعالى: ﴿ منها خلقناكُمْ وفيها نُعيدُكم ﴾ [طه: ٥٥].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فريقاً هدَى ﴾، أي هداهم الله، ﴿ وفريقاً حقَّ ﴾، وجب ﴿ عليهم الضَّلالة ﴾، أي: لإرادة السابقة، ﴿ إنّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دُونِ اللَّهِ ويَحْسَبُونَ أنهم مُهْتَدُون ﴾، فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء.

وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال «كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافاً تجعله على فرجها وهي تقول:

اليـــــوم يبـــدو بعضـــــه أو كلـــــه ومـــــا بـــــدا منــــــه فـــــلا أحلــــه

فنزلت هذه الآية ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أخرجه مسلم وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل» وذكر الحديث زاد في رواية أخرى عنه فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا. وقال مجاهد: كان حي من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجاً أو معتمراً يقول لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه فيقول من يعيرني مئزراً فإن قدر عليه وإلا طاف عرياناً فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون خذوا زينتكم عند كل مسجد. وقال الزهري: إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس وهم قريش وأحلافهم فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه وطاف في ثوب أحمسي ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقي ثيابه ويطوف عرياناً وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها إذا قضى طوافه وحرمها أي جعلها حراماً عليه فلذلك قال الله تعالى: خذوا زينتكم عند كل مسجد، والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة. قال مجاهد: ما يواري عوراتكم ولو عباءة. وقال الكلبي: الزينة ما يواري العورة عند كل مسجد كطواف وصلاة وقوله تعالى: خذوا زينتكم، أمر وظاهره الوجوب وفيه دليل على أن ستر العورة واجب في الصلاة والطواف وفي كل حال.

وقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا﴾ قال الكلبي كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل وكلوا واشربوا يعني الدسم واللحم ﴿ولا تسرفوا﴾ يعني بتحريم ما لم يحرمه الله من أكل اللحم والدسم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأ بك خصلتان سرف ومخيلة» وقال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب كله في نصف آية فقال: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ وفي الآية دليل على أن جميع المطعومات والمشروبات حلال إلا ما خصه الشرع دليل في التحريم لأن الأصل في جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل منفصل ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ يعني أن الله تعالى لا يحب من إسراف المأكول والمشروب والملبوس وفي هذه الآية وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الأشياء لأن محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وأيضاً. وإيصال الثواب إليه وإلا لم يحبه علم أنه تعالى ليس هو راض عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد في الإسراف قوله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتلبسوها في الطواف وغيره ثم في تفسير الزينة قولان:

قوله تعالى: ﴿ يا بني آدمَ خُذُوا زِينَتَكم عند كلِّ مسجدٍ ﴾، قال أهل التفسير: كانت بنو عامر يطوفون بالبيت عراة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا بني آدم خذُوا زينتَكم عندَ كلِّ مسجد ﴾، يعني الثياب. قال مجاهد: ما يُواري عورتك ولو عبـاءة. قال الكلبي: الزينة ما يُواري العورة عند كل مسجد لطواف وصلاة. ﴿ وكلُوا واشربُوا ﴾، قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجّهم من الطعام إلّا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجمهم، فقال المسلمون: نحن أحقّ أن نفعل ذلك يا رسول الله، فأنزل الله عزّ وجلّ وكلوا يعني اللحم والدسم واشربوا، ﴿ ولا تسرفوا ﴾، بتحريم ما أحلّ الله لكم من اللحم والدسم، ﴿ إنّه لا يُحبُّ المسرفين ﴾، الذين يفعلون ذلك.

أحدهما: وهو قول جمهور المفسرين أن المراد من الزينة هنا اللباس الذي يستر العورة.

والقول الثاني: ذكر الإمام فخر الدين الرازي أنه يتناول جميع أنواع الزينة فيدخل تحته جميع أنواع الملبوس والحلي، ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا في هذا العموم ولكن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال دون النساء ﴿**والطيبات من الرزق**﴾ يعني ومن حرم الطيبات من الرزق التي أخرجها الله لعباده وخلقها لهم ثم ذكروا في معنى الطيبات في هذه الآية أقوالاً: **أحدها** أن المراد بالطيبات اللحم والدسم الذي كانوا يحرمونه على أنفسهم أيام الحج يعظمون بذلك حجهم فرد الله تعالى بقوله: ﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾.

القول الثاني: وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة: أن المراد بذلك ما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب. قال ابن عباس رضي الله عنهما إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله تعالى من الرزق وغيرها وهو قول الله تعالى: قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً وهو هذا وأنزل الله **قل من** حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

والقول الثالث: إن الآية على العموم فيدخل تحته كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات إلا ما نهى عنه وورد نص بتحريمه ﴿**قل هي للذين آمنوا**﴾ يعني قل يا محمد إن الطيبات التي أخرج الله من رزقه للذين آمنوا ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ غير خالصة لهم لأنه يشركهم فيها المشركون ﴿**خالصة**﴾ لهم ﴿**يوم القيامة**﴾ يعني لا يشركهم فيها أحد لأنه لا حظ للمشركين يوم القيامة في الطيبات من الرزق، وقيل: خالصة لهم يوم القيامة من التكدير والتنغيص والغم لأنه قد يقع لهم في الحياة الدنيا في تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص فأعلمهم أنها خالصة لهم في الآخرة من ذلك كله ﴿**كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ يعني كذلك نبين الحلال مما أحللت والحرام مما حرمت لقوم علموا إني أنا الله وحدي لا شريك لي فأحلّوا حلالي وحرّموا حرامي.

قوله عز وجل: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش**﴾ جمع فاحشة وهي ما قبح وفحش من قول أو فعل، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب ويطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات مما أحل الله لهم إن الله لم يحرم ما تحرمونه أنتم بل أحله الله لعباده وطيبه لهم وإنما حرم ربي الفواحش من الأفعال والأقوال ﴿**ما ظهر منها وما بطن**﴾ يعني علانيته وسره (ق). عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا أحد أغير من الله» من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه.

قال ابن عباس: كُلْ ما شئتَ والبسْ ما شئتَ ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة. قال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطِبَّ كله في نصف آية فقال: ﴿ **كلوا واشربوا** ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قلْ مَنْ حرّمَ زينةَ اللهِ التي أخرجَ لعبادِهِ** ﴾، يعني لبس الثياب في الطواف، ﴿ **والطيبات مِنَ الرزقِ** ﴾، يعني اللحم والدسم في أيام الحج. وعن ابن عباس وقتادة: والطيبات من الرزق ما حرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب. ﴿ **قلْ هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة** ﴾، فيه حذف تقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين لا حظَّ للمشركين فيها. وقيل: هي خالصة يوم القيامة من التنغيص والغمّ للمؤمنين، فإنها لهم في الدنيا مع التنغيص والغمّ. قرأ نافع «خالصـة» رفع، أي: قلْ هي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا خالصة يوم القيامة. وقرأ الآخرون بالنصب على القطع، ﴿ **كذلك نُفصّل الآيات لقوم يعملون** ﴾.

أصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة فيما يختص به الإنسان ومنه غيرة أحد الزوجين على الآخر لاختصاص كل واحد منهما بصاحبه ولا يرضى أن يشاركه أحد فيه فلذلك يذب عنه ويمنعه من غيره وأما الغيرة في وصف الله تعالى فهو منعه من ذلك وتحريمه له ويدل على ذلك قوله: ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقد يحتمل أن تكون غيرته تغيير حال فاعل ذلك بعقاب والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿والإثم﴾ يعني وحرم الإثم واختلفوا في الفرق بين الفاحشة والإثم فقيل الفواحش الكبائر لأنه قد تفاحش قبحها وتزايدَ والإثم عبارة عن الصغائر من الذنوب فعلى هذا يكون معنى الآية: قل إنما حرم ربي الكبائر والصغائر. وقيل الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والإثم اسم لما لا يجب فيه الحد، وهذا القول قريب من الأول واعترض على هذين القولين بأن الإثم في أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر، وقيل: إن الفاحشة اسم للكبيرة والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيراً أو صغيراً والفائدة فيه أن يقال لما حرم الله الكبيرة بقوله: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾ أردفه بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم متوهم أن التحريم مقصور على الكبائر فقط وقيل إن الفاحشة وإن كانت بحسب اللغة اسماً لكل ما تفاحش من قول أو فعل لكنه قد صار في العرف مخصوصاً بالزنا لأنه إذا أطلق لفظ الفاحشة لم يفهم منه إلا ذاك نوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا وأما الإثم فقد قيل إنه اسم من أسماء الخمر وهو قول الحسن وعطاء. قال الجوهري وقد تسمى الخمر إثماً واستدل عليه بقول الشاعر:

شـربـتُ الإثـم حتـى ضـل عقلـي   كـذاك الإثـم يـذهـب بـالعقـول

وقال ابن سيده صاحب المحكم: وعندي أن تسمية الخمر بالإثم صحيح لأن شربها إثم وبهذا المعنى يظهر الفرق بين اللفظين وأنكر أبو بكر بن الأنباري تسمية الخمر بالإثم قال لأن العرب ما سمته إثماً قط في جاهلية ولا في إسلام ولكن قد يكون الخمر داخلاً تحت الإثم لقوله: قل فيهما إثم كبير.

وقوله تعالى: ﴿والبغي﴾ أي وحرم البغي ﴿بغير الحق﴾ والبغي هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس ومجاوزة الحد في ذلك كله ومعنى البغي بغير الحق هو أن يطلب ما ليس له بحق فإذا طلب ما له بحق خرج من أن يكون بغياً ﴿وأن تشركوا﴾ أي وحرم أن تشركوا ﴿بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ هذا فيه تهكم بالمشركين والكفار لأنه لا يجوز أن ينزل حجة وبرهاناً بأن يشرك به غيره لأن الإقرار بشيء ليس على ثبوته حجة ولا برهاناً ممتنع فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك وجب أن يكون باطلاً على الإطلاق فإن قلت البغي والإشراك داخلان تحت الفاحشة والإثم لأن الشرك من أعظم الفواحش وأعظم الإثم وكذا البغي أيضاً من الفواحش والإثم.

﴿ قلْ إنّما حرّم ربّي الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ ﴾، يعني: الطواف عراة ﴿ ما ظهر ﴾ طواف الرجال بالنهار ﴿ وما بطن ﴾ طواف النساء بالليل. وقيل: هو الزنا سرّاً وعلانيةً. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا شعبة عن عمرو بن مرّة عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أغْيَرُ من الله، فلذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحة من الله فلذلك مَدَحَ نفسَه»، قوله عزّ وجلّ: ﴿ والإثْمَ ﴾، يعني: الذنب والمعصية. وقال الضحاك: الذنب الذي لا حدَّ فيه. قال الحسن: الإثم: الخمر. قال الشاعر:

شـربتُ الإثم حتى ضـلّ عـقلي   كـذاك الإثم يـذهب بـالعقـول

﴿ والبغيَ ﴾، الظلم والكِبْر، ﴿ بغيرِ الحقِّ وأنْ تُشرِكُوا بالله ما لَمْ يُنزِّلْ به سُلْطَاناً ﴾، حجةً وبرهاناً، ﴿ وأن

قلت: إنما أفردهما بالذكر للتنبيه على عظم قبحهما أنه قال من الفواحش المحرمة البغي والشرك فكأنه بين جملته ثم تفصيله وقوله ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ تقدم تفسيره.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولكل أمة أجل﴾ الأجل: الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة ثم في هذا الأجل المذكور في الآية قولان: أحدهما أنه أجل العذاب والمعنى أن لكل أمة كذبت رسله وقتاً معيناً وأجلاً مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ يعني: إذا حلَّ وقت عذابهم ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يعني فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة وإنما ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الوقت في العرف وهذا حين سألوا نزول العذاب فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتاً إذا جاء ذلك الوقت هو وقت إهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

والقول الثاني: إن المراد بهذا الأجل هو أجل الحياة والعمر، فإذا انقضى ذلك الأجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ساعة وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير وإنما قال تعالى: لكل أمة تقارب أعمار أهل كل عصر فكأنهم كالواحد في مقدار العمر. وعلى هذا القول أيضاً يكون المقتول ميتاً بأجله خلافاً لمن يقول القاتل قطع عليه أجله.

قوله عز وجل: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم﴾ هي إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، وهو قوله فمن اتقى وأصلح يعني منكم وإنما قال رسل بلفظ الجمع وإن كان المراد به واحد وهو النبي ﷺ لأنه خاتم الأنبياء وهو مرسل إلى كافة الخلق فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم فعلى هذا يكون الخطاب في قوله يا بني آدم لأهل مكة ومن يلحق بهم. وقيل: أراد جميع الرسل وعلى هذا فالخطاب في قوله يا بني آدم عام في كل بني آدم وإنما قال منكم يعني من جنسكم ومثلكم من بني آدم لأن الرسول إذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم لأنهم يعرفونه ويعرفون أحواله فإذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذي أتى به معجزة له وحجة على من خالفه ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ يعني يقرؤون عليكم كتابي وأدلة أحكامي وشرائعي التي شرعت لعبادي ﴿فمن اتقى﴾ يعني فمن اتقى الشرك ومخالفة رسلي ﴿وأصلح﴾

تقولوا على الله مَا لا تعلمُون ﴾، في تحريم الحرث والأنعام، في قول مقاتل، وقال غيره. هـو عامّ في تحريم القول في الدين من غير يقين.

﴿ ولكلِّ أمّةٍ أجل ﴾، مدّة وأكل وشرب. وقال ابن عباس وعطاء والحسن: يعني وقتاً لنزول العذاب بهم، ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾، وانقطع أكلهم، ﴿ لا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدِمُون ﴾، أي: لا يتقدمون. وذلك حين سألوا العذاب فأنزل الله هذه الآية.

يعني العمل الذي أمرته به رسلي فعمل بطاعتي وتجنب معصيتي وما نهيته عنه ﴿فلا خوف عليهم﴾ يعني حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب ﴿ولا هم يحزنون﴾ يعني على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني ومن جحدوا آياتنا وكذبوا رسلنا ﴿واستكبروا عنها﴾ يعني واستكبروا عن الإيمان بها وما جاءت به رسلنا ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يعني لا يخرجون منها أبداً.

قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ يعني فمن أعظم ظلماً ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكاً من خلقه وهو منزه عن الشريك والولد ﴿أو كذب بآياته﴾ يعني أو كذب بالقرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ يعني ينالهم حظهم مما قدر لهم وكتب في اللوح المحفوظ واختلفوا في ذلك النصيب على قولين أحدهما: أن المراد به هو العذاب المعين لهم في الكتاب ثم اختلفوا فيه، فقال الحسن والسدي: ما كتب لهم من العذاب وقضي عليهم من سواد الوجوه وزرقه العيون، وقال ابن عباس: في رواية عنه كتب لمن يفتري على الله كذباً أن وجهه أسود، وقال الزجاج: هو المذكور في قوله فأنذرتكم ناراً تلظى وفي قوله إذ الأغلال في أعناقهم فهذه الأشياء هي نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم.

والقول الثاني: إن المراد بالنصيب المذكور في الكتاب هو شيء سوى العذاب ثم اختلفوا فيه فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى عنه وعن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية، في قوله: ينالهم نصيبهم من الكتاب، قالوا: هو السعادة والشقاوة، وقال ابن عباس: ما كتب عليهم من الأعمال، وقال في رواية أخرى عنه: من عمل خيراً جوزي به ومن عمل شراً جوزي به. وقال قتادة: جزاء أعمالهم التي عملوها. وقيل معنى ذلك ينالهم نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر قاله مجاهد والضحاك، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وقال الربيع بن أنس: ينالهم ما كتب لهم في الكتاب من الرزق، وقال محمد بن كعب القرظي: عمله ورزقه وعمره. وقال ابن زيد: ينالهم نصيبهم من الكتاب من الأعمال والأرزاق والأعمار فإذا فرغ هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم، وصحح الطبري هذا القول الآخر وقال: لأن الله تعالى أتبع ذلك بقوله حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم فأبان أن الذي ينالهم هو ما قدر لهم في الدنيا فإذا فرغ توفتهم رسل ربهم. قال الإمام فخر الدين رحمه الله تعالى: إنما حصل الاختلاف لأن لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه. وقال بعض المحققين: حمله على العمر والرزق أولى لأنه تعالى بيَّن أنهم وإن بلغوا في الكفر ذلك المبلغ العظيم فإنه ليس بمانع أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلاً من الله سبحانه وتعالى لكي يصلحوا ويتوبوا.

قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ يعني حتى إذا جاءت هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب

قوله تعالى: ﴿ يا بني آدمَ إمّا يأتينّكم رسلٌ منكم ﴾، أي: إن يأتكم. قيل: أراد جميع الرسل. وقال مقاتل: أراد بقوله: ﴿ يا بني آدم ﴾ مشركي العرب وبالرسل محمداً ﷺ وحده، ﴿ يقصُّون عليكم آياتي ﴾، قال ابن عباس: فرائضي وأحكامي، ﴿ فمَنِ اتّقَى وأصلح ﴾، أي: اتقى الشرك وأصلح عمله. وقيل: أخلص ما بينه وبين ربّه ﴿ فلا خوفٌ عليهم ﴾، إذا خاف النّاس، ﴿ ولا هم يحزنُون ﴾، أي: إذا حزنوا.

﴿ والذين كذّبوا بآياتنا واستكبرُوا عنها ﴾، تكبروا عن الإيمان بها ذكر الاستكبار لأن كل مكذِّب وكافر متكبّر. قال الله تعالى: ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلَه إلّا الله يستكبرُون ﴾ [الصّافّات: ٣٥]. ﴿ أولئكَ أصحابُ النّارِ هُمْ فيها خالدُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فمَنْ أظلم ممّنِ افترَى على اللّهِ كذباً ﴾، جعل له شريكاً، ﴿ أن كذّبَ بآياتِهِ ﴾، القرآن،

رسلنا يعني ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم لأن لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى ﴿قالوا﴾ يعني: قال الرسل وهم الملائكة للكفار ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت لا سؤال استعلام والمعنى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم. وقيل إن هذا يكون في الآخرة والمعنى حتى إذا جاءتهم رسلنا يعني ملائكة العذاب يتوفونهم يعني يستوفون عددهم عند حشرهم إلى النار قالوا أينما كنتم تدعون يعني شركاء وأولياء تعبدونهم من دون الله فادعوهم ليدفعوا عنكم ما جاءكم من أمر الله ﴿قالوا﴾ يعني الكفار مجيبين للرسل ﴿ضلوا عنا﴾ يعني بطلوا وذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ يقول الله تعالى وشهد هؤلاء الكفار عند معاينة العذاب أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله واعترفوا على أنفسهم بذلك.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾

قوله عز وجل: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس﴾ يقول الله عز وجل يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب وجعل له شريكاً من خلقه: ادخلوا في أمم يعني في جملة أمم قد خلت يعني قد مضت وسلفت وإنما قال قد خلت ولم يقل قد خلوا لأنه أطلق الضمير على الجماعة يعني في جملة جماعة قد خلت من قبلكم يعني من الجن والإنس ﴿في النار﴾ أي ادخلوا جميعاً في النار التي هي مستقركم ومأواكم وإنما عنى بالأمم والجماعات والأحزاب وأهل الملل الكافرة من الجن والإنس ﴿كلما دخلت أمة﴾ يعني كلما دخلت جماعة النار ﴿لعنت أختها﴾ يعني كلما دخلت أمة النار لعنت أختها من أهل ملتها في الدين لا في النسب. قال السدي: كلما دخلت أهل ملة النار لعنوا أصحابهم على ذلك الدين فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الأولى ﴿حتى إذا أداركوا﴾ يعني تداركوا وتلاحقوا ﴿فيها جميعاً﴾ يعني تلاحقوا

﴿ أولئكَ ينالُهُمْ نصيبهُم مِّنَ الكتاب ﴾، نصيبهم أي: حظهم ممّا كتب لهم في اللوح المحفوظ. واختلفوا فيه، قال الحسن والسدي: ما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون. قال عطية عن ابن عباس: كُتب لمَن يفتري على الله أنّ وجهه مسود، قال الله تعالى: ﴿ ويومَ القيامة ترَى الذين كذَبُوا على اللّهِ وجوهُهُمْ مسودّة ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال سعيد بن جبير ومجاهد: ما سبق لهم من الشقاوة والسعادة. وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: يعني أعمالهم التي عملوها وكتب عليهم من خير وشرّ يجري عليها. وقال محمد بن كعب القرظي: ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال فإذا فنيت، ﴿ حتى إذا جاءتْهُم رسلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾، يقبضون أرواحهم يعني ملك الموت وأعوانه، ﴿ قالوا ﴾، يعني يقول الرسل للكفّار، ﴿ أينما كنتم تدعون ﴾، تعبدون، ﴿ منْ دونِ الله ﴾، سؤال تبكيت وتقريع، ﴿ قالوا ضلّوا عنّا ﴾، بطلوا وذهبوا عنّا، ﴿ وشَهِدُوا على أنفسهم ﴾، اعترفوا عند معاينة الموت، ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾.

﴿ قالَ ادْخلُوا في أُمم ﴾، يعني: يقول الله لهم يوم القيامة ادخلوا في أُممٍ، أي: مع جماعات، ﴿ قدْ خلَتْ ﴾، مضت، ﴿ من قَبْلِكُم مِّنَ الجنّ والإنس في النار ﴾، يعني كفّار الأمم الخالية، ﴿ كلما دخلَتْ أمّةٌ لعنتْ أختها ﴾، يريد أُختها في الدين لا في النسب، فتلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى، وكل فرقة تلعن أُختها

واجتمعوا في النار جميعاً وأدرك بعضهم بعضاً واستقروا في النار ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني قال آخر كل أمة لأولها، وقال السدي: قالت أخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين. وقال مقاتل: يعني قال أخراهم دخولاً النار وهم الأتباع لأولاهم دخولاً وهم القادة لأن القادة يدخلون النار أولاً ﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾ يعني: تقول الأتباع ربنا هؤلاء القادة والرؤساء أضلونا عن الهدى وزينوا لنا طاعة الشيطان، وقيل: إنما قال المتأخرون ذلك لأنهم كانوا يعتقدون تعظيم المتقدمين من أسلافهم فسلكوا سبيلهم في الضلالة واتبعوا طريقهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلالة فلما كان يوم القيامة وتبين لهم فساد ما كانوا عليه قالوا ربنا هؤلاء أضلونا لأنا اتبعنا سبيلهم ﴿فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي أضعف عليهم العذاب، قال أبو عبيدة: الضعف هو مثل الشيء مرة واحدة، قال الأزهري والذي قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاز كلامهم وأما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره إلى موضع كلام العرب والضعف في كلامهم ما زاد وليس بمقصور على مثلين وجائز في كلام العرب هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة وأولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فأقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور وقال الزجاج في تفسير هذه الآية: فآتهم عذاباً ضعفاً أي مضاعفاً لأن الضعف في كلام العرب على ضربين أحدهما المثل والآخر أن يكون في معنى تضعيف الشيء أي زيادته ﴿قال﴾ يعني قال الله تعالى: ﴿لكل ضعف﴾ يعني لأولاكم ضعف ولأخراكم ضعف وقيل معناه للتابع ضعف وللمتبوع ضعف لأنهم قد دخلوا في الكفر جميعاً ﴿ولكن لا تعلمون﴾ يعني ما أعد الله لكل فريق من العذاب وقرىء بالياء ومعناه ولكن لا يعلم كل فريق ما أعد الله تعالى من العذاب للفريق الآخر ﴿وقالت أولاهم﴾ يعني في الكفر وهم القادة ﴿لأخراهم﴾ يعني الأتباع ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ يعني قد ضللتم كما ضللنا وكفرتم كما كفرنا وقيل في معنى الآية وقالت كل أمة سلفت في الدنيا لأخراها الذين جاؤوا من بعدهم فسلكوا سبيل من مضى قبلهم فما كان لكم علينا من فضل وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله بسبب كفرنا ومعصيتنا إياه وجاءتكم بذلك الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم ﴿فذوقوا العذاب﴾ وهذا يحتمل أن يكون من قول القادة للاتباع والأمة الأولى للأخرى التي بعدها ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى يعني يقول الله للجميع فذوقوا العذاب ﴿بما كنتم تكسبون﴾ يعني بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والأعمال الخبيثة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى

ويلعن الأتباع القادة، ولم يقل أخاها لأنه عني الأمة والجماعة، ﴿ حتى إذا ادَّاركوا فيها ﴾، أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿ جميعاً قالتْ أخْراهم ﴾، قال مقاتل: يعني أخراهم دخولاً النار وهم الأتباع، ﴿ لأُولاَهم ﴾، أي: لأُولاهم دخولاً وهم القادة، لأن القادة يدخلون النار أوَّلاً. وقال ابن عباس: يعني آخر كل أمة لأُولاها. وقال السدي: أهل الزمان لأُولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين، ﴿ ربَّنا هؤلاء ﴾، الذين، ﴿ أَضلُّونا ﴾ عن الهدى يعني القادة ﴿ فآتِهِمْ عذاباً ضِعْفا مِّنَ النّار ﴾، أي: ضعِّف عليهم العذاب، ﴿ قال ﴾، الله تعالى، ﴿ لكلٍّ ضِعْفٌ ﴾، يعني للقادة والأتباع ضعف من العذاب، ﴿ ولكنْ لا تعلمون ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب. وقرأ أبو بكر «لا يعلمـون» بالياء، أي: لا يعلم الأتباع ما للقادة ولا القادة ما للأتباع.

﴿ وقالتْ أولاَهُمْ ﴾، يعني القادة، ﴿ لأُخراهم ﴾، يعني القادة، ﴿ لأُخراهم ﴾، للأتباع، ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾، لأنكم كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم في الكفر سواء وفي العذاب سواء، ﴿ فَذُوقُوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾.

سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني كذبوا بدلائل التوحيد فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا ﴿واستكبروا عنها﴾ أي وتكبروا عن الإيمان بها والتصديق لها وأنفوا عن اتباعها والانقياد لها والعمل بمقتضاها تكبراً ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ يعني لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم ولا يصعد لهم إلى الله عز وجل في وقت حياتهم قول ولا عمل لأن أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلها خبيثة وإنما يصعد إلى الله تعالى الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تفتح أبواب السماء لأرواح الكفار وتفتح لأرواح المؤمنين. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: لا يصعد لهم قول ولا عمل، وقال ابن جريج: لا تفتح أبواب السماء لأعمالهم ولا لأرواحهم. وروى الطبري بسنده عن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة قال فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ «لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط» وقيل في معنى الآية: لا تنزل عليهم البركة والخير لأن ذلك لا ينزل إلا من السماء فإذا لم تفتح لهم أبواب السماء فلا ينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شيء.

وقوله تعالى: ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ والولوج الدخول والجمل معروف وهو الذكر من الإبل وسم الخياط ثقب الإبرة قال الفراء: الخياط والمخيط ما يخاط به والمراد به الإبرة في هذه الآية وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبر من سائر الحيوانات جسماً عند العرب قال الشاعر:

جسم الجِمال وأحلام العصافير

وصف من هجاه بهذا بعظم الجسم مع صغر العقل فجسم الجمل من أعظم الأجسام وثقب الإبرة من أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الإبرة الضيق محالاً فكذلك دخول الكفار الجنة محال ولما وصف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان وقوع هذا الشرط محالاً ثبت أن الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة مأيوس منه قطعاً. وقال بعض أهل المعاني: لما علق الله تعالى دخولهم الجنة

﴿ إنّ الذينَ كذَّبُوا بآياتِنا واستكبَرُوا عنها لا تُفتّح ﴾، بالتاء، خفّف أبو عمرو، وبالياء، خفّف حمزة والكسائي، والباقون بالتاء والتشديد، ﴿ لهم أبوابُ السّماءِ ﴾ لأدعيتهم ولا لأعمالهم. وقال ابن عباس: لأرواحهم لأنها خبيثة لا يُصعد بها بل يُهوى بها إلى سجين، إنما تفتّح أبواب السماء لأرواح المؤمنين وأدعيتهم وأعمالهم، ﴿ ولا يدخلُون الجنّة حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط ﴾، أي: حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، والخياط والمخيط واحد، وهو الإبرة والمراد منه أنهم لا يدخلون الجنة أبداً لأن الشيء إذا عُلّق بما يستحيل كونه دلّ ذلك على تأكيد المنع، كما يقال: لا أفعل ذلك حتى يشيب الغراب أو يبيض القار. يريد لا أفعله أبداً. ﴿ وكذلكَ نَجْزِي المجرمين ﴾.

بولوج الجمل في سم الخياط وهو خرق الإبرة كان ذلك نفياً لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك لأن العرب إذا علقت ما يجوز كونه بما لا يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك: لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض القار ومنه قول الشاعر:

إذا شـــاب الغـــراب أتيـــت أهلـــي وصـــار القـــار كـــاللبـــن الحليـــب

قوله تعالى: ﴿**وكذلك نجزي المجرمين**﴾ أي ومثل الذي وصفنا نجزي المجرمين يعني: الكافرين لأنه تقدم من صفتهم أنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على أنهم الكفار ولما بين الله عز وجل أن الكفار لا يدخلون الجنة أبداً بين أنهم من أهل النار ووصف ما أعد لهم فيها فقال تعالى: ﴿**لهم من جهنم مهاد**﴾ يعني لهم من نار جهنم فراش وأصل المهاد التمهد الذي يقعد عليه ويضطجع عليه كالفراش والبساط ﴿**ومن فوقهم غواش**﴾ جمع غاشية وهي الغطاء كاللحاف ونحوه ومعنى الآية أن النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم، قال محمد بن كعب القرظي والضحاك والسدي: المهاد الفراش والغواشي اللحف ﴿**وكذلك نجزي الظالمين**﴾ يعني وكذلك نكافىء ونجازي المشركين الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

قوله عز وجل: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها**﴾ لما ذكر الله تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم في الآخرة فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات يعني والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحي الله إليه وتنزيله عليه من شرائع دينه وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه في ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه لا نكلف نفساً إلا وسعها يعني لا نكلف نفساً إلا ما يسعها من الأعمال وما يسهل عليها ويدخل في طوقها وقدرتها وما لا حرج فيه عليها ولا ضيق. قال الزجاج: الوسع ما يُقدر عليه، وقال مجاهد: معناه إلا ما افترض عليها يعني الذي افترض عليها من وسعها الذي تقدر عليه ولا تعجز عنه وقد غلط من قال إن الوسع بذل المجهود قال أكثر أصحاب المعاني إن قوله تعالى لا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿**أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾ لا نكلف نفساً إلا وسعها وإنما يحسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر لأنه جنس هذا الكلام لأنه تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها ومحلها يُتوصل

﴿ **لهمْ مِّن جهنّم مِهادٌ** ﴾، أي: فراش، ﴿ **ومِن فوقهم غَواشٍ** ﴾، أي: لُحف. وهي جمع غاشية، يعني ما غشّاهم وغطّاهم، يريد إحاطة النار بهم من كل جانب، كما قال الله: ﴿ **لهمْ مِّن فوقهمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ ومن تحتهمُ ظلل** ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿ **وكذلك نجزي الظّالمين** ﴾.

﴿ **والذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات لا نُكلِّفُ نَفساً إلاّ وُسْعَهَا** ﴾، أي: طاقتها وما لا تحرَّجَ فيه ولا تضيّق عليه، ﴿ **أولئكَ أصحابُ الجنّةِ همْ فيها خالدُون** ﴾.

﴿ **ونزعنا** ﴾، أخرجنا، ﴿ **ما في صدورهِمْ مِّن غِلٍّ** ﴾، من غش وعداوة كانت بينهم في الدنيا فجعلناهم إخواناً على سُرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضاً على شيء خصّ الله به بعضهم. ﴿ **تجري من تحتهم الأنهار** ﴾، روى الحسن عن علي رضي الله عنه قال: فينا والله أهل بدر نزلتْ: ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ [الحجر: ٤٧]، وقال علي رضي الله عنه أيضاً: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال لهم الله عزّ وجلّ: ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ** ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا الصلت بن محمد حدّثنا يزيد بن زريع

إليها بالعمل الصالح السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة. وقال قوم من أصحاب المعاني هو من تمام الخبر موضعه رفع والعائد محذوف كأنه قال لا نكلف نفساً منهم إلا وسعها فحذف العائد للعلم به.

قوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ يعني وقلعنا وأخرجنا ما في صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا ومعنى الآية أزلنا تلك الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في الدنيا فجعلناهم إخواناً على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضاً على شيء خص الله به بعضهم دون بعض ومعنى نزع الغل تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ودفعها عن أن ترد على القلب روي عن علي رضي الله عنه قال: فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ وروي عنه أيضاً أنه قال إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وقيل إن الحسد والغل يزول بدخولهم الجنة (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا» وقال السدي في هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبداً. وقيل إن درجات أهل الجنة متفاوتة في العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض وأخرج الله عز وجل الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب العالية، وأورد على هذا القول كيف يعقل أن الإنسان يرى الدرجات العالية والنعم العظيمة وهو محبوس عنها لا يصل إليها ولا يميل بطبعه إليها ولا يغتم بسبب حرمانه منها وإن كان في لذة ونعيم وأجيب عن هذا بأن الله تعالى قد وعد بإزالة الحقد والحسد من قلوب أهل الجنة حتى تكمل لهم اللذة والسرور حتى إن أحدهم لا يرى نفسه إلا في كمال وزيادة في النعيم الذي هو فيه فيرضى بما هو فيه ولا يحسد أحداً أبداً وبهذا تم نعيمه ولذته وكمل سروره وبهجته.

وقوله تعالى: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ لما أخبر الله تعالى بما أنعم به على أهل الجنة من إزالة الغل والحسد والحقد من صدورهم أخبرنا بما أنعم به عليهم من اللذات والخيرات والمسرات ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ يعني أن المؤمنين إذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذي وفقنا وأرشدنا للعمل الذي هذا ثوابه وتفضل علينا رحمة منه وإحساناً وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ يعني وما كنا لنرشد لذلك العمل الذي هذا ثوابه لولا أنه أرشدنا الله إليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه وفي الآية دليل على أن المهتدي من هداه الله ومن لم يهده الله فليس بمهتد ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ يعني أن أهل النعيم إذا دخلوها ورأوا ما أعد

حدّثنا سعيد عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا أذِنَ لهم في دخول الجنة، فوَالذي نفسُ محمدٍ بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا». وقال السدي في هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غِلّ، فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبداً، أي إلى هذا، يعني طريق الجنة. وقال سفيان الثّوري: معناه هدانا لعملٍ هذا ثوابه، ﴿ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا ﴾، قرأ ابن عامر: (ما كنّا) بلا واو، ﴿ لِنَهْتَدِي لولا أنْ هدانا اللّهُ لقدْ جاءتْ رُسلُ ربِّنا بالحقّ ﴾، هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما

الله لهم فيها من النعيم قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق يعني أنهم رأوا ما وعدهم به الرسل عياناً ﴿ونودوا أن تلكم الجنة﴾ يعني: ونادى منادي أهل الجنة إن هذه الجنة التي كانت الرسل وعدتكم بها في الدنيا واختلفوا في المنادى فقيل هو الله عز وجل وقيل الملائكة ينادون بأمر الله عز وجل وقيل هذا النداء يكون في الجنة (م). عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون».

وقوله تعالى: ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» زاد في رواية فذلك قوله تعالى: ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قال بعضهم لما سمى الله الكافر ميتاً بقوله أموات غير أحياء وسمى المؤمن حياً بقوله: لينذر من كان حياً وفي الشرع أن الأحياء يرثون الأموات فقال أورثتموها يعني أن المؤمن حي وهو يرث الكافر منزله من الجنة لأنه في حكم الميت. وقيل معناه أن أمرهم يؤول إلى الجنة كما أن الميراث يؤول إلى الوارث، وقيل: أورثتموها عن الأعمال الصالحة التي عملتموها لأن الجنة جعلت لهم جزاء وثواباً على الأعمال ويعارض هذا القول ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال «لن يدخل الجنة أحد بعمله وإنما يدخلها برحمة الله» فإن دخول الجنة برحمة الله وانقسام المنازل والدرجات بالأعمال. وقيل إن العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه إلا برحمة الله تعالى وتوفيقه وإذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة في الحقيقة برحمة الله تعالى وجعلها الله ثواباً وجزاء لهم على تلك الأعمال الصالحة التي عملوها في دار الدنيا والله أعلم.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ يعني ونادى أهل الجنة أهل النار وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار تقول أهل الجنة يا أهل النار ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ يعني ما وعدنا في الدنيا على ألسنة رسله من الثواب على الإيمان به وبرسله وطاعته حقاً ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً﴾

وعدهم الرسل عياناً، ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّةُ أورِثْتُمُوها بما كُنْتُمْ تعملون ﴾، قيل: هذا النداء إذا رأوا الجنة من بعيد نُودُوا أنْ تلكم الجنة، وقيل: هذا النداء يكون في الجنة، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الخطيب أنبأنا أبو طاهر محمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمد أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال حدّثنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبي إسحق عن الأغر عن أبي سعيد وعن أبي هريرة قالا: ينادي منادٍ: إنّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقمُوا أبداً، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإنّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرمُوا أبداً، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبداً، فذلك قوله: ﴿ وَنُودُوا أَن تلكمُ الجنّةَ، أورثْتموهَا بما كنتم تعملون ﴾، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج عن إسحق بن إبراهيم وعبد الرحمن بن حميد عن عبد الرزاق عن سفيان الثّوري بهذا الإسناد مرفوعاً، ورُوِي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن أحدٍ إلاّ وله منزلةٌ في الجنة ومنزلة في النار، فأمّا الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر ومنزله من الجنة».

قوله تعالى: ﴿ ونادى أصحابُ الجنّةِ أصحابَ النارِ أنْ وَجَدْنا ما وعدنا ربُّنا ﴾، من الثواب، ﴿ حقاً ﴾، أي

يعني من العذاب على الكفر ﴿قالوا نعم﴾ يعني قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقاً.

فإن قلت: هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض؟

قلت: ظاهر قوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار يفيد العموم والجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا.

فإن قلت: إذا كانت الجنة في السماء والنار في الأرض فكيف يمكن أن يبلغ هذا النداء أو كيف يصح أن يقع.

قلت: إن الله تعالى قادر على أن يقوي الأصوات والأسماء فيصير البعيد كالقريب.

وقوله تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ يعني نادى مناد وأعلم لأن أصل الأذان في اللغة الإعلام. والمعنى نادى مناد أسمع الفريقين وهذا المنادي من الملائكة وقيل إنه إسرافيل صاحب الصور ذكره للواحدي ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ يعني يقول المؤذن إن لعنة الله على الظالمين ثم فسر الظالمين من هم فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ۝٤٦﴾

﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ يعني الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿ويبغونها عوجاً﴾ يعني ويحاولون أن يغيروا دين الله وطريقته التي شرع لعباده ويبدلونها. وقيل معناه أنهم يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله وذلك أنهم طلبوا سبيل الله بالصلاة لغير الله وتعظيم ما لم يعظمه الله فأخطؤوا الطريق وضلوا عن السبيل ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ يعني وهم بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها.

قوله عز وجل: ﴿وبينهما حجاب﴾ يعني بين الجنة والنار وقيل بين أهل الجنة وأهل النار حجاب وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ قال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار. وقال السدي وبينها حجاب هو السور وهو الأعراف وقوله: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ الأعراف: جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض ومنه قيل عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد سمي بذلك لأنه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض، وقال السدي: إنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس. وقال ابن

صدقاً، ﴿ فهلْ وجدتُم ما وَعَدَ ربُّكم ﴾، من العذاب، ﴿ حقاً قالوا نعم ﴾، قرأ الكسائي بكسر العين حيث كان، والباقون بفتحها وهما لغتان، ﴿ فأذَّن مؤذِّنٌ بينهم ﴾، أي: نادى منادٍ أسمع الفريقين، ﴿ أنْ لعنَةُ اللَّهِ على الظالمين ﴾، قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم: «أن» خفيف، «لعنة»، رفع، وقرأ الآخرون بالتشديد، «لعنــةَ الله» نصب على الظالمين، أي: الكافرين.

﴿ الذين يصدّون ﴾، أي: يصرفون الناس، ﴿ عن سبيل الله ﴾، طاعة الله، ﴿ ويبغُونها عِوَجاً ﴾، أي: يطلبونها زيغاً وميلاً، أي: يبطلون سبيل الله جائرين. قال ابن عباس: يصلّون لغير الله، يعظون ما لم يعظمه الله. والعِوَج بكسر العين في الدِّين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائماً، وبالفتح في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح ونحوهما. ﴿ وهمْ بالآخِرةِ كافرُون ﴾.

﴿ وبينهما حِجَابٌ ﴾، يعني: بين الجنة والنار. وقيل: بين أهل النار حجاب، وهو السور الذي ذكر الله في قوله: ﴿ فضُرب بينهم بسُورٍ له باب ﴾ [الحديد: ١٣]، قوله تعالى: ﴿ وعلى الأعراف رجالٌ ﴾، هي ذلك السور

عباس رضي الله عنهما: الأعراف الشيء المشرف وعنه قال الأعراف سور كعرف الديك وعنه أن الأعراف جبل بين الجنة والنار. يحبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار واختلف العلماء في صفة الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك فروي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله تعالى فيهم، قال بعضهم: إنما جعلوا على الأعراف لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار فهم لا من أهل الجنة ولا من أهل النار لكن الله تعالى يدخلهم الجنة بفضله ورحمته لأنه ليس في الآخرة دار إلا الجنة أو النار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة من كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار وإن الميزان يخف ويثقل بمثال حبة من خردل ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الأعراف فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ فكان الطمع دخولاً قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إذا عمل العبد حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب له إلا واحدة ثم قال هلك من غلب آحاده عشراته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأعراف سور بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئآتهم فهم بذلك المكان حتى إذا أراد الله تعالى أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ما شئتم فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً فيدخلون الجنة ذكره ابن جرير في تفسيره. وقال شرحبيل بن سعد: أصحاب الأعراف قوم خرجوا في الغزو من غير إذن آبائهم. ورواه الطبري بسنده إلى يحيى بن غيل مولى لبني هاشم عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال «هم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة» زاد في رواية «فهُم آخر من يدخل الجنة» وذكر ابن الجوزي: إنهم قوم رضي آباؤهم دون أمهاتهم وأمهاتهم دون آبائهم. ورواه عن إبراهيم وذكر عن أبي صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنهم أولاد الزنا، وقيل: إنهم الذين ماتوا في الفترة وفيه بعد لأن آخر أمر أصحاب الأعراف إلى الجنة وهؤلاء الذين ماتوا في الفترة والله أعلم بحالهم وهو يتولى أمرهم وقيل إنهم أولاد المشركين الذين ماتوا أطفالاً وهذا القول يرجع معناه إلى القول الذي قبله لأنه داخل في حكمه فهذه الأقوال تدل على أن أصحاب الأعراف دون أهل الجنة في الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى. وقال مجاهد:

الذي بين الجنة والنار، وهي جمع عرف وهو اسم للمكان المرتفع، ومنه عُرْف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده. وقال السدي: سُمّي ذلك السور أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس. واختلفوا في الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف، فقال حذيفة وابن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ثم يُدخلهم الجنة بفضل رحمته، وهم آخر مَن يدخل الجنة. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث ثنا محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود ثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير يُحدّث عن ابن مسعود قال: يُحاسب الناس يوم القيامة فمَن كانت حسناتُه أكثرَ من سيئاته بواحدة دخل الجنّةَ، ومَن كانت سيئاتُه أكثرَ من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قوله: ﴿ فمَن ثَقُلَتْ موازينُه فأولئك همُ المفلحُون ومَن خفّتْ موازينُه فأولئك الذين خسرُوا أنفسَهم ﴾ [الأعراف: ٨ و٩،

أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول إنما يكون لبثهم على الأعراف على سبيل النزهة أو ليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وقيل إنهم أنبياء حكاه ابن الأنباري وإنما أجلسهم الله على ذلك المكان العالي تمييزاً لهم على سائر أهل القيامة وإظهاراً لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار. وقال أبو مجلز: أصحاب الأعراف ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم يعني يعرفون أهل الجنة وأهل النار، فقيل لأبي مجلز: إن الله تعالى يقول وعلى الأعراف رجال وأنت تقول إنهم ملائكة فقال إن الملائكة ذكور ليسوا بإناث وضعَّف الطبري قول أبي مجلز قال: لأن لفظ الرجال في لسان العرب لا يطلق إلا على الذكور من بني آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق وحاصل هذه الأقوال أن أصحاب الأعراف أفضل من أهل الجنة لأنهم أعلى منهم منزلة وأفضل. وقيل: إنما أجلسهم الله في ذلك المكان العالي ليميزوا بين أهل الجنة وبين أهل النار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

قوله عز وجل: ﴿يعرفون كلًّا بسيماهم﴾ يعني: أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم وذلك ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم ويعرفون أهل النار بسيماهم وذلك بسواد وجوههم وزرقة عيونهم والسيما العلامة الدالة على الشيء وأصله من السمة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أصحاب الأعراف إذا رأوا أصحاب الجنة عرفوا ببياض الوجوه وإذا رأوا أصحاب النار عرفوهم بسواد الوجوه.

فإن قلنا إن أصحاب الأعراف من استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم دون أهل الجنة في الدرجة كان وقوفهم على الأعراف ليكونوا درجة متوسطة بين الجنة والنار فإذا رأوا أهل الجنة وعرفوهم ببياض وجوههم نادوهم أن سلام عليكم وهو قوله تعالى ﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم﴾ يعني: نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم يعني سلمتم من الآفات وحصل لكم الأمن والسلامة وإذا رأوا أهل النار يعرفونهم بسواد وجوههم «قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين» وإن قلنا: إن أصحاب الأعراف هم الأشراف والأفاضل من أهل الجنة كان جلوسهم على الأعراف ليطلعوا على أهل الجنة وأهل النار ثم لينقلهم الله عز وجل إلى الدرجات العلية في الجنة.

المؤمنون: ١٠٢ و١٠٣]، ثم قال: إن الميزان يخفّ بمثقال حبة أو يرجح، قال: مَن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادَوا سلامٌ عليكم، وإذا صرفوا أبصارَهم إلى أصحاب النار قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فأمّا أصحاب الحسنات فإنهم يُعطون نوراً يمشُون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويُعطي كلٌّ يومئذ نوراً فإذا أتوا على الصراط سَلَبَ اللّهُ نورَ كلِّ منافق ومنافقة، فلمّا رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ربَّنا أتْمِمْ لَنا نورَنا، فأمّا أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من بين أيديهم، ومنعتهم سيئاتهم أن يمضوا فبقي في قلوبهم الطمع إذْ لم يُنزع النورُ من بين أيديهم، فهنالك يقول الله: ﴿ لَمْ يدخلُوها وهمْ يَطْمَعُون ﴾، وكان الطمع للنّور الذي بين أيديهم، ثم أُدخلوا الجنّة، وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً، وقال شرحبيل بن سعد: أصحاب الأعراف قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم. ورواه مقاتل في تفسيره مرفوعاً: هم رجالٌ غزوا في سبيل الله عصاة لآبائهم فقُتِلُوا. فأُعْتِقُوا من النار بقتلهم في سبيل الله وحُبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم، فهم آخر مَن يدخل الجنة. ورُوِيَ عن مجاهد: أنهم أقوام رضي الله عنهم أحد الأبوين دون الآخر، يُحبسون على الأعراف إلى أن يقضي الله بين الخلق، ثم يدخلون الجنة. وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني: هم الذين ماتوا في الفترة ولم يُبدلوا دينهم. وقيل: هم أطفال المشركين. وقال الحسن: هم أهل الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف فيطّلعُون على أهل الجنة وأهل النار جميعاً ويطالعون أحوال الفريقين. قوله تعالى: ﴿يعرفُون كُلًّا بسيماهم﴾، أي: يعرفون أهل الجنّة ببياض وجوههم وأهل النّار بسواد وجوههم. ﴿ ونادَوْا أصحابَ

وقوله تعالى: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ يعني في دخول الجنة. قال الحسن: ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم.

۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ يعني وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار يعني وجاههم وحيالهم فنظروا إليهم وإلى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ يعني الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا لأهل النار وعرفوهم قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين والمعنى أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وما هم فيه من العذاب تضرعوا إلى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم.

قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً﴾ يعني ونادى أصحاب الأعراف رجالاً كانوا عظماء في الدنيا وهم من أهل النار ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾ يعني سيما أهل النار ﴿قالوا﴾ يعني أصحاب الأعراف لهؤلاء الذين عرفوهم في النار ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ يعني ما كنتم تجمعون من الأموال والعدد في الدنيا ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ يعني وما أغنى عنكم تكبركم عن الإيمان شيئاً. قال الكلبي: ينادونهم وهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار ﴿أهؤلاء﴾ لفظ استفهام يعني أهؤلاء الضعفاء ﴿الذين أقسمتم﴾ بالله ﴿لا ينالهم الله برحمة﴾ يعني أنكم حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة وقد دخلوا الجنة ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف ﴿ادخلوا الجنة﴾ بفضلي ورحمتي ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ وقيل إن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأصحاب النار ما أخبر الله عنهم قال لهم أهل النار إن أولئك دخلوا الجنة وأنتم لم تدخلوها

الجنةِ أنْ سلامٌ عليكم ﴾، أي: إذا رأوا أهل الجنة قالوا سلام عليكم، ﴿ لم يدخلوها ﴾، يعني: أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة، ﴿ وهم يَطْمَعُون ﴾، في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلّا كرامة يريدهم بهم. قال الحسن: الذي جعل الطمعَ في قلوبهم يُوصلهم إلى ما يطمعون.

﴿ وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تلقاءَ أصحابِ النار ﴾، تعوّذوا بالله، ﴿ قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظّالمين ﴾، يعني: الكافرين في النار.

﴿ ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالاً ﴾، كانوا عظماء في الدنيا من أهل النار، ﴿ يعرفُونَهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعُكم ﴾، في الدنيا من المال والولد، ﴿ ومَا كُنْتُمْ تستكبرُون ﴾، عن الإيمان. قال الكلبي: ينادون وهم على السور يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل بن هشام ويا فلان، ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممّن كانوا يستهزؤون بهم، مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفّار.

﴿ أهؤلاء ﴾، يعني: هؤلاء الضعفاء، ﴿ الذين أقسمتم ﴾، حلفتم، ﴿ لا ينالُهُمُ اللّهُ برحمةٍ ﴾، أي: حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة. ثم يقال لأهل الأعراف، ﴿ ادْخُلُوا الجنّةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنُون ﴾، وفيه قول

فيعيرونهم بذلك ويقسمون إنهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة لأهل النار أهؤلاء يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. قوله عز وجل:

وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿**ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج فقالوا: يا ربنا إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم فينظرون إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر أهل الجنة إلى قرابتهم من أهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم فينادون أي أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم فينادي الرجل أباه وأخاه فيقول قد احترقت أفضْ عليّ من الماء فيقال لهم: أجيبوهم فيقولون إن الله حرمهما على الكافرين. ومعنى الآية أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة إذا استقروا فيها وذلك عند نزول البلاء بأهل النار وما يلقون من شدة العطش والجوع عقوبة لهم من الله على ما سلف منهم في الدنيا من الكفر والمعاصي. يقول أهل النار لأهل الجنة يا أهل الجنة أفيضوا علينا من الماء يعني صبوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله يعني أو أطعمونا مما رزقكم الله ووسعوا علينا من طعام الجنة فيجيبهم أهل الجنة بقولهم ﴿**إن الله حرمهما على الكافرين**﴾ وهذا الجواب يفيد الحرمان، وقال بعضهم: لما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب عذبهم الله في الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه في الدنيا في طلب الأكل والشرب فأجيبوا بأن الله حرمهما على الكافرين يعني طعام الجنة وشرابها ثم وصف الكافرين فقال تعالى: ﴿**الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً**﴾ يعني أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه. وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. ويقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا أي اشتغلت عنه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المستهزؤون وذلك أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزؤوا به استهزاء بالله عز وجل، وقيل: هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر

آخر: أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار ما قالوا قال لهم أهل النار إن دخل أولئك الجنة فأنتم لم تدخلوها فيعيّرونَهم بذلك ويُقسمون أنهم يدخلون النار، فتقول الملائكةُ الذين حَبَسُوا أصحابَ الأعراف على الصراط لأهل النار: أهؤلاء يعني أصحاب الأعراف الذين أقسمتم يا أهل النار أنه لا ينالهم الله برحمة، ثم قالت الملائكة لأصحاب الأعراف: ﴿ **ادْخلُوا الجنةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾، فيدخلون الجنة.

قوله تعالى: ﴿ **ونادَى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنّةِ أنْ أفِيضُوا** ﴾، أي: صُبّوا، ﴿ **علينا من الماء أو ممّا رزَقَكُمُ الله** ﴾، أي: أوسعوا علينا مما رزقكم الله من طعام الجنة. قال عطاء عن ابن عباس: لمّا صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج، وقالوا: يا رب إنّ لنا قَرابات من أهل الجنة، فأذنْ لنا حتى نراهم

الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية. وقيل: معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهواً ولعباً لا يذكرون الله فيه ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ يعني وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسله وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية على ذلك. والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الإنسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فإذا حصل ذلك صار محجوباً عن الدين وطلبِ الخلاص لأنه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال ﴿فاليوم﴾ يوم القيامة ﴿ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ يعني فاليوم نتركهم في العذاب المهين جياعاً عطاشاً كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا. وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر. وقيل معناه نعاملهم معاملة من نسي فنتركهم في النار كما تركوا العمل وأعرضوا عن الإيمان إعراض الناسي. سمى الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لأن الله تعالى لا ينسى شيئاً فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فيكون المراد من هذا النسيان أن الله تعالى لا يجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وزلتهم بل يتركهم في النار كما تركوا الإيمان والعمل ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ يعني ونتركهم في النار كما كانوا بدلائل وحدانيتنا يكذبون.

قوله تعالى: ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾ يعني ولقد جئنا هؤلاء الكفار بالقرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد ﴿فصلناه على علم﴾ أي بيناه على علم منا بما نفصله ونبينه ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي جعلنا القرآن هادياً وذا رحمة لقوم يؤمنون ﴿هل ينظرون﴾ يعني هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها ﴿إلا تأويله﴾ يعني هل ينظرون ويتوقعون إلا ما وعدوا به على ألسنة الرسل من العذاب وأن مصيرهم إلى النار والتأويل ما يؤول إليه الشيء ﴿يوم يأتي تأويله﴾ يعني يوم القيامة لأنه يوم الجزاء وما تؤول إليه أمورهم ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ يعني: يقول الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به يوم القيامة عند معاينة العذاب ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أقروا على أنفسهم واعترفوا حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف والإقرار. والمعنى أن الكفَّار أقروا بأن الذي جاءت به الرسل من الإيمان والتصديق والحشر والنشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب حق وصدق وإنما أقروا بهذه الأشياء لأنهم شاهدوها معاينة وذلك حين لا ينفعهم ولما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ يعني أنه ليس لنا طريق إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب إلا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا فيقبل شفاعته فينا فيخلصنا من هذا العذاب أو نرد إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالتوحيد والإيمان والمعاصي بالطاعة والإنابة ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ يعني أن الذي طلبوه لا يحصل لهم فتبين خسرانهم

ونكلمهم، فينظروا إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم ولم يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم فينادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة بأسمائهم، وأخبروهم بقراباتهم أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله، ﴿ قالوا إنّ اللّهَ حرّمهمَا على الكافرين ﴾، يعني: الماء والطعام، ﴿ الذين اتّخذُوا دينَهم لهواً ولعباً ﴾ وهو ما زيّن لهم الشيطان من تحريم البَحيرة وأخواتها والمُكاء والتصدية حول البيت، وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية. وقيل: دينهم أي عيدهم، ﴿ وغرّتْهُمُ الحياةُ الدنيا فاليوم نَنْسَاهُم ﴾، نتركهم في النار، ﴿ كما نَسُوا لقاءَ يومهم هذا ﴾، أي: كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ﴿ وما كانُوا بآياتِنا يجحدُون ﴾.

﴿ ولقدْ جِئْناهم بكتابٍ ﴾، يعني القرآن ﴿ فصّلناه ﴾، بينّاه، ﴿ على علمٍ ﴾ منّا لِما يصلحهم، ﴿ هدىً ورحمةً ﴾، أي: جعلنا القرآن هادياً وذا رحمة، ﴿ لقومٍ يُؤمنُون ﴾.

﴿ هلْ ينظرون ﴾، أي: هل ينتظرون، ﴿ إلاّ تأويلَه ﴾، قال مجاهد: جزاءه. وقال السدي: عاقبته.

وإهلاكهم أنفسهم لأنهم كانوا في الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو رُدوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله تعالى فيهم ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ يعني وبطل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون في الدنيا من أن الأصنام تشفع لهم فلما أفضوا إلى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعملوا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إن ربكم الله﴾ يعني إن سيدكم ومالككم ومصلح أموركم وموصل الخيرات إليكم والذي يدفع عنكم المكاره وهو الله ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ أصل الخلق في اللغة التقدير ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم. فقوله: خلق السموات والأرض يعني أبدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق وقدر أحوالهما ﴿في ستة أيام﴾ فإن قلت: اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار هو من طلوع الشمس إلى غروبها فكيف قال في ستة أيام ولم يكن شمس ولا سماء قلت معناه في مقدار ستة أيام فهو كقوله ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ يعني على مقادير البكر والعشي في الدنيا لأن الجنة لا ليل فيها ولا نهار. واختلف العلماء في اليوم الذي ابتدأ الله عز وجل بخلق الأشياء فيه فقيل في يوم السبت وهو قول محمد بن إسحاق وغيره، ويدل على صحة هذا القول ما روى مسلم في إفراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال «أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» وهذا الحديث وإن كان في صحيح مسلم ففيه مقال وقد أنكره بعض العلماء لما فيه من المخالفة للآية الكريمة لأن الله تعالى يقول: خلق السموات والأرض في ستة أيام. وقال في آخر آية أخرى: ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام فدل بهذين النصين على أن جميع الخلق تم وعمل في ستة أيام والذي في الحديث أن بعض الخلق وقع في سبعة أيام وذلك مجموع أيام الأسبوع فلهذا السبب أنكره وأنكره من العلماء وقد ذكر الأزهري في كتابه تهذيب اللغة ما يقوي الحديث فقال: وقال ابن الأنباري السبت القطع وسمي يوم السبت لأن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والأرض وقيل: إن ابتداء الخلق كان يوم الأحد وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري، قال الطبري: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام وذلك يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وروي بسنده عن مجاهد قال: بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الأرض من الماء وبدأ الخلق يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وجمع الخلق في يوم الجمعة وتهودت اليهود في يوم السبت ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون ويعضد هذا

ومعناه: هل ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من العذاب ومصيرهم إلى النار. ﴿ يومَ يأتي تأويلهُ ﴾، أي: جزاؤه وما يؤول إليه أمرهم، ﴿ يقولُ الذينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قدْ جاءتْ رسلُ ربِّنا بالحقّ ﴾، اعترفوا به حين لا ينفعهم الاعتراف، ﴿ فهلْ لنا ﴾، اليوم، ﴿ من شُفعاءَ فيشفعُوا لَنا أو نُرَدُّ ﴾، إلى الدنيا، ﴿ فَنَعْمَلَ غيرَ الذي كنّا نعملُ قدْ خسِرُوا أنفسَهم ﴾، أهلكوها بالعذاب، ﴿ وضلَّ ﴾، وبطل، ﴿ عنهمْ ما كانوا يَفْتَرُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنّ ربَّكُمُ اللّهُ الذي خلقَ السمٰواتِ والأرضَ في ستة أيّامٍ ﴾، أراد به في مِقْدارِ سِتَّةِ أيام لأن اليوم من لَدن طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء، وقيل: ستة أيام كأيام الآخرة

القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال: وسمي سابع الأسبوع سبتاً لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق. قال أصحاب الأخبار والسير والتواريخ: إن الله تعالى خلق التربة التي هي الأرض بلا دحو ولا بسط في يوم الأحد والاثنين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما الثلاثاء والأربعاء ثم دحا الأرض وبسطها وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقبل خلق الله عز وجل التربة يوم الأحد ثم استوى إلى السماء فخلقها وجميع ما فيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الأرض ودحاها يوم الأربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة. وقيل: أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق إلى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولاً ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا.

فإن قلت إن الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى: «وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر» فما الفائدة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وما الحكمة في ذلك؟

قلت: إن الله سبحانه وتعالى، وإن كان قادراً على خلق جميع الأشياء في لحظة واحدة، إلا أنه تعالى جعل لكل شيء حداً محدوداً ووقتاً معلوماً فلا يدخل في الوجود إلا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الأمور. وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادراً على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليماً لخلقه التثبت والتأني في الأمور كما في الحديث «التأني من الله والعجلة من الشيطان» وقيل إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم أن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الاتفاق فإذا أحدث شيئاً بعد شيء على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة. وقيل: إن الله تعالى أراد أن يوقع في كل يوم أمراً من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده. وقيل إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكمة فأراد الله تعالى إظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن فيكون.

وقوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ العرش في اللغة: السرير، وقيل: هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه. ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز. يقال فلان فل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه. قال الراغب في كتابه مفردات القرآن: وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب. وأما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتابه

وكل يوم كألف سنة. وقيل: كأيام الدنيا. قال سعيد بن جبير: كان الله عزّ وجلّ قادراً على خلق السمٰوات والأرض في لمحة ولحظة، فخلقهنّ في ستّة أيام تعليماً لخلقه التثبّت والتأنّي في الأمور. وقد جاء في الحديث: «التأنّي من الرحمن والعجلة من الشيطان». ﴿ ثم استوَى على العرش ﴾، قال الكلبي ومقاتل: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد. وأوّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء. فأما أهل السُّنّة يقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عزّ وجلّ. وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ الرحمن على

الأسماء والصفات برواية كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها، وقال: أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم في أمثال ذلك، وروى بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه فأخرج الرجل. وفي رواية يحيى بن يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه؟ فأطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا مبتدعاً فأمر به أن يخرج. روى البيهقي بسنده عن ابن عيينة قال: ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه. قال البيهقي: والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وإليه ذهب أحمد بن حنبل والحسن بن الفضل البجلي ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي. قال البغوي أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به إلى الله عز وجل وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل الذي سأله عن الاستواء وقد تقدم. وروى عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة اقرؤوها كما جاءت بلا كيف. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله بعد ذكره الدلائل العقلية والسمعية: أنه لا يمكن حمل قوله تعالى ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان الأول القطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله تعالى وهو الذي قررنا في تفسير قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ونعتمد عليه والمذهب الثاني: أنا نخوض في تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصان: الأول، ما ذكره القفال فقال العرش في كلامهم هر السرير الذي يجلس عليه الملك ثم جعل ثل العرش كناية عن نقض الملك يقال ثل عرشه انتقض ملكه وإذا استقام له ملكه واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه هذا ما قاله القفال والذي قاله القفال حق وصواب ثم قال الله تعالى دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم واستقر في قلوبهم تنبيهاً على عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفي التشبيه والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة. قال ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس ﴿ثم استوى على العرش يدبر﴾ فقوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله ثم استوى على العرش وأورد على هذا القول أن الله تعالى لم يكن مستوياً على الملك قبل خلق السموات والأرض والله تعالى منزه عن ذلك وأجيب عنه بأن الله تعالى كان قبل خلق السموات والأرض مالكها لكن لا يصح أن يقال شبع زيد إلا بعد أكله الطعام فإذا فسر العرش بالملك صح أن يقال إنه تعالى إنما استوى على ملكه بعد خلق السموات والأرض والقول الثاني: أن يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراقِ ... من غير سيف ودم مهراقِ

وعلى هذا القول إنما خص العرش بالإخبار عنه بالاستيلاء عليه لأنه أعظم المخلوقات ورد هذا القول بأن

العرش استوى﴾، كيف استوى؟ فأطرق رأسه ملياً وعلاه الرحضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلّا ضالاً، ثم أمر به فأُخرج. ورُوِيَ عن سفيان الثّوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السُّنّة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف. والعرش في اللغة: هو السرير. وقيل: هو ما علا

العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى وإنما يقال استولى فلان على كذا إذا لم يكن في ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكاً للأشياء كلها ومستولياً عليها، فأي تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات. ونقل البيهقي عن أبي الحسن الأشعري أن الله تعالى فعل في العرش فعلاً سماه استواء كما فعل في غيره فعلاً سماه رزقاً ونعمة وغيرهما من أفعاله ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى: ثم استوى على العرش. وثم للتراخي والتراخي إنما يكون في الأفعال وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة وحكى الأستاذ أبو بكر بن فورك عن بعض أصحابنا أنه قال: استوى بمعنى علا من العلو قال ولا يريد بذلك علواً بالمسافة والتحيز والكون في المكان متمكناً فيه ولكن يريد معنى نفي التحيز عنه وأنه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطر ووصف الله تعالى بذلك طريقة الخبر. ولا يتعدى ما ورد به الخبر قال البيهقي رحمه الله تعالى وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلمة ثم تعلقت بالمستوي عليه لا بالاستواء. قال وقد أشار أبو الحسن الأشعري إلى هذه الطريقة حكاية فقال بعض أصحابنا إنه صفة ذات قال وجوابي هو الأول وهو أن الله تعالى مستو على عرشه وأنه فوق الأشياء بائن منها بمعنى أن لا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علواً كبيراً وقد قال بعض أصحابنا: إن الاستواء صفة الله تعالى تنفي الاعوجاج عنه. وروي أن ابن الأعرابي جاءه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ما معنى قوله تعالى الرحمن على العرش استوى؟ قال: إنه مستو على عرشه كما أخبر فقال الرجل: إنما معنى قوله استوى أي استولى. فقال له ابن الأعرابي: ما يدريك أن العرب لا تقول استولى فلان على الشيء حتى يكون له فيه مضاد فأيهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر لا كما تظنه البشر والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿**يغشي الليل والنهار**﴾ يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار لدلالة الكلام عليه ﴿**يطلبه حثيثاً**﴾ يعني سريعاً، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه، حكى الإمام فخر الدين الرازي عن القفال أنه قال: إن الله تعالى لما أخبر عباده باستوائه على العرش أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدونه منها لينضم العيان إلى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات. قال الإمام: واعلم أنه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة فإن الإنسان إذا كان في أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها بتحرك الفلك الأعظم ثلاث آلاف ميل وهي ألف فرسخ فلهذا قال تعالى يطلبه حثيثاً لسرعة حركته ﴿**والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره**﴾ معنى التسخير التذليل وقال الزجاج وخلق هذه الأشياء جارية في مجاريها بأمره وقال المفسرون: يعني بتسخيرهن تذليلهن لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع إذ ليس هي قادرات بأنفسهن وإنما هن يتصرفن في متصرفاتهن على إرادة المدبر لهن الحكيم في تدبيرهن وتصريفهن على ما أراد منهن والمراد بالأمر في قوله بأمره نفاذ إرادته لأن الغرض من هذه الآية تبيين عظمة قدرته ومنهم من حمل الأمر على الأمر الذي هو الكلام وقال إنه تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم.

فإن قلت: إن الشمس والقمر من النجوم فلم أفردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم؟

فأظلّ، ومنه عرش الكروم. وقيل: العرشُ المُلْكُ. ﴿ **يُغْشِي اللَّيلَ النّهار** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب (يُغشّى) بالتشديد هاهنا وفي سورة الرعد، والباقون بالتخفيف، أي: يأتي الليل على النهار فيغطيه، وفيه حذف أي: ويغشي النهار الليل، ولم يذكره لدلالة الكلام عليه وذكر في آية أخرى فقال: ﴿ **يُكوِّرُ اللَّيلَ على النّهار ويُكوِّرُ النّهارَ على الليل** ﴾ [الزّمر: ٥]، ﴿ **يطلبُه حثيثاً** ﴾، أي: سريعاً، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهم الآخر ويخلفه، فكأنه يطلبه. ﴿ **والشّمسَ والقمرَ والنجومَ مسخّراتٍ** ﴾، قرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر، والباقون

قلت: إنما أفردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الإشراق والنور وسيرهما في المنازل لتعرف الأوقات فهو كقوله: من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فعطف جبريل وميكال على ذكر الملائكة وإن كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما من الملائكة وقوله تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ يعني: له الخلق لأنه خلقهم وله أن يأمر فيهم بما أراد وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الأمر هنا الذي هو نقيض النهي، واستخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال: إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر يعني أن من جعل الأمر الذي هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله. وقيل: معناه أن جميع ما في العالم لله عز وجل والخلق له لأنه خلقهم وجميع الأمور تجري بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشئها فلا يبقى بعد هذا لأحد شيء، وقيل: المراد بالأمر هنا الإرادة لأن الغرض من الآية تعظيم القدرة وفي الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ففيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم، فأخبر الله أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب وله الأمر المطلق وليس لأحد أمر غيره فهو الآمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه ﴿تبارك الله﴾ يعني تمجد وتعظم وارتفع، وقال الزجاج: تبارك تفاعل من البركة ومعنى البركة الكثرة من كل خير وقيل معناه تعالى وتعظم الله ﴿رب العالمين﴾ يعني أنه هو الذي يستحق التعظيم وذلك أن الله تعالى لما افتتح هذه الآية بقوله: ﴿أن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ وذكر أشياء من عظيم خلقه وأن له الخلق والأمر والنهي والقدرة عليهم ختم الآية بالثناء عليه لأنه هو المستحق للمدح المطلق والثناء والتعظيم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما. معناه جاء بكل بركة. وقيل: تبارك معناه تقدس والتقديس الطهارة. وقيل معناه باسمه يتبرك في كل شيء وقال المحققون: معنى هذه الصفة ثبت ودام كما لم يزل ولا يزال، وأصل البركة الثبوت ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لأنه لم يرد به التوقيف. قوله عز وجل:

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

﴿ادعوا ربكم﴾ قيل معناه اعبدوا ربكم لأن معنى الدعاء طلب الخير من الله تعالى وهذه الصفة العبادة ولأنه تعالى عطف عليه قوله وادعوه خوفاً وطمعاً والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه. وقيل: المراد به حقيقة الدعاء هو الصحيح لأن الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لأن الداعي لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم

بالنصب، وكذلك في سورة النحل عطفاً على قوله: ﴿ خلقَ السمواتِ والأرضَ ﴾، أي: خلق هذه الأشياء مسخّراتٍ، أي: مُذلّلاتٍ ﴿ بأمره ألَا له الخلقُ والأمر ﴾، له الخلق لأنه خلقهم وله الأمر يأمر في خلقه بما يشاء، قال سفيان بن عيينة: فرّق الله بين الخلق والأمر فمَن جمع بينهما فقد كفر. ﴿ تبارك الله ﴾، أي: تعالى الله وتعظّم. وقيل: ارتفع. والمبارك المرتفع. وقيل: تبارك تفاعل من البركة وهي النماء والزيادة، أي: البركةُ تُكتسبُ وتُنال بذكره. وعن ابن عباس قال: جاء بكل بركة. وقال الحسن: تجيء البركة من عنده. وقيل: تبارك تقدّس. والقدس الطهارة. وقيل: تبارك الله أي باسمه يُتبرّك في كل شيء. وقال المحققون: معنى هذه الصفة ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. وأصل البركة الثبوت. ويُقال: تبارك الله، ولا يقال: متبارك ولا مبارك، لأنه لم يرد به التوقيف. ﴿ رَبُّ العالمين ﴾.

﴿ ادْعُوا ربَّكم تضرُّعاً ﴾، تذلّلًا واستكانة، ﴿ وخُفْيَةً ﴾، أي سرّاً. قال الحسن: بينَ دعوةِ السرّ ودعوة

حاجته، وهو قادر على إيصالها إلى الداعي فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى: ﴿تضرعاً﴾ يعني ادعوا ربكم تذللاً واستكانة، وهو إظهار الذل في النفس والخشوع. يقال: ضرع فلان لفلان إذا أذل له وخشع. وقال الزجاج: تضرعاً يعني تملقاً وحقيقته أن ندعوه خاضعين خاشعين متعبدين بالدعاء له تعالى ﴿وخفية﴾ يعني سراً في أنفسكم وهو ضد العلانية والأدب في الدعاء أن يكون خفياً لهذه الآية قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعاً وخفية وأن الله تعالى ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال تعالى: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ (ق) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله ﷺ «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» قال أبو موسى رضي الله عنه وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في نفسي فقال: «يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» قوله ﷺ «أربعوا على أنفسكم» يعني ارفقوا بها وأقصروا عن الصياح في الدعاء.

وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ يعني في الدعاء، وقال أبو مجلز: هم الذين يسألون منازل الأنبياء. عن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنه يقول اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها قال أي بني سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء» أخرجه أبو داود. وقال ابن جريج: الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء. وقيل: الاعتداء مجاوزة الحد في كل شيء فكل من خالف أمر الله ونهيه فقد اعتدى ودخل تحت قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ وفرع بعض أرباب الطريقة على قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ هل الأفضل إظهار العبادات أم لا فذهب بعضهم إلى أن إخفاء الطاعات والعبادات أفضل من إظهارها لهذه الآية ولكونها أبعد عن الرياء وذهب بعضهم إلى أن إظهارها أفضل ليقتدي به الغير فيعمل مثل عمله وتوسط الشيخ محمد بن عبد الحكيم الترمذي فقال: إن كان خائفاً على نفسه من الرياء، فالأولى إخفاء العبادات صوناً لعمله عن البطلان وإن كان قد بلغ في الصفاء وقوة اليقين إلى التمكين بحيث صار مبايناً شائبة الرياء كأن الأولى في حقه الإظهار لتحصل فائدة الاقتداء به؛ وذهب بعضهم إلى أن إظهار العبادات المفروضات أفضل من إخفائها فالصلاة المكتوبة في المسجد أفضل من صلاته في بيته وصلاة النفل في البيت أفضل من صلاته في المسجد وكذا إظهار الزكاة أفضل من إخفائها وإخفاء صدقة التطوع أفضل من إظهارها ويقاس على هذا

العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إنْ كان إلّا همساً بينهم وبين ربِّهم، ذلك أن الله سبحانه يقول: ﴿ ادْعُوا ربَّكم تضرّعاً وخُفْيَةً ﴾، وإنّ الله ذكَر عبداً صالحاً ورضيَ فعله فقال: ﴿ إذْ نادَى ربه نداءً خَفِيّاً ﴾ [مريم: ٣]. ﴿ إنّه لا يُحبُّ المعتدين ﴾، قيل: المعتدين في الدعاء. وقال أبو مجلز: هم الذين يسألون منازل الأنبياء عليهم السلام. أخبرنا عمر بن عبد العزيز الفاشاني أنبأنا القاسم بن جعفر الهاشمي أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي ثنا أبو داود السجستاني حدّثنا موسى بن إسماعيل حدّثنا حمّاد يعني ابن سلمة أنبأنا سعيد الجريري عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللّهمّ إنّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني سلِ اللّهَ الجنة وتعوّذْ به من النار، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطّهور والدّعاء». وقيل: أراد به الاعتداء بالجهر، قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح. روينا عن أبي موسى قال: لمّا غزا رسول الله ﷺ خيبر أشرفَ الناسُ

سائر العبادات قوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ يعني ولا تفسدوا أيها الناس في الأرض بالمعاصي والكفر والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع والدعاء إلى طاعة الله تعالى، وهذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك والكلبي. قال ابن عطية: لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بسبب معاصيكم فعلى هذا يكون معنى قوله بعد إصلاحها يعني بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب. وقيل معنى الآية: ولا تفسدوا في الأرض شيئاً بعد أن أصلحه الله تعالى فيدخل فيه المنع من إتلاف النفس بالقتل أو إفسادها بقطع بعض الأعضاء وإفساد الأموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بوجوه الحيل وإفساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء المضلة وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنى وإفساد العقول بسبب شرب المسكر وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة فمنع الله من إدخال الفساد في ماهيتها.

وقوله تعالى: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أصل الخوف انزعاج في الباطن لما لا يؤمن من المضار وقيل هو توقع مكروه يحصل فيما بعد والطمع توقع محبوب يحصل له والمعنى وادعوه خوفاً منه ومن عقابه وطمعاً فيما عنده من جزيل ثوابه. وقال ابن جريج: العدل معناه خوف والطمع الفضل. وقيل معناه ادعوه خوفاً من الرياء في الذكر والدعاء طمعاً في الإجابة.

فإن قلت قال في أول الآية ادعوا ربكم تضرعاً وخفية وقال هنا وادعوه وهذا هو عطف الشيء على نفسه فما فائدة ذلك؟ قلت: الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى ادعوا ربكم أي ليكن الدعاء مقروناً بالتضرع والإخبات وقوله وادعوه خوفاً وطمعاً أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء وقيل معناه كونوا جامعين في أنفسكم من بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء وإن اجتهدتم فيهما ﴿إن رحمة الله﴾ أصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتستعمل تارة في الرقة المجردة عن الإحسان وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها الباري جل وعز فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والإنعام على عباده وإيصال الخير إليهم. وقيل: هي إرادة إيصال الخير والنعمة إلى عباده فعلى القول الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال وعلى القول الثاني تكون من صفات الذات ﴿قريب من المحسنين﴾ قال سعيد بن جبير: الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ. وقيل إن تأنيث الرحمة ليس بحقيقي وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة

على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «أرْبِعُوا على أنفسِكم إنّكم لا تدعُون أصمَّ ولا غائباً، إنّكم تدعون سميعاً قريباً». وقال عطية: هم الذين يدعون على المؤمنين فيما لا يحلّ، فيقولون: اللّهمّ اخزهم اللّهمّ العنهم.

﴿ ولا تُفسدُوا في الأرض بعد إصْلَاحِها ﴾، أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إيّاها ببعث الرسل وبيان الشريعة. والدعاء إلى طاعة الله، وهذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك والكلبي. وقال عطية: لا تعصوا في الأرض فيُمسك الله المطر ويُهلك الحرث بمعاصيكم. فعلى هذا معنى قوله: ﴿ بعد إصلاحها ﴾ أي: بعد إصلاح الله إيّاها بالمطر والخصب. ﴿ وادْعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً ﴾، أي: خوفاً منه ومن عذابه وطمعاً فيما عنده من مغفرته وثوابه. وقال ابن جريج: خوف العدل وطمع الفضل. ﴿ إنّ رحمةَ اللّهِ قريبٌ مِّنَ المحسنين ﴾، ولم يقل قريبة، قال سعيد بن جبير: الرحمة ههنا للثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله: ﴿ وإذا حضرَ القسمةَ أُولُوا القربَى واليتامَى والمساكين فارْزُقُوهم منه ﴾ [النساء: ٨]، ولم يقل منها لأنه أراد الميراث والمال. وقال الخليل بن أحمد: القريب والبعيد يستوي فيهما المذكّر والمؤنث والواحد والجمع. قال أبو

وكون الرحمة قريبة من المحسنين لأن الإنسان في كل ساعة من الساعات في إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التي هي الثواب في الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وهو الذي يرسل الرياح﴾ هذا عطف على ما قبله. والمعنى أن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض وهو الذي يرسل الرياح ﴿بشراً﴾ قرىء نشراً بالنون أراد جمع نشور وهي الريح الطيبة الهبوب التي تهب من كل ناحية، وقيل: هو جمع ناشر يقال أنشر الله الريح بمعنى أحياها. وقال الفراء: النشر الريح الطيبة اللينة التي تنشىء السحاب. وقال ابن الأنباري: النشر المنتشرة الواسعة الهبوب. وقيل: النشر خلاف الطيّ فيحتمل أنها كانت بانقطاعها كالمطوية فانتشرت بمعنى أرسلت. وقرىء بشراً بالباء جمع بشيرة وهي التي تبشر بالمطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة والرياح أربعة الصبا وهي الشرقية والدبور وهي الغربية والشمال وهي التي تهب من تحت القطب الشمالي والجنوب وهي القبلية. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرياح ثمان: أربع منها عذاب وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ﴿بين يدي رحمته﴾ يعني أمام المطر الذي هو رحمته وإنما سماه رحمة لأنه سبب لحياة الأرض الميتة. قال أبو بكر بن الأنباري رحمه الله تعالى: اليدان تستعملهما العرب في المجاز على معنى التقدمة تقول هذه تكون في الفتن بين يدي الساعة يريدون قبل أن تقوم الساعة تشبيهاً وتمثيلاً بما إذا كانت يد الإنسان تتقدمانه كذلك الرياح تتقدم المطر وتؤذن به. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله ما بلغكم في الريح فلم يرجعوا إليه شيئاً وبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركت عمر وكنت في مؤخر الناس فقلت: يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها» رواه الشافعي رضي الله عنه بطوله وأخرجه أبو داود في المسند عنه. وقال كعب الأحبار: لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر أهل الأرض وقوله تعالى: ﴿حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً﴾ يقال أقل فلان الشيء إذا حمله واشتقاق الإقلال من القلة فإن من يرفع شيئاً يراه قليلاً والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمي سحاباً لانسحابه في الهواء.

والمعنى: حتى إذا حملت هذه الرياح سحاباً ثقالاً بما فيه من الماء قال السدي: إن الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والأرض حيث يلقيان فتخرجه من ثم، ثم تنشره فتبسطه في

عمرو بن العلاء: القريب في اللغة يكون بمعنى القرب وبمعنى المسافة، تقول العرب: هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة، وقريب منك إذا كانت بمعنى المسافة.

قوله تعالى: ﴿ وهو الذي يُرسلُ الرياحَ بشراً ﴾، قرأ عاصم بالباء وضمّها وسكون الشين هاهنا وفي الفرقان [٤٨] وسورة النمل [٦٣]، يعني: أنها تبشّر بالمطر بدليل قوله تعالى: ﴿ الرياح مبشّرات ﴾ [الروم: ٤٦]، وقرأ حمزة والكسائي «نشراً» بالنون وفتحها، وهي الريح الطيبة اللينة، قال الله تعالى: ﴿ والناشرات نشراً ﴾ [المرسلات: ٣] وقرأ ابن عامر بضمّ النون وسكون الشين، وقرأ الآخرون بضم النون

السماء كيف يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك. وقيل إن الله تعالى دبر بحكمته أن الرياح تتحرك تحريكاً شديداً فتثير السحاب ثم ينضم بعضه إلى بعض فيتراكم وينعقد ويحمل الماء ثم تسوقه إلى حيث يشاء الله عز وجل وهو قوله تعالى: ﴿سقناه لبلد ميت﴾ يعني إلى بلد فتكون اللام بمعنى إلى. وقيل: معناه لأجل حياة بلد ميت وإنما قال سقنا، لأن لفظ السحاب مذكر وإن كان جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزاً نظراً إلى اللفظ. قال الأزهري رحمه الله تعالى: قال الليث البلد كل موضع من الأرض عامراً أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد. زاد غيره والمفازة تسمى بلدة، لكونها مسكن الوحش والجن. قال الأعشى:

وبلـدة مثـل ظهـر التـرس مـوحشـة   للجـن بـالليـل فـي حـافـاتهـا زجـل

ومعنى الآية: إنا سقنا السحاب إلى بلد ميت محتاج لإنزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم تنبت فيه خضرة ﴿فأنزلنا به الماء﴾ اختلفوا في الضمير في قوله تعالى به إلى ماذا يعود؟ فقال الزجاج رحمه الله وابن الأنباري جائز أن يكون المعنى فأنزلنا بالبلد الميت الماء وجائز أن يكون المعنى وأنزلنا بالسحاب الماء لأن السحاب آلة لنزول الماء ﴿فأخرجنا به﴾ يعني بذلك الماء لأن إنزال الماء كان سبباً لإخراج الثمرات، وقيل: يحتمل أن يكون المعنى فأخرجنا بذلك الماء ﴿من كل الثمرات﴾ يعني وأخرجنا بذلك البلد بعد موته وجد به من أصناف الثمار والزروع ﴿كذلك نخرج الموتى﴾ يعني كما أحيينا البلد الميت كذلك نخرج الموتى أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم واختلفوا في وجه التشبيه، فقيل: إن الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال المطر كذلك يحيي الموتى بواسطة إنزال المطر أيضاً. قال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما: إن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحيوان أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع من الماء. وفي رواية: أربعين يوماً فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون في قبورهم فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا فيناديهم المنادي: هذا ما وعد الرحمن وصدق

والشين، جمع نشور، مثل صبور وصبر ورسول ورسل، أي: متفرقة وهي الرياح التي تهبّ من كل ناحية. ﴿ بينَ يدي رحمتِهِ ﴾، أي: قدّام المطر. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنبأنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنبأنا أبو العباس الأصم أنبأنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا الثقة عن الزهري عن ثابت بن قيس عن أبي هريرة قال: أخذتِ الناسَ ريحٌ بطريق مكة وعمر حاجّ فاشتدّتْ، فقال عمر رضي الله عنه لمَن حوله: ما بلغكم في الريح فلم يرجعوا إليه شيئاً، فبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركتُ عمرَ وكنتُ في مؤخر الناس، فقلت: يا أمير المؤمنين أُخبرت أنك سألتَ عن الريح وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح تأتي من روح الله تأتي بالرحمة وبالعذاب فلا تسبّوها وسَلُوا الله من خيرها وتعوّذوا به من شرّها»، ورواه عبد الرزّاق عن معمر عن الزهري بإسناده. ﴿ حتى إذا أقلّتْ ﴾، حملت الرياح، ﴿ سحاباً ثِقالاً ﴾، بالمطر، ﴿ سقناه ﴾، وردّ الكناية إلى السحاب، ﴿ لبلدٍ ميّتٍ ﴾، أي: إلى بلد ميت محتاج إلى الماء. وقيل: معناه لإحياء بلد ميّتٍ لا نباتَ فيه ﴿ فأنزلْنَا بِهِ ﴾، أي: بالسحاب. وقيل: بذلك البلد، ﴿ الماءَ ﴾، يعني: من المطر، ﴿ فأخرجْنَا بِهِ من كلِّ الثّمراتِ كذلكَ نُخرِجُ الموتى ﴾، استدلّ بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى، ﴿ لعلّكم تذكّرُون ﴾، قال أبو هريرة وابن عباس: إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى أرسل الله عليهم مطراً كمنيّ الرجال من ماء تحت العرش يُدعى ماء الحيوان، فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم يُلقي عليهم النوم

المرسلون: قال مجاهد: إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الأرض ثم يرسل الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كإحيائه الأرض به وقيل إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء والمعنى أنه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه وموته فأنبت فيه الزرع والشجر وجعل فيه الثمر كذلك يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن كانوا أمواتاً ورمماً بالية لأن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ويخرجهم من قبورهم إلى حشرهم ونشرهم ﴿لعلكم تذكرون﴾ الخطاب لمنكري البعث، يقول: إنكم شاهدتم الأشجار وهي مزهرة مورقة مثمرة في أيام الربيع والصيف ثم إنكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الأزهار والأوراق والثمار ثم إن الله تعالى أحياها مرة أخرى فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها. والمعنى: إنما وصفت ما وصفت من التشبيه والتمثيل لكي تعتبروا وتتذكروا وتعلموا أن من فعل ذلك كان هو الذي يعيد ويحيي.

قوله تعالى: ﴿والبلد الطيب﴾ يعني والأرض الطيبة التربة السهلة السمحة ﴿يخرج نباته بإذن ربه﴾ يعني إذا أصابه المطر أخرج نباته بإذن الله عز وجل: ﴿والذي خبث لا يخرج﴾ يعني والبلد الذي خبث أرضه فهي سبخة لا يخرج يعني لا يخرج نباته ﴿إلا نكداً﴾ يعني عسراً بمشقة وكلفة قال الشاعر في المعنى يذم إنساناً:

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن أعطيت أعطيت تافهاً نكدا

يعني بالتافه القليل وبالنكد العسير ومعناه: إنك إن أعطيت أعطيت القليل بعسر ومشقة. قال المفسرون: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالأرض الحرة الطيبة وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة فإذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الأزهار والثمار وكذلك المؤمن إذ سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهرت منه الطاعات والعبادات وأنواع الأخلاق الحميدة وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة التي لا ينتفع بها وإن أصابها المطر فكذلك الكافر إذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده إلا عتواً وكفراً وإن عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها في الآخرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب كما أن البلد الطيب ثمره طيب ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة فالكافر خبيث وعمله خبيث. وقال مجاهد: هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب

فيناموت في قبورهم، ثم يُحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم، فعند ذلك يقولون: ﴿ ياويلنا مَن بعثنا من مرقدنا ﴾ [يٓس: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿ والبلدُ الطيِّبُ يَخرجُ نباتُه بإذنِ ربِّه ﴾، هذا مثل ضربه الله للمؤمنين والكافرين، فمثل المؤمن مثل البلد الطيب يصيبه المطر فيخرج نباته بإذن ربه، ﴿ والذي خَبُثَ ﴾، يريد الأرض السبخة التي، ﴿ لا يخرجُ ﴾، نباتُها، ﴿ إلاّ نَكِداً ﴾، قرأ أبو جعفر بفتح الكاف، وقرأ الآخرون بكسرها، أي: عسراً قليلاً بعناء ومشقة. فالأول مثل المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به، والثاني مثل الكافر الذي يسمع القرآن فلا يؤثّر فيه، كالبلد الخبيث الذي لا يتبيّن أثر المطر فيه ﴿ كذلك نُصرِّفُ الآياتِ ﴾ نبيّنها، ﴿ لقوم يشكرون ﴾، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا

طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبته كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله عز وجل ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ يعني كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية وحيث جنّبهم سبيل الضلالة وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا لسماع القرآن.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ اعلم أن الله تبارك وتعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعته الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما جرى لهم مع أممهم وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ لأنه لم يكن إعراض قومه فقط عن قبول الحق بل قد أعرض عنه سائر الأمم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على أن عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت إلى الخسار والهلاك في الدنيا وفي الآخرة إلى العذاب العظيم فمن كذب بمحمد ﷺ من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الأمم المكذبة وفي ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحداً من علماء زمانه فلما أتى بمثل هذه القصص والأخبار عن القرون الماضية والأمم الخالية مما لم ينكره عليه أحد علم بذلك أنه إنما أتى به من عند الله عز وجل وإنه أوحى إليه ذلك فكان دليلاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً على صحة نبوته ﷺ وقوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ لقد أرسلنا نوحاً جواب قسم محذوف تقديره والله لقد أرسلنا نوحاً وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه الصلاة والسلام ويعني أرسلنا بعثنا وهو أول نبي بعثه الله تعالى بعد إدريس وكان نوح عليه الصلاة والسلام نجاراً. وقيل: معنى الإرسال أن الله تعالى حمله رسالة ليؤديها إلى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة تكون متضمنة للبعث أيضاً ويكون البعث كالتابع لا أنه أصل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعثه الله وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقيل هو ابن مائة سنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه واختلفوا في سبب نوحه فقيل: لدعوته على قومه بالهلاك وقيل: لمراجعته ربه في شأن ابنه كنان وقيل: لأنه

محمد بن العلاء حدّثنا حمّاد بن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «مثلُ ما بعثني اللّهُ بهِ مِنَ الهُدَى والعلمِ كمثلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلتِ الماءَ فأنبتت الكلأَ والعُشْبَ والكثير، وكانتْ منها أجادبُ أمسكتِ الماءَ فنفع اللّهُ بها الناسَ فشربُوا وسَقَوْا وزرعُوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنّما هي قيعانٌ لا تُمسك ماءً ولا تُنبتُ كلأً، فذلك مثلُ مَن فَقُهَ في دينِ الله ونفعه ما بعثني اللّهُ بهِ فَعَلِمَ وعلّمَ، ومثلُ مَنْ لم يرفعْ بذلك رأساً ولم يقبلْ هُدى الله الذي أُرسلتُ به».

قوله تعالى: ﴿ لقدْ أرسلنا نوحاً إلى قومِهِ ﴾، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس، وهو أول نبي بعثه الله بعد إدريس، وكان نجاراً بعثه الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة. وقال ابن عباس: ابن أربعين سنة. وقيل: بُعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة. وقال مقاتل: ابن مائة سنة. وقال ابن عباس: سُمّي نوحاً لكثرة ما ناح

مر بكلب مجذوم فقال له: اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه أعبتني أم عبت الكلب؟ ﴿فقال﴾ يعني نوحاً لقومه ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ يعني اعبدوا الله تعالى فإنه هو الذي يستحق العبادة لا غيره فإنه ليس لكم إله معبود سواه فإنه هو الذي يستوجب أن يعبد ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ يعني إن لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته واليوم الذي خافه عليهم وهو إما يوم الطوفان وإهلاكهم فيه أو يوم القيامة وإنما قال أخاف على الشك وإن كان على يقين من حلول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به لأنه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة ﴿قال الملأ﴾ وهم الجماعة الأشراف ﴿من قومه إنا لنراك﴾ يعني يا نوح ﴿في ضلال مبين﴾ يعني في خطأ وزوال عن الحق بين ﴿قال﴾ يعني نوحاً ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ يعني ما بي ما تظنون من الضلال ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ يعني: هو أرسلني إليكم لأنذركم وأخوفكم إن لم تؤمنوا به وهو قوله ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ يعني بتحذيري إياكم عقوبة على كفركم إن لم تؤمنوا به ﴿وأنصح لكم﴾ يقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له والنصح إرادة الخير لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح للغير وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه والمعنى أنه قال أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وأرشدكم إلى الوجه الأصلح والأصوب لكم وأدعوكم إلى ما دعاني إليه وأحب لكم ما أحب لنفسي قال بعضهم والفرق بين إبلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التي أوجبها الله تعالى عليهم.

وأما النصيحة فهو أن يرغّبهم في قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات ويحذرهم عقابه إن عصوه ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يعني أعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان والغرق في الدنيا ويعذبكم في الآخرة عذاباً عظيماً وقيل أعلم أن مغفرة الله تعالى لمن تاب وعقوبته لمن أصر على الكفر وقيل: لعل الله تعالى أطلعه على سر من أسراره فقال وأعلم من الله ما لا تعلمون.

على نفسه. واختلفوا في سبب نوحه فقال بعضهم: لدعوته على قومه بالهلاك. وقيل: لمراجعته ربّه في شأن ابنه كنعان. وقيل: لأنه مرّ بكلب مجذوم، فقال: اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه أعبتني أم عبت الكلب؟ ﴿ فقال ﴾، لقومه، ﴿ يا قوم اعبدُوا اللَّهَ ما لكمْ من إلَهٍ غيرُه ﴾، قرأ أبو جعفر والكسائي «من إلـه غيره» بكسر الراء حيث كان على نعت الإله، وافق حمزة في سورة فاطر: ﴿ هل منْ خالقٍ غير الله ﴾ [فاطر: ٣]، وقرأ الآخرون برفع الراء على التقديم، تقديره: ما لكم غيره من إله، ﴿ إنّي أخافُ عليكم ﴾، إن لم تؤمنوا، ﴿ عذابَ يومٍ عظيم ﴾.

﴿ قالَ الملأُ من قومِه إنّا لَنراكَ في ضَلَالٍ ﴾ خطأ وزوال عن الحق، ﴿ مُبين ﴾، بيّن.

﴿ قال ﴾، نوح، ﴿ يا قوم ليسَ بي ضَلَالة ﴾، ولم يقل ليست، لأن معنى الضلالة الضلال أو على تقديم الفعل، ﴿ ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين ﴾.

﴿ أُبلّغُكُم ﴾، قرأ أبو عمرو: (أبلغـكم) بالتخفيف حيث كان من الإبلاغ. لقوله: ﴿ لقدْ أبلغتُكم ﴾ [الأعراف: ٧٩-٩٣]، ﴿ رسالاتِ ربّي ﴾، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبليغ، لقوله تعالى: ﴿ بلّغ ما أُنزل إليك ﴾ [المائدة: ٦٧]، رسالات ربّي، ﴿ وأنصحُ لكم ﴾، يقال نصحته ونصحت له. والنصح أن يريد لغيره من الخير ما يريد لنفسه، ﴿ وأعلمُ منَ اللَّهِ مَا لَا تعلمُون ﴾، أن عذابه لا يُردّ عن القوم المجرمين.

أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ
أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿أوعجبتم﴾ الألف ألف استفهام والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وهذا الاستفهام استفهام إنكار معناه أكذبتم وعجبتم ﴿أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ يعني وحياً من ربكم ﴿على رجل منكم﴾ تعرفونه وتعرفون نسبه وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب، وقيل: المراد بالذكر الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام سماه ذكراً كما سمي القرآن ذكراً. وقيل: المراد بالذكر المعجزة التي جاء بها نوح عليه السلام فعلى هذا تكون على بمعنى مع أي مع رجل منكم. قال الفراء على هنا بمعنى مع ﴿لينذركم﴾ يعني جاءكم لأجل أن ينذركم ﴿ولتتقوا﴾ أي ولأجل أن تتقوا ﴿ولعلكم ترحمون﴾ لأن المقصود من إرسال الرسل الإنذار والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة ﴿فكذبوه﴾ يعني فكذبوا نوحاً ﴿فأنجيناه﴾ يعني من الطوفان والغرق ﴿والذين معه﴾ يعني من آمن من قومه معه ﴿في الفلك﴾ يعني في السفينة ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى، قال الزجاج: عموا عن الحق والإيمان. يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر وأنشدوا قول زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عم

قال مقاتل: عموا عن نزول العذاب بهم وهو الفرق.

قوله تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ أي وأرسلنا إلى عاد وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وهي عاد الأولى أخاهم هوداً يعني أخاهم في النسب لا في الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقال ابن إسحاق: هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح واتفقوا على أن هوداً عليه الصلاة والسلام لم يكن أخاهم في الدين ثم اختلفوا في سبب الأخوّة من أين حصلت فقيل إنه كان واحداً من القبيلة فيتوجه قوله أخاهم لأنه واحد منهم وقيل إنه لم يكن من القبيلة ثم ذكروا في تفسير هذه الإخوة وجهين:

الأول: قال الزجاج: إنه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفي هذا القدر في تسمية الأخوة.

﴿ أوَعَجِبْتُم ﴾، ألف استفهام دخلت على واو العطف، ﴿ أنْ جاءَكم ذكرٌ من ربِّكم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: موعظة. وقيل: بيان. وقيل: رسالة. ﴿ على رجلٍ منكم لِيُنْذِرَكم ﴾، عذاب الله إن لم تؤمنوا، ﴿ ولِتَتَّقُوا ﴾، أي: لكي تتقوا الله، ﴿ ولعلّكم تُرحمُون ﴾، لكي ترحموا.

﴿ فكذَّبوه ﴾، يعني: كذبوا نوحاً، ﴿ فأنجيناه ﴾، من الطوفان، ﴿ والذينَ معه في الفُلْكِ ﴾، في السفينة، ﴿ وأغْرَقْنَا الذينَ كذّبُوا بآياتنا إنّهم كانُوا قوماً عَمِين ﴾، أي: كفّاراً. قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة الله. قال الزجّاج: عموا عن الحق والإيمان، يقال رجلٌ عمٍ عن الحق وأعمى في البصر. وقيـل: العمى والأعمى كالخضر والأخضر. قال مقاتل: عموا عن نزول العذاب وهو الغرق.

والمعنى إنّا أرسلنا إلى عاد واحداً من جنسهم من البشر ليكون الفهم والأنس بكلامه أتم وأكمل ولم نبعث إليهم من غير جنسهم مثل الملك أو الجن.

والثاني: إنه أخاهم يعني صاحبهم والعرب تسمي صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالأحقاف باليمن والأحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ أي اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه إلهاً آخر فإنه ليس لكم إله غيره والفرق بين قوله في قصة نوح وهنا قال إن نوحاً كان مواظباً على دعوة قومه غير متوان فيها لأن الفاء تدل على التعقيب.

وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله «قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» ﴿**أفلا تتقون**﴾ يعني أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره ولما كانت هذه القصة منسوقة على قصة قوم نوح وقد علموا ما حل بهم من الفرق حسن قوله هنا. أفلا تتقون يعني أفلا تخافون ما نزل بهم العذاب ولم يكن قبل واقعة قوم نوح شيء حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴿**قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة**﴾ يعني إنا لنراك يا هود في حمق وجهالة وضلالة عن الحق. والصواب: أخبر الله تعالى عن قومه نوح أنهم قالوا له إنا لنراك في ضلال مبين وأخبر عن قوم هود أنهم قالوا إنا لنراك في سفاهة والفرق بينهما أن نوحاً لما خوف قومه بالطوفان وطفق في عمل السفينة قال له قومه عند ذلك إنا لنراك في ضلال مبين حيث تتعب في إصلاح سفينة في أرض ليس فيها من الماء شيء وأما هود عليه السلام فإنه لما زيف عبادة الأصنام ونسب من عبدها إلى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا إنا لنراك في سفاهة ﴿**وإنا لنظنك من الكاذبين**﴾ يعني في ادعائك أنك رسول من عند الله ﴿**قال**﴾ يعني قال هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه إلى السفه ﴿**يا قوم ليس بي سفاهة**﴾ يعني ليس الأمر كما تدعون أن بي سفاهة ﴿**ولكني رسول من رب العالمين**﴾ يعني إليكم.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ
لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿ **وإلى عادٍ أخاهُمْ هُوداً** ﴾، أي: وأرسلنا إلى عاد، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهي عاد الأولى أخاهم في النسب لا في الدين، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص. وقال ابن إسحاق: هو ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ﴿ **قالَ يا قومِ اعبدُوا اللَّهَ ما لكمْ من إلَهٍ غيرُهُ أفلَا تَتَّقُون** ﴾، أفلا تخافون.

﴿ **قالَ الملأُ الذينَ كفرُوا منْ قومِهِ إنّا لَنَراكَ** ﴾، يا هود، ﴿ **في سَفَاهةٍ** ﴾، في حمق وجهالة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: تدعو إلى دين لا تعرفه، ﴿ **وإنّا لنظنّكَ من الكاذبين** ﴾، أنك رسول الله إلينا.

﴿ **قال** ﴾، هود ﴿ **يا قومِ ليسَ بي سفاهةٌ ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين** ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ يعني أؤدي إليكم ما أرسلني به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه ﴿وأنا لكم ناصح﴾ يعني فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل وترك عبادة ما سواه ﴿أمين﴾ يعني على تبليغ الرسالة وأداء النصح والأمين الثقة على ما ائتمن عليه. حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام، أنه قال وأنصح لكم وحكى عن هود عليه الصلاة والسلام أنه قال: وأنا لكم ناصح فالأول بصيغة الفعل والثاني بصيغة اسم الفاعل والفرق بينهما أن صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة فكان نوح يدعو قومه ليلاً ونهاراً كما أخبر الله عنه بقوله قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال: وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتاً دون وقت فلهذا قال: وأنا لكم ناصح أمين والمدح للنفس بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء وإنما فعل هود ذلك وقال هذا القول لأنه كان يجب عليه إعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم في قولهم وإنا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالأمانة وأنه أمين في تبليغ ما أرسل به من عند الله ففيه تقرير للرسالة والنبوة وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه في موضع الضرورة إلى مدحها ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ يعني أعجبتم أن أنزل الله وحيه على رجل تعرفونه لينذركم بأس ربكم ويخوفكم عقابه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ يعني واذكروا نعمة الله عليكم إذا أهلك قوم نوح وجعلكم تخلفونهم في الأرض ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ يعني طولاً وقوة. قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعاً وقيل سبعين ذراعاً. عن ابن عباس رضي الله عنهما ثمانين ذراعاً وقال مقاتل: اثني عشر ذراعاً وقال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ يعني نِعَم الله وفيه إضمار تقديره فاذكروا نعمة الله عليكم واعملوا عملاً يليق بذلك الإنعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿لعلكم تفلحون﴾ يعني لكي تفوزوا بالفلاح وهو البقاء في الآخرة ﴿قالوا﴾ يعني قال قوم هود مجيبين له ﴿أجئتنا﴾ يا هود ﴿لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ يعني من الأصنام ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ يعني من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ يعني في قولك إنك رسول الله ﴿قال﴾ يعني قال هود مجيباً لهم ﴿قد وقع﴾ يعني نزل ووجب ﴿عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي عذاب وسخط ﴿أتجادلونني﴾ يعني أتخاصمونني ﴿في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ يعني وضعتم لها أسماء من عند

﴿ أُبلِّغُكُمْ رسالاتِ ربّي وأنَا لكمْ ناصحٌ أمين ﴾، ناصح أدعوكم إلى التوبة أمين على الرسالة. قال الكلبي: كنتُ فيكم قبل اليوم أميناً.

﴿ أوَ عَجِبْتُم أن جاءَكم ذِكرٌ مِّن رَّبِّكم على رجلٍ منكم ﴾، يعني نفسه، ﴿ لِيُنْذِرَكم. واذْكُروا إذْ جعلَكم خُلَفَاءَ ﴾، يعني في الأرض، ﴿ من بعدِ قومِ نوح ﴾، أي: من بعد إهلاكهم، ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾، أي: طـولاً وقوّة. قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستّون ذراعاً. وقال أبو حمزة الثمالي: سبعون ذراعاً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثمانون ذراعاً. وقال مقاتل: كان طول كل رجل اثني عشر ذراعاً. وقال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبّة العظيمة وكان عين الرجل يفرخ فيها الضباع وكذلك مناخرهم. ﴿ فاذْكُروا آلاءَ اللّهِ ﴾ نِعَم الله، واحدها إلى وإلى مثل مِعي وأمعاء وقفا وأقفاء، ونظيرها: ﴿ آناء الليل ﴾ [آل عمران: ١١٣، طه: ١٣٠، الزمر: ٩]، واحدها أني واني، ﴿ لعلّكم تفلحون ﴾.

﴿ قالوا أجئتنا لِنَعْبُدَ اللّهَ وحدَهُ ونَذَرَ ما كانَ يعبدُ آباؤُنا ﴾، من الأصنام، ﴿ فأْتِنَا بما تَعِدُنا ﴾، من العذاب، ﴿ إنْ كنتَ منَ الصّادقين ﴾.

أنفسكم والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار عليهم لأنهم سموا الأصنام بالآلهة وذلك معدوم فيها ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ يعني من حجة وبرهان على هذه التسمية وإنما سميتموها أنتم من عند أنفسكم بغير دليل ﴿فانتظروا﴾ يعني العذاب ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ يعني نزول العذاب بكم ﴿فأنجيناه﴾ يعني فأنجينا هوداً عند نزول العذاب بقومه ﴿والذين معه برحمة منا﴾ يعني وأنجينا أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه لأنهم كانوا مستحقين للرحمة ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ يعني وأهلكنا الذين كذبوا هوداً من قومه وأراد بالآيات معجزات هود عليه الصلاة والسلام الدالة على صدقه وهذا هلاك استئصال فهلكوا جميعاً ولم يبق منهم واحد ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ يعني لأنهم لم يكونوا مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه الصلاة والسلام:

(ذكر قصة عاد على ما ذكره محمد بن إسحاق وأصحاب السير والأخبار)

قالوا جميعاً: كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هودا عليه الصلاة والسلام الأحقاف والأحقاف الرمل فيما بين عمان وحضرموت من أرض اليمن وكانوا قد فسقوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي جعلها الله فيهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له صداء، وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله عز وجل فيهم هودا عليه الصلاة والسلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك فيما ذكر فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس فآمنوا به وهم يسير يكتمون إيمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له مرثد بن سعد بن عفير وكان يكتم إيمانه فلما عتوا على الله وكذّبوا نبيهم وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد يطلبون الفرج من الله عز وجل وذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم ومشركهم وكان يجتمع بمكة ناس كثير مختلفة أديانهم وكل معظم مكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عز

﴿ قال ﴾، هود، ﴿ قدْ وقع ﴾، وجب ونزل، ﴿ عليكمْ من ربِّكم رِجْسٌ ﴾ أي: عذاب، والسين مبدلة من الزاي، ﴿ وغضبٌ ﴾، أي: سخط، ﴿ أتجادِلُونَني في أسماءٍ سمّيتمُوها ﴾، وضعتموها، ﴿ أنتم وآباؤُكم ﴾، قال أهل التفسير: كانت لهم أصنام يعبدونها سمّوها أسماء مختلفة، ﴿ ما نزّلَ اللّهُ بها من سلطان ﴾، حجة وبرهان، ﴿ فانتظروا ﴾، نزول العذاب، ﴿إنّي معكمْ من المنتظرين ﴾.

﴿ فأنجيناه ﴾، يعني هوداً عند نزول العذاب، ﴿ والذينَ معه برحمةٍ منّا وقَطَعْنَا دَابِرَ الذينَ كذّبُوا بآياتِنَا ﴾، أي: استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم، ﴿ وما كانُوا مؤمنين ﴾.

قصّــــةُ عــاد

ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا ينزلون اليمن وكانت مساكنهم بالأحقاف، وهي رمال بين عمان وحضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله عزّ وجلّ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها لهم، صنم يقال له صداء وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبيّاً وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فأمرهم أن يُوحّدُوا الله ويكفّوا عن ظلم الناس لم يأمرهم بغير ذلك، فكذّبوه وقالوا: مَن أشدّ منّا قوة وبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبّارين، فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء فطلبوا الفرج كانت طلبتهم إلى الله عزّ وجلّ عند بيته الحرام بمكة مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتّى، مختلفة أديانهم وكلهم معظّم لمكة، وأهل مكة

وجل وكان البيت معروفاً مكانه من الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وإنما سموا العماليق لأن أباهم كان عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيد العماليق يومئذ رجلاً يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخيبري وهو رجل من عاد وكانت عاد أخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقلّ عنهم المطر قالوا: جهزوا منكم وفداً إلى مكة ليستسقوا لكم فإنكم قد هلكتم فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هزيل وعقيل بن صنديد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلماً يكتم إسلامه وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر سيد العماليق ولقمان بن عاد فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلاً فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي نازلون عليّ والله وما أدري كيف أصنع فإني أستحي أن آمرهم بالخروج لما بعثوا إليه فيظنوا أنه ضيق مني بمكانهم عندي وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جهداً وعطشا قال وشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعراً نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال معاوية:

ألا يــا قيــل ويحــك قــم فهينــم ... لعــل الله يسقينــا غمــامــا
فيسقــي أرض عـــاد إن عـــاداً ... قــد أمســوا لا يبينــون الكــلامــا
مــن العطــش الشــديــد فليــس نــرجــو ... بــه الشيــخ الكبيــر ولا الغــلامــا
وقــد كــانــت نســاؤهمــو بخيــر ... فقــد أمســت نســاؤهــم أيــامــى

يومئذ العماليق سمّوا عماليق، لأن أباهم عمليق بن لاذا بن سام بن نوح، وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجل يقال له معاوية بن بكر وكانت أُم معاوية كلهدة بنت الخيبري رجل من عاد، فلما قحط المطر عن عاد وجهدوا قالوا جهّزوا وفداً منكم إلى مكة فليستسقوا لكم، فبعثوا قيل بــن عنز ونعيم بن هزال من هزيل وعقيل بن صندين بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلماً يكتم إسلامه، وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر، ثم بعثوا لقمان بن عاد الأصغرين صندين بن عاد الأكبر، فانطلق كل رجل من هؤلاء ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلاً، فلما قدِموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنّيهم الجرادتان وهم قينتان لمعاوية بن بكر، وكان مسيرهم شهراً ومقامهم شهراً فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوّثون بهم من البلاء الذي أصابهم شقّ ذلك عليه، وقال هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي، والله ما أدري كيف أصنع بهم، أستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بُعِثُوا إليه، فيظنّون أنه ضيق منّي بمقامهم عندي، وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جهداً وعطشاً، فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قلْ شعراً نُغنّهم به لا يدرون مَن قاله لعلّ ذلك أن يُحرِّكَهم، فقال معاوية بن بكر:

ألَا يـا قيـلَ ويحـكَ قمْ فَهَيْنِم ... لـعـلَّ اللَّهَ يـسقـيـنـا غـمـامـا
فـيـسقـي أرضَ عـادٍ إنّ عـاداً ... قـد أمْسُوا لا يَبِيْنُـون الكـلامـا
منَ العطشِ الشديـدِ فليسَ نرجُـو ... بـهِ الشيخَ الكبيـرَ ولا الغُـلامـا
وقـدْ كـانـتْ نسـاؤُهـم بـخـيـرٍ ... فـقـدْ أمستْ نسـاؤُهـم أيـامَـى

وإن الوحش تأتيهم جهارا ... ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم ... نهاركمو وليلكمو تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ما غنتا به قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد بن عفير: إنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم سقيتم وأظهر إسلامه عند ذلك وقال في ذلك:

عصت عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشاً ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود ... يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد ... فأبصرنا الهدى وجلا العماء
وأن إله هود هو إلهي ... على الله التوكل والرجاء

زاد في رواية:

لقد حكم الإله وليس جوراً ... وحكم الله إن غلب الهواء
على عاد وعاد شر قوم ... فقد هلكوا وليس لهم بقاء
وإني لن أفارق دين هود ... طوال الدهر أو يأتي الفناء

فقال جلهمة بن الخيبري مجيباً لمرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف أنه اتبع دين هود وآمن به:

ألا يا سعد إنك من قبيل ... ذوي كرم وأمك من ثمود
فإنا لا نطيعك ما بقينا ... ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين وفد ... ورمل والصداء مع الصمود
ونترك دين آباء كرام ... ذوي رأي ونتبع دين هود

وإنَّ الوحش تأتيهم جِهاراً ... فلا تخشَى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهارُكمو وليلكمو تماما
فَقُبِّحَ وفدُكم منْ وفدِ قومٍ ... ولا لقُوا التحيةَ والسلاما

فلمّا غنّتهم الجرادتان هذا قال بعضهم لبعض: يا قوم إنّما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم، فقال مرثد بن سعد بن عفير وكان قد آمن بهود سرّاً: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيّكم وتُبْتُم إلى ربّكم سُقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك وقال شعراً:

عصتْ عادٌ رسولَهمْ فأمسُوا ... عطاشاً ما تبلهم السماء
لهم صنم يُقال له صمودٌ ... يقابله صداءٌ والهباءُ
فبصّرنا الرسولُ سبيلَ رشد ... فأبصرنا الهُدى وجَلَى العماءُ
وإن إلَه هود هو إلَهي ... على اللّهِ التوكّلُ والرجاءُ

فقالوا لمعاوية بن بكر: احبس عنّا مرثد بن سعد فلا يقدمنّ معنا مكة فإنه قد اتّبع دين هود وترك ديننا ثم

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبسا عنا مرثداً فلا يقدمن معنا مكة فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد فلما ولوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعو الله بشيء مما خرجوا إليه فلما انتهى إليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعونه فقال مرثد: اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني فيما يدعوك به وفد عاد، وقام قيل بن عنز رأس وفد عاد يدعو فقال: اللهم أعط قيلاً ما سألك. وقال الوفد معه: واجعل سؤلنا مع سؤله. وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى إذا فرغوا من دعواتهم قام لقمان فقال: اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي وسأل طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر وقال قيل بن عنز حين دعا يا إلهنا إن كان هود صادقاً فاسقنا فإنا قد هلكنا فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لقومك ولنفسك من هذه السحائب فقال قيل: قد اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رماداً رمدداً لا يبقي من آل عاد أحداً وساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عز وجل: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء﴾ أي كل شيء مرت به بأمر ربها وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما عرفت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما أن أفاقت قالوا لها ماذا رأيت قالت رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فلم تدع من آل عاد أحداً إلا أهلكه واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ به الأنفس

خرجوا إلى مكة يستسقون لعادٍ، فلمّا ولّوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجُوا له، فلمّا انتهى إليهم قام يدعو الله وبها وفد عاد يدعون، فقال: اللّهمَّ أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوكَ به وفدُ عاد، وكان قِيْلُ بنُ عنز رأسَ وفد عاد، فقال وفد عاد: اللّهمَّ أعطِ قيلاً ما سألك واجعل سؤلنا مع سؤله، وكان قد تخلّف عن وفد عاد حين دعوا لُقمانُ بنُ عاد، وكان سيّدَ عاد، حتى إذا فرغوا من دعوتهم، فقال: اللّهمّ إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي، وسألَ اللّهَ طول العمر فعمّر عمر سبعة أنسُر، وقال قِيْلُ بنُ عنز حين دعا: يا إلَهنا إن كان هودُ صادقاً فاسقنا فإنّا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مُنادٍ من السحاب يا قيلُ اختر لنفسك وقومك من هذه السحائب ما شئت، فقال قيلُ: اخترتُ السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً فناداه منادٍ اخترت رماداً رمدداً لا يُبقي من آل عاد أحداً، وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له المغيث، فلمّا رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا، يقول الله تعالى: بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تُدمّرُ كلَّ شيء بأمر ربها، أي: كل شيء مرّتْ به، وكان أول مَن بصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صُعِقت، فلما أفاقت قالوا لها: ماذا رأيتِ؟ قالتْ: رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها، فسخّرها الله عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فلم تدع من آل عادٍ أحداً إلاّ هلك، واعتزل هود ومَن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه هو ومَن معه من الريح إلاّ ما تلين عليه الجلود وتلذّ الأنفس، وإنها لَتَمرُّ من عاد بالظعن فتحملهم بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وخرج وفد عاد من مكة حتى مرّوا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة في ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر، فقالوا له: فأين فارقت هوداً وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكّوا فيما حدّثهم به، فقالت هزيلة بنت بكر: صدق وربِّ مكة، وذكروا أن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قيل

وإنها في وقتها لتمر بالظعن من عاد فتحملها بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل إليه رجل على ناقة في ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر فقالوا له: أين فارقت هوداً وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر وكأنهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر: صدق ورب الكعبة. وقال السدي بعث الله عز وجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلما رأوها تبادروا إلى البيوت فدخلوها وأغلقوا الأبواب، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم ودخلت عليهم فأهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت فلما أهلكتهم أرسل الله تعالى عليهم طيراً أسود فنقلهم إلى البحر فألقاهم فيه، وقيل: إن الله تعالى أمر الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم في البحر ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفي الحديث «إنما خرجت على مثل خرق الخاتم» وقيل: إن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل ابن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم أعطيتم مُناكم فاختاروا لأنفسكم غير أنه لا سبيل إلى الخلود ولا بد من الموت فقال مرثد: اللهم أعطني براً وصدقاً فأعطي ذلك، وقال لقمان: اللهم أعطني عمراً فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة وكان يأخذ الذكر لقوته فيربيه حتى يموت فإذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان السابع من النسور اسمه لبد فلما مات لبد مات لقمان معه.

وأما قيل فإنه اختار لنفسه ما يصيب قومه فقيل له إنه الهلاك فقال لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعد قومي فأصابه الذي أصاب عاداً فهلك ومَن معه من الوفد الذين خرجوا يستسقون لعاد فأتت الريح لما خرجوا من الحرم فأهلكتهم جـميعاً فلما أهلك الله عاداً ارتحل هود ومن معه من المؤمنين من أرضهم بعد هلاك قومه إلى موضع يقال له الشجر من أرض اليمن فنزل هناك ثم أدركه الموت فدفن بأرض حضرموت. يروى عن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه أن قبر هود عليه الصلاة والسلام بحضرموت في كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن شبابة: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبياً وأن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام في تلك البقعة ويروى أن

لهم: قد أعطيتم مُناكم فاختاروا لأنفسكم إلّا أنه لا سبيل إلى الخلود، ولا بدّ من الموت، فقال مرثد: اللّهمَّ أعطني صدقاً وبرّاً فأُعطي ذلك، وقال لقمان: أعطني يا ربِّ عمراً فقيل له: اختر فاختار عمر سبعة أنسُر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذ الذكر منها لقوّته، حتى إذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع، وكان كل نسر يعيش ثمانون سنة، وكان آخرها لبداً فلما مات لبد مات لقمان معه. وأمّا قيل فإنه قال: أختار أن يصيبني ما أصاب قومي فقيل له: إن الهلاك، فقال: لا أُبالي لا حاجة لي في البقاء بعدهم، فأصابه الذي أصاب عاداً من البلاء والعذاب فهلك. قال السدي: بعث الله على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلمّا رأوها تبادروا البيوت فدخلوها وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم فدخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت، فلمّا أهلكهم الله أرسل عليهم طيراً سوداء فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه. ورُوِيَ أن الله عزّ وجلّ أمر الريح فأهالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليالٍ وثمانية أيام لهم أنين تحت الرمل، ثم أمر الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر ولم تخرج ريح قطّ إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها عتت على الخَزَنَة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها. وفي الحديث: «إنها خرجت على قدر خرق الخاتم»، ورُوِيَ عن عليّ: أن قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر. وقال عبد الرحمن بن سابط: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيّاً، وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل في

كل نبي من الأنبياء كان إذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه إلى مكة يعبدون الله تعالى حتى يموتوا بها.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ يعني أرسلنا إلى ثمود وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عابر وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله ومعنى الكلام وإلى بني ثمود أخاهم صالحاً لأن ثمود قبيلة. قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وقيل سموا ثمود باسم أبيهم الذي ينسبون إليه أخاهم صالحاً يعني في النسب لا في الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ يعني قال لهم صالح حين أرسله الله تعالى إليهم يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً فما لكم من إله يستحق أن يُعبد سواه ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ يعني جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو إليه من عبادة الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً وعلى تصديق بأني رسول الله إليكم ثم فسر تلك البينة فقال ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ يعني علامة على صدقي قال العلماء رحمهم الله تعالى: ووجه كون هذه الناقة آية على صدق صالح ومعجزة له خارقة للعادة أنها خرجت من صخرة في الجبل وكونها لا من ذكر ولا من أنثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج لأنها خلقت في ساعة وخرجت من الصخرة وقيل لأنه كان لها شرب يوم ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم وهذا من المعجزة أيضاً لأن ناقة تشرب ما تشربه قبيلة معجزة وكانوا يحلبونها في يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء وهذ أيضاً معجزة وقيل إن سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم شرب الناقة وتشرب الحيوانات الماء في غير يوم الناقة وهذا أيضاً معجزة وإنما أضافها إلى الله تعالى في قوله هذه ناقة الله على سبيل التفضيل والتشريف كما يقال بيت الله وقيل لأن الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى وقيل لأنه لم يملكها أحد إلا الله تعالى وقيل لأنها كانت حجة الله على قوم صالح ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ يعني فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله فإن الأرض لله والناقة أيضاً لله وليس لكم في أرض الله شيء لأنه هو الذي أنبت العشب فيها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ يعني ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الأذى ولا تعقروها ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ يعني بسبب عقرها وأذاها.

تلك البقعة. ويُروى: أنّ النبيَّ منَ الأنبياء إذا هلك قومُه جاءَ هو والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله فيها حتى يموتوا.

قوله تعالى: ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً ﴾، وهو ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح، وأراد ههنا القبيلة. قال أبو عمرو بنِ العلاء: سُمّيت ثمود لقلّة مائها، والثمد: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، ﴿أخاهم صالحاً﴾ أي أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب لا في الدين صالحاً، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن خادر بن ثمود، ﴿ قالَ يا قوم اعبدُوا اللّهَ ما لكم مِنْ إلَهٍ غيرُهُ قدْ جاءتْكم بيّنةٌ مّن رّبِّكم ﴾، على صدق، ﴿ هذه ناقةُ الله ﴾، أضافها إليه على التفضيل والتخصيص، كما يقال بيت الله، ﴿ لكم آيةً ﴾، نصب على الحال، ﴿ فَذَرُوها تأكلْ ﴾، العشب، ﴿ في أرضِ اللّهِ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ﴾، لا تصيبوها بعقر، ﴿ فيأخُذَكم عذابٌ أليم ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا
وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ
قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦
فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾

﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد**﴾ يعني أن الله أهلك عاداً وجعلكم تخلفونهم في الأرض وتعمرونها ﴿**وبوأكم**﴾ يعني وأسكنكم وأنزلكم ﴿**في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً**﴾ يعني تبنون القصور من سهولة الأرض لأن القصور إنما تبنى من اللِّبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين ﴿**وتنحتون الجبال بيوتاً**﴾ يعني وتشقون بيوتاً من الجبال وقيل كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وهذا يدل على أنهم كانوا متمتعين مترهفين ﴿**فاذكروا آلاء الله**﴾ أي فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ قال قتادة: معناه ولا تسيروا في الأرض مفسدين فيها والعثو أشد الفساد وقيل أراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهي عن جميع أنواع الفساد ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه**﴾ يعني قال الأشراف الذين تعظموا عن الإيمان بصالح ﴿**للذين استضعفوا**﴾ يعني المساكين ﴿**لمن آمن منهم**﴾ يعني قال الأشراف المتعظمون في أنفسهم لأتباعهم الذين آمنوا بصالح وهم الضعفاء من قومه ﴿**أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه**﴾ يعني أن الله أرسله إلينا وإليكم ﴿**قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون**﴾ يعني قال الضعفاء إنا بما أرسل الله به صالحاً من الدين والهدى مصدقون ﴿**قال الذين استكبروا**﴾ يعني عن أمر الله والإيمان به وبرسوله صالح ﴿**إنا بالذي آمنتم به كافرون**﴾ أي جاحدون منكرون ﴿**فعقروا الناقة**﴾ يعني فعقرت ثمود الناقة والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقراً لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره ﴿**وعتوا عن أمر ربهم**﴾ أي تكبروا عن أمر ربهم وعصوه والعتو الغلوّ في الباطل والتكبر عن الحق والمعنى أنهم عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذبوا نبيهم صالحاً عليه الصلاة والسلام ﴿**وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا**﴾ يعني من العذاب ﴿**إن كنت من المرسلين**﴾

﴿ **واذكُرُوا إذْ جعلكم خلفاءَ من بعد عادٍ وبوّأكم** ﴾، أسكنكم وأنزلكم، ﴿ **في الأرض تَتّخِذُونَ مِن سُهولها قُصوراً وَتَنْحِتُون الجبالَ بُيوتاً** ﴾، كانوا ينقبون في الجبال البيت ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، وفي الشتاء بيوت الجبل. وقيل: كانوا ينحتون البيوت في الجبل لأن بيوت الطين ما كانت تبقى مدة أعمارهم لطول أعمارهم، ﴿ **فاذكرُوا آلاءَ اللّهِ ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفسدين** ﴾، والعثو: أشدّ الفساد.

﴿ **قالَ الملأ** ﴾ قرأ ابن عامر: «وقـالَ المـلأ» بالواو، ﴿ **الذينَ استكبرُوا مِن قومِه** ﴾، يعني الأشراف والقادة الذين تعظّمُوا عن الإيمان بصالح، ﴿ **للذين اسْتُضْعِفُوا** ﴾، يعني الأتباع، ﴿ **لِمَنْ آمنَ منهم** ﴾، يعني: قال الكفّار للمؤمنين، ﴿ **أتعلمون أنّ صالحاً مُرسلٌ من ربِّه** ﴾، إليكم، ﴿ **قالوا إنّا بما أُرسلَ به مُؤمنون** ﴾.

﴿ **قال الذين استكبرُوا إنّا بالذي آمنتُمْ بهِ كافرون** ﴾، جاحدون.

﴿ **فعقرُوا النّاقةَ** ﴾، قال الأزهري: العقر هو قطع عرقوب البعير، ثم جُعل النحر عقراً لأنّ ناحر البعير يعقره ثم ينحره. ﴿ **وعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم** ﴾، والعتو الغلو في الباطل، يقال: عتا يعتو عتوّاً إذا استكبروا، والمعنى: عصوا

يعني: إن كنت كما تزعم أنك رسول الله فإن الله تعالى ينصر رسله على أعدائه وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا مكذبين في كل ما أخبرهم به من العذاب فعجل الله لهم ذلك فقال تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ قال الفراء والزجاج: الرجفة الزلزلة الشديدة العظيمة، وقال مجاهد والسدي: هي الصيحة فيحتمل أنهم أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا وهو قوله تعالى: **﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾** يعني فأصبحوا في أرضهم وبلدهم جاثمين ولذلك وحد الدار كما يقال دار الحرب أي بلد الحرب ودار بني فلان بمعنى موضعهم ومجمعهم وجمع في آية أخرى، فقال في ديارهم لأنه أراد ما لكل واحد منهم من الديار والمساكن وقوله جاثمين يعني باركين على الركب والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئاً بالأرض في حال نومه وسكونه بالليل والمعنى أنهم أصبحوا جاثمين على وجوههم موتى لا يتحركون **﴿فتولى عنهم﴾** يعني فأعرض عنهم صالح وفي وقت هذا التولي قولان:

أحدهما: أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله «فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم» والفاء للتعقيب فدل على أنه جعل هذا التولي بعد جثومهم وهو موتهم.

والقول الثاني: أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم **﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾** وهذا الخطاب لا يليق إلا بالأحياء فعلى هذا القول يحتمل أن يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا أنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخاً وتقريعاً كما خاطب النبي ﷺ الكفار من قتلى بدر حين ألقوا في القليب فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث في الصحيح وفيه فقال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أقواماً قد جيفوا فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون. وقيل إنما خاطبهم صالح بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها.

الله وتركوا أمره في الناقة وكذّبوا نبيّهم. **﴿وقالوا يا صالحُ ائتِنا بما تعِدُنا﴾**، أي: من العذاب، **﴿إنْ كنتَ من المرسلين﴾**.

﴿فأخذتْهُمُ الرجفةُ﴾، وهي زلزلة الأرض وحركتها وأهلكوا بالصيحة والرجفة، **﴿فأصبحُوا في دارهم﴾**، قيل: أراد الديار. وقيل: أراد في أرضهم وبلدتهم، ولذلك وحّد الدار، **﴿جاثمين﴾**، خامدين ميتين. قيل: سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم.

﴿فتولّى﴾، أعرض صالح، **﴿عنهم وقالَ يا قومِ لقدْ أبلغتُكم رسالةَ ربّي ونصحتُ لكم ولكن لا تُحبُّون النّاصحين﴾**، فإن قيل: كيف خاطبهم بقوله لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحتُ لكم بعدما أُهلكوا بالرجفة؟ قيل: كما خاطب النبي ﷺ الكفّار من قتلى بدر حين ألقاهم في القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «أيسرّكم أنّكم أطعتم الله ورسوله فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول

(ذكر قصة ثمود على ما ذكره محمد بن إسحاق ووهب بن منبه وغيرهما من أصحاب السير والأخبار)

قالوا جميعاً إن عاد لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى إن أحدهم ليبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً وكانوا في سعة من العيش والرخاء فعثوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى إليهم صالحاً نبياً وكانوا قوماً عرباً وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم بيتاً وحسباً فبعثه الله تعالى إليهم وهو غلام فلم يزل يدعوهم إلى الله تعالى وإلى عبادته حتى شمط وكبر فلم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقاً على ما يقول فقال صالح أي آية تريدون؟ فقالوا: تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه أصنامهم، وذلك في يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة، لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة، ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت بالبخت من الإبل فإن فعلت آمنا بك وصدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير أنه لا يعلم ما بين جنبها إلا الله عز وجل عظماً وهم ينظرون إليها ثم نتجت سقباً مثلها في العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط معه من قومه وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب وكانا صاحبا أوثانهم ورباب بن ضمير وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح: هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غباً فإذا كان يوم ورودها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما

منهم، ولكنْ لا يجيبون». وقيل: خاطبهم ليكون عبرة لمَن خلفهم. وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها: فتولّى عنهم، وقال: يا قوم لقد أبلغتُكم رسالة ربّي فأخذتهم الرجفة. وكانت قصة ثمود على ما ذكرها محمد بن إسحاق ووهب وغيرهما: أن عاد لمّا هلكت وتقضي أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل منهم حيّ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سعة من معاشهم فعَثَوا وأفسدُوا في الأرض وعبدُوا غير الله، فبعث الله فيهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً وموضعاً، فبعث الله إليهم غلاماً شابّاً فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم إلاّ قليل مستضعفون، فلمّا ألحّ عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يُريهم آية تكون مصداقاً إلى ما يقول، فقال لهم: أيّ آية تريدون؟ قالوا: أتخرج معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلَهك وندعوا آلهتنا، فإن استُجيب لك اتبعناك وإن استُجيب لنا اتّبعتنا، فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم، وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يُستجاب لصالح في شيء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة منفردة في ناحية من الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكل البخت من الإبل، فإن فعلتَ صدقناك وآمنّا بك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقنّي ولتؤمنّ

فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملؤوا أوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذي وردت منه ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت حتى إذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربوا ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة فهم على ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم الإبل والبقر والغنم فتهبط إلى بطن الوادي فتكون في حره وجدبه وإذا كان الشتاء فتشتو الناقة في بطن الوادي فتهرب المواشي إلى ظهره فتكون في البرد والجدب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله بهم والبلاء الاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لأحداهما عنيزة بنت غنم بن مخلد وتكنى بأم غنم وكانت عجوزاً مسنة وهي امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم، والمرأة الأخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بمواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعت صدقة رجلاً من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال لها مصدع بن مهزج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وجهاً وأكثرهم مالاً فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً ويزعمون أنه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه فقالت عنيزة لقدار أي بناتي شئت أعطيتك على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه (ق).

عن عبد الله بن زمعة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ «إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة» قوله انبعث أي قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع الممتنع ممن أراده. قال أصحاب الأخبار: فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهزج، فاستنفروا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل صخرة أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم في عضلة ساقها فخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها فسفرت عن وجهها

بي، قالوا: نعم، فصلّى صالح ركعتين ودعا به فتمخضت الصخرة تمخّض النتوج بولدها، ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وَصَفُوا لا يعلم ما بين جنبيها عظماً إلاّ الله، وهم ينظرون ثم نتجت سبقاً مثلها في العظم، فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يُؤمنوا به ويصدقوه فنهاهم ذُؤاب بن عمر بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمغر وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود، فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومَعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء، فكانت ترد الماء غبًا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ماء فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج حتى تفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا من لبن فيشربون ويدّخرون حتى يملؤوا أوانيهم كلها ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر أن تصدر من حيث ترد يضيق عنها، حتى إذا كان يومهم فيشربون ما شاؤوا من الماء ويدّخرون ما شاؤوا ليوم الناقة، فهل له من ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحرّ بظهر الوادي فتهرب منها المواشي أغنامهم وبقرهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادي في حرّه وجدبه، وذلك أن المواشي تنفر منها إذا رأتها وتشتو ببطن الوادي إذا كان الشتاء فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والجدب فأضرّ ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربّهم وحملهم ذلك على عقر الناقة، فأجمعوا على عقرها، وكانت امرأتان من ثمود إحداهما يقال لها عنيزة بنت

وكانت من أحسن الناس وجهاً ليراها قدار ثم حثته على عقرها وأغرته فشد قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرجت ورغت رغاة واحدة فتحذر سقبها من الجبل ثم طعن قدار في لبتها فنحرها فخرج أهل البلد فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هارباً حتى أتى جبلاً منيعاً يقال له صور وقيل قارة وأتى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل نحوها وخرج أهل البلد يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون يا نبي الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالى إلى الجبل أنْ تطاولْ فتطاول حتى ما تناله الطير وجاء صالح عليه السلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثاً ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن إسحاق تبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهزج وأخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فأصاب قلبه ثم جذبه فأنزله وألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام: انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزؤون به: ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك؟ وكانوا يسمون الأيام في ذلك الوقت الأحد أول والأثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام حين قالوا ذلك: تصبحون غداً يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمّرة، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلموا فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلاً ليقتلوه في أهله

غنم بن مجلز تكنّى بأُم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزاً مسنّة، وكانت ذات بنات حِسان وذات مال من إبل وبقر وغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوف بنت المحيا وكانت جميلة غنية ذات مواشٍ كثيرة، وكانتا من أشدّ الناس عداوة لصالح وكانتا تحبّان عقر الناقة لما أضرّت بهما من مواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعتْ صدوف رجلاً من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عمّ لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالاً، فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان لزانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراش سالف، فقالت أُعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا موسى بن إسماعيل حدّثنا وهيب حدّثنا هشام عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿إذا انبعث أشقاها﴾ [الشمس: ١٢]، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في قومه مثل أبي زمعة. رجعنا إلى القصة، قالوا: فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط، فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكَمَنَ لها مصدع في طريق آخر فمرّت على مصدع، فرماها بسهم فانتظم به في عضلة ساقها، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فأسفرت لقدار ثم زمرته، فشدّ على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرّت ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها، ثم طعن في لبّتها فنحرها، وخرج أهل البلد واقتسموا لحمها وطبخوه، فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتى جبلاً منيعاً يقال له صنو، وقيل: اسمه قارة وأتى صالح فقيل له: أدرك الناقة فقد عقرت، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يا نبيّ الله إنّما عقرها فلان ولا ذنب لنا، فقال صالح: انظروا هل تذكرون فصيلها فإن أدركتموه فعسى أن يرفع الله عنكم العذاب، فخرجوا يطلبونه،

فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لا تقتلوه أبداً فإنه قد وعدكم العذاب أنه نازل بكم بعد ثلاث فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم إلا غضباً عليكم وإن كان كاذباً فأنتم وراء ما تريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم فيما قال فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحي من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب وهو مشرك فمنع صالحاً فلم يقدروا عليه وكانوا عمدوا إلى أصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم: يا نبي الله إنهم يعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم عليك؟ قال: نعم. فدلوهم عليه فأتوا أبو هدب فكلموه في أمر صالح فقال هو عندي وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما نزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وأيقنوا أنه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعاً ألا قد حضركم العذاب فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من بين أظهرهم إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبحوا في اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا وألقوا بأنفسهم إلى الأرض يقلّبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل

فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله إلى الجبل فتطاول في السماء حتى لا تناله الطير، وجاء صالح فلما رأى الفصيل بكى حتى سالت دموعه، ثم رغا ثلاثاً وانفجرت الصخرة فدخلها، فقال صالح لكل رغوة أجل يوم فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. وقال ابن إسحاق: اتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة، وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه هؤاب بن مهرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه، جرّه برجله فأنزله، فألقوا لحمه مع لحم أُدمه، وقال لهم صالح: انتهكتم حُرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته، قالوا وهم يهزؤون به: ومتى ذلك يا صالح؟ وما آية ذلك؟ وكانوا يسمّون الأيام فيهم الأحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنساً والجمعة العروبة والسبت شبار، وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح حين قالوا ذلك: تُصبحون غداة يوم مؤنس ووجوهكم مصفرّة، ثم تُصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرّة، ثم تُصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودّة، ثم يصبحكم العذاب يوم أول، فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلمّ فلنقتلْ صالحاً فإن كان صادقاً عجّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً قد كنّا ألحقناه بناقته فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجاره، فلما أبطـؤا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح أنت قتلتهم، ثم همّوا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث ساعات، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلّا غضباً وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرّة كأنّما طُلِيَت بالخلوف صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأُنثاهم، فعند ذلك أيقنوا العذاب وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم، فطلبوه ليقتلوه وخرج صالح هارباً منهم حتى جاء إلى بطـن من ثمود يقال لهم بني غنم، فنزل على سيدهم رجل يقال له نفيل ويُكنّى بأبي هدب وهو مشرك فغيّبه عنهم ولم يقدروا عليه فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلّوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم: يا نبيّ الله إنهم ليعذبوننا لنهديهم عليك أفندلّهم؟ قال: «نعم»، فدلّهم عليه وأتوا أبا هدب فكلّموه

صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وهلكوا جميعاً إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام فأطلق الله تعالى رجليها بعد ما عاينت العذاب وما أصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى فأخبرتهم بما عاينت من العذاب الذي بثمود ثم استقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت في الحال. وذكر السدي في عقر الناقة فقال: أوحى الله عز وجل إلى صالح عليه والسلام إن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ما كنا لنفعل فقال صالح إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لا يولد لنا في هذا الشهر ولد إلا قتلناه قال فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر أولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فأبى أن يذبحه لأنه كان لم يولد له قبل ذلك ولد وكان الولد الذي ولد له أحمر أزرق فنبت نباتاً سريعاً فكان إذا مر بالتسعة فرأوه، قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله يعني فتحالفوا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا نخرج فنرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع إلى الغار فنكون فيه حتى ننصرف إلى رحلنا فنقول ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا فيظنون أنا قد خرجنا إلى سفر وكان صالح لا ينام معهم في القرية بل كان يبيت في مسجد له خارج القرية فإذا أصبح أتاهم فيعظهم ويذكرهم فإذا أمسى خرج إلى مسجده فيتعبد فيه قال فانطلق التسعة إلى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلوا فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على أمرهم لينظروا ما فعل أولئك النفر فرأوهم وهم رضخ فرجعوا إلى القرية يصيحون ما رضي صالح بقتل

في ذلك، فقال: نعم عندي صالح وليس لكم عليه سبيل، فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه، فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم أمسوا صاحوا بأجمعهم ألاَ قدْ مضى يوم من الأجل، فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرّة كأنما خضِّبت بالدماء فصاحوا وبكوا، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب، فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودّة كأنّما طُليت بالقار فصاحوا بأجمعهم ألاَ قد حضركم العذاب، فلما أن كانت ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومَن أسلم معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، فلما أصبح القوم تكفّنوا وتحنطوا وألقوا أنفسهم بالأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرّة وإلى الأرض مرّة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء له صوت في الأرض فقطعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلاّ هلك كما قال الله تعالى: ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾، إلاّ جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح فأطلق الله رجليها بعدما عاينت العذاب فخرجت كأسرع ما يرى شيء قطّ حتى أتت قزح وهو واد القرى من حدما بين الحجاز والشام، فأخبرتهم بما عاينته من العذاب وما أصاب ثمود، ثم استقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت. وذكر السدي في عقر الناقة: وأوحى الله إلى صالح عليه السلام أنّ قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم ذلك فقالوا: ما كنّا نفعل، فقال صالح: إنه يولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه، فقالوا: لا يولد لنا ولد في هذا الشهر إلاّ قتلناه، قال: فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولد له قبل ذلك وكان ابنه أزرق أحمر فنبت نباتاً سريعاً وكان إذا مرّ بالتسعة قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم، فتقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله، قالوا: نخرج فيرى الناس أنّا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم رجعنا إلى الغار فكنّا فيه ثم انصرفنا إلى رحلنا فقلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا يظنون أنّا قد خرجنا إلى سفر، وكان صالح لا ينام معهم في القرية،

أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة. وقال ابن إسحاق: كان التسعة قد تقاسموا على تبييت صالح بعد عقر الناقة، وقال السدي وغيره: لما ولد للعاشر ولد سماه بقدار فكان يشب سريعاً فلما كبر جلس مع أناس يشربون الخمر فأرادوا ماء ليمزجوا به شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن بلبن هذه الناقة ولو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه لأنعامنا وزروعنا كان خيراً لنا، وقال ابن العاشر: هل لكم أن أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي» وفي رواية لمسلم: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين» ثم ذكر مثله ولهما عنه أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهرقوا ما استقوه ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة «وللبخاري» أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارهم ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم النبي ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء. وفي بعض الأحاديث قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآيات فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتقى الفصيل من القارة فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً واحداً يقال له أبو وغال وهو أبو ثقيف، كان في حرم الله فمنعه حرم الله

وكان يبيت في مسجد يقال له مسجد صالح، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكّرهم وإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه فانطلقوا فدخلوا الغار، فسقط عليهم الغار فقتلهم فانطلق رجال ممّن قد اطّلع على ذلك منهم فإذا هم رضخ فرجعوا يصيحون في القرية أيْ عباد الله ما رضي صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم، فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة. وقال ابن إسحاق: كان تقاسم التسعة على تبييت صالح بعد عقرهم الناقة كما ذكر. قال السدي وغيره: فلما ولد ابن العاشر يعني قد أرشب في اليوم شباب غيره في الجمعة وشبّ في شهر شباب غيره في السنة، فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب، فأرادوا ماءً يمزجون به شرابهم، وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة، فاشتدّ ذلك عليهم وقالوا: ما نصنع نحن باللبن لو كنّا نأخذ هذا الماء الذي تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحروثنا كان خيراً لنا، فقال ابن العاشر: هل لكم في أن أعقرها لكم؟ قالوا: نعم، فعقرها. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن مسكين ثنا يحيىٰ بن حسان بن حيان أبو زكريا ثنا سليمان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لمّا نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئر بها ولا يسقوا منها، فقالوا: قد عجنّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء. وقال نافع عن ابن عمر: فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من آبارها وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة. ورُوِيَ عن الزبير عن جابر قال: لمّا مرّ رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخل أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائهم ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلّا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، ثم قال: «أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الناقة فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها، وأراهم مرتقى الفصيل من الجهل فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً واحداً يقال له أبو رغال، وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ودفن معه غصن من ذهب، وأراهم قبر أبي

تعالى من عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله ﷺ قبر أبي رغال فنزل القوم وابتدروه بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن» وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمي حضرموت ثم بنوا أربعة آلاف مدينة وسموها حضوراء وقال قوم من أهل العلم: توفي صالح عليه الصلاة السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه عشرين سنة قوله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿ولوطاً﴾ يعني وأرسلنا لوطاً وقيل: معناه واذكر يا محمد لوطاً وهو لوط بن هاران بن تارخ وهو ابن أخي إبراهيم وإبراهيم عمه ﴿إذ قال لقومه﴾ يعني أهل سدوم وإليهم كان قد أرسل وذلك أن لوطاً عليه الصلاة والسلام لما هاجر مع عمه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلى الشام فنزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أرض فلسطين ونزل لوط الأردن أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ يعني أتفعلون الفعلة الخسيسة التي هي غاية في القبح وكانت فاحشتهم إتيان الذكران في أدبارهم ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ من الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض، والمعنى: ما سبقكم أيها القوم بهذه الفعلة الفاحشة أحد من العالمين قبلكم وفي هذا الكلام توبيخ لهم وتقريع على فعلهم تلك الفاحشة. قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوط ﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ يعني في أدبارهم ﴿شهوة من دون النساء﴾ يعني في أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء ﴿بل أنتم﴾ يعني أيها القوم ﴿قوم مسرفون﴾ أي مجاوزون الحلال إلى الحرام وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا وجعل النساء محلاً للشهوة وموضع النسل فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فكأنما قد أسرف وجاوز واعتدى لأنه وضع الشيء في غير محله وموضعه الذي خلق له لأن أدبار الرجال ليست محلاً للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة المركبة في الإنسان وكانت قصة قوم لوط، على ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار والسير أنه كانت قرى قوم لوط مخصبة

رغال، فنزل القوم فابتدروا بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن، وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلما دخلوها مات صالح فسمّى حضرموت ثم بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها حاضوراء»، قال قوم من أهل العلم: في صالح وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

قوله تعالى: ﴿ ولوطاً ﴾، أي: وأرسلنا لوطاً. وقيل: معناه واذكر لوطاً. وهو لوط بن هاران بن تارخ بن أخي إبراهيم، ﴿ وإذْ قالَ لقومِه ﴾، وهم أهل سدوم وذلك أن لوطاً شخص من أرض بابل سافر مع عمّه إبراهيم عليه السلام مؤمناً مهاجراً معه إلى الشام، فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوطاً الأردن، فأرسله الله عزّ وجلّ إلى أهل سدوم فقال لهم: ﴿ أتأتونَ الفَاحِشَةَ ﴾، يعني: إتيان الذكر، ﴿ ما سبقكم بها من أحدٍ منَ العَالَمين ﴾، قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوطٍ.

﴿ إنّكم ﴾، قرأ أهل المدينة وحفص «إنكـم» بكسر الألف على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستئناف، ﴿ لَتأتونَ الرِّجالَ ﴾، في أدبارهم، ﴿ شهوةً مِنْ دُونِ النِّساء ﴾، فسر تلك الفاحشة يعني أدبار الرجال أشهى إليكم من فروج النساء، ﴿ بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ مجاوزون الحلال إلى الحرام. قال محمد بن إسحاق: كانت لهم ثمار

ذات زروع وثمار لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم وضيقوا عليهم فعرض لهم إبليس في صورة شيخ وقال لهم إذا فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما أحل الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلماناً حساناً صباحاً فأخبثوا واستحكم ذلك فيهم. قال الحسن: كانوا لا ينكحون إلا الغرباء، وقيل: استحكم ذلك الفعل فيهم حتى نكح بعضهم بعضاً. وقال الكلبي: إن أول من عمل به عمل قوم لوط إبليس وذلك لأن بلادهم أخصبت فقصدها أهل البلدان فتمثل لهم إبليس في صورة شاب أمرد فدعا إلى نفسه فكان أول من نكح في دبره فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وما كان جواب قومه﴾ يعني وما كان جواب قوم لوط للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث ﴿إلا أن قالوا﴾ يعني قال بعضهم لبعض ﴿أخرجوهم من قريتكم﴾ يعني أخرجوا لوطاً وأتباعه وأهل دينه من بلدكم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ يعني أنهم أناس يتنزهون عن فعلكم وعن أدبار الرجال لأنها موضع النجاسة ومن تركها فقد تطهر، وقيل: إن البعد عن المعاصي والآثام يسمى طهارة فمن تباعد عنهما فقد تطهر فلهذا قال إنهم أناس يتطهرون أي من فعل المعاصي والآثام ﴿فأنجيناه وأهله﴾ يعني فأنجينا لوطاً ومن آمن به واتبعه على دينه، وقيل: المراد بأهله المتصلون به بسبب النسل أو المراد بأهله ابنتاه ﴿إلا امرأته﴾ يعني زوجته ﴿كانت من الغابرين﴾ يعني كانت من الباقين في العذاب لأنها كانت كافرة، وقيل: معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل ثم هلكت مع من هلك من قوم لوط وإنما قال من الغابرين ولم يقل من الغابرات لأنها هلكت

وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس لينالوا من ثمارهم فآذوهم، فعرض لهم إبليس في صورة شيخ، فقال: إن فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم، فأبوا فلما ألحّ عليهم قصدوهم فأصابوهم غلماناً صباحاً فأخذوهم وقهروهم على أنفسهم وأخبثوا بهم، فاستحكم ذلك فيهم. قال الحسن: كانوا لا ينكحون إلّا الغرباء. وقال الكلبي: إن أول مَن عمل عمل قومِ لوط إبليس، لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان فتمثّل لهم إبليس في صورة شاب ثم دعا إلى دبره فنكح في دبره فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم.

﴿ وما كانَ جوابَ قومِهِ إلّا أن قالوا ﴾، قال بعضهم لبعض، ﴿ أخرجُوهم ﴾، يعني: لوطاً وأهل دينه، ﴿ من قريتكم إنّهم أُناس يتطهَّرُون ﴾، يتنزهون عن أدبار الرجال.

﴿ فأنجيناه ﴾، يعني: لوطاً، ﴿ وأهله ﴾، المؤمنين، وقيل: أهله ابنتاه، ﴿ إلّا امرأته كانتْ منَ الغابرين ﴾، يعني البـاقين في العذاب، وقيل: معناه كانت من الباقين المعمّرين قد أتى عليها دهر طويل فهلكتْ مع مَن هلك من قوم لوط، وإنما قال: ﴿ من الغابرين ﴾، لأنه أراد ممّن بقي من الرجال فلمّا ضمّ ذكرها إلى ذكر الرجال قال من الغابرين.

مع الرجال فغلب الرجال فقال من الغابرين ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ يعني حجارة من سجّيل قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت. وقال أبو عبيدة: يقال في العذاب أمطرت وفي الرحمة مطرت ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ يعني انظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالله ورسوله وعملوا الفواحش كيف أهلكناهم. قال مجاهد: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها إلى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة. وقوله فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وإن كان هذا الخطاب للنبي ﷺ لكن المراد به غيره من أمته ليعتبروا بما جرى على أولئك فينزجروا بذلك الاعتبار عن الأفعال القبيحة والفواحش الخبيثة.

قوله عز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ يعني: وأرسلنا إلى مدين أكثر المفسرين على أن مدين اسم رجل وهو مدين بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فعلى هذا يكون المعنى وأرسلنا إلى ولد مدين ومدين اسم للقبيلة كما يقال بنو تميم بو عدي وبنو أسد. وقيل: مدين اسم للماء الذي كانوا عليه وقيل هو اسم للمدينة وعلى هذين القولين يكون المعنى: وأرسلنا إلى أهل مدين والصحيح هو الأول لقوله أخاهم شعيبا يعني في النسب لا في الدين وشعيب هو ابن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قاله عطاء وقال محمد بن إسحاق وهو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأم ميكيل بنت لوط عليه السلام. وقيل: هو شعيب بن يثرون بن ثويب بن مدين بن إبراهيم عليه السلام وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس في المكيال والميزان ﴿قال﴾ يعني شعيباً ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ يعني: قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقية ما أقول وصدق ما أدعي من النبوة والرسالة إليكم لأنه لا بد لكل نبي من معجزة تدل على صدق ما جاء به من عند الله غير أن تلك المعجزة التي كانت لشعيب لم تذكر في القرآن وليست كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن، وقيل: أراد بالبينة مجيء شعيب بالرسالة إليهم وقيل أراد بالبينة الموعظة وهي قوله: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ يعني فأتموا الكيل والميزان وأعطوا الناس حقوقهم وهو قوله ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ يعني لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها فتطففوا الكيل والوزن. يقال: بخس فلان في الكيل والوزن إذا نقصه وطففه ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ يعني بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة الرسل وإقامة العدل وكل نبي يبعث إلى قوم فهو صلاحهم ﴿ذلكم﴾ يعني الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من الإيمان بالله ووفاء

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾. يعني حجارة من سجّيل قال وهب: الكبريت والنار، ﴿ فانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ المجرمين ﴾، قال أبو عبيدة: يقال في العذاب أمطر وفي الرحمة مطر.

قوله تعالى: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين وهو مدين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وهم أصحاب الأيكة أخاهم شعيباً في النسب لا في الدين. قال عطاء: هو شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم. وقال ابن إسحاق: هو شعيب بن ميكائيل بن يزجر بن مدين بن إبراهيم وأُم ميكائيل بنت لوط. وقيل: هو شعيب بن يثرون بن مدين بن إبراهيم، وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الأنبياء لحُسن مراجعته قومه، وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان، ﴿ قال يا قوم اعبدُوا الله ما لكم مِنْ إلَهٍ غيرُهُ قدْ جاءتْكم بيِّنَةٌ من ربّكم ﴾، فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿ قد جاءتكم بيّنة من ربكم ﴾ ولم يكن لهم آية مذكورة قيل: قد كانت لهم هذه الآية إلّا أنها لم تذكر، وليست كل الآيات مذكورة في القرآن، وقيل: أراد بالبيّنة مجيء شعيب، ﴿ فأوفوا الكيل ﴾، أتمّوا الكيل، ﴿ والميزانَ ولا تَبْخَسُوا النّاسَ أشياءَهم ﴾، لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها، ﴿ ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحِها ﴾، أي: ببعث الرسل والأمر بالعدل، وكل نبي بعث إلى

الكيل والميزان وترك الظلم والبخس ﴿خير لكم﴾ يعني مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم مصدّقين بما أقول.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

﴿**ولا تقعدوا بكل صراط توعدون**﴾ يعني أن شعيباً قال لقومه الكفار ولا تقعدوا على كل طريق من الدين والحق تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك ذلك أنهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من يريد الإيمان بالله وبرسوله شعيب وهو قوله تعالى: ﴿**وتصدون عن سبيل الله من آمن به**﴾ يعني وتمنعون من يريد الإيمان بالله وتقولون إن شعيباً كذاب وتخوفونه بالقتل. قال ابن عباس: كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبا الذي تريدونه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ﴿**وتبغونها عوجاً**﴾ يعني: وتريدون اعوجاج الطريق عن الحق وعدولها عن القصد. وقيل معناه تلتمسون لها الزيغ والضلال ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد ﴿**واذكروا إذا كنتم قليلاً فكثركم**﴾ يعني: أن شعيباً عليه الصلاة والسلام ذكرهم نعمة الله عليهم. قال الزجاج: يحتمل ذلك ثلاثة أوجه كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقوة بعد الضعف ووجه ذلك أنهم إذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل والمعنى إنه كثركم بعد القلة وأعزكم بعد الذلة فاشكروا نعمة الله تعالى عليكم وآمنوا به ﴿**وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ يعني وانظروا نظر اعتبار ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك وأقرب الأمم إليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسله ﴿**وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا**﴾ يعني وإن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين فرقة آمنت بي وصدقت برسالتي وفرقة كذبت وجحدت رسالتي ﴿**فاصبروا**﴾ فيه وعيد وتهديد ﴿**حتى يحكم الله بيننا**﴾ يعني حتى يقضي الله ويفصل بيننا فيعجز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم ﴿**وهو خير الحاكمين**﴾ يعني أنه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف في حكمه وإنما قال خير الحاكمين لأنه قد يسمى بعض الأشخاص حاكماً على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم في الحقيقة

قوم فهو صلاحهم، ﴿ **ذلكم** ﴾ الذي ذكرت لكم وأمرتكم به، ﴿ **خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾، مصدّقين بما أقول.

﴿ **ولا تقعدُوا بكل صراط** ﴾، أي: على كل طريق، ﴿ **تُوعِدُون** ﴾، تهددون، ﴿ **وتَصُدُّونَ عن سبيل الله** ﴾، دين الله، ﴿ **مَنْ آمنَ به وتبغونها عِوجاً** ﴾، زيغاً، وقيل: تطلبون الإعوجاج في الدين والعدول عن القصد، وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيقولون لمَن يريد الإيمان لشعيب، إن شعيب كذاب فلا يفتنك عن دينك ويتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم. وقال السدي: كانوا عشّارين. ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم** ﴾، فكثر عددهم، ﴿ **وانظرُوا كيف كان عاقبةُ المفسدين** ﴾، أي: آخر أمر قوم لوط.

فلهذا قال وهو خير الحاكمين ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ يعني قال الجماعة من أشراف قومه الذين تكبروا عن الإيمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع شعيب ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا﴾ يعني أن قوم شعيب أجابوه بأن قالوا لا بد من أحد أمرين إما إخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا أو لترجعن إلى ديننا وملتنا وما نحن عليه وهذا فيه إشكال وهو أن شعيباً عليه الصلاة والسلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع إلى ما كان عليه فما معنى قوله أو لتعودن في ملتنا وأجيب عن هذا الإشكال بأن اتباع شعيب كانوا قبل الإيمان به على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعاً فدخل هو في الخطاب وإن لم يكن على ملتهم قط. وقيل: معناه لتصيرن إلى ملتنا فوقع العود على معنى الابتداء كما تقول قد عاد عليّ من فلان مكروه بمعنى قد لحقني منه ذلك وإن لم يكن قد سبق منه مكروه فهو كما قال الشاعر:

فــإن تكــن الأيــام أحســن مــدة إلــي فقــد عــادت لهــن ذنــوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان.

وقوله تعالى: ﴿قال أو لو كنا كارهين﴾ أي لا نعود في ملتكم وإن أكرهتمونا وأجبرتمونا على الدخول فيها فلا نقبل ولا ندخل ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ يعني أن شعيباً أجاب قومه إذ دعوه ومن آمن به إلى العود إلى ملتهم والدخول فيها فقال قد افترينا يعني قد اختلقنا على الله كذباً وتخرصنا عليه من القول باطلاً إن نحن رجعنا إلى ملتكم وقد علمنا فساد ما أنتم عليه من الملة والدين وقد أنقذنا الله وخلصنا منها وبصرنا خطأها وهذا أيضاً فيه من الاشكال مثل ما في الأول وهو أن شعيباً عليه الصلاة والسلام ما كان في ملتهم قط حتى يقول إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها والجواب عنه مثل ما أجيب عن الإشكال الأول وهو أن نقول إن الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة، إلا أن شعيباً نظم نفسه في جملتهم وإن كانا بريئاً مما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب. وقيل: معنى نجانا الله منها علمنا قبح ملتكم وفسادها فكأنه خلصنا منها وقوله تعالى إخباراً عنه ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ يعني وما يكون لنا أن نرجع إلى ملتكم ونترك الحق الذي نحن عليه إلا أن يشاء الله ربنا يعني إلا أن يكون قد سبق لنا في علم الله أن نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله وقدره فينا وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدي: ومعنى العود هنا الابتداء والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية أن شعيباً وأصحابه قالوا ما كنا لنرجع إلى ملتكم بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار إلا أن يريد الله إهلاكنا فأمورنا راجعة إلى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء بالطاعة ويشقي من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ألا ترى إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام «واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام» وكان نبينا محمد ﷺ كثيراً ما يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال الزجاج رحمه الله تعالى المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها

﴿وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به وطائفةٌ لم يُؤمنوا﴾، أي: إن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين مكذّبين ومصدقين، ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا﴾، بتعذيب المكذبين وإنجاء المصدقين، ﴿وهو خيرُ الحاكمين﴾.

﴿قال الملأُ الذين استكبرُوا مِن قومِه﴾، يعني الرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان به، ﴿لنُخرجنّك يا شعيبُ والذينَ آمنوا معكَ من قريتنا أو لَتعُودُنّ في مِلّتنا﴾، لترجعنّ إلى ديننا الذي نحن عليه، ﴿قال﴾ شعيب ﴿أَوَ لو كنّا كارِهين﴾، يعني: أَوَ لو كنّا أي: إن كنّا كارهين لذلك فتجبروننا عليه؟

وتصديق ذلك قوله ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ يعني أنه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون وما سيكون وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء فالسعيد من سعد في علم الله تعالى والشقي من شقي في علم الله تعالى ﴿على الله توكلنا﴾ على الله نعتمد وإليه نستند في أمورنا كلها فإنه الكافي لمن توكل عليه والمعنى: على الله توكلنا لا على غيره فكأنه ترك الأسباب ونظر إلى مسبب الأسباب ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ لما أيس شعيب من إيمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح أي اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعني بالعدل الذي لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ يعني خير الحاكمين قال الفراء إن أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح وقال غيره من أهل اللغة هي لغة مراد وأنشد لبعضهم في ذلك:

ألا أبلغ بني عصم رسولاً فإني عن فتى حكم غني

أراد أنه غني عن حاكمهم وقاضيهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما معنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول تعال أفاتحك يعني أقاضيك. وهذا قول قتادة والسدي وابن جريج وجمهور المفسرين أن الفاتح هو القاضي والحاكم سمي بذلك لأنه يفتح أغلاق الإشكال بين الخصوم ويفصلها. وقال الزجاج: وجائز أن يكون معناه ربنا أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف والمراد منه أن ينزل عليهم عذاباً يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتمييز.

وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً﴾ يعني وقال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وملتكم وما أنتم عليه ﴿إنكم إذاً لخاسرون﴾ يعني إنكم لمغبونون في فعلكم ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ يعني الزلزلة الشديدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ قال ابن عباس وغيره: فتح الله عليهم باباً من جهنم فأرسل عليهم حراً شديداً من جهنم فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا في الأسراب ليبردوا فيها فوجدوها أشد حراً من الظاهر فخرجوا هرباً إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهي الظلة فوجدوا لها برداً ونسيماً فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم

﴿ قد افترينا على اللَّهِ كذباً إن عُدْنَا في مِلَتِكم بعد إذْ نجّانا اللَّهُ منها وما يكون لنا أنْ نعودَ فيها ﴾، بعد إذ أنقذنا الله منها، **﴿ إلاّ أنْ يشاءَ اللَّهُ ربُّنا ﴾** يقول إلاّ أن يكون قد سبق لنا في علم الله ومشيئته أنّا نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا. فإن قيل: ما معنى قوله: **﴿ أو لَتَعُودُنّ في ملّتنا ﴾**، **﴿ وما يكون لنا أن نعودَ فيها ﴾**، ولم يكن شعيب قطّ على ملّتهم حتى يصحّ قولهم ترجع إلى ملّتنا؟ قيل: معناه أو لتدخلنّ في ملّتنا، فقال: وما كان لنا أن ندخل فيها. وقيل: معناه إن صرنا في ملّتكم. ومعنى عاد صار وقيل: أراد به قوم شعيب لأنهم كانوا كفّاراً فآمنوا فأجاب شعيب عنهم، قوله: **﴿ وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ علماً ﴾**، أحاط علمه بكل شيء، **﴿ على اللَّهِ توكلنا ﴾**، فيما توعدوننا فيه، ثم عاد شعيب بعدما أيس من فلاحهم فقال: **﴿ ربَّنا افتحْ بيننا وبينَ قومِنَا ﴾**، أي: اقضِ بيننا، **﴿ بالحق ﴾**، والفتّاح: القاضي، **﴿ وأنت خيرُ الفاتحين ﴾**، أي: الحاكمين.

﴿ قالَ الملأ الذين كفروا مِنْ قومه لئنِ اتبعتُم شُعيباً ﴾، تركتم دينكم، **﴿ إنّكم إذاً لخاسرون ﴾**، مغبونون، قال عطاء: جاهدون. قال الضحاك: عجزة.

ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد في المقلاة وصاروا رماداً، وروي أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا بها. وقال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة هلكوا جميعاً. قال أبو عبد الله البجلي: كان أبو جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم في زمن شعيب يوم الظلة اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعراً تبكيه وترثيه به:

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه هلك نار تحت ظلة
جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضمحلة

وقوله تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوماً من الدهر يقال: غنيت بالمكان أي أقمت به. والمغاني: المنازل التي بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد

أراد أقاموا فيها وقيل في معنى الآية كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين. يقال: غني الرجل إذا انغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر ﴿الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾ يعني خسروا أنفسهم بهلاكهم.

﴿ فأخذَتْهُم الرجفةُ فأصبحوا في دارِهِم جَاثمين ﴾، قال الكلبي: الزلزلة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: فتح الله عليهم باباً من جهنم فأرسل عليهم حرّاً شديداً فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ليبردوا فيها فإذا دخلوها وجدوها أشدّ حرّاً من الظاهر، فخرجوا هرباً إلى البرية فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فأظلّتهم، فنادى بعضهم بعضاً وهي الظلة، فوجدوا لها برداً ونسيماً حتى اجتمعوا تحت السحابة، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألْهبها اللّهُ عليهم ناراً ورجفت بهمُ الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وصاروا رماداً. ورُوِيَ أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلّط عليهم الحرّ. قال يزيد الجريري: سلّط الله عليهم الحرّ سبعة أيام ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم، فذلك قوله: ﴿ عذابُ يوم الظلة ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين، أما أصحاب الأيكة فأُهلكوا بالظلة، وأما أصحاب مدين فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا جميعاً. قال أبو عبد الله البجلي: كان أبو جاد وهوّز وحطّي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين، وكان ملكهم في زمن شعيب عليه السلام يوم الظلة كلمن، فلما هلك قامت ابنته تبكيه:

كلمن قد هدَّ ركني هلكه وسط المحلّة
سيد القوم أتاه هلك ناراً تحت ظله
جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضمحلّة

وقوله تعالى: ﴿ الذين كذّبوا شعيباً كأن لم يَغْنَوا فيها ﴾، أي: لم يقيموا ولم ينزلوا فيها، من قولهم: غنيت بالمكان إذا قمت به، والمغاني المنازل واحدها مغنى، وقيل: كأن لم يتنعموا فيها.

﴿ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرون ﴾، لا المؤمنين كما زعموا.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ
كَٰفِرِينَ ٩٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا
مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ وَلَوۡ
أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧﴾

﴿فتولى عنهم﴾ يعني فأعرض عنهم شعيب شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب **﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾** يعني أنه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه الصلاة والسلام وقوله **﴿فكيف آسى﴾** يعني أحزن **﴿على قوم كافرين﴾** والأسى أشد الحزن وإنما اشتد حزنه على قومه لأنهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الإجابة والإيمان فلما نزل بهم ما نزل من العذاب عزى نفسه فقال كيف أحزن على قوم كافرين لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بإصرارهم على الكفر. وقيل في معنى الآية إن شعيباً قال لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصحي فكيف أحزن عليكم يعني إنكم لستم مستحقِّين لأن يحزن عليكم.

فعلى القول الأول: إنه حصل لشعيب حزن على قومه.

وعلى القول الثاني: لم يحزن عليه والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾** فيه إضمار وحذف تقديره فكذبوه **﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾** قال ابن مسعود: البأساء الفقر والضراء المرضى وهو معنى قول الزجاج: فإنه قال البأساء كل ما نالهم من الشدة في أموالهم والضراء كل ما نالهم من الأمراض. وقيل: البأساء الشدة وضيق العيش والضراء الضر وسوء الحال **﴿لعلهم يضرعون﴾** يعني إنما فعلنا بهم ذلك لكي يتضرعوا ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد لأمر الله عز وجل والمراد من هذه الآية أن الله عز وجل لما عرف نبيه ﷺ أحوال الأنبياء مع أممهم المكذبة وقص عليه من أخبارهم وعرفه سنته في الأمم الذين خلوا من قبله وما صاروا إليه من الهلاك والعذاب عرفه في هذه الآية أنه قد أرسل رسلاً إلى أمم أخر فكذبوا رسلهم فأخذهم بالبأساء والضراء كما فعل بمن كذب برسله وفيه تخويف وتحذير الكفار قريش وغيرهم من لكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى أنه لا يجري تدبيره في أهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة إنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب وهو قوله تعالى: **﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾** لأن ورود النعمة على البدن والمال بعد الشدة والضيق يستدعيَ الانقياد للطاعة والاشتغال بالشكر. قال أهل اللغة: السيئة كل ما يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فالسيئة والحسنة هنا الشدة والرخاء. والمعنى أنه تعالى

﴿ فتولى عنهم ﴾، أعرض عنهم شعيب شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب، **﴿ وقال يا قومِ لقد أبلغتُكم رسالاتِ ربي ونصحتُ لكم فكيف آسَى ﴾**، أحزن، **﴿ على قومٍ كافرين ﴾**، والأسى: الحزن، والأسى: الصبر.

قوله: **﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ﴾**، فيه إضمار، يعني: فكذبوه، **﴿ إلّا أخذنا ﴾**، عاقبنا **﴿ أهلها ﴾**، حين لم يؤمنوا، **﴿ بالبأساءِ والضرّاء ﴾**، قال ابن مسعود: البأساء الفقر والضرّاء المرض، وهذا معنى قول مَن قال

بدل مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة في الأبدان فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يأخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله ﴿حتى عفوا﴾ يعني أنه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت أموالهم. يقال: عفا الشعر إذا كثر وطال. قال مجاهد: حتى كثرت أموالهم وأولادهم ﴿وقالوا﴾ يعني من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا إلى الرخاء والسعة ﴿قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ يعني أنهم قالوا هكذا عادة الدهر قديماً وحديثاً لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فإنهم لم يتركوا دينهم مما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى: ﴿فأخذناهم بغتة﴾ يعني أخذناهم فجأة آمن ما كانوا ليكون ذلكۤ أعظم لحسرتهم ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب.

قوله عز وجل: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ لما بين الله تعالى في هذه الآية الأولى ﴿إن الذين عصوا وتمردوا أخذهم بعذابه﴾ بين في هذه الآية أنهم لو آمنوا يعني بالله ورسوله وأطاعوه فيما أمرهم به واتقوا يعني ما نهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وبركات السماء المطر وبركات الأرض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى وإحسانه على عباده. وأصل البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة في نابت الأرض لأنه نشأ عن بركات السماء وهي المطر. وقال البغوي: أصل البركة المواظبة على الشيء. أي تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الأرض ورفعنا عنهم القحط والجدب ﴿ولكن كذبوا﴾ يعني فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا يعني الرسل ﴿فأخذناهم﴾ يعني بأنواع العذاب ﴿بما كانوا يكسبون﴾ يعني أخذناهم بسبب كسبهم الأعمال الخبيثة.

قوله تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار وفيه وعيد وتهديد وزجر، والمراد بالقرى مكة وما حولها، وقيل: هو عام في كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ يعني عذابنا ﴿بياتاً﴾ يعني ليلاً ﴿وهم نائمون﴾.

البأساء في الماء والضرّاء في النفس. وقيل: البأساء البؤس وضيق العيش، والضرّاء والضرّ سوء الحال. وقيل: البأساء في الحزن والضرّاء في الجدب، ﴿ لعلّهم يضرعُون ﴾، لكي يتضرعوا فيتوبوا.

﴿ ثم بدّلنا مكانَ السيئةِ الحسنة ﴾، يعني: النعمة والسعة والخصب والصحة، ﴿ حتى عَفَوا ﴾، أي: كثروا وازْدادوا، أو كثرت أموالهم، يقال: عفا الشعر إذا كثر. قال مجاهد: كثرت أموالهم وأولادهم، ﴿ وقالوا ﴾، من غرّتهم وغفلتهم بعدما صاروا إلى الرخاء، ﴿ قدْ مسّ آباءَنا الضرّاءُ والسرّاءُ ﴾، أي: هكذا كانت عادة الدهر قديماً لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسّنا من الضرّاء عقوبة من الله، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم فإنهم لم يتركوا دينهم لِما أصابهم من الضرّاء، قال الله تعالى عزّ وجلّ: ﴿ فأخذناهم بغتةً ﴾، فجأةً آمَنَ ما كانُوا ﴿ وهم لا يشعرون ﴾، بنزول العذاب.

﴿ ولو أنّ أهلَ القرى آمنوا واتَّقوا لَفَتَحْنَا عليهم بركاتٍ مِنَ السماء والأرض ﴾، يعني: المطر من السماء والنبات من الأرض. وأصل البركة: المواظبة على الشيء، أي: تابعنا عليهم المطر والنبات ورفعنا عنهم القحط والجدب، ﴿ ولكنْ كذّبوا فأخذناهمْ بما كانوا يكسِبُون ﴾، من الأعمال الخبيثة.

﴿ أفأَمِنَ أهلُ القرى ﴾ الذين كفروا وكذبوا، يعني: مكة وما حولها، ﴿ أن يأْتِيَهُمْ بأْسُنا ﴾، عذابنا، ﴿ بياتاً ﴾، ليلاً، ﴿ وهم نائمون ﴾.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿**أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى**﴾ يعني نهاراً لأن الضحى صدر النهار ﴿**وهم يلعبون**﴾ يعني: وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم. والمقصود من الآية أن الله خوفهم بنزول العذاب وهم في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذي يغلب على الإنسان التشاغل فيه بأمور الدنيا، وأمور الدنيا كلها لعب ويحتمل أن يكون المراد خوضهم في كفرهم وذلك لعب أيضاً لأنه يضر ولا ينفع ﴿**أفأمنوا مكر الله**﴾ يعني استدارجه إياهم بما أنعم عليهم من الدنيا وقيل: المراد به أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون، وعلى هذا الوجه فيكون بمعنى التحذير وسمي هذا العذاب مكراً لنزوله وهم في غفلة عنه لا يشعرون به ﴿**فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾ يعني أنه لا يأمن أن يكون ما أعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجاً إلا من خسر في أخراه وهلك مع الهالكين ﴿**أو لم يهد**﴾أو لم يبين ﴿**للذين يرثون الأرض من بعد**﴾ هلاك ﴿**أهلها**﴾ الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم ﴿**أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم**﴾ يعني لو نشاء أخذناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم ﴿**ونطبع**﴾ أي نختم ﴿**على قلوبهم فهم لا يسمعون**﴾ يعني لا يسمعون موعظة ولا يقبلون الإيمان ونطبع منقطع عما قبله والمعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز أن يكون معطوفاً على الماضي ولفظه لفظ المستقبل والمعنى لو شئنا طبعنا على قلوبهم ﴿**تلك القرى**﴾ يعني هذه القرى التي ذكرنا لك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ﴿**نقصّ عليك من أنبائها**﴾ يعني نخبرك عنها وعن أخبار أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا إليهم لتعلم يا محمد إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائنا وأعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف أهلكناهم بكفرهم وبمخالفتهم رسلهم ففيه تسلية للنبي ﷺ وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿**ولقد جاءتهم**﴾ يعني لأهل

﴿ **أَوَ أَمِنَ** ﴾، قرأ أهل الحجاز والشام: (أَوْ أَمِـنَ) بسكون الواو، والباقون بفتحها، ﴿ **أهلُ القرى أن يأتِيَهُم بأسُنا ضُحىً** ﴾، أي: نهاراً، والضحى: صدر النهار، ووقت انبساط الشمس، ﴿ **وهم يلعبون** ﴾، ساهون لاهون.

﴿ **أفأمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فلا يَأْمَنُ مكرَ اللَّهِ إلاّ القومُ الخاسرون** ﴾، ومكر الله استدراجه إيّاهم بما أنعم عليهم في دنياهم. وقال عطية: يعني أخذه وعذابه.

﴿ **أوَ لمْ يهدِ** ﴾، قرأ قتادة ويعقوب: (نهـدِ) بالنون على التعظيم، والباقون بالياء على التفريد، يعني أوَلم يتبيّن، ﴿ **للذين يرثونَ الأرضَ مِن بعد** ﴾، هلاك ﴿ **أهلها** ﴾، الذين كانوا فيها، ﴿ **أنْ لو نشاءُ أصَبْناهم** ﴾، أي: أخذناهم وعاقبناهم، ﴿ **بذنوبهم** ﴾ كما عاقبنا مَن قبلهم، ﴿ **ونَطْبَعُ** ﴾، نختم، ﴿ **على قلوبهم فهم لا يسمعون** ﴾، الإيمان ولا يقبلون الموعظة، قال الزجّاج: قوله: ﴿ **ونطبع** ﴾ منقطع عمّا قبله لأن قوله: ﴿ **أصَبْناهم** ﴾ ماضٍ و﴿ **نطبع** ﴾ مستقبل.

﴿ **تلك القرى** ﴾، أي: هذه القرى التي ذكرت لك أمرها وأمر أهلها يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط

تلك القرى ﴿رسلهم بالبينات﴾ يعني جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ اختلف أهل التفسير في معنى ذلك فقيل: معناه فما كانوا هؤلاء المشركين الذين أهلكناهم من أهل القرى ليؤمنوا عند إرسالنا إليهم رسلهم بما كذبوا من قبل ذلك وهو يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فأقروا باللسان وأضمروا التكذيب وهذا معنى قول ابن عباس والسدي. قال السدي: آمنوا كرهاً يوم أخذ الميثاق، وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ومعاينتهم العذاب ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم وقيل معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق لهم في علم الله أنهم يكذبون به حين أخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام.

قال أبيّ بن كعب: كان سبق لهم في علمه يوم أقروا له بالميثاق أنهم لا يؤمنون به وقال الربيع بن أنس يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ما أبدى لهم ربهم وأن لا يتأولوا علم ما أخفى الله تعالى عنهم فإن علمه نافذ فيما كان وفيما يكون وفي ذلك قال تعالى: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ قال: نفذ علمه فيهم أيهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في صلب آدم عليه الصلاة والسلام. قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب قول أبيّ بن كعب والربيع بن أنس وذلك أن من سبق في علم الله أنه لا يؤمن به فلا يؤمن أبداً وقد كان سبق في علم الله لمن هلك من الأمم الذين قص خبرهم في هذه السورة أنهم لا يؤمنون أبداً فأخبر عنهم أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به في سابق علمه قبل مجيء الرسل عند مجيئهم إليهم ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ يعني كما طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون من قومك.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ

وشعيب. ﴿ نقصُّ عليك من أنبائها ﴾، أخبارها لما فيها من الاعتبار، ﴿ ولقد جاءتْهم رسلُهم بالبيّنات ﴾، بالآيات والمعجزات والعجائب، ﴿ فما كانوا لِيُؤمنوا بما كَذَّبوا من قبل ﴾، أي: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا من قبل رؤيتهم تلك العجائب، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ قدْ سألها قومٌ من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ [المائدة: ١٠٢]. قال ابن عباس والسدي: يعني فما كان هؤلاء الكفّار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم، فأقرّوا باللسان وأضمروا التكذيب. وقال مجاهد: معناه فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم، لقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه ﴾ [الأنعام: ٢٨]. قال يمانُ بن رباب: هذا على معنى أن كل نبي أنذر قومه بالعذاب فكذبوه، يقول: ما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية، بل كذبوا بما كذب أوائلهم، نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنون ﴾ [الذاريات: ٥٢]. ﴿ كذلك يَطْبَعُ اللّهُ على قلوبِ الكافرين ﴾، أي: كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكفّار الذين كتب أنْ لا يؤمنوا من قومك.

مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ يعني وما وجدنا لأكثر الأمم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يا محمد من وفاء بالعهد الذي عهدناه إليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق قال ابن عباس إنما أهلك الله أهل القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا قوله عز وجل: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ يعني ثم بعثنا من بعد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿موسى بآياتنا﴾ يعني بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك من الآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام ﴿إلى فرعون وملئه﴾ قيل إن كل من ملك مصر كان يسمى فرعون في ذلك الزمان مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه الصلاة والسلام الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط والملأ إشراف قومه وإنما خصوا بالذكر لأنه إذا آمن الأشراف آمن الأتباع ﴿فظلموا بها﴾ يعني: فجحدوا بها لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وكانت هذه الآيات معجزات ظاهرة قاهرة فكفروا بها ووضعوا الكفر موضع الإيمان ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي: انظر يا محمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ يعني أن موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على فرعون دعاه إلى الله تعالى وإلى الإيمان به وقال له إني رسول أي مرسل إليك وإلى قومك من رب العالمين يعني أن الله الذي خلق السموات والأرض وخلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم هو الذي أرسلني إليك ﴿حقيق﴾ أي واجب ﴿على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ يعني إني رسول والرسول لا يقول على الله إلا الحق في وصفه وتنزيهه وتوحيده وأنه لا إله غيره ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ يعني ببرهان على صدقي فيما أدعي من الرسالة والمراد ببينته معجزته وهي العصا واليد البيضاء ثم إن موسى عليه الصلاة والسلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم فقال موسى ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ يعني خلِّ عنهم وأطلقهم من أسرك وكان فرعون قد استعبد بني إسرائيل واستعملهم في الأعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ﴿قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين﴾ يعني أن فرعون قال لموسى عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ الرسالة: إن كنت جئت من عند من أرسلك ببينة تدل على صدقك

﴿ وما وجدنا لأكثرِهم منْ عهد ﴾، أي: وفاء بالعهد الذي عاهدهم يوم الميثاق، حين أخرجهم من صلب آدم ﴿ وإنْ وجدْنا أكثرَهم لَفاسقين ﴾، أي: ما وجدنا أكثرهم إلّا فاسقين ناقضين للعهد.

قوله تعالى: ﴿ ثم بعثنا من بعدِهم ﴾، أي: من بعد نوح وهود وصالح وشعيب، ﴿ موسى بآياتنا ﴾، بأدلتنا، ﴿ إلى فرعونَ ومَلَئِهِ فظلمُوا بها ﴾، فجحدوا بها. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وظلمهم وضع الكفر موضع الإيمان، ﴿ فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ المفسدين ﴾. كيف فعلنا بهم.

﴿ وقال موسى ﴾، لما دخل على فرعون، ﴿ يا فرعون إنّي رسولٌ من ربِّ العالمين ﴾، إليك، فقال فرعون: كذبت فقال موسى:

﴿ حقيقٌ على أن لا أقولَ على اللهِ إلّا الحقَّ ﴾، أي: أنا خليق بأن لا أقول على الله إلّا الحق، فتكون ﴿ على ﴾ بمعنى الباء كما يقال: رميت بالقوس ورميت عن القوس، وجئت على حال حسنة وبحال حسنة، يدلّ عليه قراءة أُبيّ والأعمش ﴿ حقيقٌ بأنْ لا أقول ﴾، وقال أبو عبيدة: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلّا

فأتني بها وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك فيما قلت ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي بيِّن، والثعبان الذكر من الحيات وصفه هنا بأنه ثعبان والثعبان من الحيات العظيم الضخم ووصفه في آية أخرى بأنه جان والجان الحية الصغيرة والجامع بين هذين الوصفين أنها كانت في عظم الجثة كالثعبان العظيم وفي خفة الحركة كالحية الصغيرة وهي الجان. قال ابن عباس والسدي: إن موسى لما ألقى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعاً وارتفعت من الأرض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الأسفل في الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هارباً وأحدث وقيل إنه أحدث في ذلك اليوم أربعمائة مرة، وقيل: إنها أخذت قبة فرعون بين أنيابها وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا وقتل بعضهم بعضاً فمات منهم في ذلك اليوم خمسة وعشرون ألفاً ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل فعادت في يده عصا كما كانت وفي كون الثعبان مبيناً وجوه:

الأول: أنه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس وبذلك تتميز معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على تمويه السحرة وتخليهم.

الوجه الثاني: أنهم شاهدوا العصا قد انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم فذلك قال ثعبان مبين أي بيِّن.

الوجه الثالث: إن ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام كان من أعظم الآيات التي أبانت صدق قول موسى عليه الصلاة والسلام في أنه رسول من رب العالمين.

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ونزع يده﴾ النزع في اللغة عبارة عن إخراج الشيء عن مكانه والمعنى أنه أخرج يده من جيبه أو

الحق، وقرأ نافع (عَلَيَّ) بتشديد الياء أي حق واجب عليّ أذن لا أقول على الله إلاّ الحق. ﴿ قدْ جئتكم ببينةٍ من ربكم ﴾، يعني العصا، ﴿ فأرسلْ معي بني إسرائيل ﴾، أي: أطلق عنهم وخلّهم يرجعون إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقّة من ضرب اللَّبن ونقل التراب ونحوهما، فقال فرعون مجيباً لموسى.

﴿ قال إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأتِ بها إن كنت من الصادقين ﴾.

﴿ فألقى ﴾ موسى ﴿ عَصَاه ﴾ من يده ﴿ فإذا هي ثعبانٌ مبين ﴾، والثعبان: الذكر العظيم من الحيّات، فإن قيل: أليس قد قال في موضع آخر ﴿كأنّها جان﴾ [النمل: ١٠، القصص: ٣١]، والجان الحيّة الصغيرة؟ قيل: إنها كانت كالجان في الحركة والخفّة، وهي في جثتها حيّة عظيمة. قال ابن عباس والسدي: إنه لمّا ألقى العصا صارت حيّة عظيمة صفراء شعراء فاغرةً فاها ما بين لحييها ثمانون ذراعاً ارتفعت من الأرض بقدر ميل، وقامت له على ذنبها واضعةً لحيها الأسفل في الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر، وتوجهت نحو فرعون لتأخذه. ورُوِيَ أنها أخذت قبّة فرعون بين نابيها فوثب فرعون من سريره هارباً وأحْدَثَ. قيل: أخذه البطن في ذلك اليوم أربعمائة مرة، وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذها وأنا أؤمن بك وأُرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فعادت عصاً كما كانت ثم قال فرعون هل معك آية أخرى؟ قال: نعم.

﴿ ونَزَعَ يَدَهُ فإذا هي بيضاءُ للنّاظرين ﴾، فأدخل يده في جيبه ثم نزعها منه، وقيل: أخرجها من تحت إبطه

من تحت جناحه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ قال ابن عباس وغيره: أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص، وقيل: إن موسى عليه الصلاة والسلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه وقيل أخرج يده من تحت إبطه فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى عليه الصلاة والسلام آدم اللون ثم ردها إلى جيبه فأخرجها فإذا هي كما كانت ولما كان البياض المفرط عيباً في الجسد وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى «بيضاء من غير سوء» يعني من غير برص والمعنى فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يُتعجب منه.

(فصل في بيان المعجزة وكونها دليلاً على صدق الرسل)

اعلم أن الله تبارك وتعالى كان قادراً على خلق المعرفة والإيمان في قلوب عباده ابتداء من غير واسطة ولكن أرسل إليهم رسلاً تعرفهم معالم دينه وجميع تكليفاته وذلك الرسول واسطة بين الله عز وجل وبين عباده يبلغهم كلامه ويعرفهم أحكامه وجائز أن تكون تلك الواسطة من غير البشر كالملائكة من الأنبياء وجائز أن تكون الواسطة من جنس البشر كالأنبياء مع أممهم ولا مانع لهذا من جهة العقل وإذا جاز هذا في دليل العقل وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دلت على صدقهم فوجب تصديقهم في جميع ما أتوا به لأن المعجز مع التهدي من النبي قائم مقام قول الله عز وجل صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه ولأن معجزة النبي شاهد على صدقه فيما يقوله وسميت المعجزة معجزة لأن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها وهي على ضربين: فضرب منها هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فعجزهم عنه دلَّ على أنه من فعل الله ودل على صدق النبي ﷺ كتمنّي الموت في قوله ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم أنه من عند الله ودل على صدق النبي ﷺ وسلم الضرب الثاني ما هو خارج عن قدرة البشر كإحياء الموتى وقلب العصا حية وإخراج ناقة من صخرة وكلام الشجر والجماد والحيوان ونبع الماء من بين الأصابع وغير ذلك من المعجزات التي عجز البشر عن مثلها فإذا أتى النبي بشيء من تلك المعجزات الخارقة للعادات علم أن ذلك من عند الله وأن الله عز وجل هو الذي أظهر ذلك المعجز على يد نبيه ليكون حجة له على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع أن الله تعالى قادر على خلق الأشياء وإبداعها من غير أصل سبق لها وإخراجها من العدم إلى الوجود وأنه قادر على قلب الأعيان وخوارق العادات والله تعالى أعلم.

قوله عز وجل: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا﴾ يعني موسى ﴿لَساحر عليم﴾ يعني أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيل لهم أن العصا صارت حية ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون، وإنما قالوا

فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس، وكان موسى آدم اللون، ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت.

﴿ قال الملأ من قوم فِرعونَ إنّ هذا لساحرٌ عليم ﴾، يعنون أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيّل إليهم العصا حيّة والأدم أبيض، ويُري أن الشيء بخلاف ما هو عليه.

﴿ يُريدُ أنْ يُخرجَكم ﴾، يا معشر القبط، ﴿ منْ أرْضِكم ﴾، مصر، ﴿ فماذا تأمرون ﴾، أي: تشيرون إليه، هذا يقوله فرعون وإن لم يذكره، وقيل: من قول الملأ لفرعون وخاصته.

﴿ قالوا ﴾، يعني الملأ، ﴿ أرْجِهْ ﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة وابن عامر بالهمزة وضمّ الهاء، وقرأ الآخرون بلا همزة، ثم نافع رواية ورش والكسائي يشبعان الهاء كسراً، ويسكّنها عاصم وحمزة، ويختلسها أبو جعفر وقالون، قال عطاء: معناه أخّره. وقيل: احبسه، ﴿ وأخاه ﴾، معناه أشاروا عليه بتأخير أمره وترك التعرّض إليه بالقتل،

ذلك لأن السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا إن هذا لساحر عليم.

فإن قلت: قد أخبر الله تعالى في هذه السورة أن هذا الكلام من قوم الملأ لفرعون وقال في سورة الشعراء قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما.

قلت: لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولاً ثم إنهم قالوه بعده فأخبر الله تعالى عنهم هنا وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء، وقيل: يحتمل أن فرعون قال هذا القول، ثم إن الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم إنهم بلغوه إلى العامة فأخبرالله عز وجل هنا عن الملأ وأخبر هناك عن فرعون.

وقوله: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ يعني يريد موسى أن يخرجكم أيها القبط من أرض مصر ﴿فماذا تأمرون﴾ يعني: فأي شيء تشيرون أن نفعل به وقيل إن قوله فماذا تأمرون من قول الملأ لأن كلام فرعون تم عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملأ مجيبين لفرعون فماذا تأمرون وإنما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك في التعظيم والتفخيم والمعنى فما ترون أن نفعل به والقول الأول أصح لسياق الآية التي بعدها وهو قوله تعالى: ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ يعني أخرّ أمرهما ولا تعجل فيه فتصير عجلتك عليك لا لك والإرجاء في اللغة هو التأخير لا الحبس ولأن فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد أن رأى من أمر العصا ما رأى ﴿وأرسل في المدائن﴾ جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أي أقام به يعني مدائن صعيد مصر ﴿حاشرين﴾ يعني رجالاً يحشرون إليك السحرة من جميع مدائن الصعيد والمعنى أنهم قالوا لفرعون أرسل إلى هذه المدائن رجالاً من أعوانك وهم الشرَط يحشرون إليك من فيها من السحرة وكان الرؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فإن غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وإن غلبوه أنه ساحر فذلك قوله ﴿يأتوك﴾ يعني الشرط ﴿بكل ساحر﴾ وقرىء سحار والفرق بين الساحر والسحار أن الساحر هو المبتدىء في صناعة السحر فيتعلم ولا يعلم والسحار هو الماهر الذي يتعلم منه السحر وقيل الساحر من يكون سحره وقتاً دون وقت والسحار الذي يدوم سحره ويعمل في كل وقت ﴿عليم﴾ يعني ماهر بصناعة السحر وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن إسحاق والسدي: إن فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته في العصا قال إنا لا نقاتل موسى إلا بمن هو أشد منه سحراً فاتخذ غلماناً من بني إسرائيل وبعث بهم إلى مدينة يقال لها الغوصاء يعلمونهم السحر فعلموهم سحراً كبيراً وواعد فرعون موسى موعداً ثم بعث إلى السحرة فجاؤوا ومعهم معلمهم فقال فرعون للمعلم ماذا صنعت قال قد علمتهم سحراً لا يطيقه سحر أهل الأرض إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لهم به

﴿ وأرسلْ في المدائِنِ حَاشرين ﴾، يعني الشرط في المدائن، وهي مدائن الصعيد من نواحي مصر، قالوا: أرسل إلى هذا المدائن رجالاً يحشرون إليك مَن فيها من السحرة، وكان رؤساء السَّحَرَة بأقصى مدائن الصعيد، فإن غلبهم موسى صدّقناه وإن غلبوا علمنا أنه ساحر.

فذلك قوله: ﴿ يأتوك بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾، قرأ حمزة والكسائي « سحار » ههنا وفي سورة يونس ولم يختلفوا في الشعراء أنه سحار، قيل: الساحر الذي يَتعَلَّمُ السحر ولا يُعَلِّمُ، والسحار الذي يعلّم ويعمل. وقيل: الساحر مَن يكون سحره في وقت دون وقت، والسحار مَن يديم السحر. قال ابن عباس وابن إسحاق والسدي: قال فرعون لمّا رأى من سلطان الله في العصا ما رأى: إنّا لا نُغالب إلّا بمَن هو أعلم منه، فاتخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الغوصاء يعلّمونهم السحر، فعلّموهم سحراً كثيراً ووعد فرعون موسى موعداً فبعث إلى السَّحَرَة فجاؤوا ومعلّمهم معهم، فقال له: ماذا صنعت؟ قال: قد علّمتهم سحراً لا يطيقه سَحَرَة أهل الأرض إلّا أن يكون أمر من السماء فإنه لا طاقة لهم به، ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحراً إلّا أتى به. واختلفوا في

ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك ساحراً إلا أتى به واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بني إسرائيل وقال الكلبي: كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال عكرمة: كانوا سبعين ألفاً وقال محمد بن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً وقال السدي: كانوا بضعاً وثمانين ألفاً، ويقال: رئيس القوم شمعون، وقيل: يوحنا قوله عز وجل:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿**وجاء السحرة فرعون**﴾ يعني لما اجتمعوا وجاؤوا إلى فرعون ﴿**قالوا إن لنا لأجراً**﴾ يعني جعلاً وعطاء تكرمنا به ﴿**إن كنا نحن الغالبين**﴾ يعني لموسى قال الإمام فخر الدين الرازي: ولقائل أن يقول كان حق الكلام أن يقول وجاء السحرة فرعون فقالوا بالفاء وجوابه هو على تقدير سائل سأل ما قالوا إذا جاؤوا فأجيب بقوله قالوا أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين يعني لموسى ﴿**قال نعم**﴾ يعني: قال لهم فرعون لكم الأجر والعطاء ﴿**وإنكم لمن المقربين**﴾ يعني ولكم المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر والمعنى أن فرعون قال للسحرة إني لا أقتصر معكم على الأجر بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة إني أجعلكم من المقربين عندي، قال الكلبي: تكونوا أول من يدخل عليّ وآخر من يخرج من عندي ﴿**قالوا**﴾ يعني السحرة ﴿**يا موسى إما أن تلقي**﴾ يعني عصاك ﴿**وإما أن نكون نحن الملقين**﴾ يعني عصيّنا وحبالنا في هذه الآية دقيقة لطيفة وهي أن السحرة راعوا مع موسى عليه الصلاة والسلام حسن الأدب حيث قدموه على أنفسهم في الإلقاء لا جرم أن الله عز وجل عوضهم حيث تأدبوا مع نبيه موسى ﷺ أن منَّ عليهم بالإيمان والهداية ولما راعوا الأدب أولاً وأظهروا ما يدل على رغبتهم في ذلك ﴿**قال**﴾ يعني قال لهم موسى ﴿**ألقوا**﴾ يعني أنتم فقدمهم على نفسه في الإلقاء.

فإن قلت كيف جاز لموسى أن يأمر بالإلقاء وقد علم أنه سحر وفعل السحر غير جائز؟

قلت: ذكر العلماء رحمهم الله تعالى في أجوبة **أحدها** أن معناه إن كنتم محقين في فعلكم فألقوا وإلا فلا تلقوا.

الجواب الثاني: إنما أمرهم بالإلقاء لتظهر معجزته لأنهم إذا لم يلقوا حبالم وعصيهم لم تظهر معجزة موسى في عصاه.

عددهم فقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين، اثنان من القبط وهما رؤساء القوم وسبعون من بني إسرائيل. وقال الكلبي: كان الذين يعملونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى، وكانوا سبعين غير رئيسهم. وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً. وقال عكرمة: كانوا سبعين ألفاً. وقال محمد بن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً. وقال مقاتل: كان رئيس السَّحَرَة شمعون. وقال ابن جريج كان رئيس السَّحَرَة يوحنا.

﴿ **وجاءَ السَّحرةُ فرعونَ** ﴾ واجتمعوا، ﴿ **قالوا** ﴾، لفرعون ﴿ **إنّ لنا لأجراً** ﴾، أي جُعْلاً ومالاً ﴿ **إن كنّا نحنُ الغالبين** ﴾، قرأ أهل الحجاز وحفص «إن لنــا» على الخبر، وقرأ الباقون بالاستفهام، ولم يختلفوا في الشعراء أنه مستفهم.

الجواب الثالث: أن موسى علم أنهم لا بد أن يلقوا تلك الحبال والعصي وإنما وقع التخيير في التقديم والتأخير فأذن لهم في التقديم لتظهر معجزته أيضاً بغلبهم لأنه لو ألقى أولاً لم يكن له غلب وظهور عليهم فلهذا المعنى أمرهم بالإلقاء أولاً ﴿**فلما ألقوا**﴾ يعني حبالهم وعصيهم ﴿**سحروا أعين الناس**﴾ يعني صرفوا أعين الناس عن إدراك حقيقة ما فعلوا من التمويه والتخييل وهذا هو السحر وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي هي فعل الله وذلك لأن السحر قلب الأعين وصرفها عن إدراك ذلك الشيء والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية تسعى ﴿**واسترهبوهم**﴾ يعني أرهبوهم وأفزعوهم بما فعلوه من السحر وهذا قوله تعالى: ﴿**وجاؤوا**﴾ يعني السحرة ﴿**بسحر عظيم**﴾ وذلك أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً، ويقال: إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصي زئبقاً أيضاً وألقوها على الأرض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس أنها حيات. ويقال: إن الأرض كانت سعتها ميلاً في ميل فصارت كلها حيات وأفاعي ففزع الناس من ذلك وأوجس في نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه الصلاة والسلام لأجل سحرهم لأنه عليه الصلاة والسلام كان على يقين وثقة من الله تعالى أنهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالماً بأن كل ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى من ذلك بل كان خوفه عليه الصلاة والسلام لأجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوا من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه الصلاة والسلام أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس في نفسه خيفة موسى.

قول تعالى: ﴿**وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاك**﴾ يعني فألقاها ﴿**فإذا هي تلقف**﴾ يعني تبتلع ﴿**ما يأفكون**﴾ يعني ما يكذب فيه السحرة لأن أصل الإفك قلب الشيء عن غير وجهه ومنه قيل للكذاب أفّاك لأنه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح إلى الباطل. قال المفسرون: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن لا تخف وألق عصاك فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق. قال ابن زيد: كان اجتماعهم بالإسكندرية فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً فإذا هي تلقف يعني تبتلع كل شيء أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحداً واحداً حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات

﴿ **قال** ﴾ فرعون ﴿ **نعمْ وإنّكم لَمنَ المقرّبين** ﴾، في المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر، قال: يعني أول مَن يدخل وآخر مَن يخرج.

﴿ **قالوا** ﴾ يعني السَّحَرَة ﴿ **يا موسى إمّا أن تُلقي** ﴾ عصاك ﴿ **وإما أن نكونَ نحنُ الملقين** ﴾، لعصيّنا وحبالنا.

﴿ **قال** ﴾ موسى بل ﴿ **ألقوا** ﴾ أنتم، ﴿ **فلما ألْقَوْا سحرُوا أعينَ الناس** ﴾، أي: صرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل، وهذا هو السحر، ﴿ **واسترهبوهم** ﴾، أي: أرهبوهم وأفزعوهم، ﴿ **وجاءُوا بسحرٍ عظيم** ﴾، وذلك أنهم ألقوا حبالاً غِلاظاً وخشباً طِوالاً فإذا هي حيّات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وفي القصة أن الأرض كانت ميلاً في ميل صارت حيات وأفاعي في أعين الناس.

﴿ **وأوحينا إلى موسى أنْ ألقِ عصاكَ** ﴾، فألقاها فصارت حيّة عظيمة حتى سدّت الأفق. قال ابن زيد: كان اجتماعهم بالإسكندرية. ويقال: بلغ ذنب الحيّة من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً، ﴿ **فإذا هي تَلْقَفُ** ﴾ قرأ حفص «تلقـف» ساكنة اللام خفيفة حيث كان، وقرأ الآخرون بفتح اللام وتشديد القاف، أي: تبتلع، ﴿ **ما**

من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفاً ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت في يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا أن ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجّداً وقالوا: آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى:

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿**فوقع الحق**﴾ يعني فظهر الحق الذي جاء به موسى ﴿**وبطل ما كانوا يعملون**﴾ يعني من السحر وذلك أن السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا فلما نفدت وتلاشت في عصا موسى علموا أن ذلك من أمر الله وقدرته ﴿**فغلبوا هنالك**﴾ يعني فعند ذلك غلب فرعون وسحرته وجموعه ﴿**وانقلبوا صاغرين**﴾ يعني ورجعوا ذليلين مقهورين ﴿**وألقى السحرة ساجدين**﴾ يعني أن السحرة لما عاينوا من عظيم قدرة الله تعالى ما ليس في قدرتهم مقابلته وعلموا أنه ليس بسحر خروا لله ساجدين وذلك أن الله عز وجل ألهمهم معرفته والإيمان به ﴿**قالوا آمنا برب العالمين**﴾ فقال فرعون إياي تعنون فقالوا بل ﴿**رب موسى وهارون**﴾ قال مقاتل: قال موسى لكبير السحرة تؤمن بي إن غلبتك فقال لآتينّ بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لأومنن بك، وقيل: إن الحبال والعصي التي كانت مع السحرة كانت حمل ثلاثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو إلا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه.

فإن قلت كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الإيمان.

قلت: لما قذف الله عز وجل في قلوبهم الإيمان والمعرفة خروا سجداً لله تعالى شكراً على هدايتهم إليه وعلى ما ألهمهم الله من الإيمان بالله وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم. وقيل: لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه في أمر العصا وأنه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت في قلوبهم بادروا إلى السجود لله تعظيماً لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ثم إنهم أظهروا الإيمان باللسان. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخروا سجداً وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.

يأفكون﴾، يكذبون من التخابيل وقيل: يزوّرون على الناس. وكانت تلتقم حبالهم وعصيهم واحداً واحداً حتى ابتلعت الكلّ وقصدت القوم الذين حضروا فوقع الزحام عليهم فهلك منهم في الزحام خمسة وعشرون ألفاً، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت.

﴿ **فوقعَ الحقُّ** ﴾، قال الحسن ومجاهد: ظهر الحق، ﴿ **وبطل ما كانوا يعملون** ﴾، من السحر، وذلك أن السَّحَرَة قالوا: لو كان ما يصنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصيانا، فلما فقدت علموا أن ذلك من أمر الله.

﴿ **فَغُلِبُوا هنالك وانقلبُوا صاغِرين** ﴾، ذليلين مقهورين.

﴿ **وأُلقيَ السَّحرةُ ساجدين** ﴾ لله. قال مقاتل: ألقاهم الله. وقيل: ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا. قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا.

قوله عز وجل: ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ يعني فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه قبل أن آمركم به وآذن لكم فيه ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ يعني إن هذا الصنع الذي صنعتموه أنتم وموسى في مدينة مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع وذلك أن فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون أن موسى وكبير السحرة قد تواطآ عليه وعلى أهل مصر وهو قوله ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ وتستولوا عليها أنتم ﴿فسوف تعلمون﴾ فيه وعيد وتهديد يعني: فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد فقال ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ وهو أن تقطع إحدى اليدين وإحدى الرجلين فيخالف بينهما في القطع ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ يعني على شاطىء نيل مصر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل فرعون ﴿قالوا﴾ يعني مجيبين لفرعون حين وعدهم بالقتل ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ إنا إلى ربنا راجعون وإليه صائرون في الآخرة.

وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

﴿وما تنقم منا﴾ وما تكره منا وما تطعن علينا وقال عطاء: معناه وما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه ﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ ثم فزعوا إلى الله تعالى وسألوه الصبر على تعذيب فرعون إياهم فقالوا ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي اصبب علينا صبراً كاملاً تاماً ولهذا أتى بلفظ التنكير يعني صبراً وأي صبر عظيم ﴿وتوفنا مسلمين﴾ يعني واقبضنا على دين الإسلام وهو دين خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء. قال الكلبي: إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم غير أنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾.

﴿ قالوا آمنّا بربِّ العالمين ﴾، فقال فرعون: إياي تعنون فقالوا: ﴿ رب موسى وهارون ﴾، قال مقاتل: قال موسى لكبير السَّحرة تؤمن بي إن غلبتك؟ فقال: لآتينّ بسحر لا يغلبه سحر، ولئن غلبتني لأومننّ بك، وفرعون ينظر.

﴿ قـال ﴾لهم ﴿ فرعـون ﴾ حين آمنوا ﴿ آمنتم بـه ﴾، قرأ حفص «آمنتـم» على الخبر ههنا وفي طّـــه [٧١] والشـعراء [٤٩]، وقرأ الآخرون بالاستفهام أآمنتم به، ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾، أصدّقتم موسى من غير أمري إيّاكم، ﴿إنّ هذا لمكرٌ مكرتموه ﴾، أي: صنع صنعتموه أنتم وموسى: ﴿ في المدينة ﴾ في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر، ﴿ لِتُخْرِجُوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ ما أفعل بكم.

﴿ لأقطعنّ أيديكم وأرجلَكم من خلاف ﴾، وهو أن يقطع من كل شق طرفاً. قال الكلبي: لأقطعنّ أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى، ﴿ ثم لأصلبنّكم أجمعين ﴾، على شاطىء نهر مصر.

﴿ قالوا ﴾، يعني السَّحرة لفرعون، ﴿ إنّا إلى ربِّنا مُنقلبون ﴾، راجعون في الآخرة.

﴿ وما تَنْقِمُ مِنّا ﴾، أي: ما تكره منّا. وقال الضحاك وغيره: وما تطعن علينا. وقال عطاء: ما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه، ﴿ إلاّ أنْ آمنّا بآيات ربِّنا لمّا جاءتْنَا ﴾ ثم فزعوا إلى الله عزّ وجلّ فقالوا: ﴿ ربَّنا أفْرِغْ ﴾ أصيب، ﴿ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين ﴾، ذكر الكلبي: أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وذكر غيره: أنه لم يقدر

قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى﴾ يعني وقال جماعة من أشراف قوم فرعون لفرعون أتدع موسى ﴿وقومه﴾ من بني إسرائيل ﴿ليفسدوا في الأرض﴾ يعني أرض مصر وأراد بالإفساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قوله ﴿ويذرك وآلهتك﴾ يعني وتذره ليذرك ويذر آلهتك فلا يعبدك ولا يعبدها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لفرعون بقرة كان يعبدها وكان إذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامري عجلاً. وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الأصنام وذلك قوله أنا ربكم الأعلى والأولى أن يقال إن فرعون كان دهرياً منكر الوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هي الكواكب فاتخذ أصناماً على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه إنه هو المطاع والمخدوم في الأرض فلهذا قال أنا ربكم الأعلى وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه وابن عباس والشعبي والضحاك ويذرك وإلهتك بكسر الألف ومعناه ويذرك وعبادتك فلا يعبدك لأن فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل أراد بالآلهة الشمس والكواكب لأنه كان يعبدها قال الشاعر:

تروحنا من اللعباء قصراً وأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا

أراد بالإلاهة الشمس ﴿قال﴾ يعني فرعون مجيباً لقومه حين قالوا له أتذر موسى وقومه ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ يعني نتركهن أحياء.

وذلك أن قوم فرعون لما أرادوا إغراء فرعون على قتل موسى وقومه أوجس موسى إنزال العذاب بقومه ولم يقدر فرعون أن يفعل بموسى عليه الصلاة والسلام شيئاً مما أرادوا به لقوة موسى عليه السلام بما معه من المعجزات فعدل إلى قومه فقال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قد ترك القتل في بني إسرائيل بعد ما ولد موسى فلما جاءهم موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان قال فرعون: أعيدوا عليهم القتل فأعادوا القتل على بني إسرائيل، والمعنى أن فرعون قال إنما يتقوى موسى بقومه فنحن نسعى في تقليل عدد قومه بالقتل لتقلَّ شوكته، ثم بين فرعون أنه قادر على ذلك بقوله ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ يعني بالغلبة والقدرة عليهم ولما نزل ببني إسرائيل ما نزل شكوا إلى موسى ما نزل بهم ﴿قال موسى لقومه﴾ يعني لما شكوا إليه ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ يعني استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم

عليهم لقوله تعالى: ﴿ لا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومَن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص: ٣٥].

﴿ وقالَ الملأُ مِن قومِ فرعون ﴾ له ﴿ أَتَذَرُ موسى وقومَهُ لِيُفسِدُوا في الأرض ﴾، وأرادوا بالإفساد في الأرض دعاءهم الناس إلى مخالفة فرعون في عبادته، ﴿ ويَذَرَكَ ﴾، أي: وليذرك، ﴿ وآلهتَكَ ﴾، فلا يعبدك ولا يعبدها. قال ابن عباس: كان لفرعون بقرة يعبدها، وكان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها، فلذلك أخرج السامري لهم عجلاً. وقال الحسن: كان قد علّق على عنقه صليباً يعبده. وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً وأمرهم بعبادتها، وقال لقومه: هذه آلهتكم أراد بها أنه ربّها وربّكم، فذلك قوله: ﴿ أنا ربُّكم الأعلى ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك: «ويذرك وإلٰهتك»، بكسر الألف، أي: عبادتك فلا يعبدك، لأن فرعون كان يُعْبَد ولا يَعْبُدُ وقيل: أراد بالآلهة الشمس. وكانوا يعبدونها قال الشاعر:

تروحنا من اللّعباء قصراً وأعجلنا الالاهة أن تؤبا

﴿ قال ﴾ فرعون ﴿ سنُقتِّل أبناءَهم ﴾، قرأ أهل الحجاز: «سـنقتل» بالتخفيف من القتل، وقرأ الآخرون بالتشديد من التقتيل على الكثير، ﴿ ونستحيي نساءَهم ﴾، نتركهنّ أحياء، ﴿ وإنّا فوقهم قاهرون ﴾، غالبون. قال

من البلاء فإن الله هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم ﴿إن الأرض لله﴾ يعني أرض مصر وإن كانت الأرض كلها لله تعالى ﴿يورثها من يشاء من عباده﴾ وهذا إطماع من موسى عليه الصلاة والسلام لبني إسرائيل أن يهلك فرعون وقومه ويملك بني إسرائيل أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم وهو قوله تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ يعني أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم، وقيل أراد الجنة يعني إن عاقبة المتقين الصابرين الجنة.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنت السحرة تبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل والمعنى أن بني إسرائيل لما سمعوا ما قاله فرعون ووعدهم به من القتل مرة ثانية قالوا لموسى قد أوذينا من قبل أن تأتينا يعني بالرسالة وذلك أن بني إسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة إلى نصف النهار فلما جاء موسى بالرسالة وجرى ما جرى شدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار وأعاد القتل عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يعني بالرسالة وظاهر هذا الكلام يوهم أن بني إسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر.

والجواب عن هذا الإيهام أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا أن ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنه قد زادت الشدة عليهم قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه ﴿قال﴾ موسى مجيباً لهم ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ يعني ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم ﴿فينظر كيف تعملون﴾ يعني فيرى

ابن عباس: كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل له أنه يولد مولود يذهب بملكك، فلم يزل يقتلهم حتى أتاهم موسى بالرسالة، وكان من أمره ما كان فقال فرعون أعيدوا عليهم القتل فأعادوا عليهم القتل، فشكت ذلك بنو إسرائيل.

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله ﴾، يعني أرض مصر، ﴿ يُورثها ﴾ يعطيها ﴿ مَنْ يشاء من عباده والعاقبةُ للمتّقين ﴾، النصر والظفر. وقيل: السعادة والشهادة. وقيل: الجنة.

﴿ قالوا أُوذينا ﴾، قال ابن عباس: لمّا آمنت السَّحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، فقالوا: يعني قوم موسى إنّا أُوذينا، ﴿ من قبل أنْ تأتينا ﴾، بالرسالة بقتل الأبناء، ﴿ ومن بعد ما جئتنا ﴾، بإعادة القتل علينا. وقيل: فالمراد منه أن فرعون كان يستسخرهم قبل مجيء موسى إلى نصف النهار، فلما جاء موسى استسخرهم جميع النهار بلا أجْر. وذكر الكلبي أنهم كانوا يضربون له اللبـن بطين فرعون، فلما جاء موسى أجبرهم أن يضربوه بطين من عندهم. ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ عسى ربُّكم أنْ يُهلك عدوّكم ﴾، فرعون، ﴿ ويستخلِفكم في الأرض ﴾، أي: يسكنكم أرض مصر من بعدهم، ﴿ فينظرَ كيف تعملون ﴾، فحقّق الله بإغراق فرعون استخلافهم في ديارهم وأموالهم فعبدوا العجل.

ربكم كيف تعملون من بعدهم. قال الزجاج: فيرى وقوع ذلك منهم لأن الله تعالى لا يجازيهم بما يعلمه منهم وإنما يجازيهم على ما يقع منهم.

قوله عز وجل: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ يعني بالقحط والجدب. تقول العرب: مستهم السنة بمعنى أخذهم الجدب في السنة ويقال أسنتوا كما يقال أجدبوا قال الشاعر:

ورجـال مكـة مسنتـون عجـاف

ومنه قوله ﷺ «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف» ومعنى الآية: ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة ﴿ونقص من الثمرات﴾ يعني وإتلاف الغلات بالآفات. قال قتادة أما السنون فلأهل البوادي وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار ﴿لعلهم يذكرون﴾ يعني لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير، ثم بين الله تعالى أنهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً فقال تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ يعني الغيث والخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق وصحة الأبدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على إنعامه ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ يعني القحط والجدب والمرض والبلاء ورأوا ما يكرهون في أنفسهم ﴿يطيروا﴾ يعني يتشاءموا وأصله يتطيروا والتطير التشاؤم في قول جميع المفسرين ﴿بموسى ومن معه﴾ يعني أنهم قالوا ما أصابنا بلاء إلا حين رأيناهم وما ذلك إلا بشؤم موسى وقومه. قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين وسنة لم يروا مكروهاً قط ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ يعني أن نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس رضي الله عنهما طائرهم ما قضي لهم وقدر عليهم من عند الله وفي رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه أنه إنما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني أن ما أصابهم من الله تعالى وإنما قال أكثرهم لا يعلمون لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر.

قوله تعالى: ﴿ ولقد أخذنا آل فرعونَ بالسِّنين ﴾، أي: بالجدب والقحط. تقول العرب: مسّتهم السنَةُ، أي: جدب السنة وشدّة السنة. وقيل: أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة، ﴿ ونقصٍ من الثّمرات ﴾، والغلاّت بالآفات والعاهات. وقال قتادة: أمّا السنين فلأهل البوادي، وأمّا نقص الثمرات فلأهل الأمصار، ﴿ لعلّهم يذّكّرون ﴾، أي: يتّعظون وذلك لأن الشدّة ترقق القلوب وترغّبها فيما عند الله عزّ وجلّ.

﴿فإذا جاءَتْهُم الحسنةُ ﴾، يعني: الخصب والسعة والعافية، ﴿ قالوا لنا هذه ﴾، أي: نحن أهلها ومستحقّوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا ولم يروها تفضلاً من الله عزّ وجلّ فيشكروا عليها، ﴿ وإنْ تُصبهم سيئةٌ ﴾، جدب وبلاء ورأوا ما يكرهون، ﴿ يطّيّروا ﴾، يتشاءموا، ﴿ بموسى ومَن معه ﴾، وقالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه. وقال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: وكان مُلْكُ فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لا يرى مكروهاً، ولو كان له في تلك المدة جوع أو حمّى ليلة أو وجع ساعة لما ادّعى الربوبية قطّ. قال الله تعالى: ﴿ألا إنما طائِرُهم عندَ الله﴾، نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله. وقال ابن عباس: طائرهم ما قضى عليهم وقدّر لهم. وفي رواية عنه: شُؤمهم عند الله ومن قِبَل الله أي: إنّما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله. وقيل: معناه الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار، ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾، أن الذي أصابهم من الله.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقالوا﴾ يعني قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام ﴿مهما تأتنا به من آية﴾ يعني من عند ربك فهي عندنا سحر وهو قولهم ﴿لتسحرنا بها﴾ يعني لتصرفنا عما نحن عليه من الدين ﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾ يعني بمصدّقين وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلاً حديداً مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله عز وجل دعاءه فقال تعالى ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق: دخل كلام بعضهم في بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوباً أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فأخذهم أولاً بالسنين وهو بالقحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا وإن قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مختلفة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء في بيوت إسرائيل شيء وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على التحرك ولم يعلموا شيئاً ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت.

وقال مجاهد وعطاء: الطوفان الموت. وقال وهب: الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن.

وقال أبو قلابة: الطوفان الجدري وهم أول من عذبوا به ثم بقي في الأرض. وقال مقاتل: الطوفان الماء طفا فوق حروثهم. وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما أن الطوفان أمر من الله عز وجل طاف بهم فعند ذلك قالوا يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا المطر ونحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فرفع عنهم الطوفان وأنبت الله لهم تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم

﴿وقالوا﴾، يعني: القبط لموسى، ﴿مهما﴾، متى «ما» كلمة تستعمل للشرط والجزاء، ﴿تأتنا به من آية﴾، علامة، ﴿لتسحرنا بها﴾، لتنقلنا عمّا نحن عليه من الدين، ﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾، بمصدقين.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق: دخل كلام بعضهم في بعض لمّا آمنت السَّحَرة، ورجع فرعون مغلوباً أبى هو وقومه إلّا الإقامة على الكفر والتمادي في الشرّ فتابع الله عليهم الآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات، فلما عالج منهم بالآيات الأربع العصا واليد والسنين ونقص الثمار فأبوا أن يؤمنوا فدعا عليهم، فقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وطغى وعتا وإن قومه قد نقضوا عهدك، ربِّ فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمةً ولقومي عظةً ولِمَن بعدهم آيةً وعبرةً، فبعث الله عليهم الطوفان، وهو الماء أرسل الله عليهم الماء وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومَن جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة من الماء، وركد الماء على أرضهم لا يقدرون أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت. وقال مجاهد وعطاء: الطوفان الموت. وقال وهب: الطوفان الطاعون بلغة اليمن. وقال أبو قلابة: الطوفان الجدري، وهم أول مَن عُذّبوا به فبقي في الأرض. وقال مقاتل: الطوفان الماء طغى فوق حروثهم. وروى ابن ظبيان عن ابن عباس قال: الطوفان أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فطاف عليها طائفٌ مِّن رَّبك وهم نائمون﴾ [القلم: ١٩]، قال نحاة الكوفة:

فقالوا ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهراً في عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجر وأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة وأكل مسامير الحديد التي في الأبواب وغيرها وابتلي الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بني إسرائيل من ذلك شيء فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك فدعاه موسى ربه عز وجل فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت وفي الخبر «مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم» ويقال إن موسى عليه السلام خرج إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق فرجع الجراد من حيث جاء وكان قد بقي من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا إلى أعمالهم الخبيثة فأقاموا شهراً في عافية ثم بعث الله عز وجل عليهم القمل واختلفوا فيه فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القمل هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وقال مجاهد وقتادة والسدي والكلبي: القمل الدبي وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له. وقال الحسن: يقرأ بفتح القاف وسكون الميم. قال أصحاب الأخبار أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يمشي إلى كثيب رملي أعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين شمس فمشى إلى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقي من حروثهم وزروعهم

الطوفان مصدر لا يُجمع كالرجحان والنقصان. وقال أهل البصرة: هو جمع واحدها طوفانة، فقال لموسى ادعُ لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربَّه فرفع عنهم الطوفان، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيء لم يُنبته لهم قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وخصبت بلادهم، فقالوا: ما كان هذا الماء إلّا نعمة علينا وخصباً، فلم يؤمنوا وأقاموا شهراً في عافية، فبعث الله عليهم الجراد فأكل كل عامّة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة ومسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم، وابتلى الجراد بالجوع، فكان لا يشبع ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك فعجّوا وضجّوا، وقالوا: يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنّا الرجز لنؤمننّ لك وأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعدما أقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت، وفي الخبر: «مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم». ويقال إن موسى برز إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت، وكانت قد بقيت من زروعهم وغلّاتهم بقية، فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا، فلم يفوا بما عاهدوا وعادوا إلى أعمالهم السوء فأقاموا شهراً في عافية، ثم بعث الله عليهم القمل. واختلفوا في القمل، فروى سعيدبن جبير عن ابن عباس قال: القمل السوس الذي يخرج من الحنطة. وقال مجاهد والسدي وقتادة والكلبي: القمل الدبى والجراد الطيّارة التي لها أجنحة، والدبى الصغار التي لا أجنحة لها. وقال الجراد. وقال أبو عبيدة: وهو الحمنان وهو ضرب من القراد. وقال عطاء الخرساني: هو القمل. وبه قرأ أبو الحسن «القمل» بفتح القاف وسكون الميم، قالوا: أمر الله موسى أن يمشي إلى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس، فمشى موسى إلى ذلك الكثيب وكان أهيل فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل، فتتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكمله، ولحس الأرض كلها وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضده، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء قملاً. قال سعيد بن المسيب: القمل السوس الذي يخرج من الحبوب، وكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحا فلا يردّ منها ثلاثة أقفزة، فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل، وأخذ أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا إلى موسى أنّا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنّا البلاء، فدعا موسى عليه السلام الله فرفع القمل عنهم بعدما أقام عليهم سبعة أيام من

وثمارهم فأكلها كلها ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه فإذا أكل أحدهم طعاماً امتلأ قملاً. قال سعيد بن المسيب: القمل السوس الذي يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبصارهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ولزم جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا بموسى إنّا نتوب فادعُ لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى فرفع الله عنهم القمل بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فمكثوا بعد ذلك ورجعوا إلى أخبث ما كانوا عليه من الأعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دواباً فدعا موسى عليهم بعد ما أقاموا شهراً في عافية فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد إناء ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس في الضفادع فتبلغ إلى حلقه فإذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل في فيه وكانت تثب في قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفىء نيرانهم وكان أحدهم إذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاماً فلا يستطيع أن ينقلب إلى شقه الآخر وإذا أراد أن يأكل سبقه الضفدع إلى فيه ولا يعجن أحدهم عجيناً إلا امتلأ ضفادع فلقوا من ذلك بلاء شديداً.

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله عز وجل على آل فرعون وسمعت وأطاعت وجعلت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي على النار وفي التنانير وهي تفور أثابها الله عز وجل بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام ما يلقونه من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله عز وجل فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقامت عليهم سبعاً من السبت إلى السبت فأقاموا شهراً في عافية ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فأرسل الله عز وجل الدم فسال النيل عليهم دماً عبيطاً وصارت مياههم كلها دماً وكل ما يستقون من الآبار والأنهار يجدونها دماً عبيطاً فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا: ليس لنا شراب إلا الدم، فقال: سحركم. فقالوا: من أين يسحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا دماً عبيطاً. فكان فرعون يجمع بين

السبت إلى السبت، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم، وقالوا: كنّا قطّ أحقّ أن نستيقن أنه ساحر منّا اليوم يجعل الرمل دواب، وقالوا: وعزّة فرعون لا نتبعه أبداً ولا نصدقه، فأقاموا شهراً في عافية فدعا موسى عليه السلام بعدما أقاموا شهراً في عافية، فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم، فلا يكشف أحدٌ إناءً ولا طعاماً إلّا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى ذقنه ويهمّ أن يتكلم فيثب الضفدع إلى فيه، وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفىء نيرانهم، وكان أحدهم يضطجع فتركبه الضفادع فتكون عليه ركاماً حتى ما يستطيع أن ينصرف إلى شقّه الآخر ويفتح فاه لأكلته فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه، ولا يعجن عجيناً إلّا تشدّخت فيه ولا يفتح قدراً إلا امتلأت ضفادع، فلقوا منها أذىً شديداً. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: كانت الضفادع بريّة، فلما أرسلها الله على آل فرعون وأطاعت فجعلت تقذف نفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى، وقالوا هذه المرة نتوب إلى الله تعالى ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام سبعاً من السبت إلى السبت، فأقاموا شهراً في عافية ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دماً وصارت مياههم دماً وما يستقون من الآبار والأنهار إلّا وجدوه دماً عبيطاً أحمر، فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا ليس لنا شراب، فقال: إنه سحركم، فقال القوم من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلّا دماً عبيطاً وكان فرعون يجمع بين القبطي والإسرائيلي على الإناء الواحد فيكون ما يلي

القبطي والإسرائيلي على إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً ويفرغان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطي دم وللإسرائيلي ماء حتى أن المرأة من آل فرعون تأتي إلى المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقني من مائك فتصب لها في قربتها فيصير في الإناء ماء حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في فمي فتفعل ذلك فيصير دماً ثم إن فرعون اعتراه العطش حتى أنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها دماً فمكثوا على ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم. وقال زيد بن أسلم: إن الدم الذي سلط الله عز وجل عليهم كان الرعاف فأتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا إليه ما يلقوه وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى: ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات**﴾ يعني يتبع بعضها بعضاً وتفصيلها أن كل عذاب كان يقوم عليهم أسبوعاً وبين كل عذابين مدة شهر ﴿**فاستكبروا**﴾ يعني عن الإيمان فلم يؤمنوا ﴿**وكانوا قوماً مجرمين**﴾ يعني آل فرعون.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿**ولما وقع عليهم الرجز**﴾ يعني لما نزل بهم العذاب الذي ذكره في الآية المتقدمة هو الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم في يوم واحد سبعون ألفاً فأمسوا وهم لا يتدافنون (ق). عن أبي أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

وقوله تعالى: ﴿**قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك**﴾ يعني بما أوصاك وقيل بما عهد عندك من إجابة

الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً ويقومان إلى الجرّة فيها الماء فيخرج للإسرائيلي ماء وللقبطي دم، حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول اسقني من مائك فتصبّ لها من قربتها فيعود في الإناء دماً حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجّيه في فِيه، فتأخذ في فيها ماء فإذا مجّته في فيها صار دماً وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماؤها في فيه ملحاً أُجاجاً فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يشربون إلّا الدم. قال زيد بن أسلم: الدم الذي سُلّط عليهم كان الرعاف، فأتوا موسى وقالوا يا موسى ادع ربّك يكشف عنّا هذا الدم فنؤمن من بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه عزّ وجلّ فكشف عنهم فلم يؤمنوا فذلك قوله عزّ وجلّ فأرسلنا عليهم الطوفان، ﴿ والجرادَ والقُمّلَ والضفادِعَ والدّمَ آياتٍ مفصّلاتٍ ﴾، يتبع بعضها بعضاً وتفصيلها أن كل عذاب كان يمتد أسبوعاً وبين كل عذابين شهراً، ﴿ فاسْتَكْبَرُوا وكانُوا قوماً مجرمين ﴾.

﴿ **ولمّا وقعَ عليهمُ الرِّجْزُ** ﴾، أي: نزل بهم العذاب وهو ما ذكر الله عزّ وجلّ من الطوفان وغيره... وقال سعيد بن جبير: الرجز الطاعون، وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس، حتى مات منهم سبعون ألفاً في يوم فأمسوا وهم لا يتدافنون، ﴿ **قالوا** ﴾ لموسى ﴿ **يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك** ﴾، أي: أوصاك. وقال عطاء: بما نبّأك. وقيل: بما عهد عندك من إجابة دعوتك ﴿ **لئن كشفتَ عنّا الرّجْزَ** ﴾، وهو الطاعون، ﴿ **لَنُؤْمِننّ لك**

دعوتك ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ يعني العذاب الذي وقع بنا ﴿لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ حتى يذهبوا حيث شاؤوا ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز﴾ يعني بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ يعني إلى الوقت الذي أجل لهم وهو وقت إهلاكهم بالغرق في اليم ﴿إذا هم ينكثون﴾ يعني إذا هم ينقضون العهد الذي التزموه فلم يفوا به.

واعلم أن ما ذكره الله تعالى في هذه الآيات هي معجزات في الحقيقة دالة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام ووجه ذلك أن العذاب كان مختصاً بآل فرعون دون بني إسرائيل فاختصاصه بالقبطي دون الإسرائيلي معجز وكون بني إسرائيل في أمان منه وعافية وقوم فرعون في شدة وعذاب وبلاء مع اتحاد المَساكن معجز أيضاً.

فإن اعترض معترض وقال إن الله تعالى علم من حال آل فرعون أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة في تواليها عليهم وإظهار الكثير منها.

فالجواب على مذهب أهل السنة إن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يُسأل عما يفعل وأما على قول المعتزلة في رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون أن بعضهم كان يؤمن بتوالي تلك المعجزات وظهورها فلهذا السبب والاها عليهم والله أعلم بمراده.

قوله عز وجل: ﴿فانتقمنا منهم﴾ يعني كافأناهم عقوبة لهم سوء صنيعهم. وأصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب ﴿فأغرقناهم في اليم﴾ والمعنى أنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم فلما بلغوا الأجل الذي أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم بالغرق فذلك قوله فأغرقناهم في اليم يعني البحر واليم الذي لا يدرك قعره وقيل هو لجة جر البحر ومعظم مائه. قال الزهري: اليم معروف لفظة سريانية عربتها العرب ويقع إسم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فاقذفيه في اليم﴾ والمراد به نيل مصر وهو عذب ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ يعني أهلكناهم وأغرقناهم بسبب أنهم كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا ﴿وكانوا عنها﴾ يعني عن آياتنا ﴿غافلين﴾ يعني معرضين وقيل كانوا على حلول النقمة بهم غافلين.

ولما كان الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها كالغفلة عنها سموا غافلين تجوزاً لأن الغفلة ليست من فعل الإنسان.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ

ولنُرسِلنّ معكَ بني إسرائيل﴾، أخبرنا أبو الحسن السرخسي ثنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحق الهاشمي ثنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: أسمعتَ من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة بن زيد: قال رسول الله ﷺ: «الطاعونُ رجزٌ أُرسلَ على بني إسرائيل أو على مَن كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلمّا كشفنا عنهمُ الرِّجزَ إلى أجلٍ همْ بالِغوه ﴾، يعني إلى الغرق في اليم، ﴿ إذا هم ينكُثون ﴾، ينقضون العهد.

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ﴾، يعني البحر، ﴿ بأنّهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾، أي: عن النقمة قبل حلولها. وقيل: معناه عن آياتنا مُعرضين.

كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟
يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ
إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ
ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ يعني ومكنّا القوم الذين كانوا يقهرون ويغلبون على أنفسهم وهو أن فرعون وقومه كانوا قد تسلطوا على بني إسرائيل فقتلوا أبناءهم واستخدموهم فصيروهم مستضعفين تحت أيديهم ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ يعني أرض الشام ومصر وأراد بمشارقها ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها. وقيل: أراد بمشارق الأرض ومغاربها الأرض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب. وقيل: أراد جميع جهات الأرض وهو اختيار الزجاج قال: لأن داود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما كانا من بني إسرائيل وقد ملكا الأرض.

وقوله عز وجل: ﴿التي باركنا فيها﴾ يدل على أنها الأرض المقدسة يعني باركنا فيها بالثمار والأشجار والزروع والخصب والسعة ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل﴾ يعني وتمت كلمة الله وهي وعدهم بالنصر على عدوهم والتمكين في الأرض من بعدهم وقيل كلمة الله هي قوله ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ الآية والحسنى صفة للكلمة وهي تأنيث الأحسن وتمامها إنجاز ما وعدهم به من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم ﴿بما صبروا﴾ يعني إنما حصل لهم ذلك التمام وهو ما أنعم الله تعالى به عليهم من إنجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دينه وأذى فرعون لهم ﴿ودمرنا﴾ يعني وأهلكنا والدمار الهلاك باستئصال ﴿ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ في أرض مصر من العمارات والبنيان ﴿وما كانوا يعرشون﴾ يعني يسقفون من ذلك البنيان وقال مجاهد: ما كانوا يبنون من البيوت والقصور. وقال الحسن: وما كانوا يعرشون من الثمار والأعناب.

قوله عز وجل: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ يعني وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد إهلاك فرعون وقومه وإغراقهم فيه يقال جاز الوادي وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره.

وقال الكلبي عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكراً لله تعالى: ﴿فأتوا على قوم

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضْعَفُون ﴾، يُقهرون ويُستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء والاستعباد وهم بنو إسرائيل، ﴿ مشارق الأرض ومغاربَها ﴾، يعني مصر والشام، ﴿ التي باركنا فيها ﴾، بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة، ﴿ وتمّتْ كلمةُ ربِّك الحسنى على بني إسرائيل ﴾، يعني: وتمت كلمة الله وهي وعده إيّاهم بالنصر والتمكين في الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿ ونُـريدُ أنْ نَمُنَّ على الـذين اسْتُضْعِفُوا في الأرض ﴾ [القصص: ٥] الآية ﴿ بما صبرُوا ﴾، على دينهم وعلى عذاب فرعون، ﴿ وَدَمَّرْنا ﴾ أهلكنا ﴿ ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه ﴾، في أرض مصر من العمارات، ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾، قال مجاهد: يبنون من البيوت والقصور. وقال الحسن: يعرشون من الأشجار والثمار والأعناب. وقرأ أبو بكر وابن عامر «يعرشـون» بضم الراء هاهنا وفي النحـل [٦٨]، وقرأ الآخرون بكسرها.

قوله تعالى: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾، قال الكلبي: عبر بهم موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك

يعكفون على أصنام لهم﴾ يعني فمر بنو إسرائيل بعد مجاوزة البحر على قوم يعكفون أي يقيمون ويواظبون على أصنام لهم يعني تماثيل لهم كانوا يعبدونها من دون الله. قال ابن جريج: كانت تلك الأصنام تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل. وقال قتادة: كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرقة يعني بالرقة ساحل البحر وقيل كان أولئك الأقوام من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه الصلاة والسلام بقتالهم ﴿قالوا﴾ يعني قال بنو إسرائيل لموسى لما رأوا ذلك التمثال ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ يعني كما لهم أصنام يعبدونها ويعظمونها فاجعل لنا أنت إلهاً نعبده ونعظمه. قال البغوي رحمه الله: ولم يكن ذلك شكاً من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم وقال غيره هذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت عى قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم وعبادتهم غير الله تعالى فحملهم جهلهم على أن قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فرد عليهم موسى عليه الصلاة والسلام بقوله ﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾ يعني تجهلون عظمة الله تعالى وأنه لا يستحق أن يعبد سواه لأنه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه فأغرقهم في البحر وأنجاكم منه. عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ «سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل إلهاً كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنن مَن كان قبلكم» أخرجه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إن هؤلاء متبرٍ ما هم فيه﴾ أي مهلك والتتبير الإهلاك ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ البطلان عبارة عن عدم الشيء إما بعدم ذاته أو بعدم فائده ونفعه والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا يدفع عنهم ضراً لأنه عمل لغير الله تعالى فكان باطلاً لا نفع فيه ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً﴾ لما قال بنو إسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة حكم عليهم بالجهالة وقال مجيباً لهم على سبيل العجب والإنكار عليهم أغير الله أبغيكم إلهاً يعني أطلب لكم وأبغي لكم إلهاً ﴿وهو فضّلكم على العالمين﴾ والمعنى أن الإله ليس هو

فرعون وقومه فصامه شكراً لله عزّ وجلّ ﴿ فأتوا ﴾ فمرّوا ﴿ على قوم يعكفون ﴾، يقيمون قرأ حمزة والكسائي «يعكِفـون» بكسر الكاف وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان، ﴿ على أصنام ﴾، أوثان ﴿ لهم ﴾، يعبدونها من دون الله. قال وذلك أول شأن العجل. قال قتادة: كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرقّة، فقالت بنو إسرائيل لمّا رأوا ذلك: ﴿ قالوا يا موسى اجعلْ لنَا إلَهاً ﴾؛ أي مثالاً نعبده ﴿ كما لهم آلهة ﴾، ولم يكن ذلك شكّاً من بني إسرائيل في وحدانية الله، وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظّمه ونتقرّب بتعظيمه إلى الله وظنوا أن ذلك لا يضرّ الديانة وكان ذلك لشدّة جهلهم. ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ إنّكم قومٌ تجهلون ﴾ عظمة الله.

﴿ إنّ هؤلاء مُتَبَّـرٌ ﴾، مهلك، ﴿ ما هم فيـه ﴾ والتتبير الإهـلاك، ﴿ وباطـلٌ ﴾، مضمحل وزائـل، ﴿ ما كـانوا يعملون ﴾.

﴿ قـال ﴾ يعني موسى ﴿ أغيـرَ اللّهِ أبغيكم ﴾، أي: أبغي لكم وأطلب، ﴿ إلَهاً وهـو فضّلكم على العالمين ﴾، أي: على عالمي زمانكم. أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهـري أنا جـدّي أبو سهـل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنا إسحق بن إبراهيم الدبري أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع النبي ﷺ قبل حنين

شيئاً يطلب ويلتمس ويتخير بل الإله هو الذي فضلكم على العالمين لأنه القادر على الإنعام والإفضال فهو هذا الذي يستحق أن يعبد ويطاع لا عبادة غيره ومعنى قوله فضلكم على العالمين يعني على عالمي زمانكم وقيل فضلهم بما خصهم به من الآيات الباهرة التي لم تحصل لغيرهم وإن كان غيرهم أفضل منهم.

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم﴾ هذه الآية تقدم تفسيرها في سورة البقرة، والفائدة في ذكرها في هذا الموضع أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعمة العظيمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

قوله عز وجل: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ يعني وواعدنا موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاتنا ثلاثين ليلة وهي ذو القعدة ﴿وأتممناها بعشر﴾ يعني عشر ذي الحجة وهذا قول ابن عباس ومجاهد. قال المفسرون إن موسى عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل إذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله عز وجل فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه عز وجل أن ينزل عليه الكتاب الذي وعد به بني إسرائيل فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً فصامها فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقيل بل أكل من ورق الشجر فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشر ذي الحجة وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فكانت فتنة بني إسرائيل في تلك العشر التي زادها الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام وقيل إن الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يصوم ثلاثين يوماً ويعمل فيها

فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما كان للكفّار ذات أنواط، وكان الكفّار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها، فقال النبيّ ﷺ الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة، لتَرْكَبُنَّ سُنن مَن قبلكم».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذْ أنجيناكم ﴾ قرأ ابن عامر « وإذْ أنجاكم »، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام، ﴿ من آل فرعون يسومُونكم سوءَ العذابِ يقتلون أبناءكم ﴾، قرأ نافع «يقتلون» خفيفة التاء من القتل وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير من التقتيل، ﴿ ويستحيون نساءَكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾.

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾، ذا القعدة، ﴿ وأتممناها بعشر ﴾، من ذي الحجة، ﴿ فتمّ ميقاتُ ربِّه أربعينَ ليلةً وقال موسى ﴾ عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة ﴿ لأخيه هارون اخلفني ﴾، كن خليفتي، ﴿ في قومي وأصلحْ ﴾، أي أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله وقال ابن عباس: يريد الرفق بهم والإحسان إليهم ﴿ ولا تتبعْ سبيلَ المفسدين ﴾، أي: لا تطع مَن عصى الله ولا توافقه على أمره وذلك أن موسى عليه السلام وعد بني

ما يتقرب به إلى الله ثم كلمه وأعطاه الألواح في العشر التي زادها فلهذا قال: وتممناها بعشر وهذا التفصيل الذي ذكره هنا هو تفصيل ما أجمله في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة**﴾ فذكره هناك على الإجمال وذكره هنا على التفصيل.

وقوله تعالى: ﴿**فتم ميقات ربه أربعين ليلة**﴾ يعني فتم الوقت الذي قدره الله لصوم موسى عليه الصلاة والسلام وعبادته أربعين ليلة لأن الميقات هو الوقت الذي قدر أن يعمل فيه عمل من الأعمال ولهذا قيل مواقيت الحج ﴿**وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي**﴾ يعني كن أنت خليفتي فيهم من بعدي حتى أرجع إليك ﴿**وأصلح**﴾ يعني وأصلح أمور بني إسرائيل واحملهم على عبادة الله تعالى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الرفق بهم والإحسان إليهم ﴿**ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾ يعني ولا تسلك طريق المفسدين في الأرض ولا تطعهم والمقصود من هذا الأمر التأكيد لأن هارون عليه الصلاة والسلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين فهوكقوله ولكن ليطمئن قلبي وكقولك للقاعد اقعد بمعنى دُم على ما أنت عليه من القعود.

قوله تعالى: ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا**﴾ يعني للوقت الذي وقتنا له أن يأتي فيه لمناجاتنا وهو قوله ﴿**وكلمه ربه**﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام واختلف الناس في كلام الله تعالى فقال الزمخشري كلمه ربه عز وجل من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في الألواح هذا كلامه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك في بطلانه وفساده لأن الشجرة أو ذلك الجرم لا يقول «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري» فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهبت الحنابلة ومن وافقهم إلى أن كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وأنه قد تم وذهب جمهور المتكلمين إلى أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات وتلك الصفة قديمة أزلية والقائلون بهذا القول قالوا إن موسى عليه الصلاة والسلام سمع تلك الصفة الأزلية الحقيقية وقالوا كما أنه لا يبعد رؤية ذاته وليس جسماً ولا عرضاً كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه ليس بصوت ولا حرف ومذهب أهل السنة وجمهور العلماء من السلف والخلف إن الله تعالى متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض في تأويله وحقيقته. قال أهل التفسير والأخبار: لما جاء موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام ثم أتى طور سيناء وفي القصة أن الله تعالى أنزل ظلة تغشت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية وطرد عنه الشيطان وهو أم الأرض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياماً

إسرائيل وهم بمصر إن الله إذا أهلك عدوّهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون! فلمّا فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربَّه الكتاب فأمره الله عزّ وجلّ أن يصوم ثلاثين يوماً فلما تمت ثلاثون أنكر خلوف فمه فتسوَّك بعود خرنوب، وقال أبو العالية: أكل من لحاء شجرة فقالت له الملائكة: كنّا نشمّ من فِيك رائحة المسك، فأفسدتَه بالسِواك فأمره الله أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة، وقال: أما علمت أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، وكانت فتنتهم في العشر التي زادها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه** ﴾، أي: للوقت الذي ضربنا له أن نكلمه فيه. قال أهل التفسير: إن موسى تطهّر وطهّر ثيابه لميعاد ربّه فلما أتى طور سيناء. وفي القصة: إن الله عزّ وجلّ أنزل ظلمة على أربعة فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد هوام الأرض ونحّى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياماً في الهواء ورأى العرش بارزاً وكلّمه الله وناجاه حتى أسمعه، وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلّمه ربّه وأدناه حتى سمع صرير القلم فاستحلى موسى عليه السلام كلام ربّه واشتاق إلى رؤيته ﴿ **قالَ ربِّ أرني أنظرْ إليك** ﴾، قال

في الهواء ورأى العرش بارزاً وأدنى ربه حتى سمع صريف الأقلام على الألواح وكلمه الله تبارك وتعالى وناجاه وأسمعه كلامه وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلم الله تعالى به موسى فاستحلى كلام ربه عز وجل واشتاق إلى رؤيته ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾ قال الزجاج: فيه اختصار تقديره أرني نفسك أنظر إليك وقال ابن عباس معناه أعطني أنظر إليك وإنما سأل موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية مع علمه بأن الله تعالى لا يرى في الدنيا لما هاج به من الشوق وفاض عليه من أنواع الجلال حتى استغرق في بحر المحبة فعند ذلك سأل الرؤية وقيل إنما سأل الرؤية ظناً منه بأنه تعالى يرى في الدنيا فتعالى الله عن ذلك ﴿قال لن تراني﴾ يعني ليس لبشر أن يراني في الدنيا ولا يطيق النظر إليّ في الدنيا من نظر إليّ في الدنيا مات فقال موسى عليه الصلاة والسلام: إلهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إليّ من أن أعيش ولا أراك. وقال السدي: لما كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام غاص عدو الله إبليس الخبيث في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى فوسوس إليه أن مكلمك شيطان فعند ذلك سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه الرؤية فقال «رب أرني أنظر إليك» قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام «لن تراني».

(فصل)

وقد تمسك من نفي الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ قالوا لن تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم في ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم في ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه في أن لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على أهل اللغة إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة والعربية ولم يقل به أحد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى في صفة اليهود «ولن يتمنوه أبداً» مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ وقوله ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ فإن قالوا إن لن معناها تأكيد النفي كلا التي تنفي المستقبل قلنا إن صح هذا التأويل فيكون معنى لن تراني محمولاً على الدنيا أي لن تراني في الدنيا جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن المؤمنين يرون ربهم عز وجل يوم

الزجّاج: فيه اختصار تقديره أرني نفسك أنظر إليك. قال ابن عباس: أعطني النظر إليك. فإن قيل: كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا؟ قال الحسن: هاج به الشوق فسأل الرؤية. وقيل: سأل الرؤية ظناً منه أنه يجوز أن يُرى في الدنيا ﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ لن تراني ﴾ وليس لبشر أن يطيق النظر إليَّ في الدنيا مَن نظر إليّ في الدنيا مات فقال إلّهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحبّ إليّ من أن أعيش ولا أراك فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ لَنْ تراني ولكنِ انظرْ إلى الجبل ﴾، وهو أعظمَ جبل بمدين يقال له زبير. قال السدي: لمّا كلّم الله موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى، فوسوس إليه وقال: إنّ مَنْ كلّمك شيطان فعند ذلك سأل موسى الرؤية فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ لن تراني ﴾، وتعلقت نفاة الرؤية بظاهر هذه الآية، وقالوا: قال الله ﴿ لن تراني ﴾، ولن تكون للتأبيد، ولا حجّة لهم فيها ومعنى الآية: لن تراني في الدنيا أو في الحال، لأنه كان يسأل الرؤية في الحال وأن لا تكون للتأبيد كقوله تعالى: ﴿ لن يتمنّوه أبداً ﴾ [البقرة: ٩٥]، إخباراً عن اليهود، ثم أخبر عنهم أنهم يتمنون الموت في الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿ ونادَوْا يا مالك ليقضِ علينا ربُّك ﴾ [الزخرف: ٧٧]، و﴿ يا لَيْتَهَا كانتِ القاضية ﴾ [الحاقّة: ٢٧]، والدليل عليه أنه لم ينسبه إلى الجهل بسؤال الرؤية ولم يقل إني لا أُرَى حتى تكون لهم حجة بل علّق الرؤية على استقرار الجبل واستقرار الجبل عند التجلّي غير مستحيل إذا جعل الله تعالى له تلك القوة، والمُعلّق بما لا يستحيل لا يكون محالاً. قال الله تعالى: ﴿ ولكنِ انظرْ إلى الجبلِ فإنِ استقرَّ مكانَهُ فسوفَ تراني ﴾، قال وهب وابن إسحق: لمّا سأل موسى ربّه الرؤية أرسل الله

القيمة في الدار الآخرة وأيضاً فإن موسى عليه الصلاة والسلام كان عارفاً بالله تعالى وبما يجب ويجوز ويمتنع على الله عز وجل وفي الآية دليل على أنه سأل الرؤية فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها موسى عليه الصلاة والسلام فحيث سألها علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى وأيضاً فإن الله عز وجل علق رؤيته على أمر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم من ذلك كون الرؤية في نفسها جائزة وإنما قلنا ذلك لأنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل وهو قوله تعالى: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ وهو أمر جائز الوجود في نفسه وإذا كان كذلك ثبت أن رؤيته جائزة الوجود لأن استقرار الجبل غير مستحيل عند التجلي إذا جعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالاً والله أعلم بمراده.

قال وهب ومحمد بن إسحاق: لما سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل الرؤية أرسل الله الضباب والرياح والصواعق والرعد والبرق والظلمة حتى أحاطت بالجبل الذي عليه موسى عليه الصلاة والسلام أربع فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى أهل السموات أن يعترضوا على موسى عليه الصلاة والسلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد فقال موسى: رب إني كنت عن هذا غنياً ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف موسى بن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وبدنه ثم قال: لقد ندمت على مسألتي فهل ينجيني مما أنا فيه شيء فقال له خير الملائكة ورئيسهم: يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس لهم جلب كجلب الجيش العظيم أوالنهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له خير الملائكة ورئيسهم: مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا صبر لك عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الذين مروا قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم: يا ابن

الدواب والصواعق والظلمة والرعد والبرق وأحاط بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب، وأمر الله ملائكة السماء أن يعترضوا على موسى فمرّت به ملائكة السماء الدنيا كثيرَانِ البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه أمثال الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران ممّا رأى وسمع واقشعرّت كل شعرة في رأسه وجسده، ثم قال: لقد ندمت على مسألتي فهل ينجيني من مكاني الذي فيه شيء؟ فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا موسى اصبرْ لِما سألت، فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيتَ. ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أنِ اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد، وأفواهُهُم تنبع بالتسبيح والتقديس كجلب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار، ففزع موسى واشتدّ فزعه وأيِسَ من الحياة، فقال له خير الملائكة: يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أنِ اهبطوا فاعترضوا على موسى بـن عمران، فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الذين مرّوا به قبلهم ألوانهم كلهب النار، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتقديس والتسبيح لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مرّوا به من قبلهم، فاصطكّت ركبتاه وارتعد قلبه واشتدّ بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران اصبرْ لما سألت فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيت، ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع

عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم: يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصير عليه ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة العظيمة الطويلة نار أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من الملائكة كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبداً لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى عليه الصلاة والسلام رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول: رب اذكرني ولا تنس عبدك فلا أدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا إن خرجت احترقت وإن أقمت مت فقال له كبير الملائكة ورئيسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدأ نور العرش انصدع الجبل من عظمة الرب سبحانه وتعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعاً يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبداً لا يموت فارتج الجبل لشدة أصواتهم واندك واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقاً على وجهه ليس معه روحه فأرسل الله تعالى برحمته الروح فتغشته وقلب عليه الحجر الذي كان جلس عليه موسى فصار عليه كهيئة القبة لئلا يحترق موسى عليه الصلاة والسلام وأقامت الروح عليه مثل اللامة فلما أفاق موسى قام يسبح ويقول آمنت بك وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وملك الملوك والإله العظيم لا يعدلك شيء ولا يقوم لك شيء رب تبت إليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك وما أجلّك يا رب العالمين فذلك قوله تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾ قال ابن عباس: ظهر نور ربه للجبل فصار تراباً واسم الجبل زبير. وقال الضحاك أظهر الله عز وجل من نور الحجب مثل منخر الثور. وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ما تجلى للجبل من الله تعالى إلا مثل سم الخياط حتى صار دكاً. وقال السدي ما تجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه ما روى ثابت عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال هكذا ووضع الإبهام على الفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل ذكره البغوي هكذا بغير سند وأخرجه الترمذي أيضاً عن أنس أن

موسى أن يتبعهم بصره، لم يرَ مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتدّ حزنه وكثر بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أنِ اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه في يد كل مَلَكٍ منهم مثل النخلة الطويلة نار أشدّ ضوءاً من الشمس، ولباسهم كلهب النار إذا سبّحوا وقدّسوا جاوبهم مَن كان قبلهم من ملائكة السمٰوات، كلهم يقولون بشدّة أصواتهم: سُبُّوحٌ قُدّوسٌ ربُّ الملائكة والروح، ربُّ العزّة أبداً لا يموت، وفي رأس كل مَلَك منهم أربعة أوجه، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبّح معهم حين سبّحوا وهو يبكي ويقول: ربِّ اذكرني ولا تنسَ عبدك لا أدري أأنفلتُ ممّا أنا فيه أم لا؟ إنْ خرجتُ احترقتُ وإن مكثتُ متُّ، فقال له كبير الملائكة ورأسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتدَّ خوفُك وينخلع قلبك فاصبرْ للذي سألت، ثم أمر الله أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلمّا بدَا نورُ العرش انفرج الجبل من عظمة الرب جلّ جلاله، ورفعت ملائكة السمٰوات أصواتهم جميعاً يقولون: سبحان الملك القدوس ربِّ العزّة أبداً لا يموت بشدة أصواتهم، فارتجّ الجبل واندكّت كل شجرة كانت فيه وخرّ العبد الضعيف موسى صَعِقاً على وجهه ليس معه روحه، فأرسل الله برحمته الروح فيغشاه، وقلب عليه الحجر الذي كان عليه موسى وجعله كهيئة القبّة لئلا يحترق موسى، فأقامه الروح مثل اللامة، فقام موسى يسبّح الله ويقول آمنتُ بكَ ربّي وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا، مَن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت ربّ

النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾ قال حماد هكذا وأمسك بطرف إبهامه على أنملة أصبعه اليمنى فساخ الجبل وخرّ موسى عليه السلام صعقاً. وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة ويروى عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم فجعل الجبل دكاً يعني مستوياً بالأرض وقال ابن عباس: جعله تراباً وقال سفيان ساخ الجبل حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفي صار رملاً هائلاً وقال الكلبي جعله دكاً يعني كسراً جبالاً صغاراً وقيل إنه صار لعظمة الله تعالى ستة أجبل فوقع ثلاثة بالمدينة وهي: أحد وورقان ورضوى ووقع ثلاثة بمكة وهي: ثور وثبر وحراء وقوله تعالى: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ قال ابن عباس والحسن يعني مغشياً عليه. وقال قتادة يعني ميتاً والأول أصح لقوله ﴿فلما أفاق﴾ والميت لا إفاقة له إنما يقال أفاق من غشيته قال الكلبي صعق موسى عليه الصلاة والسلام يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر. وقال الواقدي: لما خر موسى صعقاً قالت ملائكة السموات: ما لابن عمران وسؤال الرؤية وفي بعض الكتب أن ملائكة السموات أتوا موسى وهو في غشيته فجعلوا يركلونه ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة فلما أفاق يعني من غشيته ورجع عقله إليه وعرف أنه سأل أمراً عظيماً لا ينبغي له ﴿قال سبحانك﴾ يعني تنزيهاً لك من النقائص كلها ﴿تبت إليك﴾ يعني من مسألتي الرؤية بغير إذنك وقيل من سؤال الرؤية في الدنيا وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد ﷺ فمنعها قال سبحانك تبت إليك يعني من سؤال ما ليس لي وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت إليك يعني من هذا السؤال وحسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ يعني بأنك لا ترى في الدنيا وقيل وأنا أول المؤمنين يعني من بني إسرائيل بقي في الآية سؤالات: الأول أن الرؤية عين النظر فكيف قال أرني أنظر إليك وعلى هذا يكون التقدير أرني حتى أراك؟ والجواب عنه: أن معنى قوله أرني اجعلني متمكن من رؤيتك حتى أنظر إليك وأراك. السؤال الثاني كيف قال لن تراني ولم يقل لن تنظر إليّ حتى يكون مطابقاً لقوله «أنظر إليك»؟ والجواب: أن النظر لما كان مقدمة الرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذي لا رؤية معه.

الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك، ولا يَعْدِلُك شيء ولا يقوم لك شيء، ربِّ تبتُ إليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك ما أجلّك ربَّ العالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿ فلمّا تجلّى ربُّه للجبل جعله دكّاً ﴾، قال ابن عباس ظهر نورُ ربِّه للجبل جبل زبير. وقال الضحاك: أظهر الله من نور الحجب مثل مِنخر ثور. وقال عبد الله بن سلام كعب الأحبار: ما تجلّى من عظمة الله للجبل إلّا مثل سمّ الخياط حتى صار دكّـاً. وقال السـدي: ما تجلّى إلّا قـدر الخنصر، يدلّ عليه ما روى ثابت عن أنس أنّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «هكذا» ووضع الإبهام على المِفصَل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل. وحُكِيَ عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم فجعل الجبل دكّاً، أي: مستوياً بالأرض. قرأ حمزة والكسائي «دكـاء» ممدوداً غير منوّن هاهنا وفي سورة الكهف، وافق عاصم في الكهف، وقرأ الآخرون «دكّـاً» مقصوراً منوّناً، فمَن قَصَرَ فمعناه جعله مدقوقاً: والدكّ والدقّ واحد، وقيل: معناه دكّه الله دكّاً فتقه كما قال: ﴿ إذا دُكّتِ الأرضُ دكّاً ﴾ [الفجر: ٢١]، ومَن قرأ بالمدّ أي جعله مستوياً أرضاً دكّاء. وقيل: معناه جعله مثل دكاء وهي الناقة التي لا سنام لها قال ابن عباس: جعله تراباً. وقال سفيان: ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه. وقال عطية العوفي: صار رملاً هائلاً. وقال الكلبي: جعله دكّاً أي كسراً جبالاً صغاراً. ووقع في بعض التفاسير: صارت لعظمته ستّة أجبل وقعت بالمدينة أحد وودقان ورضوى، ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وخرّ موسى صَعِقاً ﴾، قال ابن عباس والحسن: مغشياً عليه. وقال قتادة: ميّتاً. وقال الكلبي: خرّ موسى صعقـاً يـوم الخميس يـوم عَرَفَـة وأُعطي التـوراة يوم

السؤال الثالث: كيف استدرك وكيف اتصل الاستدراك من قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ بما قبله؟ والجواب أن المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وأن أحداً لا يقوى على رؤيته تعالى إلا من قواه الله تعالى بمعونته وتأييده ألا ترى أنه لما ظهر أصل التجلي للجبل اندك وتقطع فهذا هوالمراد من هذا الاستدراك لأنه يدل على تعظيم أمر الرؤية والله أعلم بمراده.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ يعني قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام يا موسى إني اخترتك واتخذتك صفوة. الاصطفاء الاستخلاص من الصفوة والاجتباء والمعنى إني فضلتك واجتبيتك على الناس وفي هذا تسلية لموسى عليه الصلاة والسلام عن منع الرؤية حين طلبها لأن الله تعالى عدد عليه نعمه التي أنعم بها عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له إن كنت منعت من الرؤية التي طلبت فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر إلى سائر أنواع النعم التي خصصتك بها ويه الاصطفاء على الناس برسالاتي وبكلامي يعني من غير واسطة لأن غيره من الرسل منع كلام الله تعالى إلا بواسطة الملك.

فإن قلت كيف قال اصطفيتك على الناس برسالاتي مع أن كثيراً من الأنبياء قد ساواه في الرسالة قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال جوابين:

أحدهما: ذكره البغوي فقال لما لم تكن الرسالة على العموم في حق الناس كافة استقام قوله «اصطفيتك على

الجمعة يوم النحر. قال الواقدي: لمّا خرّ موسى صَعِقاً قالتْ ملائكة السمٰوات: مَا لاِبْنِ عمران وسؤال الرؤية؟ وفي بعض الكتب: أن ملائكة السمٰوات أتوا موسى وهو مغشي عليه فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون يا ابن النساء الحيّض أطمعت في رؤية ربّ العزّة. ﴿ فلما أفَاقَ ﴾، موسى من صعقته وثاب إليه عقله عرف أنه قدْ سأل أمراً عظيماً لا ينبغي له، ﴿ قال سبحانك تبتُ إليك ﴾، عن سؤال الرؤية ﴿ وأنا أولُ المؤمنين ﴾، بأنّك لا تُرى في الدنيا. وقال مجاهد والسدي: وأنا أول مَن آمن بك من بني إسرائيل.

﴿ قال يا موسى إنّي اصطفيتُكَ على النّاس ﴾، أي اخترتك، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «إنّـي» بفتح الياء وكذلك ﴿ أخي أُشدد ﴾ [طه: ٣١]، ﴿ برسالاتي ﴾، قرأ أهل الحجاز «برسالتي» على التوحيد، والآخرون بالجمع، ﴿ وبكلامي فَخُذْ مَا آتيتك ﴾، أعطيتك، ﴿ وكن مِنَ الشاكرين ﴾. لله على نعمه، فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿ اصطفيتك على الناس برسالاتي ﴾، وقد أعطى غيره الرسالة؟ قيل: لمّا لم تكن الرسالة على العموم في حقّ الناس كافّة اصطفيتك على الناس وإن شاركه فيه غيره، كما يقول الرجل: خصصتك بمشورتي وإن شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم يكون مستقيماً. وفي القصة: أن موسى كان بعدما كلّمه ربّه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لِمَا غُشي وجهه من النور، ولم يزل على وجهه برقع حتى مات. وقالت له امرأته: أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرّت لله ساجدة، وقالت: ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة، قال: ذلك لك إن لم تتزوجي بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبوإسحاق الثعلبي أنا أبوعبد الله محمد بن أحمد بن علي المزكي أنـا أبوالعباس محمد بن أحمد بن إسحق السراج حدّثنا قتيبة بن سعيد حدّثنا رشد بن أسعد بن عبد الرحمن المغافري عن أبيه عن كعب الأحبار أن موسى نظر عند سعيد في التوراة فقال: إني أجد أمة خير الأمم أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف، وينهون عن

الناس» وإن شاركه فيها غيره كما يقول الرجل للرجل خصصتك بمشورتي وإن كان قد شاور غيره إذا لم تكن المشورة على العموم فيكون مستقيماً وفي هذا الجواب نظر لأن من جملة من اصطفاه الله برسالته محمداً ﷺ وهو أفضل من موسى عليه الصلاة والسلام فلا يستقيم هذا الجواب الجواب الثاني ذكره الإمام فخر الدين الرازي فقال: إن الله تعالى بين أنه خصه بمجموع أمرين وهمّا الرسالة مع الكلام بغير واسطة وهذا المجموع ما حصل لغيره فثبت أنه إنما حصل التخصيص هاهنا لأنه سمع ذلك الكلام بغير واسطة وإنما كان الجواب بغير واسطة سبباً لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر لأن من سمع كلام الملك العظيم من فيه كان أعلى وأشرف ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب وهذا الجواب فيه نظر أيضاً لأن محمداً ﷺ اصطفاه برسالته وكلمه ليلة المعراج بغير واسطة وفرض عليه وعلى أمته الصلوات وخاطبه بيا محمد يدل عليه قوله ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ ورفعه إلى حيث سمع صريف الأقلام وهذا كله يدل على مزيد الفضل والشرف على موسى عليه الصلاة والسلام وغيره من الأنبياء فلا يستقيم هذا الجواب أيضاً والذي يعتمد في هذا الجواب عن هذا السؤال أن الله اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام برسالته وبكلامه على الناس الذين كانوا في زمانه وذلك أنه لم يكن في ذلك الوقت أعلى منصباً ولا أشرف ولا أفضل منه وهو صاحب الشريعة الظاهرة وعليه نزلت التوراة فدل ذلك عليه أنه اصطفاه على ناس زمكانه كما اصطفى قومه على عالمي زمانهم وهو قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ قال المفسرون: يعني على عالمي زمانهم.

وقوله تعالى: ﴿فخذ ما آتيتك﴾ يعني ما فضلتك وأكرمتك به ﴿وكن من الشاكرين﴾ يعني على إنعامي عليك وفي القصة أن موسى عليه الصلاة والسلام كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشي وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل

المنكر ويؤمنون بالله وبالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجّال، ربِّ اجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد يا موسى، فقال: ربّي إني أجد أمةً هم الحمّادون لله على كل حال رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد، فقال: ربِّ إنّي أجد أمة يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم، وكان الأوّلون يحرقون صدقاتهم بالنار، وهم المستجيبون والمُستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي، قال: هي أُمة محمد، فقال: يا ربِّ إنّي أجد أُمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبّر الله فإذا هبط وادياً حمد الله، الصعيدُ لهم طهور والأرض لهم مسجد حيث ما كانوا، يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، غرٌّ محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد، قال: ربِّ إنّي أجد أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة مثلها وإن عملها كتبت بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عليه وإن عملها كُتبت له سيئة مثلها، فاجعلهم أُمتي، قال: هي أُمة محمد، فقال: ربِّ إنّي أجد أمة مَرْحُومةً ضعفاء يرثون الكتاب من الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً منهم إلاّ مرحوماً فاجعلهم أمتي، قال: هي أُمة أحمد، قال: ربِّ إني أجد أُمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يُصفّون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدويّ النحل لا يدخل النار أحد منهم أبداً إلاّ مَن يرى الحساب مثل ما يرى له الحجر من وراء البحر، فاجعلهم أُمتي، قال: هي أُمة أحمد، فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله محمداً وأُمته قال: يا ليتني من أصحاب محمد، فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهنّ ﴿ **يا موسى إني اصطفيتُك على الناس برسالاتي وبكلامي** ﴾ إلى قوله: ﴿ **سأُريكم دار الفاسقين** ﴾، ﴿ ومن قوم موسى أُمة يهدون بالحق وبه

شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة قال ذلك لك إن لم تتزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها قوله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وكتبنا في الألواح﴾ قال ابن عباس: يريد ألواح التوراة والمعنى وكتبنا لموسى في ألواح التوراة قال البغوي وفي الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح إثنا عشر ذراعاً وجاء في الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده. وقال الحسن: كانت الألواح من خشب. وقال الكلبي من زبرجدة خضراء. وقال سعيد بن جبير من ياقوتة حمراء. وقال ابن جريج من زمرد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور. وقال الربيع بن أنس: كانت الألواح من زبرجد وقال وهب: أمره الله بقطع ألواح من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده ثم شقها بأصبعه وسمع موسى عليه الصلاة والسلام صرير الأقلام بالكلمات العشرة وكان ذلك في أول يوم من ذي الحجة كان طول الألواح عشرة أذرع على طول موسى وقيل إن موسى خر صعقاً يوم عرفه فأعطاه الله تعالى التوراة يوم النحر وهذا أقرب إلى الصحيح عنه أنها لوحان واختاره الفراء قال وإنما جمعت على عدة العرب في إطلاق الجمع على الإثنين وقال وهب كانت عشرة ألواح. وقال مقاتل: كانت تسعة. وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي وقر سبعين بعيراً يقرأ لجزء منها في سنة ولم يقرأها إلا أربعة نفر موسى ويوشع بن نون وعزيز وعيسى عليهم الصلاة والسلام والمراد بقوله لم يقرأها يعني لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلبه إلا هؤلاء الأربعة. وقال الحسن: هذه الآية في التوراة بألف آية يعني قوله وكتبنا له في الألواح **﴿من كل شيء﴾** يعني يحتاج إليه من أمر ونهي **﴿موعظة﴾** يعني نهياً عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته **﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾** يعني وتبييناً لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام والحدود والأحكام مما يحتاج إليه في أمور الدين وروى الطبري بسنده عن وهب بن منبه قال: كتب له يعني في التوراة لا تشرك بي شيئاً من أهل السماء ولا من أهل الأرض فإن كل ذلك خلقي ولا تحلف باسمي كاذباً فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزكيه ووقر والديك.

يعدلون ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، قال: فرضي موسى كلَّ الرضا.

قوله تعالى: **﴿ وكتبنا له ﴾**، يعني لموسى، **﴿ في الألواح ﴾**، قال ابن عباس: يريد ألواح التوراة، وفي الحديث: «كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعاً». وجاء في أحاديث خلق الله آدم بيده: «وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده». وقال الحسن: كانت الألواح من خشب. قال الكلبي: كانت من زبر جدّة خضراء. وقال سعيد بن جبير: كانت من ياقوت أحمر. وقال الربيع بن أنس: كانت الألواح من برد. وقال ابن جريج: كانت من زمرّد أمر الله جبريل حتى جاء بها من عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمدَّ من نهر النور قال وهب: أمر الله بقطع الألواح من صخرة صمّاء ليّنها الله له فقطعها بيده ثم شققها بيده، وسمع موسى صرير القلم بالكلمات العشرة وكان ذلك في أول يوم من ذي القعدة، وكانت الألواح عشرة أذرع على طول موسى. وقال مقاتل ووهب: **﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾**، كنقش الخاتم. وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأه إلّا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى. وقال الحسن: هذه الآية في التوراة ألف آية يعني **﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾ ﴿ من كلِّ شيء ﴾**، مما أُمروا به ونُهوا عنه، **﴿ موعظة ﴾** نهياً عن الجهل، وحقيقة الموعظة: التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته، **﴿ وتفصيلاً لكلّ شيء ﴾**، أي: تبييناً لكل شيء من الأمر والنهي

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن كعب الأحبار أن موسى عليه الصلاة والسلام نظر في التوراة فقال: إني أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال رب اجعلهم أمتي قال هي أمة محمد يا موسى فقال رب إني لأجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: رب إني أجد في التوراة أمة يأكلون كفارتهم وصدقاتهم وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: يا رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبّر الله وإذا هبط وادياً حمد الله الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: يا رب إني أجد أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعلمها كتب له حسنة بمثلها وإن عملها كتبت بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: يا رب إني أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال: رب إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار أحد منهم أبداً إلا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء من البحر فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله عز وجل محمداً ﷺ وأمته قال يا ليتني من أصحاب محمد فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن ﴿**يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي** ـ إلى قوله ـ **سأريكم دار الفاسقين**﴾ ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ قال فرضي موسى كل الرضا.

وقوله تعالى: ﴿**فخذها بقوة**﴾ يعني وقلنا لموسى عليه الصلاة والسلام إذا كتبنا له في الألواح من كل شيء خذها بجد واجتهاد. وقيل معناه فخذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة لأن من أخذ شيئاً بضعف نية أداه إلى الفتور ﴿**وأمر قومك يأخذوا بأحسنها**﴾ قال ابن عباس: يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعلموا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى عليه الصلاة والسلام أشد عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به وقيل ظاهر قوله «وأمر قومك يأخذوا بأحسنها» يدل على أن بين التكليفين فرقا ليكون في هذا الفصل فائدة وهي أن التكليف كان على موسى أشد لأنه تعالى لم يرخص له ما رخص لغيره من قومه.

فإن قلت ظاهر قوله تعالى: ﴿**يأخذوا بأحسنها**﴾ يدل على أن فيها ما ليس بحسن وذلك لم يقل به أحد فما معنى قوله ﴿**يأخذوا بأحسنها**﴾؟ قلت إن التكليف كله حسن وبعضه أحسن كالقصاص حسن ولكن العفو أحسن وكالانتصار حسن والصبر أحسن منه فأمروا أن يأخذوا بالشد على أنفسهم ليكون ذلك أعظم من الثواب فهو كقوله ﴿**اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**﴾ وكقوله ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ وقيل إن الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والأحسن الأخذ بالأشد والأشق على النفس وقيل معناه بأحسنها بحسنها وكلها حسن.

والحلال والحرام والحدود والأحكام. ﴿ **فَخُذْهَا بقوة** ﴾، أي: بجدٍّ واجتهاد. وقيل: بقوة القلب وصحة العزيمة، لأنه إذا أخذه بضعف النيّة أدّاه إلى الفتور، ﴿**وأْمُرْ قومكَ يأخذوا بأحسنها**﴾، قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: يُحلّوا حلالَها ويُحرّموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها. وكان موسى عليه السلام أشدّ عبادة من قومه، فأمر بما لم يُؤمروا به. قال قطرب: بأحسنها أي بحسنها وكلها حسن. وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، وهي ما يستحقّ عليها الثواب وما دونها المباح لأنه لا يستحق عليه الثواب. وقيل: بأحسنها

قوله تعالى: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ قال مجاهد: يعني مصيركم في الآخرة وقال الحسن وعطاء يريد جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم. وقال قتادة: سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا الله تعالى لتعتبروا بها. وقال عطية العوفي يعني دار فرعون وقومه وهي مصر. وقال السدي: يعني منازل الكفار وقال الكلبي هي منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا فكانوا يمرون عليها إذا سافروا.

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

قوله عز وجل: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها حتى لا يؤمنوا بي عقوبة بحرمان الهداية لعنادهم الحق. وقال سفيان بن عيينة: سأمنعهم فهم القرآن وقيل معناه سأصرفهم عن التفكير في خلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات والعبر وقيل حكم الآية لأهل مصر خاصة وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام والأكثرون على أن الآية فيه دليل لمذهب أهل السنة على أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويصرف عن آياته ويقبل الحق من يشاء ويوفق بالتفكر في آياته وقبول الحق من يشاء لأنه القادر على ما يشاء ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ ومعنى الذين يتكبرون الذين يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم والتكبر على هذه الصفة لا يكون إلا لله عز وجل لأنه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد سواه فالتكبر في حق الله عز وجل صفة مدح وفي حق المخلوقين صفة ذم لأنه تكبر بما ليس له ولا يستحقه وقيل التكبر إظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق جميع العباد وقوله يتكبرون من الكبر لا من التكبر أن يفتعلون التكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال يتكبرون في الأرض بغير الحق بل بالباطل ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن

بأحسن الأمرين في كل شيء كالعفو أحسن من القصاص والصبر أحسن من الانتصار. ﴿ سأُرِيكُم دارَ الفاسقين ﴾، قال مجاهد: مصيرها في الآخرة. قال الحسن وعطاء: يعني جهنم يحذّركم أن تكونوا مثلهم. وقال قتادة وغيره: سأُدخلكم الشام فأُريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله لتعتبروا بها. قال عطية العوفي: أراد دار فرعون وقومه وهي مصر، يدلّ عليه قراءة قسامة بن زهير: ﴿ سأُورثكم دار الفاسقين ﴾، وقال السدي: دار الفاسقين مصارع الكفّار. وقال الكلبي: ما مرّوا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أُهلكوا.

قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عنْ آياتي الذين يتكبّرون في الأرض بغيرِ الحق ﴾، قال ابن عباس: يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بي، يعني سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق، كقوله: ﴿ فلمّا زاغُوا أزاغَ اللّهُ قلوبَهم ﴾ [الصفّ: ٥]. قال سفيان بن عيينة: ساء منعهم فهم القرآن. قال ابن جريج: يعني عن خلق السمٰوات والأرض وما فيهما أي سأصرفهم أن يتفكّروا فيها ويعتبروا بها. وقيل: حكم الآية لأهل مصر خاصة، وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى موسى. والأكثرون على أنّ الآية عامّة ﴿ وإنْ يَرَوْا كلّ آيةٍ لا يُؤمِنوا بها وإنْ يَرَوْا ﴾، يعني هؤلاء المتكبرين، ﴿ سبيل الرُّشد ﴾ قرأ حمزة والكسائي «الرشد» بفتح الراء والشين، والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان كالسُّقم والسَّقم والبُخل والبَخل والحزُن والحزَن. وكان أبو عمر يفرّق بينهما، فيقول: «الرشد» بالضم الصلاح في

يروا سبيل الرشد﴾ يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب ﴿لا يتخذوه سبيلاً﴾ يعني لا يختاروه لأنفسهم طريقاً يسلكونه إلى الهداية ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ يعني طريق الضلال ﴿يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ يعني ذلك اختاروه لأنفسهم من ترك الرشد واتباع الغي بسبب أنهم كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ يعني عن التفكر فيها والاتعاظ بها،

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي
وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾

﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ يعني ولقاء الدار الآخرة التي فيها الثواب والعقاب ﴿حبطت أعمالهم﴾ يعني بطلت فصارت كأن لم تكن والمعنى أنه قد يكون في الذين يكذبون بآيات الله من يعمل البر والإحسان والخير فبين الله تعالى بهذه الآية أن ذلك ليس ينفعهم من كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وإنكارهم الدار الآخرة والبعث ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ يعني هل يجزون في العقبى إلا جزاء العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ يعني من بعد انطلاق موسى إلى الجبل لمناجاة ربه عز وجل: ﴿من حليهم﴾ يعني التي استعاروها من قوم فرعون وذلك أن بني إسرائيل كان لهم عيد فاستعاروا من القبط الحلي ليتزينوا به في عيدهم فبقي عندهم إلى أن أهلك الله فرعون وقومه فبقي الحلي لبني إسرائيل ملكاً لهم فلذلك قال الله تعالى من حليهم فلما أبطأ موسى عليهم جمع السامري ذلك الحلي وكان رجلاً مطاعاً في بني إسرائيل فذلك قال تعالى: واتخذ قوم موسى. والمتخذ هو واحد فنسب الفعل إلى الكل لأنه كان برضاهم فكأنهم أجمعوا عليه وكان السامري رجلاً صائغاً فصاغ لهم ﴿عجلاً جسداً﴾ يعني من ذلك الحلي وهو الذهب والفضة وألقى في ذلك العجل من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلاً جسداً لحماً ودماً ﴿له خوار﴾ هو صوت البقر وهذا معنى قول ابن عباس والحسن

الأمر وبالفتح الاستقامة في الدين. ومعنى الآية: وإن يروا طريق الهدى والسداد، ﴿ لا يتخذوه ﴾ لأنفسهم ﴿ سبيلاً ﴾، ﴿ وإن يَروا سبيلَ الغيِّ ﴾ أي طريق الضلال ﴿ يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذّبُوا بآياتِنا وكانُوا عنها غافلين ﴾، عن التفكّر فيها والاتّعاظ بها غافلين ساهين.

﴿ والذين كذّبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة ﴾، أي: ولقاء الدار الآخرة التي هي موعد الثواب والعقاب، ﴿ حبطتْ أعمالُهم ﴾، بطلت وصارت كألم تكن، ﴿ هلْ يُجزون ﴾ في العقبى ﴿ إلّا ما كانوا ﴾، أي إلّا جزاء ما كانوا ﴿ يعملون ﴾، في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ واتّخذَ قومُ موسى من بعده ﴾، أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿ من حُليِّهم ﴾ التي استعارها من قوم فرعون. قرأ حمزة والكسائي «من حليهم» بكسر الحاء وسكون اللام، خفيف، اتخذ السامريّ منها ﴿ عجلاً ﴾، وألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فتحوّل عجلاً، ﴿ جسداً ﴾، حيّاً ولحماً ودماً ﴿ له

وقتادة وجمهور أهل التفسير وقيل كان جسداً لا روح فيه وكان يسمع منه صوت وقيل إن ذلك الصوت كان خفيق الريح وذلك أنه جعله مجوفاً ووضع في جوفه أنابيب عى وضع مخصوص فإذا هبت الريح دخلت في تلك الأنابيب فيسمع لها صوت كصوت البقر.

والقول الأول: أصح لأنه كان يخور وقيل إنه خار مرة واحدة وقيل إنه كان يخور كثيراً وكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم. قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك. وقال السدي: كان يخور ويمشي ﴿**ألم يروا**﴾ يعني الذين عبدوا العجل وقيل إن بني إسرائيل كلهم عبدوا العجل إلا هارون عليه الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى: ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده**﴾ وهذا يفيد العموم وقيل إن بعضهم عبد العجل وهو الصحيح وأجيب عن قوله واتخذ قوم موسى أنه خرج على الأغلب وكذا قوله ﴿**ألم يروا**﴾ ﴿**أنه**﴾ يعني العجل الذي عبدوه ﴿**لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً**﴾ يعني أن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدي إلى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جماداً أو حيواناً ناقصاً عاجزاً وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد ﴿**اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾ يعني لأنفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى الذي يضر وينفع واشتغلوا بعبادة العجل الذي لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم ولا يهديهم إلى رشد وصواب.

قوله عز وجل: ﴿**ولما سقط في أيديهم**﴾ يعني ولما ندموا على عبادة العجل. تقول العرب لكل نادم على أمر: سقط في يده وذلك لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعض يده ثم يضرب على فخذه فتصير يده ساقطة لأن السقوط عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل ﴿**ورأوا أنهم قد ضلوا**﴾ يعني وتيقنوا أنهم على الضلالة في عبادتهم العجل ﴿**قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا**﴾ يعني يتب علينا ويتجاوز عنا ﴿**لنكونن من الخاسرين**﴾ يعني الذين خسروا أنفسهم بوضعهم العبادة في غير موضعها وهذا كلام من اعترف بعظيم ما أقدر عليه من الذنب وندم على ما صدره منه ورغب إلى الله تعالى في إقالة عثرته واعترافهم على أنفسهم بالخسران إن لم يغفر لهم ربهم ويرحمهم كلام التائب النادم على ما فرط منه وإنما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام إليهم وهو قوله تعالى: ﴿**ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً**﴾ يعني لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام من مناجاة ربه إلى قومه بني إسرائيل رجع غضبان أسفاً لأن الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وأن السامري قد أضلهم فكان موسى في حال رجوعه غضبان أسفاً. قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب. وقال ابن عباس والسدي: الأسف الحزن والأسيف الحزين. قال الواحدي والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت وإذا

خوار﴾، وهو صوت البقر وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة وجماعة أهل التفسير. وقيل: كان جسداً مجسّداً من ذهب لا روح فيه، كان يسمع منه صوت. وقيل: كان يسمع صوت حفيف الريح يدخل في جوفه ويخرج. والأول أصحّ. وقيل: إنه ما خار إلّا مرة واحدة. وقيل: إنه كان يخور كثيراً فكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم. وقال وهب كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرك. وقال السدي: كان يخور ويمشي، ﴿ **أَلَمْ يروْا** ﴾، يعني: الذين عبدوا العجل ﴿ **أنه لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً** ﴾. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **اتّخذُوه وكانُوا ظالمين** ﴾، أي: اتخذوه إلّهاً وكانوا كافرين.

﴿ **ولمّا سقطَ في أيديهم** ﴾، أي ندموا على عبادة العجل، تقول العرب لكل نادم على أمر: قد سقط في يديه، ﴿ **ورأوا أنهم قد ضلّوا قالوا لئنْ لمْ يرحمْنَا ربُّنا** ﴾، يتب علينا ربنا، ﴿ **ويغفرْ لنا** ﴾، يتجاوز عنّا، ﴿ **لنكونَنّ من الخاسرين** ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «ترحمنـا وتغفر لنا» بالتاء فيهما، ﴿ **ربنا** ﴾ بنصب الباء. وكان هذا الندم والاستغفار منهم بعد رجوع موسى إليهم.

جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزناً والأخرى غضباً فعلى هذا كان موسى عليه الصلاة والسلام غضبان من قومه لأجل عبادتهم العجل آسفاً حزيناً لأن الله تعالى فتنهم وأن الله تعالى كان قد أعلمه بذلك فحزن لأجل ذلك ﴿قال﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿بئسما خلفتموني من بعدي﴾ أي بئس الفعل فعلتم بعد فراقي إياكم هذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامي وأتباعه أو لهارون من بني إسرائيل فعلى الاحتمال الأول في أنه خطاب لعبدة العجل يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله وعلى الاحتمال الثاني وهو أن يكون الخطاب لهارون ومن معه من المؤمنين يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى وقد رأيتم مني الأمر بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له ونفي الشركاء عنه وحمل بني إسرائيل على ذلك ومن حق الخلفاء أن يسروا لسيرة مستخلفهم وقوله ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ معنى العجلة التقدم بالشيء قبل وقته ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لأن معناها عمل الشيء في أول وقته ولقائل أن يقول لو كانت العجلة مذمومة لم يقل موسى عليه الصلاة والسلام «عجلت إليك رب لترضى» ومعنى الآية أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له. وقال الحسن: أعجلتم وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين وذلك أنهم قدروا أنه لم يأت على رأس الثلاثين فقد مات وقيل معناه أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل. وقال الكلبي: معناه أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم ولما ذكر الله تعالى أن موسى عليه الصلاة والسلام رجع إلى قومه غضبان أسفاً ذكر بعده ما أوجبه الغضب فقال تعالى: ﴿وألقى الألواح﴾ يعني التي فيها التوراة وكان حاملاً لها فألقاها من شدة الغضب قالت الرواة وأصحاب الأخبار: كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفع منها ستة أسباع وبقي سبع واحد رفع منها ما كان من أخبار الغيب وبقي ما فيه المواعظ والأحكام والحلال والحرام، وروى أن الله تعالى أخبر مولى عليه الصلاة والسلام بفتنة قومه وعرف موسى عليه الصلاة والسلام أن ما أخبره الله سبحانه وتعالى به حق وصدق ومع ذلك لم يلق التوراة من يده فلما رجع إلى قومه وعاين ذلك وشاهده ألقى التوراة وهذا كما قيل ليس الخبر كالمعاينة ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ قيل إنه أخذ بشعر رأسه ولحيته من شدة غضبه وقال ابن الأنباري لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام ووجد قومه مقيمين على المعصية أكبر ذلك واستعظمه فأقبل على أخيه هارون يلومه ومد يده إلى رأسه لشدة موجدته عليه إذا لم يلحق به فيعرفه خبر بني إسرائيل فيرجع ويتلافاهم فأعلمه هارون عليه السلام أنه إنما أقام بين أظهرهم خوفاً على نفسه من القتل وهو قوله تعالى ﴿قال﴾ يعني هارون ﴿ابن أم﴾ إذ قال هارون لموسى ابن

قوله تعالى: ﴿ ولمّا رجعَ موسى إلى قومه غَضبانَ أسِفاً ﴾، قال أبو الدرداء الأسف: شديد الغضب. وقال ابن عباس والسدي: أسفاً أي حزيناً. والأسف أشدّ الحزن. ﴿ قال بئسما خلفتُموني منْ بعدي ﴾، أي: بئس ما عملتم بعد ذهابي، يقال: خلفه بخير أو بشر إذا أولاه في أهله بعد شخوصه عنهم خيراً أو شرّاً، ﴿ أعَجِلْتُم ﴾، أسبقتم ﴿ أمرَ ربِّكم ﴾، قال الحسن: وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين ليلة، وقال الكلبي: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمرُ ربكم. ﴿ وألقى الألواح ﴾، التي فيها التوراة وكان حاملاً لها، وألقاها على الأرض من شدّة الغضب. قال الرواة: كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى الألواح تكسرت فرفعت ستّة أسباعها وبقي سبع، فرفع ما كان من أخبار الغيب أو بقي ما فيه الموعظة والأحكام والحلال والحرام، ﴿ وأخذ برأسِ أخيه ﴾، بذوائبه ولحيته ﴿ يجرّه إليه ﴾، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين وأحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى، لأنه كان ليِّن الغضب. ﴿ قالَ ﴾ هارون عند ذلك، ﴿ ابنَ أُمَّ ﴾ قرأ أهل الكوفة والشام هاهنا وفي طـه [٩٤] بكسر الميم، يريد يا ابن أمي فحذف ياء الإضافة وأُبقيت الكسرة لتدلّ على الإضافة كقوله: ﴿ يا عبادِ ﴾ [الزمر: ١٠ و١٦، الزخرف: ٦٨] وقرأ أهل الحجاز والبصرة وحفص بفتح الميم على معنى يا ابن أُماه. وقيل: جعله اسماً واحداً وبناه

أم وإن كانا لأب وأم ليرقه ويستعطفه عليه ﴿إن القوم﴾ يعني الذين عبدوا العجل ﴿استضعفوني﴾ أي استذلوني وقهروني ﴿وكادوا يقتلونني﴾ أي وقاربوا أهمّوا أن يقتلوني ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ أصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به والمعنى لا تسر الأعداء بما تنال مني من مكروه ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ يعني الذين عبدوا العجل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿قال رب اغفر لي﴾ يعني أن موسى عليه الصلاة والسلام لما تبين له عذر أخيه هارون قال رب اغفر لي ما صنعت إلى أخي هارون يريد ما أظهر من الموجدة عليه في وقت الغضب ﴿ولأخي﴾ يعني واغفر لأخي هارون إن كان وقع منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل ﴿وأدخلنا﴾ يعني جميعاً ﴿في رحمتك﴾ يعني في سعة رحمتك ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ وهذا فيه دليل على الترغيب في الدعاء لأن من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعي في نجاح طلبته ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ يعني إلهاً عبدوه من دون الله ﴿سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾ يعني سينالهم عقوبة من ربهم وهوان بسبب كفرهم وعبادتهم العجل وذلك في عاجل الحياة الدنيا ثم للمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن المراد بالذين اتخذوا العجل تابوا إلى الله تعالى بقتلهم أنفسهم كما أمرهم الله فتاب عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة؟ والجواب: إن ذلك الغضب إنما حصل لهم في الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضباً عليهم والمراد بالذلة هو إسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ. فإن قلت السين في قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضي؟

قلت: هذا الكلام إنما هو خبر عما أخبر الله به موسى عليه الصلاة واللاسلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله في ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقاً لوقوعه وهو التل الذي أمرهم الله به بعد ذلك وقال ابن جريج في هذه الآية إن هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل وهو الذي قاله ابن جريج وإن كان له وجه لكن لجميع المفسرين على الخلافة.

القول الثاني: أن المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا في زمن النبي رسول الله ﷺ. قال ابن عباس:

على الفتح، كقولهم: حضرموت وخمسة عشر ونحوهما، وإنما قال ابنَ أُمَّ وكان هارون أخاه لأبيه وأُمه ليرقّقه ويستعطفه. وقيل: كان أخاه لأُمه دون أبيه، ﴿ إنّ القومَ استضعفوني ﴾، يعني عبَدَة العجل، ﴿ وكادوا يقتلونني ﴾، همّوا وقاربوا أن يقتلوني، ﴿ فلا تشمتْ بِيَ الأعداءَ ولا تجعَلْني ﴾ في مؤاخذتك عليّ ﴿ مع القوم الظالمين ﴾، يعني عبدة العجل.

﴿ قال ﴾ موسى لمّا تبيّن له عذر أخيه، ﴿ ربِّ اغفرْ لي ﴾، ما صنعت إلى أخي، ﴿ ولأخي ﴾، إن كان منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل، ﴿ وأدْخِلْنا ﴾ جميعاً ﴿ في رحمتك وأنت أرحمُ الراحمين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين اتخذوا العِجْلَ ﴾ أي: اتخذوه إلَهاً ﴿ سَيَنَالُهم غضبٌ من ربِّهم ﴾، في الآخرة ﴿وذِلّةٌ

هم الذين أدركوا النبي ﷺ وآباؤهم هم الذين عبدوا العجل وأراد بالغضب عذاب الآخرة وبالذلة في الدنيا الجزية. وقال عطية العوفي: سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأراد بالغضب والذلة ما أصاب بني النضير وبني قريظة من القتل والجلاء وعلى هذا القول في تقرير الآية وجهان:

الأول: أن العرب تعير الأبناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل لك في المناقب فتقول للأبناء كذا وفعلتم كذا وإما فعل ذلك من مضى من آبائهم فكذلك هاهنا وصف اليهود الذين كانوا على زمن رسول الله ﷺ بأنهم اتخذوا العجل وإن كان آباؤهم فعلوا ذلك ثم حكم على اليهود الذين كانوا في زمنه بأنهم سينالهم غضب من ربهم في الآخرة وذلة في الحياة الدنيا.

الوجه الثاني: أن تكون الآية من باب حذف المضاف والمعنى أن الذين اتخذوا العجل وباشروا عبادته سينال أولادهم، الخ ثم حذف المضاف لدلالة الكلام عليه.

وقوله تعالى: ﴿**وكذلك نجزي المفترين**﴾ يعني: وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً نجزي كل من افترى على الله كذباً أو عبد غيره وقال أبو قلابة: هي والله جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله، وقال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة وقال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر في دين الله ﴿**والذين عملوا السيئات**﴾ يعني عملوا الأعمال السيئة ويدخل في ذلك كل ذنب صغير وكبير حتى الكفر فما دونه ﴿**ثم تابوا من بعدها**﴾ يعني ثم رجعوا إلى الله من بعد أعمالهم السيئة ﴿**وآمنوا**﴾ يعني وصدقوا بالله تعالى وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب ﴿**إن ربك**﴾ يا محمد أو يا أيها الإنسان التائب ﴿**من بعدها**﴾ يعني من بعد توبتهم ﴿**لغفور رحيم**﴾ يعني أنه تعالى يغفر الذنوب ويرحم التائبين وفي الآية دليل على أن السيئات بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعاً بفضله ورحمته وتقدير الآية أن من أتى بجميع السيئات ثم تاب إلى الله وأخلص التوبة فإن الله يغفرها له ويقبل توبته وهذا من أعظم البشائر للمذنبين التائبين.

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿**ولما سكت عن موسى الغضب**﴾ يعني: سكن لأن السكوت أصله الإمساك عن الشيء ولما كان السكوت بمعنى السكون استعير في سكون الغضب لأن الغضب لا يتكلم لكنه لما كان بفورته دالاً على ما في نفس

في الحياة الدنيا ﴾، قال أبو العالية: هو ما أمروا به من قتل أنفسهم. وقال عطية العوفي: ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل** ﴾ أراد اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ عيّرهم بصنيع آبائهم فنسبه إليهم ﴿ **سَيَنالهم غضبٌ من ربّهم وذِلّةٌ في الحياةِ الدنيا** ﴾ أراد ما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الجزية، ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾، الكاذبين، قال أبو قلابة هو والله جزاء كل مُفترٍ إلى يوم القيامة أن يذلّه الله. قال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والذين عَمِلُوا السيئاتِ ثمّ تابُوا مِنْ بعدِها وآمنوا إنّ ربَّك مِنْ بعدِها لغفورٌ رحيم** ﴾.

قوله تبارك وتعالى: ﴿ **ولمّا سكتَ** ﴾، أي: سكن، ﴿ **عن موسى الغضبُ أخذَ الألواح** ﴾، التي كان ألقاها

المغضب كان بمنزلة الناطق فإذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السكوت عما كان متكلماً به وقيل معناه ولما سكت موسى عن الغضب فهو من المقلوب كما تقول أدخلت القلنسوة في رأسي والمعنى أدخلت رأسي في القلنسوة والقول الأول أصح لأنه قول أهل اللغة والتفسير ﴿أخذ الألواح﴾ يعني التي ألقاها قال الإمام فخر الدين: وظاهر هذا يدل على أن الألواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شيء ﴿وفي نسختها﴾ النسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا نسخت كتاباً من كتاب حرفاً بحرف فقد نقلت ما في الأصل إلى الفرع فعلى هذا قيل أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: أراد بها النسخة المكتتبة من الألواح التي أخذها موسى بعدما تكسرت. وقال ابن عباس وعمرو بن دينار: لما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يوماً فردت عليه في لوحين وفيهما ما في الأولى بعينها فيكون نسخها نقلها وعلى قول من قال إن الألواح لم تتكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون معنى وفي نسختها المكتوب فيها ﴿هدى ورحمة﴾ قال ابن عباس: يعني هدى من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ يعني للخائفين من ربهم.

قوله عز وجل: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ الاختيار افتعال من لفظ الخيار يقال اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره. والمعنى اختار موسى من قومه فحذف كلمة من وذلك سائغ في العربية لدلالة الكلام عليه. قال أصحاب الأخبار: إن موسى عليه الصلاة والسلام اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يقونا وقيل إنه لم يجد إلا ستين شيخاً فأوحى الله إليه أن يختار من الشباب عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه واختلف أهل التفسير في ذلك الميقات فقيل إنه الميقات الذي كلمه فيه ربه وسأل فيه الرؤية وذلك أنه لما خرج إلى طور سيناء أخذ معه هؤلاء السبعين فلما دنى موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى أحاط بالجبل كله ودخل موسى فيه وقال لقومه ادنوا فدنوا حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجداً وسمعوا الله تعالى وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل كذا لا تفعل كذا فلما انكشف الغمام أقبلوا على موسى وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة المذكورة في هذه الآية. وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا «لن نؤمن لك» يا موسى «حتى نرى الله جهرة» فإنك قد كلمته فأرِناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي. وقال محمد بن إسحاق اختار

وقد ذهبت ستّة أسباعها، ﴿ وفي نُسْخَتِها ﴾، اختلفوا فيه، قيل: أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ، وقيل: إن موسى لمّا ألقى الألواح تكسّرت فنسخ منها نسخة أخرى فهو المراد من قوله: ﴿ وفي نسختها ﴾. وقيل: أراد وفيما نسخ منها. وقال عطاء: فيما بقي منها. وقال ابن عباس وعمرو بن دينار: لمّا ألقى موسى الألواح فكسرت صام أربعين يوماً فردّت عليه في لوحين كان فيه، ﴿ هُدَىً ورحمةٌ ﴾، أي: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب، ﴿ للذين هم لربّهم يَرْهَبُون ﴾، أي: للخائفين من ربّهم، واللام في ﴿ لربهم ﴾ زيادة للتوكيد، كقوله: ﴿ رَدِفَ لكم ﴾ [النمل: ٧٢]، وقال الكسائي: إن تقدمتْ قبل الفعل حَسُنَتْ، كقوله: ﴿ للرؤيا تعبرون ﴾ [يوسف: ٤٣]، قال قطرب: أراد من ربّهم يرهبون. وقيل: أراد راهبون. وقيل: أراد راهبون لربهم.

قوله تعالى: ﴿ واختارَ موسى قومَه ﴾، أي من قومه فانتصب لنزع حرف الصفة، ﴿ سبعين رجلاً لميقاتِنَا ﴾، وفيه دليل على أن كلهم لم يعبدوا العجل. قال السدي: أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل

موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال السبعون فيما ذكر لي حين فعلوا ما أمرهم به وخرجوا مع موسى لميقات ربه اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى غشي الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا فكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجوداً فسمعوا الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ من أمره إنكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» وهي مرجفة فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه يقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، وقال ابن عباس: كان الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعو ربهم فكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، وقيل: إنما أخذتهم الرجفة من أجل أنهم ادعوا على موسى أنه قتل هارون. قال علي بن أبي طالب: انطلق موسى وهارون إلى سفح جبل فنام هارون على سرير فتوفاه الله فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه، وكان هارون حسن الخلق محبباً في بني إسرائيل فقال لهم موسى اختاروا من شئتم فاختاروا سبعين رجلاً فلما انتهوا إليه قالوا يا هارون من قتلك قال ما قتلني أحد ولكن الله توفاني فأخذتهم الرجفة فجعل موسى يرجع يميناً وشمالاً ويقول «رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي» الآية فأحياهم الله عز وجل وقيل إنما أخذتهم الرجفة لتركهم فراق عبدة العجل لا لأنهم كانوا من عبدته. قال ابن عباس: إنما تناولتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا القوم حين نصبوا العجل وما كرهوا أن يجامعوهم عليه. قال ابن جريج فلما خرجوا ودعوا الله أماتهم ثم أحياهم: وقال مجاهد: واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا الميقات الموعد فلما أخذتهم الرجفة بعد أن خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله ويسألونه أن يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم علم موسى أنهم قد أصابوا من المعصية ما أصاب قومهم، وقال محمد بن كعب القرظي: لم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف فأخذتهم الرجفة فماتوا ثم أحياهم الله وقوله تعالى: ﴿**فلما أخذتهم الرجفة**﴾ أصل الرجفة الاضطراب الشديد الذي يحصل معه التغيير والهلاك ولهذا اختلفوا في تلك الرجفة التي حصلت لهؤلاء هل كان معها موت أم لا فمعظم الروايات التي تقدمت أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة. وقال وهب بن منبه: لم تكن تلك الرجفة موتاً ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين له مطيعين، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام الله فذلك قوله تعالى: ﴿**فلما أخذتهم الرجفة**﴾ ﴿**قال**﴾ يعني موسى ﴿**رب**﴾ أي يا رب ﴿**لو شئت أهلكتهم من قبل**﴾ يعني من قبل عبادتهم العجل ﴿**وإياي**﴾ وذلك أنه

يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ﴿ **فلما** ﴾ أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرة فأَخَذَتْهُم الصاعقةُ فماتُوا. وقال ابن إسحق: اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا ويسألوا التوبة على مَنْ تركوا وراءهم من قومهم، فهذا يدلّ على أن كلهم عبدوا العجل. قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب ﴿ **أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** ﴾ لأنهم لم يُزايلوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر. وقال ابن عباس: إن السبعين الذين قالوا: ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ﴾ [البقرة: ٥٥] كانوا قبل السبعين رجلاً فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا أن قالوا: اللّهمّ أعطنا ما لم تُعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة. قال وهب: لم تكن

خاف أن يتهمه بنو إسرائيل على السبعين إذا رجع إليهم وما هم معه ولم يصدقوه بأنهم ماتوا فقال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل يعني قبل خروجهم إلى الميقات وإياي معهم فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني ﴿**أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**﴾ قال الفراء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ أصحاب العجل العجل فقال أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يعني عبدة العجل وإنما أهلكوا بسبب مسألتهم الرؤية وهي قولهم أرنا الله جهرة، وهذا قول الكلبي وجماعة، وقال جماعة من أهل العلم: لا يجوز أن يظن موسى أن الله تعالى يهلك قوماً بذنوب غيرهم ولكن قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام بمعنى الجحد أي لست تفعل ذلك وهذا قول ابن الأنباري، وقال المبرد: هذا استفهام استعطاف أي لا تهلكنا ﴿**إن هي إلا فتنتك**﴾ قال الواحدي: الكناية في هي تعود إلى الفتنة كما تقول إن هو إلا زيد والمعنى أن تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك أي اختبارك وابتلاؤك وهذا تأكيد لقوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لأن معناه لا تهلكنا بفعلهم فإن تلك الفتنة كانت اختباراً منك وابتلاء أضللت بها قوماً فافتتنوا وهديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك وهو المراد من قوله: ﴿**تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء**﴾ قال الواحدي: وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر ﴿**أنت ولينا**﴾ يعني أنت يا ربنا ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر أي لاوليّ لنا ولا ناصر ولا حافظ إلا أنت ﴿**فاغفر لنا**﴾ سأل موسى عليه الصلاة والسلام لنفسه ولقومه الغفران أما لنفسه فلقوله إن هي إلا فتنتك وهذا فيه إقدام على الحضرة المقدسة وأما لقومه فلقولهم أرنا الله جهرة وفي هذا إقدام على الحضرة المقدسة فلهذا السبب سأل موسى عليه الصلاة والسلام الغفران له ولقومه ﴿**وارحمنا**﴾ أي اشملنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿**وأنت خير الغافرين**﴾ يعني أن كل من سواك إنما يغفر الذنب طلباً للثناء الجميل أو لدفع ضرر وأما أنت يا رب فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم فأنت خير الغافرين.

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ

الرجفة صوتاً ولكن القوم لمّا رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا، حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم، فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت، واشتدّ عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين مطيعين، فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربّه فكشف الله عنهم تلك الرجفة، فاطمأنوا وسمعوا كلام ربّهم، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ **قال** ﴾، يعني موسى ﴿ **ربِّ لو شئتَ أهلكتهم منْ قبل** ﴾، يعني عن عبادة العجل، ﴿ **وإيّايَ** ﴾ بقتل القبطي. ﴿ **أتُهلِكُنَا بما فعلَ السفهاءُ منّا** ﴾، يعني عبدة العجل، وظنّ موسى أنهم عُوقبوا باتخاذ بني إسرائيل العجل، وقال: هذا على طريق السؤال يسأل أتهلكنا بفعل السفهاء. وقال المبرّد: قوله: ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا** ﴾ استفهام استعطاف، أي لا تهلكنا، وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعدل من أن يأخذ بجريرة الجاني غيره. قوله تعالى: ﴿ **إنْ هي إلاّ فِتْنَتُكَ** ﴾، أي: التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلاّ اختبارك وابتلاءك أضللت بها قوماً فافتتنوا وهديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك، فذلك هو معنى قوله: ﴿ **تُضِلُّ بها مَنْ تشاءُ وتهدي مَن تشاءُ أنتَ وَليُّنا** ﴾، ناصرنا وحافظنا، ﴿ **فاغفر لنا وارحمنا وأنتَ خيرُ الغافرين** ﴾.

وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ يعني قال موسى في دعائه واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة أي واجعلنا ممن كتبت له حسنة وهي ثواب الأعمال الصالحة وفي الآخرة أي واكتب لنا في الآخرة مغفرة لذنوبنا ﴿إنا هدنا إليك﴾ قال ابن عباس معناه إنّا تبنا إليك، وهذا قول جميع المفسرين وأصل الهود الرجوع برفق قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم فلما نسخت شريعتهم صار اسم ذم وهو لازم لهم ﴿قال﴾ يعني قال الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿عذابي أصيب به من أشاء﴾ يعني من خلقي وليس لأحد علي اعتراض لأن الكل ملكي وعبيدي ومن تصرف في خالص حقه فليس لأحد عليه اعتراض ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ يعني أن رحمته سبحانه وتعالى عمّت خلقه كلهم، وقال بعضهم: هذا من العام أريد به الخاص فرحمه الله عمت البر والفاجر في الدنيا وهي للمؤمنين خاصة في الآخرة وقيل هي للمؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله له فإذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة قال جماعة من المفسرين لما نزلت ورحمتي وسعت كل شيء تطاول إبليس إليها وقال أنا من ذلك الشيء فنزعها الله تعالى من إبليس فقال تعالى: ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أيس إبليس منها، وقالت اليهود نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله وأثبتها لهذه الأمة فقال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ الآية وقال نوف البكالي لما اختار موسى من قومه سبعين رجلاً قال الله تعالى لموسى اجعل لك الأرض مسجداً وطهوراً تصلون حيث أدركتكم الصلاة لا عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة في قلوبكم واجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة على ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها إلا نظراً قال الله تعالى ﴿فسأكتبها للذين يتقون ـ إلى قوله ـ المفلحون﴾ فجعلها الله تعالى لهذه الأمة، فقال موسى: رب اجعلني نبيهم، قال: نبيهم منهم، قال: اجعلني منهم قال إنك لن تدركهم قال موسى: يا رب أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ فرضي موسى، أما التفسير فقوله الذين يتقون يعني الشرك وسائر ما نهوا عنه لأن جميع التكاليف محصورة في نوعين:

الأول: التروك وهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿ واكتبْ لنا ﴾ أوجب لنا ﴿ في هذه الدنيا حسنة ﴾، النعمة والعافية، ﴿ وفي الآخرة ﴾ أي: وفي الآخرة ﴿ حسنة ﴾، أي: المغفرة والجنة، ﴿ إنَّا هُدْنَا إليك ﴾، أي: تبنا إليك، ﴿ قال ﴾ الله تعالى: ﴿ عذابي أُصيبُ بِهِ مَن أشاءُ ﴾، من خلقي، ﴿ ورحمتي وَسِعَتْ ﴾ أي عمّت ﴿ كلَّ شيء ﴾، قال الحسن وقتادة: وسعت رحمته في الدنيا البرَّ والفاجر، وهي يوم القيامة للمتّقين خاصة. قال عطية العوفي: وَسِعَت كل شيء ولكن لا تجب إلّا للذين يتّقون، وذلك أن الكافرين يرزقون ويدفع عنهم بالمؤمنين لسعة رحمة الله للمؤمنين فيعيشون فيها، فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه. قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وابن جريج: لمّا نزلت: ﴿ ورحمتي وَسِعَتْ كلَّ شيء ﴾ قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَسأَكْتُبها للذينَ يَتقُون ويُؤتُون الزكاةَ والذين هُمْ بآياتِنَا يُؤمنون ﴾، فتمنّاها اليهود والنصارى، وقالوا: نحن نتّقي ونؤتي الزكاة ونُؤمن، فجعلها الله لهذه الأمة فقال:

﴿للذين يتقون﴾ والثاني الأفعال المأمور بها وتلك الأعمال بدنية وقلبية أما البدنية فإنها الإشارة بقوله ويؤتون الزكاة وهذه الآية وإن كانت في حق المال لكن يختص البدن بإخراجها والأعمال القلبية كالإيمان والمعرفة وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾.

قوله عز وجل: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ ذكر الإمام فخر الدين الرازي في معنى هذه التبعية وجهين:

أحدهما: إن المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة إذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث إلى الخلق وفي قوله والإنجيل أن المراد وسيجدونه مكتوباً في الإنجيل لأن من المحال أن يجده فيه قبل ما أنزل الله الإنجيل.

الوجه الثاني: إن المراد من لحق من بني إسرائيل زمان رسول الله ﷺ فبين تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة إلا إذا اتبعوه، قال: وهذا القول أقرب لأن اتباعه قبل أن يبعث لا يمكن فبين بهذه الآية أن هذه الرحمة لا يفوز بها من بني إسرائيل إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات الله في زمن موسى عليه الصلاة والسلام، ومن كانت هذه صفته في أيام رسول الله ﷺ في شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول من بني إسرائيل خاصة. وجمهور المفسرين على خلاف ذلك فإنهم قالوا: المراد بهم جميع أمته الذين آمنوا به واتبعوه سواء كانوا من بني إسرائيل أو غيرهم وأجمع المفسرون على أن المراد بالرسول محمد ﷺ وصفه بكونه رسولاً لأنه الواسطة بين الله وبين خلقه المبلغ رسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه إليهم ثم وصفه بكونه نبياً.

وهذا أيضاً من أعلى المراتب وأشرفها وذلك يدل على أنه رفيع الدرجات عند الله المخبر عنه ثم وصفه بالأمي. قال ابن عباس: هو نبيكم ﷺ كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الزجاج في معنى الأمي: هو الذي على صفة

﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسولَ النبي الأُمِيَّ ﴾ الآية. قال نوف البكالي الحميري: لما اختار موسى سبعين رجلاً قال تعالى لموسى أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً تصلّون حيث أدركتكم الصلاة إلاّ عند مِرحاض أو حمّام أو قبر، وأجعل السكينة في قلوبكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم يقرأها الرجل والمرأة والحرّ والعبد والصغير والكبير، فقال ذلك موسى لقومه، فقالوا: لا نريد أن نصلّي إلاّ في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلاّ نظراً، فقال الله تعالى: ﴿ فسأكتُبها للذين يتّقُون ويُؤتون الزكاة ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾، فجعلها الله لهذه الأمة. فقال موسى عليه السلام: يا ربِّ اجعلني منهم، فقال: إنك لن تدركهم، فقال موسى عليه السلام: يا ربِّ أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ ومِنْ قومِ موسى أُمةٌ يهدون بالحق وبه يَعْدِلُون ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، فرضي موسى. قوله تعالى: ﴿ الذين يتبعُون الرسول النبيَّ الأُميّ ﴾ وهو محمد ﷺ. قال ابن عباس رضي الله عنهما هو نبيّكم كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب. وقال النبيّ ﷺ: «إنّا أُمة أُمّيّة لا نكتب ولا نحسب»، وهو منسوب إلى الأم أي هو على ما ولدته أمه. وقيل: هو منسوب إلى أُمته، أصله أُمتي وسقطت التاء في النسبة كما سقطت في المكّي والمدني. وقيل: هو منسوب إلى أُم القرى وهي مكة. ﴿ الذي يَجِدُونَه ﴾ أي: يجدون صفته ونعته ونبوّته، ﴿ مكتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيل ﴾. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا محمد بن سنان حدّثنا فليح حدّثنا هلال عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة: قال: أجلْ والله إنه لموصوف

أمة العرب لأن العرب أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب فالنبي ﷺ كان كذلك فلهذا وصفه الله تعالى بكونه أمياً وصح في الحديث أنه ﷺ قال «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» قال أهل التحقيق: وكونه ﷺ كان أمياً من أكبر معجزاته وأعظمها، وبيانه أنه ﷺ أتى بهذا الكتاب العظيم الذي أعجزت الخلائق فصاحته وبلاغته وكان يقرؤه عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولا تغيير فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ وقيل: إنه لو كان يحسن الكتابة ثم إنه أتى بهذا القرآن العظيم لكان متهماً فيه لاحتمال أنه كتبه ونقله عن غيره فلما كان أمياً وأتى بهذا القرآن العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له ﷺ. وأيضاً فإن الكتابة تعين الإنسان على الاشتغال بالعلوم وتحصيلها ثم إنه أتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقائق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على أحد فدل ذلك على كونه معجزة له ﷺ وقيل في معنى الأمي: الذي هو منسوب إلى أمه كأنه لم يخرج بعد عما ولدته عليه وقيل سمي أمياً لأنه منسوب إلى أم القرى وهي مكة وقوله تعالى: ﴿**الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾ يعني يجيدون صفته ونعته ونبوته مكتوباً عندهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسداً منهم له وخوفاً على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا في الذل والهوان (خ) عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة فقال: أجل إنه لَموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين﴾ أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

الفظ: السيىء الخلق، والغليظ: الجافي القاسي، وقوله سخاب: بالسين والصاد وهو كثير الصياح في الأسواق، والاعوجاج: ضد الاستقامة وأراد بالملة العوجاء: الكفر والقلب الأغلف: الذي لا يصل إليه شيء ينفعه شبهه بالأغلف كأنه في غلاف. وروى البغوي بسنده عن كعب الأحبار قال: إني أجد في التوراة مكتوباً محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، أمته الحامدون يحمدون الله في كل منزلة ويكبرونه على كل نجد يأتزرون على أنصافهم ويغضون أطرافهم صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء مناديهم ينادي في جوف السماء لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام.

في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيّها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وحرزاً للأُمّيّين أنت عبدي ورسولي سمّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يُقيم بـه المِلّة العوجـاء، بأن يقـولوا: لا إلّـه إلّا الله، ويفتح بـه أعيناً عميـاً وآذانـاً صُمّـاً وقلوباً غُلْفاً. تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة، وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن ابن سلام أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي أنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام أنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي حدّثنا عبد الله بن عثمان عن أبي حمزة عن الأعمش عن أبي صالح عن عبد الله بن ضمرة عن كعب قال: إني أجد في التوراة مكتوباً محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، أُمته الحمّادون يحمدون الله في كل منزلة ويكبّرونه على كل نجد، يأتزرون على أنصافهم ويُوضّؤون أطرافهم، صفّهم في الصرة وصفّهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جوِّ السماء، لهم في جوف الليل دويّ كدويّ النحل، مولده بمكة ومهاجره بطابة

وقوله تعالى: ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ يعني بالإيمان وتوحيد الله ﴿وينهاهم عن المنكر﴾ يعني عن الشرك بالله، وقيل: المعروف ما عرف في الشريعة والسنة والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة.

وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد وبمكارم الأخلاق وصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ يعني بذلك ما كان محرماً عليهم في التوراة من الطيبات وهو لحوم الإبل وشحم الغنم والمعز والبقر، وقيل: هو ما كانوا يحرمونه على أنفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي، وقيل: هي المستلذات التي تستطيبها الأنفس ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يريد الميتة والدم ولحم الخنزير، وقيل: هو كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس، فإن الأصل في المضار الحرمة إلا ما له دليل متصل بالحل ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ يعني ثقلهم وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه عن الحركة لثقله، والمراد بالإصر هنا العهد والميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل أن يعملوا بما في التوراة من الأحكام فكانت تلك الشدائد ﴿والأغلال التي كانت عليهم﴾ يعني ويضع الأثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت وأن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس وتتبع العروق في اللحم وغير ذلك من الشدائد التي كانت على بني إسرائيل شبهت بالأغلال مجازاً لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع من الفعل، وقيل: شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق. كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذي نهيت عنه وكانت هذه الأثقال في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد عليه الصلاة والسلام نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: بعثت بالحنيفية السهلة السمحة ﴿فالذين آمنوا به﴾ يعني بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وعزروه﴾ يعني وقّروه وعظموه، وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبي ﷺ تعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه وهو قوله ﴿ونصروه﴾ يعني على أعدائه ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ يعني القرآن سمي القرآن نوراً لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿أولئك هم المفلحون﴾ يعني هم الناجون الفائزون بالهداية.

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ

وملكه بالشام. قوله تعالى: ﴿ يأمرهم بالمعروف ﴾ أي: بالإيمان، ﴿ وينهاهم عن المنكر ﴾ يعني: عن الشرك قيل: المعروف الشريعة والسُّنّة، والمنكر ما لا يُعرَف في شريعة ولا سُنّة. وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام، ﴿ ويُحِلُّ لهمُ الطيباتِ ﴾، يعني: ما كانوا يحرّمونه في الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، ﴿ ويُحرِّمُ عليهمُ الخبائِثَ ﴾، يعني الميتة والدم ولحم الخنزير والزنا وغيرها من المحرّمات، ﴿ ويضعُ عنهم إصْرَهم ﴾، قرأ ابن عامر «آصارهم» بالجمع، والإصر: كلّ ما يثقل على الإنسان من قول أو فعل. قال ابن عباس والحسن والضحاك والسدي ومجاهد: يعني العهد الثقيل كان أُخذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة. وقال قتادة: يعني التشديد الذي كان عليهم في الدين، ﴿ والأغلال ﴾، يعني: الأثقال ﴿ التي كانت عليهم ﴾، وذلك مثل قتل النفس في التوراة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن الثوب بالمِقراض، وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الديّة، وترك العمل في السبت، وأن صلاتهم لا تجوز إلّا في الكنائس وغير ذلك من الشدائد، شُبّهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق. ﴿ فالذين آمنوا به ﴾، أي: بمحمد ﷺ، ﴿ وعزّروه ﴾، وقّروه، ﴿ ونصروه ﴾، على الأعداء، ﴿ واتّبعُوا النّورَ الذي أنزل معه ﴾، يعني: القرآن، ﴿ أُولئك هم المفلحون ﴾.

يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي قل يا محمد للناس إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض ففي الآية دليل على عموم رسالته إلى كافة الخلق، لأن قوله يا أيها الناس خطاب عام يدخل فيه جميع الناس ثم أمره الله عز وجل بأن يقول إني رسول الله إليكم جميعاً، وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس (ق) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة وطهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة» وفي رواية «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وقوله في الرواية الأولى وبعثت إلى كل أحمر وأسود قيل أراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب وقيل أراد بالأحمر الإنس وبالأسود الجن فعلى هذا تكون رسالته ﷺ عامة إلى كافة الخلق من الإنس والجن.

(م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «فضلت على الأنبياء بستة أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون».

وقوله تعالى: ﴿**الذي له ملك السموات والأرض**﴾ لما أمر الله عز وجل رسوله محمداً بأن يقول «يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً» أردفه بما يدل على صحة دعواه: يعني أن الذي له ملك السموات والأرض وهو مدبرهما ومالك أمرهما هو الذي أرسلني إليكم وأمرني بأن أقول لكم إني رسول الله إليكم جميعاً ﴿**لا إله إلا هو يحيي ويميت**﴾ وصف الله نفسه بالإلهية وأنه لا شريك له فيها وأنه القادر على إحياء خلقه وإماتتهم ومن كان كذلك فهو القادر على إرسال الرسل إلى خلقه ﴿**فآمنوا بالله ورسوله**﴾ لما أمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يقول للناس إني رسول الله إليكم جميعاً أمر الله جميع خلقه بالإيمان به وبرسوله وذلك لأن الإيمان بالله هو الأصل والإيمان برسوله فرع عنه فلهذا بدأ بالإيمان بالله ثم ثنى بالإيمان برسوله فقال فآمنوا بالله ورسوله ثم وصفه الله تعالى فقال ﴿**النبي الأمي**﴾ تقدم معناهما ﴿**الذي يؤمن بالله وكلماته**﴾ قال قتادة: يعني آياته وهو القرآن، وقال مجاهد والسدي: أراد بكلماته عيسى ابن مريم لأنه خلق بقوله كن فكن، وقيل: هو على العموم يعني يؤمن بجميع كلمات الله تعالى: ﴿**واتبعوه**﴾ يعني واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه وقيل: المتابعة على قسمين: متابعة في الأقوال ومتابعة في الأفعال.

أما المتابعة في الأقوال فبأن يتمثل التابع جميع ما أمره به المتبوع على طريق الأمر والنهي والترغيب والترهيب، وأما المتابعة في الأفعال فبأن يقتدي به في جميع أفعاله وآدابه إلا ما خص به رسول الله ﷺ، وثبت بالدليل أنه من

قوله تعالى: ﴿ **قلْ يا أيها الناسُ إنّي رسولُ اللّهِ إليكم جميعاً الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرض لا إلَه إلّا هوَ يُحي ويُميتُ فآمنُوا بالله ورسولِهِ النبيِّ الأمّيِّ الذي يُؤمنُ باللّهِ وكلماتهِ** ﴾، أي: آياته وهي القرآن. وقال مجاهد والسدي: يعني عيسى ابن مريم. ويقرأ ﴿ كلمته ألقاها إلى مريم ﴾ [النساء: ١٧١]. ﴿ **واتّبِعُوه لَعَلّكم تَهْتدُون** ﴾.

خصائصه فلا متابعة فيه وقوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾ يعني لكي تهتدوا وترشدوا وتصيبوا الحق والصواب في متابعتكم إياه.

قوله عز وجل: ﴿ومن قوم موسى﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿أمة﴾ أي جماعة ﴿يهدون بالحق﴾ يعني يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون إليه ﴿وبه يعدلون﴾ يعني وبالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون ويتصفون.

واختلفوا في هؤلاء من هم فقيل هم الذين أسلموا من بني إسرائيل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فإنهم آمنوا بموسى والتوراة وآمنوا بمحمد ﷺ والقرآن واعترض على هذا بأنهم كانوا قليلين ولفظ الأمة يقتضي الكثرة.

وأجيب عنه بأنهم لما كانوا مخلصين في الدين جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما في قوله إن إبراهيم كان أمة وقيل هم قوم بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس إليه. وقال السدي وابن جريج وجماعة من المفسرين: إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وأن يبعدهم عنم ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج قال ابن عباس: ساروا في السرب سنة ونصفاً رواه الطبري. وحكى البغوي عن الكلبي والضحاك والربيع قالوا: هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر يسمى نهر الأردن ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون ولا يصل إليهم أحد منا وهم على الحق.

وذكر لنا أن جبريل ذهب بالنبي ﷺ ليلة الإسراء به فكلمهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، قالوا هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به وقالوا يا رسول الله إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد رسول الله ﷺ على قوم موسى وأقرأهم عشر سور من القرآن نزلت عليه بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت وهذه الحكاية ضعيفة من وجوه:

الأول: قولهم إن أحداً منا لا يصل إليهم وإذا كان كذلك فمن ذا الذي أوصل خبرهم إلينا.

الوجه الثاني: قولهم إن جبريل ذهب بالنبي ﷺ ليلة الإسراء به وهذا لم يرد به نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث ولا يلتفت إلى قول الإخباريين والقصاص في ذلك.

الوجه الثالث: قولهم إنهم بلغوا النبي ﷺ موسى وقد صح في حديث المعراج أنه سلم عليه في السماء السادسة وأيضاً قولهم وأقرأهم عشر سور وقد نزل عليه بمكة أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضيتها فإذا ثبت بما ذكرناه بطلان هذه الرواية فالمختار في تفسير هذه الآية أنها إما أن تكون نزلت في قوم كانوا

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وِمِنْ قومِ موسى ﴾، يعني: من بني إسرائيل، ﴿ أُمَّةٌ ﴾ أي: جماعة، ﴿ يهدون بالحقّ ﴾، أي: يرشدون ويدعون إلى الحق. وقيل: معناه يهتدون ويستقيمون عليه، ﴿ وبه يعدِلُون ﴾، أي: بالحق يحكمون وبالعدل يقومون. قال الكلبي والضحاك والربيع: هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر مجرى الرمل يسمى نهر الأردن، ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويسقون بالنهار ويزرعون، لا يصل إليهم منّا أحد وهم على دين الحق. وذُكر أن جبرائيل عليه السلام ذهب بالنبي ﷺ ليلة أُسري به إليهم، فكلّمهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون مَن تكلّمون؟ قالوا: لا، فقال لهم: هذا محمد النبي الأميّ فآمنوا به، فقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا أن مَن أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منّي السلام فردّ النبي ﷺ على موسى

متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك وإما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾

قوله تعالى: ﴿وقطعناهم﴾ يعني وفرقنا بني إسرائيل ﴿اثنتي عشرة أسباطاً﴾ يعني من أولاد يعقوب لأن يعقوب هو إسرائيل وأولاده الأسباط وكانوا اثني عشر ولداً ﴿أمماً﴾ يعني جماعات وقبائل ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ يعني في التيه ﴿أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست﴾ يعني: فانفجرت. وقيل: عرقت وهو الانبجاس ﴿منه﴾ أي من الحجر ﴿اثنتا عشرة عيناً﴾ يعني: لكل سبط عين ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ يعني لا يدخل سبط على سبط في مشربهم ﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ يعني في التيه يقيهم حر الشمس ﴿وأنزلنا عليهم المن﴾ هو الترنجبين ﴿والسلوى﴾ جنس من الطير جعل الله ذلك طعاماً لهم في التيه ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا كلوا ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ في الكلام حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات ما رزقناكم فأجمعوا ذلك وسئموه، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد وسألوه غيره لأن المكلف إذا أمر بشيء فتركه وعدل عنه إلى غيره يكون عاصياً بفعله ذلك فلهذا قال: وما ظلمونا يعني وما أدخلوا علينا في ملكنا وسلطاننا نقصاً بمسألتهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني بمخالفتهم ما أمروا به وقد تقدم بسط الكلام على هذه الآية في سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قيل لهم﴾ يعني: واذكر يا محمد لقومك إذ قيل لهم يعني لبني إسرائيل ﴿اسكنوا هذه القرية﴾ يعني بيت المقدس، وقال في سورة البقرة: ادخلوا هذه القرية، ولا منافاة بينهما لأن كل ساكن في موضع لا بد له من الدخول إليه ﴿وكلوا منها حيث شئتم﴾ يعني وكلوا من ثمار القرية وزروعها وحبوبها وبقولها حيث شئتم

وعليهم، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت. وقيل: هم الذين أسلموا من اليهود في زمن النبي ﷺ. والأول أصح.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقطّعناهم ﴾، أي: فرّقناهم، يعني بني إسرائيل، ﴿ اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾، قال الفرّاء: إنّما قال: ﴿ اثنتي عشرة ﴾، والسبط مذكّر لأنه قال: ﴿ أمماً ﴾ فرجع التأنيث إلى الأمم. وقال الزجّاج: المعنى وقطّعناهم اثنتا عشرة فرقة أمماً، وإنما قال: ﴿ أسباطاً أمماً ﴾، بالجمع وما فوق العشرة لا يفسّر بالجمع، فلا يقال: أتاني اثنا عشر رجالاً لأن الأسباط في الحقيقة نعت المفسّر المحذوف وهو الفرقة، أي: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أمماً. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديرها: وقطعناهم أسباطاً أمما اثنتي عشرة، والأسباط القبائل واحدها سبط. قوله تعالى: ﴿ وأَوْحينا إلى موسى إذ استسقاه قومُه ﴾ في التّيهِ، ﴿ أن اضربْ بعصاك الحجرَ فانْبجَسَتْ ﴾،

وأين شئتم. وقال في البقرة: فكلوا، بالفاء وهنا بالواو والفرق بينهما أن الدخول حالة مقتضية للأكل عقبه فيحسن دخول الفاء التي هي للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الأكل حاصلاً متى شاؤوا وإنما قال في سورة البقرة: رغداً، ولم يقله هنا لأن الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل فأما الأكل مع السكنى والاستمرار فليس كذلك فحسن دخول لفظة رغداً هناك بخلافه هنا ﴿وقولوا حطة﴾ أي حط عنا ذنوبنا ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ وقال في البقرة عكس هذا اللفظ ولا منافاة في ذلك لأن المقصود من ذلك تعظيم أمر الله وإظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بسبب التقديم والتأخير ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ يعني نغفر لكم ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها.

وإنما قال هنا خطيئاتكم وفي البقرة خطاياكم لأن المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة إذا أتوا بالدعاء والتضرع ﴿سنزيد المحسنين﴾ وقال في سورة البقرة: وسنزيد، بالواو ومعناه أنه قد وعد المسيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب وإسقاط الواو لا يخل بهذا المعنى لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له: سنزيد المحسنين ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾ يعني فغير الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمرنا من بني إسرائيل فقالوا قولاً غير الذي قيل لهم وأمروا به وذلك أنهم أمروا أن يقول حطة فقالوا حنطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم ﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء﴾ يعني بعثنا عليهم عذاباً من السماء أهلكهم، ولا منافاة بين قوله تعالى هنا أرسلنا وبين قوله في سورة البقرة أنزلنا لأنهما لا يكونان إلا من أعلى إلى أسفل، وقيل: بينهما فرق وهو أن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بذلك فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب قليلاً ثم أرسله عليهم كثيراً ﴿بما كانوا يظلمون﴾ يعني أن إرسال العذاب عليهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله. وقال في البقرة: بما كانوا يفسقون، والجمع بينهما أنهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى وقد تقدمت هذه القصة أيضاً في تفسير سورة البقرة.

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

انفجرت. وقال أبو عمرو بن العلاء: عرقت وهو الانبجاس، ثم انفجرت، ﴿ منه اثنتا عشرةَ عيناً ﴾، لكل سبط عين، ﴿ قدْ علمَ كلُّ أناسٍ ﴾، كل سبط، ﴿ مَشْرَبَهم ﴾، وكل سبط بنو أب واحد. قوله تعالى: ﴿ وظلّلنا عليهم الغمامَ ﴾ في التيه تقيهم حَرَّ الشمس، ﴿ وأنزلنا عليهمُ المَنَّ والسلوى كُلُوا من طيباتِ ما رزقناكم وما ظلمُونا ولكنْ كانُوا أنفسهم يظلمون ﴾.

﴿ وإذْ قيلَ لهمُ اسكنُوا هذه القرية وكلُوا منها حيثُ شِئْتُمْ وقولوا حِطّةٌ وادْخلوا البابَ سُجّداً نغفرْ لكم ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب: «تغفر» بالتاء وضمّها وفتح الفاء. وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الفاء، ﴿ خطيئاتِكم ﴾، قرأ ابن عامر «خطيئتكم» على التوحيد ورفع التاء، وقرأ أبو عمرو: و«خطاياكم» ، وقرأ أهل المدينة ويعقوب: «خطيئاتكم» بالجمع ورفع التاء. وقرأ الآخرون بالجمع وكسر التاء بالجمع. ﴿ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾.

﴿ فبدّلَ الذين ظلموا منهم قولاً غيرَ الذي قيلَ لهم فأرْسلنا عليهمْ رِجْزاً ﴾، عذاباً ﴿ من السماء بما كانوا يظلمون ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٦٤﴾

قوله عز وجل: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك عن حال أهل القرية وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام، لأنه عليه الصلاة والسلام كان قد علم حال أهل هذه القرية بوحي الله عز وجل إليه وإخباره إياهم بحالهم وإنما المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على إقدامهم على الكفر والمعاصي قديماً وأن إصرارهم على الكفر بمحمد ﷺ وإنكار نبوته ومعجزاته ليس بشيء قد حدث منهم في زمانه بل إصرارهم على الكفر كان حاصلاً لأسلافهم في قديم الزمان. وفي الإخبار بهذه القصة معجزة للنبي ﷺ لأنه كان أمياً لا يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الأولين، ثم أخبرهم بما جرى لأسلافهم في قديم الزمان وإنهم بسبب مخالفتهم أمر الله عز وجل مسخوا قردة وخنازير واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس[1]: هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب. وقيل بين مدين والطور على شاطىء البحر. وقال الزهري: هي طبرية الشام. وفي رواية عن ابن عباس قال: هي مدين وقال وهب: هي ما بين مدين وعيوني يعني القرية التي كانت على ساحل البحر وقريبة منه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ يعني يتجاوزون حد الله فيه، وما أمرهم به من تعظيمه فخالفوا أمر الله وصادوا فيه السمك ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾ يعني ظاهرة على الماء كثيرة وقال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضاً وقيل كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش البيض السمان ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ يعني الحيتان ﴿كذلك نبلوهم﴾ يعني مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ونحن أعلم بحالهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يعني أن ذلك الابتداء والاختبار بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله وما أمروا به. قال أهل التفسير: إن اليهود أمروا يوم الجمعة فتركوه واختاروا يوم السبت فابتلوا به وهو أن الله أمرهم بتعظيمه ونهاهم عن العمل فيه وحرم عليهم فيه الصيد، فلما أراد أن يبتليهم كانت الحيتان تظهر لهم في يوم السبت ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تُر إلى السبت المقبل فلما ابتلوا به وسوس إليهم الشيطان وقال إن الله لم ينهكم عن الاصطياد وإنما نهاكم عن الأكل فاصطادوا وقيل إنه وسوس إليهم أنكم إنما نهيتم عن الأخذ فاتخذوا حياضاً على ساحل البحر وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت فإذا كان يوم الأحد خذوها ففعلوا ذلك زمانا ثم إنهم تجرؤوا على السبت وقالوا: ما نرى السبت

قوله تعالى: ﴿ واسْأَلْهُم عنِ القرية التي كانتْ حاضِرةَ البحرِ ﴾، أي: سلْ يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع عن القرية التي كانت حاضرة البحر، أي: بقربه. قال ابن عباس: هي قرية يقال لها: إيلة بين مدين والطور على شاطىء البحر. وقال الزهري: هي طبرية الشام. ﴿ إذْ يَعْدُونَ في السَّبتِ ﴾، أي: يظلمون فيه ويجاوزون أمر الله تعالى بصيدِ السمك، ﴿ إذْ تأتِيهم حِيتانُهم يومَ سَبْتِهم شُرّعاً ﴾، أي: ظاهرة على الماء كثيرة، جمع شارِع. وقال الضحاك: متتابعة. وفي القصة: أنها كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش السِّمان البيض. ﴿ ويومَ لا يَسْبِتُونَ لا تأتيهم ﴾، قرأ الحسن: «يومَ لا يُسبتون» بضم الياء أي لا يدخلون في السبت، والقراءة المعروفة بنصب الياء، ومعناه لا يعظمون السبت، ﴿ كذلك نَبْلُوهُمْ ﴾، نختبرهم، ﴿ بما كانوا يفسُقُون ﴾، فوسوس إليهم الشيطان وقال: إن الله لم ينهكم عن الاصطياد إنما نهاكم عن الأكل، فاصطادوا أو قيل: وسوس إليهم أنكم إنما نُهيتم عن الأخذ، فاتخذوا حيضاً على شاطىء البحر، تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ثم تأخذونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زماناً ثم تجرؤوا على السبت وقالوا: ما نرى السبت إلّا قد أُحلّ لنا

---

(١) قوله هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب في نسخة هي إيلة بين مصر والمدينة والعرب تسمى المدينةَ قرية وقال الزهري الخ اهـ.

إلا قد حل لنا فاصطادوا فيه وأكلوا وباعوا وصار أهل القرية أحزاباً ثلاثة وكانوا نحواً من سبعين ألفاً فثلث نهوا عن الاصطياد وثلث سكتوا ولم ينهوا وقالوا للناهين لم تعظمون قوماً الله مهلكهم وثلث هم أصحاب الخطيئة الذين خالفوا أمر الله واصطادوا وأكلوا وباعوا فلما لم ينتهوا عما هم فيه من المعصية قال الناهون لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار للناهين باب يدخلون ويخرجون منه وللعاصين باب، ولعنهم داود عليه الصلاة والسلام وكانوا في زمنه فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا إن لهم لَشأناً لعل الخمر قد غلبتهم فعلوا على الجدار الذي بينهم فإذا هم قد مسخوا قردة ففتحوا عليهم الباب ودخلوا إليهم فصار القردة يعرفون أنسابهم من الناس ولم يعرف الناس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي أنسابها من الناس فتشم ثيابها فيقول لهم أهلوهم ألم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم فنجا الناهون وهلك سائرهم فذلك قوله تعالى: ﴿**وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم**﴾ واختلفوا في القائلين هذه المقالة فقال بعض المفسرين إن أهل القرية افترقوا ثلاث فرق فرقة اعتدت وأصابت الخطيئة وفرقة نهتهم عن ذلك الفعل وفرقة أمسكت عن الصيد وسكتت عن موعظة المعتدين. وقالوا للناهين: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، يعني أنهم لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير متعظين ولا منزجرين فقالت الفرقة الناهية للذين لاموهم: معذرة إلى ربكم يعني أن موعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علينا فموعظتنا لهؤلاء عذر لنا عند الله ﴿**ولعلهم يتقون**﴾ أي: وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد وقال بعضهم: إن أهل القرية كانوا فرقتين فرقة نهت وزجرت عن السوء وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك أن الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية انتهوا قبل أن ينزل بكم عذاب شديد إن لم تنتهوا عما أنتم فيه فقالت لهم الفرقة المعتدية: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟ والمعنى: لم تعظونا وقد علمتم أن الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه، والقول الأول أصح لأنهم لو كانوا فرقتين لكان قولهم معذرة إلى ربكم خطاباً من الناهية للمعتدية.

فأخذوا وأكلوا أو باعوا، فصار أهل القرية أثلاثاً وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، ثلث نُهوا، وثلث لم ينهوا وسكتوا وقالوا: لِمَ تعظون قوماً اللَّهُ مُهلكهم، وثلث هم أصحاب الخطيئة؟، فلما لم ينتهوا قال الناهون: لا نُساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتقدين باب، ولعنهم داود فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إنّ لهم لشأناً لعلّ الخمر غلبتهم فتسوّروا الجـــدار واسترقوا عليهم فإذا هم كلهم صاروا قردة وخنازير فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القردة تأتي أنسابها من الإنس فتشمّ ثيابه وتبكي فيقول: ألم ننهكم؟ فتقول برأسها: نعم، فما نجا إلّا الذين نُهوا أو هلك سائرهم.

قوله تعالى: ﴿ **وإذْ قالتْ أمةٌ منهم لِمَ تَعِظُون قوماً اللَّهُ مُهلِكُهم** ﴾، اختلفوا في الذين قالوا هذا، قيـل: كانوا من الفرقة الهالكة، وذلك أنهم لمّا قيل لهم: انتهوا عن هذا العمل السيء، قبل أن ينزل بكم العذاب فإنّا نعلم أن الله منزل بكم بأسه إن لم تنتهوا أجابوا وقالوا لِمَ تَعظون قوماً الله مهلكهم، ﴿ **أو** ﴾ علمتم أنه ﴿ **مُعذِّبُهم عذاباً شديداً قالوا** ﴾ أي: قال الناهون ﴿ **معذرةٌ** ﴾ أي: موعظتنا معذرة ﴿ **إلى ربِّكم** ﴾، قرأ حفص: «**معـذرة**» بالنصب أي نفعل ذلك معذرة إلى ربكم. والأصحّ أنها من قول الفرقة الساكنة، قالوا لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم، قالوا: معذرة إلى ربكم، ومعناه أن الأمر بالمعروف واجب علينا فعلينا موعظة هؤلاء عذراً إلى الله، ﴿ **ولعلّهم يتّقون** ﴾، أي: يتقون الله ويتركون المعصية ولو كان الخطاب مع المعتدين لكان يقول ولعلكم تتّقون.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي
الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

وقوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فلما تركوا ما وعظوا به ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ وهم الفرقة الناهية ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ يعني الفرقة المعتدية العاصية ﴿بعذاب بئيس﴾ أي شديد وجميع من البأس وهو الشدة ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يعني أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا. روى عكرمة عن ابن عباس قال: أسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدر ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي قال عكرمة: فقلت جعلني الله فداك، ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه، وقالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولي ورضي به وأمر لي ببردين فكسانيهما وقال: نجت الساكتة وقال يمان ابن رباب: نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن، وقال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر وقوله تعالى: ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ قول ابن عباس: أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الإباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعني عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك في يوم السبت وأكله ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ يعني صاغرين مبعدين من كل خير.

قال قتادة: لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعد ما كانوا رجالاً ونساء. وقال ابن عباس: جعل الله منهم القردة والخنازير فزعم أن شبان القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير، قيل إنهم بقوا ثلاثة أيام ينظر الناس إليهم ثم هلكوا جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ ومعنى تأذن أذن والأذان الإعلام يعني أعلم ربك وقيل معناه قال ربك، وقيل: حكم ربك وقيل آلى ربك بمعنى أقسم أجزما ربك ﴿ليبعثن عليهم﴾ اللام في قوله ليبعثن جواب القسم لأن قوله وإذ تأذن ربك جارٍ مجرى القسم لكونه وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا في الضمير في

﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به﴾ أي: تركوا ما وُعِظوا به، ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوءِ وأخذنا الذين ظلموا﴾، يعني الفرقة العاصية، ﴿بعذابٍ بئيس﴾، أي: شديد وجيع، من البأس وهو الشدة. واختلف القراءة فيه قرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿بئيس﴾ بكسر الباء على وزنِ فعل، إلّا أن ابن عامر يهمزه، وأبو جعفر ونافع لا يهمزان، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل صيقل، وقرأ الآخرون على وزن فعيل مثل بعير وصغير، ﴿بما كانوا يَفْسُقُون﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نسمع الله يقول: ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾، فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة. قال عكرمة: قلت له جعلني الله فداك ألّا نراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه، وقالوا: لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم؟، وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم فـأعجبه قـولي فرضي وأمـر لي ببردين فكسـانيهما، وقـال: نجت الفرقة الساكنة. وقال يمان بن رباب: نجت الطائفتان الذين قالوا: لِمَ تعظون قوماً والذين قالوا: معذرةً إلى ربكم،

عليهم إلى من يرجع فقيل يقتضي أن يكون راجعاً إلى قوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قد علم أن الذين مسخوا لم يبق منهم أحد فيحتمل أن يكون المراد الذين بقوا منهم فألحق الذل بهم وقيل بأن المراد سائر اليهود من بعدهم لأن الذين بقوا من أهل القرية كانوا صالحين والذي بعثه الله على اليهود هو بختنصر وسخاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب. وقيل: المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ والذي بعثه الله عليهم وهو رسول الله ﷺ وأمته فألزم من لم يسلم منهم الصَّغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود إلى يوم القيامة وأورد على هذا بأن في آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج الدجال لأن اليهود أتباعه وأشياعه وأجيب عنه بأن ذلك العز الذي يحصل لهم هو في نفسه غاية الذلة لأنهم يدعون إلهية الدجال فيزدادون كفراً على كفرهم فإذا هلك الدجال أهلكهم المسلمون وقتلوهم جميعاً فذلك هو الذلة والصغار المشار إليه بقوله تعالى ليبعثن عليهم ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ وهذا نص في أن العذاب إنما يحصل لهم في الدنيا مستمراً عليهم إلى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالإهانة والذلة وأخذ الجزية منهم فإذا أفضوا إلى الآخرة؛ كان عذابهم أشد وأعظم وهو قوله تعالى ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ يعني لمن أقام على الكفر ففيه دليل على أنه يجمع لهم مع ذلة الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمراً عليهم في الدنيا والآخرة، ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ يعني لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل في دين الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ يعني وفرقنا بني إسرائيل في الأرض جماعات متفرقة فلا تجد بلداً إلا وفيه من اليهود طائفة وجماعة، قال ابن عباس: كل أرض يدخلها قوم من اليهود ﴿منهم الصالحون﴾ يعني من هؤلاء الذين وصفهم الله من بني إسرائيل صالحون وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه قبل مبعث عيسى عليه الصلاة والسلام وإنما وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ذكره الطبري ولم يذكر غيره، وروى البغوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد: إن المراد بالصالحين الذين أدركوا النبي ﷺ من اليهود وآمنوا به والصحيح ما ذكره الطبري يدل عليه قوله بعد فخلف من بعدهم خلف والخلف إنما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿ومنهم دون ذلك﴾ يعني الذين كفروا من بني إسرائيل وبدلوا وغيروا ﴿وبلوناهم﴾ يعني جميعاً الصالح وغيره وهي بلوى اختبار وامتحان ﴿بالحسنات﴾ يعني الخصب والعافية ﴿والسيئات﴾ يعني الجدب والشدة ﴿لعلهم يرجعون﴾ يعني لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه. قال أهل المعاني: كل واحدة من الحسنات

وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان. وهذا قول الحسن. وقال ابن زيد: الناهية وهلكت الفرقتان، وهذه أشدّ آية في ترك النهي عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿ فلمّا عَتَوا عمّا نُهوا عنه ﴾، قال ابن عباس: أبوا أن يرجعوا عن المعصية ﴿ قُلْنَا لهم كُونُوا قِردةً خاسئين ﴾، مبعدين فمكثوا ثلاثة أيام ينظر بعضهم إلى بعض وينظر إليهم الناس ثم هلكوا.

﴿ وإذْ تأذّنَ ربُّك ﴾، أي: آذن وأعلم ربك، يقال: تأذن وآذن مثل توعد وأوعد. وقال ابن عباس: تأذّن ربّك قال ربك. وقال مجاهد: أمر ربّك. وقال عطاء: حكم ربّك. ﴿ ليبعثنّ عليهم إلى يومِ القيامة ﴾، أي: على اليهود، ﴿ مَنْ يسومُهم سُوءَ العذابِ ﴾، بعث الله عليهم محمداً ﷺ وأمته يقاتلونهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ﴿ إنّ ربّك لَسَريعُ العقابِ وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾.

﴿ وقطّعناهم ﴾، فرّقناهم ﴿ في الأرض أُمماً ﴾، فرقاً فرّقهم الله فتشتّت أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة، ﴿ منهم

والسيئات إذا فسرت بالنعم والشدة تدعو إلى طاعة الله تعالى أما النعمة فيزداد عليها شكراً فيرغب في الطاعة وأما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيرهب منها.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم﴾ يعني من بعد هؤلاء الذين وصفناهم قوله تعالى: ﴿خلف﴾ يعني خلف سوء يعني حدث من بعدهم وتبدل منهم بدل سوء يقال منه هو خلَف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها فأكثر ما يقال في المدح بفتح اللام وفي الذم بسكونها وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح قال حسان بن ثابت في المدح:

لنا القدم الأولى إليك وخلْفنا ... لأولنا في طاعة الله تابع

فسكن اللام في قوله وخلفنا وهو يريد المدح وقال لبيد في الذم:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خَلَف كجلد الأجرب

ففتح اللام وهو يريد الذم وأصله من الفساد. يقال: خلف اللبن إذا فسد وتغير في السقاء ويقال للرديء من القول: خلف وخلف الشيء تغيره، ومنه خلوف فم الصائم والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله ﴿ورثوا الكتاب﴾ يعني انتقل إليهم الكتاب عن آبائهم والمراد بالكتاب التوراة ﴿يأخذون عرَض هذا الأدنى﴾ العرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والعرْض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والمعنى أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام على تبديل الكلام وتغييره وذلك الذي يأخذونه من حطام الدنيا هو الشيء التافه الخسيس الحقير لأن الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الأحكام ويعلمون أنها حرام ثم إنهم مع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ يعني ذنوبنا فيتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» أخرجه الترمذي وقال في قوله عليه الصلاة والسلام

الصالحون ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: يريد الذين أدركوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ﴿ **ومنهم دُونَ ذلك** ﴾، يعني الذين بقوا على الكفر، وقال الكلبي: منهم الصالحون هم الذين وراء نهر أوداف من وراء الصين، ومنهم دُون ذلك، يعني: من ههنا من اليهود، ﴿ **وبلوناهم بالحسنات** ﴾، بالخصب والعافية، ﴿ **والسيئات** ﴾، الجدب والشدّة، ﴿ **لعلّهم يرجِعُون** ﴾، لكي يرجعوا إلى طاعة ربّهم ويتوبوا.

﴿ **فخلَفَ مِنْ بعدِهم** ﴾، أي: جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم ﴿ **خَلْفٌ** ﴾، والخلف: القرن الذي يجيء بعد قرن. قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء، والخلَف بفتح اللام: البدل سواء كان ولداً أو غريباً. وقال ابن الأعرابي: الخلَف بالفتح: الصالح، وبالجزم: الطالح. وقال النضر بن شميل: الخلف بتحريك اللام وإسكانها في القرْن السوء واحد، وأما في القرْن الصالح فبتحريك اللام لا غير. وقال محمد بن جرير: أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام، وفي الذم بتسكينها وقد يُحرّك في الذم ويُسكّن في المدح.

﴿ **وَرِثُوا الكتابَ** ﴾، أي: انتقل إليهم الكتاب من آبائهم وهو التوراة، ﴿ **يأخذُون عَرَضَ هذا الأدْنى** ﴾، العرض

دان نفسه يعني حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسَب يوم القيامة وموضع الاستشهاد من الحديث على الآية، قوله وتمنى على الله الأماني لأن اليهود كانوا يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمني بعينه قوله تعالى: ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب، والمعنى أنهم إذا أتاهم شيء من الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون على الله المغفرة وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه.

قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم فيقال له ما بالك ترتشي فيقول: سيغفر لي فيطعن عليه الآخرون فإذا مات أو نزع من الحكم وجعل مكانه آخر فمن كان يطعن عليه ارتشى أيضاً يقول الله عز وجل وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ يعني ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في أحكامهم العهود والمواثيق في الكتاب وهو التوراة ﴿أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ يعني إنّا أخذنا عليهم الميثاق على أن يقولوا الحق فقالوا الباطل وخالفوا أمر الله وهو قولهم سيغفر لنا والمراد من هذا التوبيخ والتقريع لليهود في ادعائهم على الله الباطل قال ابن عباس: هو ما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ﴿ودرسوا ما فيه﴾ يعني ما في الكتاب والمعنى أنهم ذاكرون لما أخذ عليهم من العهود والمواثيق في الكتاب لأنهم دارسون له لم يتركوه ولكن درسوه وضيعوا العمل به ﴿والدار الآخرة﴾ يعني وما في الدار الآخرة مما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه، ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا في الأحكام ﴿خير للذين يتقون﴾ يعني يتقون الله ويخافون عقابه ﴿أفلا يعقلون﴾ يعني أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن ما في الآخرة خير وأبقى لأنها دار المتقين.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي﴾

متاع الدنيا، والعرض بسكون الراء ما كان من الأموال سوى الدراهم والدنانير. وأراد بالأدنى العالم وهو هذه الدار الفانية فهو تذكير الدنيا، وهؤلاء اليهود ورثوا التوراة فقرؤوها وضيّعوا العمل بما فيها وخالفوا حكمها يرتشون في حكم الله وتبديل كلماته، ﴿ ويقولون سَيُغفرُ لنَا ﴾، ذنوبنا يتمنّون على الله الأباطيل. أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا طاهر محمد بن أحمد بن الحرث أنبأنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنبأنا عبد الله بن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم الغساني عن ضمرة بن جندب عن شدّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نفسَه وعمِلَ لِما بعدَ الموتِ والعاجزُ مَن أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني». ﴿ وإنْ يأتِهم عَرَضٌ مِّثْلُهُ يأخذُوه ﴾، هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب، يقول إذا أشرف لهم شيء من الدنيا: أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنّون على الله المغفرة وأين وجدوا من الغد مثله أخذوه. وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلّا ارتشى في الحكم فيقال له: ما لك ترتشي؟ فيقول: سيغفر لي فيطعن عليه الآخر، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممّن كان يطعن عليه فيرتشي أيضاً، يقول: وإن يأتِ الآخرين عرض مثله يأخذوه. ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عليهم ميثاقُ الكتاب أَنْ لا يقولوا على الله إلاّ الحق ﴾، أي: أخذ عليهم العهد في التوراة أن لا يقولوا على الله الباطل، وهي تمنّي المغفرة مع الإصرار وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار، ﴿ ودَرَسُوا ما فيه ﴾، قرأوا ما فيه فهم ذاكرون لذلك، ولو عقلوه لعملوا للدار الآخرة، ودرس الكتاب قراءته وتدبره مرة بعد أخرى، ﴿ والدّارُ الآخرةُ للذين يتّقون أفلا تعقلون ﴾.

ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ يقال مسكت بالشيء وتمسكت به واستمسكت به وأمسكت به والمراد بالتمسك بالكتاب العمل بما فيه من إحلال حلاله وتحريم حرامه وإقامة حدوده والتمسك بأحكامه.

نزلت هذه الآية في الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه لأنهم تمسكوا بالكتاب الأول ولم يحرفوه ولم يغيروه فأداهم ذلك التمسك إلى الإيمان بالكتاب الثاني وهو القرآن ﴿وأقاموا الصلاة﴾ يعني وداوموا على إقامتها في مواقيتها وإنما أفردها بالذكر وإن كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيهاً على عظم قدرها وأنها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله وبرسوله ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ قوله عز وجل: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾ يعني واذكر يا محمد إذ قلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل كأنه ظلة يعني جعلناه فوقهم كالظلة والظلة كل ما علا الإنسان كالسقف ونحوه ﴿وظنوا﴾ أي علموا وأيقنوا ﴿أنه واقع بهم﴾ يعني الجبل ﴿خذوا﴾ يعني وقلنا لهم خذوا وإضمار القول كثير في القرآن وكلام العرب ﴿ما آتيناكم﴾ يعني التوراة ﴿بقوة﴾ يعني بجد واجتهاد ﴿واذكروا ما فيه﴾ يعني واعملوا بما فيه من الأحكام ﴿لعلكم تتقون﴾ قال أصحاب الأخبار: إن بني إسرائيل لما أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة أمر الله عز وجل جبريل فرفع جبلاً عظيماً حتى صار على رؤوسهم كالظلة فلما نظروا إلى الجبل فوق رؤوسهم خرّوا ساجدين فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً أن يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود إلا على شق وجوههم الأيسر قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ الآية عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ الآية قال سئل عنها رسول الله ﷺ فقال «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله ﷺ إن الله سبحانه وتعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار» أخرجه مالك في الموطأ وأبو داود والترمذي، وقال حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلاً. قلت ذكر الطبري في بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن يعمر بن ربيعة عن عمر عن النبي ﷺ بنحوه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من

﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتابِ ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم: «يمسـكون» بالتخفيف وقراءة العامّة بالتشديد لأنه يقال: مسكت بالشيء، ولا يقال: أمسكت بالشيء، إنما يقال: أمسكته، وقرأ أُبيّ بن كعب: «والذين تمسّكوا بالكتـاب»، على الماضي وهو جيد لقوله تعالى: ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إذ قَلّ ما يعطف ماضٍ على مستقبل إلّا في المعنى، وأراد الذين يعملون بما في الكتاب، قال مجاهد: هم المؤمنون من أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى فلم يحرّفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلةً. وقال عطاء: هم أُمة محمد ﷺ. ﴿ وأقاموا الصلاة إنّا لا نُضيعُ أجر المصلحين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ نَتقْنا الجبل فَوقَهم ﴾، أي: قلَعْنا. وقال المؤرِّج: قطعناه. وقال الفرّاء: علّقنا. وقيل:

ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يا رب من هذا قال داود قال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يا رب زده من عمري أربعين سنة قال رسول الله ﷺ فلما انقضى عمر آدم إلا أربعين جاءه ملك الموت فقال آدم أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد آدم فجحد ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطىء فخطئت ذريته» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وأما تفسير الآية فقوله سبحانه وتعالى: وإذ أخذ ربك، يعني واذكر يا محمد إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم يعني من ظهور بني آدم وإنما لم يذكر ظهر آدم وإن كان الله سبحانه وتعالى أخرج جميع الذرية من ظهره لأن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فلذلك قال سبحانه وتعالى من بني آدم من ظهورهم فاستغنى عن ذكر ظهر آدم عليه السلام لما علم أنهم كلهم بنو آدم وأخرجوا من ظهره فترك ذكر ظهر آدم استغناء.

ثم للعلماء في تفسير هذه الآية مذهبان: أحدهما وهو مذهب أهل التفسير والأثر وظاهر ما جاءت به الروايات عن السلف فيما روي عن ابن عباس من طرق كثيرة وروايات مختلفة رواها عنه الطبري بأسانيد، فمنها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً وقال ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» وعن ابن عباس في هذه الآية قال: مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذي وراء عرفة وأخذ ميثاقهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا وعن ابن عباس أيضاً قال: إن أول ما أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها إلى يوم القيامة ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» زاد في رواية عنه «فجف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» وفي رواية عنه قال «لما خلق الله آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم» وفي رواية عنه قال «إن الله عز وجل مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق

رفعنا ﴿ **كأنه ظلة** ﴾، قال عطاء: سقيفة. والظلّة: كلّ ما أظلّك، ﴿ **وظنوا** ﴾، علموا ﴿ **أنه واقعٌ بهم خُذُوا** ﴾، أي: وقلنا لهم خذوا، ﴿ **ما آتيناكم بقوة** ﴾، بجِدٍّ واجتهاد، ﴿ **واذْكُروا ما فيه** ﴾، واعملوا به، ﴿ **لعلّكم تتّقون** ﴾، وذلك حين أبَوْا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله على رؤوسهم جبلاً. قال الحسن: فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فـرقاً من أن يسقط عليه، ولذلك لا تجد يهودياً إلّا ويكون سجوده على حاجبه الأيسر.

قوله تعالى: ﴿ **وإذ أخذَ ربُّك من بني آدم مِنْ ظهورهم ذُرّيتهم** ﴾، الآيـة. أخبرنا أبو الحسن محمد بن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿ **وإذْ أخذَ ربُّكَ من بني آدمَ من ظهورهم ذُرِّيّتَهُمْ** ﴾ الآية. قال عمر بن الخطاب: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُسأل عنها فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزّ وجلّ خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرّيّةً**، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منهُ ذريّةً فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: فَفِيمَ العملُ يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ اللّهَ عزّ وجلّ إذا خلق**

ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من أعطي الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الأول ومن مات صغيراً ولم يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة» وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى؟ قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة «إنا كنا عن هذا غافلين» وقال ابن عباس: أخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم فقال ألست بربكم قالوا بلى ثم أعادها في صلبه فليس أحد من الخلق إلا وقد تكلم فقال ربي الله وإن القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ أشهد على نفسه، وقال السدي: أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم إنه مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه كهيئة الذر بيضاء فقال ادخلوا الجنة برحمتي ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سوداء فقال ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجهه التبعية زاد في رواية وذلك حيث يقول «وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً» وقال محمد بن كعب القرظي: أقر له بالإيمان والمعرفة الأرواح قبل خلق أجسادها، وقال مقاتل: مسح صفحة ظهر آدم اليمنى، فأخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر يتحركون فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق جميعاً. وروى أن الله سبحانه وتعالى قال لهم جميعاً. اعلموا أنه لا إله لكم غيري وأنا ربكم لا رب لكم غيري فلا تشركوا بي شيئاً فإني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي وإني مرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي ومنزل عليكم كتباً فتكلموا جميعاً وقالوا شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك فأخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم فنظر إليهم آدم عليه السلام فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب هلا سويت بينهم فقال إني أحب أن أشكر فلما قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعاده إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق» وقال الزجاج وجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى جعل لأمثال الذر عقلاً وفهما تعقل به كما قال تبارك وتعالى في النملة ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ وكما قال ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ وقال ابن الأنباري مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولادهم وهم صور كالذر وأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم

العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمالِ أهل النار فيدخله به النار»، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلاً. قال مقاتل وغيره من أهل التفسير: إن الله مسح صفحةَ ظهرِ آدمَ اليمنى فأخرج منه ذريّةً بيضاء كهيئة الذرّ يتحرّكون، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذريّةً سوداء كهيئة الذرّ، فقال: يا آدم هذه ذريّتك، ثم قال لهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي ولا أُبالي وهم أصحاب اليمين، وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أُبالي، وهم أصحاب الشمال، ثم أعادهم جميعاً في صلبه، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء. قال الله تعالى فيمن نقض العهد الأول: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأكثرهم من عهد ﴾ [الأعراف: ١٠٢]. وقال بعض أهل التفسير: إن أهل السعادة أقرّوا طوعاً وقالوا: بلى، وأهل الشقاوة قالوا تقية وكرهاً، وذلك معنى قوله: ﴿ وله أسلمَ مَن في السمواتِ والأرضِ طَوْعاً وكَرْهاً ﴾

وأنهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولاً حتى خوطبوا بقوله «يا جبال أوبي معه» وكم جعل للبعير عقلاً حتى سجد للنبي ﷺ وكذلك الشجرة حتى سمعت لأمره وانقادت ومعنى قوله ﴿ألست بربكم﴾ على هذا التفسير قال الله تعالى للذرية «ألست بربكم» فهو إيجاب للربوبية عليهم قالوا بلى يعني قالت الذرية بلى أنت ربنا فهو جواب منهم له وإقرار منهم له بالربوبية واعتراف على أنفسهم بالعبودية ﴿شهدنا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم لما أقروا له بالربوبية قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا على إقرارهم فعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله سبحانه وتعالى بلى لأن كلام الذرية تم وانقطع وقوله شهدنا كلام مستأنف.

والقول الثاني: إن قوله سبحانه وتعالى شهدنا من كلام الذرية والمعنى شهدنا على أنفسنا بهذا الإقرار وعلى هذا لا يحسن الوقف على بلى لتعلقه بما بعده.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**أن تقولوا**﴾ وقرىء بالتاء على خطاب الذرية ومعناه لئلا تقولوا أيها الذرية ﴿**يوم القيامة إنا كنا عن هذا**﴾ يعني الميثاق ﴿**غافلين**﴾ وقرىء أن يقولوا بالياء على الغيبة ومعناه لئلا يقولوا أي الذرية إنا كنا عن هذا غافلين، والمذهب الثاني في معنى هذه الآية وهو مذهب أهل الكلام والنظر أنه سبحانه وتعالى أخرج الذرية وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً في أصلاب الآباء وهم أولاد بني آدم فأخرج الذرية إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقول وأراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه ودلائل وحدانيته فبهذا الإشهاد صاروا كأنهم قالوا: بلى وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وذلك بما أظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم وبارئهم وربهم ونافذ الحكم فيهم فلما عرفوا ذلك دعاهم ذلك إلى التصديق بوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على أنفسنا أنك أنت ربنا وخالقنا فعلى هذا القول يكون قولهم بلى شهدنا على أنفسنا على المجاز لا على الحقيقة وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في كلام العرب فكل من بلغ وعقل فقد أخذ عليه الميثاق بما جعل فيه من السبب الذي يؤخذ به الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية وإذ يأخذ ربك من بني آدم ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم والتكليف الذي به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة.

[آل عمران: ٨٣]، واختلفوا في موضع الميثاق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ببطن نعمان وادٍ إلى جنب عَرَفَة. ورُوِيَ عنه أيضاً أنه بدهناء من أرض الهند، وهو الموضع الذي هبط آدم عليه السلام عليه. وقال الكلبي: بين مكة والطائف. وقال السدي: أخرج الله آدم عليه السلام من الجنة فلم يهبط من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريّتـه. ورُوِيَ أن الله أخرجهم جميعاً وصوّرهم وجعل لهم عقولاً يعلمون بها وألسُناً ينطقون بها ثم كلّمهم قبلاً يعني عياناً وقال: ألست بربكم؟ وقال الزجّاج: وجائز أن يكون الله تعالى جعل لأمثال الذرّ فهماً تعقل به، كما قال تعالى: ﴿ قالتْ نملةٌ يا أيها النّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكم ﴾ [النمل: ١٨]، ورُوِيَ أن الله تعالى قال لهم جميعاً: اعلموا أنه لا إلَه غيري وأنا ربّكم لا ربَّ لكم غيري فلا تشركوا بي شيئاً فإني سأنتقم ممّن أشرك بي ولم يؤمن بي وإني مرسل إليكم رسلاً يذكّرونكم عهدي وميثاقي ومنزّل عليكم كتباً فتكلموا جميعـاً، وقالـوا: شهدنـا أنك ربُّنـا وإلٰهنا لاَ ربّ لنـا غيرُك، فأخذ بذلك مواثيقهم، ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم، فنظر إليهم آدم فـرأى منهم الغني والفقير وحَسَنَ الصـورة ودون ذلك، فقال: ربِّ لولا سويتَ بينهم؟ قال: إنّي أحبّ أن أشكر، فلمّا قرّرهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل مَن أخذ ميثاقه، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذْ أخذ ربُّك من بني آدم مِنْ ظهورهِم ﴾ أي: من ظهور بني آدم ذريتهم، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر: « ذريّاتهم » بالجمع

فإن قلت: فما المختار من هذين المذهبين في تفسير هذه الآية؟

قلت: المذهب الأول هو المختار لأنه مذهب جمهور المفسرين من السلف وورد الحديث بذلك عن النبي ﷺ.

فإن قلت إذا كانت المختار في تفسير هذه الآية هو مذهب السلف في ذلك وأن الله تعالى أخرج الذرية من ظهر آدم لأخذ الميثاق عليهم كما ورد في الحديث أيضاً فكيف يحمل تفسير ألفاظ هذه الآية على هذا القول؟

قلت: قد صحَّ الحديث بأن الله مسح ظهر آدم فأخرج ذريته وأخذ عليهم الميثاق ولا منافاة بين الآية والحديث كما تقدم في تفسير ألفاظ الآية من أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض كما في الخارج وكلهم بأجمعهم من ظهر آدم الذي هو أصلهم فبهذا الطريق أمكن الجمع بين الآية والحديث، إذ ليس في معنى ألفاظ الآية ما يدل على بطلان ذلك ونفيه وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير إليه والأخذ به جمعاً بين الآية والحديث وحكى الواحدي عن صاحب النظم أنه قال: ليس بين قوله إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه تعالى إذ أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية كذرية بعضهم من بعض قال وتحصل الفائدة بهذا الفصل بأنه تعالى أثبت الحجة على كل منفوس ممن بلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم بالحجة بالآيات والدلائل التي نصبها بالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ وقال غيره: فائدة أخذ الميثاق عليها في القدم أن من مات منهم صغيراً أدخل الجنة بإقراره بالميثاق الأول وهذا على قول من يقول إن أطفال المشركين يدخلون الجنة إذا ماتوا صغاراً فأما من لا يحكم لهم بالجنة فإنه يقول من كان من أهل الشقاوة من الذرية السوداء وإنما أقروا بالمعرفة كرهاً فلم يغن عنهم ذلك شيئاً ومن بلغ وعقل لم يغن عنه إقراره بالميثاق الأول شيئاً حتى يؤمن ويصدق عند بلوغه وعقله بأن الله ربه وخالقه ويصدق رسله فيما جاؤوا به من عنده وإنما فعل ذلك لئلا يقول الكفار إنا كنا عن هذا الميثاق أو الإيمان بأن الله ربنا غافلين أو لئلا تقول أخلافهم إنما أشرك آباؤنا ونحن نسير على آثارهم ظناً منهم أن الحق ما كانوا عليه.

فإن قلت: إن ذلك الميثاق لا يذكره أحد اليوم فكيف يكون حجة عليهم اليوم أو فكيف يذكرونه يوم القيامة حتى يحتج عليهم به.

قلت: لما أخرج الذرية من صلب آدم ركب فيهم العقول وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا إلى صلب آدم بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق لاقتضاء الحكمة الإلهية نسيانهم له ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر، إذ الدار دار تكليف وامتحان ولو لم ينسوه لانتفت

وكسر التاء، وقرأ الآخرون «ذريّتهم» على التوحيد، ونصب التاء، فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم** ﴾ وإنما أخرجهم من ظهر آدم؟ قيل: إنّ الله أخرج ذريّة آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء في الترتيب، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لمّا علم أنهم كلهم بنوه وأُخرِجوا من ظهره. قوله تعالى: ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألَسْتُ بربِّكم قالوا بلى** ﴾، أي: أشهد بعضهم على بعض. قوله: ﴿ **شَهِدْنَا أَنْ تقولوا** ﴾، قرأ أبو عمرو: «أن يقولوا» ويقولوا بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما، واختلفوا في قوله: ﴿ **شهدنا** ﴾ قال السدي: هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم. وقال بعضهم هو خبر عن قول بني آدم أشهد اللّهُ بعضهم على بعض، فقالوا: بلى شهدناه. وقال الكلبي: ذلك من قول الملائكة وفيه حذف تقديره: لمّا قالت الذريّة: بلى، قال الله للملائكة: اشهدوا، قالوا: شهدنا، قوله: ﴿ **أن يقولوا** ﴾ يعني: وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا، أي: لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا، ومَن قرأ بالتاء

المحنة والابتلاء والتكليف، فقامت الحجة عليهم لإمدادهم بالرسل وإعلامهم بجريان آخذ الميثاق عليهم وبذلك قامت الحجة عليهم أيضاً يوم القيامة لإخبار الرسل إياهم بذلك الميثاق في الدنيا فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمتهم الحجة ولم تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد إخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿**أو تقولوا**﴾ يعني الذرية ﴿**إنما أشرك آباؤنا من قبل**﴾ يعني إنما أخذ الميثاق عليهم لئلا يقول المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴿**وكنا ذرية من بعدهم**﴾ يعني وكنا أتباعاً لهم فاقتدينا بهم في الشرك ﴿**أفتهلكنا**﴾ يعني أفتعذبنا ﴿**بما فعل المبطلون**﴾ قال المفسرون: هذا قطع لعذر الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد والميثاق وكنا نحن الذرية من بعدهم فقلدناهم واقتدينا بهم وكنا في غفلة عن هذا الميثاق فلا ذنب لنا فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك وقد أخذ عليهم جميعاً الميثاق وجاءتهم الرسل وذكروهم به وثبتت الحجة عليهم بذلك يوم القيامة، وأما الذين حملوا معنى الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل وهو مذهب أهل النظر قالوا معناه إن الله نصب هذه الدلائل وأظهرها للعقول لئلا يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا لأن نصب أدلة التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على تقليد الآباء في الشرك.

وقوله تعالى: ﴿**وكذلك نفصِّل الآيات**﴾ يعني ليتدبرها العباد فيرجعوا إلى الحق والإيمان ويعرضوا عن الباطل والكفر وهو المراد من قوله ﴿**ولعلهم يرجعون**﴾ يعني عن الشرك إلى التوحيد وقيل معناه ولعلهم يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه.

قوله عز وجل: ﴿**واتل عليهم**﴾ يعني واقرأ على قومك يا محمد ﴿**نبأ**﴾ يعني خبر ﴿**الذي آتيناه آياتنا**﴾ اختلفوا فيه فقال ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء، وقال مجاهد: بلعام بن باعر، وقال ابن مسعود: هو بلعم بن أبر، قال عطية قال ابن عباس: إنه كان من بني إسرائيل وفي رواية أخرى عنه أنه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين، وقال مقاتل: هو من مدينة البلقاء وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس ومحمد بن إسحاق والسدي وغيرهم من أصحاب الأخبار والسير قالوا: إن موسى عليه الصلاة والسلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام أتى

فتقدير الكلام: أخاطبكم ألستُ بربِّكم لئلا تقولوا: ﴿ **يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين** ﴾، أي: عن هذا الميثاق والإقرار، فإن قيل: كيف يلزم الحجة واحد لا يذكر الميثاق، قيل: قد أوضح الله الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا، فمَن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمته الحجة، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يُسقِطُ الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة.

قوله تعالى: ﴿ **أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنّا ذريّةً منْ بعدِهم** ﴾، يقول: إنما أُخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيّها المشركون: إنّما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنّا ذريّة من بعدهم، أي كنّا أتباعاً لهم فاقتدينا بهم فتجعلوا هذا عذراً لأنفسكم وتقولوا: ﴿ **أفتهلِكُنا بما فعلَ المُبْطِلُون** ﴾، أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين فلا يمكنهم أن يحتجّوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد.

قوم بلعام إليه وكان عنده اسم الله الأعظم، فقالوا: إن موسى رجل حديد وأن معه جنوداً كثيرة وأنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردهم عنا. فقال: ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي؟ فراجعوه وألحوا عليه فقال: حتى أؤامر ربي وكان لا يدعو حتى يؤامر ربه في المنام فأتى في المنام فقيل له لا تدع عليهم فقال لقومه: إني قد آمرت ربي فنهاني أن أدعو عليهم فأهدوا له هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أؤامر ربي فآمر فلم يوح إليه شيء فقال قد آمرت ربي فلم يوح إلي بشيء فقالوا له: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتاناً له متوجهاً إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسان فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت فضربها حتى أزلقها فأذن الله عز وجل لها في الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعام أتدري أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي يردونني عن وجهي وهذا ويحك أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزع فخلى الله سبيل الأتان فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على جبل حسان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشيء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه يا بلعام أتدري ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا ما لا أملكه هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لقومه: قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق لي إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال، ثم قال: جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى عسكر بني إسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنه إن زنى رجل منهم بواحدة منهن كُفيتموهم ففعلوا ذلك فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانين اسمها كستى بنت صور على رجل من عظماء بني إسرائيل يقال له زمري بن شلوم وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه الصلاة والسلام وقال إني لأظنك أنك تقول هذه حرام عليك فقال أجل هي حرام عليك لا تقربها قال والله إني لا أطيعك في هذا ثم قام ودخل بها إلى قبتة فوقع عليها فأرسل الله عزَّ وجلّ الطاعون على بني إسرائيل في ذلك الوقت. وكان فنحاص بن العيزار بن هارون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلاً فظاً قد أعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلون ما صنع فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل

﴿ وكذلك نُفصّلُ الآياتِ ﴾ أي: نُبيّن الآيات ليتدبّرها العباد، **﴿ ولعلّهم يرجِعُون ﴾**، من الكفر إلى التوحيد.

قوله تعالى: **﴿ واتْلُ عليهم نَبأَ الذي آتيناه آياتِنا فانْسلَخَ منها ﴾** الآية، اختلفوا فيه، قال ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء. وقال مجاهد: بلعام بن باعور. وقال عطية عن ابن عباس: كان من بني إسرائيل. ورُوِيَ عن علي بن أبي طلحة رضي الله عنه أنه كان من الكنعانيين من مدينة الجبّارين. وقال مقاتل: هو من مدينة بلقا، وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم: أن موسى لمّا قصد حرب الجبّارين ونزل بأرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بعلم إلى بلعم، وكان عنده اسم الله الأعظم فقالوا: إن موسى رجل شديد ومعه جند كثير، وأنه جاء يُخرِجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بني إسرائيل، وأنت رجل مُجاب الدعوة، فاخرجْ فـادعُ الله أن يردّهم عنّا، فقال: ويلكم نبيّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي، فراجعوه وألحّوا عليه فقال: حتى أُؤامر ربّي، وكان لا يدعوه حتى ينظر ما يؤمر به في المنام فآمر في الدعاء عليهم، فقيل له في المنام: لا تَدعُ عليهم، فقال لقومه: إني قد آمرتُ ربّي وإني قد

فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فطعنهما بحربته فانتظمهما ثم خرج بهما وهو رافعهما إلى السماء وقد أخذ الحربة بذارعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر بن العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بني إسرائيل فحسب من مات منهم في ذلك الطاعون فيما بين أن أصاب ذلك الرجل المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجوده قد هلك سبعون ألفاً في ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها الفشة والذراع واللحى لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته ويعطوهم البكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار وفي بلعام أنزل الله عز وجل: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا**﴾ الآية، وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى فقال بلعام إنه من أهل ديني ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الأتان فضربها فقالت: لم تضربني وأنا مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع إلى الملك فأخبره بذلك فقال لتدعون عليه أو لأصلبنك فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بني إسرائيل في التيه بدعاء بلعام عليه فقال موسى يا رب بأي ذنب وقعت في التيه قال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿**آتيناه آياتنا فانسلخ منها**﴾ .

نُهيتُ فأهدوا إليه هديةً فقبلها، ثم راجعوه فقال: حتى أؤامر ربّي فآمر، فلم يوحِ إليه شيء، فقال: قد آمرتُ فلم يُوحَ إليّ شيء، فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرّة الأولى، فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتاناً له متوجهاً إلى جبل يُطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له حسان، فقلما سار عليه غيرَ كثيرٍ رَبَضتْ به، فنزل عنها فضربها حتى إذا أدلفها قامت فركبها، فلم تسرْ به كثيراً حتى ربضت، ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت، وضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لها بالكلام فكلّمته حجّة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب ألَا ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا؟ أتذهب بي إلى نبيّ الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع فخلّى الله سبيلها فانطلقت حتى إذا أشرفت على جبل حسان جعل يدعو عليهم ولا يدعو بشيء إلّا صرف الله به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلّا صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: يا بلعم أتدري ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا؟! فقال: هذا ما لا أملكه هذا شيء قد غلب الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم : قد ذهبت الآن منّي الدنيا والآخرة، فلم يبقَ إلّا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال جمِّلُوا النساءَ وزيّنوهنّ وأعطوهنّ السلع، ثم أرسلوهنّ إلى العسكر يبعنها فيه، ومُروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنا رجلٌ واحد منهم كفيتموهم، ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرّت امرأة من الكنعانيين اسمها كستي بنت صور برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب، فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، فقال: إني أظنك ستقول هذه حرام عليك؟ قال: أجل هي حرام عليك لا تقربها، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، ثم دخل بها قبّته فوقع عليها، فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل في الوقت، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى، وكان رجلاً قد أُعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس بني إسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليهما القبّة، وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحِربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمِرفقه على

فإن قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها أن موسى عليه السلام دعا على بلعام بأن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه في النبوة أن يدعو على إنسان بالكفر بعد الإيمان أو يرضى له بذلك قلت الجواب عنه من وجوه:

أحدها: منع صحة هذه القصة لأنها من الإسرائيليات ولا يلتفت إلى ما يسطره أهل الأخبار إذا خالف الأصول.

الوجه الثاني: أن سبب وقوع بني إسرائيل في التيه هو عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام اجعل لنا إلهاً فكان ذلك هو سبب وقوعهم في التيه لادعاء بلعام عليهم.

الوجه الثالث: على تقدير صحة هذه القصة وأن موسى عليه السلام دعا على بلعام أن موسى عليه السلام لم يدع عليه إلا بعد أن ثبت عنده أن بلعام كفر وارتد عن الإيمان بدعائه على موسى وإيثاره الحياة الدنيا فدعا عليه مقابلة لدعائه عليه والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك كله والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله أصحاب الأخبار في كتبهم من غير نظر فيه ولا بحث عن معناه وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم: نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكانت قصته أنه كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم أن الله سبحانه وتعالى مرسل رسولاً فرجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد ﷺ وشرفه الله بالنبوة حسده وكذبه وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة فقصد بعض الملوك فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل له: قتلهم محمد فقال: لو كان نبياً ما قتل أقرباءه فلما مات أمية أتت أخته فازعة إلى رسول الله ﷺ فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها فقالت: بينا هو راقد أتاه اثنان فكشفا سقف البيت ونزلا فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوعى قال وعى قال أزكى قال أبى قالت فسألته عن ذلك فقال: خير أريد بي فصرف عني ثم غشي عليه فلما أفاق من غشيته قال شعراً:

خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار، وجعل يقول: اللّهمَّ هكذا نفعل بمَن يعصيك ورُفع الطاعون، فحُسب مَن هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصيب زمري والمرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفاً في ساعة من النهار، فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القبة والذراع واللحى لاعتماده بالحِربة على خاصرته، وأخذه إيّاها بذراعه، وإسناده إيّاها إلى لحيته، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بكر العيزار، وفي بلعم أنزل الله تعالى: ﴿ واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ الآية، وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام: ادعُ اللَّهَ على موسى، فقال: إنه من أهل ديني لا أدعو عليه، فنحت خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها، فقالت: لِمَ تضربني إني مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع فأخبر الملك، فقال موسى: يا ربِّ بأيّ ذنب وقعنا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعام، قال: فكما سمعتَ دعاءَه عليّ فاسمعْ دعائي عليه، فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان، فنزع الله عنه المعرفة وسلخه منها فخرجت منه صورة كحمامة بيضاء، فذلك قوله: ﴿ فانْسَلَخَ منها ﴾، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وليث بن سعد: نزلت هذه الآية في أميّة بن أبي الصلت الثقفي، وكانت قصته: أنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً فَرَجَا أن يكون هو ذلك الرسول، فلمّا أرسل محمداً ﷺ حسده وكفر به، وكان صاحب حكمة وموعظة حسنة، وكان قصد بعض الملوك فلما رجع مرَّ على قتلى بدر، فسأل عنهم فقيل: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبيّاً ما قتل أقرباءه، فلما مات أمية أتت أخته فازعةً إلى رسول الله ﷺ، فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها فقالت: بينما هو راقد أتاه آتيان فكشفا

كـل عيـش وإن تطـاول دهـراً صـائـر مـرة إلـى أن يـزولا
ليتنـي كنـت قبـل مـا قـد بـدا لـي فـي قـلال الجبـال أرعـى الـوعـولا
إن يـوم الحسـاب يـوم عظيـم شـاب فيـه الصغيـر يـومـاً ثقيـلا

فقال لها رسول الله ﷺ أنشديني من شعر أخيك فأنشدته بعض قصائده فقال رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه» فأنزل الله عز وجل: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها**﴾ الآية وفي رواية عن ابن عباس: إنها نزلت في البسوس وهو رجل من بني إسرائيل وكان قد أعطي ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة منها أولاد فقالت له اجعل لي منها دعوة فقال لك منها واحدة كما تريدين قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا لها فصارت أجمل النساء فلما علمت أنه ليس في نساء بني إسرائيل مثلها رغبت عنه فغضبت فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهب فيها دعوتان فجاء بنوها إلى أبيهم وقالوا ليس لنا على هذا الأمر قرار صارت أمنا كلبة نباحة والناس تعيرنا بذلك فادع الله أن يردها إلى حالها الأول فدعا فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات جميعاً والقولان الأولان أشهر.
وقال الحسن وابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ﷺ بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروه، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله وقوله تعالى ﴿**آتيناه آياتنا**﴾ قال ابن عباس: كان يعلم اسم الله الأكبر وقال ابن زيد كان لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، وقال السدي: كان يعلم اسم الله الأعظم. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: أنه أوتي كتاباً وقيل آتاه الله حجة وأدلة وهي الآيات التي أوتيها ﴿**فانسلخ منها**﴾ يعني فخرج من الآيات التي كان الله آتاه إياها كما تنسلخ الحية من جلدها، وقال ابن عباس: نزع منه العلم ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ يعني لحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعاً لنفسه في معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهواه.

سقف البيت، فنزلا فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوعى؟، قال: أزكى؟ قال: أبي، قالت: فسألته عن ذلك فقال: خيرٌ أُريدَ بي، فصرف عنّي فغشي عليه، فلما أفاق قال شعراً:

كـل عـيش وإن تـطاول دهـراً صـائـرٌ مـرةً إلـى أن يـزولا
ليتني كنتُ قبلَ مـا قـدْ بـدَا لي في قـلال الجبـالِ أرعى الـوعُـولا
إنّ يـومَ الحسـابِ يـومٌ عـظيـمٌ شـابَ فيه الصغيـرُ يومـاً ثقيـلا

ثم قال لها رسول الله ﷺ: «أنشديني من شعر أخيك»، فأنشدته بعض قصائده، فقال لها رسول الله ﷺ: «آمنَ شِعْرُه وكفر قلبه»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتِنا فانسلخَ منها** ﴾ الآية. وفي رواية عن ابن عباس: أنها نزلت في البسوس، رجل من بني إسرائيل وكان قد أُعطي له ثلاث دعوات مُستجابات، وكان له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعلْ لي منها دعوة فقال: لك منها واحدة فما تريدين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا لها فجُعلت أجمل النساء في بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الزوج ودعا عليها فصارت كلبة نباحة، فذهب فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أُمُّنا كلبةً نباحة والناس يعيّروننا بها، ادعُ الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات كلها. والقولان الأولان أظهر. وقال الحسن وابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ لمَن عُرض عليه الهدى فأبى أن يقبله، فذلك قوله: ﴿ **واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا** ﴾. قال ابن عباس والسدي: اسم الله الأعظم. قال ابن

قوله تعالى: ﴿فكان من الغاوين﴾ يعني من الهالكين الضالين بما خالف ربه وأطاع هواه وشيطانه وقوله تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾

﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ يعني رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التي أوتيها. وقال ابن عباس: لرفعناه، وقال ابن عباس: لرفعناه بعمله بها، وقال مجاهد وعطاء: معناه لو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ يعني: ولكنه سكن إلى الدنيا ومال إليها ورضي بها وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام والأرض هنا عبارة عن الدنيا لأن الأرض عبارة عن المفاوز والقفار وفيها المدن والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الأرض ﴿واتبع هواه﴾ يعني أنه أعرض عن التمسك بما أتاه الله من الآيات واتبع الهوى فخسر دنياه واخرته ووقع في هاوية الردى والهلاك وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى وذلك لأن الله عز وجل خص هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه الأعظم وجعل دعاءه مستجاباً ثم إنه اتبع هواه وركن إلى الدنيا ورضي بها عوضاً عن الآخرة نزع منه ما كان أعطيه وانسلخ من الدين فخسر الدنيا والآخرة ومن الذي يسلم من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى إلا من عصمه الله بالورع وثبته بالعلم وبصُّره بعيوب نفسه. عن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والسرف لدينه» أخرجه الترمذي ثم ضرب الله عز وجل مثلاً لهذا الرجل الذي أتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال تعالى ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الإعياء والتعب وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن أتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب في أخس أحواله وهو اللهث لأن الكلب في حال لهثه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها في الآخرة لأن التمثيل به على أن يلهث على كل حال إن حملته عليه أو تركته كان لاهثاً وذلك عادة منه وطبيعة وهي مواظبته على اللهث دائماً فكذلك من أتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة، ثم إنه مال إليها وطلبها كانت

زيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلّا أعطاه. وقال ابن عباس في رواية أخرى: أُوتي كتاباً من كتب الله فانسلخ، أي: خرج منها كما تنسلخ، أي: خرج منها كما تنسلخ الحيّة من جلدها. ﴿ فأتْبعَه الشيطانُ ﴾، أي: لحقه وأدركه، ﴿ فكان منَ الغاوين ﴾.

﴿ ولو شِئْنَا لرفعناه بها ﴾، أي: رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لرفعناه بعلمه بها. وقال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات. ﴿ ولكنّه أخلد إلى الأرض ﴾، أي: سكن إلى الدنيا ومال إليها. قال الزجّاج: خلد وأخلد واحد. وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام، يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به، والأرض ههنا عبارة عن الدنيا لأن ما فيها من القِفار والرِّباع كلها أرض وسائر متاعها مستخرَج من الأرض. ﴿ واتّبعَ هَواهُ ﴾، انقاد لما دعاه إليه الهوى. قال ابن زيد: كان هواه مع القوم. قال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه وهذه أشدّ آية على العلماء، وذلك أن الله أخبر أنه آتاه آياته من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتّباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها، ومَن الذي يَسْلَمُ من هاتين الخلّتين إلّا مَن عصمه الله؟ أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن زكريا بن أبي زائدة عن محمد بن

حالته كحالة الكلب اللاهث وقيل: إن العالم إذا توصل بعلمه إلى طلب الدنيا فإنه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه في تقرير تلك العلوم وبيانها وذلك لأجل ما يحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة العطش إلى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذي أدلع لسانه من اللهث في غير حاجة ولا ضرورة. ومعنى أن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث أي إن شددت عليه وأهجته لهث وإن تركته على حاله لهث لأن اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضاً لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب ﴿**ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ يعني أن المثل الذي ضربناه للذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث أنهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا وإن تركوا لم يهتدوا أيضاً بل هم ضلّال في كل حال ثم قال سبحانه وتعالى ﴿**فاقصص القصص**﴾ وهذا خطاب للنبي ﷺ يعني فاقصص القصص يا محمد على قومك أي أخبار من كفر بآيات الله ﴿**لعلهم يتفكرون**﴾ يعني فيتعظون، وقيل: هذا المثل لكفار مكة وذلك أنهم كانوا يتمنون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله عز وجل فلما جاءهم محمد ﷺ يدعوهم إلى الله وإلى طاعته وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم يقبلوا منه ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿**ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾ يعني بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴿**وأنفسهم كانوا يظلمون**﴾ يعني بتكذيبهم بآياتنا.

قوله عز وجل: ﴿**من يهد الله فهو المهتدي**﴾ يعني من يرشده الله إلى دينه فهو المهتدي، وقيل: معناه من يتول الله هدايته وإرشاده فهو المهتدي ﴿**ومن يضلل**﴾ يعني ومن يتول الضلالة ﴿**فأولئك هم الخاسرون**﴾ يعني في الآخرة

عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة عن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذِئْبَانِ جائعان أُرسلا في غَنَم بأفسدَ لها من حرص المرءِ على المال والشرف لدينه». قوله تعالى: ﴿ **فَمَثَلُه كمثلِ الكلبِ إنْ تحملْ عليه يلهثْ أو تتركْهُ يلهثْ** ﴾، يقال: لهث الكلب يلهث لهثاً إذا أدلع لسانه. قال مجاهد: هو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به. والمعنى: إن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر وإن تركته لم يهتدِ فالحالتان عنده سواء كحالتي الكلب إن طرد وحُمل عليه بالطّرد كان لاهثاً وإن تُرك ورَبَضَ كان لاهثاً. قال: كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلّا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وفي حال الراحة وفي حال العطش، فضربه الله مثلاً لِمَن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، نظيره قوله تعالى: ﴿ وإنْ تدعُوهُمْ إلى الهُدَى لا يتَّبِعُوكم سواءٌ عليكم أدعوتُموهم أمْ أنتم صَامِتُون ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، ثم عمّ بهذا التمثيل جميع مَن يكذب بآيات الله فقال: ﴿ **ذلك مَثَلُ القومِ الذين كذّبوا بآياتنا فاقْصُصِ القَصَصَ لعلّهم يتفكرُون** ﴾، وقيل: هذا مثل لكفّار مكة وذلك أنهم كانوا يتمنّون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله، فلما جاءهم نبيّ لا يشكّون في صدقه كذّبوه فلم يهتدوا تُركوا أو دُعوا.

﴿ **ساءَ مثلاً القومُ الذينَ كذّبوا بآياتِنا** ﴾، أي: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وتقديره: ساء مثلاً مثلُ القوم، فحذف مثل وأُقيم القوم مقامه فرُفع، ﴿ **وأنفسَهم كانوا يظلِمُون** ﴾.

وفي الآية دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الهادي المضل وقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾

﴿ولقد ذرأنا﴾ يعني خلقنا ﴿لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ومن خلقه الله للنار فلا حيلة له في الخلاص منها. واستدل البغوي على صحة هذا التأويل بما رواه عن عائشة قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال «أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم» أخرجه مسلم. قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم: أجمع من يعتد به من علماء المسلمين أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لأنه ليس مكلفاً وتوقف فيهم بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا.

وأجاب العلماء عنه بأنه لعله ﷺ نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبي وقاص لفظة «إني لأراه مؤمناً فقال: أو مسلماً» الحديث، ويحتمل أن ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم ذلك قال به، وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاث مذاهب قال الأكثرون: هم في النار تبعاً لآبائهم وتوقف طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ويستدل له بأشياء منها خبر إبراهيم الخليل ﷺ حين رآه النبي ﷺ في الجنة وحوله أولاد الناس فقالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين. رواه البخاري في صحيحه ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه والله أعلم.

وفي الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة في أن الله خالق أعمال العباد جميعها خيرها وشرها وأن الله سبحانه وتعالى بيّن بصريح اللفظ أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار ولا تزيد على بيان الله عز وجل لأن العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب دخول النار به علم أنه له من يضطره إلى ذلك العمل الواجب إلى دخول النار وهو الله عز وجل، وقيل: اللام في جهنم للعاقبة أي عاقبتهم جهنم، ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ يعني: لا يفهمون بها ولا يعقلون بها وأصل الفقه في اللغة الفهم والعلم بالشيء ثم صار علماً على اسم العلم في الدين لشرفه على غيره من العلوم يقال: فقه الرجل يفقه فهو فقيه إذا فهم ومعنى الآية لهم قلوب لا يتفكرون

﴿ مَن يهدِ اللَّهُ فهو المهتدِي ومَن يضللْ فأولئكَ هُمُ الخاسرون ﴾.

﴿ ولقدْ ذرأنا لجهنَّم كثيراً مِّنَ الجنِّ والإنس ﴾، أخبر الله تعالى أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار وهم الذين حقّت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، ومَن خلقه الله لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها. أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أحمد بن محمد بن أبي حمزة البلخي حدّثنا موسى بن محمد بن الحكم الشطوي حدّثنا حفص بن غياث عن طلحة بن يحيىٰ عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: أدرك النبي ﷺ جنازة صبي من صبيان الأنصار، فقالت عائشة: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك؟ إنّ الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب

بها في آيات الله ولا يتدبرونها ولا يعلمون بها الخير والهدى لإعراضهم عن الحق وتركهم قبوله ﴿**ولهم أعين لا يبصرون بها**﴾ يعني لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون بها في آيات الله وأدلة توحيده ﴿**ولهم آذان لا يسمعون بها**﴾ يعني لا يسمعون آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها، قال أهل المعاني: إن الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا يشك فيه.

ولما وصفهم الله عز وجل بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم بذلك أن المراد بذلك يرجع إلى مصالح الدين وما فيه نفعهم في الآخرة وحاصل هذا الكلام أنهم مع وجود هذه الحواس لا ينتفعون بها فيما ينفعهم في أمور الدين والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر:

وعــــوراء الكـــلام صمـــت عنهـــا وإنـــــي إن أشـــاء بهـــا سميـــع

فإنه أثبت له صمماً مع وجود السمع. قال مجاهد: لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى ولهم آذان لا يسمعون بها الحق.

ثم ضرب لهم مثلاً فقال سبحانه وتعالى: ﴿**أولئك كالأنعام**﴾ يعني أن الذين ذرأهم لجهنم وهم الذين حقَّت عليهم الكلمة الأزلية كالأنعام وهي البهائم التي لا تفهم ولا تعقل وذلك لأن الإنسان وسائر الحيوانات مشتركون في هذه الحواس الثلاثة التي هي القلب والبصر والسمع.

وإنما فضّل الإنسان على سائر الحيوانات بالعقل والإدراك والفهم المؤدي إلى معرفة الحق من الباطل والخير والشر فإذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه فلا فرق بينه وبين الأنعام التي لا تدرك شيئاً ثم قال تعالى: ﴿**بل هم أضل**﴾ يعني: بل إن الكفار أضلّ من الأنعام لأن الأنعام تعرف ما يضرها وما ينفعها والكافر لا يعرف ذلك فصار أضل من الأنعام ولأن الأنعام لم تعطَ القوة الفعلية والإنسان قد أعطيها فإذا لم يستعملها فيما ينفعه صار أحسن حالاً من الأنعام.

وقيل: إن الأنعام مطيعة لله عز وجل والكافر غير مطيع لله عز وجل، فصارت الأنعام أفضل منه ثم قال تعالى: ﴿**أولئك هم الغافلون**﴾ يعني عن ضرب هذه الأمثال لهم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى**﴾ قال مقاتل: إن رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة قال ابن الجوزي: هو أبو جهل إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحد فما بال هذا يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية ﴿**ولله الأسماء الحسنى**﴾ والحسنى تأنيث الأحسن، ومعنى الآية أن أسماء الله سبحانه وتعالى المقدسة كلها حسنى وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن والمعنى أن الأسماء الحسنى ليس إلا لله لأن هذا اللفظ يفيد الحصر. وقيل إن الأسماء ألفاظ دالة على معان فهي إنما تحسن بمعانيها ولا معنى للحسن في حق الله تبارك وتعالى إلا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال وهي محصورة في نوعين:

أحدهما: عدم افتقاره إلى غيره.

آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم». وقيل: اللّام في قوله: ﴿ **لجهنم** ﴾ لام العاقبة، أي: ذرأناهم، وعاقبة أمرهم جهنم، كقوله تعالى: ﴿ فالتقطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوّاً وحزناً ﴾ [القصص: ٨]، ثم وصفهم فقال: ﴿ **لهم قلوبٌ لا يفقهون بها** ﴾، أي: يعلمون بها الخير والهدى، ﴿ **ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها** ﴾، طريق الحق وسبيل الرشاد، ﴿ **ولهم آذانٌ لا يسمعون بها** ﴾ مواعظ القرآن فيتفكّرون فيها ويعتبرون بها، ثم ضرب

الثاني: افتقار غيره إليه وإنه هو المسمى بالأسماء الحسنى (ق). عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر» وفي رواية «من أحصاها» وفي رواية أخرى «لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر» وفي رواية «من أحصاها» وفي رواية أخرى «لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر» قال البخاري: أحصاها حفظها. وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدىء المعيد المحيي المميت الحي القيّوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المعدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور» قال الترمذي: حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث قال وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء التي في هذا الحديث. قال ابن الأثير: وفي رواية ذكرها رزين أن رسول الله ﷺ تلا قوله ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون فقال: «إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً» الحديث.

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وإنما المقصود من الحديث أن هذه التسعة والتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ولهذا جاء في الحديث الآخر «أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم أن لله ألف اسم. قال ابن العربي: وهذا قليل. وقوله ﷺ: من أحصاها دخل الجنة تقدم فيه قول البخاري أن معناه حفظها وهو قول أكثر المحققين ويعضده الرواية الأخرى من حفظها دخل الجنة. وقيل: المراد من الإحصاء العدد أي عدها في الدعاء بها. وقيل معناه من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة وقيل معنى أحصاها أحضر بباله عند ذكرها معناه وتفكر في مدلولها معتبراً متدبراً ذاكراً راغباً راهباً معظماً لها ولمسماها ومقدساً لذات الله سبحانه وتعالى وأن يخطر بباله عند ذكر كل اسم الوصف الدال عليه، وقوله والله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه في وصف الله تعالى أنه الواحد الذي لا شريك له ولا نظير فيه تفضيل الوتر في الأعمال لأن أكثر الطاعات وتر وفيه دليل على أن أشهر أسمائه سبحانه وتعالى الله لإضافة الأسماء إليه فيقال الرؤوف والكريم واللطيف من أسماء الله ولا يقال من أسماء الله الرؤوف والكريم

لهم مثلاً في الجهل والإقصار على الأكل والشرب، فقال: ﴿ أولئك كالأنعام بلْ همْ أضلُّ ﴾، أي: كالأنعام في أنَّ همّتهم في الأكل والشرب والتمتّع بالشهوات، بل هم أضلّ لأن الأنعام تُميِّز بين المضارّ والمنافع، فلا تُقدِم على المضارّ هؤلاء يُقدِمون على النار معاندةً مع العلم بالهلاك، ﴿ أولئك هم الغافلُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ولِلَّهِ الأسماءُ الحُسنَى فادعوه بها ﴾، قال مقاتل: وذلك أن الرجل دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة: إن محمداً ﷺ وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربّاً واحداً فما بال هذا يدعو اثنين،

واللطيف الله وقد قيل إن لفظة الله هو الاسم الأعظم. قال أبو القاسم القشيري: فيه دليل على أن الاسم هو المسمى إذ لو كان غيره لكانت الأسماء لغيره وقد قال «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» وقال الإمام فخر الدين الرازي: دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لا تدل على أن أسماء الله كثيرة لأن لفظ الأسماء الجمع وهو يفيد الثلاثة فما فوقها فثبت أن أسماء الله كثيرة ولا شك أن الله واحد فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى وأيضاً قوله سبحانه وتعالى: ولله الأسماء يقتضي إضافة الأسماء إلى الله وإضافة الشيء إلى نفسه محال. وقال غيره: الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشيء المسمى به فهو غيره. وقال أهل اللغة: إنما جعل الاسم تنويهاً على المعنى لأن المعنى تحت الاسم والتسمية غير الاسم لأن التسمية عبارة عن وضع اللفظ المعين لتعريف ذات الشيء والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر. قال العلماء: وكما يجب تنزيه الله عن جميع النقائص فكذلك يجب تنزيه أسمائه أيضاً وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فادعوه بها﴾ يعني ادعوا الله بأسمائه التي سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ففيه دليل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده أنه يجوز أن يقال يا جواد ولا يجوز أن يقال يا سخي ويجوز أن يقال يا عالم ولا يجوز أن يقال يا عاقل ويجوز أن يقال يا حكيم ولا يجوز أن يقال يا طبيب وللدعاء شرائط منها أن يعرف الداعي معاني الأسماء التي يدعو بها ويستحضر في قلبه عظمة المدعوّ سبحانه وتعالى ويخلص النية في دعائه مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله ويعزم المسألة مع رجاء الإجابة ويعترف الله سبحانه وتعالى بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية فإذا فعل العبد ذلك عظم موقع الدعاء وكان له تأثير عظيم ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ معنى الإلحاد في اللغة الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة. وقال ابن السكيت: الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه يقال ألحد في الدين إلحاداً إذا عدل عنه ومال إلى غيره. قال المحققون: الإلحاد يقع في أسماء الله تعالى على وجوه:

أحدها: إطلاق أسماء الله عز وجل على غيره وذلك أن المشركين سموا أصنامهم بالآلهة واشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فسموا اللات والعزى ومناة واشتقاق اللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد.

الوجه الثاني: وهو قول أهل المعاني أن الإلحاد في أسماء الله هو تسميته بما لم يسمّ به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لأن أسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية كما تقدم فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل ندعو الله بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه التعظيم.

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادْعُوه بها** ﴾. والحسنى تأنيث الأحسن كالكبرى والصغرى، فادعوه بها. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي حدّثنا معمر عن همّام بن منبّه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلّا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة، إنّه وِترٌ يحبّ الوِتر**». ﴿ **وذَرُوا الذينَ يُلحدون في أسمائه** ﴾، قرأ حمزة «**يلحدون**» بفتح الياء والحاء حيث كان، وافقه الكسائي في النحل والباقون بضم الياء وكسر الحاء، ومعنى الإلحاد هو الميل عن القصد، يقال: ألحَد يُلحد إلحاداً، ولحد يلحد لحوداً إذا مال. قال يعقوب بن السكّيت: الإلحاد هو العدول عن الحق وإدخال ما ليس منه فيه، يقال: ألحد في الدين ولحد به. قرأ حمزة: ﴿ **وذَرُوا الذين يُلحدون في أسمائه** ﴾: هم المشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عمّا هي عليه، فسمّوا بها أوثانهم فزادُوا ونقصوا فاشتقّوا اللّات من الله والعزّى من العزيز ومناة من المنّان، هذا قول ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة. ورُوِيَ عن ابن عباس: يلحدون في أسمائه أي يكذبون. وقال أهل المعاني:

الوجه الثالث: مراعاة حسن الأدب في الدعاء فلا يجوز أن يقال يا ضارّ يا مانع يا خالق القردة على انفراد بل يقال يا ضار يا نافع يا خالق الخلق.

الوجه الرابع: أن لا يسمي الله العبد باسم لا يعرف معناه فإنه ربما سماه باسم لا يليق إطلاقه على جلال الله سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسمى به لما فيه من الغرابة.

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾** يعني في الآخرة ففيه وعيد وتهديد لمن ألحد في أسماء الله عز وجل.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

قوله عز وجل: **﴿ومما خلقنا أمة﴾** يعني جماعة وعصابة **﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾** قال ابن عباس: يريد أمة محمد ﷺ وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان. قال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» **﴿ق﴾** عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» وفي الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي إليه **﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾** يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار. وقيل: المراد بهم أهل مكة والأول أولى لأن صيغة العموم تتناول الكل إلا ما دل الدليل على خروجه منه **﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** قال الأزهري: سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون وذلك أن الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون وقيل معناه سنقربهم إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لأنهم كانوا إذا أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا فيزدادون تمادياً في الغيّ والضلال ويندرجون في الذنوب والمعاصي فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه. وقال الضحاك: معناه

الإلحاد في أسماء الله تسميته بما لم يتسمّ به ولم ينطق به كتاب الله ولا سُنّة رسول الله ﷺ، وجملته أن أسماء الله تعالى على التوقيف فإنه يُسمى جواد ولا يسمى سخيّاً، وإن كان في معنى الجواد، ويسمى رحيماً ولا يسمى رفيقاً، ويسمى عالماً ولا يسمى عاقلاً. وقال تعالى: ﴿ يُخادعون الله وهو خَادِعُهم ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال عزّ منْ قائل: ﴿ ومكرُوا ومكرَ الله ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ولا يقال في الدعاء يا مخادع يا مكّار، بل يدعى بأسمائه التي ورد بها التوقيف على وجه التعظيم، فيقال: يا الله يا رحمن يا رحيم يا عزيز يا كريم ونحو ذلك. ﴿ سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون ﴾ في الآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿ وممَّنْ خلقنا أمةٌ ﴾، أي: عصابة، ﴿ يهدون بالحقِّ وبهِ يَعْدِلُون ﴾، قال عطاء عن ابن عباس: يريد أُمة محمد ﷺ وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان. وقال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «هذه لكم وقد أُعطي القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أُمة يهدون بالحق وبه يعدلون».

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل حدّثنا الحميدي حدّثني عمير بن هانىء أنه سمع معاوية رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزال من أُمتي أُمة قائمة بأمر الله لا يضرّهم مَن خذلهم ولا مَن خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك». وقال الكلبي: هم من جميع الخلق.

كلما جددوا معصية جددنا نعمة. وقال الكلبي: نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها، وقال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم ثم نسلبهم الشكر.

روي أن عمر بن الخطاب لما حمل إليه كنوز كسرى قال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. قال أهل المعاني: الاستدراج أن يندرج الشيء إلى الشيء في خفية قليلاً ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه في المشي ومنه درج الكتاب إذا أطواه شيئاً بعد شيء ﴿وأملي لهم﴾ يعني وأمهلهم وأطيل مدة أعمارهم.

والإملاء في اللغة الإمهال وإطالة المدة والمعنى إني أطيل مدة أعمارهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة ﴿إن كيدي متين﴾ يعني إن أخذي شديد والمتين من كل شيء هو القوي الشديد. وقال ابن عباس: معناه إن مكري شديد. قال المفسرون: نزلت هذه الآية في المستهزئين من قريش وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمهلهم ثم قتلهم في ليلة واحدة وفي هذه الآية دليل على مسألة القضاء والقدر وأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من جنة﴾ يعني من جنون قال قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا ليلاً فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً «يا بني فلان يا بني فلان إني لكم نذير مبين» وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوّت إلى الصباح فأنزل الله عز وجل: ﴿أو لم يتفكروا﴾ والتفكر التأمل وإعمال الخاطر في عاقبة الأمر والمعنى أو لم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم يعني محمداً ﷺ من جنة والجنة. حالة من الجنون وإدخال لفظة من في قوله من جنة يوجب أن لا يكون به نوع من أنواع الجنون وإنما

﴿ والذين كذَّبوا بآياتنا سَنَسْتَدْرِجهُمْ مِّنْ حيثُ لا يعلمون ﴾، قال عطاء: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون. وقيل: نأتيهم من مأمنهم، كما قال: ﴿ فأتاهم الله من حيثُ لم يحتسبوا ﴾ [الحشر: ٢]، قال الكلبي: نُزيّن لهم أعمالهم فنهلكهم. وقال الضحاك: كلما جدّدوا معصية جدّدنا لهم نعمة. قال سفيان الثّوري: نسبغ عليهم النعمة ونُنسيهم الشكر. قال أهل المعاني: الاستدراج أن يتدرّج إلى الشيء في خفية قليلاً فلا يباغت ولا يجاهر، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه في المشي، ومنه درج الكتاب إذا طواه شيئاً بعد شيء.

﴿ وأملي لهم ﴾، أي: أمهلهم وأُطيل لهم مدّة عمرهم ليتمادوا في المعاصي، ﴿ إنّ كيدي متين ﴾، أي: إن أخذي قوي شديد، قال ابن عباس: إن مكري شديد. قيل: نزلت في المستهزئين فقتلهم الله في ليلة واحدة.

قوله تعالى: ﴿ أوَ لمْ يتفكّرُوا ما بصاحبهم مِّن جِنّة ﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قام على الصفا ليلاً فجعل يدعو قريشاً فَخْذاً فَخْذاً يا بني فلان يا بني فلان يحذّرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن

نسبوه إلى الجنون وهو بريء منه لأنهم رأوا أنه ﷺ خالفهم في الأقوال والأفعال لأنه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها مشتغلاً بالدعاء إلى الله عز وجل وإنذارهم بأسه ونقمته ليلاً ونهاراً من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه إلى الجنون فبرأه الله سبحانه وتعالى من الجنون فقال تعالى: ﴿إن هو﴾ يعني ما هو ﴿إلا نذير مبين﴾ ثم حثّهم على النظر المؤدي إلى العلم بالوحدانية فقال سبحانه وتعالى: ﴿أولم ينظروا﴾ يعني نظر اعتبار واستدلال ﴿في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ والمقصود التنبيه على أن الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والأرض بل كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى وبرأه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا إلى النار وإذا كان الأمر كذلك وجب على العاقل المبادرة إلى التفكر والاعتبار والنظر المؤدي إلى الفوز بالنعيم المقيم ﴿فبأي حديث بعده﴾ يعني بعد القرآن ﴿يؤمنون﴾ يعني يصدقون. والمعنى فبأي كتاب بعد الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ يصدقون وليس بعد محمد نبي ولا بعد كتابه كتاب لأنه خاتم الأنبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحي بعد محمد ﷺ ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال سبحانه وتعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾ يعني أن إعراض هؤلاء عن الإيمان لإضلال الله إياهم فلو هداهم لآمنوا ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ يعني ويتركهم في ضلالتهم وتماديهم في الكفر يترددون متحيرين لا يهتدون سبيلاً.

قوله عز وجل: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال ابن عباس: قال جبل بن أبي قبشير وشمول بن زيد، وهما من اليهود، لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فإنا نعلم متى الساعة فأنزل الله عز وجل: يسألونك عن الساعة يعني عن خبر القيامة. سميت ساعة لأنها تقوم في ساعة غفلة وبغتة أو لأن حساب الخلائق ينقضي فيها في ساعة واحدة أيان سؤال استفهام عن الوقت الذي تقوم فيه الساعة ومعناه متى مرساها. قال ابن عباس: يعني منتهاها أي متى وقوعها. قالوا والساعة الوقت الذي تموت فيه الخلائق وأصل الإرساء الثبات يقول رسا يرسو إذا ثبت ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿إنما علمها عند ربي﴾ أي لا يعلم الوقت الذي تقوم فيه إلا الله استأثر الله بعلمها فلم

صاحبكم هذا لمجنون بات يُصوّت إلى الصباح، فأنزل الله تعالى: ﴿ أوَ لَمْ يتفكّروا ما بصاحبهم ﴾، محمد ﷺ: ﴿ مِنْ جِنّة ﴾ جنون. ﴿ إنْ هو ﴾، ما هو، ﴿ إلاّ نذيرٌ مُبين ﴾، ثم حثّهم على النظر المؤدّي إلى العلم فقال:

﴿ أوَ لَمْ ينظرُوا في ملكوتِ السمٰوات والأرض وما خلَقَ اللَّهُ ﴾، فيهما، ﴿ مِن شيء ﴾، أي: وينظروا إلى ما خلق الله فيهما من شيء ليستدلّوا بها على وحدانيته. ﴿ وأنْ عسَى أن يكونَ قد اقترَبَ أجلُهم ﴾، أي: لعلّ أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتوا قبل أن يؤمنوا ويصيروا إلى العذاب، ﴿ فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾، أي: بعد القرآن يؤمنون يقول: بأيّ كتاب غير ما جاء به محمد ﷺ يصدقون وليس بعده نبي ولا كتاب، ثم ذكر علّة إعراضهم عن الإيمان فقال:

﴿ مَن يُضلِلِ اللَّهُ فلا هَادِيَ له ويذَرُهم ﴾، قرأ أهل البصرة وعاصم بالياء ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء، لأن ذكر الله قد مرّ قبله، وجزم الراء مردود على ﴿ يضلل ﴾ وقرأ الآخرون بالنون ورفع الراء على أنه كلام مستأنف. ﴿ في طُغيانِهم يَعْمَهُون ﴾، يتردّدون متحيّرين.

يطلع عليه أحد ومر حديث الإيمان والإسلام والإحسان وسؤال جبريل للنبي ﷺ فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

قال المحققون: وسبب إخفاء علم الساعة ووقت قيامها عن العباد ليكونوا على خوف وحذر منها لأنهم إذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف وإشفاق منها فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة والتوبة وأزجر لهم عن المعصية **﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾** قال مجاهد لا يأتي بها إلا هو، وقال السدي: لا يرسلها لوقتها إلا هو والتجلية إظهار الشيء بعد خفائه، والمعنى: لا يظهرها لوقتها المعين إلا الله ولا يقدر على ذلك غيره **﴿ثقلت في السموات والأرض﴾** يعني ثقل أمرها وخفي علمها على أهل السموات والأرض فكل شيء خفي فهو ثقيل شديد. وقال الحسن: إذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض وإنما ثقلت عليهم لأن فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب **﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾** يعني فجأة على حين غفلة من الخلق (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» اللَّقحة بفتح اللام وكسرها: الناقة القريبة العهد بالنتاج.

قوله: يليط حوضه ويروى يلوط حوضه يعني يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه يليطه أو يلوطه إذا طينه وأصله من اللصوق. الأُكلة: بضم الهمزة اللقمة.

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾** يعني يسألونك قومك عن الساعة كأنك حفي بهم بمعنى بارّ بهم شفيق عليهم فعلى هذا القول فيه تقديم وتأخير تقديره يسألونك عنها كأنك حفي بهم. قال ابن عباس: يقول كأن بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم. قال ابن عباس لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً ﷺ حفي بهم فأوحى الله عز وجل إليه إنما علمها عنده استأثر بعلمها فلم يطلع عليها ملكاً ولا رسولاً وقيل معناه يسألونك عنها كأنك حفي بها أي عالم بها من قولهم أحفيت في المسألة إذا بالغت في السؤال عنها حتى علمتها **﴿قل﴾** يعني يا محمد **﴿إنما علمها عند الله﴾** يعني استأثر الله بعلمها فلا يعلم متى الساعة إلا الله عز وجل.

فإن قلت: قوله سبحانه وتعالى يسألونك عن الساعة أيان مرساها وقوله سبحانه وتعالى ثانياً يسألونك كأنك حفي عنها فيه تكرار؟

قلت: ليس فيه تكرار لأن السؤال الأول سؤال عن وقت قيام الساعة والسؤال الثاني سؤال عن أحوالها من ثقلها وشدائدها فلم يلزم التكرار.

فإن قلت: عبر عن الجواب في السؤال الأول بقوله تعالى: علمها عند ربي وعن الجواب في السؤال الثاني بقوله تعالى: علمها عند الله فهل من فرق بين الصورتين في الجوابين.

قوله تعالى: ﴿ يسـألونَكَ عن الساعةِ أيّانَ مُرْسَاها ﴾، قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة؟ فأنزل الله تعالى: **﴿ يسـئلونك عن إلساعة ﴾**، يعني يوم القيامة، **﴿ أيّان مُرْسَاهَا ﴾**، قال ابن عباس رضي الله عنهما: منتهاها. وقال قتادة: قيامها وأصله الثبات، أي: مثبتها **﴿ قلْ ﴾** يا محمد **﴿ إنما عملها عندَ ربّي ﴾**، استأثر بعلمها ولا يعلمها إلاّ هو، **﴿ لا يُجلّيها ﴾**، لا يكشفها ولا يظهرها. وقال مجاهد: لا يأتي بها، **﴿ لوقتها إلاّ هو ثقلتْ في السـمٰواتِ والأرض ﴾**، يعني: ثقل علمها وخفي أمرها على أهل السمٰوات والأرضِ، وكلّ خفي ثقيل. قال الحسن: يقول إذا جاء ثقلت وعظمت على أهل السـمٰوات والأرض، **﴿ لا تأتيكم**

قلت: فيه فرق لطيف وهو أنه لما كان السؤال الأول واقعاً عن قيام وقت الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربي.

ولما كان السؤال الثاني واقعاً عن أحوالها وشدائدها وثقلها عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله لأنه أعظم الأسماء ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني لا يعلمون أن علمها عند الله وأنه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه.

وقيل: ولكن أكثر الناس لا يعلمون السبب الذي من أجله أخفى علم وقت قيامها المغيب عن الخلق قوله سبحانه وتعالى:

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

﴿**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً**﴾ قال ابن عباس: إن أهل مكة قالوا يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري به فتربح فيه عند الغلاء وبالأرض التي يريد أن تجدب فترحل عنها إلى ما قد أخصبت فأنزل الله عز وجل: ﴿**قل لا أملك**﴾ أي قل يا محمد لا أملك ولا أقدر لنفسي نفعاً أي اجتلاب نفع بأن أربح فيما أشتريه ولا ضراً يعني ولا أقدر أن أدفع عن نفسي ضراً نزل بها بأن أرتحل إلى الأرض الخصبة وأترك الجدبة ﴿**إلا ما شاء الله**﴾ يعني أن أملكه وأقدر عليه ﴿**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**﴾ يعني ولو كنت أعلم وقت الخصب والجدب لاستكثرتُ من المال ﴿**وما مسني السوء**﴾ يعني الضر والفقر والجوع. وقال ابن جريج: معناه لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً من الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب يريدون وقت الموت لاستكثرت من الخير يعني من العمل الصالح. وقيل إن أهل مكة لما سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة أنزل الله تعالى الآية الأولى وهذه الآية ومعناه: أنا لا أدعي علم الغيب حتى أخبركم عن وقت قيام الساعة وذلك لما طالبوه بالإخبار عن الغيوب فذكر أن قدرته قاصرة عن علم الغيب.

﴿**إلّا بغتةً**﴾، فجأة على غفلة. أخبرنا عبد الواحد المليحي حدّثنا أحمد بن عبد الله النعيمي حدّثنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا أبو اليمان حدّثنا شعيب حدّثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته لا يطعمه، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فِيه فلا يطعمها» ﴿**يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها**﴾، أي: عالم بها من قولهم أحفيت في المسألة، أي: بالغت في سؤال عنها حتى علمتها، ﴿**قلْ إنّما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾، أن علمها عند الله حتى سألوا محمداً ﷺ عنها.

﴿**قلْ لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلّا ما شاء الله**﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل مكة قالوا يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه وتربح عند الغلاء وبالأرض التي يريد أن تجدب فترتحل منها إلى ما قد أخصبت، فأنزل الله تعالى: ﴿**قلْ لا أملك لنفسي نفعاً**﴾ أي: لا أقدّر لنفسي نفعاً، أي:

فإن قلت: قد أخبر ﷺ عن المغيبات وقد جاءت أحاديث في الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته ﷺ فكيف الجمع بينه وبين قوله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير؟

قلت: يحتمل أن يكون قاله ﷺ على سبيل التواضع والأدب والمعنى لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله عليه ويقدره لي. ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله عز وجل على الغيب فلما أطلعه الله عز وجل أخبر به كما قال تعالى: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك أظهره الله سبحانه وتعالى عن أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته ﷺ وقوله وما مسنى السوء يعني الجنون وذلك أنهم نسبوه إلى الجنون وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير واحترزت عن الشر حتى أصير بحيث لا يمسني السوء وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لأعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا وما مسني السوء يعني قولكم لو كنت نبياً لعلمت متى تقوم الساعة ﴿**إن أنا إلا نذير**﴾ يعني ما أنا إلا رسول أرسلني الله إليكم أنذركم وأخوفكم عقابه إن لم تؤمنوا ﴿**وبشير**﴾ يعني وأبشر بثوابه ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ يعني يصدقون.

قوله عز وجل: ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿**وجعل منها زوجها**﴾ يعني وخلق منها زوجها حواء قد تقدم كيفية خلق حواء من ضلع آدم في أول سورة النساء ﴿**ليسكن إليها**﴾ يعني ليأنس بها ويأوي ﴿**فلما تغشاها**﴾ يعني واقعها وجامعها كنى به عن الجماع أحسن كناية لأن الغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها إذا علاها وتجللها ﴿**حملت حملاً خفيفاً**﴾ يعني النطفة والمني لأن أول ما تحمل النطفة وهي خفيفة عليها ﴿**فمرت به**﴾ يعني أنها استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها ﴿**فلما أثقلت**﴾ أي صارت إلى حال الثقل وكبر ذلك الحمل ودنت مدة ولادتها ﴿**دعوا الله ربهما**﴾ يعني أن آدم وحواء دعوا الله ربهما ﴿**لئن آتيتنا صالحاً**﴾ يعني لئن أعطيتنا بشراً سوياً مثلنا ﴿**لنكونن من الشاكرين**﴾ يعني لك على إنعامك علينا. قال المفسرون: لما هبط آدم

اجتلاب نفع بأن أربح ولا ضرّاً، أي دفع ضَرّ بأن أرتحل من أرض يريد أن تجدب إلّا ما شاء الله أن أملكه، ﴿ **ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء** ﴾، أي: لو كنت أعلم الخصب والجدب لاستكثرت من المال أي لسنة القحط وما مسّني السوء، أي: الضرّ والفقر والجوع. وقال ابن جريج: قلْ لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً يعني الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب، أي متى أموت لاستكثرت من الخير يعني من العمل الصالح وما مسّني السوء. قال ابن زيد: اجتنبت ما يكون من الشر واتقيته. وقيل: معناه ولو كنت أعلم الغيب أي متى الساعة لأخبرتكم حتى تؤمنوا وما مسّني السوء بتكذيبكم. وقيل: ما مسّني السوء ابتداء يريد ما مسّني الجنون لأنهم كانوا ينبونه إلى الجنون. ﴿ **إنْ أنا إلاّ نذيرٌ** ﴾، لمَن لا يصدّق بما جئت به، ﴿ **وبشيرٌ** ﴾، بالجنة، ﴿ **لقوم يُؤمنون** ﴾، يصدقون.

قوله تعالى: ﴿ **هو الذي خلقكم مِّن نفسٍ واحدة** ﴾، يعني من آدم، ﴿ **وجعلَ** ﴾، وخلق ﴿ **منها زوجها** ﴾ يعني: حوّاء، ﴿ **ليسكن إليها** ﴾، ليأنس بها ويأوي إليها، ﴿ **فلما تغشّاها** ﴾، أي: واقعها وجامعها ﴿ **حملتْ حملاً خفيفاً** ﴾، وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفاً عليها، ﴿ **فمرّت به** ﴾، أي: استمرت به وقامت وقعدت به ولم يثقلها، ﴿ **فلما أثْقلَتْ** ﴾، أي: كبر الولد في بطنها وصارت ذات ثقل بحملها ودنت ولادتها، ﴿ **دَّعَوَا الله ربَّهما** ﴾، يعني آدم وحوّاء، ﴿ **لئن آتيتنا** ﴾ يا ربّنا ﴿ **صالحاً** ﴾، أي: بشراً سويّاً مثلنا، ﴿ **لنكوننّ مِنَ الشاكرين** ﴾، قال المفسّرون: فلما حملت حوّاء أتاها إبليس في صورة رجل، فقال لها: ما الذي في بطنك؟

وحواء إلى الأرض ألقيت الشهوة في نفس آدم فأصاب حواء فحملت من ساعتها فلما ثقل الحمل وكبر الولد أتاها إبليس فقال لها: ما الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري قال: إني أخاف أن يكون بهيمة أو كلباً أو خنزيراً أترين في الأرض إلا بهيمة أو نحوها قالت: إني أخاف بعض ذلك قال وما يدريك من أين خرج أمن دبرك أم من فيك أو يشق بطنك فيقتلك فخافت حواء من ذلك وذكرته لآدم فلم يزالا في غم من ذلك ثم عاد إليها إبليس فقال لها إني من الله بمنزلة فإن دعوت الله أن يجعله خلقاً سوياً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحارث وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث فذكرت ذلك حواء لآدم عليه السلام فقال لعله صاحبنا الذي قد علمت فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ولدت سمياه عبد الحارث. وقال ابن عباس: كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال: إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فولدت فسمياه عبد الحارث فعاش. عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ «لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة وقال وقد رواه بعضهم ولم يرفعه وقوله وذلك من وحي الشيطان يعني من وسوسته وحديثه كما جاء أنه خدعهما مرتين مرة في الجنة ومرة في الأرض. قال ابن عباس: لما ولد له أول ولد آتاه إبليس فقال إني أنصح لك في شأن ولدك هذا تسميه عبد الحارث وكان اسمه في السماء الحارث فقال آدم: أعوذ بالله من طاعتك إني أطعتك في أكل الشجرة فأخرجتني من الجنة فلن أطيعك فمات ولده ثم ولد له بعد ذلك ولد آخر فقال أطعني وإلا مات كما مات الأول فعصاه فمات ولده، فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحارث فلم يزل به حتى سماه عبد الحارث فذلك قوله تعالى: ﴿**فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما**﴾ قال ابن عباس: أشركاه في طاعته في غير عبادة ولم يشركا بالله ولكن أطاعاه. وقال قتادة: أشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة. وقال عكرمة ما أشرك آدم ولا حواء وكان لا يعيش لهما ولد فأتاهما الشيطان فقال إن سركما أن يعيش لكماولد فسمياه عبد الحارث فهو قوله تعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما قرىء شركا بكسر الشين مع التنوين ومعناه

قالت: ما أدري: إني أخاف أن يكون بهيمة أو كلباً أو خنزيراً وما يدريك من أين يخرج من دبرك فيقتلك أو من فِيك وينشقّ بطنك، فخافت حوّاء من ذلك، وذكرت ذلك لآدم عليه السلام فلم يَزَالاَ في همّ من ذلك، ثم عاد إليها فقال: إني من الله بمنزلة فإن دعوتُ الله أن يجعله خلقاً سويّاً مثلك ويسهّل عليك خروجه أسمّيته عبد الحارث؟ وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث، فذكرت ذلك لآدم، فقال: لعلّه صاحبنا الذي قد علمت، فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتى غرّهما، فلما ولدت سمّياه عبد الحارث قال الكلبي: قال إبليس لها إن دعوت الله فولدت إنساناً أتسمينه بي؟ قالت: نعم، فلما ولدت قال: سمّيه بي، قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، ولو سمّى لها نفسه لعرفته فسمّته عبد الحارث. ورُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت حوّاء تلد لآدم فيسمّيه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس وقال: إن سرّكما أن يعيش لكما ولد فسمّياه عبد الحارث، فولدت فسمّياه عبد الحارث فعاش. وجاء في الحديث: «خَدَعَهُما إبليس مرتين مرة في الجنة ومرة في الأرض»، وقال ابن زيد: ولد لآدم ولد فسمّاه عبد الله فأتاهما إبليس فقال: ما سمّيتما ابنكما؟ قال: عبد الله، وكان قد ولد لهما قبل ذلك ولد فسمّياه عبد الله فمات، فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما والله ليذهبنّ به كما ذهب بالآخرين، ولكن أدلّكم على اسم يبق لكما ما بقيتما فسمّياه عبد شمس. والأول أصحّ، فذلك قوله:

﴿ **فلما آتاهما صالحاً** ﴾، بشراً سويّاً ﴿ **جعلا له شُرَكَاءَ فيما آتاهما** ﴾، قرأ أهل المدينة وأبو بكر شركا بكسر الشين والتنوين، أي: شركة، قال أبو عبيدة: أي حظّاً ونصيباً، وقرأ الآخرون «شـركاء» بضمّ الشين ممدوداً على

شركة وقال أبو عبيدة معناه حظاً ونصيباً وقرىء شركاء بضم الشين مع المد جمع شريك يعني إبليس عبر عن الواحد بلفظ الجمع يعني جعلا له شريكاً إذ سميا ولدهما عبد الحارث. قال العلماء: ولم يكن ذلك شركاً في العبادة ولا أن الحارث رب لهما لأن آدم عليه الصلاة والسلام كان نبياً معصوماً من الشرك ولكن قصد بتسميتهما الولد بعبد الحارث أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامته وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما قال الشاعر:

وإنـي لعبـد الضيـف ما دام ثاويـاً

أخبر عن نفسه أنه عبد الضيف ما أقام عنده مع بقاء الحرية عليه وإنما أراد بالعبودية خدمة الضيف والقيام بواجب حقوقه كما يقوم العبد بواجب حقوق سيده. وقد يطلق اسم الرب بغير الألف واللام على غير الله كقول يوسف عليه الصلاة والسلام لعزيز مصر «إنه ربي أحسن مثواي» أراد به التربية ولم يرد به أنه ربه ومعبوده فكذلك هنا وإنما أخبر عن آدم عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى: **﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾** لأن حسنات الأبرار سيئآت المقربين ولأن منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فعاتبه الله على ذلك لأنه نظر إلى السبب ولم ينظر إلى المسبب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. قال العلماء: وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله فيما آتاهما ثم ابتدأ في الخبر عن الكفار بقوله تعالى: **﴿فتعالى الله عما يشركون﴾** نزه نفسه سبحانه وتعالى عن إشراك المشركين من أهل مكة وغيرهم وهذا على العموم، ولو أراد آدم وحواء لقال سبحانه وتعالى فتعالى الله عما يشركان على التثنية لا على الجمع وقال بعض أهل المعاني: ولو أراد به ما سبق في معنى الآية فمستقيم أيضاً من حيث إنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك في التسمية فكان الأولى أن يسمياه عبد الله لا عبد الحارث وفي معنى الآية قول آخر وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة ومعناه وجعل أولادهما له شركاء فحذف ذكر الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء بقوله: **﴿ثم اتخذتم العجل وإذ قتلتم نفساً﴾** فعير به الهيود الذين كانوا موجودين في زمن النبي ﷺ وكان ذلك من فعل آبائهم وقال عكرمة: خاطب كل واحد من الخلق بقوله: **﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾** أي خلق كل واحد من أبيه وجـعل منها زوجها أي وجعل من جنسها زوجها آدمية مثله وهذا قول حسن إلا أن القول وورد الحديث بذلك عن النبي ﷺ وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهّودوهم

جمع شريك يعني إبليس، أخبر عن الواحد بلفظ الجمع، أي: جعلا له شريكاً إذ سمّياه عبد الحارث، ولم يكن هذا إشراكاً في العبادة ولا أن الحارث ربُّهما فإن آدم كان نبيّاً معصوماً من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يطلق اسم العبد على مَن يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمّي نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف ربّه، ويقول للغير: أنا عبدك، وقال يوسف لعزيز مصر: إنه ربّي ولم يرد به أنه معبوده كذلك هذا. وقوله: **﴿ فتعالى اللَّهُ عمّا يُشرِكُون ﴾**، قيل: هذا ابتداء كلام وأراد به إشراك أهل مكة، ولئن أراد به ما سبق فمستقيم من حيث أنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك في الاسم، وفي الآية قول آخر: وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذريّة آدم، وهو قول الحسن وعكرمة، ومعناه: جعل أولادهما شركاء فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء في تعييرهم بفعل الآباء إلى الأبناء فقال: ثم اتخذتم العجل، وإذْ قتلتم نفساً خاطب به اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، وكان ذلك الفعل من آبائهم. وقيل: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوَّدُوا ونصَّرُوا. وقال ابن كيسان: هم الكفّار سمّوا أولادهم عبد العزّى وعبد اللاّت وعبد مناة. وقال عكرمة: خاطب كل واحد من الخلق بقوله خلقكم أي خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها، أي: جعل من جنسها زوجها، وهذا قول الحسن، لولا قول السلف

ونصّروهم وقال ابن كيسان: هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى وعبد شمس وعبد الدار ونحو ذلك.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أيشركون﴾ قرىء بالتاء على خطاب الكفار، وقرىء بالياء على الغيبة ﴿ما لا يخلق شيئاً﴾ يعني إبليس والأصنام ﴿وهم يخلقون﴾ أي وهم مخلوقون.

فإن قلت: كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون؟

قلت: إن لفظة «ما» تقع على الواحد والإثنين والجمع فهي من صيغ الواحدان بحسب ظاهر اللفظ ومحتملة للجمع بحسب المعنى فوحد قوله ما لا يخلق رعاية الحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله وهم يخلقون رعاية لجانب المعنى.

فإن قلت: كيف جمع بالواو وبالنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس؟

قلت: لما اعتقد عابدو الأصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا الجمع بناء على ما يعقدونه ويتصورونه.

وقوله تعالى: ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ يعني أن الأصنام لا تقدر على نصر من أطاعها وعبدها ولا تضر من عصاها والنصر، المعونة على الأعداء. والمعنى أن المعبود الذي تجب عبادته يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضر وهذه الأصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها ثم قال تعالى: ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ يعني ولا يقدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم مكروهاً فإن من أراد كسرها قدر عليه وهي لا تقدر على دفعه عنها.

ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ يعني وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى ﴿لا يتبعوكم﴾ لأن الله سبحانه وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية ﴿سواء عليكم أدعوتموهم﴾ إلى الدين والهداية ﴿أم أنتم صامتون﴾ أي ساكتون عن دعائهم فهم في كلا الحالين لا يؤمنون. وقيل إن الله سبحانه وتعالى لما بيّن في الآية المتقدمة عجز الأصنام بيّن في هذه الآية أنه لا علم لها بشيء البتة؛ والمعنى أن هذه الأصنام التي يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها إلى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى

مثل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن المسيب وجماعة من المفسّرين أنه في آدم وحوّاء.

قوله تعالى: ﴿ أَيُشرِكُونَ مَا لَا يَخلقُ شيئاً ﴾، يعني: إبليس والأصنام، ﴿ وهم يُخلقون ﴾، أي: هم مخلوقين.

﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ﴾، الأصنام، أي: لا تنصر مَن أطاعها، ﴿ ولا أنفسَهُمْ ينصرُون ﴾، قال الحسن: لا يدفعون عن أنفسهم مكروه مَن أراد بهم بكسر أو نحوه ثم خاطب المؤمنين فقال:

﴿ وإنْ تدْعُوهم إلى الهُدَى ﴾، وإن تدعوا المشركين إلى الإسلام، ﴿ لا يتَّبِعُوكم ﴾، قرأ نافع بالتخفيف وكذلك: ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ في [الشعراء: ٢٢٤] وقرأ الآخرون بالتشديد فيهما وهما لغتان، يقال؛ تبعه تبعاً واتّبعه اتّباعاً. ﴿ سواءٌ عليكم أدعوتُموهم ﴾، إلى الدين، ﴿ أمْ أنتمْ صَامِتُون ﴾، عن دعائهم لا يؤمنون، كما قال:

بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ وذلك أن المشركين كانوا إذا وقعوا في شدة وبلاء تضرعوا لأصنامهم فإذا لم تكن لهم إلى الأصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم للأصنام أو سكوتكم عنها فإنها عاجزة في كل حال.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ يعني أن الأصنام التي يعبدها هؤلاء المشركون إنما هي مملوكة لله أمثالهم وقيل إنها مسخرة مذللة مثل ما أنتم مسخرون مذللون قال مقاتل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عباد أمثالكم﴾ أنها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة والقول الأول أصح وفيه سؤال وهو أنه وصفها بأنها عباد مع أنها جماد.

والجواب أن المشركين لما ادعوا أن الأصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الألفاظ على وفق معتقدهم تبكيتاً لهم وتوبيخاً ولذلك قال عز وجل: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ في كونها آلهة وجواب آخر وهو أن هذا اللفظ إنما ورد في معرض الاستهزاء بالمشركين والمعنى أن قصارى هذه الأصنام التي تعبدونها أحياء عاقلة على معتقدكم فهم عباد الله أمثالكم ولا فضل لهم عليكم فلما عبدتموهم وجعلتموهم آلهة وجعلتم أنفسكم لهم عبيداً ثم وصفهم بالعجز فقال تعالى:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ يعني أن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح الأربعة فإنها آلات يستعين بها الإنسان في جميع أموره والأصنام ليس لها من هذه الأعضاء والجوارح شيء فهم مفضلون عليها بهذه الأعضاء لأن الرجل الماشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك

﴿ سواءٌ عليهم أأنذرْتَهم أمْ لَمْ تُنذرْهم لا يُؤمنون ﴾ [يَس: ١٠، البقرة: ٦] وقيل: وإن تدعهم إلى الهدى يعني الأصنام لا يتبعوكم لأنها غير عاقلة.

﴿ إنّ الذين تدعُون من دُونِ الله ﴾، يعني الأصنام، ﴿ عبادٌ أمثالُكم ﴾، يريد أنها مملوكة أمثالكم. وقيل: أمثالكم في التسخير، أي: أنهم مسخّرون مذلّلون لما أُريد منهم. قال مقاتل: قوله عبادٌ أمثالكم أراد به الملائكة، والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة. والأول أصحّ. ﴿ فادْعُوهم فليستجيبُوا لكم إنْ كنتُم صادقين ﴾، أنها آلهة. قال ابن عباس: فاعبدوهم هل يثيبونكم أو يجازونكم إن كنتم صادقين أن لكم عندها منفعة. ثم بيّن عجزهم فقال:

﴿ أَلَهُمْ أَرْجلٌ يمشونَ بها أمْ لهمْ أيـدٍ يَبْطِشُون بها ﴾، قرأ أبو جعفر بضم الهاء هنا وفي القصص والدخان، وقرأ الآخرون بكسر الطاء، ﴿ أمْ لهم أعينٌ يُبْصِرُون بها أمْ لهم آذانٌ يسمعونَ بها ﴾، أراد أن قدرة المخلوقين تكون بهذه الجوارح والآلات، وليست للأصنام هذه الآلات، فأنتم مفضَّلُون عليها بالأرجل الماشية والأيدي الباطشة

والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان أن الإنسان أفضل من هذه الأصنام العاجزة بكثير بل لا فضل لها البتة لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وإذا كان لا فضل له البتة ولا يضر ولا ينفع فامتنع بهذه الحجة كون الأصنام آلة ثم قال تعالى: ﴿**قل ادعوا شركاءكم**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم هذه الأصنام التي تعبدونها حتى يتبين عجزها ﴿**ثم كيدون**﴾ يعني أنتم وشركاؤكم وهذا متصل بما قبله في استكمال الحجة عليهم لأنهم لما قرّعوا بعادة من لا يملك ضراً ولا نفعاً قيل لمحمد ﷺ قل إن معبودي يملك الضر والنفع فلو اجتهدتم في كيدي لم تصلوا إلى ضري لأن الله يدفع عني، وقال الحسن كانوا يخوفونه بآلهتهم فقال الله تعالى قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون ﴿**فلا تنظرون**﴾ أي لا تمهلون واعجلوا في كيدي أنتم وشركاؤكم ﴿**إن وليي الله**﴾ يعني أن الذي يتولى حفظي وينصرني عليكم هو الله ﴿**الذي نزل الكتاب**﴾ يعني القرآن، المعنى كما أيدني بإنزال القرآن علي كذلك يتولى حفظي وينصرني ﴿**وهو يتولى الصالحين**﴾ يعني يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر. قال ابن عباس: يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئاً ولا يعصونه وفي هذا مدح للصالحين لأن من تولاه الله يحفظه فلا يضره شيء.

قوله عز وجل: ﴿**والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون**﴾ هذه الآية قد تقدم تفسيرها، والفائدة في تكريرها أن الآية الأولى مذكورة على جهة التقريع والتوبيخ وهذه الآية مذكورة على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وهو الله الذي يتولى الصالحين بنصره وحفظه وبين هذه الأصنام وهي ليست كذلك فلا تكون معبودة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**﴾ قال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه وإن تدعوا إليها المؤمنون المشركين إلى الهدى لا يسمعوا دعاءكم لأن آذانهم قد صمّت عن سماع الحق وتراهم ينظرون إليك يا محمد وهم لا يبصرون يعني ببصائر قلوبهم وذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه الآية أيضاً واردة في صفات الأصنام لأنها جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر.

قوله تعالى: ﴿**خذ العفو**﴾ العفو هنا الفضل وما جاء بلا كلفة والمعنى: اقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقصِ عليهم فيستقصوا عليك فتتولد منه العداوة والبغضاء. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار منهم وترك البحث عن الأشياء والعفو التساهل في كل شيء (خ) عن عبد الله بن الزبير قال: ما نزلت خذ العفو وأمر بالعرف إلا في أخلاق الناس وفي رواية قال أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ

والأعين الباصرة والآذان السامعة، فكيف تعبدون مَن أنتم أفضل وأقدر منهم؟ ﴿ قل ٱدْعُوا شُرَكاءَكم ﴾، يا معشر المشركين، ﴿ ثمّ كِيدُونِ ﴾، أنتم وهم، ﴿ فلا تُنْظِرُون ﴾، أي: لا تمهلوني وأعجلوا في كيدي.

قوله: ﴿ إنّ وليّيَ ٱللّهُ الذي نزّل الكتاب ﴾، يعني القرآن، أي أنه يتولاّني وينصرني كما أيّدني بإنزال الكتاب، ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذين لا يعدلون بالله شيئاً فاللّهُ يتولاّهم بنصره فلا يضرّهم عداوة مَن عاداهم.

﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾.

﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ﴾، يعني الأصنام، ﴿ وتراهم ﴾ يا محمد ﴿ ينظرون إليك ﴾، يعني الأصنام، ﴿ وهم لا يُبصرُون ﴾، وليس المراد من النظر حقيقة النظر إنما المراد منه المقابلة، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، أي: تقابلها. وقيل: وتراهم ينظرون إليك أي: كأنهم ينظرون إليك، كقوله تعالى: ﴿ وترى النّاسَ

العفو من أقوال الناس وكذا في جامع الأصول وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي قال أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أقوال الناس أو كما قال: وقال ابن عباس يعني خذ ما عفا لك من أموالهم فما أتوك به من شيء فخذه وكان هذا قبل أن تتنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه وقال السدي خذ العفو أي الفضل من المال نسختها آية الزكاة، وقال الضحاك: خذ ما عفا من أموالهم وهذا قبل أن تفرض الصدقة المفروضة ﴿وأمر بالعرف﴾ يعني وأمر بكل ما أمرك الله به وهو ما عرفته بالوحي من الله عز وجل وكل ما يعرفه الشارع وقال عطاء وأمر بقول لا إله إلا الله ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يصفح عن الجاهلين وهذا قبل أن يؤمر بقتال الكفار فلما أمر بقتالهم صار الأمر بالإعراض عنهم منسوخاً بآية القتال، قال بعضهم: أول هذه الآية وآخرها منسوخ، ووسطها محكم يريد ينسخ أولها أخذ الفضل من الأموال فنسخ بفرض الزكاة والأمر بالمعروف محكم والإعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال روي أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما هذا؟ قال لا أدري حتى أسأل. ثم رجع فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ذكره البغوي بغير سند. وقال جعفر الصادق: أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه.

عن عائشة قالت «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح» أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال» قوله عز وجل:

سُكارَى ﴾ [الحج: ٢]، أي: كأنهم سُكارى هذا قول المفسرين. وقال الحسن: ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى ﴾ يعني المشركين لا يسمعوا ولا يعقلوا ذلك بقلوبهم وتراهم ينظرون إليك بأعينهم وهم لا يبصرون بقلوبهم.

قوله تعالى: ﴿ خُذِ العفوَ ﴾، قال عبد الله بن الزبير: أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: خذ العفو يعني العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسّس، وذلك مثل قبول الاعتذار. والعفو: المساهلة وترك البحث عن الأشياء ونحو ذلك. ورُوِيَ أنه لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا»؟ قال: لا أدري حتى أسأله، ثم رجع فقال: «إنّ ربّك يأمرك أن تصل مَن قطعك وتعطي مَن حرمك وتعفو عمّن ظلمك». وقال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي والضحاك والكلبي: يعني خُذْ ما عفا لك من الأموال وهو الفضل من العيال، وذلك معنى قوله: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قلِ العفو ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم نسخت هذه بالصدقات المفروضات. قوله تعالى: ﴿ وأْمر بالعُرْفِ ﴾ أي: بالمعروف، وهو كل ما يعرفه الشرع. وقال عطاء: وأمرْ بالعُرف يعني بلا إله إلّا الله. ﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾، أبي جهلٍ وأصحابه، نسختها آية السيف. وقيل: إذا تسفّه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، وذلك مثل قوله: ﴿ وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وذلك سلام المُتاركة. قال جعفر الصادق: أمر الله نبيّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجرجاني ثنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي ثنا هيثم بن كليب ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمد بن بشّار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبد الله الجدلي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح». ثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي ثنا أبو سعيد عبد الملك ابن أبي عثمان الواعظ ثنا عمّار بن محمد البغدادي ثنا أحمد بن محمد عن سعيد الحافظ ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمر بن إبراهيم يعني الكوفي ثنا يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللّهَ بعثني لتمام مكارم الأخلاق وإتمام محاسن الأفعال».

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ قال ابن زيد «لما نزل قوله سبحانه وتعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال النبي ﷺ فكيف بالغضب يا رب فأنزل الله عز وجل: وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. ونزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب. وقيل النزغ الانزعاج وأكثر ما يكون عند الغضب وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشر والإفساد. يقال: نزغت بين القوم إذا أفسدت بينهم. وقال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة والمعنى وإما يصيبنك يا محمد ويعرض لك من الشيطان وسوسة أو نخسة ﴿فاستعذ بالله﴾ يعني فاستجر بالله والجأ إليه في دفعه عنك ﴿إنه سميع﴾ يعني لدعائك ﴿عليم﴾ بحالك وقيل إن الشيطان يجد مجالاً في حمل الإنسان على ما لا ينبغي في حالة الغضب والغيظ فأمر الله بالالتجاء إليه والتعوذ به في تلك الحالة فهي تجري مجرى العلاج لذلك المرض.

(فصل واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية)

فقالوا لو كان النبي معصوماً لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج إلى الاستعاذة والجواب عنه من وجوه، الأول: أن معنى الكلام إن حصل في قلبك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله وإنه لم يحصل له ذلك البتة فهو كقوله لئن أشركت وهو بريء من الشرك البتة. والوجه الثاني: على تقدير أنه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله عز وجل عصم نبيه ﷺ عن قبولها وثبوتها في قلبه (م) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» قال الشيخ محيي الدين النووي يروى فأسلم بفتح الميم وضمها فمن رفع قال معناه فأسلم أنا من شره وفتنته ومن فتح قال معناه أن القرين أسلم من الإسلام يعني صار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير. قال الخطابي: الصحيح المختار الرفع ورجح القاضي عياض الفتح قال الشيخ وهو المختار لقوله فلا يأمرني إلا بخير. قال القاضي عياض: واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه أعلمنا أنه معنا لنحترز عنه بحسب الإمكان والله أعلم. الوجه الثالث: يحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره ومعناه وإما ينزغنك أيها الإنسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله فهو كقوله فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف﴾ وقرىء طيف ﴿من الشيطان﴾ وهما لغتان ومعناه

قوله تعالى: ﴿ وإمّا ينزغنّك منَ الشيطان نَزْغٌ ﴾، أي: يصيبنّك ويعتريك ويعرض لك من الشيطان نزغ نخسة. والنزغ من الشيطان الوسوسة. وقال الزجّاج: النزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة. وقال عبد الرحمن بن زيد: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ خُذِ العفوَ ﴾، قال النبي ﷺ: «كيف يا رب والغضب»، فنزل: ﴿ وإمّا ينزغنّك منَ الشيطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بالله ﴾، أي: استجرْ بالله ﴿ إنّه سميعٌ عليم ﴾.

﴿ إنّ الذين اتّقوا ﴾، يعني المؤمنين، ﴿ إذا مسّهمْ طائفٌ مِّنَ الشيطان ﴾، قرأ ابن كثير وأهل البصرة والكسائي: «طيف» ، وقرأ الآخرون ﴿ طائف ﴾ بالمدّ والهمز وهما لغتان كالميت والمائت، ومعناهما: الشيء يلمّ بك. وفرّق قوم بينهما، فقال أبو عمرو: الطائف ما يطوف حول الشيء، والطيف: اللمّة والوسوسة. وقيل:

الشيء يلم بالإنسان وقيل بينهما فرق فالطائف ما يطوف حول الإنسان والطيف الوسوسة. وقيل الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللمم والمس. قال الأزهري: الطيف في كلام العرب الجنون وقيل للغضب طيف لأن الغضبان يشبه المجنون. وقيل سمي الجنون والغضب والوسوسة طيفاً لأنه لمة من الشيطان تشبه لمة الخبال فذكر في الآية الأولى النزغ وهو أخف من الطيف المذكور في هذه الآية لأن حالة الشيطان مع الأنبياء أضعف من حاله مع غيرهم ﴿تذكروا﴾ يعني عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضب فيذكر الله فيكظم غيظه. وقال مجاهد: هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه ﴿فإذا هم مبصرون﴾ يعني أنهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر والتفكر. وقال السدي: إذا زلوا تابوا وقال مقاتل: هو الرجل إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنه معصية فأبصر ونزع عن مخالفة الله عز وجل:

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

﴿وإخوانهم﴾ يعني وإخوان الشياطين من المشركين ﴿يمدونهم﴾ أي يمدهم الشياطين ﴿في الغي﴾ قال الكلبي لكل كافر أخ من الشياطين يمدونهم أي يطيلون لهم في الإغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم في الضلالة ﴿ثم لا يقصرون﴾ يعني لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لأن المؤمن إذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر في ضلالته لا يتذكر ولا يرعوي. وقال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ولا الشياطين يمسكون عنه فعلى هذا القول يحمل قوله لا يقصرون على فعل الإنس والشياطين جميعاً.

قوله عز وجل: ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ يعني وإذا لم تأت المشركين يا محمد بآية ومعجزة باهرة ﴿قالوا﴾ يعني قال المشركون ﴿لولا اجتبيتها﴾ يعني افتعلتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبت الكلام إذا اختلقته وافتعلته. وقال الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنتا فإذا تأخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها يعني هلا أحدثتها وأنشأتها من عندك ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات ﴿إنما أتبع ما يوحي إلي من ربي﴾ يعني القرآن الذي أنزل عليّ وليس لي أن أقترح الآيات والمعجزات ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ يعني هذا

الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان، والطيف اللمم والمسّ. ﴿ تذكَّرُوا ﴾، عرفوا، قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله تعالى فيكظم للغيظ. وقال مجاهد: الرجل يهمّ بالذنب فيذكر الله فيدعه. ﴿ فإذا همْ مُبصرون ﴾، أي يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكّر والتفكّر. قال السدي: إذا زلّوا تابوا. وقال مقاتل: إن المتّقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكّر وعرف أنه معصية، فأبصر فنزغ عن مخالفة الله.

قوله: ﴿ وإخوانُهم يَمُدُّونَهم ﴾، يعني إخوان الشياطين من المشركين يمدّونهم، أي: يمدّهم الشيطان. قال الكلبي: لكل كافر أخٌ من الشياطين. ﴿ في الغيّ ﴾، أي: يطلبون لهم الإغواء حتى يستمرّوا عليه. وقيل: يزيدونهم في الضلالة. وقرأ أهل المدينة: «يُمِدّونَهم» بضم الياء وكسر الميم من الإمداد والآخرون بفتح الياء وضمّ الميم وهما لغتان بمعنى واحد. ﴿ ثم لا يُقْصِرُون ﴾، أي: لا يكفّون. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا الإنس يقصرون عمّا يعملون من السيئات ولا الشياطين يمسكون عنهم، فعلى هذا قوله: ﴿ ثم لا يُقْصِرُون ﴾ من

القرآن حجج وبرهان وأصلَ البصائر من الإبصار وهو ظهور الشيء حتى يبصره الإنسان ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب ﴿وهدى﴾ يعني وهو هدى ﴿ورحمة﴾ يعني وهو رحمة من الله ﴿لقوم يؤمنون﴾ وهنا لطيفة وهي الفرق بين هذه المراتب الثلاث وذلك أن الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم والمستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن في حق الأولين وهم السابقون بصائر وفي حق القسم الثاني وهم المستدلون هدى وفي حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة.

قوله تعالى: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى عظم شأن القرآن بقوله هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أتبعه بما يجب من تعظيم شأنه عند قراءته فقال سبحانه وتعالى: وإذا قرىء عليكم أيها المؤمنون القرآن فاستمعوا له يعني أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وأنصتوا يعني عند قراءته والإنصات السكوت للاستماع. يقال: نصت وأنصت وانتصت بمعنى واحد. واختلف العلماء في الحال التي أمر الله عز وجل بالاستماع لقارىء القرآن والإنصات له إذا قرأ لأن قوله فاستمعوا له وأنصتوا أمر.

وظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك أقوال:

القول الأول: وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجري هذه الآيات على العموم ففي أي وقت وأي موضع قرىء القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت.

والقول الثاني: إنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة روي عن أبي هريرة أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكون والاستماع لقراءة القرآن. وقال عبد الله: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان قال فجاء القرآن وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا.

القول الثالث: إنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام روى عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآية في رفع

فعل المشركين والشياطين جميعاً. قال الضحّاك ومقاتل: يعني المشركين لا يُقْصِرون عن الضلالة ولا يُبصرونها، بخلاف ما قال في المؤمنين: ﴿ تذكّروا فإذا هم مُبْصِرون ﴾.

﴿ وإذا لم تأتِهم بآية ﴾، يعني: إذا لم تأتِ المشركين بآية، ﴿ قالوا لولا اجْتَبَيْتَها ﴾، هلاّ افتعلتها وأنشأتها مِنْ قبلِ نفسك واختيارك؟ تقول العرب: اجتبيتُ الكلام إذا اختلقتُه قال الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنّتاً فإذا تأخرت قالوا: لولا اجتبيتها؟ أي: هلاّ أحدثتها وأنشأتها من عندك؟ ﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إنّما أتّبعُ ما يُوحَى إليّ من ربّي ﴾، ثم قال: ﴿ هذا ﴾، يعني: القرآن ﴿ بَصَائِرُ ﴾، حجج وبيان وبرهان؟ ﴿ منْ ربّكم ﴾، واحدتها بصيرة، وأصلها ظهور الشيء واستحكامه حتى يبصره الإنسان، فيهتدي به يقول: هذه دلائل تقودكم إلى الحق. ﴿ وهُدىً ورحمةٌ لقوم يُؤمنون ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا قُرِئَ القرآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأنْصِتُوا لعلّكم تُرحَمُون ﴾، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فذهب جماعة إلى أنها في القراءة في الصلاة. رُوِيَ عن أبي هريرة أنّهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأُمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن. وقال قوم: نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام. روى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة. وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنّة والنار. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سمع

الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ. وعن ابن مسعود: أنه سمع ناساً يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفقهوا وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله. وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار.

القول الرابع: أنها نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء قال مجاهد: الإنصات للإمام يوم الجمعة. وقال عطاء وجب الصمت في اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن وعند الإمام وهو يخطب. وهذا القول قد اختاره جماعة وفيه بعد لأن الآية مكية والخطبة إنما وجبت بالمدينة واتفقوا على أنه يجب الإنصات حال الخطبة بدليل السنة وهو ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت» أخرجاه في الصحيحين واختلف العلماء في القراءة خلف الإمام فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسرّ. يروى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ وهو قول الأوزاعي وإليه ذهب الشافعي وذهب قوم إلى أن يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الإمام فيه، يروى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسرّ الإمام أو جهر. يروى ذلك عن جابر وإليه ذهب أصحاب الرأي حجة من لا يرى القراءة خلف الإمام ظاهر هذه الآية وحجة من قال يقرأ في السرية دون الجهرية قال إن الآية تدل على الأمر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الإمام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعاً بين دلائل الكتاب والسنة وحجة من أوجب القراءة خلف الإمام في صلاة السرية والجهرية قال الآية واردة في غير الفاتحة لأن دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام ولم يفرق بين السرية والجهرية. قالوا وإذا قرأ الفاتحة خلف الإمام تتبع سكناته ولا ينازعه في القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه ويدل عليه ما روى عن عبادة بن الصامت قال: «صلى رسول الله ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال أراكم تقرؤون وراء إمامكم قال قلنا: يا رسول الله أي والله قال لا تفعلوا إلا بأم القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها» أخرجه الترمذي بطوله

ناساً يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال: أمَا آن لكم أن تفقهوا وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله؟ وهذا قول الحسن والزهري والنخعي: أن الآية في القراءة في الصلاة. وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد: إن الآية في الخطبة، أُمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة. وقال سعيد بن جبير: هذا في الإنصات يوم الأضحى والفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام. وقال عمر بن عبد العزيز: الإنصات لقول كل واعظ. والأول أولاها، وهو أنها في القراءة في الصلاة لأنّ الآية مكيَّة والجمعة وجبت بالمدينة. واتفقوا على أنه مأمور بالإنصات حالة ما يخطب الإمام. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع ثنا الشافعي ثنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قُلْتَ لصاحبِكَ أَنْصِتْ والإمامُ يخطبُ يوم الجمعة فقد لغوت». واختلف أهل العلم في القراءة خلف الإمام في الصلاة فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسرّ. رُوِيَ ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومعاذ، وهو قول الأوزاعي والشافعي. وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه بالقراءة ولا يقرأ إذا جهر. رُوِيَ ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسرّ الإمام أو جهر، يُروى ذلك عن جابر، وبه قال الثوري وأصحاب الرأي، ويتمسك مَن لا يرى القراءة خلف الإمام بظاهر هذه الآية، ومن أوجبها قال الآية في غير الفاتحة وإذا قرأ الفاتحة يتبع سكتات الإمام ولا ينازع الإمام في القراءة، والدليل عليه ما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبـي ثنا أبو محمد عبد الجبار بن

وأخرجاه في الصحيحين أقصر منه قال: قال رسول الله ﷺ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج يقولها ثلاثاً غير تمام فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام قال اقرأ بها في نفسك» وذكر الحديث وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لعلكم ترحمون﴾ يعني لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به من أوامره ونواهيه.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين. قال ابن عباس: يعني بالذكر القرآن في الصلاة يريد اقرأ سراً في نفسك والفائدة فيه أن انتفاع الإنسان بالذكر إنما يكمل إذا وقع الذكر بهذه الصفة لأن ذكر النفس أقرب إلى الإخلاص والبعد عن الرياء وقيل المراد بالذكر في النفس أن يستحضر في قلبه عظمة المذكور جل جلاله وإذاكان الذكر باللسان عارياً عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لأن فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور عز وجل ﴿تضرعاً﴾ يقال ضرع الرجل يضرع ضراعه إذا خضع وذل واستكان لغيره ﴿وخيفة ودون الجهر من القول﴾ يعني وخوفاً والمعنى تضرع إليّ وخاف عذابي. وقال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت في الدعاء وهاهنا لطيفة وهي أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ فيه إشعار بقرب العبد من الله عز وجل وهو مقام الرجاء لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان فإذا تذكر العبد إنعام الله عليه وإحسانه إليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم أتبعه بقوله تضرعاً وخيفة وهذا مقام الخوف فإذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوي إيمانه والمستحب أن يكون الخوف أغلب على العبد في حال صحته وقوته فإذا قارب الموت ودنا آخر أجله فيستحب أن يغلب رجاؤه على خوفه. عن أنس بن مالك «أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك؟ قال أرجو الله يا رسول الله وإني أخاف ذنوبي فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو منه وآمنه مما يخاف» أخرجه الترمذي.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بالغدو﴾ جمع غدوة ﴿والآصال﴾ جمع أصيل وهي ما بين صلاة العصر إلى المغرب والمعنى اذكر ربك بالبكر والعشيات وإنما خص هذين الوقتين بالذكر لأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله عز وجل وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فإن الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لأنها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ يعني عما يقربك إلى الله عز وجل وقيل إن أعمال العبد تصعد أول النهار

محمد الجراحي ثنا أبو العباس المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا هنّاد ثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن مكحول عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال صلّى النبيُّ ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: «إنّي أراكم تقرؤون وراءَ إمامِكم»؟ قال: قال: قلنا يا رسول الله: إيْ والله، قال: «لا تفعلوا إلّا بأمِّ القرآن فإنه لا صلاة لِمَن لم يقرأ بها».

قوله تعالى: ﴿ واذكرْ ربَّكَ في نفسِكَ ﴾، قال ابن عباس: يعني بالذكر: القراءة في الصلاة، يريد يقرأ سرّاً في نفسه، ﴿ تضرّعاً وخِيفَةً ﴾، خوفاً، أي: تتضرع إليّ وتخاف منّي هذا في صلاة السرّ. وقوله: ﴿ ودُونَ الجهرِ منَ القولِ ﴾، أراد في صلاة الجهر لا تجهر جهراً شديداً بل في خفض وسكون، تُسمعُ مَنْ خلفك. وقال مجاهد

وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى المغرب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر وقيل: لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد أن يذكر الله في هذين الوقتين ليكون في جميع أوقاته مشتغلاً بما يقربه إلى الله عز وجل من صلاة أو ذكر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾

قوله عز وجل: ﴿إن الذين عند ربك﴾ يعني الملائكة المقربين لما أمر الله عز وجل رسوله ﷺ والمؤمنين بالذكر في حالة التضرع والخوف أخبر أن الملائكة الذين عنده مع علو مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ وطاعته لأنهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه عز وجل: ﴿ويسبحونه﴾ يعني وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان ربنا ﴿وله يسجدون﴾ لا لغيره.

فإن قلت: التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى لا يستكبرون عن عبادته لأنهما من جملة العبادة فكيف أفردهما بالذكر؟

قلت: أخبر الله عز وجل عن حال الملائكة أنهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته ثم أخبر عن صفة عبادتهم أنهم يسبحونه وله يسجدون ولما كانت الأعمال تنقسم إلى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال القلوب هي تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله: ويسبحونه. وعبر عن أعمال الجوارح بقوله: وله يسجدون وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيستحب للقارىء والمستمع أن يسجد عند قوله: وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم (ق) عن عبد الله بن عمر «أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته في غير وقت صلاة» (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويلتا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» (م) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرّع إليه في الدعاء والاستكانة، دون رفع الصوت والصياح بالدعاء. ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ولا تكنْ مِّنَ الغافلين ﴾، أي: بالبكر والعشيات، واحد آصال: أصيل، مثل يمين وأيمان، وهو ما بين العصر والمغرب.

﴿ إنَّ الذينَ عِنْدَ ربِّك ﴾، يعني الملائكة المقرّبين بالفضل والكرامة، ﴿ لا يَسْتَكْبِرُون ﴾، لا يتكبرون، ﴿ عَنْ عبادته ويُسَبِّحُونَه ﴾، وينزهونه ويذكرونه، فيقولون: سبحان الله. ﴿ ولَهُ يَسْجُدُون ﴾. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنبأنا أحمد بن الحسن الحيري أنبأنا حاجب بن أحمد الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا يعلى بن عبيد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السَّجدةَ فسجدَ اعتزلَ الشيطانُ يبكي، فيقول: يا ويله أُمِرَ هذا بالسجودِ فسجدَ فلَهُ الجنّةُ وأُمرتُ بالسجود فعصيت فليَ النار». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا محمد بن يوسف ثنا الأوزاعي عن الوليد بن هشام عن معدان قال: سألتُ ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قلت: حدّثني حديثاً ينفعني اللَّهُ به، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: « مَا مِنْ عَبْدٍ يسجدُ للّهِ سجدةً إلاّ رفعه اللَّهُ بها درجةً وحطَّ عنه بها سيئةً».

فهرس محتويات
الجزء الثاني
من تفسير الخازن والبغوي

فهرس المحتويات

تفسير سورة النساء

الآية: ١ .... ٣
الآيتان: ٢، ٣ .... ٤
الآية: ٤ .... ٨
الآية: ٥ .... ٩
الآية: ٦ .... ١٠
الآية: ٧ .... ١٥
الآية: ٨ .... ١٦
الآيتان: ٩، ١٠ .... ١٧
الآية: ١١ .... ١٩
الآية: ١٢ .... ٢٧
الآيات: ١٣ ـ ١٥ .... ٣٠
الآية: ١٦ .... ٣٢
الآية: ١٧ .... ٣٤
الآيتان: ١٨، ١٩ .... ٣٥
الآيات: ٢٠ ـ ٢٢ .... ٣٧
الآية: ٢٣ .... ٣٩
الآية: ٢٤ .... ٤٤
الآية: ٢٥ .... ٤٩
الآيات: ٢٦ ـ ٢٩ .... ٥٢
الآيتان: ٣٠، ٣١ .... ٥٤
الآية: ٣٢ .... ٥٧
الآية: ٣٣ .... ٥٩
الآية: ٣٤ .... ٦٠
الآية: ٣٥ .... ٦٣
الآية: ٣٦ .... ٦٥
الآية: ٣٧ .... ٦٩
الآيات: ٣٨ ـ ٤٠ .... ٧٠
الآيتان: ٤١، ٤٢ .... ٧٣
الآية: ٤٣ .... ٧٥
الآيات: ٤٤ ـ ٤٧ .... ٨٨
الآية: ٤٨ .... ٩١
الآيتان: ٤٩، ٥٠ .... ٩٢
الآية: ٥١ .... ٩٣
الآيات: ٥٢ ـ ٥٦ .... ٩٥
الآيتان: ٥٧، ٥٨ .... ٩٨
الآية: ٥٩ .... ١٠٠
الآية: ٦٠ .... ١٠٢
الآيتان: ٦١، ٦٢ .... ١٠٤
الآيات: ٦٣ ـ ٦٥ .... ١٠٥
الآيات: ٦٦ ـ ٦٨ .... ١٠٨
الآيتان: ٦٩، ٧٠ .... ١٠٩
الآيات: ٧١ ـ ٧٤ .... ١١٠
الآيتان: ٧٥، ٧٦ .... ١١٢
الآيتان: ٧٧، ٧٨ .... ١١٣
الآية: ٧٩ .... ١١٥
الآيتان: ٨٠، ٨١ .... ١١٧
الآيتان: ٨٢، ٨٣ .... ١١٨
الآيتان: ٨٤، ٨٥ .... ١٢٠
الآيتان: ٨٦، ٨٧ .... ١٢٢
الآية: ٨٨ .... ١٢٥
الآيتان: ٨٩، ٩٠ .... ١٢٦
الآية: ٩١ .... ١٢٨
الآية: ٩٢ .... ١٢٩

الآية: ٩٣ .... ١٣٣
الآية: ٩٤ .... ١٣٦
الآية: ٩٥ .... ١٣٨
الآية: ٩٦ .... ١٤٠
الآيتان: ٩٧، ٩٨ .... ١٤٢
الآيتان: ٩٩، ١٠٠ .... ١٤٣
الآية: ١٠١ .... ١٤٤
الآية: ١٠٢ .... ١٤٨
الآية: ١٠٣ .... ١٥٣
الآية: ١٠٤ .... ١٥٤
الآيتان: ١٠٥، ١٠٦ .... ١٥٥
الآيات: ١٠٧ ـ ١١٠ .... ١٥٧
الآيات: ١١١ ـ ١١٣ .... ١٥٨
الآية: ١١٤ .... ١٦٠
الآيتان: ١١٥، ١١٦ .... ١٦١
الآيات: ١١٧ ـ ١١٩ .... ١٦٢
الآيات: ١٢٠ ـ ١٢٣ .... ١٦٥
الآيتان: ١٢٤، ١٢٥ .... ١٦٧
الآيتان: ١٢٦، ١٢٧ .... ١٧٠
الآية: ١٢٨ .... ١٧١
الآيتان: ١٢٩، ١٣٠ .... ١٧٣
الآيات: ١٣١ ـ ١٣٣ .... ١٧٥
الآيات: ١٣٤ ـ ١٣٦ .... ١٧٦
الآيتان: ١٣٧، ١٣٨ .... ١٧٨
الآيات: ١٣٩ ـ ١٤١ .... ١٧٩
الآيات: ١٤٢ ـ ١٤٤ .... ١٨٢
الآيات: ١٤٥ ـ ١٤٨ .... ١٨٣
الآيات: ١٤٩ ـ ١٥١ .... ١٨٥
الآيات: ١٥٢ ـ ١٥٥ .... ١٨٦
الآيات: ١٥٦ ـ ١٥٨ .... ١٨٨
الآيتان: ١٥٩، ١٦٠ .... ١٩٠
الآيتان: ١٦١، ١٦٢ .... ١٩٣
الآية: ١٦٣ .... ١٩٥
الآيتان: ١٦٤، ١٦٥ .... ١٩٦
الآيات: ١٦٦ ـ ١٧٠ .... ١٩٨
الآية: ١٧١ .... ١٩٩
الآيات: ١٧٢ ـ ١٧٥ .... ٢٠٢
الآية: ١٧٦ .... ٢٠٣

تفسير سورة المائدة

الآية: ١ .... ٢٠٧
الآية: ٢ .... ٢٠٨
الآية: ٣ .... ٢١٢
الآية: ٤ .... ٢١٩
الآية: ٥ .... ٢٢٢
الآية: ٦ .... ٢٢٥
الآيات: ٧ ـ ٩ .... ٢٣٣
الآيتان: ١٠، ١١ .... ٢٣٤
الآية: ١٢ .... ٢٣٦
الآيتان: ١٣، ١٤ .... ٢٣٨
الآيات: ١٥ ـ ١٧ .... ٢٣٩
الآيات: ١٨ ـ ٢٠ .... ٢٤١
الآيتان: ٢١، ٢٢ .... ٢٤٣
الآيات: ٢٣ ـ ٢٦ .... ٢٤٥
الآية: ٢٧ .... ٢٥١
الآيات: ٢٨ ـ ٣٠ .... ٢٥٣
الآية: ٣١ .... ٢٥٥
الآية: ٣٢ .... ٢٥٧
الآية: ٣٣ .... ٢٦٠
الآية: ٣٤ .... ٢٦٢
الآيات: ٣٥ ـ ٣٨ .... ٢٦٣
الآيات: ٣٩ ـ ٤١ .... ٢٦٧
الآية: ٤٢ .... ٢٧٢
الآيتان: ٤٣، ٤٤ .... ٢٧٤
الآية: ٤٥ .... ٢٧٧
الآيات: ٤٦ ـ ٤٨ .... ٢٨٠
الآيتان: ٤٩، ٥٠ .... ٢٨١
الآيتان: ٥١، ٥٢ .... ٢٨٢
الآيتان: ٥٣، ٥٤ .... ٢٨٤
الآيتان: ٥٥، ٥٦ .... ٢٨٨
الآيات: ٥٧ ـ ٥٩ .... ٢٩٠

الآيات: ٦٠ ـ ٦٣ .... ٢٩١
الآية: ٦٤ .... ٢٩٣
الآيات: ٦٥ ـ ٦٧ .... ٢٩٦
الآيات: ٦٨ ـ ٧١ .... ٣٠٠
الآيات: ٧٢ ـ ٧٥ .... ٣٠٢
الآيات: ٧٦ ـ ٧٩ .... ٣٠٤
الآيات: ٨٠ ـ ٨٢ .... ٣٠٦
الآيات: ٨٣ ـ ٨٧ .... ٣١٠
الآية: ٨٨ .... ٣١٢
الآية: ٨٩ .... ٣١٣
الآيتان: ٩٠، ٩١ .... ٣١٧
الآيات: ٩٢ ـ ٩٤ .... ٣١٩
الآية: ٩٥ .... ٣٢١
الآية: ٩٦ .... ٣٢٥
الآيتان: ٩٧، ٩٨ .... ٣٢٧
الآيات: ٩٩ ـ ١٠١ .... ٣٢٩
الآيتان: ١٠٢، ١٠٣ .... ٣٣١
الآيتان: ١٠٤، ١٠٥ .... ٣٣٣
الآية: ١٠٦ .... ٣٣٦
الآيتان: ١٠٧، ١٠٨ .... ٣٣٩
الآيتان: ١٠٩، ١١٠ .... ٣٤١
الآيتان: ١١١، ١١٢ .... ٣٤٤
الآيات: ١١٣ ـ ١١٥ .... ٣٤٥
الآية: ١١٦ .... ٣٤٩
الآيتان: ١١٧، ١١٨ .... ٣٥٠
الآيتان: ١١٩ ـ ١٢٠ .... ٣٥١

تفسير سورة الأنعام

الآية: ١ .... ٣٥٣
الآيتان: ٢، ٣ .... ٣٥٥
الآيات: ٤ ـ ٧ .... ٣٥٦
الآيات: ٨ ـ ١١ .... ٣٥٨
الآيتان: ١٢، ١٣ .... ٣٥٩
الآيات: ١٤ ـ ١٧ .... ٣٦١
الآيات: ١٨ ـ ٢٠ .... ٣٦٣
الآيات: ٢١ ـ ٢٤ .... ٣٦٥
الآيتان: ٢٥، ٢٦ .... ٣٦٧
الآيات: ٢٧ ـ ٣٠ .... ٣٦٨
الآيات: ٣١ ـ ٣٣ .... ٣٧٠
الآيتان: ٣٤، ٣٥ .... ٣٧٣
الآيات: ٣٦ ـ ٣٨ .... ٣٧٤
الآيات: ٣٩ ـ ٤٣ .... ٣٧٦
الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ .... ٣٧٧
الآيات: ٤٧ ـ ٥١ .... ٣٧٨
الآية: ٥٢ .... ٣٨٠
الآيتان: ٥٣، ٥٤ .... ٣٨٣
الآيات: ٥٥ ـ ٥٧ .... ٣٨٥
الآيات: ٥٨ ـ ٦٠ .... ٣٨٦
الآيات: ٦١ ـ ٦٣ .... ٣٨٨
الآيتان: ٦٤، ٦٥ .... ٣٩٠
الآيات: ٦٦ ـ ٦٩ .... ٣٩٢
الآيتان: ٧٠، ٧١ .... ٣٩٤
الآيتان: ٧٢، ٧٣ .... ٣٩٥
الآيات: ٧٤ ـ ٧٦ .... ٣٩٧
الآيات: ٧٧ ـ ٨٠ .... ٤٠٣
الآيات: ٨١ ـ ٨٤ .... ٤٠٥
الآيات: ٨٥ ـ ٨٩ .... ٤٠٧
الآيتان: ٩٠، ٩١ .... ٤٠٨
الآيتان: ٩٢، ٩٣ .... ٤١٢
الآية: ٩٤ .... ٤١٤
الآيات: ٩٥ ـ ٩٨ .... ٤١٥
الآية: ٩٩ .... ٤١٩
الآيات: ١٠٠ ـ ١٠٢ .... ٤٢٠
الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٥ .... ٤٢٢
الآيات: ١٠٦ ـ ١٠٨ .... ٤٢٥
الآية: ١٠٩ .... ٤٢٧
الآيتان: ١١٠، ١١١ .... ٤٢٩
الآيتان: ١١٢، ١١٣ .... ٤٣٠
الآيات: ١١٤ ـ ١١٧ .... ٤٣٢
الآيات: ١١٨ ـ ١٢٠ .... ٤٣٤
الآيتان: ١٢١، ١٢٢ .... ٤٣٧

الآيتان: ١٢٣، ١٢٤ .... ٤٣٩
الآية: ١٢٥ .... ٤٤١
الآيات: ١٢٦ ـ ١٢٨ .... ٤٤٢
الآيتان: ١٢٩، ١٣٠ .... ٤٤٥
الآيات: ١٣١ ـ ١٣٤ .... ٤٤٧
الآيات: ١٣٥ ـ ١٣٧ .... ٤٤٩
الآيتان: ١٣٨، ١٣٩ .... ٤٥٢
الآيتان: ١٤٠، ١٤١ .... ٤٥٣
الآيتان: ١٤٢، ١٤٣ .... ٤٥٦
الآيتان: ١٤٤، ١٤٥ .... ٤٥٧
الآية: ١٤٦ .... ٤٦١
الآيتان: ١٤٧، ١٤٨ .... ٤٦٢
الآيات: ١٤٩ ـ ١٥١ .... ٤٦٤
الآية: ١٥٢ .... ٤٦٧
الآيتان: ١٥٣، ١٥٤ .... ٤٦٨
الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٨ .... ٤٧٠
الآية: ١٥٩ .... ٤٧٣
الآيات: ١٦٠ ـ ١٦٣ .... ٤٧٥
الآيتان: ١٦٤، ١٦٥ .... ٤٧٧

تفسير سورة الأعراف

الآيات: ١ ـ ٦ .... ٤٧٩
الآيات: ٧ ـ ٩ .... ٤٨١
الآيات: ١٠ ـ ١٢ .... ٤٨٣
الآيات: ١٣ ـ ١٧ .... ٤٨٦
الآيات: ١٨ ـ ٢٠ .... ٤٨٩
الآيتان: ٢١، ٢٢ .... ٤٩١
الآيات: ٢٣ ـ ٢٦ .... ٤٩٢
الآيتان: ٢٧، ٢٨ .... ٤٩٥
الآيتان: ٢٩، ٣٠ .... ٤٩٧
الآيات: ٣١ ـ ٣٣ .... ٤٩٩
الآيات: ٣٤ ـ ٣٧ .... ٥٠٢
الآيتان: ٣٨، ٣٩ .... ٥٠٤
الآيات: ٤٠ ـ ٤٣ .... ٥٠٦
الآية: ٤٤ .... ٥٠٩
الآيتان: ٤٥، ٤٦ .... ٥١٠
الآيات: ٤٧ ـ ٤٩ .... ٥١٣
الآيات: ٥٠ ـ ٥٣ .... ٥١٤
الآية: ٥٤ .... ٥١٦
الآيتان: ٥٥، ٥٦ .... ٥٢٠
الآيتان: ٥٧، ٥٨ .... ٥٢٣
الآيات: ٥٩ ـ ٦٢ .... ٥٢٦
الآيات: ٦٣ ـ ٦٧ .... ٥٢٨
الآيات: ٦٨ ـ ٧٢ .... ٥٣٠
الآية: ٧٣ .... ٥٣٦
الآيات: ٧٤ ـ ٧٧ .... ٥٣٧
الآيتان: ٧٨، ٧٩ .... ٥٣٨
الآيتان: ٨٠، ٨١ .... ٥٤٥
الآيات: ٨٢ ـ ٨٥ .... ٥٤٦
الآيات: ٨٦ ـ ٨٩ .... ٥٤٨
الآيات: ٩٠ ـ ٩٢ .... ٥٥٠
الآيات: ٩٣ ـ ٩٧ .... ٥٥٢
الآيات: ٩٨ ـ ١٠١ .... ٥٥٤
الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٧ .... ٥٥٦
الآيات: ١٠٨ ـ ١١٢ .... ٥٥٧
الآيات: ١١٣ ـ ١١٧ .... ٥٦٠
الآيات: ١١٨ ـ ١٢٥ .... ٥٦٢
الآيات: ١٢٦ ـ ١٢٨ .... ٥٦٣
الآيات: ١٢٩ ـ ١٣١ .... ٥٦٥
الآيتان: ١٣٢، ١٣٣ .... ٥٦٧
الآيات: ١٣٤ ـ ١٣٦ .... ٥٧٠
الآيات: ١٣٧ ـ ١٤٠ .... ٥٧٢
الآيات: ١٤١ ـ ١٤٣ .... ٥٧٤
الآية: ١٤٤ .... ٥٨٠
الآية: ١٤٥ .... ٥٨٢
الآية: ١٤٦ .... ٥٨٤
الآيات: ١٤٧ ـ ١٥٠ .... ٥٨٦
الآيات: ١٥١ ـ ١٥٣ .... ٥٨٨
الآيتان: ١٥٤، ١٥٥ .... ٥٨٩
الآيتان: ١٥٦، ١٥٧ .... ٥٩٣
الآيتان: ١٥٨، ١٥٩ .... ٥٩٧

الآيات: ١٦٠ ـ ١٦٢ .... ٥٩٩
الآيتان: ١٦٣، ١٦٤ .... ٦٠١
الآيات: ١٦٥ ـ ١٦٨ .... ٦٠٣
الآية: ١٦٩ .... ٦٠٥
الآيات: ١٧٠ ـ ١٧٢ .... ٦٠٧
الآيات: ١٧٣ ـ ١٧٥ .... ٦١٢
الآية: ١٧٦ .... ٦١٧
الآيتان: ١٧٧، ١٧٨ .... ٦١٨
الآيتان: ١٧٩، ١٨٠ .... ٦١٩
الآيات: ١٨١ ـ ١٨٣ .... ٦٢٣
الآيات: ١٨٤ ـ ١٨٧ .... ٦٢٤
الآيات: ١٨٨ ـ ١٩٠ .... ٦٢٧
الآيات: ١٩١ ـ ١٩٤ .... ٦٣١
الآيات: ١٩٥ ـ ١٩٩ .... ٦٣٢
الآيتان: ٢٠٠، ٢٠١ .... ٦٣٥
الآيات: ٢٠٢ ـ ٢٠٤ .... ٦٣٦
الآية: ٢٠٥ .... ٦٣٩
الآية: ٢٠٦ .... ٦٤٠

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان